

الدكتور فيليب حتي

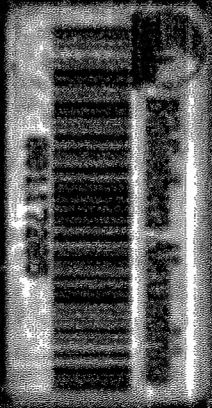
فنانح سبور رسترا
ولبنان وفلسطين

الأول - الثاني

ترجمة
الدكتور كمال السبازي

الدكتور فيليب حتي

دار الكتب - بيروت



تألیف سید زین العابدین
ولید بنان و فلسطین

ناتج سوريسترا ولبنان وفلسطين

تأليف
الدكتور فيليب حتي

الجزء الأول

ترجمة
الدكتور هورج ممداد
عبد الكريم رافيق

أشرف على المطبعته وتصميمه
الدكتور جبرائيل جبور

دار الثقافة - بيروت



This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA

BY

PHILIP K. HITTI

By permission of the author. Copyright in all countries
which are signatories to the Berne Convention

Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المساهمون في اخراج هذا الكتاب

المؤلف: الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت، فنال شهادة بكالوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨. ثم سافر الى اميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥. وعين بعد تخرجه استاذاً فيها.

وعندما انتهت الحرب العظمى عاد الى وطنه بطلب من الجامعة الأميركية، وعين استاذاً لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦. ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ العرب أولاً، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها. وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤، حين احيل على التقاعد. ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد. وهو الآن عضو في مجلس امناء جامعة بيروت الأميركية في الولايات المتحدة، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس.

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (المطول) وهو مترجم الى العربية ومثله تاريخ العرب الموجز، وتاريخ لبنان (المطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين، وتاريخ الشرق الادنى.

المترجمان: الدكتور جورج حداد

درس في جامعة بيروت الأميركية وجامعة باريس والمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو وشغل منصب رئيس قسم التاريخ في الجامعة السورية وهو الآن استاذ تاريخ في جامعة كاليفورنيا له عدة مؤلفات بالعربية والانجليزية عن تاريخ الحضارة في بلاد الشرق الادنى.

عبد الكريم رافق

تخرج من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة السورية بدرجة ليسانس وكان معيداً في ذلك القسم يوم سامم في ترجمة هذا الجزء سنة ١٩٥٨.

المراجع الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت سابقاً وهو الآن استاذ فخري. له عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن ابي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصره، وحياته، وجه وشعره، وابن عبد ربه وعقله. وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب للمؤلف وترجمتها.

مقدمة الطبعة الاولى

ان تاريخ سورية بمفهومها الجغرافي هو من وجهة معينة تاريخ العالم المتمدن بصورة مصغرة. وهو عبارة عن مقطع بياني لتاريخ مهد حضارتنا ولجانب هام من تراثنا الروحي والفكري. واذا ما اراد الانسان ان ينصف هذا التاريخ ويعطيه ما يستحق من اهتمام فان عليه بالاضافة الى امتلاك ناحية اللغات السامية القديمة ومعرفة المدونات العربية في العصور الوسطى ان يكون مطلعاً على المراجع اليونانية الرومانية وملماً بحقول الدراسات التركية والفارسية — وذلك عدا عن معرفة اللغات الاوربية الغربية الحديثة والمواد التاريخية التي كتبت بها.

ولا يدعي المؤلف ادراك هذه الامور كلها. فقد اقتصرت دراساته على ميدان الساميات وانحصرت ابحاثه ضمن نطاق الميدان العربي والاسلامي. غير انه تأثر بما رآه من وجود عدد كبير من الكتب والابحاث عن بعض مناطق سورية او عن فترات معينة من تاريخها الطويل المتنوع دون ان يكون هنالك كتاب واحد يعطي صورة شاملة متزنة لحياة البلاد كلها كوحدة منذ اقدم العصور حتى العصر الحاضر ولذلك وجد ما يشجعه على القيام بهذه المحاولة. ويجب ان نذكر ان فينيقي لبنان وعبراني فلسطين وعرب دمشق الذين كانوا جميعهم مواضيع ابحاث تاريخية عميقة نسبياً لا يمكن فهمهم تماماً ما لم يعالجوا كاجزاء متكاملة من شعب سورية الكبرى وما لم يعرض تاريخهم كأساس مشترك لحضارة الشرق الادنى المعاصر.

ولقد كانت هذه المهمة بعيدة عن السهولة. وكان من مشاكلها الرئيسية المحافظة في هذا التاريخ المتشعب على ذلك الخيط الذهبي الذي يراد به ربط الحوادث الهامة وذلك في حياة بلاد كانت عادة مرتبطة بدول اخرى او تابعة لها. وقد كان لمحاولة تمحيص المعلومات المتيسرة واستخدام عناصرها الاساسية وتفسير اتصالاتها وجمع كل ذلك في قصة متسلسلة يستفيد منها الطالب والانسان المثقف كان لهذه الامور كلها نواحيها الصعبة. فاذا كانت النتيجة التي لا تدعي صفة الابتكار ولا تطمح الى ان تكون ذات صفة نهائية تكفي لسد حاجتنا اليوم الى كتاب مبسط وموطأ وصحيح يروي تاريخ شعب سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ويمكن استخدامه كأساس عام لفهم المشاكل المعقدة الكثيرة التي تحيط

بالقوميات الناشئة في تلك المناطق — فان جهودنا عند ذلك لم تذهب عبثاً. وقد قام المؤلف برحلتين كبيرتين في صيف ١٩٤٦ و ١٩٤٧ الى سورية وما يجاورها فجدد عهده بالمواقع القديمة والمشاهد التاريخية وحصل على اطلاع مباشر على الآراء والاتجاهات الحديثة. واذا كان حقاً ما قيل ان الحاضر لا يمكن فهمه الا بعد دراسة الماضي فان من الصواب ايضاً ان الماضي لا يمكن فهمه فهماً تاماً بدون التعرف الكافي على الحاضر.

وقد قرأ بعين النقد جماعة من الاختصاصيين في مختلف المواضيع والعصور فصول مخطوط هذا الكتاب التي عرضت عليهم وابدوا ملاحظاتهم القيمة. فالى جميع هؤلاء العلماء في هذه البلاد وخارجها ارفع آيات شكري. واذا كانت هنالك من أخطاء او نواح يبدو فيها شيء من التقصير فان المسؤولية انما تقع عليّ وحدي. واتقدم كذلك بالشكر الى طلابي الكثيرين الذين قرأوا المخطوط بكامله وافادوني بملاحظاتهم. وقد وضع معظم خرائط الكتاب الدكتور بايلي وايندر كما ان مؤسسة رزق حداد في نيويورك ساهمت بكرم في اعداد المخطوط للطبع ووضع الفهارس. آذار ١٩٥٠

فيليب حتي

مقدمة الطبعة الثانية

لم يكن تاريخ المنطقة التي تشملها مادة هذا الكتاب في اي عصر مضى موضع دراسة عميقة وابحاث واسعة — مع كل ما يرافق هذا التاريخ من نواح أثرية وانثروبولوجية ودينية وأدبية واقتصادية وسياسية — كما كان في السنوات القليلة الماضية. ولقد كان من نتائج دخول سورية والشرق الأدنى بكامله الذي تشكل قسماً منه في ميدان السياسة العالمية ان توجهت الانظار اليها. واهتم جيل جديد من العلماء المحليين الذين اتقوا دراستهم في الغرب وكذلك جماعة من طلاب العلم والاساتذة الأميركيين والأوربيين بدراسة تاريخها.

وقد استخدم المؤلف في تنقيح هذه الطبعة الثانية ما توصل اليه من نتائج هذه الابحاث الجديدة. ومن الطبيعي انه اخذ بعين الاعتبار ايضاً نقد المراجعين وملاحظات الزملاء والطلاب والمراسلين في كل انحاء العالم. وفضلاً عن ذلك فانه قام في السنوات الست الاخيرة بعدد من الزيارات الى هذه المنطقة ليجدد اطلاعه على المواقع والمشاهد القديمة وليتعرف الى مواقع جديدة. وفي هذه الاثناء كان يكتب مجلداً يرافق هذا الكتاب وموضوعه «لبنان في التاريخ» حيث اتيت له فرصة ضبط عدد كبير من الحقائق والمراجع.

وكانت النتيجة انه لا تكاد تخلو صفحة من الطبعة الاولى من تغيير او تصحيح او اكثر. وقد عدلت التواريخ القديمة وخاصة ارقام تواريخ مصر وسومر وبلاد بابل وفقاً لما سيمر بالتاريخ الموجز. واستبدلت الطبوعات القديمة للكتب التي استخدمت كمراجع في الهوامش بطبعات جديدة. واضيفت الى الخرائط اسماء الاماكن التي ادخلت في المتن كما اضيفت بعض الاسماء الى الفهارس. وصححت الاخطاء المطبعية التي امكن العثور عليها غير انه ليس ما يضمن ظهور اخطاء اخرى من هذا القبيل.

واننا نتوجه بشكرنا الى الكثيرين، الذين ساهموا في تنقيح هذه الطبعة، كما اننا نتوجه اليهم بشكر القراء الذين تعود عليهم هذه التنقيحات بالفائدة.

آذار ١٩٥٧

فليب حتي

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد حاولت في هذه الطبعة الجديدة الاحاطة بما استجد في تاريخ البلاد السورية واصلاح ما ورد من الاخطاء العلمية والمطبعية في الطبعة السابقة وتوحيد تهجئة الالفاظ التي وردت اسماء للاعلام والمدن والبلدان في متن الكتاب وحواشيه وفي الخرائط والفهرس. كذلك اعدت النظر في الرسوم فاستعيتض عن بعضها بما هو اكثر وضوحاً وقد ساهم معي في هذا العمل تلميذي سابقاً وزميلي الدكتور جبرائيل جبور واشرف على طبع الكتاب كما اشرف على طبع غيره من كتيبي المترجمة فله مني خالص الشاء والشكر

فيليب حتي

الفهرس

القسم الاول

عصر ما قبل التاريخ

الصفحة

٣	• • • • •	مكانة سورية في التاريخ	الفصل الاول
٧	• • • • •	المقدمات الحضارية : الادوات الحجرية	الفصل الثاني
		اقدم البقايا : الادوات الحجرية - اقدم الهياكل العظمية البشرية - الدور الاخير لعصر الحجري القديم - النار : الفحم - القطة - العمر الحجري الوسيط - الحضارة النطوفية - تدجين الحيوانات - الزراعة - حياة الاستقرار - الحياة العقلية - الفن - حضارة العصر الحجري الحديث - الحزف .	
٢٤	• • • • •	الادوات المعدنية	الفصل الثالث
		العمر النحاسي الحجري - الحضارة الفولية - الزراعة المتقدمة على الري - التركيب المرقى - التطور الفني .	
٣١	• • • • •	مسرح الحوادث	الفصل الرابع
		الهل الساحلي - السلسلة الغربية - لبنان - موطن اللاجئيين - الجليل - الكهوف - حوض الصدع والرحول - البقاع - الزلازل والبراكين - السلسلة الشرقية : لبنان الشرقي - حوران - بادية الشام .	
٤٨	• • • • •	البيئة الطبيعية	الفصل الخامس
		الاقليم - التاكل - الحياة النباتية - شجر الزيتون - الارز - الحياة الحيوانية - الحصان - الابل .	

القسم الثاني

الأزمنة الساميّة القديمة

الصفحة

٦١ الفصل السادس قدوم الساميين

اسم سورية والسوريين - العوامل التاريخية العمالة - الطريق
الدولي العظيم - التزاغ بين البدو والحضر - من هم الساميون ؟ -
شبه جزيرة العرب مهد الساميين .

٧٠ الفصل السابع الاموريون : اول شعب سامي رئيسي في سورية

دخول الاموريين - محفوعات ماري - الممر السوري - تحول
مركز الاموريين الى الجنوب - التفاق الدولي - الاموريون في
فلسطين - الديانة الامورية .

٨٥ الفصل الثامن الكنعانيون : ثاني شعب سامي رئيسي في سورية

كنعان - ممالك المدن - المدن الواقعة على جزر - اتحاد المدن
- الاقتصاد : الزراعة - الصناعة - صناعة المعادن - الناج -
الزجاج - صناعة الاقشة - الارجوان .

١٠٤ الفصل التاسع النشاط البحري والتوسع الاستعماري

الطرق البحرية - الملاحة - الدوران بحراً حول افريقيا -
المستعمرات - في اسبانيا - في اليونان - قرطاج .

١١٧ الفصل العاشر الآداب والديانة وسائر مظاهر الحياة

الابجدية - الكتابات الاثرية الفينيقية - اوغاريت - ديانة الحصب
- الالهة - المياكل - الاصنام - « الاماكن المرتفعة » -
عادات الفن .

١٣٦ . . . العلاقات الدولية مع مصر وغربي آسيا . . . الفصل الحادي عشر

الملكة القديمة - الملكة المتوسطة - قصة منوحي -
سورية في الامبراطورية المصرية - معركة مجدو - قادش
- نهارين - المخطاط السيادة المصرية - التأثير السوري في
مصر - العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر - بابل -
اشور - السيادة الكلدانية - التأثير الحضاري -
المكسوس - المكسوس في مصر - اقرس - الحوريون -
مملكة ميتاني - اللغة الحورية - بيليا الحوريين - الحثيون
- الملكة الحثية القديمة - الملكة الحثية الحديثة -
معاهدة مع مصر - صلة الحثيين بفلسطين - نظام الدولة
الحثية - اللغة الحثية - الديانة - من هم الحثييون ؟

١٧٤ . . . الآراميون : الشعب السامي الثالث الرئيسي . . . الفصل الثاني عشر

بنه ظهورهم في بلاد الرافدين - انتشارهم في شمالي سورية
- الدول الآرامية في ما بين النهرين - آرام دمشق -
معركة قرقر - حزائيل - التجار الآراميون - اللغة
الآرامية - الكتابات الآرامية - الحضارة المادية - حدد
الزائد - آثار غاتس .

١٩٠ الشعب العبراني . . . الفصل الثالث عشر

اصل العبرانيين - الدور القبلي - الخروج من مصر -
السكن في فلسطين - القضاة - الفلسطينيين - منهم
الحسن - الحديد .

٢٠٢ المملكة العبرانية . . . الفصل الرابع عشر

الملكة المتحدة - داود - سليمان في كل مجده - انقسام
المملكة - مملكة اسرائيل - نهاية اسرائيل - السامريون
- مملكة يهوذا - حزقيا - اصلاحات يوشيا - ايلم يهوذا
الاخيرة - سقوط اورشليم .

٢٢١ مظاهر الحضارة العبرانية . . . الفصل الخامس عشر

الطقوس المستمارة - الفن - الشؤون المنزلية - النعود
- الملوك الدينيون - الانبياء - عاموس الموحد الاول

الصفحة

— اشعيا وقنسية الله — ارميا والمهد الجديد — أنبياء
آخرون وفضلهم .

الفصل السادس عشر سورية تحت الحكم الفارسي : بين الفترة السامية
والفترة الهندية الاوربية

٢٣٨

سيادة الدولة البابلية الحديثة — سقوط الدولة البابلية الحديثة
— دولة علالية جديدة : الفرس — تنظيم الامبراطورية —
اعادة اليهود من السبي — الفرس في فينيقية — طرابلس
العاصمة الفيثيقية — صيدا تتحول الى رماد — مظاهر الحضارة .

القسم الثالث

العصر اليوناني الروماني

الفصل السابع عشر الاسكندر وخلفاؤه السلوقيون ٢٥٣

معركة ايسوس — مقاومة صور — اخضاع مصر — المعركة
الحاسمة قرب ارييلا — امتزاج الشرق والغرب — تجزؤ
الامبراطورية — سلوقس مؤسس الدولة السورية — الثورة
المكائية — جمهورية يهودية — آخر انتفاضات المملكة
السلوقية — الرومان يضمون سورية .

الفصل الثامن عشر العصر الهلنستي ٢٧٥

المدن اليونانية — المدن القديمة تصبح مدناً هلنستية — تفاوت
انتشار الهلنسية — بقاء الآرامية — النشاط الادبي —
يوسيبوس المؤرخ — الشعراء السوريون اليونان —
مليتس .

الفصل التاسع عشر النظم السلوقية ٢٨٨

الملكية — البلاط — الجيش — الفيلة لاجل الحرب —
الامطول — ادارة المقاطعات — المدن — الضرائب .

- ٢٩٧ **الفصل العشرون التجارة والصناعة**
 السياسة السلوقية - الهند - دورا اوروبس (الصلحة)
 - جرما (المدير) - التجارة مع القرب - مستعمرات
 فينيقية جديدة - المنتجات الزراعية - الصناعة -
 النقد - مظاهر الترف - السكان .
- ٢٠٨ **الفصل الحادي والعشرون سورية كولاية رومانية: فترة ما قبل الامبراطورية**
 نواب القناصل - في ايلم هيودس الملك - الهلينية
 الرومانية .
- ٣١٥ **الفصل الثاني والعشرون اوائل الامبراطورية الرومانية**
 حكومة الولايات - الحكومة المحلية - فضل الرومان
 - سورية في ذروتها - قوة الانتاج الاقتصادي -
 الزراعة - البستنة - الصناعة - التجارة .
- ٣٣١ **الفصل الثالث والعشرون حياة المدينة والريف**
 القرى - الاغنياء - الاحوال الاجتماعية - انطاكية
 ودفنة - لاودسية وأقامية - حمص - دمشق - بيروت
 - هليوبولس - سورية الجنوبية .
- ٣٥٢ **الفصل الرابع والعشرون النشاط الفكري**
 التاريخ - الجغرافيا - البلاغ - الفلسفة - مدرسة
 الحقوق في بيروت - بايينان - اوليان .
- ٣٦٣ **الفصل الخامس والعشرون ظهور المسيحية**
 تعلم المسيحية - الاضطهاد - ديانا الاسرار -
 مراكز المسيحية في سورية - آباء الكنيسة .
- ٣٧٣ **الفصل السادس والعشرون التأثير السوري والتأثير الروماني**
 التأثير الروماني عن طريق الرعية - التأثير الروماني
 عن طريق الخنمة العسكرية - المقاومة اليهودية -
 تدمير تيطس لاورشليم - السلاة السورية في رومة

الصفحة

آله الشمس السوري يمد في رومة - فيليب المري -
التوسع الاقتصادي .

٣٨٦ الفصل السابع والعشرون سورية في العهد البيزنطي

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير - القسطنطينية
العاصمة الجديدة - المسيحية الديانة الجديدة - التقسيمات
الادارية - التجارة - الصنائع المهاجرون - الادب
والتعليم - ليسانسوس - أميانس مرسليوس - يوحنا
فم الذهب - يوسيبوس - غزة - بيروت كركر
علمي - حياة الطلاب .

٤٠٣ الفصل الثامن والعشرون المظاهر الدينية في العهد البيزنطي

الرهنة - المباني الكنسية - الفن المسيحي - احياء
الآرامية - اديسا - الانشقاقات الدينية - ابولينارس -
الكنيسة النسطورية - الكنيسة يعقوبية - الخطر
الفارسي .

٤١٦ الفصل التاسع والعشرون الدول السورية العربية قبل الاسلام

١ . الانباط - من حياة الرعي الى الحياة الزراعية -
من الزراعة الى الحياة التجارية - الملكية البطنية -
المملكة في ذروتها - الملوك الاخيريون - العلاقات
التجارية والصناعية - المظاهر الحضارية - الديانة -
الفن والبناء - ٢ . التدمريون - تدمر - مركز
للتجارة عبر الصحراء - تدمر كتابعة لرومة - اسرة
اذينة - زلوييا - تدمر في ايامها الاخيرة - البقايا
الاثرية - القبة - لومجينوس - الآلهة التدمرية -
٣ . الفساسنة - الحارث بن جبلة - المنذر - الفوضى
ابنة بلاط الفساسنة .

فهرس الخرائط

الصفحة

٨	سورية — المواقع الاثرية.....
٣٤	سورية — خارطة طوبغرافية.....
٣٧	خارطة جيولوجية لسورية وسيناء.....
٦٨	سورية — انتشار الساميين والطرق الرئيسية.....
٧٨	سورية — في حقبة تل العمارنة.....
٨٦	كتعان قبل إسرائيل.....
١٠٩	التوسع الفينيقي.....
١٥٢	الولايات الأشورية في سورية.....
١٧٨	سورية كبلاد آرامية.....
١٩٩	فلسطين في أيام القضاة.....
٢١٠	فلسطين في عهد الملوك.....
٢٤١	الامبراطورية الفارسية في ذروتها.....
٢٦١	الامبراطورية السلوقية — القسم الشرقي.....
٢٦٣	الامبراطورية السلوقية — القسم الغربي.....
٣٢١	الامبراطورية الرومانية في عهود الاستعمار.....
٣٣٨	سورية كولاية رومانية.....
٣٩٠	سورية البيزنطية.....



موسى والعليقة المحترقة

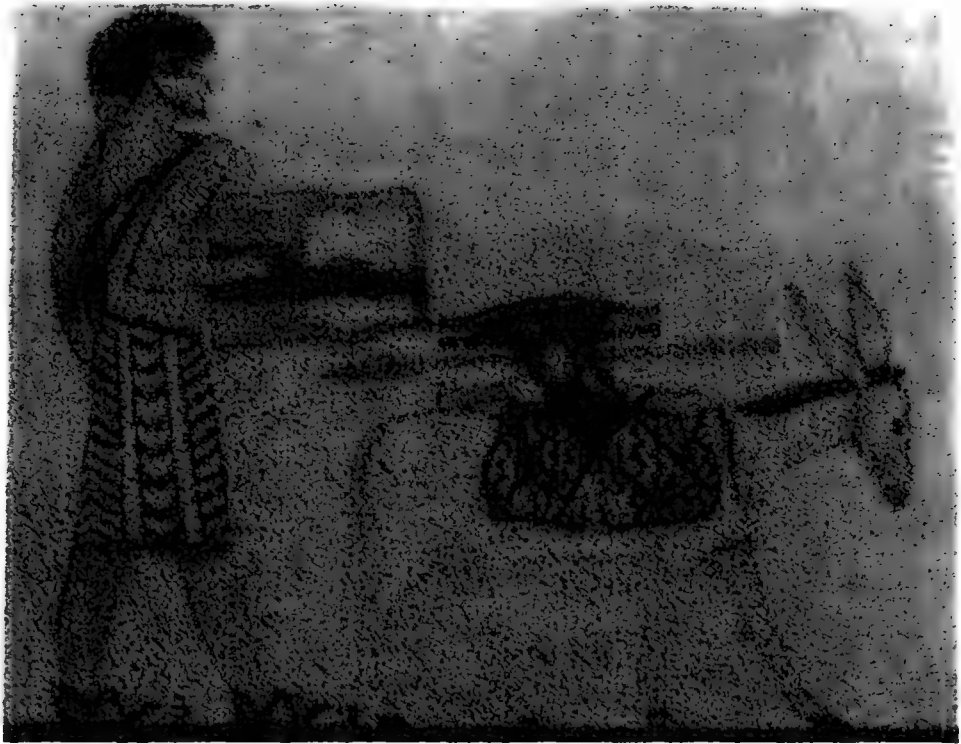
صورة جدارية في الكنيس الذي وجد في دورا اوروبس (الصالحية)
ان في هذا الكنيس الذي يرجع عهده الى القرن الثالث اذ تم نموذج للفن التوراتي
اليهودي والصور الجدارية التي وجدت فيه هي اليوم في المتحف الوطني بدمشق



فريق من النساء الساميات



أبشه شيخ الامورين



سامي مع حماره

القسم الأول
عصر ما قبل التاريخ

الفصل الأول

مكانة سورية في التاريخ

تحتل سورية مكانة فريدة في تاريخ العالم . وقد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية اجل شأنًا من فضل اي بلد آخر خصوصاً وانها كانت تشمل فلسطين ولبنان ضمن حدودها القديمة . وربما كانت سورية اكبر بلد صغير على الخريطة ، فهي صغيرة جداً في حجمها ولكنها عالمية في تأثيرها .

وسورية باعتبارها مهد اليهودية ومكان مولد المسيحية قد اعطت العالم المتمدن ديانتين توحيديتين وكانت لها صلة وثيقة بظهور الديانة التوحيدية الثالثة ونشوتها ونعني الديانة الاسلامية . فانظار المسيحيين والمسلمين واليهود حينما وجدوا تتجه الى احدى البقاع المقدسة في سورية ليستوحوا منها كما ان اقدامهم تسوقهم اليها ليهتدوا بهديها . وعلى ذلك فان اي انسان غربي متمدن يمكن ان يدعي الانتساب الى بلدين : بلده وسورية .

وتتصل الرسالة الاخلاقية التي حملتها سورية الجنوبية اتصالاً وثيقاً بفضل سورية الديني . فقد كان شعبها اول من نشر المبدأ القائل بان الانسان خلق على صورة الله وان كل انسان هو اخ لكل انسان آخر تحت اية الله وبذلك وضع اساس الحياة الديمقراطية . كذلك كان الشعب السوري اول من أصر على تفوق القيم الروحية واعتقد بالفوز النهائي لقوى العدالة وبذلك اصبح المعلم الاخلاقي للبشرية .

والسوريون القدماء لم يتحفوا العالم بابدع الافكار وارفعها فحسب وانما اوجدوا وسيلة للتعبير عن هذه الافكار بتلك العلامات البسيطة المظهر ذات المفعول السحري التي تسمى الابجدية والتي بواسطتها دونت اعظم الآداب العالمية وحفظت . وليس من اختراع يعادل باهميته اختراع الابجدية التي انشأها اللبانيون الاقدمون ونشروها . فاليونان في الغرب انما نقلوا حروفهم عن الفينيقيين او الكنعانيين كما كانوا يسمون انفسهم ، ثم اعطوها الى الرومان وبالتالي الى شعوب اوربا الحديثة ،

كما ان الآراميين في الشرق استعاروا حروفهم من المصدر نفسه ونقلوها الى العرب والفرس والهنود وسائر شعوب آسيا وافريقيا . ولو ان هؤلاء السوريين لم يقدموا للعالم اية خدمة اخرى لكان ذلك كافياً بان يتميزوا كاعظم المحسنين للبشرية .

غير ان فضل السوريين لم يقف عند ذلك . فقد ازدهرت في ارضهم الضيقة احداث تاريخية وثقافية تتصف بزهوها وفعاليتها اكثر مما ازدهت به اي ارض اخرى بنفس المساحة ، وكان من شأن هذه الاحداث ان جعلت تاريخ سورية وفلسطين تاريخ معظم العالم المتمدن بصورة مصفرة . ففي الفترتين المملستية والرومانية اتحف ابناء هذه البلاد العالم الكلاسيكي بمجماعة من ابرز مفكريه ومعلميه ومؤرخيه . وكان بعض مؤسسي الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحديثة من السوريين . وازدهرت في بيروت مدرسة من اعظم مدارس الحقوق الرومانية وأدخلت الآراء القانونية لبعض اساتذتها في مجموعة قوانين بوسنيان التي اعتبرت بحق اعظم ما قدمته العبقريّة الرومانية للاجيال .

وبعد انتشار الاسلام بمدة وجيزة أصبحت العاصمة السورية دمشق قاعدة الامبراطورية الاموية الشهيرة التي توسع خلفاؤها بفتوحاتهم الى اسبانيا وفرنسا من جهة والمهند وحدود الصين من جهة اخرى فكانت امبراطوريتهم اعظم من الامبراطورية الرومانية في ذروتها . وكانت كلمة الخليفة المقيم في دمشق هي القانون في طول هذا الملك الواسع وعرضه . ودخل العالم العربي في عهد الخلافة العباسية في بغداد فترة نشاط فكري من جملة مظاهره حركة الترجمة من اليونانية، ويكاد لا يوجد في التاريخ مثيل لهذا النشاط . وكانت الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني حينذاك اعظم تراث تركه العالم الكلاسيكي للعصور الوسطى . وقد كان السوريون المسيحيون ابرز من ساهم في عملية نقل العلوم والفلسفة اليونانية هذه ، وكانت لغتهم السريانية جسراً انتقلت بواسطته العلوم اليونانية الى اللغة العربية .

وفي العصور الوسطى كانت سورية مسرحاً لحادث من ابلغ الحوادث التي عرفها تاريخ الاحتكاك بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . فقد تدفقت من فرنسا وانكلترا واطاليا والمانيا حشود من الصليبيين نحو سهل سورية الساحلي ومرتفعات فلسطين تريد الحصول على المسيح الميت الذي لم يكن في قلوب الباحثين عنه حقيقة حية . وهكذا بدأت حركة كانت نتائجها بعيدة الاثر في اوروبا وآسيا .

غير ان الحروب الصليبية لم تكن حادث في التاريخ العسكري الطويل المتنوع لهذه البلاد التي كانت، بسبب موقعها على ابواب آسيا وعلى مفترق طرق العالم، ساحة حرب دولية في زمن الحرب وطريقاً تجارية في زمن السلم. واي ارض غير ارض سورية يمكنها الادعاء بانها شاهدت مثل هذه المجموعة من المحاربين والفاتحين العالمين مبتدئة بتحتوس ونبوخذنصر والاسكندر وبوليوس قيصر ومستمرة بعد ذلك بمخالدين الوليد وصلاح الدين وبيبرس حتى نابليون؟

وقد قام شعب هذه البلاد في السنوات الاخيرة بعد احتجاج دام بضعة قرون في ظل المماليك والأتراك برودون الشرق العربي بقيادته الفكرية. وكان السوريون وبصورة اخص اللبنانيون اول من اسس الاتصالات الحيوية في القرن الماضي مع الغرب عن طريق التعليم والهجرة والسياحة وبذلك كانوا الواسطة التي بها تسربت التأثيرات الاوربية والاميركية الى الشرق الادنى. وجالياتهم الحديثة المنتشرة في القاهرة وباريس ونيويورك وسان باولو وسدني هي آثار ناطقة بنشاطهم ومغامراتهم.

واهمية سورية التاريخية لا تأتي من فضلها المبكر على النواحي الرفيعة من حياة الانسان فحسب وانما هي نتيجة موقعها الاستراتيجي بين القارات القديمة الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا وقيامها كجسر لنقل التأثيرات الثقافية من مراكز الحضارة المجاورة لها ولنقل البضائع التجارية ايضاً. وهذا الدور الذي لعبته تشرحه لنا اعمال الفينيقيين الذين كانوا اول التجار الدوليين. وبسبب موقع سورية في قلب الشرق الادنى، الذي يقع هو ايضاً في وسط العالم القديم، فانها اصبحت في عصر بعيد جداً ناقلة الحضارات في العصور القديمة. فقد امتد الى طرفها الواحد وادي النهرين والى طرفها الآخر وادي النهر الواحد. وليس من منطقة في العالم يمكنها ان تنافس في قدمها ونشاطها واستمرارها هذه المناطق الثلاث. فقد بزغ فيها فجر التاريخ المتواصل، وفيها يمكن ان نشاهد الى حد ما الشعوب نفسها خلال خمسين او ستين قرناً من التاريخ غير المنقطع. وقد كانت حضارة هذه المنطقة قائمة منذ الالف الرابع ق. م. ونحن نعلم اليوم ان حضارة اوربا الاولى لم تكن لمدة طويلة سوى انعكاس ضئيل لحضارة بلاد شرقي البحر المتوسط^١. ويبدو أن بعض

١) انظر الفصل الاول من كتاب : V. Gordon Childe, *New Light on the Most Ancient East* (London, 1952), pp. 1-2.

العناصر الأساسية في حضارة الصين القديمة قد أتت من الطرف الشرقي للهِلال
الخصيب كما اخذ يتضح لنا .

وقد اظهرت الابحاث الاثرية في السنوات الحديثة ان سورية كانت حتى في
عصور ما قبل التاريخ تحتل مكانة رفيعة لأنها كانت على الاغلب مكان تدجين القمح
لاول مرة، ومكان اكتشاف النحاس، واختراع الخزف المحلي مما ادى الى التحول
من حياة الصيد والبداءة الى حياة الزراعة والاستقرار . وقد تكون هذه المنطقة
إذا قد عرفت المعيشة المستقرة في القرى والمدن قبل اي مكان آخر نعلمه . وربما
كانت قبل ذلك أيضاً الموطن الذي ترعرع فيه سلف من اسلافنا المباشرين
وهو الانسان الحديث^١، مما سنراه في الفصل القادم .

(١) Homo sapiens والمعنى الحرفي لهذه الكلمة اللاتينية «الانسان العارف» بمعنى الانسان
المدرک وهو الانسان الحديث .

الفصل الثاني

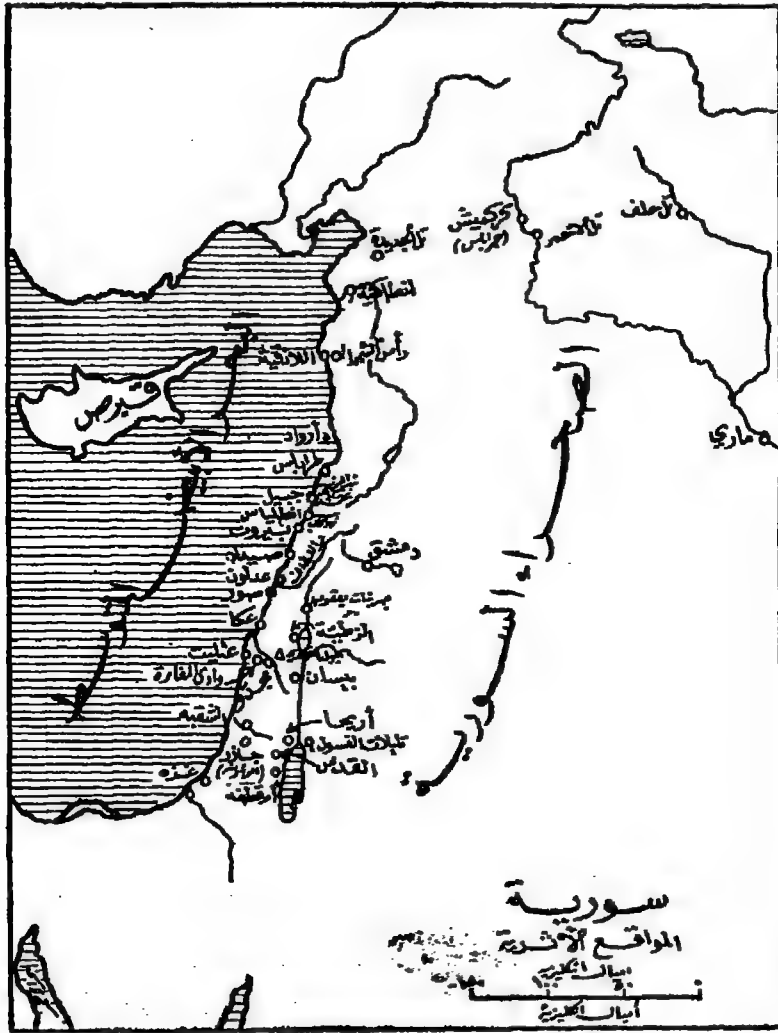
المقدمات الحضارية : الأدوات الحجرية

كما ان القسم الذي يشاهده الانسان من قطعة الجليد فوق سطح الماء لا يشكل الا قسماً صغيراً منها كذلك فان العصر الذي تبع اختراع الكتابة والذي نسميه عصر ما بعد التاريخ لا يشكل الا جانباً صغيراً من تاريخ سورية والسوريين بكامله . وقد بزغ فجر التاريخ في هذه البلاد في اوائل الالف الثالث ق. م. ، وذلك على اثر اختراع الكتابة في مهدى الحضارة المجاورين في جنوبي بلاد الرافدين ومصر وانتشاره من هذين المركزين . وتعود فترة ما قبل التاريخ التي نعتمد في معلوماتنا عنها على البقايا الأثرية بدلاً من الوثائق المكتوبة ، الى عشرات الآلاف من السنين خلال العصر الحجري الحديث (النيوليتي) والعصر الحجري القديم (الباليوليتي) الذي سبقه . وقد اخذت الحفريات الأثرية التي حصلت في الثلاثين سنة الاخيرة في البوادي المجهولة في شمالي سورية وشرقها وفي كهوف لبنان وتلال فلسطين وفي مدن شرقي الاردن المدفونة تحت التراب تطلعننا على اسرار الحضارات القديمة المنسية . وقد اثبتت هذه الحفريات دون شك ان هذه المنطقة التي اهملها الاثريون مدة طويلة بحيث كادت تصبح شبه مجهولة كانت اكثر تقدماً في اقدم العصور مما كنا نظن حتى الآن .

اقدم البقايا : الادوات الحجرية

عندما نحاول ان نلتي نظرتنا الاولى على الانسان في هذه المنطقة فانه يلفت منا كشخص ، ولكن آثاره يمكننا اكتشافها بشكل ادوات حجرية في بقايا الكهوف او على سطح الارض حيث تنتشر مثل « بطاقات الزيارة » على مساحات واسعة . وتتألف هذه الادوات والاسلحة من قطع من الصواب نحتت بشكل خشن او رقت بصورة غير منتظمة وكان يستعملها كفؤوس يدوية او مكاشط او سواطير وترجع الى نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم اي الى نحو ١٥٠,٠٠٠

سنة ١. وكانت الفأس اليدوية في هذه المنطقة اقدم الادوات الاكيدة التي صنعها الانسان البدائي وتتألف من كتلة من لب الصوان ازيلت منها بعض الشظايا ورققت بحيث يسهل امساكها واستعمالها للقطع او الدق. وهناك ادوات اكيدة اقدم من



هذه واكثر خشونة تسمى ايوليت (حجارة النجر) ولكنها لم تكتشف في منطقتنا. وتوجد صعوبة في المقدرة على التمييز بين مثل هذه الادوات التي صنعها الانسان

(١) ويقابل ذلك حضارة العصر الاشولي في اوربا وقد سميت كذلك باسم موقع غونجي في فرنسا.

وبين الحجارة المحطمة بصورة طبيعية . اما اغصان الاشجار او سائر الاخشاب التي قد يكون الانسان البدائي قد استخدمها الى جانب الادوات الحجرية او قبل ذلك فانه لم يكن محتملاً ان تترك اي اثر يمكن اكتشافه بسهولة وذلك بسبب طبيعتها .

ومن الكهوف التي وجدت فيها ادوات من العصر الحجري القديم ودرسها العلماء في لبنان وفلسطين كهوف عدلون^١ وجبل الكرمل^٢ وأم قطنة^٣ والزطية^٤ . ووجدت بلطات يدوية من نفس الفترة عموماً في اماكن اخرى منها مجرى نهر الاردن (جنوبي جسر بنات يعقوب^٥) وفي رأس الشجرة او اوغاريت القديمة^٦ . والبلطة ذات شكل مثلث او بيضوي وهي منحوتة اكثر من الفأس اليدوية .

ويحتمل ان يكون البشر الذين تركوا لنا هذه الآثار الحجرية نوعاً بدائياً غير متميز من الانسان الابيض ولا تزال حضارته مجهولة . وقد كانوا يعيشون في بعض الاحيان على الاقل في الكهوف لوقاية انفسهم من المطر والحجوانات المفترسة ومن الاعداء وذلك لان شدة الاقليم في عصر سابق كانت قد فرضت عليهم هذا الاسلوب من المعيشة . وبالرغم من ان الجليل لم يصل قط الى الجنوب حتى سورية فان اقليم

(١) وتقع في منتصف الطريق بين صيدا وصور . وقد استكشف هذا الكهف وكهفاً اخرى في منطقة نهر ابراهيم ونهر الكلب والطلباس ج. زعمون G. Zumoffen . انظر كتابه : *La Phénicie* « L'Age de la pierre en avant les Phéniciens (Beirut, 1900) pp. 4-16 » *Phénicie* في مجلة : *Anthropos*, vol. iii (1908), pp. 431-55 .

(٢) وقد اجرت تحريات اثرية فيه الآنسة دوروثي جارود . ود. بيت Dorothy A. E. Garrod and *The Stone Age of Mount Carmel* vol. i (Oxford, 1937) D. M. A. Bate . انظر كتبها : ch. 8.

(٣) تقع شمال غربي البحر الميت واستكشفها رينه نوفيل René Neuville . انظر مقاله : *L'Anthropologie*, في مجلة : « L'Acheuléen supérieur de la grotte d'Oumm Qatana » vol. xli (1931), pp. 13-51, 249-63 ومقاله الآخر : « Le Préhistorique de Palestine » *Revue biblique*, vol. xliii (1934), pp. 237-59 .

(٤) وتقع شمال غربي بحيرة طبرية . ونلق فيها : F. Turville-Petre . انظر مؤلفه : *Researches in Prehistoric Galilee* . فارت مع : Garrod and Bate : §§ 5, 6 ; (London, 1927), pp. 143-15.

(٥) انظر مقال : « Jisr Banāt Ya'qūb », *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. vi (1936), pp. 214-15.

(٦) انظر : Claude F. A. Schaeffer, *The Cuneiform Texts of Ras Shamra-Ugarit* (London, 1939), p. I.

هذه البلاد لا بد انه تأثر به . وقد كانت الطور الاقليمي في نهاية الدور الاول من العصر الحجري القديم من النوع المطر الكثير الرطوبة والمداري وكانت حيواناته التي انقرضت انواعها اليوم انقرضاً تماماً تقريباً من الحيوانات التي تعيش في بيئة كثيفة النبات . والبقايا الحيوانية التي وجدت تضم عظام الكركدن وفرس النهر ومخلوق يشبه الفيل . وفي هذه الفترة كانت اوربا تعاني شدة البرد في العصر الجليدي وهذا ما يسمح للشرق الادنى بان يكون سباقاً في تاريخ الجنس البشري وماثوره .

اقدم الهياكل العظمية البشرية

ترجع اقدم بقايا الهياكل العظمية البشرية في الشرق الادنى الى اواسط العصر الحجري القديم . وقد عثرت على معظمها في كهفين من كهوف جبل الكرمل الآتية جارود^١ وكذلك في كهف يقع في جنوبي الناصرة^٢ وآخر في شمال غربي بحيرة طبرية^٣ . ويشكل اكتشافها حادثاً بالغ الاهمية بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ في الشرق الادنى . وجميع هذه البقايا ترجع الى النموذج الموستيري الحضاري (وقد سمي كذلك باسم كهف في فرنسا) ويعود عهدها الى ما قبل مائة الف سنة على الاقل . وهي تظهر لنا سلسلة كاملة من بقايا الهياكل العظمية تتراوح بين النوع النياندرتالي (باسم واد في منطقة الرين) وبين انواع ارقى حتى تصل الى اشكال تكاد تكون من التسوع البشري الحديث . والانسان النياندرتالي كان قصير القامة كثيف البنية وكان يمكنه الوقوف تقريباً بدون ان يكون منتصباً تماماً . والذي يلفت النظر بشكل خاص في بعض هياكل جبل الكرمل انها تظهر بعض الصفات التشريحية التي للانسان الحديث^٤ . وقد كانت سعة جمجمتها اكبر مما كانت عليه عند الاوربيين من النوع

(١) وهذان الكهفان هما مغارة الطابون ومغارة السخول؛ انظر : Garrod and Bate, chs. 4-7

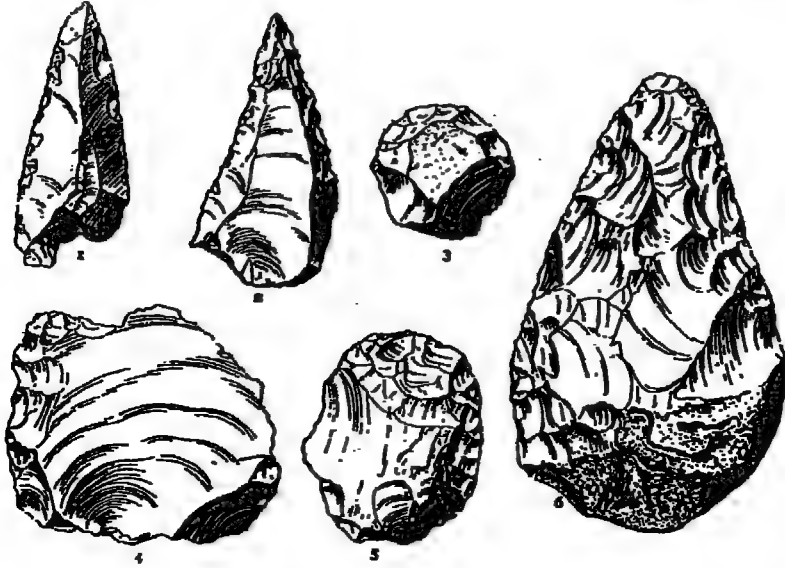
(٢) في جبل القفزة وقد استكشفه رينه نوفيل René Neuville في ١٩٣٤ ولم تنشر ابحاثه بمد.

انظر مقال : « Jabal Qafze » في مجلة : *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. iv (1934), p. 202.

(٣) مغارة الزطية : « Report on the Galilee Skull » by Edward Turville-Petre, § 9, Keith.

(٤) انظر : Theodore D. Mc. Cown and Arthur Keith, *The Stone Age of Mount Carmel*, vol. ii (Oxford, 1939), ch. 2 ; cf. Earnest A. Hooton, *Up from the Ape* (New York, 1946), pp. 336-9; Alfred S. Romer, *Man and the Vertebrates* (Chicago, 1941), pp. 219-22.

نفسه ؛ وكانت الذقن اكبر ولكنه كان ينقصها التركيب المتصل بالكلام المترابط . وعلى ذلك فانها تشكل على ما يظهر حلقة هامة في تطور الانسان وتجعل من هذه المنطقة في الشرق الادنى مسرحاً لتكوين نوع متوسط بين الانسان البدائي والانسان الحديث .



وكان انسان هذه البلاد لا يزال يعيش في الكهوف في اواسط العصر الباليوليتي (الحجرى القديم) . وصناعته كانت تقوم كالسابق على اعداد شظايا غير منتظمة وقطع خشنة من الصوان استعمالها كبلطات يدوية ومكاشط وسواطير ومطارق^١ . وبما لا شك فيه ان النظام الاجتماعى كان بدائياً يدور حول وحدات من الجماعات التي تعيش على ما تنتجه الطبيعة من حيوان او نبات في شكله الطبيعى . وتشير العظام البشرية المكسرة بمحذق لاستخراج المادة التغذية التي طمع فيها الانسان الى وجود عادات تتصل باكل اللحوم البشرية . وكانت الضحايا من الاعداء الذين يقعون في الأسر او من الاقارب الذين اصبح وجودهم غير مرغوب فيه . وقد يكون بعضهم من الاشخاص الذين ماتوا ميتة طبيعية .

(١) راجع : Garrod and Bate, pp. 88-90, 109-12 ; Turville-Petre, §§ 3, 6 ; Neuville in *Revue Biblique* (1934), pp. 237 seq.

وكانت الاحوال الاقليمية لهذه الحضارة تتجه اتجاها واضحا نحو الجفاف بين دورين بمطرين . وتبيى البقايا الحيوانية عن وجود الغزال والضبع المرقط والدب والجل وخنزير النهر والوعل بالاضافة الى الكركدن وفرس النهر^١ . ومع ان الطقس اصبح دافئا وجافا فان الانهار للدائمة كانت لا تزال تروي البلاد وبقيت هنالك بعض المساحات المحرجة والمشجرة .

وفي الفترة الاخيرة من اواسط العصر الحجري القديم طرأ تغير شديد على الاحوال الاقليمية وهطلت الامطار بفزارة . وهكذا حصلت فترة اخرى بمطرة دامت عشرات الآلاف من السنين ولا نعلم عنها الشيء الكثير بالنسبة لسورية وفلسطين . وتمثل هذه الفترة الملاحي الصخرية في منطقة نهر الجوز (قرب البترون) ونهر ابراهيم^٢ . واخذت الحياة الحيوانية تتخذ مظهرها الحديث في هذه الفترة العامة بينما اختفت النماذج الاولى .

الدور الاخير للعصر الحجري القديم

وفي خلال الدور الاخير للعصر الحجري القديم الذي دام مدة طويلة هنالك ما يبرهن عن تزايد في الجفاف باستثناء مرحلة من الرطوبة . وتشير البقايا الاثرية الى تناوب الاقليم الحار والبارد من النوع الرومي (اقليم بلاد البحر المتوسط) ويمتد ذلك حتى اواخر العصر الحجري القديم^٣ . وتقابل حضارة هذا الدور الفترة الاورغناسية (Aurignacian) في اوربا (وسميت كذلك باسم مركز نموذجي في فرنسا) وتمثل في مكتشفات كهوف انطلياس ونهر الكلب^٤ وفي كهف اكتشف قرب بحيرة طبريا^٥ . واظهرت الحفريات الحديثة (١٩٣٨) في كسار عقيل قرب

(١) انظر : Garrod and Bate, p. 226 ; Turville-Petre §§ 4, 8.

(٢) راجع : Zamoffen, *La Phénicie*, pp. 29-48 ; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٣) راجع : Leo Picard, *Structure and Evolution of Palestine* (Jérusalem, 1943), pp. 119-120.

(٤) انظر مقال ألفرد إ. داي (Alfred E. Day) « آثار الانسان الاول المكتشفة حديثا في انطلياس » في مجلة الكلية م ١٢ (بيروت ١٩٢٦) ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ; Zamoffen, *La Phénicie*, pp. 20-28, 49-87 ; *Anthropos*, pp. 443 seq.

(٥) مقبرة الاميرة . انظر : Turville-Petre, § 2.

انطلياس بقايا هياكل عظمية لحيوانات مثل الضبع والكركدن والثعلب والماعز وكذلك بقايا بشرية^١ . ومتحف الجامعة الاميركية في بيروت غني بادوات العصر الحجري بصورة خاصة .

وتحتل بقايا الغزلان مكانة رئيسية بين البقايا الحيوانية . وبينما لا تختلف صناعة هذا الدور اختلافاً اساسياً عما سبق فإن الادوات الحجرية تظهر ميلاً الى التضاؤل في الحجم وتصبح ادوات حجرية صغيرة (ميكرو ليتية) . ويشير ذلك الى ان الانسان قد بدأ في تركيب ادواته او اسلحته في مقابض خشبية او عظمية حتى اصبحت قسماً من آلة مركبة . وبما ان الخشب سريع العطب فانه لم يترك لنا اي اثر بينما اكتشف العظام التي يظن انها كانت تستعمل لهذا الغرض .

النار : الفحم

ان اقدم قطع الفحم المكتشفة حتى الآن في هذه البلاد قد اتت من احدى الطبقات الدنيا في كهف من كهوف الكرمل^٢ وترجع الى نهاية الدور الاول للعصر الباليوليتي اي الى نحو ١٥٠,٠٠٠ سنة . وهناك قطع اخرى ترجع الى الدور الاخير من العصر الحجري القديم (الدور الاورغناسي) وقد اكتشفت في كهف مجاور^٣ وتشير في تركيبها الى نماذج السنديان والطرفاء والزيتون والكرمة^٤ . ويبدو ان الانسان البدائي في تدرجه البطيء الشاق من المستوى العقلي المنخفض قد عثر صدفة لا قصداً على اكتشافات اعطته بعض التفوق واثرت على قدرته الكامنة على الاختراع وزادتها قوة . ومن اقدم هذه الاكتشافات اكتشاف النار .

فانسان العصر الحجري القديم لا بد انه شاهد او استعمل النار التي ولتها الشهب الساقطة والبرق وسائر الاحداث الطبيعية . كذلك لا بد ان قطعاً من اللحم النيء

(١) راجع : J. Franklin Ewing, « Aurignacian Man in Syria », *American Journal of Physical Anthropology*, n.s., vol. iv (1949) pp. 252-3 ;

ومقاله في مجلة المشرق م ٤١ (١٩٤٧) ص ٢١٨ - ٢٤٨ . وتشير المكتشفات الاثرية في ١٩٤٨ الى سكنى الانسان بصورة متواصلة لوادي انطلياس منذ ٣٠,٠٠٠ ق. م .

(٢) مغارة الطابون . انظر : Garrod and Bate, p. 129

(٣) مغارة الوادي قرب الطرف الغربي لكرمل .

(٤) راجع : Garrod and Bate, p. 129 .

والنار الخضراء والجذور التي يمكن أكلها قد وقعت في النار بطريق الصدفة . وليس من شك ان ما نتج عن ذلك من طراوة وتحسن في الراحة دعت الانسان المتيقظ الفكر او المحب للاستقصاء الى اعادة التجربة . ولا بد ايضاً انه لاحظ الشرارات التي يولدها الاحتكاك والقذح عندما كانت ينحت او يرقق الصوان وسائر الحجارة القاسية . غير انه اضطر الى ان ينتظر اجيالاً طويلة قبل ان يظهر رجل مجهول من طراز اديسون او بالاحرى رجال من هذا الطراز يفكرون بهذا الحادث ويحاولون توليد النار والسيطرة عليها لاجل اغراضهم الخاصة . وبهذا الحادث بدأ انقلاب من اعظم الانقلابات في تاريخ سير البشرية في معارج التقدم . وقد عرفت بالتدريج فائدة الشرارة وذلك ليس في اعداد ما آكل جديدة فحسب ، وانما كتدبير للوقاية من البرد وكوسيلة لصد الحيوانات الجارحة وطرده حيوانات الصيد من الغابات .

اللغة

وهناك عمل آخر فعّال تم تحقيقه في اوائل العصر الحجري القديم وهو نشوء تلك الوسيلة الخاصة للاتصال بين انسان وآخر التي نسميها اللغة . ويعود اصل اللغة الى عمل عقل كان لا يزال في بدء التحول الى عقل بشري ولذلك فانه ابعد من ان يتمكن البحث من تناوله . وقد ساعدت اللغة باعتبارها عملاً يهدف الى تأسيس الاتصال الفكري بين انسان وآخر على الجمع بين افراد منزولين لتشكيل منهم جماعات . وان عمليات تطورها واكتساباتها بمجنوعها كانت عمليات تقوي المؤالفة بصورة متزايدة . ولكن بما انه لم يكن بمقدورها ان تترك آثاراً ملموسة حتى اختراع الكتابة بعد آلاف السنين فانه ليس لدينا من ادلة اثرية لاجل البحث عنها .

العصر الحجري الوسيط

يتطور العصر الحجري القديم بصورة لا يشعر بها نحو العصر الحجري الحديث الذي استخدم فيه الانسان الادوات الحجرية المصقولة . وقد سميت الفترة الانتقالية بالعصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالي عام ١٢٤٠٠٠ ق . م . وانسان العصر الحجري الوسيط لم يقتصر على صقل الصوان والبازلت وسائر المعدات والاسلحة الحجرية بحيث جعلها اكثر فعالية بالنسبة لاغراضه ولكنه زيادة على ذلك استغل للمرة الاولى موارد يثنته لدرجة تستحق

الذكر . وتتمثل هذه الحضارة في فلسطين بالدور النطوفي الذي سمي كذلك باسم وادي النطوف في شمال غربي القدس حيث نقتب الآتية جارد في ١٩٢٨ في كهف الشقبة^١ . واكتشفت بعض عناصر الحضارة النطوفية فيما بعد في مغارة الوادي وغيرها من المواقع .

الحضارة النطوفية

بدأت الحضارة النطوفية في اول العصر الحجري الوسيط ودامت حتى الالف السادس . وكان البشر الذين عاشوا في عهد تلك الحضارة من عرق اقصر قامة من العرق الذي عاش في عهد الحضارة السابقة كما انهم كانوا نحاف الجسم مستديري الرأس يشبهون انسان العصر البرونزي الحجري الذي وجدت آثاره في بيبيلوس (جبيل) والمصريين الذين عاشوا في عصر ما قبل السلالات . ويبدو انهم كانوا من افراد العرق نفسه الذي انتسب اليه الحاميون والساميون فيما بعد^٢ . وبالرغم من ان الحياة الحيوانية في العصر النطوفي كانت من النوع الحديث بصورة عامة فان هنالك فروقاً هامة بينها وبين الحياة الحيوانية اليوم . فقد كانت بقايا الفزلان لا تزال كثيرة ولكنها من نوع الابل وهو نادر اليوم ويدل على وجود احوال الجذب والجفاف . والضيع كان مرقطاً حينذاك من النوع الذي نجده فقط في جنوبي الصحراء الكبرى اليوم . والقنفذ كان يختلف تمام الاختلاف عن النوع القصير الاذنين الموجود حالياً^٣ . والاحوال الاقليمية قد تكون سبباً لاختفاء حيوانات مثل الحصان والوعل الاحمر فيما بعد . والصناعة تكثر فيها العظام المشغولة والمحفورة ورؤوس السهام التي لها فُرْضة . والادوات كانت من النوع الصغير (او الميكروليتي) وهذا من مميزات حضارة العصر الحجري الوسيط .

(١) انظر : Dorothy A. E. Garrod, « Excavation of a Palaeolithic Cave in Western Judaea », *Palestine Exploration Fund Quarterly Statement* (1928), pp. 182-5; Garrod and Bate, p. 114.

(٢) انظر : W. F. Albright, « The Present State of Syro-Palestinian Archaeology », *The Haverford Symposium on Archaeology and the Bible ed Elihu Grant*. (New Haven, (1938), p. 7.

(٣) راجع : Garrod and Bate, p. 153.

تدجين الحيوانات

ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب كبير في طبقات اجد كهوف الكرم^١ اول برهان عن تدجين الحيوانات ، وهذا حادث له اهميته البالغة في سير الانسان نحو الحياة المتقدمة . وقد دُجن الكلب حين كان لا يزال الانسان صياداً . وفيما سوى فائدة الكلب في الصيد والحراسة فانه كان اول جامع للنفايات وقضلات الطعام . وترينا ادلة اخرى ان تدجين الماشية الذي ادى الى حياة الرعي وما صحب ذلك من توفر طعام يمكن الاعتماد عليه اكثر مما كانت الحالة عليه في حياة الصيد ، قد اتى بعد حين . فقد كان على الانسان ان يدجن نفسه قبل ان يتمكن من تدجين سائر الحيوانات . واكتشفت اشكال نذرية من الطين تمثل حيوانات داجنة كالبقر والماعز والغنم والخنازير في مزار في اريحا تعود الى اواخر الالف السادس ق . م .^٢ ويحصل تدجين الحيوانات عادة بينما يكون الانسان في حالة البداوة ولذلك فانه يسبق ممارسة الزراعة . ولا بد ان انساناً من العصر الحجري الوسيط في الشرق الادنى قد اتته فكرة تدجين الحيوانات بطريق الصدفة . فقد حركته عاطفة الشفقة او المحبة واحتفظ في احدى المناسبات بصغار الحيوانات بعد قتل كبارها وراح يربي الجرو او النعجة مع اولاده ونجحت العملية ومن ثم اعيدت هذه التجربة ووسعت . فالانسان شمل الحيوان بمجايته وحصل منه مقابل ذلك على الحليب والحمة إماً في اعمال الصيد او في حمل الاثقال . واخذ المجتمع البدائي لحضارة العصر الحجري القديم يتراجع امام احوال اكثر تقدماً .

الزراعة

وعندما كان الانسان صياداً فان حركاته كانت تملئها حركات الحيوانات البرية التي كان يسعى وراءها لاجل الغذاء . وفي مرحلة حياة الراعي عندما حصل تدجين الحيوانات ظل الانسان متنقلاً ولكن مع هذا الاختلاف : وهو ان حركاته كان عليها عليه بحته عن المراعي الخضراء لاجل قطعانها . غير ان الحضارة النطوفية شهدت في اواخر العصر الحجري الوسيط او ربما في اوائل العصر الحجري الحديث

(١) مغارة الوادي . انظر : Garrod and Bate, pp. 175-7.

(٢) راجع : Johon Garstang and J. B. E. Garstang, *The Story of Jericho* (London, 1940), pp. 49-51.

بدء مرحلة اخرى اتجهت نحو حياة الاستقرار وكان لها تأثير أثبت على الانسان وهذه المرحلة هي ممارسة الزراعة .

وقد كانت سورية مُسعدة بانها موطن الحيوانات النبيلة التي يمكن تأليفها كما انها موطن الحشائش التي يمكن تدجينها . فالقمح والشعير البريان ينموان بصورة طبيعية في سورية الشمالية وفلسطين^١ ولا بد ان قيمتهما الغذائية قد اكتشفت في عصر بعيد جداً . والمنساجل الصوانية وسائر الادوات التي تركها النطوفيون^٢ بكميات كبيرة تظهر انهم ومعاصريهم في سورية الشمالية كانوا من اول من مارس شكلاً ما من اشكال الزراعة في الشرق الادنى . وكان الناس لا يزال اكثرهم من سكان الكهوف الذين يشبهون سكان مصر^٣ ويعيشون على الصيد البري وصيد الاسماك وبعضهم كانوا يعيشون على الرعي . ولا ريب ان الزراعة بدأت كعملية زرع بدائية بواسطة الفأس وكانت تستوجب التنقل من مكان الى آخر عندما تستنفد التربة السطحية خيراتها . ويحتمل ان تكون الخطوات الاولى قد اتخذت قبل الالف السادس وذلك قبل ظهور الحزف او المعادن بقرون . وهكذا اصبح جامع الغذاء منتجاً له الآن . وكانت اكياس الجلد واليقطين لا تزال تستخدم لحزن الاطعمة والسوائل ونقلها . وليس لدينا دليل عن ممارسة اي شعب آخر للزراعة في مثل هذا العصر البعيد . ويبدو ان المهاجرين الساميين الاولين الى مصر انما اتوا من سورية وادخلوا معهم القمح وزراعة الكرومة^٤ . والكلمة التي تعني القمح (gmhw) وكذلك الكلمة التي تعني الكرومة (ka(r)mu) في اللغة المصرية القديمة هي بلا ريب مشتقة من السامية وبالاخص من الكنعانية^٥ وتبدو صوراً المحاريث من بلاد بابل ومصر وسورية الحديثة متشابهة بشكل بلغت النظر (انظر الشكل في الفصل الحادي عشر).

(١) انظر : Childe, p. 45 ; René Neuville, « Les Débuts de l'agriculture et la faucille préhistorique en Palestine » *Journal of the Jewish Palestine Exploration Society* (1934-5), pp. xvii seq.

(٢) راجع : D. A. E. Garrod « A New Mesolithic Industry : The Natufian of Palestine », *Journal Royal Anthropological Institute of Great Britain*, vol. lxii (1932), pp. 261, 263, 265.

(٣) انظر : Strabo, *Geography*, Bk. XVII. ch. I, § 2

(٤) انظر : H. R. Hall, *The Ancient History of the Near East*, 8th ed. (New York, 1935), pp. 89-90.

(٥) راجع : W. F. Albright, « Palestine in the Earliest Historical Period », *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv (1935), pp. 212-13.

اما كيف اكتشف انسان العصر الحجري الوسيط احتمال تدجين النباتات فذلك لا يمكن لأي امرئ ان يقوله بالضبط . وقد اعتاد الانسان حتى هذا الوقت ان يجعل بعض الحبوب البرية في جملة طعامه . ولا بد ان بعض هذه الحبوب سقطت بالصدفة على الارض في زمن ما وان انساناً او بالاحرى انساناً متفوقاً لاحظ نمو الحبوب بكثافة حول غيم السنة السابقة وعندئذ اشرفت الفكرة العظمى في عقله . ولم يكن باقل من انسان متفوق ذاك الذي حمل قبيلته بالقوة او بالاقناع على عدم استهلاك جميع البذور التي جمعت في فصل معين وعلى ابقاء بعضها بل انتقاء اجودها لضمان غلة في المستقبل وتحسينها . وقد مهدت زراعة القمح والشعير الطريق لساتر الحبوب كالذرة مثلاً وفيما بعد للثمار مثل العنب والتين والزيتون وكذلك لختلف انواع الخضار التي زرعت جميعها وتحسنت قبل ان يبدأ التاريخ .

حياة الاستقرار

وقد كانت الزراعة عملاً انقلايياً بالنسبة لتقدم الانسان اكثر من تربية المواشي وبتطورها اخذ الانسان يعيش في اكواخ مبنية من الطين او في بيوت من اللبن . وقد وجدت بقايا المساكن البدائية في اقدم الطبقات التي سكنها الانسان في ارجيا وترجع الى نحو ٥٠٠٠ ق . م .^١ وفي طبقات تل الجديدة^٢ ورأس الشجرة^٣ وكذلك جيبيلوس^٤ التي انت بعدها . ولم توجد مساكن بشرية اقدم من هذه في اي مكان آخر وقد يكون لارجيا اقدم تاريخ متواصل من اية مدينة في العالم . وانسان العصر الحجري الوسيط الذي كان حتى الآن متنقلاً اصبح بعد ممارسة تربية المواشي والزراعة ممارسة تامة مستقراً منتجاً يسيطر على موارد غذائه . واخذت الكهوف والملاجئ الصخرية في الاماكن المرتفعة تهجر بالتدريج واستبدلها الانسان بالمساكن في السهول ، وظهرت ملكية الارض . وعندما كان الانسان متجولاً لا يستقر في مكان

(١) انظر : Garstang and Garstang, pp. 47-8

(٢) في شمالي سورية ولا يزال اسمها القديم مجهولاً . انظر ص ٢٢ في ما يلي هامش رقم ١ .

(٣) انظر : Claude F. Schaeffer, *Ugaritica* (Paris, 1939), pp. 3-4

(٤) راجع : Maurice Duane, *Fonilles de Byblos*, vol. i (Paris, 1939), text, pp. 295-6.

ويستمر دونان مباني بيلوس من حوالي ٣٢٠٠ ق . م . اقدم مباني حجرية أثرية في الشرق وربما في العالم . وكان الذين بنوها غالباً من الشعوب التي سبقت قدم الساميين . وترجع المقبرة الى النصف الاول من الالف الرابع .

واحد بحيث لا تتأثر عليه بيئته تأثيراً كافياً لم يكن بمقدور هذه البيئة ان تغيره التغير الكلي او تعطيه لونها المحلي ومن هنا فقد كان اختباراه موزعاً وغير متشابه . اما الآن فان استقرار مسكنه قد عمل على تجمع الاختبارات المتشابهة وانتقالها بشكل تقاليد حضارية . وعلى ذلك فان الانسان المستقر قد كوّن لنفسه مخازن ليس للغذاء فحسب وانما للافكار التي جعلته قادراً على نقل اختباراه الى الاجيال المقبلة بصورة احسن .

الحياة العقلية

كانت احدى النتائج الهامة للحياة الجماعية انها عملت بصورة قوية على تطور اللغة . والذي ينهلنا اليوم هو درجة الاتقان التي وصلتها اللغة بفعل العقل البشري في العصر الحجري الوسيط وترينا مقارنة العربية الحديثة الدارجة مثلاً بما يمكن معرفته من اللغة السامية الام تطوراً مستمراً نحو التبسيط بالنسبة للمستوى العالي في عصور ما قبل التاريخ البعيدة .

واثر آخر للحياة العقلية عند انسان العصر الحجري الوسيط اعتقاده الديني بالآله او مجموعة من الآلهة وظهور فكرة بدائية عنده اولى عن نوع من حياة ثانية للراحل بعد الموت . وبدلنا على ذلك وجود اواني الطعام والتقدمات في اماكن الدفن . وتعود آثار مثل هذا المعتقد الغامض بالحياة الثابتة الى الحضارة المستيرية . غير ان تربية المواشي وممارسة الزراعة جعلت الديانة اكثر تعقيداً وصاروا يفضلون الآلهة التي تهتم بالحقول والمواشي على الارواح التي يعتمد عليها الصيادون . ففي مرحلة حياة الرعي كان الناس على ما يظن يعبدون الاله القمر الذي كان اكثر نفعا وتلطفاً من الشمس في بلاد حارة مثل سورية وفلسطين . وكان القمر يبدد رهبة الظلام ويأتي بالبرودة التي يمكن للقطعان ان تروى فيها براحة . ولذلك فانه كان صديق الراعي اكثر من الشمس . والمعبد الذي وجد في اريحا ويرجع الى اواخر الالف السادس ق . م . ربما كُرس للاله القمر^١ .

وثناء نشوء الحياة الزراعية اوجد الانسان في فكره ارتباطاً بين النمو وبين الشمس التي اخذت حينذاك تتقدم على القمر . وبدأت في ذلك العهد عبادة الالهة الشمس وكذلك عبادة الارض الأم بشخص الالهة للخصب تتعهد شؤون الزراعة .

وانخذت الديانة شكلاً مؤثراً واضحاً لسبب آخر وهو ان المرأة يمكنها ان تمارس الزراعة بسهولة اكثر من ممارسة الصيد. والرموز المتعلقة بطقوس العبادة وكذلك الميتولوجيا المتصلة بالالهة الحصب التي بلغت ذروتها فيما بعد في قصص ادونيس - عشتار واوزيرس - ايزس في فينيقية ومصر كانت اصولها في هذه الفترة. ولا بد ان مجموعة التماثيل الثلاثة التي انت من اريحا القديمة وتشمل الاب والام والابن^١ كان لها معنى طقسي كما انها تفيدنا بان نظام العائلة كان قد اتخذ في الالف الخامس الشكل الذي اتخذته بصورة دائمة فيما بعد.

الفن

ورافق نمو انسان العصر الحجري الوسيط من الوجهة الدينية تطوره الفني. والفن هو كاللغة صفة مميزة للبشر. وقد ولد عندما استيقظت امكانية التقليد المتعمد في وعي احد ابناء العصر الحجري. ودخلت حينذاك نفس الانسان في عالم جديد هو عالم الخيال والجمال.

وكان الفن في مظهره الاول مرتبطاً بالسحر ارتباطاً وثيقاً، وكان يُظن ان صورة الحيوان تعطي الرسام سلطة على ما يرسمه او يمثله. وقد وجد في احد كهوف الكرميل رسم رأس ثور حفره انسان العصر الميزوليتي في العظم. ولما كان الانسان يشعر بالقوى المحيطة به ويعلم مقدار عجزه فانه وضع نظاماً سحرياً عززه بتأتم من العظم والحجر والتمس بواسطته الحماية من الاشياء التي كان يرهبها. فالخوف كان عنصراً أساسياً في ديانته الاولى. ونواه فيما بعد يبحث عن بعض الفوائد بواسطة السحر ومن جهة هذه الفوائد زيادة محصول قطيعه او غلته. فعبادة الارواح والسحر هما اساس الديانة البدائية على الغالب. فعبادة الارواح هي التي جعلت الانسان ينسب الى مختلف الاشياء التي تحيط به روحاً تسكنها وعليه ارضاؤها اذا كانت خبيثة او تقديم التقدمة لها اذا كانت نافعة.

والقطع المحفورة في العظم او الحجر من العصر النطوفي كثيرة واحسنها تمثال صغير لغزال مصنوع من قطعة عظم. ويبدو ان اقدم الامثلة المعروفة للفن

التشكيلي في فلسطين على كل حال^١، هي تلك التقدّمات النذرة على شكل صور الحيوانات الداجنة التي وجدت في اريحا^٢

حضارة العصر الحجري الحديث

وفي العصر الحجري الحديث (او النيوليتي) الذي دام نحو النى سنة اعتباراً من عام ٦٠٠٠ ق. م. حصل تقدم محسوس في الزراعة وتربية الحيوانات واستعمال الادوات الحجرية المصقولة والحياة المستقرة. وقد رأى هذا العصر ايضاً اختراع الحزف واكتشاف المعدن. وتختلف حضارة العصر الحجري الوسيط في سورية وفلسطين عن سائر الحضارات الميزوليتية بان صفتيها البارزتين وهما تربية المواشي والزراعة تسبقان الحزف والمعدن.

وعندما تعلم الانسان صنع الاواني من الطين وخبزها فانه قام باكتشاف آخر بالغ الاهمية في مجال تقدمه الحضاري. وسرعان ما حلت الاواني الخزفية محل الاواني من اليقطين او الجلد او قطع الحجارة والخشب المخوفة التي كانت تخضع حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت ولو بصورة غير تامة. وكان مؤدى الاختراع الجديد ان الانسان صار بإمكانه ان يعيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج اليها وان يطبخ طعامه طبعاً حقيقياً بدلاً من ان يأكله نيئاً او مشوياً، وامم من ذلك ايضاً انه صار يتمكن من خزن ما لا يمكنه استهلاكه في وقت معين ليستخدمه في المستقبل وهكذا اضاف الانسان الى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه. وبعد ان صار جامع الطعام في مرحلة البداوة منتجاً للطعام في مرحلة الزراعة اصبح الآن فوق هذا كله حافظاً للطعام. وقد اعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة، وكانت اوقات الفراغ امراً ضرورياً في تنبئة شؤون الحياة الرفيعة.

الحزف

يظهر الحزف في فلسطين في احدى الطبقات الدنيا في اريحا ويعتقد غارستانغ انه اخترع هناك^٣. وقد اتخذ الحزف في اول الامر شكل احواض مجوفة في

(١) انظر : Garstang and Garstang, p. 54

(٢) راجع ما سبق ص ١٦.

(٣) انظر : Garstang and Garstang, pp. 53-4

لارض ومبطنة بطبقة من الكلس ثم اشكال جرار ذات اطراف بسيطة وقعر مسطح ومسكات على شكل الكرة أو العروة . ويظهر اقدم الخزف في سورية في القسم الواقع بين النهرين . وقد يرجع خزف سورية الشمالية ذو اللون الواحد الى حوالي ٥٠٠٠ ق.م . وقد تبع ذلك خزف مدهون من تل الجديدة^١ الواقعة في شمالي شرقي انطاكية ويعود الى حوالي منتصف الالف الخامس وهو مزخرف برسوم بدائية جداً . وينتسب الى نفس الطبقة الحضارية الخزف المدهون الذي اكتشف في «ساكجي جوزي» في اقصى شمالي سورية واقدم انواعه هو الخزف الاسود المحفور ، وتنبه انواع جديدة ذات زخارف ملونة^٢ . ووجدت قطع من خزف سورية الشمالية في مناطق بعيدة الى الشرق مثل سامرا على نهر دجلة . ويغلب ان يكون حصل اختراع دولاب الخزف قبل عام ٤٠٠٠ ق.م . ولكنه لم يستخدم بصورة بارعة في جنوبي فلسطين حتى حوالي ٢٠٠٠ ق.م . وكان الخزف قبل هذا الاختراع يصنع باليد .

وقد شهد القسم الاخير من الالف الخامس والقسم الاول من الالف الرابع ارفع مرحلة في تاريخ الفن الزخرفي القديم . وكانت منطقة سورية الشمالية وبلاد الرافدين مركز هذه المرحلة . ويمكن تسمية هذه الحضارة بحضارة تل حلف بالنسبة لتل حلف^٣ (وهي غوزان القديمة) على نهر الخابور . وتمثل هذه الحضارة في الغرب مدينة مرسين في كيليكية . وكان رجالها من مزخرفي الاواني الذين حاولوا التفوق كما يبدو على ما بلغه صناع السلال وحائكو السجاد من مهارة فنية . وكانت اوانيمهم التي تشمل الصعون والطاسات والزوارق والجرار والكؤوس تعتبر من الوجهتين الصناعية والفنية من اجل الاواني المصنوعة باليد في العصور القديمة . كانوا يستعملون الزخارف الهندسية والنباتية المتعددة الالوان «التي لم يجاوزها شيء في

(١) وقد نقب فيها روبرت ج. بريدوود (Braidwood) . انظر كتابه : *Mounds in the Plain of Antioch* (Chicago, 1937), p. 7; *Prehistoric Men* (Chicago, 1948), pp. 92-3.

(٢) راجع : John Garstang, «Excavations at Sakje-Geuzi, in North Syria», *Annals of Archaeology*, University of Liverpool, vol. I (1908), pp. 114-17.

(٣) قلم باعمال التنقيب فيها ماكس فون أوبنهايم (Max F. Von Oppenheim) : انظر كتابه : *Deir Tell Halaf* (Leipzig, 1931) . و«التل» هو مرتفع اصطناعي مؤلف من أكتاف عدة مدن يملأ بعضها بعضاً . وهذا الظاهر خاص بأسية القرية حيث يبدو منذ ٢٠٠٠ ق.م . وكلمة «تل» عربية من اصل سومي .

جمالها في اي عصر آخر من عصور التاريخ وذلك من وجهة نظرنا الحديثة على الأقل^١ . وليس هنالك ايضاً ما يجعلنا على الاعتقاد بأن مقدرة الانسان العقلية قد ازدادت كثيراً منذ ذلك الحين . وان اكبر عدد من مراكز السكن من عصر الحزف المدهون الذي نحن بصدده واكثف البقايا وارقى الاثار الحضارية قد انتنا من شمالي سورية وبلاد النهرين ، وهذا لا يترك لنا اي شك بأن تيار الحضارة الرئيسي في غربي آسيا كان يمر حينذاك في هذه المنطقة تاركاً المناطق المجاورة غير متأثرة نسبياً .

ان اضافة الحزف الى ادوات الانسان البيئية قد اسدت وان يمكن بطريق الصدقة خدمة علمية مفيدة . ذلك ان الحزف غير قابل للتلف بالرغم من انه يمكن ان يتحول الى قطع مكسرة لا حصر لها . واسلوب صنعه وزخرفته يظهر لنا ذوق العصر وازياده كما تظهر ذلك ثياب النساء في ايامنا هذه . وتوزع الحزف يعطينا احسن دليل للعلاقات التجارية القديمة . ولذلك فان دراسته تفتح للعالم الحديث نافذة واسعة يمكنه ان يتطلع منها الى الماضي المظلم . وتفتح الاواني المعدنية لنا نافذة اخرى . وبظهور الحزف والمعدن تنتقل من عصر ما قبل التاريخ الى بدء العصور التاريخية .

(١) انظر : William F. Albright, *From the Stone Age to Christianity* (Baltimore, 1940), p. 98.

الفصل الثالث

الأدوات المعدنية

بدأت باكتشاف المعدن مرحلة جديدة هامة في تدوج الانسان حل فيها المعدن محل الحجارة كإداة رئيسية لصنع الادوات ، وتسمى هذه المرحلة بعصر المعدن .

العصر النحاسي الحجري

وقد يكون هذا الاكتشاف قد حصل في غربي آسيا بعد اختراع الحزف بمدة وجيزة ، غير ان استعمال النحاس ، وهو اول المعادن ، على صورة واسعة قد تأخر غالباً نحو الف سنة . وفي سورية وفلسطين اخذ الناس يستعملون المعدن بشكل متسع الى حد قليل حوالي ٤٠٠٠ ق.م . ولكنه لم يأخذ مكان الحجارة كإداة رئيسية لصنع الادوات والاسلحة حتى بعد ٣٠٠٠ ق.م . ويمكن تسمية هذا الالف الرابع بالعصر النحاسي الحجري حيث كان النحاس يستعمل في الاوساط الراقية بينما كان الصوان لا يزال يشكل دون منازع المادة الرئيسية . وتكثر آثار الحضارة النحاسية الحجرية في اوغاريت وسائر المواقع في شمالي سورية وفي تليلات الفسول^١ (التي اتت منها ادوات تعد من اقلم الادوات المعدنية التي اكتشفت في فلسطين حتى الآن) وسائر المراكز في فلسطين . وفي حوالي ٣٠٠٠ ق.م . يبدأ العصر النحاسي وكثيراً ما يدعى خطأ العصر البرونزي . وتم فوز النحاس باكتشاف فازات هذا المعدن في ادوم جنوبي البحر الميت وشرقيه حوالي ٢٠٠٠ ق.م .

وتظل سورية الشمالية في العصر النحاسي الحجري كما في العصر الحجري الحديث المركز الحضاري الرئيسي للشرق الادنى بأمره . ولا بد ان احد سكان هذه المنطقة قد اكتشف النحاس عندما كان يحرك نار نحيته صدقة بقطع من المعدن الخام ثم

(١) وقد لقت فيها بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ . بمته المهد التوراتي البايوى . انظر : Alexis Mallon et al., *Teleilat Ghassul* I (Rome, 1934 ; Robert Koeppel et al., *Teleilat Ghassul* II (Rome, 1940).

لاحظ في اليوم التالي حبات المعدن المتلألأة بينما كان يحرك الرماح . وربما لم يدرك ذلك الانسان المقيم في سورية الشمالية في العصر الحجري الحديث انه بعمله هذا قد بدأ حركة انقلابية ادت الى رفع الحضارة بكاملها من مستوى الحجر الى المعدن وقد اصبح الانسان ، بعد اكتشاف المعدن وادراك خواصه ، على عتبة عصر جديد استمر حتى الازمنة الحديثة . واتى البرونز بعد النحاس ثم تبعه الحديد . وصادف بدء عصر البرونز اختراع الابجدية . وهكذا تنتهي حضارات سورية السابقة لعصر الكتابة وتبدأ حضارة عصر التاريخ .

وانشرت معرفة النحاس من سورية الى جميع الجهات . ومن المحتمل جداً ان تكون مصر قد تلقتها في عصر ما قبل السلالات من هذا المصدر عن طريق الغزوة السامية^١ . كذلك يمكن ان تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب^٢ . وهكذا فان الحجر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحنى الفرات يبرز في اهميته كمسرح لتدجين القمح واختراع الحزف واكتشاف المعدن .

وتدل آثار الانسان في هذه المنطقة انه استخدم النحاس أولاً ثم مزجه بالقاسي وهو البرونز لاجل صنع الاسلحة الحربية قبل ان يستخدمه لادوات السلم . وقد تمتعت القبائل او الجماعات التي جعلت سلاحها من هذا المعدن الصلب القابل للتطريق والالتواء بتفوق عظيم على تلك التي استعملت الحجارة . غير ان فنون السلم استفادت ايضاً . فقد تحسن فن العمارة بشكل ملموس . وظهرت ابنية كبيرة الحجم وتفيد بقايا المنازل انها كانت مستطيلة في تخطيطها بينما كانت المزارات مستديرة .

الحجارة القسولية

وفي مدينة تليلات القسول شمالي البحر الميت التي ترجع الى العصر النحاسي الحجري كانت احد الجوانب الكبرى للبيوت المستطيلة كثيراً ما يقابل باحة .

(١) انظر : Hall, p. 90 .

(٢) اكتشف السومريون في الجنوب هذا المعدن على الغالب في زمن اقدم وبصورة مستلة تلقوا ما يلزمهم من عمان ؛ انظر : Hitti, *History of the Arabs*, 10th ed. (London, 1970), p. 36 ; « Sumerian Copper », *Report British Association for the advancement of Science*, 1928 (London, 1929), pp. 437-41.

وكانت الجدران مبنية من اللبن والاساسات من الحجر العقيم . والسقوف كانت مصنوعة من القصب المغطى بالطين . وتحت ارض المنزل وجد اولاد وقد دفنوا ضمن جدران . وبعض الموتى كانوا يحرقون وهذه عادة غير سامية قطعاً . وقد خصص سكان الكهوف في تل الجزر كهفاً لاحتراق جثث رفاقهم المتوفين . وكان الحريق اسهل الطرق للتخلص من الجثة وبواسطته كانت روح الميت تستبعد بحيث لا يصيب الاحياء اي اذى . وان هذه الجدران التي تحتوي الموتى بدون ان يحرقوا وانما بشكل منحني وتدفن تحت ارض منازل العصر النبوليتي قد وجد مثلها في مناطق بعيدة في الشمال مثل اوغاريت^١ وكذلك في كركميش (جرابلس) في عصر متأخر^٢ . واكتشفت حوادث الدفن في اوان خزفية في اماكن اخرى كما في جزر^٣ (تل الجزر) جنوبي شرقي الرملة التي تنتسب الى نفس الحضارة القديمة . وفي جزر يمكن مشاهدة ساكن الكهف في طريقه لان يصبح من ساكني البيوت . والقرية التي نشأت فيما بعد احيطت بسور خشن كما كانت الحال في قرى كثيرة اخرى من عصر البرونز للحماية ضد الاعداء . وتبدأ تحصينات المدن في ذلك العصر . وقد وضع بجانب احدي الجثث المكتشفة في جزر خنزير مملوء بالطعام والشراب^٤ مما يظهر اهتماماً متزايداً بالموتى .

وتدل كومة العظام التي وجدت تحت معبد جزر ان الخنزير الذي دجنه الفلسطينيون منذ عهد بعيد كان الحيوان المفضل للذبيحة وهذا ما جعله موضع اشمئزاز بالنسبة لاعدائهم الساميين الذين اتوا بعدهم^٥ . وفي الجزر كانوا يزرعون العنب والزيتون ويدوسونها في حفر ذات تجويف اسفل لاجل الخثالة^٦ . ومثل هذه الاشكال البسيطة لمعاصر النار المنقورة في الصخر قد وجدت في اماكن اخرى

(١) Claude F. A. Schaeffer, « Les Fouilles de Ras-Chamra », *Syria*, vol. XV (1934), pp. 111-12, pl. xi, No. 2, facing p. 110.

(٢) C. Leonard Woolley, « Hittite Burial Customs », *Annals of Archaeology and Anthropology*, University of Liverpool, vol. vi (1914), p. 88 ; *Carchemish*, Vol. ii (London, 1921), pp. 38-9.

(٣) قام باعمال الحفريات هما ١٩٠٢-١٩٠٨ ر. أ. مكاليستر Macalister ؛ انظر كتابه : *The Excavation of Gezer*, 3 vols. (London, 1912).

(٤) انظر : Macalister vol. i, pp. 74 seq., 285 seq.

(٥) Macalister vol. ii, pp. 379-80

(٦) Macalister vol. iii, p. 49

ايضاً . ويبدو ان الكرمة وشجرة الزيتون كانتا من نباتات حوض البحر المتوسط وقد زرعتا بصورة جثثة ودجنتا في اول الامر في طرفه الشرقي ومن هناك انتشرت فيما بعد باتجاه الغرب بطريق التجارة والتوسع . ويصدق هذا ايضاً على شجرة التين . ولا يزال الزيتون وزيت الزيتون والعنب والتين والقمح والشعير حتى اليوم المواد الغذائية الاساسية في سورية . وفي بلد مثل فلسطين حيث التربة فقيرة بوجه الاجمال كان محصول الشعير اكثر بكثير من محصول القمح . وقمح الصين هو عيناً مثل قمح الشرق الادنى ويبدو ان الاصول البرية التي تحدث منها ثيرانها واغنامها المدجنة انت من الانواع البرية في الشرق الادنى^١ .

وقد جرت اعمال الحفر في مدن اخرى من العصر النحاسي الحجري من النموذج الغسولي في اريحا ومجدو^٢ (تل المتسلم) والنفولة وبيت شان (بيسان) ولاكيش (تل الدوير) واوغارت وبيبلوس . وتقابل الحضارة الغسولية في فلسطين حضارة تل حلف في سورية الشمالية وبلاد الرافدين وان انت بعدها بقليل .

الزراعة المعتمدة على الري

وفي هذه الاثناء ازداد الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي . واتسع استخدام الثور والغنم والماعز التي بدأ تدجينها في العصر الحجري الحديث كما يتضح من ظهورها المتكرر على التماثيل الصغيرة من الطين . وهناك اشكال حيوانية داجنة اخرى كانت شائعة وتمثل الخنازير والحمم . وتفيدنا الدلائل التي انت في فترة تالية ان الحماسة كانت مقرونة بالالاهة الام وهي الآلهة التي تمثل مبدء الحياة والحصب . وكانت تقع جميع مراكز السكنى تقريباً في العصر النحاسي الحجري في اودية الانهار او السهول اللحية وكانت تعتمد على الري . وهكذا فان العمل البارز في هذه الفترة في ميدان الزراعة هو الزراعة المعتمدة على الري وتشمل زراعة انواع متعددة من الحضر كالحس والبصل والثوم والحبس والفول والتوابل . وينعكس هذا الازدياد في تنوع الغذاء المتوفر وكميته في ارتفاع وسطي القامة البشرية ارتفاعاً ملحوظاً في اواخر العصر النحاسي الحجري .

(١) راجع : Carl. W. Bishop, « The Beginnings of Civilization in Eastern Asia », *Journal of the American Oriental Society*, vol. lxx, suppl. (Dec. 1939).

(٢) انظر : Robert M. Engberg and Geoffrey M. Shipton, *Notes on the Chalcolithic and Early Bronze Age Pottery of Megiddo* (Chicago, 1934).

التركيب العرقي

اما التركيب العرقي لسكان مراكز هذا الدور فانه ليس واضحاً . والعنصر السائد حتماً لم يكن سامياً ، والساميون كما سنرى يأتون فيما بعد ويحتلون شمالي سورية وجنوبيها . ولا بد ان ظهورهم حصل حوالي نهاية العصر النحاسي الحجري . ويحتمل القول بأن بعض سكان هذه الفترة كانوا ينتسبون الى نفس العنصر الاصلي الذي تفرع عنه الساميون والحاميون فيما بعد . والبعض الآخر كانوا على ما يبدو من العنصر المعروف بالارمنوي كما تفيد دراسة بقايا الهياكل العظمية في الجزر في جنوبي البلاد^١ . وتدل البقايا الاثرية الاخرى المكتشفة في كركميش وساكجي غوزي في الشمال على الانتساب لهذا العنصر وتثبت شيوع النموذج الارمنوي في سورية في العصر النحاسي الحجري . ويساعد على اثبات ذلك ان كثيراً من اسماء الاماكن القديمة في سورية الوسطى والشمالية ومن جملتها دمشق وتدمر لا تترك مجالاً لاي اشتقاق سامي اكيد ، وربما كانت من بقايا الاسماء التي سبقت ظهور الساميين . والعنصر الارمنوي الذي هو الفرع الشرقي للعنصر الآلي يتميز بالانف الثقيل البارز والجمجمة العريضة القصيرة . ويمثله الحوريون والذين سبقوا الهنود الاوربيين بين الشعوب القديمة والارمن واليهود بين الشعوب الحديثة . وزادت في قوة هذا العنصر حركات تالية منها حركات الحثيين ولا تزال صفاته البارزة ظاهرة في البلاد السورية .

واذا لم يكن من شك بأن عروفاً مختلفة شاركت في تكوين سكان سورية فان وجود عرق غريب من « الطغاة في الارض في تلك الايام »^٢ ليس هنالك ما يؤيده . ولا بد ان قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الاقدام بالإضافة الى الاضرحة الاثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة على أسس مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيماً على القادمين الجدد بما ادى الى ظهور مثل هذه الاساطير . وقد انتقلت هذه الاساطير المتعلقة « ببني عناق من الجبابرة »^٣ وبالعالمقة الى الادب العربي والاسلامي . واسم المدينة

(١) Macalister, vol. i, pp. 58-9

(٢) سفر التكوين ٤ : ٦

(٣) سفر العدد ١٣ : ٣٣

الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي اتى منها جليات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت 'جبرين) معناه «موطن الجبابرة» .

وتكثر الدولن حتى اليوم في شرقي الاردن ومرتفعات فلسطين وسورية وفي آسية الصغرى . وتبرهن آثار الادوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في احدى الدولن في شرقي الاردن^١ انها تعود الى العصر النحاسي الحجري . واكثر هذه القبور (الدولن) بدائية توجد في ارض كنعان وترجع الى العصر الحجري الحديث اي ٥٠٠٠ ق. م. وتظهر المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة في غربي اوربا بعد ذلك بالف سنة او اكثر وقد اثار وجودها قصصاً خيالية بمائلة عن الجبابرة في عصور ما قبل التاريخ .

التطور الفني

وقد تقدم الفن وخاصة الفن التشكيلي تقدماً محسوساً بعد ظهور المعدن . وتكثر الاختام والحلي والاواني النحاسية الآتية من هذا العصر . وتحسنت الصفة الفنية لهذه المنتجات واشباهها . واخذ الناس يُعنون بصورة جدّية بفن النحت الذي كان اول ظهوره في العصر الحجري الوسيط كما رأينا . وقد اكتشفت رسوم بشرية وحيوانية على حجارة مرصوفة في طبقات العصر النحاسي الحجري الاخيرة في مجدو . وتمثل الرسوم الجدارية المعاصرة من تليلات الغسول الموجودة على الجدران الداخلية المبيضة المبنية فن اللبن اشكالاً بشرية او إلهية بالوان متعددة^٢ . وكانت تلك اول محاولة معروفة لزخرفة القسم الداخلي من المنزل . غير ان الزخارف على الحزف هي التي ظلت تتيح للفنان احسن الفرص لممارسة فنه . وفي نهاية الالف الرابع كان فن الطلاء الزجاجي قد وصل كريت في بدء العصر المينوسي ومصر في اول عصر السلالات من شمالي سورية . وتبدو الاواني المزخرفة بطلاء زجاجي حسب تقاليد سورية الشمالية كمواد مستوردة في قبور الفراعنة الاولين في ابيدوس . وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سورية مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية الصغيرة المصبوبة

(١) انظر : Gottlieb Schumacher, *Northern 'Ajlun* (London, 1890), p. 176 .

(٢) راجع : Millar Burrows, *What Mean These Stones* (New Haven, 1941), p. 188 ; Chester C. McGown, *The Ladder of Progress in Palestine* (New York, 1943), pp. 61-63 .

وبينها إله وإلهة الخصب^١ يعتقد أنها أول تمثيل معروف للشكل البشري بواسطة المعدن .

وقد أدى نمو صنع المعادن والحرف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي الحبري وأوائل العصر النحاسي إلى ظهور حرف مختلفة وزيادة في العلاقات التجارية بين القرى والمدن . ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل . وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت . وبدأت التجارة تتخذ شكلاً دولياً . وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين سورية وفلسطين ولبنان من جهة ومصر وبلاد بابل من جهة أخرى عاملاً أساسياً في حياة هذه البلاد في العصور التالية . وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها في الشرق الأدنى نشاطاً عظيماً كما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقوة الكهربائية .

ولم يبق سوى اختراع عظيم واحد حتى يظهر ضوء عصر التاريخ : ذلك الاختراع هو الكتابة . وقد أتت أول الوثائق المكتوبة المكتشفة حتى الآن من سومر حوالي ٣٥٠٠ ق. م. وانتشرت الكتابة من جنوبي بلاد الرافدين إلى شمالي سورية وأصبحت متقدمة تماماً في أوائل الألف الثالث . وبالكتابة يبدأ التاريخ . ولكن قبل أن ندخل في بحث عصر التاريخ في حياة سورية علينا أن نلقي نظرة على البلاد نفسها التي كانت مسرح الحوادث التاريخية .

(١) وهي الآن في متحف المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو . انظر دليله : *Handbook and Museum Guide* (Chicago, 1941), pp. 6-7

الفصل الرابع

مسح الحوادث

ان الصفة البارزة للطبوغرافية السورية هي تناوب الاراضي المنخفضة والاراضي المرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضاً وتتجه من الشمال الى الجنوب . ويمكن تمييز سلسلة من خمس مناطق طولانية من هذا القليل بين البحر والبادية .

السهل الساحلي

واول هذه المناطق من جهة الغرب هو السهل الساحلي الذي يمتد على ساحل البحر المتوسط الشرقي من شبه جزيرة سيناء الى خليج اسكندرون (ايسوس القديمة) . وينحصر هذا السهل بين البحر والجبل فيتسع في الشمال والجنوب ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان . وفي القسم الذي يحاذي لبنان لا يزيد عرض هذا السهل عن اربعة اميال في اي جزء من اجزائه بينما يبلغ اتساعه عشرين ميلاً عند عسقلان . وفي بعض الاحيان يكون الارتفاع من السهل الساحلي مفاجئاً بشكل يستلفت النظر . ففي جونية شمالي بيروت تلي السهل الساحلي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً تلال ترتفع مقدار ٢٥٠٠ قدم على بعد اربعة اميال من البحر . وعلى ثلاثة اميال الى الجنوب عند مصب نهر الكلب (نهر ليكوس Lycus الكلاسيكي) تصل المرتفعات الجبلية الى البحر وبذلك تعطي السكان موقعاً استراتيجياً لمنع مرور القوات المعادية . كذلك في الكرمل يحول الراس الجبلي دون وجود اي سهل ويترك ممرأ يكاد لا يبلغ عرضه ٢٠٠ ياردة على الساحل وهكذا يتحول الى الداخل ذلك الطريق الدولي العظيم الذي كان في العصور القديمة يبدأ بمصر ويتابع الساحل نحو الشمال .

ويرجع اصل معظم السهل الساحلي الى ارتفاع قاع البحر القديم في ذلك العصر الطبقي البعيد المعروف بالدور الثالث . وقد ترسب فوق الطبقة الطبشورية في بعض الاماكن طمي ات بها المياه الجارية من المنحدرات الجبلية ونشرته .

والترسبات الرملية التي تحيط ببيروت قد تركتها امواج البحر المتوسط التي تتلقاها بدورها من نهر النيل. وعلى ذلك فإن الساحل المكون من شواطئ رملية واحواض بحرية والذي تزيد في ثروة تربته وترويح المرتفعات المجاورة هو سهل خصب جداً في جميع اجزائه ويشمل في الجنوب تلك السهول المشهورة في الازمنة القديمة وهي سهل صارونة وسهل فلسطين ومنها اتي اسم فلسطين كما يشمل ساحل الناصرة في الشمال ومنطقة الساحل في لبنان .

والساحل بكامله من اكثر السواحل استقامة في العالم فلا يوجد فيه خليج نهري عميق او اي خليج آخر مهم الا في الشمال حيث خليج اسكندرون . ومن هذا المكان حتى حدود مصر يكاد لا يوجد على مسافة ٤٤٠ ميلاً اي ميناء يستحق الذكر .

السلسلة الغربية

وتشرف على الساحل السوري سلسلة من الجبال والهضاب تبدأ بالامانوس في الشمال وتمتد حتى جبل سينا المرتفع في الجنوب واهم اجزاها لبنان الغربي وهو لبنان الحقيقي . ولبنان هو الهيكل الذي ترتبط به السهول والمنخفضات المجاورة ارتباطا اعمق بالعظم . هذه السلسلة الجبلية هي ثاني المناطق الطولانية وتشكل اول حاجز للمواصلات بين البحر وما يقع وراءه في الشرق ولا يمكن اختراق هذا الحاجز بصورة حقيقية الا في الطرفين الشمالي والجنوبي وذلك عند خليج اسكندرون حيث يجري الاتصال بطريق الجسر السوري مع سهول ما بين النهرين ، وعند برزخ السويس الذي يجري الاتصال بواسطته مع البحر الاحمر او مع الصحراء العربية . وبين هذين الطرفين يمكن اختراق الحاجز الجبلي فقط في وادي النهر الكبير (وهو Elaphtherus القديم) شمالي طرابلس وعند تصدع مرج ابن عامر شرقي عكا وحيفا .

والامانوس^١ هو التواء فرعي يمتد من جبال طورس (التي تفصل سورية عن آسيا الصغرى) باتجاه الجنوب ليتصل بكتلة الجبال السورية . ويحيط امانوس بخليج اسكندرون فيشكل حاجزاً بين سورية وكليكية ويرتفع الى نحو ٥٠٠٠ قدم عن سطح البحر . ويشق نهر العاصي (الاورنتس Orontes) طريقه الى البحر في الطرف

(١) جبل الكام بالعربية (من السريانية «اوكاما» *akkāma* اي اسود) وبالتركية جبل كاورداغ (*Giaour Dag* اي جبل الكفار اي المسيحيين) لانه كان لملة طوية حصن الامبراطورية البيزنطية ضد الاسلام .

الجنوبي من امانوس . وتعتبر هذا الجبل طرق تمتد الى انطاكية وحلب وتمر بالمر الرئيسي وهو مضيق بيلان المعروف باسم «ابواب سورية» (Pylae Syriae) . ويتشكل امانوس من صخور كلسية كما في لبنان ومن صخور بركانية وتوجد صخور السربنتين قرب الاسكندرون وتحتوي معدن الكروم الذي يكثر في الجبال التوكية بشكل خاص^١ .

وتستمر السلسلة الغربية جنوبي مصب العاصي في جبل الاقرع (وهو جبل كاشيوس Casius في العصر الكلاسيكي) الذي يرتفع الى ٤٥٠٠ قدم ومن هناك تمتد الى جوار اللاذقية (Laodicea) حيث تعرف بجبال النصيرية (Bargylus)^٢ ثم تتابع سيرها الى نهر الكبير الجنوبي^٣ . وبشكل هذا النهر الذي ينبع من جبال النصيرية الحد الفاصل بين هذه الجبال وبين جبال لبنان كما انه يكون الحدود السياسية الحالية بين لبنان وسورية . وسلسلة النصيرية تتألف من صخور كلسية جوراسية مع مواد بازلتية دخيلة^٤ . وشكلها العام بسيط نسبياً ولكنه يتضمن اودية عميقة متعددة واخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار تحصن فيها جماعة الحشاشين الذين اقاموا في سورية والتجأ اليها المسلمون غير السنيين المعروفون بالنصيرية . وبعض تلأل هذه السلسلة لا تزال تتوجها الحرايب المهيبة للقلاع الصليبية القديمة .

لبنان

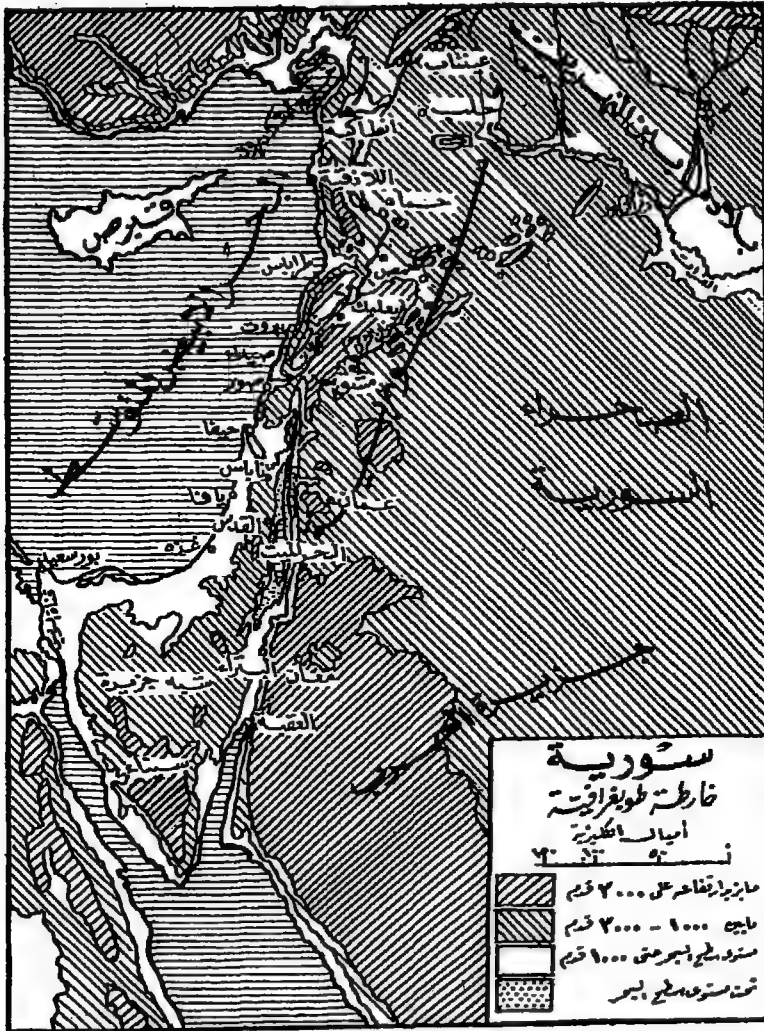
وتبلغ السلسلة الغربية ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الالية في جبال لبنان التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية شمالي صور على مسافة ١٠٥ اميال . ويأتي اسم لبنان من الاصل السامي «لبن» بمعنى البياض . وقد سميت الجبال كذلك بسبب الثلوج التي تغطي قممها نحو ستة شهور في السنة ، ويبقى الجليد في الفجوات الكثيفة في قمم

(١) انظر : Max Blanckenhorn, *Handbuch der regionalen Geologie*, Vol. v. pt. 4, *Syrien und Mesopotamien* (Heidelberg, 1914), pp. 5, 14, 29; Alfred E. Day, *Geology of Lebanon* (Beirut, 1930), p. 30.

(٢) Pliny, *Natural History*, Bk. V, ch. 17, § 20

(٣) يقول الجغرافي العربي الاصطخري في القرن العاشر في كتابه مسالك الممالك طبعة م. ج. دي غوية M. J. de Goeje (لندن، ١٨٧٠) ص ٥٥ ان الحكم يمتد حتى اللاذقية في الجنوب ويسمي جبال النصيرية «هراء» . انظر : René Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale* (Paris, 1927), p. 146.

(٤) انظر : Louis Dubertret et al., *Contributions à l'étude géologique de la Syrie septentrionale* (Paris, 1933), vol. i, pp. 23-4.



الجبال على مدار السنة . وترتفع اعلى قمة في لبنان وهي القرنة السوداء الى ١١٦٠٢٤ قدماً عن سطح البحر . وتقع في جوارها قمة ظهر القضب التي تحتضن غابة الارز القديمة الباقية حتى اليوم وهي دون القمة المجاورة بنحو مئة قدم . واما جبل صنين المهيب الذي يشرف على بيروت وخليج مار جرجس فان ارتفاعه اقل من ظهر القضب بمئة قدم ايضاً .

تقع غابة الارز التي ذكرناها في بقعة كللدوج يعتقد علماء الطبقات انها كانت نهاية جمودية في عصر ما قبل التاريخ^١. ووصل جليد العصر الجليدي حتى موقع نيويورك في اميركا وغطى شمالي اوربا غير انه لم يصل اي مكان قرب سورية. ومع هذا فان تزايد البرد قد اوجد جموديات محلية كالتى ذكرناها. وبما هو اكثر اهمية من توسع الجليد كهصفة لهذا العصر الجليدي ان الدلائل الاولى لوجود الانسان شوهدت في رسوبيات هذه الفترة. ويبدو ان الانسان الاول ظهر في اوربا خلال آخر فترة ما بين العصور الجليدية حيث ساعد الدفء على انسحاب الجليد بصورة مؤقتة. وفي حوالي نفس الوقت ان لم يكن قبل ذلك ظهر البشر الاولون في سورية وسائر بلاد الشرق الادنى.

ونخبرنا علماء الطبقات انه قبل ذلك بعصور كثيرة كانت مياه ما نسميه اليوم بالبحر المتوسط تغطي اراضي سورية بأسرها والبلاد الواقعة بجوارها حتى شمالي الهند. وكان ذلك في العصور الجوراسية^٢ والكريتاسية البعيدة. وخلال هذه الاحقاب الطويلة تراكت الرسوبيات الآتية من الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر هذا الامتداد السابق للبحر المتوسط (المعروف باسم تيثس Tethys) لكي تشكل الصخور الكلسية التي يتألف منها معظم السلسلة الغربية في سورية. وفي الدور الثالث الطبقي الذي اتى بعد العصر الكريتماسي (الطبشوري) حصلت حركات ارضية واسعة نتج عنها تضيق رقعة تيثس الهائلة وادى الامر الى ظهور جبال النصرية ولبنان الغربي والشرقي ومرتفعات اليهودية وهضاب الصحراء العربية وذلك برفع الطبقات السفلى والتوائها. وتساعد البقايا الحيوانية التي دفنت في الرسوبيات وتحجرت فيها بعد على تحديد العصر الذي حصلت فيه عملية الترسب. ومن اشهر الاماكن التي وجدت فيها الاسماك المتحجرة ساحل علما (قرب جونيه) وحافل (فوق جبيل او بيبولس القديمة^٣) واقدم اشارتين لاشك فيهما الى الاسماك المتحجرة في الادب تظهر ان احدها في ترجمة لاحد الصليبيين في عام ١٢٤٨ في صيدا^٤ والاخرى في كتابات البيروني قبل ذلك بقرنين في منطقة جنوب شرقي بحر الحزر^٥.

(١) G. Zumoffen, *Géologie du Liban* (Paris, 1926), pp. 152-3; Day, p. 21

(٢) وسيت كذلك باسم جبال الجورا بين فرنسا وسويسرا التي ترجع الى هذا العصر.

(٣) انظر : Zumoffen, pp. 137-41

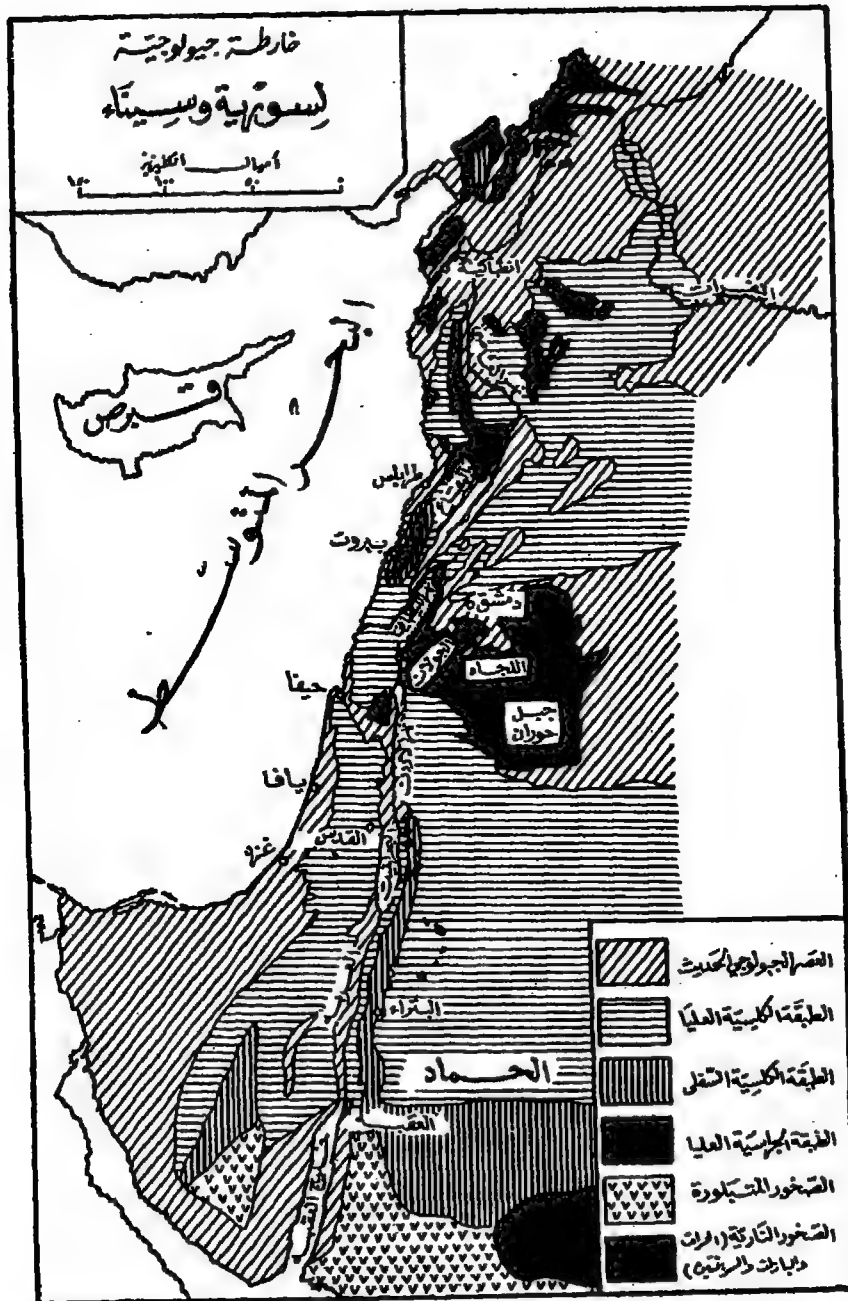
(٤) انظر : Joinville, *Histoire de Saint Louis*, ed. Natalis de Wailly (Paris, 1874), § 602.

(٥) راجع: صفة العمود، لناشره أ. زكي والدي طوكان (نيودلهي ١٩٤١) ص ٥٦

وتضم صخور لبنان سلسلتين عليا وحفلى من الصخور الكلسية بينها طبقة متوسطة من الصخور الرملية . والسلسلة العليا من الطبقات الكلسية في لبنان تشكل قمم الجبال وتتراوح في سمكها بين بضعة مئات من الاقدام وخمسة آلاف قدم . اما قاعدة الطبقات السفلى فانها ليست معرضة في اي مكان حتى يمكن تقرير سمكها . وبينما تشكل هذه الطبقات السفلى القسم الاسفل في الوديان العميقة فانها ارتفعت بواسطة الالتواءات الى نحو ٤٠٠٠ قدم في كسروان و ٧٠٠٠ قدم قرب تومات نيجا (وهما القمتان التوأمان قرب جزين شرقي صيدا) والى نحو ٩٠٠٠ قدم في جبل حرمون . وتنتشر بكثرة على سطح الطبقة الكلسية السفلى في لبنان الشرقي والغربي قطع من فلزات الحديد تبرز للعيان وكانت عملية اذابتها تحصل حتى العصور الحديثة في افران بدائية وقد ساعد ذلك على تعرية لبنان من الاشجار بالشكل الذي نراه فيه الآن^١ .

والصخور الكلسية في الطبقات العليا هي التي سيطرت على مشاهد لبنان خلال العصور . ولونها المائل للرماذي هو الذي اعطى المناظر شكلها . واثكال هذه الصخور قد اعطى التربة للزراعة وجعل الطرق كثيرة الغبار في الصيف ، ومن حجارها انت مواد البناء . وقد نفذت مياه المطر بصورة مستمرة خلال طبقة الصخور الكلسية العليا حتى طبقة الرمال والطين التي تغطي الطبقة الكلسية الدنيا وتحفظ بالمياه فتوجد تلك الينابيع المتدفقة المتلألأة التي تمنح نعمة الحياة للاودية والمنحدرات .

وسلسلة الطبقات المؤلفة من الصخور الرملية التي تنحصر بين الطبقة الكلسية العليا من العصر الكريتاسي الاخير وبين الطبقة الكلسية الدنيا من العصر الجوراسي الاخير هي من العصر الكريتاسي الاول في بعض اقسامها . وتشكل امتداداً شمالياً للصخور الرملية النوبية في مصر وسيناء والجزيرة العربية وشرقي الاردن . وكثافة الطبقات الرملية في لبنان تتراوح بين بضعة مئات من الاقدام وبين الف قدم . وتخلو هذه الطبقات الرملية من المتحجرات ولكنها تحوي طبقات رقيقة من الليغنيت التي استخرجت محتوياتها في العصور الحديثة لتقديم الوقود لمعامل الحرير ولاجل السكك الحديدية في الحرب العالمية الاولى . وفي بعض المناطق ومنها



كسروان والمتن شرقي بيروت حيث أزال التأكل طبقة الصخور الكلسية العليا أصبحت طبقتا الصخور الرملية والصخور الكلسية الدنيا ظاهرتين للعيان . وطبقة الصخور الكلسية الدنيا وهي سمراء مائلة الى الاحمرار تكون في بعض الاماكن ذات الران غنية متنوعة وتبدو في احسن مظاهرها ليس في لبنان وانما في البتراء . وتنتج عنها تربة صالحة بشكل خاص لنمو الصنوبر . وعندما تختلط بالطين وتروى بالمياه فانها تعطي التربة الخصبة لبساتين التوت والفواكه التي يقوم عليها جانب عظيم من ازدهار السهل الساحلي حول بيروت .

ويضع المشهد اللبناني امامنا الخطوط الصارمة للمرتفعات المتعددة الالوان المنحوتة بشكل واضح من جهة ، والبحر الذي يضيئه شعاع الشمس ويبدو فيه اللون النيلي الغني كما يتلون سطحه بمختلف الالوان من جهة اخرى . وتستمد المشاهد وضوحها من السماء الصافية والافق البعيد ومن ذلك الجو الرائق حيث تظهر بوضوح خطوط المظاهر الطبيعية والوانها وحيث يمكن ادراك ذلك التباين الشامل بين البر والبحر وبين الجبال والادوية . وقد اثر هذا الجمال بسحره على الشعراء والمغنين - ولا يزال - منذ ايام العبرانيين حتى العصور العربية .

موطن اللاجئين

وبما ان طبقات جبال لبنان مائلة على العموم وملتوية وعامودية اكثر منها افقية فقد نتج عن ذلك خليط من التلال والشواهي والادوية بما يجعل المواصلات صعبة بين مناطق البلاد واقسامها . ويزيد الامور تعقيداً ان الزحول او التصدعات تكثر في عموم المناطق وان مختلف الاراضي قد ضغطت بعضها على بعض عند خطوط الانهدامات فحطمت بعضها بعضاً وذلك عندما تعرضت القشرة الارضية في العصور البعيدة للضغط والالتواء . ومثل هذه الاراضي كانت خلال العصور ملاحية للافراد والجماعات الذين اختلفت ميولهم السياسية وعقائدهم الدينية عن اهل بيئتهم كما انه كثرت فيها بشكل غير معتاد الادوية المرتفعة والمساحات الخصبة فقصدها السكان المجاورون المتصفون بكثرة النشاط وبتعشق الحرية . وهكذا فان الموارنة والدروز والشيعية (الذين يعرفون بالمتاولة في سورية) استقروا في معاقل لبنان وحافظوا على كيانهم . وكان الارمن والاشوريون الذين هربوا من مساوي الحكم العثماني من آخر الشعوب التي وجدت لها مأوى هناك . وقد اثر النساك والزهاد

المسيحيون كهوف لبنان على مسرات هذه الحياة الدنيا ، ولجأت قبائل من اللصوص اليها ولكن لأسباب مختلفة^١ . وهناك عدد كبير من المغاور اليوم مكرسة للعدواء وسائر القديسين كما ان وادي نهر قاديشا^٢ بكامله ويمتد من جوار غابة الارز الكبرى حتى طرابلس قد احتفظ باسمه السرياني الذي يعني « مقدس » .

فجبال لبنان وهي جبال بكل معنى الكلمة قد كانت خلال العصور موطن اللاجئين وقضاياهم الفاشلة كما انها كانت آخر المناطق التي سقطت في ايدي الغزاة الاجانب .

الجليل

وفلسطين من الوجهة الطبقيية هي امتداد لبنان باتجاه الجنوب^٣ . وسهل لبنان الساحلي يستمر في سهل صارونة^٤ المتموج الذي يمتد من الكرمل الى جنوبي يافا ويتصل بساحل المنطقة الفلسطينية (فلسطينيا)^٥ . وتستمر سلسلة سورية الغربية جنوبي انهدام القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الاعلى وهو بالواقع قسم منعزل من جبال لبنان وفي سلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم الجليل الادنى . وتبلغ مرتفعات الجليل الاعلى ذروتها في جبل جرمق شمالي صفد حيث تبلغ ٣٩٣٥ قدماً وهي اعلى قمة في فلسطين . ويرتفع الجليل الادنى الى ١٨٤٣ قدماً عند جبل طابور قرب الناصرة . وتشهد السلسلة الغربية بعد ذلك اعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر (Esdraelon) الذي يجتاز فلسطين بكاملها فيفصل تلال الجليل في الشمال عن مرتفعات السامرة واليهودية في الجنوب . وتشمل تلال السامرة التي تنحدر الى الاودية بجبل عيبال (الجبل الشمالي وارتفاعه ٣٠٧٧ قدماً) ويجبل جرزيم (٢٨٤٩ قدماً) وهو جبل السامريين المقدس . وننتقل من هذه التلال بصورة تدريجية لا يشعر بها الى هضبة اليهودية الكلسية المتراصة والوعرة التي تبلغ ذروتها جنوبي حبرون حيث يرتفع /

(١) Strabo, *Geography*, Bk. XVI, ch. 2, §§ 18, 20

(٢) ويسمى نهر ابي علي قرب مصبه في البحر .

(٣) Day, p. 24 ; cf. Dubertret, pp. 70-73

(٤) من العبرية شارون *shāron* ومعناها سهل . ولا يوجد اسم عربي له .

(٥) انظر ما جاء بشأن الفلسطينيين في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

جبل جتة^١ الى ٣٧٤٧ قدماً عن سطح البحر . وتقع اورشليم على ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً . ثم تتحدر هضبة اليهودية بتموجات عريضة نحو بئر السبع . وقد سميت هذه المنطقة الجنوبية القاحلة باسم مناسب من قبل العبرانيين وهو النقب (الارض الملقوطة) .

الكهوف

ان التشكيلات الكلسية الواسعة التي تتجه في لبنان نحو البحر بشكل رؤوس وتحفر فيها الامواج بعض الكهوف يمثلها لنا جبل الكرمل الذي يرتفع ١٧٤٢ قدماً عن البحر وقد وجدت في كهوفه هياكل اقدم البشر في الشرق الادنى^٢ . وقد تكون بعض الكهوف الان في مناطق بعيدة في الداخل حيث كان يصل البحر وما يرفده من انهار جوفية في سالف العصور . وربما وسع سكان الكهوف او اجرؤا تعديلات في المغاور والكهوف التي اتخذوها مسكناً لهم . واستخدمت هذه الكهوف ملاجئ للضطهدين لاسباب دينية او سياسية كما في لبنان . وقد التجأ ايليا عند هربه من غضب زوجة آخاب الى الكهوف وكذلك فعل داود حين هرب خوفاً من انتقام شاول^٣ . ومن الكهوف ما استخدم كمكان للدفن^٤ . وربما كان المكان الذي دفن فيه جسد المسيح مغارة من هذا القبيل فاصبحت اقدس مكان في العالم المسيحي .

حوض الصدع او الزحول

والمنطقة الطولانية الثالثة في سورية هي عبارة عن حوض طويل ضيق يحتل مكاناً متوسطاً في البلاد . وبعد ان يبدأ هذا الحوض في الشمال عند المنعطف الغربي للعاصي في سهل متسع يسمى العمق^٥ فانه يرتفع عند حماة الى نحو ١٠١٥ قدماً عن سطح البحر

(١) في الترجمة العربية لتوراة « يوطة » (سفر يشوع ١٥ : ٥٥) وهي يثا الحالية . انظر :

F. M. Abel, *Géographie de la Palestine*, vol II (Paris, 1938), p. 91.

(٢) انظر ما جاء في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

(٣) سفر الملوك الاول ١٩ : ٩ : سفر سموئيل الاول ٢٢ : ١ .

(٤) سفر التكوين ٢٣ : ٩ : ٤٩ : ٢٩ - ٣١ .

(٥) وقد ورد اسمه اولتي « Unqi » في النصوص الاشورية . انظر : Daniel D. Luckenbill, *Ancient Records of Assyria and Babylonia*, vol. I (Chicago, 1926), §§ 769, 772, 821.

ثم يسمى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان ويستمر جنوباً في وادي الاردن حتى البحر الميت ومن هناك بطريق وادي العربية حتى خليج العقبة وهو النفوس الشرقي للبحر الاحمر . وقد تشكل هذا الحوض بتصدد منطقة وزحول جانب منها في قشرة الارض في عصور طبقية حديثة نسبياً^١ . ان التصدد هذا الذي يشمل وادي البقاع والاردن والعربية هو من اغرب المظاهر في سطح الارض وخاصة في قسمها الجنوبي . ويرتفع سطح هذا الحوض المتصدع عند الحولة سبعة اقدم عن البحر ، وعند بحيرة طبرية ينخفض ٦٨٥ قدماً عن البحر واما عند البحر الميت فانه يبلغ ١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر وهذا الانحدار غاية في السرعة^٢ . هنا اذا يقع « قبو العالم الحقيقي » حيث لا يوجد مثل هذا الانخفاض الملموس في اي مكان آخر .

البقاع

يتراوح عرض البقاع^٣ وهو الجزء الكائن بين سلسلتي لبنان بين ستة وعشرة اميال ويرتفع في جوار بعلبك الى ٣٧٧٠ قدماً عن سطح البحر . وبقرى هذه المنطقة تقع نقطة توزع المياه حيث يتجه العاصي ببطء نحو الشمال بينما يتجه الليطاني نحو الجنوب . والعاصي هو اطول انهار سورية لان الفرات ليس نهراً سورياً من حيث منبعه او من حيث مجراه الكامل . والعاصي والليطاني هما النهران الكبيران الوحيدان في سورية . ويجذو الليطاني حذو العاصي عندما ينعطف فجأة في مجراه الاسفل نحو الغرب عند سفح قلعة الشقيف^٤ الصليبية ويشق طريقه في صخور لبنان الكلسية في الطبقة الكريتاسية العليا ويسمى بالقاسمية قبل مصبه بين صور وصيدا .

(١) Picard, pp. 4 seq.

(٢) انت تسمية الاردن من العبرية « يردن » اي التنازل . وتسمى بحيرة طبرية Genessaret في العهد الجديد (لوقا ١٠ : ١٠ ؛ يوحنا ٦ : ١) . وفي العهد القديم تسمى Chinnereth (اي شيه بالقيثار) انظر سفر العدد ٣٤ : ١١ ؛ فارن مع سفر الملوك الاول ١٥ : ٢٠ . والحولة كانت تسمى في العصر الكلاسيكي بحيرة سيمخ Semechonitis .

(٣) ومعناه الحارثي « حيث تركد المياه » وهو سووية الجوف في العصر الكلاسيكي وكانت تضم حوران وقسماً من الاردن . انظر : Strabo, XVI. 2. 21 ; Josephus, *Antiquities of the Jews*, I, 11. 5 ; XIII. 13. 2, 3.

(٤) وكانت تعرف بقلعة Belfort .

وبما ان هذين النهرين يجريان في سهل البقاع فان الاراضي حولهما هي اوسع اراضي للرعي واحسنها في سورية . وبما ان رواسب الطمي الحديثة والغرين تكسو هذه الاراضي فانها تشكل انسب تربة للزراعة . غير ان مجرى العاصي مثل كثير من الانهار الاخرى منخفض لدرجة تجعل استخدام مياهه بسهولة متعذراً . ولذلك استعملت التواعير^١ لرفع المياه لسطح الارض وقد نامت على صوتها المطرد النغم في حماة اجيال متعاقبة من الناس منذ العصر الروماني .

ويبلغ طول (وادي الاردن^٢) نحو خمسة وستين ميلاً ويتراوح عرضه بين ثلاثة واربعة عشر ميلاً . وتتلقى هذه الحفرة الفريدة عدداً كبيراً من السواقي من المنحدر الغربي مما يجعل فلسطين ارضاً تنصرف مياهها بكثرة وتتجه هذه المياه في النهاية الى اكثر البحيرات ملوحة في العالم . ودرجة ملوحة مياه البحر الميت غير المعتادة ناتجة عن عدم وجود مخرج من جهة وعن الاتصال بالاقيانوس في عصور ما قبل التاريخ من جهة اخرى . وتحوي هذه المياه نسبة مرتفعة من البرومين والبوتاس وكلوروات المغنيزيوم . وهناك صخور كلسية قيرية واسفلت من النوع الممتاز في البحر الميت وما حوله وكذلك في حاصبيا عند السفح الجنوبي الغربي لجبل حرمون .

الزلازل والبراكين

وتدل المنحدرات المتصدعة في لبنان والوادي المتصدع الكبير الذي يستمر في منخفض الاردن والبحر الميت على وجود منطقة للزلازل هناك . غير ان منطقة الهزات الارضية لا تقتصر على اماكن الزحول والتصدع . فالهضبة الواقعة شرقي جبل حرمون وجنوبي دمشق تحترقها خطوط من البراكين الحامدة وتعلوها في اماكن متفرقة حقول المواد البركانية . وتوجد ينابيع مياه حارة موزعة في بعض المساحات كما في طبرية ومنطقة البحر الميت وتدمر .

وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سورية اكثر من بروز البراكين في جغرافيتها فقد اصبحت انطاكية في طرف سورية الشمالي بالزلازل خلال العصور وخربتها في

(١) ومفردتها ناعورة ومنها انت كلمة noria الافرنجية .

(٢) ويسمى غور الاردن او النور . ويسمى الاردن ايضاً نهر الشريعة . انظر ابو الفدا ، تقويم البلدان طبعة M. Reinaud and M. de Slane (باريس ١٨٤٠) ص ٤٨ .

القرون الستة الاولى الميلادية لا اقل من عشر مرات^١. وتشاهد في جدران معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل وكذلك الامر في القلاع الصليبية الباقية. ويشير تهدم اسوار اريحا المفاجيء في عصر الغزو الاسرائيلي وكذلك خراب سدوم وعمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت الى حصول زلازل بالاضافة الى النيران في الحالة الاخيرة التي كان سببها ما انتجته الزلازل من ترشحات نفطية وينابيع من الاسفلت. وعندما كان انبياء العبرانيين وشعراؤهم ومؤرخوهم يكتبون في وصف سلطة يهوه وقدرته فانهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الارضية التي ترافقها الامواج المرتفعة كما انهم كانوا يستخدمون الصورا المألوفة مسبقاً والمتصلة بهذه الحوادث^٢. ويجبرنا العهد الجديد في التوراة عن حدوث زلزال عند صلب المسيح وآخر عند قيامته.

وقد كانت مثل هذه الامواج التي يسببها المد عند حدوث الزلازل مخربة بشكل خاص في الساحل الفينيقي. ونال صور وصيدا الكثير من اذاها ومن اذى الهزات^٣. وبما جعل صور تتأثر بصورة خاصة طراز مبانيها من نوع «ناطحات السحاب» حيث بلغ ارتفاع بعضها سبعين قدماً او اكثر^٤. وحصلت آخر زلزلة عنيفة في شمالي سورية عام ١٨٢٢ وحولت حلب وغيرها من المدن الى مجموعة من الخرائب واهضت عشرات آلاف الارواح. وآخر زلزال قوي في فلسطين كان في ١٨٣٧ وهدم صفد تهدية تاماً^٥.

السلسلة الشرقية

تشكل السلسلة الشرقية المنطقة الرابعة في تضاريس سورية. وتبدأ السلسلة في نقطة جنوبي حصص وتقابل لبنان الغربي بلبنان الشرقي^٦ على طول واحد وارتفاع

(١) انظر: Ellen C. Semple, *The Geography of the Mediterranean Region* (London, 1932) p. 42.

(٢) انظر سفر عاموس ٥ : ٨ : ٩ : ٦ : اشعيا ٢٩ : ٦ : ايوب ٩ : ٥ - ٦ : ٢٨ : ٩ : المزمير ٦٠ : ٢ : ١١٤ : ٣ - ٤ : الملوك الاول ١٩ : ١١ : العدد ١٦ : ٣١ - ٣٢.

(٣) انظر: Seneca, *Questiones naturales*, VI. 1. 11, 13; 24. 5; Strabo I. 3. 16.

(٤) Strabo V. 3. 7.

(٥) Francis R. Chesney, *The Expedition for the Survey of the Euphrates and Tigris* (London, 1850), vol. I, pp. 436, 441; H. B. Tristram, *The Land of Israel*, 3rd. ed (London, 1876), p. 567.

(٦) ويسميه الجغرافيون العرب سنير واحياناً كانوا يطلقون الاسم على قسم من السلسلة فقط. ياقوت ج ٣ ص ١٧٠.

واحد تقريباً ثم تنحدر من حرمون^١ بسرعة نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي الجولان^٢ ومن هناك تستمر في شرقي الاردن في تلال جلعاد وهضبة مؤاب المرتفعة وتنتهي في جبل سعي^٣ جنوبي البحر الميت .

لبنان الشرقي

وتقسم هضبة بردى (نهر أباتا في التوراة) وواديه سلسلة لبنان الشرقي الى قسمين : شمالي لا يكاد يوجد في منحدره الغربي قرية واحدة ، وجنوبي حيث يقوم جبل حرمون وهو من اعلى قمم سورية (٩٣٨٣ قدماً) واكثرها جلالاً وتكثر القرى في منحدره الغربي . وبسبب قلة الامطار والنبات في لبنان الشرقي فضلاً عن الاسباب الاخرى فان سكانه اقل كثافة ورقياً من لبنان الغربي . وقد اتاه سكانه عموماً من شرقي سورية^٤ . وتر الحدود الشرقية للجمهورية اللبنانية اليوم بجبل حرمون وتعطف حول الزبداني وتتبع ذرى القسم الشمالي من لبنان الشرقي . وتسير سكة حديد بيروت - دمشق في وادي الزبداني وبردى .

وينبع نهر بردى في مرتفعات وادي الزبداني الغني ويتجه نحو الشرق ويحيي قسماً كبيراً من الاراضي السورية التي بدونها كانت تبقى قاحلة ويعمل على خلق مدينة دمشق وهي مركز الحضارة الامامية على ابواب البادية . وبعد ان يروي بساتين دمشق المشهورة التي تشكل الفوطة وقد سميت دمشق بالفيحاء بسبب رائحتها الذكية ؛ فانه يتفرع الى خمسة فروع او جداول تفيد منها شوارع العاصمة السورية ومنازلها . ويرجع نظام المياه في دمشق الى عهد الخلفاء الامويين الاولين^٥ .

(١) وهو جبل سيريون المذكور في المزامير ٢٩ : ٦ ؛ سفر التثنية ٣ : ٩ . ويسمى حديثاً جبل الشيخ ، وجبل الثلج في المتنسي : احدث التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبعة م . ج . دي غويه (ليدن ١٨٧٧) ص ١٦٠ ؛ ابو الفداء ص ٤٨ ، ٦٨ .

(٢) من المبرية Golān بمعنى « دائرة » وفي المصور الكلاسيكية Gaulanitis . ويذكر الجولان في ياقوت : معجم البلدان ، طبعة وستفالد ج ٢ (ليزبك ١٨٦٧) ص ١٥٩ .

(٣) وفي المبرية سعي وهو مرادف تقريباً لأدوم .

(٤) ويشير اسم « اهل الجبل » او الجبليين الى سكان السلسلة الغربية .

(٥) انظر ما سبقه في الفصل السابع والثلاثين من هذا الكتاب عن دمشق الاموية .

حوران

ويمتاز سطح هضبة حوران^١ بأنه بركاني في قسمه الاعظم وفيه صخور بازلتية ورتبة غنية . وتبدأ الاراضي البركانية في التلول جنوبي دمشق وتشمل مساحة طولها ستون ميلاً بما يعادلها عرضاً وهي اكبر مساحة من هذا النوع في سورية^٢ . ويحد هذه الاراضي في الشمال الشرقي منطقة اللبعا^٣ ذات الحجارة السوداء وهي ملجأ - كما يدل اسمها العربي - للقبائل المتمردة في مختلف العصور وفي الجنوب الشرقي المنطقة الجبلية المعروفة باسم جبل حوران او جبل الدروز . واحتلال الدروز لهذه المنطقة امر حديث نسبياً ويرجع الى اوائل القرن الثامن عشر على اثر الاضطرابات الحزبية في لبنان^٤ . وترتفع هذه الكتلة الجبلية في شرقي حوران الى ما بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ قدم وتقوم بين حوران والبادية . وتمتد المنطقة البركانية غرباً حتى تشمل الجولان . وينتج حوران القمح بكثرة ومراعيه جيدة غير انه قليل النبايع ولا اشجار فيه . وتتألف التربة من مواد بركانية سوداء منحلة ومن غرين احمر وهي غنية في المواد المغذية للنبات وتحتفظ بالرطوبة وتغطي الصخور الكلسية التي تشكل الصخور السطحية في سائر الاماكن . وتشمل البقايا الاثرية في حوران الاضرحة القديمة - وهي من صنع الانسان البدائي - ومعالم الطرق المندثرة والاقنية والصهاريج والمباني والحصون الرومانية والبيزنطية التي تدل على ازدهارها السابق وعلى انها كانت مخزن حبوب الامبراطورية . ولا تزال تمون فلسطين ولبنان بالقمح كما كانت تفعل في عهد العبرانيين والفينيقيين .

(١) وهي منطقة Auranitis في العصر الكلاسيكي، ويأشان في التوراة : وجورانو عند الاشوريين (انظر Luckenbill, vol. I, §§ 672, 821) اي « الارض الموحدة » . وتقتصر حوران في المعنى المحدود للكلمة على السهل الواقع شرقي الجولان وغربي البعا وجبل الدروز ، وفي المعنى الواسع وتمتد في العهد الميثاني كانت تشمل هذه المناطق الثلاث بالإضافة الى عجلون .

(٢) انظر : D. G. Hogarth, *The Nearer East* (New York, 1915), p. 66.

(٣) ويشير العرب الى هذه المنطقة والى منطقة الصفا التي تجاورها في الشرق باسم الوعر مما يقابل اسمها الكلاسيكي، Trachonitis . انظر كتاب : George A. Smith : *The Historical Geography of the Holy Land*, 11th ed. (New York, 1904) pp. 615 seq. ; do., *Syria and the Holy Land* (London, 1918) p. 29.

(٤) سليمان ابو عز الدين : « توطن الدروز في حوران » مجلة الكلية ١٢ م (١٩٢٦) ص ٣١٣ - ٣٢٣ . انظر ما سنذكره في الفصل ٤٩ من هذا الكتاب عن هذه الحوادث .

وتمتد اراضي حوران البركانية باتجاه الجنوب الشرقي في صحراء الحماة الى تلك الحقول الحجرية في الحجاز المعروفة باسم « حرات ١ » . وتستمر الطبقات الكريتاسية العليا في السلسلة الشرقية في شرقي الاردن وتبلغ ذروتها في الشمال في جبل عجلون (٤١٣٧ قدماً) وجبل جلعاد^٢ (٣٣٩٧ قدم) الذي يجاوره . وترتفع في الجنوب قرب الكرك^٣ الى ارتفاع ٣٧٧٥ قدماً فوق سطح البحر بينما تبلغ طبقات الصخور الرملية قرب البتراء ارتفاع ٤٤٣٠ قدماً .

بادية الشام

وتتدرج هضاب شمال شرقي حوران وشرقي الاردن نحو منطقة السهوب والحرات والرمال وتلتقي أخيراً بالأراضي القاحلة التي تشكل بادية الشام . وهذه المنطقة هي الخامسة والأخيرة في تضاريس سورية . والسهول الصحراوية صغيرة وجيرية في غالبيتها ويندر أن تكون حجرية والبادية هي تمة صحراء بلاد العرب الكبرى وتعتبر القسم السوري من المستطيل العربي وتفصل سورية عن العراق . وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الخصيب . وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشرقي أي العراق ببادية الجزيرة (او بادية ما بين النهرين) في قسمها الشمالي وتدعى بادية العراق او السماوة في قسمها الجنوبي . وسطح القسم الجنوبي الغربي من بادية الشام وهو الحماة جبلي في بعض اجزائه ورملي في اجزائه الاخرى ويكسو العشب في الربيع . وتؤلف البادية السورية - العراقية مثلثاً كبيراً ترتكز قاعدته على خليج العقبة في العرب وخليج الكويت في الشرق بينما تصل قمته منطقة حلب في الشمال . ويبلغ عرض هذه البادية في اوسع مناطقها ٨٠٠ ميل . وكان سكانها الرحل يتاجرون مع السكان الحضريين على جانبيها ويعملون كوسطاء وأدلاء ورؤساء قوافل كما انهم في العصور البعيدة كانوا يبنون مدناً مثل تدمر الواقعة على الطريق عبر البادية بين الشرق والغرب . وكانوا خلال العصور بمثابة احتياطي دائم بالنسبة للسكان الحضريين يرفعونهم بدم جديد اما بطريق

(١) وهو الاسم العربي للأراضي البركانية .

(٢) وتعني بالعربية منطقة حجرية قاسية .

(٣) وعرفت عند الصليبيين باسم Le Crac . انظر ما سيرد في الفصل ٤٥ من هذا الكتاب بشأن الكرك .

الفتح او بواسطة التغلغل السلمي . غير ان البدو عادة يقاومون الاستقرار وفي مجتهم
عن المراعي لقطعانهم يجوبون السهول الصحراوية التي تكسوها الاعشاب بعد قدوم
المطر . وحسن استقبال البدو للضيوف والزائرين لا يقترون بحسن استقبالهم للامور
الجديدة . واذا كان التقدم في المجتمع المستقر يقوم على محاولة تغيير شروط المعيشة
وبيئتها وتكييفها فإن سر البقاء في مجتمع بدوي يقوم على قبول هذه الشروط
والتكيف بموجبها .

ان كثيراً من الجداول التي تنساب من المنحدرات الشرقية للسلسلة الشرقية
في سورية تغلب على امرها في نزاعها مع الصحراء وتغيب في تربتها الفاحشة . والنزاع
القديم بين الارض المزروعة والبادية هو حقيقة اساسية في جغرافية هذه المنطقة
الطبيعية . والبادية التي تشبه البحر في كثير من مظاهرها كانت في حركاتها خلال
عصور التاريخ مثل بحر عظيم تعبد بصورة مستمرة عملية المد والجزر . وهذا النزاع
له ما يقابله في النزاع القديم ايضاً بين البدو الرحل الذين لا يملكون شيئاً في البادية
وبين المزارعين المستقرين الذين يملكون اشياء في السهول الخصبة . وقبل مجيء
الاسرائيليين بقرون وبعد قدومهم بقرون كانت الانظار الطامعة تنبج من البادية
نحو البلاد المجاورة التي « تفيض لبناً وعسلاً » .

الفصل الخامس

البيئة الطبيعية

اتينا في الفصل الاخير على وصف مسرح التاريخ السوري في وضعه الطبيعي والجغرافي . وسنتابع وصفه في هذا الفصل من ناحية مظاهره الطبيعية ومن جملتها الاقليم والنبات والحيوان .

الاقليم

ان الصفة السائدة في اقليم سورية هي تناوب فصل بمطر يبدأ من منتصف تشرين الثاني حتى نهاية آذار مع فصل جاف يشمل بقية السنة . وينطبق هذا بوجه الاجمال على منطقة البحر المتوسط بكاملها وسببه موقعها بين منطقتين مختلفتين تماماً في درجة هطول امطارهما وهما : منطقة الرياح التجارية الجافة او الارض الصحراوية الافريقية في الجنوب ومنطقة الرياح الغربية في الشمال . وهذه الرياح الغربية المحملة بالرطوبة هي التي تجلب المطر طوال السنة من المحيط الاطلسي الى اوروبا الوسطى والشمالية . وهي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في سورية . اما في الصيف فان منطقة الحر تنتقل شمالاً من خط الاستواء وتصبح البلاد خلال شهور عديدة قريبة من الاحوال القاحلة التي تسود الصحراء الكبرى . ولا يحصل ذلك التقلب في المناخ الذي يقال انه يثير النشاط في اي مكان .

وعندما تهب الرياح الغربية السائدة على البحر المتوسط مصحوبة احيانا بالعواصف فانها تمتلئ بالرطوبة ، ثم تصادف جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى في فلسطين فترتفع . وبارتفاع الهواء فانه يتمدد وتسقط بعض محتوياته بشكل امطار . فالعوامل المؤثرة على المناخ اذاً هي درجة القرب من البحر والتضاريس والارتفاع والبعد عن الصحراء وعمل التأثيرات التي مصدرها البحر المتوسط والصحراء الكبرى . ونتيجة ذلك هي ان المنطقة الساحلية على السفح الغربي لجبال سورية تتلقى اكبر كمية من الامطار وتتناقص هذه وفقاً لدرجة الابتعاد من القرب نحو الشرق ومن الشمال نحو الجنوب .

وتشهد الأرقام بهذه النتائج . فمعدل الأمطار السنوية في بيروت خلال الاحدى واربعين سنة المنتهية في تموز ١٩٢٦ كان ٣٥٤٩ قيراطاً (بوصة) . وفي الساحل الفلسطيني كان معدل الأمطار السنوي ٢٣ بوصة . ومعدل كمية الأمطار في الشوير على ارتفاع اربعة آلاف قدم فوق بيروت خلال الخمس وعشرين سنة المنتهية في تموز ١٩٢٦ كان ٥٩٤٧ بوصة ، وفي القدس على ارتفاع ٢٥٥٠ قدماً فوق الساحل كان المعدل ٢٥٤٦ بوصة وكان متوسط الأمطار في كسارة في منطقة البقاع المحاطة بالجبال في التصدع المشار اليه سابقاً ٢٤٤٨ بوصة وفي وادي الاردن كانت ٥٤٥ . وتقل الأمطار بعد مرتفعات فلسطين الوسطى الى ان تصل تلال شرقي الاردن حيث يرتفع الهواء فيتغلغل عما فيه من رطوبة وهكذا يتخطى القسم الجنوبي من وادي الاردن تقريباً . ووراء الحاجز المزدوج الذي تشكله جبال لبنان للأمطار فان دمشق لا يصبها سوى عشر بوصات . ومتوسط الأمطار في ذروة مرتفعات شرقي الاردن ٢٧٤٥٥ بوصة غير ان القسم الشرقي من شرقي الاردن لا يصبه سوى ٣٤٩ بوصة^١ . وبوجه الاجمال فان ساحل سورية وفلسطين يصبه من الأمطار اكثر من ضعف ما يصب ساحل كاليفورنيا الجنوبية والسفلى .

ومتوسط درجة الحرارة السنوية في بيروت ٦٨ درجة فهرنهايت . وكانت اعلى درجة للحرارة سجلها مرصد الجامعة الاميريكية في بيروت ١٠٧،٠٦ درجات (فهرنهايت) في ١٨ ايار ١٩١٦ واوطى درجة للحرارة كانت ٢٩،٨٢ (فهرنهايت) في ٣٠ كانون الاول ١٨٩٧ و ٢٥ كانون الثاني ١٩٠٧^٢ . وتبلغ الرطوبة ذروتها في سواحل لبنان في تموز ، مع ما في ذلك من غرابة ، ويكون متوسطها ٧٥ بالمائة بينما تبلغ ادنى درجاتها في كانون الاول بمعدل ٦٠ بالمائة^٣ . وفي الشتاء تنتشر التأثيرات الكثيفة الباردة والجافة من آسيا الوسطى فوق منطقة الهضاب الشرقية في سورية فتسبب الصقيع والتلج ويكاد لا يحصل ذلك في منطقة الساحل .

(١) منصور جرداق : « هواء جبل لبنان » مجلة الكلية ١٢ م (١٩٢٦) من ٤١٣-٤١٤ ، قارن مع : D. Ashbel , « Rainfall Map of Palestine, Transjordan, Southern Syria, Southern Lebanon » 3rd. ed. (Jerusalem, 1942).

(٢) منصور جرداق في « الكلية » ١٢ م (١٩٢٦) من ٤١٢ .

(٣) انظر : W. B. Fish, « The Lebanon », The Geographical Review, vol. xxxiv : 243 (1944), p. 243.

وتعتدل درجة الحرارة في الساحل بتأثير البحر وهو أكثر حرارة من البر في الشتاء وأكثر برودة في الصيف. ويعمل الحاجز الجليبي المزدوج وحوض التصدع على منع وصول الرياح البحرية المبردة الى الداخل. وتهب الرياح المحملة بالغبار من البادية وتصبح حرارة الصيف شديدة في المدن مثل دمشق وحلب. وكثيراً ما يسجل ميزان الحرارة في فلسطين ١٠٠ درجة (ف) في الظل وقد تبلغ الحرارة في وادي الاردن ١٣٠ درجة. وأكثر ما يخشاه الانسان من الرياح الحارة الآتية من الشرق والجنوب الشرقي ربيع السموم او الشرقية^١ وهي ربيع مزعجة بشكل خاص وجافة ورطوبتها اقل من عشرة بالمائة في بعض الاحيان مما يجعل التنفس صعباً. وتتردد هذه الرياح اثناء الربيع والخريف حيث كثيراً ما تصل الى الساحل وتبشر بقدوم المطر. وفي طرف البادية تكون على الغالب محملة برمل ناعم سريع التغلغل. وليس غريباً ان تكون قيادة العرب المسلمين قد اختارت يوماً كان هب فيه ريح من هذا النوع لقتال الجيش البيزنطي المدافع عن سورية في معركة اليرموك الحاسمة عام ٦٣٦^٢.

التأكل

تتسرب كثير من مياه المطر في مساحات كبرى من الصخور الكلسية وتفقد. غير ان بعضها يتجمع في مجاري تحت الارض ويخرج بشكل ينابيع. وهكذا فان انتشار الصخور الكلسية بكثرة في لبنان الشرقي والغربي وفلسطين يأتي بعامل آخر غير ملائم فضلاً عما يحدثه من منظر أغبر متألّق. ذلك انه يجد من كمية المياه ويجعلها قليلة وينجم عنه انخفاض عدد السكان وخاصة في لبنان الشرقي.

والمياه التي لا تتسرب في الطبقات الكلسية تشكل جداول وانهاراً وتتحول الى سيول بعد هطول الامطار بغزارة كما انها تتقلص اثناء جفاف الصيف فتصبح شريطاً ضئيلاً من المياه اذا لم تجف تماماً. وقد نتج عن تدفق المياه من المرتفعات

(١) أتت كلمة *sirocco* الافرنجية من كلمة «الشرق» العربية بطريق الايطالية. وتقابل الريح الشرقية، التي يظن انها تدوم ثلاثة ايام، ربيع الحنين في مصر.

(٢) انظر كلامنا في الفصل الثلاثين عن هذه المركة. راجع بشأن المصورات الحديثة المتعلقة بالحرارة والطر والرياح: Charles Combier, *Aperçu sur les climats de la Syrie et du Liban* (Beirut, 1945).

مع ما يرافقه من تأكل وتعرية ان بعض الاراضي التي كانت مزدهرة اصبحت قاحلة على مر العصور. وعمل هذا الامر على تضليل بعض العلماء الذين اعتقدوا بحدوث تغيرات اقلية هامة تتجه نحو الجفاف في العصور التاريخية في سورية والبلاد المجاورة^١. وسنرى فيما بعد^٢ ان هذا الافتراض مبني على تحليل خاطئ تماماً. والتغيرات المناخية او التبدلات في كمية الامطار لا تكفي لشرح هذا الامر القريب الذي كثيراً ما يلاحظ في شرقي سورية وهو ان مساحات واسعة من الاراضي التي كانت مزدهرة كثيرة السكان اصبحت اليوم فقيرة قليلة السكان. والاسباب التي تخالف اية نظرية عن حصول الجفاف بعوامل مناخية هي تشابه المحاصيل الزراعية منذ العصور القديمة (باستثناء النباتات التي ادخلها العرب من الشرق في العصور الوسطى وادخلها المواطنون من العالم الجديد في العصور الحديثة) وبقاء اساليب الحراثة والاحتفاظ بنفس التواريخ الموسمية للحرث والحصاد خلال العصور. والعوامل الحقيقية لانحطاط قدرة الارض على الانتاج كانت تعرية سفوح المرتفعات بعمل مياه الامطار الجارية والرياح وتضاؤل قوة بعض الينابيع، والرعي وزوال الغابات التي كانت جذورها تساعد على تماسك التربة الرخوة، وإهمال او تخريب اعمال الري بنتيجة الغزوات او هجمات البدو، وانهاك التربة المحتمل في بعض الاماكن^٣.

الحياة النباتية

وهناك ثلاث مناطق متباينة للنبات تقع جنباً الى جنب في الاراضي السورية. فالسهل الساحلي والسفوح المنخفضة للمرتفعات الغربية تضم النباتات المعتادة في سواحل البحر المتوسط. وتتصف هذه المنطقة بوجود الشجيرات الدائمة الخضار ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتعطي اريجاً قوياً ولا تزال تزدهر انواع النبات التي زودت الانسان باهم مواده الغذائية، كالقمح والشعير والدخن (نوع من الذرة) وقد دجنت هناك لأول مرة^٤. وادخلت الذرة الصفراء فيما بعد. واضيفت في

(١) انظر: Ellsworth Huntington, *Palestine and its Transformation* (Boston, 1911), chs. 12-14.

(٢) راجع ما سيأتي في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: Semple p. 100

(٤) راجع ما جاء في اعلاه من ١٦ - ١٧ بشأن الزراعة.

العصور الحديثة البندورة والبطاطا والتبغ من العالم الجديد الى البصل والثوم والخيار وسائر الخضار المعروفة منذ اقدم العصور^١. والحبوب الاميركية كلها تقريباً (ما عدا الذرة وبعض انواع الشوفان) ومعظم انواع الخضار وثمار المنطقة المعتدلة اتت من آسيا وخاصة من الشرق الادنى بطريق اوربا^٢. وثبغ اللاذقية يتمتع بشهرة في العالم كله. ومحاصيل الفواكه القديمة التي منها التين والزيتون والتمر والعنب قد زادت فيها بعد بدخول انواع جديدة كاللوز والمنتجات الحمضية. واتي السكر من الشرق مع العرب الفاتحين. وانقطاع المطر في الصيف يستوجب الري لبعض هذه المحاصيل، وشمس بلاد البحر المتوسط القوية التي لا تنفك اشعتها تلمح الارض كل يوم تقريباً خلال موسم الجفاف تسبب نضوج الاثمار نضوجاً تاماً. واهم اشجار هذه المنطقة هي السنديان وصنوبر بلاد البحر المتوسط والتوت والزان. ولا شك بان الاشجار المتبدلة كانت اكثر فيها مضي. وقد كانت تقلص منطقة الغابات ضاراً باعتبار ان الحراج كانت تؤخر تأكل التربة في المرتفعات.

وفي اعالي لبنان العربي والشرقي تزول اشجار النخيل وشجيرات المنطقة المعتدلة التي نجدها في الساحل وذلك بفعل برودة الشتاء ولا تبقى الا الاشجار القوية الصامدة مثل الشوح والارز وسائر النباتات ذات الاثمار المخروطية. وهذا ما يشكل المنطقة النباتية الثانية. وتختلف مرتفعات لبنان الشرقي الفاصلة في قسمها الشمالي اختلافاً يستلقت النظر عن لبنان العربي.

واما في المنطقة النباتية الثالثة التي يمثلها حوض التصدع وهضاب سورية الشرقية فان الحرارة الشديدة وقلة الامطار تؤدي الى وجود سهوب تكاد تنعدم فيها الاشجار، وتظهر الاعشاب في مواسم معينة ولا تعيش فيها سوى الشجيرات الحشنة والعلتيق. وتتصف الهضاب الواقعة على اطراف بادية الشام ايضاً بقلة الاشجار وكثرة العليق الجاف الشائك. ويمجري العاصي والاردن في اودية عميقة ولذلك فان فائدتها الطبيعية في الري قليلة.

وموقع هضاب شرقي الاردن وحوران مناسب بحيث يعرضها للرياح بسبب انخفاض تلال السامرة والجليل النسي. وتتجمع بسبب ارتفاعها رطوبة كافية لاجل

(١) راجع كلامنا عن الري والزراعة في الفصل الثالث.

(٢) Walter T. Swingle, « Trees and Plants We Owe to Asia », Asia, vol xliii (٢ (1943), p. 634.

المراعي . وقد كانت حوران في العصور القديمة والحديثة مخزن قمح سورية ومصدر تصدير الحبوب كما يغلب الظن من فلسطين الى صور^١ وحتى الى اليونان .

ان وجود هذه المناطق النباتية الثلاث ناتج عن التقاء منطقتين نباتيتين في سورية وهما منطقة البحر المتوسط ومنطقة سهوب آسيا الغربية . وتوسط جبال لبنان يأتي بعامل جديد ويفرض تغييراً ناشئاً بصورة مباشرة عن تأثيرات الارتفاع، ويجعل الانتقال من تأثيرات البحر المتوسط الى التأثيرات القارية مفاجئاً جداً^٢ . ولذلك فاننا نجد مزارع الموز ومراكز الالعب الشتوية وواحات البادية ضمن منطقة لا تبعد عن البحر اكثر من ستين ميلاً . ولكننا نشاهد تبايناً يستلفت النظر في كل مكان بين المناظر في الربيع حين تورق النباتات على احسن وجه وبين المناظر في الصيف حين تكون الحرارة قد قضت على النبات .

شجر الزيتون

وفي العصور القديمة كانت الاشجار المثمرة الوحيدة التي تزرع على مقياس واسع هي الانواع الثلاثة التي تقاوم الجفاف ونعني بها التين والكرمة والزيتون . وقد ادخل الفينيقيون الكرمة الى بلاد اليونان ومن هناك الى ايطاليا . ورافق الزيتون الكرمة او تبعها من الشرق الى الغرب^٣ . وشجرة الزيتون لا تتطلب الا القليل من العناية وتعطي الشيء الكثير . وغوها كان ولا يزال يشكل احد مصادر الغذاء الرئيسية للطبقات الدنيا . ويمتد في جنوبي بيروت بستان للزيتون على مسافة اميال ويعتبر من اكبر بساتين الزيتون في العالم . وكان يستخدم زيت الزيتون لاجل الغذاء^٤ فيقوم مقام الزبدة التي يصعب حفظها ، ويستعمل في المصايح لاجل التنوير^٥ وفي المرامم وصنع الروائع الذكية^٦ وكذلك يستخدم لاغراض طبية^٧ .

(١) سفر الملوك الاول ٥ : ١١ ؛ انظر كلامنا في الفصل ٢٢ من هذا الكتاب عن الزراعة في العصر الروماني .

(٢) قارن مع : H. B. Tristram, *The Survey of Western Palestine: The Fauna and Flora of Palestine* (London, 1888), pp. xix - xxii.

(٣) انظر بشأن الاشجار السورية التي ادخلت الى ايطاليا ما سيأتي في الفصل ٢٢ .

(٤) انظر سفر اخبار الايام الاول ١٢ : ٤٠ ؛ حزقيال ١٦ : ١٣ .

(٥) سفر الخروج ٢٥ : ٦ ؛ متى ٢٥ : ٣ .

(٦) سفر الخروج ٣٠ : ٢٥ ؛ صموئيل الثاني ١٤ : ٢ ؛ الزمير ٢٣ : ٥٥ .

(٧) سفر اشعيا ١ : ٦ ؛ انجيل مرقس ٦ : ١٣ ؛ لوقا ١٠ : ٣٤ .

وكان الزيت يلاً قارورة صموئيل عندما مسح اول ملك على اسرائيل^١ واكتسب درجة من القدسية بحيث لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا في مسح جبهة المشرف على الموت وكان يعطى لب الزيتون بعد عصره طعاماً للحيوانات كما ان نواته تستخدم للوقود بعد جرشها . ومنذ ان عادت الحمامة الى نوح بغصن الزيتون فان ورق الزيتون اصبح عنوان السلام وعلامة السعادة . وفي مؤتمر الاشجار الذي يتحدث عنه سفر القضاة (٩ : ٨) اعترفت نباتات فلسطين بسيادة شجرة الزيتون فطلبت ان تملك عليها .

الارز

ان افخم اشجار لبنان واشهرها شجر الارز (*Cedrus Libani*) وقد تغنى الشعراء والانبياء والمؤرخون الاقدمون بصفاته فوصفوه بالقوة (مز امير ٢٩ : ٥) والمقاومة (ارميا ٢٢ : ١٤) والجلال (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٩؛ زكريا ١١ : ١-٢) والملاءمة للحفر (اشعيا ٤٤ : ١٤-١٥) . وقد زود الارز سكان لبنان الاقدمين باحسن الاخشاب لبناء سفنهم وكان يجذب ملوك وادي الرافدين ووادي النيل حيث لا تنبت اشجار كبرى . واليوم لم يعد يشكل لسوء الحظ جانباً من مجد لبنان كما كان يفعل قديماً (اشعيا ٣٥ : ٢؛ ٦٠ : ١٣) . ولا يزال يوجد الارز في مجموعات صغيرة - كباقات زهر في صدر لبنان العاري - اشهرها تقع فوق بشرى حيث تقوم اكثر من اربعمائة شجرة يبلغ عمر بعضها الف سنة^٢ . ويبلغ ارتفاع اعلاها نحو ثمانين قدماً . وتعرف هذه الاشجار عند الشعب « بأرز الرب » . وقد اتخذت احداها شعاراً للجمهورية اللبنانية الحديثة . وهناك غابة ارز اصغر واحداث وموقعها فوق الباروك في الجنوب حيث تسمى « أبهل »^٣ . وقد استغلت احراج الصنوبر والارز خلال العصور وبلغ هذا الاستغلال ذروته في عهد الاتراك

(١) سفر صموئيل الاول ١٠ : ١ .

(٢) راجع : George E. Post, *The Botanical Geography of Syria and Palestine* (London, 1885 ?), pp. 36-7. Albert E. Rüthy, *Die Pflanze und ihre Teile im biblisch-hebräischen Sprachgebrauch* (Bern, 1942), pp. 41-2.

(٣) وهو نوع من المرعر (*Juniperus Sabina*) وبالبرية إرز . غير ان هنالك التباس بين الكلمتين . فخشب الارز الذي يستعمل في ملقوس التطهر بعد الاحتكاك مع رجل صاب بالبرس (سفر اللاويين ١٤ : ٤) او مع جة ميت (سفر المدد ١٩ : ٦) هو المرعر كما يبدو وكان ينمو في البرية وبجانب المياه (عدد ٢٤ : ٦) .

العثمانيين حيث استخدمت كوقود لتسيير قطارات السكة الحديدية . وعمل هذا الاستغلال على تجريد الجبال من احسن اشجارها كما انه عجل في عملية التآكل ونشأ عن ذلك ايضاً تأخير التشجير من جديد .

الحياة الحيوانية

وقد ساهمت الاغنام والماعز وخاصة الماعز في تسهيل عملية التآكل باكلها العشب والنباتات الصغيرة على سفوح التلال مما جعل التربة رخوة واكثر تعرضاً لتأثير المياه الجارية . ونشأ عن حالة تضاريس جبال لبنان وعن كثرة تصريف المياه في مرتفعات فلسطين ان الكلاذ الطبيعي للمواشي والحيل في سورية كان قليلاً بصورة دائمة غير انه بإمكان الاغنام والماعز ان تجرد العشب الكافي .

الحصان

كان الحصان بالاصل حيواناً برياً اميركياً ولكنه دخل شرقي آسيا في عصور ما قبل التاريخ البعيدة عندما كانت تشكل اميركا وآسيا قارة واحدة . ويظهر الحصان في شكله البري منذ الدور النطوفي في فلسطين^١ . وقد دجن في اوائل العصور القديمة في احد الاماكن شرقي بحر الخزر من قبل المنود الاروبيين الرحل . واستورده الكاشيون الى بلاد الرافدين على مقياس واسع وبواسطتهم دخل آسيا الغربية قبل الميلاد بنحو النى سنة . وقد اعطاه الحثيون الى الليديين ومنهم انتقل الى اليونان . وادخل المكسوس الحصان الى سورية ومنها الى مصر قبل العصر الميلادي بنحو ١٨٠٠ سنة . ومن سورية انتقل قبل العصر الميلادي الى بلاد العرب حيث احتفظ الحصان العربي اكثر من اي مكان آخر بنقاوة دمه^٢ .

الابل

وكان الجبل كالحصان من اصل اميركي وانتقل الى شمال شرقي آسيا منذ ملايين السنين . ومن هناك وجد طريقه بواسطة كشمير والمند ، حيث اكتشفت عظامه المتحجرة ، الى شمالي غربي بلاد العرب ومنها الى جنوبي سورية . واول اشارة

(١) انظر: Dorothea M. A. Bate, « A Note on the Fauna of the Athlit Caves », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. xlii (1932), pp. 277-78.

(٢) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 20-21

معروفة للجمال في الادب واردة في سفر القضاة ٦ : ٥ حيث يوجد وصف غزو المديانيين لفلسطين في القرن الحادي عشر ق. م. واقدم رسوم معروفة لهذا الحيوان ترجع الى العصور الحجرية وقد اكتشفت حديثاً في كيلوة^١ في شرقي الاردن حيث تظهر في رسمين محفورين يبدو في احدهما وراء وعل من العصر الحجري الوسيط^٢. والرسم هو رسم جمل صغير له سنام واحد وهو الجمل العربي المعروف اليوم. واكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه في تل حلف وتاريخها بين ٣٠٠٠ و ٢٩٠٠ ق. م^٣. ووجود الراكب لا يترك شكاً في ان الحيوان كان مدجناً. وفي جيبيل وجد تمثال صغير مصري الاصل يعود الى النصف الاول من الالف الثاني ق. م. وتمثل جملاً مضطجعاً في الوضع المعروف^٤. والتأثيل المصرية الصغيرة الاخرى من عهد الملكة القديمة في مصر (نحو ٢٥٠٠ ق. م.) والتي وجدت في جيبيل تؤكد وجود الجمل كحيوان للحمل في ذلك العهد.

وهناك حيوان آخر أدخل الى سورية من آسيا القاحلة بطريق الجزيرة العربية وهو النوع القديم من الغنم ويتصف بذنبه العريض السمين وصفه الطويل وهو النوع المعروف حتى اليوم. وقد ذكر في الآداب التوراتية والكلاسيكية^٥. ويبدو ان عادة تسمين الغنم العربية التي بقيت في لبنان وتقوم على دس الطعام في الفم وتحريك الحنك بواسطة اليد كانت معروفة في مصر القديمة كما يتضح من اشكال حيوانية منحوتة نحتاً بارزاً تشبه الغزلان او الماعز وقد وجدت على قبور تعود الى السلالة السادسة.

وبالاضافة الى الجمل والحصان فان في سورية حيوانات اخرى للحمل والجر مثل الحمار والبغل وغيرها، وفيما سوى الغنم والماعز فان حيواناتها الداجنة تضم البقر

(١) في جبل الطيب في الحدود الجنوبية الشرقية لشرقي الاردن.

(٢) انظر : Hans Rhotert, *Transjordanien : vorgeschichtliche Forschungen* (Stuttgart, 1938), p. 176, pl. 15, No. 2 ; p. 224, pl. 26, No. 1 ; Angus Horsfield « Journey to Kilwah », *The Geographical Journal*, vol. cii (1943), pp. 71-7.

(٣) Von Oppenheim, *Tell Halaf*, p. 140, and pl. xxi a, facing p. 136

(٤) Pierre Montet, *Byblos et l'Egypte*, (Paris, 1928), p. 91, No. 179 ; « Atlas » (٤ vol. (1929), pl. lii. No. 179.

(٥) سفر الخروج ٢٩ : ٢٢ ؛ اللاويين ٣ : ٩. انظر أيضاً : Herodotus, *History*, Bk III. ch. 113

والكلاب والقطط التي دجنت منذ أقدم العصور^١. وإن البقر والغنم والماعز والخنازير والدجاج هي جميعها حيوانات اسيوية دجنت وادخلت الى اوربا ومنها الى اميركا^٢. والحيوانات البرية المعروفة في البلاد هي الضبع والذئب والثعلب وابن آوى والظبي والوعل. والغزلان التي يمكنها البقاء بدون ماء مدة طويلة في طرق الزوال السريع. والمهاة العجيبة التي يمكنها العيش في مجاهل البادية بدون مياه آخذة بالانقراض. وقد قتلت آخر النعامات في نهاية العقد الثالث من هذا القرن في جبل الطبيق. وزالت من سورية الاسود والفهود التي كانت معروفة في عصر الصليبيين^٣. وتوجد الافاعي والسحليات والعقارب بكثرة وخاصة في جنوبي البلاد. والطيور المعروفة هي النسر والباشق والبوم والحجل والقطا وغيرها مما هو مشهور لدى طلاب ادب التوراة.

(١) راجع ما جاء بهذا الشأن في أعلاه ص ١٦.

(٢) انظر : Swingle in Asia, vol. xliii (1943), p. 634; Childe, p. 46.

(٣) اسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار. نشره فيليب حتي (برنتون ١٩٣٠) ص ١٠٤ وما يليها، ١٤٤.

القسم الثاني
الازمنة السامية القديمة

الفصل السادس قدوم الساميين

يمكن تقسيم تاريخ شعوب سورية في خطوطه الواسعة الى خمسة اقسام رئيسية هي :

- (١) عصر ما قبل التاريخ وقد بحثناه في الفصول السابقة .
- (٢) الدور السامي الذي بدأ بالاموريين (حوالي ٢٥٠٠ ق. م .) وانتهى بسقوط الامبراطورية البابلية الجديدة (او الكلدانية) في ٥٣٨ ق. م . وتبعته سيادة الفرس .
- (٣) العصر اليوناني الروماني الذي بدأ بفتوح الاسكندر الكبير في ٣٣٣ ق. م . وانتهى بالفتوحات العربية في ٦٣٣ - ٦٤٠ .
- (٤) الدور العربي الاسلامي الذي استمر حتى الفتح العثماني في ١٥١٦ .
- (٥) الدور العثماني الذي انتهى بنهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي خلال هذا التاريخ الطويل المتنوع لم تكد تشهد سورية فترة واحدة كانت فيها كلها دولة مستقلة بغيرها تحت حكم جماعة من حكامها الوطنيين . وقد كانت وحدتها تفرض عليها دائماً بارادة سلطة خارجية وفيما سوى ذلك فانها كانت عادة اما جزءاً من دولة اكبر او مجزأة بين دول وطنية او اجنبية . ولم تكن سورية نفسها المركز السياسي الا في عهد المملكة السلوقية بعد ٣٠١ ق. م . وكانت العاصمة انطاكية وفي اثناء الخلافة الاموية (٦٦١ - ٧٥٠ م) التي جعلت دمشق عاصمتها . وكانت سورية في عهد المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٦) تابعة لمصر . وكانت النيل في مصر وكذلك الفرات في بلاد الرافدين عوامل ساعدت على الوحدة ، ولم يكن في سورية عامل طبيعي من هذا النوع . والواقع ان وضع سورية الطبيعي كان يميل الى احداث التنوع اكثر من الوحدة .

اسم سورية والسوريين

ان اسم سورية يوناني في شكله^١. ويظهر بشكل شرين Shryn في آداب اوغاريت^٢ وسيريون Siryon في العبرية^٣ حيث يطلق على لبنان الشرقي. واستخدم اسم الجزء فيما بعد ليشمل البلاد كلها. وكلمة لبنان هي سامية ايضاً، ولكنها تظهر في الوثائق المسمارية التي هي اقدم من الوثائق العبرية والاوغاريتية. وكانت احدى مناطق شمالي الفرات معروفة عند البابليين باسم سوري Su-Ri^٤. ولا توجد في الغالب صلة في الاشتقاق بين «سورية» و«آسيريا» (اشور^٥). وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم واطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الاولى. وقد شمل عموماً المساحة الواقعة بين طورس وسينا وبين البحر المتوسط والبادية. وكانت فلسطين عند هيرودتس^٦ جزءاً من سورية - وكذلك كانت عند الأتراك - وكان سكانها يعرفون بالسوريين الذين في فلسطين. واعتبر ولیم الصوري^٧ وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية ايضاً. واسم فلسطين ايضاً اتي من اليونانية وكانت بالاصل «فلسطين» وهو متصل بذكرى الفلسطينيين الهنود الاوربيين الذين احتلوا المنطقة الساحلية في القرن الثالث عشر ق. م. في ذات الفترة تقريباً التي كان يحاول فيها الاسرائيليون احتلال الداخل^٨. ومنذ ذلك الحين انتشرت هذه التسمية وصارت تشمل المنطقة بكاملها حتى البادية.

(١) وقد ظهر لأول مرة في Herodotus, Bk II. ch. 12

(٢) في اوائل القرن الرابع عشر ق. م. انظر : Cyrus H. Gordon, *Ugaritic Handbook* (Rome, 1948), p. 142.

(٣) سفر التثنية ٣ : ٩ ; المزامير ٢٩ : ٦ .

(٤) راجع ما جاء في اعلام ص ٣٣ عن اسم لبنان .

(٥) انظر ما سيأتينا في الفصل السابع عن هذه التسمية .

(٦) قارن مع كلام ارنست هرتزل في مجلة المجمع العلمي العربي م ٢٢ (١٩٤٧) ص ١٧٨-١٨١ حيث يوافق على هذا الاشتقاق .

(٧) Herodotus I. 105 ; II. 104, 106 ; III. 5, 91. Cf. Josephus, *Antiquities* I. 6. 2

(٨) راجع : A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey (New York, 1943), vol. II, p. 5.

(٩) انظر ما سيرد في الفصل الثالث عشر .

وتسمية سورية والسوريين غير واردة في النص العبري الاصلي للعهد القديم ولكنها مستعملة في الترجمة السبعينية للدلالة على آرام والآراميين . وبعض كتاب العصر الكلاسيكي يخطئون في الكلام عن السوريين حين يجعلون اسمهم مرادفاً للاشوريين . وقد اعطى العرب للبلاد اسماً جديداً وهو الشام او المنطقة الواقعة الى اليسار (اي الشمال) بخلاف اليمن او المنطقة الواقعة الى اليمن (اي الجنوب) وذلك بالنسبة للصجاز^١ . واستعمل اسم «سوري» بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها غير انه يستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية السورية فقط ومصطلح لغوي فإت اسم «سوري» Syrian بالانكليزية يشير الى جميع الشعوب التي تتكلم السريانية (الآرامية) ومنهم الذين في العراق وايران ، كما انه يشير كمصطلح ديني الى اتباع الكنيسة السورية القديمة او السريانية ، وقد انتشر بعضهم حتى في جنوبي الهند^٢ .

وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية ، غير ان ولاية سورية الرومانية كانت تمتد من القرات الى مصر . وكانت هذه حدود سورية كما وصفها الجغرافيون العرب^٣ وظلت تعتبر كذلك حتى نهاية الدور العثماني^٤ . والوحدة الطبيعية لهذه المنطقة التي تعرف باسم سورية لها ما يقابلها في الوحدة الحضارية ولكن ليس في الوحدة الجنسية او السياسية . وهي تشكل منطقة متشابهة في الحضارة على وجه التقريب ومختلفة اختلافاً بيناً عن المناطق المجاورة . غير ان الحدود الحضارية بينها وبين الطرف الشرقي فقط للهلال الخصيب كانت دائماً حدوداً مائعة .

(١) راجع المقليسي ص ١٥٢ ؛ ابو الفداء ص ٢٢٥ . راجع ما سيأتي في الفصل ٤١ . انظر بشأن حدود الشام ابن حوقل : المسالك والممالك طبعة دي غوية (لندن ١٨٧٢) ص ١٠٨ ؛ ياقوت ج ٣ ص ٢٤٠ . راجع : Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks* (Paris, 1923) pp. 6 seq.

(٢) تميز اللغة العربية بين هذه التسميات فتستعمل اسم «سوري» للفهوم العربي والجغرافي واسم «سرياني» للفهوم القوي والديني .

(٣) انظر : Smith, *Historical Geography*, pp. 3-4 ; Arnold J. Toynbee, *Survey of International Affairs*, vol. i, *The Islamic World* (London, 1927), pp. 347-8 ; البراءة الوضية في الكرة الارضية (بيروت ١٨٦٨) ص ١١٩-١٢٠ . Cornelius Van Dyck,

قارن مع : Dussaud p. 1

(٤) كما في الاصطخري ص ٥٥ وأبي الفداء ص ٢٢٥ .

العوامل التاريخية الفعالة

ان العوامل الفعالة في تاريخ سورية وسكانها ثلاثة وهي : أولاً وضعها الجغرافي كمجموع لمناطق مختلفة ينعكس في خليط من السكان والجماعات العرقية والمذاهب الدينية . وقد تقطع سطح الارض بحيث ان طبيعة هبتها لم توجد في أي مكان . بيئة تتسع اتساعاً كافياً لنشوء دولة قوية شاملة . والعامل الثاني هو موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث وهو امر جعلها معرضة للاخطار والغزوات من جميع الجهات . فالبابليون والاشوريون ، والمصريون والحثيون ، والفرس والمكدونيون والرومان ، والعرب والمغول والأتراك ، والصليبيون وغيرهم من الامم الاخرى هاجموا البلاد في عصور مختلفة واحتلوها كلها او جانباً منها . والعامل الثالث هو مجاورتها لاقدم مركزين للحضارة الفعالة وهما الحضارة السومرية البابلية في الشرق والحضارة المصرية في الجنوب الغربي . وفي العصور التالية تعرضت البلاد من جهة البحر لتأثيرات هندية اووية من كريت واليونان ورومة من جهة البر لتأثيرات هندية ايرانية من فارس والهند .

الطريق الدولي العظيم

وبسبب اتصال سورية بصورة دائمة وسهلة بالعالم الخارجي بواسطة الطريق الدولي العظيم فانها تعرضت لتأثيرات عالمية ولتدفق بقايا الجماعات المتفككة . ففي قسمها الجنوبي وجدت البهائية الحديثة ملجأً يحميها من الهلاك فعاشت جنباً الى جنب مع بقية مذهب قديم كالسامرية . ولا تزال تزدهر في اقسامها الوسطى طوائف الدرّوز والموارنة التي يعود اصلها الى العصور الوسطى . وفي الشمال نجد حتى الآن مذاهب النصيرية والحشاشين .

ان هذا الطريق الدولي يمكن تتبعه من مبداء في دلتا النيل وعلى ساحل سيناء حيث يتفرع الى مناجم النحاس والفيروز في شبه الجزيرة كما يتفرع الى اراضي البخور في جنوبي الجزيرة العربية . ومن سيناء يتحول الطريق شمالاً نحو ساحل فلسطين حتى الكرمل على مسافة من البحر . وهنا يتفرع الى طريقين يتجه الواحد الى الساحل فيصل صور وصيدا وجبيل وسائر الموانئ السورية ويسير الآخر الى الداخل فيجتاز سهل مجدو ويعبر الاردن في واديه الشمالي ثم يتجه رأساً الى دمشق

في الشمال الشرقي . ويتفرع من هنا طريق يعبر بادية الشام بواسطة تدمر ويربط مركز سورية مع قلب بلاد الرافدين الذي تمثله بالتالي بابل والمدائن وبغداد . اما الطريق الرئيسي فانه يتجه من دمشق نحو الغرب ويعبر لبنان الشرقي بواسطة بحر الزبداني ويصعد شمالاً عبر سورية المجوفة متبعاً نهر العاصي وقادش الى شمالي سورية . ويتفرع في سيره عند قادش باتجاه الغرب ليتصل بالبحر المتوسط بواسطة وادي النهر الكبير ، وتتبع السكة الحديدية اليوم هذا الطريق نفسه . وبعد ان يتفرع في شمالي سورية الى البحر بطريق الابواب السورية في جبل امانوس ويتفرع ايضاً الى الشمال الغربي بطريق الابواب الكيليكية ليصل آسيا الصغرى فانه يتحول الى الشرق بطريق الجسر السوري نحو الفرات ومن هناك نحو الدجلة وجنوباً الى الخليج الفارسي .

ولقد سلك بعض اجزاء هذا الطريق التجاري العظيم سرجون وسنعاريب ونبوخذنصر والاسكندر وبومي وعمرو بن العاص ونابوليون والنبسي وابراهيم وموسى والعائلة المقدسة كما سلكه كثيرون غيرهم . وكانت تنقل على هذا الطريق في العصور القديمة والوسطى احمال العاج والذهب من افريقيا ، والمر والبخور والتوابل من الهند وجنوبي بلاد العرب ، والكهرمان والحجر من آسيا الوسطى والصين ، والقمح والاشخاب من سهول سورية وجبالها . غير ان القوافل كانت تحمل اكثر من ذلك . فقد كانت تحمل معها احمالاً غير منظورة من الافكار . ولئن استهلك القمح واستخدم الكهرمان لارضاء غبة عابرة لاحدى الفتيات فان الافكار لم تفقد كلها . فقد اثمرت بعضها في عقول السوريين وساهمت في انتاج تلك الحضارة المركبة المعروفة بالحضارة السورية والتي كانت مزيجاً من عناصر وطنية واخرى من حضارات البلاد المجاورة . وكان العنصر الوطني نفسه يمثل رواسب تركتها هجرات وغزوات لا عداد لها .

التزاع بين البدو والحضر

والعامل الرابع بين العوامل التاريخية المؤثرة هو ان البلاد السورية كانت خلال تاريخها وخاصة في اطرافها الشرقية والجنوبية مسرح نزاع متواصل بين البدو والحضر المستقرين . وكان تاريخ الشرق الادنى بكامله مشهد حركة كبرى تنطوي

على تلك الغزوات والهجمات المتكررة التي يقوم بها البدو الطامعون في حياة الرخاء التي تمتع بها السكان الحضري في الاراضي المجاورة . وان جانباً كبيراً من تاريخ سورية هو قصة تلك الموجات المتتالية التي يطفئها سكان البادية المضطربون الجائعون فيمعاولون بطريق التغلغل السلمي او بالقوة احتلال الاراضي الزراعية . ولقد كان لسكان الحيام الرجل ميزة على سكان البيوت المستقرين لقلة ممتلكاتهم وسرعة حركتهم وشدة اجتماعهم . وقصة بني اسرائيل القدماء كما تروىها لنا صفحات العهد القديم في التوراة تعطينا أوفى ايضاح عن هذا الانتقال المتواصل من البداوة الى الحياة الحضرية . غير ان بني اسرائيل لم يكونوا اول من عرف هذا الانتقال بين الساميين . وقد مر ساميون كثيرون قبلهم وبعدهم بالمراحل نفسها بالنسبة لسورية^١ .

من هم الساميون ؟

وقد اشتق اسم الساميين من سام بن نوح على اساس ان الساميين كانوا متسلسلين من الابن الاكبر لنوح . غير ان هذه التسمية من وجهة علمية هي تسمية لغوية وتطلق على الذين يتكلمون او تكلموا لغة سامية . واللغات السامية كما هو معترف بها اليوم هي مجموعة لغوية خاصة تضم اللغة الاشورية البابلية (الاكادية^٢) والكنعانية (الفينيقية) والآرامية والعبرية والعربية والحبشية . وتبدو في لغات هذه المجموعة نواح من التشابه تستلقت النظر وتختلف عن المجموعات اللغوية الاخرى واقربها اليها المجموعة الحامية . واهم نواحي التشابه ضمن هذه المجموعة اللغوية هي : وجود فعل ثلاثي كمصدر اسامي ووجود زمنين للفعل هما الماضي والمضارع ، وتصريف الفعل يتبع نفس الاسلوب . وفي جميع لغات المجموعة السامية نجد تشابهاً بين الكلمات الاساسية كالضمائر الشخصية ، والاسماء التي تدل على القرابة ، والاعداد واعضاء الجسم الرئيسية .

هذه القرابة اللغوية بين الشعوب التي تتكلم اللغات السامية هي اهم رابطة تدور

(١) راجع ما جاء في نهاية الفصل الرابع .

(٢) كانت آكاد (و) وهي المقابل السامي لكلمة Agade السومرية بالأصل اسم عاصمة سرجون مؤسس اول امبراطورية سامية ثم اطلقت على البلاد . وتقع المدينة في مكان اقتراب النجلة والفرات واحدهما من الآخر وقد ذكرت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

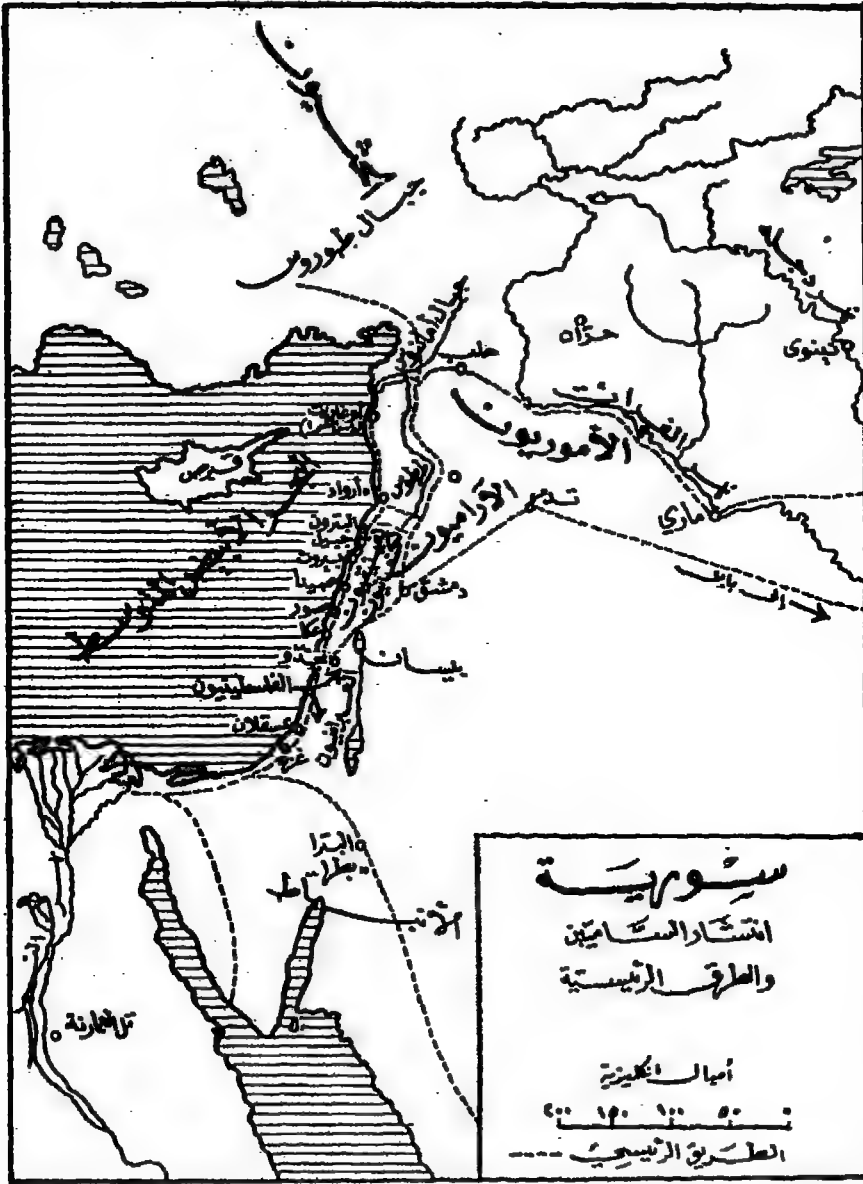
ضمهم تحت اسم واحد ولكنها ليست الرابطة الوحيدة . فاذا ما قارنا مؤسساتهم الاجتماعية وعقائدهم الدينية وصفاتهم النفسية واصنافهم الطبيعية اتضحت لنا نواح هامة للتشابه . وعندئذ لا بد من الاستنتاج بان بعض اسلاف الذين تكلموا البابلية والاشورية والامورية والكنعانية والعبرية والآرامية والعربية والحبشية كانوا غالباً يشكلون جماعة واحدة قبل ان تحصل بينهم هذه الاختلافات وان هذه الجماعة كانت تكلم اللغة نفسها وتعيش في المكان نفسه .

شبه جزيرة العرب مهد الساميين

واذا ما تساءلنا عن الموطن الاصل لهذه الجماعة فان النظرية المحتملة اكثر من غيرها تجعل ذلك الموطن الجزيرة العربية . والحجة الجغرافية بالنسبة للجزيرة العربية تقوم على ان البلاد صحراوية يحيط بها البحر من ثلاث جهات ولذلك فانه عندما يزيد السكان عن قدرة الارض المأهولة الضيقة لاعاشتهم فانهم يميلون الى البحث عن مجال حيوي متيسر فقط في الاراضي الشمالية الحصبية التي تجاورهم . ويؤدي ذلك الى الحجة الاقتصادية التي تقول ان اهل الجزيرة الرحل كانوا دوماً يعيشون على ما يقرب من الجوع وان الهلال الحصب كان اقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه .

وقد اتجهت في حوالي ٣٥٠٠ ق. م. هجرة سامية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي ووزعت افرادها الرحل بين السكان السومريين في بلاد الرافدين الذين كانوا مستقرين وعلى جانب رفيع من الحضارة ، وبذلك شكلت الاككاديين الذين عرفهم التاريخ (وسموا فيما بعد بالبابليين) . وعندما تزوج الساميون مع غير الساميين الذين كانوا قبلهم واختلطوا بهم في منطقة الدجلة والفرات فانهم اكتسبوا منهم معرفة البناء والمعيشة في البيوت وزراعة الارض وربما بل اكتسبوا ما هو اهم من ذلك وهو القراءة والكتابة . وسادت اللغة السامية التي حملوها معهم واصبحت الوسيلة التي عبرت بها حضارة الفرات عن نفسها خلال اجيال عديدة .

(١) ان التمييز بين كلمة « Arabians » للدلالة على سكان شبه الجزيرة وكلمة « Arabs » العرب للدلالة على جميع الشعوب التي تتكلم العربية — وان كانت احياناً قوميتها فارسية او عراقية او سورية او مصرية الخ حيث اقتبست اللغة العربية بنتيجة الفتح الاسلامي واصبحت معظمها إسلامية — هذا التمييز اقترح لأول مرة في كتاب Hitti, *History of the Arabs*, p. 43, n. 3



وبعد الهجرة الاولى بنحو الف سنة حصلت هجرة اخرى من البادية وانت
بالاموريين ووزعهم في سهول سورية الشمالية . وشملت هذه الهجرة الشعب الذي

احتل فيما بعد السهل الساحلي وسمى نفسه بالكنعانيين واطلق عليهم اليونان الذين تاجروا معهم اسم فينيقية .

وبين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. خرجت جماعات اخرى من بلاد العرب فدخل الآراميون سورية المجوفة ومنطقة دمشق وانتشر العبرانيون في القسم الجنوبي من البلاد . وحوالي ٥٠٠ ق.م. ادت هجرة جديدة من بلاد العرب الى استقرار الانباط شمالي شرقي شبه جزيرة سيناء حيث كانت عاصمتهم البتراء وبلغت درجة رفعة مدهشة من الحضارة في ظل الرومان .

وكان آخر اندفاع من شبه جزيرة العرب على مقياس واسع ذلك الذي حصل في القرن السابع الميلادي تحت راية الاسلام وانتشر هذا السيل ليس في سورية فعسب وانما في سائر مناطق الهلال الخصيب وكذلك في مصر وشمال افريقيا وفارس وحتى في اسبانيا وبعض اجزاء آسيا الوسطى . وهذه الهجرة الاخيرة هي الحجة التاريخية التي يتقدم بها اصحاب النظرية التي تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الاصلي للساميين . ويضيفون الى ذلك حجة لغوية مؤداها ان اللغة العربية قد احتفظت في نواح كثيرة باشد تشابه باللغة السامية الام التي كانت جميع اللغات السامية من لهجاتها ، وكذلك حجة بسيكولوجية خلاصتها ان سكان شبه جزيرة العرب وخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأبقى الصفات السامية .

هذه الهجرات التي حصلت في عصور يفصل الواحد منها عن الآخر نحو الف سنة - كما لو كان ذلك الوقت ضرورياً لملء الحزان البشري قبل ان يفيض - قد اطلق عليها احياناً اسم موجات . والحقيقة انها اكثر شبيهاً بسائر الحركات البشرية في التاريخ حيث تبدأ بانتقال اشخاص قلائل يتبعهم آخرون ويزداد عدد الذين يلحقون بهم الى ان تصل الحركة ذروتها وتأخذ بالتراجع . وتاريخ الهجرة هو تاريخ بلوغ الذروة حين تصبح الحركة بما يستلقت النظر وان كانت في الواقع شملت عشرات من السنين من قبل ومن بعد .

الفضل السابع

الأموريون أول شعب سامي رئيسي في سورية

دخول الاموريين

ان اول شعب سامي هام بحث عن موطن له في البلاد السورية واقام فيها هو الشعب الذي سماه جيرانه السومريون في الشرق بالاموريين ولا ندرى الاسم الذي كان يطلقه على نفسه . فكلمة «اموريين» اذاً غير سامية وتعني «الغربيين». والعاصمة الامورية ماري الواقعة جنوبي مصب الخابور (وهذه ايضاً كلمة سوميرية) هي من جهة الاشتقاق شبيهة باسم البلاد أمورو ومارتو اي بلاد الغرب ، وكان هذا ايضاً اسم المههم القديم وهو اله الحرب والصيد . ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سورية كلها وسموا البحر المتوسط «بحر أمورو العظيم» .

وتظهر اول اشارة الى ارض الاموريين منذ عصر سرجون (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.) وهو اول شخصية كبرى في تاريخ الساميين^١. واخذ الاموريون يظهرن بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وحتى في فلسطين في الجنوب . ويقال ان «لبنان» و«صيدون» و«عسقلان» امورية في نهاية اسمائها . وفي اسم عمرت^٢ الحديثة الواقعة على الساحل الفينيقي الشمالي ما يتخذ اسم الاموريين . وفي ذلك العهد اصبحت سورية سامية لاول مرة - باستثناء بعض جيوب سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين - واحتفظت بصفتها السامية خلال العصور حتى الوقت الحاضر . وقبل ان يحتاج سرجون بلاد آمور كانت عاصمتها ماري قاعدة احدى السلاسل السوميرية القديمة . وقد عزل سرجون الفاتح السومري لوكال زاكيزي Lugal-Zaggisi صاحب إريك الذي ادعى في احدى كتاباته الاثرية انه

(١) انظر : Arno Poebel, *Historical Texts* (Philadelphia, 1914), p 177

(٢) بالعربية القديمة MRT وهي مدينة مراثوس Marathus الكلاسيكية .

«فتح البلاد من مطلع الشمس حتى مغرب الشمس» وانه «تقدم من البحر الادنى» من الفرات والدجلة، حتى البحر الاعلى^١. وفي خلال القرن العشرين اصبحت مدينة ماري والبلاد المحيطة بها امورية في سكانها وحضارتها وحكومتها. ولا بد ان الغزاة الساميين وطدوا انفسهم فوق مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد الرافدين ويمكن الافتراض انهم كانوا قبل ذلك يتجولون في المناطق الشمالية والبقاع كبدو وراء قطعانهم.

وهناك شاعر سوري عاش قبل عام ٢٠٠٠ ق. م. بقليل حين كان الاموريون يحتلون بلاد بابل - قد عبر عن هذا الانتقال من حياة الرعي الى حياة الاستقرار بصورة شعرية حيث قال :

بالنسبة للاموري السلاح هو رفيقه

. . . فلا يعرف الخضوع .

وهو يأكل لحماً غير مطبوخ

وفي حياته كلها لا يملك بيتاً

وهو لا يدفن رفيقه اذا مات .

[والآن] مارتو يملك بيتاً^٢. . .

[والآن] مارتو يملك حبوباً^٣.

وكانت حياته البدوية تعتمد على الحمار لان الجمل كحيوان مدجن لم يكن استخدامه شائعاً في ذلك الوقت^٣. وكان لا يزال في القرن الثامن عشر يستخدم الحمار لاجل تقديم الذبائح .

والاموريون لم يقتصرُوا على تأسيس دولة في منطقة الفرات الاوسط واجتياح سورية وانما اجتاحتوا بلاد ما بين النهرين ايضاً وحكموها . وقد اسسوا عدة

(١) راجع : F. Thureau-Dangin, *Die sumerischen und akkadischen Königsinschriften* (Leipzig, 1907), p. 155.

(٢) Edward Chiera, *Sumerian Religious Texts* (Upland, 1924, pp. 20-21

(٣) Albright, *The Stone Age*, pp. 120-21

سلالات من اشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب بين ٢١٠٠ و ١٨٠٠ ق.م. واهم هذه كانت سلالة بابل وهي اول سلالة ظهرت في هذه المدينة وانتسب اليها حمورابي (م نحو ١٧٠٠)، اول مشرع عظيم في العصور القديمة^١. وحمورابي هو الذي فتح بلاد آموره و اضافها الى امبراطوريته البابلية.

مخفوقات ماري

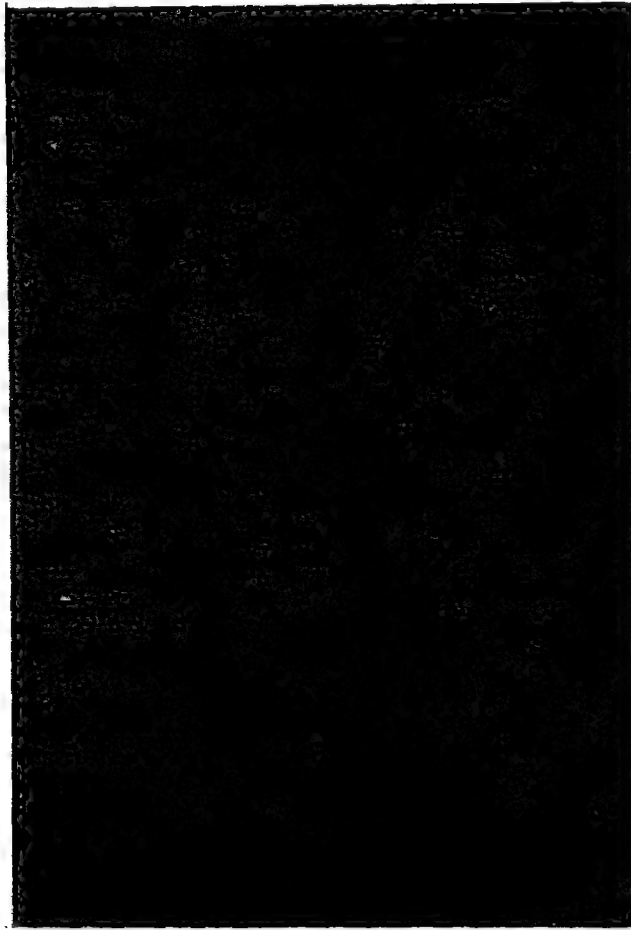
وقد ادى هذا الفتح الى القضاء على مدينة ماري وادخلها في عالم النسيان حتى بضع سنوات خلت حين جرى التنقيب في موقع تل الحريري^٢ واتضح انه ماري القديمة. وكانت الاكتشافات التي عثر عليها من اعظم ما كشفتها اعمال التنقيب في العصور الحديثة. فقد تضمنت اكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح مساري وهو عدد لم يخرج به اي موقع آخر باستثناء نينوى. واللغة في معظم الاحيان اكادية غير ان المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تترك مجالاً للشك بان الذين كتبوا تلك اللوحات تكلموا الامورية او اللغة السامية الغربية المختلفة عن الاكادية او السامية الشرقية. وتمثل اللوحات مخفوقات زمري ليم (حوالي ١٧٣٠ - ١٧٠٠^٣) آخر ملوك ماري الذي قضى على دولته اعظم ملوك ذلك العصر وهو حمورابي. وبين اللوحات تقارير كتبها الملوك والموظفون ووثائق اقتصادية وادارية وتقارير لما قيمتها^٤. ويظهر لنا

(١) يقول Albert T. Clay في كتابه : *Amurru : The Land of the Northern Semites* (Philadelphia, 1909) ; *The Empire of the Amorites*, (New Haven, 1919), بان حضارة البابليين الساميين إذا لم يكن اصلها في بلاد الاموريين فإن نشوءها خلال مدة طويلة على الاعلى كان في تلك البلاد، وانه كان للاموريين امبراطورية واسعة منذ الالف الرابع والخامس، وان النظرية التي تقول باصل الساميين من جزيرة العرب لا اساس لها. غير ان هذه الاتوال لم تؤيد بعد.

(٢) على يد André Parrot ؛ انظر تقاريره التي عنوانها : « Les peintures du palais de Mari », *Syria*, vol. xviii (1937) pp. 324-54 ; « Les fouilles de Mari », *Syria*, vol. xix (1938) pp. 1-29 ; vol. xx (1939), pp. 1-22. وتقع تل الحريري اليوم على بعد ميل غربي الفرات قرب بلدة أبو كمال، وكانت ماري في العصور القديمة على ضفة النهر.

(٣) انظر مقال : W. F. Albright, « An Indirect Synchronism between Egypt and Mesopotamia, cir. 1730 B. C. », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 99 (1945), pp. 9-10.

(٤) راجع : Georges Dossin, « Les Archives épistolaires du palais de Mari », *Syria*, vol. xix (1938), pp. 105-26 ; « Les Archives économiques du palais de Mari », vol. xx (1939), pp. 97-113.



لوح عليه كتابة مسمارية من عهد يهووليم والد زمري لم
وجد في قصر ماري الملكي

احد التماثيل ان المركبات التي تجرها الخيل كانت معروفة كما يرينا تحرير آخر ان
الاشارات النارية كانت تستعمل كتدبير دفاعي وطني او كوسيلة سريعة للانباء .
والحضارة الامورية كما نكسها لنا اللغة التي كتبوها كانت مزيجاً من عناصر امورية
وسورية وبابلية .

وفي هذه الألواح تبدو حَلَبو Halabu (حلب) كعاصمة يخاض^١، وجُبلة Gubla (جبيل، بيلوس) كمركز لتسيج القماش والملابس، وقطنة Qatna (وهي اليوم المشرقة شمال شرقي حمص) كمركز هام، وحرانو Harranu (حوران وفي التوراة Haron) — التي كانت إحدى محطات إبراهيم في طريقه الى فلسطين — كامارة امورية. وتظهر الوثائق ان جميع هذه المدن كانت مراكز سلالات امورية او تحت حكم امراء اموريين وليس ذلك فقط بل ان تقريباً كل المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط ومرتفعات عيلام كان يسيطر عليها امراء اموريون حوالي ١٨٠٠ ق. م. ويشير اسم احد امراء جبيل وهو يَنْتَن عَمُو Yantin-Ammu الى اصل اموري؛ وكلمة «عمو» معناها قبيلة.

وكان يحوي قصر زمري لم الذي وُجِدَت فيه الألواح نحو ٣٠٠ غرفة فيها الواح جدارية جميلة باطارات ورسوم متقنة الصنع للرجال والآلهة فكان حسب تعبير احد الألواح من اماكن التفرج والمتعة في العالم. وكانت مساحة القصر اكثر من ستة فدادين وفيه تسهيلات للاستحمام وتصريف المياه^٢. وفي القصر غرفتان مزودتان بالمقاعد وتشبهان غرف التدريس. وهناك رسم ملون بالوان زاهية يمثل الملك يتسلم من عشار رموز السلطة. وبناء القصر ووثائقه تظهر درجة من الحضارة لم يحلم بها من قبل وهي تنافس حضارة مصر وبلاد الرافدين.

الممر السوري الجبلي

كان ازدهار بلاد الاموريين نتيجة الزراعة المعتمدة على الري من جهة والعلاقات التجارية مع جيرانها من جهة اخرى. فالاراضي الكائنة بين خليج اسكندرون حيث يحدث البحر اعظم فجوة في البر وبين منحى الفرات على مسافة نحو مائة ميل تشكل ممرأ طبيعياً بين الساحل ومنطقة بلاد الرافدين. والممرات لها اهميتها في الجغرافية التجارية وفي تاريخ الافكار وتساعد في توجيه عملية التاجز الحضاري. وفي

(١) كان اسم ملكها يريم لم Yarim-Lim اسماً امورياً. انظر مقال : W. F. Albright, «Western Asia in the Twentieth century B. C. : The Archives of Mari», Bulletin, American Schools of Oriental Research, No. 67 (1937), p. 27.

(٢) يرينا رسم في عجة سيريام ١٧ (١٩٣٦) لوح ٣ رسم ٢ (مقابل ص ١٦) منفلين للاستحمام من القطار (احدهما للماء الساخن والآخر للماء البارد؟) في الجانب الايمن ومستراحاً في الجانب الايسر.

هذه المنطقة يتحول الحجاز الجبلي في الشمال والقرب والحجاز الصحراوي في الجنوب الى بحر واحد منخفض يؤدي الى واد من جهة والى بحر من جهة اخرى ولذلك فقد سمي بالمر السوري^١. ويقع الممر في سفح جبال طورس ولذلك يسمى احياناً «بالسفع». وهو المرحلة الاخيرة من خط المواصلات الذي يبدأ عند الخليج الفارسي ويصعد دجلة حتى ضواحي نينوى ثم يتجه غرباً الى الموائى السورية وهكذا يصل بين تل حلف وحران وماري وحلب وغيرها من المدن القديمة. وفي هذا السهل يبدأ التاريخ السوري المستمر واول ممثليه الساميين هم الاموريون. ومنذ ذلك الوقت حاول البابليون والمصريون والاشوريون والكلدانيون والفرس والمكدونيون كل بدوره السيطرة عليه كمنطقة انتقال. وسهله المملوء بالكلا يتلقى بين ١٠ و ٢٠ بوصة من المطر سنوياً ويكفي ذلك لنمو العشب اللازم للحيوانات والقوافل. وتبدو بعض اقسام هذا السهل بعد المطر مرجة خضراء. وكانت الجداول المتحدرة من طورس ومياه الفرات تروي مدنه.

تحول مركز الاموريين الى الجنوب

كان مسرح تاريخ سورية الرئيسي في مطلع الالف الثاني ق.م. في الشمال حيث كان الاموريون يلعبون الدور الاكبر. وبعد منتصف الالف الثاني بقرن يتحول مركز الثقل الى سورية الوسطى وكان الاموريون لا يزالون يلعبون الدور الرئيسي. وفي هذه الاثناء كانت مصر قد بدأت توسعها لاجل بناء امبراطورية لاول مرة وجعلت قسماً كبيراً من سورية تحت سيطرتها^٢ بفضل قوة نخوتمس (م ١٤٤٧) الذي يمكن اعتباره نابوليون السلالة الثامنة عشرة. وكانت هنالك دولة اخرى عظيمة ومنافسة لمصر تتألف في الاقصى الشمالي وهي دولة الحثيين^٣. وبين هاتين الدولتين انحصرت الدولة او الدول الامورية في سورية الوسطى وكانت تشمل في ذروتها حسب ما نخبرنا اياه رسائل تل العمارنة - وهي اهم مصادرنا - قسماً كبيراً من شمالي لبنان وساحله وسورية المجوفة ولبنان الشرقي ومنطقة دمشق. ويظهر على

(١) انظر : Semple, p. 184.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل الحادي عشر.

(٣) انظر الفصل الحادي عشر.

مسرح التاريخ احد ملوك هذه الدول وهو عبد عشترا^١ التابع لمصر برسالة كتبت بلغة اكادية ركيكة - وهي اللغة الدولية في ذلك العصر - الى الفرعون امنحوتب الثالث (م ١٣٧٥) وفي اولها عبارات اعتيادية معروفة تبدو لنا ذليلة حقيرة اليوم ولكنها كانت جانباً من مراسم تلك الايام وقد جاء فيها :

« الى الملك الشمس ، سيدي ، هكذا يقول عبد عشترا عبدك وغبار قدميك . عند قدمي الملك سيدي سبع مرات وسبع مرات اخرى اجثو . انظر ، انني خادم الملك وكلب بيته وجميع امورو احرسها للملك سيدي^٢ » .

التفاق الدولي

كان عبد عشترا عند كتابة هذه الرسالة في بلدة إركة Irkat^٣ الفينيقية التي كان قد فتحها ولكن مركز مملكته كان كما يبدو في منطقة العاصي العليا . وكان قد ساعد الحثيين على فتح أمكي Amki^٤ ولكنه كان الآن يخادع الطرفين لكي يتوسع في المنطقة الوسطى ، فيينا كان يدعي الولاء لمصر ويتظاهر بالتعاون مع الحثيين القاطنين كان بالحقيقة يحاول اكتساب مناطق جديدة لحسابه . وقد سقطت المدن الواحدة بعد الاخرى على الساحل وفي الداخل في يدي عبد عشترا وابنه أزيرو او نهبت من قبلها ومن قبل الذين اشتركوا معها . وقد ارضى بعض التابعين لمصر وتخلص من البعض الآخر . فاحتل قطنة وحماة وهدد اوبي Ubi (منطقة دمشق^٥) ثم استولى على دمشق نفسها . واخذ ارواد وشيغاتا Shigata

(١) عشترا او عاشرة . انظر الفصل العاشر بشأن هذه الآلهة .

(٢) راجع : J. A. Knudtzon, *Die el-Amarna-Tafeln* (Leipzig, 1908), No. 60 ; cf. A. H. Sayce, *Records of the Past*, new series, vol. v. (London, 1891), pp. 97-8 ; S. A. B. Mercer, *The Tell-El-Amarna Tablets* (Toronto, 1939) No. 60.

(٣) وهي بلدة RQT في النصوص المصرية وArka في العصر الكلاسيكي وعرة اليوم على بعد ١٢ ميل شمال شرقي طرابلس . وهي مذكورة في سفر التكوين ١٥ : ١٧ وفي اخبار الايام الاول ١٥ : ١ ، ومذكورة عند الجغرافيين العرب باسم عرة .

(٤) وهو سهل الملقب بين انطاكية وجبال الامانوس . انظر كلامنا عنه في الفصل الرابع .

(٥) وفي الاطوار السامرية DI-MASH-QA . انظر ما سيأتي في الفصل ١٢ .

وأُمبي Ambī والبِتْرُون^١ وغيرها من مدن الساحل . ويبدو ان الاروادين كانوا بسبب المنافسة التجارية مع اهل جبيل ضد المصريين منذ عهد تحتمس . وكانت سيميرا^٢ Simyra وحلها وهي مقر المقيم المصري وكذلك جبلة^٣ وهي مركز حكم الامير الكنعاني الموالي لمصر رب عدي الذي كان يحكم قسماً من الداخل ويدعي السلطة على الساحل حتى سيميرا ، لا تزالان تقاومان . واخيراً خضعت سيميرا ، وفصلت جبيل عن مناطقها الداخلية ولم يعد باستطاعتها مواصلة تجارة الاخشاب مع مصر فتعذر عليها البقاء . وارسل رب عدي الموالي لمصر التحرير بعد الآخر - وبمجموعها نحو خمسين تحريراً^٤ - ملأها بالشكوى من خيانة عبد عشرتا « الكلب » وازيرو وتضرع الى سيده فرعون بجماعة لكي يرسل له المساعدات ولكن دون جدوى .

وقد تحرك امنحوتب في احدى المرات وارسل فصيلة من الجنود - بدلاً من جيش كامل تحت قيادته كما كان فعل سلفه تحتمس - نجحت في استرجاع سيميرا واخذ الثورة موقفاً ولكنها لم تتمكن من الوقوف تجاه الخطر الذي يسدد من الشمال وبعثه تقدم الحثيين .

وقد زال بموت عبد عشرتا موتاً غير طبيعي احد اشخاص الرواية ولكن الرواية

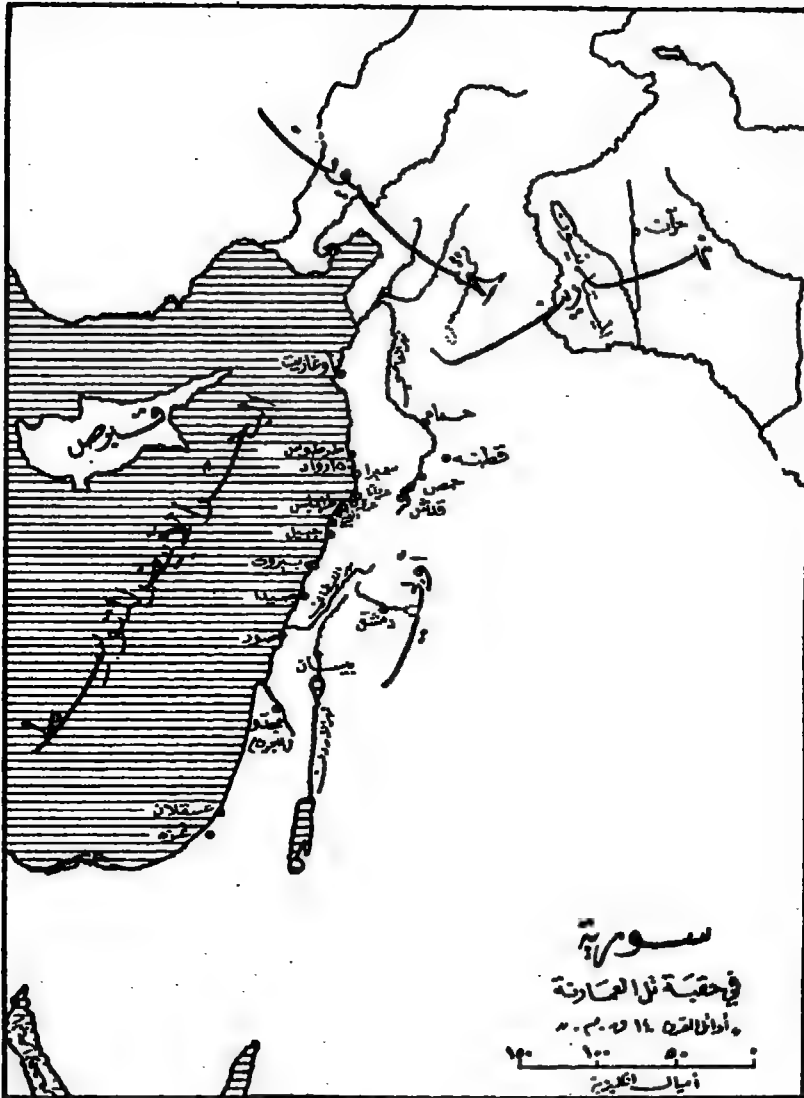
(١) وقد وردت اسماء هذه المدن في النصوص السامرية هكذا : AR-WA-DA, SHI-GA-TA, و AM-BI, BAT-RU-NA شيجاتا ليست زغرنا الحديثة (المذكورة في مراسلات ماري باسم Segarātīm) وانما هي شكا شمالي البترون . و Ambī كانت تسمى Ampa عند الاشوريين ، والله عند العرب و Nephin عند الصليبيين وهي الله الحديثة بين شكا وطرابلس . و Batruna هي Botrys عند اليونان واليوم البترون . انظر : Abel, Géographie, vol. ii, p. 4; Dussaud, p. 117.

(٢) وهي في النصوص المصرية DMR و SU-MUR وفي العصر الكلاسيكي Simyros وقد تكون سمرا Sumra الحديثة شمالي مصب النهر الكبير تماماً وجنوبي طرطوس وهناك دلائل على اكتشاف موقعها في ١٩٥٦ . وتوجد اشارة اليها في سفر التكوين ١٥ : ١٨ .

(٣) وهي مدينة جبال Gebel في التوراة (واليوم تدعى جبيل والمصرية KBN, KPN, KPNi وفي اليونانية بيبولوس Byblos وباللاتينية Byblus .

(٤) وبعضها محدودة في لندن والاخرى في برلين . انظر : C. Bezold, and E. A. Wählin, Budge The Tell el-Amarna Tablets in the British Museum (London, 1892), Nos. 12-25 ; C.Q. Conder, The Tell Amarna Tablets, 2nd ed. (London, 1894), pp. 48 seq.; Knudtzon, Nos. 68 seq.; Mercet, Nos. 68 seq.

(٥) انظر الرسائل رقم ٧٥ ، ٨٥ في Knudtzon .



نفسها استمرت . فقد تابع ابنه ووريثه أزيرو اعماله بنفس الاساليب المكيافيلية . ولم يغير وصول المنحوت الرابع (اخاتون ١٣٧٧ - ١٣٥٨) الى العرش موقف

(١) وقد اتى اخاتون بامور جديدة في الدين فاستبدل عبادة امون بعبادة اتون Aton قرص الشمس وذلك غير اسمه . وهكذا فاصبح معناه (جمال قرص الشمس اتون) ونقل عاصمته من طيبة الى اخيت اتون وموقعها اليوم يدعى تل المهارنة (والمهارنة هي جع عمران وهو اسم قرية عربية سكنت هناك منذ مطلع القرن الثامن عشر) .

مصر . واذ كان من شيء قان الوضع اصبح اسوأ . فالفرعون الجديد كان اكثر اهتماماً كما يبدو باصلاحه الديني منه في الدفاع عن امبراطوريته .

وبينما كان ازيرو واخوته وحلفاؤه يستولون على المدن المختلفة كان رب عدي يبحث بتحارير الشكوى بما كان يحصل الى فرعون وعماله وقد كتبت بالمسماية على الواح خزفية . وبما قاله في تلك التحارير « ان ملوك كنعان عندما كانوا يرون مصرياً كانوا يهربون من امامه ولكن ابناء عبد عشرتا الآن يهزأون بشعب مصر ويهددونني باسلحة دموية^١ » ويشكو في رسالة اخرى من ان ابناء عبد عشرتا قد اخذوا بعض الناس والضباط واعطوهم لسلاد سوري Suri كرهينة^٢ . وسقطت اولازا Ullaza وارداثا Ardata^٣ ومدن اخرى في يد ازيرو بعد مدة وجيزة . واسترجعت سيميرا وهدمت « لمنع وقوعها في ايدي الحثيين » كما ادعى ازيرو وعندما طلب فرعون اعادة بنائها وعد ازيرو بان يفعل ذلك خلال سنة لانه كان جد منشغل في الدفاع عن مدن الملك ضد الحثيين . ولهذا السبب نفسه ، كما ادعى في مناسبات اخرى ، لم يتمكن من الاستجابة لامر فرعون والذهاب الى البلاط المصري ليشاهد « وجه سيدي الجليل^٤ » . ويعطي تقريراً عن اعماله .

ومعها يكن فان ازيرو ذهب فيما بعد الى مصر بعد ان انتزع من المندوب المصري ايماناً بانه سوف لا يصاب باذى ، ولكنه عاد وجدد ولاءه للقائح الحثي لثبالي سورية واسمه شوبيلولوما^٥ . وفي هذه الاثناء نجد ان رب عدي الذي شعر بانه « اصبح كهصفور في شبكة » اخذ يفقد امله . وقد ارسل اخته واولادها ليلتجئوا الى

(١) الرسالة رقم ١٠٩ في Knudtson .

(٢) الرسالة رقم ١٠٨ في Knudtson وفي التحارير ورد اسم SU-BA-RI و ZU-BA-RI بدلا من Suri . وتصل هذه البلاد اتصالاً وثيقاً بميثاني في شمالي سورية ويقول بعض العلماء ان هذا الاسم هو الذي اعطانا اسم « سورية » . قارن مع : Ignace J. Gelb, *Hurrians and Subarians* (Chicago, 1944), p. 48 ; Alexander H. Krappe, « The Anatolian Lion God », *Journal of the American Oriental Society*, vol lxx (1945), p. 153.

(٣) UL-LA-ZA هي ارتوزيا Orthozia في العصر الكلاسيكي وهي ارض ارتوزي الحديثة عند مصب نهر البارد شمالي طرابلس تماماً ؛ و AR-DA-TA هي اربة قرب زهرتا . انظر : Abel, *Géographie*, vol. ii, p. 4 ; Dussaud, p. 85.

(٤) رسائل رقم ١٦٤ - ١٦٧ في Knudtson .

(٥) انظر ما سيأتي بشأنه في نهاية الفصل الحادي عشر .

صور^١ التي كان ملكها ابي ملكي غير منضم الى جماعة الامراء الناقمين بل كانت يسترسل في توجيه تحارير الشكوى الى مصر كما كان يفعل رب عدي . واما رب عدي نفسه فقد هرب فيما بعد من جيبيل الى بيروت^٢ . ولكن نساءه وابناءه سلموا الى ازيرو . وعندما اصبحت بيروت في خطر تابع هربه الى صيدا^٣ التي بخلاف منافستها صور كانت قد تحالفت مع الاموريين . وهنا ادركه اخيراً ازيرو فوقع في قبضته .

وهكذا فقد اضطرت مصر للتخلي ليس عن شمالي سورية فحسب وانما عن فينيقية ايضاً التي كانت مصدراً هاماً لموادها الخام . واخذت الشقة تتباعد بازدياد بين سورية وفلسطين .

الاموريون في فلسطين

ويسدل الستار بعد ذلك على الاموريين في سورية الوسطى وينتقل مركز الحوادث الى الجنوب . وقد كان الحثيون متمركزين في شمالي سورية واواسطها ولم يقيم خلفاء اخناتون المباثرون بمحلات جديدة ضدهم وتظهر رسائل تل العمارنة انه بينما كان الحثيون يحتلون المنطقة الشمالية كانت جماعات جديدة تسمى الحابيرو^٤ تغزو المنطقة الجنوبية ويرافقها كما يبدو الآراميون وهم قبائل سامية جديدة اتت من البادية . ويرى بعض العلماء ان الحابيرو هم الساغاز Sa-Gaz انفسهم وكانوا مرتزقة في الجيش الحثي يتعاونون مع عبد عشتار . وفي احدى رسائل رب عدي الاخيرة الى اخناتون يشير اليهم قائلاً : « منذ ان عاد والدك من صيدا ، منذ ذلك الحين سقطت الاراضي في يد الساغاز Gaz » .

(١) SUR-RI واسمها محفوظ في التسمية الحديثة « صور » .

(٢) BE-RU-TA وبالمرية BI-RU-TA وهي اليوم اكثر ازدهاراً من سائر المدن المذكورة . وكلمة b'eroth منها آبار . انظر : Zellig S. Harris, *A Grammar of the Phoenician Language* (New Haven, 1936), p. 85. ٢٥:١٨ ؛ ١٧:٩

(٣) SI-DU-NA وسيت كذلك باسم اله الصيد البري والبحري .

(٤) راجع ما سيأتي في نهاية الفصل الحادي عشر .

(٥) الرسالة رقم ٨٥ .

عندما دخل الحايبرو فلسطين وجدوا ان ساميين قداماء هم الاموريون يحتلون قسماً منها على الاقل. وإن خلفات الاتصال التاريخي بين الممالك والجماعات الامورية الكثيرة في سورية التي كانت موزعة في الزمان والمكان مفقودة. ولا يمكننا التأكد ايضاً من ان الحركة الامورية نحو الجنوب كانت حركة اجماعية. واسم الاموريين مثل الحثيين تغير معناه مع الزمن كما يبدو وصار يستعمل بحرية اكثر. وربما كان الاموريون الطبقة الحاكمة في الجنوب^١. وأحد المصادر الرئيسية التي استخدمها مؤرخو العهد القديم وانيياؤه يعطيهم مكانة ممتازة في فلسطين قبل الاسرائيليين ويجعل جميع سكان الاراضي الجبلية وشرقي الاردن اموريين^٢ قبل قدوم بني اسرائيل^٣. وهناك مصدر آخر رئيسي يجعل سكان البوادي خاصة من الكنعانيين. ويتضح ان الاموريين كانوا في القرن الثالث عشر يسيطرون على المواقع الاستراتيجية ورؤوس التلال في سورية الجنوبية وانهم اسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد فاصبحت تلك المدن الكنعانية الهائلة التي توقفت عند اسوارها وابراجها القادمون الاسرائيليون.

وبعد مدة تم للاسرائيليين انتزاع السيادة من ايدي الاموريين والكنعانيين. فقد استولوا على المناطق السورية الواقعة شرقي الاردن بعد اجتياح سيخون Sihon وجارتها الامورية في الشمال وهي ارض باشان^٤. وكان عوج Og ملك باشان الذي قيل عنه انه «من بقية الجبابرة» هائلاً في قامته. وكان طول سريره الحديدي (ربما تابوته البازلي^٥) تسعة اذرع وعرضه اربعة اذرع^٦. وقد جاء في سفر التثي عاموس (٩: ٢) ان قامة الاموريين كانت مثل قامة الارز وانهم اقوياء كالسنديان. وتبدو قامات الاموريين في المباني الاثرية طويلة عسكرية. ولا بد من ان حجمهم وحضارتهم أثاروا على سكان الكهوف القصار القامة البدائيين في جنوبي سورية حتى ان

(١) Albrecht Alt, « Volker und Staaten Syriens im frühen Altertum », راجع: *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), pp. 22-24.

(٢) راجع سفر العدد ١٣: ٢٩؛ يشوع ٢٤: ١٨، ١٨؛ عاموس ٢: ١٠؛ حزقيال ١٦: ٣؛ ٤٥: ٢٠.

(٣) واسرائيل هو يعقوب (سفر الخروج ٩: ٧) حفيد ابراهيم.

(٤) سفر التثنية ٢: ٣ وما يليه؛ ١: ٣ وما يليه.

(٥) سفر التثنية ٣: ١١.

الاساطير قامت تتحدث عن انه جيلاً من الجبابرة اتي وتزاوج مع بنات الانسان ، وانتقلت هذه الاساطير الى الاسرائيليين^١. ويبدو ان مثل هذه الاساطير الموجودة عند شعوب اخرى كثيرة بعض الاتصال بظهور قادمين جدد يستغمدون المعادن^٢. وكان البروتزو هو المعدن في هذه الحالة. فقد جعل الاموريون الاولوت رؤوس حراهم النحاسية وخناجرهم وسكاكينهم اكثر صلابة بواسطة التطريق ثم بالمزج مع القصدير. واقدم الخناجر البروتزية من فلسطين تشبه خناجر شمالي سورية. وقد ادخل صهر البروتزو من هناك الى فلسطين قبل ٢٥٠٠ ق. م.

وينتسب شكل الاموريين الى ما يسمى بالنوع الارمنوي الذي يتصف بالرأس المستدير والانف الضخم. ويلاحظ نفس النوع بين عرب الجنوب^٣. واقدم ممثلين للاسرى الاسويين الذين اسرهم الفرعون ساهوراع (نحو ٢٣٥٠ حسب التاريخ على اقرب تقدير) ينتسبون الى هذا النوع. ويصدق الامر نفسه على الذين يظهرون في الرسوم الجدارية في بني حسن وكاتوا يجلبون الكحل الى «مدير الصحراء الشرقية» (حوالي ١٨٩٠ ق. م.). وهنا يظهر الشيخ الاموري أبشة وهو غالباً من جنوبي فلسطين مع ابناء قبيلته وبناتها باثواب قصيرة متعددة الالوان ومنسوجة بعناية ودقة ويلبس الرجال نعالاً (او صنادل) والنساء احذية او جوارب. ويشاهد الرجال بلحية سوداء ووجه يشبه العصفور وقزحية عيونهم رمادية اللون وبؤبؤها اسود. ويقود أبشة موكبهم. ويتبع النساء في هذا الموكب رجل وحمارة وعلى ظهره قربة وفي يده مضرب ليلعب على قيثارته ذات الثانية اوتار. وعلى ظهر الحمار الصبور سرج يرتبط به رمح ومضرب عصي. ومن الاسلحة الاخرى التي يحملها الرجال اقواس مزدوجة وحرااب. وهناك قطعة عاج محفورة من اواخر السلالة الاولى (نحو ٢٣٠٠ ق. م.) تظهر سامياً بلباس كان يلبسه في القتال على ما يظن وهو مئزر مزركش بحواش يصل الركبتين تقريباً.

لم تترك اللغة الامورية كتابات اثرية ذات شأن وانما تركت اسماء اماكن

(١) انظر ما جاء في اعلاه ص ٢٨-٢٩.

(٢) M. E. Kirk, « An Outline of the Cultural History of Palestine », *Palestine Exploration Quarterly*, vol. lxxv (1943), p. 22.

(٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 30.

وامراء فقط. ومع ذلك فانه يمكننا التأكد بانها اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة فحسب. ويمكن اعتبارها بالواقع لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية او الفينيقية.

العبادة الامورية

ان الديانة الامورية في شكلها البدائي لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة بين الرحل في بادية الشام وبلاد العرب. وكان يوجد بجانب الهة القبيلة امورو وهو اله الحرب عدد من الآلهة التي لا تعرف صفاتها بالضبط ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانية فيما بعد. وكان اهمها حدد (بالاكادية آدد او آدو^١) المعروف ايضاً باسم رّماتو (صانع الصواعق) وهو اله مطر وعواصف يمثل نوعاً شائعاً في غربي آسيا ويظهر عادة مع الثور والصاعقة. ثم اصبغ بعد ذلك البعل الاعظم. وبصفته اله رئيسي في العرب عرف باسم مارتو. ويوجد اله آخر ذو شأن وهو رشف^٢ وربما كان له بعض الصلة بالنار. واقتبسه المصريون في عهد الملكية الحديثة من الكنعانيين. وكان دجن الذي عبده الاموريون الذين فتحوا بابل اله غذاء بالاصل. وقد اجريت الحفريات في معبد مكرس له في مدينة اوغاريت. واقتبسه الفلسطينيون كاله السمك وكان يعبد خاصة في غزة. وجميع هذه الآلهة قد ذكرت في الواح ماري.

وكان لاله امورو شريكة تسمى عاشرة Ashirat وتتصف بحب السررات والنشاط وتشبه نموذج عشتار المعروف. وقد كانت الالهة الرئيسية. وعبادة الافعى التي سبقت قدوم الاسرائيليين كانت متصلة على ما يبدو بالالهة انثى وربما كان ادخلها الاموريون. وفي عداد آلهة جنوبي بلاد العرب نجد ان هذه الالهة متصلة بالاله القمر. واسمها يقابل Asherah بالعبرية وهي العمود المقدس او جذع الشجرة وتستعمل في الطقوس الدينية^٣.

(١) في الرسالة ٥٢ من رسائل تل العمارنة الوجهة من ملك قطنة لطلب المساعدة من امنحوتب الثالث ضد الحثيين غالباً نرى ان الملك يسمى فرعون «يا الهى آدو». وفي تحاير قطنة رقم ٥٢-٥٥ أدخلت تعابير حورية كثيرة. انظر نهاية الفصل الثاني عشر.

(٢) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ١٢.

(٣) انظر الفصل العاشر في اول القرة عن الاصنام.

ومن الطقوس البارزة التي ادخلها الاموريون الى جنوبي سورية العمود المقدس وكان يمثل على ما يظهر اله القبيلة وعادة يقام في مكان مطهر وعادة في مغارة الى جانبها مذبح من الحجر الكلسي لا تدنسه اية آلة^١. والساميون الذين حلوا في جزر محل السكان الاقدمين ومارسوا تضحية اول مولود وكذلك قاموا بالتضحية عند تأسيس الاماكن وبنوا الاماكن المرتفعة للعبادة من الصخور الكبرى — هؤلاء الساميون كانوا اموريين^٢. ومن اقدم الاشارات الى التضحية عند التأسيس إشارة واردة في شعر سومري ذكرناه آنفاً^٣ حيث يذكر ان الاموري كان يبني باحة معبده «على رجل ميت». وقد تابع الكنعانيون النظم والعادات الدينية التي كان يتبعها ابناء جنسهم الاموريين الذين اتوا قبلهم.

(١) قارن مع ما جاء في سفر الخروج ٢٠ : ٢٥.

(٢) انظر ما جاء في ص ٢٦ وما سيأتي في الفصل العاشر، في الفقرة عن الاماكن المرتفعة.

(٣) انظر ص ٧١

الفصل الثامن

الكنعانيون ثماني شعب سامي رئيسي في سورية

كان الكنعانيون الذين سماهم اليونان بالفينيقيين فيما بعد ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ سورية بعد الاموريين . والكنعانيون والاموريون ينتسبون الى موجة الهجرة نفسها . ولذلك فان الاختلاف العرقي بينهم معدوم وان كانت بعض العناصر السومرية والحدورية اندججت بالتدريج مع الاموريين بينما اندججت بعض العناصر المحلية الاخرى مع الفينيقيين . والاختلاف الحضاري ناشئ عن ان مركز الاموريين الاصلي كان في شمالي سورية ولذلك تعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية بينما كان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل . ولذلك كانوا متجهين نحو مصر . والاختلاف الديني كان بالدرجة الاولى اختلافاً في التطور والتكيف حسب البيئة المحلية . واما الاختلاف اللغوي فكان اختلافاً في اللهجة فقط باعتبار ان اللغتين كانتا من الفرع السامي الغربي الذي يضم العبرية . وهذا الفرع نفسه يمكن تسميته بالشمالي الغربي لتمييزه عن الجنوبي الغربي الذي يضم العربية .

كنعان

ان اسم بلاد كنعان الذي كان يعتبر حتى الآن سامياً بمعنى الارض المنخفضة^١ لاختلافها عن مرتفعات لبنان اصبح الآن مشكوكاً في اصله السامي ويظن انه من اصل غير سامي . والاستقاق الجديد يجعله حوري الاصل Knaggi بمعنى الصباغ الأرجواني وهذا اعطى الصيغة الاكادية في نوزي «كناخني Kinakhni» (وفي مسامرة رسائل تل العمارنة كينناخي Kinakhkhi) وبالفينيقية كنع Kena والعبرية

(١) من فعل كتع kana اي اغلض او تواضع . انظر : Smith, *Historical Geogra-*
phy, pp. 4-5; Claude R. Conder, *Syrian Stone-Lore* (London, 1896), pp 2-3; C.
Autran, *Phéniciens* (Paris, 1920), p. 4; cf. Lewis B. Paton, *The Early History*
of Syria and Palestine (New York, 1901), pp. 68-69.

كنعان اي بلا الارجوان^١. وفي العصر الذي احتك فيه الحوريون احتكاً وثيقاً بساحل البحر المتوسط في القرن الثامن عشر او السابع عشر كانت صناعة الارجوان على الغالب الصناعة السائدة في البلاد. كذلك يشير اسم فينيقية المشتق من اليونانية ^٢Phoenix اي احمر ارجواني الى الصناعة نفسها وبعد ان اطلق اليونان هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم فان كلمة فينيقي اصبحت بعد حوالي ١٢٠٠ ق. م. مرادفة لكنعاني. ولا بد ان هؤلاء الساميين السوريين الذين لا يختلفون عن كثير من الشعوب القديمة الاخرى كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية والمحلية اكثر بما تشعر بوحدة القومية، وكان عليها ان تنتظر اجنبياً ليعطيها اسماً عاماً.

وقد اطلق اسم كنعان في اول الامر على الساحل وغربي فلسطين ثم اصبحت الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية. وكان هذا اول اسم لفلسطين وجميع الاسماء الاخرى اقل اهمية. وفي وثائق العهد القديم الاولى اطلق اسم كنعاني بمعناه الواسع على جميع سكان البلاد بدون اي مدلول عرقي، وتعبير «لغة كنعان»^٣ كان يطلق بصورة عامة على لغة فلسطين السامية.

تبدأ الديانة واللغة الكنعانيتان بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة حوالي مطلع الالف الثاني ق. م. غير ان اسلاف الذين سموا كنعانيين كانوا غالباً يمتثلون البلاد قبل ذلك بالف سنة او اكثر. ويمكن استنتاج ذلك من اسماء الاماكن كما اظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل اريحا^٤ وبيت شان^٥ ومجدو^٦ التي لها اسماء كنعانية واضحة قبل عام ٣٠٠٠ ق. م. وظهر في

(١) W. F. Albright, « The Role of the Canaanites in the History of Civilization », *Studies in the History of Culture* (Menasha, 1942), p. 25; cf. Alt in *Der alte Orient*, vol. xxxiv, No. 4 (1936), p. 25

(٢) G. Boufaute, « The Name of the Phoenicians », *Classical Philology*, vol. xxxvi (1941), pp. 1 seq.

(٣) سفر اشعيا ١٩ : ١٨ .

(٤) اصلها من يريخو Yerēho اي مدينة القمر .

(٥) وهي Beth-shan اي بيت الاله شان واليوم تسمى بيسان .

(٦) او Megiddon المشتقة من جدد gadad اي قطع واليوم تل التسل .

الكتابات الاثرية في النصف الاول للالف الثاني مدن اخرى لها اسماء سامية معروفة يمكن اعتبارها كنعانية مثل عكو^١ وصور^٢ وصيدا^٣ وُجيلة (جليل) وارسكة وسيميرا^٤.

بمالك المدن

كانت نتيجة طبيعة اراضي كنعان وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي البجلة وآسية الصغرى ان الكنعانيين لم ينجحوا قط في تأسيس دولة قوية موحدة . وبدلاً من ذلك فانهم كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل الى الحكم غالباً بعد ان كان ينتسب الى طبقة الاشراف الملاكين . وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات وابراج للدفاع^٥ . يمكن لسكان الريف المجاورين ان يلتجئوا اليها في وقت الخطر وان يقصدوها في وقت السلم فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعياً . ومثل هذه المدن كانت تشكل مكان الدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الاقوياء او غارات البدو الرحل . غير ان انقسام البلاد الى بمالك مدن صغرى في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الاحيان وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية ، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة المبالة الى الاعتداء .

انتشرت المدن الكنعانية الاولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل^٦ في الجنوب ولكن تعرجات الشاطئ القليلة جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدوداً . غير ان جبال امانوس وكاشيوس في الشمال ومرتفعات فلسطين في الجنوب

(١) Acco (من akko، اي رمل حار) وهي بتوليس Ptolemais في العصر اليوناني واليوم عكا .

(٢) Sôr بمعنى صخر .

(٣) Sidon اي مضيفة ملك .

(٤) انظر ما جاء في الفصل السابق .

(٥) ومفرد هذه الابراج migdol وقد بقي هذا الاسم السامي في الصيغة العربية «مجدل» التي تظهر في اسماء الاماكن .

(٦) واصل الاسم من السامية karmel بمعنى ارض ذات بساتين .

لم تشكل ترساً كافياً ضد الهجمات من الورا كما فعلت جبال لبنان المرتفعة . ولذلك فان المدن العظيمة وهي التي قدر لها البقاء تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان وهي طرابلس^١ . وبوترس Botrys (البترون) وبيباوس (جيبيل) وبيروتوس (بيروت) وصيدا وصور . هذه المدن بالإضافة الى عرقة وميسيرا وارانوس^٢ (ارداد) في الشمال وغيرها من المدن كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة التي تكفي نفسها بنفسها . وفي سورية الجنوبية تقع غزة^٣ وعسقلان^٤ على الساحل ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل مثل جزر ولاكش ومجدو وهازور Hazor وشكيم واورشليم^٥ وقد ذكرت جميع هذه المدن وكثير غيرها في تقارير حملات نخوتمس الثالث (في مطلع القرن الخامس عشر ق. م) ورسائل تل العمارنة ويوجد وصف لها في سفر يشوع والقضاة .

كانت هذه المدن صغيرة في مساحتها . فقد كانت مساحة جزر وهازور^٦ وهما من اكبر المدن بين خمسة عشر وستة عشر فداناً بينما كانت مساحة اريحا ستة فقط . وربما كان وجود مرتفع يسهل الدفاع عنه او ينبوع ماء ، العامل الذي قرر اختيار الموقع . ولكن سور جزر كما اتضح من الحفريات الحديثة كان ضخماً بحيث بلغ سمكه ستة عشر قدماً ، وارتفعت اسوار اريحا حتى بلغ ارتفاعها واحداً وعشرين قدماً^٧ . تلك كانت حصون الكنعانيين القوية التي ألقت الرعب في قلوب جواسيس موسى^٨ . وكانت المركبات الحربية التي ادخلها الكنعانيون الى البلاد وسيلتهم

(١) من اليونانية Tripolis اي ثلاث مدن . ولا يزال اسم المدينة الفينيقية القديمة التي كانت على الساحل ولم تظهر اهميتها حتى العصر الفارسي مجهولاً . انظر ما ستذكر بشأنها في الفصل ١٦ في العصر الفارسي .

(٢) وهو اسم غير سامي .

(٣) والاسم مشتق من «عزة» اي قوة وثبات .

(٤) من المبرية Ashqelon .

(٥) انظر ما سيأتي بشأنها في نهاية الفصل الحادي عشر .

(٦) سيأتي ذكرها ايضاً في الفصل الحادي عشر في الفقرة التي عن المكسوس .

(٧) راجع : Garstang, *Heritage of Solomon*, pp. 109-110; A.-G. Barrois, *Mannet d'archéologie biblique*, vol. I (Paris, 1939), pp. 145 seq.

(٨) سفر العدد ١٣ : ٢٨ .

الرئيسية في الدفاع . وقد ادخل الحصان في ايام الهكسوس^١ تقريباً (حوالي ١٧٥٠ ق.م). واما سائر اسلحة الهجوم فكانت تضم القوس والسهم برأس بروزّي او صواني وخنجر قصيراً وسكيناً معقوفاً - وقد وجدت آثار من جميع هذه الاسلحة - ونبوتاً ثقيلاً من الخشب القاسي .

وكان سكان الريف غالباً متفرقين قليلي العدد ويحتمل ان لا يكون عدد سكان فلسطين كلها قبل قدوم الاسرائيليين قد تجاوز ربع المليون^٢ . وقد حصل نمو المدن بدون اتباع مخططات موضوعة سلفاً . وكانت المنازل الكنعانية في القرن الخامس عشر كما كشفها علماء الآثار هزيلة في بنائها وغير منتظمة في تخطيطها بوجه العموم . وكانت منازل الفقراء صغيرة الحجم ومزدحمة بعضها بقرب بعض كما في القرى القديمة الطراز اليوم . اما منازل الاغنياء فقد كان لها باحة في وسطها وحولها الغرف . وكانت بعض البيوت مزودة بعنبر للقمح وصهريج خاص^٣ .

المدن الواقعة على جزر

كانت تتمتع بعض المدن مثل ارادس (ارواد) وصيدا وصور بخط دفاع مزدوج . وكان مواطنوها يحتلون موقعين الواحد في البر حيث كانوا يتاجرون او يزعمون بساكنهم والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلجأون اليها كلما تدفق الفاتحون الاشوريون . مثلاً عبر الممرات الجبلية . فالارواديون الذين كانت تسمى مدينتهم الكائنة على الساحل انتارادس Antaradus^٤ في العصر الهلنستي كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصغيرة كما يفعل الناس في جزيرة مناهتن بنيويورك في ناطحات سحاب مصفرة . وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه لاجل جزيرتهم . وكانت تخزن مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف اليها مياه ينبوع تحت

(١) راجع ما سنذكره عن الهكسوس في الفصل الحادي عشر .

(٢) Garstang, *Heritage of Solomon*, p. 107

(٣) Macalister, *Excavation of Gezer*, vol. i, p. 169 ؛ ولجل وصف سائر المنازل راجع :

Barrois ص ٢٥١ وما بعدها .

(٤) وكان الصليبيون يسمونها Tortosa واليوم طرطوس شمالي عرمت حيث لا تزال تشاهد بعض الآثار الدينية الهامة وهي معبد وقبور .

البحر يحصلون عليها بوضع قمع ضخيم مقلوب على ينبوع بحيث يتصل القمع بالنبوع جلدي^١ وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر .

كانت صور الواقعة على جزيرة صغيرة « مبنية بنفس الشكل الذي بنيت فيه ارادس^٢ ». وكانت الجزيرة متصلة بالبر بسد طوله نصف ميل بناه الاسكندر اثناء حصاره لها^٣. وقد اظهرت الحفريات الحديثة تحت البحر والصور الفوتوغرافية من الجو ان المرفأ الرئيسي كان في الجهة الجنوبية للجزيرة وان الرصيف الذي كانت يحيطه وهو الآن على عمق خمسين قدماً كان طوله ٧٥٠ متراً وسمكه ثمانية امتار وان اسوار المدينة كانت تشرف على هذه المجموعة كلها مع ابراج في كل طرف^٤. ويعتقد ان هذه الاشغال الضخمة بناها الملك حيرام معاصر سليمان الذي بلغت المدينة ذروتها في ايامه . وهذا جعل صور من اقوى الموانئ في شرقي البحر المتوسط . غير ان امبراطورية صور في ذلك العصر وفي جميع العصور كانت قائمة على التجارة والغنى وليس على الاراضي والفتح .

وكانت تقع صيدا وهي شقيقة صور الشمالية على رأس جبلي اختاروه على الاكثر بسبب المرفأ الممتاز الذي يتألف من سلسلة من الجزر الصغرى المتصلة بعضها ببعض بارصفة اصطناعية . وكان هذا المرفأ يقع الى جهة الشمال ، وفي الجنوب كان يوجد مرفأ آخر يسمى المرفأ المصري وهو اكبر من الشمالي ولكنه ليس اميناً مثله . وكان يحمي المدينة من جهة البر سور . وقلعة صيدا الحالية وتسمى قلعة البحر يعود اصلها الى زمن الحروب الصليبية وتقع على اكبر هذه الجزر . وفي اوائل القرن السابع عشر امر الامير اللبناني فخر الدين المعني بملء المرفأ القديم لينسج اقتراب الاسطول العثماني^٥ .

(١) انظر : Strabo XVI. 2. 13

(٢) Strabo XVI. 2. 23

(٣) انظر ما سيأتي عن حصار صور في الفصل السابع عشر .

(٤) راجع : A. Poidebard, *Un Grand Port disparu : Tyr* (Paris, 1939), pp. 25-26.

(٥) انظر ما سيأتي بشأن الامير فخر الدين في الفصل التاسع والاربعين .

اتحاد المدن

وللتغلب الموقت على عزلة بمالك المدن السياسية ، هذه العزلة التي تعكس تجزؤ البلاد الجغرافي كانت احسن وسيلة ان تحصل احدى المدن على الزعامة ويصبح لها سيادة سياسية على سائر المدن . وكانت المصالح المشتركة تتطلب الاتحاد الاختياري في بعض الاحيان . وقد حصلت على مثل هذه الزعامة اوغاريت في اواخر القرن السادس عشر وجبيل في القرن الرابع عشر وصيدا بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر وصور بعد هذا القرن وطرابلس في القرن الخامس . وتحت ضغط الخطر المدام خاصة كانت هذه المدن تتعاون وتشكل عصابات واحلافاً . ومن الاحلاف القليلة الهامة المعروفة ذلك الحلف الذي كسره نحوتمس الثالث في مجدو في ١٤٧٩ ق. م. غير ان السلطة الموجهة في ذلك الحلف كانت قادش الواقعة على العاصي . وتظهر مراسلات تل العمارنة بعد ذلك بقرن ليس فقدان العمل المشترك فحسب وانما محاولة الملوك الفينيقين ايضاً للحصول على الفوائد من سيدم المصري بعضهم على حساب بعض . وكان معظم هؤلاء الملوك يوجهون رسائلهم الى فرعون بصورة شخصية وافردية . وقد برهن الكنعانيون خلال تاريخهم الطويل انهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون الى الاعمال الحربية . وكانوا يوجهون اهتمامهم الى نواحي التجارة والفن والديانة وليس الى الحرب . وكانت مدنهم عادة تحمي رأسها امام حوادث الفتح الموجهة من مصر وبابل وبلاد الحثيين وفارس ومكدونيا . وكانوا يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم ويأملون ان يكافأوا ولو جزئياً بتوسيع اسواقهم في البلاد الداخلية .

الاقتصاد : الزراعة

وقد سعى سكان كنعان الى اغناء انواع الاقتصاد التي تسمح بوجودها اراضيهم ومواردها الطبيعية . واقدم اعمالهم الرئيسية انحصرت في ميادين الزراعة وصيد الاسماك والتجارة . فالاهتمام بالزراعة كان من نواحي نشاطهم الرئيسية وقد اثر على ديانتهم تأثيراً عميقاً . وكان البذار يتم باليد في اول الامر ثم توسع اكثر عندما ادخل المحراث من بلاد بابل ، وربما دخل المحراث الى جنوبي البلاد من مصر . ووجدت بقايا اعمال الزراعة الكنعانية بين ١٥٠٠ و ١٣٠٠ ق. م. في تل بيت مرسيم (قرية سفر القديمة) . واكتشف فأس من البرونز في رأس الشجرة .

وكانوا يحددون بمنجل اسنانه من الصوان وتتصل بقبضة من العظم او الحشب بواسطة الملاط. واستعملت هذه الآلة حتى حوالي عام ١٠٠٠ ق.م. حين حل المنجل الحديدي محلها. ومن التاريخ نفسه تقريباً أنت أقدم آلة حديدية يمكن تعيين تاريخها وهي طرف محراث اكتشف في فلسطين الوسطى في جبعة موطن شاول وتسمى اليوم تل الغول. وانت من تل بيت مرسيا محارث ومناجل حديدية بجانب الحرف الفلسطيني ساعدت على تأريخ هذه المكتشفات. وعملية الدراس كانت تم بزلاجة خشبية في اسفلها حجارة صغيرة. وكانت تدرى الحبوب بمنذرة خشبية كبيرة. والطحن كان يطحن في مطاحن يدوية من الحجر، والحجر كان ينجز في افران اسطوانية من الطوب. ولم تختلف الصورة العامة اختلافاً كبيراً عن العادات الريفية في سورية اليوم كما يتضح من دراسة سريعة لما اكتشف في السنوات الاخيرة من مناجل ومطاحن ومدقات واجران وغيرها من الادوات.

والمحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عن محاصيل هذه الايام. فالمحاصيل النموذجية كانت القمح والشوفان والشعير والفاصوليا والجلبانه والعنب والزيتون والتين والمان والجوز^١. وقد سميت الحبوب والكرمة والزيتون بحق ثلوث بلاد البحر المتوسط في الانتاج الزراعي. وعمد الفلاح في تكييف زراعته بمقتضى خطر عدم كفاية الامطار الى اساليب الزراعة الجافة وتضمن التناوب السنوي في زرع الارض وتركها بدون زراعة. وكان المجتمع الكنعاني يضم طبقة من الفلاحين او المستأجرين المولودين احراراً تسمى خابشي Khapshi تقابل طبقة المشكينو Mushkenu في المجتمع البابلي^٢. وفي الريف اللبناني عمد السكان عندما استنفذوا الوسائل المحلية للعيش الى تحويل منحدرات الجبال الى سطوح متفاوتة الارتفاع (جلول) ببناء جدران يبعد الواحد بضع يردات عن الآخر لتوسيع رقعة الارض المزروعة وحماية التربة ضد التأكل ومثل هذه الجللول (جمع جل) كانت اكثر ملائمة للحدائق والكروم والبساتين منها للزراعة الحقلية الواسعة. واقدم الاشارات

(١) انظر ما جاء في الفصل الخامس. راجع: Barrois, pp. 309 seq.

(٢) راجع مجموعة قوانين حمورابي، المواد ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨ الخ. وقد بقيت كلمة مشكينو في كلمة مسكين العربية وفي كلمة mesquin التي اقتبسها الانكليزية بطريق الفرنسية والاسبانية. وكلمة خبشي انت من اصل لا يزال بقياً في العربية في كلمة خبث.

الى هذه الجلول المدرجة التي تتصف بها مشاهد لبنان حتى اليوم ترد في كتابة اثرية من عهد نحوش الثالث .

وامم الحيوانات المنجسة كانت الابقار والاغنام والحمر والماعز والخنزير والكلاب، والثلاثة الاخيرة كانت تعيش على فضلات الطعام . وكان اللحم يؤكل في مناسبات خاصة وفي الاعياد فقط ويطبخ في قدور ذات فوهة واسعة . والطعام كان يؤكل باليد او بملاعق ذات مسكات عظيمة . ومياه الشرب كانت ترفع من الصهاريج او تؤخذ من الينابيع وتحمل على الرأس في قرب من الجلد او في جرات كبيرة . والمصابيح كانت عبارة عن صحنون خزفية بسيطة ذات فتحة صغيرة في طرفها لوضع القليل . ويرجع اقدمها الى النصف الاول للالف الثاني . وقد وجد عدد كبير من ادوات المطبخ في المواقع القديمة منها الجرار والآنية والصحنون الحجرية التي تظهر ان الحياة المنزلية قد بقيت في مظاهرها الاساسية حتى العصر الحاضر .

الصناعة

كان اصحاب الحرف والتجار يحتلون مكانة متوسطة في المجتمع الكنعاني بين الارستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من النبلاء الملاكين والمحاربين في سلاح المركبات وبين الطبقة الدنيا المؤلفة من عبيد الارمن والارقاء .

وكان الابناء عادة يتخذون مهنة آبائهم وظل هذا الاسلوب متبعاً حتى العصور الاخيرة . وهناك ما يحمل على الاعتقاد بان اصحاب الحرف كانوا ينتظمون في نقابات . والنقابات كانت تتألف من جماعات ترتبط بعضها ببعض بروابط المهنة والقرى وتعيش في احياء خاصة . وقد وجدت مثل هذه المنظمات في فلسطين قديماً منذ القرن الثامن عشر ق. م.

وقد بلغت صناعة الخزف وهي من اقدم الصناعات السورية ومن اكثرها نجاحاً ذروتها قبل عام ١٥٠٠ ق. م. وكانت التأثير البابلي ظاهراً فيها منذ ٢٠٠٠ ق. م. واستعمال دولاب الخزف الذي بدأ في اوائل الالف الثاني اعطى المصنوعات الخزفية صفات جديدة وشكلاً متناسقاً . والطين الذي استعمل حينئذ اصبح اكثر نقاوة . واخذت الصفات الامورية القديمة بالزوال واصبح تقليد النماذج الاجنبية وخاصة المصرية والكريتية والميكانية امرأ شائعاً . واستوردت الاواني

الحزفية البراقة ببريق معدني وآنية الرخام المرقق (الالباستر) من مصر بكميات كبيرة. واستخدمت كذلك الإواني القبرصية كنماذج كما تدل مكتشفات اوغاريت^١ وغيرها من الاماكن. وتقع اوغاريت على الساحل السوري تجاه قبرص تماماً. وبعد عام ١٥٠٠ ق.م. اصبحت التأثيرات القبرصية والميكانية قوية بشكل خاص. وصنعت نماذج خاصة لاجل الاشياء المتصلة بالطقوس الدينية والتقدمات التذرية. واستخدم القصدير في طلي الحزف واعطائه بريقاً خاصاً. والآثار المكتشفة في القبور تظهر ذوقاً عظيماً ومهارة فنية. وبلغ فن النحت ذروته في القرن السادس عشر.

صناعة المعادن

وكان الكنعانيون على الغالب لا يبارون في صنع المعادن في عصر البرونز المتوسط والآخر (نحو ٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م.). فقد كانوا يصنعون النحاس والبرونز بكثرة. وقد اظهر التحليل الكيميائي لنصل فأس من اوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس الشجرة ليس معرفة اذابة الحديد فحسب وانما معرفة مزجه بمعادن اخرى لصنع مزيج الفولاذ^٢ وكان هذا الامر مجهولاً حتى ذلك الوقت. واهم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً وعن القصدير لاجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز وعن الذهب والفضة ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم. ووجدت صحون الفضة بين غنائم الفراعنة من سورية. وبلغ فن الصياغة ذروته في القرن السادس عشر. واكتشف ميزان احد الصاغة واوزانه في رأس الشجرة. واستخدمت وزنات الفضة غير المسكوكة كمنقود في بلاد آسيا الغربية بالرغم من ان التجارة كانت عموماً بشكل مقايضة. ويشير سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) أحد فاتحي سورية الاشوريين الى هذه الاوزان التي صنعها بقوله: «ولقد عملت قالباً من الطين وصببت البرونز فيه كما في صنع قطع نصف الشاقل^٣». وقد وجدت السكاكين ورؤوس الحراب والفؤوس الحربية والمخارز والملاقط في اريحا من العصر الذي سبق قدوم بني اسرائيل. وبعد ١٥٠٠ ق.م.

(١) انظر ما سيأتي في الفصل الماخر في الفقرة التي عن اوغاريت.

(٢) راجع : Schaeffer, *Ugaritica*, p. 110, No. 2

(٣) Daniel D. Luckenbill, *The Annals of Sennacherib* (Chicago, 1924), p. 123

تظهر في فلسطين اشكال حثية وقبرصية وميكانية من الاسلحة . واكتشفت اساور وخلاخل واقراط وخزائم ومشابك للصدر من البرونز والذهب والفضة في مختلف المواقع . واستخرجت صنوج صغيرة من القرن الرابع عشر من تل « ابو هوام » قرب حيفا . وتظهر الآثار وجود آلات موسيقية كالقيثارة والثاني والمزمار والعود والدف ولكن هذه لم تبقى لسرعة تلفها . وعندما بدأ التجار الكنعانيون باستيراد التمام والجعلان والاختام والحرز والاواني والاسلحة وغيرها من مصر فان صانعي المعادن الكنعانيين اخذوا يقلدونها . وتشيد اشعار هوميروس بصناعة المعدن والفنون الفينيقية وقد ذكرت ان صحناً من الفضة « عمله بدهاء الصيديونيون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة هو في جماله احسن شيء من نوعه في العالم كله »^١ .

العاج

كانت زينة عامة الناس تضم العقود والحواتم من الحجر الكلسي والبور الصخري والعقيق وقد وجدت نماذج منها . ولم تكتشف الا خرزات وتماث قليلة من العاج . وكان العظم يستخدم مكان العاج بالرغم من ان الفيل كان على الغالب موجوداً في سورية الوسطى كما تدل اخبار رحلات الصيد التي كان يقوم بها الفراعنة الى تلك المنطقة . وتعود اقدم قطع العاج الفينيقية الى القرن الرابع عشر . ووجدت تحف مجعدو العاجية في قصر من اوائل القرن الثاني عشر وقد تكون من عصر اكثر قدماً . والامشاط التي اكتشفت في قبور في اسبانيا تتبع اسلوب مجعدو ولكنها ترجع الى القرن الثامن . واقدم تقليد يوناني معروف للاشغال الفينيقية يرجع الى هذا القرن . وهناك قطعة عاج من القرن الثاني عشر او الثالث عشر في مجعدو ترينا مغنياً يعزف على القيثارة . وبعض قطع العاج الفينيقية رائعة في صنعها وجمالها حتى انها اعتبرت من اثن آثار الفن في الشرق القديم .

الزجاج

كانت صناعة الزجاج من الصناعات الاخرى التي تفوق فيها الكنعانيون .

(١) الياذة هوميروس الكتاب ٢٣ ، ٧٤٠ - ٧٤٥ . وقد استعمل اسم الصيديونيين كمرادف للفينيقيين .



الالاهة الام على قطعة عاج من العصر الميكاني وجدت في
مينة البيضاء مرفأ رأس الشعرة

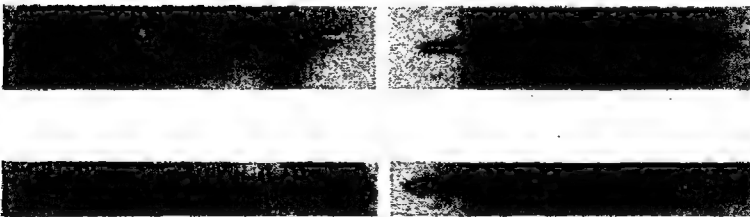
تظهر الالاهة بلباس ميكاني جالسة على منبر وعلى كل من جانبيها اسد وتمسك كوزاً من الترة .
وكان هذا النموذج الزخرفي شرقي الاصل سومرياً الا انه شاع في العالم الايجي



مشطان من العاج



قطع من الملاعق العاجية وقد جملت ايديها باشكال نسائية



دبابيس عاجية

وكانت المرويات الكلاسيكية تنسب اليهم فضل اكتشاف الزجاج غير اننا نعلم اليوم ان المصريين صنعوا الزجاج قبل الكنعانيين بكثير. والاخبار المتعلقة بالكنعانيين يمثلها ما رواه بليني Pliny^١ من ان بعض التجار كانوا يعدون طعامهم على الشاطئ^٢ قرب عكا وقد استخدموا بعض قطع نترات البوتاس التي كان يحملها مركبهم لتوكيز قدورهم على النار. ولكنهم اكتشفوا على اثر ذلك سائلاً شفافاً عندما تعرضت النترات للنار واختلطت بالرمل. ومهما يكن فان الواقع هو ان الفينيقيين هم الذين تاجروا بالزجاج المصري واقتنوا فن انتاج الزجاج القديم.

صناعة الأقمشة

كانت صناعة الغزل والنسيج من الصناعات الاعتيادية ومكنتها المنزل. وقد وجدت آثار مغازل من الحجر والعظم واثقال من الحجر والطين تستخدم لاجل الانوال وترجع الى اوائل الالف الثالث. ولا شك ان الصوف كان اقدم المنسوجات. وتذكر وثائق نوزي من حوالي ١٥٠٠ ق. م. الصوف الكنعاني^٣. والقطن الذي كان بالاصل من نبات الهند قد ادخله سنجاريب الى بلاد اشور حيث يشير في احدى الكتابات الاثرية الى « الاشجار التي تحمل صوفاً » والتي كان رجاله « يقطعونها ويسرحونها لعمل الملابس »^٤. ولم يكن القطن شيئاً معتاداً في تلك الايام. وادخل الفينيقيون هذه المادة الى العالم اليوناني في اوائل العصر الهلنستي ومعها اسمها السامي^٥. وكانوا ينتجون الكتان كما يبدو في سورية الجنوبية في القرن العاشر لان روزنامة الجزر التي ترجع الى ذلك التاريخ تذكر « شهر اقتلاع نبات الكتان »^٦. ويعتقد ان الحرير كان معروفاً في صور في القرن السادس اذا صحت ترجمة احدى الكلمات في سفر حزقيا ١٦: ١٠، ١٣^٦. واكتشفت الابر والدبابيس في فلسطين

(١) Pliny Bk. XXVI. ch. 65

(٢) Annual, American Schools of Oriental Research, vol. xvi (1936), No. 77

(٣) James H. Breasted, Ancient Times, 2nd. ed. (New York, 1935), p. 203 انظر:

(٤) والكلمة اليونانية هي Kiton او chiton بمعنى رداء. وكلمة cotton الانكليزية اتت من « قطن » العربية وهي شبيهة بالكلمة السامية القديمة التي بقيت في كلمة كتان العربية.

(٥) انظر: Gustaf Dalman, Arbeit und Sitte in Palästina (Gütersloh, 1928), vol. i, p. 7.

(٦) انظر ما سجد عن الحرير في الفصل العشرين في الفقرة التي عن الحاصلات الزراعية.



حاملو الجزية السوريون ، على قبر من طيبة ، في عهد تحوتمس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١ ق.م.)

يقدم حاملو الجزية أنفسهم ما لديهم من اواني الذهب والفضة. والذين في القسم الامامي يسجدون او يرفعون اذرعهم كمنوان عبادة فرعون . والوجوه ملتصقة وهناك رأسان بلا شعر . ويظهر رجل في القسم الملوي من الرسم يقود فتاة عارية حليقة الرأس فيما عدا خصل الشعر المتدلية . وهناك رجل آخر واقف يمسك قرناً يحوي دهوناً . وفي القسم الاسفل يبدو اول رجل واقف وعلى ذراعه محفظة ضمنها اقواس ، ويمح مل مع الرجل الذي ورائه جراداً زرقاء قد تكون من الحيلة اللازوردية الكريمة . أما آخر رجل فيعمل على صنع أنية للشرب بشكل رأس طائر .

قبل قدوم بني اسرائيل في صناديق برونزية وبدون صناديق . والابر لها ثقب بينا الدبابيس طويلة برؤوس مضلعة او ذات شقوق . ووجدت اضرار مستديرة بثقبين . وكانت تصنع اضرار الفقراء من الخرف المكسور اما الاغنياء فكانت اضرارهم من العظم او العاج .

وترينا الاشكال في الرسوم الجدارية الموجودة في قبور مصر من اوائل عصر

المكسوس (نحو ١٧٠٠ ق.م.) جماعة من الكنعانيين يلبسون الاثواب الطويلة التي تصل من الكتف حتى الركبة . وهذه الاثواب مصنوعة من القماش المصبوغ ومزدانة بالشريط واحياناً مزخرفة بعناية . وبعد ان كان ذلك اللباس مستعملاً لدى الملك والكاهن فان سائر الناس صاروا يلبسونه . ويظهر حاملو الجزية السوريون على قبور طيبة التابعة للسلالة الثامنة عشرة يلتفون بشال ابيض له اطراف حمراء او زرقاء حول جسم الواحد من الحصر فما دونه . ويشاهد الاسرى الكنعانيون في المباني الاثرية المصرية يلبسون القميص او الرداء القصير والتنورة وثياباً فوقها تتألف من قطعة قماش طويلة ضيقة ملفوفة بشكل حلزوني حول الجسم . والمجموعة بكاملها بما فيها لباس الرأس تشبه ملابس البدوي . ورجال الفن المصريون يمثلون ليس الكنعانيين وحدهم وانما الآراميين ايضاً وغيرهم من الساميين باجسام اثقل من اجسام المصريين وفي الغالب بشعر طويل ولحى كثيفة سوداء مرسومة . ويتدلى الشعر من الوركاء بكتل كثيفة حتى الرقبة ويحجزه فوق الجبهة ما يشبه الشبكة . والكهنة كانوا يملفون رؤوسهم كما في مصر . وفي العصور التالية كانت النساء يخبثن شعورهن تحت براقع وبعد الزواج كن يلبسن قبعات تغطي رؤوسهن تماماً وبعضائب مثل الالهة^١ .

الارجوان

وهناك صناعة اخرى كانت مزدهرة على الساحل وهي صيد الاسماك . ومدينة صيدا مدينة باسما الى هذه الصناعة . وكانت المراعي البرية في بعض الاحيان مخيبة للامال او غير اكيدة بسبب فقر التربة او تقلب الامطار ولكن البحر كان يزود السكان بالاسماك وخاصة من نوع التونة والملح والصباغ الارجواني .

واقدم ذكر للارجوان قد ورد في نص من رأس الشمرة يقول ان كمية من الصوف قد وزعت بين الحائكين المكلفين بصنع الارجمان^٢ argman . وكانت

(١) سفر اشعيا ٣ : ١٨ .

(٢) انظر مقال Virolleaud في *Journal asiatique* م ٢٣٠ (١٩٢٨) ص ١٤٦ . وتتخذ هذه الكلمة في الاشورية شكل *argamānu* وفي العبرية ارجان (انظر سفر اخبار الايام الثاني ٢ : ٧) وفي العربية ارجوان من اصل غير سامي .

سواحل البحر المتوسط كلها وليس السواحل الشرقية وحدها تحوي بكميات مختلفة صدف الموركس Murex الذي يستخرج منه السائل الأرجواني ، وكانت شعوب اخرى من غير الفينيقيين كالمينوسيين واليونان مثلاً تستخدم هذه الاصداف . وتؤكد الاسطورة اليونانية انه بينما كانت الملكة هيلين تتنزه في طروادة على الساحل لتخفف عن نفسها ألم الاسر لاحظت ان السمكة الصدفية التي كان كلبها قد مضغها صبغت فيه بلون ارجواني غامق فاعجبت باللون واشترطت على من يريد ان ينال حظوة لديها ان يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالارجوان . غير ان ارجوان صور كان اشهر الاصبغة واثمنها في العصور القديمة . ووجد في جوار صور وصيدا نوع ممتاز من هذا الصدف ، وبما ان الفينيقيين كانوا حريصين على الاحتفاظ بما لديهم منه فقد اكتشفوا هذا الصباغ واستوردوه من اماكن بعيدة مثل ميناء سبارطة وجوار قرطاجة واوتيكا Utica . ولم يتاجروا بالصباغ نفسه وانما بالأمشة المصبوغة التي منها الصوف والشعر والكتان والقنب . ولا ندري ماذا كانت وظيفة السائل بالنسبة للحيوان الصدفى ولكن من المؤكد ان ما زعمه البعض من انه يفرز بصورة طبيعية لتلوين المياه ليحمي نفسه ضد مهاجميه ليس بصحيح .

كان استخراج نقط السائل القليلة من الحيوان الصدفى وتقطير الصباغ يتطلبان اعمالاً واسعة وصعبة . ولذلك كان ثمنها مرتفعاً بالرغم من انها لم تكن مادة محتكرة . وبما ان الاغنياء فقط كان بإمكانهم دفع ثمنها فقد اصبحت الثياب الارجوانية اللون عنوان التفوق^١ وادت فيما بعد الى التعبير المتعلق بالملوك : « مولود في الارجوان » . وفي العصور الهوميرية^٢ والهلنستية^٣ اقترنت الثياب الارجوانية بالملكية والملوك . وكليوباترة ملكة مصر كانت مولعة بها كما كانت هيلين في طروادة . والدلالة على المكانة الدينية السامية فقد لبس الكاهن الاعلى اليهودي لباساً ارجوانياً وكذلك فعل رئيس كهان هيرابولس (منبج) في شمالي سورية^٤ وكاهن جوبيتر في مغنيزيا في آسية الصغرى^٥ .

(١) سفر استير ٨ : ١٥ ؛ الامثال ٣١ : ٢٢ ؛ انجيل لوقا ١٦ : ١٩ .

(٢) الالياذة ٤ ، ١٤١-١٤٥ .

(٣) كتاب المكايين الاول ٨ : ١٤ .

(٤) انظر : Lucian, *De Dea Sgria*, § 42.

(٥) Strabo XIV. ch. 1. § 41 .

وعملية اعداد الصباغ بالضبط ليست معروفة من المصادر الفينيقية . ويصفها بليني Pliny^١ فيقول ان السمك الصدفى يؤخذ حياً - لانه عندما يموت يفرض هذا العصير - وينتزع السائل من احد عروقه ويملح ويترك ثلاثة ايام منقوعاً ثم يغلى بجمارة معتدلة واثناء غليانه تنزع الرغوة من وقت الى آخر . وفي حوالي اليوم العاشر عندما تصبح محتويات القدر مائعة تغطس المادة النسيجية فيه وتترك لامتصاص السائل مدة خمس ساعات ثم تسرح وتوضع ثانية حتى تتشرب اللون تماماً . ويعتبر الصباغ على احسنه عندما يتخذ لون الدم المتجمد .

ان كثرة توارد الثروة الى رومة في القرن الاول ق. م. وسّع استخدام الارجوان وحمل فيما بعد على تقليد هذا الصباغ في ايطاليا وغيرها من البلاد . واستمر انتاجه في الشرق بعد الفتح الاسلامي . وقد ذكر «الارجوان السوري» بين مواد الترف التي استوردها تجار البندقية في اواخر القرن الثامن . وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية حيث اقتصر امتياز صنع هذا الصباغ على فئة قليلة فقدت معرفته تماماً في الشرق . وبقيت في انكلترا حيث نقلت من الشرق في مناطق منعزلة حتى القرن السابع عشر .

وفما سوى الارجوان فان اللبنانيين الاقدمين ادخلوا القرمز^٢ في التجارة القديمة . وقد ذكر القرمز في العهد القديم^٣ وكان يصنع من حشرات كانت توجد على نوع من السنديان^٤ الذي ينمو حول السواحل الشرقية للبحر المتوسط . وعندما كانت تجفف الحشرات وتحلل في بعض الحوامض كانت تعطي اللون القرمزي . وكانت هذه الحشرات بركة في اول الامر ثم صارت تربي من قبل القرس ثم من قبل الارمن فيما بعد .

(١) Pliny Bk IX. ch. 62

(٢) وكلمة crimson الانكليزية اتت من قرمز العربية وأصلها فارسي او ارمني .

(٣) سفر اللاويين ١٤ : ٤٤ ؛ سفر العدد ١٩ : ٦ .

(٤) انظر : 1 § 16. Theophrastus, *De historica plantarum* Bk III.

الفصل التاسع

النشاط البحري والتوسع الاستعماري

كان الفينيقيون اول امة بحرية في التاريخ . وبما ان جبال لبنان كانت تعيق التجارة مع الداخل وتزود السكان بالحشب الممتاز لصنع السفن فان البحر المتوسط اجتذب هؤلاء الساميين المقيمين على سواحل الشرق فاستجابوا اليه وحولوا حياة تنقلهم في ارجاء البادية الى حياة تنقل في البحر . وكان البحر لا يخيفهم والعالم المجهول يفتنهم بدلاً من ان يلقي الرعب في قلوبهم . وبعد ان بدأوا في الملاحة قرب السواحل ليبيعوا اسماءهم وزجاجهم وآنيتهم الخزفية وغيرها من المنتجات المحلية اخذوا فيما بعد يحويون عرض البحار ويؤسسون الطرق البحرية بين الشرق والغرب وقد ظلوا يحثكرونها مدة طويلة . وتحول الباعة المتجولون الى امراء تجار . وكانوا مستعمرين غوذجين ففشروا عناصر حضارتهم وحضارة جيرانهم وجعلوها مقبولة لدى الاجانب . وركز الكنعانيون نشاطهم باتجاه البحر خاصة بعد القرنين الثالث عشر والثاني عشر حين اخرجهم الآراميون من سورية الوسطى واضطرم الاسرائيليون والفلسطينيون لمغادرة سورية الجنوبية فاصبحوا نسيباً اعظم الملاحين والتجار في التاريخ .

الطرق البحرية

لم يكن الفينيقيون اولئك الجوالين في البحار الذين تصورهم لنا بعض المرويات . فقد كانوا يتبعون طرقاً مرسومة بدأوا اولاً في استكشافها ثم استخدموها واحتكروها تقريباً . وكانت اقدم طرقهم الدولية تصل بيلوس وسائر الموانئ بمصر . ثم اصبحت الطرق الرئيسية تبدأ في صيدا وصور فتصل مصر او تتجه شمالاً الى قبرص وغرباً الى ليكيا تحت جبال طورس ثم الى جنوبي رودس فكريت

وجزيرة كورسييرا حتى صقلية ومنها بطريق جزيرة كوستيرا^١ الى مستعمراتهم في شمالي افريقيا واخيراً غرباً على الساحل حتى مستعمراتهم في اسبانيا . وبالإضافة الى ذلك فقد وجدت طرق عرضية تعبر البحر من الشمال الى الجنوب وبالعكس . وكان الفينيقيون اول من قدم اربع مواد هامة مفقودة في كثير من بلاد البحر المتوسط وهي الاخشاب والتمح والزيت والحر . وبالنسبة لليونان كان ارض لبنان ارضاً فينيقية^٢ . وحمل الفينيقيون بعد ذلك منتجات صانعيها الرئيسيتين وهما صنع الاقمشة والصناعة المعدنية . وكانت مصر وبلاد الرافدين ذات التربة اللعقية بحاجة ماسة الى الاخشاب الصلبة لبناء المعابد والقصور ولصنع زوارق الصيد والسفن التجارية والحربية . وكانت غابات لبنان ذات الثمار الخروطية الشكل والفنية بالمواد الصمغية بما فيها من اشجار الصنوبر والشوح والارز والتربنتين لا تقدم الاخشاب فعسب وانما تقدم ايضاً الزيت والصمغ التي كانت ترافق تجارة الاخشاب . وكانت تستغنى هذه المواد لطلاء السفن والحفاظ عليها^٣ . وكان الزيت يستعمل كعطور كما يستهلك للغذاء . وكان الفينيقيون عندما وسعوا اسواق البضائع المستهلكة يوسعون اسواق المنتجات حتى اصبحوا العملاء في توزيع بضائع الشرق في الغرب والبضائع القليلة الآتية من الغرب ومعظمها من المعادن والآنية الخزفية في الشرق . واصبح البحر المتوسط بحيرة فينيقية قبل ان يكون بحيرة يونانية او رومانية بوقت كثير .

الملاحه

وعندما سعى الفينيقيون لترقية المبادلات التجارية بطريق البحر على مقياس دولي اخذوا يدرسون الملاحه درساً اصولياً . وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجمة القطبية واصبحوا بعد ذلك اول من اتقن فن الملاحه ليلاً والمسير حسب النجوم^٤ . واطلق اليونان على هذه النجمة اسم الفينيقيين . وكانت تعوم

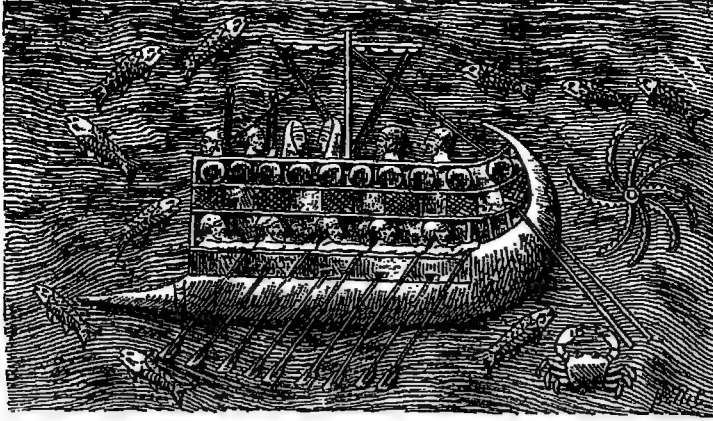
(١) وهي جزيرة بشلاريا الحديثة والمعروفة عند الجغرافيين العرب باسم قوصرة .

(٢) Theophrastus III. ch. 12. §3; IX. ch. 2. §3

(٣) Theophrastus IV. ch. 2. §§ 2, 3. قارن مع سفر الخروج ٣: ٢٠ .

(٤) قارن مع Strabo XVI. ch. 2. §24 .

أخشاب الارز التي لا مثيل لها في الثلاث في الجداول المنحدرة أيام الفيضان الى اقرب مرفأ لاجل بناء السفن او للتصدير . وكانت صيدا وصور تتلقى اخشابها من حرمون . وظهرت السفن الفينيقية من حوالي ١٤٠٠ ق. م. مرسومة على المباني الاثرية المصرية وهي بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان ومجذافان يستعملان كدفة للسفينة وفي اعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردتين . وكانت تسيّر اقدم السفن التي لدينا رسوم عنها بواسطة الشراع والمجاذيف . والسفن كانت عريضة في وسطها بحيث كانت حمولتها كبيرة بدون ان تكون طويلة . وتظهر السفن الفينيقية التجارية والحربية من العصور الاخيرة على الآثار الاشورية بمؤخرة مرتفعة ومدك مروس في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين . وبناء السفن الفينيقيون هم الذين بدأوا عادة وضع مجذفين او اكثر الواحد فوق



سفينة فينيقية ذات صفين من المجاذيف

سفينة تجارية او حربية كما تشاهد في زخرف نالر في جدار قصر منحاريب حوالي ٧٠٠ ق.م. ويجلس المجذفون كل خمسة منهم في صف واحد على ارتفاعين مختلفين في القسم الاسفل من السفينة مما يجعل عدد المجذفين عشرين . ويجلس الركاب في القسم الاعلى . وترتفع مقدمة السفينة بصورة عامودية بشكل كبش مروس لاغراق سفن العدو .

الآخر . وكان الطابق الاسفل من السفينة عادة يضم صفين كل منهما باربعة او خمسة مجاذيف بحيث كان عدد المجذفين كلهم بين ستة عشر وعشرين . وفي العصور

المتأخرة بلغ عدد المجندين خمسين مجنداً . وكان الركاب يقيمون في الطابق الاعلى .
وكانوا يستعملون عوداً واحداً للشراع وكان الشراع ينشر عندما ترسو السفن او
حين يكون الطقس رديئاً . وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه اليونان
الاقدمون كما يتضح من الرسوم على الاواني . ويعتقد ان نفس النموذج . بناء للملك
سليمان اولئك « النواقي العارفون بالبحر » الذين ارسلهم صديقه حيرام ملك صور .
وكانت سفن سليمان ترسو في عصيون جابر^٢ وهي ميناء مملكة اسرائيل على خليج
العقبة^٣ . وكانت السفن تصدر بواسطة هذه الطريق القصيرة الاخشاب والنحاس
وتأتي بدلاً عنها بالذهب من اوفير والطور والتوابل من سائر جهات شبه الجزيرة
العربية وبذلك تتجنب المرور في برزخ السويس على اطراف مصر . وكانت ترسل
محاصيل بركة اخرى كالزيت والحيول الى مصر بدلاً من المنتجات المحلية . وكان التجار
الفينيقيون في مدن الدلتا في عهد السلالة العشرين (١٢٠٠ - ١٠٩٠) بارزين
بشكل خاص . ويبدو انهم كانوا يتمتعون في ممفيس في القرن الثالث عشر بمقوق
خاصة تتصل بوضعهم كأجانب وهذا من سوابق الامتيازات الاجنبية^٤ .

لم يكن الفينيقيون اول امة بحرية فحسب بل كانوا اول امة في التاريخ تاجرت
في البر والبحر . وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضم اديسا ورجا نصيبين بحيث
تصل موانئهم على البحر المتوسط بمرآكزهم على الخليج الفارسي . والفينيقيون
حسب مروياتهم المتأخرة اتوا الى ساحل سورية بالاصل من منطقة الخليج الفارسي
حيث كانت لهم مدن تحمل الاسماء نفسها مثل ارواد وصور وصيدا^٥ . ويعطينا
حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين وصفاً مفصلاً لتجارة الفينيقيين البحرية

(١) انظر سفر الملوك الاول ٩ : ٢٧ .

(٢) راجع ما سيأتي بشأن هذا الميناء في الفصل الرابع عشر في الفقرة التي عن داود .

(٣) ان القول بان الفينيقيين كانت لهم مراكز في النقب لا يقبله العلماء عموماً . انظر :
Garstang, *Heritage of Solomon* p. 371 : W. F. Albright, *Archaeology and the
Religion of Israel* (Baltimore, 1942), pp. 59-60.

(٤) يرى البعض ان « النيل » من اصل فينيقي وان الكلمة مشتقة من السامية نهل بمعنى جرى .

(٥) راجع ما سيأتي في الفصل ٤٨ بشأن هذه الامتيازات .

(٦) Strabo XVI. ch. 3. § 4.

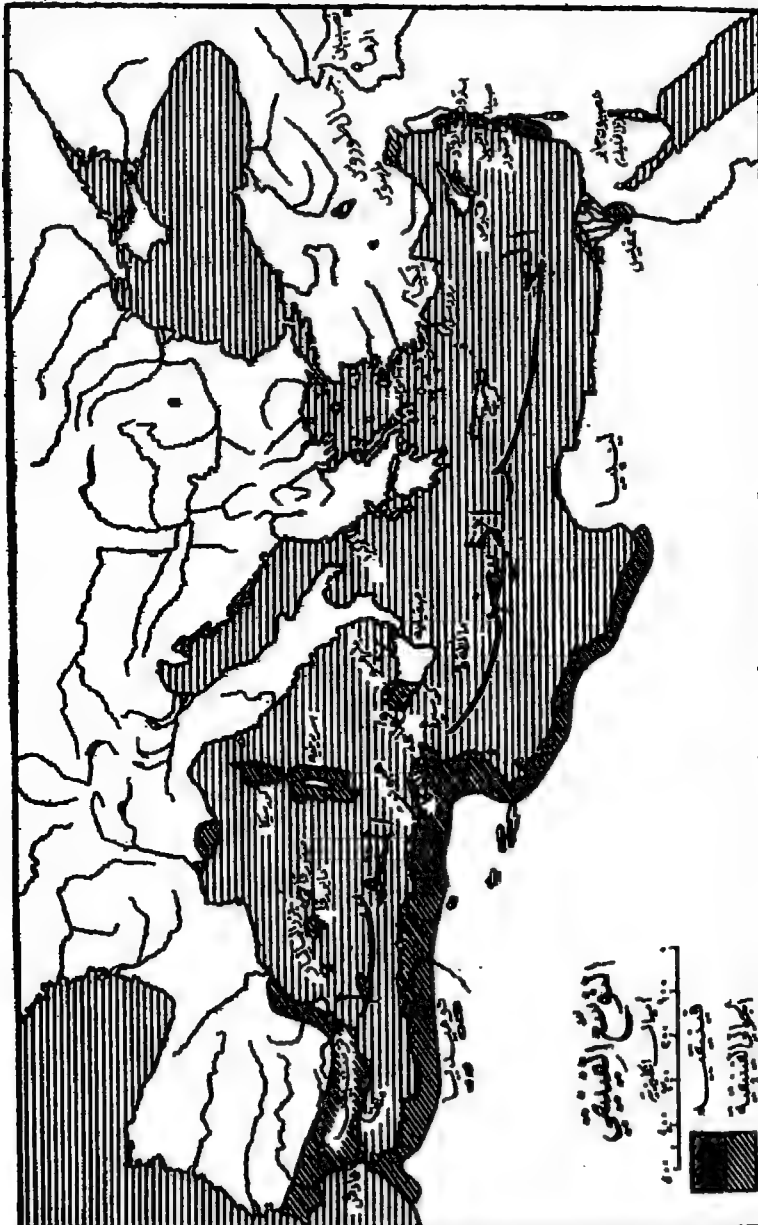
والبحرية في مظاهرها المختلفة . وهو يذكر بين وارداتهم الفضة والحديد والقصدير والرصاص من اسبانيا والرقيق واواني النحاس الاصفر من ابونيا والكتات من مصر والجرفان والماعز من شبه جزيرة العرب .

الدوران بحراً حول افريقيا

واعظم عمل بحري حققه الفينيقيون هو الدوران حول افريقيا قبل البرتغاليين باكثر من الفي سنة وينسب الى الملاحين البرتغاليين عادة انهم اول من فعل ذلك . وقد قام الفينيقيون بهذا العمل باشارة من الفرعون نخاو (٦٠٩ - ٥٩٣ ق. م) من السلالة السادسة والعشرين الذي اعاد حفر الترع القديمة التي كانت تربط الفرع الشرقي للنيل بطرف البحر الاحمر الشمالي . بدأ الفينيقيون رحلتهم من هذا البحر واتجهوا جنوباً نحو المحيط الجنوبي وعند اقتراب فصل الحريف كان ينزل الملاحون اينما وجدوا ويزرعون القمح وينتظرون نهاية الموسم ثم يرحلون من جديد . وبعد ان قضاوا سنتين على هذه الحال عبروا في السنة الثالثة اعمدة هيركوليس (مضيق جبل طارق) وعادوا الى مصر . قال هيرودتس « وهناك قالوا (ما يصدق البعض ولكنني لا اصدق) انهم بدورائهم حول ليبيا [افريقيا] كانت الشمس على يمينهم » . وهذه العبارة الاخيرة التي لم يصدقها « ابو التاريخ » (اليوناني) تثبت صحة القصة . ذلك انه عندما تتجه السفن الى الغرب حول رأس الرجاء الصالح فان شمس نصف الكرة الجنوبية تكون عن يمينها .

المستعمرات

كان الفينيقيون يبنون ويؤسسون اينما ذهبوا . وبما انهم يمثلون امة صغيرة فانهم كانوا يتسربون الى المناطق الجديدة بدون ان يثيروا الشكوك حولهم كما كان يمكنهم ان يتكيفوا بدون صعوبة حسب اي وضع جديد طالما انه لم تكن لهم حياة سياسية مشوكة — ويشبه ذلك الى حد كبير ما يفعله احفادهم المهاجرون اللبنانيون في العصر الحديث . وقد سيطروا بالتدريج كمستعمرين ومنظمين وادخلوا النشاط في عالم كان يبدو فيه الجمود ووسعوا آفاقه . وتطورت المراكز التجارية



الواحد بعد الآخر الى مراكز للسكن وتطورت هذه الى مستعمرات . واتصلت هذه المستعمرات بعضها ببعض وبالمدن الاصلية الام بطرق الملاحة وانتشرت من شمالي الدلتا المصرية الى سواحل كيليكية واليونان وغيرها من بلاد البحر المتوسط فجعلته بحراً متوسطاً حقيقياً . ويمكن الاعتقاد بان مستعمراتهم في شرقي البحر المتوسط ومنها قبرص استست قبل مستعمرات صقلية وسردينيا في وسط البحر المتوسط وان هذه الاخيرة اسمها الفينيقيون قبل مستعمراتهم في افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا . ويرجع نزولهم في جزر اواسط البحر المتوسط الى منتصف القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . واستت قادس Gades (اليوم Cadix) في اسبانيا واوتيكا Utica في المنطقة المسماة اليوم تونس حوالي عام ١٠٠٠ ق. م . وتعتبران من اقدم المؤسسات في تلك المناطق . وقد اشتق اسم قادس Gades من كلمة فينيقية معناها «جدار» او مكان مسوّر . ولم تكتشف حتى الآن كتابات فينيقية اثرية في سردينيا وقبرص اقدم من القرن التاسع . والكتابة المشهورة المكروسة لبعل لبنان والتي اكتشفت في قبرص وكانت سابقاً تعتبر اقدم مثال للكتابة الفينيقية ترجع الى منتصف القرن الثامن^٢ . واما قرطاجة^٣ سليية صور الشهيرة واعظم المستعمرات الفينيقية فانها تعود الى نحو ٨١٤ ق. م . وهي احدث من زميلتها في الغرب هيبو Hippo التي كانت مقراً ملكياً (ولذلك اعطيت لقب Regius) وفيما بعد اصبحت اسقفية القديس اوغسطين . وكلمة هيبو كلمة ليبية . وتقيد الاساطير اليونانية ان ليبيا Libya وهي الاسم اليوناني لشمالي افريقيا ثم للقارة الافريقية كلها كانت بالاصل اسم زوجة الاله بوسيدون (الاله البحر) ووالدة آجينور Agenor ملك فينيقية .

وبلغ هذا النشاط التأسيسي في غربي البحر المتوسط ذروته كما يبدو بين منتصف القرنين العاشر والثامن . ويشير نجاحه العظيم الى وجود طبقة اقدم من المستوطنين

(١) شبيهة بكلمة «جدار» العربية . وكلمة اغادير agadir تعني بالبربرية «جدار» ايضاً .

(٢) انظر : G. A. Cooke, A Text-Book of North-Semitic Inscriptions (Oxford, 1903), p. 52.

(٣) بالفينيقية قارط حدثت qart hadasht اي المدينة الجديدة بخلاف Utica ومعناها المدينة القديمة ومشتقة من عتق .

الساميين في شمالي افريقيا وربما في جنوبي شبه جزيرة ايبيريا. وقد تكون الهجرة التي حملت الساميين في الالف الرابع الى مصر قد استمرت الى ابعد من ذلك. وهنالك ذكريات غامضة لمرويات تجعل الساميين القدماء في مناطق غربي البحر المتوسط واحتفظت بها الكتابات الكلاسيكية والعربية^١.

أدى تاسيس قادس وراء اعمدة هيركوليس (وهما الرأسان الصغريان عند مضيق جبل طارق) الى دخول الفينيقيين الى المحيط الاطلسي واسفر ذلك عن اكتشاف الاوقيانوس^٢ بالنسبة للعالم القديم. ويعتبر هذا الاكتشاف من اعظم ما قدمته الحضارة السورية للتقدم العالمي^٣. وقد عرف هوميروس وهيسيود عن وجود الاطلسي لأول مرة من الفينيقيين. ومن الصعب معرفة مدى توغل الفينيقيين في هذا الاوقيانوس الذي سماه العرب فيما بعد «بحر الظلمات». واما وصولهم الى كورنوال في انكلترا في بحثهم عن القصدير فقد اكده بعض الثقافات ولكن لا توجد اشارة قديمة الى ذلك. ويقول هيرودتس^٤ انه ليست لديه معرفة خاصة بجزر كاسيتريدس Cassiterides^٥ (جزر القصدير) «التي يجلب منها قصديرا». وهذه الجزر هي جزر سيللي Scilly الواقعة قرب طرف كورنوال. ويؤكد سترابو^٦ الذي كتب نحو عام ٧ ق. م. بان الكاسيتريدس تحوي القصدير والرصاص وان السكان يبادلونها

(١) انظر: Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, IV. ch. 10, §§ 13-29; الادريسي، صفة المغرب، طبعة دوتري ودي غويه (ليندن ١٨٦٤) ص ٥٧؛ ابن خلدون، كتاب البر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ١٢٨٤) م ٦٦ ص ٩٣-٩٤.

(٢) من اليونانية *okeanos* واشتقاقها من كلمة عوج *ūg* (بمعنى حلقة) السامية امر مشكوك فيه. انظر: (R. Henning, « Die Anfänge des kulturellen und Handelsverkehrs in der Mittelmeer-Welt », *Historische Zeitschrift*, vol. cxxxix, No. 1, p. 12; H. Lewy, *Die semitischen Fremdwörter im Griechischen*, (Berlin, 1895), p. 208.

(٣) Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, vol. ii (Oxford, 1934), pp. 50, (٣ 52, 386.

(٤) Bk. III, ch. 115

(٥) من اليونانية *kassiteros* (قصدير) ومنها اتت الكلمة العربية ولكن الكلمة اليونانية من أصل شرقي وان يكن غير فينيقي.

(٦) Strabo III. ch. 5. § 11

بالخزف والملح والاوراني النحاسية وكان الفينيقيون وحدهم في العصور الاولى يقومون بهذه التجارة من قادس ويكتمون الطريق عن الناس . ويضيف سترابو بان السفن الرومانية مرة تعقبت سفينة فينيقية لكي تجدها ايضاً تلك الاسواق ولكن قائد السفينة قذف بسفينته عمداً على اليابسة وقبض من دولته ثمن المحمول الذي فقده ، وهذا يشير الى احتكار حقيقي لتجارة القصدير والى نوع من الضمان من قبل الدولة . ويتكلم ديودورس الصقلي^١ الذي كتب بعد سترابو بنحو ثلاثة ارباع القرن عن القصدير الذي كان يحمل من بريطانيا الى ساحل الغال المقابل ثم عن طريق الداخل الى ماسيليا (مرسيليا اليوم) وهي مستعمرة يونانية ربما قامت على موقع مستعمرة فينيقية اقدم منها . والكتابة الفينيقية الوحيدة المكتشفة في بريطانيا حتى الآن تركها على الغالب احد عمال احدى الفرق الرومانية من اصل قرطاجي على ما يبدو وترجع الى اول قرن من الاحتلال الروماني^٢ . واكتشف العالم بيتري Petrie في غزة القديمة اقراطاً ملتحية من ذهب اعتقد انها من اصل ايرلاندي وتاريخها ١٤٥٠ ق. م.^٣

في اسبانيا

كانت معظم المستعمرات الفينيقية في اسبانيا تقع في ترشيش (Tartessus) وخاصة في المنطقة بين قرطجينة وقادس . وهذه الاسماء السامية للاماكن شائعة جداً ونراها على نقود بقيت حتى الآن . واسم ترشيش الذي نصادفه في كتابات التوراة واشور هو اسم فينيقي على الغالب بمعنى المنجم او مكان الصهر^٤ . وكانت مدينة طرسوس في كيليكية التي ولد فيها القديس بولس تحمل نفس الاسم كما انها كانت مستعمرة فينيقية . وطقوس عبادة بعلمها كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبعة في صور وقرطاجة . وسميت قرطجينة Carthagena باسم المدينة الام قرطاجة في

(١) History Bk V. ch. 38. § 4

(٢) Alfred Guillaume, « The Phoenician Graffito in the Holt Collection of the National Museum of Wales », *Iraq*, vol. vii (1940), pp. 67-69.

(٣) راجع : Flinders Petrie, *Ancient Gaza*, vol. ii (London, 1932), p. 7

(٤) وقد بقي العمل الذي اشتمت منه في العربية «رَشَّ» . راجع : Albright in *Studies in History of Civilization*, p. 42; cf. Albert Dietrich, *Phönizische Ortsnamen in Spanien* (Leipzig, 1936), p. 32.

شمالى افريقيا . ومدينة ملقة Malaga ^١ معنى اسمها دكان او معمل صغير . ويذكر سترابو ^٢ مكاناً لتسليح الاسماك في هذه المدينة وهو امر يدل على ما كانوا يصنعونه هناك . ومدينة قادس كانت ايضاً معروفة بانتاج الملح . وكانت قرطبة (Cordoba) بالاصل مدينة ايبيرية استولى عليها الفينيقيون : واقدم نقودها تحمل حروفاً فينيقية استبدلت فيما بعد باليونانية . وقد جمع منها هملقار ابرقة والد هانيبال كما جمع من سائر المدن الاسبانية جيوشاً لاجل حملته ضد رومة . وربما كان اسم برسلونة الواقعة في الشمال متصلاً بكلمة « براق » الفينيقية (برك) التي نراها كلقب بجانب اسم والد هانيبال . وهكذا تأسس بواسطة هذه المستعمرات موطن ثان للحضارة السورية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

في اليونان

وعاصمة جزيرة مينورقة الحالية واسمها ماهون Mahon تبدو في اول الامر بانها ماجو Mago ^٣ وهو بالاصل اسم قائد قرطاجي . وكان للفينيقين مراكز في جزر الباليار ولكن سلطتهم على الجزر التي سكنها من عرق ايبيري لم تكن قوية . وكانت لهم ايضاً مراكز في كورسيكا وسردينيا . ومدينة باليرمو في صقلية مبنية على موقع فينيقي قديم . وفي بلاد اليونان يشهد وجود اسماء سامية للمواقع والآلهة الى جانب وجود الاساطير والحرافات الكثيرة بنشاط فينيقي . وتتصل كورنثوس وهي مؤسسة فينيقية على الغالب باله من اصل فينيقي اسمه مليكرتس ^٤ (ملقارت) كما تذكر الاساطير . ومن الجزر اليونانية التي لها صلة بالاستعمار الفينيقي ساموس وكريت ^٥ وكانت لها مكانة بارزة في هذه الناحية .

(١) من الفينيقية «ملاك» (melākāh) .

(٢) Strabo Bk III. ch. 4. § 2

(٣) من الفينيقية مَجَن magēn (ترس او مجن) . وكلمة mayonnaise الانكليزية أتت غالباً من نفس الكلمة بطريق الفرنسية .

(٤) من الفينيقية ملك قارط اي ملك المدينة الذي اعتبر معادلاً في ما بعد للبطل اليوناني هر كليس ومبارياته مع خصومه الحيوانات الاثني عشر التي أصبحت رموز البروج تفسر لنا الاشغال الاثني عشر التي قلم بها البطل اليوناني .

(٥) ان اشتقاق اسم ساموس Samos من السامية شَمَش (الشمس) واشتقاق كريت من السامية «كارت» بمعنى قطع مشكوك فيها . انظر : Hall, *Ancient History*, p. 523; Antran. : *Phéniciens*, p. 5.

وتروي الاساطير ان الاله زفس بعد ان تحول الى ثور اختطف اوربا Europa الجميلة ابنة الملك الفينيقي آجينور Agenor من مرج على الساحل السوري بعد ان وقع في حبها وهرب الى كريت التي كانت مركزاً للحضارة قبل ان تكون هنالك حضارة في البر الاوربي . وفي كريت تزوجها بعد ان استعاد شكله الاصلي . وقد ولد من هذا الزواج الملك والمشرع الكريتي مينوس Minos بينما اتخذت القارة (اوربا) اسم زوجة زفس ووالدة مينوس .

وقد زعم ديودورس^٢ ان سكان مالطة - واسمها سامي^٣ بدون شك - كانوا فينيقيين . وكان لهذه الجزيرة مرفأ من احسن مرفأ البحر المتوسط ولا عجب اذا سميت « ملجأ » وكان يوجد في تراقية مناجم للذهب وتروي الاسطورة ان اول من استثمرها هو قدموس Cadmus السوري شقيق اوربا الذي ارسله والده للبحث عن شقيقته . وقد اشتغل عمال المناجم الفينيقيون في هذه المنطقة بحثاً عن الذهب حتى القرن السابع ق . م . ومن الامور التي تنسب الى قدموس^٤ بناء مدينة ثيبة - وتل الاكربول فيها واسمه قدميا قد سمي بالنسبة اليه - كذلك ينسب اليه انه انجب ولداً اسمه الليريوس تسمت باسمه الليريا (وهي بلاد البانيا اليوم تقريباً) . والواقع هو ان هذه العاصمة الايولية القديمة كانت من اصل سوري كما ان فن العمارة اليوناني القديم الذي منه اتت اشكال كلاسيكية مدين مسورية باستخدام الاعمدة وتيجانها .

وفي العصر الهوميوي كان يحول السفن الفينيقية يضم نباتات ومحاصيل مثل الورد والتخيل والتين والمان والمر والحوخ واللوز نشرها في بلاد البحر المتوسط كلها^٥ . وقد تكون السفن نفسها هي التي ادخلت من اليونان الى سورية نبات

(١) وفي الايلاذة ١٤ : ٣٢١ ورد اسم فينيكس Phoenix .

(٢) Diodorus, Bk V. ch.12. §§ 2-4

(٣) من فعل مالط بمعنى هرب .

(٤) انظر: 3 IX, 2. § 1 ; Strabo Bk VII, ch. 7. ويدعو ان اسم قدموس مشتق من قام ومعناها الآتي اي من الشرق او الشرقي .

(٥) انظر ما سنذكره عن قدموس ايضاً في ص ١١٧ .

(٦) Albert G. Keller, Homeric Society (New York, 1902), pp. 20, 43-44 والمر

كلمة سامية قديمة استعارتها اليونانية .

الغار والدفل والسوسن والنمغ والترجس وقد بقيت الاسماء اليونانية لبعضها في اللغات السامية . وتجارة التوابل كانت بكاملها بيد الفينيقيين الذين حرصاً على الاحتفاظ لأنفسهم بالطرق التجارية كانوا ينشرون الاخبار عن اخطار بلاد التوابل وطرقها . وكان يعتقد لمدة طويلة في العصر الكلاسيكي القديم ان سورية تنتج البلسم والمر . ولم يصبح الاصل العربي للمر مؤكداً الا في زمن فتوحات الاسكندر وكانت تجارتها في ايدي السبائين قبل الفينيقيين . وكان الغار بشكل تيجان يكلل الشعراء وقد تحولت الحورية دفنة Daphne مرة الى شجرة غار عندما لاحقها عشيقها ابولون وذلك في مكان قرب انطاكية لا يزال يحتفظ باسمها^١ . وقد جذب بلسم اريحا الملكة كليوباترة واستأجرت جنائ في ذلك المكان .

قرطاجة

كانت قرطاجة اكثر المستعمرات نجاحاً بما لا يقاس في افريقيا وان تكن احداثها عهداً . وفي القرن الثامن كانت في ذروة منافستها للوطن الام الذي كان قد اخذ بالانحطاط . وقد عجل في هذا الانحطاط موجة الاستعمار اليوناني في اواخر القرن الثامن واول السبع والفتح الاشوري للمدن الفينيقية الذي حصل في الوقت نفسه . ويستدل على مدى التجارة القرطاجية واساليب المقايضة الغربية التي ولتها من قصة رواها هيرودوتس^٢ حيث يقول ان الملاحين القرطاجيين على ساحل افريقيا الغربي كانوا ينزلون بضائعهم الى الشاطئ ويوقدون النار كإشارة للسكان ثم ينسحبون الى سفنهم . وكان السكان المحليون البدائيون يأتون حين ينظرون الدخان ويضعون ما يقابل تلك البضائع من الذهب . وينسحبون . ويعود القرطاجيون فينزلون في البر فاذا رأوا ان الذهب يعادل غن البضاعة يأخذونه وينصرفون والآن فأنهم ينتظرون من جديد في سفنهم لكي يقوم السكان بمحاولة جديدة في هذه المساومة الخرساء . ويقول الراوي انه « لم يعمد اي من الفريقين الى ان يغش الآخر » .

(١) انظر ما يتعلق بذلك في الفصل الثامن عشر .

(٢) Herodotus Bk IV. ch. 196

وقد بلغ من سيادة قرطاجة التجارية والسياسية ان امبراطوريتها القوية امتدت في القرن السادس من حدود ليبيا الى اعمدة هيركوليس وضمت جزر الباليار ومالطة وسردينيا وبعض مواقع على ساحل اسبانيا والغال . ولم تتح الفرصة لصيدا وصور تحت النفوذ المصري والاشوري ان تكونا امبراطورية ولكن قرطاجة فعلت ذلك وادى هذا الى نزاعها مع رومة الآخذة بالظهور التي نازعتها سيادة البحر وبلغ من تسلط الاسطول القرطاجي على هذا البحر انه قيل للرومان بانه لا يمكنهم غسل ايديهم في مياهه بدون اذن قرطاجة . ويقال ان سفينة قرطاجية جانحة ذات خمسة صفوف من المجاذيف استخدمت كنموذج قلده بناؤ السفن الرومان وصنعوا مئة وثلاثين سفينة منه في مدة ستين يوماً .

وفي عام ٢١٨ ق . م . قام هانيبال^١ الذي كان قد اقسم وهو لا يزال يافعاً بان يكون عدو رومة الدائم بمشروعه الذي كرس له حياته وزحف ضد ايطاليا من اسبانيا بطريق جبال الالب . وبعد قتال ناجح دام خمسة عشر عاماً في الارض الايطالية هوجت رومة اثناء استدعي هانيبال الى افريقيا وهناك كسر في معركة زاما (٢٠٢) الحاسمة في جنوب غربي قرطاجة . وفي ١٩٦ هرب الى صور ومن هناك اتصل بانطيوخس ملك سورية واشترك معه في الحرب ضد اعداء قرطاجة الالقاء^٢ . غير انه كسر نهائياً ولما لم يعد له امل بالحرب انتحر في آسية الصغرى في ١٨٣ وهو يقول : « ان هذا سيففر على الرومان قلعهم في انتظار موت رجل مسن مكروه » .

اما قرطاجة فان ما اثارته من حسد بسبب انتعاشها ودوام ازدهارها قد فرض على عقل كاتو الضيق وعلى غيره من اصحاب النفوذ من الرومان قرارهم بان قرطاجة يجب ان تهدم . وقد تركت المدينة طعمة للنيران لمدة سبعة عشر يوماً في سنة ١٤٦ حتى اخفت موقعها كومة من الرماد . ثم اعملوا المهرات فيها ولعنوا ارضها الى الابد . ان هذا العمل وان حكمنا عليه بمقاييس تلك الايام لعمل اخرق وانه لا يزيد الرومان شرفاً .

(١) من الفينيقي حالي بعل اي نعمة بعل .

(٢) انظر ما سيأتي عن انطيوخس في الفصل ١٧ .

الفصل الثاني الأدب والديانة وسائر مظاهر الحياة

ان السفن كالقوافل تحمل فوق ما تحمل من شحنات البضائع اموراً غير ملموسة تساويها في اهميتها ان لم تفقها بالنسبة للتقدم البشري . وهذه الامور غير المادية هي المؤثرات الحضارية المتنوعة التي اتى بها التجار والمستعمرون الفينيقيون ونشروها بين الشعوب التي احتكوا بها وخاصة اليونان الذين اصبحوا تلامذتهم في شؤون الملاحة والاستعمار واخذوا عنهم اشياء مختلفة في ميادين الادب والدين والفن الزخرفي . وقد اصبح البحر المتوسط بفضل النشاط الفنيقي قاعدة للدوافع الحضارية المتعددة الاشكال التي انت ليس من فينيقية فعصب بل من بلاد بابل ومصر ايضاً . وكان الفينيقيون يلعبون دور الوسيط بين الناحيتين الفكرية والروحية كما كانوا من الناحية التجارية .

الابجدية

واول نعمة اعطيت للبشرية في درجة اهميتها كانت الابجدية التي نقلها اليونان غالباً بين ٨٥٠ و ٧٥٠ ق.م . والحقيقة ان اختراع النظام الابجدي ونشره يعتبر من جهة البعض اعظم منحة انعمت بها الحضارة السودية على البشرية . والمنحنتان الاخريان هما ديانة التوحيد واكتشاف المحيط الاطلسي .

وقد حافظ اليونان على الاسماء السامية للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها . وكانت تكتب الحروف في اقدم الكتابات الاثرية اليونانية من اليمن الى الشمال كما في الكتابة الفينيقية . واعترف اليونان بما نقلوه في قصة قدموس الذي ينسب اليه ادخال ستة عشر حرفاً . واذا جردنا قصة قدموس من زخارفها الشعرية المتعددة

(١) راجع : Diodorus, Bk. VIII, ch. 57 (56); Pliny Bk. V, ch. 58; Herodotus Bk. III, ch. 67, § 1; Bk. V, ch. 57, § 5.

فانها تشير الى ان المهاجرين من سورية ادخلوا الى بلاد اليونان الابجدية وفن التعدين وعبادة ديونيسوس اله الخمر^١. ونقل اليونان في القرن السادس ابجدية ادخلوا عليها بعض التحسينات الى الرومان ومنها تولدت معظم الابجديات الاوربية. ومن جهة اخرى فان الآراميين الذين استعاروا ايضاً ابجديتهم من الفينيقيين نقلوها الى العرب والهنود والارمن وسائر الشعوب الشرقية التي تكتب بالابجدية^٢. وكان من صفات الابجدية الفينيقية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً بساطتها مما جعل فن الكتابة والقراءة في متناول الانسان العادي. وقد تكون كتابة عرب الجنوب مشتقة مباشرة من الكتابة السينائية التي كان لها على الفينيقيين فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

ويبدو ان الفينيقيين الذين كانوا اول من استعمل نظاماً ابجدياً راقياً في الكتابة ونشروه في العالم قد اخذوا اساس اسلوهم من مصادر مصرية هيروغليفية بطريق سيناء. والرموز الهيروغليفية كانت في الاصل صوراً للاشياء التي ارادت الدلالة عنها ولكنها انشأت من وجهة صوتية اربعين اشارة كانت حروفاً ساكنة. غير ان المصريين المحافظين لم يذهبوا الى حد استخدام هذه العلامات الساكنة لوحدها. ولذلك فان العلامات ظلت بدون اهمية حتى حوالي نهاية القرن السابع عشر حين اتفق لاحد الاسرى الكنعانيين او لاحد العمال في مناجم الفيروز في سيناء كما يظن ان يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من اتقان ما فيها من تعقيد وان يستعمل العلامات الساكنة. وكان المكان الذي ربما حصل فيه ذلك هو سرايط الخادم. وقد اعطيت للعلامات الساكنة اسماء سامية وقيم سامية. فقد اتخذ الساميون مثلاً علامة رأس الثور وبدون ان يهتموا ماذا يعني رأس الثور في اللغة المصرية سموا العلامة «الف» باسمها السامي. ثم طبقوا المبدأ الذي بموجبه يعطى الحرف الصوت الاول في اسم الشيء الذي يمثله وفي هذه الحالة استعمالوا علامة الالف لاجل صوت أ. وعملوا الشيء نفسه بالنسبة للعلامة الدالة على «بيت» فسموها «بيت» واستعملوها لاجل صوت ب. وعلامة اليد سموها «يود» واستعملوها لصوت ي، وعلامة الماء سموها «ميم» واستعملوها لاجل صوت م، وعلامة الرأس سموها «ريش» واستعملوها

(١) Herodotus Bk. II. ch. 49

(٢) انظر ما سيأتي بشأن الكتابة الآرامية في الفصل ١٢.

لصوت ر^١. وعلى ذلك فإن العامل في سيناء استخدم فقط الفكرة الایمجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية وشكل لنفسه مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن ان تهجى بها الكلمات.

العربية	اللاتينية	اليونانية القديمة	رأس الشجرة	القبطية	العربية الجنوبية	الشكل الذي تمثله	السينائية
ا	A	A	𐤀	Ⲁ	𐩀	رأس ثور	𐤀
ب	B	B	𐤁	ⲁ	𐩁	بيت	𐤁
ج	CG	Γ	𐤂	Ⲃ	𐩂		𐤂
د	D	Δ	𐤃	ⲃ	𐩃	رجل يصلي	𐤃
هـ	E	Ε	𐤄	Ⲅ	𐩄		𐤄
و	FV	Υ	𐤅	ⲅ	𐩅	عقدة	𐤅
ز	...	Ζ	𐤆	Ⲇ	𐩆	مزودة	𐤆
ح	H	Θ	𐤇	ⲇ	𐩇		𐤇
ط	..	⊗	𐤈	Ⲉ	𐩈	يد	𐤈
ي	ι	Ι	𐤉	ⲉ	𐩉		𐤉
ك	...	Κ	𐤊	Ⲋ	𐩊	منخاس	𐤊
ل	L	Λ	𐤋	ⲋ	𐩋	ماء	𐤋
م	M	Μ	𐤌	Ⲍ	𐩌	انفي	𐤌
ن	N	Ν	𐤍	ⲍ	𐩍	شبكة	𐤍
...	X	Ξ	𐤎	Ⲏ	𐩎	عين	𐤎
ع	O	Ο	𐤏	ⲏ	𐩏		𐤏
ف	P	Ρ	𐤐	Ⲑ	𐩐		𐤐
ص	𐤑	ⲑ	𐩑	رأس انسان	𐤑
ق	Q	Ϟ	𐤒	Ⲓ	𐩒		𐤒
ر	R	Ρ	𐤓	ⲓ	𐩓	قوس	𐤓
ش	S	Σ	𐤔	Ⲕ	𐩔	صليب	𐤔
ت	T	Τ	𐤕	ⲕ	𐩕		𐤕

جدول يحتوي ايمديات مختلفة من جنتها ايمدية رأس الشجرة المسماة

(١) قارن ذلك مع الجدول الموجود في : Bulletin, American Schools of Oriental Research, No. 110 (1948), p. 14; David Diringer, The Alphabet (New York, 1948), p. 200.

الكتابات الاثرية الفينيقية

والفينيقيون الذين كانت لهم علاقات تجارية مع سيناء اقتبسوا على الغالب هذه الاشارات و اضافوا اليها وجعلوا منها نظاماً ايجدياً تاماً مؤلفاً من اثنتين وعشرين علامة بدون حروف صوتية بسبب تأثير الميروغليفية المصرية . وهكذا حصل ما سموه بحق اعظم اختراع اتى به الانسان .

وقد اكتشفت كتابات اثرية كنعانية قصيرة بالايجدية الخطية في لاكيش وبيت شمس وترجع الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر^١ . وكتابة لاكيش وجدت على صحن . واقدم نص مفهوم تماماً بالايجدية الكنعانية وجده الاثري الافرنسي دونان Dunand في بيبيلوس وهو مؤلف من خمسة اسطر ويذكر بناء جدار من قبل شفتط بعل ابن ايلي بعل ابن يحيم ملك - والثلاثة كانوا ملوكاً على بيبيلوس^٢ . والحروف في جميع هذه الكتابات من نموذج اقدم من تلك التي وجدت في كتابة احيارام الطويلة المكتشفة في ١٩٢٣ من قبل الاثري الفرنسي مونتيه Montet في بيبيلوس وترجع غالباً الى نحو ١٠٠٠ ق.م . واطول كتابة اكتشفت حتى الآن وطولها واحد وتسعون سطراً اتتنا من قره تبه Kara-Tepe شمال شرقي ادنة وقد كتبها ملك فينيقي من القرن التاسع^٣ .

ونظام الكتابة الایجدية الخطية بحروفها الاثنتين والعشرين والمكتوبة من اليمين الى اليسار^٤ كانت غالباً من عمل الفينيقين في بيبيلوس . وقد اخترع فينيقيون آخرون وهم الذين عاشوا في اوغاريت نظاماً ايجدياً آخر على اساس مختلف . فقد كتبوا الایجدية بقلم على الواح الطين ولذلك اتخذت شكل علامات مسبارية او

(١) لايكش هي اليوم تل النور في جنوبي فلسطين ، وبيت شمس هي تل الرملة قرب عين شمس غربي القدس .

(٢) راجع : W. F. Albright, « Near Eastern Archaeology », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, N. 95 (1944), pp. 37-8.

(٣) راجع : Julian Obermann, *New Discoveries at Karatepe* (New Haven, 1949)

(٤) ان الكتابة من اليمين الى اليسار بدأت كما يظن ككتابات منحوتة وقد وضعت هذا الشكل لتناسب القدي ينقش على الحجر . وأما الكتابات من اليسار الى اليمين فلها قتل بدء الكتابة بالقلم والحبر .

اسفينية^١. والواح راس الشجرة التي اكتشفت عام ١٩٢٩ كتبت بهذه الكتابة غير المعروفة حتى ذلك الوقت. ويرجع معظمها الى اوائل القرن الرابع عشر وبعضها اقدم من ذلك. ووجدت كتابة بهذا الخط ايضاً في بيت شمش. وهنالك ما يحمل على الاعتقاد بان هذه الكتابة كانت شائعة في القرنين السادس عشر والخامس عشر.

١٥٩ ١١٥ ١٠٩ ١٠٨ ١٠٧ ١٠٦ ١٠٥ ١٠٤ ١٠٣ ١٠٢ ١٠١ ١٠٠ ٩٩ ٩٨ ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٩٤ ٩٣ ٩٢ ٩١ ٩٠ ٨٩ ٨٨ ٨٧ ٨٦ ٨٥ ٨٤ ٨٣ ٨٢ ٨١ ٨٠ ٧٩ ٧٨ ٧٧ ٧٦ ٧٥ ٧٤ ٧٣ ٧٢ ٧١ ٧٠ ٦٩ ٦٨ ٦٧ ٦٦ ٦٥ ٦٤ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨ ٥٧ ٥٦ ٥٥ ٥٤ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠ ٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٤ ٤٣ ٤٢ ٤١ ٤٠ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣٥ ٣٤ ٣٣ ٣٢ ٣١ ٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦ ٢٥ ٢٤ ٢٣ ٢٢ ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

كتابة احيرام الاثرية في بيبيلوس حوالي ١٠٠٠ ق. م.

وهذا ما جاء في الكتابة «التابوت الذي صنعه ايتوبيل ابن احيرام ملك بيبيلوس لاييه كسكنه الابدي». واذا هاجم بيبيلوس ملك اوحام او قائد وعرض هذا التابوت فليكر صولجان حكمه وليسقط عرشه الملكي وليهجر السلام بيبيلوس؛ واما هو فليص «انسان مترد (?) كتابته» !
(عن مجلة الجمعية الشرقية الاميركية م ٥٧ (١٩٤٧) ص ١٥٥).

وبالاضافة الى هذين النوعين من الكتابة اللذين اخترعهما الكنعانيون فانهم استخدموا انواعاً اخرى من الكتابة اكثر تعقيداً وعملوا منها كتابة واحدة وهي مجموعة الاشارات التي وضعوها نحو نهاية الالف الثالث وفقاً للكتابة المصرية الى حد ما وتضم نحو مائة رمز. ان هذه الكتابة الهيروغليفية المزعومة بقيت منها كتابات كلها على الحجر او النحاس واكتشفها دوفان في بيبيلوس عام ١٩٣٠ وفيها يظهر اقدم اثر للغة الفينيقية. وقد حلت محلها فيما بعد في المراسلات الرسمية الكتابة المسبارية الاكادية وهي المسبارية التي كتبت بها مراسلات تل العمارنة. وتظهر الاخطاء التي عملها الكتاب الكنعانيون في هذه التحاير على عدم معرفتهم التامة للغة

(٣) انظر : Johannes Friedrich, « Ras Shamra », *Der alte Orient*, vol. xxxiii : 1-2 pp. 18-34 ; Harris, *Grammar*, pp. 11-17. (1933).

الأكاديمية التي تعلموها غالباً في المدرسة . والاسلوب الذي كتبوا فيه لا يتروك مجالاً للشك بأنهم كانوا يترجمون افكارهم من الكنعانية . واكتشفت بقايا مدرسة للكتابة من هذا النوع حيث امكن للطلاب ان يتعلموا اللغة الدولية لذلك العصر وهي الأكاديمية بمساعدة المعاجم او قوائم المفردات والتأريخ - وكانت ملحقة بمعبد اوغاريت .

وفيا سوى الواح تل العمارنة فقد اكتشف الاثري البريطاني وولي Woolley في ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ثلاثمائة لوحاً مسمارياً (بالأكادية) في تل العطشانة (الألخ Alalakh القديمة) . على العاصي الاسفل وتراوح بين ١٩٠٠ و ١٢٠٠ ق. م . وبعضها تحوي نصوصاً تتصل بالتنجيم وعلم الغيب .

ومثل هذه الكثرة في الكتابات بين اواخر الالف الثالث واواخر الالف الثاني لا يتروك مجالاً للشك بان العصر كان عصر تنوع وتلقيح حضاريين تمازجت فيه بحرية الافكار العلمية والدينية من بلاد الرافدين ومصر وسورية وجرى التبادل فيما بينها . غير ان هذه الكتابات لم يبق منها الا القليل . فالمدونات الفينيقية كان معظمها على مواد قابلة للتلف وهي اوراق البردي وتتعلق بالعمليات التجارية . وكان ورق البردي في هذه الفترة يأتي من مصر واستوردت كميات منه نحو ١١٠٠ ق.م . والقسم الاعظم من النصوص متأخر يتراوح تاريخه بين القرنين الخامس والثاني ق.م . وليس ما يدل على وجود كتابات اثرية فينيقية في فينيقية بعد الميلاد . غير ان اللغة الفينيقية في شكلها القروي المعروف بالبوني ظلت تستعمل حتى العصر الاسلامي . والكتابات المكتوبة باللغتين اليونانية والفينيقية والمكتشفة في مالطة وقبرص هي التي سمحت للعلماء الفرنسيين وغيرهم في بذل الجهود منذ اواسط القرن الثامن عشر لتفسير اللغة الفينيقية وبلغت هذه الجهود ذروتها في نشر وترجمة النصوص الباقية من قبل المستشرق الالماني كيزينيوس Gesenius في ١٨٣٧ .

وحصلت حركة بعث ادبي فينيقي بلغت ذروتها في القرن السادس وانتجت شخصية سانشونيائث Sanchuniathon البيروتي الغامضة . وكانت الناحية التي ساهم فيها مجموعة اشعار خرافية عن شعبه ترجعها الى اليونانية كما يظن مواطنه فيلوت

الجبيلي في اوائل القرن الثاني م^١ . والمرويات اليونانية تنسب الى طاليس Thales من ميلتوس (المتوفى حول ٥٤٦) رئيس « الحكماء السبعة » في بلاد اليونان انه تعلم في فينيقية ما يمكن تعلمه من بلاد بابل ومصر .

ولحسن الحظ ان الكثير من خير ما تركه التراث الادبي الكنعاني اقتبسه العبرانيون ودخل في كتاباتهم المقدسة . وينطبق هذا خاصة على القطع الغنائية والحكم التي استعارها سفر الامثال والمزامير وبشيد الانشاد وعلى الاخبار الخرافية التي دخلت في سفر التكوين وفي قصص الانبياء . ولم يكن هذا الامر معروفاً الى ان اكتشفت مدينة اوغاريت وكانت في عالم النسيان .

اوغاريت

في ١٩٢٩ بدأت بعثة افرنسية اعمال التنقيب في راس الشجرة بنتيجة ما اكتشفه احد الفلاحين بطريق الصدفة ، واتضح ان المرتفع يضم عدة مدن يعلو بعضها بعضاً ويرجع اقدمها الى الالف الخامس . وكان اسم المدينة في عصر ازدهارها في ١٤٠٠ ق.م . اوغاريت^٢ . وتقع على مسافة ميل واحد الى الداخل بالنسبة لمينائها المسمى «المينا البيضاء» الذي يقابل جزيرة قبراص . وكان يقوم ازدهار المدينة على حركة التجارة التي كانت تمر فيها وفي مينائها . وكان ملكها يسمى نغماد (نغمادا ومعناه نعمة حدد) الذي كانت قواعد اعمدة قصره الملكي مطلية بالفضة . وكان يدافع عن القصر برج مربع ضخيم عرضه اربعة عشر متراً وجدران كثيفة .

واتمن المكتشفات المتنوعة التي وجدت في هذا الموقع الألواح الفخارية وعليها كتابة ايجدية من النوع المساري في منطقة المعبد . ومع انها كتبت في القرن الرابع عشر فان نصوصها الاصلية ترجع الى ابعد من ذلك بكثير . والكتابة تضم ثلاثين حرفاً واما اللغة فانها لهجة كنعانية . والمواد المكتوبة معظمها دينية وتتصل بطقوس

(١) حفظ لنا المؤرخ يوسيبوس قسماً كبيراً من ترجمة فيلون ولكن العلماء المعاصرين يعتبرون هذه الترجمة تزويراً من فيلون . وقد ترجم الى الالمانية ما يظن انه ترجمة فيلون بكاملها تحت عنوان : *Sanchuniathon's phonizische Geschichte* (Lübeck, 1837) واسم سانخونيathon من الفينيقية *Sakkonyaton* ومعناه « الاله Sakkon قد اعطى » .

(٢) واسم اوغاريت معناه حقل والاغلب انه كلمة مستعارة من السومرية .

المعبادة. وهذا الاكتشاف يعيد لنا جانباً هاماً من الادب الكنعاني الذي فقد لمدة طويلة. وتدور إحدى القصائد الهامة حول النزاع السنوي بين اله النبات عليان وبعل وخصمه موت. وينتصر موت على بعل في اول الامر وهذا طبيعي في بلاد يضع فيها جفاف الصيف حداً لحياة النبات، ولكن عندما تتجدد الامطار في الحريف فان بعل يعود فينتصر على موت. ومن المحتمل ان هذه القصيدة كانت تمثل كمرسحية على الساحل السوري قبل ان يفكر اليونان بالمرسحية بعدة قرون، واذا صح هذا فيكون السوريون قد سبقوا اليونان الذين يعتبرون عادة منشئي التمثيل المسرحي.

وهناك مقاربات ومشابهات من حيث اللغة والافكار بين ادب اوغاريت وسفر ايوب. وتوجد موازات في شعر اوغاريت كما في الشعر العبري. وبما يستلفت النظر التشابه في المفردات والافكار والاوزان الشعرية والتراكيب الادبي بين الادب الاوغاريتي والمزامير العبرانية^١. ونجد في الاوغاريتية ان بعل يوصف «براكب القيوم» وكذلك يصفون الله في العبرية (المزمور ٦٨: ٤). وفي احد نصوص اوغاريت نجد ان الرعد هو صوت بعل، وفي سفر ايوب ٣٧: ٢-٥ والمزمور ٢٩: ٣-٥ نجد انه صوت يوه. وهذا المزمور بكامله من اصل كنعاني ظاهر. وفي كلا الاديان تسمى لوبانان Leviathan «الحية المتحوية» (سفر اشعيا ٢٧: ١)^٢. وبعل يقتل لوبانان وكذلك يفعل يوه. وهذا الحيوان البحري الخفيف ذو سبعة رؤوس ويظهر بعد قرون في حيوان خرافي متصل بهر كوليس. ودانيال (ومعناه ايل قد حكم) البطل الاوغاريتي الذي يقابل دانيال في قصة سوزانا «يحكم في قضية الارملة ويقضي في مسائل الايتام»^٣ كما يفعل الله في المزمور ٦٨: ٥ وكما يفعل الصالحون في سفر اشعيا ١: ١٧.

ان هذا المركز الدولي القديم - اوغاريت - الذي تظهر في فنه الزخارف

(١) راجع: John H. Patton, *Canaanite Parallels in the Book of Psalms* (Baltimore, 1944).

(٢) انظر: Cyrus H. Gordon, *The Loves and Wars of Baal and Anat* (Princeton, 1943), p. xii.

(٣) Gordon, p. 35; Charles Virolleaud, *La Légende phénicienne de Danel* (Paris, 1936), p. 203.

المصرية والحثية واستخدمت في منازل اواني الحزف الامورية ثم القبرصية والميكانية وفي اسواقه بيعت السيوف الحورية وسيوف الهكسوس قد هدمته الزلازل والنيوان في عام ١٣٦٥ ثم اتته شعوب البحر وخربته نحو عام ١٢٠٠ وهكذا زالت هذه المدينة من التاريخ .

ديانة الحصب

كانت مراجعنا الادبية عن الديانة الكنعانية زهيدة قبل اكتشاف اوغاريت . وكانت تضم كتاباً في اليونانية بعضهم سوريون مثل فيلون الجبيلي ولوكيانوس السيساطي ولكنهم كانوا متأخرين وغامضين نوعاً . وكان لدينا مواد العهد القديم في التوراة ولكن تتصف بروح العداء التي كتب بها المؤلفون العبرانيون ، كما كان لدينا آباء الكنيسة المسيحية الاوائل ولكن معلوماتهم لم تكن اولية . والامر الاساسي في الديانة الكنعانية كما تظهره لنا هذه المصادر والمكتشفات الاثرية الحديثة هو عبادة قوى النمو والتوالد التي يعتمد عليها كيان مجتمع زراعي يتم بتربية الماشية في ارض امطارها قليلة وغير مؤكدة . ويصدق هذا الى حد كبير على جميع الديانات السامية القديمة . ويبدو ان الكنعانيين استعاروا من عبادات جيرانهم وطقوسهم في بابل ومصر كما استعاروا في سائر الميادين الثقافية واعارواهم ايضاً فكانت العملية متبادلة .

والصفات البارزة في ديانة الحصب السامية هذه هي الحزن على موت اله النبات واجراء طقوس لتمكينه من الفوز على خصمه (اله الموت والعالم الاسفل) حتى يضمنوا كمية كافية من المطر الضروري لانتاج موسم العام الجديد ، والفرح عند عودة الاله الى الحياة . وان زواج الاله او بعل بعد بعثه بالالهة الحصب عشتار تلتهج عنه تلك الحضرة التي تكسو الارض في الربيع . وهذا الزواج المقدس الذي يتخذ صفة روحية رفيعة يصبح فيما بعد اتحاداً بين هوه وشعبه . وفكرة الاله الذي يموت ثم يبعث تصبح جزءاً هاماً من الاعراف المسيحية .

ويتصل بفكرة جفاف النبات الدوري بسبب حرارة الصيف وعودته الى الحياة في الربيع عنصر القوة المتجددة للشمس المنتصرة عندما تظهر بعد اتخذها الظاهر

في الشتاء . وقد كانت اسطورة تموز^١ القديمة تتضمن ذلك . وسمى الكنعانيون هذا الاله أدون بمعنى سيد ثم اقتبس اليونان وجعلوا منه ادونيس . وجعل فيما بعد معادلاً للاله المصري اوزيريس . واصبح ادونيس اشهر الآلهة السورية واقيمت عبادته في اليونان في القرن الخامس . وجعل الفينيقيون حادثته مع عشتار او سيدة بيبلوس^٢ عند منبع النهر الذي يسمى اليوم نهر ابراهيم في لبنان^٣ . ففي هذا المكان جرح تموز بينما كان يصطاد الخنزير البري وحلوه وهو يشرف على الموت الى حبيبته المتألمة . ومنذ ذلك العهد والنهر يصطبغ باللون الاحمر في احد الفصول وهو لوت - دمه كما يعتقدون (وقد شوه علماء الآثار الحديثون هذه القصة عندما اشاروا الى التربة الحمراء التي تجرفها سيول الربيع^٤) . وبينما كان تموز في العالم الاسفل ذبل النباتات على الارض وظل ميتاً الى ان دخلت عشتار العالم الاسفل واستعادتته . ونشأت الطقوس التي تحتفل بذكرى موته في بيبلوس على خمسة اميال شمالي مصب النهر وتضمنت هذه الطقوس بحث النساء عنه . وكان العيد السنوي يدوم سبعة ايام . وكان الفرع يعم الجميع عند بعثه حتى ان اللواتي يعبدنه من النساء كن يضحكن بشرفهن بينما الرجال يضحون برجولتهم ويخدمون في المعبد كخصيان . وقد تعدل هذا البغاء وتحول فيما بعد الى قص الشعر الرمزي بالنسبة للنساء . واما الحثان الذي كان عادة سامية قديمة فانه بدأ كما يبدو كتقدمة لالاهة الحصب وكان ايضاً بمثابة علامة قبلية فارقة . وقد ترك السوريون هذه العادة بعد نشوء المسيحية حين اعتنقوا الديانة الجديدة .

(١) وهو في البابلية نوموزي *dumu-zi* ، الابن الأمين ، ومن اصل سومري . وقد بقي اسم تموز في تسمية الشهر الرابع للسنة السامية والشهر السابع في التقويم العربي الحديث لأن الشهر كان مكرماً لعبادته .

(٢) زار هذا المعبد لويكاتوس حوالي ١٤٨ م ووصف طقوسه في كتابه : *De Dea Sgria*, §6

(٣) سمي نهر ابراهيم باسم امير ماووني قديم . والنبع الآن يسمى نبع افقا حيث لا تزال مراسم الاحترام تقام لسيدة المكان العذراء مريم باضاءة المصابيح في خلوة صغيرة تحت شجرة تين مشوهة ، ويعلق سكان المنطقة من مسيحيين وشيعة قطعاً من ثيابهم على اغصان الشجرة كنذور لإعادة العافية الى المرضى .

(٤) وهناك رواية اخرى للاسطورة تقول ان ادونيس الذي كان لقبه الفينيقي نمان تحول الى شقائق النمان وهي الزهرة التي تطلعت بدم ادونيس . وكلمة *anemone* الانكليزية اتت من نمان بطريق اليونانية ، بينما كلمة نمان العربية اتت بطريق السريانية .

وتتابع الحياة والموت لم يقتصر على النبات وإنما شمل الإنسان ونتج عنه التأكيد على الناحية الجنسية من الحياة. وقد تجلّى ذلك في البغاء المقدس الذي كانوا يمارسونه بمناسبة طقوس عشتار ليس في بيبيلوس وحدها بل أيضاً في بابل وقبرص واليونان وصقلية وقرطاجة وغيرها من الأماكن^١. وبعض مظاهر هذه الطقوس استعارها العبرانيون كما يظهر وكان لديهم ما يسمى «بعمسات المعبد»^٢. والاباحية الجنسية كانت مظهراً بارزاً في الاحتفالات الزراعية عند كثير من الشعوب القديمة. في العالمين القديم والجديد. وربما كانت عادة تقبيل الذين يحضرون حفلة العرس للعروس من بقاياها. وقص الشعر لا يزال من الواجبات المتبعة عند الرهبان المسيحيات حين يكرسن أنفسهن للعريس الإلهي.

الآلهة

إن ديانة كنعان القديمة وبقية العالم السامي باعتبار أنها بالدرجة الأولى تقوم على عبادة الطبيعة كانت تضم آلهتين رئيسيتين تعرفان بأسماء مختلفة ولكنها في جوهرهما: الجو الآب والارض الام. وفي اوغاريت كان اله الجو يعرف باسم ايل بينما الآلهة الام كانت تسمى عاشره. وكان ايل الآله الأعلى للعالم الكنعاني العبراني^٣. وبعده يأتي عليان الذي أصبح كبعل له مكان معين واعتبر حامياً لاحدى المدن. وكانت الامطار والفسلال تحت مراقبته. والاعياد كانت تقام لارضائه والتقدمات تعطى لاستعطافه. والذبيحة او التقدمة كانت بجوهرها احتفالاً يشترك فيه العابد والمعبود او حفلة اشتراك. ولعدم وجود أية صورة محفورة كانوا يرمزون الى الآله بعمود او حجرة. والآله ملُخ (Moloch) (او Molech^٥) الذي تقدم له الاولاد كضحايا كان

(١) راجع : Herodotus Bk. I. ch. 199; Strabo, Bk. XVI. ch. 1. § 20; VI. 2. 6; Baruch 6 : 43; Lucian, §§ 22, 43.

(٢) سفر حزقيال ٨ : ١٤ ؛ ميخا ١ : ٧ ؛ التثنية ٢٣ : ١٨ .

(٣) كان حدد Hadad إله الماشقة والحصب ام الآلهة واكثرها جاذبية بين الآلهة السورية . انظر ما سيرد في الفصل ١٢ .

(٤) وهذه الكلمة لا علاقة لها بالكلمة العبرية « عليون » اي الأعلى في سفر التكوين ١٤ : ١٨ .

(٥) سفر اللاويين ١٨ : ٢١ ؛ سفر الملوك الثاني ٢٣ : ١٠ .

يعتبر انه نفس ملقارت اي سيد المدينة — مدينة صور . وحوادث دفن الاولاد الصغار في الجرار كما اكتشفت في المعابد تثبت مرويات التوراة عن عادة تضحية الاولاد .

كانت رفيقة ايل تسمى عاشرة Asherah (عاترة Athirat) في اوغاريت . وكانت توجد الالهة اخرى اسمها عشتارت Ashtart (عشتارت 'Ashtart) في اوغاريت وتل الهامزة وهي عشتار عند الاشوريين البابليين . وقد كانت عشتارت الالهة الام . وسماها العبرانيون عشتوريت Ashtoreth (وجمعها عشتاروت Ashtaroth^١) واليونان آستارت Astarte . واقتبسها اليونان وادجت بافروديت فاصبحت اشهر الالهات الحصب . وصارت باعتبارها بعل (او سيدة) متصلة بمكان معين واصبحت حامية لمدينة . ومن هذه الحاميات بعله جبيل . وكان اسم عشتار هو الذي تنسب به الالهات المحلية المقرونة بالبعلم في الاماكن المرتفعة الكنعانية التي كان لها تأثيرها وجاذبيتها الخاصة بالنسبة لعقول العبرانيين كما يظهر حتى ان الانبياء اضطروا لمهاجمتها مراراً^٢ . وقد كُرس ايلول وهو الشهر السادس الذي يقع في نهاية الصيف للالهة عشتار لانه في هذا الشهر وبفضل قوتها كانت تنضج الحياة النباتية التي يمثلها الاله تموز . وبالإضافة الى لقب « بعل » فقد كانت عشتار تلقب « ملكة » ايضاً وهذا يذكرنا « بملكة السماء »^٣ . وهناك كتابه اثرية عصرية اكتشفت في بيت شان من القرن الثالث عشر تسمى غنات « سيدة السماء »^٤ . وتظهر غنات في لوح من اوغاريت كشقيقة عليان بعل وتعطى لقب العذراء . وقد بقي اسمها في بيت

(١) انظر سفر الملوك الاول ١١ : ٥ ، ٣٣ : الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ . ويرد هذا الاسم في العربية الجنوبية بشكل عتار من فعل « روى واعتق » ويطلق على إله مذكر . وهذا الاسم الالهي علم عند جميع الشعوب السامية .

(٢) سفر القضاة ٢ : ١٣ : إرميا ٣٢ : ٣٥ : الملوك الثاني ٢٣ : ١٣ : سموئيل الاول ٧ : ٣-٤ .

(٣) سفر إرميا ١٧ : ١٨ : ٤٤ : ١٧-١٩ : ٢٥ .

(٤) Burrows p. 230

عنان^١ وبيت عنوت^٢ وعنانوت^٣. وكانت الالهة عنات — عشتار تهب الحياة وتبيدها. ومن اوصافها البارزة ايضاً الحب والحرب. وكان رشف^٤ (الهيوب) في نفس الوقت اله الموت والحصب.

المياكل

كانت الفكرة الاساسية في بناء الميكل تزويد الآلهة بمسكن لها. فهنا كانت الاله يسكن كما يسكن اي كائن بشري في بيته الخاص. وبواسطة الميكل كان يتاح مجال للاتصال بين الاله والبشر بحيث يتمكن الكائن البشري من تأسيس علاقات شخصية مع الكائن الالهي. واقدم المياكل الكنعانية المكتشفة ترجع الى مطلع الالف الثالث وكانت في اريحا ومجدو. وكان هذا النموذج القديم يتألف من غرفة واحدة لها باب على الجانب الطويل من البناء. ويصبح البناء متكاملًا اكثر بعد منتصف الألف الثاني. واهم صفات مثل هذا الميكل^٥ كما ظهرت في جزر وبيت شان^٦ واوغاريت وغيرها من الاماكن كانت المذبح الصخري والتصب المقدس والعمود المقدس والعرش تحت الارض. وكان المذبح الذي تقدم عليه الذبيحة اهم هؤلاء بدون شك. والتصب او الحجر المقدس^٧ كان يمثل الاله المذكور وربما كانت

(١) سفر يشوع ١٩ : ٣٥ وهي اليوم البعنة شرقي عكا. (٢) يشوع ١٥ : ٥٩ وتسمى اليوم بيت عيتون شمالي الخليل. (٣) اخبار الايام الاول ٦ : ٦٠ وهي اليوم عتلا شمال شرقي القدس.

(٤) ويرد هذا الاسم كعلم في اخبار الايام الاول ٧ : ٢٥.

(٥) الكلمة المستعملة لذلك هي *hekalla* (هيكالو اي بيت او قصر) وهي مستعارة من السومرية وبقيت في كلمة «هيكال» العربية.

(٦) نقب في بيسان Alan Rowe و C. S. Fisher. انظر : *Rowe : The Topography and History of Beth-shan* (Philadelphia, 1930); do. *The Four Canaanite Temples of Beth-shan*, pt. I (Philadelphia, 1940).

(٧) مصيبة *mazzēbāh* وجهها منصوبت (من تصب) وترجم بكلمة «عتال» او عمود في هوشع ٣ : ٤ ؛ الملوك الثاني ١٠ : ٢٧ ؛ التكوين ٣٥ : ١٤ ؛ صموئيل الثاني ١٨ : ١٨.

لاصله علاقة بعض التناسل . ويجانبه كان العمود المقدس او الشجرة المقدسة^١ وكانت تمثل النبات الدائم الخضرة التي تسكنه آلهة الحصب . وفي بيت شان كان هذا العمود يقوم في مدخل الحرم الداخلي . والغرف الكائنة تحت الارض كانت غالباً تستخدم لتلقي النبوءات . وكانت الاواني المستخدمة في اراقة السوائل والمزخرفة بالحيات ، وطاسات البخور والمباخر التي وجدت تشير الى الاعمال التي استخدمت لاجلها هذه الاشياء^٢ وتفيد بقايا المعابد التي كانت لها مصاطب يغسل عليها العابدون اقداسهم قبل الصلاة ان الرضوء الذي يشكل جانباً لا بد منه في الصلاة عند اليهود والمسلمين لم يكن مجهولاً عند الكنعانيين . والمباخر الكنعانية اقتبسها اليونان والأتروسكيون . وفي بيت شان كان يقوم مكان مرتفع في مؤخرة المعبد حيث كان يوضع غالباً تمثال الاله ويدل على بدء المكان المعروف «بقدس الاقداس» .

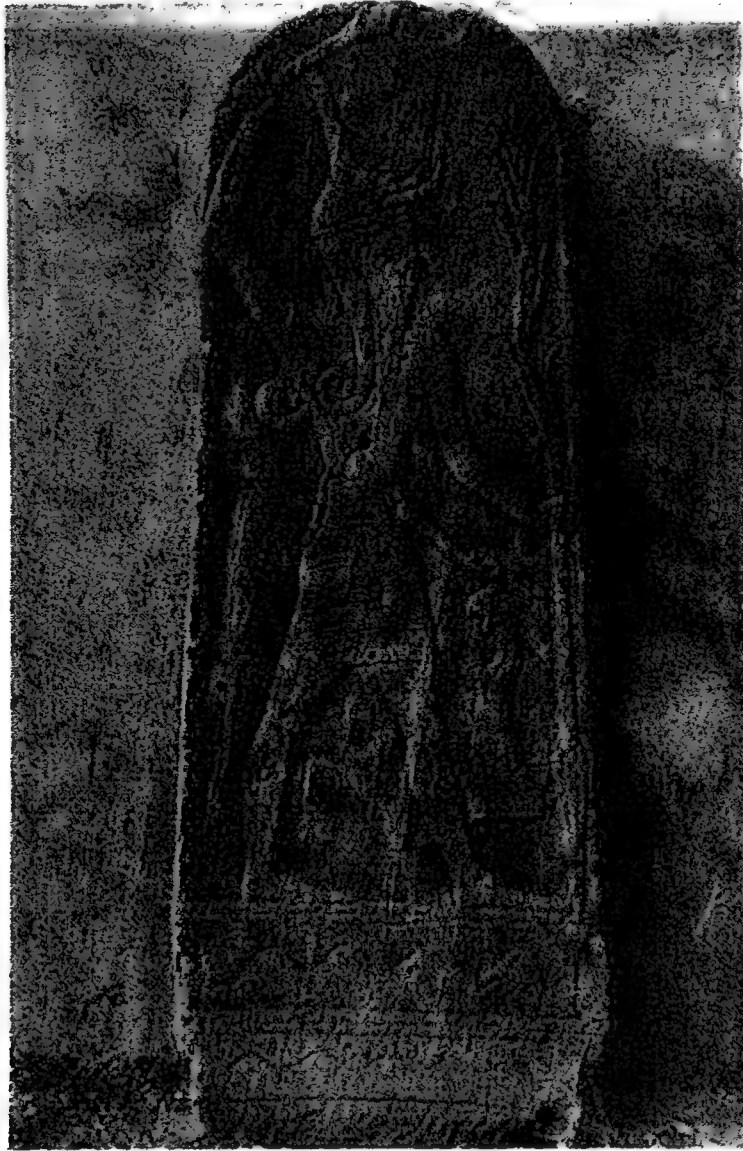
ولا يزال المسلمون والمسيحيون والدروز في سورية وفلسطين اليوم يؤدرون واجب الاحترام للاشجار وهي عادة من البلوط او الصنوبر التي تنمو قرب ينبوع او قرب قبر احد الاولياء او القديسين . وتشاهد اليوم قطع الثياب مربوطة بشجرة مقدسة عند اقفا حيث ينبع نهر ابراهيم .

الاصنام

اكتفى الكنعانيون عامة بالنصب والعمود المقدسين واستغنوا بهما عن ضرورة صنع الاصنام . والصور والتماثيل الصغيرة البرونزية التي تمثل بعل واقفاً يلوح بالصاعقة بيده اليمنى المرفوعة كانت شائعة . والالاهة كانت عادة تمثل عارية ويداها على جانبيها او تمسكان بشدييها كما لو كانت تعطي الغذاء . وقد وجدت تماثيل صغيرة متعددة من هذا النوع مصنوعة من المعدن او الطين . ولكنها كلها تبدو انها كانت

(١) أشيراء *ashērāh* وجها أشيريم ؛ وترجت بكلمة «سوارى» في سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٣ ؛ الملوك الثاني ٢٣ : ٦-٧ ؛ اشعيا ٢٧ : ٩ . وقد حرمت في سفر التثنية ١٢ : ٣ : ١٦ : ٢١ .

(٢) لأجل رسوم هذه الاشياء انظر : Rowe, *Four Canaanite Temples* الاطوار : ٢٢ : ٢٠ ، ٤١ : ٣٧ : ٤٠ : ٥٧ .



عليان بعل اوغاريت (رأس الشجرة)

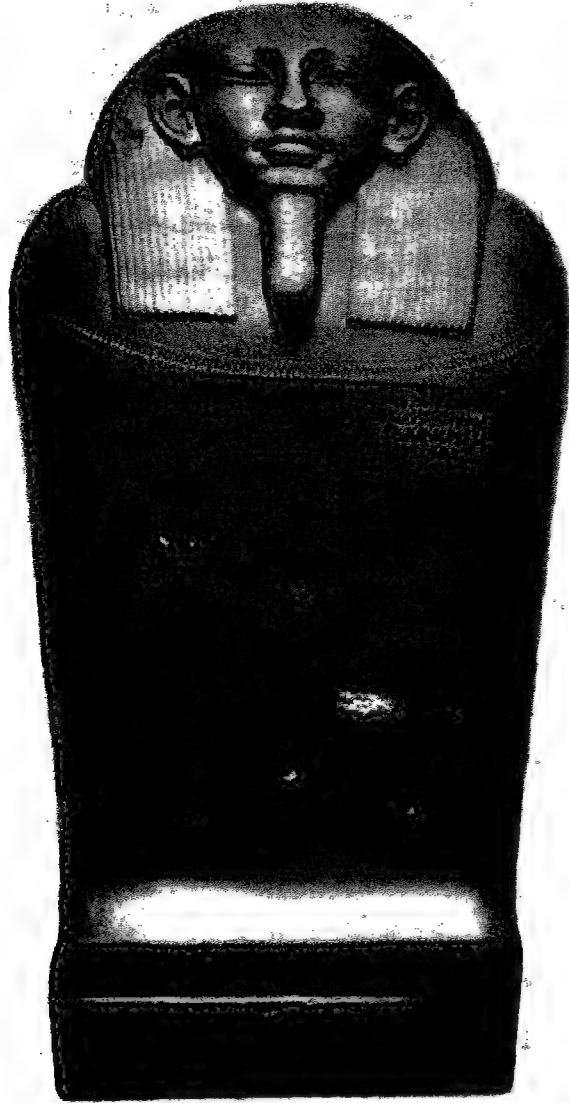
يمك الاله بيده اليمنى نبوتاً ويده اليسرى رمز الساعة ويقف امامه
ملك اوغاريت تحت حمايته .

تستخدم في المنازل وليس في الهياكل . وكانت تحترم بسبب قدرتها السحرية . وكان المتعبد المتعلم يعتبر التمثال مسكن الآلهة اما العامي فربما اعتبر ان التمثال نفسه هو الآلهة . وكانوا يمثلون الالاهة السورية أثارغاتس عادة في اواخر الالف الثاني بشكل امرأة عارية ايضاً وترفع احدى يديها بمسكة بساق نبات الزنبق او بالحيات . وهناك إلهة سورية اخرى هي قادش وتتخذ ايضاً شكل امرأة عارية واقفة على اسد . وكان الاسد او الثور رمزاً للحياة والقوة . اما لماذا اتخذت الحية رمزاً للخشب فان ذلك غير واضح . وقد يكون ذلك لانها كانت تعيش في احشاء الارض . ولا شك ان الاقدمين كانوا يعجبون بقدرتها الفائقة على طرح جلدها وتجديد جسمها كل سنة وعلى اصابة من تعضه بالموت المباشر . وقد يتردد الفلاح السوري حتى اليوم في قتل حية سوداء اذا وجدها في منزله على اساس انها قد تكون حاميته .

كانت عبادة الحية شائعة في مصر القديمة وكريت وغيرها من بلاد الشرق . وبيت شان التي كان التأثير المصري ظاهراً في هياكلها الاربعة المكتشفة كانت من مراكز عبادة الحية . وقد كرس اقدم هذه الهياكل الى « ميكال سيد بيت شان » من عهد تحوتمس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٧) . وميكال الذي قد يكون اسمه متصلاً بمبلغ Molech كان احد اشكال رشف اله الكنعانيين والاموريين . وقد اكتشفت طاسة مزخرفة بحية في قسمها الخارجي في هذا المعبد .

« الاماكن المرتفعة »

وفيما سوى الهياكل في المراكز الحضرية فانه كان للكنعانيين اماكن مقدسة محلية معظمها مزارات في الهواء الطلق على رؤوس التلال . تلك كانت « الاماكن المرتفعة » التي كان يهاجها كتاب العهد القديم بصورة متكررة . وفي كثير من الاحيان لم يكن المكان المقدس غالباً سوى مذبح مع ما يلزمه من حجر مقدس .



تابوت بشكل بشري للـك صيدا اتمون عزز
من اوائل القرن الثالث ق. م. والآن في متحف اللوفر

وفي « المكان المرتفع » المشهور في جزر وجدت بقايا اولاد قدموا كضحايا ودفنوا في جرار^١.

عادات الدفن

وكانت العادة ان يدفن الاولاد بعد تضحيتهم في جرار دقيقة في نهايتها بحيث تدخل رؤوسهم أولاً. وفي اريحا وغيرها من المواقع كانت توضع الجرار تحت ارض المنزل. وحتى في ايام العبرانيين كانوا يتبعون عادة دفن الاولاد في تلك المدينة عند تأسيس المباني الجديدة^٢. وممارسة اسلاف العبرانيين كسائر الساميين لهذه العادة يمكن استنتاجها من قصة ابراهيم الذي شعر بدافع لتضحية ابنه اسحق وقصة ميثا ملك مؤاب الذي ضحى بالفعل ابنه الاكبر^٣.

كان الوضع الانسب لجثة الميت عند دفنها في منتصف الالف الثاني ان تكون بمدة على ظهرها وان يكون اتجاه الرأس نحو الشمال. وكانوا كثيراً ما يدفنون مع الجثة مصباحاً وجرة وصحناً كبيراً وغير ذلك من اواني الطعام والشراب بما يشهد بوجود اعتقاد غامض ان الميت يمكن ان يروقه نوع من المعيشة على الطراز المألوف في هذه الحياة الدنيا. وكانوا يدفنون النساء ومعهن حبات الخرز وسائر نواحي زينتهن كما ان الرجال كانوا يدفنون بسلحهم. وتابوت الملك احيرام الحجري الضخم المزخرف بموكب جنازي حيث تظهر النساء الباقيات والخدم الذين يحملون الهدايا يشير الى رغبة في حفظ الجسم. والتحنيط لم يمارس الا بالنسبة لبعض ملوك كنعانيين تحت النفوذ المصري.

وهناك تأثير مصري آخر يظهر في الدفن عند الفينيقيين وهو وجود التوابيت ذات الشكل البشري. وقد اكتشفت توابيت كثيرة من هذا النوع يظهر فيها رأس بشري واحياناً شكل متكى بكامله على الغطاء وترجع الى ما بين القرن

(١) راجع ما ذكرناه في ص ٢٦ و ص ٨٤.

(٢) سفر الملوك الاول ١٦ : ٣٤.

(٣) سفر التكوين ٢٢ : ١-٣؛ الملوك الثاني ٣ : ٢٧.

السادس والثالث ق. م. ومن أجلها تابوت اشمون عزّر ابن تبنيث^١ ملك «مدينتي صيدا» كما يسمي نفسه وكان يحكم بعد فتح الاسكندر بنحو نصف قرن. وعلى غطاء التابوت كتابة من اطول الكتابات الاثرية المعروفة. والفكرة الاساسية الواردة هي الفكرة المعتادة بمنع ازعاج الميت وذلك بطريق اللعنات من جهة وبالتأكيد من جهة اخرى انه لا توجد كنوز ثمينة مدفونة مع الجثة^٢ وقد كان المصريون اول شعب اجنبي تسلط على فينيقية، وآخر من فعل ذلك قبل فتوح الاسكندر هم الفرس.

(١) اشمون عزّر بمعنى اشمون يساعد. وكان اشمون أم إله منكر لمدينة صيدا وبالأصل كان إله النبات. ولا يزال اسمه باقياً في خرائب قبر اشمون جنوب شرقي بـيروت. واسم «تبنيث» لا يزال في اسم قرية تسمى كفر تبنيث جنوب شرقي صيدا وهي تقابل Tibni العبرانية (سفر الملوك الاول ١٦ : ٢١).

(٢) Cooke, pp. 30-40

الفصل الحادي عشر العلاقات الدولية مع مصر وعسبري آسيا

كانت الدول الكبرى في غربي آسيا في الألفين الثالث والثاني ق. م. ثلاث دول هي مصر وبابل والحثيون. وتبعتهما دول ثلاث أخرى وظلت على مسرح التاريخ حتى نهاية القرن الرابع تقريباً وهي دولة الآشوريين والدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانيين ودولة الفرس. والعلاقات المتبادلة من عسكرية وتجارية وثقافية بين الدول السورية وهذه الدول الكبرى المجاورة تشكل الموضوع الرئيسي للحوادث التاريخية خلال فترة نحو ثلاثة آلاف سنة.

المملكة القديمة

ان علاقة مصر ببلاد شرقي البحر المتوسط ترجع الى ما قبل قدوم الفينيقيين في اوائل الالف الثالث. وكانت هذه الصلة تجارية في بادئ الامر ثم تنوعت وعززت واستمرت حتى غزو شعوب البحر في اواخر القرن الثالث عشر. واذا استثنينا فترات قصيرة مثل ظهور المكسوس في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ومجيء الحابيرو في القرن الرابع عشر فان النفوذ المصري في الساحل الفينيقي دام من حوالي ٢٤٠٠ ق. م. حتى حوالي ١٢٠٠ ق. م. وقد استمر التأثير الحضاري والاقتصادي الى ما بعد انتهاء النفوذ السياسي وقام الحثيون في القرن الرابع عشر فتحدوا السيطرة الفرعونية على شمالي سورية وداخلها ووضعوا نهاية لها.

كانت اول مدينة احتلت مكانة رئيسية في العلاقات المصرية السورية مدينة جبلة Gubla (جبيل). وكان المصريون يعرفون هذه المدينة باسم Kupna وهو

(١) يجب الانتباه إلى التفريق بينها وبين جبلة Gabala (GB'L) في تصوص اوغاريت) وهي جبلة المدينة الواقعة إلى الشمال ومن المدن الكنعانية أيضاً.

اسم غير سامي حوله الفينيقيون بعد احتلالها الى 'جبلة'. وبقي اسمها السامي في 'جبيل' الحديثة. واسمها اليوناني ببيلوس Byblus الذي صار يعني 'بابيروس' او 'كتاب' قد بقي في لفظة 'Bible' (الكتاب المقدس او التوراة). وقبل ان تصبح جبيل الميناء التي يصدر منها البابيروس فانها كانت مركز تصدير ارز لبنان المرغوب كثيراً الى وادي النيل. وهناك استخدم الارض في بناء المعابد والقصور والسفن وفي صنع التوابيت والاثاث الفاخر. وقد استورد الفرعون سنفرو (حوالي ٢٧٥٠ ق.م.) محمول اربعين سفينة من الارض لاعماله العمرانية. واقدام اتصال بين مصر وسورية لدينا دلائل مكتوبة عنه هو من عهد هذا الملك. وكانت تصدر الحبوب والزيوت ايضاً لاجل التخزين من جبيل. والمدن الفينيقية كانت تستورد لقاء ذلك الذهب والمصنوعات المعدنية ومادة الكتابة (البابيروس او ورق البردي). وقد نقش خوفو (Gheops حوالي ٢٦٠٠ ق.م.) باي الهرم الاكبر المشهور اسمه على آتية من الالباستر وارسلها كهدية الى سيدة جبيل. واعتبرت هذه الالاهة من قبل المصريين مساوية لالاهتهم هاتور التي بذلك اصبحت بالنسبة لهم سيدة البلاد السورية. وفي هيكل الدفن الذي يخص ساخوراع من ملوك السلالة الخامسة في ابو صير (خارج ممفيس القديمة) يوجد رسم حملة للبلاد الاجنبية وتظهر فيه غنائم الحرب وبينها زيت الزيتون في جرار كتعانية. وتمكن اونيس (توفي حوالي ٢٣٥٠) وهو آخر ملوك هذه السلالة ان يحافظ على جبيل بواسطة اسطوله وربما كانت المدينة حينذاك من مستعمرات التاج.

وفي كتابات السلالة السادسة الاثرية نبدأ بالقراءة عن 'مراكب جبلة' في ملاحه البحر المتوسط. ولدينا من عهد هذه السلالة اول وصف مفصل للحمالات البرية في فلسطين وسورية. وقد قاد هذه الحملات في اوائل القرن الثالث والعشرين اوني Uni قائد الفرعون بيبي الاول Pepi الذي 'عاد جيشه سالماً' بعد ان حارب 'سكان الرمال' الاسيويين وتوغل في الشمال حيث هدم الحصون وقطع اشجار التين والكرمة^١.

(١) راجع : James H. Breasted, *Ancient Records of Egypt*, vol. i (Chicago, 1906), § 313.

المملكة المتوسطة

وادعى فراغة السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨) وهي اعظم السلالات في تاريخ مصر السيادة وربما مارسوها بشكل ضعيف ليس على الساحل الفينيقي فحسب بل على فلسطين وقسم كبير من سورية ومنها قطنة Qatna . وقبل احد امراء اوغاريت الهدايا من سنوسرت الاول (١٩٧١ - ١٩٢٨) وكان ابو الهول الذي يمثل امنمحت الثالث (١٦٤٢ - ١٦٣٣) يقوم عند مدخل هيكل بعن في هذه المدينة . وتدل اسماء الاماكن على اللوائح المصرية انه في حوالي نهاية حكم امنمحت كانت فلسطين حتى جلعاد في الشرق وفينيقية حتى وادي النهر الكبير في الشمال وحموران ودمشق ومعظم البقاع . جزءا من الامبراطورية المصرية . وقد اتانا من زمن حكم سنوسرت اقدم وصف للحياة الاجتماعية والنظام الاجتماعي في سورية وفلسطين^١ .

قصة سنوحي

كان كاتب هذا الوصف من رجال البلاط المصريين واسمه سنوحي (Sinuhe) وقد رأى من الضروري عند اعتلاء سنوسرت العرش ان يهرب الى سورية حيث عاش بين البدو سنوات عديدة . وبعد ان اصبح طاعناً في السن دعي للعودة الى بلاط فرعون حيث دون مذكراته بشكل شعري .

وفي اول الامر انقذ زعيم بدوي على حدود مصر حياة هذا الرجل الهارب وزوده بالماء والحليب المغلي وسمح له بالسكنى مع عشيرته . وبعد ان اقام سنوحي في الجنوب ذهب الى جيبيل ومن هناك اجتاز لبنان الى سهل البقاع حيث اصبح من جملة السكان وانتسب الى قبيلة كان اسم شيخها امورياً . وقد شجع الزائر شيخ القبيلة على الخضوع لفرعون ولكن الشيخ لم يظهر رغبة في التنازل عن استقلاله .

(١) كان المصريون يسمون سورية الشمالية رتينو (Retennu) (Rzannu) او خورو (Khuru) (Kharn). وقد تكون رتينو تحريف كلمة سامية . أما خورو فقد تكون تحريف كلمة حوريّ وم الحوريون Horites المذكورون في التوراة . وكانت المنطقة بين لبنان الغربي والشرقي تسمى امورو (Amor) والسهل الفينيقي وفلسطين كانا يسميان زاهي (Zahi) (Djahi) بينما الفينيقيون كانوا يسمون فنخو Fenkhu اي بناء السفن .

وتزوج سنوحي من ابنة حامييه الكبرى وخصصت له ارض طيبة فيها تين وكروم وخمر اكثر من الماء. «وكان عليها كثيراً وزيتها غزيراً وجميع الثمار كانت في اشجارها. وكان فيها شعير وقمح وماشية لا عد لها من جميع الانواع^١». وورث سنوحي المشيخة على القبيلة عن والد زوجته واصطاد بمساعدة كلابه واستقبل الضيوف على عادة البدو واعطى الماء للعطشان وارشد الضال واشترك في اعمال الغزو. واصبح محبوباً حتى انه اثناء القتال مع احد كبار القبيلة حيث استخدمت السهام والحراب والفؤوس صرخت النساء لمساعدته وشجعه الرجال. وبعد ان اشتاق هذا المنفي الى بلاده وارتعش لمجرد التفكير بانه سيدفن في ارض غريبة وسيلف بجلد ماعز فقط استجاب لقرار اصدده سنوسرت وكلف ابنه الاكبر بادارة املاكه وترك «الرمل لسكانه وزيت الشجر لاولئك الذين لا يعرفون دهناً احسن منه^٢» وعاد الى بلاده حيث يمكنه التمتع بترف الاستحمام وبفراش حقيقي.

سورية في الامبراطورية المصرية

ادخلت سورية في الامبراطورية المصرية عند ظهورها في عهد احموس من السلالة الثامنة عشرة (توفي حوالي ١٥٤٦) وهو مؤسس المملكة الحديثة. وكان احموس هو الذي طرد المكسوس من مصر ولحق بهم الى سورية التي منها اتوا وحمل بلاده على اتباع سياسة الفتوح والتوسع. وتابع خلفاؤه من بعده خطة التوغل في سورية وفلسطين. واجتاح تحتمس الاول البلاد كلها حوالي ١٥٢٠ بدون مقاومة كبرى ووصل الفرات الاعلى «بلاد الرافدين» (نهارين) حيث ترك كتابة اثرية تشعر بفوزه وباعماله العظيمة. وقد استلقت الفرات الذي يجري باتجاه معاكس لجري النيل انظار المصريين كأمر غريب. وسرعان ما انتشرت اخبار متنوعة عن «هذا النهر المقلوب الذي تجري مياهه الى الجنوب بينما هي في الحقيقة تجري الى الشمال». واصبح اسم هذا النهر «المياه المقلوبة^٣».

(١) راجع : Adolf Erman, *The Literature of the Ancient Egyptians* (London, 1927), p. 19.

(٢) Cf. David Paton, *Early Egyptian Records of Travel*, vol. i (Princeton, 1915), text v.

(٣) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii §§ 73, 478.

معركة مجدو

ولم تتوطد سيادة مصر نهائياً في سورية التي أصبحت جزءاً من الامبراطورية المصرية الناشئة الا بعد ان قام المحارب المشهور في مصر القديمة وهو تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦) بست عشرة حملة حربية . وتتصف الحملة الاولى وهي اهم الحملات بسقوط مجدو^١ في ١٤٦٨ حيث اصطدم الجيش المصري بجلف مؤلف من ٣٥٠ اميراً . وكان الهكسوس الذين طردوا حديثاً من مصر العمود الفقري لهذا الجلف وكان امير قادش علي العاصي رئيسه . وقد دارت رحى الحرب تحت اسوار المدينة المحصنة تحصيناً قوياً . وعندما انسحبت القوات السورية امام هجوم العدو العنيف وجدوا ابواب المدينة مغلقة من قبل السكان . وكان علي امير قادش نفسه ان يرفع الى فوق الاسوار وان تستخدم الثياب كجبال لرفعه . وبعد حصار دام سبعة شهور اضطرت المدينة التي كان « الاستيلاء عليها كالاستيلاء على الف مدينة » الى التسليم بعد ان قنك فيها الجوع . ووقع الامراء على قدمي فرعون « يطلبون التمس لمنخرهم » . واستولى المصريون بطمع على كمية من الغنائم تكاد لا تصدق وتتألف من : ٢٠٤١ حصاناً و ٩٢٤ مركبة (منها ٣٢ لها تراكيب مصنوعة من الذهب والفضة) و ١٩٢٩ ثوراً و ٢٠٠٠ من الماشية الصغيرة و ٢٠٠٠ من الحيوانات الاخرى و ٢٠٠ درع وعدد كبير من الاسلحة الثمينة . وصادروا من القصر الملكي ٨٧ ولداً و ١٧٩٦ من العبيد الذكور والاناث واباريق ذهبية وكمية من الاثاث والتماثيل . وقدم الامراء المغلوبون على امرهم رهائن^٢.

قرر سقوط مجدو ومصر فلسطين . وتقدم تحوتمس المعروف بنشاطه نحو الشمال مسافة ٧٥ ميلاً حتى وصل منطقة لبنان حيث استولى على ثلاث مدن وبني حصناً . وفي خلال حملته الخامسة استولى على ارواد وبذلك أحكم قبضته على السهل الفينيقي.

(١) ان السحر الذي يحيط بهذا الاسم مصدره آية غامضة في سفر الرؤيا ١٦ : ١٦ حيث يرد باسم ارمجدون Armageddon . وقد وضع الرومان جيوشاً بقرها حيث توجد اليوم قرية تسمى الجون (من اللاتينية legio) . قارن مع سفر الملوك الاول ٩ : ١٥ .

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii. §§ 412-443 ; George Steindorff and Keith (٢ C. Seele, *When Egypt Ruled the East* (Chicago, 1942), pp. 53-56.

وقد استخدم فرعون في بيانه الحربي الرسمي الذي اعلن فيه سقوط هذه المدينة التجارية العظيمة الواقعة في جزيرة ارواد العبارات التالية :

انظروا ان جلالة قهر مدينة ارواد وما فيها من قح وقطع جميع اشجارها الجمية . انظروا لقد كان فيها محاصيل كل بلاد زاهي . لقد كانت جنائهم ملاهى بئارها ، وخورم كانت في معاصم كالياه الجارية ، وحبوبهم على الجلول كانت اكثر من رمال الساحل . وقد نغمر الجيش بالحصة التي ظلموا (١)

ويذكر تحوتس بعد ذلك الجزية التي احتوت على العبيد والحيل والمواشي وصحون الفضة والبخور والزيت والعسل والخمر والنحاس والرصاص والحجارة اللازوردية ، والصوان البلوري الاخضر (فلسبار) والحبوب وادغفة الحبز والثمار وينتهي بهذه الكلمات : « انظروا ان جيش جلالة كان يسكر ويمسح بالزيت كل يوم كما لو كان في عيد في مصر » .

قادش

وقد اصاب سميرا Simyra جارة ارواد المصير نفسه في حملة تالية . اما قادش^٣ التي كانت مصدر الاضطراب الرئيسي فقد استولى عليها تحوتس اخيراً ولكنه اضطر بعد اثنتي عشرة سنة ان يتوجه ضدها من جديد . وعندما لاحظ امير قادش ان المركبات الحربية المصرية يجرها خيول فعول لجأ الى حيلة واطلق فرساً اتجهت رأساً الى وسط الخيول فسيبت تشويشاً هدد نظام المعركة . ولكن امنمحاب Amenemhab القائد ورفيق تحوتس انقذ الوضع حين قفز من مركبته وسيفه في يده « وشق بطنها وقطع ذنبها ووضعها امام الملك » .

نهادين

كانت الحملة الثامنة التي اسفرت عن انضمام منطقة القرات من اعظم حروب تحوتس في آسيا . وقد توج هذه الحملة باقامة لوحة للحدود شرقي القرات الذي عبره

(١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 461.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 462.

(٣) وهي رسوم كل التي مند جنوبي بحيرة حمص . انظر : Duasaud, pp. 106-108.

(٤) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 589.

غالباً عند كركميش ولوحة اخرى في جوارها قرب تلك التي اقامها والده تحوتس الاول. ونهب بلاد ميتاني في طريقه. وعندما كان يتقدم باتجاه مجرى النهر كان ينهب المدن ويخربها، ويقطع اشجار البساتين، ويقتلع الذرة ويترك الارض قفراً. وربما قام باكثر من حملة على نهارين وفي احدى هذه الحملات بنى زوارق من خشب الارز في الجبال شرقي جيبيل ونقلها في عربات تجرها الثيران حتى الفرات لكي ينقل الجيوش الى نهارين. وفي طريق عودته بينما كان يصطاد في المستنقعات غربي هذا النهر صادف قطيعاً من الفيلة وكان احدها على وشك قتله بضربة من نابه لولا بقطة امنحوب الذي اسرع لقطع خرطوميه بضربة من سيفه^١.

تشبه مغامرات امنحوب عدداً من المغامرات الاخرى التي جرت للجنود المصريين في سورية. وقد وصلتنا احداها في قصة استيلاء قائد آخر من قواد تحوتس اسمه جهوتي Djehuti على مدينة يافا^٢ وانتقلت الى القصص الشعبية. فقد دعا هذا القائد امير يافا الى مأدبة وسقاه الخمر حتى سكر ثم قتله. وقيل لاميرة يافا ان زوجها قتل جهوتي وسيعود معه ٥٠٠ كيس من الغنائم. وعلى ذلك فقد فتحت ابواب المدينة وخرج من الاكياس ٥٠٠ جندي مضري كانوا ضمنها فهاجموا الحامية وتغلبوا عليها. واخبر جهوتي الملك عن سقوط يافا بما يلي :

افرح ا ان اباك الصالح آمون قد سلك العدو في يافا وكل شعبة ومدينته. ارسل من يأخذهم كأسرى حتى تملأ بيت ابيك آمون راع ملك الآلهة بالعبيد الذكور والاناث الذين سيركون تحت قدميك الى ابد الابد (٣).

سجل تحوتس انتصاراته على جدران معبدته في طيبة وذكر اسماء المدن التي فتحتها. وتشهد لائحة الغنائم التي حملها معه من عاج وابنوس وحلي وفضة وحجارة كريمة وخشب الحرنوب المطلي بالذهب بغنى البلاد وحضارة سكانها الرفيعة. ولا بد

(١) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 588.

(٢) بالمرية iapu, yapu ، من اللينقية يافي yāfi بمعنى جيبيل ، ومنها أتت اللفظة العبرية yāfo و Joppa وهي يافا الحديثة.

(٣) راجع : C. W. Goodwin in *Transactions of the Society of Biblical Literature*, vol. iii (1874), pp. 340-48; G. Maspero, *Etudes égyptiennes* (Paris, 1879), vol. i, pp. 53-72; Steindorff and Seele, p. 58.

ان المنطقة الساحلية كانت كثيفة السكان . وقد وضع الكهان هذه الكلمات التالية على لسان الاله آمون حامي تحوتس بشكل اغنية للنصر :

لقد عبرت مياه النبق العظيم لنهارين
في النصر والقوة الذين منعتهما لك
انهم يسمعون صرختك للحرب ويرحفون الى اوكارم
اني اترع من منخرم نسمة الحيلة واجعل
رهبة جلالتك تخرق قلوبهم
لقد اتيت لاجلك تدوس زعماء جاهلي [زاهي]
اني اطرحهم تحت قدميك في البلاد كلها (١) .

وقد بدأ تحوتس في علاقاته مع سورية المقهورة سياسة أخذ أبناء الاسراء المحليين لينشأوا على روح الصداقة مع مصر واعادتهم بالتدريج ليحلوا محل الجيل القديم المعادي لمصر^٢. غير ان ذلك لم يبدل الامور كثيراً . وبما ان السوريين لم يكونوا قادرين على مقاومة الجيوش المصرية مقاومة متواصلة فانهم لجأوا الى عملية الاسراع في تأدية الجزية والخضوع عند اقتراب العدو والتوقف عن ارسال هداياهم حالما يدير العدو ظهره . ولمدة حوالي نصف قرن بعد معركة مجدو اتت القوي المصرية المسلحة الى سورية وعادت منها عدة مرات . والمحملات المتكررة كانت ضرورية ليس لاختضاع الجماعات المتمردة فحسب بل ايضاً لاجل استمرار وصول الضرائب لحزينة مصر . وكان ارتقاء فرعون جديد الى العرش وخاصة اذا اعتبر اضعف من سلفه مناسبة للقيام بثورة جديدة . وهكذا فان البلاد اصبحت فقيرة من الوجهة الاقتصادية وعاجزة عن الدفاع عن نفسها عسكرياً ضد الدول الجديدة الناشئة في شمالها .

المخططات للسيادة المصرية

كان الوضع كذلك عندما وصل امنحوتب الرابع (اخناتون ١٣٧١ - ١٣٥٨)

(١) Steindorff and Seele, p. 62.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. ii, § 467.

الى العرش وكان من اكثر شخصيات التاريخ القديم جاذبية . ولم يكن اهتمام
امنحوتب موجهاً نحو قضايا الدولة وانما نحو القضايا اللاهوتية . وكان في ذلك متأثراً
على ما يظن بزواجه الجميلة والموهوبة نفرتيتي التي يعتقد البعض انها كانت من
اصل سوري^١ . وتشير مراسلات تل العمارنة الى انه قبل موته كانت فلسطين قد
خرجت عن طاعة مصر بصورة تامة . وظلت حرة حتى السنة الاولى من حكم ستي
الاول (١٣١٧ - ١٣٠١) من السلالة التاسعة عشرة . وظهر رمسيس الثاني
(١٣٠١ - ١٢٣٤) من السلالة نفسها جانباً من الروح الحربية التي انتصفت بها
السلالة السابقة . ووصلت حملاته الاولى حتى بيروت . وعلى بعد بضعة اميال الى
شمالى هذه المدينة عند مصب نهر الكلب^٢ حيث تصل الجبال الى البحر خلد
رمسيس ذكرى حملته بنقش ثلاث كتابات في الصخر الكلسي وقد زالت معالمها
الآن حتى ان الكتابة اصبحت غير مقروءة . وكأنما دشن بذلك بدء سلسلة من
الكتابات في ذلك الموقع استمرت حتى عصرنا هذا منها كتابة تركها الحلفاء في عام
١٩٤٢ وكتابة لبنانية في ١٩٤٦^٣ مما جعل من هذه الواجة الصخرية متحفاً في الهواء
الطلق . وبين الكتابات الاشورية الست فان كتابة اسرحدون (٦٧١ ق . م .)
وحدها هي المقروءة . ثم تأتي بعدها كتابة بابلية حديثة من عهد نبوخذنصر وكتابة
يونانية انمحت وكتابات لاتينية متعددة تركها كركلا (وليس الفيلسوف ماركوس
اوريليوس) وكتابة عربية . وقد ازال الفرنسيون احدى اللوحات المصرية المكتوبة
ونقشوا عليها ذكرى احتلالهم لبنان في ١٨٦٠ - ١٩٦١ . وهنالك كتابة افرنسية
اخرى تركها الجنرال غورو الى جانب كتابة في الانكليزية من عهد الجنرال اللنبي .

(١) ويأملها النسخي الذي كان في متحف برلين حتى عصر حديث يحتفظ في الوانه الطليقة بصورة
جيدة للملكة . وقد وجدته الجيوش الاميركية في غنبا في ١٩٤٥ .

(٢) سمي كذلك بسبب كلب عفور في الصخر ظل قائماً لمدة عدة قرون كحارس المضيق . وتقول
الاسطورة ان صراخه حين اقتراب العدو كان مرتلماً حتى انه كان يسمع في كل المنطقة . وقد قذف
السلحون الذين يكرهون التماثيل هذه الصورة المنحوتة في النهر . وقد اخرج الاوستراليون في ١٩٤٢
ما يمكن ان يكون الكلب الاصلي وهو ذئب موجود الآن في المتحف الوطني في بيروت .

(٣) غنك ذكرى جلاء الجيوش الاجنبية واكثرها افرنسية عن لبنان .

(٤) Franz H. Weissbach, *Die Denkmäler und Inschriften an der Mündung des Nahr-el-Kelb* (Berlin, 1922).

واستمر انحطاط السيطرة المصرية خلال السلالة العشرين . ولدينا من نهاية هذه الفترة قصة حية تتخذ شكل تقرير سلمه الى فرعون حوالي ١١٠٠ ق. م. موفده ون آمون Wenamon الذي ارسل الى سورية ليأتي بالاخشاب لاجل زورق آمون المقدس . وتبرهن المعاملة المزرية التي نالها على يد امير جيبيل ، اذا كانت تاريخية صحيحة ، ان يمثل مصر لم يعد بإمكانه فرض احترامه على حاكم سوري . ويقول ون آمون في معرض روايته ما حصل : « لقد صرفت تسعة عشر يوماً في مرقاء وكلف يرسل الي كل يوم وبدون انقطاع من يقول : اذهب من مرقاء^١ ، . واصبح ون آمون عاجزاً امام ذكر بلع الحاكم الوطني بعد ان ينس من بعثته وخاف على حياته . وكان يجلس هناك على الساحل ويتحسر بسبب مصابه . وكان معه ذهب وفضة ولكن اوراق الاعتماد اللازمة لم تكن معه . وفي وقت ما ارسل له الامير مغنية مصرية لتروح عنه . واخيراً يرق قلب ذكر بلع وعند عودته من الطقوس الصباحية في الهيكل يمنح المندوب التعب القلق مقابلة وهو « جالس في غرفته العليا مسنداً ظهره الى نافذة بينما امواج البحر السوري العظيم تتلاطم على الصخور تحته » . ويعلم الحاكم اثناء المقابلة : « اما انا فاني لست بجادمك ولا بجادم الذي ارسلك . واذا ناديت جبال لبنان فان السماوات تنفتح وتأتي الاخشاب هنا على ساحل البحر^٢ . ويعترف ذكر بلع بتفوق مصر الحضاري ولكنه يكره فكرة السيادة على منطقته . واخيراً يسمح ذكر بلع بالتخلي عن الاخشاب بعد تسلم مبلغ اكبر من المال .

وعلى ذلك فان سورية السني كانت تخضع كقطاع مصرية على الحدود منذ نهاية عصر الهكسوس في اوائل القرن السادس عشر قد اصبحت خارجة عن الامبراطورية في خلال القرن الثاني عشر . وفي هذه المدة كان الحيثيون قد وطدوا اقدمهم في القسم الشمالي للبلاد بينما الآراميون اصبحو في سورية الداخلية والعبانيون في سورية الجنوبية والفلسطينيون على الساحل الجنوبي .

(١) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 569.

(٢) Breasted, *Ancient Records*, vol. iv, § 577.

وحتى عندما كانت سورية ضمن الامبراطورية المصرية فان الادارة الامبراطورية كانت تهدف بوجه الاجمال الى المحافظة على النظام والسيطرة على الطرق الرئيسية وطلب الجزية . وكانت تبلغ المدين الاولين بواسطة الحاميات بينما المهدف الثالث كانت تحققة على يد عدد من الموظفين المقيمين . وكان المقيسون المصريون في المدن الهامة يعينون مفتشين متجولين ليقوموا بمجولات التفتيش . وكان الممثل الرئيسي لفرعون في جنوبي سورية يقيم في غزة . وكان يتبعه المفتشون المختصون بجمع الضرائب والحكام المحليون المكلفون بشؤون الحاميات في بعض المدن . واما تفاصيل الادارة الداخلية فانها كانت بيد زعماء وطنيين يسيطرون على قواتهم المسلحة .

التأثير السوري في مصر

وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائل تستلقت النظر بصورة اوسع عن التأثير السوري في مصر . ويتضح التأثير السوري في اقدس قصة مصرية وهي قصة آلام اوزيريس الذي قطع جسده ارباً ووضع تحت شجرة الأثل في جيبيل^١ . ويظن البعض ان الجنة المشوهة وضعت في مصر . وقد تكون عبادة اوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً^٢ . وقد ادخل الاله حورون Hawron وهو الاله الرئيسي في بينة^٣ الى معابد مصر في ايام امنحوتب الثاني (حوالي ١٤٥٠ - ١٤٢٠) ويظهر في اسم حورحجب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق.م) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم احد ابناء رعمسيس الثاني كان ميروي استروت (Meri-Astrot) اي محبوب عشتاروت . وكان يوجد في نوكراتس التي وبما كانت مستعمرة فينيقية معبد لافروديت - عشتاروت في عام ٦٨٨ ق.م .

(١) انظر : Plutarch, *De Iside et Osiride*, § 15. ونبات التاماريك tamariak هو بالعربية اشل وبالعربية اثل وفي المصرية أسر asr وكانت هذه الشجرة تتصل باله الاموات . وكانت الشجرة التي دفن تحتها شاول وابناؤه (صموئيل الاول ٢١ : ٣٣) هي شجرة الأثل .

(٢) Garstang, *Heritage*, p. 61.

(٣) سفر اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٦ وتقع بينة على بعد تسعة اميال شمالي اسدود . وكان حورون يعتبر مساوياً للاله ايل على ما يظن .

وهيراكلس الذي كرس له هيكل في كانوبس^١ Kanopus - وهي أيضاً مستعمرة فينيقية على ما يعتقد - كان بدون شك الاله الفينيقي لمقارت .

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر اكبر من الاقبال على الفتيات المصريات في سورية . وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن واماء او زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى ان تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة افراد الطبقة العليا . وكان بين حريم الملوك والارستقراطيين اميرات ميثانيات وحشيات وفينيقيات في كثير من الاحيان . وهناك تبان واضح بين ملامح نخوتس الرابع الدقيقة وانه الاقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة نخوتس الاول بفكه الكثيف وانه القصير . وانت مع الزوجات الاجنبيات افكار اجنبية بين دينية وغير دينية . وقطع اخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الاولى تدل على الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد . وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها . وكان الصناع السوريون ينتجون اسلحة ثينة مزخرفة وثياباً مزركشة واواني انيقة واثاثاً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة . واستعار المزيّنون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرائس النيل) والبابيروس (البردي) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنيم) والسومن والختمي نباتات زخرفية . وهم الذين كانوا أيضاً اول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في اوان معدنية^٢ . ولأجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في اسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل . ووجدت اوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب اسلوب سورية الشمالية كمستوردات في قبور الفراعنة الاولين في ابيدوس . ووصل فن الدهان ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية^٣ . وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي اتت بها حوادث الحرب او عمليات التجارة والسياحة واخذوا يقلدونها . وفي

(١) راجع : Herodotus Bk. II, ch. 113.

(٢) Pierre Montet ; *Les reliques de l'art syrien dans l'Egypte du nouvel empire* (٢ (Paris, 1937) p. 179.

(٣) Childe, *New Light*. pp. 258-9.

حركة البعث في فترة سايي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد اصله في القرن التالي وكشفه الفن اليوناني.

ظهر العمود لأول مرة في مصر بعد فتوحات نخوتمس الثالث . والاهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها . وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة . وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي اصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة .

ولم تكن القرون الاربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما ان اربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية توكية . ولم يتأثر السكان الوطنيون الا قليلاً بالفكر واللغة المصريين . وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية او القبطية^١ . وفي العصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية . وكان معظم العلاقات التجارية بيد الفينيقين . ويبدو ان اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد اخرى خاصة حيث الامطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة . وقد قال المثل الشائع ان من اعتاد على شرب ماء النيل يجب ان يشرب منه دائماً .

العلاقات مع بلاد الرافدين : سومر

دامت فترة السيطرة المصرية السياسية على سورية مدة اطول من فترة سيطرة بلاد الرافدين^٢ غير ان تأثير بلاد الرافدين الحضاري كان اعظم بكثير من تأثير

(١) منها كلمة « ابنوس » اتت بطريق اليونانية ومنها كلمة ebony الانكليزية . وكلمة « واحة » بطريق القبطية ، وكلمة « نخس » بطريق القبطية واصلاً كلمة تعني نوي او اسود ومنها أتت الكلمة العبرية فنمس ؛ وكلمة « طوب » بطريق القبطية وهذه الكلمة تشكلت منها كلمة adobe الانكليزية بطريق الاسبانية . وقد اخترع المصريون اسلوبهم الخاص في صنع الآجر ولم يختلف هذا الاسلوب منذ ذلك الحين .

(٢) ان تعبير ميزوبوتاميا او ما بين النهرين يجب ان يطلق على المنطقة الشالية بين الفرات والنجف ويقابل الولاية الرومانية المعروفة بهذا الاسم والمعروف في العربية باسم الجزيرة . وقد سمي العرب القسم الجنوبي او بلاد بابل « العراق » . غير ان تعبير ميزوبوتاميا يطلق بصورة عامة على البلاد كلها .

مصر . وكان السوربون اقرب الى الاشوريين البابليين منهم الى المصريين من وجهة عرقية ولغوية وجغرافية .

كان السومريون وهم الشعب غير السامي الذي ابدع حضارة وادي الفرات يمثلون طيلة الالف الثالث ق. م. ام جماعة حضارية في غربي آسيا كلها . واصبحت الكتابة المسمارية التي اخترعوها والافكار الدينية والروحية التي طوروها والآداب التي انشأوها جزءاً من تراث سورية بما فيها اسرائيل وذلك بواسطة خلفائهم البابليين والاشوريين . وصارت اللغة البابلية برموزها المسمارية الوسيلة الدولية للمراسلات الدبلوماسية والتجارية في كل غربي آسيا ودخلت قصص بلاد الرافدين المتعلقة بأنفسهم ومنها قصة الخليفة والطوفان في الادب اليهودي المسيحي في سورية . وتحولت هذه القصص على يد كتّاب العهد القديم الى قطع ادبية تعتبر من اجل الروائع الادبية التي عرفها الانسان . واستعارت سورية عدداً كبيراً من الكلمات الاكادية بالاضافة الى الكلمات السومرية اثناء هذه الفترة^٢.

كانت بلاد الرافدين تشكل الاراضي الداخلية التي تقع فيما وراء سورية. ومنطقة حلب خاصة كانت تستعمل كطريق تجاري تمر فيه معادن كيليكية الخام الى امبراطورية بلاد النهرين. وكانت كميات الفضة والذهب التي وجدت في قبور اور الملكية (حوالي ٢٧٠٠ ق. م.) تمر غالباً بهذه الطريق. وكان غوديا Gudea (حوالي ٢٣٥٠) امير لاغاش Lagash السومري يحصل على الارز من الامانوس بالاضافة الى الذهب من كيليكية . وتجار بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يبحثون عن هذا

(١) وهي لغة بابل واشور السامية الشرقية وسميت كذلك باسم اكد Agade شمالي مدينة بابل ووردت في سفر التكوين ١٠ : ١٠ .

(٢) ومن هذه الكلمات hēkalu (هيكل) التي اتت مباشرة من السومرية (e-gal بمعنى البيت الكبير) الى الكتمانية ؛ و kissa'u اي كرسي اتت من السومرية بطريق الاكادية . وتوجد اسماء متعددة لنباتات والمعادن من اصل اشوري بابلي ادخلت بطريق الفينيقية واليونانية الى اللغات الاجنبية مثل carob (الخروب) cassia (القضاء الهندي) ، chicory (الهندباء) ، crocus (الكرم) ، gypsum (الجص) ، hyssop (حشيشة الزوفا) ، jasper (الشب) ، mandrake (تفاح الجن) ، naphtha (النفط) ، nard (التاردين) ، saffron (الزعفران) ، sesame (السمسم) . وكلمة «تجار» المبرية اتت من naggāru السومرية الاكادية ، وكلمة «لوح» اتت من Ir'u الاكادية .

الحشب المرغوب قد اكتشفوا المرتفعات المكسوة بالغابات في جبال سورية الشمالية حتى قبل ذلك العهد.

بابل

ويشك علماء كثيرون اليوم في ان تكون سورية الشمالية قد خضعت للحكم البابلي في اية فترة من النصف الثاني للالف الثالث. وسرجون الاول (حوالي ٢٢٥٠ ق. م.) وهو اول شخصية عظيمة في التاريخ السامي قد «غسل اسلحته في البحر» كما جاء في احد النصوص وادعى السيطرة على جبال الارز ولكن تلك الجبال في هذه الحالة كانت الامانوس وليس جبال لبنان. واصلته غزوته الى شمالي سورية. وربما كان خلفه الرابع نارام سين (حوالي ٢١٧٠) يعني جبال الامانوس او الجبال الواقعة شرقي بلاد اشور^٢ عندما ادعى الحكم على البلاد «حتى غابة الارز». ولم يسفر الضغط السياسي والعسكري الآتي من المناطق الشرقية عن نتيجة حاسمة الا عندما انهارت الدولة الحثية وظهرت قوة الدولة الاشورية. حينئذ اصبح من مبادئ سياسة حكام بلاد الرافدين ان يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية.

اشور

قامت اشور بمحاولتها الاولى السابقة لوانها لاجل الظهور كدولة عظمى في عهد تغلات فلاسر الاول الذي غزا سورية في ١٠٩٤ واعلن نفسه فاتح آمورو بكاملها. وبعد ان اجتاز جبال طورس الى بلاد الحثيين ادعى الحصول على ولا. جيبيل وارواد وصيدا وغيرها من المدن الفينيقية كورث الحثيين في سيطرتهم على سورية. وربما كانت جيبيل لا تزال تحت حكم زكر بل. وقطع الفاتح اخشاب الارز وارسلها الى بلاده لاجل هيككل آلمته. وفي سميرا ركب «مجر آمورو العظيم» الى البر وقتل بطريقه «حصان البحر» او درفيلاً^٣. وقد اصطاد عدد من حكام بلاد الرافدين الثور البري في جبال لبنان.

(١) Poebel, *Historical Texts*, pp. 175, 181.

(٢) Gelb, *Hurrians and Subarians*, pp. 35-37.

(٣) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 302.

واستولى الغزاة الآراميون على ممتلكات تغلات فلاسر عبر الفرات بعد مدة وجيزة وكان على احد خلفائه اشور ناصر بال (٨٨٤ - ٨٥٩) ان يسترجعها. واتبع اشور ناصر بال الطريق نفسه التي اتبعها اسلافه وزحف نحو سورية الشمالية ولكنه اتجه بعد ذلك الى الجنوب وعبر العاصي ودخل لبنان ونزل الى البحر بدون مقاومة. وهنا تلقى خضوع المدن الفينيقية وتبين فيما بعد ان ذلك الخضوع كان مؤقتاً. وكان ذلك اول غزو كامل لسورية من جهة بلاد الرافدين. ويقابل هذا الغزو ما تم على يد تحوتس الثالث المصري قبل ستة قرون. ويعود الى اشور ناصر بال وابنه ووريثه شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤) ذلك التنظيم العسكري الذي جعل من بلاد اشور سيدة آسيا الغربية.

اصطدم شلمنصر في معركة قرقر في وادي العاصي عام ٨٥٣ بتحالف دول سورية وعلى رأسها ملك دمشق الآرامي ومن افرادها آخاب ملك اسرائيل ويمثلون عن صور وسائر دول المدن الفينيقية. وقد تم له تحطيم قواتها. ولكن يستدل على ان النصر لم يكن حاسماً كما ادعى في كتاباته الاثرية من انه اعاد الكرة عدة مرات بقصد اخضاع سورية وفلسطين. ولم يحصل على خضوع المدن الفينيقية الا في عام ٨٤٢. ويذكر في حولياته انباء انتصاره في هذه الكلمات :

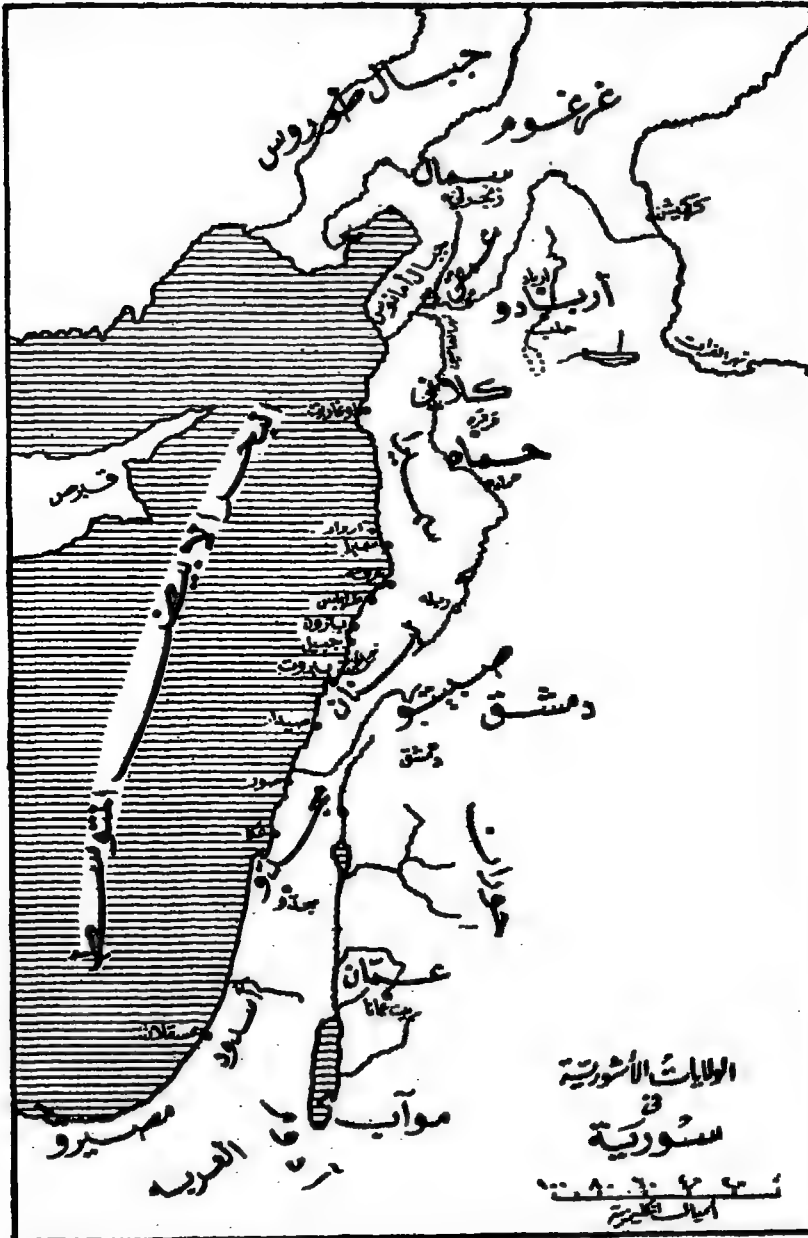
في السنة الثامنة عشرة للملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة. وكان حزائيل ملك آرام يثق بجيوشه... ولكنني حققت سقوطه... وزحفت الى بعلي رأسي وهو رأس في البحر واقتت صورتي هناك. وفي ذلك الحين تلتقت الجزية من رجال صور وصيدا ومن ياهو ابن عمري (١).

تلاشت الامبراطورية التي اقامها شلمنصر وابوه على حساب الدول السورية وغيرها ثم اعاد تأسيسها بعد قرن تغلات فلاسر الثالث^٢ ووريثه. وقد اقام تغلات فلاسر معسكره الرئيسي بين ٧٤٣ و ٧٤١ في أرباد^٣ Arpad ومن هناك ارسل حملات لاعادة فتح سورية او قام بقيادتها بنفسه. واجتاح ابنه شلمنصر الخامس

(١) Luckenbill, *Ancient Records*, vol. i, § 672. ويرجح ان يكون الرأس المشار اليه رأس الكرمل ولكن هذا الملك ترك دليلاً عن زيارته ايضاً عند نهر الكلب.

(٢) وهو المذكور باسم Pul في سفر الملوك الثاني ١٥ : ١٩ ؛ قارن ذلك مع ١٦ : ٧.

(٣) وقد ذكرت في النقوش الاشورية باسم Arpaddu. وورد ذكرها في اشعيا ١٠ : ٩ ؛ ٣٦ : ١٩ ؛ ارميا ٤٩ : ٢٣. وهي تل ارفاد الحديثة على بعد ١٣ ميلاً شمالي حلب.



فينيقية ومنها حسب الحوليات السورية التي ذكرها يوسفوس^١. وكانت صيدا وعكا وصور التي في البر ترغب في تحرير نفسها من السيطرة المألمة لصور التي في الجزيرة وزعامتها فاعترفت بالفاتح وسيادته واعطته اسطولا مؤلفاً من ستين سفينة يعمل فيها نحو ثمانمائة مجذف فينيقي. وقد تفرق اسطول شلمنصر في معركة مع سكان الجزيرة ولكن عدداً كافياً من جنوده بقي ليقوم بمحاصرة الجزيرة من الساحل. وكانت الآبار الموجودة داخل المدينة القائمة في الجزيرة كافية لحاجات السكان واخيراً انتهى الحصار الذي دام خمس سنوات في ٧٢٢ بمعاودة تحفظ لصور كرامتها. وسنروي قصة حصار السامرة الذي بدأ في ٧٢٤ وتسليمها لحلفه سرجون الثاني في ٧٢٢ عند الكلام عن مملكة اسرائيل^٢.

جاء الملك ايلو ايلي (لولي Luli بمعنى «الهي هو الاله») وهو ملك صور الميال الى مصر الذي دافع عن مدينته ضد الاشوريين وظهر كأهم شخصية في منطقة الساحل في عهد سرجون الثاني. ويبدو انه فرض سلطته على قسم كبير من فينيقية حتى انه حاول اخضاع قبرص. ولكن سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) ابن سرجون ووريثه طرد ايلو ايلي اخيراً عبر البحر الى قبرص ووضع مكانه الملك ايتبعل^٣ ملك صيدا الميال لآشور. واحرق الفاتح الاشوري في اول الامر بيت ايلو ايلي الصيفي في لبنان وداس كرمه. وتسلفت جيوشه المنحدرة المرتفعة واستعانوا بالرماح والنبابت وبالاستراحة تحت الارض حتى وصلوا الى قلعة على القمة المكلفة بالثلج واقتيد حراسها مكبلين الى سنحاريب. ولا تزال ذكريات سنحاريب الذي «نزل كما ينزل الذئب الى الحظيرة» ماثلة حتى اليوم عند نهر الكلب حيث نقش على الصخور نقشاً يمكن مشاهدته. وتمكن سنحاريب من القيام بمغامراته في الخليج الفارسي بفضل بنائي السفن والملاحين الذين اخذهم من فينيقية.

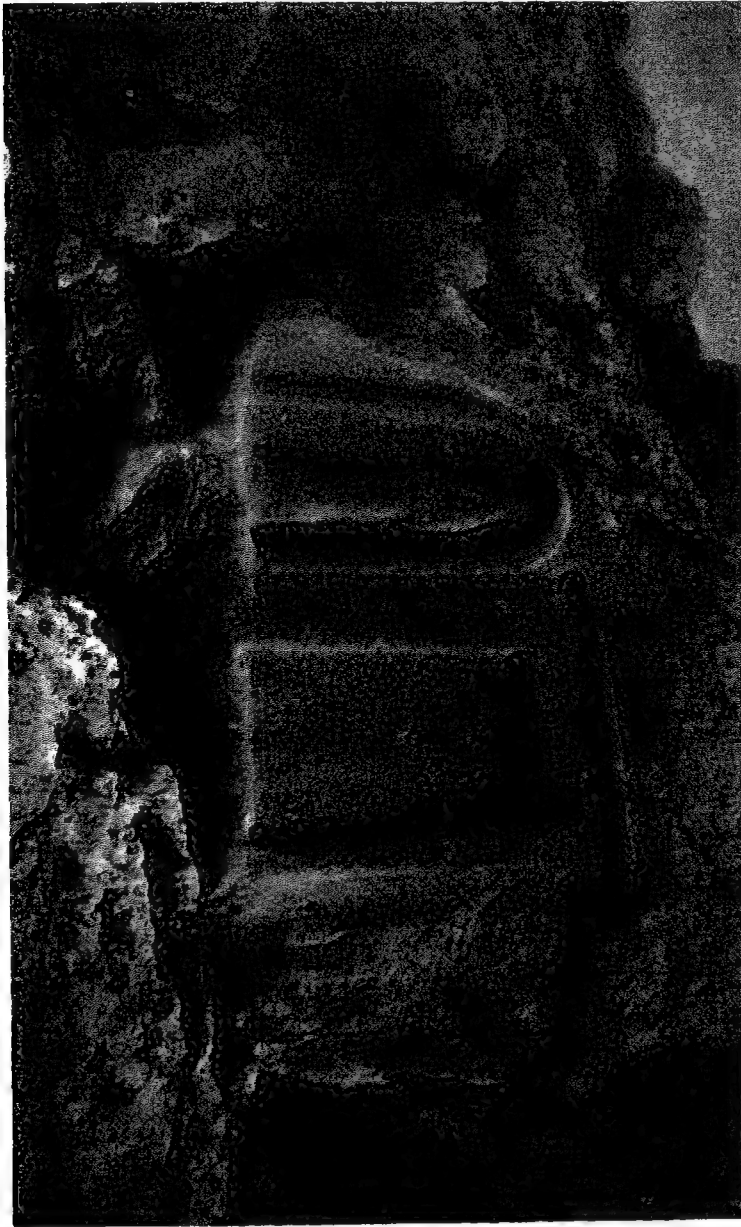
وقامت صيدا التي خضعت لسنحاريب في ٧٠١ ضد ابنه اسرجدون في ٦٧٧ ولكنه هدمها وطرح سورها في الماء. وهرب ملكها عبد ملقارت الى عرض البحر

(١) Antiquities Bk ix. ch. 14, § 2.

(٢) انظر ما سيرد في الفصل الرابع عشر.

(٣) ايتبعل بالفينيقية ايتوبيل itto-ba'al بمعنى «بعل مه». انظر Luckenbill, vol. ii § 309.

نحت بارز لاسرحدون (الى اليسار) بجانب نحت بطل ومسيس الثاني عند نهر الكلب



ولكنهم اصطادوه وقطعوا رأسه. وبني حصن اشوري يسمى كار اسرحدون بجانب موقع صيدا بقصد القاء الرعب فيها. وسلم ياكين ايل ملك ارواد مدينته ومعها ابنته. وخضعت مدن فينيقية اخرى تحت زعامة بعل ملك صور لاسرحدون. ووقعت معاهدة بين بعل واسرحدون ولكن ملك صور مزقها حالما شعر بان الوقت اصبح مناسباً لنزع الثير الاجنبي. وهناك نصب يقوم قرب نصب رعمسيس عند نهر الكلب يمثل اسرحدون واقفاً بجبال قرب كتابة اثرية تروي خبر الاستيلاء على ممفيس (في مصر) وعسقلان وصور^١. وفي نصب آخر في زنجولي (شمال القديمة) غربي عينتاب في شمالي سورية يقف اسرحدون ممسكاً بجبل ربط به بعل ملك صور وترحاقا ملك مصر من الانف^٢. والواقع هو ان ترحاقا لم يقع قط في الاسر وهذا النصب كان يقصد منه الدعاية على الاغلب. وفي عهد اسرحدون وخلفه اشوربنيبال (٦٦٨ - ٦٢٦) فتحت مصر ووصلت الامبراطورية الاشورية وعاصمتها نينوى الى اقصى حدودها.

السيادة الكلدانية

ادعى الكلدانيون اصحاب دولة بابل الجديدة السيطرة على سورية كورثة الامبراطورية الاشورية. غير ان المدن الفينيقية لم تكن اقل تمرداً في عهد اسيادها الجدد منها في عهد الاسياد القدماء. وكانت مصر في هذه الاثناء قد تخلصت من الحكم الاشوري وبدأت تتنازع من جديد مع بلاد الرافدين على السيادة على سورية. وكانت المدن الفينيقية بوجه الاجمال اكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية.

في عام ٥٨٧ ظهر نبوخذنصر بنفسه في شمالي سورية واقام معسكره في ربة^٣ في وادي العاصي ومن هناك ارسل قسماً من جيشه الى الجنوب للتغلب على المدن

(١) ان هذا النصب هو الوحيد بين النصب الستة الاشورية عند نهر الكلب الذي يمكن قراءة كتابته. انظر: Luckenbill, vol. ii, § 582-585; Weissbach, pp. 27-30, pls. xi, xii; René Mouterde, *Le Nahr el-Kelb* (Beirut. 1932), p. 18, pl. vi.

(٢) A. T. Olmstead, *History of Assyria* (New York), 1923, p. 384; cf. Hall, *Ancient History*, p. 499.

(٣) وتتلها قرية بنفس الاسم تقع على ٢١ ميلاً جنوبي حمص.

الفينيقية وفتح بلاد اليهودية نهائياً. وبعد حصار دام ثلاث عشرة سنة انتهى في ٥٧٢ خضعت صور^١. وحارب أثناء ذلك ضد سورية المجوفة ومواب وعمون وسائر مناطق البلاد^٢. وانتهت بالاستيلاء على صور آخر محاولات الحياة القومية في فينيقية. وكانت المستعمرات اليونانية في هذه الفترة قد حلت محل المستعمرات الفينيقية وورثت نشاطها البحري ونشاط المدن الفينيقية الأصلية. وبذلك انتهى العالم الفينيقي الذي اشتهر بنشاطه وعلمه وحيويته، ولكن الشعب الفينيقي حافظ على شخصيته حتى فتوحات الاسكندر ولم يكن الآراميون الذين اتوا حديثاً ولا الاسرائيليون والفلسطينيون ليحدثوا تأثيراً كبيراً على هذه الشخصية.

التأثير الحضاري

اكتسب السوربون من الحضارة الاشورية البابلية عناصر كثيرة جداً من مادية ودينية ولغوية ونقلوها أخيراً بطريق اليونان الى سكان غربي أوروبا. وقد اشرنا سابقاً الى المحراث الذي اخترعه سكان بلاد الرافدين وانتشر في بلاد الشرق الأدنى^٣. وادى استخدام المحراث الى انتاج نسي اكبر في قطع الاراضي المزروعة وذلك يجعل استعمال القوة الحيوانية في الزراعة ممكناً. وكان الدولاب من الحسنات الاخرى التي منحها سكان بلاد الرافدين للشرق الأدنى. وكانت ظهور الدولاب مساعداً على انشاء نظام متقن للسفر والنقل. ولا يزال تقسيم اولئك السكان للزمن الى سنة مؤلفة من اثني عشر شهراً والى اسبوع مؤلف من سبعة ايام باقياً حتى اليوم. واول يوم في الاسبوع يسمى Sunday بالانكليزية لانهم كانوا يكرسونه لعبادة اله الشمس. واليوم الثاني (Monday) سمي كذلك بسبب تكريسه للاله القمر. ويوم السبت (Saturday) اكتسب اسمه من Saturn (زحل). وتاريخ الاحتفال بعيد الفصح لا يزال متصلاً بالتقويم القمري لهؤلاء الاقدمين. ونقل السوربون الى اليونان مع تقسيم الزمن قضبان الظل والساعات الشمسية لقياس مرور

(١) انظر: سفر حزقيال ٢٩ : ١٨ ؛ 1 § 11, ch. x, *Antiquities* Josephus, do., *Apion* Bk. I, ch. 19.

(٢) راجع: 7 § 9, ch. x, *Antiquities* Josephus, وهناك نصبان عند نهر الكلب يصمان نشاطه الحربي والعمراني. انظر: 33 p. Weissbach.

(٣) ان الكلمة المصرية التي تقابل «محراث» هي *epi* وهي الكلمة السومرية - الاكادية *hebi*.

الساعات ، ونظاماً للتنبؤ عن الخسوف والكسوف . وعلامات الابراج الاثني عشر الموجودة لدينا الآن هي تقريباً نفس العلامات الاشورية . وكثير من انظمة الموازين والمقاييس قد اتى من البابليين بواسطة السوريين ، وهناك شاهد لغوي لا يزال باقياً في كلمة « mina » .

المكسوس

كان التغفل المصري القديم في سورية قد توقف في مطلع القرن الثامن عشر بظهور مجموعة من الشعوب الغامضة الميالة الى الحرب والمعروفة باسم المكسوس الذين سيطروا على سورية اولاً ثم على مصر نفسها . ويرجع هذا الاسم الى المصرية heku shoswet^١ ومعناها «حكام البلاد الاجنبية» ولكن المؤرخ المصري في العصر المتأخر مانيثو Manetho وهو اول من استعمل هذا الاسم اعتبر ان معناه «الملوك الرعاة»^٢ . وبعد ان كان هذا اللقب يطلق على الملوك المكسوس انتقل فيما بعد الى الشعب بأكمله . كان المكسوس بالاصل حشداً او مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفها منطقة شرقي البحر المتوسط الى مصر ثم اصبحوا يمثلون حركة تضم عدا عن الساميين ، الحوريين والحثيين والميتانيين وهم من غير الساميين . كذلك كان جماعة الحاييرو بينهم . وربما كان لهذه الحركة صلات بحركة المنود - الايرانيين او المنود الاوربيين في الشمال ومن ضمنهم الكاشيون في بلاد الرافدين . ويمكن الاستدلال على ان العنصر الرئيسي كان كنعانياً او امورياً من اسماء حكامهم الاولين كما تظهر على الابنية او تماثيل الجلعان . هذه الحركة هي التي كانت سبباً في قدوم عدد كبير من الحثيين والحوريين وربما من اليبوسيين Jebusites والفرزيين Perizzites وغيرهم من غير الساميين جنوباً حتى فلسطين . والادلة القليلة المتعلقة بهياكلهم العظمية تشير الى ان نموذج البحر المتوسط القديم قد حل محله جزئياً في هذه الفترة نموذج شبيه بالالبي^٣ .

ويشهد على اتصال المكسوس بالحضارة الهندية الاوربية في الشمال استخدامهم

(١) Steindorff and Seele, p. 24; cf. Robert M. Engberg, *The Hyksos Reconsidered* (Chicago, 1939) pp. 6-7.

(٢) Josephus, *Apion*, Bk. I, ch. 14.

(٣) Engberg, p. 41.

للحصان وهو شيء ربما شارك فيه الكاشيون . والى جانب الحصان الذي ادخلوه الى سورية ومنها الى مصر فقد اتى المكسوس بالركبة الى كلا البلدين^١ ولم يستختم الحصان للركوب . وكانت المركبة التي تجرها الخيل من ادوات الحرب ، ولا بد ان ظهورها ترك نفس التأثير الذي تركته الدبابة او الغازات السامة او اي « سلاح سري » آخر في الحرب العالمية الاولى . والحصان نفسه القى الرعب في قلوب السكان لانهم لم يشاهدوه من قبل . فلا عجب اذا اهتم المكسوس بدفنه في قبر خاص او مع صاحبه كما تدل البقايا في تل العجول او غزة القديمة . وفي بعض الحالات كان يقدم الحصان كذبحة ويؤكل لحمه^٢.

وبين الاسلحة الجديدة الاخرى التي ظهرت اتى المكسوس بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب الذي كان قد ظهر لأول مرة في بلاد الرافدين في عهد سلالة اكادية في القرن الثاني والعشرين . وكان تفوق المكسوس في السلاح يرتكز فوق ذلك على استعمالهم البرونز الذي كانت تمر تجارته في شمالي سورية . وبلغت صناعة المعادن في عهدهم ذرى جديدة في سورية ومصر . وتقدمت صناعة الحلي والحزف والعاج والنقش تقدماً بارزاً . وكان الحفر في العظم معروفاً في سورية منذ العصر الحجري ولكن صناعة التنزيل ادخلت غالباً في هذا العصر^٣ وكانت الاشياء المنزلة في اول الامر ذات رسوم بسيطة من خطوط ودوائر . ولا تزال صناعة التنزيل التي تقوم على ادخال قطع من العظم او العاج بقصد الزخرفة في الصناديق الخشبية او قطع الاثاث صناعة فنية مزدهرة في دمشق . وتظهر افكار جديدة في صنع الحزف في عهد المكسوس . وبلغت صناعة الحزف وهي من اكثر الصناعات نجاحاً في فلسطين ذروتها قبل نهاية هذه الفترة .

وانشأ المكسوس نموذجاً خاصاً من المدينة المحصنة لاجل ايجاد تسهيلات لحماية مركباتهم وايوائها لان الحصن الكنعاني الاعتيادي لم يكن بإمكانه تأمين ذلك . وكان هذا النموذج الجديد عبادة عن سياج مستطيل طوله نحو نصف ميل تحيط به

(١) والكلمة المصرية المستخدمة لاجل مركبة هي كلمة « مركبة » السامية .

(٢) Petrie, *Ancient Gaza*, vol. i, p. 4, pls. viii, ix, lvii; vol. ii, pp. 5, 14; (٣) vol. iv, p. 16.

Burrows, p. 190. (٣)

اسوار مرتفعة وكثيفة ومنحدرة من الطين المرصوص القاسي . ولزيادة الحرص كانوا كثيراً ما يحفرون خندقاً حوله . وفي سورية تمثل قطنة Qatna وهي على الغالب عاصمتهم فن العمارة عند المكسوس . وفي قادش أثر لهذا النوع . وفي كركميش يظهر الموقع اعمال التحصين ولكن المخطط ليس مستطيلاً . وفي فلسطين تظهر مواقع هازورا^١ وحصن شكيم^٢ مخطط المكسوس المستطيل . وكانت لاكيش وشاروحن ايضاً من مدن المكسوس . واريحا كانت من حصون المكسوس من حوالي ١٧٥٠ حتى ١٦٠٠^٣ . وكانت بيت شمس تحت ادارة المكسوس في هذه الفترة^٤ .

وفرض المكسوس في سورية وفلسطين طبقة اقطاعية حاكمة على السكان المحليين . وكان مجتمعهم منظماً تنظيمياً ضعيفاً في دولة اقطاعية نوعاً تتمركز فيها الثروة في ارستوقراطية مؤلفة من محاربي المركبات بصورة خاصة . وكان النظام تسيطر عليه الصفة العسكرية . وحضارتهم في سورية تشمل القرنين الثامن عشر والسابع عشر .

المكسوس في مصر

وتسلل المكسوس بصورة تدريجية الى مصر حيث ظهر اثرهم منذ ١٩٠٠ ق.م . في اواسط السلالة الثانية عشرة ولكنهم لم يستولوا على السلطة الا في ١٧٣٠ . ويقول المؤرخ ماتيتو في روايته لهذا الحادث :

لقد ترك علينا للعبة من غضب الله . فقد تجرأ شعب وضع الاصل من الشرق لم يتبأ احد عن قنومه على غزو بلادنا فسيطروا عليها بالقوة وبدون صعوبة حتى ولا مفركة . وبعد ان تغلبوا على حكامنا فانهم احرقوا المدن بوحشية وخرّبوا هياكل الآلهة وعاملوا السكان كلهم بمنتهى القسوة .

(١) ومعناها « جدار او سياج » وهي اليوم تل القدح شمالي بحيرة طبرية .

(٢) وهي اليوم « البلاطة » خارج نابلس الحديثة .

(٣) Garstang and Garstang, *Story of Jericho*, p. 1.

(٤) Elihu Grant, *Rameileh : Being Ain Shems Excavations*, pt. 3 (Haverford 1934), p. 11. وقيل اسم بيت شمس قرية عين شمس الحربية الكائنة على بعد عشرين ميلاً غربي القدس على طريق يافا - الخليل . وقرب عين شمس يقوم تل الرملة وهو موقع بيت شمس القديمة .

(٥) Josephus, *Apion* Bk. i, ch. 14.

ويتضح ان دخول المكسوس الى مصر لم يكن شراً مطلقاً فقد ادخلوا الحصان واشياء اخرى تظهر لأول مرة على الآثار المصرية. واقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع الى عصر المكسوس في مصر في القرن السابع عشر^١. واعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية وضعت في ١٥٨٠ تحت حكم المكسوس^٢. وجعل المكسوس المهم بل معادلاً للاله المصري سيت ونقلوا عبادته الى فراعنة السلالات التالية وخاصة الرعامسة الذين قد يرجع اصلهم الى المكسوس^٣ كذلك ادخلوا بين سائر الآلهة آخت بل ورفيقتة غنات وجعلوا عشتاروت معادلة لايزيس. ويعتقد ان سكنى اسرائيل في مصر وتدرج يوسف الى السلطة من الحوادث التي تمت في فترة المكسوس.

افاريس

كانت عاصمة المكسوس في مصر مدينة افاريس Avaris^٤ في الدلتا ومنها بسطوا حكمهم في مصر الوسطى. وقد حكمت اول سلسلة من الملوك السوريين هناك قبل السلالة الخامسة عشرة وكانت اسمائهم كنعانية او امورية واضحة مثل غنات هار ويعقوب هار (بمعنى: ليحامي هار اله الجبل). ويعقوب هذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوراة. وكان ملوك السلالة الخامسة عشرة والسادسة عشرة من المكسوس واعظمهم سلطة في السلالة الخامسة عشرة هو خيان الذي نجح كما يبدو في توحيد سورية ومصر في امبراطورية واسعة لمدة قصيرة على الاقل. وآثاره مبعثرة بين بلاد بابل حيث وجد اسد يحمل اسمه وكريت حيث يظهر اسمه على غطاء من الالباستر. وتشبه ذلك في كثرتها آثار ملك آخر من هذه السلالة وهو آبوفيس

(١) James H. Breasted, *The Edwin Smith Surgical Papyrus*, 2 vols. (Chicago, 1930).

(٢) T. Eric Peet, *The Rhind Mathematical Papyrus* (London 1923).

(٣) Albright, *From Stone Age*, p. 169

(٤) ان مدينة افاريس وهي مدينة العنابر التي بناها الامرائيليون لرحميس الثاني وتسمت باسمه (سفر الخروج ١ : ١١) ، وتاليس Tanis في العصر الكلاسيكي ، وتيس التي ذكرها العرب في المصور الوسطى ، وصوعن Zaan المذكورة في التوراة (عدد ١٣ : ٢٢) كلها اشكال مختلفة لنفس المدينة . وموقع المدينة اليوم هو «حان الحجر» الذي يذكرنا باسمها العبري (صومن) .

Apophis الاول . ويبدو ان المكسوس كانوا في هذا العهد قد اقتبسوا اللفظة المصرية واستعملوا معها الاسماء المصرية.

وبعد قرن ونصف من حكم المكسوس البغيض (حوالي ١٧٣٠ - ١٥٨٠) بدأت حرب التحرير بصورة جدية عن يد امير من طيبة اسمه احموس Ahmose الاول مؤسس السلالة الثامنة عشرة الذي بعد مهاجمات متكررة كسب معركة افاريس الحاسمة وطرد الاجانب من البلاد . وانسحبت قواتهم المسلحة الى سورية حيث كانوا على رأس انحسار من الامراء الساميين . ولم يدخر احموس وقتاً في ملاحظتهم . واول مكان وقفوا فيه وقفة صامدة كان في معقلهم الجنوبي في شاروحن Sharuhen^١ . وكانت مقاومتهم عنيدة حتى ان الحصار دام ثلاث سنوات^٢ . وقد بدأ مجملات احموس وخلفائه في سورية اتجاهاً جديداً في سياسة مصر الخارجية استمر في السنين التالية . وكان تحوُّس الثالث (م ١٤٤٧) هو الذي سدد الضربات القاضية لسلطة المكسوس في سورية . وعمل المصريون ما في وسعهم للقضاء على آثار اعدائهم ولهذا السبب بقيت معلوماتنا عن المكسوس ناقصة لهذا الحد .

الحوريون

وكانت من الجماعات التي تألف منها خليط المكسوس جماعة الحوريين وهم شعب لاسامي ولا هندي اوريي ولا يزال اصله مجهولاً . وكانت حضارتهم من اكثر العناصر حيوية في اواخر عصر المكسوس والفترات التالية مباشرة . وقد اتى الحوريون من المرتفعات الواقعة شمال شرقي الهلال الخصيب بين بحيرة اورمية وجبال زاغروس ، وفي اواخر القرن الثامن عشر غزوا شمالي بلاد الرافدين وسكنوها ومنها اتجهوا الى سورية الشمالية حيث اسسوا احدى الممالك القوية في الشرق الادنى . وكان الاموريون قبل ذلك قد سكنوا ذلك القسم من سورية . وقد يكون ظهور الحوريين في بلاد الهلال الخصيب متصلاً بالحركة العامة التي انت بالهنود الايرانيين الى فارس والهند والتي فرضت نزول الكاشيين من زاغروس الى بلاد بابل .

(١) وقد اقترح ان يكون موقعها تل الفرعة في وادي غزة شمال غربي بئر السبع .

(٢) Breasted, *Records*, vol. ii, § 13; and *A History of Egypt* (New York, 1905) p. 227 . وتقول هذه المراجع ان مدة الحصار كانت ست سنوات مما يجعله اطول من اي حصار قبله في التاريخ .

مملكة ميتاني

وقد نجح الحوريون حوالي ١٥٠٠ ق.م. في تأسيس مملكتهم هناك وتسمى مملكة ميتاني التي بلغ من قوتها ان امتد حكمها من البحر المتوسط الى مرتفعات ميديا وتضم بلاد اشور. وكانت عاصمتها واشوكاني ويظن ان موقعها هو الفخارية على الحابور شرقي تل حلف وخران. وكان مركزها الرئيسي في بلاد الرافدين أرباخا Arrapkha (كر كوك الحديثة) وقد جرت الحفريات حديثاً في ضاحيتها نوزي^١. وكان يعرف المصريون ميتاني باسم نهارين. ويبدو ان نفس البلاد التي تشير اليها الواح تل العمارنة باسم سوبارتو او «بلاد السوباريين». والسوباريون وهم شعب آخر غير سامي كانوا غالباً بين سكان البلاد قبل وصول الحوريين^٢. وكان الحوريون في ميتاني يشكلون اكثرية السكان ولكن الارستوقراطية والملوك كانوا هنوداً اوربيين. وكان ملوك ميتاني في معاهداتهم مع جيرانهم يتوجهون الى ميثرا وقارونا Varuna وإنندرا وغيرها من الآلهة التي تعبد في الهند. واسماء الملوك مثل توشراتا هي اسماء هندية اوربية واضحة.

وكان توشراتا هذا اشهر الحكام الميتانيين. وقد وجدت تحارير كثيرة في تل العمارنة موجهة منه الى امنحوتب الثالث (توفي ١٣٧٥) والى امنحوتب الرابع (توفي ١٣٥٨). والتحارير مكتوبة بالاكادية وهي اللغة الدولية في ذلك العصر، غير ان تحريراً واحداً كتب بالحورية لغة الدولة الرسمية. وكانت احدى شقيقات توشراتا بين نساء امنحوتب الثالث كما ان احدى بناته تزوجت امنحوتب الثالث ومن بعده امنحوتب الرابع.

ويخاطب توشراتا امنحوتب الثالث في احدى رسائله بهذه الكلمات :

الى ميموريا الملك العظيم ، ملك مصر ، اخي ،

صهري الذي يحبني والذي احبه ،

(١) وبصورة اصح نوزو وهي اليوم يوزغان تبه Yorgan Tepe على عشرة اميال شرقي كركوك حيث يبدأ خط الانابيب الى حيفا وطرابلس.

(٢) Gelb, pp. 1-2, 48.

هكذا يقول توشراتا الملك العظيم ، حموك ،
الذي يحبك ، ملك ميتاني ، اخوك :
انني في حالة حسنة . عسى ان تكون في حالة حسنة ! وبيتك ،
وشقيقتي وسائر نسائك واولادك ،
ومركباتك وخيولك وجيشك ،
وبلادك وجميع ممتلكاتك . ليكثر السلام عليك ^١

كانت مملكة ميتاني خلال القرن الرابع عشر في وضع قلق حيث كانت محصورة بين الدولة الحثية الناشئة في الشمال والامبراطورية المصرية الآخذة في التوسع في الجنوب . وتفيدنا الوثائق المصرية السابقة لهذا العهد ان تحوتس الاول وتحوتس الثالث وامنحوتب الثاني قاموا بحروب موفقة ضد نهارين ^٢ . وقد هوجم توشراتا الصديق الموالي لمصر قبل انتهاء حكمه من قبل الفاتح الحثي العظيم شوبيلوليوما الذي تابع فتوحاته اثناء حكم ماتيوازا ابن توشراتا . وقد نصت معاهدة بين شوبيلوليوما وماتيوازا على احتفاظ الفاتح الحثي بشمال سوريا على ان تكون حدودها الفرات في الشرق ولبنان في الجنوب . أما القسم الباقي من المملكة فقد اصبح تابعاً فيما بعد للملك الاشوري أدنيراري (١٣٠٤ - ١٢٧٣) ثم اصبح قسماً من الامبراطورية الاشورية المتوسعة في عهد ورثه شلنصر الاول ^٣ . وهكذا زالت دولة كانت في احد العصور تشارك مصر والدولة الحثية السلطة العالمية .

اللغة الحورية

لم يتمكن العلماء بعد من تفسير رموز اللغة الحورية ولكنها كما يبدو ليست بلغة سامية ولا هندية اوروبية . واقدام وثائقها هي ست الواح دينية من ماري والواح قليلة أخرى من الألتخ Alalakh (تل العطشانة) في سهل انطاكية . وقد بنيت

(١) Bezold, No. 8 ; Mercer, No. 19.

(٢) انظر ما جاء في ص ١٤١ .

(٣) Gelb, pp. 76, 80-81.

المؤسسة الحورية في الألخ على مؤسسة امورية سبقتها . وترجع هذه الألواح الى نحو اربعمائة سنة قبل المواد الحورية التي وجدت في بوغاز كوي ورأس الشجرة . واكتشفت في رأس الشجرة بعض الألواح الحورية وقاموس سومري - حوري . واستخرجت من مدينة قطنة Qatna لائحة باسماء الاعلام الحورية . والعدد الكبير من الألواح المكتشف في نوزي من القرن الخامس عشر قد كتبه باللغة الاكادية كتبة حوريون استعملوا بعض كلمات حورية هنا وهناك . وقد عرفت معاني هذه الكلمات من النص الاكادي الذي وجدت فيه . وتلقي محفوظات نوزي ضوءاً جديداً على طرق المعيشة في عهد اسلاف الشعب العبراني وان كان هذا الامر يبدو مستغرباً . من ذلك ان عقود الزواج في نوزي كانت تتطلب من الزوجة العاقر ان تزود زوجها بجارية تلد له اولاداً^١ .

بقايا الحوريين

وقد بلغ من سعة انتشار الحوريين في سورية في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ان المصريين اخذوا يطلقون اسم خورو Khuru على بلاد كنعان . وتركنت



تمثال لصفي لاحد الهكسوس وجد في غزة ويوضح شكل الوجه الحوري

حضارتهم المادية بقايا من الحزف المدهون بنماذج بيضاء على ارضية قاتمة وآثار نوع خاص من البناء وفن النقش على الاختام. والخوريون Horites المذكورون في العهد القديم الذين كانوا يعتبرون حتى فترة حديثة من القبائل الضئيلة الاهمية لم يكونوا سوى هؤلاء الخوريين (Hurrians). وقد اتضح ان ترجمة هذا الاسم «بساكني الكهوف» هي ترجمة خاطئة. وكان الخوريون Hivites غالباً هم انفسهم الخوريون.

ويعتقد ان الخوريين هم الذين اعطوا الاشوريين تلك الملامح التي تميزهم عن ابناء عمهم الساميين في الجنوب اي البابليين واللامع السامية المزعومة التي يتصف بها اليهود هي بالحقيقة حثية حورية. وبعد الفتح الحثي لميتاني اصبح الخوريون مشمولين باسم «حثي» المبهم. وفي شرقي سورية امتص الآراميون بقايا الخوريين. وتوجد قرب زحلة في لبنان قرية تسمى القرزل وتحتفظ بالكلمة التي معناها الحديد (brzl) وترد في نص من رأس الشجرة. ولا يزال النوع السائد حتى اليوم بين اللبنانيين من موارد ودروز. هو النوع ذو الرأس القصير العريض حسب نتائج الابحاث الانثروبولوجية^١. وينطبق الامر نفسه على النصيرية في شمال غربي سورية. ويختلف ذلك اختلافاً واضحاً عن النموذج الطويل الرأس الذي يسود بين البدو في بادية الشام وبين سكان شمالي الجزيرة العربية^٢.

(١) انظر: Carl C. Seltzer, *The Racial Characteristics of Syrians and Armenians* (Cambridge, Mass., 1936), pp. 10 seq.; do., *Contributions to the Racial Anthropology of the Near East* (Cambridge, 1940), pp. 20-21, 37-50; William M. Shanklin and Nejla Izzeddin, «The Anthropology of the Near East Female», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxii (1937), pp. 379; seq.; C. U. Ariens Kappers, «The Anthropology of the Near East», *Actes du XVIII^e congrès international des orientalistes* (Leyden, 1931), pp. 178-9.

(٢) راجع: Carleton S. Coon, *The Races of Europe* (New-York, 1939), pp. 623-4; William M. Shanklin, «The Anthropology of the Ruwala Bedouins», *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. Lxv (1935), p. 379; do. «Anthropology of the Akeydat and the Maualy Bedouin», *American Journal of Physical Anthropology*, vol. xxi (1936), p. 248. وقد اظهرت الابحاث الحديثة ان طريقة وضع الاطفال في السرير تسبب فطمة الرأس احياناً.

الحثيون

وكان الحثيون الذين تبدو ملاحظتهم على الآثار شبيهة بلامع الحوريين شعباً اناضولياً في الاصل يسكن منطقة نهر الهاليس Halys. وكانوا يسمون بلادهم خاطي^١ وعاصمتهم (مدينة خاطي) خطوشش وهي اليوم بوغازكري على بعد تسعين ميلاً شرقي انقره. ويأتي الاسم الانكليزي من كلمة حيطي Hitti العبرية. ولا يزال موقع عاصمتهم القديمة كوشار Kushshar مجهولاً. وفي حوالي ٢٠٠٠ ق. م. تغلب الغزاة المنود الاورييون على القبائل الخاطية ونتج عن تآزج السكك الاصلين الاناضوليين بالفاتحين المنود الاوروبيين الخاطيون في آسيا الصغرى. وشكل السحنة الذي يتمثل في الانف الكبير والجهة والذقن المتراجعتان كان شكل السكان الاصلين ولا يزال سائداً في شرقي الاناضول وبين الارمن.

المملكة الحثية القديمة

وكان اول ظهور للخاطيين في عملية حربية كبرى نحو ١٥٩٥ حين نهب ملكهم مرشش الاول مدينة بابل بنتيجة غزوه لها وانتهت بذلك سلالة بابل الاولى التي كان حمورابي من ملوكها. وكان مرشش نفسه قد فتح حلبا Halpa (حلب) وهزمها وسبى سكانها وارسل حدد وسائر آلهتها ككغنائم حرب الى خطوشش التي نقل اليها مركز الحكم من العاصمة القديمة. وكانت حلب مركزاً ليس لعبادة حدد فصحب وانما للمملكة اسمها يخاض كان يحكمها قبل هذه الفترة بقليل يريم ليم الذي كان يسيطر على عشرين من صفار الملوك. وتوغل احد خلفاء مرشش في اراضي المكسوس جنوباً حتى دماشونس Damashunas التي تشبه لفظة دمشق^٢. واذا كان ذلك صحيحاً فانه يكون اول ذكر لدمشق في التاريخ المدون. ومهما يكن فان ملوك خاطي لم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسلطة دائمة على المنطقة الواقعة جنوبي جبال طورس. وظلت هذه الجبال حدود المملكة القديمة من جهة الجنوب.

(١) وقد وردت في النقوش الاثرية المصرية باسم خيطة Kheta. وربما كان معنى هذه الكلمة «الفضة».

(٢) John Garstang, *The Hittite Empire* (London. 1929), p. 3; *Heritage of Solomon*, p. 30.

المملكة الحثية الحديثة

دامت المملكة الحثية الحديثة او الامبراطورية الثانية من حوالي ١٤٥٠ حتى ١٢٠٠ ق. م. وبلغت ذروتها في عهد الملك القوي شوبيلوليوما (حوالي ١٣٨٠ - ١٣٥٥). وقد حصل بنتيجة تقدمه في ميثاني على مركز ثابت في شمالي سورية وتمكن من انتزاع منطقة تمتد حتى جنوبي جيبيل من المصريين. وفي نهاية حكمه كانت امبراطوريته قد اصبحت اقوى دولة في غربي آسيا. ودخل المكسوس والميتانيون والحيثيون في دولة يمكن ان نسميها الآن حثية. واصبحت كركيش المعقل الرئيسي جنوبي جبال طورس.

لم يعتمد شوبيلوليوما فقط على استخدام السلاح. فقد لجأ الى اثاره الاضطراب ضد مصر في مقاطعتها الاسيوية واقتناع امير اوغاريت ان يتخلى عن حليفه فرعون^١ ونجح في ذلك كله. واستخدم الزعيم الاموري عبد عشرتا وابنه ازيرو «كطابور خامس». واخذ ازيرو بمساعدته يستولي على مدن فينيقية الساحلية. وفي الوقت نفسه كان ازيرو يكتب الى اخناتون عن اسفه البالغ بان مهمته في مقاومة الغزو الحثي لم تسمح له بالحصول على شرف الاجتماع بالوفد من فرعون. واصبحت الامور مضطربة حتى ان المقيم المصري نفسه كان غير قادر على معرفة الصديق من العدو.

معاهدة مع مصر

واستأنف النزاع لاجل السيادة على سورية بين الامبراطوريتين المتنافستين على زعامة العالم حين حاول فراغتة السلالة التاسعة عشرة الاوائل استرجاع ما عجز آخر ملوك السلالة الثامنة عشرة عن الاحتفاظ به. وفي معركة قادش المشهورة التي تلت ذلك (نحو ١٢٩٦ ق. م.) لم يكن النصر الذي ادعاه رمسيس الثاني على عدوه الحثي موثلاً Muwatallish نصراً مبنياً كما اذاع رمسيس، وذلك بالاستناد الى نتائج المعركة. فقد ادعى رمسيس انه قهر زعيم خيطا وذبح جميع رؤساء حلفائه وهزم العدو حتى العاصي وطرحهم في الماء كالتاسيح؛ وقد سقطوا على

وجوهم الواحد فوق الآخر وتكن من قتل من شاء قتله^١. والحقيقة هي ان رمسيس تمكن بصعوبة من انقاذ حياته عندما تعرض لكمين بطريق الحيلة، وعمل هجوم المركبات الحثية على تفريق محاربيه. وقد اضطر بالنتيجة الى الانسحاب من سورية الشمالية والوسطى والى توقيع ميثاق عدم اعتداء نحو عام ١٢٨٠ مع حتوشلش اخي موتلش والملك الثاني بعده. وهذا هو الميثاق الوحيد الذي وصلنا من العصور القديمة. وكان هدفه كما قالت الوثيقة «ان يكون سلام واثاء بيننا الى الابد». واعترف الميثاق بان سورية الشمالية ومن ضمنها امورو اصبحت حثية بينما بقيت سورية الجنوبية بما فيها فلسطين تحت الحكم المصري^٢. واحتفظ بنسخة من الميثاق الاصل منقوشة على لوح فني باللغتين المصرية الميروغليفية والبابلية المسمارية.

وبعد فترة من الاضطرابات سقطت الامبراطورية الحثية حوالي ١٢٠٠ ق. م. بتأثير هجمات من جهة اخرى وهي منطقة بحر ايجه. ولعب الفريجيون الدور الرئيسي بين الفزاة كما يبدو. وقامت في شمالي سورية على انقاض الامبراطورية الحثية بمالك وطنية صغيرة مراكزها كركميش وحلب وحماة. وكان الاشوريون يسكنونها بمالك حثية. وكان قياسها في عصر توسع الامبراطورية الاشورية الناشئة نحو الغرب التي كانت دوماً تهدد كيانها. وسقطت الواحدة بعد الاخرى فريسة للدولة المتوسعة من الشرق. وكان فتح كركميش في عام ٧١٧ عن يد سرجون الثاني عنوان انتهاء آخر دولة حثية مستقلة.

صلة الحثيين بفلسطين

وفقدت كلمة «حثي» معناها السياسي بعد انحلال الامبراطورية وحازها مدلول جديد حضاري وعرفي. واستمر الاشوريون في تسمية سكان المناطق التي كان يسكنها الحثيون سابقاً بالحثيين بالرغم من ان اكثريتهم لم تكن لهم صلة عرقية بالخطاطين الاناضوليين القدماء او بالخطاطين المنود الاوربيين. ولم تكن فلسطين في اي وقت قسماً من الامبراطورية الحثية ولكن عناصر حثية كثيرة وجدت فيها.

(١) Stenendorff and Seale, p. 251; cf. Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, § 336.

(٢) انظر تفاصيل هذه الشروط في: Breasted, *Ancient Records*, vol. iii, §§ 367-91.

ويطلق مؤلف احدى وثائق العهد القديم اسم الحثيين بوجه عام على جميع سكان البلاد من غير الساميين قبل مجيء العبرانيين . ويدعي هذا المؤلف وجود عنصر حثي بين سكان فلسطين منذ ايام ابراهيم ويعتبر حبرون (الخليل) مدينة حثية^١. ويروي ان عيسو تزوج نساء حثيات وتزوج بنو اسرائيل مع الحثيين^٢. وتشهد الآثار عن وجود تأثير حثي مادي هناك في القرن الرابع عشر بشكل تقدمات نظرية واختام واسلحة ذات اشكال خاصة . وليس من شك في ان سليمان كان لديه نساء حثيات بين حريمه^٣. وعندما خاطب النبي حزقيال^٤ مدينة اورشليم الخائنة قال لها : « ابوك اموري وامك حثية » .

نظام الدولة الحثية

كانت المملكة الحثية فوق كل شيء ارستوقراطية اقطاعية تمارس سلطتها على مجموعة متنوعة من العناصر العرقية. ويرجع نجاحها العسكري كما كانت الحال بالنسبة للهكسوس الى استخدام الحصان والمركبة كسلاح رئيسي . وكان سلاح المركبة يتألف من سائق ومحارب وحامل ترس وكان الترس مربعاً . وفي ساحة القتال كانت الحثيون يستخدمون ايضاً فرقاً منظمة من المشاة يقودها امرأء من الاسرة المالكة او زعماء محليون . وكانت اسلحة الهجوم القوس والفأس والرمح والسيف المنحني .

اللغة الحثية

كانت اللغة الحثية مزيجاً كما كان الشعب الحثي نفسه غير انه يمكن تصنيفها عموماً كلغة هندية اوروبية او متصلة بلغات هذه المجموعة . والارستوقراطية العسكرية كانت كما في ميثاني من اصل هندي اوري . وربما كانت الارستوقراطيتان من اصل واحد وتشكلان نوعاً من اللغة ذاتها .

(١) سفر التكوين ٢٢: ٢٠-٢١ .

(٢) التكوين ٢٦: ٣٤ ؛ القضاة ٣: ٥-٦ .

(٣) سفر الملوك الاول ١١: ١ ؛ سمويل الثاني ١١: ٣ .

(٤) سفر حزقيال ١٦: ٣ .

ووجدت اكبر مجموعة من الوثائق الحثية في ١٩٠٦ - ١٩١٢ في بوغاز كوي واتفق ان هذه الوثائق هي محفوظات الدولة وتتألف من اكثر من ١٠٠٠٠٠ لوح خزفي جمعها ملوكهم نحو ١٣٠٠ ق.م. وهذه اللوح الحرفية المكتوبة بالمسمارية التي فسرهما عالم تشيكي^١ تشكل اهم مصادر معلوماتنا عن الحثيين. وقد استعمل الحثيون الكتابة المسمارية لاجل حاجاتهم اليومية بينما استخدموا الكتابة الهيروغليفية في الآثار. والكتابات الاثرية الهيروغليفية على الصخر تتناوب سطورها من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال وقد فسرت رموزها في السنوات الاخيرة. واهم مواقع الآثار الحثية في سورية التي تحمل كتابات هيروغليفية هي كركيش (جرابلس) وحلب وحماة^٢. وتوجد اربع وعشرون كتابة على الحجر من كركيش في المتحف البريطاني وفي متحف استانبول اربع كتابات من حماة. ووجدت في رأس الشمرة اربعة اختام حثية.

وتتألف بقايا الادب الحثي من ترانيم وصلوات واساطير وعقود ورسائل. وقد اكتشف جزء من مجموعة قوانينهم التي ترجع الى منتصف القرن الرابع عشر^٣. والعقوبات التي تفرض اخف بكثير مما عند الساميين. فليس هنالك تشريع على اساس مبدأ «العين بالعين» ويتضح من كثرة القوانين المتصلة بالزراعة انها كانت تشكل اساس الحياة الاقتصادية.

الديانة

ولا نعلم حتى الآن سوى الشيء القليل عن الديانة الحثية. وتظهر الافكار المتعلقة بعبادة الارواح بصورة بارزة في الشكل البدائي لهذه الديانة. فالينابيع والانهار والاشجار والجبال كانت تعتبر مقدسة. وكان اشهر الآلهة تيشوب اله العاصفة وهو الاله الوطني. وكان الميتانيون يعبدونه. وآلهة المدن كانت مظاهر محلية لهذا الاله. وكان اسمه الحثي تلبنش Telepinush. وهو يقابل الاله السوري حدد ورفيقته تسمى

(١) واسم هذا العالم فريدريخ هروزني Friedrich Hrozya انظر كتابه : *Die Sprache der Hethiter* (Leipzig, 1917); *Hethitische Keilschrifttexte aus Boghazköi* (Leipzig, 1919).

(٢) Ignace J. Gelb. *Hittite Hieroglyphic Monuments* (Chicago, 1939), p. 8.

(٣) F. Hrozya, *Code hittite provenant de l'Asie Mineure* (Paris, 1922).



الاله الحثي تيشوب إله العاصفة

وجد في ١٩٣٠ في تل الأحمر (تل يرمب القديمة) جنوبي كركميش على الفرات
والآن في متحف حلب

وقد تدل لحية الاله الاشورية الشكل ان تاريخ النصب يعود الى القرن الثاني عشر.
وقرص الشمس المحاط بقمر منح يظهر تأثيراً مصرياً. ويمسك الاله بصاعقة ذات ثلاثة
فروع بيده اليسرى ويرفع فأس حرب بيده اليمنى. والثور الذي يقف عليه هو رمز
القوة والحصب. والاحذية المتبوية الى الاعلى لا يزال يلبسها بعض سكان جبال لبنان.

عشتاروت في المعاهدة مع مصر ولكن اسمها الحي لم يعرف حتى الآن وربما كانت «Ma» وهي الارض الام واقدم آلهة لدى الشعب المغلوب. وعبادة تيشوب — عشتاروت تقابل عبادة تموز — عشتاروت عند السوريين واصبحت في الغرب عبادة ادونيس والزهرة (فينوس)، وفي آسيا الصغرى لدى الفريجيين اصبحت عبادة آتيس Attis وسيليل Gybele. وكان يمثل تيشوب عادة بشكل رجل يقف على ثور ويمسك الصاعقة. واغوى الالهة انثى كانت الالهة الشمس التي اصبحت الالهة الحرب واتخذت بعض صفات الارض الام. ولباس الاله كما يتضح من الآثار كانت رداء قصيراً وقبعة مخروطية الشكل، اما لباس الالهة فكان ثوباً طويلاً وقبعة اسطوانية مرتفعة. والاحذية المروسة والمفتولة الى الاعلى في قسمها الامامي كانت من الصفات المشتركة في لباس الآلهة الانثى والذكر. والاشكال البشرية كانت تمثل بنفس اللباس ولكن بحجم اصغر. واللبسة الثقيلة والاحذية المفتولة الى اعلى تفيد ان اصل هذا الشعب كان في اقليم بارد تهطل فيه الثلوج.

وعندما احتك الحثيون بالسوريين والمصريين والاشوريين اقتبسوا الآلهة الاجنبية. وقد استشهدوا في المعاهدة مع مصر «بالف من الآلهة الذكور والاناث». وربما يمكن ان نستنتج من اهمية الآلهة الانثى في مجموعة الآلهة الحثية ومن الشرط الذي وضعه شوبيلوليوما لمساعدة ماتيوازا لاجل ورائة عرش ميتاني وهو زواج هذا الامير من اميرة من خاطي على ان تكون زوجته الوحيدة — يستنتج من ذلك ان وضع المرأة بين الحثيين كان وفيماً نسبياً مع وجود ميل نحو اتخاذ زوجة واحدة.

من هم الخاييرو؟

بينما كان الجيش الحي في فترة العمارنة يقوم باعماله الحربية في الشمال كان جماعة من المرتزقة الاجانب الذين يسمون في الكتابات المسارية الخاييرو Khabiru يجتاحون البلاد في الجهة الجنوبية. وقد اعتبر بعض العلماء هذه الكلمة الاكادية معادلة للكلمة العبرية «عبري» (وعبراني التي تترجم عادة «بالذي يأتي من الجانب الآخر» او بمعنى «العابر»). ويوصف الخاييرو في وثائق نوزي من القرن الخامس عشر بانهم عبيد اصبحوا كذلك باختيارهم. وتظهر هذه الكلمة في المدونات المصرية من حوالي

١٣٠٠ - ١١٥٠ ق. م. بشكل عيرو Epiru (بحرف p) مما يشير الشك في صحة المعادلة بين الحاييرو والعبرانيين.

ويظهر الحاييرو لأول مرة في الحوليات الحثية في عهد مرشلش الاول (حوالي ١٦٠٠ ق. م.) الذي استأجرهم. وفي رسائل تل العمارنة^١ نرى الحاييرو يتعاونون مع المتمردين ضد الفراعنة وفي ١٣٦٧ يستولون على شكيم. وقد وجهت ستة من هذه التعازير (رقم ٢٨٥ - ٢٩٠) من عبد خيبا^٢ تابع فرعون في اوروسالم (اورشليم)^٣ الى اخناتون يعبر فيها عن ولائه ويطلب المساعدة ضد الحاييرو الذين يهددونه. وفي جميع هذه الوثائق يبدو الحاييرو كجماعة متعددة العناصر وبدون اوصاف مشتركة ومعبأة بلا شك في بلاد الرافدين. وقد اطلق هذا الاسم هناك لأول مرة على الحاريين في عهد نارام من (نحو ٢١٧٠) من ملوك السلالة الاكادية القديمة. ويذكر الاسم ثانية في رسالة من ماري من القرن الثامن عشر وفي الواح نوزي من القرن الخامس عشر. وكما يبدو فانه ليس اسماً عرقياً وانما تسمية اطلقت على جماعات من الرحل والاجانب والاشقياء المستعدين للانضمام الى صفوف اي جيش لقاء اجرة او بدافع الحصول على الغنائم.

(١) الرسالة رقم ٢٨٩.

(٢) القسم الثاني من هذا الاسم هو اسم الالهة حثية حورية.

(٣) اصل الاسم من الكنعانية ياروشلم بمعنى «دع شالم يؤسس». وكان شالم إله السلام عند الكنعانيين ويظهر في اسمي «ابشالوم» وسليمان، وفي أسماء فينيقية وهو مذكور في لوح من اوغاريت.

انظر: Burrows, p. 229.

الفصل الثاني عشر

الآراميون الشعب السامي الثالث الأرمسي

قبل ان يسمى الآراميون بهذا الاسم كانوا قبائل من الرحل في بادية شمالي الجزيرة العربية . وكانوا كسائر البدو من قبلهم ومن بعدهم يضغطون من وقت الى آخر على اراضي جيرانهم النائية في بلاد بابل وسورية وهدفهم امتلاكها . وقبل ان ينتصف الالف الثاني ق. م. كانت هذه القبائل قد سكنت في ضفاف وادي الفرات الاوسط حيث نشأت قوميتها ولغتها . ويمكن الاعتقاد بان الآرامية اتت من لهجة سامية غربية كانت مستعملة في شمال غربي بلاد الرافدين في النصف الاول للالف الثاني . ولم يكتسبوا اسمهم « الآراميين » حتى ايام تغلات فلاسر الاول (نحو ١١٠٠ ق. م.) حين اقاموا في منطقة الفرات الاوسط حتى سورية في الغرب^١ . وكانت الهجرات الحاطية في اوائل القرن السادس عشر على بابل وشمالي سورية هي التي فتحت الابواب كما يبدو في وجه الحركة الآرامية واعطت القادمين الجدد من الصحراء محطاً ثابتاً في تلك المنطقة . وسهل القضاء على ميتاني عن يد الحثيين بعد قرن ونصف حركة الآراميين من جديد . وتبين ان هذه الهجرة الآرامية كانت بعد المبعرتين الامورية والكنعانية ثالث حركة سامية كبرى اتت من الصحراء .

بدء ظهورهم في بلاد الرافدين

كانت جماعات متعددة تشكل اقساماً من الحركة الآرامية ولكنها لم تكن تعرف بهذا الاسم . فبالاضافة الى الحابيرو الذين ذكرناهم سابقاً كان يوجد الاخلامو Akhlamu . وهذه التسمية التي تعني « الرفاق » لم تكن تسمية عرقية وقد اطلقها

(١) قارن مع : Emil G. H. Kraeling, *Aram and Israel* (New York, 1918), pp. 20, 22. واصل اشتقاق كلمة آرام (قارن مع كلمة ارم القرآنية) غير مؤكد.

لاول مرة كما يبدو الاموريون المقيمون في منطقة الفرات على اتحاد من القبائل . ويخبرنا الملك الاشوري آدد نيراري الاول (نحو ١٣٠٠ ق.م.) ان اياه قهر جماعات الاخلامو^١ في شمالي بلاد الرافدين . وفي تحرير ارسله حتوشلش حوالي ١٢٧٥ الى احد ملوك بابل اشارة الى الاخلامو المعادين الذين يقيمون على طول نهر الفرات . ونقرأ قبل ذلك في احدى رسائل^٢ تل العمارنة عن الاخلامو في عهد اخناتون وانهم كانوا يستولون على المدن والاراضي السورية برضى حكام وطنيين غير مخلصين ان لم يكن تحت قيادتهم . وفي الوثائق التي أتت فيما بعد نجد الآراميين والاخلامو مقترنين بصورة وثيقة . فالملك تغلات فلاسر الاول يقول «لقد زحفت الى وسط الاحلامي الآراميين اعداء الاله اشور سيدي»^٣ . وكانت هذه القبائل الآرامية تعيش بجوار كركيش ولكننا نشاهد الآراميين بعد ذلك في بلاد بابل في الشرق يدعمون الكلدو (الكلدانيين او البابليين الحديثين) الذين كانت لهم صلة وثيقة بهم . ويصف تغلات فلاسر وخلفاؤه حملاتهم في مات آريمي Mat Arimi او بلاد الآراميين^٤ وذلك في كتابات اثرية اخرى .

انتشارهم في شمالي سورية

يستدل من هذه المدونات الاشورية البابلية وغيرها ان قسماً كبيراً من بلاد الرافدين وسورية الشمالية والوسطى قد اجتاحتها في خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر جماعات سامية وان هذه المناطق بدأت تتخذ صفة آرامية باستثناء جيوب حثية قليلة منها كركيش . وقد ادى ضغط الآراميين المتواصل الى طغيانهم التدريجي على الاموريين والخوريين والحثيين في وادي العاصي والمنطقة التي تليها في الشمال والى امتصاص هؤلاء او طردهم . وكان جبل لبنان عائقاً في طريق هذا التوسع نحو الغرب واستمر فيه ازدهار الجماعات الحثية والامورية بينما

(١) Luckenbill, vol. i, § 73.

(٢) الرسالة رقم ٢٠٠ .

(٣) Luckenbill, vol. i, § 239.

(٤) E. A. Wallis Budge and L. W. King, *Annals of the Kings of Assyria*, (٤ vol. i, (London, 1902) pp. 134 seq.; Luckenbill, vol. i, § 366; vol. ii, § 36.

بقيت المدن الكنعانية في السهل الساحلي بدون ان تمس . واصبحت دمشق وهي مركز دولة آرامية فيما بعد يسكنها الآراميون في ١٢٠٠ ق.م . وتعطي حوليات وعميس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) التهجئة الآرامية لاسم دمشق^١ . وقد احتل الآراميون مدينة حران غالباً وهي احدى مراكزهم في ما بين النهرين قبل احتلالهم دمشق . واقتبس القادمون الجدد بالتدريج حضارة الاموريين والكنعانيين الذين اقاموا بينهم غير انهم احتفظوا بمظهر واحد من حضارتهم وهو اللغة . وبجلاف الاسرائيليين والفلسطينيين الذين اقاموا في اواخر القرن الثالث عشر في جنوبي مناطقهم فان الآراميين احتفظوا بلهجتهم الاحلية التي قدر لها ان تلعب دوراً بالغ الاهمية في حياة غربي آسيا فيما بعد .

الدول الآرامية في ما بين النهرين

وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت الحركات الآرامية والاسرائيلية قد انتهت واصبح الشعبان يجاور واحدما الآخر في موطنهما الجديد . وظهرت الدول الآرامية الاولى في منطقة الفرات الاوسط وهي الممر بين بلاد الرافدين وسورية . وقد سميت احدها آرام النهرين Aram Naharain^٢ والنهران المقصودان هما الفرات ورافده الخابور وليس الفرات والدجلة . وكلمة «نهارين» المصرية هي تحريف لهذا الاسم نفسه . ويظهر هذا الاسم مراراً في الكتابات المصرية من اواخر القرب الثالث عشر ويميل الى الزوال بعد القرن التاسع عندما كان الاشوريون قد قضوا على الآراميين في هذه المنطقة^٣ . ومن الدول الاخرى في ما بين النهرين دولة فدان آرام^٤ Padam Aram ولم تكن باتساع آرام النهرين وكان مركزها مدينة حران .

(١) ويقابل تيرمكي Tiramaski اسم آرام . وهناك اسم دمشق اي حصن مشق . انظر : W. Max Müller, *Asien und Europa nach altägyptischen Denkmälern* (Leipzig, 1893), p. 234; Dussaud, p. 292; cf. Sina Schiffer, *Die Aramaer* (Leipzig, 1911), p. 136. والشكل الذي يتخذ اسم دمشق في رسائل الهارة هو دُمَشْقا Dumashqa (رسالة رقم ١٠٧ سطر ٢٨) ، دُمَشْقا Dimashqa (رسالة رقم ١٩٧ سطر ٢) تَشْكي Timashgi (رسالة رقم ٥٣ سطر ٦٣) .

(٢) انظر هذا الاسم في سفر التكوين ٢٤ : ١٠ ؛ التثنية ٤٣ : ٤ ؛ القضاة ٣ : ٨ .

(٣) قارن مع : Roger T. O'Callaghan, *Aram Naharaim* (Rome, 1948), p. 143 .

(٤) قارن مع : Abel, *Géographie*, vol. i, p. 245. انظر سفر التكوين ٢٥ : ٢٠ ؛

والواقع ان الكلمتين تستعملان بالتبادل في العهد القديم . وكانت تقع حران على طريق تجاري عظيم - ومعنى اسمها « طريق » - واصبحت من اعظم مراكز الحضارة الآرامية . والمرويات العبرانية التي لم تنس الصلة العبرانية الآرامية القديمة جعلت اسلاف الشعب العبراني يأتون من هذه المنطقة قبل استقرارهم في فلسطين . وتقول هذه المرويات ان ابراهيم اوفد رسوله الى حران ل يبحث عن زوجة لابنه اسحق وهي رفقة كما تقول ان يعقوب ذهب بنفسه ليتزوج لىثة وراحيل^١ . وهكذا فان اسلاف ابناء يعقوب هم آراميون من جهة الام . وهناك عبارة تسمي ابا الامة العبرانية آرامياً^٢ . وسفر التكوين الذي يدون بدء التاريخ العبراني يملؤه بالتعبير ذات الصيغة الآرامية وبالمفردات الآرامية^٣ . وكان اسلاف الشعب العبراني يتكلمون الآرامية كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية .

آرام دمشق

غير ان اهم الدول العديدة التي اسمها الآراميون كانت تلك التي كان مركزها أولاً في صوبه ثم في دمشق . وقد تأسست مملكة دمشق في اواخر القرن الحادي عشر فكانت معاصرة تقريباً لتأسيس المملكة العبرانية وتطورت فأصبحت مملكة كبرى تمتد الى الفرات من جهة والى اليرموك من جهة أخرى . وكانت متاخمة للاراضي الاشورية في الشمال والعبرانية في الجنوب . وكانت سورية الداخلية شرقي جبل لبنان وسورية الشمالية وباشان تحت سلطتها الاكيدة في حوالي ١٠٠٠ ق.م . ومنطقة دمشق هذه هي التي يعنيها العهد القديم حين يشير الى آرام او سورية . وقد كان هؤلاء الآراميون في سورية خلال قرنين ألد اعداء العبرانيين .

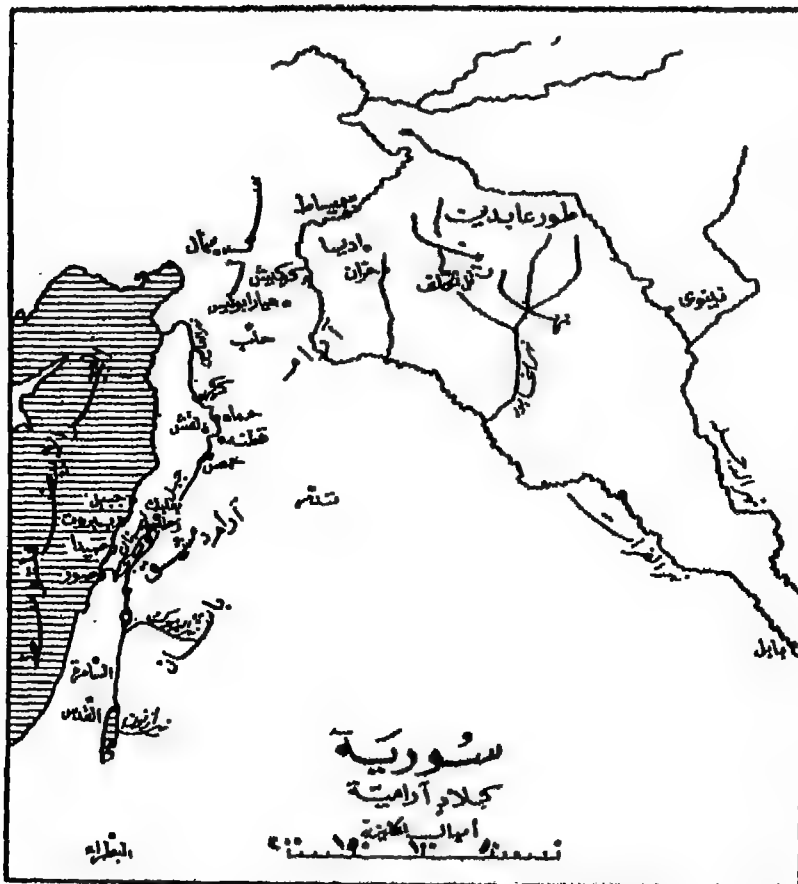
كانت صوبه عاصمة مملكة بنفس الامم والكلمة مشتقة من صهوبه Sehobah

(١) سفر التكوين ٢٤: ٤٤ : ٢٩ : ٢١ وما يليها .

(٢) سفر التثنية ٢٦: ٥ حيث يقول « آرامياً تائباً كان ابي » . وقد جاء في احدى الترجمات « سورياً » . قارن مع : Josephus, *Antiquities*, Bk. 1, ch. 7, §2.

(٣) سفر التكوين ١١: ٢٨ وما بعدها ؛ ١٢: ١ : ٢٩ : ٣١ : ٢١ ؛ واول ذكر لعبارة آرامية في التوراة هي يجرشهوئا اي رجم الشهادة (سفر التكوين ٣١: ٤٧) .

بمعنى احمر او نحاس. ويظن ان موقعها هو في كالس Chalcis او عنجر الحديثة جنوبي رحلة في البقاع^١ وقد بدأت الاصطدامات بين ملوكها ومنافسيهم العبرانيين



في الجنوب في عهد شاول مؤسس المملكة العبرانية^٢. وكان من أقدم ملوك صوبة
حدود عزرا (اي حدود عون) الذي ادى انتصار داود عليه الى اعطاء ذلك الملك

(١) انظر: Abel, vol. i, p. 248; Kraeling p. 40; وكانت كالسس (والكلمة يونانية معناها لحاس) لها بعد عاصمة ايطوريا Iturra (المذكورة في الانجيل لوقا ١٠:٣) وهي مملكة عربية.

(٢) سفر صموئيل الاول ٤٧:١٤ .

العبراني السلطة على مصادر ذلك المعدن الهام النحاس^١. ولم ينتصر داود على حد عزر وحلفائه فحسب وانما نجح في احتلال دمشق مؤقتاً. وبعد فترة قصيرة نجد رصين ملك هذه المدينة يعمل كتابع لصوبة ويقوم بمحاربة اسرائيل « طيلة ايام سليمان^٢ ». وتنتقل السيادة بعد ذلك من صوبة الى دمشق. وعندما انقسمت المملكة العبرانية الى قسمين في عام ٩٢٢ كان ذلك من مصلحة ملوك دمشق الذين كانوا يقيمون المملكة الواحدة ضد الاخرى.

واخذ بنحدد الاول^٣ ملك دمشق (حوالي ٨٧٩ - ٨٤٣) من ملك يهوذا كنوزاً ثينة من المعبد ومن القصر الملكي في اورشليم ثم هاجم ملك اسرائيل وجعل جلعاد في شرقي الاردن تحت السيطرة الآرامية^٤. والواقع ان مملكة اسرائيل كانت كما يبدو تابعة اسمية لآرام منذ اواخر ايام ملكها عمري (حوالي ٨٧٥) وعندما رفض آخاب ابن عمري ووريثه دفع الجزية او الانضمام الى التحالف ضد المهجوم الاشوري الذي كان وشيك الوقوع ظهر بنحدد بفتة امام عاصمته السامرة ليجبره على الطاعة^٥.

معركة قورق

وبلغت هذه الغزوة الاشورية ذروتها في المعركة التي حارب فيها شلمنصر الثالث في عام ٨٥٣ ق.م. وكان تحالف الملوك السوريين يضم اثني عشر ملكاً يرأسهم بنحدد^٦ الذي كان جيشه يضم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٤٠٠٠ من المشاة. وقد

(١) اخبار الايام الاولى ١٨:٨؛ صموئيل الثاني ٨:٨. ومدينة بيروت في المذكورة في سفر صموئيل هي اليوم برتات جنوب بعلبك.

(٢) سفر الملوك الاول ١١:٢٥.

(٣) كلمة بنحدد او بن حدد في العربية تقابلها بار حد (اي ابن حدد) في الآرامية. وكان بنحدد الاول وبنحدد الثاني نفس الشخص. انظر: Albright, «A Votive Stele Erected by Ben-Hadad I of Damascus», *Bulletin, American Schools Oriental Research*, No. 87 (1942), pp. 26-27.

(٤) سفر الملوك الاول ١٨:١٥-٢٠؛ اخبار الايام الثاني ١٦:٢ وما بعده.

(٥) سفر الملوك الاول ١٥:٢٠ وما بعده.

(٦) وهو حدد عزر في كتاب: Luckenbill, vol. i, § 611.

اتى الملك آخاب بالجيش الثاني في قوته وبعده اتي جيش ملك حماة . وقدمت بمالك مدن فينيقية كثيرة قواتها للمساهمة في المعركة . وكان عدد الجيوش التي وقفت بوجه شلمنصر في موقعة قرقر على العاصي ٦٠,٠٠٠ جندي وانتهت بدون نتيجة حاسمة . وكان على الاشوريين ان ينتظروا سنين كثيرة اخرى قبل ان يتمكنوا من اخضاع دمشق .

حزائيل

ويظهر وريث بنعدد واسمه حزائيل (بمعنى « ايل قد رأى » حوالي ٨٠٥) كأعظم محارب في التاريخ الآرامي . فبعد ان صمد لهجومين قام بهما شلمنصر في ٨٤٢ و ٨٣٨ قاد حملة ضد اسرائيل ووسع ممتلكاته في شرقي الاردن الى الجنوب حتى نهر آرنون (الموجب) الذي يصب في البحر الميت^١ . وكان ياهو (نحو ٨٤٢ - ٨١٤) الذي كان يدفع الجزية لشلمنصر هو ملك اسرائيل حينذاك . وكانت اسرائيل تحت رحمة آرام في عهد يواجاز وريث ياهو حتى ان حزائيل لم يترك له اية قوة فيما سوى خمسين فارساً وعشر مركبات^٢ . وتوسع حزائيل في فتوحاته حتى سهل فلسطين الساحلي بقصد الاستيلاء على طرق التجارة مع مصر والجزيرة العربية . ثم « حوّل حزائيل وجهه ليصعد الى اورشليم » ولكنهم منعه من ذلك بعد ان قدموا له الذهب والكنوز التي كانت في المعبد^٣ . وعندما تضعفت قوة الذين خلفوا حزائيل بسبب الهجمات الاشورية عجزوا عن المحافظة على حدود مملكتهم في المناطق الجنوبية . وعادت الحدود القديمة الى سابق عهدها في زمن الملك يربعام الثاني الذي اصبح ملكاً في السامرة في عام ٧٨٥ ، وزاد هذا الملك على ذلك بانه بدأ بهجمة دمشق وحماة .

غير ان الخطر الحقيقي كان مصدره من جانب آخر . فقد كانت القوة العسكرية الاشورية جاهزة للزحف من جديد . واثت الفرصة المناسبة في ٧٣٤ حين هدد

(١) سفر الملوك الثاني ١٠: ٣٢ - ٣٣ .

(٢) الملوك الثاني ١٣: ٧ .

(٣) الملوك الثاني ١٢: ١٧ - ١٨ .

آحاز ملك يهوذا بصورة جدية من قبل فتح Pekah ملك اسرائيل وورصين Rezin ملك دمشق فطلب تدخل الاشوريين^١. واستجاب تغلات فلاسر الثالث لطلبه واجتاح المقاطعات الست عشرة التابعة لدمشق مع المدن التي عددها ٥٩١ مدينة «وهدمها حتى اصبحت مثل الكتبان التي يتركها السيل»^٢. وكان بين الملوك التابعين لاشور والذين حاربوا وسقطوا امام اسوار دمشق بنامو الثاني ملك شمال (زنجري) في اقصى الشمال. وورصين نفسه هرب «وكفارة» [او وعلى؟] دخل باب مدينته. وهناك اصبح محاصراً «مثل عصفور في قفص». ولكن الحصار استمر. واخيراً فتحت المدينة في عام ٧٣٣. وقتل ملكها وقطعت اشجار بساتينها - موضع فخارها في جميع العصور - «ولم تتج» واحدة منها، وثني اهلها^٣. وهكذا انتهى امر آرام دمشق وانتهت معها السيادة الآرامية الى الابد.

للتجار الآراميون

فاق توسع التجارة والحضارة الآرامية توسع الآراميين السياسي والعسكري ودام الى ما بعد انتهاء هذا الاخير. هذه الحضارة التي بلغت ذروتها في القرنين التاسع والعاشر لا تقلد اليوم حق قدرها حتى في الاوساط المتعلمة. والسوريون الحديثون لا يشعرون باصلهم وتراثهم الآراميين بالرغم من ان كثيرين من اللبنانيين يصرون على اصلهم الفينيقي. وكان التجار الآراميون يبعثون قوافلهم الى جميع مناطق الهلال الخصيب وحتى الى منابع الدجلة في الشمال. واكتشفت في خرائب نينوى بعض الموازين البروتزية التي تركوها. وكانوا يحتكرون تجارة سورية الداخلية كما كان يحتكرون ابناء عمهم ومنافسهم الكنعانيون التجارة البحرية. وكانت عاصمتهم دمشق ميناء البادية كما كانت جبيل ثم صور من موانئ البحر. وقد تاجر الآراميون بالارجوان من فينيقية وبالطرزات والكتان واليشب (Jasper) والنحاس

(١) سفر الملوك الثاني ١٦: ٥ وما يليه.

(٢) Luckenbill, vol. i, § 777.

(٣) Luckenbill, vol. i, § 776; Hugo Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch zum Alten Testament*, 3rd ed. (Leipzig, 1909), pp. 31-2; cf. Is. 17: 1 seq.

والابنوس والعاج من افريقيا «وبتحصول البحار» الذي ربما كان اللؤلؤ الذي اشتهر به الخليج الفارسي خلال العصور^١.

اللغة الآرامية

كان التجار الآراميون هم الذين نشروا لغتهم منذ اول عهدهم في مختلف البلدان وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وقد وصلنا من عام ٧٣١ ق.م. في عهد تغلات فلاسر الثالث اول رسم يمثل كاتباً يدون بالآرامية الفنائم المأخوذة من احدى المدن المفتوحة. وهو يمسك بيده ليس قلماً ولوحاً من طين لاجل الكتابة المسيارية وانما ملف بردي وريشة. ويبدو انه كان يكتب بكتابة ايجدية. وفي نحو عام ٥٠٠ ق.م. اصبحت الآرامية التي كانت اللغة التجارية لاحدى الجماعات السورية ليس فقط اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الهلال الخصيب كلها بل اللغة التي يستعملها سكان تلك البلاد في كلامهم. وكانت فوزها على شقيقاتها اللغات السامية الاخرى بما فيها العبرية تاماً. واصبحت لغة المسيح وشعبه^٢. والاشارة الثانية، ان لم تكن الاولى، للمسيحيين وجدت مكتوبة بالآرامية بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن ربما كان كنيسة في بومبي مما يجعل تاريخها قبل عام ٧٩ م^٣. وهناك صلاة آرامية تسمى «قدّيس» (المقدس) تشبه الصلاة المسيحية المعروفة بالصلاة الربانية في بعض عباراتها وهي اقدم منها وتبدأ بعبارة «ليتمجد ويتقدس اسمه العظيم»^٤. واسطورة احيقار^٥ الواسعة الانتشار تحوي بعض حكم اشورية او بابلية ولكنها بالآرامية وقد كتبت في القرن السابع او ما بعده.

(١) Olmstead, *History of Palestine*, p. 534.

(٢) انظر بشأن موضوع الآرامية كلغة التي كتبت بها مادة الانجيل: Charles C. Torrey, *Our Translated Gospels* (New York, 1936).

(٣) راجع: W. R. Newbold, «Five Transliterated Aramaic Inscriptions», *American Journal of Archaeology*, vol. xxx (1926), pp. 288 seq. والاشارة الاخرى هي في اعمال الرسل ١١: ٣٦.

(٤) انظر ما يشبه ذلك في العبرية في حزقيال ٣٨: ٣٢.

(٥) ان هذا البطل الذي يظن انه وضع الامثال قد ذكر لأول مرة في طويبا ١: ٢١ وما يليه ويظهر في عدد من القصص العبرية والسريانية والارمنية والعربية وغيرها. ويسمى تأثيره في قصص ايسوب Aesop.

ولم يقتصر انتشار الآرامية على المناطق السامية . ففي عهد داريوس الكبير (٥٢١ - ٤٨٦) جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الامبراطورية الفارسية وهكذا أصبحت حتى فتوحات الاسكندر اللغة المتداولة في امبراطورية تمتد « من الهند حتى الحبشة » . ان مثل هذا الفوز الذي حققته لغة لا تدعمها سلطة امبراطورية من اهلها ليس له مثيل في التاريخ .

ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الابجدية الفينيقية التي كان الآراميون اول من اقتبسها واستعملت في لغات اخرى في القارة الاسيوية . وحصل العبرانيون على ابجديتهم من الآراميين بين القرنين السادس والرابع وكانوا قبل استعمالون الابجدية الفينيقية القديمة مدة من الزمن . والحروف المربعة التي تطبع بها اليوم كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآرامية . واخذ عرب الشمال ابجديتهم التي كتب بها القرآن من الآرامية التي استعملها الانباط . كذلك حصل الارمن والفرس والهنود على ابجديتهم من مصادر آرامية ، وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من اصل آرامي . وحمل الكهنة البوذيين من الهند الابجدية السنسكريتية الى قلب الصين وكوريا . وهكذا وصلت الحروف الفينيقية شرقاً بطريق الآرامية الى الشرق الاقصى وغرباً بطريق اليونانية الى الاميركتين مطوّقة العالم كله .

الكتابات الاثرية

وجدت اقدم الكتابات الاثرية الآرامية المعروفة اليوم في شمالي سورية وتعود الى بدء القرن التاسع . وتوجد بينها كتابة قصيرة من تل حلف (غوزانه) . ثم تأتي كتابة اكتشفت حديثاً على نصب نذري على بعد اربعة اميال ونصف شمالي حلب التي كانت تحت حكم دمشق وترجع الى نحو عام ٨٥٠ ق.م . وقد كتب عليها اسم بنحدد الاول والكتابة التالية :

النصب الذي اقامه بار حدد ابن طاب رمآن ابن حاديان ملك آرام لسيده ملقارت وقد نذره له لانه اصغى الى صوته^٢ .

(١) انظر : Raymond A. Bowman, «The Old Aramaic Alphabet of Tell Halaf», *American Journal of Semetic Languages*, vol. lviii (1941), pp. 359-62; cf. Bowman in *Journal of Near Eastern Studies*, vol. vii (1948), p. 71.

(٢) قارن مع : Maurice Dunand, «Stèle araméenne dédiée à Melqart», *Bulletin du Musée de Beyrouth*, vol. iii (1939), pp. 65-76; cf. Albright, p. 26.

وعلى ذلك فإن كتابة زاكر ملك حماة ولعش^١ المشهورة (نحو ٧٧٥) التي كانت تعتبر أقدم كتابة آرامية أصبحت في الدرجة الثالثة في قدمها. وقد اقيم نصب زاكر من قبل هذا الملك الآرامي لتخليد ذكرى انقاذه من هجوم شنه عليه سبعة عشر ملكاً بينهم ملوك دمشق وشمال وعدد من المدن الفينيقية^٢.

واتت كتابات اثرية اخرى تركها الآراميون من زنجري (شمال) وهي مدينتهم الرئيسية في الشمال. وفيما سوى هذه الكتابات على النصب والمباني فإن هنالك اوزاناً ومستندات كثيرة عليها كتابات آرامية تتراوح بين القرن الثامن والقرن الخامس ق.م. واوراق البردي الآرامية التي كتبها جالية يهودية في مصر العليا واكتشفت في الالفنتين (جزيرة اسوان الحديثة) ترجع الى ما بين ٥٥٠ و ٤٠٠ ق.م.

وقد تفرعت اللغة الآرامية مع الزمن الى مجموعتين هما المجموعة الشرقية في وادي الفرات وتمثلها المندعية والسريانية، والمجموعة الغربية وتمثلها الآرامية التوراتية^٣ والترجوم ولهجات شمال وحماة والتدمرية والنبطية. وكانت تتكلم المندعية طائفة غنوسطية تسكن قرب الفرات بين القرنين السابع والتاسع م. واصبحت السريانية وهي لغة اديسا لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرافدين مع بعض الاختلافات المحلية، واستعملت بين القرنين الثالث والثالث عشر لليلاد ثم حلت العربية محلها. وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة اديسا وجعلوها لغة الكنيسة والادب والتعامل الثقافي صاروا يعرفون باسم سوريين. واصبح لاسمهم القديم اي الآراميين مدلول وثني غير مستحب في عقولهم ولذلك تجنبوه بوجه

(١) او لعش وكانت عاصمتها حزرك وفي التوراة حذراخ (سفر زكريا ١: ٩) ولقع على العاصي جنوبي حماة وغربي قلعة. انظر: Olmstead, *History of Palestine*, p. 407; Dussaud, pp. 144, 236-37.

(٢) راجع: H. Pognon, *Inscriptions sémitiques de la Syrie, de la Mésopotamie et de la région de Mossoul* (Paris, 1907), pp. 156 seq.

(٣) وهذه الآرامية موجودة في التوراة في سفر عزرا ٨: ٤ حتى ١٨: ٦؛ ١٢: ٧؛ ٢٦: ١٧؛ ٢٨: ١٧؛ ٢٩: ٢؛ ٣٤: ٧. والامارات الآرامية التي استعملها المسيح مذكورة في انجيل مرقس ٤: ١٥؛ ٣٤: ٧. وبما ان الآرامية وضمت في سفر دانيال ٤: ٢ على لسان الكلدانيين فلما حلت تسمى خطأ كلدانية اذ لغة التي تكلمها الكلدانيون او البابليون الحديثون كانت لهجة من الاكلدية.

المعوم وحلت محله التعابير اليونانية وهي سوري Syrian بالنسبة للشعب وسرياني Syriac بالنسبة للغة . ولتذكر ان اليونان كانوا يسمون بلاد آرام «سورية»^١ . وكثيراً ما يسمى سكان البلاد سوريين ولغتهم سورية في الترجمة السبعينية للتوراة (Septuagint) وكذلك في الترجمة اللاتينية الشائعة (Vulgate)^٢ . وفي التعبير الحديث تقتصر كلمة «سريانية» على لهجات ادنسا والمناطق المجاورة .

الحضارة المادية

اقتبس الآراميون الحضارة المادية للشعب الذي سكنوا بين ظهرائه . ففي شمالي سورية اصبحوا ورثاء ومتابعين لعمل الحضارة الحثية الاشورية وفي سورية الوسطى ورثوا الحضارة الكنعانية وتابعوها . واتخذت عاصمتهم شمال^٣ في الشمال الغربي مظهر مدينة حثية ولكن ملوكها كانوا يتسمون باسماء آرامية على الغالب وتركوا كتابات اثرية بحروف فينيقية . وكانت هذه المدينة من المدن الآرامية النادرة التي جرت فيها حفريات اثرية .

وقد اقام احد ملوك شمال واسمه بنامو الاول الذي عاش في النصف الاول للقرن الثامن تمثالاً ضخماً للاله حدد ارتفاعه تسعة اقدام ونصف ظهر فيه الاله بقبعة ذات قرنين وحلية مستديرة مجمدة وعينين متزلتين بالحجارة الكريمة وذراعين ممتدتين لاعطاء البركة^٤ . وتقول الكتابة التي تحت زنار التمثال ان م الملك الاكبر كان سعادة شعبه . ويذكر ان الارض التي منحتة اياها الآلهة المحسنة كانت «ارض شعير وقمح وثوم ويعمل الرجال في حرث تربتها وزرع كروصها»^٥ . وهناك تمثال تذكاري لبنامو الثاني (٧٣٢ م) اقيم غالباً فوق ضريحه من قبل ابنه ويقول:

(١) انظر ما جاء في ص ٦٦ عن اشتقاق اسم سورية .

(٢) قارن مع سفر حزرا ٧:٤؛ دانيال ٤:٢ .

(٣) شمال ومعناها «الشمال» . وتقع قرية زنجري الحديثة في منتصف الطريق تقريباً بين انطاكية ومرعش وكانت المدينة الرئيسية في شمال او شمال .

(٤) اكتشف هذا التمثال في ١٨٩٠ في كارجين Garjin على بعد ميل ونصف شمال غربي زنجري .

(٥) انظر : Cooke, p. 161; Arno Poebel, *Das appositionnelle Pronomen (Chi-* cago, 1932), p. 43. ويسمي بنلمو نفسه «ملك يؤودي Ya'udi» ويقابل يهوذا .

«وفي أيام ابي بنامو عيّن حاملين للكوؤوس وسائقين مركبات»^١ وبذلك زاد في فخامة البلاط الملكي .

ويظهر شكل ابن بنامو الثاني واسمه بار ركّاب منحوتاً بشكل بارز على عرش محفور حفرأ فخماً في الابنوس والعاج والذهب ولا يقل ابهة عن عرش سيده ملك اشور . ويرتكز العرش على مخروطيات الارز وفي زوايا المقعد الاربعة رؤوس ثيران . وتحت قدميه يوجد كرسي يمثل هذه الزخارف الفنية . وثوبه الطويل ذو الحواشي وقبعته المروسة من النوع الخشن . اما لحيته وتجايد شعره فانها تتبع الاسلوب الاشوري .

حدد الرّاعد

والاله الذي كان يوجه الآراميون اعظم اهتمام لعبادته كان حدد اله الزوابع والرعد ويسمى ايضاً أدد او أدو Addu . وكاله للبرق والرعد كان حدد مفيداً حين يرسل المطر الذي ينحصب الارض وكان مضراً حين يرسل السيول . ومن القابه ريمون (الرّاعد)^٢ . وكان نعمان السوري يسمي اله سيده ملك دمشق بهذا اللقب^٣ . وكان الاسمان يستعملان معاً احياناً فيقال حدد ريمون . ويظهر في نحت بارز من زنجبرلي حاملاً الشوكة ذات القضبان الثلاثة والمطرقة رمز البرق والرعد . وفي ملاطية يبدو في شكل منحوت واقفاً على ظهر ثور وهذا رمز القوى المولدة . وكان ام معبد للاله حدد في هيرابولس (منبج)^٤ ولكن له معابد في مدن سورية اخرى كثيرة وفي لبنان . وكان محبوباً بصورة

(١) قارن مع : Cooke, p. 174; Mark Lidzbarski, *Handbuch der nordsemitischen Epigraphik*, vol. i (Weimar, 1898), p. 443.

(٢) يبدو ان الاكلدتين استعاروا هذه الكلمة (التي لا تتصل بطريق الاشتقاق بكلمة رامون rammon اي الرّمان) من المناطق الفريية . وكان الاشوريون يلفظونها رمان . وقد يكون اسم حدد اشتق من قل لا يزال في اللغة العربية وهو هدد بمعنى كسر او هدم .

(٣) سفر الملوك الثاني ١٨:٥ .

(٤) بالاشورية Nampigi وبالارامية Nappigu (وفيها بمسند اصبت مايج Mabug او Mabhog بمعنى لبع من قل nbag اي لبع) وباليونانية Bambyce وفي اليونانية الرومانية هيرابولس اي المدينة المقدسة ، واليوم منبج .

خاصة بين المزارعين في سورية وامتزجت عبادته فيما بعد بعبادة الشمس وزخرف رأسه عند ذلك بالاشعة كما في بعلبك. وفي الغالب يجب اعتبار جوبيتر هليوبوليتانس الذي عبد في بعلبك معادلاً للاله حدد. وفي العصر الروماني تبدل اسمه فاصبح جوبيتر الدمشقي (Jupiter Damascus) .

وقد أمر بنامو الاول ابنه في الكتابة التي تركها على تمثال حدد ان يتلو العبارة الآتية عندما يقدم الذبائح : « لتأكل روح بنامو مع حدد ولتشرب روحه مع حدد ولتفرح بالتقدمة لحدد »^١. ويعطينا ذلك فكرة طريفة عن فكرة الآراميين القدماء في الحياة الآخرة. وعرف الآراميون بعبادة تسمية ابنائهم « بار حدد » اي ابن حدد او ابن آلهة اخرى محببة لديهم. وبقيت هذه العادة شائعة في سورية حتى العصر المسيحي وتلقي ضوءاً مفيداً على العلاقة المفترضة بين الاله والذي يعبد.

اتارغاتس

وعبدت رفيقة حدد او زوجته وهي الالهة توالد في هيرابولس وفي مراكز سامية اخرى باسم اتارغاتس Atargatis^٢. وكان اليونان والرومان يتسبطون الامر فيسمونها « الالهة السورية ». وقد اتانا وصف لعبادتها من العصر الكلاسيكي كتبه لوكيان^٣ وهو سوري من سميساط ولد حوالي ١٢٥ م. وكان يكتب باليونانية. وصفات عبادتها كما كتب عنها لوكيان هي صفات عبادة الالهة الام السامية وفي النقود التي انت من هيرابولس نراها تلبس تاجاً ويصحبها اسد احياناً. ويتألف

(١) انظر : Cooke, p. 162; Poebel, p. 48.

(٢) وهذا الشكل اليوناني للاسم مأخوذ من الآرامية عتار Atār اي عشتارت بالإضافة الى الآرامية عتاه Atāh (ولا علاقة لها بالآلهة الفرجية آتيس Attis). وكانت عبادة عتار وعتاه بالاصل عبادتين ساميتين مختلفتين ثم اندجبتا. انظر : S. Ronzevalle, « Les Monnaies de la dynastie de 'Abd-Hadad », *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, vol. xxiii (1940), No. 1, p. 26.

(٣) في كتابه De Dea Syria. انظر نص الكتاب وترجمته في : The Syrian Goddess, tr. Herbert A. Strong, ed. John Garstang. (London, 1913); ed. and tr. A. M. Harmon, « The Goddess of Surrye, in *Lucian*, vol. iv (London, 1925), pp. 337-411.

رمزها من الهلال مع قرص الشمس . وكان لها معبد في كرنيون Carnion^١ في جلعاد . وكانت عسقلان في فلسطين مركزاً لعبادتها حيث اعتبرت غالباً معادلة لافروديت .

وانتشرت عبادة اتارغاتس بين اليونان في العصر السلوقي وبواسطتهم وصلت الى رومة حيث اقيم معبد باسمها . وتشاهد في الآثار الرومانية جالسة على عرش بين اسدين . وكان كهنتها عموماً من الحصيان الذين اعتادوا القيام برحلات الى اليونان وايطاليا لنشر عبادتها بواسطة التنبؤات والرقص الروحاني وجمع تبرعات الاتقياء لاجل معبدها في هيرابولس .

وهناك نموذج غريب لاتارغاتس على النقود من هيرابولس حيث تظهر محجبة . ووجدت صور اخرى كثيرة لاتارغاتس المحجبة^٢ . وتظهر رسوم نساء محجبات بحجاب ثقيل يشبه حجاب اي مسامة محافظة اليوم على نقش من معبد بعل في تدمر وفي لوح منحوت من دورا اوربس . وترينا بعض الآثار الاخرى الرأس محجباً . ويبدو ان الحجاب كان في الشرق القديم رمز المرأة المتزوجة ولباسها المفروض . وكان التشريع الاشوري من منتصف الالف الثاني ق.م . يتطلب من نساء الرجال الاحرار وبناتهم ان يغطين رؤوسهن حين يخرجن الى الشارع^٣ .

وكانت مجموعة الآلهة الآرامية تضم فيما سوى الزوج الالهي حدد واتارغاتس عدداً من الآلهة الاخرى ذات المكانة الثانوية بعضها محلي والبعض الآخر مستعار من الامم المجاورة . وكانت الآلهة حدد وايل وركاب ايل وشمس ورشوف هي التي اعطت الملك بنامو الاول الصولجان في الكتابة الاثرية التي تركها ومنحته الاشياء

(١) وهي Karnion او Carnain التي هي على الغالب Ashteroth Karnaim (اي عشتاروت ذات القرنين) المذكورة في سفر التكوين ١٤: ٥ . والموقع الحالي هو إما تل عشترا على احد عشر ميلاً شمال غربي دوعا أو تل الاشعري على اربعة اميال جنوبي تل عشترا وهذا اكثر احتمالاً .

(٢) انظر : Rouzevalle, pp. 25-26.

(٣) راجع : V. Scheil, *Recueil des lois assyriennes* (Paris, 1921), §§ 41, 42; Morris Jastrow, Jr., «An Assyrian Law Code», *Journal American Oriental Society*, vol. (1921), pp. 34-38. انظر بشأن الحجاب في الشرق القديم : Morris Jastrow, «Veiling in Ancient Assyria», *Revue archéologique*, vol. xiv (1921), pp. 200-38; R. de Vaux, «Sur le voile des femmes dans l'orient ancien», *Revue Biblique*, vol. xlv (1935), pp. 397-412.

التي حلى لاجلها . وركّاب او سائق المركبات هو اله مستورد الى سورية مع اله الشمس الاشوري . وشمش الاشوري هو اسم اله الشمس الذي كان يعبد في العالم السامي كله . ورشوف هو الاله الفينيقي رشف الذي كان كثيراً ما يمثل بشكل جندي مسلح . وفي كتابة زاكر ملك حماة يرفع هذا الملك يديه لبعل شمين (سيد السموات) ويقول : دكل من يحو اسم زاكر ملك حماة ولعش من هذا النصب او يجربه من امام ايل وير El Wer او يزيله من مكانه او يمد يده ضده . . . فان بعل شمين وايل وير وشمش وسهر وآله السماء وآله الارض . . . ستهلكه^١ . ويتضح ان بعل شمين هو حدد ولكن هوية ايل وير لم تعرف بعد . وسهر^٢ هو الاله القمر . وكانت حران مركز الاله القمر الذي يسمى سين عند الاشوريين . ويرد ذكر هذا الاله على حجر تياه^٣ التي ترجع كتابتها الى القرن الخامس ق.م. باسم شنگالا Shingalla وهو اسم اشوري مستورد معناه سين العظيم . والالهان الآخران المذكوران على هذا الحجر هما سلم (بمعنى صورة او تمثال) ويشير غالباً الى بعل المحلي ، وعاشرة^٤ .

(١) انظر : Pognon, p. 176; Mark Lidzbarski, *Ephemeris für semitische Epigraphik*, vol. iii (Geissen, 1915), pp. 4, 11.

(٢) وتأتي كلمة شهر العربية من هذا الاصل .

(٣) تياه هي واحة في شمالي الحجاز .

(٤) انظر ما جاء بشأن عشرة في ص ١٣٠ . Cooke, pp. 196-197.

الفصل الثالث عشر الشعب العبراني

كان العبرانيون الشعب السامي الرابع الرئيسي الذي سكن سورية بعد الاموريين والكتعانيين والآراميين. وكان اهم مركز للاحداث السورية في عهد الاموريين في الشمال في منطقة الجسر السوري. وانتقل مركز هذه الاحداث في زمن الكتعانيين الى الساحل، وكان في زمن الآراميين في الداخل، اما الآن فقد تحول مع العبرانيين الى الجنوب اي فلسطين.

اصل العبرانيين

كان دخول العبرانيين الى كتعان - كما كانت تسمى سورية الجنوبية حينذاك - نتيجة ثلاث هجرات كما يظن ولكن هذه الهجرات غير محددة بالضبط. فقد بدأت موجة الهجرة الاولى في بلاد الرافدين وكانت معاصرة تقريباً للحركة التي حصلت في القرن الثامن عشر وكان من شأنها انتشار المكسوس والحدوريين في ساحل البحر المتوسط الشرقي^١. واتصلت الهجرة الثانية بالآراميين في القرن الرابع عشر في عصر العمارنة. واما الهجرة الثالثة التي نعرف عنها اكثر بكثير فقد اتت من مصر والجنوب الشرقي بقيادة موسى ويشوع في اواخر القرن الثالث عشر^٢. وكان الكتعانيون يشكلون معظم السكان عندما اتى الرواد اسلاف الشعب العبراني من بلاد الرافدين. وكان الاموريون يسكنون المرتفعات التي لم يحتلها جماعة مستقرون بصورة كثيفة وهذا ما اعطى للقادمين الجدد مجالاً للسكنى. وكانت توجد اقوام اقل شأنًا في اماكن متفرقة وبعيدة.

(١) انظر ص ١٦١ و ١٦٢.

(٢) قارن مع : Theophile J. Meek, *Hebrew Origins* (New York, 1936), pp. 3 seq.

وتزواج السكان الجدد مع جميع هؤلاء وكانت النتيجة هي الشعب العبراني الذي اتصف بأصول عرقية متنوعة تضم عناصر سامية وحورية وحشية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

وقد برهنت سورية مرة أخرى بعد مجيء العبرانيين على مقدرتها في امتصاص الدخلاء الرحّل أو نصف الرحّل بتشجيعهم على أن يصبحوا مستقرين وأن يتركوا ذلك المصدر الغريب لقوتهم وهو التنقل . فقد أتى الشعب الذي عرف فيما بعد بالعبرانيين بشكل متجولين ومغامرين ومرترقة وحنود لا ارتباط لهم ثم استقروا بالتدريج بين السكان الذين سبقوهم وفاقوهم في مدنيّتهم وتعلّموا منهم حث الأرض وبناء المنازل وممارسة فنون السلم وأتم من ذلك القراءة والكتابة . ويضاف إلى هذا كله أن العبرانيين تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم . واللغة الفينيقية واللغة العبرانية القديمة كما هي مدونة في العهد القديم لا تختلفان إلا من ناحية اللهجة . وأصبح العبرانيون القدماء بوجه الأجمال ورثة المظاهر الأساسية للحضارة الكنعانية المادية واتباع كثير من العبادات والعادات والصفات الدينية الكنعانية .

الدور القبلي

يحيط الغموض ببداية وجود العبرانيين في سورية الذي سجل بشكل اسطوري تقليدي . والمرويات العبرانية المذكورة بشكل مختصر جداً تقول أن إبراهيم^١ — جدهم الأكبر أو قبيلتهم الأصلية — أتى من أور في بلاد الرافدين بطريق حران وأقام مؤقتاً قرب حبرون (الخليل) . وترك وريثه اسحق^٢ ابناً اسمه يعقوب^٣ . وبعد أن أقام يعقوب في فدان آرام عدة سنوات وقع عليه الاختيار ليكون صاحب الشأن تفضيلاً له على أخيه عيسو^٤ وتغير اسمه فأصبح اسرائيل^٥ . وحصل

(١) بالعبرية ابرام abh-rām أي الآب رفيع أو عالي .

(٢) من العبرية Yīshāq أي ليثسم [إيل] .

(٣) من العبرية Ya'qōbh أي ليحفظ [إيل] .

(٤) انظر سفر التكوين ٢٥: ٢٣، ٢٧-٣٤ .

(٥) بالعبرية Yisrā'el أو ليحكم إيل أو إيل يحكم .

عيسو على اسم آخر وهو ادوم (اي احمر) وحل ورثته فيما بعد محل سكان منطقة جبل سعير وعرفوا باسم الادوميين^١. وهكذا ازيل عيسو من حياة العبرانيين وتفكيرهم كما ازيل قبلاً اسماعيل^٢ ابن ابراهيم من جاريته المصرية هاجر وفضل عليه اسحق. وبين اولاد يعقوب الاثني عشر كان يوسف^٣ الحادي عشر وهو الابن الاكبر لراحييل وقد باعه اخوته لجماعة في مصر وارتفع شأنه في الدولة المصرية. وبعد ان اقام ورثة يوسف واخوته اجيالاً عديدة في مصر عادوا الى فلسطين تحت قيادة موسى.

ذلك هو مختصر التاريخ العبراني القديم كما وضعه كتاب عاشوا بعد وقوع الحوادث بمئات السنين واستندوا على ما سمعوه وعلى سلسلة طويلة من المرويات الشفهية.

لم يكتب هؤلاء المؤرخون بابتداء مروياتهم بالجد الاكبر للشعب العبراني فتوسعوا في قصة الانسان وخصوها بمبتدئين بالخلقة. واخذوا في ذلك موادهم من مصادر بابلية ولم يصبح هذا الامر محققاً الا بعد منتصف القرن الماضي حين كشف تفسير الكتابات المسبارية عن وجود ما يقابل قصص الخلقة والطوفان وغيرها. غير ان هذه القصص هذبت وبُسطت وصار لها مغزى اخلاقي على يد الكتاب العبرانيين ثم كتبت بشكل جميل حتى انها اصبحت قسماً من تراث البشرية الادبي. وهي لا تزال بشكلها هذا تسلي وتعلم اجيالاً من القراء في جميع البلاد وفي مختلف اللغات.

انه ليتضح ان التاريخ الذي كتبه العبرانيون، مما سبق الدور القبلي ليس بتاريخ. وليس من السهل استخلاص لب الحقائق التاريخية من المرويات التي تتعلق بالدور القبلي نفسه. وقد تعكس لنا قصة ابراهيم اخبار الهجرة الاولى كما ان قصة اسرائيل قد تكون انعكاس الهجرة الثانية. وأما قصة موسى فهي تاريخية بالتأكيد.

(١) سفر التثنية ٢٤:٢، ٢٢:١٢.

(٢) من العبرية يشمع ايل Yishmā'el اي ليسمع ايل.

(٣) بالعبرية ياسف Yāsaph اي ليضيف [ايل].

الخروج من مصر

يبدأ تاريخ بني اسرائيل الحقيقي كشعب اذاً بالخروج من مصر. ان هذا الحادث الهام حصل في الثلث الاخير للقرن الثالث عشر. فقد وجدت احدى القبائل العبرانية - وهي قبيلة راحيل - في مصر في زمن الهكسوس مأوى لها وازدهرت. وكان مكان سكناها هناك ارض غوشن Goshen قرب افاريس Avaris عاصمة الهكسوس. واخيراً اتى فرعون « ولم يكن يعرف يوسف » وفرعون هذا هو رمسيس الثاني كما يعتقد (حوالي ١٣٠١ - ١٢٣٤). وقد حصل الخروج غالباً في عهد رمسيس ابن رمسيس (١٢٢٤ - ١٢١٥). ويجوز نصب في طيبة بتاريخ ١٢٣٠ ق. م. اقدم ذكر لاسرائيل كاسم شعب في فلسطين. وربما كانت الاشارة لجماعة من الاسرائيليين الذين لم يهاجروا الى مصر.

بعد ان غادر افراد قبيلة راحيل ارض مصر في اوائل القرن الثالث عشر قضا عدة سنوات في سيناء وجوار قادش - برنبا^٢. حيث تعرضوا لمتاعب كثيرة. ان تلك « البرية العظيمة المخيفة » التي ظلت مخاطرهما تراود العبرانيين لمدة اجيال يمكن اجتيازها اليوم بمدة خمس ساعات على طريق من الاسفلت طولها ١٤٠ ميلاً تصل مصر بفلسطين. وفي مدين وهو القسم الجنوبي من شبه جزيرة سيناء وضع العهد الالهي. وتزوج زعيم الابريائيليين موسى الذي يسدو اسمه ككلمة مصرية معناها « ابن » من ابنة كاهن مدين الذي يعبد بهوه^٣ والذي علم موسى هذه العبادة الجديدة. وكان هذا الاله العربي الشمالي اله صحراء وبالاصل اله القمر ومقره كان خيمة وطقوسه تشمل بعض الاعياد والتضحيات من بين القطيع^٤. وتزوج آخرون غالباً مع المدينيين والقينيين^٥ وسائر سكان بادية شمالي الجزيرة العربية.

(١) سفر الخروج ١: ٨.

(٢) يظن انها عين قديس اليوم على بعد ٥١ ميلاً جنوبي بحر السبع.

(٣) سفر الخروج ١٨: ١٠-١٢. وكلمة بهوه (بالانكليزية Jehorah) من العبرية التي قد تكون صيغة المضارع من فعل هوّه بمعنى أحدث.

(٤) سفر الخروج ١٨: ١٠؛ سفر العدد ١٠: ٣٥-٣٦.

(٥) اي الحدادين (بالعربية قين بالفرد)؛ سفر القضاة ١٦: ١١؛ سفر العدد ٢٩: ١٠. وكان المصريون وعرب الجزيرة العربية يملكون عن وجود الحدادين في سيناء ووادي العربية قبل هذا العصر بكثير.

السكنى في فلسطين

وفي حوالي ١٢٥٠ ق. م. ظهر هؤلاء البداء المتحدرون من اخلاط العشائر في الجهة الجنوبية الشرقية من سورية - اي من بادية شرقي الاردن - وهدفهم احتلال الاراضي الخصبة . وكان عددهم لا يمكن ان يتجاوز ستة آلاف او سبعة آلاف اذا اعتبرنا شروط حياة الصحراء وقلة المياه والكمية المحدودة من الطعام والاراضي الصالحة لرعي القطعان . وتجنب العبرانيون بمالك ادوم ومؤاب وعموث الصغيرة التي تقع الى جنوبي البحر الميت وشرقيه وشماليه الشرقي ولم يحاولوا اخضاعها حتى عهد الملكية .

وكان اول فوز عبراني في شرقي الاردن على سيعون ملك الاموريين وتبعه فوز آخر على عوج (Og) ^٢ الملك الجبار ملك باشان . وفي فلسطين نفسها كانت من بين المدن الاولى الكنعانية المحصنة التي سقطت لجيش (تل الدوير) ، وعاي (Ai) ^٣ واريجا . وكان سقوط اريحا من ارووع هذه الحوادث ^٤ . فقد احرق يشوع اريحا بالنار بأمر يوه «وكل ما بها» ^٥ . ولم تسقط مجدو في الشمال حتى بعد حوالي مائة سنة . وأدى التغلغل العبراني في الجليل الى فتح حاصور ^٦ موقناً وهي عاصمة مملكة كنعانية في الشمال . وكان على العبرانيين ان يعيدوا فتحها في عهد القضاة ^٧ . ولم تسقط المدن الاخرى المهمة مثل بيت شان واورشليم وجزر حتى حوالي ١٠٠٠ ق. م او بعد ذلك بقليل .

(١) قارن مع سفر الخروج ٣٧:١٢؛ العدد ٢١:١ وما بعده؛ ٤:٢ وما بعده .

(٢) سفر العدد ٢١:٢١ وما يليه؛ ٣٣:٢١ وما يليه .

(٣) قرب دير ديبوان الحالية . يشوع ١٠:٣٠ - ٣١؛ ٣:٨ وما يليه .

(٤) يشوع ١٥:٦ وما يليه .

(٥) يشوع ٢٤:٢٦ .

(٦) تل وقاص او تل القدح وهو على نحو ٣ ٣/٤ الميل غربي جسر بنات يعقوب . سفر يشوع

١٠:١١ - ١٣ .

(٧) سفر القضاة ٢:٤؛ ٢٣ - ٤؛ صموئيل الاول ١٢:٩ .

ومع ذلك فإن ما يسمى بالفتح العبراني كان من جهة فتحاً عسكرياً ومن جهة أخرى تغلغلاً سلبياً بطيئاً الى ارض « اللبن والعسل ». وبعد ان حصل القادمون الجدد على محط رجل في الارض المزروعة فان قوتهم ازدادت بالتزاوج مع عناصر اقدم وبانضمام اقاربهم اليهم وكانوا قد بقوا في البلاد ولم يهاجروا الى مصر. وهكذا اصبحوا يسودون البلاد. وكان من الطبيعي ان تكون المعارك عظيمة الشأن بالنسبة لمؤرخيهم. ولم تكن تلك المعارك نقطة الارتكاز في المرويات فحسب وانما كثيراً ما حصلت مبالغة في كثير من الحوادث. ويمكن القول بالاجمال ان العملية حصلت باخضاع سكان البلاد للبرانيين بطريق المعاهدة او الفتح او الامتصاص التدريجي.

وعندما سيطر البرانيون على البلاد كانوا يقسمونها بين القبائل الاحدى عشرة وتركوا قبيلة لاوي الكهنوتية موزعة بين سائر القبائل لتهم بشؤونها الدينية. وهكذا سكنت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الاراضي المرتفعة لحول اورشليم بينما استقرت القبائل الاخرى في السهول الاكثر خصباً في الشمال.

القضاة

شملت فترة الاستيطان تقريباً الربع الاخير للقرن الثاني عشر والارباع الثلاثة الاولى للقرن الحادي عشر وهي تقابل ما يسمى بعصر القضاة. وكان هؤلاء القضاة بالحقيقة ابطالاً وحكاماً وطنيين ظهروا بصورة عفوية في ايام الشدة وقادوا شعبهم ضد الاعداء المجاورين او الحكام الاجانب. وكانت دبورة وهي أم ملهمة في اسرائيل من اولئك القضاة وقد قادت مع باراق ست قبائل للنصر على الكنعانيين في الشمال^١. وكذلك كان جدعون الذي رد هجوم المديانيين ومعه ٣٠٠ رجل^٢. وكان شمشون اشهر اولئك القضاة وقد ازدانت قصة نزاعه مع الفلسطينيين باضافات كثيرة على يد القصاصين العبرانيين^٣. واتى المديانيون كغزاة من البدو واستخدموا

(١) سفر القضاة ٤ : ٤ - ١٤ .

(٢) القضاة ١٥ : ٧ وما يليه .

(٣) سفر القضاة الاصحاح ١٥ و ١٦ .

لاول مرة الجمل المدجن . وهكذا ادخلوا سلاحاً جديداً في الحرب وكان له مفعول عظيم خاصة في الغزو على مسافات بعيدة .

الفلسطينيون

وكان الفلسطينيون اقوى المنافسين الذين كان على العبرانيين ان يقاتلهم لامتلاك البلاد . والفلسطينيون من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين اتوا من منطقة بحر ايجة . وبعد ان فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل سيطر الفلسطينيون على البلاد الساحلية . وقد اذت حركات غامضة للشعوب في آسية الصغرى والبلاد الايجية في اواخر القرن الثالث عشر الى تقرق قبائل بكاملها فبحشت عن موطن لها في مناطق اقل اضطراباً . وتوافدت جماعات من المهاجرين بينهم قبائل الفلسطينيين بطريق البر والبحر نحو سورية وبعد تقويضها بعض الدول ومنها اورغاريت^١ وصلت الساحل المصري . وقد هزمت هناك حوالي ١١٩١ ق. م . في معركة بحرية وبوية عن يد رمسيس الثالث ولكنه سمح لها ان تنزل بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبية الذي صار يسمى فلسطينيا Philistia^٢ . واستقرت مجموعة اخرى تسمى التجكر Tjeker في دور Dor جنوبي جبل الكرمل حيث صادفهم المبعوث المصري ون آمون بعد قرن تقريباً^٣ . وكان نشاط لصوص البحر في شرقي البحر المتوسط في زمن ون آمون مصدره جواله البحار هؤلاء . وكان قد اتى قبل الغزوة الفلسطينية جماعة آخرون من شعوب البحر من اليونان وآسية الصغرى وبعضهم اتى بطريق قبرص وتزلوا في الساحل المصري حيث صدم مرتفات حوالي عام ١٢٢٥ ق. م .

منهم الخمس

امتد الساحل الذي استولى عليه الفلسطينيون بصورة دائمة من غزة حتى جنوبي

(١) انظر ص ١٢٧ - ١٢٩ . وقد هدمت صور بعد ذلك بمدة قصيرة .

(٢) انظر Breasted, Records, vol. iv, § 403 حيث يوجد اول ذكر لاسم « بليست » وكان Palaeste اسم مكان في منطقة الليرة وهي ابيروس . انظر : G. Bonfante, « Who were the Philistines? » American Journal of Archaeology, vol. L (1946), p. 251.

(٣) انظر ما جاء في ص ١٤٤ - ١٤٥ .

بافا . واهم المدن التي استوطنوها كانت غزة وعسقلان واشدود وعقرون Ekron وجت^١ Gath واحتفظت باسمائها السامية تحت حكمهم . وكانت جت^٢ ابعد منهم في الداخل وسياستهم كانت ان يظفوا قريبين من البحر حيث يمكنهم السيطرة على طرقه واستخدام التلال التي تغطيها الكروم فيها وراءه . وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبين بلاد الفينيقيين في الشمال . ولم يؤسس الفلسطينيون مستعمرات ما عدا مدينتي اللد وصقلع Ziklag^٣ اللتين يمكن استثنائهما . وقد توسعوا من المنطقة الساحلية في الداخل واستولوا على عدد من المدن الكنعانية وتزعوا السلاح من السكان . وكانت حملات الفراعنة المتتابة لمعاينة سورية وفرض مختلف المطالب عليها قد افقرتها واضعفت مقاومتها امام هجوم قبائل البادية وقرصان البحار . وما كان باستطاعة الفلسطينيين ولا العبرانيين ان يصيبوا ذلك النجاح في تثبيت اقدامهم في البلاد لو ان مصر الامبراطورية كانت لا تزال قادرة على السيطرة التامة عليها .

وبما يساعد في الدلالة على ان الفلسطينيين كانوا اوربيين الرسوم التي وجدت على البناء التذكاري الذي اقامه رعمسيس الثالث . كما يدل على قدومهم من جزر اليونان وخاصة كريت^٤ نموذج الخزف الذي ادخلوه . وبما انهم اتوا معهم بنسائهم فانهم ظلوا مترفعين في اول الامر يشكلون طبقة عسكرية اجنبية تقيم في الحاميات وتمثل حضارة اجنبية . وقد نظمت منهم الخمس بشكل بمالك مدن كل منها تحت حكم سيد^٥ ولكنها جميعها كانت تشكل اتحادا . ويبدو ان السيادة كانت لمدينة اشدود . وتظهر صورة احد اسياهم بلحية على الشفة السفلى وشعر مجدول على الجانب على غطاء تابوت من الخزف وجد في بيت بيت^٦ Beth-pelet (خربة المشاش) قرب بئر السبع في اقصى جنوبي اليهودية .

(١) وقد تكون تل عرق المنشية على ستة اميال ونصف غربي بيت جبرين (Eleutheropolis) .

(٢) وهي في اقصى جنوبي منطقة يهوذا وربما كانت تل الخويلفة على عشرة اميال شرقي تل الشريعة .

(٣) وقد ذكرت بلسم كفتور في سفر عاموس ٧: ٩؛ سفر ارميا ٤٧: ٤ .

(٤) وردت في التوراة العبرانية باسم سرن^٧ saren في سفر يشوع ١٣: ٣؛ القضاة ٣: ٣؛ ١٦: ٥؛ صموئيل الاول ٦: ١٦ وهي من الكلمات الفلسطينية القليلة الباقية . وكلمة اخرى هي «كوبع» بمعنى خوذة واتت الى العربية (قبع) بطريق العبرية ورجعها البعض الى الحثية . وكلمة اللاتينية caput تعود الى نفس الاصل .

وكانت ذروة قوة الفلسطينيين في النصف الثاني للقرن الحادي عشر. فقد كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق.م. واخذوا منهم تابوت العهد وحملوه الى اشدود^١. وفي نحو عام ١٠٢٠ كانوا يقيمون في حاميات في البلاد المرتفعة نفسها. وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (توفي نحو ١٠٠٤) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان^٢. ولا يمكن ان يعني ذلك الا ان الفلسطينيين كانت لهم اليد العليا بالنسبة لبني اسرائيل.

والذي جعل الفلسطينيين متفوقين بصورة خاصة على اعدائهم هو تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر واستخدام الحديد لاجل اسلحة الدفاع والمجوم. وهناك صورة خاطفة لمحارب فلسطيني مزود بالاسلحة المعدنية في قصة جليات الذي كانت قناة رعيه «كنول النساجين» وسنان رعيه كان يزن «ست مئة شاقل حديد» والذي كان ترسه ثقيلًا جداً حتى انه احتاج الى حامل ترس خاص «يمشي قدامه»^٣. وقد عرضت بعض حوادث البطولة الحربية الشهيرة عند العبرانيين كما في قصتي شمشون وداود لتتعارض مع مظاهر هذه القوة لدى الفلسطينيين.

الحديد

واستثمر الفلسطينيون معرفتهم في صهر الحديد واستخدامه حتى انهم احتكروها. وكانوا يضطرون الاسرائيليين الذين يريدون تحديد آلاتهم الزراعية وادواتهم القاطعة ان ينهبوا الى حدادين فلسطينيين^٤. وكان هذا العائق الكبير في ايام الحرب كما اتضح مما جرى في عهد شاول.

(١) سفر صموئيل الاول ١:٥. انظر بشأن صلة تابوت العهد بما يشبهه وما جاء قبله عند الساميين - اي القبة قبل الاسلام عند العرب والمحمل في الحج عند المسلمين والمطلة عند البدو - Julian Morgenstern, *The Ark, the Ephod and the «Tent of Meeting»* (Cincinnati, 1945), pp. 1 seq.

(٢) سفر صموئيل الاول ١٣:٣ وما يليه ٣١:١٢.

(٣) سفر صموئيل الاول ١٧:٧.

(٤) سفر صموئيل الاول ١٣:١٩ - ٢٢.



وكان الحثيون قبل قدوم الفلسطينيين قد استخدموا الحديد بصورة محدودة في اوائل القرن الثالث عشر كما يستدل من مراسلات حتوشلش وكان مصدر الحديد المناطق الواقعة على البحر الاسود. غير انه لم يصبح استعمال هذا المعدن شائعاً في سورية حتى قدوم الفلسطينيين. وحافظ الحثيون على اسرار صناعته بحرص شديد كما فعل الفلسطينيون من بعدهم. وقد تفوق الكنعانيون الذين تعلموا من الفلسطينيين استخدام المركبات الحديدية تفوقاً حاسماً على الغزاة الاسرائيليين^١.

ولم يحصل غير الفلسطينيين على معرفة صهر الحديد المعقدة الا في ايام حكم داود (توفي نحو ٩٦٣) حين ضعفت سلطة الفلسطينيين في البلاد^٢. فانه عدا عن تغلبه على الفلسطينيين قد فتح ايضاً بلاد ادوم التي كانت مصدراً غنياً للحديد الخام. وكان هذا المعدن موجوداً في لبنان ايضاً وتعلم الفينيقيون استخدامه في بناء سفنهم. وهكذا فان الفلسطينيين رفعوا الحضارة السورية من مرحلة البرونز الى مرحلة ام وهي عصر الحديد. وكان ذلك اهم فضل لهم.

وفوق ذلك فانه يمكن الاعتقاد بانهم اعطوا جيرانهم وورثتهم الفينيقيين ميلاً للاسفار البحرية البعيدة كان من نتائجه استكشاف البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الاطلسي الشرقي. وفيما سوى هذا وبقياً قليلة للحضارة المادية بشكل خرف وآلات زراعية ومطارق وازاميل حديدية فان الفلسطينيين كادوا ان لا يتركوا اثرأ يمكن ان يذكرنا بهم. وكجماعة اجنبية فانه لم يكن لهم ما يضمن بقاءهم سوى تجديد عددهم بواسطة الهجرة وذلك امر مستحيل في تلك الظروف، وفي نهاية حكم داود اخذوا يتجهون نحو الزوال كشعب. ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ولم يتركوا الا اليسير جداً لمعرفة لغتهم وديانتهم وعمارتهن وسائر مظاهر حضارتهم. وعندما كتب نحميا^٣ في منتصف القرن الخامس لم يذكر الفلسطينيين بل

(١) يشوع ١٧: ٢؛ القضاة ١: ١٩.

(٢) اخبار الالام الاول ٢٢: ٣.

(٣) سفر نحميا ٤: ٧؛ ١٣: ٢٤.

ذكر «الاشدوديين» الذين كانوا يتكلمون بلسان اشدودي . ومن اسماء الاشخاص النادرة التي وصلتنا اسم «أخيش»^١ . ومن آلمتهم داجون^٢ اله الحبوب كما يعني هذا الاسم وقد اقتبس من آلمة الكنعانيين . وكان مركز عبادته اشدود ومقر رفيقته عشتاروت كان في عسقلان . اما عمارة معبد داجون وقصر الحاكم او السيد في غزة^٣ وسائر معابد الفلسطينيين المذكورة في العهد القديم فانا لا نعرف عنها شيئاً .

(١) سفر صموئيل الاول ٢٧: ٢ .

(٢) سفر القضاة ١٦: ٢٣؛ صموئيل الاول ٥: ٢-٧؛ اخبار الايام الاول ١٠: ١٠؛ سفر المكابيين الاول ١٠: ٨٤ .

(٣) سفر القضاة ١٦: ٢٣ وما يتبع .

الفصل الرابع عشر المملكة العبرانية

المملكة المتحدة

كانت مقاومة العبرانيين للفلسطينيين بصورة خاصة فرصة سنحت لتأسيس المملكة العبرانية . وبالحكومة الملكية يبدأ تاريخ الامة العبرانية . ففي ظلها اصبح للعبرانيين صفات قومية بارزة وان كانوا فقدوا النظرة السياسية . وكان العبرانيون الشعب الوحيد بين الشعوب السامية القديمة الذي انشأ شعوراً قومياً متطرفاً كما ان العبرانيين وحدهم من بين الساميين القدماء احتفظوا بصفاتهم القومية وبفرديتهم . وقد ساعدت الديانة مساعدة كبرى في توحيدهم وتعاونهم .

وكان لجيران العبرانيين من ادوميين ومؤابيين وعمونيين ملوك . والفلسطينيون كان لهم اسياد او اقطاب حافظوا على اتحاد ضعيف . وكان للفينيقيين بمالك مدت وكانت بعضها مثل ينيوس وصيدا وصور قد تطورت وصارت تشكل امماً . غير ان العبرانيين كان لهم حتى هذا الحين قضاة او زعماء يظهرون عندما تدعو الحاجة . ولذلك ذهب شيوخ اسرائيل الى زعيمهم الديني صموئيل وطلبوا منه ان يجعل لهم « ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب »^١ . و« مسح رجل اسمه شاول اول ملك عليهم نحو عام ١٠٢٠ ق.م. رجل « من كتفه فما فوق كان اطول من كل الشعب »^٢ . ففكرة الملكية لم تأت من مصادر خارجية فحسب وانما الملكية نفسها في نظامها تشكلت بالتدريج على اسس مقتبسة من الدول المجاورة . غير انها اختلفت نوعاً في ناحيتين : فالتنظيم القبلي بقي لاغراض ادارية من جهة والملك كان عليه ان يحكم حسب اوامر يهوه كما اعلنت بواسطة الرجال الصالحين .

(١) سفر صموئيل الاول ٨ : ٥ .

(٢) سفر صموئيل الاول ٩ : ٢ .

كان الملك العبراني الاول مخيباً للآمال بل كان فاشلاً بالواقع . وكانت اخلاقه ضعيفة وطباعه سوداوية . وكان يعيش كشيوخ بدوي في خيمة في بلدته جبعة^١ . ولم تمتد حدود مملكته الصغيرة الى ابعد من منطقة قبيلته بنيامين في اول الامر . ومع ذلك فقد كان انتخابه يعني الثورة ضد الاسياد الفلسطينيين . وبعد قتال طويل قتل الفلسطينيون في معركة جلبوع^٢ ثلاثة من اولاده وجرح شاول بصورة خطيرة ولذلك انتحر . وبعد ان قطع العدو المنتصر رأسه سمر جسده واجساد ابنائه على سور بيت شان وارسل سلاحه كغنيمة حرب الى معبد عشتاروت^٣ .

داود

كان المؤسس الحقيقي للمملكة داود (نحو ١٠٠٤ - ٩٦٣ ق. م) حامل سلاح شاول وقد بدأ حكمه تحت سيادة الفلسطينيين ولكنه نجح في النهاية ليس في تحقيق الاستقلال التام فحسب بل ايضاً في توسيع حدود المملكة الى ابعد مما بلغته في اي وقت آخر . قام داود بسلسلة من العمليات الحربية ادت الى التخلص من نير الفلسطينيين وجعل ادوم ومؤاب وعمون تحت حكمه وحقت له ما هو اغرب من ذلك وهو حكم سورية المجوفة الآرامية حتى حدود مملكة حماة كما يظن^٤ . ووصل جنوده الى دمشق ، وكانت المملكة التي اسسها اقوى دولة محلية ظهرت في فلسطين في اي عصر . وقد تمت له بنتيجة فتح ادوم السيطرة على طريق التجارة العظيم بين سورية والجزيرة العربية . ولا نعلم عن وجود اية ممالك في بلاد ادوم الصغيرة او في جاراتها الشماليين مؤاب وعمون قبل القرن الثالث عشر ق. م . وكانت فروع من الآراميين وبعض الحاييرو قد نزلت كما يبدو في هذه المنطقة في القرن السابق وكان البدو الرحل يجوبون هذه المناطق منذ القرن العشرين . ولا بد ان المكسوس والآراميين قضوا على جميع بقايا الحضارة التي سبقت القرن العشرين . ولم تكشف

(١) وهي تل الفول على اربعة اميال شمالي اورشليم . انظر صموئيل الاول ١٠: ٢٦ ؛ ١١: ٤١ .

(٢) وهو اليوم جبل القنوة في المرتفع الشمالي الشرقي لجبل افرام ويشكل مكان انفصال المياه بين حوض قيشون ووادي الاردن . واسم القرية الحديثة جلبون يذكرنا بالاسم القديم .

(٣) صموئيل الاول ١٣: ٣١ - ١٠: ١٠ ؛ اخبار الايام الاول ١٠: ١٠ - ١٠: ١٠ ؛ تلمود مع صموئيل الثاني ١: ٦ - ١٠ .

(٤) صموئيل الثاني الاصحاح ٨ ، ١٠ ، ١٢ : ٢٦ - ٣١ ؛ تلمود مع سفر العدد ٣٤ : ٧ .

اعمال التنقيب الحديثة عن اية مدينة كبيرة في منطقة شرقي الاردن خلال هذه الفترة الطويلة بكاملها .

بعد ان وطد داود وضع مملكته ووسع حدودها واخضع جيرانها تم له تحقيق الوحدة الموقته بين شعبه . ويغلب ان عدد النفوس بموجب الاحصاء الرسمي الذي عمله وهو من اقدم عمليات الاحصاء في التاريخ كان نحو ستمائة او سبعمائة الف نفس^١ . وانتقى داود حصن اورشليم اليبوسي ليكون عاصمة له وكان قد انتزعه من ايدي سكانه اليبوسيين . وكان هذا الاختيار موقفاً . فالمدينة تقع خارج المراكز القبلية الاصلية على الحدود بين القسم الشمالي والجنوبي للمملكة تقريباً وتسيطر على طريق من اهم الطرق الداخلية وهو الذي يتجه شمالاً وجنوباً في القسم المرتفع الواقع غربي وادي الاردن . ومع ذلك فان الدفاع عنها كان سهلاً . في هذه المدينة اقام داود مقره الملكي وهو قصر بني بالحجارة وخشب الارز من لبنات وقد بناء معابدون ونجارون صوريون ارسلهم صديقه الفينيقي الملك حيرام (٩٨١ - ٩٤٧ ق.م)^٢ . وكانت الصداقة بين صور واسرائيل مبنية على المنفعة المتبادلة : فصور كانت فقيرة بالمحاصيل الزراعية بينما كانت اسرائيل بحاجة الى المواد التي تنقلها التجارة البحرية . وقد شيد داود بالاضافة الى قصره معبداً وطنياً ليهوه في العاصمة الجديدة وهكذا جعل اليهودية الديانة الرسمية في الدولة الموحدة . واصبح داود الملك المثالي بالنسبة للعبرانيين .

وفي زمن حكم داود « رجل الحرب » يبدأ ظهور الادب العبري وهو من اغنى وارفع ما تركه الشرق القديم من مظاهر حضارية . وظهر المذكر mazkir الذي كانت مهمته الرسمية تدوين الحوادث الهامة وحفظ الحوليات الملكية^٣ . وقد استعاروا الكتابة من الفينيقيين^٤ . ويظن ان الكهان بدأوا فيما بعد باعداد كتب مشابهة للوثائق الرسمية . ومن مثل هذه المدونات استخلص تاريخ الملكية الاولى

(١) قارن مع صموئيل الثاني ٢٤ : ٩ ؛ اخبار الايام الاول ٢١ : ٥ .

(٢) سفر صموئيل الثاني ٥ : ١١ .

(٣) صموئيل الثاني ٢ : ١٦ ؛ سفر الملوك الثاني ١٨ : ١٨ ، ٣٧ .

(٤) انظر ص ١١٩ .

وادخل جانب منه في العهد القديم . ومؤرخ هذه الفترة كائناً من كان يكتب مواده بأسلوب حيوي موضوعي . وهو يصف داود ليس كملك فقط وإنما كإنسان ويكتب كما يمكن للمعاصر ان يكتب . واول فصلين من سفر الملوك الاول هما اول قطع من النص العبري . وكتابته عن ترجمة حياة داود في الفصول ٩ الى ٢٠ من سفر صموئيل الثاني هي قطعة رائعة من الانشاء التاريخي . ولم يكتب تاريخ مثل هذا من قبل . وهذا المؤرخ المجهول وهو اقدم المؤرخين يبدو عصرياً بشكل مستغرب . كذلك بدأت مجموعات من المؤلفات الشعرية في عصر داود وكان هو نفسه شاعراً له مكانته . وفي الواقع فان الاثر الذي تركته مواهبه الشعرية والموسيقية كانت عظيماً حتى ان الاجيال نسبت له وضع عدد من الزمائم التي بلغ من قيمتها الانسانية العامة واهميتها الدائمة انها لا تزال تستخدم كمصدر وحي وكوسيلة لرفع القوى الروحية .

سليمان في كل مجده

ورث داود ابنه سليمان (حوالي ٩٦٣ - ٩٢٣ ق.م .) ووصلت المملكة العبرانية في عهده ذروة فائقة من المجد والابهة . فاجار الملوك العبرانيين ليس فيما يشبه مشاريع سليمان التجارية والصناعية ونشاطه الواسع في استخراج المعادن واعماله العمرانية ومستوى الترف المائل في معيشته . وكان يعيش بين مظاهر النشاط هذه حياة ملك مستبد شهواني في بلاط شبيه ببلاط مصر او اشور . وملكه جعل العبرانيين ينساقون بصورة اتم في تيار الحياة والمدنية الشرقيتين .

وقد بنى قصر سليمان معماريون فينيقيون واستخدموا في بنائه ارضاً من لبنان . ومفاوضات والده مع الفينيقيين امر مشكوك فيه . واستغرق بناء القصر ثلاث عشرة سنة . وكان الجناح الملكي غنياً باعمدة الارز حتى سمي «بيت غابة لبنان» .

وكان الهيكل الذي بناه اكثر اهمية من الناحية القومية . ويعتقد ان موقعه هو الموقع الذي فيه قبة الصخرة اليوم . وقد بني هيكل سليمان في الاصل ليكون معبداً ملكياً ملحقاً بالقصر واستغرق بناؤه سبع سنوات فقط ولكنه اصبح فيما

بعد مركزاً عاماً لعبادة العبرانيين . وكان المماريون والبنائون ايضاً من الصوريين واستخدموا ارز لبنان . ولأجل اتمام البناء كان ثلاثون ألفاً من رعايا سليمان مسافرين ليشتغلوا بالنوبة فيعمل عشرة آلاف منهم شهراً في لبنان مع رجال حيرام وشهرين في بيوتهم يتابعون اعمالهم المعتادة^١ . وكانت الاخشاب المقطوعة تنزل الى البحر وتنقل ارماتاً الى يافا ثم ترسل الى اورشليم . وكانت زخرفة الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية المعاصرة . وطقوس الهيكل وذبائحه تظهر الاساليب المتبعة عند الكنعانيين . وكان عبيد الهيكل من الكنعانيين . وحتى كلمة «هيكل» نفسها كانت مستعارة من المفردات الكنعانية^٢ .

وكانت اعمال سليمان العمرانية تضم التحصينات والثكنات والعنابر . وترينا اسطبلاته التي كشفت حديثاً حيث كان يضع مركبانه مرابط بصقوف مزدوجة يمكن ان تتسع لاربعمائة وخمسين حصاناً حصل على بعضها من مصر وكيليكية^٣ . وقد بنى بمساعدة صديقه الفينيقي الملك حيرام اسطولاً من السفن لتجارة البحر الاحمر . وكانت قاعدة الاسطول عصيون غابر^٤ التي سميت ايلات Elath فيما بعد وايلة Aila في العصر الروماني . وكان اسطول سليمان يقوم من هذه الميناء تحت ادارة ضباط من صور بمحلات بحرية حول ساحل الجزيرة العربية وافريقيا الشرقية^٥ . وكان الهدف الرئيسي استيراد البخور والعاج والذهب والحجارة الكريمة . وكان النحاس والحديد المنقيان في عصيون غابر يشكلان مادة التصدير الرئيسية فيشحنان بجزراً او ينقلان بطريق القوافل الى الجزيرة العربية بدلاً من السلع المستوردة من هناك ومن الهند . وكانت ادوم وكل المنطقة الواقعة في مملكة سليمان بين البحر الميت وخليج العقبة (وتسمى اليوم العربية) غنية بالنحاس والحديد . ولذلك

(١) الملوك الاول ١٣:٥ .

(٢) انظر بشأن اشتقاق كلمة هيكل في ص ١٤٩ . هامش رقم ٢ .

(٣) قارن مع سفر الملوك الاول ١٠: ٢٦ ، ٢٨ - ٢٩ .

(٤) وهي تل الخليلي في رأس خليج العقبة . واجريت فيها تنقيات عام ١٩٣٨ ؛ راجع : Nelson Glueck, « The First campaign at Tell el-Kheleifeh », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*, No. 72 (1938), pp. 3-18.

(٥) سفر الملوك الاول ٩: ٢٧ - ٢٨ ؛ ١٠: ١١ ؛ اخبار الالام الثاني ١٠: ١٠ .

أصبحت ميناء سليمان مركزاً للتعددين وصهر المعادن. وكان القينيون Kenites^١ المحليون على الغالب هم الذين علموا الادوميين اتباع سليمان فنون استخراج المعادن وصنعها. وكانت القوافل الآتية من الجزيرة العربية والحمة بالتوابل من تلك البلاد خاضعة لدفع الرسوم عندما كانت تمر بأراضي مملكة سليمان.

وقد تضافرت الاساطير والقصص الخيالية على جعل اسم سليمان مرادفاً خلال العصور للقوة والفخامة والحكمة. وحتى الجن^٢ كان يأتمر بأمره في البر والجو. واجتذب بلاطه الفخيم ملكة من جنوبي بلاد العرب وهي الملكة بلقيس المعروفة في المرويات الاسلامية. وتدعي السلالة الحاكمة في الحبشة التسلسل من هذا الاتحاد. ومن الالقاب الرسمية للملك الحبشة الحاليين «امد هوذا». ونسبت امثال كثيرة «لسليان الحكيم» واصبح بعضها قسماً من الكتاب المقدس.

غير ان الوثائق التاريخية لا تدعم هذه الافكار. فالمملكة التي ورثها سليمان كانت اكبر بكثير من المملكة التي اعطاها لمن اتى بعده. وكانت فلسطين تعترف بالسيادة المصرية. وحسن جزر الكنعاني استولى عليه فرعون الذي تزوج سليمان ابنته واعطاء اياه فرعون مهراً لابنته. وكانت هذه الاميرة المصرية احدى افراد حريم سليمان المؤلف من ٧٠٠ من الزوجات و ٣٠٠ من السراري^٣. وقد بنى بتأثير نساؤه «اماكن مرتفعة» قرب اورشليم لعبادة آلهة صيدا وموئاب وعمون^٤. وفي اواخر حكمه حرر الملك الآرامي رحين نفسه ومملكته. وقبل ذلك فان الامير الادومي حدد الذي كان داود قد طرده من منطقته حيث قضى على كل انسان من الذكور - عاد ليزعج سليمان^٥. وكان يستخدم سليمان العمال لاجل اشغاله العامة حسب نظام السخرة. وكان هذا التدبير البعيد عن الحكمة بالاضافة الى نفقاته وتبذيره من الاسباب الاساسية للنقمة التي ادت في عهد خلفه الى انقسام المملكة.

(١) يبدو ان القينيين كانوا قد أصبحوا في عصر موسى مندجين بالديانين الى حد كبير.

(٢) ترجع هذه الكلمة الى كلمة آرامية معناها «عجبا».

(٣) سفر الملوك الاول ١١: ٣.

(٤) الملوك الاول ١١: ٥-٨.

(٥) الملوك الاول ١١: ١٤-٢٢.

انقسام المملكة

كان داود وسليمان قد وحدّا بصورة مؤقّنة شعبي اسرائيل ويهوذا المنفصلين . وكان اقتصاد كل من الشعبين يختلف عن الآخر . فالشعب الذي يسكن الشمال كان مزارعاً يعيش على القمح والزيتون والكروم وسائر محاصيل اراضيهِ الحُصبة . اما الشعب الجنوبي فكان يعيش خاصة على الرعي في المرتفعات الصالحة للاغنام وسائر القطعان . وكانت قبيلة افرايم وغيرها من القبائل الشمالية اكثر تعرضاً للتأثير الكنعاني . وكانت تفضل في مسائل العبادة الالهيم (جمع ايل) وتعبدها بطقوس شمسية مأخوذة من الطقوس الكنعانية القديمة . وكانت قبيلتا يهوذا وبنيامين في الجنوب تفضلان يهوه الذي مسكنه هيكل اورشليم والذي كانت عبادته اكثر بساطة . غير ان السبب المباشر للانقسام كان اقتصادياً .

بعد موت سليمان في نحو ٩٢٣ ق. م. اجتمع ممثلو القبائل الاثنتي عشرة في شكيم ليسجعوا ابنه رجعام ملكاً واثبوت حينذاك قضية هل هو مستعد ان يخفف عبء الضرائب المفروضة عليهم ام لا ؟ غير ان جواب الفتى رجعام وهو في السادسة عشرة من عمره كان قاسياً متهوراً حيث قال : ابي ادبكم بالسياط وانا اؤدبكم بالعقارب . ولذلك رفضت القبائل العشر الاعتراف برجعام وانتخبت يربعام من قبيلة افرايم ملكاً عليها وكان الناطق بلسانها . وشكلت هذه القبائل مملكة اسرائيل التي كانت عاصمتها شكيم اولاً ثم ترزة ثم السامرة . اما قبيلتا يهوذا وبنيامين فقد ظلنا ثابتتين في ولائهما لرجعام وشكلتا مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم .

واصبحت المملكتان متنافستين واحياناً عدويتين احدهما للآخرى . وكان لكل منهما ايام ازدهار وانحطاط . وكان توازن القوى يميل تارة لمصلحة اسرائيل وطوراً لجانب يهوذا . وتشرح لنا الاتجاه في طريق الانحلال الداخلي تلك التغيرات الكثيرة في ملوك اسرائيل حيث شهدت تسعة عشر ملكاً في مدة قرنين ، وتلك الثورات والمكائد في كلتا الدولتين . تلك كانت العوامل الداخلية التي ادت اخيراً

الى خرابها. فالعبرانيون كغيرهم من سكان سورية لم يعملوا قط بقول مغنيهم
«ما احسن وما اجل ان يسكن الاخوة معا»^١.

ملكة اسرائيل

كان اشهر ملوك اسرائيل الاوائل عمري (حوالي ٨٨٥ - ٨٧٤) ويدل اسمه على اصل عربي او بالاحرى نبطي. وكان الاثر المهم الذي تركه مدينة السامرة^٢ التي اسسها وحصلها ونقل اليها مركز الحكم من ترزة^٣. وبني في عاصمته الجديدة قصرآ وسعه وزخرفه ابنه ووريثه آخاب. هذا القصر هو «بيت العاج»^٤ الذي اظهرت فيه الحفريات الحديثة اثاثاً منزلاً بالعاج ويبدو ان جانباً كبيراً منه كان مكسواً بالذهب. وكانت اهم جماعة من نخاعي العاج في تلك الفترة تزدهر في الشمال في سورية حيث كانت توجد منازل غنية ذات غرف مخططة بخشب الارز المنزل بالواح من العاج. وكان في قصور داود وسليمان في اورشليم على الغالب مثل هذه الغرف المخططة بخشب الارز. والقصر الملكي في السامرة هو المثل الوحيد لقصر تأكد العلماء من وجوده من ايام العهد القديم. وقد بلغ من الاثر الذي تركه عمري في معاصريه انه لمدة قرن بعد انتهاء سلالة استمرت الحوليات الاشورية على الاشارة الى السامرة باسم «بيت عمري».

كانت علاقات الملك آخاب (حوالي ٨٧٤ - ٨٥٢) ودية مع جيرانه ولكنه كان يصطدم بصعوبات في بلاده. وقد اشترك كحليف لمملكة دمشق في معركة قرقر^٥ التي لم تكن حاسمة. وتزوج ايزابل ابنة ائبل ملك صور وصيدا التي

(١) سفر المزامير ١٣٣ : ١.

(٢) وهي حالياً سبسطية من اليوناني Sebastos (بمعنى الموقر) وهو الاسم الجديد الذي اعطى للمدينة على شرف اوغسطس عندما بنى فيها من جديد هيودس الكبير علم ٢٧ ق. م.

(٣) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤. تقع السامرة على ستة ايامال شمالي غربي شكيم. وموقع ترزة لم يعرف بعد. انظر «ترزة» في معجم : John D. Davis, *The Westminster Dictionary of the Bible*, rev. Henry S. Gehman (Philadelphia, 1944); Abel, vol. ii, p. 485.

(٤) سفر الملوك الاول ٢٢ : ٣٩؛ عاموس ٣ : ١٥؛ ٤ : ٤؛ J. W. Crowfoot and Grace M. Crowfoot, *Early Ivories from Samaria* (London, 1938), pp. 1-6.

(٥) انظر ص ١٩٧.

كانت ذات شخصية قوية وسيطرت على زوجها وحاولت فرض عبادة بعل صور على اسرائيل^١. وادى ذلك الى نزاع مرير وطويل للسيادة على حياة اسرائيل الدينية بين عبادة البعل وعبادة يهوه.

وبلغت ردات الفعل التي بدأها ايليا واليشع ضد اسرة عمري ذروتها في ثورة تزعمها ضابط في الجيش اسمه ياهو وقضى فيها على السلالة، وطُرحت الملكة الام ايزابل المسنة من نافذة بامرهم وأكلت جثتها الكلاب^٢. واستولى ياهو على العرش في ٨٤٢ ق.م. واعاد عبادة يهوه كعبادة وحيدة في اسرائيل. ولم يكن ياهو موثقاً في حروبه الخارجية. ويمثل هذا الملك او رسوله على «المسلة السوداء» التي اقامها شلمنصر الثالث^٣ يقبل الارض عند قدمي الملك الاشوري ويقدم الجزية. بشكل اوان من الفضة والذهب والرخاص. وقبل ظهور ياهو بقليل قام ميشا ملك مؤاب بثورة ضد اسرائيل وخلد انتصاره على نصب اقامه في ديبون^٤. وقد كتب على هذا النصب اطول نقش في العبرية ويعتبر من اقدم النقوش الاثرية في هذه اللغة. وتختلف عن العبرية التي كتبت بها التوراة من حيث اللهجة فقط. وفي حوالي نفس الوقت كانت ثورة اخرى ناجحة تحدث ضد مملكة يهوذا، ويرينا ذلك ضعف تينك الملكتين.

وقد بدت مظاهر غير منتظرة للقوة في عهد يربعام الثاني (حوالي ٧٨٥ - ٧٤٥) وهو الملك الثالث من سلالة ياهو. ففي عهده توسعت الحدود الشمالية على حساب الآراميين^٥. وكشفت الحفريات عن بقايا السور المزدوج الذي اعاد به تحصين السامرة. وتظهر هذه البقايا ان سمك السور يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً في

(١) سفر الملوك الاول ١٦: ٣١؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. IX, ch. 6, § 6.

(٢) الملوك الثاني ٩: ٣٣ - ٣٥.

(٣) Eberhard Schrader, *The Cuneiform Inscriptions and the Old Testament*, tr. O. W. Whitehouse, vol. i (Edinburgh, 1885), p. 199.

(٤) وهي ذيبان في شرقي الاردن والنصب الآن في متحف الوفر. راجع: Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, pp. 1 seq. والحروف هي حروف فينيقية تماماً.

(٥) سفر الملوك الثاني ١٤: ٢٥.



حجر مؤاب الذي انعم لذكرى انتصار ميشا ملك مؤاب على امرائيل
انعم قبل ٨٤٢ ق.م. بقليل وهو الآن بالولايات المتحدة

بعض الاماكن . ويمتاز حكمه زيادة على ذلك بان النبي عاموس كان يتنبأ في بيت ايل^١ في اواخر ملكه .

وكان بإمكان اسرائيل ان تتمتع بالهدوء خاصة لان اشور لم تكن حينذاك في وضع يسمح لها بمتابعة سياسة الاعتداء . كذلك كانت مصر متوارية عن الانظار . غير ان الوضع تغير عندما ظهر تغلاث فلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧) الذي جدد سلطة امبراطورية اشور . وقد نجح بسلسلة حملات في اخضاع دمشق وجلعاد والجليل وسهل صاروة وتحويلها الى مقاطعات اشورية^٢ . ولم يكتف بالاسلوب القديم وهو ابقاء الحاكم الوطني كتابع بل بدأ سياسة جديدة تقوم على ارسال نائبي الملك من بلاد آشور ليحكموا المقاطعات المفتوحة^٣ . وقد حاول رصين آخر ملوك دمشق وفتح ملك اسرائيل حمل آحاز ملك اورشليم على الاتحاد معها في حلف ضد العدو المشترك . وقد اصبحت اسرائيل جزءاً صغيراً مما كانت عليه سابقاً . ودفعت السامرة جزية ثقيلة كما فعلت يهوذا وجيرانها فلسطين وعمون ومؤاب وادوم .

نهاية اسرائيل

عندما رفض هوشع ملك اسرائيل بعد بضع سنوات متابعة دفع الجزية هاجمه شلتناصر الخامس وريث تغلاث فلاسر وحاصر المدينة ثلاث سنوات بسبب قوة حصونها^٤ . وسقطت بين ٧٢٢ و ٧٢١ في يد خلقه سرجون الثاني الذي سبى احسن رجال اسرائيل وعددهم ٢٧٠٢٨٠ شخصاً الى ميديا^٥ . وتلاشت مملكة اسرائيل الى الابد . ولم يشكل المسييون سوى قسم صغير من سكان المملكة الشمالية غربي الاردن ويقدر عددهم بأربعمائة الف نفس . وهكذا فان «الاسباط العشرة المفقودة» لم تفقد قط . والذين منهم اصبحتوا مسييين اندمجوا بغيرهم . والبحث عن هذه

(١) «بيت الله» وتقع خرائب المدينة وهي اليوم يبتين على ١١ ميلاً شمالي القدس .

(٢) الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ .

(٣) Luckenbill, *Records*, vol. i, § 803, 805, 806, 809 .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٧ : ٤ .

(٥) الملوك الثاني ١٧ : ٦ ؛ Schrader, vol. i, p. 264 Julius Oppert in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 28 .

الاسباط العشرة وادعاء بعض الجماعات في انكلترا والولايات المتحدة انها متسللة منها هي امور تدعو الى السخرية. وقد اظهر الرحالة بنيامين من بلدة تودبلا في القرن الثاني عشر مقداراً اكبر من الفهم التاريخي حين كتب ان الطائفة اليهودية في جبال نيسابور في شرقي ايران ينحدر افرادها من المسييين الاصليين^١.

السامريون

واضاف مرجون وخلفاؤه الى سياسة السبي او نقل الذين كانوا شوكة في جنب دولة اشور شيئاً آخر هو سياسة الاستعمار والاستيطان. فقد اتوا بقبائل من بلاد بابل وعليلام وسورية وبلاد العرب لتحل محل الاسرائيليين المسييين واسكنوها في السامرة ومنطقتيها^٢. وقد امتزج المستوطنون الجدد ببني اسرائيل ليشكلوا السامريين. واتحدت معتقداتهم الدينية ايضاً مع عبادة يهوه^٣. وحصل الانشقاق النهائي بين الفريقين حوالي ٤٣٢ ق. م. بعد عودة عزرا ونحميا من السبي حيث دافعا عن فكرة التقاوة المنصرية وطردا من اورشليم حفيد الكاهن الاعلى لزواجه من ابنة الحاكم السامري^٤. ويبدو ان الشاب المطرود اصبح كاهن السامريين وبني هيكل له على جبل جريزيم لينافس هيكل اورشليم. وكان كتاب اليهود المقدس حينذاك يتألف من الكتب الخمسة فقط. ولذا فان هذا القسم من العهد القديم ظل منذ ذلك الحين الكتاب المقدس الوحيد للسامريين. وقد نقلوه في نوع قديم من الحروف العبرية. وجريزيم وليس صهيون هو المكان المقدس الحقيقي بالنسبة لهم.

وازداد العداء بين اليهود والسامريين مع الزمن. ولم يكن التزاوج بينهم مسموحاً في اي وقت. ومن اطراف احاديث المسيح حديثه مع امرأة سامرية تعجبت كيف يطلب منها ان تعطيه ليشرّب مع انه يهودي^٥. واختار المسيح في مثل من

(١) *The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela*, ed. A. Asher (London, 1840), p. 83; tr., p. 129.

(٢) Luckenbill, vol. ii, §§ 17, 118. وقد اتى اسم السامرة على الغالب من شمر Shemer بمعنى حارس، انظر سفر الملوك الاول ١٦: ٢٤.

(٣) سفر الملوك الثاني ١٧: ٢٥-٢٣.

(٤) سفر نحميا ١٣: ٢٨؛ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IX. ch. 7. § 2; ch. 8. §§ 2, 4.

(٥) انجيل يوحنا ٩: ٩٤.

ابعد امثاله رجلاً سامرياً محترماً ليكون بطل قصة ويلعب فيها دوراً نبيلًا^١. وفي أثناء اضطهاد انطيوخس ابيفانس (١٧٥ - ١٦٤ ق. م.) تألم السامريون كما تألم اليهود^٢ بالرغم من موافقتهم بالظاهر على التساهل وتكريس هيكلمهم على جبل جريزيم للاله زفس^٣.

وقد بقيت هذه الطائفة خلال العصور حتى الوقت الحاضر كما تبقى المتحجرات ويمثلها اليوم نحو مائتي شخص يعيشون في نابلس وهي شكيم القديمة. وفي العصور الوسطى كانت تزدهر جماعات من السامريين في غزة والقاهرة ودمشق وغيرها من المدن. ولغتهم هي العربية اليوم. ولا يزال بإمكان السواح الذين يزورون نابلس في عيد الفطير ان يشاهدوا السامريين يضعون حمل الفصح.

مملكة يهوذا

شهد عرش يهوذا عدداً من الملوك يشبه عدد ملوك اسرائيل وهو تسعة عشر ملكاً غير ان هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثلث اكثر من مملكة اسرائيل في الشمال. ومن الحوادث المشهورة في اول عهد المملكة غزو احد فراعنة مصر لها. فان شيشنق Shishonk (وفي التوراة يدعى شيشق) وهو ليسبي اسس السلالة الثانية والعشرين - قد اغتم فرصة تقسيم المملكة اليهودية ودخل البلاد (حوالي عام ٩٢٥) وخرّب المدن ونهب اورشليم وحمل معه كنوز الهيكل والقصر كغنائم^٤. ولم يكن باستطاعة رجبعام ان يصد الغزوة. وتزوجت احدى بنات هذا الفرعون من يربعام بينما كانت احدى بنات سلفه قد تزوجت سليمان.

واستفادت يهوذا كما فعلت اسرائيل في القرن الثامن من توقف حركات الهجوم الاشوري والمصري. وكان عهد الملك عزيا (ويدعى احياناً عزريا، حوالي ٧٨٢ - ٧٥١) الذي كان ملكه طويلاً عهد تقدم في شؤون الدولة. وقد اعاد تنظيم الجيش

(١) انجيل لوقا ١٠ : ٣٠ - ٣٧.

(٢) سفر المكابيين الثاني ٥ : ٢٣.

(٣) سفر المكابيين الثاني ٦ : ٢ : Josephus, Antiquities Bk. XII. ch. 5 § 5.

(٤) سفر الملوك الاول ١٤ : ٢٥ - ٢٦ : Breasted, Records, vol. iv §§ 709 seq.

واصلح حصون اورشليم وكسب انتصارات على الفلسطينيين والعربان واخذ الجزية من العمونيين وغيرهم من اعداء المملكة^١. وقد تجاوز اهتمامه الشؤون العسكرية فنشط الزراعة بحفر الخزانات وحمل قطعانه في البرية ببناء ابراج لا تزال حتى اليوم ويمكن معرفتها بواسطة قطع الحزف المؤرخة^٢

حزقيا

واصبحت مملكة يهوذا اكثر تعرضاً للهجمات المباشرة من اشور بعد زوال مملكة اسرائيل في عام ٧٢١. وصارت يهوذا بعد ذلك ببضع سنوات في اواثر حكم حزقيا (٧٢١ - ٦٩٣) تدفع الجزية لاشور. فقد اتبع حزقيا سياسة تحدي ضد اشور بعد ان شجعت مصر ولم يكتثر لتحذير النبي اشعيا ولذلك تحالف مع المدن الفلسطينية وغيرها من الدول المجاورة. ولكي يحتاط ضد وقوع حصار حفر قناة طولها ١٧٠٠ قدم في الصخر ليضمن المياه اللازمة لعاصمته^٣. وهذه القناة هي المعروفة بنفق سلوام Siloam وقد اكتشفت بالصدقة على جدارها كتابة اثرية بالعبرية مؤلفة من ستة اسطر تفيد ان الحفر بدأ من الجانبين وبدقة فائقة : « فيينا كان لا يزال [الحفارون يرفعون] المعول الواحد باتجاه الآخر وعندما كان لا يزال يوجد سوى ثلاثة اذرع يجب [حفرها سمع] صوت الواحد يتنادي الآخر لان الصخر كان متصدعاً »^٤.

وبنتيجة ذلك قام سرجون وخلفه سنحاريب (٧٠٥ - ٦٨١) الشيطان بسلسلة من الحملات والعمليات الحربية الانتقامية ضد فينيقية والمدن الفلسطينية ويهوذا وبلغت ذروتها في عام ٧٠١ في حصار اورشليم. وبعد الاستيلاء على صيدا وعكا وخضوع موفدي اشدود وعمون ومواب وادوم تقدم سنحاريب على الساحل الفلسطيني فأخذ يافا والمدن الاخرى حتى عسقلان وحدود مصر في الجنوب. ثم

(١) اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٦ - ٨.

(٢) اخبار الايام الثاني ٢٦ : ٩ - ١٠.

(٣) سفر الملوك الثاني ٢٠ : ٢٠؛ اخبار الايام الثاني ٣٢ : ٢.

(٤) Cooke, *North-Semitic Inscriptions*, p. 15 وحروف هذه الكتابة لا تختلف كثيراً عن حروف الكتابة على نصب مواب.

تحول الى الشرق وفتح لاخلش. وقلومت صور وعقرون^١. وعندما سمع ان الجيش المصري كان يتقدم الى الشمال وبما انه رأى انه لا يجوز ترك حصن عظيم مثل اورشليم في مؤخرته فانه ارسل فرقة الى اورشليم وزحف مع بقية جيشه نحو الجنوب. والتهم عند التقيـه Eltokeh^٢ في معركة ضد القوات المصرية والجيشية المجتمعة يقودها ترهاقة (طهرقا) وحال دون تقدمها. ولكنه قبل ان يتمكن من تحويل قواته كلها ضد اورشليم «خرج ملاك الرب وضرب في تلك الليلة مئة الف وخمسة وعشرين الفا من جيش اشور»^٣. وربما كان ذلك هو الطاعون الذي اصاب جيش نابوليون في تلك المنطقة في ١٧٩٩ والذي كثيراً ما كان يصيب الحجاج المسلمين.

لم تسقط اورشليم غير ان مناطق الريف تخربت. واعتقد الملك واسميا كما يبدو ان يهوـه سيحمي مدينته مهما كانت الظروف^٤. وسمح لحزقيا ان يحتفظ بعرشه ولكنه اضطر ان يدفع الجزية المتأخرة وان يرسل بناته وغيرهن من نساء القصر والكنوز الثمينة بعد عودة سنحاريب الى نينوى ويفخر سنحاريب باعماله بالكلمات التالية :

أما حزقيا اليهودي الذي لم يخضع لسلطتي فإلني حاصرت ستاً واربعين من مدته القوية السورة والمدن التي يبوارها والتي لا يمكن تعدادها وقتحتها ونهبتها واعتبرتها كقنائم. وأما هو فإلني حبسته كمصفور في قفص في اورشليم مدينته الملكية... ان حزقيا هذا تهرته ابنة ملكي الخليفة .

ويبدو ان ما يدعيه من «اخذ» رجال عددهم «٢٠٠٤١٥٠٠ رجلاً» يشير الى عدد سكان يهوذا كما كانوا يقدرونه حينذاك وقد اعتبرهم الملك الاشوري غنائم حرب .

(١) وهي اليوم المعبر على بعد ستة اميال غربي جزر .

(٢) وهي غالباً خربة القنع على ستة اميال تقريباً جنوب شرقي المعبر .

(٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ٣٥ ؛ Herodotus Bk. II, ch. 141.

(٤) الملوك الثاني ١٩ : ٦ - ٢٠٠٧ .

(٥) راجع : J. M. Luckenbill, vol. ii, § 312 ; cf. Schrader, vol. i, pp. 286, 297 ; Rodwell in *Records of the Past*, vol. vii (London, 1876), p. 62.

سقوط اورشليم

بقي صدقيا (٥٩٧ - ٥٨٦) الذي كان في الحادية والعشرين من عمره متظاهراً بالولاء لنبوخذنصر عدة سنين ثم استسلم لميوله وحاول الاستقلال كما انه استعجاب في ذلك لرغبة الزعماء الوطنيين في بلاده واعتمد كالمعتاد على مساعدة مصر. فنقم نبوخذنصر وارسل جيشاً هدفه خراب اورشليم وحاصرها. ورفع الحصار مؤقتاً عندما اقتربت قوة مصرية بقيادة هوفرع Hophra^١ ولكنه سرعان ما عاد وبشكل أشد من السابق. وانهكت قوى الحامية بعد عام ونصف وحدثت ثغرات في الاسوار في ٥٨٦. وهرب الملك ورجال حربه تحت جنح الظلام ولكنهم تابعوه وادركوه في سهل اريحا. وعندما أتى به الى معسكر نبوخذنصر في ربلة قُتل ابناؤه امامه ثم سملت عيناه لكي يكون ذلك آخر مشهد يراه. ثم قيد الملك بالسلاسل وحمل الى بابل^٢. اما اورشليم فانها هدمت مع هيكلها. وسبي العظماء من سكان المدينة والبلاد ويقدر عددهم بخمسين ألفاً. ولم يبق الا جماعة من البائسين. ودُمرت^٣ كل مدينة مهمة في يهوذا تقريباً وظلت كذلك عدة قرون. وفي عام ٥٨٢ كان نبوخذنصر قد اتم إعادة السيطرة على جيوان يهوذا باستثناء صور التي قاومت تحت الحصار حتى ٥٧٢^٤. وكان ملكها والذائد عنها اثبعل الثاني الذي حل محله بعل الثاني في ٥٧٤. وحصلت ثورة ضعيفة في صور عام ٥٦٤ ولكنها اخمدت بسهولة. وهكذا اصبحت سورية كلها مستقرة في ايدي الكلدانيين.

- (١) وذكر باسم Apries في Herodotus, Bk. II, ch. 161; Diodorus, Bk. I, ch. 68.
 (٢) سفر الملوك الثاني ١: ٢٥ - ٧؛ اخبار الايام الثاني ٣٦: ١١ - ٢٠؛ ارميا الاصاح ٣٩: ٥٢ - ٤: ١١، ٢٧.
 (٣) ارميا ٣٩: ٨ - ١٠؛ ٥٢: ١٢ - ٣٠؛ اخبار الايام الثاني ٣٦: ١٧ - ٢١.
 Josephus, Antiquities Bk. X, ch. 11; Apion Bk. I, ch. 21.
 (٤) انظر ص ١٥٦.

الفصل الخامس عشر مظاهر الحضارة العبرانية

اتبع العبرانيون في مراحل حياتهم الاولى في فلسطين النموذج الحضاري للشرق الادنى الذي كان يمثل الكنعانيون . وقد اعطت كنعان لاسرائيل لغتها واجمديتها كما رأينا . وعندما استقر بنو اسرائيل في الموطن الجديد تركوا لهجتهم السامية القديمة واتخذوا لهجة الشعب الذي عاشوا بينه . وبما ان لهجتهم كانت لهجة كلام فقط فانهم اضطروا ان ينتظروا الحصول على فن الكتابة من جيرانهم قبل ان يكون لهم ادب .

وكنعان علمت اسرائيل الزراعة . فالعبرانيون دخلوا البلاد كبذور وحل وتم انتقالهم من مرحلة الرعي الى الزراعة بعد استقرارهم . وظل كثيرون من احفادهم في اراضي يهوذا المرتفعة يتبعون حياة الرعي غير ان الزراعة اصبحت مورد المعيشة الرئيسي في سهول الشمال الحصبية .

الطقوس المستعارة

ومع الزراعة اكتسب العبرانيون من الكنعانيين بطريقتي التزاوج تلك الافكار والاعمال التي اعتبرت ضرورية لاجل الحصب ولضمان المحاصيل الجيدة . ويعني ذلك انهم اقتبسوا دفعة واحدة تقريباً مجموعة من الطقوس والمشاهد والمراسم القديمة التي تضم الاعمدة الخشبية^١ «والاماكن المرتفعة» وعبادة الحية^٢ والعجل الذهبي^٣ . وكان الاعتقاد بان الطريقة المناسبة في العبادة هي تضحية حيوان وتقديم هدايا في

(١) «المائدة» . انظر ص ١٢٨ وما يليها .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٨ : ٤ .

(٣) سفر الملوك الاول ١٢ : ٢٨ - ٢٩ : اخبار الايام الثاني ١٣ : ٨ .

الميكال من محاصيل الحقل والقطيع — كان هذا الاعتقاد عاماً بين شعوب سورية وبلاد الرافدين . وكان رقص داود أمام تابوت العهد^١ من مظاهر رقصة كنعانية تتصل بالحصب . ولا تزال آثارها باقية في الحركات الطقسية الايقاعية التي يجريها الدراويش في هذا العصر .

والتحريمات المتصلة بالطقوس والمذكورة في الاسفار الخمسة تقيد ضمناً ان هذه العادات كانت قبل تحريمها قد اقتبسها العبرانيون من جيرانهم ثم اعتبرها الرؤساء غير متفقة مع اتجاهات الديانة العبرانية . وكان تحريم طبخ الجدي^٢ في لبن امه يبدو غريباً واعطيت له تفاسير خاطئة الى ان اظهرت كتابات اوغاريت ان هذه العادة كانوا يمارسونها هناك .

والاعتراف بيهوه كالاله الرئيسي وذلك بحق الفتح لم يمنع اعتبار الآلهة المحلية مسيطرة على خصب البلاد . وكانت سلطة يهوه على الدولة بينا شؤون الحياة العادية من زراعة وتجارة لم تكن من صلاحياته الرئيسية . وفي بعض الاحيان وخاصة في القسم الشمالي من المملكة كان يهوه يكتسب كثيراً من صفات بعل بما جعله سيد السماء وباعث المطر والمسيطر على العواصف . وكان الاهل كثيراً ما يسمون ابنهم البكر بالنسبة ليهوه بينا يسمون صغارهم بالنسبة لبعل . وتزداد نسبة الاسماء العبرانية المؤلفة من اسم بعل باطراد في الفترة الاولى . وشاول يسمي ابنه ايش بعل Esh-Baal (رُجل بعل) ويوناثان يسمي ابنه مريب بعل (بعل يتازع) ، وداود يسمي ابنه بعل يداع Beeliada (بعل يعرف)^٣ . وقد بلغ من منافسة هذا الاله الكنعاني ليهوه انه في ايام ايزابيل وآخاب^٤ لم يكن هنالك اكثر من ٧٠٠٠ شخص لم ينحذوا امام بعل وقد سر ايليا على ما يظهر بهذا العدد .

الفن

وليس من شك في الاصل الكنعاني للفن والبناء الديني عند العبرانيين . وهيكال

(١) سفر صموئيل الثاني ٦ : ١٤ .

(٢) سفر الخروج ٢٣ : ١٩ : ٣٤ : ٢٦ .

(٣) اخبار الايام الاول ٨ : ٣٣ — ٩ : ٣٤ — ٩ : ٣٩ — ١٤ : ٧ .

(٤) انظر في اعلاه ص ٢٠٩ و ٢١١ ؛ راجع سفر الملوك الاول ١٩ : ١٨ .

سليمان وهو البناء الاثري الديني الوحيد عند العبرانيين القدماء لم يشيده معابدون صوريون فحسب بل 'خطط وفقاً لتخطيط معبد كنعاني'، واتبعت زخرفته نماذج كنعانية. وكان القصر الملكي في اورشليم ايضاً من عمل الصناع الفينيقيين^١. والملاك (الشيرويم) بشكل حيوانات لها رؤوس بشرية تحرس شجرة الحياة تمثل نموذجاً فنياً عند الساميين القدماء. وفكرتنا عن الملاك كولد صغير له جناحان ترجع عن طريق فن عصر النهضة ليس الى الثور المجنح الاشوري كما يظن البعض بل الى ابي الهول المجنح او الاسد المجنح الذي له رأس بشري عند السوريين. وكانت جدران هيكل سليمان وستار خيمة الرب تزدان بالشيرويم (الملائكة). وكان بنو اسرائيل يفكرون بهمهم واقفاً أو جالساً في عرشه على ملائكة^٢.

كانت طقوس الهيكل تستدعي العزف على الآلات الموسيقية^٣. وكان الموسيقيون والمغنون الاول في الهيكل كنعانيين في اشغاصهم وتدريبهم. وعندما بدأ داود بالموسيقى العبرانية المقدسة ورقاها سليمان لم يكن هنالك من نموذج يمكن اتباعه سوى النموذج الكنعاني. والتقايات الموسيقية نفسها في عهود اسرائيل الاخيرة كانت تُسر بارجاع اصلها الى عائلات باسماء كنعانية^٤. ويبرهن رسم امرأة من مجدو تلعب على العود ان تلك الآلة كانت معروفة في فلسطين قبل ايام داود بنحو القى سنة. ومؤلف سفر التكوين^٥ يعترف بتقديم الآلات الموسيقية التي يستعملها شعبه حين ينسب لاحد احفاد قايين انه كان 'أباً لكل خارب بالعود والمزامير'. وبعد اقتباس هذه الآلات استخدمت لاجل الموسيقى الدينية والزمنية. وكانت اهم آلات الدق عند الاسرائيليين الدف الذي تشير اليه التوراة في اماكن كثيرة^٦. اما آلات النفخ فيمثلها الناي والبوق. وكان الناي قصبة بسيطة مفردة او

(١) راجع اعلاه ص ٢٠٥.

(٢) صموئيل الثاني ٢٢ : ١١ ؛ الزامير ١٨ : ١٥.

(٣) اخبار الايام الاول : الاصحاح ٢٥.

(٤) راجع : Albright, *Archaeology and the Religion of Israel*, pp. 14, 126-7.

(٥) سفر التكوين ٤ : ٢١.

(٦) سفر الخروج ١٥ : ٢٠ ؛ القضاة ١١ : ٣٤ ؛ صموئيل الاول ١٨ : ٦ ؛ الزامير ٦٨ : ٢٥.

مزدوجة من النوع الذي لا يزال يستعمله الرعاة في سورية . وكان يصنع البوق (شوفر Shofar) من قرن كبش او ماعز ولا يزال يستعمل في الكنائس العبرانية^١. ومن الآلات ذات الاوتار اصبحت القيثارة مفضلة على غيرها . وليس لدينا فكرة عن الالحان التي كانت تلعب على هذه الآلات .



١ - ملاك من العهد الفينيقي يرتكز عليه عرش احيرام ملك بيلوس

٢ - ملاك من صنع وفائيل في مجموعة السكستين بالفاتيكان

وكانت الاغاني ترافق الموسيقى ومن اقدم الاغاني المحفوظة اغنية دبورة التي تذكر انتصاراً كسبه الاسرائيليون على الكنعانيين^٢. وهناك اغان تتصل بالزيارة وتستخدم في الصعود الى الميكل وقد ادجت في عدد من المزامير^٣. وكانت الاغاني بطبيعة الحال مؤلفات شعرية . ويتصف الشعر العبري بالتوازي والمطابقة كما في

(١) انظر : Curt Sachs, *The History of Musical Instruments* (New York, 1940), pp. 110-112.

(٢) سفر القضاة الاصحاح الخامس .

(٣) المزامير ١٢٠ - ١٣٤ .

شعر اوغاريت . وهذه المطابقة المستعارة من الكنعانيين هي التي اعطت الزاير وغيرها من المؤلفات الشعرية في العهد القديم كثيراً من جلالها وعظمتها وتوقيعها الموزون . ونصف العهد القديم تقريباً شعري في تركيبه .

الشؤون المنزلية

اقتبس العبرانيون كذلك في الشؤون الزمنية عادات اولئك الذين عاشوا بينهم وتزوجوا معهم . وكانت فكرتهم العامة عن الحياة والآخرة تقريباً كما كانت في كنعان . وعادات الدفن كانت متشابهة . فقد كان يوضع الجسم في قبر مع ادوات كانت تستخدم في الحياة اليومية كالصحون والجرار . وكانت ثيابهم وحليهم وخزفهم وحرفهم تتبع الاساليب والازياء الكنعانية . وكان الملوك والانبياء يلبسون رداء طويلاً من نوع خاص فوق ملابسهم واقتبسوا النساء فيما بعد . وكانت الطبقة العليا ايضاً تلتف بقماش من الكتان يتألف من قطع مستطيلة من الكتان الرقيق .

كان الغزل والنسيج من الصناعات المنزلية للاستهلاك الشخصي . ومن جملة اوصاف حكماء العبرانيين للمرأة الفاضلة انها «تطلب صوفاً وكتاناً وتشغل يديهن راضيتين»^١ . وتدل حجارة الاثقال للاتوال التي وجدت بكثرة في قرية سفر^٢ وقطع الانوال الخشبية وبراميل الصباغة التي اكتشفت في لايخيش — تدل على وجود صناعات ممتنعة كانوا ينتجون لاجل الاستهلاك العام^٣ . وكانت هاتان المدينتان من المراكز الكنعانية القديمة . ولم يبرع الصناع العبرانيون في فن سوى فن قطع الحجارة الكريمة . وتظهر لنا الاختتام من عصر الملكية درجة رفعة من المقدرة في هذا الفن . واشارات التوراة الى عشائر الكتبة والحائكين والى ابناء الصباغين^٤ توهي بوجود منظمات ضعيفة تقابل النقابات كانت تضم افراد نفس الحرفة لاجل المصلحة الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية المتبادلة^٥ .

(١) سفر الامثال ٣١ : ١٣ .

(٢) ومعنى اسمها «مدينة الكتب» وهي اليوم تل بيت مرسم على ١٣ ميلاً جنوب غربي الخليل .

(٣) راجع : Barrois, *Manuel*, vol. i, pp. 482-487 .

(٤) انظر اخبار الايام الاول ٢ : ٥٥ : ٤ : ٢١ ؛ نحميا ٣ : ٨ ، ٣١ ؛ قارن مع عاموس ٧ : ١٤ .

(٥) انظر ما جاء من ٩٤ و ٩٥ .

كانت منسوجات الكتان تصنع من الكتان الوطني . وكان يزدهر هذا النبات القديم في الساحل الشرقي للبحر المتوسط وفي مصر . وقد زرع في سهل اريحا قبل الاحتلال العبراني^١ . وزال نبات الكتان الاعتيادي تقريباً من فلسطين ولكن الازهار البرية التي تنتسب الى فصيلة الكتان لا تزال تعطي سورية ولبنان منظراً جميلاً في الربيع^٢ . وادخل القطن بعد الكتان بينما استعمل الصوف قبل ذلك بدة طويلة . وكان المنتج المنزلي للصوف الذي يحاك في المنزل ايضاً يشكل اللباس الاعتيادي للطبقة المتوسطة الغنية .

ويذكر تقويم الجزر في منتصف القرن العاشر القمح والزيتون والعنب عدا الكتان . وكانت ارض الميعاد « ارض حنطة وشعير وكرم وتين ورمات ؛ ارض زيتون وزيت وعسل »^٣ . وكانت مكانة القمح عظيمة بين الحبوب . وغزوات الاعداء كانت توجه غالباً ضد البيادر ولا تزال . واكتشفت حجار رحي صغيرة لطحن القمح في اماكن عديدة . وتدل الافران التي وجدت في بيت شمس ان بعض عادات صنع الخبز قد استمرت حتى العصر الحاضر حيث تستعمل التناوير (جمع تنور)^٤ . وبقياً معاصر الزيت والحجر كثيرة^٥ . وقد وجدت نفايات الزيتون بكميات كثيرة في لايخس مما يدل على ان هذه الصناعة كانت ذات شأن في عصر الملكية . واقتبس العبرانيون المصباح الكنعاني الذي يستعمل فيه زيت الزيتون للاحتراق واستخدموه وحده لمدة سبعة قرون تقريباً . واقدام مصباح اجنبي مستورد من بلاد الرافدين حوالي ٥٠٠ ق. م . اكتشف في بيت شمس ويظهر فيه التحسن لوجود مسكة في جانبه وغطاء في اعلاه مع ثقب لاجل القليل . وتدل جرة بشكل خلية مخروطية

(١) سفر يشوع ٢ : ٦ .

(٢) George E. Post, *Flora of Syria, Palestine and Sinai* (Beirut, 1896) pp. 181-184.

(٣) سفر التثنية ٨ : ٨ .

(٤) صموئيل الاول ٢٣ : ١ .

(٥) انظر : Elihu Grant, *Rumeileh*, p. 49 ; do., *The People of Palestine* (Philadelphia, 1921) pp. 78 seq.

(٦) لاجل الرسوم المصلة بذلك انظر : Elihu Grant, *Ain Shems Excavation*, pt. 1 (Haverford, 1931), pp. 27, 78 ; *Rumeileh*, pl. vii.

وجدت في تل النصبه على ممارسة تربية النحل^١. وأشارت التوراة الى البصل والثوم والفول والعدس والخيار والكزبرة وغير ذلك من الحضر والحبوب تدل على ان عادات العبرانيين الغذائية لم تختلف كثيراً عن عادات جيرانهم^٢. وكانت الحمص والعدس اهمية في الطبخ^٣.

وتظهر الكروم ومنتجاتها بصورة بارزة في الطقوس العبرانية وفي الحياة الاقتصادية. ونبات الكرمة نفسه كان يدل على الحصب^٤. والخمر كان يستخدم لاجل التقدمة في الهيكل^٥. وفي الفن كانت الكروم والعنب تظهر على الفسيفساء واعمال النحت في المعابد والمدافن القديمة. والرمان ايضاً كان يستعمل في الزخرفة وعصيره كان مرغوباً فيه كشراب منعش^٦.

وبين الازهار كان الزنبق او السوسن^٧ يعتبر افضلها. وقد ظهر السوسن في زخارف الهيكل وعلى النقود فيما بعد. وتكثر الاشارة اليه والى غيره من النباتات في نشيد سليمان. وربما استعمل هذا الاسم بصورة عامة ليشمل شقائق النعمان والاقحوان التي تشكل في الربيع منظراً بهيجاً غنياً بالالوان في حقول سورية. ولا بد ان المسيح كان يفكر في احدى هذه الازهار حين قال انه «ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها»^٨.

(١) انظر: Burrows, p. 172. تقع تل النصبه على نحو ٨ اميال شمالي القدس وميلين جنوبي البيرة واعتبرها عدد من العلماء انها مدينة المصفاة Mizpah. انظر سفر الملوك الاول ١٥: ٢٢؛ صموئيل الاول ٧: ٥-١٦؛ واجمع كلمة Mizpah في Westminster Dictionary.

(٢) انظر سفر العدد ١١: ٥؛ صموئيل الثاني ١٧: ٢٨؛ حزقيال ٤: ٩؛ اشعيا ١: ٨؛ الخروج ١٦: ٣١؛ العدد ١١: ٧.

(٣) سفر التكوين ٢٥: ٣٠.

(٤) سفر العدد ١٥: ٥.

(٥) سفر اللاويين ٢٣: ١٣؛ العدد ١٥: ٥.

(٦) نشيد الانشاد ٨: ٢.

(٧) بالعبرية shoshannah ومنها اتى اسم Susanna؛ نشيد الانشاد ٢: ١-١٦؛ ٤: ٤؛ ٥: ٣: ٦.

(٨) انجيل متى ٦: ٢٨-٢٩.

النقود

لم تدخل النقود المسكوكة او المحتومة الى فلسطين حتى القرن الخامس ق. م .
 وكانوا قبل دخول النقود يتبعون النظام البابلي المبني على الشاقل كوحدة للوزن .
 وعندما كانوا لا يلجأون الى المقايضة في مبادلاتهم التجارية كانوا يستخدمون الميزان .
 وقد اكتشفت موازين متنوعة مصنوعة بموجب نظام الشاقل في مواقع مختلفة .

وفي اوائل القرن الخامس دخلت الدراهم الاثينية الفضية التي كانت قد اصبحت
 تقريباً نقداً دولياً الى الشرق الادنى وقلدت في فلسطين وبلاد العرب^١ . واقدم
 نقد عبراني وجد حتى الآن يرجع الى اواسط القرن الخامس وربما كان من
 ضرب نحاسي .

المعلمون الدينيون

اذا كانت مساهمة العبرانيين في التقدم العالمي لا تدخل في نواحي الفن والسياسة
 والاقتصاد ففي اية ناحية تقع هذه المساهمة اذاً ؟ انها تقع في ناحية الديانة . فالمساهمة
 الدينية هي التي جعلت العبرانيين معلمي البشرية من الناحية الاخلاقية . وعبقريتهم
 بكاملها تظهر في العهد القديم .

ولم يصلنا مؤلف يشبه العهد القديم في اهميته من العصور التي سبقت المسيحية .
 والعهد القديم هو اكثر من مؤلف ادبي ، انه صرح حضارة بكاملها . وقد اتتنا
 بعض آثار اخرى ادبية للحضارات القديمة بطريق الاكتشافات الاثرية الحديثة بعد
 ان ظلت مدفونة في باطن الارض اجيالاً طويلة ، غير ان هذا الاثر الادبي قد وصلنا
 بطريق المرويات والتقاليد المتواصلة . وقد كان العهد القديم خلال العصور قوة
 فعالة في حياة الرجال والنساء . ومرت مادته نفسها باطوار كثيرة من الانتقاء
 والحذف والتحقيق والضبط قبل ان تتخذ شكلها النهائي . وهنالك نوع من الوحدة
 تتخلل العهد القديم . ولم يمض زمن لم تكن فيه مادته موضوع دراسة عميقة . ولم
 ينفك الفنانون والشعراء والكتاب في العصور القديمة والوسطى والحديثة يستمدون

الوحي من مواضيع التوراة . ومعظم اللغات المتقدمة تحمل طابع اشارات التوراة والافكار المتصلة بالتوراة .

وهناك عددٌ من المعلمين فضلاً عن المؤرخين ساهموا في تأليف العهد القديم . فقد كان هنالك أولاً المشرع الذي يظهر بشخص موسى وقد تكلم بلسان يهوه . والشريعة الموسوية التي انزلها الله على موسى^١ كان لها ما يقابلها في قوانين حمورابي التي بالرغم من انها اقدم بكثير من خمسمائة سنة تمثل طوراً ارفع من الحضارة وهو الطور الصناعي والتجاري بينما كان العبرانيون في مرحلة الزراعة والرعي . وفي مجموعة قوانين حمورابي كان العبد يحرر في السنة الرابعة^٢ بينما في شريعة موسى كان يحصل ذلك في السنة السابعة^٣ . وكان عقاب السارق في قانون حمورابي ان يعيد الاشياء المسروقة ضعفين او ثلاثة اضعاف^٤ بينما عليه ان يعيدها في شريعة موسى بين اربعة او خمسة اضعاف^٥ . وكان ضرب الاب او الام يعاقب في قانون حمورابي بالتشويه^٦ بينما في شريعة موسى يعاقب بالموت^٧ . وحمورابي ينزل العقاب بالقضاة الذين يقبلون الرشوة^٨ بينما موسى يكتفي بمنع الرشوة^٩ . والشريعتان تضعان العادات والاعراف الموجودة بشكل قوانين وتضمن عادة الثأر البدوية القائمة على مبدأ « العين بالعين »^{١٠} . وهو ارفع بمرحلة من عادة الثأر بدون قيد التي كانت معروفة قبلاً . وحمورابي وموسى تساما قوانينهما من سلطة عليا فأخذها حمورابي من شمش

(١) سفر الخروج ٢٠: ١٩ - ٢٢ ؛ انجيل متى ٤: ١٥ .

(٢) Robert W. Rogers, «The Code of Hammurabi», in *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York, 1912), § 117.

(٣) الخروج ٢١: ٢ ؛ التثنية ١٥: ١٢ .

(٤) Rogers, §§ 120, 124.

(٥) الخروج ٢٢: ١ .

(٦) المادة ١٩٥ .

(٧) سفر الخروج ٢١: ١٥ .

(٨) المادة ٥ من قانون حمورابي .

(٩) سفر الخروج ٢٣: ٨ ؛ التثنية ١٦: ١٨ - ١٩ .

(١٠) الخروج ٢١: ٢٤ ؛ التثنية ١٩: ٢١ ؛ سفر اللاويين ٢٤: ٢٠ ؛ قانون حمورابي مادة

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ .

وموسى من يهوه. غير ان العنصر الاخلاقي في مجموعة موسى كما تحتوي الوصايا العشر لا يوجد ما يساويه في اية مجموعة اخرى. ولم يأت بما هو احسن من هذه الوصايا العشر سوى المسيح. والمنع او التحريم في هذه الوصايا لا يشمل الاعمال فحسب وانما يتجاوزها الى مجرد التفكير والرغبة.

وكان هنالك معلم عبراني من نوع آخر هو الكاهن kôhên الذي كان يعلم الشريعة ولكنه كان يعمل اكثر بما يعلم. فقد كان يقوم بالمراسم عند المذبح ويمجري سائر الطقوس ويعمل كوسيط بين الانسان والله. وكان الكهنة يشكلون طبقة خاصة بين الامم القديمة والكهانة عند العبرانيين كانت تنحصر في اسرة هارون بصورة وراثية^١.

ومن المعلمين ايضاً الرجل الحكيم. وكان الحكيم العبراني يخاطب الفرد وليس المجموع ورسائله كانت ادراك النجاح اكثر منها الحصول على رضى الاله. والحكمة بخلاف الشريعة كان مصدرها الانسان وكانت نتيجة ملاحظته واختباره. وكتب الحكمة العبرانية الكبرى هي اسفار ايوب والامثال والجامعة واعظمها بل بالاحرى اعظم كتب الحكمة في اية آداب هو بدون شك سفر ايوب.

ومؤلف سفر ايوب لم يكن رجلاً حكيماً لا مثيل له فحسب بل كان شاعراً لا يجارى ايضاً. والشعر العبراني كسائر انواع الشعر هو نطق صادر عن شعور قوي مفرغ في شكل خاص. والشاعر القنائي كان اكثر انواع الشعراء شيوعاً في اسرائيل. وكمن كان يهدف في اغنيات النصر التي ينشدونها الى الاشادة بالخلاص الذي تم على يد يهوه. وكان يعبر كواضع للزامير عن عواطف رجل تائب يطلب الرحمة او يظهر الفرح بسبب الغفران^٢ او كان يعبر عن عواطف رجل ضعيف يصرخ في وقت الضيق او يمجّد الله لعونه^٣. والشاعر كان معلماً ايضاً في اسرائيل.

(١) الخروج ١٦: ٢٨؛ العدد ١٦: ٤٠.

(٢) الزامير ٥١: ٣٢.

(٣) الزامير ٣: ٣٨؛ ٣٣: ٢٣.

الانبياء

وكان النبي يتمتع بأهمية خاصة بين سائر المعلمين . وكلمة «نبي» هنا لا تفيد المتنبئ عن حوادث المستقبل وإنما الذي يتكلم بالنبأية عن الله وهذا معنى الكلمة من حيث الاشتقاق^١. والديانة العبرانية إنما تبدأ بالانبياء .

وقد ظهرت النبوة كاحتجاج ضد عبادة البعل وسائر العبادات الاجنبية . وكان غرضها من وجهة ايجابية تأييد ديانة يهوه . فالانبياء كانوا المدافعين عن يهوه . وبعد ان بدأ انبياء اسرائيل من هذا الاساس فانهم توصلوا الى ناحية ريفية من التفكير الديني ، وفي الواقع اوجدوا ديانة جديدة توحيدية متمركزة حول اله اعلى يعم الكون وهو اله واحد فقط . وقد علم الانبياء ان هذا الاله الواحد هو كائن اخلاقي عادل . واكثر من ذلك فانه 'يتوقع ان يكون تابعوه اخلاقيين وعادلين . ومثل هذا الاله يسر ليس بالذبائح بل بالعيش الذي يتبع قواعد الاخلاق . والذي يهيم هو السلوك اكثر من الطقوس . فالتوحيد الاخلاقي الشديد كان المبدأ الاسامي في تعاليم الانبياء .

وقد قام هؤلاء المعلمون الجدد في عالم تتألف دياناته من سلسلة من الاعمال والاصول التي يعتبر الاتباع الصحيح لها جوهرياً للحصول على رضى الاله او لتجنب غضبه واتوا بتفسير جديد لله والانسان وعلاقاتهما . وكان هدفهم ليس خلاص الروح^٢ بل تنمية الفرد والمحافظة على المجتمع . واصبحوا المدافعين عن العدالة الاجتماعية . ولم يقم اي معلمين دينيين في بابل وخاطي او اليونان بمثل هذه المحاولة لربط الاخلاق بالديانة او اعتبار قواعد السلوك الاجتماعي كأوامر الهية . والعنصر الاخلاقي في كتاب الاموات وغير ذلك من قطع الادب المصري ضعيف جداً اذا ما قورن بما

(١) ان كلمة نبي العبرانية هي عربية في شكلها ومعناها الذي ينبيء واصل الكلمة سامي قديم موجود في الاكادية nabu بمعنى يدعو .

(٢) كان للمصريين وحدهم بين الامم القديمة تعاليم مفصلة بشأن الحياة بعد الموت . وكان الشيول Sheol وهو مقر الاموات عند المصريين غامضاً غير محدد بالضبط وبدون خطة رسمية . وكان الصالحون والاشرار يذهبون اليه وخاصة الاشرار حيث يكون وجودهم جامداً بدون نشاط . انظر سفر التكوين ٣٧ : ٣٥ ؛ صموئيل الاول ٢ : ٦ ؛ الزمير ٩ : ١٧ ؛ ٥ : ٦ ؛ ١٧ : ٣١ ؛ سفر الجامعة ٩ : ١٠ ؛ اشعيا ١٤ : ٩ ؛ قارن مع اشعيا ٢٦ : ١٩ ؛ دانيال ١٢ : ٢ .

اتى به انبياء العبرانيين . وقد بنى المسيح على اساس التعاليم العبرانية النبوية وليس على الاسس القانونية او الكهنوتية واكمل محمد البناء على هذا الاساس المشترك . ولذلك فانه ليس من المبالغة ان يقال ان حركة النبوة عند العبرانيين « قد احدثت اعظم حركة في تاريخ البشرية الروحي »^١.

والتفكير النبوي لم يقتصر على ايجاد فكرة جديدة عن طبيعة الله وصفاته وعلاقة الانسان بالله وبالانسان وانما انتجت نوعاً جديداً من الادب الموزون الفعال . وجانب كبير من تأثيره الشفوي يفقد عن طريق الترجمة . وقد ظهرت اكثرية الادب النبوي بين عامي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق. م.

وكان اقصى ما توصل اليه البابليون والاشوريون والمصريون واليونان نوعٌ من التوحيد المشوب بالشرك (henotheism) يعتقد بوجود اله واحد اعلى بدون ان يمنع الاعتقاد بآلهة اخرى . وفي العبادة توصلوا الى عبادة اله واحد مع الاعتقاد بوجود اكثر من اله واحد في الوقت نفسه (monolatry) . واذا كان البعض قد توجه به بالصلاة الى مردوخ او اتون او ابولون كما لو كان في ذلك الوقت لا يوجد اله آخر فان ذلك لا يجعلهم موحدين . فالتوحيد هو نظام عقائدي ناشط مكافح لا يقتصر على انكار سيطرة سائر الآلهة في نواح محدودة وانما ينكر وجود الآلهة الاخرى ذاتها . واله التوحيد لا يمكن ان يكون قليلاً او قومياً بل يجب ان يكون امياً عاماً . والاعتقاد بوجود اله اعلى دون ان يمنع الاعتقاد بآلهة اخرى (اي henotheism) هو مرحلة متوسطة بين الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد .

ومن الواضح ان موسى وكذلك داود كانا من اتباع هذه المرحلة المتوسطة من التوحيد . فقد كان يهوه بالنسبة لهما اله العبرانيين وحدهم وسيطرته كانت على ارض اسرائيل^٢ . وهذا الاتصال الوثيق بين الاله والبلاد لم يكن عند العبرانيين وحدهم فقد كان يعترف به معاصروهم . ويهوه الاله العبراني الذي بدأ كإله قبلي يسره ازالة العقوبات القاسية بالمصريين الذين اضطهدوا شعبه ، ثم اصبح الها قومياً

١ Julius A. Bewer, *The Literature of The Old Testament in its Historical Development* (New York, 1926), p. 87.

٢ سفر الشئبة ٢٨ : ٦٤

يسمح باستئصال الاموريين والكنعانيين^١ ويأمر بقتل المئات من كهنة منافسه^٢ ان هذا الاله (يهوه) لم يرفع الى تلك المكانة الفريدة كاله وحيد في العالم وكإله يتصف بالحب والعدالة والرحمة والغفران الا في مستهل الفترة النبوية . اما كيف حصل هذا التطور فانه ليس من السهل شرح ذلك . وبموجب التفكير القديم كانت القبيلة او الشعب عندما تتغلب على قبيلة اخرى او شعب آخر فان ذلك يعتبر برهاناً قاطعاً على ان اله الشعب المنتصر هو الاقوى . وبصورة آلية يقبل الشعب المغلوب هذا الاله . غير ان انبياء العبرانيين لم يتبعوا ذلك التفكير . فبينما كانت جيوش الاشوريين تخضع شعب يهوه كان انبياء يهوه يعلمون بان يهوه كان يستخدم اشور كداة لمعاينة شعبه لانهم اخطأوا . وهكذا تحول الانكسار الى انتصار ، ومكانة يهوه لم يحافظ عليها فحسب بل ارتفعت الى ذروة فريدة من العالمية .

عاموس الموحد الاول

قد لا يصدق الانسان ان راعياً وجاني جيز من قرية قليلة الشأن في هـوذا والبرية المجاورة كان اول رجل في تاريخ الفكر ادرك وحدة الله وصفته العالمية . ذلك كان عاموس من قرية تقوع^٣ الذي اعلن رسالته حوالي ٧٥٠ ق. م . وقد كان عاموس نبياً يتكلم ولا يكتب وكذلك كان محمد . وربما كان عاموس أمياً . وقد نشر رسالته في مملكة الشمال في عهد يربعام الثاني الذي ادت فتوحاته الى تدفق ثروات ومواد ترف جديدة على المجتمع الاسرائيلي . وكان عاموس اول من نظر الى يهوه كإله شعوب اخرى غير بني اسرائيل^٤ وكإله عدالة اجتماعية . واليك الكلمات التي وضعها على لسان يهوه (الاصحاح الخامس) :

٢١ بغضت كرهت اعيادكم ولست التذ باعتكافاتكم .

(١) سفر يشوع ١٠ : ٨ - ٤٢ .

(٢) سفر الملوك الاول ١٨ : ٣٦ - ٤٠ : قارن مع سفر التثنية ١٣ : ١٧ - ١٧ : ٢ - ٥ .

(٣) ولا تزال آثار هذا الاسم في خربة تقوع او تقوعة وهي قرية خربة تبعد ستة اميال جنوبي بيت لحم .

(٤) عاموس ٩ : ٥ - ٧ .

- ٢٢ اني اذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا ارتضي وذبائح السلامة من مسمناتكم لا التفت اليها .
- ٢٣ ابعد عني ضجة اغانيك ونعمة ربابك لا اسمع .
- ٢٤ وليجر الحق كالياه والبر كنهر دائم .

اشعيا وقلدية الله

وقد فكر النبي اشعيا الذي بدأ نبوته نحو ٧٣٨ كما فعل عاموس على اساس التوحيد النظري . وكان يعتبر الآلهة المتنافسة لا قيمة لها ومن صنع الانسان^١ . وقد احدث تقدماً في تفكير عصره بالاصرار على قدسية الله وباراز كاله المختلف عن نقص الانسان حيث يقول : « قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الارض »^٢ . عاش اشعيا في عهد مضطرب حصل فيه خراب السامرة عن يد سرجون (٧٢٢ ق. م) وهجوم سنحاريب على اورشليم (٧٠١ ق. م) ولكنه كان يقف فوق معاصريه ويقدم مثلاً رائعاً عن الوطنية التي لا تتراجع امام اية تضحية نظراً لوحى ايمانه الذي لا يتزعزع بالله قدوس . وقد ظل لمدة ثلاث سنوات معرّياً وحافياً ليظهر نوع المعاملة التي سبهاها الاسرى المصريون والكوشيون على يد الاشوريين^٣ . وكان اشعيا بالاضافة الى ذلك نبياً تكلم عن قدوم المسيح ورأى بعين ايمانه حلم السلام العام تحت رئاسة « امير السلام » فتعم سلطته العالم ويطيع الناس سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ويسكن الذئاب مع الخراف^٤ . لقد بشر اشعيا بنظام جديد لم تستطع ان تحققه ٢٦٠٠ سنة من التقدم . وكان اشعيا الثاني وهو مؤلف الاصحاح ٤٠ الى ٥٥ موحداً ايضاً .

ارميا والعهد الجديد

اختلف ارميا عن عاموس واشعيا بانه كان نبياً كاتباً . واتصفت نبوته بالآلام

(١) اشعيا ٢ : ١٨ ، ٤٨ : ١٠ : ١٠ .

(٢) اشعيا ٦ : ٣ .

(٣) اشعيا ٢٠ : ٣ .

(٤) اشعيا ٦ : ١ - ٧ : ٢٢ - ٢٤ : ١١ - ١ - ٩ .

التي رافقتها مدة طويلة (٦٢٦ - ٥٨٦ ق. م.). وربما كان انبل شخصية في العهد القديم كله. وقد شهد مهاجرة نبوخذنصر لاورشليم في ٥٩٧ وتخريبه لها في ٥٨٦. وكان كعاموس واشعيا الثاني موحداً ولكن توحيده كان أتم وعملياً أكثر. وقد اعلن بشكل لا يقبل الشك ان جميع الآلهة الاخرى هي اباطيل من صنع الانسان ومن منتجات الخيال^١. وقد حلم كما فعل اشعيا بعهد طوبائي يسود فيه الحق والعدالة^٢.

غير ان ما يتوج سفر ارميا هو في الفصول ٣٠ حتى ٣٣ ويعتبر البعض انها تضم انبل تفكير في العهد القديم. ففيها يقطع عهدهم عهداً جديداً مع شعبه حيث يجعل شريعته في داخلهم ويكتبها على قلوبهم وليس على الواح حجرية كما حصل في عهد آباءهم^٣. وقد اخذ يسوع في العشاء الاخير فكرة العهد الجديد هذه كما ان مؤلف الرسالة الى العبرانيين ذكر الاشارة الاصلية لهذه الفكرة^٤. وفي المناسبة نفسها يعلن ارميا مبدأ المسؤولية الفردية التي تخالف ما قيل سابقاً بان «الآباء اكلوا الحصرم واسنان الابناء ضرس^٥» وهكذا بلغ مرحلة من الشعور الاخلاقي لم تبلغه بعض الامم الاوربية في عصرنا اذا حكمنا من تصرفها في الحرب العالمية الثانية.

أنبياء آخرون وفضلهم

وقد كان لبعض الانبياء العبرانيين الآخرين فضلهم ومساهماتهم. فقد توصل هوشع الذي كان من المملكة الشمالية ونشر تعاليمه بين ٧٤٥ و ٧٣٥ الى الفكرة السامية التي مؤداها ان الله محبة وذلك بعد اختبار محزن في حياته العائلية^٦. فقد كانت زوجته التي ولدت له ثلاثة اولاد غير امينة ولكنه ظل يحبها؛ وكذلك احب الله اسرائيل غير المخلصة له. وكان النبي ميخا (نشر تعاليمه بين ٧٣٠ و ٧٢٢)

(١) ارميا ٥: ١٤؛ ٢٢؛ ١٠: ١٠ - ١٢؛ ١٦: ١٧ - ٢١.

(٢) ارميا ٣١: ٣٣ - ٣٤.

(٣) ارميا ٣١: ٣١ - ٣٤؛ ٣٢: ٤٠.

(٤) انجيل متى ٢٦: ٢٨؛ لوقا ٢٢: ٢٠؛ الرسالة الى العبرانيين ١٠: ١٦ - ١٧.

(٥) ارميا ٣١: ٢٩ - ٣٠؛ قارن مع حزقيال ١٨: ٢ - ٤.

(٦) هوشع ١٤: ٤.

معاصراً لاشعيا ومدافعاً عن الفقير الذي كان يراه يتألم من الظلم وقلة العدل . وقد رأى ان الامور ستصبح في وضع احسن^١ . وكلماته المتصلة بالعدالة الاجتماعية كلمات خالدة حيث يقول (الاصحاح السادس) :

٦ بيم اتقدم الى الرب وانجي لئلا اله علي ؟
هل اتقدم بحرقات بعجول ابنا سنة ؟

٧ هل يسر الرب بالوف الكباش بربوات انهار زيت ؟
هل اعطي بكري عن معصيتي ثمرة جسدي عن خطية نفسي ؟

٨ قد اخبرك ايها الانسان ما هو صالح ؟ وماذا يطلبه منك الرب الا ان تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع الملك ؟

وقد اظهر النبي حزقيال معاصر ارميا في الاصحاح ١٨ شعوراً بالمثل العليا الاخلاقية لم تظهره الامم المسيحية في حروبها في القرن العشرين . وعلى ذلك فان البشرية توصلت في اقوال الانبياء العبرانيين الى مستوى لم تتجاوزه قط إلا في اقوال المسيح ورجا في اقوال بولس . وتبنى الاسلام وهو الديانة التوحيدية الثالثة الكبرى في العالم الواحدانية الاخلاقية لليهودية والمسيحية . وشاركت الزردشتية الديانتين القديمتين في بعض الصفات البارزة . وبظهور التوحيد في مظهره اليهودي والمسيحي تم ثالث عمل مجيد حققته الحضارة السورية القديمة^٢.

وقد اصبحت الآرامية بعد العبرية اللغة التي وجد فيها الفكر الديني عند اليهود وسيلة للتعبير . ومن اهم المؤلفات الكبرى بعد التوراة يأتي التلمود (بمعنى دراسة او عقيدة) ويضم الشرائع التقليدية او الشفهية التي تشرح قانون الكتب الخمسة المكتوب . واما النص (وهو المشنة بمعنى اعادة او تعليم) فانه ورد بالعبرانية الجديدة بينما شرح النص (الجماره Gemara بمعنى تمة) وضع بالآرامية . والتلمود

(١) ميخا : ٤ : ١ - ٨ .

(٢) انظر ص ١٧ - ١٨ وماسياني في الفعل ٢٥ . راجع : Toynbee, *Study of His-* *tory*, vol. ii, pp. 75-77. وتوينبي يحمل الحضارتين العربية والآرامية منتسبتين لحضارة السورية التي كانت كأصل لها . وهو يعتبر الخلافة العباسية كشكل جديد ظهرت فيه الدولة السورية العامة (ج ١ ص ٦٧ - ٦٨) بمد توقفها بسبب الهلنية الدخيلة .

الاورشليمي الذي جمع في القرن الرابع م. لم يبلغ في شهرته واهميته كمرجع درجة التلمود البابلي. ومن اقدم الحاخامين الذين اعترف بهم كمرجع هام في تفسير التوراة وفي وضع مبادئ تفسيرية هيل Hillel الذي ولد في بابل وعاش في اورشليم ومات فيها عام ٩٩ م. وقد اوجز الدين بكلمات قليلة حيث قال : لا تفعل لساثر الناس ما تجده قبيحاً بالنسبة لك^١. وقد علم المسيح^٢ نفس هذا المبدأ وكذلك فعل بولس^٣ الذي درس على غمالايل Gamaliel حفيد هيل. واشهر من ذلك بين اقوال هيل قوله : لا تفعل للآخرين ما لا تريد ان يفعلوه لك^٤.

(١) قارن مع سفر اللاويين ١٩: ١٨ .

(٢) انجيل متى ٢٢: ٣٩ ؛ مرقس ١٢: ٣١ .

(٣) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٥: ١٤ ؛ قارن مع رسالة بولس الى اهل رومية ١٣: ٨ .

(٤) انظر ما سيأتي في اوائل الفصل ٢٥ .

الفصل السادس عشر سُورِيَّة تحت الحكم الفارسي

بين الفترة السامية والفترة الهندية - الاوربية

سيادة الدولة البابلية الحديثة

إنّ تدمير نابوبولاصر، مؤسس الدولة البابلية الحديثة، بالاشتراك مع كي اخسار Cyaxares الميدي لمدينة نينوى العظيمة في سنة ٦١٢ ق. م. وما تلا ذلك من ابادة قوات الدولة البابلية الحديثة لغالول الجيش الاشوري الذي ارتد الى حرات في ٦٠٩، اثار التساؤل فيما اذا كانت بابل الحديثة ام مصر القديمة هي التي ستوث منطقة شرقي البحر المتوسط. ولم يطل تقرير ذلك اذ ان الهزيمة الساحقة التي الحقها القائد نبوخذنصر، ابن نابوبولاصر، بالفرعون نيخو^١ في كركيش سنة ٦٠٥ لم تدع مجالاً للشك فيمن سيحظى بالسيادة على تلك المنطقة. وحين تجرأ هوفرع غير متعظ بعبارة سلفه نحاو على تحدي تلك السيادة لاقى المصير نفسه على ارض المعركة في فلسطين. وكان سادة سورية الجدد ويسمون ايضاً بالكلدانيين من الساميين وابناء عم الاشوريين - البابليين ويرجع انهم افراد موجة متأخرة كان لها بعض العلاقة بالآراميين^٢.

وفي هذه الاثناء تتسائل الشعوب التي رزحت لعدة قرون تحت وطأة اعظم قوة عسكرية عرفها العالم فيما اذا كان الوقت قد حان لان تتمتع بحريتها من جديد. وجاءها الجواب الحاسم بتدمير نبوخذنصر (٦٠٥ - ٥٦٢) لاورشليم في عام ٥٨٦ واخضاع صور في عام ٥٧٢ بعد حصار دام ثلاثة عشر عاماً. وكان على سورية الكبرى ان تحكمها بلاد الرافدين من جديد في الثمان والاربعين سنة التالية.

(١) انظر ص ٢١٩.

(٢) انظر ص ١٧٥ و ١٨٤.

سقوط الدولة البابلية الحديثة

انقضى الحكم الكلداني عام ٥٣٨ ق. م. حين هاجم الفرس، وهم شعب جديد ظهر في منطقة ابعد الى الشرق، جارتهم بابل بقيادة كورش. وكان هذا قد وحد الميديين والفرس، وهم ابناؤ عم في الاصل، تحت حكم واحد ثم قهر قارون وبملكته ليديا في اقصى آسية الصغرى^١. وكان يحكم بابل آنئذ نابونيدس (٥٥٦ - ٥٣٨) الملك المولع بالآثار الذي بلغ من اهتمامه بمخلفات الماضي حداً جعله يكثر من صور آلهة المدن الاخرى القديمة في عاصمته بما اكسبه كره كهانه ونقمة رعيتيه. والقریب ايضاً انه اتخذ من تيلء، وهي واحة بعيدة في شمالي الحجاز، مقراً له مدة من الزمن تاركاً شؤون الدولة بين يدي ابنه العاجز بلشاصر^٢. وكان ولي العهد هذا يتم بحياة البذخ في القصر الملكي المترف الذي بناه نبوخذنصر اكثر من الاهتمام باتخاذ التدابير لاصلاح حصون عاصمته. واتضح معنى الكتابة التي كتبت على جدار القصر والتي تقول «قسمت مملكتك واعطيت للميديين والفرس»^٣.

دولة عالمية جديدة: الفرس

حلت الكارثة ببابل سنة ٥٣٩ ق. م. وبقيت القلعة والقصر الملكي يقاومان حتى آذار سنة ٥٣٨. وعلى ذلك اعترفت مناطق الامبراطورية البابلية بما فيها سورية وفلسطين بالحكم الفارسي الجديد. ويعتبر سقوط بابل اكثر من مجرد انهيار امبراطورية اذ انه في ذلك الوقت وفي ذلك المكان انتهى عصر وهو العصر السامي وبدأ عصر جديد وهو العصر الهندي - الاوربي. واتقضت ايام الامبراطوريات السامية ولم تعد الا بعد اكثر من الف عام وكانت في هذه المرة برعاية ممثلين جدد

(١) وقارون هذا هو المقصود في التشبيه «غني مثل قارون» وكان قد استشار التكهين مرتين قبل اثارة الحرب فأكدوا له «بأله سيدم امبراطورية بخلية» وكانت تلك الامبراطورية امبراطوريته.

انظر Herodotus Bk. I, ch. 53.

(٢) انظر: Sidney Smith, *Babylonian Historical Texts* (London, 1924) pp. 76 seq.; Raymond P. Dougherty, *Nabonidus and Belshazzar* (New Haven, 1929) pp. 106 seq.

وكلمة بلشاصر مشتقة من الكلمة الاكادية بل شار اوصور Bēl-shar-ušur. ومعناها «يا بمل

احمر الملك».

(٣) سفر دانيال ٥ : ٢٨.

هم عرب الجزيرة الذين لم يكن لهم شأن يذكر في العلاقات الدولية القديمة . اما الفرس الذين بدأت بهم الفترة الهندية — الاوربية فينتسبون الى الفرع الهندي — الايراني من المجموعة الهندية الاوربية . وقد خلفهم في سيادتهم على العالم السامي المكدونيون فالرومان فالبيزنطيون وكلهم من الهنود الاوربيين .

اصبحت دويلات سورية وفلسطين الآن جزءاً من امبراطورية عظيمة تعتبر من اكبر الامبراطوريات التي عرفها العالم القديم . وقد قدر لها ان تضم بعد ربع قرن من ولادتها العالم المتمدن بأسره الممتد من مصر والمدن الايونية في آسية الصغرى الى البنجاب في الهند . ومن ثم اخذت تتطلع بعين الطمع عبر الهلسبونت الى الجزء المتمدن الوحيد في اوربا . وساعد في جمع اطراف هذه الامبراطورية المترامية شبكة من احسن الطرق التي عرفت حتى ذلك الحين ، يضاف اليها نقد موحد ولغة رسمية هي الآرامية . واصبحت هذه اللغة التي شاع استعمالها طويلاً في الشؤون التجارية اللغة الرسمية للمقاطعات الغربية جنباً الى جنب مع الفارسية . وكانت جميع المراسيم والسجلات المتصلة بهذه المقاطعات تترجم الى اللغة الآرامية الرسمية . وعادت المدن الفينيقية الى الازدهار في ظل هذا السلم الفارسي كمرآكز للتجارة العالمية .

تنظيم الامبراطورية

آلت مهمة تنظيم هذه الامبراطورية الضخمة الى داربوس الاول (٥٢٦-٤٨٦) وهو من اقدر ملوك العالم القديم واكثرهم اطلاعاً وتنوراً . فهو الذي بنى الطرق وحسنها وانشأ نظاماً للبريد واصلاح الضرائب وأعد أسطولاً لايجاد طريق بحرية بين مصر وفارس . وكان الفينيقيون عماد هذا الاسطول . وقد قسم البلاد الى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى مرزبانة يحكم كل منها حاكم يدعى مرزبان . وكانت المرزبان حاكماً مدنياً وليس عسكرياً . ويقوم الى جانبه قائد وامين سر مستقل كل منهما عن الآخر ويتصلان بالعاصمة مباشرة . واضيفت الى سوزا وبابل ، المقربين للملكيين ، عاصمة ثالثة هي برسبوليس^١ حيث شيد داربوس عدداً من الابنية هدمها

(١) سوزا هي المدينة المذكورة في التوراة باسم شوشن والآن تسمى شوش . وخرائب برسبوليس وهي التي قامت بعد فرجادي عاصمة كورش تقع على بعد ٨٠ ميلاً شمال شرقي شيراز .

الاسكندر فيما بعد . وقد تمتعت القوميات الخاضعة في المربزانات بوضع مستقل لحد ما ولا ريب ان هذا كان من عوامل الاستقرار فيها . وفرض على كل مربزانية حصة معينة من الجزية تدفعها الى الخزينة الملكية . وكان بعض الموظفين المتجولين بالنسبة للسلطة الامبراطورية بمثابة « عيونها وآذانها » .

يتفوق نظام داريوس على جميع الانظمة التي سبقته بأنه كان نظاماً امبراطورياً يجمع بين الحكم الذاتي المحلي ومسؤولية الحكم المركزي والمراقبة العليا . وفي الحقيقة لم يتنافس نظام آخر حتى عهد الرومان . فهو يجمع احسن خصائص النظامين المصري والاشوري ويتجنب مساوئهما .

كانت سورية وفلسطين بالاضافة الى قبرص في الولاية الخامسة التي سميت مربزانية « عبر نهر »^١ . وتدفع جزية مقدارها ٣٥٠ وزنة^٢ وهي جزية خفيفة نسبياً . وكانت لا تزال في قبرص جاليات فينيقية عديدة .

اعادة اليهود من السبي

وجد كورش حين دخل بابل في ٥٣٩ - ٥٣٨ جالية يهودية يعود اصلها الى سبي نبوخذنصر الذي حصل في عامي ٥٩٧ و ٥٨٦ . وليس من الصعب الافتراض بان افراد هذه الجالية قد ساعدوا كورش على احتلال المدينة . وسارع الفاتح الفارسي الى اصدار مرسوم يخول الذين يودون الرجوع الى ارض آباؤهم واعادة بناء معبدهم حق العودة^٣ . وقد تصور ، على ما يظهر ، ان وجود طائفة يهودية في فلسطين تدبر بوجودها لاحسانه سيشكل توازناً فعالاً تجاه الحزب الموالي للمصريين الذي طالما برز في شؤون فلسطين . وتعاكس سياسة كورش هذه سياسة نفي الشعوب الخاضعة التي اتبعها الاشوريون والكلدانيون . واعتبر اليهود كورش كمنخلص ارسله الله^٤ .

(١) ومنها « عبر النهر » (الفرات) - راجع سفر عزرا ٦ : ٦ ، ٨ ، ١٣ .

(٢) انظر : Herodotus, Bk. III, ch. 91 .

(٣) عزرا ٦ : ٣ - ٥ .

(٤) اشعيا ٤٤ : ٢٨ ؛ ٤٥ : ١ .

لا يمكن ان نحدد بالضبط عدد اليهود الذين استفادوا من هذه الفرصة ويبدو الرقم ٤٢,٣٦٠ الذي يعطيه عزرا ونحميا مبالغاً فيه اذا ما قورن بمجموع المسيبين وهو ٥٨,٠٠٠ نسمة كما انه لا ينطبق مع ما جاء في القوائم المفصلة التي تسبق الجمع النهائي^١. ولا بد ان الذين استجابوا لهذه الدعوة هم بصورة رئيسية من العناصر الناقصة ومن الذين لم تكن لهم جذور في الارض الجديدة. وقد عبر شاعرهم عن الحنين الذي راود اكثرهم بكلمات مؤثرة حية (المزمور ١٣٧) حيث قال :

١ - على انهار بابل هناك جلسنا - بكينا ايضاً عندما تذكرنا صهيون .

٢ - على الصمصاف في وسطها عللنا اعدائنا .

٣ - لاله هناك سألنا الذين سبونا كلام تربية ، ومعذبونا سألونا فرحين قائلين رغوا لنا من تزيات صهيون .

٤ - كيف نرغم تربية الرب في ارض غريبة ؟

٥ - ان نسيك يا اورشليم تنسي يميني .

٦ - ليتصق لساني بمنكي ان لم اذكرك ، ان لم افضل اورشليم على اعظم فرحي .

وبما لا شك فيه ان كثيراً من المسيبين الآخرين عملوا بنصيحة النبي ارميا (الواردة في الاصحاح ٢٩ من سفر ارميا) :

٥ - ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنت واكلوا ثمارها .

٦ - خنوا نساء ولدوا بنين وبنات وخنوا لبنيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات واكثروا هناك ولا تقلوا .

٧ - واطلبوا سلام المدينة التي سيبتكم اليها وصلوا لاجلها الى الرب لانه بسلاما يكون لكم سلام .

وقد فضل اغنياء المسيبين البقاء حيث هم بدليل ورود اسماء عبرانية بصورة متكررة في الوثائق التجارية لذلك العهد وكانت بعض هذه الاسماء مركبة من اسماء آلهة بابلية . وكانت اهم مراكز اقامتهم على خابور^٢ وهو كبارو (العظيم) لدى البابليين . وتقع هذه القناة العظيمة المتفرعة عن الفرات الى الجنوب الشرقي من بابل . وكان هؤلاء الذين بقوا وقاوموا الاندماج بالسكان اول افراد ما عُرف

(١) عزرا ٢ : ٦٤ ؛ نحميا ٧ : ٦٦ .

(٢) حزقيال ١ : ١ ؛ ٣ : ١ ؛ ٣ : ٢٣ .

بالدياسبورا Diaspora اي اليهود المقيمين خارج فلسطين . وكانت الديانة اليهودية عاملاً رئيسياً لتماسك اليهود في ديار هجرتهم .

كان زعيم اليهود العائدين^١ زروبابل^٢ وهو من سلالة الملك يويافين . وقد ارجع معه كنوز الهيكل التي نهبها نبوخذنصر واعترفت به الجماعة العائدة حاكماً عليها لبعض الوقت . وبعد صعوبات كثيرة انتهى بناء الهيكل ثانية في سنة ٥١٥ ق. م. في عهد داريوس وقد تم هذا المشروع على نفقة الدولة .

حذا ارتخشنا الاول (٤٦٥ - ٤٢٤) حذو كورش فسمح بعودة فريقيين متتالين من المسييين الواحد برئاسة نحميا والآخر برئاسة عزرا . وكان نحميا هذا في الحادية والعشرين من العمر يعمل حاملاً للكؤوس في البلاط الملكي وينظن انه من الحصان . وقد وصل اورشليم حوالي ٤٤٤ ق. م. وهدفه الصريح إعادة بناء اسوار المدينة . واتم عمله هذا بالرغم من معارضة جيرانه مثل صنبلاط^٣ حاكم السامرة وجشمو^٤ Gashmu الزعيم العربي وحتى بعض وجهاء اليهود المحليين . وحكم نحميا شعبه في ظل السيادة الفارسية وذلك بين عامي ٤٤٤ - ٤٣٢ ق. م. وكانت الدولة حكومة دينية كما في عهد زروبابل .

وقد ذكرت مرويوات التوراة^٥ التي قبلها عدد متزايد من العلماء ان عزرا ،

(١) ان كلمة يهودي وتعني بالاصل احد افراد قبيلة او مملكة يهوذا (التي منها تشتق) اطلقت بعد ذلك على اي فرد من الشعب اليهودي الذي رجع من السبي وشملت اخيراً كل افراد هذا الشعب في العالم . اما كلمة «اسرائيل» فتشير الى فرد من نسل اسرائيل اي يعقوب . ولا تزال كلمة «عبراني» اشمل تمييزاً وتضم كل الاسرائيليين .

(٢) مشتق من الاكادية زرو-بابيلي Zēru-babli اي «خربة بابل»؛ ويسمى ايضاً «شش بازار» Shesh-bazaar؛ عزرا ٨ : ١ و ١١ : ١٤ : ٥ ويرد «زروبابل Zerobabel» في متى ١٢ : ١ ؛ انظر نحميا ١٢ : ١-٩ .

(٣) وهي بالآشورية سن او بال ليت Sin-bal-lit اي «سن يهب الحياة» . ويرجع انه من نسل شخص اتى به الملوك الاشوريون ليحل مكان الذين نفوا من السامرة . وهو الذي تزوجت ابنته حفيد الكاهن الاعظم .

(٤) وقد يكون من نسل قبيلة عربية كتيبة نمود (يذكرها القرآن باسم نمود) التي لغها سرجون الى فلسطين .

(٥) عزرا ١ : ١٧ وما بعده .

الكاهن والكاتب، قد رجع الى اورشليم قبل نحميا ليصلح ديانة الشعب برخصة من الملك. وكما كان يهدف الى ايجاد عقيدة دينية نقية صافية فانه كان يهدف ايضاً لاجتاد نقاوة العنصر وبلغ من برنامج العنصري انه كان يحتم طلاق النساء غير اليهوديات وعلان ابنائهن غير شرعيين^١. وفي ذلك فاق نحميا الذي اكتفى بلعن هؤلاء الازواج وجلدهم ونزع شعورهم وانتزاع اليدين منهم بعدم عمل ذلك ثانية^٢. ولم يطرد نحميا الزوج المذنب من البلاد الا في حالة واحدة.

تمتع اليهود في عهد زروبابل ونحميا بامتياز الحكم الذاتي. ولكن اللغة العبرية في عهدهم لم تعد تستعمل كلغة دارجة وذلك ليس في بلاد سبيهم فحسب وانما في بلاد يهوذا ايضاً^٣. وقد حلت محلها اللغة الآرامية وظلت العبرية تستخدم كلغة دينية. واستعمل اليهود الآرامية في مراسلاتهم الرسمية^٤. وقد تركت اللغة العبرية عند اندثارها تراثاً غنياً من المفردات في اكثر اللغات المتحضرة. ويرجع اصل اكثر اسماء الاعلام شيوعاً في الانكليزية كيوحنا ويوسف وبولس ومريم الى اصل عبري.

الفرس في فينيقية

وفي الوقت الذي كان فيه الفرس يشجعون اليهود على اعادة بناء موطنهم القديم كانوا يعتمدون على الموارد الفينيقية لتوسيع امبراطوريتهم. وقد تم هجوم قمبيز (٥٢٩ - ٥٢١) ابن كورش على مصر بمساعدة سفن فينيقية ونتج عنه ضم مصر حتى النوبة الى الامبراطورية الفارسية. ولتزويد فرق المشاة التي تجتاز الصحراء بين فلسطين ومصر بالمياه استؤجرت الجمال من سكان الجزيرة العربية. وتوفي قمبيز في مكان غير معروف في سورية في طريق عودته الى مصر^٥.

(١) عزرا ١٠: ٤٥ - ٣: ١٠ وما بعده.

(٢) نحميا ١٣: ٢٥.

(٣) نحميا ١٣: ٢٤.

(٤) عزرا ٧: ٢٤.

(٥) يعمل المؤرخ يوسيفوس دمشق مكان وفاته. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 2, § 2. ويقول هيرودوتس انه مات في « اقبانا » Agbatana. انظر: Herodotus, Bk. III, ch. 64. اما بليني فيقول ان المكان هو « اكباتانا » Ecbatana على رأس جبل الكرمل. انظر: Pliny, Bk. V, ch. 19.

كان الاسطول الفينيقي ايضاً عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان بقيادة اخشوريش (xerxes) ٤٨٥ - ٤٦٥^١. ويظهر ان الفينقيين رحبوا بفرصة ضرب منافسيهم البحريين القدماء ولذلك قدموا ٢٠٧ سفن. كما اظهرت براعة الفينقيين الهندسية تفوقها^٢ في حفر قناة عبر البرزخ لتجنب العواصف حول جبل آتوس. وقد حطم الاسطول كله تقريباً في معركة سلاميس البحرية سنة ٤٨٠^٣.

كان داريوس، والد اخشوريش، اول من بدأ النزاع مع بلاد اليونان وهزم جيشه في معركة مراثون سنة ٤٩٠. وكان اليونان في نظره امة من البرابرة وقرصان البحر وهم مصدر ازعاج دائم لشواطئ آسية الصغرى في منطقة نفوذه. ومن المؤكد ان مستوى الحضارة الذي كان يمثله داريوس لم يكن باقل من مستوى معاصريه اليونان. فقد كان و خلفاؤه من اتباع زردشت الذي رأى الحياة صراعاً مستمراً بين قوى الخير والنور المتمثلة بأهورا مزدا وبين قوى الشر والظلام المتمثلة بأهريمان. ولم يتفوق على مبادئ الزردشتية الاخلاقية آئند سوى وصايا الديانة اليهودية. وكانت الحرب بالنسبة لليونان، كما عبر عنها شعراؤهم ومؤرخوهم حينذاك، حرباً بين الحرية والاستبداد الشرقي. وصرعان ما ليست ساحات المعارك في مراثون وثرموبيلي حقل الشرف والمجد ورفع الذين ضحوا بحياتهم فيها الى مصاف الابطال القوميين والخالدين. وكان النزاع الفارسي - اليوناني بالنسبة للعالم اجمع المرحلة الاولى في الصراع بين الشرق والغرب، ذلك الصراع الذي تابعه الاسكندر وبومبي ومعاوية وصلاح الدين ومن بعدهم نابليون والنتي.

طرابلس العاصمة الفينيقية

كانت دمشق المدينة الرئيسية في سورية في العهد الفارسي^٤. اما في فينيقية فسمع لاربع مدن هي ارواد وجبيل وصيدا وصور بممارسة الحكم الذاتي المحلي واعطيت

(١) انظر: Herodotus, Bk. VII. ch. 96.

(٢) انظر: Herodotus, Bk. VII, ch. 23.

(٣) انظر: Herodotus, Bk. VIII, chs. 86, 89-90, 96.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

كل منها حق الحكم على دولة صغيرة. وفي القرن الرابع اتحدت دويلات المدن الفينيقية هذه بعضها مع بعض وجعلت طرابلس، وهي مدينة حديثة العهد، مقر المؤسسات الاتحادية. وبعد ان كانت طرابلس تتألف في الاصل من ثلاثة مراكز متفرقة تحمل اسماء ممثلي صور وصيدا وارواد توحدت في السنة الاولى من حكم ارتخشستا الثالث (او كوس Ochus ٣٥٩ - ٣٣٨) وسميت «أثار» او ما يشبه ذلك كما ورد على قطعة نقود محلية تعود الى سنة ١٨٩ - ١٨٨ ق. م. وقد دعاها اليونان تريبوليس Tripolis (بالعربية طرابلس)^١. وبما ان هذه المدينة الثلاثية كانت مكان اجتماع المجلس العام الفينيقي فلما قامت بوظيفة عاصمة لفينيقية^٢. وكان يعقد المجلس اجتماعات سنوية يشترك فيها نحو ثلاثمائة مندوب. وبلغ من تكبر الموظفين الفرس على الوطنيين في احدى هذه الاجتماعات ان نعم هؤلاء وقرروا التمرد. ولا بد ان الفينيقيين قد شعروا في اواسط القرن الرابع ان شمس الفرس قد آذنت بالغروب.

صيدا تتحول الى رماد

بدأت الثورة ضد ارتخشستا هذا في القسم الصيداوي من طرابلس في عام ٣٥١ وانتشرت منه حتى عمت الساحل الفينيقي كله. وكانت مصر مصدر التشجيع كالعتاد. وسرعان ما انتقل مركز الثورة الى صيدا نفسها في عهد الملك تبنس Tennes. وقطع الصيدايون اشجار الحديقة الملكية في المدينة او بجوارها واشعلوا النار في التبن المخزون لحيلة الفرس ثم حصلوا على جنود مرتزة وسفن ذات ثلاثة صفوف من المجاذيف وعلى الاسلحة والمؤن واستعدوا للصراع المقبل. وسار ارتخشستا من بابل على رأس جيش يقدر عدده بـ ٣٠٠,٠٠٠ من المشاة و ٣٠,٠٠٠ من الفرسان^٣. واثناء مسيره كان مراكزه في سورية وكيليكيا يطردون من فينيقية بعد محاولتهم قمع الثورة. وطردت تسع من المدن الفينيقية الرئيسية الفرس

(١) انظر : George F. Hill, *Catalogue of the Greck Coins of Phoenicia* (London, 1910), § 48.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 15. ; Diodorus, Bk. XVI, ch. 41.

(٣) انظر : Diodorus, Bk. XVI, ch. 40, § 6.

واعلنت استقلالها. وعندما سمع تئيس بتقدم ارتخشستا بنفسه على رأس جيش كبير خاف وهرب وسلم مدينته. ومع ذلك قرر سكانها الموت احراراً. وفي ساعة يأسهم احرقوا جميع السفن في الميناء لئلا يحاول بعض المواطنين الهرب واعتصموا في بيوتهم بينما كانت النار تلتهمهم وتلتهم ممتلكاتهم^١. ويقال ان اكثر من ٤٠,٠٠٠ شخص قد هلكوا بذلك. اما القلائل الذين اسروا فنقلوا الى بابل^٢. وهكذا اصبحت المدينة التي كانت فيما مضى سيده المتوسط رماداً وحرمت العالم المثقف من وثائقها. وهذه هي المرة الثانية التي تمحى فيها صيدا من الوجود وكانت الاولى على يد اسرحدون في ٦٧٧. واستسلمت بقية المدن الفينيقية متعظة بصير صيدا المفجع.

مظاهر الحضارة

لا نعرف سوى القليل عن تطور الحضارة السورية وتبدلها تحت تأثير الحكم الفارسي. والواقع هو ان تاريخ سورية كله في هذه الفترة هو من اكثر العصور غموضاً في تاريخ البلاد كله. وتقتصر مصادر معلوماتنا على بعض النقود والكتابات الاثرية المبعثرة والمؤلفات العبرية والكلاسيكية. وتتوقف المصادر العبرية فجأة حوالي العام ٤٠٠ ق. م. وليس لدى علم الآثار سوى قليل من المعلومات. ومع ذلك فمن المؤكد ان الحضارة السورية ظلت مجموعة تامة من عناصر سامية وتشكل المصادر الآرامية الفينيقية عنصرها السائد كما كانت الحال في العصر البابلي الحديث.

واذا افترضنا ان قصة احيقار Ahigar ألقت لأول مرة في الفترة الفارسية فيمكننا ان نتخذها دليلاً على نوع الادب الذي كان يعنى به آنذاك. وهو من نوع ادب الحكم. وهناك ايضاً التأثير الفارسي على الديانة اليهودية الذي يستغرب عدم ظهوره حتى وقت متأخر وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد. والشكل الذي يتخذ هو اتجاه نحو الثنائية التي تتضمن ظهور منافس شخصي للاله الواحد. وقد انتقل هذا المفهوم الثنائي الى العهد الجديد في التوراة حيث يتخذ شكل

(١) انظر: Diodorus, Bk. XVI, ch. 43-45.; Frederick C. Eiselen, *Sidon* (New York, 1907), pp. 75-77.

(٢) انظر: Sidney Smith, p. 149; A. T. Olmstead, *History of the Persian Empire* (Chicago, 1948), pp. 436-7.

معاكسة مبدأ الخطأ لمبدأ الصواب ومبدأ الظلمة لمبدأ النور . ويمكننا ان نرجع تنظيم اليهود المتدرج لطبقات الملائكة ونمو الاعتقاد في يوم الحساب الاخير بما فيه من ثواب وعقاب بعد الموت الى تأثيرات ايرانية . وتكشف فكرة الحساب الاخير كما يعرضها كتاب اخنوخ (١ : ٤١) بما فيها من وزن اعمال الانسان في ميزان عن تأثير فارسي وان كانت فكرة الميزان نفسه تعود الى مصادر بابلية ومصرية سابقة . ولكن مفهوم دانيال عن اليوم الاخير (٧ : ٩ - ١٢) ليس ايرانياً . ولم تدخل اللغة العبرية والآرامية سوى كلمات قليلة مستعارة من الفارسية القديمة . وكلمة الفردوس Paradise اتت من الفارسية بطريق العبرية واليونانية^١ .

اما في مجال البناء فالبقايا الوحيدة المهمة هي قصر ومكان للعبادة وجدا في تل الدوير (لاخيش) . ويمكن تحديد تاريخ القصر بالضبط في منتصف القرن الخامس وذلك بواسطة قطعة من الخزف الاتيكي الاحمر . ويرجح انه كان مقراً فارسياً يحوي مصارف للمياه مستديرة من الاجر وبعض الملاحق الاخرى لتأمين الراحة . وتتبع بعض التماثيل التي اكتشفت حديثاً في انقاض قصر احد الموظفين الفرس في صيدا (قبل ٣٥٠ ق. م.) نموذج التماثيل في العاصمة بربوليس . الا ان التوابيت الرخامية على شكل بشري التي اكتشفت في صيدا بأعداد كثيرة تشير الى ان اصول النحت الاتيكي قد رسخت في البلاد في القرن الرابع . واصبحت الدراخما الاتيكية في هذا القرن الوحدة النقدية المعترف بها بعد ان عمّ تداولها في القرن السابق . ووجد الخزف اليوناني في هذين القرنين سوقاً واسعة في بلاد المتوسط الشرقية . ويصاب الفخار المحلي بالخطا حاسم خلال الفترة الفارسية ومن اسباب ذلك طغيان المنتجات اليونانية . ويمكن القول بوجه عام ان اليونان التي كانت في القرب السابع تتلقى التأثيرات الحضارية من فينيقية انعكس وضعها في القرن الخامس واصبحت تعطي بدلاً من ان تأخذ . وكان هناك نوع من التوازن بين عمليات العطاء والأخذ في القرن السادس . وفي هذا القرن تظهر المراكز التجارية اليونانية في الاراضي السورية ويتزايد عددها بصورة مستمرة بعد ذلك . وكان التجار والصناع اليونان منتشرين في مدن الساحل قبل فتح الاسكندر بقرن على الاقل .

(١) تعني بالاصل « حديقة » (انظر سفر الجامعة ٢ : ٥ ؛ نشيد الانشاد ٤ : ١٣) . وتطور التعبير فاصبح معناه « القرع الساوي للباركين » . (انجيل لوقا ٢٣ : ٤٣) . والكلمة العربية « فردوس » اتت بطريق الآرامية .

القسم الثالث
العصر اليوناني الروماني

الفصل السابع عشر الاسكندر وخلفاؤه السلوقيون

وضع فيليب المكدوني الحطط «لتحرير» المدن اليونانية في آسية الصغرى من سيطرة فارس وليرد في الوقت ذاته الزيارة التي قام بها داريوس واحشوريش لليونان ولكن امر تنفيذها ترك لابنه الاسكندر الذي فاق اياه بشهرته ونشاطه. وكانت فيليب قد اوصل مكدونيا الى زعامة الدول اليونانية عندما قتل اغتيالاً .

معركة ايسوس

بدأ الاسكندر في سن العشرين هجومه في ربيع عام ٣٣٤ ق. م. على رأس جيش يتراوح عدده بين ثلاثين واربعين الف رجل . فعبر الملبسوت وانساح في آسية الصغرى ، وهي جزء من الامبراطورية الفارسية آنشد ، وماكاد يخرج من مضائق كيليكيا ويعبر مناطق السهول حتى التقى بداريوس الثالث (٣٣٦-٣٣٠) ومعه حشد منوع يقرب من مئة الف جندي . وكانت كل شعوب آسية ، حسب رواية احد المؤرخين الشرقيين المتأخرين^١ ، «مقتنعة ان المكدونيين لن يجرأوا على الدخول في معركة مع الفرس بسبب كثرة عددهم»... وفي المعركة التي تلت في ايسوس^٢ (عام ٣٣٣) ، وهي يمر ضيق استطاع اليونان بمهارتهم العسكرية ان يقابلوا فيه تفوق الفرس في عدد جيشهم واضطر داريوس الذي كان يقرب المعركة من عربته الفاخرة التي تجرها اربعة خيول جنباً الى جنب الى الامراع في الحرب مع فلول جيشه شرقاً تاركاً معسكره واهل بيته . وقد عوملت نساء الملك معاملة

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XI, ch. 8, § 3.

(٢) انظر : Arrian, *Anabasis Alexandri*, Bk. II, chs. 9-13; Polybius, *Historia*-ram libri, Bk. XII, chs. 17-22.; Diodorus, Bk. XVII. ch. 33. W. W. Tarn, « Alexander », *Cambridge Ancient History*, vol. ٣, (Cambridge, 1927) pp. 366-9.

مهذبة نبيلة . وتخليداً لذكرى الانتصار است مدينة الاسكندرونة ، التي لا تزال تحمل اسمه ، مكان الحادث . واعطت اصداء هذا النصر الحاسم مجداً جديداً للاسم اليوناني وملأت قلوب الفرس بالشكوك ان لم يكن بالخوف .

مقاومة صور

لم يتابع الاسكندر عدوه المارب الى الشرق بل اندفع باتجاه الجنوب ليؤمن السيطرة على البحر وعلى كل خطوط المواصلات ورائه . وانفذ قائده بارمينيو مع مفرزة من الفرسان على طول وادي العاصي لاحتلال دمشق — مقر قيادة الفرس في سورية . وكان النصر في ايسوس قد جعل البلاد كلها خاضعة له . اما هو نفسه فاتبع الطريق الساحلية فاستسلمت ماراثوس واروادوجيل وصيدا . ولم يتجرأ على اغلاق الابواب في وجه المهاجم سوى صور ، ملكة الساحل الفينيقي ، التي سبق ان تحذرت شلناصر وسرجون ونبوخذنصر . فبنى الاسكندر رصيفاً طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ قدم من الشاطئ حتى الجزيرة التي يبلغ طولها ميلين . وكانت المدينة التعيسة الحظ تتوقع المساعدة من شقيقاتها في الشمال ولكن هذه عوضاً عن ذلك وضعت سفنها تحت تصرف القاتح . كما انها توقعت المساعدة من ابنتها البعيدة قرطاجة حيث بعثت شيوخها ونساءها واطفالها . ولكن اهلها خاب هنا ايضاً . وبعد حصار دام سبعة اشهر من البحر والبر خضعت صور للاسكندر في ٣٣٢ فشنق حوالي ٢٠٠٠ من اهلها وباع ما يقدر بثلاثين الفاً في سوق النخاسة . وكان يتبع في ذلك العادة الشائعة في الحرب . واحتفل بنصره باقامة الالعب والشعائر الدينية وبتقديم الذبائح في معبد اله المدينة لمقارنت الذي اعتبره معادلاً لهركوليس^١ .

يسجل التاريخ بمقاومة صور لزحف الاسكندر آخر انتفاضة للروح القومية الفينيقية . فقد تحطمت التقاليد القديمة الى الابد ولم تعد الروح القديمة تثبت نفسها ابداً .

حين كان الاسكندر لا يزال يحاصر صور وردته رسالة من داريوس يقترح فيها

(١) انظر : Arrian, Bk. II, chs. 18-24; Diodorus, Bk. XVII, chs. 41-46; Quintus Curtius, *De rebus gestis Alexandri Magni*, Bk. IV, ch. 2.

اقتسام الامبراطورية بحيث يكون نصيب الاسكندر جميع البلاد الواقعة غربي الفرات مع مال كثير وزواجه من ابنة داريوس . وأشار بارمينيو عليه بقبول الصفقة مضيئاً بأنه لو كان مكانه لما كان تردد . فاجابه الاسكندر « وهكذا كنت افعل انا لو كنت بارمينيو » .

لم تكثر غزاة بمصر صور فقاومت ببطولة لا تقل عن بطولتها ولكنها لم تثبت طويلاً كما ثبتت . وكانت غزاة فيما مضى زعيمة المدن الفلسطينية الحس . وبعد حصار شهرين قهرت حاميتها التي كانت تضم كثيراً من العرب وايدت وجر قائدها الحصي حول اسوار المدينة وهو موثق بعربات الاسكندر . وبيع سكان المدينة عبيداً . وقد اصيب الاسكندر بجراح طفيفة هنا كما اصيب في ايسوس^٢ . واستولى الفاتح على مخازن ضخمة من التوابل لان المدينة كانت المستودع الرئيسي على البحر المتوسط لمنتجات الجزيرة العربية والبلاد التي تجاورها . وباحتلال غزاة دق مسمار آخر في نعش السيادة الفارسية في البحر المتوسط .

اخضاع مصر

اصبحت الطريق مفتوحة الآن الى مصر التي بفتحها يصبح الاسطول الفارسي عديم الفائدة . ولم يبد المصريون اية مقاومة لاستبدال سيد بآخر . وقام الاسكندر اثناء وجوده في مصر بزيارة آمون (الذي اعتبر معادلاً للاله جوبيتر بعد ذلك) في الواحة التي تدعى اليوم واحة سيوه في الصحراء الليبية على بعد نحو مائتي ميل من الحدود المصرية ، وحياء الكاهن الاعلى كابن الاله . كما انه وضع اسس المدينة التي لا تزال تحمل اسمه . وكان هذان العملاق ينطويان على اهمية بالنسبة للمستقبل ابعد مما كان باستطاعة صانعها التنبؤ به . وكانت عملية الجمع بين فكرة الالهية وفكرة الملكية قد ادخلت الى العالم اليوناني - الروماني وتوطدت اخيراً فيه . ولم يكن يوجد لفكرة الملكية ذات الصفة الالهية ، وهي مؤسسة طبيعية في الشرق القديم ، اي اثر تقريباً في اوروبا قبل عصر الاسكندر وخلفائه . وقد برزت الاسكندرية

(١) انظر : Plutarch, « Alexander », in *Vitae*.

(٢) انظر : Arrian, Bk. II, ch. 27.; Curtius, Bk. IV, ch. 6.

بالتالي لتصبح مقر الثقافة الهلنستية والوريثة الشرقية لاثينا. وكانت الثانية في المرتبة بعد رومة في العصر الروماني. ويعتبر انشاء هذا الميناء في اقصى الشمال الغربي للدلتا، من الوجهة التاريخية، اكثر اهمية من مجرد فتح مصر.

المعركة الحاسمة قرب ارييلا

عاد الفاتح المكتسح في ربيع سنة ٣٣١ الى سورية حيث بقي مدة كافية للضرب على ايدي السامريين الذين اغتالوا نائبه وللاحتفال ايضاً بالهبة وعظمة باقامة الالعب والشعائر في معبد صور^١. اما امر زيارته لاورشليم في طريق ذهابه الى مصر وتقبل خضوعها شخصياً فأمر مشكوك فيه^٢. وكانت الطريق التي سلكها الآن تمر عبر سورية المجوفة ووادي العاصي وتبلغ القران عند ثابسكس Thapsacus. وامر ان تشيد بجوارها مدينة يرجح ان قائده سلوقس نيكاتور قد اتمها واطلق عليها اسم نيقفوروم Nicephorium^٣. وبعد ان اجتاز بلاد الرافدين باتجاه شمالي شرقي خاض نهر دجلة شمالي موقع نينوى. وهزم على السهل بين ذلك الموقع وارييلا في الشرق آخر جيش حشده ملك من سلالة الاخمينيين التي انجبت كورش الكبير وداريوس الكبير. وهرب داريوس الثالث بنفسه^٤. وكان هدف الاسكندر التالي مدينة بابل مقر الحكومة المركزي التي بلغ ارتفاع اسوارها ثلاثمائة قدم. ورحب كهنتها الوطنيون وموظفوها الفرس بالقادم الجديد بأكاليل الزهور والمهدايا. واستولى الفاتح على كنوز كثيرة ولكنها لا تعتبر شيئاً اذا قورنت بتلك الثروات الخيالية التي اختزنها الاباطرة الفرس في مقرهم الصيفي سوزا والتي سقطت بيد الفاتح فيما بعد. ومن سوزا استؤنف السير شتاء عبر جبال عالية وعرة الى برسبوليس. فنهب كنوزها واشعلت النار بالقصر الملكي الذي شيده داريوس. وهكذا انتقم لتدمير المعابد اليونانية في اثينا من قبل احشوريش^٥.

(١) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 1-4.

(٢) قارن ذلك مع : Josephus, Bk. XI, ch. 8, §§ 3-5; Olmstead, *History of the Persian Empire*, p. 507, n. 11.

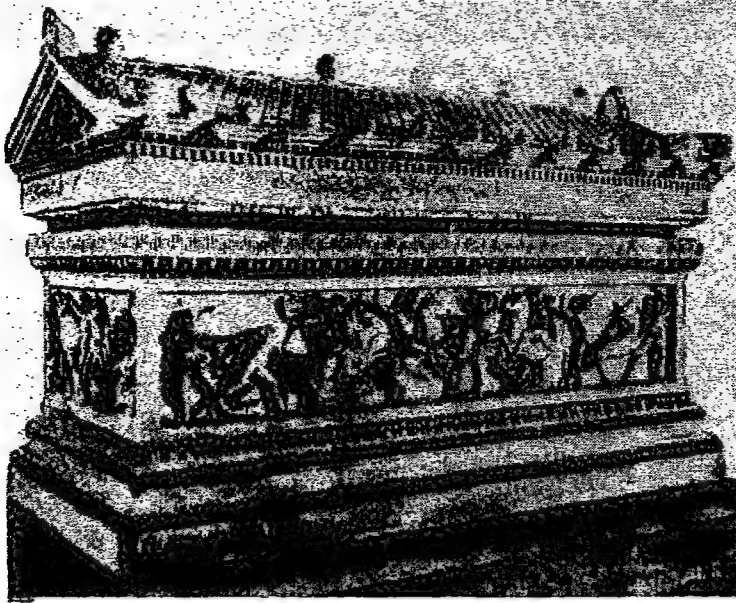
(٣) وهي اليوم الرقة. انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21, Bk. VI, ch. 30. قارن ذلك مع : A. H. M. Jones, *Cities of the Eastern Roman Provinces*, (Oxford, 1937), p. 216.

(٤) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 14-15.

(٥) انظر : Arrian, Bk. III, chs. 16-18; Diodorus, Bk. XVII, ch. 7.

توجهت من وادي برسبوليس في ربيع عام ٣٣٠ كتيبة سريعة على رأسها الاسكندر باتجاه الشمال وكان هدفها اكبتانا (عاصمة ميديا القديمة وهي همدان اليوم) حيث فرّ داريوس . وبينما كانت الكتيبة تتقدم اغتال متأمران داريوس في معسكره . وسمح للاسكندر ان يحصل على الجثة فارسلها الى برسبوليس لتدفن باحتفال ملكي . واعتبر الاسكندر نفسه الآن الوارث الشرعي لآخر ملك فارسي .

توجه الاسكندر شرقاً كأنه لم يكتف بما قد حصل عليه فقام بغزوة عبر نهر سرداريا Jaxartes^١ ثم توغل جنوباً بطريق كابل الى البنجاب في شمالي غربي



«تابوت الاسكندر»

وجد في صيدا والآن في استانبول ويرجع الى اواخر القرن الرابع ق. م. ومن المحتمل جداً انه يمثل معارك الفرس والاسكندر . غير ان جميع الروايات القديمة تقول بان الاسكندر دفن في مصر . وربما كان هذا التابوت قد صنع لحاكم صيدا الفينيقي .

(١) هو نهر سرداريا اليوم ويعرف بلم سيحون بالعربية وهي مقبلة من بيزون في سفر التكوين ٢ : ١١ .

الهند . وبدأ التذمر بين ضباطه وجنوده المنهوكين ابان حملته الى الهند وتمرد البعض وكان ذلك في عام ٣٢٦ . فعاد الاسكندر الى بابل حيث انصرف الى الملذات ووضع خطط فتوحات جديدة . وتوفي بالحمى في قصر نبوخذنصر في حزيران ٣٢٣ قبل ان يتم الثالثة والثلاثين من العمر تاركاً وراءه سجلاً فريداً من الاقدام والجلد والحيوية المتدفقة والخيال الحصب . واصبح اسمه متصلاً باسماء ابطال قصص خيالية متعددة مزخرفة بأنواع المبالغات الفائقة التصور . ويشير دانيال اليه بوضوح (٢١٥:٨) . ويبدو الاسكندر ذو القرنين في القرآن (٨٢:١٨ وما بعدها) كأنه مكلف برسالة الهبة .

امتزاج الشرق والغرب

لعلّ اعظم ماثرة قدمها الاسكندر للتاريخ هي في اتاحته الفرصة لامتزاج الافكار والمؤسسات اليونانية والشرقية . وكانت عملية التداخل الثقافية قد بدأت قبل عهده الا ان فتوحاته زادت في سرعتها وسهلتها . وقد اعطى بنفسه مثلاً على مزج الدم اليوناني والاسيوي بزواجه من الاميرة روكسانا من بكتريا (بلخ) واثنين غيرها من الاسرة الملكية الفارسية في سوزا . وشجع ضباطه وجنوده ليحذوا حذوه . وكان يلبس في المناسبات الرسمية اللباس الشرقي . واخذ ينفس في عادات الفرس الناعمة المتغشّة ويقلد بذخ الملوك الاسيويين^١ . وقد حاول على عكس احشوروش ان يصل اوربا وآسيا ليس بالفسور الحشبية والروابط الجامدة بل بروابط الحب الشريف والزواج الطاهر والتسل المشترك^٢ . وانه لحدث عظيم في التاريخ عندما صلى الاسكندر في مأدبة حضرها تسعة آلاف مكدونى وفارسى على ضفاف دجلة لاجل وحدة القلوب ودولة مشتركة^٣ وكان الانبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا معها كان تصورهم ناقصاً ، اخوة الانسان . ولكننا الآن امام اول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا اثر للحواجز فيه بين اليونان والبرابرة وعمل على

(١) انظر : Diodorus, Bk. VII, ch. 8.

(٢) انظر : Plutarch, Complete works, Essays and Miscellanies, (New York, 1909), vol. i, p. 164.

(٣) انظر : Arrian, Bk. VII, ch. 11, § 9.

تحقيقه . ولم ينقطع تماماً ذلك الامل البراق الذي ضمنه الفيلسوف الفينيقي زينون فيما بعد في « جمهوريته » عن افكار الناس منذ ذلك الحين .

كان انشاء المدن التي يروى انها زادت عن السبعين وسيلة اخرى في تحقيق سياسته المدروسة حول تقارب اوثق بين الشرق والغرب . وهدفت هذه المدن الى ثلاثة اغراض وهي ان تكون مراكز سكني للمحاربين المسرحين ، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي الهليني . ولا بد ان الاسكندر كان تلميذاً جديراً باستاذة ارسطو اذ كان يحتفظ كما يروى بنسخة من الباذة هوميروس التي نقحها ارسطو بجانب خنجره تحت وسادته . . ويقال انه ذكر في رسالة بعث بها من آسية الى استاذة : « اؤكد بالنسبة لي انني افضل ان اتفوق على الآخرين في معرفة الاحسن من ان اتفوق عليهم في مدى سلطتي وممتلكاتي^١ . وسرعان ما اصبحت اللغة اليونانية لغة العلم . وعندما اتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت الى اللغة اليونانية اصبحت في متناول العالم المتمدن كله .

تجزؤ الامبراطورية

تمزقت الامبراطورية المكدونية المتزامية الاطراف التي تم ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها . وتسابق قواده للفوز باحسن اقسامها . وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية . ويبرز من هذه الفوضى اربعة قواد على رأس اربع دول : بطليموس في مصر وسالوقس في مرزبانه بابل وانتيغونس في آسية الصغرى وانتيباتر في مكدونيا . وهكذا « انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه اربعة قرون عظيمة تنجس نحو رياح السماء الرابع^٢ . وكان بطليموس اكثر هؤلاء الاربعة ذكاءً الا ان سالوقس كان بالتأكيد اقدرهم .

سالوقس مؤسس الدولة السورية

برز اسم سالوقس الاول (٣١٢ - ٢٨٠ ق. م) الملقب نيكاتور Nicator

(١) انظر : Plutarch, « Alexander », in Vitae.

(٢) انظر : دانيال ٨ : ٨ .

(المنتصر) لأول مرة في الحملة الهندية التي قادها الاسكندر. ولم تكن منطقة سورية-فلسطين في حوزته لدى اقتسام الامبراطورية لانها الحقت بأسية الصغرى. ولكن بطليموس تغلب في عام ٣١٢ ق.م. بمساعدة سلوقس على انتيغونس في غزة وضم فلسطين الى مقاطعته المصرية. وبقيت كذلك لاكثر من قرن باستثناء فترات متقطعة. واسترجع سلوقس في السنة ذاتها بابل التي كان قد خسرها. وبعد ان ساهم في احراز نصر آخر على انتيغونس في ايبسوس Ipsus (في فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ ق.م.) حصل على القسم الشرقي كله من آسية الصغرى بالاضافة الى سورية من الفرات حتى المتوسط^١. واصبحت انطاكية التي بناها على العاصي وسماها باسم والده مقر حكومة سورية ومع ذلك تعتبر السنة ٣١٢ ميلاد الدولة السورية وبدأ التاريخ السلوقي^٢. ويظهر اسم «ملوك سورية» لأول مرة. وكان ايجاد تقويم رسمي اعظم ماثرة للسلوقيين بعد تأسيس المدن. وكان بطليموس في هذه الاثناء قد وسع حدود مملكته الى خط يقع شمالي ارواد وجنوبي حمص. وقد تراجع هذا الخط لدرجة كبيرة حتى جنوبي بيروت ودمشق حوالي ٢٥٠ ق.م. ليتقدم مرة ثانية حتى شمالي ارواد بعد خمس وعشرين سنة.

اما في الشرق فقد وسع سلوقس حدود مملكته السورية فشملت فارس حتى نهر جيحون Oxus في الشمال والسند في الجنوب. وهكذا اصبحت المملكة السورية تضم تقريباً القسم الاسيوي من امبراطورية الاسكندر. وكانت مملكة سلوقس اعظم الممالك التي قامت على انقاض ممتلكات الاسكندر في قوتها واتساعها. ولم يكتف بذلك بل اجتاز الملبسبونت في اواخر ٢٨١ ماصماً ان يضم مكدونيا الى ممتلكاته الواسعة وكان عرشها شاغراً بموت قائد آخر من قواد الاسكندر وهو ليسياخوس Lysimachus غير انه قتل هناك.

اتبع سلوقس سياسة نشر الهلينية التي وضعها الاسكندر فشيّد ما لا يقل عن ست عشرة مدينة تحمل اسم والده انطيوخس وتسع مدن تحمل اسمه وخمساً تحمل

(١) انظر: Appian, *Romaika*, § 55

(٢) دعاه السورويون واليهود التاريخ اليوناني؛ انظر: سفر المكابيين الاول ١٠:١١. الكتاب ١١. بدأت السنة في ١ تشرين الاول واستتمها حتى اليوم محذود في سورية؛ قارن ذلك مع: Richard A. Parker and Waldo H. Dubberstein *Babylonian Chronology* (Chicago, 1942) p. 18.



اسم امه لاوديسا وثلاثاً باسم زوجه الباكترية آباما^١. اما سلوقية^٢ التي بنيت لتحمي مصب العاصي ولتكون ميناء لانطاكية فهي اما من بناء سلوقس او احد خلفائه

(١) انظر: Appian, § 57.

(٢) تذكر غالباً وخاصة على النقود باسم سلوقية بيرية Pieria لتمييزها عن المدن الاخرى التي تحمل نفس الاسم. وبيرية التي هي في الاصل اسم منطقة في مكدونيا اطلقت على مقاطعة تقع على الساحل الشمالي من سورية وعلى ضفة العاصي اليمنى. وقد شيدت على بعد خمسة اميال شمالي العاصي لتستفيد من مكان سهل التحصين ولتجنب المياه الرقيقة الطينية. وبلغ سكانها في ٢١٩ ق. م. ثلاثين الف نسمة.

المباشرين . وقد نقل جثمانه ودفن فيها . وكان يعبد هناك كله^١ . واصبحت من ثم مدفن السلالة . ومن المدن التي سميت لاوديسا فان تلك التي تقع على الساحل السوري وتسمى بالعربية اللاذقية لا تزال مزدهرة وفيها احسن ميناء على الساحل . وأباميا على العاصي (افاميا لدى الجغرافيين العرب) هي قرية صغيرة اليوم تعرف بقلعة المضيق . وقد أصبحت مركزاً عظيماً في المملكة السورية وكان فيها الجيش والخزينة الحربية واصطبل تابع للدولة يضم ٣٠,٠٠٠ فرس و ٣٠٠ حصان^٢ . وكان بمثابة مستودع حيث تربى فيه فيلة الحرب وتدريب . اما المدن التي تسمى انطاكية فكانت العاصمة بطبيعة الحال اكثرها اهمية .

كادت الامبراطورية التي بناها سلوقس الاول ان تنهار في عهد الملوك الذين اتوا بعده . ففي عهد احد احفاده ، سلوقس الثاني كالينيكوس (٢٤٦ - ٢٢٦) هاجم بطليموس اورجيتس Euergetes سورية واحتل انطاكية وسار بجيوشه دون ان يلقي مقاومة حتى الفرات . ولكن الاضطرابات الداخلية اوجبت عودته الى بلاده فاتبعت الفرصة لسلوقس في ان يسترجع مقاطعاته المسلوقة . واغتتم الفرثيون في هذه الاثناء الوضع المضطرب في المملكة السورية للتخلص من نيرها . فهزم ارشاق Arsaces ، ملك فرثيا^٣ ، سلوقس في معركة بعد سنة ٢٤٠ ق. م . بمدة وجيزة ويعتبر هذا التاريخ بدء التأسيس الحقيقي للسلالة الفرثية^٤ . وكان ملك برغام منهمكاً ايضاً في مد سلطانه على الجزء الاكبر من آسية الصغرى .

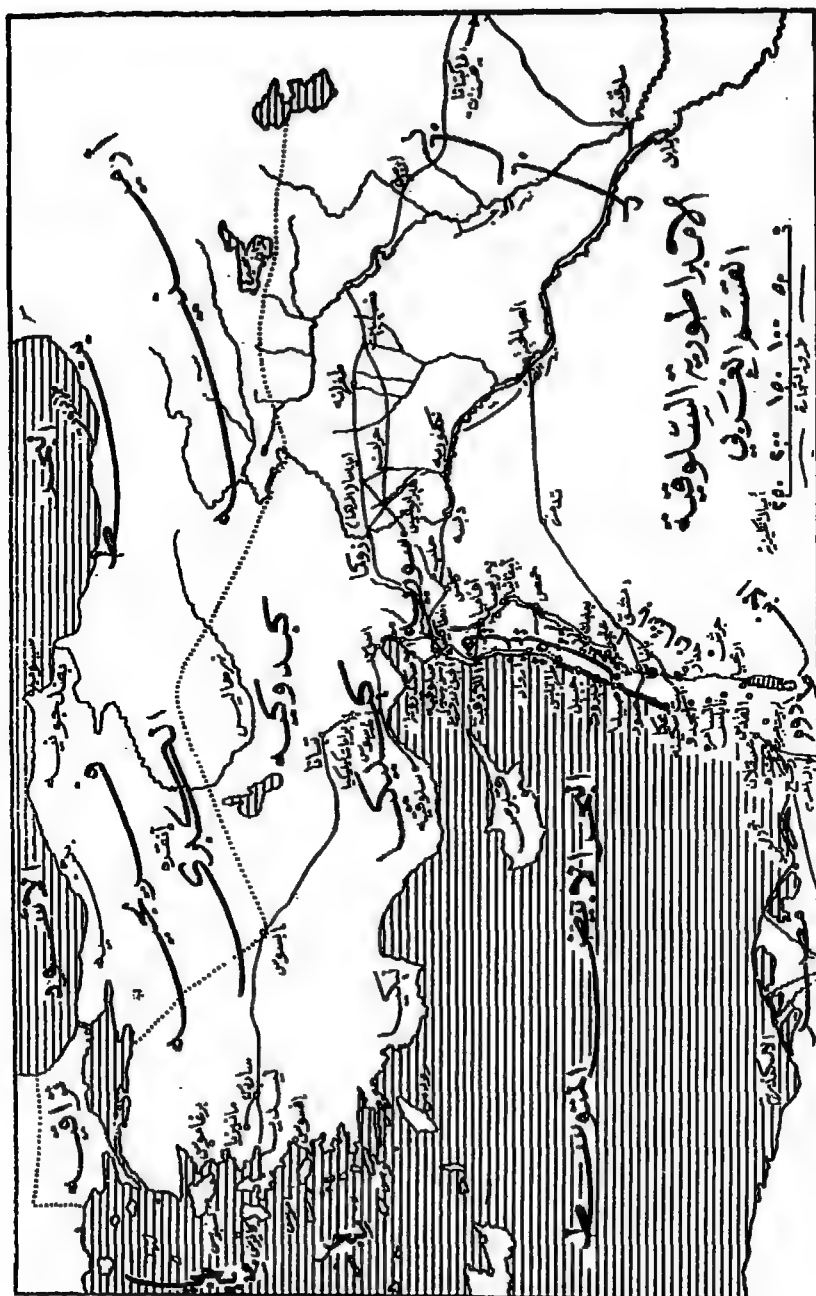
كانت المملكة الساقية قد فقدت الكثير من مقاطعاتها وعظمتها عند اعتلاء

(١) انظر : Appian, § 63.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

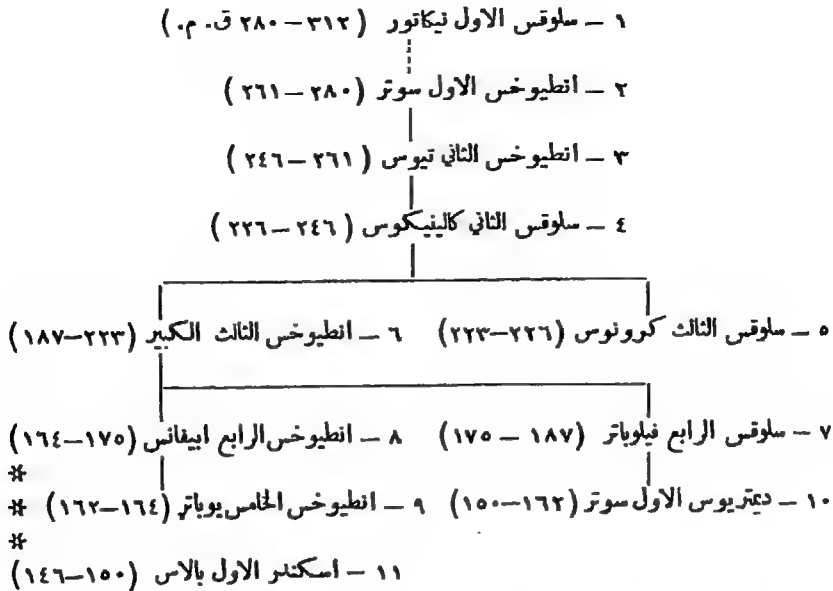
(٣) جزء من مرزبانة في الجنوبي الشرقي من بحر الخزر . وكان الفرثيون من اصل سكيثي .

(٤) احتفل فيها بعد بمرحلة أقدم منها حصلت سنة ٢٥٠ كبداية للاستقلال الفرثي؛ قارن ذلك مع : Edwyn R. Bevan, *The House of Seleucus* (London, 1902), vol. i, P. 285.



انطيوخس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧) ^١ العرش . وقد عزم انطيوخس على انفاذ الموقف فسار على رأس جيشه باتجاه الشرق أولاً ليسترد المقاطعات الايرانية وكان النجاح حليفه . وعبر جيشه جبال هندكوش ونزل وادي كابل وتوغل جنوباً حتى أصبح على ابواب الهند . وتمتعت هذه الشعوب البعيدة برؤية الجيش المكدوني للمرة الثانية . وقد اهتم لدى عودته الى بابل بالجزيرة العربية كما فعل الاسكندر قبله ، إذ ان الحاجة الى توابلها وسائر منتجات بلادها الحارة وأهمية وضعها المتوسط بين سطري الامبراطورية الشرقي والغربي من وجهة طرق الملاحة كانت كلها اعتبارات ذات شأن . غير ان قيامه برحلة مع اسطوله من الدجلة الى شواطئها الصعبة كانت كافياً لاقناع انطيوخس بعدم جدوى اية خطة لاحتلال دائم لمثل هذه الجزيرة الصحراوية . ولذلك عاد في ٢٠٤ ق.م . الى سلوقية على الدجلة ، عاصمة مرزباناته الشرقية .

(١) تمثل الشجرة التالية صلات النسب بين افراد الاسرة السلوقية :



ملاحظة : تشير الخطوط ذات النجوم الى بنوة مزعومة . انظر بشأن الملوك الباقين ما سيأتي في الصفحات التالية ؛ Cf. Parker and Dubberstein, pp. 19 seq ; Neilson C. Debevoise, *A Political History of Parthia* (Chicago, 1938), pp. 70-71.

وجه انطيوخس اهتمامه بعد ذلك الى بطليموس عدوه في الجنوب. وكان قد قام قبلاً في عام ٢١٧ بمحاولة استرجاع الاقسام المنتزعة من سورية ولكنه فشل في معركة جرت على الحدود عند رفح (رافيا Raphia قديماً). الا ان جهوده الآن في ١٩٨ نجحت. وفي بانياس^١ حيث هزم انطيوخس القوات المصرية استعمل



انطيوخس الثالث الكبير
من تمثال نصلي في متحف الاوفر

(١) كانت منابع الاردن عاصمة بمنطقة مقدسة مكرسة لاله عرف فيه اليونان الههم بان Pan. وحين شيدت مدينة هناك بعد ذلك اطلق عليها اسم باياس التي ترد في الانجيل باسم قيصرية فيلي. وقد اعاد الوالي فيليب بنائها او رجا وسماها قيصرية على شرف طييريوس. انظر: Bevan, vol. ii, p. 37; Dussaud, *Topographie*, pp. 390-91.

الجيش السوري، كما في رافيا، الفيلة التي كان الملك قد جلب كمية جديدة منها من الهند^١. وقد استرجع انطيوخس بعد قتال مستمر دام عشرين سنة كل ما فقده والده وجده تقريباً وكسب بذلك لقب الكبير.

وفي هذه الفترة اتى الى بلاطه وفد من رومة ليحذره من التعرض لمصر. وهذا هو اول اتصال نسمع به بين رومة وانطاكية ويعتبر فاتحة عهد جديد في العلاقات الدولية القديمة. وفي هذا الوقت بالذات يلتجئ هانيبال الى سورية ويجرض انطيوخس على مهاجمة ايطاليا^٢. ولم يكن هذا على معرفة تامة بقدرة السلطة الجديدة التي ظهرت في الغرب. وتجراً بدخول الحرب لمصلحة اليونان حيث كان الرومان يتوسعون، ولكنه اصيب بهزيمة على ايديهم في ترموبيلي سنة ١٩١ ق.م^٣. وهزمه الرومان في العام التالي للمرة الثانية قرب مغنيزيا في غربي آسية الصغرى واضطر في عام ١٨٨ ان يتخلى عن كل ممتلكاته وراء جبال طوروس وان يدفع غرامة حربية ضخمة^٤. وهكذا فقد الى الابد آسية الصغرى بما فيها من طرق تجارية برية وبما تقدمه من اتصال مباشر مع الحضارة اليونانية. واصيب البيت السلافي بضربة قاصمة وهو في اوج التجاح الذي بلغه منذ تأسيسه.

ترك الصلح المجمل والجزية الثقيلة سورية في وضع ضعيف ولكنها لم تبلغ من الضعف درجة تمنعها من اتباع خطة الهجوم من جديد، اذ ما كاد يعلم انطيوخس الرابع (١٧٥ - ١٦٤) ان مصر تعد حملة لاسترجاع سورية المجوفة - موضع النزاع - حتى بدأ الهجوم أولاً في البر والبحر وهزم الجيش المصري في ١٦٩ ق.م. هزيمة ساحقة في قلعة بيلوزيوم الواقعة على الحدود واسر الملك بطليموس فيلوميتير نفسه. وسرعان ما وقعت مصر السفلى كلها في يدي انطيوخس ولم ترفض الاستسلام سوى الاسكندرية التي تعرضت للحصار لأول مرة في تاريخها. ومع ذلك اسرع

(١) انظر: Polybius, *Histories* Bk. XVI, ch. 18 seq.

(٢) انظر: Livy, *Historiarum*, Bk. XXIV, chs. 43, 60.

(٣) انظر: Appian, §§ 18-20.

(٤) انظر: Polybius, Bk. XXI, chs. 16-17; Livy, Bk. XXVII, ch. 45.

(٥) الفرما بالعربية. انظر: Polybius, Bk. XXVIII, ch. 18.

الثورة المكايية

(٣) انظر: Polybius, Bk. XXVI, ch. 1; Livy, Bk. XLI, ch. 20.

بعبد بصفاته نصف السامية في معابد شبه سامية ويمثل بلباس نصف سامي^١. ومع ذلك كان المتسكون بأصول الديانة والقوميون بين اليهود متحدين في معارضتهم الأكيدة. ونشبت الثورة اليهودية^٢ سنة ١٦٨ ق. م. بزعامة يهوذا وهو ابن كاهن بسيط يدعى ماتاثياس من الاسرة الهاسمونية. واتخذ بعد ذلك لقب المكابي^٣. ووجهت الثورة في اول الامر ضد الطبقة العليا التي تستغل الجماهير اكثر منها ضد الحكومة المركزية. وقد نظم يهوذا واخوته عصابات غير نظامية تعمل في التلال وتجنب المعارك النظامية مع القوات الملكية. وكان هناك اتقاء (حاسديم) بين الذين ثاروا على انطيوخس ولم يقبلوا بتدنيس يوم السبت بقيامهم بأعمال حربية لذلك ابدوا بسهولة^٤. وتعتبر هذه الحادثة من اقدم حوادث الاستشهاد الديني في التاريخ المدون. وقد احتلت اورشليم بمجهود الاخوة المكابيين فطهر الهيكل واعيدت الذبائح اليومية. ولتخليد هذه الذكرى اقيم عيد هنوكة (التكريس) ولا يزال يحتفل به سنوياً منذ ذلك الحين.

جمهورية يهودية

وبالرغم من ان الحركة كانت ذات طابع ديني في بدايتها فانها قد تطورت الى ثورة قومية تهدف الى تحرير البلاد. ولم يكن النزاع ضد القوات السورية فقط بل كان نزاعاً بين المتعصبين والقوميين اليهود الذين لم يترددوا في اخلاصهم للنزعة العبرانية من جهة. وبين انصار الثقافة الجديدة الذين يؤلفون الحزب الهلنستي او حزب الاصلاح من جهة اخرى. وكان النصر في كلا النزاعين حليف المكابيين. وانتخب سمعان شقيق يهوذا سنة ١٤١ ق. م. كاهناً اعظم وحاكماً. ومنع الملك

(١) انظر : M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* (Oxford, 1941), p. 704.

(٢) تيمير جفراني اول من استعمله عزرا في ٨:٥ ليشير الى ولاية في الامبراطورية الفارسية.

(٣) سفر المكابيين الاول ٢: ٤؛ انظر ايضاً 1 § 6, Bk. XII, ch. 6, Josephus, *Antiquities*.
ان اصل التعبير ومعناه غير واضعين ولله مشتق من العبرية (مقبة) اي المطرقة بالاشارة الى الضربات الساحقة التي اتزلت بالعدو.

(٤) سفر المكابيين الاول ١: ٦٢-٦٣؛ ٢: ٣٨.

السلوقي ديمتريوس الثاني نيكاتور اليهود الاستقلال تحت حكم سمعان^١. واخذ سمعان يضرب النقود. وبدأت اورشليم عصراً جديداً فارخت الوثائق منذ ذلك الحين فصاعداً كما يلي: «في السنة الاولى من حكم سمعان الكاهن الاعظم والحاكم^٢». وهكذا ولدت جمهورية يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين سنة.

بعد ان انتصر اليهود المكابيون اصبحت نظرتهم القومية اضيق بما كانت عليه عند اليهود القدماء. فحاربوا اخوانهم اصحاب النزعة الهلينية كما حاربوا غير اليهود. وهاجم يوحنا هيركانوس الاول (١٣٥ - ١٠٥) الذي خلف والده سمعان، السامريين الذين استسلموا لمشروع انطيوخس وهدم مدينتهم مع معبدها^٣. وكان قبل ذلك قد اجبر الادوميين الذين كانوا في هذه الاثناء قد توغلوا في جنوبي اليهودية على الاختتان والتهود (حوالي العام ١٢٦ ق.م.)^٤. وكانت الجمهورية اليهودية في عهد المكابيين الاوائل ذات شكل ديني. وقد نقش يوحنا على نقوده «يوحنا الكاهن الاعظم»، ولكن ابنه اريسطوبولس (١٠٥ - ١٠٣) اتخذ لنفسه لقب ملك او على حد تعبير يوسفوس «وضع تاجاً على رأسه»^٥. واتخذ مع سائر ملوك السلالة المتأخرين اسماء يونانية بجانب العبرانية. وبعد عهد خلفه اسكندر جنادبوس (١٠٣ - ٧٦) الذي وصلت رقعة البلاد ذروتها في ايامه اصبحت الكلمات اليونانية مستعملة على النقود بجانب العبرية. وكانت منطقة الجليل بوضعا الذي نعرفه من الانجيل من عمل اريسطوبولس. وكانت تسكنها لمدة طويلة شعوب غير يهودية واصبح يسكنها الآن الايتوريون وهم من اصل عربي ولغتهم آرامية. وقد خيّر

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 6, § 7. وسفر المكابيين الاول ١٣: ٣٤ وما بعده.

(٢) سفر المكابيين الاول ١٣: ٤٢.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4, §§ 2-3.

(٤) سفر المكابيين الاول ٢٩: ٤؛ ٦٥: ٥. انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 9, § 1. كانت كلمة «Idumaea» الشكل اليوناني لايدوم.

(٥) انظر: *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 1.

(٦) اشعيا ١: ٩؛ سفر المكابيين الاول ١٥: ٥؛ انجيل متى ١٥: ٤.

سكان الجليل بين الطرد او الحتان. ففضلت الاكثرية الحتان^١. ولذلك كان كثيرون من السكان الذين عمل بينهم المسيح واتخذ منهم اكثر تلاميذه من اصل غير يهودي ويتكلمون اللغة العبرية برطانة. وكان ينظر اليهم بانهم ادنى من اليهود القدماء. وغير اهل لظهور نبي فيهم^٢. واعتبر التصرف الذي اجراه هيركانوس وابنه سابقة اتبعها آخرون من البيت المسموني في معاملتهم للمدن او الشعوب التي يقهرونها وهو الاختيار بين اليهودية او الابدادة^٣.

آخر انتفاضات المملكة السلوقية

لم يكن اليهود وحدهم الذين كانوا يضغطون على المراكز التي تنهار فيها السلطة السلوقية بل كانت القبائل العربية المجاورة ايضاً وخاصة الانباط على حدود الامبراطورية الجنوبية. اخذت فرتيا وبكتريا والبلاد المجاورة بعيداً في الشرق تستعيد استقلالها. وبدأت تبرز حوالي العام ١٣٠ ق.م. سلالة عربية في الرها تعتمد اسماً على فرتيا ويتسمى اكثر ملوكها باسم ايجر. ونجحت قبيلة عربية اخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمركز حول حمص (Emesa) وتتبع السلوقيين بالاسم فقط. كذلك توطدت دولة وطنية اخرى تتألف من الايتوريين في سورية المجوفة واتخذت عنجر (Chalcis) عاصمة لها. وكان خلفاء انطيوخس الرابع بوجه العموم عاجزين. وتحت حكمهم اخذت الاسرة السلوقية، التي وقفت امام العالم لعدة اجيال كالاسرة الامبراطورية في الشرق، تفقد بالتدريج مكانتها وسلطانها وكرامتها. ويرينا القرن الذي تلا ابيفانس صورة مضطربة من الثورات الوطنية والانشقاق الداخلي والنزاع العائلي وفقدان المقاطعات بالتدريج. وتقلصت الامبراطورية التي امتدت في الماضي من البحر المتوسط الاسفل والبحر الابيحي الى التركستان والمهند واصبحت الآن دولة محلية في شمالي سورية.

واصبح الانباط العرب الآن قوة هامة وكانوا قد طردوا بقايا الادوميين من منطقة البتراء قبل ٣١٢ ق.م. ثم انتزعوا سورية المجوفة من ايدي السلوقيين حوالي

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 11, § 3.

(٢) انجيل مرقس ٧: ١٤؛ لوقا ٢٢: ٥٩؛ اعمال الرسل ٧: ٢؛ يوحنا ١: ٤٦؛ ٧: ٤١ و٥٢. Bevan, vol. ii, p. 256.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 4.

٨٥ ق. م. ووضعت دمشق نفسها تحت حمايتهم لتجنب مصيراً أسوأ فيما لو وقعت في ايدي الامير الايتوري^١. وكان الايتوريون آنذاك يكتسحون الشاطيء بين جيداً وتيوبروسوبون^٢ (Theouprosopon) ويجربون حقول جليل ويبروت. وكانت مدن فينيقية اخرى تستعيد آثذ حريتها المحلية. ولم يبق من المدن الساحلية بين فينيقية ومصر سوى عدد قليل مثل عسقلان لتتعهد بنور الحياة الهلينية. اما البقية مثل غزة حيث ازدهرت الحضارة الهلينية فقد امست خراباً مقفراً شواهد ماثلة تتحدث عن انتقام اليهود^٣.

ضاعت جميع المقاطعات الشرقية في الامبراطورية خلال هذه الفترة من الانحطاط السلوقي. وكان الفرتيون في ١٣٠ ق. م. قد وسعوا امبراطوريتهم حتى اصبحت تمتد من الفرات الى السند ومن جيحون حتى المحيط الهندي. اما في الغرب فقد وقف في وجه الجيوش الفرتية الملك تيغرانس الارمني (ديكران) وحموه مترداتس Mithrodates الكبير^٤ ملك البونت. وفي عهد تيغرانس وحلت المملكة الارمنية ذروة قوتها.

كان هذا الملك الطموح قد اكتسح بلاد الرافدين التي حكمها الفرتيون وفي عام ٨٣ ق. م. كان يكتسح سورية الشمالية وكيلىكية^٥ التي كانت لا تزال تحت حكم السلوقيين والتي كان سكانها يشبهون الآراميين. ولم يعد يسمع عن الايبرين السوريين الذين تلقب كل منها بالملك آنذاك وهما: فيليب الاول فيلادلفوس

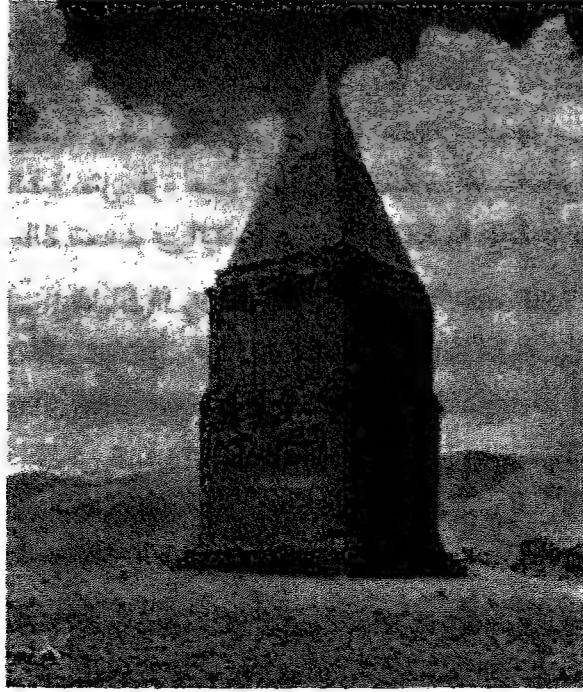
(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 15, § 2; *War*, Bk. I, ch. 4, § 8. الايتوريون هم بطور (Jerur) في التكوين ١٥:٢٥؛ سفر اخبار الايام الاول ١: ٣١.

(٢) وهي بالفيقية P'ne-El (بنويل Penuel اي وجه الله) وهي الرأس المنحدر الذي يسمى الآن رأس الشقة. ويرد خطأ باسم شقة في Baedeker, *Palae-tine and Syria* (Leipzig, 1912), P. 338; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, §§ 15, 18.

(٣) انظر: Bevan, vol. ii, p. 264.

(٤) وهي اكثر صواباً من Mithridates. وهي مشتقة من الفارسية (ميتراس Mithras) اي الشمس ويرجح انها تعني «عطية الشمس». وكانت مملكة البونت الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي لبحر الاسود شمالي ارمينية بالاصل مرزبانة في الامبراطورية الفارسية ثم نالت استقلالها عند انهيارها. ويدعي ملوكها بانهم ينحدرون من ملك فارسي قديم.

(٥) انظر: Appian, 48.



بناء جنازي او تذكاري على جبل الهرمل قرب بعلبك وبما اقامه احد حكام حصن الوطنيين في
اواخر العصر الهلنستي. ويظهر البناء مزيجاً من العناصر اليونانية والشرقية في العمارة والزخارف المنحوتة.
وتظهر في مشهد الصيد الحيوانات والاسلحة بسدون ان يظهر الصيادون وقد رمم هذا البناء ترميماً
جزئياً في العصر الحديث.

وانطيوخس الخامس . يوسيبوس . وبني تيفرانس مدينة ملكية جديدة هي تيفرانوسرتا في منطقة الدجلة العليا . واتخذ لقب « ملك الملوك » . ولم يكن السوربون مبالين الى المقاومة لان المنازعات الاهلية والخصومات بين افراد السلالة الحاكمة انتهكتهم . ورحبت المدن اليونانية نفسها بفرصة التمتع بالحياة الاعتيادية من جديد . وتقبل الجميع الحكم الجديد بارتياح . وقد وصلت جيوش تيفرانس في اندفاعها نحو الجنوب مدينة عكا التي دعت آنذاك Ptolemais واحتلتها حوالي ٦٩ ق. م . وبذلك تعرضت المملكة اليهودية للخطر . وكان يمكن استخدام فلسطين كمرحلة لاحتلال مصر التي رنت اليها رومة بابصارها وخاصة في هذه الفترة حين كانت اسرة البطالة تتداعى .

الرومان يضمون سورية

بينما كان تيفرانس يوسع ممتلكاته على حساب الفرتين والسوريين كان حموه وحليفه مترداتس ينشئ امبراطورية لنفسه على حساب آسية الصغرى والرومان^٢ . واخيراً اوقفته الجيوش الرومانية عند حده وطردته من البلاد فالتجأ الى تيفرانس الذي رفض تسليمه . واعلنت رومة الحرب فاضطر تيفرانس الى سحب حاميته من سورية في ٦٩ ق. م . واسترجع الامير السلوقي ، انطيوخس الثالث عشر الاسيوي ، منطقة انطاكية واعترفت رومة بذلك^٣ . ولكن فيليب الثاني لم يعترف بحكمه . وكان هذان آخر من لبس تاج السلوقيين الملكي^٤ . ولم تحض مدة طويلة

(١) انظر : Strabo, Bk. XI, ch. 12, § 4; 14. 15. ولم يحدد الموقع بالضبط ولمه ميا فارقين .

(٢) انظر : Strabo, Bk. XII, ch. 3, § 1.

(٣) انظر : Appian, § 49.

(٤) جدول يبين تنمة الملوك السلوقيين وبعضهم كانوا متنافسين يدعون الملك . وقد ذكرنا الملوك الاولين سابقاً ؛ قارن مع : A. Bouché-Leclercq, *Histoire des Séleucides*, (Paris, 1914), pp. 640-641.

١٢ - ديتريوس الثاني ليكانور (ابن ديتريوس الاول) ١٤٦-١٣٨ و ١٢٨-١٢٥ ق. م .

١٣ - انطيوخس السادس تيوس Theos (ابن اسكندر الاول) ١٤٤-١٤٢ .

١٤ - تريفون Tryphon (مفتصب) ١٤٢ - ١٣٧ .

١٥ - انطيوخس السابع سيديتس Sidetes (ابن ديتريوس الاول) ١٣٧-١٢٨ .

بعد ذلك حتى تمكن مترداتس من استرجاع العرش الذي فقده . فسار يومي هذه المرة ضده وهزمه واحتل البونت . وهكذا أبعد أكبر عدو لرومة في آسية الصغرى وكان ذلك في عام ٦٤ ق.م . وهو نقطة حاسمة في تاريخ سورية . وقد احتلت فلسطين في السنة التالية^١ . واصل يومي قراراً بأن تحكم سورية مباشرة من قبل نائب قنصل روماني . وهكذا انتهى عهد ليبدأ عهد جديد وهو العهد الروماني .

١٦ - اسكندر الثاني زابيناس Zabinas (ابن ناچر) ١٢٨-١٢٢ .

١٧ - سلوقس الخامس (ابن ديتريوس الثاني) ١٢٥ .

١٨ - الطيوخس الثامن غريوس Grypus (ابن ديتريوس الثاني) ١٢٥-٩٦ .

١٩ - الطيوخس التاسع سيزيكنوس Cyziceanus (ابن سيديتس) ١١٢ - ٩٦ .

وتقلم سورية في السنوات الاثنتين والثلاثين الاخيرة من عصر الاضطراب حكام متمددون : سلوقس السادس ايفانيس (ابن غريوس) ٩٦-٩٣ ؛ الطيوخس العاشر يوسيبوس Eusebes (ابن سيزيكنوس) ٩٤-٩٢ في انطاكية ؛ الطيوخس الحادي عشر ايفانوس (ابن غريوس) ٩٥-٩٤ ؛ فيليب الاول فيلادلفوس (ابن غريوس) ٩٢-٨٣ ؛ ديتريوس الثالث تيوس (ابن غريوس) ٩٥-٨٨ ؛ الطيوخس الثاني عشر ديونيسوس (ابن غريوس) ٨٨-٨٤ ؛ الطيوخس الثالث عشر الاسيوي Asiaticus (ابن يوسيبوس) ٦٩-٦٥ ؛ فيليب الثاني (ابن فيليب الاول) ٦٨-٦٤ ؛ من ٨٣-٦٩ لا يوجد ملك .

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4.

الفصل الثامن عشر العصر الهلنستي

دخلت الهلينية الى غربي آسيا قبل فتوحات الاسكندر كما رأينا قبلاً وقد سهلت هذه انتشارها ثم زادت السياسة السلوقية في سرعة هذا الانتشار وقوته . وكانت نتيجة هذا التداخل بين الثقافتين اليونانية والسامية تلك الحضارة المركبة التي عرفت بالهلنستية لتمييزها عن الحضارة الهلينية او اليونانية الصرفة . وسادت الهلينية وهي ابرز مظاهر العصر السلوقي ليس في سورية فحسب بل في غربي آسيا ومصر . وقد انحصرت الهلينية من وجهة زمنية بين عصرين ساميين اولهما الآرامي وثانيهما العربي ودامت في سورية مدة ألف عام حتى الفتوحات الاسلامية .

المدن اليونانية

كان عدد من المدن التي اسسها الاسكندر وخلفاؤه منبثاً لهذه الثقافة اليونانية الانتقائية التي انتشرت خاصة بين غير اليونانيين وقد اختار اولئك المؤسسون المواقع بعناية في نقاط استراتيجية وعند مراكز المواصلات الهامة وعلى طول مجاري الانهار . وكانت المستعمرات مدناً يونانية في لغتها وحكومتها . وكان بإمكان السكان اليونان ان يعيشوا ويبقوا كما اتضح بينما كان ذلك متعذراً فيما لو تفرقوا بين جماعات وطنية مختلفة . وكان سكان هذه المدن بالدرجة الاولى من الجنود والمرتبة اليونان والمكدونيين الذين اسكنوا بموجب اوامر ملكية . وقد حصل بعضهم على زوجاتهم من بين السكان الوطنيين . وسرعان ما تهافت المدنيون تدريجياً الى هذه المستعمرات متأملين ببعض الفوائد اولا لانهم طردوا من وطنهم لعوامل سياسية او اقتصادية . وانضم الى سكان هذه المدن مع الزمن سكان مولدون واصليون اقتبسوا المظاهر الخارجية للهلينية . وهكذا اصبحوا يضمون جماعة من التجار والفنانين والعلماء والعبيد .

كانت العاصمة انطاكية الاولى من بين مراكز نشر الثقافة اليونانية. وقد بنيت حوالي ٣٠٠ ق. م. على الضفة اليسرى لنهر العاصي وعلى بعد نحو عشرين ميلاً من البحر في وادٍ جميل. واصبحت في عهد السلوقيين اعظم مدينة سياسية في آسيا كلها. وقد فاقتها كمركز للثقافة اليونانية مدينتا الاسكندرية والقسطنطينية وربما مدينة او مدينتان يونانيتان جديدتان غيرهما. ثم تليها كل من سلوقية ولاوديسة وافامية. وازدهر في هذه المدن عدد من الادباء الفصحاء والفلاسفة في القرنين الاخيرين قبل الميلاد ولم يكونوا من الدرجة الاولى باستثناء بوسيدونيوس.

وفي الوقت الذي كان فيه السلوقيون منهمكين في تأسيس المدن اليونانية شمالي لبنان كان البطلمة يفعلون مثل ذلك في جنوبيه. ومع ذلك فعكام مصر المكدونيون كانوا اقل حماسة لنشر رسالة الهلينية من حكم سورية. ومن المدن التي اسسوها فيلوتيريا^١ Philoteria على بحر الجليل التي سميت بالنسبة لفيلوتيرا شقيقة بطليموس الثاني فيلادلفوس. امّا بيلا^٢ Pella الواقعة فيما سمي بعد ذلك بالديكابوليس (المدن العشر) Decapolis^٣ فربما كانت من بناء الاسكندر نفسه. وسميت كذلك بالنسبة لعاصمة مكدونيا. وهناك مدينة جيرازا^٤ Goraza وهي ايضاً من مدن الديكابوليس التي يرجح انها اسست كمدينة هلنستية من قبل انطيوخس الرابع وسميت انطاكية على الخريزورواس^٥ Chrysorrhoeas. ونستدل من اسماء عدة مدن اخرى مثل اريثوسا^٦ Arethusa (الرسن على العاصي جنوبي حماة) وسيروس^٧ Cyrrhus (كورس شمالي حلب) على اصلها المكدوني^٨. وتحولت الدساكر او الحصون المحلية في احوال كثيرة الى مدن يونانية — مكدونية.

(١) يرجح انها خربة كرك في الطرف الجنوبي لبصرة طبرية. انظر: Abel, vol. ii, p. 131; cf. Dussaud, *Topographie*, p. 22; Polybius, Bk. V, ch. 70.

(٢) قارن مع: Appian, § 57 وهي بالمرية فعل او فعل.

(٣) انظر انجيل مرقس ١٥: ٢٠؛ انظر ما سيأتي في الفصل ٢١ بشأن الديكابوليس.

(٤) وهي جرش اليوم من اللغة السامية القديمة ولكن اشتقاقها غير معروف بالتأكيد. انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٣.

(٥) وهو جدول ينبع من عيون في المنطقة المجاورة. انظر Carl H. Kraeling, *Geraza, City of the Decapolis* (New Haven, 1938) pp. 27 seq.

(٦) اريثوسا كانت حورية بثر مشهورة في احدى الجزر اليونانية؛ اما كورس فهي مدينة في مكدونية بجوار بيلا.

بنيت المدن اليونانية حسب مخطط مرسوم وزودت بالمسارح والحمائم وملاعب الرياضة والساحات العامة وغيرها من المنشآت التي يعبر فيها الفرد عن نفسه كعضو في المجتمع . واحتفظ فيها بالشكل السيامي لدويلات المدن اليونانية مع الاهتمام الكبير بشخصية المواطن كجزء اساسي في المجتمع . وفي هذا كله تختلف المراكز الجديدة عن المراكز السامية القديمة التي كانت تبني عادة حول حصن او نبع او معبد كنواة لها . ولكنها تنمو دون اية خطة وليس فيها اية وسائل للتعبير عن الحياة الديمقراطية . واصبحت سورية في ذلك العهد تضم من المدن اكثر مما عرفته في اي عصر سبق .

المدن القديمة تصبح مدناً هلنستية

لم يقتصر السلوقيون والبطالمة على انشاء مدن جديدة وانما حولوا بعض المدن ذات الاسماء السامية القديمة الى مدن هلنستية وغيروا اسماءها . فمدينة عكا يصبح اسمها بتولمايس Ptolemais في عهد بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧ ق.م.) . وتكريماً له ايضاً أصبحت مدينة ربة عمون تسمى فيلادلفيا^١ . وسميت بيت شان (بيسان اليوم) سكيثوبوليس Scythopolis^٢ . وفي الشمال أصبحت بيريتوس (بيروت) تسمى لاوديسة في القرن الثاني وسميت حماة ابيفانية على شرف انطيوخس الرابع . وتبدل اسم شيزر المجاورة واصبحت لاريسا بالنسبة لمدينة في تساليا . وسميت ادينا بالنسبة لمدينة مكدونية تحمل نفس الاسم . وينسب تحويلها الى مستعمرة مكدونية تسمى انطيوخية كالبروهي Antiochia Callirrhoe الى الاسكندر نفسه . وقد اعاد بناءها انطيوخس الرابع ودعاها انطوخية^٣ . اما نصيبس Nisibis (نصيبين اليوم) التي تمر بها الطريق الرئيسية للمواصلات بين

(١) هي عمان اليوم عاصمة الاردن ويظهر فيها اثر الاسم القديم .

(٢) دعت كذلك بالنسبة لسكيتين الذين عاثت جوعهم حوالي ٦٢٧ ق.م. في سورية حتى حلوذ مصر . انظر : Herodotus, Bk. I, ch. 105 ; وارميا ٢٣:٦ . واعتبرت هذه القرية فيما بعد الاثر الوحيد لمجوعهم .

(٣) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 21 ; Polybius, Bk. V, ch. 51 . ان اقدم شكل لاسمها هو اورهاي Urhai في الآرامية وقد بقي في العربية باسم الرها وتحول في التركية الى اورفا .

سورية وبلاد ما وراء الدجلة فقد بناها نيكاتور كما يتضح من احدى الكتابات الاثرية. وسمح للعنصر الوطني في هذه المدن القديمة ان يحتفظ بمكانته الى درجة اكبر مما كان معتاداً في المدن المؤسسة حديثاً. وغالباً ما كانت تعود المدينة اليونانية او المكدونية المفروضة حديثاً الى وضعها الوطني القديم.

وبما يستلفت النظر ان اكثر هذه المدن القديمة التي استعمرت وبدلت اسمائها قد طرحتم بالتالي اسماءها اليونانية وكذلك المظاهر السطحية من الهلينية واستعادت صفتها السامية واسماءها القديمة التي تعرف بها اليوم. فمدينة بيرويا Beroea هي اليوم حلب وخالكيس Chalcis في سورية المجوفة هي عنبر اليوم (اختصار عين جر) واليوثيروبوليس Eleutheropolis هي بيت جبرين^١. والاستثناء الوحيد هو طرابلس. اما شكيم التي اعاد بناءها الامبراطور تيطس وسميت ي نابوليس (المدينة الجديدة) فهي اليوم نابلس. وكذلك فان اكثر المقاطعات والجبال والانهار التي اتخذت اسماء يونانية تعرف اليوم باسمائها السامية.

ومع ذلك فقد بقي كثير من العناصر الفنية والمعمارية والثقافية الاخرى التي ادخلتها الجاليات اليونانية والمكدونية. وتظهر واضحة في الفترة الرومانية. وانبيار المملكة الهلنستية لم يتبعه باي شكل من الاشكال انبيار الثقافة الهلنستية. ومع وجود القوس والقنطرة فيما سبق فان التاج الكورنثي للاعمدة انتشر باطراد. وكانت المسارح والملاعب التي بناها افراد الاسرة الميرودية في عهد الرومان تتبع النموذج الهلنستي^٢. وفي الحقيقة فان اكثر البقايا الهلنستية في سورية تعود الى الفترة الرومانية.

تفاوت انتشار الهلينية

اختلفت مناطق سورية في استيعابها للمؤثرات اليونانية. ففي الشمال لم يقتصر اطلاق اسماء الوطن الام على المدن بل شمل سائر الاماكن. وبالإضافة الى ذلك فقد اوجدوا تعادلاً بين الآلهة المحلية والآلهة اليونانية واعادوا تسميتها. فاصبح بعل

(١) أو جبريل الواقعة على طريق غزة - اورشليم.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصلين ٢١ و ٢٣.

يسمى نفس واقتبست الاساطير والحرفات الهندية الاوربية في البلاد الجديدة . وكانت تقع على بعد اربعة اميال من انطاكية ضاحتها ومركز افراحها دفنة حيث انقلبت الحورية التي تحمل نفس الاسم والتي تبعها ابولون وقد اسره جمالها الى شجرة غار . وقد حدث المشهد الاصيل في تساليا . وتدقق الانطاكيون والحجاج من كل اطراف سورية الى معبد ابولون في دفنة الواقع في وسط غابة من شجر الفار حيث تكثر المياه . وقد اعطي هذا المعبد حق التجاء الناس اليه واصبح المكان مركزاً للخلاعة . وبوجه الاجمال فان شمالي سورية اصبح «مكدونيا جديدة» حيث شعر العنصر اليوناني المحتل وكأنه في وطنه .

وتأتي بعد ذلك المدن الفينيقية التي يجب ان نذكر ان علاقاتها مع العالم اليوناني تعود الى القرن الحادي عشر ان لم يكن قبل ذلك . ولما كانت قد فقدت في هذه الاثناء روحها الوطنية فقد ساعد ذلك على تسهيل عملية الجمع بين العناصر اليونانية والسورية . ولم تتردد صور وصيدا وارواد ولاوديسة — بيروتوس (كما كانت بيروت تدعى احياناً) ومراثوس في سك نقود تحمل كتابات يونانية بجانب الفينيقية . واصبحت الهلينية التي توطدت في سورية الفينيقية اكثر قوة وانتاجاً من تلك التي ظهرت في سورية الآرامية . وفي هذا العصر لا بد ان الفينيقي المتقف كان يشعر وهو في مدينة يونانية كأنه في وطنه تقريباً وكذلك كان يشعر اليوناني في ميناء فينيقي . ولم تقل العناية بالفلسفة والادب اليوناني في صيدا وصور عما كانت عليه في انطاكية ولاوديسة . وكان بعض مشاهير الكتاب في اللغة اليونانية من القرنين الاخيرين قبل الميلاد من مواطني هاتين المدينتين الفينيقيتين . وكان احدهم وهو زينون الصيداوي استاذ سميث زينون من بلدة كيتيوم في قبرص (٣٣٣ — ٢٦١ ق. م) . مؤسس المدرسة الرواقية في الفلسفة وهي اعظم ما انتجه العصر . وكيثيوم نفسها مستعمرة فينيقية وكان ابنها المشهور في نظر معاصريه فينيقياً . وذهب زينون « انبل رجال عصره »^٢ الى اثينا وبدأ يعلم في رواقها Stoa poikile في سنة ٣٠٢ . وكان صديق انتيفونس ملك مكدونيا وحفيد قائد الاسكندر . ولكنه ابتعد عن السياسة . وانتهى المرسوم الذي رافق ما منحه اياه اثينا من

(١) ولهذا سميت بالمرية «بيت الماء» . انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 6.

(٢) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Civilization*, 3rd ed. (London, 1952), p. 330.

التكريم بعد موته بالكلمات التالية : « لقد جعل حياته نموذجاً اتبعته الجميع
لانه كان يعمل بموجب تعاليمه ». وكتب احدهم عن زينون في شعر على قبره
ما يلي :

واذا كانت بلادك الاصلية هي فينيقية .

فهل يجب ان يضيرك شيء ؟ الم يأت قدموس من هناك

الذي اعطى اليونان كتبها وفن كتابتها ؟^١

وترأس فينيقي آخر مدرسة فلسفية في أثينا وهو ديودورس المشاء الصوري
الاصل وكان لا يزال ناشطاً في سنة ١١٠ ق. م. وقد ذكره شيشرون^٢. وكان احد
مبادئه الاخلاقية ان الخير الاعظم يتألف من امتزاج الفضيلة مع انعدام الألم
وهذه صيغة تشير الى محاولة التوفيق بين وجهتي نظر الفيلسوفين الرواقية والايبيقورية.
وهناك سوري اكثر شهرة يتبع الفلسفة الانتقائية واسمه انطيوخس العسقلاني
وقد حاول ان يوحد آراء الافلاطونيين والرواقيين . واسس بالاضافة الى اكاديميته
السورية واحدة في الاسكندرية واخرى في أثينا . وحضر شيشرون^٣ دروس
اكاديميته الاثينية مدة ستة شهور ويتكلم عنه بتعابير الود والاحترام . ويصفه
بلوطرخس^٤ بأنه « رجل مقنع وخطيب قوي ». ويذكر سترابو^٥ اثناء وصفه لعسقلان
بان مولد انطيوخس فيها عنوان شهرة للمدينة .

بقاء الآرامية

من الطبيعي ان اللغة والثقافة اليونانيتين حصلتا على مكانة خاصة لاقتراانهما
بالشعب الفاتح . وقد اعترف الفريكان ان تفوق الادب والحضارة اليونانية المطلق

(١) انظر : Diogenes Laertius, *Lives of Eminent Philosophers*, tr. R. D. Hicks (London, 1925), Bk. VII, § 30; cf. *The Greek Anthology*, ed. and tr. W. R. Paton (New York, 1927), Bk. VII, § 117.

(٢) انظر : *De Oratore*, Bk. I, ch. 11.

(٣) انظر : *Brutus*, Bk. XCI, ch. 316.

(٤) انظر : « Lucullus », in *Vitae*, ch. 42.

(٥) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29.

امر لا يقبل الجدل . ولكن الواقع هو ان الشرق الهليني كان شيئاً مصطنعاً . فديانة البعليم واليهودية احتفظتا بتقاليدهما القديمة في وسط هذا الشرق الهليني . وبالإضافة الى ذلك فان السالوقيين تبنوا العبادات المحلية بأشكال هلينية واطهر اكثرهم احتراماً للالهة المحلية . وحين كان سالوقس الاول يبعث عن موقع لاقامة مرفأه الذي كان ينوي بناءه قدم ذبيحة الى زفس المقيم في جبل كاشيوس وهو اله العاصفة والرعد المحلي الذي ارسل نسرأ ليريه مكان تأسيسها^١ . واعادت زوجة سالوقس بناء معبد أثارغاتيس في بامبيس - هيرابوليس Bambyce-Hierapolis (منبج) حيث بقيت عبادة الالهة السامية تزدهر^٢ . وبدأت اسرار جليل تقترن بافروديت وادونيس ولكن هذا لا يعني جعل المشرق هلينياً بقدر ما يعني جعل العالم الهليني شرقياً . وبقيت اللغة الآرامية خلال هذه الفترة لغة الشعب الدارجة الذي بقي في صميمه سامياً في طرق معيشتة . وحتى القرن الثالث الميلادي كانت تدمر تستعمل اللغة الآرامية الى جانب اللغة اليونانية كلغة رسمية . وكذلك استعملت دورا - اوروبس الآرامية واليونانية في كتاباتها الاثرية . واصبح افراد الجاليات اليونانية بالتدريج اكثر تأثراً بالحياة السامية من تأثر الوطنيين بالحياة اليونانية . واعطي بعض الملوك السالوقيين المتأخرين القاباً آرامية . فعرف اسكندر الاول (١٥٠ - ١٤٦) بلقب بالاس Balas واسكندر الثاني (١٢٨ - ١٢٢) الذي لم يكن من الاسرة السالوقية بلقب زابيناس Zabinas^٣ . ونجحت الحضارة الوطنية في سورية الآرامية وفلسطين اليهودية بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام فاعطت اكثر مما اخذت .

وبما لا شك فيه ان السوريين المثقفين قد درسوا اليونانية وكتبوا بها . ولكن ليس هناك ما يدعونا الى الاعتقاد انهم استعملوها في حياتهم البيئية باستثناء اولئك الذين نشأوا في المستعمرات اليونانية . ويوجد ان سكان المدن القديمة التي اعيد تأسيسها كانوا يتكلمون لغتين . وقد احتفظ الريف بلغته القديمة وعاداته وطريقة

(١) انظر : Malalas, *Chronographia*, ed, L. Dindorf (Bonn, 1931), p. 199

(٢) انظر : Lucian, 17.

(٣) من الواضح ان « Balas » هي ba'la وهي اختصار اسم مركب يظهر فيه اسم الاله بمثل . وزابيناس هو زيبنا Zebina « المشتري » . ويرد الاسم في عزرا ١٠ : ٤٣ . وكان غالباً يعني بالاصل المشتري من الله .

حياته . ولم تتأثر اكثرية السكان بالحضارة اليونانية بأكثر مما تأثر به السوريون المعاصرون بالحضارة الفرنسية . والذي حصل بنتيجة ادخال الهلينية هو تمزيق البنيان السياسي والفكري الذي كان سامياً صرفاً والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيها بعد . واحتاج الامر الى مرور الف عام قبل ان يمكن اعادة ذلك البنيان .

النشاط الادبي

لم يترك الادب الآرامي في سورية السلوقية اية آثار كما انه لم تكتشف اية كتابات آرامية اثرية من هذه الفترة . وقد تضائل النشاط الادبي المحلي امام الشعر اليوناني لشعوره بالنقص حتى كاد ان ينعدم . ولكن ليس من شك بأن كثيرين من كتاب ذلك العصر الذين تسموا باسماء يونانية وكتبوا في تلك اللغة هم من اصل سوري . ففي الحقب الاولى من القرن العشرين ظهرت عدة رسائل ومؤلفات اخرى بالفرنسية تحمل اسماء افرنسية المظهر لكتاب لبنانيين ويكاد يستحيل معرفتها بأنها عربية . ويصح الافتراض ان بعض القطع الآرامية الادبية قد كتبت ولكنها لم تصلنا . وكان من الممكن ان تلاقي بعض المؤلفات العبرية مصيراً مماثلاً لو لم يُنح لها حظ ايجاد مترجم يوناني ودخولها في عداد الكتب الدينية غير الرسمية (الابوكريفا) . ومن المصادر الرئيسية لمعلوماتنا عن هذه الفترة سفر المكابيين الاول الذي كتب كما يبدو بين عامي ١٠٥ و ٦٣ ق.م . وترجم الى اليونانية من اصل عبري . ونرى في كتاب اخنوخ المزعوم والذي كتب في الاصل بالعبرية او الآرامية في حوالي نفس الفترة وصلنا بكامله في اللغة الجبشية فقط — نرى ان الحلود الذي كان حتى ذلك الحين من نصيب الاتقياء فقط قد اصبح يشمل الناس جميعاً وترافقه افكار الثواب والعقاب . وقد يكون في هذا تعبير عن اعظم افكار ذلك العصر . وشغلت احدى المشاكل التي يعالجها اخنوخ ، وهي ازدهار الاشرار ، العقول اليهودية والعقول اليونانية . وانضم كتابان عبريان من العصر السلوقي الى مجموعة الكتب الدينية الرسمية وهما : سفر الجامعة الذي كتب حوالي العام ٢٠٠ ق.م . من قبل يهودي ارستقراطي تأثر بالهلينية . وسفر دانيال الذي كتب في القرن الثاني ق.م . ويتصل سفر الجامعة بالفكر اليوناني اكثر من الكتاب الآخر .

لم يصبح أي قسم من الامبراطورية السلوقية مركزاً حقيقياً للإبداع الفني والادبي والعلمي ولم يكن الملوك قط مشجعين اسخياء للعلم شأن ملوك البطالمة باستثناء بطليموس الاول مؤسس مكتبة الاسكندرية ومتحفها المشهورين في العالم . وقد استست المكتبات في العواصم وكانت احداها في انطاكية . واذا اخذنا بعين الاعتبار تحسن المواصلات وانتشار حضارة واحدة وسيادة لغة واحدة فانه كان بإمكان العلم ان يزدهر اكثر لو حظي بتشجيع الملوك . والعالم الوحيد الذي يستحق الذكر في المقاطعات الشرقية هو سلوقس من مدينة سلوقية على الدجلة وهو من اصل كلداني عاش خلال القرن الثاني ق. م. وقال ان الشمس هي مركز الكون . واتبع في ذلك فرضية اريسطرخس^١ وحاول ان يجد البراهين لها . واتى سلوقس بآراء صحيحة علمياً عن علاقة المد والجزر بالقمر التي ذكرها بوسيدونيوس السوري^٢.

بوسيدونيوس المؤرخ

انجبت سورية الهلنستية اثنين من الجغرافيين المؤرخين وبعض الفلكيين وعدداً محدوداً من الشعراء الذين لم يكن احدهم من المرتبة الاولى وعدداً كبيراً من الفلاسفة وخاصة من المدرسة الرواقية . واكثرهم من القرن الثاني واولئل القرن الاول ق. م. وقد اقامت الرواقية منذ البدء علاقات وثيقة مع المفهوم السامي للحياة وبقيت خلال وجودها ملائمة لليونان الذين تأثروا بالحضارة السامية والساميين الذين تأثروا بالهلنسية . والرواقية في تأكيدها على الاخوة والدولة العالمية، وعلى الفضيلة والحياة الاخلاقية ، وبنظرها الى كل ماله علاقة بالجسد من قوة وضعف وصحة ومرض وغنى وفقير بروح اللامبالاة فانها كانت الى حد ما طليعة للمسيحية . كان بوسيدونيوس الآقامي ابرز الكتاب السوريين وهو فيلسوف رواقى ومؤرخ وعالم طبيعي ، ومن اعظم مؤلفاته اثرأ اتمامه لتاريخ بوليبيوس الذي اصبح مرجعاً للمؤرخ ليفي وسترابو وبلوطرخس وغيرهم وهكذا ساهم في مهمة تعليم الرومان الاوائل وسهد الطريق لمجد العصر الاوغسطي . وقد ولد بوسيدونيوس حوالي العام ١٣٥ ق. م. ودرس في اثينا وبعد ان تجول في ايطاليا وبلاد الغال واسبانيا

(١) من بلدة ساموس وعاش في الاسكندرية بين ٢٨٠ - ٢٦٤ ق. م.

(٢) انظر : Strabo, Bk. III, ch. 5, § 9.

وصقلية استقر كرئيس المدرسة الرواقية في رودس حيث توفي سنة ٥١ ق.م. وبلغ من شهرته ان بومبي توقف في رودس في طريق عودته من سورية ليستمع الى محاضراته . وعندما وصل القائد الروماني الكبير الى بيت الفيلسوف منع مرافقه من قرع الباب كما هي العادة واطهر احتراماً أكثر باخفاض حزمة العصي^١. ويقول شيشرون^٢ انه هو ايضاً استمع الى محاضرات بوسيدونيوس . ويعتبر عقله آخر عقل عظيم انجسته الحضارة الهلينية قبل ان تتأثر برومة . وتصور المقتطفات التالية من كتاباته الحياة الراقية للندن السورية وتصف بعض المنتجات الطبيعية :

كانت هنالك عدة اندية حيث يروحون عن انفسهم بصورة دائمة فيستعملون اماكن الرياضة والحمامات ويمسحون انفسهم بالطيب الثمين والدهون ويستعملون « المدارس » لانهم هكذا كانوا يسمون قاعات طعم الاعضاء كما لو كانت منازلهم الخاصة ، ويملاؤون انفسهم في معظم اوقات النهار بالفطور والطعم ويملأون معهم كميات كبيرة ، وسط اصوات القيثارات الصاخبة التي جعلت مدناً يكاملها ترن بالفيجيح^٣.

وتنتج الجزيرة العربية وسورية ايضاً البرسية *Persea* وما يسمى بشجر الفستق . ويجعل هذا ثراً اشبه بالعب له قشرة بيضاء وشكل مستطيل مما يشبه النوع وتردحم بعضها على بعض كمنقيد العنب . وداخلها اخضر شاحب وطعمها اقل لثة من ثمرة الصنوبر ولكنها اطيب رائحة منها .

الشعراء السوريون اليونان

ومع ان الشعر اليوناني السوري ليس مبتكراً بشكل يلفت النظر فانه يتميز بتنوعه واهتمامه بجمال الطبيعة وخصب خياله ولونه وقوة شعوره بالمرز . وكان كثير من الشعراء بارعين في الارتجال وشعر المناسبات . وقد استخدم انتيباتر الصيداوي واصله من صور وعاش في اوائل القرن الاول ق.م. اشعار المناسبات خاصة للحوادث التذكارية وللكتابة على القبور . وينذكر سامعيه في المقطع التالي باقامته في ميناء فينيقي :

(١) انظر : Cicero, *Tusculanarum Disputationum*, Bk. II, ch. 25; Pliny, Bk. VII, ch. 31.

(٢) انظر : Cicero, *De Natura Deorum*, Bk. I, ch. 3.

(٣) انظر : E. S. Bouchier, *Syria as a Roman Province* (Oxford, 1916), p.202; cf. Athenaeus, *The Deipnosophists*, ed. and tr. Charles B. Gulick (London, 1933), Bk. XII, § 527.

(٤) انظر : Bouchier, p. 202; Athenaeus, Bk. XIV, § 649.

حان الوقت لتسرع السفينة فليست هناك زوايا قائمة
ذات تمازج مائلة لتمزق صدر المحيط
والسنولو تبني عشها تحت السف
وعلى المروج تضحك الاوراق النضرة
اسحبوا مراصيكم المبللة ايها البحارة
واخرجوا للرامي المنقولة من الرمال
وارفعوا الاشرعة المثينة الصنع عندما آمركم
هكذا يأمر ابن باخوس وسيد المنياء

كان انتيباتر ابيقورياً في فلسفته وهذه بعض اقواله :

يقول المللون بالتجوم اني قصير العمر . اني كذلك يا سلوقس^١ ولكن ذلك لا يعني . ليس
هناك سوى طريق واحدة الى العالم الاسفل Hades التي يسلكها الجميع . واذا كانت طريقي اسرع
فسأري مينوس^٢ بسرعة . دعنا نشرب لانه صحيح جداً ان الخمر حصان الطريق بينما يتبع المشاة
طريقاً جانبية الى العالم الاسفل^٣ .

وهناك فيلسوف ابيقوري وشاعر مناسبات آخر اسمه فيلوديمس Philodemus .
وقد ولد في اوائل القرن الاول ق. م. في جَدْرَة^٤ وهي مستعمرة مكدونية
استست بين سكان شرقي الاردن شبه الرحل على مرتفع شاهق يشرف على مضيق
الهيروماكس Hieromax (الهرموك) والطرف الجنوبي لبحر الجليل (طبرية) .
وقد اقام فيلوديمس في رومة في عهد شيشرون الذي مدحه بحماسة . واكثر اشعاره
الباقية هي من النوع الخفيف والغزلي وتؤيد قول شيشرون فيما يختص بميوعه
مواضيعه ورشاقة طريقته^٥ . وهذا نموذج منها :

(١) انظر : Bouchier, pp. 193-4 ; cf. *Greek Anthology*, Bk. X, § 2.

(٢) يبدو ان الاشارة هي لسوقس الكلداي الذي كان منجماً ايضاً .

(٣) هو ملك كريت ومشرعها الذي اصبح بعد موته احد القضاة في العالم الاسفل .

(٤) انظر : *Greek Anthology*, Bk. XI, § 23.

(٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 11, § 4. الموقع هو قرب ام
نيس اليوم . ويذكر سكان جدرة في انجيل مرقس ٥ : ١ ؛ لوقا ٨ : ٢٦ ، ٣٧ .

(٦) انظر : *In Pisonem*, chs. 28, 29.

لقد وقعت في حب ديو من بالوس - وليس ما يبعث في ذلك : ثم احبت ديو من ساموس - ولم يكن ذلك امراً كبير الاهمية : وللمرة الثالثة احبت ديو من ناكسوس - ولم تمد القضية مجرد تكملة : وفي المرة الرابعة احبت ديو من ارغوس . ويبدو ان الانذار ذاتها قد استنقذ فيلوديمي [« حب الناس »] لاني اشعر دائماً برغبة ملحة لشخص بلم ديو .

مليغر

لعل اكثر الشعراء طرافة في عصر غسبر شعري هو مليغر من جدرة (ام قيس) وكان سوري الاصل ومن المرجح انه تكلم الآرامية في بيته وعرف الفينيقية بالاضافة الى اليونانية . وكأكثر الكتاب السوريين في عصره فقد بحث عن رزقه خارج مدينته الاصلية . وفي سن العشرين (حوالي ١١٠ ق. م) هاجر الى صور التي نعرف لحة عن حياتها الداخلية من مقاطعه الشعرية . ولا بد ان حياة المدينة كانت طائشة فالمغنون وعازفو القيثارة كانوا محبوبين والشراب كان شائعاً . وكانت نساء الطبقة العليا يعشن في عزلة ولهن من يرافقهن حين يسرن في الشوارع . وانتقل مليغر بعد ذلك الى جزيرة كوس Cos حيث جمع ديواناً شعرياً سماه الاكليل . ويضم خيرة اشعار الكتاب الاوائل وقد شبه كلاً منهم في شعر من عنده بزهرة جميلة او شجرة انيقة^٢ . ويصف في شعر قصير آخر يلفت النظر باقة من سبعة اولاد عرفهم بنفسه في صور وشبههم بالزنبقة الجميلة والبنفسجة البيضاء العطرة والوردة والكرمة والبرعم والزعفران ذي الصفائر الذهبية وغصن الزعر وغصن الزيتون الدائم الاخضرار . وقد قدم الله الحب هذه الباقة الى افروديت^٣ . وفيما يلي مقطعان شعريان بما يكتب على القبور من نظم مليغر :

جزيرة صور كانت مربيتي وجدرة التي هي اتيكية ولكنها تقع في سورية ولدني . لقد انبتت من يوكراتس Eucrates انا ، مليغر ، الذي سرت بجانب عرائس مينبوس Menippus بمساعدة

(١) انظر : Greek Anthology, Bk. V, § 115

(٢) انظر : Greek Anthology, Bk. IV, § 1.

(٣) انظر : Greek Anthology, Bk. XII, § 256.

(٤) شاعر هجاء من جدرة ايضاً لمع اسمه حوالي العام ٢٨٠ ق. م . وكان بالاصل عبداً ثم اصبح بعد ذلك من ممتلكي المدرسة الكلية (Cynic) في الفلسفة وعالم حقائق البشر وخاصة الفلاسفة منهم بلهجة تهكمية . وقد استعمل لوكيان هجاءه بكثرة . ودعي مينبوس أبا الادب الرخيص ويذكرنا نثره الفني الذي يتجأ أحياناً بمقاطع شعرية بمقامات الحريري .

آلهة الشمر . فلذا كنت سورياً فما هي القرابة ؟ ايها القريب انا نطقن بلداً واحداً هو العالم ؛ وشي واحد انبت كل البشر (١) :

سر جهده ايها القريب فالرجل المسن ينلم بين الموتى الانتقاء يلقه النوم الذي هو نصيب الجميع . هذا هو مليقر ابن يوكرايمس الذي قرن آلهة الحب الدامعة العذبة وآلهة الشمر مع المرائس . لقد ربه صور التي ولتها السماء وترااب جنة القدس حتى بلغ اسمه ووعت كوس المحبوبة من الميروبس شيخوخته . فلذا كنت سورياً فقول لك سلام ! واذا كنت فينيقياً اقول لك نايدوس Naidios (٢) ا واذا كنت يونانياً فقول لك Chaire ! (اي السلام) وقل انت نفس القول (٣) .

(١) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 417.

(٢) تبدو هذه الكلمة الفينيقية بمعنى «السلام» بأنها صيغة المضارع لشخص الاول في حالة الجمع من yādhāh ومعناها تقديم الشكر ولها نهاية يونانية .

(٣) انظر : *Greek Anthology*, Bk. VII, § 419.

الفصل التاسع عشر النظم السلوقية

الملكية

كانت النظم السياسية للدولة السلوقية مزيجاً غريباً من عناصر يونانية - مكدونية وعناصر سورية - فارسية وقد سادت هذه الاثيرة فيها . فعلى رأس الدولة كانت يقوم الملك بسلطة مطلقة وكان في الحقيقة هو الدولة واليه ترجع السلطات كلها . وكان يعين الموظفين ويسرحهم حسب مشيئته . وكان حكمه فردياً ملكياً يرتكز على حق الفتح والوراثة . وكانت تحيط به هالة مقدسة ورثها عن الاسكندر والملوك الشرقيين . وقد اعلن الاصل الالهى لمؤسس السلالة في مطلع حكمه بواسطة نبوءة قبلت بوجه عام . ثم اصبحت جزءاً من اللقب الملكي في عهد خلفائه . واتخذ السكان الاصليون من غير اليونان موقفاً يحسن وصفه بالاذعان السلي .

كان شكل القصر بما يعرض فيه من مرمر وذهب وبما يظهر فيه من حجاب وخصيان شرقياً اكثر منه غريباً . وكان الملك يضع على رأسه في المناسبات الرسمية تاجاً كرمز للملكية . وكان التاج كما يظهر على النقود عبارة عن شريط ذهبي ضيق . واتخذ الخاتم ايضاً شعاراً للملكية^١ . واستعمل سلوقس مرساة منقوشة كخاتم له لاسباب لا تزال غامضة^٢ . وتظهر هذه المرساة ايضاً على النقود والاوزان السلوقية . اما اللباس الملكي فقد ظل الرداء الوطني القديم المستعمل في مكدونيا ولكنه زيد في بهائه وصنع من الارجوان . وكان الثوب القرمزي يقتن بالملكية ومنصب الكاهن الاعظم^٣ .

(١) انظر سفر المكابيين الاول ١٥:٦ .

(٢) انظر : Appian, §. 56.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠:٢٠ ؛ ١١:٥٨ ؛ Polybius, Bk. XXVI, ch. 1.

تميزت الولايم الملكية بالابية وبرزت فيها الصحن الذهبية والفضية والخمر
المعتقة والآلات ذات الاوتار وروائح المر وغيرها من العطور الشرقية . وقد ترك
لنا بوسيدونيوس^١ صوراً خاطفة عن الحفلات الزاهية التي اقيمت بمناسبة الالعب
في دفنة من قبل انطيوخس السابع سيديتس^٢ (١٣٧ - ١٢٨ ق.م). ويقال
ان المضيف الملكي سمح لكل مشترك في الحفل ان يحمل الى بيته من لحم الحيوانات
البرية والبحرية ما يكفي لاملء عربة بالاضافة الى كميات الخوى المعولة بالعسل
واكاليل المر والبخور ومشبكات الذهب «التي يبلغ طولها طول الرجل» . وكانت
من عادة انطيوخس الثامن غريبوس (المعقوف الانف ١٢٥ - ٩٦ ق.م) ان
يوزع في مثل هذه المناسبات على المدعويين اوزاً حياً وارانب وغزلاً بالاضافة الى
الاكاليل الذهبية والآواني الفضية والعبيد والحيول والجمال . وبعد ان يركب كل
رجل جملة يشرب نخباً ويقبل الجمل بما عليه والخدام الملحق به . وكانت التسليمة
الرئيسية بالاضافة الى الولايم تتضمن الصيد والقروسة .

البلاط

كانت الحاشية تتجمع حول الملك ، وبما لا شك فيه ان لغة البلاط كانت
اليونانية . ويستبعد ان يكون الملك السلوقي قد عرف لغة اي من مواطنيه الاصليين .
وكان يذهب عدد كبير من الامراء الملكيين وهم صغار الى اثينة او رومة لتلقي
العلم . وكانت اعلى وظيفة في البلاط هي وظيفة «وزير القضايا» وهي استمرار
لمنصب الوزير عند الفرس . وكانت سلسلة الوظائف تضم رئيس الديوان الملكي
وزير المالية والكاتب المالي وقائد الحرس والطبيب الرئيسي . وكان الموظفون
في المقاطعات هم الولاة او المرازبة وحكام المقاطعات الصغرى والكتاب ومراقبو
الضرائب . وكانت وزارة المالية وزارة مرغوباً فيها بشكل خاص^٣ .

ان طبقة النبلاء المكدونيين التي هاجرت من ارض اجدادها وطعمت بطبقة
النبلاء الجديدة المتألفة من موظفين ترقوا بعطف الملك - لم تكن في وضع يمكنها

(١) انظر : Athenaeus, Bk. XII, ch. 540.

(٢) لقب بهذا نسبة الى بلدة Side في بافلييا حيث نشأ .

(٣) راجع : Appian, § 45.

من تقييد السلطة الامبراطورية . وكانت نساء القصر يتنازعن ويدبرن المكائيد للوصول الى السلطة . وكان السلوقيون والبطالمة فيما سوى الجيل الاول من خلفاء الاسكندر يتزوجون بامرأة واحدة ولكن كان لديهم محظيات . وقد منح انطيوخس الرابع محظيته سلطة ملكية على طرسوس ومدينة اخرى في كيليكية بما ادى الى نقمة سكانها^١ . ومارس افراد الاسرتين عادة الزواج بالشقيقات كما فعل الفراعنة وملوك الفرس . وكان لدى افراد الاسرة المالكة وجماعة الموظفين وفرة من العبيد وكان المجتمع الهلنستي في كل مكان فقيراً في الآلات غنياً في العبيد^٢ .

الجيش

كان الجيش والاسطول تابعين للملك . وتمتع الجيش السلوقي بنفوذ في شؤون الدولة . واعتبر سلوقس الاول انه من المناسب اخذ موافقة الجيش حين هيا ذلك الزواج القريب بين ابنه ووريثه انطيوخس الاول وزوجة ابيه وحين اراد تعيينه على بعض المقاطعات^٣ . وقد تألف الجيش في مراحله الاولى من جميع المكدونيين واليونان في المملكة وكان وسيلة اساسية يصل بها الرجال الى السلطة . وكان مقر قيادته في افامية ولكن معسكراً اقيم في انطاكية للحرس الملكي . وكان يتألف جيش انطيوخس الثالث في معركة رافيا (رفع) سنة ٢١٧ من ٢٠٤٠٠٠ مستوطن اوربي يدعمهم ١٠٤٠٠٠ من الرجال المختارين من قوميات كثيرة و ١٠٤٠٠٠ من العرب وسائر رجال القبائل الاخرى وعدد من المرتزقة بما يرفع العدد الى ٦٢٤٠٠٠ من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان^٤ . وكان الفرسان اعلى في المرتبة ويتقاضون اجوراً اكثر من المشاة .

كانت الكتيبة نواة الجيش وقد جند افرادها بصورة رئيسية من بين المستوطنين اليونان والمكدونيين وعددها لم يكن ثابتاً . وقد بلغ في معركة مغنيزيا ١٩٠ ق.م .

(١) انظر سفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٠ .

(٢) للحصول على تفاصيل اكثر عن البلاط وحياته ارجع الى : E. Bickerman, *Institutions séleucides* (Paris, 1938), pp. 31-50.

(٣) انظر : Appian, § 61.

(٤) Polybius, Bk. V, ch. 79.

سنة عشر ألفاً. وكانت الكتيبة مسلحة بالسيوف والرماح الضخمة التي بلغ طولها واحداً وعشرين قدماً تحميها الخوذ والتروس. وكان السلاح الوطني لليونان والمكدونيين الرمح وليس السيف وبقي كذلك. وكان يتألف رماة القذائف من النبالة واصحاب المقاليع وقاذفي الرماح وكلهم من غير الهلينيين. ومدفعية الملوك الهلنستيين التي كانت تضم المنجنيق فتحت فصلاً جديداً في تاريخ فنون الحصار وادت الى تحسن مقابل في فن تحصين المدن. وفي معركة رافيا ساهم الفن من النبالة واصحاب المقاليع من الفرس والاكراد. اما في معركة مغنيزيا فاشتركت فرقة تتألف من حوالي الف فارس ميدي وفرقة ملكية من الف خيال اغلبهم من السوريين. وسار الرماة العرب وهم يركبون الجبال امام الفرسان وحملوا سيوفاً رشيقة طولها اربعة اذرع لكي يتمكنوا من الوصول الى العدو من علو كبير كهذا^٢.

الفيلة لاجل الحرب

عرف استخدام الجمل والحصان في الحروب في آسية الغربية لعدة قرون ولكن القيل كان ظاهرة جديدة في الجيش السلوقي واصبح هذا الحيوان شعاراً سلوقياً كما ترينا قطع النقود. ويبدو ان المنود كانوا يقومون بالتدريب في مركز الفيلة في أفامية. واستعمل الملوك البطالمة فيلة من افريقيا. وفي عام ٢٧٣ ق.م. ارسل حاكم بكترية عشرين فيلاً الى انطيوخس الثالث الذي استخدمها ضد مصر^٣. وتقابلت الفيلة الهندية والافريقية في ساحة المعركة في مغنيزيا ورافيا وانتصرت الهندية التي كانت تتفوق بعدها على الافريقية في المعركتين مما لا يمكننا تبرير الاستنتاج بانها كانت اقوى^٤. واستخدم انطيوخس في رافيا ١٠٢ من الفيلة^٥. كما ان سلوقس الاول استخدم في معركة ايبسوس Ipsus (٣٠١ ق.م.) ٤٨٠ منها

(١) انظر : Appian, § 32.

(٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40; cf. Appian, § 32.

(٣) انظر : Sidney Smith, p. 156.

(٤) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 39, § 13; Polybius, Bk. V, ch. 84.

(٥) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 79.

وكانت الى حد كبير سبب نصره الذي اكسبه مقاطعة آسيا . وبلغ مجموع الفيلة التي كانت في المركز السلوقي حوالي ٥٠٠ فيل^١.

وفي ترتيب المعركة كان يركب سائق هندي على رقبة الفيل الذي يحمل برجاً خشبياً يجلس فيه اربعة مقاتلين^٢. ولا بد ان منظر هذه الحيوانات المحاربة كانت يوحى بالرهبة الى حد جعل اليهودي الذي روى اعمالها في احدى معارك المكابيين ان يرى ظهورها مغطاة بالابراج وفي كل منها اثنان وثلاثون من الرجال الاشداء^٣. ويقول نفس الراوي ان الحيوانات كانت تستثار للقتال بعرض « دم العنب والتوت » عليها^٤.

كان يقود فصيلة الفيلة في ساحة المعركة ضابط خاص^٥. ولم تستعمل الحيوانات لتحارب حيوانات الاعداء كما في رافيا بل لتكون ايضاً بمثابة حاجز ضد الحيلة كما في ايبسوس. ويبدو ان هذا هو الغرض الرئيسي الذي كان يستخدم السلوقيون تلك الحيوانات لاجله. وقد استعملوها ايضاً لاقتحام موقع حصين. ويعتبر الفيل من هذه الوجهة دبابة العصر القديم^٦. وكانت تعتبر الفيلة في هجومها على المشاة اعداء مهمة للفرق التي تواجهها لأول مرة ويحول تأثيرها امام المشاة المجريين.

وعندما علم الرومان بوجود عدد كبير من الفيلة الحربية في سورية ارسلوا في عام ١٦٣ ق. م. بعثة للقضاء عليها. واثار القضاء على هذه الحيوانات الداجنة والنادرة احد مواطني اللاذقية بحيث طعن رئيس البعثة طعنة مهمة حين كان يتطيب في الجنائز يوم بتلك المدينة^٧. وبعد ذلك بوقت قصير استحوذ شخص سلوقي على فيلة احد البطالة ولكن احد منافسيه جرده منها. وهذا آخر ما نسمع عنها.

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 10.

(٢) انظر : Livy, Bk. XXXVII, ch. 40.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ٣٧.

(٤) انظر سفر المكابيين الاول ٦ : ٣٤.

(٥) انظر : Appian, § 33.

(٦) انظر : W. W. Tarn, *Hellenistic Military and Naval Developments* (Cambridge, 1930), p. 95.

(٧) انظر : Appian, § 46.

وتعتبر السُّون التي انتقضت بين وفاة الاسكندر وذلك الحادث الفترة الوحيدة في التاريخ التي لعب فيها هذا الحيوان دوراً هاماً في الحروب الغربية .

الاسطول

كلفت نفس البعثة الرومانية التي قضت على فيلة الحرب بمهمة احراق الاسطول السلوقي الذي كان قد زاد عن العدد الذي سمح به لانطيوخس الثالث بموجب معاهدة الصلح . ومع ان الاسطول لم يقم بأي دور حاسم في اية معركة ذكرتها المدونات التاريخية فانه كانت له غالباً قيمة كافية في الحرب لان تستدعي ادخال مادة في المعاهدة تجديد عدد وحداته وتعين مجال نشاطه في المياه الاسيوية فقط . ويبدو ان قسماً صغيراً منه كان يربط في الخليج الفارسي^١ . وكانت مهمة الاسطول بوجه عام ان يتعاون مع الجيش المحارب وان يحمي التقلبات العسكرية . وبما لا شك فيه ان اكثر تجارته كانوا من الفينيقيين .

كانت وحدة الاسطول هي السفينة ذات الصفوف الخمسة التي حلت في هذا الزمن محل السفن ذات الصفوف الثلاثة الاقل قوة ويرجح انها اخترعت في فينيقية او قبرص قبل زمن الاسكندر بقليل^٢ . وكانت السفن ذات الصفوف الخمسة تحذف بصف واحد من المجاذيف ويعمل خمسة رجال في كل مجذاف . ويمتد ظهر السفينة فوق رؤوس المجذفين . وتحمل السفينة فرق الجنود الذين كانوا يحمون في القرن الثاني ق. م . بآراج خشبية خفيفة منتصبة فوق ظهر السفينة . ويمكن استعمال السفينة نفسها للانتفاض على السفن الاخرى وهو اسلوب يجري برع فيه الفينيقيون .

ادارة المقاطعات

ظهرت وحدة الامبراطورية السلوقية في تجانس تنظيمها العسكري وفي نظام ادارة المقاطعات الذي ورثت قسمه الاكبر من الفرس . ولا نعلم الشيء الكثير عن ادارة المقاطعات المحلية . ولكن يبدو ان الجهاز الحكومي القديم كان باقياً .

(١) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9 § 5.

(٢) انظر : Tarn, P. 132.

واحتفظت الوحدة الادارية باسمها الفارسي وهو المرزبانية . وقد ادعى ابيان^١ انه كان يوجد اثنان وسبعون مرزبانية في الامبراطورية في عهد سلوقس الاول ولا بد انه مزج بين تقسيمات المرزبانات الداخلية والمرزبانات ذاتها . ويروي بوسيدونيوس^٢ انه كان في سورية ثمانية مرزبانات - اربع في الشمال الكثيف السكان الذي يسمى « Selencis » واربع في الجنوب الذي يسمى « سورية المحوفة » . وقد تجمعت الولايات الشمالية حول المدن التالية : انطاكية ، سلوقية ، افامية ، اللاذقية . ويظهر ان دمشق ولبنان بالاضافة الى فينيقية شكلت اول مرزبانية في سورية الجنوبية . وشكلت السامرة والجليل مع الساحل المرزبانية الثانية . وتألفت الاثنتان الباقيتان من شرقي الاردن وايدومية . وكانت اليهودية في اكثر عهدها كما رأينا سابقاً دولة كهنوتية تدفع الجزية في ظل السيادة السلوقية .

قسمت المرزبانية لاغراض ادارية الى مقاطعات صغيرة أوكلت لحكام ثانويين . ويصعب تحديد ترتيب هذه الاجزاء وربما كانت تتبدل من وقت لآخر . وكانت دار سك النقود الملكية في انطاكية ولكن وجدت دور في المقاطعات في صور وصيدا وارواد وغيرها من المدن المامة .

المدن

كانت المستعمرات المكدونية - اليونانية منظمة بوجه عام حسب الفكرة الهلينية القديمة بشأن الحكم الذاتي لدولة المدينة . وقد شكلت المدن المتأثرة بالهلينية كذلك دول مدن من هذا النوع . وقد وجب عليها ان تدفع الضرائب وتطيع الاوامر الملكية من وقت لآخر ، ولكن سمح لها بادارة شؤونها الداخلية . وقد سمح للمدن المرموقة بنوع خاص ان تسيطر حتى على مقاطعات مجاورة . وكان يصوت سكان انطاكية كأعضاء جماعة هلينية وربما صوتوا ايضاً في مجلس الجليش الامبراطوري . والميزة المعروفة للمدينة الهلنستية هي شوارعها المستقيمة التي تتقاطع في زوايا قائمة فتقسمها الى مربعات تبدو من نقطة مرتفعة كأنها لوح الشطرنج . اما النموذج العام فهو نموذج مدينة يونانية لها ساحة حمامة (آغورا) في احد الاماكن

(١) انظر : Appian, XI, § 62.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 4.

المتوسطة وتطل عليها المعابد . وبلغت مساحة الآغورا في دورا - اوروبس ٢٨,٠٧٩ يرداً مربعاً . وتراوح عرض شوارعها بين ١٨ - ٢٤ قدماً وبلغ عرض الشارع الرئيسي ٣٦ قدماً^١ . ومن سوء الحظ انه لم تكتمل الحفريات في اية مدينة سلوقية حتى الآن كما في دورا - اوروبس^٢ . ومن جهة اخرى كانت المدن الجديدة تختلف في مظهرها كما في سياستها . وبقي العنصر الوطني من السكان فيها يعيش حسب الطريقة التقليدية .

الضرائب

عاش الفلاحون الوطنيون في قرى حافظت على وضعهم وطريقة حياتهم دون اهتمام بتغيرات الملوك . وكانت الارض التي يزرعونها ملكاً للملك او لبعض الملاكين على الغالب وكانوا يشرون ويبيعون معها . وكان وضعهم وضع رقيق الارض . وليس هناك من شك في انهم دفعوا ضرائبهم عيناً .

وتابع السلوقيون عادة جمع العشور التي عرفت منذ اقدم العصور في آسية الغربية وهي عشر محصول الموسم . ويبدو من المصادر المتفرقة ان الضريبة لم تفرض على الفرد بل على الجماعة^٣ . وكان يدفع قسم كبير منها عيناً باسم المدينة او السكان او القبيلة من قبل الزعيم او الكاهن الاعظم . وليست لدينا معرفة تامة حول الضرائب المختلفة وكمياتها وطريقة تعيينها ولكن ليس هناك من شك بان كثيراً من هذه الامور كان يقرره التقليد القديم ويتكيف مع الاحوال الاقتصادية المباشرة .

كان هناك بالاضافة الى الجزية وعائدات الارض التي كانت مرتفعة جداً في اليهودية ضرائب ملكية تشمل ضريبة الرأس وضريبة التاج^٤ وضريبة الملح . وقد

(١) انظر : M. T. Rostovtzeff et al., *The Excavations at Dura-Europos*, vol. ix, (New Haven, 1944), pp. 23,25.

(٢) انظر بشأن غطط لدورا : Rostovtzeff, *Caravan Cities*, tr. D. and T. Talbot : Rice (Oxford, 1932), p. 154.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ١٠:٢٩-٣٠ : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 4§9.

(٤) يدل التعبير على ان اليهود اعتادوا ان يقدموا للسلوك السوريين تيجاناً من الذهب ثم قدموا قيمتها بعد ذلك .

اعفى انطيوخس الثالث مدينة اورشليم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات وبعد ذلك اعفاها بمقدار الثلث وذلك في الوثيقة التي منحها اياها حوالي عام ٢٠٠ ق.م.^١ وبعد نصف قرن حين كان يوجد ملكان سلوقيات متنافسان وهو امر معتاد في ذلك العصر اظهر كل منهما استعدادا لتقديم اي غن لدعم اليهود له . وقد عرض احدهما وهو ديمتريوس الاول سوتر في عام ١٥٢ ق.م. في رسالة الى يوناتان الكاهن الاعظم — على اليهود اعفاءهم من الجزء الاكبر من الجزية والضرائب التي كانت تدفع حتى ذلك الحين ومثلها ضريبة الرأس والضريبة على الملح وثن التيجان بالإضافة الى ثلث محصول الحقول ونصف اثمار الاشجار التي كانت تذهب عادة الى الملك . كما انه عرض اعفاء اورشليم من ضريبة العشر الاعتيادية^٢. ويفهم من ضريبة الملح التي يذكرها كل من انطيوخس وديمتريوس بان مقالع الملح كانت تعتبر من املاك العرش . ومن المرجح ايضاً ان المناجم والمقالع الحجرية والغابات ومصادر السبك يملكها ويديرها الملك . ويحول انطيوخس اليهود في وثيقته حق استيراد الاخشاب من لبنان معفاة من الضرائب لاعادة بناء معبدهم وسائر الابنية^٣.

(١) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 3, § 3.

(٢) انظر سفر المكابيين الاول ١٠: ٢٩-٣٠ : Josephus, Bk. XIII, ch. 2, § 3.

(٣) للحصول على معلومات اوفى عن هذا الموضوع راجع : Birkman, pp. 106-132, Ros-tovtzeff, *Social and Economic History*, pp. 440 seq.

الفصل العثرون

التجارة والصناعة

كانت سورية العمود الفقري للامبراطورية السلوقية وانطاكية رأسها السياسي وسلوقية عاصمتها التجارية وافامية مقرها الحربي وسلوقية التي على الدجلة عاصمة جناحها الشرقي وساردس عاصمة جناحها الغربي. وكان ربط هذه الاقسام المختلفة من الامبراطورية والمراكز التجارية والسياسية المختلفة بطرق مناسبة وآمنة يشكل الاهتمام الرئيسي للملوك السلوقيين الاوائل. وكانوا حين يبنون مستعمرة جديدة يهتمون بربطها بالطرق الرئيسية الموجودة والطرق المحلية التي اضاف اليها ملوك سورية ومصر الهلنستيون طرقاً جديدة. وكان من شأن التسهيلات الجديدة في المواصلات وتمتع العالم الهلنستي حتى في عهد تجزئته بشيء من الوحدة والتناسق في الثقافة العامة، بما في ذلك اللغة المشتركة والنقود الموحدة، ان اعطت التجارة حافزاً خاصاً. وقد رافق حركة بناء المدن ذاتها ظهور نشاط تجاري اقتصادي يوتاني نتج عنه توافد التجار ورجال الاعمال والصناع.

السياسة السلوقية

كانت تجارة سورية في المستوى الداخلي والخارجي ذات اهمية كبرى بالنسبة للملكة وسكنتها. ويبدو ان السياسة السلوقية كانت تهدف أولاً الى ان تجذب الى بلادها بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسية للاستهلاك المحلي والمرور وثانياً الى تشجيع العلاقات التجارية السورية مع القرب وخاصة العالم اليوناني - الروماني. وكانت مصر منافسة لسورية في تطلعها الى تجارة الترانزيت. وهكذا كان الصراع الحربي المستمر بين السلوقيين والبطالمة اسس اقتصادية وسياسية.

الهند

ويمكن لمنتجات الهند ان تأتي عن طريق البحر الى مستودعات في اليمن

(العربية السعيدة) لتصبح هناك جزءاً من تجارة الجزيرة العربية^١ ومن ثم تنتقل بواسطة القوافل الى البتراء وبلاد البطلمة او يمكنها الاتجاه عن طريق البحر على طول الساحل الغربي للخليج الفارسي فتصل بالعقير Gerrha وتصل الدجلة الى سلوقية. وهذه البضائع المتجمعة بعد ان تنضم اليها في سلوقية المواد التي تجلبها القوافل البرية كانت تتجه غرباً فتصعد الفرات مارة بدورا - اوروبس (الصاحية) الى انطاكية او تتبع الطريق القديمة شرقي دجلة فتعبر ما يدعوه العرب جزيرة ابن عمرو وتسير غرباً الى نصيبين ومنها الى اديسا ثم الى انطاكية او دمشق. وقد جعل هذا من سلوقية على الدجلة مركز توزيع البضائع بالنسبة للتجارة الشرقية فكانت وريثة بابل القديمة وسلفاً لبغداد في العصور الوسطى. وقد بقيت هذه الطريق التجارية الشرقية التي تمر بسلوقية على الدجلة مطروقة خلال القرن الثالث ق.م. ولكن في الفترة المضطربة في اواخر القرن الثاني واول القرن الاول اصبحت الطريق الصحراوية المارة بتدمر اكثر ملاءمة وخاصة لان القبائل التدمرية كانت آتشد في وضع يمكنها من ضمان الامن والمياه اللازمة. وقد بقي هذا الاختصار في الطريق الذي يمر بمدينة الواحة التدمرية مستعملاً بكثرة لمدة نحو اربعة قرون^٢.

كان بإمكان القوافل المنطلقة من مصر او البتراء او الساحل الفلسطيني ان تتبع الطريق الساحلية حتى تصل الى اللاذقية ومن هناك تتصل بسلوقية وانطاكية او يمكنها ان تنعطف من مجدو او صور الى دمشق متبعة الطريق الاولى القديمة الكبرى. اما القوافل المنطلقة من ارواد او ماراثوس فيمكنها هي ايضاً ان تتبع الطريق الساحلية شمالاً او تستدير شرقاً باتجاه حمص وافامية. وكانت سلوقية او جارتها انطاكية الواقعة على نهر العاصي الصالح للملاحة آنذاك نقطة الالتقاء في سورية لجميع هذه القوافل.

وكان السلوقيون ابان ذروة حكمهم اسياداً غير منازعين ايضاً لطريق الحرير التي تخترق الهضبة الايرانية وآسية الوسطى حتى منغوليا البعيدة بقدر ما كانت

(١) لتوسع في تجارة الجزيرة العربية الجنوبية راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 44-48.

(٢) راجع ما سنذكره في الفصل ٢٩ بشأن تدمر.

تستخدم في تلك الايام . وكان قسم كبير من تلك الطريق يمر في الممتلكات السلوقية . والتقت منتجات الشرق الاقصى بمنتجات الهند وغربي الجزيرة العربية في بلاد الرافدين وانتقلت غرباً اما بطريق نصيبين والرها او بطريق دورا - اوروبس .

دورا - اوروبس (الصالحية)

كانت تحمي الطرق الرئيسية في عهد السلوقيين سلسلة من المستعمرات القوية المزدهرة التي كانت تستخدم في الوقت ذاته كأماكن مناسبة للراحة لرجال القوافل ومراحل الجمالهم . وكانت دورا - اوروبس احدى هذه المستعمرات^١ . وقد اُسست حوالي العام ٣٠٠ ق.م. من قبل سلوقس الاول على الطريق الصحراوية في موضع متوسط بين عاصمتي سورية وبلاد الرافدين ومرعان ما تطورت من حصن قوي الى سوق تجارية هامة . وكانت تقع في مكان يتصف بمنعة طبيعية على هضبة صخرية تشرف على الفرات ويحيط بها واديان سحيقان . وبلغت المدينة ذروتها كمركز للقوافل في عهد الفرتين . واستخدمها الرومان كمعقل على حدود الامبراطورية من جهة الفرات . وقد احتلها الساسانيون بعد سنة ٢٥٦ م. بوقت قصير وهدموها واصبحت بعد ذلك جزءاً من الصحراء . ولم يعرف العلماء خرائبها التي تدعى اليوم الصالحية الى ان عثر ضابط انكليزي في ١٩٢٠ على بعض الالواح المزخرفة المهمة حين كانت منشغلاً في حفر الخنادق^٢ . وقد اتضحت اهمية خرائب دورا حتى انها دُعيت «بومي الشرق» .

جرها (العقير)

كانت جرها Gerrha اهم مركز تجاري على الخليج الفارسي^٣ . وكانت تسيطر هذه المدينة العربية تقريباً على الساحل الغربي للخليج الفارسي وعلى طرق القوافل

(١) تعني كلمة دورو Dūru الاكادية دائرة او جداراً (تارن مع داليال ١:٣) وقد اُضيف «اوروبوس Europos» تخليداً لذكرى مكان ولادة سلوقس الاول في مكديونيا .

(٢) انظر : Rostovtzeff, *Caravan Cities*, p. 153.

(٣) يرجح انها العقير اليوم ويلفظها البدو «عجير» .

الكبرى في ذلك الجزء من الجزيرة العربية . وكان يتجه احد هذه الطرق جنوباً ويصل العقير باليمن بينما تتوجه الطرق الاخرى في قلب الصحراء الى تيهام ومنها الى البتراء . وكان الاتصال البحري الرئيسي بين الهند والامبراطورية السلوقية يتم ايضاً بواسطة العقير . ومعلوماتنا القليلة عن هذا المركز التجاري وتجاره تأتينا كلها من المصادر الكلاسيكية^١ . ولكنه يصعب تفسير ملاحظة بليني^٢ بان ابراج المدينة كانت مبنية من مربعات من الملح . وليس من دليل في هذه المصادر بان اهل العقير قد خضعوا للسلوقيين في اي زمن . وقد توقف انطيوخس الثالث في العقير وهو في طريق عودته من حملته في الشرق واکرمه اهلها بتقديم هدية تتألف من ٥٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠٠ وزنة من اللبان و ٢٠٠٠ وزنة من زيت المر او القرفة^٣ .

يبدو ان السلوقيين كانوا يتزودون بمحاجاتهم الرئيسية من بضائع الجزيرة العربية بواسطة اهل العقير وخاصة حين كانت سورية الجنوبية جزءاً من دولة البطلمة . وكانت تتألف هذه البضائع من المر واللبان وغيرهما من المواد العطرية . وكانت طلب اللبان كبيراً في الامبراطورية السلوقية لان اية عبادة يونانية كانت او يهودية او غيرها من العبادات السامية لا تكتمل الا به . وكان يحرق على كل مذبح في العالم الهلنستي كما كان شأنه في العالم المسيحي بعد ذلك . وكانت القرفة ايضاً من محاصيل البلاد الحارة التي لها تقدير كبير وهي في الحقيقة من منتجات الهند ولكن اليونان ظنوها من الجزيرة العربية . وكانت كمية لا بأس بها من البضائع الهندية التي تنتقل الى الاراضي السلوقية تمر بأيدي اهل العقير .

التجارة مع الغرب

كانت بضائع الجزيرة العربية والهند واواسط آسيا المشحونة الى سورية يستهلك جزء منها محلياً ويعاد تصدير الجزء الآخر الى الغرب . وكانت تتبع التجارة السلوقية مع الغرب الطرق البرية والبحرية . وقد ساهمت مساهمة غير قليلة في ازدهار سورية . وكانت هذه التجارة تتألف من منتجات سورية الزراعية

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 3, § 3; Diodorus, Bk. III, ch. 42.

(٢) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32.

(٣) انظر : Polybius, Bk. XIII, ch. 9.

والصناعية بالإضافة إلى البضائع المارة بها من البلاد الواقعة في شرقها. وكانت تجارة الرقيق من العناصر الهامة في التجارة السورية. وقد نشطت هذه التجارة كثيراً في هذه الفترة بين الدول الهلنستية ومع البلاد المجاورة وكان السلوقيون أكثر اهتماماً بها من البطالمة. وقد زودت الحرب سوق الرقيق بالأسرى كما زودته القرصنة بضحايا الاختطاف. وقد حصل تدفق الرقيق بصورة مستمرة نحو المدن اليونانية في الغرب آتياً إليها من سورية والبلاد المجاورة وذلك خلال القرنين الثالث والثاني. وكان الاقبال على الرقيق عظيماً يشبه على الأقل الاقبال على الخدم في عصرنا الحديث. وبالإضافة إلى ذلك فإن عمال المناجم وعمليات البناء والاشغال العامة كانوا تقريباً كلهم من العبيد. وكانت المعابد أيضاً تملك وتتاجر في هذه البضاعة البشرية.

مستعمرات فينيقية جديدة

كانت رودس الدولة التجارية الرئيسية على الطريق البحرية لفترة من الزمن. أما ديلوس وهي جزيرة أخرى ومقر معبد كبير اقيم على شرف ابولون وكان من أكثر المنشآت الدينية شهرة في العالم القديم فقد برزت بعد سقوط كورنثوس في سنة ١٤٦ ق. م. كمركز لتجارة الترانزيت الواسعة. وكان لبيروت علاقات تجارية خاصة مع هذه الجزيرة الايجية. وبعد ان هدم تريفون Tryphon — وهو مطالب بالعرش السلوقي — مدينة بيروت في سنة ١٤٠ ق. م. استرجعت هذه قوتها كما ترينا النقود، وتمتعت بحماية كافية لتأسيس مستعمرة في هذه الجزيرة الايجية. وقد كرسست المستعمرة لبوسيدون وهو الاله الحامي لبيروت. وكان لها معبد ذو ملاحق واروقة معمدة لعرض الخزف الفينيقي. واحتل البيروتيون في النشاط التجاري والاجتماعي والديني في ديلوس مركزاً لا يفوقهم فيه سوى الايطاليين.

ونتيجة عن تشجيع النشاط التجاري والاستعماري للمدن الفينيقية في عهد السلوقيين والبطالمة تأسس غير مستعمرة واحدة. وقد اقتصى التجار الفينيقيون طريق الاسكندر المحفوف بالاعطال عبر جندوزيا Gedrozia البعيدة. والصيداويون

في شكيم الذين استأذتوا اثناء الثورة المكابية لتحويل المعبد السامري على جبل جرزيم الى معبد لجوبيتر يرجع انهم من الفينيقيين المتأثرين بالهلينية^١. وكان لصيدا مستعمرة اخرى هي مريسة Marisa^٢ في اقصى الجنوب في ايدومية. وكانت مريسة بلداً تجارياً مزدهراً في عصر البطالمة وهي من تلك المدن الايدومية التي فضل ذكورها الحثان على النفي في عهد يوحنا هيركانوس.

يبدو ان دور اليهود في هذه النهضة التجارية في سورية في عهد السلوقيين لم يكن ابرز من الدور الذي لعبوه في اية فترة سابقة. ويعبر مؤرخهم والناطق باسمهم يوسفوس (حوالي ٣٧ - ١٠٠ م) عن ذلك بقوله: «نحن لا نسكن بلاداً ساحلية ولا نسر بالتجارة ولا في التعامل مع الآخرين الذي ينتج عنها»^٣.

المنتجات الزراعية

اصبحت سورية في العصر الهلنستي الاخير بلداً هاماً في الزراعة والبستنة. وقد بدأ التقدم في هذه الامور في عهد البطالمة في سورية المجوفة وفينيقية وفلسطين. وقد ازداد الانتاج القديم من الحبوب (الشعير والقمح) والنبع وغيره من الثمار والخمور والخضروات بواسطة تحسين الاساليب وبدافع الطلبات المتزايدة. وظهرت الآن سوق واسعة للدهون التي كانت تصنع من الازهار المحلية. وادى التعامل الناشط مع البلاد الاجنبية المجاورة الى تبادل المنتجات الزراعية وادخال نباتات جديدة.

ويعتقد ان الفاصوليا والعدس والحدل والقرع وغيرها من النباتات المصرية النموذجية قد ادخلت الى سورية الجنوبية في عهد البطالمة^٤. ويبدو ايضاً ان شجرة

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XII, ch. 5, § 5.

(٢) لعل معناها «مكان مرتفع» وهي مريسة الواردة في سفر يشوع ٤٤:١٥؛ قارن مع اخبار الالام الثاني ٨:١١؛ ١٤:٩؛ ١٠:٩. تعرف بمكان تل سندحته Tell Sandahannah، على بعد ميل جنوبي بيت جبرين.

(٣) انظر: *Antiquities*, Bk. I, ch. 12.

(٤) انظر: F. M. Heichelheim, «Roman Syria», *An Economic Survey of Ancient Rome*, ed. Tenney Frank vol. iv, (Baltimore, 1938), p. 130; Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 1165.

الفستق وهي فارسية الاصل كما يشير اسمها^١ قد ادخلت الى سورية في هذه الفترة . ثم انتقل هذا النبات ومعه اسمه من هذه البلاد الى اللغات اليونانية واللاتينية والاطالية . وبما يدعو الى الاستغراب ان الطريق التي اتبعتها الاشجار الفارسية الاخرى مثل المشمش والخوخ والكرز كانت عكس الطريق السابقة اذ انها تظهر في ايطاليا قبل الشرق الملنسي . ولا تذكر المصادر شيئاً في العصور الملنسية عن البرتقال والليمون وهما من اصل فارسي ايضاً ولا عن الموز (والكلمة مأخوذة من الفارسية) وهو من اصل هندي ماليزي . ومع ان القطن قد عرف منذ اقدم الازمان في مصر والهند وادخل الى بلاد آشور حوالي ٧٠٠ ق.م . فانه لم يزرع في سورية السلوقية على مقياس كبير بل كان بالاحرى من الاشياء الطريفة . وكانوا ينتجون الحرير المحلي من دود الحرير البري في غربي آسيا ولكن الحرير الصيني الحقيقي استورد بعد سنة ١١٥ ق.م . واستورد السكر والارز من الهند . ويشير بليني^٢ اشارة عابرة الى محاولة فاشلة قام بها سلوقس (الاول ؟) لتوطين حب الهال الهندي *amomum*^٣ والنادين «تلك العطور الناعمة» . ويتكلم بليني في نفس المناسبة عن شجيرة القرفة بانها ليست لها قوة كافية لان تستوطن بجوار سورية .

الصناعة

اصبحت صناعة الحجر والزيت في عهد البطالمة اكثر نشاطاً . وكان هذان المحصولان بالاضافة الى الزيتون والخبز والسمك يشكلان جزءاً اساسياً من غذاء السكان . ولم تكن صناعة الاخشاب في الزمن الملنسي اقل ازدهاراً منها في ايام القراعنة . وكانت مصر الحالية من الاشجار تعتمد على ارز لبنان الذي كان تابعاً للملك وعلى بلوط باشان . وكان استثمار غابات سورية ولبنان من امتيازات الملوك

(١) هي pistah بالفارسية وتعني الجوزة .

(٢) انظر : Pliny, Bk. XVI, ch. 59.

(٣) ان اسم هذه الشجيرة ذات الرائحة الذكية التي استحضر منها اليونان والرومان بلساً غنياً حسن الرائحة هو من اصل هندي وقد اتى بطريق اللغة العربية الجنوبية . ويطلق الاسم اليوم على حب الهال والزنجبيل .

في عهد السلوقيين كما كان الامر في عهد الفرس والاشوريين والفينيقيين^١. وكان بحر الجليل يقدم الشجيرات الذكية الرائحة^٢ وكانت اريحا تحتكر تجارة البلسم^٣.

حافظت صناعة المنسوجات التي ترجع الى ايام الفينيقيين وما قبل ذلك على تفوقها واستمر اصحاب المصانع السوريون يستخدمون نفس البراعة والاساليب الفنية ولكنهم نوعوا الناذج الفنية لتتفق مع اذواق مختلف الزبائن. وكانت صناعة الصوف السورية واسعة بشكل خاص. وبقي الطلب كبيراً على الاقمشة الارجوانية اللون وكانت الاقمشة الصوفية المستوردة الى منفوليا في اوائل العصر المسيحي تشير الى تقاليد سورية هلنستية^٤.

حافظت سورية على شهرتها القديمة في صناعة الخزف والزجاج وهما من اختصاص الشرق الادنى منذ ابعد العصور. وسرعان ما قلّد السوريون الخزف اليوناني الذي غمر سوق الشرق الادنى اثر فتوحات الاسكندر وصنعه في بلادهم. وكان الخزف الشائع بصورة خاصة في البدء هو الخزف الاسود ذو البريق المعدني ثم حل مكانه بعد ذلك نوع من الخزف الاحمر ذو بريق معدني جميل وقد ادخل في القرن الثاني. وتنتشر قطع من الجرار الممهورة من صنع اتيكا ورودرس في طول البلاد وعرضها. وكان زجاج صيدا وصور غالي الثمن ومرغوباً فيه جداً. واستمرت هاتان المدينتان تزودان العالم باحسن الزجاج حتى الفترة الرومانية^٥. وكان يوجد رمل ممتاز لصناعة الزجاج بالقرب من صيدا. وقد صنعت هاتان المدينتان وغيرهما من المدن الفينيقية اواني من الزجاج المصبوب وصدرتها قبل ان تختوع الزجاج بطريق النفخ. ولا بد ان هذا الاختراع الذي يعتبر فاتحة عهد جديد قد حصل في آواخر القرن الاول ق. م^٦.

(١) كان الملوك في عهد الرومان ومن المحتمل في عهد الفينيقيين يحتكرون شجر السرو والصنوبر والشوح والعمر.

(٢) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 16; Polybius, Bk. V, ch. 45, § 10.

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 4, § 2; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 41.

(٤) انظر: Rostovtzeff, p. 1223.

(٥) راجع: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 25; Pliny, Bk. V, ch. 17.

(٦) انظر: Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 689.

يجل الرق Parchment وملفات البايروس (ورق البردي) عمل الألواح الطينية كإداة للكتابة في العصر المملوكي. واحتكوت برغام الرق منذ القرن الثاني وكملة الرق نفسها معناها بالافرنجية ما يخص برغام. وقد زودت الاسكندرية العالم بالبايروس. وادخلت هذه المادة من مصر الى سورية وفلسطين وهناك اشارات متفرقة الى غو البايروس فيها^١. ويرجع ان طريقة صنع البايروس تتضمن نزع قشرة النبات ثم قطع الساق طولانياً الى قطع مستطيلة رقيقة وتوضع بصورة عمودية على لوح خشبي ثم توضع فوقها بشكل متقاطع مجموعة اخرى من القطع المستطيلة وتنقع كلها بعد ذلك بالماء وربما تضاف اليها مادة غروية وتجفف في الشمس. ويمكن استعمال الصفحات مفردة او تلتصق لتشكّل ملفات^٢. ومن فينيقية ادخلت هذه المادة الى اليونان حيث شاع استعمالها في القرن السادس.

خطا فن صناعة المعدن خطوات كبيرة الى الامام في هذا العصر. وكانت انطيوخس ايبفانس غالباً ما يتهرب من حاشيته ليزور اماكن صائغي الفضة والذهب وليتحدث في الامور الفنية مع السباكين وغيرهم من الصناع^٣. وكانت تأتي الفضة وكذلك الذهب من بلاد العرب النبطية كما ان الفضة كانت تأتي من جبال طوروس. وكان يأتي الحديد من جبال طوروس ومن جنوبي فلسطين وخاصة ايدومية ومن لبنان في المنطقة المجاورة لبيروت^٤. وبما لا شك فيه ان هذا المعدن كان لاغراض اقتصادية اعلى المعادن قيمة. ويمكن ان يكون البطالة قد استثمروا ايضاً النحاس والحديد ومناجم اخرى في سلسلة لبنان. واستمر الاستثمار حتى زمن الرومان^٥. واصبح اللؤلؤ الذي كان مجهولاً في الغرب قبل عهد الاسكندر ذا قيمة كبرى لاجل الزينة.

(١) انظر: Pliny, Bk. XIII, ch. 22.

(٢) ان الكلمة السامية القديمة لقف قد بقيت في كلمة «عجلة» العربية التي تستخدم اليوم للجلات. وترجع كلمة «Papyrus» ومنها اشتقت كلمة «Paper» الى كلمة مصرية تتعلق بفرعون «Pharaoh» ويسمى ان الفراغة احتكروا هذه الصناعة.

(٣) انظر: Polybius, Bk. XXVI, ch. 1.

(٤) قارن ذلك مع ما سبق في ص ٣٦.

(٥) راجع: Heichelheim, pp. 156-157.

النقد

شجع ضرب النقود في جميع الممالك الهلنستية كعامل في تطور التجارة . وحل النقد بالتدريج كواسطة للتعامل مكان المقايضة التي كانت الاسلوب المتبع لمدة طويلة . وابتدأت مع النقود الاوزان الملكية الصادرة في انطاكية وسلوقية . وسمح بمختلف الاوزان والمقاييس في المقاطعات المختلفة وحتى في المدن ضمن نفس المملكة .

مظاهر الترف

تمتعت سورية السلوقية بفترة ازدهار نسبي بعد ان ازدادت التجارة واستخدمت فيها النقود والاوزان الرسمية وتحسنت الزراعة وتطورت . وقد حفظ التاريخ اخباراً تعطي فكرة عن مقدار الثروات التي جمعها وجهاء العصر ، من ذلك ان هرمياس رئيس وزراء انطيوخس الكبير استطاع حوالي العام ٢٠٠ ق.م . ان يدفع مرتبات الجيش الملكي كله من امواله الخاصة^١ . وهناك مثال آخر عن ديونيسيوس «صديق او مساعد» انطيوخس ايفانيس اذ يروي لنا انه كان لديه في الاحتفال بالالعاب في دفنة الف عبد يسيرون في الموكب ويحملون اواني فضية لا يقل وزن كل منها عن الف دراهمة . ثم تلام ٦٠٠ وضيء ملكي يحملون اواني ذهبية و ٢٠٠ امرأة ترش الزيوت العطرية من اباريق ذهبية . وتعقب هؤلاء في الموكب ٨٠ امرأة جالسات في محفات ذوات مساند ذهبية و ٥٠٠ امرأة في محفات ذوات مساند فضية^٢ . وقد رغب ايفانيس نفسه ان يتفوق على الانتصارات الرومانية فاحتفل بالالعاب دفنة وعرض فيها اواني ذهبية وفضية بشكل يفوق الوصف . وسار في العرض ٣٠٠٠ كيليكى يلبسون تيجاناً ذهبية و ١٠٠٠٠٠ مكدونى يحملون تروساً ذهبية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً برونزية و ٥٠٠٠ يحملون تروساً فضية . وكانت اكثرية الجنود المواطنين البالغين ٣٠٠٠ يضعون اغطية ذهبية على خدودهم ويلبسون تيجاناً ذهبية وكان للباقيين اغطية فضية على خدودهم^٣ .

(١) انظر : Polybius, Bk. V, ch. 50, § 2.

(٢) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 195.

(٣) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch. 194.

السكان

لا بد ان مستوى المعيشة كان عالياً جداً في كل البلاد في اوائل القرن الاول اعتماداً على شهادة بوسيدونيوس حيث يقول : « كان جميع سكان سورية آمنين من اي ضيق يتعلق بضرورات الحياة بسبب الوفرة الكبيرة التي تقدمها بلادهم^١ . وبسبب ارتفاع مستوى المعيشة يحسن بنا ان نفترض زيادة في السكان يعود جزء منها الى اسكان الجاليات في عهد مؤسس السلالة وخلفائه الاولين . واستمر الاتجاه نحو التزايد حتى الفترة الرومانية . ويقول سترابو^٢ (حوالي ٦٣ ق. م. — حوالي ٢٤ م.) ان انطاكية « لا تقل كثيراً في الغنى والعظمة عن سلوقية على الدجلة والاسكندرية في مصر » . ويروى ان سكان سلوقية قد بلغوا ٦٠٠,٠٠٠ في زمن بليني اي بعد زمن سترابو بقليل . وكان سكان الاسكندرية يبلغون نفس المقدار تقريباً في عهد اوغسطس قيصر . وفي العهد الروماني الذي سبق الامبراطورية قدر عدد سكان سورية بين خمسة وستة ملايين يعيش مليونان منهم في فلسطين^٤ .

(١) انظر : Athenaeus, Bk. V, ch: 210.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 5.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 30.

(٤) انظر : Julius Beloch, *Die Bevölkerung der griechisch-romischen Welt* (Leipzig, 1886), pp. 242 seq.

الفصل الحادي والعشرون

سورية كولاية رومانية؛ فترة ما قبل الأمبراطورية ١٨٠

ان تقدم الجيوش الرومانية في غربي آسيا الذي بدأ في معركة مغنيزيا سنة ١٩٠ ق.م. اخذ يتزايد حتى فتح بومبي سورية سنة ٦٤ ق.م. وكانت سورية لدى ضمها في حالة من الفوضى اوجدها فيها الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر. وكان زعماء العرب يسيطرون على المدن في الشمال. وقد اعتدى الانباط واليهود على الممتلكات الهلنستية في الجنوب. واحتل زعماء اللصوص كثيراً من المدن الساحلية الفينيقية وجعلوا منها قواعد للقرصنة. وساعد لبنان الجبلي على تهمة الاحوال الجغرافية اللازمة لحمايتهم كما فعلت كيليكية قلعة القرصنة في شرقي المتوسط. وبني القراصنة في المتسعات البعيدة الوعرة في كيليكية حصوناً صخرية لاختفاء عائلاتهم وكنوزهم ضماناً لسلامتهم ولتكون ملاجئ لهم في اوقات الخطر^١. وما دامت التجارة مع بلاد الرافدين والبلدان الابعد في الشرق اكثر ربحاً فان الاغراء على امتنان القرصنة واللصوصية لم يكن قوياً جداً ولكن الوضع تغير الآن بعد ان سادت الفوضى السلوقية واختل نظام التجارة في البلاد الواقعة وراء الساحل بسبب فتوحات الارمن والفرتيين المتتالية. وفي الحقيقة فان احد ملوك السلوقيين ويدعى تريفون (١٤٢ - ١٣٧ ق.م.) وهو عبد في الاصل شجع القرصنة فعلاً في كيليكية واستخدمها كوسيلة لتدعيم قبضته على العرش^٢.

كان القراصنة لصوص الطرق البحرية العامة وكانت هذه الطرق في شرقي المتوسط واضحة الحدود وكثيرة الاستعمال. وقبل قدوم بومبي نظم القراصنة انفسهم في

(١) انظر: Theodor Mommsen, *History of Rome*, tr. William P. Dickson (New York, 1894), vol. iv, pp. 58, 143.

(٢) انظر: Mommsen, vol. iii, p. 87; vol. iv, p. 59.

قوة بحرية دولية ضمت في عملياتها حوض المتوسط الشرق كله فسببت بذلك نقصاً في المؤن الذاهبة الى رومة التي كانت تعتمد على التجارة البحرية لتزود بالحبوب . ومع ان بومبي كما يظن قد أباد القراصنة من تلك المنطقة كلها قبل ضم سورية^١ فان بعضهم ظلوا ناشطين هناك حتى في ايام خلفه^٢.

ادخل بومبي سنة ٦٤ ق. م. سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد وهو ولاية سورية Provincia Syria. وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية واصبحت عاصمتها انطاكية بينما جعلت كيليكية ولاية قائمة بذاتها . وسمح للملوك العرب بالبقاء على ان تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الاصلية وان يدفعوا جزية سنوية. ومع ذلك احتفظ ملك الانباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال . وابقيت اليهودية دولة خاضعة ضمن اطار ولاية سورية^٣ ولكن المدن ذات الدساتير اليونانية والتي ضمها اليهود الى ممتلكاتهم اعيدت الى وضعها السابق ومنحت حرية داخلية في ظل حكام الولايات . وشكلت عشر من هذه المدن عصبة عرفت بالديكابوليس وقد انضمت اليها مدن اخرى فيما بعد. وجميعها تقع شرقي الاردن باستثناء سكينوبوليس Scythopolis (بيسان) . ومنحت انطاكية وسلوقية وغزة ومستعمرات اخرى الحكم الذاتي ايضاً وجعلت تحت حكام الولايات .

نواب القناصل

اعتبرت ولاية سورية ذات اهمية مركزية هامة في الممتلكات الاسيوية حتى انها وضعت تحت الحكم المباشر لنائب قنصل روماني يتمتع بسلطات تجنيد الجيوش والاستراك في الحرب^٤. وعهد بها الى بعض الموظفين الرومان البارزين جداً . وكان اولهم اولوس غابينيوس Aulus Gabinius (٥٧-٥٥ ق. م.) مبعوث بومبي الكفو الذي زاد في انقاص سلطة المملكة اليهودية بتجريد الكاهن الاعظم هيركانوس الثاني حفيد اريسطوبولس من رتبته الملكية وبغرض خرائب ثقيلة على السكات

(١) انظر : Mommsen, vol. iv, pp. 142-146.

(٢) انظر : Dio (Cassius), *Historia Romana*, Bk. XXXIX, ch. 56.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 4, § 4.

(٤) انظر : Appian, § 51.

وتقسيم الدولة الى خمسة اقاليم صغيرة يحكم كلأ منها مجلس او سنهدرين Sanhedrin. واعاد غابينيوس بناء عدد من المدن اليونانية - السورية التي كان المكابيون قد هدموها مثل السامرة وبيسان ودورا وغزة^١.

حل كراسوس مكان غابينيوس وكان عضواً في حكومة الثلاثة التي ضمت ايضاً بومبي وبوليوس قيصر. وكان كراسوس طماعاً شرهاً فجعل من سورية بعد وصوله مباشرة في ٥٤ ق.م. قاعدة لعملياته الحربية ضد فرتيا التي كانت عاصمتها طسيفون Ctesiphon (المدائن) والتي اعتبر غناها بأنه لا ينفذ. وبعد اخضاع البونت وارمينيا على التوالي والحصول على سورية اتصلت رومة مباشرة بفرتيا. وفي الحملة الثانية التي جردها كراسوس في ربيع عام ٥٣ خانه حليفه العربي ابجر^٢ ملك اديسا وتمزق جيشه في الصحراء السورية على بعد ثلاثين ميلاً من (حران) Carrhae وقتل. وقطع رأسه ويده اليمنى وارسلها ملك الى الفرتيين في سلوقية على الدجلة الذي يقال انه صب ذهباً مصهوراً في حلق الرجل الميت وقال «اشبع نفسك بما كنت تطمع فيه كثيراً في حياتك»^٣.

خلف كراسوس خازنه القدير كاشيوس وهو احد قتلة قيصر فيما بعد. وقد ادرك كاشيوس ان الهزيمة الساحقة جنوبي حران قد عرضت سورية كلها للخطر لذلك اسرع بالاستعداد للهجوم القادم الذي لم يحصل حتى سنة ٥١. وقد تمركز نائب القنصل في انطاكية على رأس فرقتين وكان على استعداد لابتداء مقاومة عنيدة. وشعر الفرتيون بان الحصار سيطول فتراجعوا على طول نهر العاصي وانسحبوا اخيراً من سورية كلها. ومهما يكن فانه كان من اثر هذا الهجوم ان انعش عدداً من الملوك المحليين الذين كان يميل كثير منهم الى الفرتيين. ادت الحرب الاهلية في رومة والحالة المضطربة في الدولة الرومانية كلها الى

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3.

(٢) تذكره المصادر اللاتينية باسم «ابجاروس Abgarus». ويذكره بلوطرخس باسم «اريامنس Ariamnes» في الفصل ٢١ من ترجمة «كراسوس Crassus» في مجموعة التراجم.

(٣) قارن مع: Plutarch, «Crassus», ch. 33; Dio, Bk. XL, ch. 27.

(٤) انظر: Dio, Bk. XL, ch. 29.

اضطراب الحالة من جديد في سورية . وحدث اثناء زحف قيصر ضد ابن مثرادس الكبير الذي استغل الحرب بين بومبي وقيصر فنصب نفسه من جديد على البونت ان توقف في زحفه في سورية (٤٧ ق.م) ومنح الامتيازات لعدد من ملتها . واثناء تقسيم العالم الروماني من قبل «الحكومة الثلاثية» الثانية التي كان اوكتافيان (اوغسطس فيما بعد) عضواً فيها اعطي مارك انطونيوس الشرق بما فيه سورية ومصر . ولم يأت حكمه الذي دام اربع سنوات (٤٠ - ٣٦ ق.م) بالهدوء ولا بالسلم . وعاش حياة ماجنة مع كليوباترة واهمل شؤون الدولة . وقد ادت الغزوة الفرتية الكبرى من ٤٠-٣٨ ق.م الى اخراج الرومان من الولاية كلها باستثناء صوراً . ولم يستتب النظام الا بصعوبة وبعد مدة . وتنادى انطونيوس حتى انه منح جزءاً كبيراً من فينيقية وسورية المجوفة الى عشيقته المصرية وباع ابنه منها ويدعى بطليموس بلقب ملك سورية . وكان يسري في الطفل دم سلوقي بسبب التزاوج بين سلالاتي مصر وسورية . وبعد معركة اكتيوم البحرية المشهورة في ٣١ ق.م . التي قهر اوكتافيان فيها انطونيوس وكليوباترة مرّ اوكتافيان الامبراطور الروماني المقبل بفلسطين وسورية ورحب به اهلهما الذين تاقوا الى حكومة مستقرة . وجعل هذا النصر من اوكتافيان الحاكم الوحيد في العالم الروماني . وبعد اربع سنوات تلقى من مجلس الشيوخ لقب اوغسطس (المعبود، الموقر) وبدأ حكمه كامبراطور . وافتتح فصل جديد في تاريخ العالم .

في ايام هيروودس الملك

عندما عهد الى انطونيوس بشؤون الشرق اهل الاسرة المكابية ووضع مكانها الاسرة الهيرودية . وكان مؤسس هذه الاسرة سياسياً ايدومياً ماهراً وهو يودي بالاسم وقد منح الرعوية الرومانية وعينه يوليوس قيصر نائباً (وكيلاً مالياً عندما زار سورية) . واصبح انتيباتر Antipater السلطة الحقيقية وراء هيروكانوس الضعيف . واتخذ هيروودس ابن انتيباتر زوجة ثانية له وهي حفيدة هيروكانوس الثاني وهكذا وحد

(١) انظر : Bouchier, p. 29.

(٢) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 8, §§ 3, 5.

المائتين^١. وفي عام ٣٧ ق. م. اخذ هيرودس هذا، الذي عرف فيما بعد بالكبير، اورشليم ووطد سلطته كملك وبقي يدير الامور لمدة ثلاث وثلاثين سنة بفضل رومة.

شجع هيرودس المصالح الرومانية على حساب المصالح القومية. وقد نجح حيث اخفق انطيوخس ابيفانس في جعل اليهودية بالقوة شبه مملكة هلنستية. وبدأ في مشروع إنشاء ابنية عامة بدّل وجه البلاد تبديلاً تاماً. وقد بنى في اورشليم ميداناً لسباق الخيل ومسرحاً ومدرباً واقام العباباً عامة وكانت كلها لا تتفق مع اليهودية. وزيادة على ذلك اعاد بناء المعبد. وكانت السامرة مقره المحبب فزينها بالابنية واعاد تسميتها باسم سباسطية ^٢Sebaste تكريماً لاوغسطس قيصر. وقد نقّب العلماء في بقايا ابنيته^٣. وليزيد في سرور الامبراطور سيده اعاد بناء برج ستراتون Turris Stratonis على الساحل وسماه قيصرية، التي قدر لها ان تصبح عاصمة فلسطين الرومانية. وعاش في بلاطه نيقولاوس الدمشقي الذي فاق بوسيدونيوس كفيلسوف ومؤرخ. وقد ألفت نيقولاوس، الذي عرف اوغسطس شخصياً، تاريخاً عاماً ونقل يوسفوس عنه مادة القسم المتعلق بهيرودس^٤.

تزوج هيرودس عشر نساء وذبّح بعضهم مع بعض افراد أسرته وسحق بقسوة المعارضة لحكمه المطلق. وتوفي عام ٤ ق. م. بعد نحو ستين من ميلاد المسيح. الذي اقترح العلماء انه وقع حوالي (٦ - ٢ ق. م.). وقد وهب بملكته في وصيته المدة الى ابنه ارخيلالوس ^٥Archelaus الذي تنافس مع اخيه هيرودس انتيباس على العرش واستلم جزءاً كبيراً من المملكة ولكن اعطي لقب حاكم Ethnarch

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 6, § 4.

(٢) كلمة «سيباستوس» Sebastos اليونانية تعني «اوغسطس» Augustus في اللاتينية.

(٣) اكتشفت خرائب قصره في اورجا في ١٩٥٠-١٩٥١ وهي اعظم خرائب من نوعها في فلسطين.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XV, ch. 9, § 6; Pliny Bk. V, ch. 14; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 27. يمكن ان يكون ستراتون الذي سمي البرج باسمه ملك صيدا حين فتحها الاسكندر.

(٥) نشرت اجزاء من مؤلفات نيقولاوس من قبل: Ludwig Dindorf, *Historici Graeci minores*, vol. i, (Leipzig, 1870), pp. 1-153.

(٦) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 8, § 1.

فقط^١. واصبح هيرودس انتيباس حاكم منطقة الجليل^٢. وهو الذي بنى طبرية وسماها على اسم طيبريوس قيصر^٣. وكان هيرودس انتيباس كأبيه وغيره من افراد سلالة ذا وجهين : فهو يهودي في وطنه وهلنستي خارجه . وحين خلع ارخيلائوس (٦ م) وضعت اليهودية تحت الحكم المباشر للحكام او النواب الرومان الذين كان خامسهم ييلاطس البنطي .

الهلبنية الرومانية

دامت الهلبنية ذات الصبغة الرومانية التي ظهرت في ٦٤ ق. م. حتى سنة ٣٣٣ م. حين نقل قسطنطين الكبير عاصمته من رومة الى بيزنطة مقتطعا بذلك فترة جديدة في تاريخ بلدان المتوسط. ويجب ان نذكر ان الحضارة الرومانية ذاتها كانت وارثة للحضارة اليونانية القديمة ومنفعة بها بالاضافة الى كونها استمرارا لها . وفي الحقيقة فان الرومان بصفتهم من الهنود الاوربيين كانوا الوحيدين من بين شعوب المتوسط الذين برهنوا عن مقدرة في قبول اكثر من المظهر الخارجي لحضارة اقربائهم اليونان^٤. اما بالنسبة لأكثريّة السكان الساميين والحاميين في آسية الغربية وشمال افريقية فقد بقيت تلك الحضارة كأنها مفروضة عليهم من الاجانب .

عندما اتى القرن الاول ق. م. كان قد حصل انسجام بين الحضارتين اللاتينية واليونانية . وتمت تسوية لصالح اللغة اليونانية التي بقيت لغة التعامل في الشرق كما كانت قبلاً ولكن اللاتينية اصبحت اللغة الرسمية في الادارة . وكان اليونان ضعفاء في الجانب السياسي والتنظيمي على عكس الرومان الذين كانوا اقرباء فيه . اما في المجالات الفنية والفلسفية حيث كان اليونان اقرباء فكان الرومان ضعفاء . وهكذا تابعت الهلبنية تقدمها في سورية بعد ان تقوت وزادت غنى في ظل الرومان . وبفضل الحماية الرومانية بقيت في مأمن من الخطر «البربري» . وتابعت الحياة في المدينة اليونانية

(١) منناه «حاكم شب» ؛ انظر : Josephus, Bk. XVII, ch. 11, § 4.

(٢) انظر انجيل لوقا ٣ : ١١ .

(٣) انظر : Josephus, Bk. XVIII, ch. 2, § 3.

(٤) انظر : M. Cary and T. J. Haarhoff, *Life and Thought in the Greek and Roman World* (London, 1940), p. vi.

السورية بأشكالها السياسية المميزة وتعاقب احتفالاتها ولهوها ونشاطها الفكري سيرها كما كانت قبلاً . وكانت تلك السلالات المحلية التي سمح لها الرومان الاقوياء بالبقاء وهي سلالة هيرودس في اليهودية والحارث Aretas في البتراء واذينة Odenathus في تدمر قد اصطبغت جميعها بصبغة يونانية .

لم تتحمل الجماعات المحلية في ظل نظام الولايات الروماني سوى قيود قليلة في ممارسة استقلالها الذاتي . فقد احتفظت بدياناتها ولغتها وعاداتها الخاصة . واخذ الرومان على عاتقهم مسؤولية حمايتها . وكان هذا يتم بواسطة الجيوش الايطالية . وكانت تؤخذ الجزية من السكان الوطنيين بدلاً عن الخدمة العسكرية . وكان الحكم الرومان الذين يمارسون اشرافاً عاماً على الشؤون الداخلية يعيّنون عادة لفترة قصيرة ولا يتقاضون من الدولة راتباً ، هذا اذا استثنينا ما كانوا يستطيعون جبايته بأساليب مريبة وبتلذيم الضرائب .

الفصل الثاني والعشرون

أوائل الامبراطورية الرومانية

حكومة الولايات

عندما أصبحت رومة دولة عالمية انتقل مركز التاريخ السياسي لأول مرة من آسيا الى اوروبا حيث بقي فيها منذ ذلك الحين باستثناء فترة الخلافة . ولم يكن لدى رومة الامبراطورية سوى نموذج واحد تستطيع ان تتبعه في ادارتها للولايات الاسيوية الغربية وهو النموذج السلوقي. ولذلك كان من الطبيعي ان يتبع الاباطرة الرومان نفس المبادئ العامة وان يحتفظوا بنفس نوع الحكم الذي كان سائداً في عهد الملوك الهلنستيين الذين كانوا قبلهم .

وبسبب موقع سورية كولاية على الحدود تتاخم الدولة الفرتية وهي الدولة المنافسة الخطرة الوحيدة لرومة وعدوتها المخيفة فقد جعلت ولاية امبراطورية وكان الامبراطور نفسه نائب قنصل لها . ولهذا عهد بها الى نائب^١ (Legate) له رتبة قنصلية دائماً وتتراوح مدة وظيفته بين ثلاث وخمس سنوات . وكان منصب الحكم فيها الى جانب منصب حكم بلاد الغال اشرف المناصب التي يمكن ان تمنحها الامبراطورية واكثرها قيمة^٢ . وكانت سورية في الشرق كبلاد الغال في الغرب مقراً مركزياً للسلطة العسكرية . وكان يساعد الحاكم هيئة كافية من اهم افرادها الموظفين الذين كانوا يهتمون بجمع واردات الدولة . وكانت الجباية تتم اما مباشرة او بواسطة تلازم الضرائب . وكان يوجد تحت امرة النائب او الحاكم قوة عسكرية كبرى تتألف من اربع فرق وكانت كلها تقريباً في اوائل الامبراطورية من الجيوش

(١) قارن مع انجيل لوتا ٢: ٢ : Victor Chappot, *La Frontière de l'Euphrate* (Paris, 1908) pp. 20 seq.

(٢) راجع بشأن لائحة الحكم : Gustave A. Harter, *Studies in the History of the Roman Province of Syria* (Princeton, 1915), pp. 11-65.

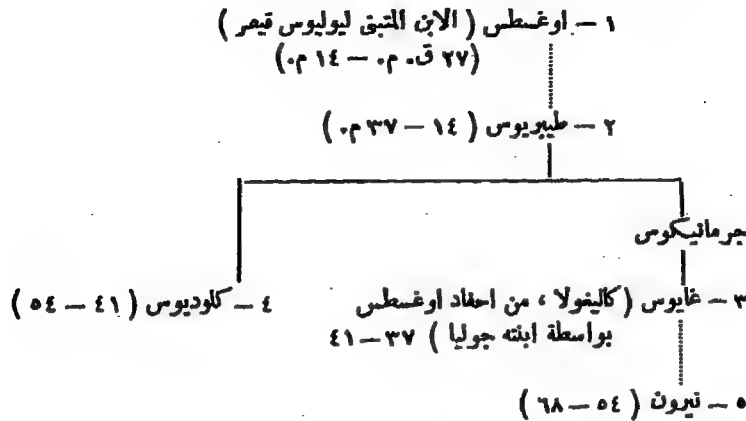
الايطالية. وكان حاكم سورية مسؤولاً عن سلامة الممتلكات الرومانية في آسية الغربية كلها. ومن اقدم الولاة كيرينيوس Quirinius الذي عينه اوغسطس وقام باحصاء لليهود. وكان ييلاطس البنطي في الحقيقة موظفاً مالياً في اليهودية بين (٢٤-٣٧م) ولكن طيبريوس^٢ كلفه بإدارة جميع شؤونها تحت اشراف حكام سورية وقد طرده اعدام ويسمى فيتيلبيوس Vitellius لسوء معاملته للسامريين^٣.

الحكومة المحلية

عاشت الجماعات المحلية تحت حكومات مختلفة فاحتفظت المستعمرات المكدونية اليونانية بحكامها الذين كان يتبعهم مجلس للشيوخ ومجلس شعبي. وبقيت دولة المدينة اليونانية القديمة غودج التنظيم الاداري. وكذلك احتفظت دول المدن الفينيقية بحكوماتها التقليدية التي تسودها اقلية غنية وقد اصطبغت الان بالصيغة

(١) يذكر في لوقا ٢: ٢ باسم كيرينوس. ولعلم من Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 1, §1; Bk. XVII, ch. 5, §2. اما الرجل الذي ولد المسيح اثناء حكمه فهو كوينتيليوس فاروس Quintilius Varus الذي عين في ٦ ق.م. وكان سلفه هو سنتيوس ساتورنيوس Sentius Saturninus (٩-٦ ق.م.). راجع Tacitus, *Annales*, Bk. III, ch. 22; Suetonius, *Vitae Duodecim Caesarum*, Bk. III, ch. 49.

(٢) نسب السلالة اليوليانية - الكلودية :



ملاحظة : يشير الخط المنقط الى علاقة تبني.

(٢) انظر لوقا ١: ٣؛ Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 4, §§. 1, 2; ch. 6, § 5; Tacitus, *War*, Bk. II, ch. 9, § 2; Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

اليونانية . اما الجماعات الآرامية في الداخل فاستمرت تسيطر على شؤونها الداخلية كالسابق . وعاش العرب في ظل غير نظام واحد . ففي حمص Emesa كان الحكم بيد الملوك الكهنة وفي عنجر Chalcis الى الجنوب في سورية المجوفة كان يحكم ايضاً حاكم وطني . واستمرت هاتان الامرتان من الامراء في الحكم حتى اواخر القرن الاول الميلادي . وعلى حدود الصحراء حيث كان طراز المعيشة البدوي او شبه البدوي لا يزال سائداً كانت القبيلة هي الوحدة الاجتماعية واتباع النظام القبلي في الادارة . وفي اليهودية حيث لم يعد الكاهن الاعظم ملكاً اصبح رئيس طائفة وكانت الارستقراطية اليهودية هي التي تعينه . وظهرت رومة طيلة حكمها شيئاً كثيراً من التسامح تجاه مثل هذا التنوع .

كان وراء هذا التنوع في التنظيم والسيطرة شيء من التشابه العرقي والحضاري يفوق كل ما كان في السابق . فجميع السوريين قد اصبحوا الآن ساميين تماماً يتكلمون لغة واحدة هي الآرامية ويكتب مثقفوهم بلغة واحدة هي اليونانية . فالفينيقيون الذين تأثروا بالهلينية اكثر من جيرانهم وانسابهم الاراميين في الداخل فقدوا سيطرتهم في القرن الاول الميلادي على لغتهم الاحلية التي بقيت شائعة حتى زمن متأخر في مستعمراتهم في افريقيا . اما اليهود الذين لم تقتصر اقامتهم في هذه الفترة على اليهودية بل كانت لهم جاليات في جميع المدن السورية الكبرى فقد احتفظوا بالعبرية كلغة مقدسة . ومن بين العرب كان الايتوريون الاقرباء في شمالي فلسطين والايدوميون الذين تهودوا اسماً واستقروا في الجزء الجنوبي الغربي من فلسطين يتجهون نحو تبني الآرامية . اما العرب الذين ظلوا بداءة فانهم تمسكوا دون شك بلغتهم العربية . واستمر الانباط في الجنوب الذين كانت لهم من بين جميع العرب اوثق الصلات مع الرومان في استعمال العربية في كلامهم ولكنهم استخدموا الآرامية في كتاباتهم الآثرية . وعلى وجه العموم فان هذه الصورة كانت تظهر تبايناً كبيراً بالنسبة للفوضى العرقية والحضارية اثناء عصر المهانة مثلاً .

وانتشر العنصر المكثوني اليوناني في جميع المدن السورية وكان اكثف ما يكون في المستعمرات السلوقية مثل انطاكية وسلوقية وأفامية ولاودية وفي

مراكز التجارة كالمدين الفينيقية والفلسطينية الساحلية ودمشق وتدمر في الداخل . وكان هؤلاء المقيمون ينحدرون من المحاربين القدماء والتجار والصناع والمغامرين من المكدونيين واليونان الذين اتوا ليعيشوا في الشرق لاسباب سياسية او غيرها . ولم يؤسس الرومان سوى مستعمرات قليلة . فكانت لهم جالية من المحاربين القدماء في بيروت في عهد اوغسطس واخرى في بعلبك واصبحت كلتاهما مركزين نشيطين للحضارة الرومانية^١ . وكان عدد الذين يتكلمون اليونانية بين هذه الجاليات اكبر من عدد الذين يتكلمون اللاتينية ، وكان كثيرون من هؤلاء يعرفون اليونانية من قبل ويمكنهم الاتصال بالسكان الوطنيين وبالجاليات الاخرى بواسطة هذه اللغة . وفوق ذلك فان الرومان كانوا بعكس اليونان مترفعين ولم يهتموا بحضارة السكان الذين يحكمونهم . وكان هدف الرومان الرئيسي في سورية ان يمحلوها قاعدة ضد العدو وان يستثمروا مواردها . ولم يظهر السوريون سوى اهتمام قليل في الحملات الرومانية العسكرية الا حين كانت سلامتهم تهدد .

فضل الرومان

لم يكن عمل الادارة الرومانية في ولاية كسورية ذات حضارة راقية كالحضارة الرومانية ، وان اختلفت عنها في صفاتها ، ناجحاً او مزدهراً النجاح والازدهار اللذين بلغهما في الولايات الاخرى شبه المتحضرة مثل اسبانيا او بلاد الغال . فالجاليات اليونانية والمدن الفينيقية واليهودية في سورية لما لها من حياة اجتماعية وفكرية واقتصادية راقية ولما فيها من مدارس في الفن والفلسفة والادب — لم تجد ما تستعيره من رومة الا القليل . وقد بقي الادب اللاتيني بالنسبة لها كتاباً مغلقاً^٢ . ولكن الامر يختلف بالنسبة للعرب والعرب الآراميين اذ اقيمت بينهم في شرقي لبنان الشرقي وفي القسم المأهول من شرقي الاردن مستعمرات رومانية بدأت كل واحدة منها بنواة من المقيمين الايطاليين ثم تجمع حولهم آخرون واصبحوا جماعات خاصة . وامكن القيام بذلك بعد ان ضم تراجان سنة ١٠٦ م . شرقي الاردن وسوران التي كانت قبلاً تحت حكم الانباط ثم جعلها اوغسطس تحت حكم هيرودس .

(١) انظر ما سنذكره في الفصل ٢٣ .

(٢) انظر : Bouchier, p. 5 .

وفي سنة ١٠٥ خضع تراجان البتراء فالحقت البتراء العربية Arabia Petraea بالامبراطورية الرومانية تحت اسم الولاية العربية Provincia Arabia. ولما كانت سورية مركز القوة الرومانية في الشرق الادنى فان الادارة الرومانية انشأت سلسلة من المراكز على طول حدود الصحراء لحماية الاماكن التي كانت راقية الحضارة وكثيرة السكان بصورة خاصة. وكان جنود هذه الحصون على الغالب من قوات مساعدة اتت من القبائل الموالية. وكان الطريق العرضي بين الشرق والغرب الذي يصل مدن الدجلة والفرات بمدن البحر المتوسط ماراً بتدسر يجتاز هذه المنطقة. وكان يعبرها طريق طولاني كبير دعاه الرومان طريق ماريس Via Maris وورد في التوراة باسم طريق الملك King's Highway^١. ويبدأ هذا الطريق من دمشق فيسمر في خوران الى جلعاد ومنها الى مؤاب ثم الى الجنوب ليتصل بطريق قوافل الجزيرة العربية. وهذا الطريق الرئيسي في شرقي الاردن الذي يعود الى آواخر الالف الثاني ق. م. قد رصفه تراجان واستخدم كطريق عسكرية لفرق الجيش ثم استعمله الحجاج المسلمون بعد ذلك^٢. وقد شجعت التسهيلات الجديدة ميلاً نحو حياة الاستقرار لدى الجماعات البدوية او نصف المتحضرة. وكانت التحضر نقطة اساسية في السياسة الرومانية. ويمكن القول باليجاز ان الخدمة الرئيسية التي اتيها الادارة الرومانية للولاية السورية هي انفاذها من الاضطرابات الاهلية وحمايتها ضد الاعداء الخارجيين. كذلك فتحت امامها بهذه المناسبة سوقاً عالمية.

سورية في ذروتها

ان استعادة سورية لقوتها في القرن الاول من الحكم الامبراطوري (حوالي ٣٠ ق. م - ٧٠ م) بعد الانحطاط الذي هوت اليه نتيجة للحروب الخارجية والاهلية كان سريعاً ومؤكداً. ووجدت الولاية نفسها جزءاً أساسياً من امبراطورية

(١) انظر سفر التكوين ١٤:١٠-١٥؛ عدد ٢٠:١٧؛ ٢١:٢٢. راجع للاستزادة عن الطرق الرومانية: Peter Thomsen, «Die romischen Meilensteine der Provinzen Syria, Arabia und Palestina», *Zeitschrift des deutschen Palästina-Vereins*, vol. xl, (1917), pp. 1 seq.; Christina P. Grant, *The Syrian Desert* (London, 1937), pp. 62-65.

(٢) اصبح الطريق منذ ان اصلحته حكومة الاردن في السنوات الحديثة يدعى طريق الملك عبد الله.

كانت تمتد من الاطلسي وبحر الشمال الى القرات ومن الرين والدانوب الى الصحراء الكبرى وساد النظام والسلم الروماني في ظل الجيوش الامبراطورية. وتوطد الامن من خطر اللصوصية والقرصنة كما صلت الهجمات القرنية والعربية. وشددت الحراسة على الممرات الاستراتيجية مثل ممر كيليكية. وربطت شبكة من الطرق التي تعتبر من المظاهر البارزة للمهارة الادارية والمهندسية بين اجزاء الامبراطورية كلها في وحدة متراسة نسبياً. ولا تزال توجد حتى اليوم احجار المسافات التي كانت تقوم على الطرق السورية. وكان الرومان يهتمون بالمحافظة على هذه الطرق وعلى تصريف المياه من حولها. واسس اوغسطس مصلحة للبريد جعلت صلة الادارة المركزية بمثلها في الولايات اكثر ارتباطاً. ونشطت التجارة وعاد الازدهار. وارتاحت الدولة الرومانية كلها بعد سنة ٧٠ م. لفترة طويلة من الاضطرابات الاهلية الخطرة. ومن حسن حظها انها تمتعت بين ٩٦ م. - ١٨٠ بسلسلة من الابطرة الاكفاء الذين بدأوا بنفا Nerva وانتهوا بماركوس اوريليوس ويوصف عصرهم بأنه «عصر الابطرة الصالحين»^١. ولم تحكم دولة كبرى كما حكمت الدولة الرومانية في القرن

(١) جدول الابطرة الخمسة الصالحين :

١٢ - نرفا (٩٦ - ٩٨)
⋮
١٣ - تراجان (٩٨ - ١١٧)
⋮
١٤ - هادريان (١١٧ - ١٣٨)
⋮
١٥ - انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١)
⋮
١٦ - ماركوس اوريليوس (١٦١ - ١٨٠)

ملاحظة : تشير النقاط الى علاقة تبني.

جدول لأسرة الانطونيين :

١٥ - انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١)
⋮
١٦ - ماركوس اوريليوس (١٦١ - ١٨٠)
⋮
١٧ - لوشيوس فيروس (١٦١ - ١٨٠)
⋮
١٨ - كومودس (١٨٠ - ١٩٢)

الثاني الميلادي^١. ووصلت الامبراطورية الى ذروتها في عهد هادريان (١١٧-١٣٨) وكان والياً سابقاً في سورية. وكانت سورية الرومانية قد حصلت في عهد سلفه تراجان (٩٨-١١٧) على اوسع امتداد لها واكبر ازدهار^٢.

وفي ذلك القرن توحد العالم المتمدن كله تقريباً (وامتد من الاطلسي الى اواسط آسيا تحت حكم واحد. ولم تقم قبلاً مثل هذه الامبراطورية. وفي تلك المملكة الواسعة ارتفعت شعلة الحضارة عالياً وازدادت باسراع اكثر بما عرف في اي عصر مضى في التاريخ. وفي قلب تلك المملكة تماماً كان يقوم البحر المتوسط كمركز للاسراع والاحياء. وسورية تقع على شاطئه الشرقي. وبلغ من التسهيلات وانتشار الامن انه كان باستطاعة الانسان ان يسافر بامان من يورك في انكلترا الى ضفاف الفرات في اي وقت تقريباً. وكان بإمكان المسافر ان يستعين بلغة واحدة وهي شكل معين من اللغة اليونانية للانتقال من شرقي اسبانيا الى وادي السند.

وزاد في وضع سورية كأول ولاية في الامبراطورية نجاح الفرق الرومانية المرابطة فيها في رفع قائدها فسباسيان Vespasian الى العرش الامبراطوري في عام ٦٩ م. والفوز على منافسه الذي اختارته الفرق المرابطة في المانيا. وبعد اكثر من قرن من ذلك (١٧٥) حين تلقت الفرق في سورية اشاعة كاذبة بان ماركوس اوريليوس قد توفي سارعت الى اعلان قائدها افنديوس كاشيوس^٣ امبراطوراً وهو من مواطني كورس^٤ في شمالي سورية وحاكم المقاطعات الشرقية.

قوة الانتاج الاقتصادي

ان الشعور بالامن وتوسع شبكة الطرق وظهور تجارة عالمية جديدة كل هذه عملت على تشجيع الانتاج الاقتصادي الى حد لم يعرف قبلاً. وانعكس الازدهار في ارتفاع مستوى المعيشة وظهور المدن الجديدة. ولا بد ان سكنت

(١) انظر : Cary and Haerhoff, p. 82.

(٢) انظر : Bouchier, p. 40.

(٣) انظر : Harrer, pp. 35-36.

(٤) تقع على منحدرات جبل طوروس شمالي شرقي انطاكية ؛ راجع ما سيأتي في الفصل ٣٩.

سورية الكبرى المتزايدين قد بلغوا في القرن الثاني سبعة ملايين^١ وهو رقم لم يتوصل اليه في اي عهد. ولا يحتمل ان يكون عدد السكان السوريين قد تجاوز هذا الرقم في اي زمن. وفي سورية المجوفة كان سبب الحصب العظيم يعود جزئياً لعامل آخر وهو تنظيم المياه التي يأتي بها العاصي تنظيمياً فعالاً. وشملت الاختراعات الآلية في العصر الروماني المحراث المتطور وما يعرف باللوب الارخيدي وطاحونة الماء. كما طرأ تحسن ايضاً على التواوير ولا بد ان ذلك الوادي كله، وقسم منه الآن شبه صحراوي، كان مركز زراعة ناشطة^٢. وتوجد بقايا معاصر الزيت شرقي حمص حيث لا توجد اية اشجار اليوم. وأفاميا التي بلغ عدد سكانها الاحرار بموجب احصاء كيرينوس في عهد اوغسطس ١٠٧,٠٠٠ نسمة^٣ هي اليوم ارض مقفرة. وشرقي الاردن نفسها التي اغلبها صحراء اليوم كانت بالنسبة ليو سيفوس^٤ ارضاً تكثر فيها المحاصيل والسهول التي تنتج مختلف انواع الثمار كالبصل والعنب والزيتون. وان خصب التتمة الشمالية لشرقي الاردن وهي حوران (Auranitis Trachonitis) كان يضرب به المثل. وقد تحولت هذه المنطقة في ظل الرومان من بلاد رعاة ونصف متحضرين الى بلاد مدن وقرى. وكانت المنطقة كلها تعتمد على استعمال الصهاريج التي تجمع فيها مياه الامطار غير المنتظمة والجزيرة احياناً. ولما كانت حوران تقع على طرف الصحراء هي وعاصمتها بصرى^٥ Bostra فانها كانت اول منطقة سكنها وزرعها رجال القبائل من الصحراء. وقد وسعت المدينة في عهد تراجان وحصنت واطلق عليها اسم نونا تراجانا بصرى Nova Trajana Bostra وكانت ملتقى هاماً لطرق القوافل الذاهبسة الى دمشق والبحر المتوسط والبحر الاحمر والخليج الفارسي. واصبحت بعد ديوكلتيان Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥)

(١) قارن مع Heichelheim, pp. 158-159; Henry Lammens, *La Syrie, précis historique*, (Beirut, 1921), vol. i, p. 11; Beloch, pp. 245 seq.

(٢) انظر: Theodor Mommsen, *The Provinces of the Roman Empire*, tr. William P. Dickson (London, 1909), vol. ii, p. 136.

(٣) انظر: *Ephemeris epigraphica*, vol. iv (Berlin, 1881), p. 538.

(٤) War, Bk. III, ch. 3, § 3.

(٥) ترد في سفر المكابيين الاول ٥ : ٢٦ ، ٢٨ باسم Bosora ويعرفها الاتراك باسم اسكي شام (الشام القديمة) وهي بصرى اليوم.

عاصمة ولاية بلاد العرب . ودرجة الازدهار التي بلغتها هذه المنطقة في عهد الرومان لم تبلغها حتى في عهد الامويين الذين كانت عاصمتهم دمشق^١ .

الزراعة

تعطينا بعض العبارات المتفرقة في كتابات سترابو (توفي حوالي ٢٤ م.) وبليني (توفي عام ٧٩) واثيناوس (زها في ٢٢٨) وغيرهم من الكتاب اللاتين فكرة عن الازدهار العام في زراعة سورية . وتظهر قمم جبال لبنان الشاهقة المتوجة بالغابات بنفس المظهر السابق . وكثير من الكتاب يميلون هذا الجبل من المناطق المشهورة بالاخشاب . ويمكن الافتراض بان نظام حماية الاشجار البرية والقطع المنتظم كان يطبق على شجر الارز على الاقل . ويعد بليني^٢ بين اشجار سورية شجرة النخيل والفسق والتين والارز والعرعر والبطم والساق . وادخل في القرن الاول الميلادي عدد من الاشجار السورية الى ايطاليا . ويعتبر فيتليوس Vitellius الحاكم في عهد طيبريوس صاحب الفضل في ادخال انواع متعددة من شجر التين والفسق الى مفره الريني في ألبا لونغا^٣ Alba Longa . واثناء زيارة نيقولاوس الدمشقي لرومة بصحبة هيرودس الكبير قدم لاوغسطس هدية من احسن ثمار النخيل وهو ما عرف بالبلع النيقولاوي بالنسبة له وكان حلواً كالعسل وكان حجمه كبيراً حتى انه « اذا وضعنا اربعة منه جنباً الى جنب يبلغ طولها ذراعاً » . وكانت تستخدم في زراعة الكرمة وغيرها من النباتات المثمرة الآلات المائية والمعاصر وطرق التسديد الراقية^٤ . وادخل شجر الخوخ الدمشقي الى ايطاليا قبل عهد بليني بزمان طويل . اما شجرة العناب فادخلت قبل عهده بقليل^٥ . ويشير بليني^٦ الى الاشجار التي تحمل ثمار

(١) قارن مع ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٢) انظر : Pliny, Bk. XIII, chs. 10-13.

(٣) انظر : Pliny, Bk. XV, chs. 21, 24; Athenaeus, Bk. XI, § 500.

(٤) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 9; Athenaeus, Bk. XIV, ch. 22.

(٥) قارن مع انجيل من ٢١ : ٢٣ .

(٦) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 10; Bk. XV, chs. 12-14.

(٧) انظر : Pliny, Bk. XV, ch. 8; XXIII, ch. 50.

الزيت وتنمو غزواً عفوية في الاقسام الساحلية من سورية وغرها حلو الطعم ويستخدم في الاغراض الطبية وهي كما يبدو شجرة الترنبتين .

شكّلت الحبوب غذاء السكان الرئيسي . وزيادة على الحبوب التي تعتبر من لوازم المعيشة كان الارز الذي يتطلب رياً اصطناعياً يزرع بشكل منقطع على طول الساحل^١. وكانت الخضراوات ذات الاوراق من اكثر الاطعمة شيوعاً بالإضافة الى الحبوب . ولم يكن هناك طلب نظامي للحوم الا بين الاغنياء. ونذكر من بين الخضار التي كانت تزرع بصورة واسعة العدس واللوبيا والفاصوليا والحمص والحمص الجبلي والتمرس . وكان التمرس يستعمل بكثرة للمواشي . وكان الفقراء يستسيغون بصورة خاصة النباتات البصلية كالبصل والكراث والثوم. ومن التوابل التي ازدهرت في سورية الكزبرة والخردل واليانسون والكمون والزنجبيل والتنع^٢. وتذكر المصادر فطر اورشليم وثوم هليوبولس وبصل عسقلان^٣. وكانت عسقلان تنتج الحناء ايضاً التي كانت لها قيمة كبيرة . وكان ملفوف سورية مرغوباً . وحين يعدد بليني^٤ انواع الفجل وهو نبات خاص بسورية يعتبر الفجل السوري الذي كان قد ادخل حديثاً الى ايطاليا احسنها . وفي رأي هذا المرجع الروماني حول التاريخ الطبيعي كانت زنابق انطاكية ولاوديسة اكثرها قيمة^٥. وقد زرع نبات البايروس واستخدم كمادة للكتابة . واستمرت زراعة الكتان والقنب والقطن في آسية الغربية كلها . ولا يزال عرق السوس ينمو كنبات بري قرب المستنقعات وعلى ضفاف الانهار حول انطاكية .

البسنة

كانت البسنة السورية مظهراً جميلاً في الحضارة الرومانية القديمة . وتعود الى

(١) انظر : Strabo, Bk. XV, ch. 1, § 18.

(٢) انظر سفر الخروج ٣١:١٦؛ سفر العدد ٧:١١؛ انجيل متى ١٣: ٣١؛ انجيل مرقس ٤: ٣١؛ انجيل متى ٢٣: ٢٣ وسفر اشعيا ٢٨: ٢٥، ٢٧ .

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 29; Pliny Bk. XIX, ch. 32.

(٤) انظر : Pliny, Bk. XIX, ch. 26.

(٥) انظر : Pliny, Bk. XXI, ch. 11.

اصول سامية قديمة تطورت عن زراعة الاثمار والازهار والاعشاب الواسعة التي كانت تعتمد فقط على الري الصيفي . ولم يكن الفردوس السامي سوى حديقة غرسها السيد الاله شرقاً في عدن^١. وكان هذا الفردوس يتبع نموذج البساتين الارضية في البلاد المروية بصورة اصطناعية بين فلسطين وفارس . وقد شجّع فن البستنة السامي في زمن الحكم الفارسي وازداد اتقاناً في عهد الرومان . وكانت يطبق ليس على مقياس خاص فحسب بل على مقياس عام ايضاً كما نرى في الغابات المقدسة والاراضي التابعة للمعابد . وكانت دفنة التي كرس معبدها وغابتها للاله ابولون احدى المناطق المشهورة بمجملها في العالم الروماني . فاجتذبت الحجاج والزوار من بلاد الامبراطورية^٢. واصبحت الحدائق التي يعتزل الانسان فيها للراحة والتي رافقت حضارة المتوسط وظهرت في انطاكية ودمشق واورشليم نموذجاً اولياً لحدائق المتعة التي اوجدت في رومة ومن بعدها في غرناطة^٣. ولا يزال الماء يستعمل حتى اليوم كعنصر فني في النوافير التي تنشر المياه بما يشبه السبرقع في باحات الدور في دمشق .

الصناعة

يبدو ان صناعة الاصبغة في مناطق صناعة النسيج في صيدا وصور قد استمرت في عهد الرومان . وكان الارجوان الفينقي عظيم القدر في كل مكان . وبلغ في عهد سترابو^٤ من كثرة عدد معامل الاصبغة في صور ان اصبحت المدينة « غير مرغوبة كمكان للسكنى » . ويذكر بليني^٥ ان اوراق الساق كانت تستعمل في دباغة الجلود ولا تزال تستعمل حتى اليوم . وكانت سورية ومصر المصادر الرئيسية للبضائع الكتانية لكل الامبراطورية كما كانت من احسن مصادر الجلد . وكانت الصناعة

(١) سفر التكوين ٨:٢ وراجع بشأن اشتقاق كلمة «الفردوس» ما سبق في ص ٢٤٩ .

(٢) انظر ما سيأت في الفصل ٢٣ .

(٣) انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 528-529.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 23.

(٥) انظر : Pliny, Bk. XIII, ch. 13.

(٦) يشير كتاب الهد الجديد الى دباغ في يافا - اجماله الرسل ٤٣:٩ ؛ ٦١:١٠ .

بمعناها الحرفي «صناعة يدوية». ولما كانت تنقصها التجارب والآلات فقد بقيت جامدة. واستخدمت عدة نباتات سورية لانتاج الادوية والروائح العطرية للسوق المحلية والخارجية. وراجت الحُجُور السورية عن جدارة في العالم القديم كله^١. وكانت انطاكية وجبيل^٢ وطرابلس وبيروت وصور ولبنان وحوران وعسقلان وغزة تنتج الحُجُور. ويقال ان خمر أقمية كان يصلح للزج مع العسل^٣. ووردت اشارة الى خمر الجليل في العهد الجديد^٤.

يأتي الاسفلت او الزفت في المرتبة الاولى بين الموارد المعدنية وكانا يوجدان بكميات كبيرة في منطقة البحر الميت (Lake Asphaltites) وبمقدار اقل في جوار صيدا^٥. وكانت كبريتات الزئبق والزرنيخ السورية تستخدم في الدهان ولكبريتات الزرنيخ لون ذهبي^٦. ومن جملة نواحي استخدام النساء للكوربا صنع اطارات المغازل^٧. وكان الالباستر في دمشق اكثر بياضاً من سائر الانواع^٨. ويبدو ان الجص كان يحضر في سورية بنفس الطريقة التي يحضر بها اليوم الجبس الجاف^٩. ووجدت مقالع للاحجار بالقرب من انطاكية^{١٠} التي كان فيها ايضاً مقالع حجرية كما في هليوبولس. وكان يستخرج النحاس في جبل لبنان وجنوبي فلسطين بجوار اريحا وفي بيروت ومنابع نهر الاردن. وكانت اكثر مناجم الشرق الادنى تسيطر عليها الحكومة ويستخدم فيها العبيد. وكانت تصنع التماثيل ايضاً. وعندما امر

(١) انظر: Strabo, Bk. XV, ch. 3, § 22.

(٢) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 29, § a.

(٣) انظر: Pliny, Bk. XIV, ch. 9.

(٤) انجيل يوحنا ٣: ٢؛ قارن مع: Josephus, War, Bk. III, ch. 10, § 8.

(٥) انظر: Pliny, Bk. XXV, ch. 51; Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 42. حيث يسمى البحر الميت خطأ «بحيرة سربونيس» Sirbonis.

(٦) انظر: Pliny, Bk. XXX, ch. 22.

(٧) انظر: Pliny, Bk. XXXVII, ch. 2.

(٨) انظر: Pliny, Bk. XXXVI, ch. 12.

(٩) انظر: Pliny, Bk. XXXVI, ch. 59.

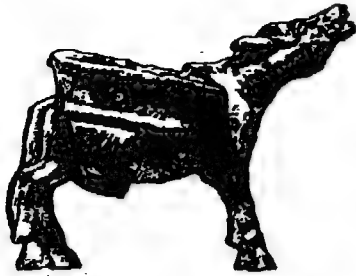
(١٠) انظر: Libanius, Orationes, No. 11, § 25.

الامبراطور كاليغولا (٣٧-٤١) بصنع تمثال ضخيم له ليقام في معبد اورشليم طلب نائبه في سورية الى صانع من صيدا القيام بذلك^١. وشكل اصحاب مختلف المهن كالتجار واصحاب السفن والباعة والصناع جمعيات للحماية المشتركة وتبادل المنفعة. وكان في تدمر نقابة لصائغي الذهب والفضة كما كان يوجد في جرش نقابة لصانعي الفخار. ولا بد ان معامل الاسلحة الامبراطورية التي انشأها الامبراطور ديوكليتيان (توفي عام ٣١٣) في انطاكية ودمشق واديساهي امتداد لشركات اقدم^٢.

التجارة

كانت التجارة وخاصة بظهورها الخارجي والداخلي المورد الرئيسي للثروة. واغنى مدن الشرق الادنى الروماني كانت المدن التجارية كالبتراء وتدمر وجرش ومدن الساحل الفينيقي. وكان الصناعيون والملاكون يأتون في المرتبة الثانية في الغنى بعد التجار.

كان التجار على وجه العموم من اهل البلاد. ويظهر التاجر الروماني (Negotiator, mercator) وهو ظاهرة جديدة في تاريخ الشرق على اثر ضم بومبي



تمثال بروتري صغير لحمار وخروجه
ويبدو الحمار برأسه المرفوع ووجليه
التصليبتين وهو يتنق

لسورية. وهذا التاجر كان ايطاليا او ايطالياً يونانياً ويستقر اول الامر في انطاكية. وفي عصر اوغسطس يصل البتراء. ومع ذلك فإنه يتراجع خلال القرن الاول الميلادي امام منافسه السوري المعروف بمهارته وخبرته وامام اغراء الاسواق الجديدة في الغرب حتى يختفي فعلاً من السوق^٣. وبقيت التجارة فردية كالصناعية. وكانت الشركات

(١) انظر : Philo (Judaens), Opera, ed. Leopold Cohn and Paul Wendland (Berlin, 1915), vol. vi, ch. 31, §§ 220-222.

(٢) انظر : Malalas, p. 307, ll. 20 seq.

(٣) انظر : M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Roman Empire (Oxford, 1926), pp. 158-159.

او عمليات المشاركة نادرة. واستمرت تجارة العبيد في الازدهار. وكان المدينون المفلسون يسلمون انفسهم لدائنيهم. وكان تجار العبيد المحترفون يقبضون على اليافين الطائشين ويختطفون الاطفال ويشترون الاطفال غير المرغوب فيهم.

بلغت المبادلات التجارية السورية ذروتها في ايام الحكم الروماني الذهبية حين كانت مدن القوافل كالبتراء وجرش وبصرى وتدمر ودورا اوروبس مراكز تجارية مزدهرة. ثم نشطت الطرق البحرية حين اعاد تراجان تجديد القناة التي تصل النيل بالطرف الشمالي الغربي الاقصى للبحر الاحمر والتي كان القراعنة القدماء اول من بدأ بحفرها. وصدرت المدن الفينيقية البلح^١ واحسن طحين من القمح^٢. وكان اللبان المصدر من سورية^٣ يعود اصله بالحقيقة الى جنوبي الجزيرة العربية. وصدرت محاصيل نباتات غربي آسيا المستخدمة في الطب والعطور الى العالم الروماني كله. وتمتعت العطور والعقاقير المنتجة في تلك المنطقة بشهرة عالمية. وغالباً ما تشير المصادر اللاتينية الى شجيرة الميعة والسلفيوم *silphium* والمجيداريس *magidaris* والناردين الآتية من سورية. وكانت الخمر والزيت المختلفة والثمار المجففة والدهون تصدر بالكميات. وقد وجدت في مصر وقبرص وايطاليا وجنوبي روسيا آنية تحمل توقيع شخص باسم انيون *Ennion* من صيدا وهو من اشهر صناع الزجاج السوريين في القرن الاول الميلادي^٤. ولا بد انه كان لمعاملة مكتب في رومة. وكان لصانع زجاج آخر من صيدا مكتب فرعي في بلد بعيدة مثل كولونيا. وكذلك عاش احسن عمال البرونز في منتصف القرن الاول الميلادي في صيدا. وقد وجدت في امكنة متعددة خارج سورية بقايا منتجات

(١) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 28, § a.

(٢) انظر: Athenaeus, Bk. I, ch. 27, § f.

(٣) انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 47-48.

(٤) انظر: Heichelheim, p. 189; Rostovtzeff, p. 540, n. 43.

الحائكين السوريين كالاقمشة الكتانية والصوفية الرخيصة والحرائر ذات اللون الارجواني .

اشتملت واردات سورية على الخزف من اليونان وايطاليا والسمك المجفف من مصر واسبانيا وورق البردي من مصر والمر والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والتوابل والجواهر من الهند والحرير من الصين . وكانت عكا مركزاً هاماً لتجارة السمك . وكانت الحيوانات البحرية تشكل جزءاً كبيراً من الغذاء الشعبي لسكان السواحل . واستعمل ورق البردي في صناعة جبال السفن كما استعمل لاجل الكتابة .

الفصل الثالث والعشرون

حياة المدينة والريف

القرى

لم يختلف المظهر العام لحياة الريف في سورية الرومانية بصورة جذرية عن النموذج القديم . وكانت البلاد مرصعة بالآف القرى التي يسكنها على الغالب الفلاحون الذين يعيشون على انتاج الكروم او المزارع . ولا توجد آثار لعبودية الارض في هذه القرى وليس هناك وثائق تفيد عن وجود عبيد تابعين للدولة للقيام بالاعمال الوضيعة . ويرجح ان اعمال الشرطة في القرى كانت تقع على عاتق المدينة التي توجد القرية في منطقتها . وليس هناك ما يدل بوضوح عن قيام القرية بانفاق المال لاجل التربية والصحة العامة او اعمال الخير^١ . ولا بد ان بعض الاراضي المحيطة بالقرية كانت مشاعاً وتؤلف مصدر ايراد للقرية . وكان الافراد احياناً يملكون القرى .

كان نموذج الرجل العادي هو الفلاح او زميله القروي الذي يعمل كنجار او حداد او صانع احذية او بائع . وكان تأثر هذه القرى بالحضارة الرومانية ضئيلاً كتأثرها بالحضارة الملمينية . وقد تمسك القرويون وخاصة اولئك الذين يعيشون بعيداً عن مراكز المدن بطرق حياتهم التقليدية بصورة شديدة . واث الكتابات ومحتويات النقوش الاثرية التي تعود الى القرون الميلادية الثلاثة الاولى وقد وجدت في الصفا وهي منطقة بركانية تبعد حوالي مائة ميل جنوبي شرقي دمشق لتظهر دوام الشعائر والعادات القديمة^٢ .

(١) انظر : George M. Harper, Jr., *Village Administration in the Roman Province of Syria* (Princeton, 1928), p. 57.

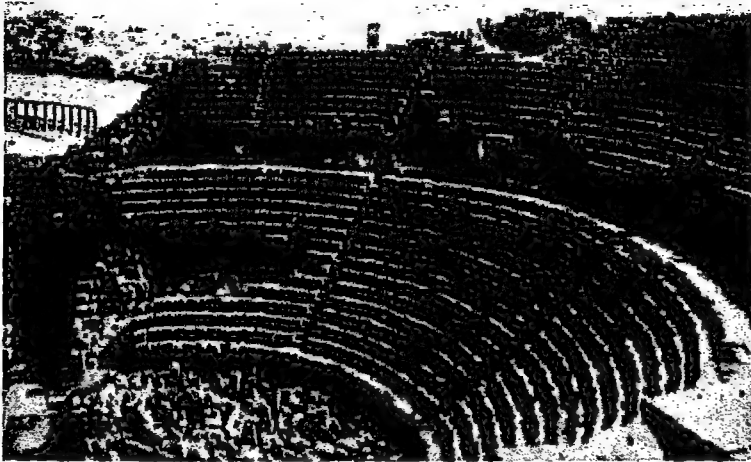
(٢) انظر : René Dussaud and Frédéric Macler, *Mission dans les régions désertiques de la Syrie Moyenne* (Paris, 1903), pp. 54 seq.

الاجنياء

وتأتي الطبقة الارستقراطية الوطنية فوق طبقة الفلاحين وتتألف من كبار الملاكين واصحاب قطعان الاغنام والماعز الساكنين في المدن المجاورة . وكانت افراد هذه الطبقة زعماء ايضاً في القضايا الدينية . وكانت مدن القوافل والمدن الساحلية والمستعمرات اليونانية الرومانية تؤوي التجار الاجنياء والصناعيين وموظفي الحكومة . واوجد الرق في المدن طبقة الذين يعتبرون انفسهم ارفع من ان يعملوا . واستخدم بعض السادة اوقات فراغهم بصورة حسنة في خدمة المدينة او الدولة وآخرون في خدمة الادب والفن . ولكن اكثرهم شكلوا طبقة مترفة تنهمك في الرياضة واللهو والنشاط الاجتماعي . ومع ذلك فان عوامل الاقليم والمفاهيم التقليدية للحياة عملت على الاعتدال في العادات . وان شعور الولاء نحو العائلة - وهو اثنى عنصر في تراث العصر القبلي - لم يفقد سيطرته على السكان ولا يزال حتى اليوم قوة حية .

الاحوال الاجتماعية

كانت نساء الريف يخرجن سافرات كما هي الحال اليوم . اما نساء المدن فكان



المرح الجنوبي الكبير في جرش
بني في عهد دوميتيان في نهاية القرن الاول

يلبسن براقع تقتصر على الرأس فقط او تحيط بالرأس وتدلى على الاكتاف بما يشبه طريقة الحجاب الحديثة . ويظهر الوشم احياناً على ثائيل النساء وغالباً ما يكون على الصدر وهي عادة لا تزال موجودة .

وبما ان القانون الروماني لم يعترف بغير زوجة واحدة فلا بد ان نظام تعدد الزوجات لم يكن سائداً في الاقسام المأهولة في سورية الرومانية . ويبدو ان الحثان وهي عادة سامية قديمة قد اهل نتيجة للاحتكاك مع الهنود الاوربيين^١ وترك نهائياً بتأثير المسيحية .

كانت انواع اللهو في المدن المتأثرة بالحضارة الهلينية او الرومانية وفي المدن الساحلية هي من النوع اليوناني الروماني العادي كالمصارعة وسباق العربات والمباريات الموسيقية والتمثيليات المسرحية . وكان ركوب الهجن شائعاً في المناطق المجاورة للصحراء . وكان الصيد محبباً لدى الاغنياء . وترينا البقايا الاثرية مناظر صيد الدببة والبقر الوحشي والغزلان والخنازير البرية من قبل رماة السهام او حاملي الرماح الراكبين . واستعملت كلاب الصيد احياناً . اما الحمامات العامة وهي مزيج من الجنازير والحمام الساخن وكانت قد ظهرت في سورية الساقية فقد ظلت موجودة في الفترة الرومانية .

منذ اوائل عصر الامبراطورية بدأ السوري يقترب في تفكير الرومان بالموسيقى والرقص والالعاب السرك وغيرها من انواع التسلية . ويظهر في الادب اللاتيني ذكر راكبي خيل السباق من لاوديسة وممثلين من بيروت ولاعبين السرك من صور وراقصي الباليه من قيصرية والعازفين على الناي من مدينة هليوبولس والموسيقين من غزة والمصارعين من عسقلان . وانشأ الممثلون السوريون المحترفون فرقاً منظمة تذهب من مكان الى مكان ويمكن استئجارها في الولائم ومناسبات الاعياد . ولا بد ان رومة قد رعت عدة فرق كهذه وكان بعضها من انطاكية . ويصرح الشاعر الهجاء الروماني جوفنال^٢ (حوالي ٦٠ - ١٤٠ م) بلهجة غاضبة : « لقد اخذ نهر العاصي السوري منذ مدة طويلة يصب مياهه في نهر التبر حاملاً معه رطائنه

(١) انظر : Herodotus, Bk. II, ch. 104.

(٢) انظر : Satura, No. 3, ll. 62-65

وعاداته وقيثاراته واوتار اعواده». وتحدث الرومان عن لاعبات الناي السوريات ambubaia^١ كما يتحدث الناس اليوم عن المرأة الباريسية المتأنقة. وجاء في خبر لاثيناوس^٢ ان فينيقية «ترن بالاغاني البذيئة من اقصاها الى اقصاها». وتفرغ الامبراطور الخليفة فيروس Verus بعد حملته الى البلاد الفريسية في سنة ١٦٦ م للهو والمتعة في اللاذقية ودفنة ثم عاد الى عاصمته بقافلة من الموسيقيين والممثلين والمهرجين السوريين وغيرهم من المسلمين الذين اثروا في ذوق العصر بصورة محسوسة^٣.

انطاكية ودفنة

وكان لانطاكية وضاحتها دفنة قصب السبق في حياة الترف والحلاعة. وليس هناك مكان آخر في سورية الرومانية حيث يبدو التمتع بالحياة كهدف رئيسي للسكان وواجباتها كأمر ثانوي كما في هذه البقعة من شمال سورية. وسمح بومبي لانطاكية بان تحتفظ بامتياز الحكم الذاتي الذي حازته في عهد السلوقيين. وقد جردها سبتيموس سيفيروس بعد ظفوه في ايسوس (١٩٤) من رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) وجعلها «قرية» تابعة للاذقية بسبب تأييدها لمنافسه. وجعلها خلفه كرا كلا مستعمرة^٤. وانعم يوليوس قيصر عليها بعدة منشآت من بينها مسرح ومدرج. وسام هيرودس الكبير ببناء طريق ورواق معبد^٥. واضاف اليها كاليغولا وتراجان وهادريان عدداً من الحمامات. ورصف انطونينوس بيوس طريقها الرئيسي بالقرانيت الذي اتى به من مصر. واعاد كومودس (١٨٠-١٩٢) تنظيم العاها الاولية الدورية. وكانت في زمن بوسيفوس^٦ ثالث مدينة في

(١) مشتقة من الكلمة السريانية ambūbo وتعني الناي.

(٢) انظر : Athenaeus, Bk. XV, § 697c.

(٣) انظر : Mommsen, vol. ii, p. 132; Bouchier, p. 17.

(٤) انظر : Glanville Downey, « The Political status of Roman Antioch », *Be-rytus*, vol. vi (1939-1940), pp. 1 seq.

راجع بشأن امتيازات المدن والمستعمرات : A. H. M. Jones, *The Greek city* [(Oxford, 1940), pp. 132 seq.

(٥) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5, § 3; War, Bk. I, ch. 21, § 11.

(٦) انظر : George Haddad, *Aspects of Social Life in Antioch in the Roman-Hellenistic Period* (Chicago, 1949), pp. 70-73.

الامبراطورية (بعد رومة والاسكندرية). وكانت المصاييح تضيء شوارعها المبلطة وساحتها العامة بعد حلول الليل. وكانت هذه المدينة بخلاف المدن الاخرى «يوازي فيها توهج الانوار في الليل بصورة عامة تألق النهار»^١. ويشير ليبيانيوس احد فصحاء انطاكية المتأخرين^٢ (٣١٤ - حوالي ٣٩٣) في خطبة يمتدح فيها مدينته الى هذه الصفة فيقول: «تخل انوار اخرى مكان نور الشمس وهي مصاييح تفوق بكثير احتفال المصريين بالنور، وعندنا يتميز الليل عن النهار باختلاف وسائل التنوير فقط». ولا يوجد وصف كهذا بالنسبة لاية مدينة اخرى. ويفخر ليبيانيوس^٣ بعد ان يصف مناجع دفنة والقناة التي تتجه منها الى انطاكية فيقول:

لكل ساقية في الحمامات العامة غزارة تشبه النهر، والوضع متشابه بالنسبة لعدد من الحمامات الخاصة. وبقدر ما هناك بيوت للسكن هناك ايضاً مجار للمياه لا بل نجد في بعض البيوت عدداً من هذه المجاري. كما ان اغلب المصانع تتمتع بهذه الفوائد نفسها. ولهذا فانتا لا تعرف القتال عند الآبار العامة حول من يخرج الماء أولاً - وهو شر يقلي منه عدد كبير من المدن حين يكون الازدحام شديداً حول الآبار وتعالى الاصوات بسبب الجرار المحطمة. اما لدينا فان المراكز العامة للمياه تجري مياهها لاجل الزينة طالما ان كل انسان لديه مياه داخل بيته. ويبلغ من صفاء هذا الماء ان الدلو يبدو فارغاً ويبلغ من بهجته انه يجفزنا للنهل منه.

كان الطريق بين انطاكية ودفنة وطوله خمسة اميال تحيط به الحدائق العامة والتوافير والمنازل الخاصة والابنية الفخمة التي تتناسب مع موكب الافراح الذي كان يحتشد بين بوابة المدينة ومركز المسرات المألوفة. وكانت دفنة ذاتها التي يبلغ محيطها عشرة اميال حديقة للمسرات، وهي على حد تعبير ليبيانيوس «انقى هبة اعطتها ملكة العرائس». وكان المكان ذا شهرة عالمية بسبب مياهه السائلة المتدفقة وممراته الظليلة واشجاره الجميلة من الغار (الذي سميّت باسمه) وسروه الطويل وجميع ذلك كان مكرساً لأبولون. وقد ابقى الاباطرة المسيحيون انفسهم فيما بعد على هذه الاشجار. وكان القانون الذي يمنع قطعها لا يزال ساري المفعول في القرن السادس^٤. وكانت توجد ساقية في الغابة المقدسة تضرب مياهها لاسباب

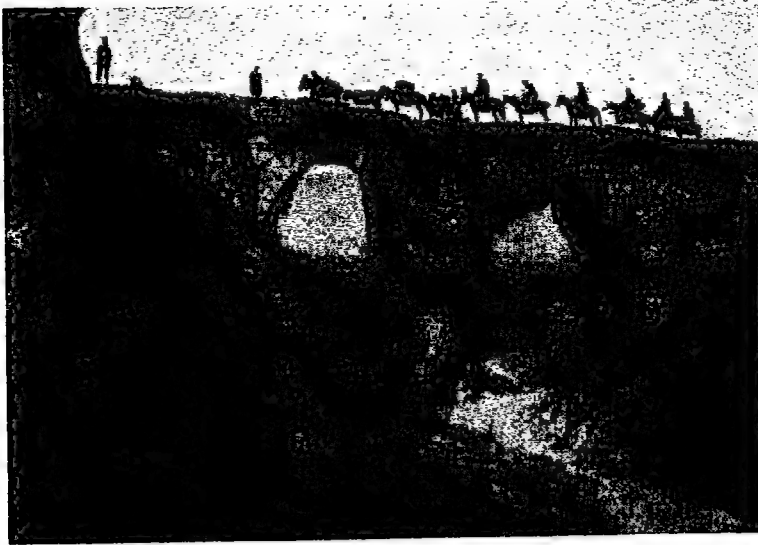
(١) انظر: Ammianus Marcellinus, *Rerum gestarum*, Bk. XIV, ch. 1, § 9.

(٢) انظر: *Orationes*, No. 11, § 267.

(٣) انظر: *Orationes*, No. 11, §§ 244-245.

(٤) انظر: Procopius, Bk. II, ch. 14, § 5.

مجهولة في فترات معينة. وكان الكهنة الملازمون لها يصابون أيضاً بغيوبة ويحجبون على الأسئلة المطروحة عليهم. وكان الاباطرة انفسهم يستشيرون نبوءة دفنة هذه. وكان يستمتع معبد ابولون وديانا الذي بناه سلوقس في الاصل بحق ايواء اللاجئين^١. وكان فيه صفوف من الاعمدة على الجانبين وجدران تشع برخامها. وينتصب فيه تمثال ضخم لأبولون يكاد يمس السقف. وكان الاباطرة القدماء الذين يزورون دفنة يقيمون في الخيام. وقد بنى ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) قصراً فيها وازاف تيدوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) الى جماله. وبنى هادريان الذي كان نائباً للامبراطور



القناة الرومانية التي تجلب المياه من دفنة الى انطاكية

على سورية وتلقى في انطاكية انباء اعتلائه العرش عدة ابنية في انطاكية ومسرحاً في دفنة. كما انه اصلح او وسع الاقنية التي تزود البلدين بالمياه. وقد ازدادت دفنة بعدة ابنية اخرى. ولم تتفوق عليها اية مدينة في الامبراطورية في بهاء ابنيتها العامة

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 6. وسفر المكابيين الثاني ٤ : ٣٣.

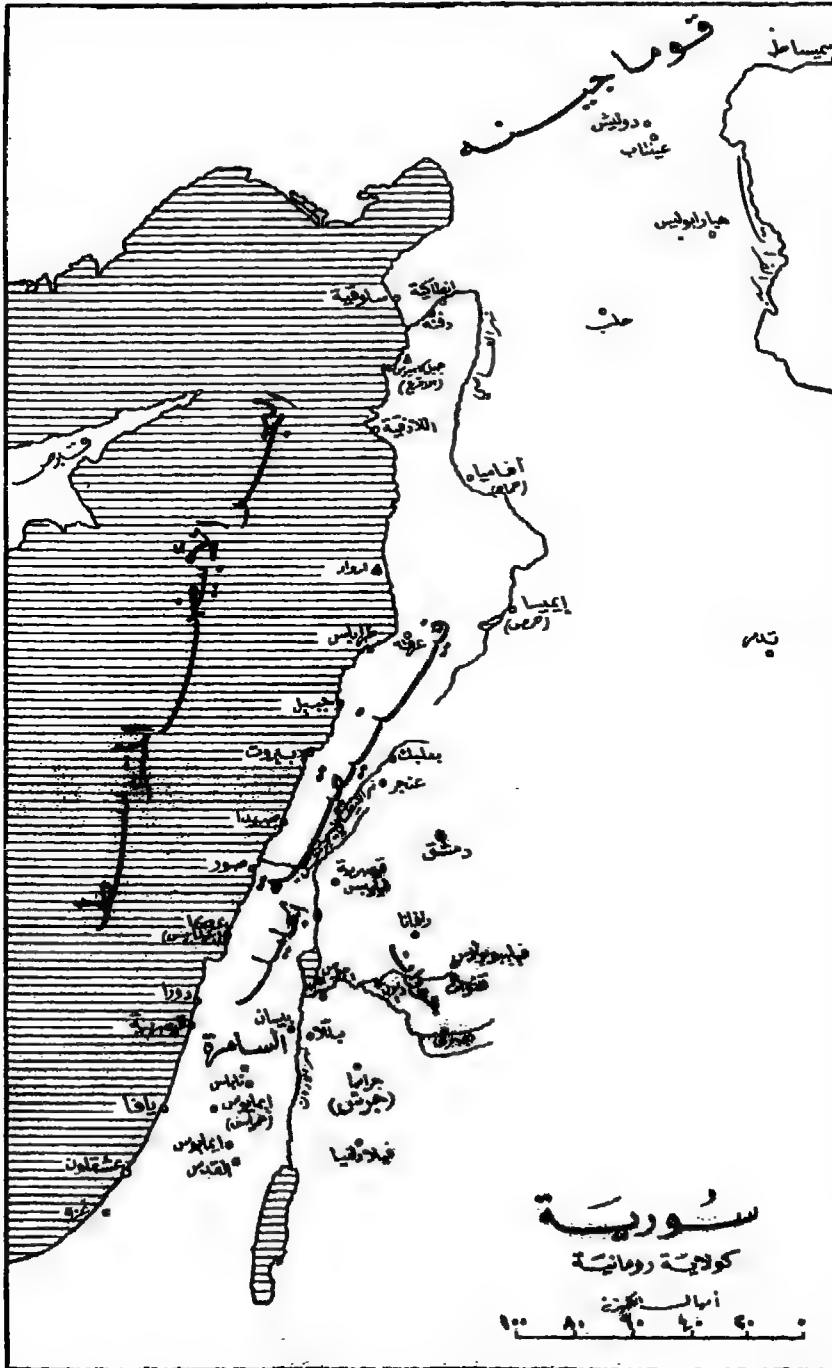
وفخامتها^١. وكان الشارع الرئيسي فيها الذي يبلغ طوله ميلين والذي توجد على جانبيه صفوف من الأعمدة المغطاة ويتوسطه طريق عريض للعربات يجتاز وسط المدينة بمحاذاة نهر العاصي^٢.

كانت دفنة منذ أيام السلوقيين مركز اعظم الاحتفالات بالالعاب في سورية. وقد اوصى احد اعضاء مجلس الشيوخ الاغنياء من انطاكية - وكانت قد رافق اوغسطس في عودته الى رومة - بكل ثروته لاقامة احتفالات في دفنة تدوم ثلاثين يوماً للالعاب الاولمبية وتشتمل على الرقص والروايات التمثيلية وسباق العربات ومباريات الرياضة والمصارعة. وفي اوائل القرن الثالث مدت فترة الاحتفالات الى خمسة واربعين يوماً. وساهمت النساء في بعض هذه الالعاب. وكانت الاحتفالات كما يمكن ان يتوقع مشهداً لبعض الحوادث الاخلاقية الشاذة. واصبح يضرب المثل بدفنة لحلاعتها.

كان الانطاكيون المعروفون بكبريائهم وشغبيهم وروحهم النقادة مشهورين ببراعتهم في فن السخرية ولا بد انهم لم ينسوا بأن مدينتهم كانت فيما مضى مدينة ملكية ولذلك كانوا على استعداد لتأييد اي مطالب بالعرش يرشحه الجيش السوري. وكانوا يتخاصمون دائماً مع الاباطرة الذين يقيمون في مدينتهم. وقد جرد هادريان المدينة من حق اصدار النقد كما جردها ماركوس اوريلوس من حق انتخاب مجلس لها. ونقل سبتيموس سيفروس الزعامة بين المدن السورية الى اللاذقية حيث بقيت مؤقتاً وجعلت انطاكية ملحقة باللاذقية لمدة من الزمن كما ذكرنا. وكان الاباطرة يمنحون الالقاب والامتيازات لبعض المدن مكافأة لها على حسن سلوكها وبمجردونها منها كعقاب لعدم ولائها. وقد امر سيفروس بتقسيم سورية الى ولاية شمالية تسمى سورية المجوفة وسمح باقامة فرقتين فيها والى ولاية جنوبية وتسمى فينيقية السورية وسمح بفرقة واحدة. وقد بدأ نزاع انطاكية فيما بعد مع يوليانس الذي امضى فيها شتاء سنة ٣٦٢ يستعد لحملة الفارسية حين حاول تحديد اسعار المشروبات والرقص. وكان اعضاء مجلس الشيوخ يسيطرون على «السوق السوداء». وكانت اكثرية السكان

(١) انظر: Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 129.

(٢) انظر: G. Downey, «Imperial Building Records in Malalas», *Byzantini-sche Zeitschrift*, vol xxxviii (1938), p. 308.



آنذاك من المسيحيين ولكن الامبراطور لم يكن مسيحياً وقد حاول اعادة الوثنية. فسخروا منه بأنه قزم يتباهى بالحية تيس^١. وكانوا هم انفسهم حليقين دائماً حتى في شيخوختهم. وكان تراجان قبله بمدة طويلة قد جعل انطاكية مقر الحملات القرتية التي انتهت فيها حياته. وحين كان الامبراطور يشكو فيها سنة ١١٥ م. تعرضت المدينة لاعنف زلزال تذكره المصادر وكاد ان يهلك هو فيه. «وقد بلغ من اهتزاز جبل كاشيوس نفسه ان بدت قممه كأنها تنحني وتنفصل عنه وتقع على المدينة ذاتها^٢». اما الكارثة الثانية التي حلت بالمدينة فكانت حين احتلها شاپور الاول (Sapor) الفارسي في سنة ٢٦٠ م. وكان المواطنون في تلك الاثناء منهمكين في التمتع برواية مسرحية حين صاحت زوجة الممثل فجأة، «هل نحن في حلم ام ان الفرس هنا؟» فالتفت جميع الناس حولهم واذا بالسهام تطر عليهم^٣. واشعلت النار في المدينة وذبح كثير من سكانها دون ان يفقد احد من الفرس.

لاوديسة وأقامية

كانت لاوديسة (اللاذقية)، منافسة انطاكية التي تقع الى جنوبيها، مركز مسرات محبب ايضاً يتردد عليه الوجهاء. وفي اوائل القرن الاول الميلادي كانت التلال القليلة الانحدار التي تشرف على المدينة مغطاة كلها حتى قممها تقريباً بالكرمة. وكانت الكروم تمتد شرقاً حتى اقامية تقريباً وتصدر الجور من ميناء لاوديسة الممتاز الى الاسكندرية^٤. وقد قام هيرودس الكبير (توفي ٤ ق. م.) الذي دشّن السياسة اليهودية الملكية في اغداق النعم على المستعمرات الرومانية كوسيلة للحصول على رضى الاباطرة - فزود لاوديسة وغيرها من المدن بقناة المياه^٥ لا يزال يشاهد قسم كبير منها حتى اليوم.

فانخرت اقامية وهي مستعمرة شقيقة للاوديسة في الداخل منذ ايام السلوقيين

(١) انظر: Ammianus Marcellinus, Bk. XXII, ch. 14, § 3.

(٢) انظر: Dio, Bk. LXVIII, ch. 25, § 6.

(٣) انظر: Ammianus, Bk. XXIII, ch. 5, § 3.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 9.

(٥) انظر: Josephus, War, Bk. I, ch. 21, § 11.

بالخدائق الملكية المملئة بحيوانات الصيد وبالاراضي المجاورة الغنية بالمراعي . وقد وجد في معبدها نصب لالاه مشهورة ويرجح انها هي التي تنبأت بالعظمة المقبلة لجوليا دومنة مؤسسة السلالة البورية الامبراطورية^١ وشجعت خطط زوجها سبتيموس سيفيروس لوصول العرش . وقد زار سيفيروس المدينة ثانية بعد ان اصبح امبراطوراً . وقد وجدت تقدمات للاله بعل الافامي في اماكن بعيدة في الغرب مثل فيزون Vaison في جنوبي فرنسا حيث اقيم معبد « لبعل سيد الحظ »^٢ . ويرز بعض ابناء افامية في العصرين البيزنطي والمسيحي^٣ .

حمص

تقع حمص على العاصي جنوبي افامية وقد احتفظت بحكمها الوطني من الملوك الكهنة خلال فترة الحكم الروماني . وكانت دمشق وتدمر واديسا من المدن التي تحكمها طبقة ارسقراطية وطنية . وكانت كل من هذه المدن مركز دولة صغيرة . الا ان الدولة التدمرية تطورت الى دولة كبرى^٤ . وانضمت طبقة النبلاء في حمص وكذلك في تدمر ودمشق الى طبقة النبلاء الامبراطورية لفترة من الزمن وساهمت بالتالي في ادارة الامبراطورية حتى قبل ان يتوصل اثنان من اعضائها الى العرش الامبراطوري^٥ . وكان مؤسس الاسرة المحمية رجلاً حرق اسمه باللاتينية فاصبح سامبسيجرامس Sampsigeramus^٦ . وقد جرد الامبراطور دوميتيان (٨١-٩٦) افراد ذريته من العرش . ومع ذلك عاد احد ابناء الاسرة للظهور في زمن فالريان

(١) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ بشأن هذه السلالة .

(٢) انظر : *Philologus*, vol. xxxi (1872), p. 362.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦ .

(٦) يرد خطأ باسم « سامبسيكرامس Sampsikeramus » في Strabo, Bk. XVI. ch. 2, § 10 تارن مع : Rostovtzeff, *Social and Economic History*, p. 248. ويدعو ان معنى الاسم بالآرامية « ليقوي اله الشمس » . انظر مقال : « Sampsigeramus », Pauly-Wissowa, *Real-Encyclopädie der classischen Altertumswissenschaft*.

وقاد في عام ٢٥٨ م . حامية مدينته ضد الفرتين^١ كما فعل ملوك اديسا الذين اسمهم (البحر) وملوك تدمر في مناسبات مختلفة. ونال معبد بعل في حمص شهرة حين رفع احد صغار كهنته واسمه بسيانوس Bassianus الى عرش القياصرة حيث تسمى الاكابالس Elagabalus (٢١٨-٢٢٢) بالنسبة الى اله مدينة حمص^٢. وتسمى المدينة على نقود هذا الامبراطور باسم متروبولس وكانت تسمى على نقود سلفه كراكلا مستعمرة. واصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة فينيقية اللبنانية^٣.

دمشق

كانت دمشق وهي عاصمة سورية سابقاً ولاحقاً قد تفوقت عليها انطاكية وبعض المدن الساحلية طيلة العصر السلوقي والروماني. ولم يعرفها الكتاب الكلاسيكيون الا اهتماماً ضئيلاً. وكانت منطقة دمشق في زمن سترابو^٤ لا تزال تتعرض لغارات اللصوص الذين كان يتسع احد كهوفهم في تلأل منطقة اللجاء المعروفة باسم Trachonitis (أي الوعرة) في الجنوب لايواء ٤٠٠٠ منهم. وكان من المحتمل ان يغير قطاع الطرق هؤلاء على القوافل الآتية من العربية السعيدة (اليمن). وبلغ من اتساع منطقة دمشق ان دخلت في عهد طيبريوس في نزاع على الحدود مع صيدا^٥. وكانت تعتمد لاجل ازدهارها على تجارتها وبساتينها المروية بالاضافة الى واردات منطقتها. ويبدو ان وضعها قد تحسن في القرن الثاني. فقد رفع هادريان المدينة الى رتبة متروبولس (مدينة رئيسية) ومنحها اسكندر سيفيروس (٢٢٢-٢٣٥) حقوق المستعمرة. وأسس فيها في عهد ديوكليتيان مصنع للأسلحة وهذه دلالة مبكرة على براعة اهلها في صنع السلاح. وحمل ابناؤها التجار المهما السامي حدد رمان تحت اسم جوبيتر الدمشقي الى الغرب حتى ايطاليا. واصبح احد كهنة

(١) انظر : Malalas, p. 296.

(٢) تشبه كلمة « الاكابال » التمييز العربي إله الجبل. انظر مقالة : «Elagabal», Pauly-Wiss-owa. انظر ما سيأتي في الفصل ٢٦.

(٣) قارن مع : Malalas, p. 296.

(٤) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 20.

(٥) انظر : Josephus, Antiquities, Bk. XVIII, ch. 6, § 3.

الاله جوبيتر اوبتييموس مكسيموس دامسكينوس Jupiter Optimus Maximus
Damascenus عضواً في مجلس الشيوخ المحلي في ميناء بتيولي Puteoli الذي يسمى
اليوم بوزيولي Pozzuoli^١.

بيروت

كانت بيروت Berytus الوحيدة بين المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً في نشاط غير النشاط التجاري والاقتصادي. وقد منح الاكابالس مدينة صيدا حقوق المستعمرة. ونالت صور حقوق متروبولس في عهد هادريان ورفعها سبتيموس سيفروس الى مرتبة مستعمرة مكافئة لها لانها دعمته في نزاعه لاجل السلطة الامبراطورية اثناء النزاع مع نيجر الذي ايدته بيروت. ولكن بيروت كانت من اقدم المستعمرات الرومانية في سورية وقد منحها اوغسطس اللقب الفخري كولونيا جوليا اوغستا فيلكس Colonia Julia Augusta Felix بالنسبة لابنته^٢. وقد تحسن ميناؤها في عهد هذا الامبراطور باضافة رصيفين على شكل هلال لهما ابراج في كل طرف ويمكن ان تمتد منهما سلسلة لمنع دخول السفن غير المرغوبة. ولما كانت بيروت مركز مفرزة من الفرقة الثالثة العالية منذ ايام اوغسطس فقد اصبحت مدينة ذات حامية وكان سكانها يقدمون جنود الاحتياط حين يحتاج نائب الامبراطور الى ذلك^٣. واصبحت في وقت باكر جداً جزيرة رومانية في بحر هليني. وبما ان ملوك اليهود كانوا يرغبون باستعطاف الاباطرة الرومان عن طريق منح الهبات للمستعمرات فقد خصوا مدينة بيروت بكثير من عطفهم المادي. فشيّد اغريبا الاول (٤١-٤٤) حفيد هيروودس الكبير في بيروت مسرحاً فائقاً في فخامته وجماله كما بنى مدرجاً وحمامات واروقة معمدة انفق عليها بلا حساب^٤. وجرت في تدشينها حفلات موسيقية كما حصل عرض لالعاب المصارعة. ولأجل الزيادة في روعة البرنامج ادخل نحو سبعمائة زوج من المجرمين الى الملعب وتصارعوا حتى قضاوا

(١) انظر : *Corps Inscriptionum Latinarum*, vol. x (Berlin, 1883), No. 1576.

(٢) راجع : Pliny, Bk. V, ch. 17, § 20.

(٣) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XVII, ch. 10, § 9.

(٤) انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIX, ch. 7, § 5.

الواحد على الآخر . وبعد سنوات قليلة احتفل تيطس بعيد ميلاد والده فسباسيان بعرض مشاهد بمائلة ولكن الضحايا في هذه المناسبة كانوا من اسرى اليهود^١ . وقد جعل اغريبا الثاني (توفي سنة ١٠٠) من بيروت مقره المحبب وموّل احتفالاتها السنوية واقام فيها عدة تماثيل . وكانت حفلاتها المسرحية والالعاب السرك فيها لا تزال شائعة في القرن الرابع .

اشتهرت المدينة في مجال آخر من النشاط . فقد كانت مركز اشهر مدرسة للقانون الروماني في الولايات ولذلك اصبحت كعبة رجال القانون في الشرق كله وبقيت كذلك لآخر عصر الامبراطورية^٢ . وكان يظهر بوسيدون (نبتون) الاله الحامي للمدينة على النقود ممسكاً بيده رحاً بثلاث شوكلات او تجره خيول البحر .

هليوبولس

كان لبيروت مستعمرة شقيقة في سورية المحوفة هي هليوبولس . وقد احتفظ الرومان بهذا الاسم اليوناني (مدينة الشمس) وكان قد فرضه السلوقيون حين جعلوا الهما بلع معادلاً للاله الشمس . واستعاد الاسم السامي القديم ، الذي يمكن ان يكون معناه بلع البقاع وليس مدينة بلع ، مركزه وبقي في اسم بعلبك . وجعل اوغسطس المدينة مستعمرة ووضع فيها حامية من نفس الفرق التي استخدمت في جعل بيروت مستعمرة . وسميت على النقود التي صدرت في عهده باسم كولونيا جوليا اوغسطا هليوبولس Colonia Julia Augusta Heliopolis . ولكن صفة المدينة الرومانية بقيت اقل من صفة بيروت وصفتها اليونانية اقل من انطاكية بينما كانت صفتها السامية اكثر من الاثنين .

كان العازفون على القيثارة من هليوبولس معروفين في كل الامبراطورية مثل موسيقيي انطاكية . وكانوا يدعون للاشتراك ليس في مناسبات الاعياد فحسب بل في طقوس المعابد ايضاً . وكانت نساء المدينة مشهورات بجمالهن وهي نعمة منحتهن اياها الالهة السورية التي تلازم منحدرات لبنان المجاورة^٣ كما اشتهر الرجال

(١) انظر : Josephus, War, Bk. VII. ch. 3, § 1 ; ch. 5, § 1.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٤ .

(٣) انظر : « Descriptio », in Karl Müller, *Geographie Graeci minores*, vol. ii (Paris, 1861), p. 518.

بفصاحتهم وذلك من ايجاء عرائس الشعر في منطقتهم الجبلية . ولكن الشهرة العالمية للمدينة كان مصدرها معبدها العظيم .

ويرجع هذا المعبد الذي كرس في الاصل لعبادة الاله السوري حدد الى ما قبل العصر السلوقي على الغالب . وتمتعت شعائره بشهرة كبرى حتى قبل ان يعاد بناؤه ويوسع من قبل الاباطرة الرومان . وقبل ان يبدأ تراجان حملته الثانية ضد الفرتين (١١٦ م) بدأ باختبار قدرته على التنبؤ بتقديم ورقة بيضاء من ورق الكتابة في مغلف مختوم وجواباً على ذلك تلقى ورقة فارغة بما اعطاه فكرة رقيقة عن قوة بصيرة المقام وقدرته على التنبؤ^١ . ثم تابع استشاراته بصورة جدية فجاءه الجواب بصورة رمزية وكانت عبارة عن حزمة من الاخشاب ملفوفة بقطعة من القماش . وكان موت تراجان في سنة ١١٧ في كيليكية ونقل رفاته منها الى رومة تفسيراً كاملاً وان يكن متأخراً لما ظهر من المعبد .

بدأ التوسيع المتقن لمعبد هليوبولس في عهد انطونينوس بيوس (١٣٨-١٦١)^٢ واستمر ببطء حتى زمن كراكلا (٢١١-٢١٧) وغيره من اباطرة السلالة السورية الذين اتقوا البناء وجعلوه من عجائب الدنيا . ويظهر المعبد لأول مرة على احد وجهي نقود سبتيموس سيفيروس . وحفر كراكلا وامه السورية جوليا دومنة كلمة « هليوبولس » على نقودهما . ولا تزال التذوّر على شرف هذين الاثنين مقروءة جزئياً في اللغة اللاتينية على قاعدة رواق المعبد العظيم حيث تقول الكتابة الاثرية ان الاعمدة النحاسية قد كرسّت وان التيجان طليت بالذهب على شرفهم من قبل احد افراد الفرقة العسكرية^٣ . ويرد اسم المعبد ايضاً على نقود فيليب العربي (٢٤٤ - ٢٤٩ م .^٤) .

كان المعبد يضم تمثالاً ذهبياً للاله وقد ظهر بشكل شاب حليق اللحية يلبس ثوب سائق عربية فيمسك في يده اليمنى سوطاً وفي اليسرى رموز الصاعقة وسنابل

(١) انظر : Macrobius, *Saturnaliorum*, Bk. I, ch. 23, §§ 14-16.

(٢) انظر : Malalas, p. 280. حيث يذكر ان الطونينوس بن المعبد كله .

(٣) انظر : *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. iii, No. 133.

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ .

القمح^١. وكان يحمل هذا التمثال في بعض الاحتفالات السنوية على اكتاف اعيان

هليوبولس الذين اعدوا انفسهم لهذه الاحتفالات المهيبة بحلق شعور رؤوسهم ونذر التقشف والطهارة. وكانت تقدس في هذا المعبد ايضاً حجارة سوداء مخروطية وقد نقل الاكبالس احداها الى احد معابد رومة. وكان يقام معرض تجاري في المدينة بهذه المناسبة. وقد جعل المعبد من هليوبولس اشهر مدينة في منطقة لبنان وثاني مدينة بعد انطاكية في ولاية سورية لعدة قرون. وحمل التجار والمحاربون القدماء الى بلاد كثيرة في الغرب هذا الاله السامي القديم باسم جوبيتر هليوبوليتانس Jupiter Heliopolitanus وكان لقبه الكامل هو جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس Optimus Maximus Heliopolitanus.



شكل يمثل جوبيتر اوبتيموس مكسيموس هليوبوليتانس في بعلبك

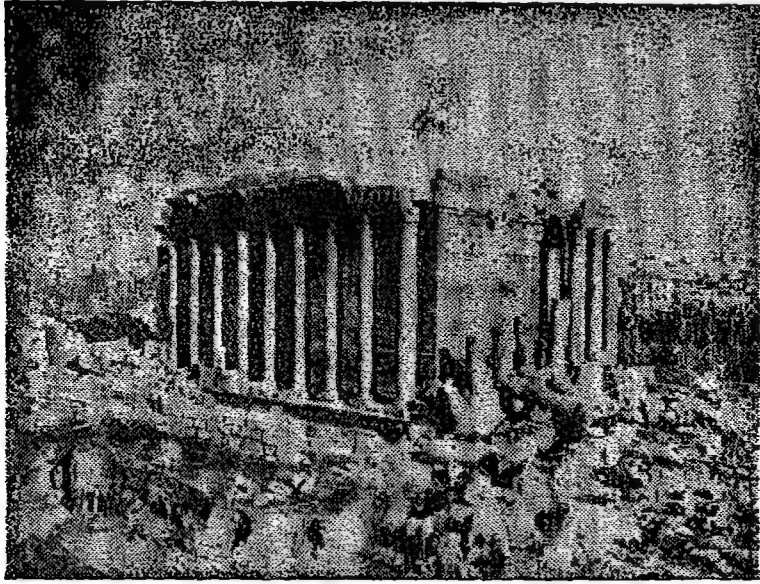
تفوق خرائب معبد هليوبولس^٢ اية خرائب اخرى وصلتنا من عهد الرومان بما فيها خرائب رومة نفسها. وقد نسب المسلمون، الذين حولوا منطقة المعبد الى

(٦) انظر: Macrobius, Bk. I, ch. 23, §§ 11-13.

(٢) درست هذا الموقع وثبتت فيه بنة المانية بين ١٩٠٢ - ١٩٠٤. انظر: O. Puchstein, *Erster und zweiter Jahresbericht über die Ausgrabungen in Baalbek* (Berlin, 1902-1903); do., *Führer durch die Ruinen von Ba'albek* (Berlin, 1905);

راجع ايضاً: Theodore Wiegand, *Baalbek*, 3 vols. of text, 1 of illustrations (Berlin, 1921-5).

قلعة ، بناءه الى سليمان لانه من يستطيع غير سليمان الذي كان يسيطر على الجن ان يقيم بناء كهذا ؟ . وبالرغم مما سببته الهزات الارضية وهجمات المغول فان ما بقي من المعبد كاف لاحداث اثر في كل من يشاهده . ففي داخل منطقة القلعة توجد بقايا معبدين مع ملحقاتهما وهما : معبد جوبيتر - حدد ومعبد رفيقته اتارغاتس (عشتاروت) الذي ينسب بصورة عامة الى باخوس^١ . ومن بين هذين المعبدين فان

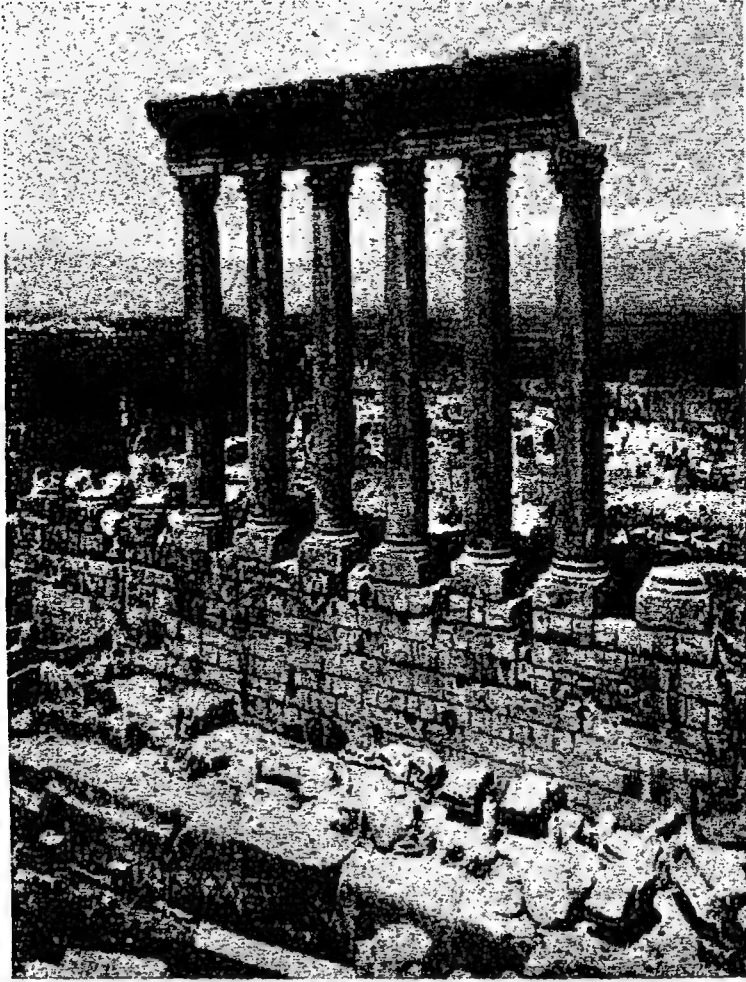


هيكل (باخوس) عشتاروت من الشمال الغربي

معبد اتارغاتس هو احدها واصغرها ولا يزال سالماً اكثر من الآخر . وفي الحقيقة فانه احسن الابنية القديمة حفظاً واكثرها غنى في الزخارف في سورية كلها . وتحيط بهيكل جوبيتر - حدد بمجموعة من اعمدة كبيرة من الحجر الاصفر ذات

(١) انظر : Hermann Thiersch , « Zu den Tempeln und Zur Basilika von Baalbek » , *Nachrichten von der Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, Philologisch-historische Klasse (Berlin , 1926) , pp. 1 seq. ; do. , « Le Temple de la déesse Syrienne à Ba'albek » , *Revue biblique*, vol. xxxv (1926) , p. 461.

تيجان كورنتية تعلوها الافاريز. ولا تزال ستة من هذه الاعمدة تقف شاحخة حتى هذا اليوم تواجه جبال لبنان بعظمة مهيبه. والواقع ان هذه هي البقايا



الاعمدة الستة القائمة في معبد جوبيتر في بعلبك

الرئيسية من معبد جوبيتر - حدد كله. ويتألف كل عمود من ثلاث قطع من الصخر ويرتفع الى علو ٦٢ قدماً ويبلغ قطره سبعة اقدام ونصف. وقد اخذ

يوسنتيان من بعلبك الاعمدة من البورفير التي جلبت بالاصل من مصر واستعملها في بناء كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا) . وظهر في احد هذه الاعمدة بعد ان كسر على الطريق المعدن الذي كان يصل بين اقسامه .

ويبلغ طول كل جانب من الباحة التي اقيم فيها المذبح نحو ٣٤٠ قدماً . وكان يحيط بها رواق يضم ثمانية واربعين عموداً . وبنيت في طرفها الغربي كنيسة من نوع الباسيليكا ذات ثلاث حنيات في القرن السادس ولكنها تنسب عموماً الى قسطنطين او تيودوسيوس وكلاهما من القرن الرابع^١ . وينتصب المعبد بكامله على مصطبة اصطناعية تقوم على مجموعة هائلة من الاقبية . ولا يزال يشاهد المعبد حتى اليوم من مسافة بعيدة . ويتألف الطرف الشمالي الغربي من السور من حجارة ضخمة قد يكون الغرض منها تأمين متانة البناء في حال حدوث الزلازل . ويبلغ قياس الجوانب في ثلاث من هذه الحجارة التي تعلو ٢٠ قدماً عن الارض ما يقارب ٦٢ × ١٤ × ١١ قدماً لكل حجر منها . وقد قدر ان كل واحدة من هذه تكفي لبناء بيت مربع يبلغ سمك جدرانه قدماً واحداً وطول واجهته ٦٠ قدماً وعالوه ٤٠ قدماً . ولا تزال صخرة تشبه هذه الصخور موجودة في المقلع الكائن في ضواحي المدينة .

وبالإضافة الى ضخامة الحجارة في الجدران والحجم الهائل للاعمدة فان ما تتصف به بشكل خاص مجموعة الابنية الباقية هو الغنى في تفاصيل الزخارف والاشكال المنحوتة في الافاريز . وتتألف الزخارف من القمع والخشخاش (التي ترمز الى الحياة والموت) وصور الجن المجنحين وهم يرفعون الحجاب وصور كيوييد يحمل الاقواس والسهام او يركب على التنين والدلفين . وتزين درجات المدخل اشجار الكرمه وضاغائر الزهور . وتغطي السقف اشكال هندسية تنتثر فيها اوراق النباتات بالإضافة الى تماثيل نصفية للباطرة او الآلهة . وتمتاز بوابات معبد اتارغاتس بغناها بأوراق الاشجار والاشكال المنحوتة .

ويقع على بعد حوالي ٣٠٠ ياردة من القلعة معبد مستدير يعود الى العصر الامبراطوري المتأخر وينسب الى فينوس او فورتونا (الاهة الحظ) . وتحول هذا

المعبد في العصور الوسطى الى كنيسة مكرسة للقديسة بربارة فضمن بذلك بقاءه .
ويقوم في وسط المدينة الحاضرة .

سورية الجنوبية

قامت مدن ذات نماذج مختلفة جنباً الى جنب في سورية الجنوبية . فهناك المدن الفلسطينية القديمة على الساحل — غزة وضاحتها انتيدون Anthedon^١ وعسقلان ويافا وعكا وكانت كلها قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية في هذا الزمن . ويقول سترابو^٢ بان يافا كانت مركزاً سيء السمعة لزعماء اللصوص . ثم تأقى المدن اليهودية التي بنتها الاسرة الهيرودية وهي : قيصرية على البحر وسبسطية وطبرية وقيصرية فيلبي . وتلت هذه بعض المستعمرات الرومانية القليلة وكانت احداها نيابولس (المدينة الجديدة) وتذكر في العهد القديم باسم شكيم . وحدث اثناء الحرب اليهودية ان يهود هذه المدينة التي كانت تدعى سكيثوبولس انقلبوا على شعبهم وناصروا الرومان الذين قضت فرقان من جيوشهم فصل الشتاء فيها^٣ . وقد هدمت المدينة فيما بعد من قبل اليهود الثائرين^٤ . وبعد الحرب اعاد فسباسيان الذي كان اسمه الاول فلافيوس بناء المدينة التي دعت آنتذ تكريماً له باسم فلافيا نيابولس Flavia Neapolis . ولا يزال الاسم ظاهراً في مدينة نابلس اليوم . وكانت نيابولس مكان ولادة يوستين الشهيد^٥ . وهو من آباء الكنيسة الاوائل ويعود اليه الفضل بافتتاح اول مدرسة مسيحية في رومة حيث يقال انه جلد حتى مات حوالي العام ١٦٥ م .

بنى فسباسيان مدينة اخرى هي عمواس Emmaus وقد وضع فيها ثمانية من

(١) جعل هيرودس اسمها غريباس . انظر : Josephus, *Antiquities*, Bk. XIII, ch. 13, § 3
ويخطئ بلني ؛ Pliny, Bk. V, ch. 14. حين يجعل موقعها في الداخل ولا يزال الاسم القديم ظاهراً في
خرية تيدا Kbirbat-Tida . انظر : Abel, vol. ii, p. 200.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 28.

(٣) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, §§ 3-4.

(٤) انظر : Josephus, *War*, Bk. II, ch. 18, § 1.

(٥) انظر ما سيأتي في نهاية الفصل ٢٥ .

المحاربين القدماء^١. وهذه المدينة هي عمواس المذكورة في انجيل لوقا (١٣: ٢٤) وتقع على بعد سبعة اميال الى الشمال الغربي من اورشليم على الطريق الرومانية^٢ ويجب تمييزها عن مدينة اخرى باسم عمواس تقع على بعد عشرين ميلاً الى الشمال الغربي من اورشليم^٣. وتعطينا فيلبوبولس Philippopolis في منطقة حورات مثلاً عن بلوغ احدى القرى رتبة مدينة. فقد كانت بالاصل قرية قليلة الاهمية بجوار بصرى ثم رفعها فيليب العربي الذي ولد فيها الى رتبة مدينة في ٢٤٤ م. وكانت تلك السنة تاريخ ارتقائه الى عرش القياصرة. وقد ازداد سكان المدينة بدخول عنصر جديد اليها وهو المستعمرون الايطاليون واصبحت نفسها مستعمرة رومانية. وهي مدينة شهبا كما يذكرها الجغرافيون العرب^٤.

اما في الداخل فقد بقي حلف «المدن العشر» او الديكابولس موجوداً. ويعدد بليني^٥ المدن ويشير الى «منطقة الديكابولس» التي بدأت كما يبدو حيث يتصل مرج ابن عامر (Esdraelon) بوادي الاردن وتمتد الى الشرق. وكانت تسيطر هذه المدن على المنطقة وقد اختلف عددها بين حين وآخر. ويذكر بطليموس بيت - شان وبيلادون Dion^٦ وجرش Gerasa وفيلادلفيا^٧ وجدره ورافانا Raphana^٨ وكنانا Kanatha (Canatha)^٩ وهيبوس^{١٠} ودمشق. واضيفت لها مدن اخرى فيما بعد

(١) انظر : Josephus, War, Bk. VII, ch. 66.

(٢) وهي اما ان تكون كيبه Kubaybah الحاضرة او جارتها تلونه (colonia) Qalūniyah.

(٣) انظر سفر المكابيين الاول ٣ : ٤٠ ؛ ٩ : ٥٠ ؛ ٤ : 4. Josephus, War, Bk. II, ch. 20, § 4.

(٤) راجع ياقوت ج ٣، ص ٣٣٩ ؛ Abel, vol. ii, p. 368 ; Dussaud, Topographie, p. 184.

(٥) انظر : Pliny, Bk. V, ch. 16.

(٦) بالنسبة لمدينة مكثونية وهي تل الاشعري اليوم بين هيبوس وكنانا (القنوات) شرقي بحيرة طبرية. انظر : Abel, vol. ii, p. 306.

(٧) ربة عمون وهي عمان اليوم.

(٨) هي الرافة في حوران.

(٩) هي القنوات جنوب شرقي رافانا.

(١٠) هي قلعة الحصن في الجانب الشرقي من بحيرة طبرية.

فأصبح العدد ثمانية عشر . وفي عهد الرومان تفوقت بيت شان وتقع على الطرف الغربي من نهر الاردن على شقيقاتها التي تقع كلها شرقي النهر^١ . وولد باسيليوس الاصغر Basilides the Younger وهو فيلسوف ومعلم ماركوس اوريليوس في بيت شان . وهناك مدينة مشهورة اخرى في الديكابولس وهي جرازه - جرش اليوم - وتقع على بعد سبعة وثلاثين ميلاً جنوب شرقي بحيرة طبرية واثنتين وثلاثين ميلاً جنوب شرقي جدرّة . وقد كشفت حفرياتنا الحديثة عن المخطط اليوناني للمدينة التي كان فيها مسارح ومعابد وملعب وساحة عامة (فوروم) وشوارع معمرة واكثرها يعود الى آواخر القرن الاول او الى القرن الثاني الميلادي . وتعتبر هذه الآثار الرائعة ، كالبتراء وتدمر وهليوبولس ، من اعظم الآثار شهرة في سورية الرومانية . وقد تبعت المسيح في عهد رسالته الاولى جموع من مدن الديكابولس^٢ .

(١) انظر : Rowe, *Topography and History of Beth-Shan*, p. 46.

(٢) انظر انجيل متى ٢٥ : ٤ .

الفصل الرابع والعشرون النشاط الفكري

إن سورية الرومانية التي برزت في مجال اللاهوت وانتجت أبطال السرك والمسرح ظلت من حيث النشاط الفكري وراء جارتها مصر - التي كان فيها مكتبة الاسكندرية ومدرستها . وكلما كان ينتظر فان عدداً من المؤلفات الادبية القديمة كانت عبارة عن قصص العشاق واللصوص والمشعوذين والرحالة التي اتضح انه ليس لها قيمة دائمة . واذا استثنينا كتابات بروبوس Probus ، اللغوي اللاتيني والنقاد البيروتي الاصل ، فان مساهمة السوريين في الادب اللاتيني لا يكاد يكون لها اي اهمية خاصة . ولم تنجب انطاكية وهي اغنى واكبر مدينة في آسية الرومانية وثالث مدينة في الامبراطورية اي مؤلف بارز .

عاش ماركوس فاليريوس بروبوس في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي . وبدأ حياته كجندي الا أنه كرس اهتمامه بعد ذلك لدراسة ادب رومة الكلاسيكي . فاستقر في رومة ونشر كتابات فرجيل وهوراس وغيرهما من الشعراء الكبار نشرأً علمياً وبذلك وضع اساس الحركة الكلاسيكية في العصر الامبراطوري المتأخر واعتبر من اعظم اللغويين اللاتين^١ .

التاريخ

كانت مساهمة السوريين في الادب اليوناني اكثر اهمية بكثير . ومرجعنا الرئيسي عن تاريخ سورية في العهد الامبراطوري الاول هو مؤلف يوناني لاحد المؤرخين اليهود . وكان هذا المؤرخ يوسيفوس الذي ولد في اورشليم حوالي ٣٧ م . وكتب « آثار اليهود Antiquities of the Jews » وكتاب « الحروب اليهودية The Jewish

(١) قارن مع : « Probus », *Harper's Dictionary of Classical Literature and Antiquities*, ed. Harry T. Peck (New York, 1897).

War^١. وادعى يوسيفوس بأنه ينحدر بطريق امه من المكابيين . وعندما كان شاباً ذهب الى رومة ليدافع امام نيرون عن قضية بعض الكهنة من ابناء دينه ولدى عودته اصبح قائداً في الجيش اليهودي في ثورته ضد السيادة الرومانية . وقد اسر الا ان فسباسيان انقذه . ومنذ ذلك الحين التحق يوسيفوس بعائلة فسباسيان وعاد مع تيطس الى رومة . واتخذ هناك اسم فلافيوس كتابع للأسرة الفلافية والى كتيبه المعروفة . ويعتمد كتابه «آثار اليهود» على كتاب العهد القديم كثيراً في اختصار تاريخ اليهود كله ويكتب بالتفصيل عن الحكم المكابي المتأخر والحكم الميرودي . اما كتاب «حروب اليهود» الذي كتب بالاصل في اللغة الآرامية فيعطينا اخباراً مفصلة عن الصراع العنيف مع رومة الذي شهدته بنفسه . وتصطبغ هذه الاخبار برغبة المؤلف في ارضاء رُحماه الاباطرة .

وقلنا يوجد اسم آخر غير يوسيفوس يستحق الذكر في علم تدوين التاريخ في سورية . ولا نعرف سوى القليل عن فيلو Philo الجليلي (حوالي ٦١ - ١٤١ م) النحوي وواضع كتاب عن الديانة الفينيقية حفظت بعض نثف منه في كتاب يوسيبوس . وكذلك نجهل اخبار ميناندر Menander اللاذقي . وهو بليغ عاش في وقت متأخر (القرن الثالث) ودون بعض الاخبار الفينيقية . وعاش في النصف الثاني من القرن الثاني كاتب آخر محاط ببعض الغموض وهو يميلخيوس Jamblichus (Iamblichus) الذي كتب تاريخ بابل . وعندما كانت شاباً اخذه ملك ارميني الى بلاطه فتعرف الى اللغة البابلية والسحر الفارسي^٢ . ويقول يميلخيوس عن نفسه بأنه كان سورياً من ناحية الاب والام . ولم يلمّ باللغة اليونانية حتى وقت متأخر في حياته . والى بالاضافة الى تاريخه قصة غرامية باليونانية اذا لم تكن الاولى من هذا النوع في الادب اليوناني فانها على الاقل من المؤلفات الاولى فيه .

الجغرافيا

ان اعظم مساهمة تستحق الذكر في ميدان الجغرافيا قام بها مارينوس Marinus

(١) ترجمت مؤلفات يوسيفوس من قبل : (London, 2 vols. (William Whiston, new ed., 1897) and revised by A. R. Shilleto, 5 vols. (London, 1890-1900); أيضاً : (London, 1920-43). H. St. J. Thackeray et al., Loeb classical Library, 7 vols.

(٢) انظر : Mommsen, vol. ii, p. 124.

من صور الذي زهبا في منتصف القرن الثاني . وكان مارينوس اول من وضع المصورات المرسومة على أسس رياضية حسب خطوط العرض والطول بدلاً من تلك التي كانت مبنية على رحلات المسافرين فقط . وفي تعيين خطوط العرض والطول بالنسبة لكل موقع جغرافي ساعد مارينوس في ازالة الشك الذي ساد حتى ذلك الحين فيما يتعلق بمواقعها النسبية . وبذلك اصبح مؤسس الجغرافيا العلمية . ويستشهد بطليموس^١ بأقواله حتى انه يعترف بأنه بنى كل مؤلفه على كتابات مارينوس .

ولا يستوقف انتباهنا في ميدان العلوم سوى مؤلف آخر هو ارخيجينس Archigenes الطبيب الافامي . وقد مارس عمله في رومة في عهد تراجان في اوائل القرن الثاني . ويذكره جوفنال^٢ عدة مرات ويتضح مما كتبه انه كان طبيباً محبوباً بين الطبقة الراقية في العاصمة وخاصة للأمراض العقلية . وقد كتب ارخيجينس رسالة عن النبض كانت موضوع تعليق جالينوس Galen وخلف عدداً من التلاميذ الذين تمتعوا بمرتبة محترمة في المهنة لعدة سنين .

البلغاء

وكان لمارينوس مواطن يدعى ادريانس Adrianus الذي اشتهر كبليغ وفيلسوف . وكانت البلاغة آتخذ احب القروع الادبية الى الناس . والبلغ من ناحية نظرية كان الشخص الذي يترافع امام المحاكم ويعلم الناس فن المرافعة . ومن ناحية عملية كان محاضراً يذهب من مكان الى آخر ليظهر مقدرة كخطيب امام الجماهير المتعلمة . وكان البلغاء يخطبون في عدد كبير من المواضيع دون ان يقتنعوا بصحتها . وقد هاجر ادريانس من صور الى اثينة حيث نبأ كرسى البلاغة . وفي الخطاب الافتتاحي الذي وجهه الى الاثينيين «اسهب في الكلام ليس عن حكمتهم بل عن حكمته لانه بدأ كلامه بقوله : «للمرة الثانية تأتي الآداب من فينيقية»^٣ . وكان يقوم بواجب الاستاذية بمباهاة عظيمة ويلبس الثياب الثمينة ويزين نفسه

(١) انظر : Geography, Bk. I, ch. 6.

(٢) انظر : Satura, No. 6, l. 236 ; No. 13, l. 98 ; No. 14, l. 252.

(٣) انظر : Philostratus and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, ed. and tr. Wilmer C. Wright (London, 1922), p. 227.

بالجواهر ويركب في طريقه لالقاء محاضراته في عربة كانت لجم خيولها مطلية بالفضة . وكان يسميه التلاميذ « الفينيقي » وحاول البعض تقليد لهجته . وعندما كان ادريناس في اثينة قابل ماركوس اوريليوس الذي دعاه في طريق عودته الى العاصمة لزيارة بلاطه . وكان ادريناس مسروراً بمغادرة اثينة حيث حوكم وبرئ من تهمة قتل سفسطائي اهانته . وشرف الامبراطور هذا الرجل البليغ بصدافته له حتى انه تنازل وعين له موضوع احدى خطبه . وعينه كومودس ، خلف اوريليوس ، سكرتيره الخاص .

وكان من تلامذة ادريناس بليغ يدعى انتيباتر من مدينة هيرابولس وقد حظي مثله بالعطف الامبراطوري . ولم يظهر انتيباتر اي تفوق على معاصريه في خطبه المرجلة والمكتوبة ولكنه امتاز عليهم في فن كتابة الرسائل . وهذا ما دعا سفيروس لاختياره سكرتيراً خاصاً له^١ كما عينه معلماً لولديه : كراكلا وغيتا Geta . وعندما اغتال كراكلا فيما بعد (٢١٢ م) اخاه كتب اليه انتيباتر رسالة لوم يأسف فيها بانه لم يبق لكراكلا الآن « سوى عين واحدة ويد واحدة » وان الذين علمهما مؤدبهما « بان يستخدم السلاح ليؤيد واحدهما الآخر قد استخدماه الواحد ضد الآخر »^٢ . وكان سفيروس قد رفع انتيباتر الى مقام القنصلية وجعله والياً على بيثنيا Bithynia . وظهر هناك انه متسرع في استعمال القوة فأقبل وانسحب الى مدينته الاصلية حيث يقال انه توفي جوعاً بارادته .

وهناك شخصية ادبية من شمالي سورية تسترعي الاعجاب في العصر الانطونيوني وهي شخصية لوكيانس من مدينة سميساط Samosata ، عاصمة كوماجين Commagene . وقد ولد حوالي ١٢٥ م . وبعد ان مارس الحقوق في انطاكية وعمل في كتابة الخطب المأجورة للخطباء اتخذ مهنة محاضر متجول ، فساح في آسية الصغرى ومكدونيا واليونان وايطاليا وبلاد الغال . وتبوأ في بلاد الغال لفترة موقته كرسي الفلسفة في مدينة يونانية الثقافة وذلك قبل عودته الى بلاده الاصلية .

كان لوكيانس سورياً وقد افهم الناس ذلك بصعوبة بالنظر لجهل المعاصرين

(١) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 269.

(٢) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 271.

الفروق العرقية . وكانت الآرامية لغته الأصلية الا انه ككل المتقنين السوريين في عصره كانت ثقافته يونانية . وفي عصر كانت فيه تسهيلات السفر اعظم منها في اي وقت آخر حتى حدود المئة سنة الاخيرة فانه تعرف الى اكثر مناطق الامبراطورية رقباً . و اضاف الى ما عرف عن السوريين من حب التجول المقدرة على طرق مختلف المواضيع وخصب الخيال الذي اشتهر به السوريون . ومن المؤلفات الاثني والثلاثين التي وصلتنا منسوبة اليه ، وبعضها مزيف دون شك ، كتاب « المحاورات Dialogues » وهو اهمها . واما كتابه « قصة صحيحة A True Story »^١ فقد تسلسلت منه قصص السندباد البحري ورحلات كوليفر وغيرها من القصص . ويعتبر مؤلفه « الالهة السورية The Syrian Goddess » اكثر مصادرها اهمية حول ديانة سورية الرومانية في عصره .

تقوم شهرة لوكيانس في تاريخ الادب على انه اول من استخدم المحاورية بين الاموات كوسيلة للروايات الهزلية والمجساء . وقلده في ذلك دي فونتونيل de Fontenelle^٢ واللورد ليتلتون Lyttelton^٣ وغيرهما من المحدثين . ولا يستعمل لوكيانس السخرية بشكل مركز محدود فحسب بل بشكل عام واسع ايضاً . وكانت الالهة الاولمبية والفلاسفة اليونان والارستقراطيون الرومان والمتعصبون في الدين والرحالة المتحمسون الذين فقدوا توازنهم — جميع هؤلاء كانوا من ضحايا سخريته . ولم يلق حتى ولا هوميروس او هسيود او هيرودوتس اي احترام في كتاباته . ومهما يكن فان تهديمه لا يتلوه عمل بناء . ويقرر بطل مؤلفه ايكارو منيبوس Icaro-Menippus بعد استيائه من منازعات الفلاسفة ومزاعمهم ان يقوم بزيارة الى النجوم ليقرر مقدار الصواب في النظريات الفلسفية . وبمساعدة زوج من الاجنحة يحط منيبوس اولاً في القبر حيث يستعرض مخاصمات الناس ومشاعرهم . ومن هناك يتابع سيره الى جبل الاولمب ويمثل امام زفس نفسه . ويشهد هنا كيف تتلقى السماء صلات الناس فهي تصعد بواسطة ثقب كبيرة ويتسكن زفس من سماعها

(١) ترجم هذا الكتاب ونشره : A. M. Harmon in Lucian, vol. i (London, 1913), pp. 248-357.

(٢) هو Bernard le Bovier de Fontenelle ؛ انظر كتابه : Nouveaux Dialogues des Morts (Paris, 1638).

(٣) هو George Lyttelton ؛ انظر كتابه : Dialogues of the Dead (London, 1760).

بازالة الاغطية الضخمة . ويتضح ان زفس قاض متحيز يتأثر بمجهم المكافاة التي يوعدها . ومع ذلك فانه يصدر الاحكام ضد الفلاسفة ويهدد بتدميرهم ككلهم خلال اربعة ايام .

وقد عين لوكيانس بعد ان تقدم في السن حاكماً على مصر . وربما كان كومودس هو الذي عينه ويظن انه توفي فيها حوالي نهاية القرن الثاني .

الفلسفة

لم تكن مساهمة المفكرين السوريين ضئيلة في مجال الفلسفة وخاصة في ما يتعلق بالافلاطونية الحديثة . وكان هذا يتفق مع التقاليد السورية السالوقية . وقد اعجب سترابو^١ بالفلسفة المشهورين في عصره الذين كانوا من اهل صيدا ويذكر اثنين منهم كزملاء له . ويقال ان النظرية الجوهرية قد وضعت في تلك المدينة في وقت سابق . وحافظت صور ايضاً على شهرتها في الفلسفة . ويذكر سترابو^٢ فيلسوفاً رواقياً من اهلها يسمى انتيباتر . ويبدو انه نفس انتيباتر الذي وصفه بليني^٣ بانه كان شاعراً وقيل عنه ان الحمى كانت تهاجمه كل سنة في عيد ميلاده . وهناك فيلسوف من صور اكثر شهرة يدعى مكسيموس وقد سافر كثيراً وزار رومة غير مرة واستقر فيها في زمن كومودس . ولم يثبت انه كان استاذاً لماركوس اوريليوس . وكان مكسيموس سفسطائياً ؛ وبلغاً اكثر منه مفكراً اصيلاً . وكتبية الافلاطونيين ميّز بين الله والمادة وجعل الشياطين تلعب دور الوسيط بين الله والانسان . وفي رسائله الاحدى والاربعين التي وصلتنا^٤ يستخدم التشبيه والمقتطفات الشعرية بكثرة .

فاقت افامية مدينة صور بصورة اوسع كمرکز للفلسفة . وفي العصر الانطونيوني ويرجح انه في عهد ماركوس اوريليوس اصبح احد ابنائها المسمى نومينيوس Numenius المؤسس الحقيقي للافلاطونية الحديثة . وقد اتهم بحق فيلسوف مصر

(١) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 2, § 24.

(٢) انظر : Strabo, Loc. cit.

(٣) انظر : Pliny, Bk. VII, ch. 52.

(٤) انظر : Ed. (Gr. and L.) Fred. Dübner, *Theophrasti Characteres* (Paris, 1877), pp. 1-176 ; Karl Meiser, *Studien zu Maximos Tyrios* (Munich, 1909).

اليوناني ، بلوتينوس Plotinus — الذي نسب اليه هذا الشرف — بانه بنى تعاليمه على تعاليم نوميونيوس الافامي وبأنه « كان يزهو في ريشه »^١. وقد يكون نوميونيوس حصل على ثقافته اليونانية في الاسكندرية. وقد اقام في اثينة ويرجع انه عاد الى افامية لقضاء بقية حياته . وقد استشهد باقواله بورفيوريوس وبمبليخوس وغيرهما من الفلاسفة الوثنيين من جهة كما استشهد به كليمنت الاسكندري واوريجين Origen وغيرهما من الآباء المسيحيين من جهة اخرى . وكان يعلم الاسرار اليونانية والمصرية ولكن معرفته بالعهد القديم هي التي تميز كتاباته عن كتابات غيره من الفلاسفة . وكان موسى بالنسبة اليه « النبي » كما كان هوميروس « الشاعر » . وكان افلاطون « موسى اليوناني » . واعتبر بان الله هو ثالث كوني يضم الهة ثلاثة : الآب والحالق والخالق (العالم)^٢.

اصبحت افامية في القرن الثالث مركز مدرسة للافلاطونية الحديثة تتمتع ببعض الاهمية وقد اسماها اميليوس Aemilius تحت رعاية زنوبيا ، ملكة تدمر^٣. وكان اميليوس من المعجبين بنوميونيوس ويقاربه في تفكيره . وكان من تلامذة بلوتينوس الذي يعتبر اول من نظم المذهب الافلاطوني الحديث كما كان معلم بورفيوريوس ، احد كبار شخصيات الافلاطونية الحديثة في سورية.

ولد بورفيوريوس عام ٢٣٣ في صور او بتنية Batanaea^٤ ودرس في صور وبعد ذلك في اثينة حيث بدّل معلمه لونيونيوس^٥ اسمه السامي « ملك » الى اسم يوناني هو بورفيوريوس Porphyrios (المكسو بالارجوان الملكي^٦). وقد جذبت شهرته

(١) انظر : Kenneth S. Guthrie, *Numenius of Apamea: The Father of Neo-Platonism* (London, 1917), p. 96.

(٢) انظر : Guthrie p. 38.

(٣) انظر ما سيرد في الفصل ٢٩ .

(٤) هي المنطقة الجنوبية من حوران والاسم هو الصيغة اليونانية لكلمة باشان Bashan القديمة ، انظر : Smith, *Historical Geography*, p. 542. ولا تزال اثار الاسم موجودة في كلمة البتينة al-Bathanuyah- للتوسع حول بتنية راجع : Dussaud, *Topographie*, pp. 323 seq.

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٩ .

(٦) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

بلوتينوس الى رومة حيث تخصص بالافلاطونية الحديثة لمدة ست سنوات . وقد سكن وعلم في رومة الى ان توفي حوالي ٣٠٥ . وحين كان فيها نشر كتاب استاذة واسمه التاسوعات *Enneads* . ولولا بورفيروس لما كان بلوتينوس سوى مجرد اسم . وكان بورفيروس مؤلفاً خصب الانتاج في الفلسفة والتحرر والبلاغة والرياضيات ، وعلم النفس والموسيقى ومبادئ النباتيين . وكان يعتبر الرجل العالم بين الافلاطونيين الحديثين . وكان في تعاليمه يقول بوجود العقل لدى الحيوانات ولكنه لم يعتقد بانتقال الارواح البشرية الى اجسامهم . وكان يذهب في تنقية الروح الى ابعد من بلوتينوس فيطالب ببعض اعمال التقشف مثل العزوبة والامتناع عن اكل اللحم وعدم حضور الحفلات واما كن التسلية^١ . وفي عام ٤٤٨ في عهد تيودوسيوس الثاني احرقت اكثر مؤلفاته بصورة علنية ومنها رسالة ضد المسيحيين .

وكان من تلاميذ بورفيروس واتباع بلوتينوس شخص يسمى ميليجوس^٢ من مدينة كالسيس *Chalcis* (عنجر) في سورية المجوفة . وقد حاد ميليجوس عن عادة العلماء من ابناء وطنه فاقام في سورية طيلة حياته وكانت يقوم كل سنة برحلة الى منابع جذرة الحارة^٣ . وكانت وفاته حوالي العام ٣٢٥ م . ولا يشاطر العلماء المحدثون معاصري ميليجوس^٤ في اعجابهم به اذ انهم يعتقدون بانه اقام شهرته على اعمال السحر والمعجزات . وقد الله تلاميذه ومن بعدهم الافلاطونيون الحديثون واصبحت كلمة *Theios* (الاله) لقبة المعتاد . وازداد الى نظرياته في اللاهوت نظريات في الارقام التي نسب اليها كما كان يفعل الفيثاغوريون الجدد قيمة اعظم مما للرياضيات العلمية^٥ . ويشارك في فلسفة الكونية مدرسته في الاعتقاد بجلود العالم . ويحاول في ابجائه في علم النفس ان يحتفظ للروح بوضعها المتوسط بين الكائنات

(١) راجع : Ednard Zeller, *Die philosophie der Griechen*, 3 rd. ed. (Leipzig, 1881), vol. iii, pt. 2, pp. 636-77.

(٢) ربما كان من نسل المؤرخ المذكور سابقاً في هذا الفصل .

(٣) لقد ذكرت هذه المنابع المدنية (الحمة) في الكتابات الكلاسيكية وفي التلود وهي اليوم مستمرة تماماً انظر : Abel, vol. i, pp. 154, 458 ; vol. ii, p. 19.

(٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 363.

(٥) انظر : Zeller, p. 700.

البشرية المنحطة والمتفوقة وذلك اكثر مما حاوله بورفيروس ويختلف عنه في انه لا يجعل للحيوانات عقلاً .

مدرسة الحقوق في بيروت

اذا كانت افامية قد برزت في ميدان الفلسفة فان بيروت برزت في القانون بفضل مدرسة الحقوق الرومانية المدنية التي ازدهرت فيها منذ اوائل القرن الثالث حتى منتصف القرن السادس . وربما اسس هذه المدرسة سبتيموس سيفيروس (١٩٣ - ٢١١)^١ وخلد ذكره في بيروت بمغبد وثمان وشجعها خلفه من السلالة السورية . ولم تكن اقدم اكاديمية مشهورة من نوعها فحسب بل كانت اطولها عمراً . انها من صنع رومة وقد اصبحت مركزاً فكرياً مبدعاً في الامبراطورية الرومانية وبقيت كذلك . وقد قامت مدارس اخرى في الولايات فيما بعد كمدرستي الاسكندرية واثينة وغيرها ، ولكن مدرسة بيروت تمتعت بالمكانة الاولى طيلة عهدها . وكانت الاسكندرية واثينة يونانيتين اكثر منهما رومانيتين . اما بيروت فكانت رومانية اكثر منها يونانية . وبلاضافة الى ذلك فان بيروت كانت اكثر حظاً في اجتذاب مجموعة من الطلاب والاساتذة اللامعين الذين جعلوا من الاكاديمية جامعة ونشروا شهرتها في كل مكان . وكانت دراسة القانون آنذاك من متطلبات اشغال الوظائف الحكومية .

باينيان

ان الشخصيتين اللتين منحتا الاكاديمية شهرة واسعة وخلدتا في مجموعة قوانين يوستينيان هما : باينيان واوليان . وقد سمي يوستينيان مدينة بيروت «ام القوانين ومرضعتهما» . ويبدو ان باينيان (اميلوس باينيانس) كان من مواطني حمص . وهناك ما يدعو الى الظن بأنه بدأ يعمل في ميدان القانون كعلم في بيروت قبل ان يدعوه سبتيموس سيفيروس ، زوج جوليا دومنة التي كان من اقربائها ، ليكون مستشاره في رومة . وبعد ان طرد كرا كلا باينيان من وظيفته اغتال اخاه غيتا (٢١٢م) . وامر بقطع رأس باينيان . ولم يفعل اكثر من انتهار الجلاد لاستعماله

(١) قارن مع : Paul Collinet, *Histoire de l'Ecole de Droit de Beyrouth* (Paris, 1929), pp. 16-25 ; Henri Lammens, *La Vie universitaire à Beyrouth sous les Romains et le Bas Empire* (Cairo, 1921), p. 4.

فأسأ بدلاً من السيف^١. أما سبب الاعدام فليس واضحاً لكن ليس من الصعب ان نرى ان طاعية كهذا لا يمكنه قبول مرشد شديد ورجل شريف مثل بابينيان. ومع انه كان في السابعة والثلاثين من عمره حين اعدم فان التراث العظيم الذي تركه لم يتركه اي روماني فقيه آخر. وقد ادخل لا اقل من ٥٩٥ فقرة من كتاباته في موجز Digest يوستينيان. وكان احد جامعيه ويسمى اناتوليوس Anatolius ايضاً من اساتذة القانون في بيروت. وشكل كتاب بابينيان « الاجوبة Responsa » جزءاً من برنامج السنة الثالثة في مدارس الحقوق. وان احد كبار شارحي القانون^٢ في القرن السادس عشر يعتبر ان بابينيان هو ايل الحامين الذين وجدوا والذين سيوجدون ويقول بانه لم يتجاوزه احد قط في المعرفة القانونية ولن يوازيه احد. وعلم بابينيان الذي تسيطر عليه الحصافة الفكرية والتزاهة الاخلاقية قد جعل منه نموذج المحامي الحقيقي.

اوليان

كان من منافسي بابينيان مواطنه وخلفه اوليان. وكان اوليان (دوميتيوس اوليانوس Domitius Ulpianus) من ابناء صور وقد علم في جارتها الشمالية بيروت. واستدعي من كرسية في بيروت الى عاصمة العالم المتمدن ليسانس بابينيان في ادارة الامبراطورية باسم القياصرة السوريين. ولما ظهر خليفة كراكل^٣ - وهو الاكبالس الذي اصبح امبراطوراً في ٢١٨ - جرّد اوليان من مهامه ولكن اسكندر سفروس اعاده مستشاراً امبراطورياً حين اعتلى العرش في ٢٢٢. وادخل اثناء وجوده في هذا المنصب اصلاحات قضائية وغيرها لم تكن مرغوبة لدى بعض الفئات. وقد قتل عام ٢٢٨ بأيدي الجنود بعد ان شقوا طريقهم ليلاً الى القصر الامبراطوري الذي كان قد التجأ اليه وقتلوه بحضور الامبراطور ووالدته^٣.

عاش اوليان مدة اطول من بابينيان وساهم اكثر منه في مختلف الشؤون. وقد اقتبس جامعو « الموجز » من مؤلفاته حوالي ٢٥٠٠ فقرة شكلت مجموعها

(١) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 1, § 1 ; ch. 4, § 1.

(٢) انظر : Cujacius, Opera, vol. iv (Naples, 1722), cols. 3 B, 4 A-B.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 1, §§ 1-3.

ثلث الكتاب كله. وفي مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي وضعت في ٤٣٨ للامبراطورية الرومانية الشرقية اعتبرت كل كتابات اوليان وبابينيان مرجعاً موثقاً لدى القضاة. واسلوب اوليان في الكتابة اسهل من اسلوب بابينيان واكثر وضوحاً منه. وقد كان لهذين الفقيهين تأثير مستمر على انظمة اوربا بواسطة الاقتباسات الكثيرة من مؤلفاتها.

بقيت اللاتينية لغة التعليم في بيروت^١ حتى اوائل القرن الخامس ثم حلت محلها اليونانية. وفي تلك الاثناء كانت بيروت قد تحولت سياسياً وفكرياً من محور رومة الى محور القسطنطينية. ومهما يكن فان بعض قطع الادب السوري التي كتبت باللغة اليونانية الركيكة في اوائل العصر الامبراطوري الروماني كان تأثيرها اكثر دواماً وفائدة من جميع القطع الكلاسيكية اليونانية واللاتينية مجتمعة. وكانت هذه القطع هي الاناجيل وبعض الكتابات المسيحية القديمة الاخرى.

(١) راجع بشأن حياة الطلاب في بيروت ما سيأتي في الفصل ٢٧.

الفصل الخامس والعشرون

ظهور المسيحية

في عام ٦ ق.م. او حوالي هذا التاريخ ولد ذاك الذي قسم التاريخ الى عشرين. وكانت الاضواء مسلطة آنئذٍ على رومة سيدة العالم وعلى العرش المتألق الذي كان قد اقامه اوغسطس قيصر قبل حين. ولم يكن المؤرخ ليحفل بوجود ابن نجار في ولاية نائية من الامبراطورية جمع بعض الاتباع حوله وعلم وبشر وشفى ثم صلب بسبب معتقداته. وقد ظهر مؤرخ شاب معاصر كان في الوقت ذاته من ابناء دينه ومن مواطنيه — فخصص له اي لهذا «الرجل الحكيم» و«صانع الاعمال الخارقة» كما قال عنه، قطعة صغيرة تنتهي بهذه الملاحظة: «وعشيرة المسيحيين التي سميت بالنسبة اليه ليست منقرضة اليوم»^١. والمؤرخ اللاتيني الوحيد الذي يذكر «المسيح Christos»^٢ يشير بصورة عرضية بأنه «تعرض لعقوبة الموت في عهد طيبريوس بموجب حكم الحاكم بيلاطس البنطي»^٣. وحصل هذا على الغالب في عام ٣٧. ومع ذلك فان الذين كانوا اقرب الى المسيح في الجليل واليهودية وعرفوه جيداً اصبحوا مقتنعين بأنه لم يكن شخصاً عادياً بل ابن الله. وقد بدلوا طريقة حياتهم حالاً وكما فعل المسيح لم يترددوا في بنائها في سبيل معتقداتهم. واهتم بعضهم

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 3, § 3. ويعتبر بعض النقاد هذه الفقرة ملسوسة.

(٢) هي ترجمة للكلمة العبرانية مشيا māshiah (المسيح) التي كانت تستعمل كلقب للملوك اليهود وبالتالي للملك الموعود. اما «يسوع Jesus» فهو الصيغة الهلينية ليشوع Joshua التي أتت من Jehoshua وهي بالعبرانية Jehōshua (يهوه هو الخلاص).

(٣) انظر: Tacitus, Bk. XV, ch. 44.

(٤) قارن مع: Lactantius, *De Mortibus persecutorum*, Bk. II. الذي يضع تاريخاً يقابل ٢٣ آذار عام ٢٩.

في تسجيل تعاليم سيدهم واعماله . وهكذا وصلتنا الاناجيل وهي مصدرنا الرئيسي عن حياة المسيح . وقدو لذلك الدين الجديد القليل الاهمية في الظاهر - والذي اعتنقه عدد قليل من الفلاحين اليهود في منطقة صغيرة تابعة للامبراطورية الرومانية العظيمة الراقية - ان يبقى طويلاً بعد ان سقطت الامبراطورية التي كانت تبدو راسخة ومستقرة وبعد ان اصبحت في بطون التاريخ . وقد دام اكثر من اية فلسفة وعقيدة اخرى في بلاد اليونان والرومان .

واذا كانت لبعض حوادث حياة المسيح او تعاليمه ما يشبهها في التراث الديني لبلاد الشرق القديم فان الانسان لا يستطيع ان يجد في اي مكان آخر مثل هذه الخلاصة المحكمة من الافكار النبيلة وهذا التأكيد على المثل السامية ، كما انه ليس باستطاعة احدا ان يكتشف في اي زمن شخصاً طبق ما علمه بمثل هذه الصورة التامة .

كان اساس هذه الرسالة الجديدة المحبة ، محبة الله ومحبة الانسان . والمحبة الواحدة تفترض الاخرى . والله نفسه محبة . وبالمحبة جعل المسيحيون الانسانية عائلة واحدة تحت ابوة واحدة . وهكذا وضعت المسيحية الاولى مثلاً عالمياً اعلى بخلاف المثل الاعلى الاقليمي الذي كان يسود في كل مكان . وكان اليونان والرومان يفكرون بالانسانية على اساس القومية ؛ بينما المسيحيون السوريون كانوا اول من اعطى العالم نظرة عالمية فعالة . ولم تكن نظرتهم الى العالم بانه كسب يجب الحرص عليه وانما نظروا اليه كمعب . وبمجتهمهم لم يكن له طموح دنيوي . وكانت الديانة في جميع تعاليمها تؤكد على واجب تكريس الانسان نفسه لله بصورة لا تعرف الانانية وعلى خدمة الانسان وعلى الروحانية الداخلية عوضاً عن المبالغة في الطقوس والمظاهر الخارجية .

لم تتخذ اي من العقائد الملنسية المحبة كفلسفتها الاساسية . والرواقية ونحدها حاولت السير في ذلك الاتجاه . ولم تعلم اية عقيدة سابقة بان هناك الهماً فادياً يهتم حتى باحاط افراد الجنس البشري . كما انه لم تكن لاية منها رسالة حيوية تتوجه للفقير والمنبوذ ، وللعشار والخطيئ . وقبلما اثرت اية ديانة وثنية على الدوافع الداخلية للسلوك والحياة . فقد كانت كلها تهم بصورة رئيسية بالطقوس . ولم توجد اية منها

مثل ذلك الارتباط الفعال بين الدين والاخلاق او تخصص مثل ذلك الاهتمام للحياة الثانية كما فعلت المسيحية .

قرنت المسيحية الحياة الاخلاقية بالدين بصورة وثيقة . فاصبح الاحسان عندئذ من اعمال الايمان بدلاً من ان يكون من اعمال العدل . واعطى الدين الجديد للمضطهدين وعدمي الحظ الامل في حياة ثانية تقدم للابرار المسرات التي حرموا منها في هذه الحياة الدنيا . وكان اليونان والرومان يمنحون الخلود لمن كان محسناً لشعبه فقط او لمن ادخل في احدى ديانات الاسرار .

وكان الدين الجديد في مجموعة افكاره وتعاليمه الاخلاقية وفلسفته في الخلود وعقيدته الراسخة قادراً كما يبدو على تلبية المطالب الروحية والفكرية والاجتماعية التي كان المتنورون غالباً يتطلبونها من دياناتهم التقليدية في كل مكان بدون ان ينجحوا في الحصول عليها . ثم ان الكنيسة في تنظيمها كمؤسسة وضعت اساليب فاقت كثيراً كل ما وضعته الديانات الاخرى . وشق هذا الدين السوري طريقه ببطء ولكن بصورة اكيدة الى مرتبة التفوق الروحي . وبهذا الدين انت الحضارة السورية بآثارها الثالثة وهي اعظم مآثرها في سبيل تقدم العالم . والعالم المتمدن لا يقدر دائماً بان التعبير الاساسي عن اعلى مثله كان في الادب المسيحي .

تقدم المسيحية

كان مقدار تقدم المسيحية بطيئاً اول الامر . ولا بد ان المسيحية قد بدت للمواطن الروماني المتوسط حتى اواخر القرن الاول كمذهب يهودي غامض وانها من الفلسفات الكثيرة الاخرى التي كانت تنتشر من الشرق الادنى . وكانت نواة المجتمعات المسيحية الاولى مؤلفة من اليهود . وقد حكم الامبراطور دوميتيان على ابن عم له بالاعدام بتهمة كفر بتصل باليهودية ويقصد بدون شك المسيحية . ولم تستلقت امكانيات الدين الجديد انظار الناس بوجه عام حتى زمن تراچان . وعندما اعلنت المسيحية تحديها للديانات القديمة قام الكتاب اليونان واللاتين بحاربون الدين الجديد . وكانت الاديان القديمة بالنسبة لهؤلاء الكتاب تفقرن بالاجناد الماضية للتاريخ القومي . وكانت بالنسبة للرومان بصورة عامة رموزاً للسلطة الامبراطورية .

وبالإضافة الى ذلك فقد بدت بعض مظاهر الدين الجديد غريبة على الفكر الروماني اليوناني . ولكن الهوة ازيلت نهائياً بمجهود بولس والآباء المسيحيين الاوائل ، ذلك بان هؤلاء الكتاب باعطاء المسيحية شكلها الهليني جعلوها ملائمة للانتشار في العالم . وكان بولس يعرف اللغة والفلسفة اليونانية واستعمل التعابير والمصطلحات الفلسفية وتبنى بعض آراء من ديانات الاسرار . وبفضل الطريقة التي انتهجها تم التفاهم بين الديانة المسيحية والحضارة اليونانية . وقد اتخذت المسيحية طابعاً هلينياً قبل ان تصبح مقبولة لدى الرومان واليونان . ويجب الاعتراف بان عباداتهم الوطنية كانت تتجه نحو التوحيد . وساعد ازدياد حركة السفر والتبادل على تقويض الولاء لعدد من الآلهة المحلية واحلال عدد محدود من الآلهة تتمتع بمفعول اوسع . وقد ساعد استبدال الجمهورية بالنظام الملكي على ذلك الاتجاه . فحين يدين الانسان بالولاء الى حاكم رئيسي واحد على الارض يسهل عليه الولاء لحاكم رئيسي واحد في السماء . وقد عملت كل هذه الظروف لصالح المسيحية ولكن قبل ان يتأكد لها النصر كان على اتباعها المتمسكين بها ان يتعرضوا لنار الاضطهاد .

الاضطهاد

ولما كان اليونان والرومان يعتقدون بألهة متعددة فانهم كانوا يوجه العموم متسامحين في موقفهم تجاه معتنقي الديانات الاخرى . والواقع انهم ذهبوا الى حد اضافة آلهة جديدة الى مجموع المتهتم . وقد سمحوا حتى في عاصمة امبراطوريتهم بالعبادة المصرية الغريبة والشعائر اليهودية وابعادوا تمثيل المسرحيات ليس باللغات اللاتينية واليونانية فحسب بل باللغات العبرية والفينيقية والآرامية . وكانت سياستهم في شؤون الدين «عش ودع الآخرين يعيشون» . وبما ان المسيحيين كانوا موحدين فانهم لم يتمكنوا من التساهل وكانوا نشيطين متحمسين في بحثهم عن اتباع جدد لديانتهم . وامتنعت جماعاتهم الاولى عن الاشتراك في الاحتفالات الدينية والرسمية في مدنهم . ومثل هذا الموقف غير المتسامح تجاه جميع العادات الوثنية بالإضافة الى جهمهم المستمر في كسب الاتباع كان لا بد ان يؤدي الى الاصطدام .

حصل اول اضطهاد عنيف في عهد نيرون بمناسبة حدوث حريق عارض دمر قلب مدينة رومة في ٦٤ م . وفسر الجمهور الناقم هذا الحريق بانه حادث آخر من

حوادث لهر امبراطورهم الجنوبي. وعندما ارتاع نيرون من ذلك حاول ان يلقي التهمة على المسيحيين في العاصمة وامر بابادتهم جميعاً^١. ومع ان هذا الاضطهاد كان محلياً فقد تلتته حوادث متفرقة ضد المسيحيين في الولايات^٢. وفي عام ٦٧ م يعتقد انه حكم على بولس بالموت في رومة لكونه مسيحياً وذلك وفق القانون الذي اصدره نيرون^٣. ويبدو ان بطرس استشهد بالصلب في رومة^٤ حوالي نفس الوقت الذي استشهد فيه بولس بالسيف^٥. وقتل كثيرون بنفس الوقت. وقد اثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والافاويل حولهم. وكانوا بمثابة كبش مناسبت للفداء بالنسبة للرعايا كلما حلّت بالمدينة او بالسكان حادث شؤم. وكثيراً ما كانت المحاكم المحليون يفرضون العقوبات على رعاياهم المسيحيين لعضويتهم فيما اعتبروه جمعيات سرية.

وحدث الاضطهاد العنيف التالي سنة ٩٥ م. في عهد دوميتيان. وكان أيضاً محلياً وموجهاً بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيين في كثير من الاحيان. وكان بين الذين حوكموا في هذه الاضطهادات احفاد يهودا، اخي المسيح، الذين اطلق سراهم باعتبارهم «جماعة بسطاء»^٦. وفي عام ١١٢ اصدر تراجان مرسوماً ينص على ان المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللإمبراطور حين يطلب منهم ذلك في المحكمة فانهم سيعاقبون كخونة. وكانت عبادة الامبراطور اكثر عبادات الدولة قوة وانتشاراً وقد انشأها اوغسطس واصبحت تعبيراً مادياً للولاء نحو العرش. وجعل مرسوم تراجان المسيحيين خارجين حقيقين عن القانون في مثي السنة التالية. وكانوا يلاحقون ويعاقبون بشكل منتظم في مناسبات متعددة. وعندما بدأت الامبراطورية تسير نحو الانحطاط في القرن الثالث واخذت الكنيسة المسيحية تصبح

(١) انظر: Tacitus, *Annales*, Bk. XV, ch. 44.

(٢) قارن مع رسالة بطرس الرسول الاولى ١٣: ٤ - ١٩.

(٣) قارن مع رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس ٤: ٦ - ٨.

(٤) انظر انجيل يوحنا ٢١: ١٨ - ١٩.

(٥) انظر: Lactantius, Bk. II.

(٦) انظر: Eusebius, *Historia ecclesiastica*, Bk. III, ch. 20, §§ 1-4.

آمنة في طريق تقدمها حاول اصحاب الشأن القضاء على المسيحية كوسيلة لاعادة نفوذ الدولة . وفي عام ٢٥٠-٢٥١ اوجب ديقوس Decius من جديد معاينة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لآلهة الدولة . وفي عام ٢٥٧-٢٥٨ لم يوجب فالريان على المسيحيين ان يقدموا الذبائح علناً فحسب بل منعهم من عقد اجتماعاتهم معاً . وهكذا فقد ترك بعضهم بصورة علنية ، على الاقل ، دينهم .

كان ديوكليتيان هو الذي امر بالاضطهاد الكبير الذي وقع على المسيحيين في القرن الرابع . وقد نص مرسومه الذي صدر في شباط ٣٠٣ على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه . وامر بفرض جميع انواع العقوبات باستثناء الاعدام ولكن حتى الاعدام نفسه طبق وعلى مقياس واسع . وكان هذا المرسوم مثار دهشة لانه صدر عن شخص كان يميل الى المسيحيين علناً . ويظن ان زوجة ديوكليتيان وابنته كانتا مسيحيتين^١ . ويبدو ان الامن والازدهار اللذين كان يتمتع بهما المسيحيون في البلاد كلها قد اثارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنيين الذين ملأوا رأس الامبراطور بتقارير عن موآمرات واعمال شغب مزعومة . وكانت هنالك اسباب اخرى لهذا الاضطهاد . واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات بشدة لا يعلمها شيء^٢ . واستخدمت عبقریات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب . ويتحدث يوسيبوس^٣ عن مسيحيين في الجزيرة العربية ذبحوا بالفاأس وعن آخرين في انطاكية شويت اجسامهم على المشواة . ويذكر ايضا اخبار نساء كن يرمين انفسهن في نهر العاصي للخلاص من الاغتصاب وبلغ من كثرة الذين افنوا في الامبراطورية بهذه الطريقة ان اقام الجلادون الامبراطوريون اخيراً عمود نصر يحمل كتابة اثرية تفتخر بانهم ابادوا اسم المسيحيين وخرافتهم واعادوا عبادة الالهة الى سابق صفائها وزهوها . وبعد سنوات قليلة اصبحت المسيحية في عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة . وكان اضطهاد ديوكليتيان آخر اضطهاد في عهد الامبراطورية الرومانية .

ديانات الاسرار

حين كانت المسيحية تتجه الى السيطرة على العالم كانت تنافسها ديانات اخرى

(١) انظر : Lactantius, Bk. XV.

(٢) انظر : Eusebius, Bk. VIII, ch. 12, §§ 1, 2.

من اصل شرقي ومن أبرزها ديانات الاسرار . وكانت آلهة الاسرار بالاصل آلهة نبات ثم اصطبغت في هذا العصر بالهلينية تماماً وتبناها اليونان والرومان . وكان ديونيسوس^١ من اقدم هذه الآلهة وهو اله الخمر وروح حياة النبات بوجه عام . وكانت ايزيس المصرية ارفع الآلهة المؤنثة شأنًا . وقد اعترف كاليغولا (حوالي ٤٠ م.) بها بين العبادات الرومانية الرسمية . وبلغ من شيوع عبادة ايزيس انها انتشرت في جميع الامبراطورية في القرنين الاول والثاني الميلاديين .

كانت ديانة ميثرا Mithras وهو بالاصل اله الشمس عند الفرس احدث ديانات الاسرار الجديدة واكثرها شعبية . وقد بدأت كعبادة زردشتية ثم لقيت في القرن الثالث الميلادي ترحيباً عظيماً وخاصة بين الجنود الرومان . وقد استهوتهم بصورة خاصة قوة هذا الدين الذي صور الحياة كصراع مستمر بين اله خير وبين قوة شريرة . وبدا الامر لمدة من الزمن بان المصير هو اما فوز المسيحية او ديانة ميثرا .

ومن صفات ديانات الاسرار كونها سرية . وكان الانتساب اليها مقتصرًا على اولئك الذين اتبع لهم الاطلاع على اسرارها . وكانت آخر مرحلة في الاطلاع هي ابلاغ الشخص بان الذي يتمتع بمثل هذا الامتياز يبلغ الخلاص . وكانوا يبحثون عن الخلاص بواسطة الاتحاد الشخصي مع مخلص الهى اختبر الحياة والموت بنفسه .

ومن المظاهر الاخرى لديانات الاسرار التعبير عن المشاعر الشخصية بحرية اكثر مما تسمح به طقوس الدولة والعائلة^٢ . وبما ان ديانات الاسرار كانت تقتصها السلطة المعترف بها للعقائد الرسمية فانها التجأت الى وسائل جديدة لكي تكسب اتباعاً جديداً - وكثيراً ما كانت تحوي احتفالاتها عنصراً «تجديداً» قد يبلغ حد الخلاعة . وبالإضافة الى ذلك فقد وعدت هذه الديانات اولئك الذين اجتازوا مراحل الاختبار الضرورية بحياة سعيدة . وبعد الموت يرتفع المطلع على الاسرار الى العالم الالهى ويسكن مع الآلهة . وفي هذه الامور وكذلك في نظرية الخلاص تشابه هذه الديانات مع المسيحية وتلاقي ترحيباً لم يكن في وسع العبادات الرومانية اليونانية ان تقدم ما يكفي لمقاومته .

(١) انظر في ص ١١٨ .

(٢) انظر : Franz Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain*, 4th ed. (Paris, 1929), pp. 24 seq.

تنتسب المذاهب الغنوسية (التي تعتقد بالمعرفة دون الايمان) وديانات الاسرار الى نفس النموذج الديني . فالفكرة الرئيسية في كليهما هي الغنوسيس Gnosis اي المعرفة السامية والاستنارة الروحية التي تتاح للمختارين بحيث يمكن انقاذ الروح من حال عبوديتها. والمرويات المسيحية تجعل سيمون الساحر (اعمال الرسل ٨ : ٩ وما بعدها) مؤسس الحركة الغنوسية .

كان للمسيح في سورية ذاتها عدة منافسين في القرنين الاولين . وكان اقوى هؤلاء حدد-رمانو الذي تحول في العصر الهلنستي الى زفس (او جوبيتر) الذي كان من دمشق او من هليوبولس (بعلبك) او من هيرابولس (منبج) . وانتشرت عبادته في جميع الامبراطورية . وكانت رفيقته اثارغاتس منافسة لايزيس والعذراء . وهناك زفس او جوبيتر آخر في بلدة دوليكة Doliche^١ وقد عاش «حيث يوجد الحديد» . ونجح جوبيتر دوليكنوس وهو بالاصل تيشوب Teshub^٢ اله الحثيين في نشر عبادته في الامبراطورية كلها بصحبة الجيوش الرومانية . وكما كانت الحال بالنسبة لسائر الديانات الشرقية فقد نقل الجنود والعبيد والتجار طقوس عبادته الى اكثر البلاد الاوربية . وكان اخلص اتباعه في بادئ الامر الحدادون وهم احسن من يتقن الحرفة في آسيا، غربي الصين . فحيثما تجدد جماعة هذا الاله المتفرقة الحديد فهناك تقيم اكرارها وتدارس الفنون التي ورثتها . وكان المها يسافر معها . «وقد يمكن للرومان ان يغلبوا السوريين ولكن آلهة الرومان قد تخلت عن مكانها لآلهة سورية»^٣ .

مراكز المسيحية في سورية

كان اول مركز للمسيحية السورية المنظمة في مدينة انطاكية . واصبحت كنيسة انطاكية بصورة خاصة ام الكنائس التي انشئت في البلاد الوثنية . وكانت بولس وغيره من الدعاة الاوائل للدين المسيحي ينطلقون من انطاكية للبدء في اعمالهم التبشيرية ثم يعزودون اليها لرفع التقارير عن اعمالهم . واصبحت انطاكية

(١) هي عيتاب، انظر: Dussaud, *Topographie*, p. 472; Franz Cumont, *Études syriennes* (Paris, 1917), pp. 173 seq.

(٢) انظر في ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(٣) انظر: Mommsen, *Provinces*, vol. ii, p. 123.

بعد ان دمر الرومان في ٧٠ م ١ منافستها اورشليم العاصمة الوحيدة للعالم المسيحي وتمتعت لبعض الوقت بمقدار معين من السلطة على الابريشيات المجاورة على الاقل . وكان يدعى اسقفها في القرن الرابع رئيس اساقفة (متروبوليت Metropolit) . وعقد في المدينة اكثر من ثلاثين مجمعا للاساقفة (سينودس) وكان انعقاد اولها في عام ٢٢٥ م . واطلق اسم انطاكية على احدى مدارس اللاهوت التي كان المع افرادها يوحنا فم الذهب Chrysostome (توفي ٤٠٧)^٣ . وعلى عكس الاتجاه العاطفي والصوفي في الدين اكدت المدرسة على العنصر الانساني وركزت الاهتمام على المسيح التاريخي . وكانت لغة المدرسة ، كما تأكد ، اللغة اليونانية .

كانت اليونانية والآرامية تستعملان في العبادة منذ عهد الرسل . وبعد ان ارتقت انطاكية الى مكانة الزعامة في الجزء الذي يتكلم اليونانية في سورية بدأت اديسا بالارتقاء الى مكانة مشابهة في البلاد التي تتكلم الآرامية (السريانية) . وكانت اديسا اقدم مركز للمسيحية في ما بين النهرين^٤ ، كما كانت مهد الادب السرياني . ويرجع ان التجمات الرئيسية للتوراة السريانية قد وضعت هناك في اواخر القرن الثاني . وادت المجادلات حول طبيعة المسيح في القرنين الرابع والخامس الى تجزئة المسيحية السورية الى عدد من الفرق^٥ .

آباء الكنيسة

تدين المسيحية بقسم كبير من نجاح انتشارها الى سلسلة من المؤلفين المعروفين بآباء الكنيسة الذين فسروا عقائد الكنيسة ووسعوها . ويسمى اول ستة منهم الآباء الرسولين لانهم عاصروا الرسل في بعض ادوار حياتهم . وكان احد هؤلاء سوريا يدعى اغناطيوس Ignatius الذي خلف بطرس في اسقفية انطاكية^٦ .

(١) انظر ما سيأتي في الفصل التالي .

(٢) انظر : Eusebius, Bk. VII, ch. 29.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٧ .

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

(٦) انظر : Eusebius, Bk. III, ch. 36.

وتذكر المرويات انه حين زار تراجان انطاكية في عام ١٠٧ تصرف هذا الاسقف في حضرة الامبراطور بجمرة كانت نتيجتها انه ارسل الى رومة حيث اعلم في المدرج وذلك باقتراس الحيوانات الكاسرة له . وقد وصلتنا من بين مؤلفاته المختلفة سبع رسائل اصيلة .

وبين الآباء الذين عاشوا قبل مجمع نيقية (١٥-٣٢٥ م.) شخصان بارزان كانت لهما صلة بسورية وهما يوستين الشهيد Justin (the) Martyr وأوريجين Origen . وقد ولد يوستين في نابلس حوالي العام ١٠٠ م. ولكنه لم يكن من ابوين سامريين. وكان طالباً متحمساً للفلسفة الافلاطونية ثم اعتنق المسيحية نتيجة محادثة جرت له مع شيخ متواضع وقور لقيه على الشاطئ واوصاه الشيخ بدراسة الانبياء العبرانيين والمسيح . وكثيراً ما كان يشار الى يوستين باسم الفيلسوف . وقد ادخل عناصر من الفلسفات الافلاطونية والرواقية في اللاهوت المسيحي وحارب تعاليم الغنوسيين . وكان هناك معاصر له من المسيحيين الغنوسيين اسمه ماركيون Marcion قد فرق بين اله العهد القديم واله العهد الجديد وقال ان المسيح قاسى الآلام بالظاهر فقط . وانتقلت الهرطقة الماركيونية من رومة الى انطاكية وبقيت سورية .

وتجراً يوستين حين خاطب الامبراطور انطونينوس بيوس قائلاً : « اما نحن فاننا مقتنعون باننا لن نسمح لاي كان ان يلحق بنا الاذى ما لم يثبت علينا فعل الاذى او يقوم البرهان على اننا رجال سافلون ، اما بالنسبة لك فاقتلنا لانك تستطيع ذلك ولكن لا تستطيع ان تؤذينا » وينسب الى يوستين انه افتتح اول مدرسة مسيحية في رومة . وقد جلد فيها وقطع رأسه لانه رفض ان يقدم الذبائح للآلهة ويظن ان ذلك كان في عهد ماركوس اوريليوس . وقد جعلته الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية قديساً . وكان اوريجين يرأس مدرسة لتعليم الدين المسيحي في الاسكندرية كما اسس مدرسة اخرى في قيصرية . وتوفي نحو عام ٢٥٣ في صور حيث يشيرون حتى اليوم الى قبره المزعوم بانه قبر الساحر الكبير اوريانوس .

الفصل السادس والعشرون

التأثير السورتي والتأثير الروماني

لم يكن توغل المسيحية حتى اقصى اطراف الامبراطورية الرومانية وانتصارها النهائي على جميع الديانات اليونانية والرومانية وعلى منافساتها في الشرق-الاناحية من نواحي انتشار تأثير الحضارة السورية وهي الناحية الدينية . اما النواحي الاخرى فكانت الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وفي هذه الاتناء كانت عمليات نشر الحضارة الرومانية تعمل في اتجاه معاكس .

التأثير الروماني عن طريق الرعوية

كان انتشار الحضارة الرومانية يتضاءل كلما بعدت المسافة عن رومة . ولم يكن في سورية سوى عدد قليل من المقيمين الايطاليين ليكونوا بمثابة مركز لنشر الثقافة اللاتينية . وكان اغلب هؤلاء من الموظفين الحكوميين الذين يجبون الضرائب ويفصلون في القضايا الهامة ويحضرون الالاعاب والاحتفالات ولكنهم بقوا يعاملون كأجانب . ولكن الاباطرة منذ البدء كانوا يمنحون السكان الوطنيين في مستعمرات مثل بيروت وهليوبولس حق الرعوية الرومانية فيحوزون مكانة ممتازة بين سكان الولايات . كما ان بعض المدن الاخرى التي لم تكن من المستعمرات اعطيت حق الرعوية او بعض الامتيازات الخاصة اما عن طريق المنحة او المعاهدة . وقد تمتعت صور مثلاً حتى بحق الاعفاء من الضرائب العادية . وكانت سياسة «فرق تسد» اسلوباً سياسياً رومانياً قديماً طبق ليمنع المدن او الجماعات المختلفة من التكتل معاً ضد رومة .

ان سياسة منح الامتيازات الرومانية لغير الايطاليين قد ازدادت بشكل ملحوظ عندما اعتلى تراجان الاسباني الاصل عرش القياصرة . وبلغت هذه السياسة ذروتها في ٢١٢ م حين اصدر كرا كلا مرسومه المشهور بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الاحرار في الولايات تقريباً . واصبح منذ ذلك الحين فصاعداً اي سوري

مواطناً رومانياً بحكم الواقع ويحق له استلام اعظم وظيفة في الدولة اذا كان اهلاً لذلك. غير ان الفوائد كانت مقتصرة في الواقع على النفوذ الاجتماعي وبعض الفوائد الاقتصادية. ولا بد ان صحة بولس « انني مواطن روماني »^١ « وانني ارفع امري الى قيصر »^٢ قد ردها كثير من السوريين في تلك الايام. ومع هذا فان ذلك لا يعني ان السوريين لم يعودوا يشعرون بانهم سوريون. وكانت الحضارة الهلينية في ظل الحماية الرومانية تسلك الطريق الصحيحة نحو حل المشكلة المعقدة وهي مشكلة صهر مجموعة من القوميات المختلفة في شبه وحدة في مجال الفكر والسياسة. وصار يبدو ان حكم الاسكندر المنسي وهو مشاركة المنتصرين والمغلوبين قد تحقق جزئياً.

التأثير الروماني عن طريق الخدمة العسكرية

كان الرومان منذ البداية يستخدمون غير الايطاليين كفرق احتياطية. وبالتدريج اصبحت الفرق الرومانية نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الاصليين. وكان افراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومان. وكان الجنود السوريون في الوحدات الرومانية يرابطون في مختلف اقسام الامبراطورية. وعندما ذهب الفرقة الثالثة الى ايطاليا لتساعد في توطيد مركز فسباسيان حيا جنودها الشمس المشرقة « حسب العادة السورية »^٣. وكانت تضم الفرقة المرابطة في نوميديا نسبة كبيرة من المحاربين السوريين القدماء من افامية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا وصور. وكانت اللاتينية لغة الجيش. ونستنتج من الكتابات الاثرية التي خلفها الجنود السوريون الذين خدموا في الولايات الغربية عند عودتهم انه يمكنهم استعمال اللاتينية. واتخذ بعضهم اسماء رومانية او على الاقل كانت اسماءهم الاولى رومانية.

كانت اللاتينية ايضاً اللغة الرسمية للحكام. فالمراسم الامبراطورية كانت تصدر باللاتينية ومعها ترجمة يونانية^٤. وحلّ التقويم الروماني محل كثير من التقاويم المحلية كما اقتبس نظام الاوزان والمقاييس الروماني بشكل عام.

(١) قارن مع اعمال الرسل ٢٢: ٢٧.

(٢) انظر اعمال الرسل ٢٥: ١١.

(٣) انظر: Tacitus, *Historiae*, Bk. III, ch. 24.

(٤) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 12, § 5.

المقاومة اليهودية

كانت الجماعة اليهودية اقل الجماعات السورية المتعددة استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية . وكانت الارستقراطية قد اصبحت مصطبغة بالصبغة الهلينية . وحصل الصدوقيون الذين كانوا يمثلون الحزب الارستقراطي ويحتكرون الوظائف على تأييد رومة . اما الفريسيون الذين مثلوا عامة الشعب فقد تمسكوا بتقاليد ديانتهم وهدفوا الى التحرر . ويتصل الفريسيون من حيث مثالياتهم بالهاسيديم Hasidim من العصر المكابي^١ .

عمل اليهود منذ عهد يومي كجماعة متميزة بسبب الوحدة الشديدة لدينهم . فكانوا في عهد الاباطرة معفين من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الامبراطور . فلم يطلب منهم المساهمة في عبادة الحاكم الروماني المقرنة بتقديم القرابين له . وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغفدون شعورهم القومي . وادى هذا الى اصطدامات اتسعت فاصبحت ثورة قومية بين ٦٦ - ٧٠ م . في عهد نيرون وبين ١٣٢ - ١٣٤ تحت حكم هادريان . ونتج عن هاتين الثورتين الانفصام النهائي بين اليهود والمسيحيين وحلت بالمتجمع اليهودي كارثة دائمة .

تدمير تيطس لاورشليم

عهد نيرون بجمعة قمع الثورة الاولى الى قائده فسباسيان^٢ الذي اخضع بين ٦٧-٦٨ منطقة الريف والحصون المنعزلة^٣ . وكانت يافا بين المدن التي دمرت . وقد بلغ عدد الجيش الروماني ٥٠,٠٠٠ ولم يلاق سوى مقاومة ضئيلة . وحين كانت فسباسيان على وشك محاصرة اورشليم توفي نيرون ورفع هو الى العرش . وعهد بأمر انتهاء المهمة الحربية الى ابنه تيطس الذي شدد الحصار على اورشليم مدة خمسة اشهر انتهت في ايلول سنة ٧٠ . ويمكننا الحصول على فكرة عن مصير المحاصرين المفجع من وصف ميثاق متبادل بين اليهود تعهدوا فيه بباداة انفسهم حين كان

(١) انظر في ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) انظر : Dio, Bk. LXIII, ch. 22, § 1.

(٣) انظر : Josephus, War, Bk. II, ch. 18, §§ 1, 3-4.

الجنود الرومان يفتحون المدينة . فبعد ان ابادوا نساءهم واولادهم توقف كل منهم عن القتال ورمى سلاحه حول افراد عائلته المذبوحين وقدم رقبتة لضربة من الذي جعلته القرعة يقوم بهذه المهمة الكثيرة . وقد كتب الوصف التالي مؤرخ ساهم بنفسه في هذه الحرب ^١ :

كان الازواج يضمنون زوجاتهم بحنان ويعملون اطفالهم بين افرعهم ويتماقون عناق الوداع والدموع تترقق في مآقيهم . ولكنهم نغفوا في الوقت ذاته ما اعتزموا عمله كأنهم يعملون ذلك بايدي غريبة . وقد جلوا عزائم لفرورة ما قاموا به تفكيرهم بالصائب التي سيقاسونها فيها لو سقطوا بايدي اعدائهم . وكانوا رجالاً تعساء بالحقيقة بسبب الفرورة التي وجدوا فيها وهم الذين بدا لهم ذبح زوجاتهم واطفالهم بايديهم اهون الشرور التي تنظرهم ^٢.

لقد هدمت المدينة واحرق المعبد وهو المعبد المزخرف الذي بناه هيرودس فوق ابنية متعاقبة في نفس الموقع . وكان التهديم الذي قام به تيطس تاماً حتى ان الناس نسوا اذا كان المعبد قد بني على التلة الشرقية او الغربية في اورشليم . وقد فشلت جميع محاولات اعادة بنائه بالاستناد الى وصف التوراة وحدها . وقدر بان مليون يهودي قد هلكوا في هذه الحرب . واجبر كثير من الاسرى بان يقاتل الواحد الآخر او يقاتلوا ضد الحيوانات المفترسة في المدرجات . ومنعت البقية الباقية من اليهود من الاقتراب من عاصمتهم . والواقع انها لم تعد عاصمتهم . وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود . واصبح اليهود منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن . وهكذا اضيف فصل روماني في تاريخ تفرق اليهود (الدياسبورا) الى الفصول الاشورية والكلدانية .

وقد اختطف احد الجنود الرومان الشعبان ذا الفروع السبعة من المعبد المحترق وحمله في موكب النصر الذي كرموا به عودة تيطس الى العاصمة الامبراطورية . وحتى هذا اليوم لا يزال يحمله احد الجنود عالياً على القوس المشيد قرب الفوروم برومة لذكرى الانتصار العظيم . اما بخصوص الديانة اليهودية فقد انحطت بانحطاط اتباعها . ولم يكن اساسها القومي الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها

(١) انظر في ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٢) انظر : Josephus, War, Bk. VII, ch. 9, § 1. هذه الفقرة هي من الترجمة المنقحة التي قلم بها : A. R. Shilleto (London, 1890). Cf. Dio, Bk. LXV, ch. 6, § 3.

وفشلت جميع محاولات العليلة اليهود ابتداء من فيلون الاسكندري (زها عام ٤٠م) لتقريبها الى العقلية اليونانية الرومانية .

تعرض اليهود لقصة موت أخرى حين رفع راية الثورة اليهودية من ١٣٢-١٣٥م. قائد غامض يسمى سيمون باركوكبا ^١ Simon Bar Kokba (Kochba). وقد سحق هادريان الثورة وحول اورشليم الى مستعمرة رومانية باسم ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina ^٢. وكان اسمه الاول ايليوس Aelius. وابدل المعبد القديم بمعبد كرس لجوبيتر كابيتولينس Jupiter Capitolinus. ويقدر ديو ^٣ عدد القرى التي دمرت بتسعمئة وخمس وثمانين قرية وعدد القتلى من السكان بمئسمئة وثمانين ألفاً .

السلالة السورية في رومة

فتحت ابواب النفوذ السوري في رومة على مصاريحها عند ما نجح زوج سيدة من حمص باحتلال عرش القيصرية حوالي اواخر القرن الثاني . وكانت تلك السيدة جوليا دومنة ابنة كاهن الاكبال في حمص . اما الزوج فكان سبتيموس سيفروس قائد احدى الفرق في سورية . وتم الزواج حوالي ١٨٧ م .

ولد سبتيموس في لبتيس Leptis (هي لبدة اليوم في طرابلس الغرب) وكانت مستعمرة فينيقية في افريقيا . وكان الامبراطور الروماني الوحيد في التاريخ الذي قدم من تلك القارة . وكانت اللاتينية بالنسبة اليه لغة اجنبية وظل يتكلمها برطانة طيلة حياته . اما لغته فكانت البونية التي لا تختلف كثيراً عن الآرامية ، لغة زوجته . وقد اعتلى سبتيموس العرش في سنة ١٩٣م .^٤ وادعى الانتساب الى

(١) هو تعبير آرامي يعني « ابن الكوكب » وقد تكون فيه اشارة الى سفر العدد ٢٤ : ١٧ . ودعا اليهود بعد هزيمته باركوزيبا Bar Koziba اي « ابن الكذب ».

(٢) انظر : Eusebius, Bk. IV, ch. 5. ; فان مع : Dio, Bk. LXIX, ch. 12. حيث يعمل تأسيس المستعمرة الرومانية سبب الحرب وليس نتيجتها .

(٣) انظر : Dio, Bk. LXIX, ch. 14, § 1.

(٤) راجع بشأن تزاغه مع ليجر وغيره من الثنائين : Herodian, *Historiarum*, Bk. III, chs. 1 seq.

ماركوس اوريليوس على اساس انه تبناه ولكن هذا التبنّي حصل بعد وفاة ماركوس وكان مزوراً ، وبذلك اتصل بالاسرة الانطونية .

وقد وصفت جوليا دومنة بانها كانت على جانب عظيم من الجمال والقوة الفكرية والمقدرة السياسية والادبية . وقد منحت لقب اوغسطا وساعدت زوجها في تصريف شؤون الدولة . وكان كبير المستشارين احد اقربائها وهو الفقيه بايينان^١ . وعندما توفي زوجها في ساحة المعركة في بريطانيا (٢١١ م) بقيت مسيطرة على ولديها كرا كلا وغيتا وقد خلفا والدهما كأمبراطورين .



تمثال نصفي لجوليا دومنة يظهر شعرها المتجمد

كان اسم كرا كلا الحقيقي باسيانوس Bassianus بالنسبة لاسم جده لأمه . اما لقبه هذا فقد حصل عليه بسبب نوع من الجبة العالية التي ادخل استعمالها^٢ . وقد ولدهو نفسه في ليون Lyons في بلاد الغال . وكان الاخوان يكتان واحدهما للآخر منذ الطفولة اشد انواع البغض . ولذلك حاول كرا كلا الآن وهو اكبر الاثنين ان يجعل نفسه الحاكم الوحيد وفي سبيل ذلك دير اغتيال اخيه غيتا وهو في ذراعي والدته في جناحها الخاص . وكان غيتا قد دعي الى ذلك الجناح بمجة المحاولة للتوفيق والصلح . واصيبت جوليا نفسها بجراح في يدها اثناء محاولتها حماية ابنها^٣ . وقد حدث ذلك في سنة ١١٢ وهي السنة التي منح فيها كرا كلا حق الرعوية الرومانية لجميع سكان الولايات الاحرار . وكان آنشد في الثالثة والعشرين ويكبر اخاه بسنة واحدة .

(١) انظر في ص ٣٦٠ .

(٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 3, § 3.

(٣) انظر : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 2, §§ 3-4.

ومنذ ذلك الحين حكم على الامبراطورة انوالدة التعيسة « ان تبكي على موت الولد الواحد وعلى حياة ابنها الآخر ».

بعد ان بدأ كراكلا سياسة سفك الدماء لم يعرف ابن يتوقف. وقد قتل جميع الذين اعتبرهم مواليين لاختيه بالاضافة الى غيرهم وبلغ مجموع ضحاياه ما يقرب عشرين الفا. وكان بين الضحايا بابينيان الذي ازدان به بلاط ابيه. وقد حكم كراكلا بقوة السيف واعجب بهانيبال فاقام له التماثيل في امكنة متعددة^٢. وطلب من مجلس الشيوخ ان يدرج اسمه بين الآلهة. وقد كتب احد المؤرخين المعاصرين له هذا المقطع في وصف كراكلا:

انتسب انطونينوس الى ثلاثة عروق لم يتحلّ بأية فضيلة من فضائلها، ولكنه جمع في نفسه كل عيوبها. فاخذ من بلاد الغال القلب والجن والطيش ومن افريقيا الحشونة والقسوة ومن سورية التي منها امله عن طريق امه اخذ الدماء^٣.

وقفت والدة كراكلا مكتوفة الايدي تجاه هذا الفجور. ولم تجرؤ على ذرف دمعة واحدة على ابنها الذي اغتيل. وقد عهد اليها كراكلا بمراسلاته وبالاوراق الرسمية. وكان صالونها يضم بالاضافة الى بابينيان وخلفه اوليان كلاً من ديوجينيس لاثرتيوس Diogenes Laertius^٤ كاتب تراجم المؤرخين اليونان، وديو كاشيوس Dio Cassius المؤرخ والموظف في الدولة، وفيلوستراتس Philostratus السفسطائي، وقد اشرنا الى مؤلفاتهم في هذا الكتاب. وكان جالينوس الطبيب اليوناني المشهور عضواً في هذه الحلقة التي جمعتها فتنة هذه السيدة السورية ذات الاصل الوضع نسبياً وتنوع معارفها. وكان اسم ابيها باسيانوس Bassianus يعني الوضع بينما اسمها دومنة يعني سيدة. ومثل هذه الصفات النسائية التي اظهرتها دومنة كانت نادرة

(١) انظر: Edward Gibbon, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J. B. Bury, vol. i (London, 1898), p. 141.

(٢) راجع بشأن مساهمته في المبد العظيم في هليوبولس ص ٣٤٤ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: Ernest Cary : Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. هذا المقطع مأخوذ من ترجمة Dio, Bk. LXXVIII, ch. 6, § 1. (London, 1927), vol. ix, p. 291. ويقول العلماء البعثون اليوم ان المؤرخ ديو اعطى صورة بشعة لكراكلا خاصة لعدم مجاراته لمجلس الشيوخ الذي كان آنذاك عاجزاً تماماً.

(٤) دعي كذلك بالنسبة الى لاثرتس Laertes في كيليكية التي يذكرها Strabo, Bk. XIV, ch. 5, § 3. ولم يعين موقعا بالضبط حتى الآن.

الوجود عند السيدات الرومانيات الحقيقيات. وذكر عدد من المؤرخين بان اخلاقها كان يرتاب بها ولكن المؤرخ ديولا يذكر لها اية فضائح .

كانت جوليا صدقة في انطاكية حين وصلتها انباء اغتيال ابنها بتعريض من مكريينوس Macrinus في مدينة اديسا (٢١٧ م). وكان مكريينوس قائد الحرس الامبراطوري وخلف ابنها في منصبه . وقد حاولت الانتحار جوعاً ليس بسبب حزنها على ابنها المكروه بل لانها لم تستطع التفكير بالعودة الى الحياة العادية بعد «ان كانت تأمل ان تصبح الحاكم الوحيد وان تجعل نفسها معادلة لسميراميس ونيتوكريس» خاصة وانها كانت نوعاً ما من نفس البلاد التي تحدّرتا منها^١. ونجحت اخيراً محاولاتها المتكررة في الانتحار ونقل جثمانها الى رومة ليدفن فيها .

تابعت عمل جوليا دومنة شقيقتها الصغرى المقتردة جوليا ميزا Julia Mæsa^٢. وقد ولدت ميزا في حصص ثم انتقلت الى رومة بعد زواج شقيقتها . وبقيت تعيش هناك في البلاط حتى مقتل ابن اختها كراكلا . وتمكنت بالنظر لما تمتعت به من قوة عظيمة وحكمة سياسية وثروة ضخمة من التأمر بنجاح على قلب مكريينوس وتوزيع حفيدها الاكبالس^٣. وكان زوجها رومانياً غنياً شغل منصب القيادة العليا

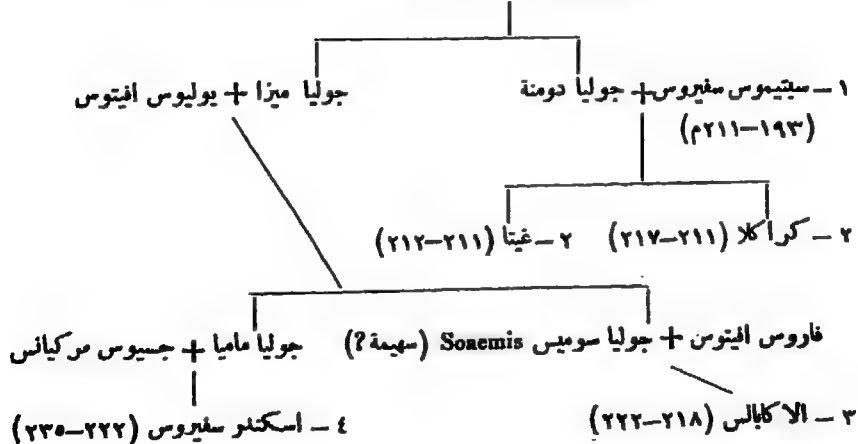
(١) راجع بشأن الاعمال التي يمزوها الاقلمون الى هاتين السيدتين : Herodotus, Bk. I chs. 184-6.

(٢) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 23, § 3.

(٣) هي مؤنث كلمة ميزيوس Maesius وهو اسم روماني قديم .

(٤) كان اسم الاصلى باسيانس بالنسبة لجدّه الاكبر . وقيل ان شجرة النسب للسلافة السورية :

يوليوس باسيانس من حصص



في عدة ولايات ووصل الى رتبة القنصلية في سنة ٢٠٩ م. وكان والد إلاكابالس رجلاً سورياً من أفامية ولكن الصبي فيما ذكر قد ولد في حمص حيث ورث الكهانة. وقد دعم الجيش السوري هذا الشاب قريب جوليا دومنة البالغ من العمر الرابعة عشرة فهُزم مكرينوس وقتل في انطاكية سنة ٢١٨ م.

اله الشمس السوري يعبد في رومة

دخل الامبراطور الكاهن مدينة رومة منتصراً وهو يحمل الحجر الاسود المقدس في عربته. وكان هذا شعار اله بعل المحصي وهو اله الشمس الذي تسمى باسمه. وكان يحتفظ به في الاصل في معبد حمص الفخم الذي كان يزدان بالذهب والفضة والجواهر^١ والذي كان يتمتع بحق التجاء الناس اليه. واصبحت عبادة الاله السوري متفوقة في العالم الروماني. وكانت الطقوس التي ادخلت معها فخمة جداً ترافقها ذبائح ثينة كانت تقدم على مذابح تنوء بالعبور وتصب عليها خور معتقة لتختلط مع دم الضحايا. وازاد الامبراطور الى القابه العديدة لقباً جديداً وهو «الكاهن الاعلى للاله الشمس إلاكابالس الذي لا يقهر». اما بالنسبة لحكمه فكان تنمية لحكم نسيبه وهو عبارة عن سلسلة من اعمال الفجور والرعونة المتطرفة. وكانت جدته تدير امور الحكم وعندما شعرت بقرب سقوطه اقنعت بان يتبنى حفيدها الآخر اسكندر سفيروس^٢ ويعينه خلفاً له. وفي سنة ٢٢٢ اغتال الحرس إلاكابالس وخلفه الاسكندر المذكور.

كان اسكندر آنذاك فتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره وكان والده سورياً رفيع المرتبة من مواطني عرقة^٣. اما والدته وهي أرملة كشيقتها فقد نودي بها اوغسطا ومارست الوصاية. وكان اسكندر آخر افراد هذه السلالة السورية واحسنهم. وقد اعاد التحف الدينية والحجارة المقدسة الى اماكنها الاصلية وكان سلفه قد وضعها في رومة كما انه منع عبادة شخصه وهو على قيد الحياة واقام في محرابه

(١) انظر : Herodian, Bk. V ch. 5.

(٢) الاسم الاصلي هو الكسيانس باسيانس؛ انظر : Herodian, Bk. V, ch. 5.

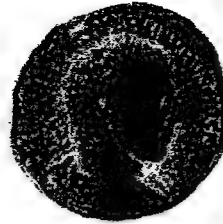
(٣) انظر : Dio, Bk. LXXIX, ch. 30, § 3.

الحاص ثائيل نصفية لزردشت وابراهيم والمسيح . واستمعت والدته لمحاضرات الفقيه اوريجين . وقد انقص الترف في البلاط وخفف الضرائب ورفع مستوى النقد وشجع الادب والعلم ولكنه لم تكن لديه ثقة في نفسه كافية لان يتحرر من وصاية امه . ولم يستطع الحد من تعسف الطبقة العسكرية . وقد قتل مستشاره ورئيس حرسه اوليان في فتنة عسكرية . وفقد ديوكاشيوس قيادته في فتنة اخرى .

احتفل اسكندر في عام ٢٢٣ في رومة بانتصاره على الفرس بعد ان استرد منهم بلاد ما بين النهرين . وكان تجدد الروح القومية بحرك الآن هذا الشعب في ظل قائد جديد هو ارتخشستا مؤسس السلالة الساسانية (٢٢٧ م) على انقراض السلالة الفرثية^١ . وكان على الاسكندر ان يواجه هجوماً في بلاد الغال من القبائل الجرمانية حين قتل في ٢٣٥ في فتنة ذهبت ضحيتها والدته ايضاً .

فيليب العربي

بعد عشر سنوات من ذلك شاهدت رومة تتويج سوري آخر هو فيليب



قلعة تعود من عهد فيليب العربي

جانبا نقد بروتري من بملك ضرب باسم فيليب العربي ٢٤٤ - ٢٤٩
ويظهر احد الجانبين منظراً جانبياً وامامياً لمبد جويتري في بملك

العربي . وقد ولد في قرية صغيرة في حوران^٢ وكان قائداً للحرس حين اغتيل سلفه وهو يقابل الفرس فنادى به الجنود خلفا له . وقد صادق مجلس الشيوخ على هذا

(١) انظر : Dio, Bk. LXXX, ch. 3, §§ 1-4.; Herodian, Bk. VI, ch. 2.

(٢) انظر في ص ٣٥٠ .

الاختيار في سنة ٢٤٤. ولم يجعل هذا الامبراطور السوري اسمه مكروهاً بأي استغلال استبدادي للسلطة، الا ان ذكرى الاساليب الدينية التي استخدمها لانعام القضاء على سلفه المحبوب لم تنس ابداً. وقد اكسبته حملاته ضد القبائل على الدانوب الاسفل لقب جرمانيكس مكسيموس Germanicus Maximus. وكانت من نصيب هذا السوري العربي ان يرثس في سنة ٢٤٨ احتفالات ذكرى مرور الف سنة على تأسيس رومة. وقد جرت الالاعاب وغيرها من امور التسلية بروعة عظيمة. وكان الامبراطور يعتبر مؤيداً للمسيحية اذا لم نقل مسيحياً تماماً ويقال ان بعض الرسائل قد وجهها اوريجين اليه والى الامبراطورة^١. ومع ذلك فلم يترك اي تأثير على الكنيسة. ويجمع المؤرخون على اعتبار قسطنطين اول امبراطور مسيحي. وفي عام ٢٤٩ لقي نفس المصير الذي حل باباطرة كثيرين آخرين في هذه الفترة وهو الموت العنيف على يد الفرق المتمردة. ويقال ان خلفه قد استورد اسوداً من افريقيا واطلقها في الصحراء السورية بما ازعج سكانها الشديدي المراس.

التوسع الاقتصادي

لقد تجلّى التوسع الاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بعدد الجاليات التي يمكن تتبع تاريخها منذ بداية الامبراطورية حتى نهايتها. وحصل استعمار حقيقي لبلاد البحر المتوسط وخاصة في القرنين الثاني والثالث من قبل «السيري Syri» وهو لفظ اطلق على السكان الذين اصلهم من شرقي المتوسط. وملأت السفن السورية البحر كما في الايام السالفة. وقد انتعشت الحفاص الفينيقية القديمة وهي النشاط والتكيف وحب التجارة المربحة والمقدرة على عقد الصفقات وانعام العمليات التجارية الكبيرة والصغيرة «وكان السوريون من بين جميع شعوب الامبراطورية اكثرها نشاطاً في هذه المغامرات التجارية»^٢.

انتشرت الحواضر السورية بظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والدينية على طول شاطئ المتوسط واتبعت في الداخل الطرق التجارية الرئيسية ومجاري الانهار

(١) انظر: Eusebius, Bk. VI, chs. 34, 36, 39.

(٢) انظر: Arthur E. R. Boak, *A History of Rome to 565 A. D.*, rev. ed. (New York, 1930), p. 319.

الكبرى . ومن جملة الجزر كانت ديلوس^١ وصقلية مراكز جاليات سورية قوية . ومن الموانئ الإيطالية كانت نابولي واوستيا مرغوبتين بصورة خاصة . وقد وصل التجار السوريون عن طريق الدانوب الى باتونيا Pannonia كما وصلوا عن طريق الرون الى ليون . وكان لرجال الاعمال السوريين مراكز في اسبانيا ولكنهم في بلاد الغال كانوا ناشطين بصورة خاصة . وقد اكتشفت في لبنان رسالة تعود الى اواخر القرن الثاني موجهة الى البحارة في مدينة آرل Arles المكلفين بشحن الحبوب^٢ . وتذكر كتابة كتبت بلغتين وجدت على قبر من القرن الثالث في بلاد الغال تاجراً سورياً من القنوات Kanatha كان يملك معملين في حوض الرون حيث كان يستورد البضائع من اكيثانيا^٣ . وكانت اسمه ثيمم Thayyim (او بوليان) ابن سعد .

احتكر التجار السوريون بصقتهم مستوردين مقداراً كبيراً من تجارة الولايات اللاتينية مع الشرق ، وكصيافة لم يكن لهم منافس . وكانت سلعهم الرئيسية تتألف من الخمر والتوابل والحبوب والالوان الزجاجة والمنسوجات والمجوهرات . وكانت بعض هذه السلع تستخدم كنماذج تعلم اصحاب المصانع الوطنيين والصناع تقليدها بالتدريج . وحيثما كان التجار السوريون يقيمون فهناك كانوا يشيدون معابدهم . وكان بعل غزة يعبد في اوستيا وبعل بيروت يعبد في اماكن بعيدة حتى اسبانيا . وعرف اله بيروت باسم بعل مرقود Marqod^٤ (بالمرقودس Balmarcodes اي اله الرقصات) ووجد معبده في دير القلعة (على رأس تلة تشرف على المدينة) . وقد استعملت بعض اعمدته حديثاً في بناء الكاتدرائية المارونية في بيروت . ووجدت في بتيولي Puteoli بايطاليا مذابح قسم عليها احد المصلين بجمليتين من

(١) انظر في ص ٣٠١ .

(٢) انظر : J. P. Waltzing, *Étude historique sur les corporations professionnelles chez les Romains*, vol. iii, (Louvain, 1899), pp. 526-27.

(٣) انظر : Cumont, *Les Religions orientales dans le paganisme romain* 4 th. ed., p. 100.

(٤) من كلمة رقد اي رفس . راجع : Georgius Kaibel, *Epigrammata Graeca* (Berlin, 1878), No. 835 ; Louis Jalabert, « Inscriptions grecques et latines », *Mélanges de la faculté orientale* (Beirut, 1906), vol. i, pp. 181-188.

الذهب الى الالهة النبطية دوسارس (Dusares) (ذو الشرى Dushara) ^١. وترك متعبدون آخرون في هذه المدينة كتابات مكرسة لجوبيتر اله هليوبولس. وبينما كانت هذه النصب التذكارية في الغرب تكتب باللاتينية بصورة رئيسية فإن احداها من المقيمين التدمريين في رومة كانت مكتوبة بالآرامية وموجهة الى آلهة تدمر ^٢.

لم يكن التجار والمستعمرون والجنود والعبيد السوريون اقل حماسة في نشر الديانة المسيحية مما كانوا في نشر العبادات الوثنية. وظهر اثرهم في تطور المسيحية في الغرب في ناحية التقشف والرهبة والعبادة المتصفة بشدة العاطفة. وكان تقديس الصليب واتخاذ رمزاً دينياً من العناصر المسيحية الاخرى التي ادخلها السورويون الى اوربا. وكانت جاليتهم في رومة قوية حتى انها قدمت للكنيسة عدداً من البابوات ^٣.

١) راجع بشأن خرائب معبد في سيع Sr مجوران: Howard C. Butler, *Syria*, Div. II, Sec. A. (Leyden, 1919), pp. 385-90.

٢) انظر: *Corpus Inscriptionum Latinarum*, vol. vi (Berlin, 1876), No. 710.

٣) انظر: Louis Bréhier, *Les Origines du crucifix dans l'art religieux* (Paris, 1908), pp. 39-43, 54-55, 59.

الفصل السابع والعشرون

سُورِيَّة فِي الْعَهْدِ الْبِيزَنْطِيِّ

الامبراطورية الرومانية في عهدها الاخير

ان القرن الثالث الذي حصل فيه التغلغل الديسي والاقتصادي السوري في الولايات اللاتينية بصورة سريعة قد شهد نهاية مرحلة من الحضارة اليونانية اللاتينية وبدء مرحلة اخرى. وكان نموذج الحضارة الموحدة تقريباً الذي كان يميز الامبراطورية حتى ذلك الحين قد اخذ بالتفكك. وبدأت اسمه المادية تنهار بفعل الحروب الاهلية الطويلة والهجمات الخارجية المتكررة. وتعرضت دعائه الفكرية والروحية المتداعية لفزو موجات جديدة من الافكار المسيحية. فكان التغير منذ ذلك الحين سريعاً وتاماً. واخذت مرحلة حضارية جديدة وهي البيزنطية التي نتجت عن اتحاد المسيحية مع الهلينية الوثنية تحمل مكان المرحلة الحضارية القديمة. وكان لها لون مسيحي يوناني شرقي ومركزها القسطنطينية.

القسطنطينية العاصمة الجديدة

وقد سميت هذه المدينة باسم قسطنطين الذي كان يحكم مع امبراطور آخر سنة ٣٠٦ ثم اصبح امبراطوراً وحيداً بين ٣٢٤ و ٣٣٧. وكان تأسيسها في موقع بيزنطة القديم حيث تلتقي اوربا بآسيا. ودشنت في ١١ آيار ٣٣٠ كعاصمة جديدة. وقد منحها موقعها الاستراتيجي الجغرافي فوائدها عسكرية واقتصادية واتحدت كل هذه العوامل لتجعل من المدينة الجديدة المركز الطبيعي الذي يستطيع العالم الشرقي ان يتجمع حوله بسهولة. وسرعان ما فاقت «رومة الجديدة» على البوسفور رومة القديمة على نهر التيبر.

وبدل هذا التحول ذاته على الاعتراف بالاهمية الفائقة للقسم الشرقي من الامبراطورية. وكانت هذه الولايات الآن اغناها في الثروة والموارد الطبيعية.

وانتهجت كل الامبراطورية في ذلك الاتجاه. وكانت تقع في الشرق الدولة المتحضرة الرئيسية وهي فارس التي كانت رومة في نزاع مستمر معها. وكان مركز الثقل في شؤون العالم يتحول الى الشرق من جديد.

المسيحية : الديانة الجديدة

قبل ان يؤسس قسطنطين عاصمة جديدة للدولة اعترف بديانة رسمية جديدة . ففي رسائله الرسمية من عام ٢١٢ و ٢١٣ لم يظهر التسامح للمسيحيين في مملكته فحسب بل منحهم عطفه ايضاً^١. وفي سنة ٣٢٥ عقد مجمعاً كنسياً من كل اساقفة الامبراطورية في مدينة نيقية في بيثينيا Bithynia في آسية الصغرى وكان هذا اول مجمع من نوعه . وقد حكم فيه على الآريوسية^٢ . ونظمت مجموعة تعاليم الدين المسيحي بصورة نهائية في ما عرف بالعقيدة النيقية Nicene Creed .

ويرجح ان تكون قصة اعتناق قسطنطين للمسيحية من باب الاساطير. وتروي هذه القصة انه شاهد في السماء اثناء زحفه على رومة عام ٣١٢ صليباً متألقاً عليه كتابة يونانية تقول : « بهذا ستغلب »^٣. والذي نعلمه بالتأكيد هو ان قسطنطين استخدم اللواء الكبير وعليه اشارة الصليب (labarum) كعلم امبراطوري وبواسطته تقدم نحو النصر على منافسه ماكسنتيوس Maxentius^٤. وسواء كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد تم بدافع المصلحة او بدافع الايمان فليس لذلك اهمية تاريخية . والامر الثابت هو ان المسيحية بعد ان كانت فيما مضى عبادة غريبة غامضة اصبحت في عهده الآن الديانة الرسمية للامبراطورية . واذا كانت بلاد اليونان قد سيطرت على فكر الرومان من قبل فان سورية الآن قد سيطرت على نفوسهم .

(١) انظر : Eusebius, Bk. X, ch. 5.

(٢) الآريوسية هي محاولة لتحديد علاقة اقانيم الثالوث على اساس تمييزها وتبويبها الواحدة للآخرى. وتقول بان الابن هو من طبيعة مشبهة وليست مساوية للاب . وكان اتجاهها يميل الى انكار ألوهية المسيح . اما مؤسسها فكان آريوس الذي عاش في الاسكندرية في هذه الفترة . وقد حمل البشرون الآريوسيون القوط والومباردين وغيرهم من القبائل الجرمانية على اعتناق مذهبهم ؛ راجع : Sozomenus, *Historia ecclesiastica*, Bk. I, chs. 20, 21.

(٣) فارن مع : Sozomenus, Bk. I, ch. 4.

(٤) فارن مع : Lactantius, ch. 44 ; Eusebius, Bk. IX, ch. 9. § 2.

وفي هذه الفترة كان أكثر الرجال نفوذاً في الامبراطورية قد أصبحوا من اتباع المسيح مع ان غالبية السكان بما فيهم اعداء قسطنطين كانوا لا يزالون وثنيين. وكان النظام والتنظيم والثروة والقوة الموجهة في جانب الاقلية . وكانت هيلانة والدة قسطنطين مسيحية تقية . وقد قامت بزيارة الى اورشليم حيث يروى انها وجدت الصليب الحقيقي في البقعة التي تقوم عليها كنيسة القيامة . وفي ذلك المكان شيد قسطنطين كنيسة القيامة الاولى . وعملت الطقوس المتصلة بالاماكن المقدسة التي ادخلها الامبراطور ووالدته على الاسراع في جعل سورية مسيحية .

وقد عمل هذان الحادنان في عهد قسطنطين وهما نقل العاصمة من رومة الى القسطنطينية والاعتراف الرسمي بالمسيحية على جعل عهده من ابرز المراحل في تاريخ اوربا . كما انها يبرران تلقيه بالعظيم . وقد قدر لهذه الامبراطورية الجديدة التي دشنها قسطنطين والتي كانت مسيحية في عقيدتها وبيونانية في لغتها وشرقية في اتجاهها ان تدوم مع ما تخللها من احداث خطيرة حوالي احد عشر قرناً وربع القرن . وقد اصبحت اعتباراً من القرن السابع بمثابة حصن ضد الاسلام وسقطت اخيراً في عام ١٤٥٣ تحت وطأة هجوم المدافعين الجدد عن الاسلام نعني الاتراك العثمانيين .

بقي استمرار الامبراطورية من ناحية خارجية ونظرية قائماً لعدة سنوات بعد تأسيس القسطنطينية . ومع ذلك فان شطري الامبراطورية قد انفصلا في الواقع اكثر من مرة وحكمها اباطرة مختلفون . وحصل الانقسام النهائي في سنة ٣٩٥ حين توفي تيودوسيوس الكبير وخلفه ابنه هونوريوس واراكديوس . الواحد على الغرب والآخر على الشرق . وكان تيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥) آخر امبراطور على الامبراطورية الموحدة . ومنذ ذلك الحين وجدت امبراطورية رومانية شرقية كان النجاح حليفها بينما كان الفشل نصيب شقيقتها في الغرب . واخيراً سقطت رومة في ٤٧٦ بنتيجة هجمات القبائل الجرمانية . وقد كسب تيودوسيوس لقب الكبير بصموده الباسل امام القوط ولدعمه المسيحية الحالية من البدع . واعتنق جميع خلفاء قسطنطين باستثناء يوليان وحده (٤٦١-٣٦٣) الدين المسيحي .

التقسيمات الادارية

كانت سورية تقسم في نهاية القرن الرابع الى عدة مقاطعات . احتفظ قسمها

الشمالي باسم سورية وقسم الى جزئين: سورية الاولى Syria Prima ومركزها انطاكية ومن مدنها الرئيسية سالوقية ولاوديسة وجبلة وبيرويا (حلب) وخالكيس اديلوم Chalcis ad Belum؛ ثم سورية الثانية Syria Secunda ومركزها مدينة افامية ومن المدن التابعة لها ايفانية (حماة) واريتوزة (الرسن) ولاريسة (شيزر). وقسمت فينيقية ايضاً الى قسمين: فينيقية الاولى Phoenicia Prima ومركزها صور ومدنها الرئيسية هي بتولمايس (عكا) وصيدا وبيروت وجبيل والبترون Botrys وطرابلس وعرقه وارواد؛ ثم فينيقية الثانية او فينيقية التي تقابل لبنان Phoenicia ad Libanum ومركزها حصن ونظم مدن دمشق وهليوبولس وتدمر. وكانت فينيقية الاولى هي فينيقية البحرية المعروفة في التاريخ. اما الثانية فكانت مقاطعة داخلية تضم مدناً لم يسبق ان كانت تابعة لفينيقية او لبنان. وقد قسمت فلسطين الى ثلاثة اجزاء: فلسطين الاولى Palaestina Prima وكانت قيصرية مدينتها الرئيسية وضمت اورشليم ونيابولس (نابلس) وجوبا Joppa (يافا) وغزة وعسقلان وغيرها من المدن؛ وفلسطين الثانية Palaestina Secunda ومركزها سكينوبولس (بيسان) ومدنها الرئيسية جدره وطبرية؛ ثم فلسطين الثالثة Palaestina Tertia وكانت البتراء مدينتها الرئيسية وقد تشكلت من الولاية العربية السابقة.

التجارة

ويبدو ان تقسيم الامبراطورية وتجزؤ ولايتها السورية لم يلحق الضرر بعلاقات سورية التجارية الداخلية والخارجية. ففي العصر البيزنطي كما في العصر الذي سبقه كانت جميع تجارة المتوسط تقريباً بأيدي السوريين واليونان^١. ويصف القديس جيروم التجار السوريين بانهم كانوا يجتازون العالم الروماني كله في القرن الرابع يدفعهم حبهم للتجارة المربحة ويتحدون جميع المخاطر^٢. ولم يتوقف ازدهار مراكزهم في بلدان البحر المتوسط كلها. وكان يمكن العثور عليهم في رومة ونابولي وقرطاجة ومرسيليا وبوردو وغيرها من المراكز التجارية. وكانوا يستوردون الخمر من

(١) انظر: J. B. Bury, *History of the Later Roman Empire* (London, 1923) vol. ii, p. 316.

(٢) انظر: Cumont, *Religions orientales*, p. 100.

عقلان وغزة والارجوان من قيصرية والاقمشة المنسوجة من صور وبسروت والفسق ونصال السيف من دمشق والاقمشة المطرزة من مدن متعددة . وكان القماش المطرز مطلوباً بصورة خاصة لاستعماله لحاجات الكهنوت .

كان الحرير من السلع القديمة التي اتخذت الآن اهمية جديدة وسيطر السوريون على تجارته باجمعها . وتؤكد المرويات ان بيوض دود الحرير من الصين قد ادخلت لأول مرة بانابيب من الحيزران الى القسطنطينية في منتصف القرن السادس (في عهد يوستنيان) على يد رهبان يظهر انهم كانوا من النساطرة^١ . ولكن هناك ما يدعونا الى الاعتقاد بانه كان للسوريين بعض المعرفة بتربية دود الحرير منذ زمن بعيد وذلك بواسطة دود الحرير البري^٢ . وكانت المواد الحريرية الصينية تنقل بطريق البتراء الى احد الموانئ القينيقية حيث وجب صبغها ونسجها اوربا اعادة نسجها قبل ان تصبح مقبولة في الاسواق الرومانية . وهكذا ارتبطت صناعة الحرير في سورية بصناعة الارجوان . وسرعان ما احتكرت الدولة البيزنطية هاتين الصناعتين .

وظلت سورية تستورد التوابل وغيرها من منتجات البلاد الحارة من الجزيرة العربية والهند . وكانت سورية تصدر بالمقابل الى هذه البلاد والى الصين ايضاً الزجاج والادوات المطلية بالمينا والاقمشة الناعمة . ونسمع بوجود تاجر سوري في الصين منذ القرن الثالث الميلادي^٣.

وكما هي الحال اليوم بالنسبة للمهاجرين السوريين فان المهاجرين في العصر البيزنطي كانوا يستوطنون عموماً في بلاد هجرتهم الى امد غير محدود . وكان بعضهم يعود الى وطنه بصحبة زوجات اجنبيات . وتوجد فوق باب احد الجوامع في قرية تدعى امتان^٤ اليوم على حدود الصحراء السورية كتابة اثرية يونانية وهي بالاصل

(١) انظر : Procopius, Bk. VIII, ch. 17, §§ 1-8; Bouchier, p. 162.

(٢) انظر : F. Hirth, *China and the Roman Empire* (Leipzig, 1885. reprinted in China, 1939), pp. 255-6; Consult Robert S. Lopez, « Silk Industry in the Byzantine Empire », *Speculum*, vol. xx (1945), pp. 1-42.

(٣) انظر : Hirth, p. 306.

(٤) جنوب شرقي صلخد في حوران . انظر : Dussaud, *Topographie*, p. 355.

كتابة تذكارية على احد القبور من منتصف القرن الرابع لزوجة من روان في بلاد الغال ماتت «بعيدة عن وطنها»^١. وشعرت الجالية السورية في اورليان كأنها في وطنها حتى انه حين دخل الملك غونتراند Gontrand المدينة في سنة ٥٨٥ كان افرادها بين الذين استقبلوه وكانوا يتغنون بغضائله «بلغة السوريين واللاتين واليهود»^٢. وبلغ من نفوذ جالية باريس في عهد الميروفنجيين حوالي ٥٩١ ان انتخبت احد اعضائها وهو تاجر سوري يدعى يوسيبوس Eusebius اسقفاً للمدينة وسيطرت على الوظائف الكنسية^٣.

الصناع المهاجرون

كانت اكثرية المهاجرين السوريين من رجال الاعمال ولكن بعضهم كانوا عبيداً وجنوداً ورهباناً وصناعاً. وعمل المعمارين والتحاتون السوريون في بلادهم على تطور الاساليب المهندسية المتأخرة التي تدعى عادة بالبيزنطية. ومنذ اوائل القرن الثاني استخدم المعمارون من الولايات الشرقية في رومة^٤. وكان المهندس الذي بنى لتراجان جسراً فوق الدانوب اثناء الحملة الداسية الثانية دمشقياً يدعى ابولودورس Apollodorus. وهو نفسه الذي وضع بعد ذلك مخطط فوروم تراجان مع المعبد والمكتبة والاعمدة التي لا تزال قائمة وذلك تخليداً لذكرى انتصارات سيده. وكان اسلوب وضع التماثيل على الاعمدة الضخمة من مميزات فنون سورية الشمالية بالاصل.

ومن المرجح ان يكون الصناع الفنانون من سورية قد استدعوا لتجميل العاصمة الجديدة رافنا Ravenna التي نقل اليها هونوريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) بلاطه لتجنب مخاطر الهجمات الجرمانية. وبقوا هناك ليعلموا حرفتهم للصناع المحليين. وقد ادخلوا صناعة الفسيفساء وغيرها من اساليب التزيين. وفي القرن الخامس اصبحت رافنا العاصمة الفنية لشمالي ايطاليا. وقد وصفت مدرستها في الفن والمهندسة

(١) انظر : *Revue archéologique*, vol. xxxix (1901), pp. 375-6.

(٢) انظر : *Gregory of Tours, Historiae Francorum*, Bk. VIII, ch. 1.

(٣) انظر : *Gregory*, Bk. X, ch. 26.

(٤) انظر : *Pliny, Epistulas ad Traianum*, No. 40.

المعمارية بأنها « نصف سورية »^١. واصبحت البندقية بعد رافنا ممثلة الحضارة الشرقية في البلاد الايطالية . ووصفت مدينة رافنا نفسها ايضاً بأنها نصف سورية وقد نصب فيها اساقفة سوريون. وهناك زائر من بلاد الغال كان رأى السوريين امرأ مألوفاً لديه في جنوبي فرنسا وقد لاحظ وجود سوري كان « يرتل المزامير »^٢. ولا بد انه كان يوجد عدد من هؤلاء الشمامسة والرهبان .

الادب والتعليم

انصفت الحياة الفكرية في سورية في اول العهد البيزنطي بالاخطراب. وقد استمرت المجادلات بين الكتاب اليونان واللاتين من المسيحيين وغير المسيحيين لعدة سنوات بعد اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية . ولم تكن قد اندثرت بعد الافلاطونية الحديثة التي بلغت ازهى عصورها في القرن الثالث والقسم الاول من القرن الرابع والتي كان من ابرز دعايتها بورفيرىوس ويمبليخوس السورى^٣. وكان آباء الكنيسة يشقون طريقهم الى الامام كفادة للفكر . وكان السفطائيون والبلغاء يتراجعون ولكنهم لم يزولوا تماماً .

ليبانيوس

كان ليبانيوس (٣١٤ - حوالي ٣٩٣) اعظم البلغاء السوريين في القرن الرابع وهو من مواطني انطاكية ويظهر اسمه بعض العلاقة مع لبنان . وبعد ان درس في انطاكية واثينة انشأ مدرسة للبلاغة في العاصمة الامبراطورية الجديدة . وعلم ايضاً في نيقية ونيكوميديا وعاد في سن الاربعين الى مدينته الاصلية حيث بقي يعمل لمدة اربعين سنة كخطيب ومعلم وسياسي وقد حظي بشرف صداقة كبار الموظفين والباطرة .

لم يتم ليبانيوس ابدآ بتعلم اللاتينية واحتقر المسيحية وعدّها عدوة للحضارة

(١) انظر : O. M. Dalton, *Byzantine Art and Architecture* (Oxford, 1911), pp. 8, 77.

(٢) انظر : Sidonius Apollinaris, *Epistulae*, Bk. I, No. 8.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٩ .

(٤) انظر : *Epistulae*, No. 923; cf. No. 956.

الصحيحة ولم يرَ خيراً الا في الملينية. وقد خاب ظنه وتألم عندما تخلى انجب تلاميذه في انطاكية وهو المعروف فيما بعد باسم يوحنا فم الذهب عن آلهة اليونان وفضل اتباع المسيح^١. ومن تلاميذه ايضاً باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) الذي درس على ليانيوس إما في القسطنطينية او في انطاكية. واصبح بعد ذلك اسقف قيصرية في كبدوكية واحد المدافعين عن الارثوذكسية ضد الاربوسية. ولا تزال الطقوس التي وضعها القديس باسيليوس ونقحها يوحنا فم الذهب تستعمل في كنائس الروم الارثوذكس. وقد تعكرت شيخوخة ليانيوس بالآلام جسدية سببها صاعقة اصابته وانحطاط العلوم الوثنية بعد موت الامبراطور يوليان في ٣٦٣ وقد اسف لموته ليانيوس لانه كان يعجب به ويرعاه.

تعطينا كتابات ليانيوس التي وصلتنا واغلبها من الرسائل والخطب صورة حية للآزمة والامكنة التي عاش فيها^٢ كما انها تفتح امامنا نافذة صغيرة يمكن ان تعطينا لمحة عن الاساليب التربوية في ذلك العهد. وكانت الدروس في انطاكية تستمر في اشهر الشتاء والربيع اما الصيف فيخصص للنشاط المتصل بالاحتفالات والاعياد. وكانت الحصص الدراسية تبدأ في الصباح الباكر وتدوم حتى الظهر. وكان بعض التلاميذ صغار السن في السادسة عشرة فقط. اما التعليم العالي فكان في ايدي البلغاء. وكان هؤلاء ينتخبون كساتنة من قبل مجلس الشيوخ المحلي في المدن ومن قبل الجماعات عموماً في المدن الصغيرة. وكان البلغاء يعلمون ويخطبون لكي يكونوا مثلاً للطلاب وكانوا مسؤولين عن النظام. وانتظموا في انطاكية في ثلاث نقابات لكل منها رئيسها الخاص. وكان البلغاء يتقاضون اجور خدماتهم من المدن والطلاب. وشكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهاج المدرسي. ولم يدرس اللاتينية سوى الذين يفكرون بالحصول على وظيفة حكومية. وكانوا يؤكدون على اهمية المنطق. ودرس ارسطو من جديد بعد ان انتبه بورفيريوس الى اهميته.

(١) قارن مع : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٢) ذكرت فقرات منها في ص ٣٣٥ من هذا الكتاب.

اميانس مرسلينوس

كان اميانس مرسلينوس (حوالي ٣٣٠ - ٤٠١) احد الذين يرأسون لبيانيوس وهو انطاكي مثله . وقد ولد من اسرة يونانية نبيلة ثم التحق بالجيش في سن مبكرة وحصل على مراتب عليا اثناء خدمة طويلة مشرفة قضاها في بلاد ما بين النهرين وبلاد الغال . وفي سن متأخرة كتب باللاتينية تنمة لكتاب تاسيتوس لم يصلنا منها سوى جزء فقط . ويهتم فيها اكثر من المعتاد بالاخلاق العرقية والشخصية والمؤسسات الاجتماعية . ويمكن اعتبار اميانس آخر كاتب قديم باللاتينية يستحق عن جدارة لقب المؤرخ . وكان في موقفه من المسيحية اكثر تسامحاً من لبيانيوس . وكان يشبهه في اعتزازه اللامتناهي بمدينة وبلاده الاصلية . فقد كانت انطاكية غنية في البضائع المستوردة والمحلية حتى انه ليس لها منافس^١ . وكانت فينيقية « التي تقع في سفح جبل لبنان منطقة مملوءة بالسحر والجمال »^٢ . وكانت فلسطين بلاداً « تكثر فيها الاراضي المزروعة والمعنى بها كثيراً »^٣ . وكانت بلاد العرب الرومانية « بلاداً تنتج انواعاً كثيرة من البضائع وتنتشر فيها الحصون والقلاع القوية » وتضم بين مدنها الكبرى « بصرى وجرش وفيلادلفيا (عمان) وجميعها منيعة جداً بسبب اسوارها القوية »^٤ .

يوحنا فم الذهب

اصبحت انطاكية بفضل كثرة ما انتجه المؤلفون مثل لبيانيوس واميانس العاصمة الفكرية لسورية الشمالية . وقد تعلم فيها آريوس ونسطوربوس كلاهما^٥ . وازدادت

(١) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 8.

(٢) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 9.

(٣) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 11.

(٤) انظر : Ammianus, Bk. XIV, ch. 8, § 13. وقد نشر مؤلفات اميانس وترجمها : John C. Rolfe, *Ammianus Marcellinus*, 3 vols. (London and Cambridge, Mass. 1935-8).

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٢٨ .

تألقاً بالآثر القيمة للخطباء والمؤلفين المسيحيين وكان أبرزهم يوحنا فم الذهب
(٣٤٧ - ٤٠٧) .

تعلم يوحنا ليعمل في القضاء ولكنه سرعان ما تخلى عن ذلك ليتبع حياة الزهد في جبل قرب انطاكية . ويبدو ان هذا الجبل هو جبل سيليوس Silpius الوعر الذي يقع جنوبي انطاكية حيث خلد ذكره باسم مار يوحنا الى جانب وليّ مسلم^١ . واحتفظ الناس هناك خلال العصور بنور ضئيل يشع في احدى المغاور . وقد اتصف وعظه الفصيح في مدينته بالدعوة الى نبذ الميوعة في الاخلاق والترف في الحياة . وكان الاغنياء يهاجمون لحصولهم على ثروتهم بالعنف والحداع والاحتكار والربا الفاحش ولوقف الامبالاة الذي وقفوه ازاء قضية المحرومين من الامتيازات والمساكين^٢ . وكانت رسالته رسالة اجتماعية في عصر كهنوتي لاهوتي . وبلغ من شهرته كواعظ ان انتخب في عام ٣٩٨ بطريكاً للقسطنطينية^٣ . وهناك باع الكتوز التي جمعها سلفه وانفقها على المحتاجين واتبع نفس الطريقة في الوعظ . وكان يؤكد بأن خيانة الزوج لا تقل شراً عن خيانة الزوجة . واخذ يطهر الادارة الكنسية مبتدئاً من الاعلى .

ان مثل هذا الاصرار الشديد على الاصلاح الاخلاقي والاجتماعي كانت نتيجته المؤكدة وقوع يوحنا فم الذهب في نزاع مع البلاط . وكان بين اقوى اعدائه الذين نعموا عليه يودوكسيا Eudoxia المتكبرة زوجة الامبراطور اركاديوس التي قادها يوحنا في احدى مواعظه بهيرودية كما احتج على اقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة^٤ . وقد نفى مرتين من العاصمة وتحمل متاعبه كلها بثبات وصبر الى ان توفي وهو في طريقه الى المنفى في اقصى حدود الامبراطورية قرب القفقاس . وقد اجبر على المسير مسافات طويلة متعرضاً لاشعة الشمس والامطار فانهارت قواه وتوفي

(١) هو حبيب النجار .

(٢) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, ch. 2.

(٣) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 3, 5.

(٤) انظر : Sozomenus, Bk. VIII, chs. 16, 20; Palladius, *Dialogus de vita S. Joannis Chrysostomi*, Bk. VIII.

في الطريق^١. ونقل جثائه فيما بعد الى القسطنطينية ودفن في احتفال مهيب. وقد اكسبته شهرته كأعظم واعظ في الكنيسة الاولى لقباً عرف به بعد وفاته وهو «الذهبي الفم». وكانت مواعظه الممتلئة بالفصاحة اكثر منها بالعلم تلقي بعض الضوء على الحياة الاجتماعية في عصره^٢. ويدوم اعتبار يوحنا على مدى العصور كعلم من اشهر معلمي الاخلاق المسيحية الاولى الذين انجبتهم الكنيسة^٣.

يوسيبوس

وكان من آباء الكنيسة البارزين في ذلك العصر يوسيبوس (٢٦٤ - حوالي ٣٤٩) اسقف قيصرية في فلسطين واول مؤرخ كنسي عظيم. وقد ولد في فلسطين وربما في قيصرية ذاتها وتثقف في أنطاكية. وقد اشترك مع عدد من الاساقفة المعاصرين فدافع في اول الامر عن قضية آريوس. ولكنه في مجمع نيقية حيث عهد قسطنطين اليه بمهمة رفيعة وهي افتتاح جلسات المجمع اذان زعيم المرافقة. وقد القى خطبة مدح فيها الامبراطور كما جلس على يمينه. وبقي يوسيبوس طيلة حياته صديقاً حميماً لقسطنطين ومعجباً به ومتحمساً له. وكان من اعظم الرجال المثقفين في عصره. وقد وضع عدة مؤلفات تاريخية وسبقت الاشارة الى احدها وهو التاريخ الكنسي *Ecclesiastical History*. ويصف فيه بالتفصيل ظهور المسيحية وعلاقتها بالامبراطورية.

وهناك مؤرخ آخر ولد في قيصرية وهو بروكوبيوس^٤ (توفي حوالي ٥٦٣) المؤرخ الكنسي لعصر بوسطنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) المليء بالاحداث. وقد عين في

(١) انظر: Sozomenus, Bk. VIII, ch. 28; Palladius, Bk. XI.

(٢) راجع بشأن المجموعة الكاملة لمؤلفاته: *Patrologia Graeca*, ed. J.-P. Migne, vols. xlvii-lxiv (Paris, 1862-3).

وبشأن ترجمة مواعظه ورواياته راجع: *The Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, ed. Philip Schaff, ser. 1, vols. ix-xiv (New York, 1889-90).

(٣) وجدت على جدار كنيسة آيا صوفيا عام ١٩٤٦ صورة له من الليفاء غبأة تحت الملائكة التي خطاها به الاتراك مع غيرها من الصور من عدة قرون.

(٤) نشرت مؤلفاته وترجمت من قبل: H. B. Dewing, *Procopius*, 7 vols. (London and Cambridge, Mass., 1914-40).

٥٢٧ حين كان شاباً سكرتيراً خاصاً ومستشاراً قانونياً للقائد الروماني بليساريوس Belisarius^١ ولذلك صحبه في جميع حملاته في آسيا وافريقيا وايطاليا . ثم جعله يوستنيان عضواً في مجلس الشيوخ . وكان بروكوبيوس يكتب احياناً كمسيحي و احياناً اخرى كمتحمس لآلهة اليونان . وبما يجعل مادته التاريخية موثوقة هو ان بعضها مستقى من المرويات الشفهية واغلبها نتيجة معلوماته الشخصية .

ويتصل عدد كبير من مشاهير المسيحيين بسورية الجنوبية مع ان اصلهم ليس سورياً . ومن ابرز هؤلاء القديس جيروم (٣٤٥ - ٤٢٠) . وقد اوصله مزاجه في التقشف الى دير في بيت لحم سنة ٣٨٦ ومنه انتقل الى الصحراء السورية حيث امضى خمس سنوات في حياة العزلة بين النساك . وساعد فيما بعد في ادخال حياة الرهبنة الى القرب . ولعل من اعظم مآثره ترجمته للتوراة الى اللغة اللاتينية وسميت الترجمة بالفلكلاته Vulgate واستخدمت منذ ذلك الحين كترجمة اساسية لاجل الصلوات الدينية في الكنيسة الكاثوليكية .

غزة

كانت غزة بالاضافة الى قيصرية المدينة الوحيدة في الجنوب التي احتفظت بشعلتها الفكرية في هذا العصر . وكانت اورشليم لا تزال تقاسي من الحراب الذي لحقه بها الرومان . وكان اصل سوزومين (سوزومينوس) المؤرخ الكنسي البيزنطي في القرن الخامس من قرية تسمى بتيليا Bethelia او بيت ايل Bethel بجوار غزة وكان والداه مسيحيين . وتظهر كتاباته معرفة وثيقة بتلك المدينة وضواحيها . وقد اهدى تاريخه الى تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) . ولكن شهرة المدينة تعود بصورة رئيسية الى مدرسة للبلاغة ازدهرت فيها حوالي عام ٥٠٠ م . وقد تأثرت المدرسة بجو الاسكندرية العلمي وكانت بين حين وآخر تتبادل المعلمين والطلاب مع قيصرية وغيرها من مراكز العلم . وكان بعض اساتذتها من الافلاطونيين الحداثيين ولكن الاكثوية دعوا انفسهم بالسفسطائيين المسيحيين . وكانت مؤلفاتهم تشمل على شروح للتوراة ورسائل ضد الهلنيين او غير المسيحيين . وعلى وجه

العموم كانت مدن الساحل الجنوبي اقل انها كآ في المشاحنات الكنسية من انطاكية وغيرها من مدن الشمال .

بيروت كمركز علمي

كانت بيروت المدينة الوحيدة من بين مدن سورية البيزنطية كلها التي نافست انطاكية في الزعامة الفكرية. ومرد هذا الى انها كانت تضم مدرسة الحقوق^١. وهو علم اعتني به بصورة خاصة في العصر البيزنطي .

وصلت هذه المؤسسة الحقوقية غاية تطورها في القرن الخامس عندما اجتذبت جماعة من خيرة المفكرين الشبان في الامبراطورية البيزنطية . ولم تكن مدرسة القسطنطينية التي اسست في ٤٢٥ تعتبر منافسة لها . وكان منهاجها يشتمل على العلوم والهندسة والبلاغة واللغة اليونانية واللاتينية . ومدة الدراسة فيها كانت اربع سنوات ولكن يوستينيان اضاف اليها سنة خامسة حين رقي العرش في عام ٥٢٧ . وكان الطلاب معفيين من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين . وبدأ كثير من الاساقفة والقديسين والشهداء المسيحيين حياتهم العلمية في مدينة بيروت .

وردت اول اشارة في الكتابات الكنسية الى مدرسة الحقوق في بيروت في خطبة لغريغوريوس توماترجس Thaumaturgus^٢ (صانع العجائب) القاها حوالي ٢٤٠ م . وكان غريغوريوس قد اتى من كبدوكية ليدرس في بيروت اولاً ثم في قيصرية بفلسطين حيث اعتنق الديانة المسيحية بتأثير معلمه اوريجين . وهناك تلميذ مشهور آخر هو بفيولوس Pamphilus البيروتي الاصل والذي اصبح بعد ذلك كاهن مدينة قيصرية نفسها حيث استشهد في ٣٠٩ في عهد غاليريوس Galerius . ويذكر بفيولوس بين تلاميذه المؤرخ المشهور يوسيبوس . وبلغ من شدة احترام هذا التلميذ لمعلمه ان اضاف الى اسمه الخاص اسم بفيولوس . وهناك غريغوريوس النازينزي Nazianzus (في كبدوكية) الذي اصبح اسقف القسطنطينية وقديساً فيما

(١) انظر ما سبق في ص ٣٦٠ .

(٢) انظر : *The Works of Gregory Thaumaturgus, Dionysius of Alexandria, and Archelaus*, tr. S. D. F. Salmond (Edinburgh, 1871), pp. 49-50.

بعد. فقد غادر اثينة حوالي ٣٥٦ مفضلاً الإقامة في بيروت لمتابعة دراسته القانونية. وهناك من كان أكثر شهرة من هؤلاء وهو سفيروس، بطريرك انطاكية اليعقوبي (٥١٢ - ٥١٨) الذي كتب ترجمته زميله زكريا القزويني^١.

حياة الطلاب

حفظت لنا ترجمة سفيروس تفاصيل ممتعة عن حياة الجامعة في مدينة عالمية كبيروت تقع على حدود الشرق والغرب. ويبدو ان التلاميذ القدماء كانوا يستقبلون التلاميذ الجدد بالسخرية ولكن دون ان يسيئوا معاملتهم في الواقع^٢ وذلك لاختبار مقدرتهم في ضبط النفس - وهو يشبه التحامل المعتاد على طلاب السنة الاولى (الفرشمن) في الجامعات الاميركية. وقد وصل زكريا الى بيروت في خريف عام ٤٨٧ او ٤٨٨ بعد سنة من وصول سفيروس. وكانت قلقة مثل سائر الطلاب الجدد عندما حضر لأول مرة درس الاستاذ المشهور ليونتيوس ولكن سفيروس والطلاب القدامى احسنوا استقباله. وعند انتهاء المناظرات ذهب زكريا وكان شديد التدين ليصلي في كنيسة القيامة. والتقى بعد ذلك بسفيروس عند المرفأ ورجاه ان يحضر الى الكنيسة يوماً بعد المحاضرات وان يتجنب سباق الخيل والمسارح وان يمتنع عن الشرب والمقامرة التي كان ينفس فيها سائر التلاميذ. فاجاب البطريرك المقبل اي سفيروس وكانت العبيد ترافقه عندما يأتي الى المعهد لانه من عائلة غنية مؤكداً لصديقه الشاب زكريا بانه طالب حقوق وليس براهب ولكنه وعده بان يعمل ما في استطاعته.

كانت تعطل جميع الدروس بعد ظهر كل سبت وطيلة نهار الاحد^٣. وكانت ساعات المساء خالية من الدروس ليتمكن التلاميذ من المذاكرة في الاعمال التي قاموا بها اثناء النهار. وقد شكل زكريا جمعية مسيحية كانت تجتمع كل مساء في كنيسة القيامة لدراسة مؤلفات باسيليوس ويوحنا فم الذهب وغيرهما من الآباء.

(١) نشرت بالريائية (وقد فقد الاصل اليوناني) وترجمها: M. A. Kugener تحت عنوان: *Vie de Sévère, in Patrologia Orientalis, vol. ii (Paris, 1907), pp. 1-115.*

(٢) انظر: Zacharias, p. 47.

(٣) انظر: Zacharias, P. 52.

وتشير الصفة العالمية لعضوية الجمعية الى كثرة عدد الطلاب الاجانب . وكانت رئيسها شخصاً يسمى افاغوريوس Evagrius من مدينة سميساط وكان سابقاً تلميذاً في انطاكية حيث جرح في اضطراب جرى فيها . وكان افاغوريوس يصوم يوماً ولا يقتل الا مرة واحدة في السنة ليلة عيد الفصح^١ . وقد تأثر سفيروس بهذه الامثلة من الزهد فأخذ يمتنع عن اكل اللحم .

وتظهر في هذه الاثناء جمعية اخرى بين الطلاب للاهتمام بعلم القيب . وكانت الاعضاء البارزون يتألفون من ارمني وتسالونيكى وسوري من هليوبولس ومصري من طيبة . وقد استهوت المصري امرأة لم تبادل عواطفه ولذلك اتفقوا على انه اذا ضحى العبد الاسود الذي يملكه هذا المصري تتأثر الشياطين وتحصل الغايات المرجوة^٢ . وعندما كانت هذه الطقوس تتم في السرك في منتصف الليل قوطعت فجأة من المارة . وقد هرب العبد الخائف واخبر عن سيده . فبدأ البحث عن كتب السحر واخيراً وجدت مخبأة في القسم السفلي من كرسي الطالب واحرقت . ووجد انها مملوءة باسماء الشياطين وصورهم الغريبة وكان بعضها ينسب الى زردشت . وكشفت التحريات الاخرى ان الاستاذ ليونيتوس نفسه كان يشترك في مثل هذه الاعمال . وتشكلت محكمة للتحقيق من موظفين يمثلون الكهنة وحكومة المدينة فوجدت ليونيتوس وجماعة آخرين مذنبين . فاحرقت كتبهم وهرب بعض المتهمين من المدينة .

لم تنته مشاكل بيروت المتصلة بالسحر عند هذا الحد اذ وصلت جماعة من السحرة المتجولين الى المدينة وقامت بمساعدة طالب من آسية الصغرى وبمعاونة كاهنين بالتنقيب في قبور احدى الكنائس حيث وعدوا بالكشف عن كنوز كان داربوس قد خبأها . وللاستعانة بالشياطين كانت المبغرة وغيرها من ادوات الكنيسة الفضية ضرورية لهم . ولكن العملية لم تتم بسبب حصول زلزال وعوقب الكاهنان وحكم على احدهما بالعزلة في احد الاديرة^٣ .

وقد حصلت بين عامي ٥٥١ - ٥٥٥ سلسلة من الهزات الارضية كادت ان

(١) انظر : Zacharias, p. 56.

(٢) انظر : Zacharias, p. 58.

(٣) انظر : Zacharias, pp. 70-73.

تقضي على مدن الساحل الفينيقي. وكانت بيروت قد تعرضت الى هزة في عام ٣٤٩ هدمت بعض اجزاؤها ولكن يبدو انها لم توقف تقدم جامعتها. ولكن الامر يختلف هذه المرة، اذ ان المدينة «التي كانت اجمل المدن وزينة فينيقية حتى ذلك الحين قد سلبت جمالها. فهدمت اهم ابنتها ولم يبق منها بناء واحد تقريباً. ولم تسلم غير الاساسات. وهلك عدد كبير من سكانها من وطنيين واجانب تحت الانقاض»^١. فانتقل اساتذة الجامعة الى صيدا حيث قاموا بتدريس موادهم وبنوا يتم بناء المدينة والجامعة من جديد. ولكن قبل تدشين ابنية الجامعة الجديدة في عام ٥٦٠ بقليل حصلت كارثة اخرى حيث نشبت النيران والتهمتها كلها. وبعدها لم نعد نسمع شيئاً عن الجامعة.

(١) انظر: Agathias, *Historiarum*, Bk. II, § 15.

الفصل الثامن والعشرون

المظاهر الدينية في العهد البيزنطي

تبدو سورية في العصر البيزنطي بظهر مختلف عن مظهرها في العصر الروماني . وقد أصبحت الآن بلاداً مسيحية بوجه عام . والواقع ان هذه الفترة هي الفترة الوحيدة التي كانت فيها سورية بلاداً مسيحية تماماً . ونظراً لوقوع العصر البيزنطي بين العصر الروماني الوثني والعصر الاسلامي العربي فانه كان فريداً في تاريخ سورية .

ولم تكن البلاد مسيحية فحسب بل كانت العصر تسيطر عليه الصفة الدينية . فقد كانت الكنيسة اعظم مؤسسته وكان القديسون ينالون اكبر جانب من الاحترام . وقد وجد بين القرنين الرابع والسادس عدد من الرهبان والكهنة والاساقفة والراهبات والنساك بشكل لم يعرف من قبل ولا من بعد . وكانت ابنة الكنائس واماكن الصلاة والباسيليكات والاديرة تنتشر في البلاد وجميعها تتبع اسلوباً جديداً في الهندسة المعمارية يظهر فيه الباب وابراج الاجراس والصلبان البارزة . وقد وسعت كهوف النساك او صنعت من جديد . واقيمت الاعمدة التي كان - ويا للغرابة - يعيش العموديون عليها ويموتون . وقد نشطت حركة زيارة الاماكن المقدسة . واعتبرت التذور والصلوات عند قبور القديسين اكثر تأثيراً من زيارة الاطباء . وتعتبر البقايا المعمارية والآثار الدينية البيزنطية الموجودة اليوم اكثر عدداً من آثار جميع العصور مجتمعة .

(١) يذكر مخطوط سرياني بانه حضر بمع ليقية ثمة عشر اسقفاً من فلسطين وعشرة من فينيقية واثنان وعشرون من سورية المجوفة وستة من الولاية العربية (بمرى وفيلادلفيا . . الخ) . انظر : B. H. Cowper, *Syriac Miscellanies* (Edinburgh, 1861), pp. 9-10. ويبدو ان الاساقفة كانوا لم يحصلوا بعد على الميزة التي فصلتهم نهائياً عن القس .

الرهينة

كانت الرهينة طريقة محببة في الحياة وكان لمبادئها الاساسية وهي العزوية والفقر والطاعة جاذبية كبرى . وبتناقص السكان وتضاؤل الازدهار وحدوث الاضطرابات الالهية التي تميز بها العصر الروماني في القرنين الثالث والرابع فقد الناس ثقتهم وایمانهم بالمؤسسات العلمانية . فقد انت المسيحية بشيء خارق للطبيعة وسمائي يضم اعتقاداً بالقيم الروحية التي تستحق ان يعتزل الانسان العالم لاجلها وان يموت في سبيلها .

انبثقت الرهينة كنظام من عادة الزهد المسيحية . وكان مؤسسها مصرياً يدعى القديس انطون الذي اعتزل في الصحراء ومات بين ٣٥٦ و ٣٦٢ م . وسرعان ما انتقل هذا الاسلوب الجديد في الحياة المسيحية من مصر الى سورية الجنوبية حيث بدأ حركة الرهينة هيلاريون Hilarion من غزة وهو احد تلاميذ انطون . وفي اواخر القرن الرابع ظهرت جماعات من النساء حول انطاكية . وكان افرام (توفي حوالي ٣٧٣) احد مؤسسي الرهينة السورية . وفي القرن التالي ظهر اول العموديين وهو القديس سمعان (توفي ٤٥٩) في شمالي البلاد . ولا يزال السواح يشاهدون العمود الذي اقام عليه سمعان وسط آثار كنيسة فضة (قلعة سمعان) . وقد دام هذا الشكل الغريب من حياة الرهينة حتى القرن الخامس عشر . واصبحت حياة الرهبان الاوائل في مصر وجنوبي سورية النموذج المحبب لدى العالم المسيحي . وتأتي كلمة « Hermit » الافرنجية (اي ناسك) من كلمة يونانية تعني الصحراء .

المباني الكنسية

نشأت الكنيسة المسيحية عن حلقات صغيرة من التلاميذ الذين اعلنوا ان قائدهم كان مخلصاً ومسيحاً . وكانت اول حلقة سميت مسيحية هي حلقة انطاكية . وبدأ الرسل وعظهم في المعابد اليهودية وكان الذين يعتنقون المسيحية على ايديهم اما من اليهود او من غير اليهود الذين يرتادون هذه المعابد . ولهذا كانت نواة

الجماعات المسيحية الاولى من اليهود على الاكثر . ولا بد انه كان يصعب آنذاك التفريق بين الطائفة المسيحية الناشئة والطائفة اليهودية القائمة .

ويظن ان اقدم اماكن العبادة المسيحية كانت إما البيوت الخاصة حيث تعقد اجتماعات غير رسمية او معابد اليهود . وعندما تحولت اماكن العبادة هذه الى كنائس بصورة رسمية لم تجد نموذجاً تتبعه سوى الكنيس . وكان الكنيس اليهودي بديلاً محلياً للمعبد القديم بعد خرابه . وكان يمثل طريقة جديدة وثورية في العبادة اذ انه اطرّح عادة تعليم الدين بواسطة الاسرار وعادة التكفير بتقديم الضحايا . وهو بهذا قد اصبح النموذج الاصلي لكل من الكنيسة والجامع .

تعود اقدم بقايا كنيس وجد في فلسطين الى القرن الاول الميلادي^١ . اما اقدم كنيس في دورا اوروبس فكان بيتاً خاصاً تحول الى كنيس حوالي عام ٢٠٠ م . وقد زود كنيس في دورا اوروبس يعود الى منتصف القرن الثالث بباب للنساء ومقاعد خاصة لمن . وتعتبر زخارف جدرانها فريدة في الفنون الكنسية اذ تصور مناظر عن حياة الاسلاف والملوك اليهود^٢ . وتوجد في نفس المدينة بقايا كنيسة تعود الى حوالي ٢٣٢ م . وهي اقدم من اية كنيسة عرفت في فلسطين^٣ . وفي الحقيقة فانها تعتبر اقدم كنيسة مسيحية عثر عليها . وقد بقيت بعض آثار من عهد قسطنطين في كنيسة القيامة وكنيسة المهد حتى اليوم . وكنيسة المهد كما نراها اليوم يعود بناؤها الى بوستيان . واكثر كنائس جرش ترجع الى القرن السادس مع انه توجد في بعضها اقسام تعود الى القرنين الرابع والخامس . وكانت احداها بالاصل كنيساً تحول الى كنيسة بعد اعادة بنائه . وفي القرون التالية تحولت ابنية الكنائس الى مساجد .

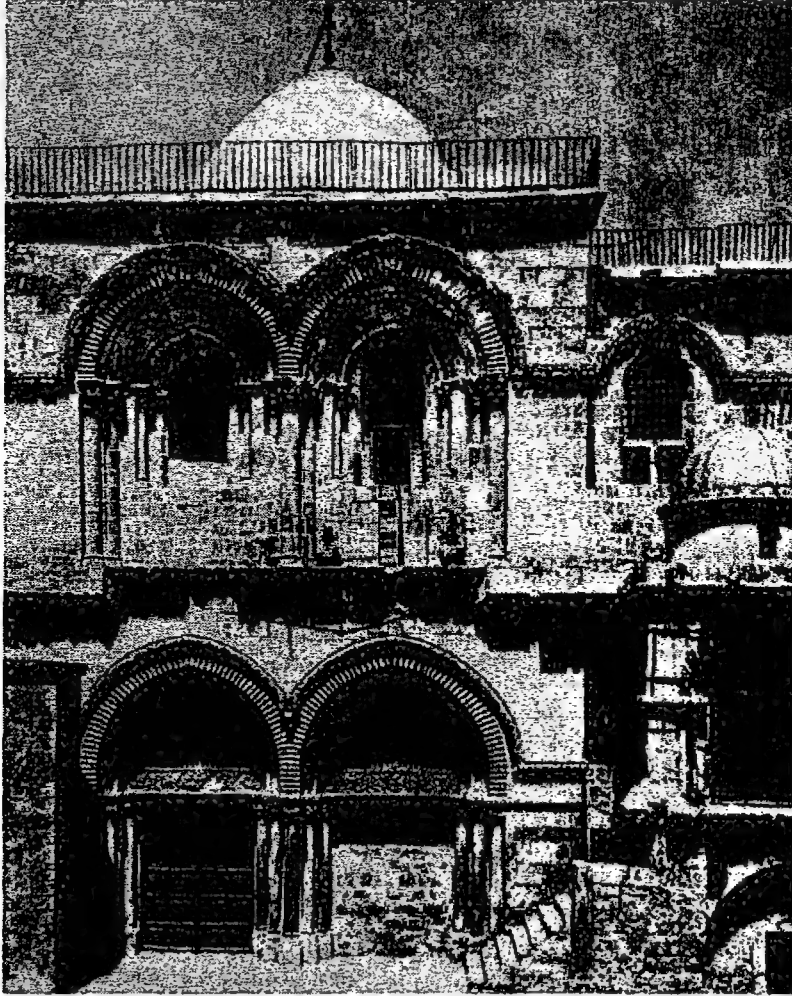
يمكننا الاستنتاج من هذه البقايا وغيرها بأن الكنيسة والكنيس يتصلان واحدهما بالآخر من ناحية المارة . وكان كلاهما يمثل في العصر البيزنطي نموذج

(١) انظر : E. L. Sukenik, *Ancient Synagogues in Palestine and Greece* (London, 1934), pp. 8, 69.

(٢) انظر : Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europus*, vol. vi, pp. 309-96; Sukenik, pp. 82-5.

(٣) انظر : Rostovtzeff et al, *Ibid* pp. 238-88; J. W. Crowfoot, *Early Churches in Palestine* (London, 1941), pp. 1 seq.

الكنيسة المستطيلة (الباسيليكا) . وكان الكنيس يتجه نحو اورشليم بينما تتجه الكنيسة نحو الشرق . وقد كان الفن فيها متصلاً اتصالاً وثيقاً .



كنيسة القبر المقدس (القيامة) في القدس

كان النموذج القديم للكنيسة المسيحية عبارة عن غرفة مستطيلة وكان هذا الشكل مستعجباً لبساطته وصلته بنموذج البناء السائد . وتعطينا كنيسة ام الجمال

ذات الصحن الواحد (٣٤٤ م) الموجودة جنوبي بصرى في حوران مثلاً عن هذا النوع^١. وكانت الباسيليكا السورية في القرنين الرابع والخامس تتألف من صحن معترض تتصل به من جهة الشرق ثلاث حنيات او حنية مركزية بالاحرى تحيط بها غرفتان جانبيتان. وتعود جذور هذا المخطط الى نموذج البناء الذي كان سائداً قبل الميلاد. وفي بقايا الكنيسة القائمة في دير يعود الى القرن السادس عشر عليه في حفريات سكيثوبولس (بيسان) لا نرى اروقة جانبية. وكانت هناك حنية على شكل حذوة الفرس في الطرف الشرقي. ولا شك ان المذبح كان يقوم في مدخل الحنية^٢. وقد وجد في قاعة الدير تقويم بالفسيفساء والوانها السائدة هي الازرق الداكن الذي يتصف به البازلت المصقول وانواع متعددة من اللون الاحمر والبني الفاتح على ارضية بيضاء.

الفن المسيحي

تظهر بقايا الفن المسيحي الاول تأثره بالفن اليهودي. وقد اقتبست الكنيسة من الكنائس في التواحي الرمزية. فكان شكل المسيح في اقدم صورة يمثل ومعه عصاً وربما كانت العصا التي ضرب بها موسى الصخرة. وشكل المسيح في المدافن تحت الارض اقتبسه المسيحيون عن صور موسى. وكانت سورية في رأي بعض العلماء من مراكز الفن المسيحي^٣. واقتبس فن الايقونات المسيحي في تطوره التدريجي من التعابير الفلسفية المتصلة بالآلهة والشعراء والخطباء. وبقي هذا الفن يختلف حسب الزمان والمكان حتى بلغ فردية معينة ونموذجاً من مستوى معين في القرنين الرابع والخامس.

ومن المواضيع الشائعة جداً لدى الفنانين المسيحيين الاوائل موضوع الراعي الصالح. ويظهر بجانب اشكال اخرى من التوراة على جدار كنيسة دورا اوروبس.

(١) انظر : Howard C. Butler, *Early Churches in Syria*, pt. 1 (Princeton, 1929), p. 19.

(٢) انظر : G. M. Fitzgerald, *A Sixth Century Monastery at Beth-Shan* (Philadelphia, 1939), p. 3.

(٣) قارن مع : Joseph Strzygowski, *Orient oder Rom* (Leipzig, 1901); do., *Origin of Christian Church Art* (Oxford, 1923), pp. I-16; do., *L'Ancien Art chrétien de Syrie* (Paris, 1936), pp. xlvii-liv.

ويصور الراعي غالباً حاملاً على كتفه حملاً . وفكرة الراعي قديمة جداً في الفكر السامي . وحمورابي يسمي نفسه في مقدمة مجموعة قوانينه «براعي» شعبه^١. وكانت أقدم أشكال الراعي تمثله فتى حليق اللحية يلبس قميصاً قصيراً بدون أكمام وهو النموذج المألوف في الفن اليوناني الروماني . ومع ذلك فإن النموذج اليوناني نفسه يعود في أصوله إلى الشرق الأدنى . وفي غاذج من النحت البارز من القرن التاسع ق. م. وجدت في شمال في سورية الشمالية وأخرى من القرن الثامن ق. م. وجدت في دور شاروكين قرب نينوى ، تظهر أشكالاً بشرية على اكتافها غزلان وكان رأس الحيوان في كل منها يتجه في نفس اتجاه رأس الرجل . ويرجح أن المقصود هو تقديم الغزال كضحية .

وكان السوري في العصر البيزنطي يبحث في الهندسة المعمارية والرسم والنحت وغيرها من ميادين فن الزخرفة عن طرق جديدة في التعبير مستقلة عن النماذج اليونانية الرومانية التي كانت منذ فتوح الاسكندر تؤثر في الانتاج الفني . وكان الفن الوطني يهدف بصورة مؤكدة إلى الواقعية . وقد حرّر نفسه بالتدريج من استعمال النماذج العارية والأشكال التقليدية ومهد الطريق للفن المسيحي في العصور الوسطى والفن الاسلامي .

احياء الآرامية

تطورت الكنيسة المسيحية في سورية من ناحية لغوية في اتجاهين: الاتجاه اليوناني على الساحل وفي المدن التي تأثرت بالهلينية والاتجاه السرياني في الداخل^٢. وقد ظهرت الكنيسة التي تستعمل اللغة السريانية منذ القرن الثاني . وبانتشار المسيحية في القرن الثالث فرضت السريانية نفسها تجاه اللغة اليونانية . وقد أشار التحول عن اليونانية والعودة إلى الآرامية في العصر البيزنطي إلى اليقظة الجديدة بين السوريين . وكان تجدد الاهتمام باللغة السامية القديمة دليلاً على احياء للوعي القومي كما كان رد فعل ضد الوثنية .

(١) انظر: Robert W. Rogers, *Cuneiform Parallels to the Old Testament* (New York 1912), p. 399.

(٢) تمييز بين الآرامية والسريانية راجع ما سبق في ص ١٨٣ و ١٨٤

ولما كان السوربون يعرفون عدة لغات دائماً فإن الذين اهتموا منهم بالحمامة درسوا اللغة اللاتينية اما الذين عكفوا على دراسة الفلسفة فتعلموا اليونانية ولكن بقيتهم وخاصة اولئك الذين وجدوا خارج المراكز ذات الصلة العالمية فانهم تمسكوا باللغة الوطنية . وكان على الموظفين البيزنطيين في الداخل ان يستخدموا الترجمة . ويشكو يوحنا فم الذهب^١ في انطاكية ذاتها بان الذين كانوا يستمعون اليه لا يستطيعون فهم مواعظه اليونانية وان الكهنة كانوا لا يسمعون سوى السريانية الدارجة .

اديسا

والادب السرياني الذي وصلنا ادب مسيحي بكامله تقريباً الا انه يشتمل ايضاً على كتب في العلوم والفلسفة مترجمة عن اليونانية . وكان اول مركز كبير له بعيد عن المدن التي تتكلم اليونانية هو اديسا التي اعتبرت ائينة العالم الآرامي حيث استخدمت السريانية في اول الامر لاغراض ادبية . وقد ازدهرت مدرسة اديسا حتى عام ٤٨٨ - ٤٨٩ عندما هدمت تماماً بأمر الامبراطور زينون . فانتقل الاساتذة الى نصيبين التي اصبحت وريثة اديسا كمركز علمي سرياني يوناني . ووجدت كنيسة اديسا التي انشئت حوالي اواخر القرن الثاني نفسها في القرون التالية غير منسجمة مع التقاليد اليونانية في انطاكية والغرب . وكانت تستعمل ترجمات التوراة الخاصة بها أولاً بشكل الدياتسرون Diatessaron وبعد ذلك بشكل البشيتا Peshitta (وهي الترجمة البسيطة)^٢ . وبقيت البشيتا منذ ذلك الحين الترجمة السريانية المعروفة .

كان افرام سيروس (السوري ، من حوالي ٣٠٦ - حوالي ٣٧٣) اول اللاهوتيين العظام في الكنيسة المسيحية كما كان ايضاً شاعراً دينياً وساعد في ادخال الرهبنة^٣ . وقد ولد افرام في نصيبين واتى الى اديسا حيث اسس او اعاد تنظيم مدرسة للاهوت اصبحت جامعة عظيمة للسوريين . وقد عاش قبله بارديسانس

(١) انظر : Joannes Chrysostomus, *Opera Omnia*, vol. ii (Paris, 1837), p. 222.

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٧١ .

(٣) انظر ما سبق في ص ٤٠٣ . راجع بشأن منتخبات من ترانيمه ومواعظه : *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. xiii (New York, 1898), pp. 119-341.

Bardesanes^١ (ابن ديسان ١٥٥ - ٢٢٣ م.) وكان من ادبسا ايضاً. وقد وضع اساس علم الترانيم وادخل الموسيقى الى تلك الكنيسة ولكن البعض يعتبره غنوسطياً.

الانشقاقات الدينية

نتج عن المعارضة للفكر المسيحي بالشكل الذي مثلته بيزنطية وانطاكية انشقاقات او «هرتقات» من وجهة نظر الكنيسة الرسمية. وكانت هذه الانشقاقات الى حد ما كما هو الامر في ناحية اللغة تعبيراً عن اليقظة القومية. وبعد ان غمرت الروح السورية لعدة قرون موجة من الحضارة اليونانية عادت اخيراً الى تأكيد ذاتها من جديد. ولم يكن السوريون كشعب قد اصطبعوا بالصبغة اليونانية الآن بأكثر مما اصطبعوا به قبلاً بالصبغة الرومانية. وكان انصرافهم عن حكاهم البيزنطيين يعود ليس لاسباب تتعلق بالمبادئ فحسب بل لاسباب سياسية واقتصادية ايضاً. وكان البيزنطيون اكثر استبداداً في حكمهم واكثر جوراً في نظام ضرائبهم. فقد جردوا السكان الاصليين من السلاح ولم يحترموا عواطفهم الا قليلاً. واطهروا حتى في المسائل الدينية تسامحاً اقل من تسامح اسلافهم الوثنيين.

كانت المناقشات اللاهوتية عصب الحياة بين المثقفين في القرنين الرابع والخامس. وقد تركزت على طبيعة المسيح والمواضيع المتعلقة بها التي لم تعد تثير اهتمام المسيحيين منذ ذلك الحين. فنتج عن ذلك هرتقات ومدارس فكرية لا تحصى وكان بعضها يعكس استخدام منطق ارسطو وتطبيق مبادئ الافلاطونية الحديثة. وفي هذه الاثناء اخذت تظهر عبادات قريبة من الزردشتية والبوذية بين الجماعات المسيحية. ويشير يوحنا فم الذهب^٢ الى فئة في انطاكية اعتقدت بتناسخ الارواح وكانت تلبس اردية صفراء. وكانت المانوية Manichaeism من اخطر العبادات الجديدة التي كانت تنتشر من الشرق وقد اسسها ماني Mani حوالي عام ٢٤٦ م. وقد مات ماني

(١) تعني «بار Bar» بالريانية (ابن) و «ديسان Daisan» (اسم جدول في ادبسا)؛ وقد ذكره Eusebius, Bk. IV, ch. 30. والكتاب العرب ابتداءً من ابن النديم في كتاب الفهرست؛

نشره: : Gustave Flugel (Leipzig, 1872) pp. 338-9.

(٢) انظر: Opera Omnia, vol. iv, p. 53.

في السجن بسبب معتقداته^١. اما ديانتة التي جمعت عناصر مسيحية وبوذية وزردشتية في مجموعة واحدة فقد انتشرت في العصر البيزنطي من فارس الى اسبانيا. وقد اثارت « اخطاؤها » الآباء السوريين بشكل لم تفعله اية اخطاء اخرى من قبل .

ابولينارس

كان اصحاب ما يسمى بالهرتقات من اصل سوري او يمحليون ثقافة سورية. وقد بدأت السلسلة بأريوس في القرن الرابع الذي أدان مجمع نيقية^٢ آراءه ومع ذلك بقيت لها اهمية عظيمة من الناحية اللاهوتية والسياسية. وكرد فعل ضد الأريوسية وتأكيدها على الطبيعة البشرية للمسيح اكد ابولينارس Appollinaris اسقف لاوديسة (توفي حوالي ٣٩٠) انه بينما كان للمسيح جسد بشري حقيقي وروح بشرية حقيقية فان الكلمة (Logos) تحتل في شخصه المقدس مكان النفس التي هي اسمى جزء في الانسان. واتضح ان ابولينارس كان يستخدم في تفكيره المبدأ الافلاطوني الحديث بان الطبيعة البشرية مركبة من ثلاث عناصر وهي جسد وروح (تبعث النشاط) ونفس (تجعل الانسان عاقلاً ومختلفاً عن الحيوانات) . وتربط تعاليم ابولينارس بين الأريوسية والنسطورية بلنها تعارض الواحدة وتمهد الطريق للأخرى.

الكنيسة النسطورية

ولد نسطوريوس في كيليكية الشرقية وعاش في دير قرب انطاكية . وفي عام ٤٢٧ رقي الى اسقفية القسطنطينية بناء على اقتراح الامبراطور تيودوسيوس الثاني الذي امل بذلك ان يأتي من انطاكية باسقف شبيه بيوحنا فم الذهب. ولكنه حكم عليه في عام ٤٣١ من قبل مجمع افسس. وكانت وجهة نظره التي أعترض عليها انه يوجد في المسيح شخص الهي (الكلمة Logos) وشخص بشري يتصلان واحدهما بالآخر بالنسجام تام في العمل ولكن ليس بتلك الوحدة التي تظهر في شخص واحد. وكان لنسطوريوس اتباع عديدون شكلوا النسطورة الحقيقيين .

(١) حفظ لنا الهرست ص ٣٢٧ - ٣٣٨ اخباراً تعتبر من اكثر الاخبار القديمة تفصيلاً عن ماني ونظامه .

(٢) انظر في ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

وظهر التسلط المروفون بنساطرة بلاد فارس فيما بعد. وبتعبير اصح شكلوا الكنيسة الشرقية او كما تسمى نفسها مفاخرة «كنيسة الشرق». وكانت قد وجدت هذه الكنيسة منذ عصر الرسل ولا يزال يوجد لها اتباع حتى اليوم. وعندما انقطعت صلتها بالامبراطورية الرومانية نشر اتباعها معتقداتهم وطقوسهم المحلية. وهم يعتبرون نسطوريوس بين الآباء اليونان وليس السوريين. ومع ان بعض كتاب هذه الكنيسة قد استخدموا اللغة النسطورية بصورة اكيدة فان المفردات التي كانت تستخدم في الطقوس والمجامع المختصة بها كانت بوجه عام خالية تماماً من تلك اللغة. وهذه هي الكنيسة التي كانت لها فيما بعد حيوية كافية جعلتها ترسل المبشرين حتى الى الهند والصين.

الكنيسة العنقوية

كان المذهب المونوفيزي Monophysitism (القائل بالطبيعة الواحدة) اعظم انشقاق تعرضت له الكنيسة الشرقية بعد النسطورية. وبتعبير دقيق كان اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة هم الذين لم يقبلوا ببداً الطبيعتين (الالهية والبشرية) في الشخص الواحد للمسيح الذي وصفه مجمع خلقدونية في عام ٤٥١ م. واتخذوا شعارهم «الطبيعة الواحدة لكلمة الله المتجسدة». وبتعبير آخر اعتقد اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة بان المظهر البشري والاهلي في المسيح لا يشكل سوى طبيعة مركبة واحدة ومن هذا اتى اسمهم^١.

وفي اواخر القرن الخامس واولائل القرن السادس كسبت المونوفيزية القسم الاكبر من سورية الشمالية كما ورثت اتباع ابولينارس في الجنوب. ويعود نجاحها بدوكة كبيرة الى امرين اولهما الدعاية النشيطة التي قام بها راهب سوري يدعى برصوما Barsauma (ويجب التفريق بينه وبين برصوما النسطوري اسقف نصيبين حوالي ٤٨٤ - ٤٩٦) وثانيهما شخصية سفيروس بطريرك انطاكية (٥١٢ - ٥١٨)^٢. ويزعم اصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة ان سمعان العمودي كان يؤمن بفكرتهم

(١) من الكلمة اليونانية مونوس monos وتعني واحد مضافة الى كلمة فيزيس Physis وتعني طبيعة.

(٢) انظر في ص ٤٠٠ - ٤٠١.

اللاهوتية . كذلك ايد القساسة^١ . وغيرهم من العرب السوريين هذا المذهب . وقد نظمت الكنيسة المونوفيزية في سورية من قبل يعقوب البرادعي (Bardeana) الذي رسم امقفاً لاديسا حوالي عام ٥٤٣ وتوفي في عام ٥٧٨ . وبنتيجة ذلك سمي اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة السوريون باليعاقبة . وهكذا اصبح القسم الغربي من الكنيسة السورية منفصلاً تماماً عن القسم الشرقي .

انتشر مذهب الطبيعة الواحدة من سورية الى ارمينية في الشمال ومصر في الجنوب . ولا يزال الارمن والاقباط حتى هذا اليوم يتمسكون بلاهوت الطبيعة الواحدة . وقد اخذ عدد اتباع هذا المذهب في سورية وبلاد ما بين النهرين بالتناقص منذ ان اصبح الاسلام القوة المسيطرة في هذه البلاد .

الخطر الفارسي

لم تنتبه سورية وحدها في العصر البيزنطي الى تقاليد القديمة من جديد بل ان مصر وبلاد الرافدين تنبها ايضاً الى ذلك . وفي عهد السلالة الساسانية الطامعة اخذت الدولة الفارسية المجاورة تنازع بيزنطة السيادة على الشرق . وقد صدق قائد بوسنيان القدير بليساريوس الهجوم الاول (٥٢٧ - ٥٣٢) . وكان بروكوبيوس من مدينة قيصرية ومؤرخ هذه الحرب يرافق بليساريوس كمستشار له^٢ . غير ان هذا الهجوم لم يكن سوى مقدمة للخطر المحدق .

وعاد الفرس في عام ٥٤٠ الى الظهور من جديد في عهد كسرى الاول انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) . وقد زحف هذا الملك التثييط على رأس ٣٠٠,٠٠٠ رجل على سورية بطريق هيرابولس (منبج) واشعل النار في مدينة حلب التي لم تستطع جمع الجزية الثقيلة التي فرضت عليها^٣ . وكان مقدارها ٤٠٠٠ ليبرة (رطل انكليزي) من الفضة وهو ضعف المقدار الذي اشترت به هيرابولس سلامتها . ثم تابع كسرى سيره من حلب الى انطاكية التي كانت فيها حامية ضعيفة . ولم تستطع نجدة مؤلفة

(١) انظر ما سنذكره عن القساسة في الفصل ٢٩ .

(٢) انظر : Procopius, Bk. I, ch. 12, § 24.

(٣) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 7, §§ 1-13.

من ٦٠٠٠ جندي انت من فينيقية اللبنانية^١ من منطقة حمص ان تقف في وجه المهاجم الفارسي . وكانت قوة الجيش الروماني في هذا الزمن مركزة في الغرب حيث كان يوستنيان يحاول اعادة جمع اطراف الامبراطورية الرومانية القديمة . فنهب مدينة انطاكية وجردت كاتدرائيتها من كنوزها الذهبية والفضية ومن رخامها الفاخر، وهدمت المدينة بكاملها واخذ سكانها اسرى^٢ . وبني لهم القاتح قرب عاصمته طسيقون (المدائن) مدينة جديدة افتخر بتسميتها انطاكية كسرى .

وهكذا انتهى كيان المدينة كمركز فكري بعد ان دام ثمانية قرون . وكانت انطاكية في آخر ايامها مدينة مسيحية مشهورة تأتي في مرتبة القسطنطينية والاسكندرية كمقر بطريركي . وقد عقدت فيها عشر مجامع كنسية بين ٢٥٢ - ٣٨٠ م . ويبدو ان تقدير يوحنا في الذهب^٣ لعدد افراد الطائفة المسيحية فيها بمائة الف قد تجاهل عدد العبيد والاطفال . ويروي مللاس^٤ المؤرخ الانطاكي المعاصر بان زلزال عام ٥٢٦ الذي نكبت به المدينة ادى الى هلاك ٢٥٠,٠٠٠ انطاكي^٥ . وكانت النتائج الاقتصادية لنهب الفرس لها ولهذا الزلزال وزلزال عام ٥٢٨ نتائج وخيمة .

تابع كسرى مسيره من انطاكية الى افامية وهي مركز مسيحي آخر مزدهر . وقد ادعت كنيستها بانها تملك قطعة من الصليب الحقيقي طولها ذراع واحد وهي محفوظة بكل وقار في تابوت مرصع بالجواهر^٦ . وكان هذا الاثر الثمين يحرسه كهنة خاصون ويعرض مرة في كل سنة حيث يقوم جميع السكان براسم العبادة امامه . وقد اخذ التابوت وجمع كل الذهب والفضة في المدينة . وقدمت جميع هذه للمهاجم لارواء نهمه الا ان الاثر نفسه قد سلم اذ كان لا قيمة له بالنسبة لكسرى . وعندما

(١) انظر في ص ٣٨٩ .

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 9, §§ 14-18.

(٣) انظر : Opera omnia, vol. vii, p. 914.

(٤) معنى الكلمة السريانية « ملالا Malala » خطيب او واعظ .

(٥) راجع لاجل التوسع في عدد السكان : Bury, History of the Later Roman Empire vol. i, p. 88.

(٦) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11.

اتهم احد المواطنين جندياً فارسياً بأنه دخل بيته وهتك عرض ابنته امر كسرى باعدام الزاني في المعسكر^١ . وقد نسب المواطنون سلامة المدينة من الدمار الى فعالية الاثر المقدس .

كانت خالكيس قرب حلب الضحية الثانية وقد اشترت سلامتها بكمية من الذهب . ثم استمرت حملة كسرى في السلب وتناولت المقاطعات الواقعة شرقي الفرات .

وفي عام ٥٤٢ عقدت هدنة تجددت بعد ذلك عدة مرات حتى عام ٥٦٢ حيث وقعت معاهدة مدتها خمسون سنة تلزم يوستينيان بدفع جزية الى « الملك العظيم » وبالامتناع عن القيام بأية دعاية دينية في المقاطعات الفارسية . وقد تجددت المنازعات في اوائل القرن السابع الا ان الحديث عنها يتصل بفصل يأتي فيما بعد ويتعلق بقيام الدولة العربية الاسلامية^٢ .

(١) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 11, §§ 36-8.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٠ .

الفصل الخامس والعشرون

الدول السورية العربية قبل الاسلام

شهدت سورية قبل ظهور الاسلام وانتشاره في الشمال قيام ثلاث دول عربية وسقوطها على حدودها وهي : دولة الانباط في الجنوب ودولة تدمر في الشمال ودولة القساسة بينهما . وقد اشتركت هذه الدول الثلاث ببعض اوصاف عامة في تاريخها المتعاقب . ويرجع اصلها الى تحضير القبائل البدوية او المتنقلة كما يرجع ازدهارها الى تجارة المرور . وتحالفت كل منها لبعض الوقت باعتبارها دولة حاضرة مع احدى الدولتين العالميتين . وهما رومة وفارس وتلقت المساعدات منهما . وقد قضت رومة اخيراً على الدولتين النبطية والتدمرية وقضت بيزنطة وفارس على دولة القساسة .

١ - الانباط

يظهر الانباط لأول مرة في القرن السادس ق . م . كقبائل بدوية في الصحراء الواقعة في شرقي ما يسمى اليوم بشرق الاردن . وكانت هذه البلاد منذ بداية القرن الثالث عشر مقر ممالك صغيرة هي مملكتا آدوم وموآب في الجنوب ومملكتا عمون وجلعاد في الشمال وجميعها كنعانية وآرامية . ويظهر من البقايا الاثرية ان مملكتي آدوم وموآب لم تحتلا قبل القرن الثالث عشر ق . م . وكان تاريخهما خالياً من الحوادث بين ذلك والقرن التاسع عشر . وكانتا بين القرن الثالث والعشرين والقرن التاسع عشر حين خضعنا كما يبدو للهجمات الآتية من الصحراء مزدحمين بالسكان . وقد تمكنت قوة العبرانيين العسكرية وديانتهم ان تتوغل في هذه البلاد احياناً كما حدث في عهد القضاة وداود ولحقن ديانة للتوحيد العبرانية لم تتمكن ابداً من عبور نهر الاردن بقوة عامة او من اقامة محط قدم جنوبية . وقد

اندمج هؤلاء السكان فيما بعد بالاتحاد النبطي. ومعهم قبائل ثمود^١ ولحيان^٢ في شمالي الحجاز.

من حياة الرعي الى الحياة الزراعية

كان الانباط لا يزالون رحلاً في القرن الرابع ق. م. يعيشون في خيام ويتكلمون العربية ويكرهون الحجر ولا يهتمون بالزراعة. وفي القرن التالي تركوا حياة الرعي واتبعوا حياة الاستقرار وعملوا في الزراعة والتجارة. وفي اواخر القرن الثاني كانوا قد تحولوا الى مجتمع منظم جداً متقدم في الحضارة ومتصف بالتطور والترف^٣. وكان مثاهم هذا مثالا آخر يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الادنى القديم وهو تحول الرعاة الى مزارعين ثم الى تجار في بلاد قليلة الموارد ولكنها حسنة الموقع بالنسبة لتجارة القوافل التي عوضت قلة عن مواردها الطبيعية.

ان اول تاريخ ثابت في عهد الانباط هو عام ٣١٢ ق. م. حين نجحوا في صد هجمات حلتين من سورية بقيادة انتيفونس^٤، احد خلفاء الاسكندر، ضد «صخرتهم» (ام اليبارة). وكانت عاصمتهم التي بدأت كحصن جبلي ثم اصبحت محطة للقوافل عند ملتقى طرق التجارة التي كانت تنقل اللبان وتجارة التوابل قد اصبحت محصنة بقوة في ذلك الحين. وكان هذا الملجأ الصخري، البتراء، قبل عهد الانباط مدينة يلتجئ اليها الادوميون الذين انتزعوها من ايدي الحوريين Horites (Hurrians) ابناء سعي (Seir). وكانت عاصمة الانباط محفورة في قلب صخر رملي يظهر جميع الوان قوس القزح ولذلك كانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة.

من الزراعة الى الحياة التجارية

ان كلمة بتراء Petra وهي اللفظ اليوناني لكلمة «صخرة» وفي العربية الفصحى

(١) ذكرت في القرآن ٧ : ٧١ ؛ ١١ : ٦٤ ، ٧١ .

(٢) قرية الهمة بتمود. انظر : Pliny, Bk. VI, ch. 32, § 156 ; ch. 33, 165.

(٣) راجع : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, §§ 22, 26 ; Diodorus, Bk. III, ch. 43, § 4.

(٤) انظر : Diodorus, Bk. II, ch. 43, §§ 6-7 ; Bk. XIX (ch. 6), § 94.

الرقيم^١ هي ترجمة كلمة سلع 'Sela' العبرية. ووادي موسى هو الاسم الحديث للموقع بكامله. وقد وسع الانباط سلطتهم ومراكزهم من عاصمتهم الى المنطقة الشمالية المجاورة حيث اعدوا بناء المدن الادومية والموابية القديمة واقاموا مراكز جديدة لحماية القوافل ومحطات مستحثة لاستثمار الموارد المعدنية. وكانت مدينتهم المدينة الوحيدة بين الاردن والحجاز التي توجد فيها مياه غزيرة ونقية. وزيادة على ذلك كانت المدينة حصينة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب. واصبحت البتراء منذ آواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة العربية الذي ينتج التوابل وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال. وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى ايلة Aila على البحر الاحمر والى الخليج الفارسي عبر الصحراء^٢. وكانت تستبدل فيها جمال القوافل بمحال أخرى نشطة.

لم يكتف مهندسو المياه الانباط بمياه ينابيعهم ولذلك اصبحوا بارعين في استخراج المياه الباطنية وفي استخدام مياه الامطار القليلة وحفظها. ويبدو انهم قد ورثوا تلك العسا السحرية التي مكنت متجولاً سامياً قديماً في تلك المنطقة وهو موسى من استخراج المياه من الصخرة الجافة^٣. وهكذا تمكنوا من انتزاع اجزاء من الصحراء وتحويلها الى اراض مزروعة اكثر بما فعله اي شعب عربي من قبل او من بعد.

ولا نسمع سوى القليل عن بلاد الانباط في القرن الثالث حين كانت سكانها ينمون امكانياتهم. وفي اوائل القرن الثاني اصبحت قوة يحسب لها حساب في

(١) انظر القرآن ١٨ : ٨ ؛ ياقوت، جزء ١٠، ص ٩١ و ٧٢٨ ؛ جزء ٢، ص ١٢٥ و ٨٠٤ قارن مع Josephus, *Antiquities*, Bk. IV, ch. 4, § 7; ch. 7. § 1.

(٢) ذكرت في سفر اشعيا ١٦ : ١ ؛ ٤٢ : ١١ ؛ الملوك الثاني ١٤ : ٧ ؛ قارن مع اخبار الالام الثاني ٢٥ : ١٢ ؛ ارميا ٤٩ : ١٦ ؛ عوبديا ٣ : ٤. انظر : G. and A. Horsfield, *Quarterly Department of Antiquities of Palestine*, vol. vii (1938), pp. 1 seq.

(٣) قارن مع : Pliny, *Natural History*, Bk. VI, ch. 32, § 145.

(٤) انظر سفر الخروج ١٧ : ٦.

سياسة الشرق الادنى . وقد وقعت في فترة ظهورها تحت تأثير البطالمة . وتعتبر سنة ١٦٩ ق.م . فاتحة عهد سلسلة من الملوك الانباط الذين عرفوا اخبارهم بالتأكيد .

الملكية النبطية

كان الحارث (حوالي ١٦٩ ق.م .) على رأس قائمة هؤلاء الملوك ويدعى « اريتاس Aretas ملك العرب »^١ . وقد تسمى بهذا الاسم كثير من ملوك الانباط كما تسمى به ملوك الغساسنة فيما بعد . وكان الحارث معاصراً لمؤسس الاسرة المكابية . وبدأت الاسرتان عهدهما كحليفتين طبيعيتين ضد ملوك سورية السلوقيين^٢ . ولكنهما اصبحتا فيما بعد متنافستين . وقد سارع الحارث الثاني (« ابروتيموس Erotimus »^٣ (حوالي ١١٠ - ٩٦ ق.م .) مؤسس السلالة لمساعدة غزة في عام ٩٦ ق.م . وكان اسكندر جنايوس Jannaeus المكابي يحاصرها . وحوالي عام ٩٠ ق.م . حاز خلف الحارث الثاني وهو عبيدة (اوبوداس الاول Obodas I) نصراً هاماً على جنايوس^٤ . وقد نشبت المعركة على الشاطئ الشرقي لبحر الجليل ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سورية اي منطقة حوران وجبل الدروز اليوم . واستغل عبيدة وخلفه الحارث الثالث (حوالي ٨٧ - ٦٢) انخراط جيранها السلوقيين والبطالمة فوسعوا الحدود العربية الى الشمال . ولم تكن زومة قد ظهرت بعد على مسرح الشرق .

كان الحارث هذا المؤسس الحقيقي لسلطة الانباط . فقد هزم مراراً جيش اليهودية وحاصر اورشليم . كما انه استجاب لدعوة تلقاها من دمشق واقام نفسه عليها سنة ٨٥ ق.م . كحاكم لتلك المدينة السلوقية والسهل التي الملحق بها وهو سورية المجوفة . وكان الدافع لهذه الدعوة كره سكان دمشق لحاكم خالكيس (عنجر) الايتوري الذي طمع بعرش سورية^٥ . وبعد اثني عشر عاماً صد الحارث هجوماً

(١) انظر سفر المكابيين الثاني ٥ : ٨ .

(٢) انظر سفر المكابيين الاول ٥ : ٢٤ - ٢٧ : ٩ : ٣٥ .

(٣) انظر : Dussaud and Macler, *Mission*, p. 70.

(٤) انظر ما سبق في ص ٢٩٦ .

(٥) انظر ايضاً ما سبق في ص ٢٧٠ .

قام به بومبي^١ الذي كان يحلم بتوسيع الحدود الرومانية حتى البحر الاحمر. وبدأ كأنه اقوى سيد في سورية. وكان هذا اول احتكاك مباشر مع رومة.

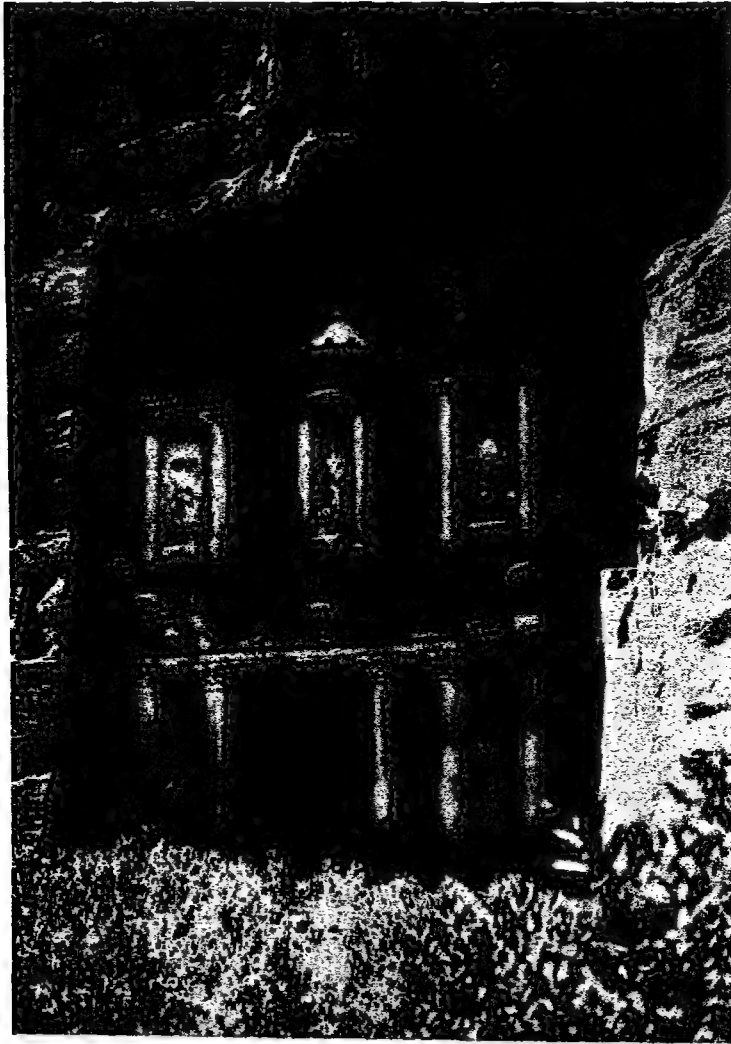
بينما كان الحارث يصد الرومان باليد الواحدة كان يفتح بالآخرى الباب على مصراعيه للتأثيرات اليونانية الرومانية. وادخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلنستية وكسب لقب محب الهلينية Philhellene. وكان اول من سك نقوداً نبطية اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالة. كما انه اتى بالصناع السوريين الى عاصمته وادخلوا معهم نماذج هلنستية وربما نحتوا الواجهة الجميلة التي تسمى اليوم الحزنة وكانت بالاصل قد وضعت لتكون له. ويرجح ان المسرح قد بني ايضاً في زمن الرومان^٢. وبدأت البتراء منذ ذلك الحين تتخذ مظاهر مدينة هلنستية نموذجية فكان فيها شارع رئيسي جميل وعدة ابنية دينية وعامة. ومنذ هذا العهد اخذت دولة الانباط تقوم بدور «موال» حليف لرومة. وطلب يوليوس قيصر في عام ٤٧ من مالكو (مالكوس الاول Malchus I حوالي ٥٠ - ٢٨ ق.م.) ان يقدم الفرسان لتساهم في حربه في الاسكندرية. وشجع عبيدة الثالث^٣ (حوالي ٢٨ - ٩ ق.م.) وهو خلف مالكو المذكور ايليوس غالوس Aelius Gallus حاكم مصر في عهد اوغسطس قيصر على القيام عام ٢٤ بالحملة السيئة المصير ضد بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ووعدته بالمساعدة التامة. ويعزو سترابو حديق غالوس مسؤولية فشل الحملة لحيانة الدليل «سيلايوس Syllaeus وزير الانباط»^٤. وعندما اعتلى الحارث الرابع الذي خلف عبيدة العرش دون ان يستأذن اوغسطس بالأمر كاد ان يفقد عرشه بنتيجة ذلك.

(١) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XIV, ch. 5. § 1; *War*, Bk. I, ch. 8 § 1.

(٢) قارن مع Rudolf E. Brännow and Alfred v. Domaszewski, *Die Provincia Arabia*, vol. i (Strasbourg, 1904), pp. 190 250-61; Gustaf Dalman, *Petra und seine Felsheiligtümer* (Leipzig, 1908), pp. 183-8.

(٣) يرجع اسم عبيدة (ابوده Oboda) المدينة المهمة التي تقع شمالي غربي البتراء الى عبيدة هذا او شخص آخر بهذا الاسم. انظر. Abel, vol. ii, p. 400.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 23; Hitti, *History of the Arabs*, p. 46; cf. A. Kammerer, *Pétra et la Nabaténe* (Paris, 1929), p. 199.



الحزنة وهي اجل واجهة معمارية في البتراء
وقد اقيم هذا البناء في الاصل ليكون مميداً او قبراً لاحد
ملوك الانباط الاخيرين

المملكة في ذروتها

بلغت المملكة ذروتها في عهد الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م.) الذي كان حكمه طويلاً ومزدهراً. وقد تابع عملية نشر الحضارة الرومانية. وكان من ولاته ذاك الذي حاول القبض على بولس في دمشق^١. وقد تزوج الحاكم هيرودس ابن هيرودس الكبير ابنة الحارث هذا وتجرأ على طلاقها ليتزوج راقصة كانت السبب الرئيسي في مقتل يوحنا المعمدان^٢. فشن الأب الناقم حرباً مظفرة على هذا الملك اليهودي^٣. ويمكن ان يرجع تاريخ «الاماكن المرتفعة» التي لا تزال قائمة في البتراء والقبور الجميلة التي تمثلها قبور الحِجَر (مدائن صالح) في الحجاز الى زمن حكمه. وكانت الحِجَر مركزاً لقبيلة ثمود^٤.

كانت المملكة تضم في اقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرقي الاردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالى الجزيرة العربية. ومهما يكن فان القسم السوري كانت تفصله عن قسم شرقي الاردن منطقة اتحاد الديكابولس^٥. وكان يربط ما بين القسمين وادي السرحان. وكانت تستخدم هذه المنطقة الصحراوية الواقعة على الحدود الشرقية لشرقي الاردن كطريق رئيسية كبرى تبدأ من قلب الجزيرة العربية الى سورية وتتجنب المرور بالديكابولس^٦. ويمكن الافتراض انهم كانوا في هذه المدن يستفيدون من مياه الينابيع الباطنية وينشئون الخانات وابراج المراقبة والحصون ومراكز الشرطة على طول هذه الطريق وكذلك على طول وادي العربية وهو وادي

(١) رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنتوس ١١ : ٣٢ .

(٢) انجيل متى ١٤ : ٦ - ١١ .

(٣) انظر: Josephus, *Antiquities*, Bk. XVIII, ch. 5, §§ 1-2.

(٤) انظر: Alexander B. W. Kennedy, *Petra: Its History and Monuments* (London, 1925), figs. 42, 53, 57, 156.

(٥) انظر القرآن ١٥ : ٨٠ .

(٦) انظر ما سبق عن الديكابولس في ص ٣٥٠ .

(٧) انظر: Nelson Glueck, *Explorations in Eastern Palestine, III* (New Haven, 1939), pp. 144-5.

التصدع والزحول الذي يمر بالبتراء ويربط وادي الاردن بمخليج العقبة . ومثل هذه التدابير كانت تعتبر ضرورية للوقاية من غارات البدو . وكان طريق وادي العربية يتفرع عند البحر الميت باتجاه الغرب الى فلسطين وباتجاه الشرق الى شرقي الاردن حيث يتصل بالطريق الملكي^١ الذي يجتاز القسم الحصب من الهضبة . وكانت تمر في هذين الواديين البضائع النبطية في زمن السلم والاسلحة في زمن الحرب .

الملوك الآخرون

لا نعرف عنحكام الانباط الاخيرين غير بعض الحقائق المستخرجة من الكتابات الاثرية المحلية والنقود والكتابات الكلاسيكية . ومنذ حكم عبيدة الثالث^٢ (حوالي ٢٨-٩ ق.م.) اخذت تظهر في النقود صورة الملكة مع الملك . واستمرت التماثيل التصفية المزدوجة للزوجين الملكيين تظهر منذ ذلك الحين حتى نهاية الملكية . وهناك كتابة اثرية على تمثال لعبيدة الثالث هذا تدعوه «الاهي»^٣ مما يدل على ان الانباط كانوا يؤلهون ملوكهم بعد الموت . وقد وصفت الملكة على نقود مالكو الثاني (٤٠-٧٠ م.) ابن الحارث الرابع «بشقيقة الملك»^٤ مما يشير الى ان بعض الملكات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين متبعين في ذلك عادة القراعة والبطلمية . وتشير الكتابة الاثرية على تمثال عبيدة بان احدى زوجات الحارث الرابع كانت اخته ايضاً . وقد ارسل مالكو الثاني في عام ٦٧ الف فارس و٥٠٠٠ من المشاة لمساعدة تيطس في هجموه على اورشليم^٥ . وفي اثناء حكمه اصبحت دمشق في ايدي الرومان . ويرجح ان ذلك كان في عهد نيرون . وبموت مالكو ينتهي عصر الانباط الذهبي الذي بدأ في عام ٥٠ ق.م .

(١) انظر ما سبق في ص ٣١٩ .

(٢) يذكر باسم ابوداس الثاني Obodas II في Cooke, p. 216 . قارن بشأن القوائم الكاملة للملوك والاختلافات في ترميم الملوك والتأريخ : Renê ; Kammerer, pp. 176-7 ; Cooke, p. 216 ; Dussaud and Frédéric Macler, *Voyage archéologique au Safâ et dans le Djebel ed-Drûz* (Paris, 1901), p. 172 ; Dussaud and Macler, *Mission*, pp. 69-90.

(٣) انظر : Cooke, p. 244.

(٤) انظر : Kammerer, p. 254.

(٥) انظر : Josephus, *War*, Bk. III, ch. 4, § 2.

وتذكر الكتابات الاثرية التي وجدت في حوران رايبيل الثاني Rabbil II (رابل Rabel حوالي ٧١ - ١٠٥) آخر ملوك الانباط وهو ابن مالكو ووريثه - وتشير اليه بصورة تهكمية كما يبدو بانه الشخص «الذي جلب الحياة والخلاص لشعبه»^١. وتدلنا بعض نقوده بأنه حكم لمدة من الزمن مع امه . ولم يعرف بالضبط ما حدث في تلك السنة الحاسمة التي ادت الى انهيار هذه الدولة السورية العربية الواقعة على الحدود وضهما الى امبراطورية رومة . وكانت رومة قد ابتلعت كل الممالك الصغيرة في سورية وفلسطين واخذت تتأهب للقتال مع تلك الدولة الاسيوية الكبيرة وهي دولة القرنيين . ولم يمكن اذ ذاك التغاضي عن وجود اية دولة نصف مستقلة تقع بينهما . فكان يجب على جميع الدول المتوسطة بينهما ان تصبح في قبضة الامبراطورية التامة . ولعل الرومان في نهاية حكم رايبيل رفضوا الاعتراف بخلف له . ثم كان تحرك كورنيليوس بالما Cornelius Palma نائب تراجان في سورية ضد البتراء كافيًا لسحق اية مقاومة^٢. واصبحت بلاد الانباط في السنة التالية جزءاً من الولاية العربية الرومانية وكانت بصرى فيها المدينة الرئيسية التي اصبحت عاصمة فيما بعد^٣. وزالت البتراء العربية Arabia Petraea من الوجود .

اما عاصمتها الجميلة والغنية (مدينة البتراء) التي كانت «حراء وردية اللون وقديمة يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ» - فقد اصبحت في ذمة التاريخ الذي منه أنت . وتحول طريق التجارة الذي كان يتجه من الشرق الى الغرب شمالاً الى تدمر كما تحول الطريق الجنوبي - الشمالي باتجاه الشرق حيث يقع طريق الحج والخط الحديدي الحجازي الحديث . ثم تحولت البتراء التي اعتنقت المسيحية في القرن الثالث فصارت اسلامية في القرن السابع والقرون التالية . وقد انتزع بلدوين الاول Baldwin I المدينة المحصنة من المسلمين مباشرة بعد تنصيبه ملكاً في ١١٠٠ واحتفظ بها

(١) انظر : Cooke, p. 255 ; Dussaud and Macler. *Voyage*, pp. 166-7 ; Kammerer, pp. 255-56.

(٢) انظر : Dio, Bk. LXVIII, ch. 14, § 5.

(٣) راجع ماورد عن بصرى في ص ٣٢٣ .

الصليبيون حتى انتصار صلاح الدين الحاسم في عام ١١٨٩. وبقيت مهمة حتى كشفت آثارها للعالم في ١٨١٢ من قبل المكتشف السويسري بوركهارت^١ Burckhardt.

العلاقات التجارية والصناعية

وصلت علاقات البتراء التجارية الى مناطق تعتبر من ابعد المناطق في العالم المتمدن آنذاك. وقد تركت آثاراً كتابية مبعثرة بين بتيولي Puteoli التي كانت مرفأً لرومة لمدة من الزمن وجرها (العقير)^٢ على الخليج الفارسي. كما وجدت وثائق نبطية اخرى في ملبتوس ورووس ودلتا النيل الشرقية ومصر العليا وعند مصب الفرات. ويعود تاريخ الكتابة الاثرية المشوهة التي وجدت في بتيولي ثم اصبحت اليوم في متحف نابولي الى عام ٥ م. ويكرس هذا النقش شيئاً من اجل حياة الملك الحارث الرابع في هيكلي يرمم وكان قد بني قبل ذلك العهد بمجسين سنة^٣. وتشهد كذلك الوثائق الصينية بمشاريع الانباط التجارية.

وكانت السلع الرئيسية تتألف من المر والتوابل والبخور من جنوبي الجزيرة العربية والمنسوجات الحريرية الفاخرة من دمشق وغزة والحناء من عسقلان والاوراني الزجاجية والارجوان من صيدا وصور واللؤلؤ من الخليج الفارسي. وكان الانتاج المحلي لبلاد الانباط يضم الذهب والفضة وزيت السمسم الذي كانوا يستخدمونه مكان زيت الزيتون^٤. ويرجع ان الاسفلت وغيره من المعادن المرشحة كان يستخرج من الساحل الشرقي للبحر الميت. وكانت الحرير الخام يستورد من الصين مقابل ما يصدر اليها. وقد عرف الحرير الصيني كإداة في سورية منذ ايام السلوقيين. وكان الحرير الخام ينسج في صيدا في القرن الاول الميلادي. وكانت الاشياء المستوردة من اليونان ورومة تجلب في جرار اتيكية ولا تزال توجد بعض قطع منها حول

(١) انظر: John L. Burckhardt, *Travels in Syria and the Holy Land* (London, 1822), pp. 418-34.

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٩٩ و ٣٠٠.

(٣) انظر: *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, Pars II, tom. i (Paris, 1899), No. 158.

(٤) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

البتراء وإيلة^١. وكانت إيلة ولوبيكي كومه Leuke Kome (المدينة البيضاء المفقودة على البحر الأحمر قرب الوجه) حلقتين في سلسلة محطات القوافل وكانت بصرى وصلخد حلقتين داخليتين. واستخدمت هذه المدن مع غيرها كمستودعات للأسلحة والبضائع. وقد عززت الجيوش المحلية بمجاليات من الانباط. وبما يستتعي زيادة الاهتمام ان احد المواقع المكتشفة حديثاً وهو جبل رام Ramm الذي يبعد خمسة وعشرين ميلاً شرقي إيلة قد قيل عنه انه إرام Iram الواردة في القرآن^٢. وكان الانباط يجمعون طرق القوافل ويفرضون الضرائب على البضائع ويمارسون نوعاً من الاحتكار لمدة من الزمن. ووجد سترابو « انه بلغ من شدة ميلهم للحصول على الممتلكات انهم كانوا يفرضون الغرامات علناً على كل من ينقص ممتلكاته كما كانوا يمنحون مراتب الشرف لكل من يزيد فيها »^٣.

المظاهر الحضارية

كانت حضارة الانباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهليني ولكنها عربية في اساسها وبقيت كذلك.

وقد اصاب سترابو ويوسيفوس وديودورس باطلاق اسم العرب على الانباط، اذ ان اسماءهم الشخصية واسماء المهتم واثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية لا تدع مجالاً للشك بان لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية. وفي الكتابة الاثرية في بتيولي التي سبق ذكرها يرد اسم علي، الذي شاع لدى المسلمين فيما بعد، لأول مرة في المدونات. وفي كتابات اخرى تظهر اسماء حبيب وسعيد وهي اسماء عربية شائعة ايضاً^٤. وترد بعض الكلمات العربية مثل « قبر » و « غير » في عدة كتابات

(١) هي ايلات Elath القديمة وتدعى اليوم العقبة لان احمد بن طولون بنى حصناً في ذلك الموقع.

(٢) انظر: M.-R. Savignac and G. Horsfield, « Le Temple de Ramm » *Revue biblique*, vol. xlv (1935), pp. 245-78; Harold W. Glidden, « Koranic Iram, Legendary and Historical », *Bulletin, American Schools of Oriental Research*; No. 73 (1939) pp. 13-15.

(٣) انظر: Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

(٤) انظر: *Corpus Inscriptionum Semiticarum*, pp. 260, 242.

اثوية. وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة في احدى الكتابات الاثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربياً^١.

كانت اللغة الآرامية وهي اللغة الشائعة في ذلك العصر يستعملها الانباط كما كان يستعملها جيرانهم في الشمال^٢. ويجب ان نذكر انه لم تكن هناك حروف عربية بعد. والرسالة التي كتبها الانباط في ٣١٢ ق.م. الى انتيفونس كانت «بالحروف السريانية»^٣. وكانت الآرامية اللغة الوحيدة التي باستطاعتهم استعمالها على ابنتهم الاثرية ونقودهم. وبالتدريج انفصلت الكتابة النبطية عن الآرامية. وحوالي منتصف القرن الاول ق.م. اتخذت طابعها المميز واصبحت ذات صفة ثابتة.

ويمكن الافتراض ان التجار الانباط كانوا الى حد ما يتكلمون لغتين ان لم يكن اكثر، كتجار القاهرة وبيروت اليوم. ولا بد ان بعضهم كانوا يعرفون ليس اللغتين العربية والآرامية فحسب بل اليونانية وبمقدار اقل اللاتينية ايضاً.

وبما يزيد في اهمية الحروف النبطية ان الابدانية العربية قد انحدرت منها مباشرة كما يستدل من دراسة الكتابات الاثرية العربية القديمة. واقدم نص عربي وصلنا هو نص التماره al-Namarah في شرقي حوران من عام ٣٢٨ م. وهو مكتوب بحروف نبطية^٤. ويعتبر خط النسخ الذي كتبت به اللغة العربية في قدمه كالخط الكوفي الذي ينسب الى الكوفة في بلاد ما بين النهرين. وتحالف المرويات الاسلامية الادلة التي مصدرها الكتابات الاثرية فتشير خطأ الى بلاد ما بين النهرين بانها اول مكان ظهرت فيه الكتابة العربية الصحيحة.

الديانة

كانت ديانة الانباط من النوع السامي الشائع واسماها طقوس الحصب المتصلة

(١) انظر: Jausen and Savignac, *Mission archéologique en Arabie* (Paris, 1909) pp. 172-6.

(٢) راجع لاجل التوسع في لغة الانباط: J. Cantineau, *Le Nabatéen*, 2 vols. (Paris, 1930-32).

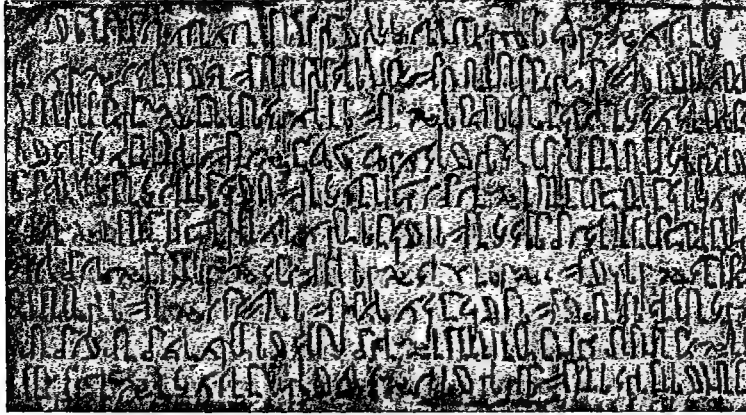
(٣) انظر: Diodorus, Bk. XIX (ch. 6), § 96.

(٤) انظر: Cantineau, vol. i, p. 22.

بالزراعة . وقد احتفظت بعناصر من العبادة القديمة المقترنة « بالاماكن المرتفعة » والحجارة القائمة .

وكانت على رأس مجموعة آلهة الانباط الاله دوشارا (ذو الشرى او دوسارس Dusares)^١ . وهو الاله الشمس الذي كان يعبد بشكل مسلة او حجر اسود غير منحوت له اربع زوايا . وقد بقي في انقاض معبد نبطي في خربة التنور جنوب شرقي البحر الميت مزار على شكل صندوق شبيه بالكعبة وربما بني في القرن الاول ق . م .^٢

كانت اللات الالهة الرئيسية في الجزيرة العربية وتتصل بالاله ذو الشرى ،



كتابة اثرية نبطية على احد الاضرحة من علم ٢٦ م .
وجدت في الحجر (مدائن صالح)

(١) والشرا هو اسم مكان . راجع : W. H. Waddington, *Inscriptions grecques et latines de la Syrie* (Paris, 1870), pp. 478-9.

ولا يزال الجبل الحواري الذي يشرف على شمال شرقي البتراء يدعى حتى اليوم شرى shara

ترد شرى في *The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine*, vol. vii (1938), pl. i.).

ويرجح ان الكلمة تعني حى او منطقة مقدسة . انظر : Dalman p. 49.

(٢) انظر : M. E. Kirk, « An outline of the Ancient Cultural History of Trans-jordan », *Palestine Exploration Fund Quarterly* (1944), p. 196.

وكانت الالهة القمر . ومن الالهة التي ذكرت في الكتابات الاثرية مناة والعزّة المذكورتان في القرآن . كما يظهر في الكتابات هبل ايضاً . وكانت الالهة الآرامية اتارغاس تمثل في خربة التنور كالهة الجبوب واوراق النباتات والنار والسبك^١ . وهنالك آلهة عديدة من هذا المكان تقابل آلهة تدمر ودورا - اوروبس وهيرابولس وهليوبولس . وكانت عبادة الافعى تشكل جزءاً من الديانة .

لا نعرف سوى القليل عن الاحتفالات المتصلة بعبادة الانباط . ويبدو وصف سترابو لاحدى الولايات الملكية التي « لا يشرب الانسان فيها اكثر من احد عشر كأساً مستعملاً في كل مرة كأساً ذهبياً مختلفاً »^٢ بأنه اشبه بحفلة تتصل بالطقوس الدينية . ويبدو ان تقشف الازمنة القديمة قد زال بتأثير « الحضارة الحديثة » . وتتضح الطقوس الدينية من رواية لسترابو نفسه يذكر فيها « انهم كانوا يأكلون على موائد مشتركة بشكل جماعات تتألف من ثلاثة عشر شخصاً ويقوم على خدمة كل جماعة مغنيتان » . وباقتباس مظاهر الترف والاساليب الهلنستية في الحياة فان الآلهة بدلت اسماءها السامية القديمة واتخذت مظهراً رومانياً فاصبح ذو الثرى يدعى ديونيسوس .

وبما لا شك فيه ان تصوير الصفات القومية للانباط في كتابات سترابو^٣ وديودورس^٤ وهما من احسن مصادرنا امر مبالغ فيه ولكن لا بد ان يكون فيه عنصر من الحقيقة . والصورة العامة هي صورة شعب متفهم للامور محب للكسب منظم وديمقراطي ، منهمك في التجارة والزراعة . ولم يكن يوجد في المجتمع سوى عدد قليل من العبيد مع عدم وجود فقراء معدمين . وحافظ الافراد على علاقات سلمية بعضهم مع بعض حتى انهم لم يحتاجوا الى رفع الدعاوى . وبلغ من ديمقراطية الملك انه غالباً ما كان يقدم تقريراً عن اعمال ملكه الى الجمعية العامة . واشغل

(١) انظر : Nelson Glueck, *The Other Side of the Jordan* (New Haven, 1940), pp. 180-86; Kirk, p. 196.

(٢) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 26.

(٣) انظر : Strabo, Bk. XVI, ch. 4, § 21, 26-27.

(٤) انظر : Diodorus, Bk. XIX, (ch. 6), §§ 94-7.

الناس بالامور المتعلقة بهذه الحياة حتى انهم نظروا الى الاموات كما ينظر الى البقايا البالية .

بلغ تأثير الانباط في الشمال الى بلاد العبرانيين من جهة وفي الجنوب الى الجزيرة العربية من جهة اخرى . ويظن ان عمري Omri ملك اسرائيل ومؤسس السامرة حيث دفن حوالي ٨٧٤ ق : م . كان من الانباط^١ . وبعد حوالي قرن اعتبر اماسيا Amaziah ملك يهوذا بأن آلهة الايدوميين في البتراء قوية جداً بما يستدعي وضعها في معبد اورشليم لتعبد جنباً الى جنب مع يهو^٢ ونستنتج من اسم جشمو Gashmu الذي عارض في مشروع بناء سور لاورشليم بأنه كلف من انباط عمود^٣ . ويمكن ان يكون « المجوس الذين اتوا من المشرق »^٤ عرباً من الصحراء النبطية وليسوا بجوساً من بلاد فارس^٥ . وقد توصل يوستين الشهيد^٦ وغيره من آباء الكنيسة الى هذا الاستنتاج من طبيعة الهدايا التي قدمت . ويرجع ان العرب الذين يذكرون بمناسبة عيد العنصرة^٧ كانوا من الانباط . والبلاد العربية التي وجد فيها بولس مكاناً يعتزل فيه^٨ كانت بدون شك احدى البقاع الصحراوية في تلك المنطقة .

وقد تكشف الابحاث العلمية فيما بعد مقداراً كبيراً من تأثير الانباط على الديانتين المسيحية والاسلامية الناشئتين اكبر مما عرف حتى الآن . وكلمة حنيف^٩ الواردة في القرآن والتي اطلقت على معاصري النبي محمد الذين كانت لهم بعض الافكار التوحيدية الفاضلة من اصل نبطي آرامي .

(١) سفر الملوك الاول ١٦ : ٢٤ .

(٢) سفر الملوك الثاني ١٤ : ٧ ؛ اخبار الايام الثاني ٢٥ : ١٤ .

(٣) انظر ما سبق في ص ٢٤٤ .

(٤) انجيل متى ٢ : ١ .

(٥) فارن مع : Ernest E. Herzfeld, *Archeological History of Iran* (London, 1935) pp. 64-6.

(٦) انظر : « Dialogue with Trypho », *Ante-Nicene Christian Library*, vol. ii (Edinburgh, 1867), pp. 195-6.

(٧) اعمال الرسل ٢ : ١١ .

(٨) رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ١ : ١٧ .

(٩) القرآن سورة ٢ : ١٢٩ ؛ ٣ : ٦ ؛ ٤ : ١٢٤ ؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 108 .

الفن والبناء

لقد اوجد الانباط نموذجاً جديداً في العمارة يشتمل على معابد وقبور وغيرها من الابنية محفورة في الصخر . ومن صفات بنائهم الغرفة ذات العقود . ولعلمهم في اساليب الزخرفة اوجدوا اصناف الالواح النافرة التي انتقلت منهم الى بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس^١ .

وأظهر سكان البتراء في نحتهم كما في ديانتهم علاقة وثيقة بنحت المدن الواقعة على اطراف الصحراء مثل تدمر ودورا — اوروبس وديانها .

وتأثر الصناع الانباط بالناذج اليونانية فادخلوا نوعاً جديداً من الحُزف يأتي في المرتبة بين احسن الانواع التي انتجتها تلك المنطقة^٢ . وبقايا الكؤوس والفناجين والصحون والاباريق والطاسات تظهر رقة فائقة كركة قشر البيض تدعو الى الاعجاب وتشهد بصناعة متفوقة . وترينا مختلف الانواع من البسيط الخالي من الزخارف الى المدهون الى المزخرف بواسطة الدولاب . ولون الطين المستعمل هو لون الطين الطبيعي المائل الى الحمرة . اما الرسوم فغالبا ما تكون نماذج ازهار او اوراق بشكل هندسي . ويُعتبر انتشار اشكال العنب واوراق الكرمة على الفخار والزخارف المعمارية دليلاً آخر على ان الامتناع عن شرب الخمر المعروف قديماً لم يعد قائماً . وقد استطاع علماء الآثار التابعون للمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية في القدس التعرف عن طريق قطع الفخار الى ما يقرب من خمسمائة موقع نبطي بين العقبة والطرف الشمالي من البحر الميت^٣ . وقد ذكروا ان الانباط في الفن والبناء والمهندسة وربما في الادب وفي الفخار بالتأكيد — كانوا موهوبين ومن اكثر الشعوب براعة في التاريخ^٤ . والانباط الذين قاموا بقيادة القوافل التي كانت تشبه الشرايين في تجارة الشرق القديم وبناء مدينة تعتبر فريدة في تاريخ عمل الانسان وبناء

(١) انظر : Neilson C. Debevoise, « Origin of Decorative Stucco », *American Journal of Archeology*, vol. xlv (1941), p. 60.

(٢) انظر : Kirk, P. 195 ; Glueck, pp. 173-4.

(٣) انظر : Glueck, p. 173.

(٤) انظر : Glueck, pp. 159-60.

السدود والصهاريج حيث لا توجد مياه الآن - هؤلاء الانباط يمثلهم اليوم بدو الحويطات الوضيعون الذين لا يزالون يسمون في الاماكن التي ازدهر فيها اسلافهم في الماضي وينصبون خيامهم خارج « المدينة الوردية اللون والتي يبلغ عمرها نصف عمر التاريخ » .

٢ - التدمريون

وبينا كانت شمس البتراء آخذة بالغروب كانت تشرق شمس تدمر وهي مدينة اخرى للقوافل . وبفضل وجود نبع غزير يقوم في قلب الصحراء وتصلح مياهه للشرب رغم انها كبريتية نشأت واحة تقوم في وسطها قرية صغيرة . وكان الذين استقروا فيها بضع قبائل عربية . وادى الاتجاه الجديد في الامبراطوريات العالمية والتحول في طرق التجارة الدولية الى رفع هذه القرية الصغيرة الى مكانة باهرة من الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم .

تدمر

دعا السكان المحليون بلدتهم هذه تدمر . وتظهر بهذا الاسم لأول مرة حوالي عام ١٨٠٠ ق. م. وتعود الى الظهور في وثيقة آشورية لاحقة تقول ان تغلات فيلاسر الاول Tiglath-Pileser I (حوالي ١١٠٠ ق. م.) طارد اعداءه البدو حتى هذا الملبأ الصحراوي^١. ويقول يوسفوس ان السوريين يلفظون الاسم تادامورا Thadamora^٢. ولا يزال الاسم السامي القديم يظهر في كلمة تدمر العربية. والمؤرخ العبراني (اخبار الايام الثاني ٨: ٤) الذي يروي ان سليمان بنى « تدمر » قد هدف إما الى تعظيم سليمان ومملكته او مزج بين تدمر وتامار Tamar في ايدومية التي اسمها هذا الملك العبراني^٣. فالاسم اليوناني Palmyra يعني مدينة النخيل ويتطابق

(١) انظر : Julius Lewy, « Les Textes paléo-assyriens », *Revue de l'histoire des religions*, vol. cx (1934), pp. 40-41 ; P. Dhorme, « Palmyre dans les textes assyriens », *Revue biblique*, vol. xxxiii (1924), pp. 106-8; cf. Luckenbill, vol. i, §§ 287, 308.

(٢) انظر : *Antiquities*, Bk. VIII, ch, 6, § 1.

(٣) سفر حزقيال ٤٧ : ١٩ ، ٤٨ : ٢٨ ؛ قارن مع الملوك الاول ٩ : ١٨ .

الاسم العبراني تمار Tamar. واشتقاق كلمة تدمر Tadmor غير مؤكد^١. وقد انتقلت الرواية اليهودية الى المسلمين. وهالهم ضخامة الآثار الباقية في المدينة وعظمتها فبنسبوا بناءها الى الجن بأمر من سليمان.

مركز للتجارة عبر الصحراء

اوجد توسع الامبراطورية الفرثية في منطقة الفرات في منتصف القرن الثاني ق. م. وضعاً جديداً في الشرق الادنى كالوضع الذي حدث بعد ثلاثة ارباع القرن حين ضمت رومة اليها سورية. وكانت تدمر تقوم بين هاتين الامبراطوريتين العالميتين. ومساعد موقعها المنعزل في قلب الصحراء على عدم تمكن الفرق الرومانية والفرسان الفرثيين من سهولة الاستيلاء عليها. واستفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التي تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب. واستغل رجال السياسة فيها بذلك موقعها الاستراتيجي بين دولتين كبيرتين متنافستين وكانوا يقفون مرة الى جانب رومة ومرة الى جانب فرثيا بما جعلهم يحافظون على ميزان القوى ويستفيدون من الحياد. وقد ابقوا على استقلال مدينتهم كدولة حاضرة وذلك بالايقاع بين الدولتين المتخاصمتين.

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل في الصحراء على اذن بمرور قوافلهم بسلام. وكان الادلاء يقودون هذه القوافل عبر المنطقة الجرداء كما كان يجلبها ركب الرماة من غارات البدو. وقد وضعت المدينة ضرائب ثقيلة على مختلف انواع التجارة لدى مرورها فيها. وكانت البضائع تتألف من بعض الحاجيات الضرورية وكثير من كاليات العالم المعاصر. ولم تختلف كثيراً عن البضائع التي كانت تمر بالبصرة وهي: الصوف والارجوان والحري والاولاني الزجاجية والعطور والروائح وزيت الزيتون والتين المجفف والجوز والجن والجوز. وقد وجدت قطع من الحري

(١) لعلها متصلة بكلمة تدمورتا tedmortâ السريانية ومنها «يجب من» انظر: W. F. Albright, «The North-Canaanite Poems of Al'ēyān Ba'al and the Gracious Gods. Journal, Palestine Oriental Society, vol. xiv» (1934), p. 130, n. 149.

(٢) قارن مع: J.-B. Chabot, *Choix d'inscriptions de Palmyre* (Paris, 1922), pp. 26-30.

الصيني في قبر يعود الى عام ٨٣ م^١. وكان التدمريون آنذاك يقومون بالقسط الاكبر من تجارة البحر المتوسط مع بلاد فارس والهند والصين^٢. وبما يدل على القيمة الكبرى التي كان ينظر بها الى التجار المواطنين ما اعلن في الكتابات الاثرية التي تعود الى منتصف القرن الثالث الميلادي عن اقامة «مجلس الشعب» قماييل «لرئيس القافلة» و«رئيس السوق»^٣. وقد ازدهرت الصناعة الوطنية الى جانب التجارة. وتبرهن كتابة اثرية من عام ٢٥٨ م. عن وجود «نقابة للصاغة الذين يصنعون الذهب والفضة» وكانت تتمتع بنفوذ كبير^٤. وبما يدلنا على ان الزراعة لم تكن مهمة كلياً اكتشاف سدّ في العصور الحديثة طوله ربع ميل وقد بني بين تلّين لاجل جمع المياه واستخدامها في الري. وكانت النتيجة ان اصبحت تدمر من اكثر المدن ثروة في الشرق القديم.

واستعاض بالتدريج عن اكوأخا الطينية ببيوت من الحجر الكلسي وانشئت شوارع عريضة. وكان الشارع الرئيسي يؤدي الى معبد بعل Bel. وقد اقيمت الاعمدة على طول الشوارع واتخذت المدينة مظهر مدينة رومانية يونانية مزدهرة. وكان فيها ساحة عامة (آغورا) ومسرح. وكان غناها كافياً لاستثارة جشع انطونيوس الذي امر الفرسان عام ٤١ ق.م. بغزوها. وكل ما فعله التدمريون حينذاك انهم اخلوا مدينتهم وهربوا حاملين معهم امّعتهم الثمينة عبر الفرات^٥. وكان هذا اول احتكاك دونت حوادثه بين رومة وتدمر.

تدمر كتابعة لرومة

لم يكن سهلاً لمدينة الصحراء ان تحافظ على سيادتها التامة في وجه النفوذ المتزايد للامبراطورية الواقعة في غربيها. ولا بد انها في اوائل العصور المسيحية

(١) انظر: R. Pfister, *Textiles de Palmyre* (Paris, 1934), pp. 39 seq., 62.

(٢) انظر: Harold Ingholt, « Tomb in the Syrian Desert », *Asia*, vol. xli (1941), p. 506; Grant, *Syrian Desert*, pp. 55, 61, 64.

(٣) انظر: Cooke, pp. 274, 279.

(٤) انظر: Cooke, p. 286.

(٥) انظر: Appian, *De bellis civilibus*, Bk. V, § 9.

كانت قد اعترفت بسيادة رومة ودليلنا على ذلك المراسيم الامبراطورية بين عامي ١٧ - ١٩ م. في عهد طيبريوس التي كانت تتصل بالرسوم الجركية الخاصة بها ولكن المدينة لم تتغلّ عن استقلالها ابداً. ويبدو انه وصلها في نفس هذه الفترة مقيم روماني يمثل رومة وقد سمحت لاحد رعاياها واسمه الكسندروس بان يقوم بمهمة من طرف رومة لدى سامبسيجرامس امير حمص^١. وقد الحق تراجان مدينة تدمر بالولاية التي اوجدها عام ١٠٦ ومنحها هادريان لدى زيارته في عام ١٣٠ اسم هادريانا بالاسم *Hadriana Palmyra*^٢ وجعلها تابعة لرومة. وقد اصبحت المدن التابعة لتدمر تابعة لرومة. وتلفت تدمر في اوائل القرن الثالث حقوق المستعمرة من سبتيموس سفيروس او من امبراطور آخر من السلالة السورية الحاكمة في رومة. وكانت المدينة تدعى على نقود كرايلا باسم مستعمرة *Colonia*. وبهذه الصفة اعفيت من الرسوم الجركية. وكان امراً طبيعياً ان تعطف اسرة سفيروس على مدينة تدمر. وقد وجدت دعائم زخرفية كانت مزدانة فيما سبق بصور جوليا ميزا وسائر افراد الاسرة في الساحة العامة (الآغورا) التي حصلت فيها الحفريات في عام ١٩٣٩^٣. وبدأت تدمر والدول التي تدور في فلكها عهداً جديداً من الازدهار الذي دام أكثر من قرن ونصف بعد ان اصبحت تابعة لرومة. وكانت الطرق الرومانية تربط رومة بدمشق عاصمة سورية الداخلية وبعدن الفرات^٤ وبالحصون الامامية التي تحمي خطوط الدفاع. وقد كشفت اعمال المسح الجوي الحديثة بقايا مثل هذه الحصون التي تبدأ في منطقة الدجلة وتستمر في كل سورية وشرقي الاردن حتى البحر الاحمر^٥. واخذ المواطنون البارزون في تدمر يضيفون اسماء رومانية الى اسمائهم. واتخذت المدينة نفسها تسمية جديدة. وازافت احدى الاسر اسم «سبتيموس»

(١) ذكر في ص ٣٦٠.

(٢) انظر: Cooke, p. 322.

(٣) انظر: Jean Starcky, *Palmyre, guide archéologique* (Beirut, 1941), p. 48.

(٤) انظر: Alois Musil, *Arabia Deserta* (New York, 1927), pp. 514-16; do., *Palmyrena*, (New York, 1928), pp. 237-46.

(٥) انظر: Antoine Poidebard, *La Trace de Rome dans le désert de Syrie* (Paris, 1934); Aurel Stein, «Surveys on the Roman Frontier in 'Iraq and Trans-Jordan», *Geographical Journal*, vol. xcv (1940), pp. 428-38.

امام اسمها السامي بما يدل على نوالها حق الرعية في عهد سفيروس ويرجح ان ذلك كان اعترافاً بالخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الدولة الفرثية .

تأتي دورلاوروبس في طليعة المدن التي كانت تابعة لتدمر . وقد استخدمت هذه المدينة كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة . ووجدت فيها بقايا ابنية ذات زخارف نافرة تمثل جنوداً تدمريين . وكانت الرصافة من المدن الهامة الاخرى الملحقة بتدمر وقد دعت باسم سرجيopolis فيما بعد بالنسبة لقديسها المحلي سرجيوس . وكان سرجيوس جندياً استشهد حوالي ٣٠٥ في عهد ديوكليتيان وبقي لمدة طويلة القديس المفضل لدى الكنيسة السورية واصبحت مدينته مركزاً هاماً يقصده الزوار واوجدت فيها اسقفية^١ . وتذكر هذه المدينة باسم رصابا Rasappa في كتابة اثرية اشورية تعود الى اواخر القرن التاسع ق . م^٢ . وهي نفس مدينة رزف Reseph (بمعنى الجر المتوهج) التي هدمها سنحاريب^٣ . وقد قدر لهذه المدينة التي اصبحت اسمها بالعربية الرصافة ان تلعب دوراً اكثر اهمية كمصيف محبب لدى الخلفاء الامويين .

اسرة اذينة

ارتقت الاسرة التي كان يتصدر اسمها كلمة سبتيموس الى مركز الزعامة في تدمر في منتصف القرن الثالث . والتمثال الذي شيد في عام ٢٥١ على شرف عميد الاسرة سبتيموس حيران ابن اذينة يدعوه زعيم «راس» تدمر وعضو مجلس شيوخها الممتاز^٤ . ويبدو انه كان اول تدمري اضاف لقب «راس» الى رتبته الرومانية كعضو في مجلس الشيوخ . ويظهر والده في الكتابات الاثرية بلقب عضو في مجلس الشيوخ فقط وهي رتبة يظن انها منحت له حين زار اسكندر سفيروس مدينة

(١) انظر : Ptolemy, Bk. V, ch. 15, § 24 ; Procopius, Bk. II, ch. 5, § 29. Musil, *Palmyrena*, pp. 260-68, 299-326.

(٢) انظر : Winckler, *Keilinschriftliches Textbuch*, p. 77 ; cf. Dussaud, *Topographie*, pp. 253 seq.

(٣) سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ ؛ اشعيا ٣٧ : ١٢ .

(٤) انظر : Chabot, p. 55 ; de Vogüé, *Inscriptions sémitiques* (Paris, 1868-77), p. 24 ; Cooke, p. 285 ; cf. Daniel Schlumberger in *Bulletin d'études Orientales*, l'Institut français de Damas, vol. ix (1934), pp. 41-2, 53 seq.

تدمر في عام ٢٣٠ او ٢٣١ بمناسبة الحروب الفارسية . ويرجح ان حيران هذا كان والد اذينة المشهور (باليونانية اوديناثوس Odenathus)؛ قارن مع العربية اذينة تصغير اذن)^١ . ويستدل من اسماء الاعلام بان الاسرة كانت من اصل عربي . ويدعو أحد المؤرخين اليونان اذينة هذا « حاكم العرب » Saracens^٢ . وكان افراد الاسرة يشكلون الجهاز التنفيذي للحكومة التي كانت بيد مجلس الشعب . وكان الاشخاص الذين يستحقون التقدير يكرمون من قبل هذا المجلس .

لم تبدأ تدمر القيام بدور هام في القضايا الدولية حتى زمن حيران . اذ انه في تلك الاثناء كانت قد حلت سلالة جديدة نشيطة في ايران مكان السلالة الفرتية القديمة . وكانت هذه السلالة هي الساسانية التي دامت سلطتها من عام ٢٢٧ م . حتى ظهور الاسلام . وفي عام ٢٦٠ اوقع الجيش الساساني في عهد سابور الاول هزيمة مخجلة بالجيوش الرومانية قرب اديسا حتى ان امبراطورها فالريان سقط اسيراً بأيدي اعدائه وكسب الساسانيون من وراء ذلك شهرة كبيرة . وكان فالريان قد انعم قبل سنتين برتبة القنصلية على اذينة^٣ . وامتدت غارات الفرس التالية الى شمالي سورية وتنج عنها نهب انطاكية وغيرها من المدن^٤ . وقد هرع اذينة في هذه المعركة على رأس جيش كبير من السوريين وقبائل البدو لانتقاذ فالريان . فهزم الفرس على ضفاف الفرات وتبعهم حتى اسوار عاصمتهم برببوليس واسر بعض افراد الحرم الملكي الا انه لم يتمكن من استعادة الامبراطور السجين^٥ . وقد توفي فالريان في الاسر وحشي جلده وعلق في احد المعابد .

كوفي اذينة في عام ٢٦٢ على ولائه للامبراطور الجديد غالينوس Gallienus فمنح لقب زعيم الشرق Dux Orientis الذي جعل منه ما يشبه نائب الامبراطور على القسم الشرقي من الامبراطورية . وكانت الامبراطورية انذاك في حالة ضعف

(١) انظر : Zosimus, *Historia nova*, Bk. I. § 39; cf. G. Ryckmans, *Les Noms propres sud-sémitiques*, vol. i (Louvain, 1934), p. 41.

(٢) انظر : Procopius, Bk. II, ch. 5, § 6.

(٣) انظر : Cooke, p. 286.

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٠ و ٤١ .

(٥) انظر : Pollio in *Scriptores historia Augustae*, Bk. XXIV, ch. 15.

واضطراب لانقراض العالم البربري بأسره عليها في اوربا وآسيا. وفي ذروة نجاح اذينة اغتيل مع وريثه في احوال غامضة في (٢٦٦ او ٢٦٧) بينما كان يحتفل باحدى المناسبات في حمص. وكان لابن اخيه صلة بالموأمة التي يمكن ان تكون رومة قد دبرتها. وكان اذينة يتمتع ببنية رياضية قوية مكنته من تحمل الصعوبات كما امتاز بالهوايات والفضائل التي يقدرها العرب كثيراً. وظهر كرمه في المآدب الضخمة الرائعة وفي رعاية الاحتفالات الدينية وفي هدايا العطور التي كان يقدمها للحمامات العامة.

زنوبيا

ومهما يكن فانه يتضاءل كشخصية تاريخية امام ارملة الطموحة الجميلة التي حكمت بعده باسم ولدها القاصر وهب اللات (وتترجم باليونانية اثينودوروس Athenodorus)^١. وكانت زنوبيا التي تذكرها الكتابات الاثرية التدمرية باسم بَت زاباي Bath-Zabbay (ابنة العطية) - وهي الزباء شبه الخرافية الواردة في المصادر العربية - مثل زوجها قوية البنية ولكنها نشيطة مولعة بالصيد وركوب الخيل. وكانت حنطية اللون ذات اسنان اشبه بالؤلؤ وعينين واسعتين براقين وتعيش حياة الابهة والوقار في بلاط فخم يتبع نظام بلاط الاكسرة. وكانت حاشيتها تحيها بالسجود حسب الاسلوب الفارسي. وفي المناسبات الرسمية كانت تلبس ثوباً من الارجوان موثى بالجواهر ومشدوداً عند الحصر وتترك احد ذراعيها عارياً حتى الكتف. وكانت تركب والحوذة على رأسها في عربة تشع بالاحجار الثمينة. وقد ادعت القرني بزميلتها السابقة كليوباترا في مصر ورعت الثقافة اليونانية وكانت هي نفسها تتكلم الآرامية واليونانية وبعض اللاتينية^٢. وبلغ منها انها جمعت تاريخاً للشرق. وكان زينة المفكرين بين رجال بلاطها الفيلسوف لونجينوس.

ولكن زنوبيا كانت اكثر طموحاً وتأثيراً كحاكمة من كليوباترا. فقد اتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى صارت اشبه بامبراطورية حقيقية اذ شملت سورية وجزءاً من آسية الصغرى وشمالى الجزيرة العربية. وفي عام ٢٧٠ سار قائدها زبدة

(١) انظر: Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXIII, ch. 13; Bk. XXVI, ch. 38.

(٢) انظر: Bouchier, pp. 144-5.

Zabda الى مصر على رأس جيش قيل ان عدده بلغ ٧٠,٠٠٠ رجل . فخلع حاكماً مفتصباً فيها واقام حامية في الاسكندرية . وسكت النقود لأول مرة في هذه المدينة وعليها رأس وهب اللات بجانب رأس اورليان . وفي العام التالي (٢٧١) صدرت نقود في الاسكندرية وقد حذف منها رأس اورليان . وكانت زنبيا قد استنتجت حينذاك بان قوتها كافية لاعلان استقلال ابنها التام . فانخذ لقب « ملك الملوك » . وكان يلقب ايضاً على النقود الاسكندرية والانطاكية باوغسطس وتلقب والدته باوغسطا . وقد كتب على احجار المسافات في سورية اسماء الامبراطور وزنبيا اوغسطا . واقم على عمود عال في شارع الاعمدة الكبير في تدمر تمثال للملكة في آب من عام ٢٧١ نقشت عليه كتابات اثرية باللغتين اليونانية والتدمرية ولا تزال واضحة حتى اليوم وهذا نصها :

الى سيدهم سبتيميا زنبيا اكثر الملكات شهرة وتقوى والى القائدين الممتازين بلقب سبتيموس وهما زبدة^١، القائد العام ، وزبأي^٢، قائد الموقع ، في شهر آب من عام ٣٥٨٢ .

وكان ينتصب بالقرب منه تمثال آخر يحمل كتابة اثرية باللغة التدمرية فقط جاء فيها :

تمثال سبتيموس اذينة ملك الملوك ومجدد الشرق كله وقد شيده القائدان الممتازان ، زبدة القائد العام وزبأي قائد جيش تدمر ، لسيدهما في شهر آب من عام ٤٥٨٢ .

توقع القائدان التدمريان زبدة وزبأي قيام رومة باعمال عسكرية . فتوغلا في

(١) قارن مع زَبَد في سفر اخبار الالام الاول ٧ : ٢١ ؛ وهي كلمة من اللغة العربية الجنوبية تعني « هو (الله) اعطى » . انظر : Ryckmans, vol. I, p. 83 . وكلمة وَهَب في اللغة العربية الشبالية لها نفس المعنى .

(٢) لعلها صيغة من كلمة زبداي Zabday وهي شبيهة بكلمة زَبَد . انظر عزرا ١٠ : ٢٨ ، نحيا ٣ : ٢٠ .

(٣) هذا التاريخ هو بالنسبة للمصر السلوقي الذي يبدأ في ١ تشرين الاول عام ٣١٢ ق . م ؛ انظر : J. Cantineau, *Inventaire des inscriptions de Palmyre*, fasc. i (1930), p. 27.

(٤) انظر : Starcky, p. 49 ; cf. Chabot, p. 56 ; de Vogüé, pp. 28-9 ; Cooke, pp. 290-93 ; Cantineau, fasc. i, p. 25.

داخل آسية الصغرى واقاما الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى انكيراً Ancyra (انقرة) ؛ وقد شعرت حتى خلقدونية التي تقابل بيزنطة بوجود جيوشهم^١. وهكذا استطاعت ملكة البادية ان تشكل لنفسها ولابنها امبراطورية انتزعتها من الرومان. وكانت امبراطورية قصيرة الاجل الا انها سبقت امبراطورية الامويين باربعة قرون.

تدمير في ايامها الاخيرة

واخيراً تحرك الامبراطور الروماني اورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) الذي اعاد بقوة بأسه النظام الى الامبراطورية بعد فترة من الاضطراب تميزت بهجمات الفرنجة والالمان والقوط وكذلك الفرس. وفي اوائل عام ٢٧٢ اخضع اورليان الحاميات التدمرية في آسية الصغرى ثم تابع مسيره لاحتلال سورية. ولم تظهر انطاكية التي كانت مع سلوكية موالية للرومان سوى مقاومة ضئيلة ؛ اما حصص التي كان يضر سكانها الحسد لتدمر بسبب الاسبقية التي تدعيها فقد احتلت بعد بعض المقاومة. وانسحبت زنوبيا وزبدة الى تدمر^٢ بعد ان تفوقت فرق الفرسان والمشاة الخفيفة التابعة لاورليان بتحركاتها على فرق فرسانها الثقيلة. واصبحت طريق البادية المؤدية الى العاصمة مفتوحة الآن امام العدو المهاجم. وتمهل اورليان في حصص لاقامة مذابح جديدة لاله الشمس الاكبالس^٣ وبني في طريق عودته الى رومة معبداً خاصاً له كانت تمارس فيه الطقوس السورية.

حاصر اورليان مدينة تدمر وعززت قواته بجيوش مصرية الا ان زنوبيا لم تتلق اية مساعدة حتى ولا من بلاد فارس. وكان التدمريون يقذفون المحاصرين بالحجارة والنبال وكرات النار. وقد رفضت الملكة في البدء الشروط المعتدلة للاستسلام التي قدمها اورليان ولكنها ادركت انها تحارب معركة خاسرة وحاولت انقاذ نفسها بالحرب ليلاً على هجين سريع. وقد ادركها الحيلة الذين كانوا يلاحقونها بينما كانت تحاول عبور الفرات^٤. وكان ابنها قد سقط قتيلاً في الدفاع عن مدينته.

(١) انظر : Mommsen, *Provinces of the Roman Empire*, vol. ii, p. 107.

(٢) انظر : Zosimus, Bk. I, § 52.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٨١.

(٤) انظر : Vopiscus in *Scriptores*, Bk. XXVI, ch. 28.

ولم يكن امام تدمير سوى الاستسلام. فجردها الفاتح من مصنوعات الفينة وزخارفها الثمينة التي اخذ بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد في رومة. واقتصر عقاب السكان على فرض غرامة عليهم وتعيين حاكم روماني مع عدد من الرماة.

واعدم لوجينوس مع غيره من مستشاري زنوبيا في حمص لتشجيعه الملكة على التخلص من الوصاية الرومانية. وما كاد اورليان يصل الملبسوت في طريق عودته (اواخر ٢٧٢) حتى سمع بشورة جديدة في تدمير أدت الى اغتيال حاكمه والتغلب على حامية المدينة^١. فهرع راجعاً وفاجأ المدينة فهدمها واعمل السيف في سكانها. وقد سلم معبد بعل. اما زنوبيا فاخذت الى رومة مع احد ابنائها^٢. وسارت محملة بالجوهر ومقيدة بسلال ذهبية فازدان بها موكب اورليان عند دخوله المظفر الى عاصمته في ٢٧٤. وقدمت لها دار خاصة قرب تيبور (تيفولي) حيث امضت بقية سني حياتها. وتزوجت هناك من روماني على ما يرجح وانجبت اولاداً^٣.

زالت اهمية تدمير باستثناء فترات قصيرة في عهد ديوكليتيان (٢٨٤ - ٣٠٥) وبوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) ثم دخلت بالتدريج في عالم النسيان. وبالرغم من الاشارة اليها بصورة عرضية كمرکز اسقي فان الصحراء تغلبت على سكانها حين فقدوا سيطرتهم على تلك الصحراء. وكان هذا من الامور المعتادة. وسكن جميع اهلها في العصور الحديثة داخل بقايا المعبد القديم الذي كان طيناً لمجدها القديم ويشرف هذا المعبد على الآثار الرائعة لمدينة اجدادهم. وفي عام ١٩٢٩ اجلى الفرنسيون السكان من المعبد وابتنوا لهم قرية عصرية بجانبه. وقد بني ايضاً مطار حربي وثكنات لفرقة الهجاة في ذلك الموقع.

البقايا الاثرية

تعتبر اليوم آثار تدمير من اكثر المناظر جلالاً في الصحراء. وهي تجذب هواة الآثار من جميع انحاء العالم وتفتنهم. وقد تحول معبد بعل الذي يقوم على سطح مرتفع الى ما يشبه المتحف. ووجدت فيه اشكال نساء محجبات وهن يساهمن في

(١) انظر: Zosimus, Bk. I, § 6.

(٢) انظر: Zosimus, Bk. I, § 59.

(٣) انظر: Pollio in Scriptores, Bk. XXIV, ch. 27.

احتفال ديني . وامام المعبد ينتصب قوس اثري يبدأ عنده شارع الاعمدة الكبير . وكان هذا الشارع المعبد الذي يبلغ طوله ١٢٤٠ يردة يشكل المحور الرئيسي للمدينة وتتفرع منه شوارع ثانوية . ولم يسلم من اعمدته البالغة ٣٧٥ عموداً او اكثر ، ارتفاع كل منها ٥٥ قدماً ، سوى حوالي ١٥٠ عموداً بعضها سليم وبعضها مهشم . وغالبية هذه الاعمدة من الحجر الكلسي الابيض الوردي اللون ولها تيجان كورنثية . وبعضها من الغرائث المنقط بالازرق بما يدل على اصل مصري (من اسوان) . وقد تضمنت الاعمدة دعائم زخرفية مزدانة بتماثيل شيدت على شرف المواطنين الجديرين بالتقدير ويعتبر ذلك من خصائص البناء التدمري . والتماثيل النصفية التدمرية هي عادة تماثيل امامية وليست جانبية وتظهر عيوناً مفتوحة واسعة وتحمل كتابات اثرية فوق الكتف . ويظهر افراد الاسرة المالكة والطبقة الارستقراطية مرتدين الرداء اليوناني بينما يظهر عامة الشعب بلباس الفرتين^١ . وقد وجد تماثيل ساق يرتدي لباساً فرتياً كما وجد شكل آخر يضع شملة رومانية .

ومن خصائص الآثار التدمرية ايضاً القبور او « بيوت الابدية » على حد تعبير التدمريين^٢ . وتنتصب خارج المدينة كأبراج عالية وتتألف من غرف موزعة على عدة طوابق ومزخرفة من الداخل بالالوان والصور المنحوتة للموتى . وفي دورا اوروبس عدد قليل من القبور على شكل ابراج .

تعتبر الزخارف المنحوتة في تدمر^٣ ودورا اوروبس ذات اهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الفن . اذ انها تفيد في سد الثغرة بين الفن السامي القديم في بابل واشور وفينيقية وبين الفن المسيحي . ويمكن ان نتبع من خلالها بدايات التأثيرات الشرقية على الرسوم الرومانية اليونانية مما مهد الطريق لظهور الفن البيزنطي .

اللغة

كانت الحضارة التدمرية حضارة غريبة فهي مزيج من عناصر سورية ويونانية

(١) راجع لأجل الامثلة على ذلك : (Pa- Henri Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 2 (Paris, 1938), pp. 51 seq.

(٢) انظر : (Bergtius, « Five Dated Tombs from Palmyra », *Bergtius*, vol. ii (1935), pp. 60, 109.

(٣) راجع : (Harold Ingholt, « Quelques Fresques récemment découvertes à Palmyre », *Acta Archaeologica*, vol. iii (1932), pp. 1-20.

وفارسية . ولا شك ان السكان الاصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا في كلامهم وكتابتهم اللغة الآرامية السائدة . وبقيت اكثرية السكان عربية رغم امتزاجها بالآراميين . ولا تعود الكتابات الاثرية الى اقدم من ٩ ق.م . حين كانت المدينة في



والد تدمري واولاده الثلاثة حوالي ١٧٠ م.

يبدو الوالد بدون لحية ورأس مكشوف يمسك آنية في يده اليسرى وبعض البلع او الموز في يده اليمنى . ويمسك ابنه الواقف بين الابنتين عصفاً بيده اليسرى وعنقود عنب باليد اليمنى وتضع الابنتان ثقاباً لا يغطي الوجه . والكتابة قرب يد الرجل اليسرى تذكر اسمه : زبديول بن مقيمو بن زبيل بن زبده بن عبداي (بن زبدي) يول . واسماء الاولاد من اليمين الى اليسار هي : تدمر ابنته ، مقيمو ابنه ، علي ابنته .

طريقها لان تصبح مركزاً تجارياً مشهوراً . والكتابة التدمرية الدارجة التي كانت بالاصل كتابة سكان سورية السلوقية الذين يكتبون بالآرامية في القرن الاول ق.م . لم تنشأ عنها اية اختلافات جذرية . وكانت القرارات العامة توضع باللغتين اليونانية والآرامية . وقد سهل وجود الكتابة اليونانية قراءة الكتابة الآرامية .

ووجدت احدى الكتابات الاثرية التدمرية في هنفاريا وكتابة اخرى في بريطانيا العظمى . والكتابة الاثرية الانكليزية تركها احد التدمريين وكان قد تزوج امرأة انكليزية وصنع لها تمثالا . وكان الرومان يستخدمون الرماة التدمريين في اماكن بعيدة مثل مراكش وبريطانيا .

كانت اللهجة التي يتكلم بها التدمريون تتصل باللغة الآرامية الغربية وليس باللغة الآرامية الشرقية (لغة اديسا) . وكانت في الحقيقة نفس اللهجة المستعملة في سورية وبلاد الانباط وتدمر ولا تختلف عن اللهجة التي تكلم بها المسيح . ولا شك ان الطبقة المثقفة كانت تتكلم اليونانية زيادة على الآرامية ويظن ان رجال الاعمال كانوا يفهمون اللغة العربية كما كان يستعملها بعض التدمريين كلغة دارجة .

لونغينوس

لم ينبغ في تدمر احد من رجال الفكر المميزين سوى ديونيسيوس كاشيوس لونجينوس . ويرجح انه من مواطني حمص وقد درس أولاً في الاسكندرية ومن ثم في اثينة حيث كان من تلاميذه بوفيريوس المشهور^١ . وكانت امه سورية وعرفت اللغة السريانية^٢ . وكان من معاصريه اميليوس الأفاقي^٣ . ويعتبر هذا الفيلسوف التدمري فريداً في عصر كثر فيه منمقو الكلام والمراوغون الثرثارون الخيالون . وبلغ من سعة معلوماته ان وصفه احد معاصريه بأنه « مكتبة حية ومتحف متنقل »^٤ . ولونجينوس هو الذي علم زنوبيا الأدب اليوناني واصبح مستشارها بعد ذلك . ولسوء الحظ لم يبقَ من مؤلفاته سوى بعض الفقرات والمقتطفات^٥ . وترينا هذه بأنه قد بقي وثيقاً رغم انه لم يكن مناوئاً لليهودية او المسيحية . وتحمل القتل على يدي الرومان برباطة جأش وبشاشة حريتين برجل من مستوى سقراط^٦ .

(١) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

(٢) انظر : Vopiscus in Scriptores, Bk. XXVI, ch. 30.

(٣) انظر ما سبق في ص ٣٥٨ .

(٤) انظر : Philostratus and Eunapius, p. 355.

(٥) لم يتأكد بعد فيا اذا كان لونغينوس هذا هو لونغينوس كاتب قطعة « حول السم » On the Sublime التي لا تزال في الناهج الجامعية الانكليزية .

(٦) انظر : Zosimus, Bk. I, § 56.

الآلهة التدمرية

تألفت مجموعة الآلهة التدمرية من عدد متنوع من الآلهة من سورية وبلاد العرب وفارس وبابل . وكان بعضها يحمل اسماء لاتينية اضافية . ولم تختلف الديانة في جوهرها عن ديانة سورية الشمالية وصحرائها . وكان بعل صاحب السيطرة العظمى . ولم يكن الهاً شمسياً تماماً بل الهاً كونياً من اصل بابلي يعادل مردوخ . وكان يمين على مصير الانسان كما كان مسؤولاً عن الآلهة السماوية . وقد كرس المعبد الكبير له . واعتبر معادلاً لزفس فيما بعد . وقد كرس معبد آخر في تدمر للاله بعل شمين (سيد السموات)^١ . وتخلد ذكرى هذا الاله قرية في لبنان تدعى بعلشميه . وكانت له كما كان لبعل معبد في دورا حيث يذكر اسمه في كتابة اثرية من عام ٣٣ م تتعلق بنذر^٢ . وقد وجدت في تدمر عدة مذابح مكرسة لشمش (شمس ، الشمس) . وتظهر هذه الالهة الشمسية احياناً الى جانب بعل مع الاله القمرى في الجانب الآخر . وكان اسم اله القمر عجلى بول Agli-bol (عجل بعل)^٣ . ويظهر في بعض الاشكال بهلال على كتفيه^٤ . ولا بد ان يرخي بول Yarkhi-Bol كات الهاً قمرياً ايضاً بدلالة القسم الاول من اسمه ولكنه كان الاله الذي يقدم النبوءات مما يجعله مساوياً لابولون . وكان ملاك بعل Malak-bel الاله الرسول ويعادل هرمس . وقد وجد مذبح يستحق الاهتمام مكرس « للاله المجهول الصالح والرحيم »^٥ .

وبين الكتابات الاثرية عدة تكريات دينية الى ارسو^٦ Azizu وعزير^٧.

(١) راجع : Chabot, p. 43; Henri Seyrig, « Antiquités syriennes », Syria, vol. xiv (1933), pp. 246 seq.

(٢) انظر : Du Mesnil du Buisson, *Inventaire des inscriptions palmyréniennes de Doura-Europos* (Paris, 1939), pp. 13-14; Chabot, pp. 43, 73-5; Rostovtzeff et al., *Excavations at Dura-Europos*, vols. vii-viii, pp. 299 seq., pl. xxxvii.

(٣) انظر : Chabot, pp. 71-3; Cooke, pp. 269, 301-2; de Vogüé, p. 93.

(٤) انظر : Chabot, p. 65.

(٥) انظر : Harold Ingholt, « Inscriptions and Sculptures from Palmyra » *Berytus*, vol. iii (1936), P. 92;

قارن مع اعمال الرسل ١٧ : ٢٣ .

(٦) تذكره كتابات الصفا باسم رَضو Radu بمعنى رضى ، رحمة . انظر في ص ٣٣١ .

(٧) انظر : *Berytus*, vol. iii (1936), pp. xxiv, 2.

ويدل اسمهما على اصل عربي. ويوصف الانسان «باللهين الصالحين المكافئين»^١. وكان عزيزو يعبد أيضاً في اديسا وفي حوران بلاد القساسة. وكانت اللات التي يؤلف اسمها القسم الاخير من اسم آخر ملوك تدمر الالهة الرئيسية في الجزيرة العربية^٢. وكانت تعبد أيضاً في بلاد القساسة. وهناك الالهة اخرى في مجموعة الالهة التدمرية تسمى عثر عث *'Athar-'altheh*، (اثار غاتس) الالهة الآرامية التي كانت مركز عبادتها الرئيسي في هيرابولس^٣. وقد كرس مذبح بناء احد الانباط في تدمر (١٣٢ م) الى الاله النبطي شينع القوم *Shay-'al-Qaum* (الذي يرافق او يحمي الناس). ويسدو انه كان الحامي الخاص للقوافل. ويوصف الاله بانه «الذي لا يشرب الخمر»^٤.

٣ - القساسة

تؤكد المرويات انه حوالي نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة التدمرية آخذة بالزوال كانت احدى القبائل العربية الجنوبية تشق طريقها الى حوران. وهؤلاء هم بنو غسان الذين ينسب سبب رحيلهم عن اليمن الى تصدع قديم في سد مأرب^٥. وفي حوران صادفوا سكاناً من العرب اتوا قبلهم وهم الضجاعم من قبيلة سليم وقد حاولوا مكانهم كحكماء على المنطقة في ظل السيادة الرومانية. وتنصّر القساسة خلال القرن الرابع^٦. وكان مؤسس ملاتهم شخص يسمى جفنة ابن عمرو مزيقباء الذي لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد. وفي الحقيقة ان تاريخ السلالة الجفنية بكامله غامض. وفي التواريخ العربية يختلف عدد الملوك بين احدى عشر واثنين وثلاثين^٧. وتهتم

(١) انظر: Chabot, p. 69.

(٢) القرآن سورة ٥٣ : ١٩.

(٣) انظر: Cooke, p. 268.

(٤) راجع: Chabot, pp. 67-8; Cooke, pp. 304-5.

(٥) انظر: Hitti, *History of the Arabs*, pp. 64-5.

(٦) وترجع بعض الاسر المسيحية التي تعيش اليوم في سورية ولبنان مثل آل الملووف وآل عطية باصلها الى القساسة.

(٧) انظر: ابن قتيبة، المعارف، نشره: F. W. Wüstenfeld (Göttingen, 1850), pp. 314-16;

التواريخ البيزنطية بصورة رئيسية بعلاقاتهم مع القسطنطينية . ولا يعرف بشكل كافٍ سوى تاريخ الملوك الخمسة الاخيرين الذين شمل حكمهم القرن الذي سبق الاسلام .

الحارث بن جبلة

كان اول هؤلاء الملوك واعظمهم الحارث بن جبلة^١ (حوالي ٥٢٩ - ٥٦٩) الذي يظهر لأول مرة عام ٥٢٨ وهو يحارب المنذر الثالث^٢ اللخمي ملك الحيرة . واللخميون واصلمهم ايضاً من جنوبي الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية للامبراطورية الفارسية واستخدموا كدولة حاجزة بنفس الطريقة التي استخدم البيزنطيون بها الفساسنة . واعترافاً بخدمات الحارث فقد عينه الامبراطور يوستنيان في العالم التالي سيداً على كل القبائل العربية في سورية ومنحه لقب فيلارك (رئيس قبيلة) Phylarck وبطريق Patricius . وترجم العرب هذه الالقاب بمعنى «ملك» . وربما اعتبر ملوك الفساسنة انفسهم خلفاء لملوك الانباط .

ولما كانت الحارث موالياً للعرش البيزنطي فقد استمر في صراعه ضد اللخمين وساهم في اخماد الفتنة السامرية كما حارب في الجيش البيزنطي تحت امرة بليساريوس في بلاد ما بين النهرين^٣ . وفي عام ٥٤٤ أمر المنذر احد ابناء الحارث وقدمه ضحية

السعودي ، مروج الذهب ، نشره وترجمه : C. B. de Meynard and P. de Courteille, vol. iii (Paris, 1864) pp. 217-21 ;

حمزة الاصغاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانباء ، نشره : Gottwaldt (Leipzig, 1844), pp. 115-22 ;

تاريخ ابي الفداء (القسطنطينية ١٢٨٦) جزء ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

قارن مع : Th. Noldeke, *Die Ghassánischen Fürsten aus dem Hause Gafna's* (Berlin, 1887), pp. 52-60 ; tr. Pendali José and Costi K. Zurayk, *The Princes of Ghassan from the House of Gafna* (Beirut, 1933), pp. 57-67.

(١) يشار اليه احياناً باسم الحارث الثاني لتمييزه عن جده الحارث ابن ثعلبة وهو من احفاد جفنة ويسميه المؤرخون العرب «الاعرج» .

(٢) يذكره المؤرخون اليونان باسم Alamoundaros ويدعوه Procopius, Bk. I, ch. 17, §. 47, باسم Alamoundaras حيث يحمل اسم الحارث Aretas ابن Gabalas .

(٣) انظر : Procopius, Bk. II. 16§5; Malalas, ed. Dindorf, p. 435.

للإلهة العزى التي تقابل افروديت^١. وانتقم الحارث لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب قنسرين (خالكيس) حين قتل غريمه اللخمي. ويرجع ان هذه المعركة هي المشهورة في التواريخ العربية باسم معركة حليمة بالنسبة لابنة الحارث التي يقال انها بيدها دھنت جنود ابيها بالطيب قبل دخولهم المعركة^٢. وقام الحارث في عام ٥٦٣ بزيارة لبلاط يوستنيان حيث ترك تأثيراً عميقاً على افراد الحاشية كشيخ بدوي مهيب^٣. وكان موظفو البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون ان يهدثوا الامير المعتوه يوستين وهو ابن اخ يوستنيان ووريثه يكتفون بالقول: «اسكت! والا استدعينا الحارث»^٤.

حصل الحارث اثناء وجوده في القسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعي اسقفاً على الكنيسة المونوفيزية السورية. وقد انتشرت العقيدة الجديدة في سورية كلها اثناء حكمه وحكم ابنه. ويقال ان يعقوب رسم مائة الف كاهن ونصب تسعة وثمانين اسقفاً في تلك البلاد. ووصلت الملكة حينذاك ذروة اساعها اذ كانت تمتد من قرب البتراء الى الرصافة شمالي تدمر وتشمل على البلقاء والصفاء وحران. واصبحت بصرى التي بنيت كاتدرائيتها في عام ٥١٢ العاصمة الدينية في المنطقة كما اشتهرت كمركز تجاري. وتقول المرويات الاسلامية ان النبي محمداً مر بها هو وقافلته وهناك اطلع على الكثير مما عرفه عن المسيحية. اما بشأن العاصمة السياسية

(١) انظر: Procopius, Bk. II, ch. 28, § 13.

(٢) انظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، نشره: C. J. Tornberg, vol. i (Leyden, 1871), p. 400.

ابن قتيبة، ص ٣١٤ - ٣١٥؛ قارن مع تاريخ ابن الفداء، جزء ١، ص ٨٤.

(٣) انظر: Theophanes, *Chronographia*, ed. C. de Boor (Leipzig, 1883), p. 240.

(٤) انظر: John of Ephesus, *Ecclesiastical History*, ed. William Cureton (Oxford, 1853), p. 151; tr. R. Payne Smith (Oxford, 1860), p. 174.

(٥) احتل هذه المنطقة البركانية قبل هذا العصر جماعة من العرب الذين تركوا حوالي ستة آلاف كتابة اثرية وبناء اثري عليها اشكال خيالة يحملون الرماح ويصطادون الفزلان. وتذكر الكتابات الاثرية بنح 'Yth (وهو ليس سوى يشوع في العبرانية 'Yeshūa، ويشوع في الآرامية 'Yeshū، ويسوع في العربية) واللات واهل. وقيل، حسب وجهة النظر المقبولة، مع الكتابات الهيبانية والثمودية امتداداً الى الشمال، لغة العربية الجنوبية. انظر: F. V. Winnett, *A study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions* (Toronto, 1937), pp. 53-4; René Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'Islam* (Paris, 1907), pp. 66-7, 151.

لآل جفنة فيبدو انها كانت في البدء مخيماً متنقلاً ثم استقرت بعد ذلك في الجابية^١ في منطقة الجولان كما كانت ايضاً بعض الزمن في جلق^٢ في جنوب حوران .

المنذر

خلف الحارث ابنه المنذر (حوالي ٥٦٩ - ٥٨١ Alamoundaros) في نحو نفس الوقت الذي ولد فيه النبي محمد . وسار الابن على خطى ابيه فدعم قضية المونوفيزية وحارب اللخمين اتباع فارس . ولكن حماسه للمذهب الذي تعتبره بيزنطة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين يوستين الذي بلغ منه ان ارتاب بولائه السياسي . ولذلك كتب الامبراطور رسالة الى حاكمه في سورية يأمره فيها بالتخلص من المنذر ولكن الكاتب اخطأ فوجهها الى المنذر نفسه عوضاً عن الرسالة التي يجب ان توجه اليه والتي يطلب فيها الامبراطور منه ان يتفضل بزيارة الحاكم للتشاور معه . وبعد فترة من الجفاء تمت تسوية الامور وقام الزعيم الغساني مع ولديه بزيارة القسطنطينية (٥٨٠) واستقبل بحفاوة من قبل الامبراطور الجديد طيبيريوس الثاني . وبلغ من الامبراطور ان استبدل الرمز الذي يضعه المنذر على رأسه بالتاج . واحرق المنذر في السنة ذاتها الحيرة عاصمة اللخمين^٣ . وبعد سنتين حين كان يحضر حفلة تدشين كنيسة في حواريين استجابة لدعوة تلقاها من حاكم سورية قبض عليه وارسل مع زوجته وثلاثة من اولاده الى القسطنطينية ومنها الى صقلية . وقطعت المساعدة السنوية عن آل جفنة منذ ذلك الحين وانتهت جميع العلاقات الودية.

النوضى

وجهت عدة غزوات بقيادة النعمان، الابن الاكبر للمنذر، من البادية على سورية الرومانية . و'خدع النعمان نفسه اخيراً (حوالي ٥٨٤) كما 'خدع ابوه من قبله

(١) انظر : 3-332, Dussaud, *Topographie*, . لا يزال الباب الغربي لدمشق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

(٢) لها الكسوة على بعد ١٠ اميال جنوبي دمشق . انظر : Dussaud, *Topographie*, pp. 317-18; Leone Caetani, *Annali dell'Islām*, vol. iii (Milan, 1910), p. 928.

(٣) قارن مع الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، نشره . M.J. de Goeje vol. i (Leyden, 1879- . ٠) 81, p. 1021 (١٢٨٥) ص ٢٧ .

ونقل الى القسطنطينية . وبهذا تمزقت رابطة القساسة القومية . وتجزأت المملكة الى اقسام متعددة يرئس كلأ منها امير كبير او صغير من سكانها . وقد تحالف بعض الامراء مع دولة الفرس وحافظ البعض الآخر على استقلاله بينما بقي البعض الآخر بجانب بيزنطة . وعند هذا الحد يفقد الاخباريون اليونان كل اهتمام في الموضوع وتبقى التواريخ العربية مشوشة . وبقيت القوضى سائدة حتى فتحت الدولة الفارسية سورية في ٦١١ - ٦١٤ .

ويحتمل ان يكون هرقل قد اعاد السلالة القديمة حين طرد الفرس من البلاد بعد اربع عشرة سنة . وقد جاء انه في حروب الفتح الاسلامي كانت قبائل دولة القساسة السابقة تحارب بجانب بيزنطة . وحارب آخر امراء القساسة ، جبلة ابن الاعم ، في عام ٦٣٦ ضد الفاتحين المسلمين في معركة اليرموك الحاسمة ولكنه اعتنق الاسلام فيما بعد . ويروى انه اثناء حجه الاول وطأ بدوي عباءته فصفعه على ازاره فحله جبلة ، فشكا الى الخليفة فحكم الخليفة بان على الامير اما ان يقيد البدوي او يرضيه ، فما كان من جبلة الا ان ترك الدين الجديد وانسحب الى بيزنطة^٢ .

ابنة بلاط القساسة

لقد خلدت فخامة بلاط آل جفنة في دواوين عدد من شعراء الجاهلية الذين وجدوا في امرائه حماة اسخياء . وكان احد هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني المشهور . فبعد ان تخاصم مع اللخمين نال عطف القساسة وثقتهم واعدقوا عليه الكثير من نعمهم . وكان يرد على ذلك بالتغني بمدحهم . ويمجد في احد ابيات الشعر التي يستشهد بها كثيراً اقدمهم في الحرب حيث يقول :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب^٣

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره : M. J. de Goeje, (Leyden, 1866), p. 136; tr. Philip K. Hitti, *Origins of the Islamic State* (New York, 1915), pp. 208-9.

(٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد (القاهرة ١٣٠٢) ، جزء ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ ؛ قارن مع ابن قتيبة ص ٣١٦ .

(٣) انظر ديوان النابغة الذبياني ، نشره : M. Hartwig Derembourg (Paris, 1869), p. 78 ; cf. Charles J. Lyall, *Translations of Ancient Arabian Poetry* (New York, 1930), p. 96.

وقد امضى شاعر المدينة حسان بن ثابت قبل ان يصبح شاعر النبي اياماً سعيدة في بلاط العباسية وكان يدعي صلة القرى معهم . وتأخذ لمحة عن حياة الترف التي كان يحياها جيلة ابن الاعم من وصف ينسب لحسان بن ثابت في كتاب الاغاني^١ وقد جاء فيه :

لقد رأيت عشر قيان خمس روميات يفتنن بالرومية بالبرابط وخمس يفتنن غناء اهل الحيرة... وكان يفتن اليه من يفتنه من العرب من مكة وغيرها وكان اذا جلس للشرب فرش تحت الآس والياسمين واصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب واتي بالسك الصحيح في صحاف الفضة واوقد له العود المندى ان كان شاتياً وان كان صائفاً بطن بالثلج وأني هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراء الفلك وما اشبهه ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلج علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم^٢.

ويقال عندما اعتنق جيلة الاسلام ودخل مع حاشيته بموكب حافل الى المدينة كان يضع على رأسه تاج اجداده تزينه لؤلؤتان كانتا فيما مضى قرطين لام الحارث ابن جيلة^٣. وقد اصبح يضرب المثل في الادب العربي بهاتين اللؤلؤتين اللتين يبلغ حجم الواحدة منهما بيضة الحمامة^٤.

ان مثل هذه الاخبار بالرغم مما فيها من مبالغة تدل على حالة اقتصادية مزدهرة. ولا بد ان العباسية اتقنوا الفنون الضرورية للاستفادة التامة من مياه الامطار واستثمار الينابيع الجوفية وهي فنون اكتسبها السوريون في العصر الروماني واضاعوها بعد ذلك . وتشهد على هذا بقايا ما يقرب من ثلاثمائة مدينة وقرية على المنحدرات الشرقية والجنوبية لحوران^٥. ومهما يكن فان ما يفوق ذلك اهمية هو

(١) انظر الاغاني، جزء ١٦، ص ١٥. مع ان الوصف مشكوك بصحته الا انه بدون شك مبني على قصائد الشاعر. قارن مع ديوانه الذي نشره : Hartwig Hirschfeld (Leyden, 1910), pp. 16-17, 45, 55 ;

المقد الفريد، جزء ١، ص ١٤٢.

(٢) قارن مع : Reynold A. Nicholson, *A Literary History of the Arabs*, 2nd ed. (Cambridge, 1930), p. 53.

(٣) وتدعى في الاغاني، جزء ١٤، ص ٤ «مارية» التي يمكن ان تكون بتأثير الآرامية لقبا يقابل سيدة اكثر منها اسم علم وربما يكون اسم هذه السيدة ملوية كما في الاغاني جزء ١٦، ص ١٠٣.

(٤) انظر الميداني، بجمع الامثال (القاهرة ١٣١٠) جزء ١، ص ١٥٦.

(٥) انظر ما سبق في اواخر ص ٤٥.

ان الفساسة قد نقلوا كأسلافهم الانباط بعض عناصر اساسية في الحضارة السورية الى اقربائهم الاصليين في الجزيرة العربية وخاصة الحجاز مهد الاسلام في المستقبل. وقد اعطى الانباط تلك الحروف التي جعلت كتابة لغة القرآن ممكنة^١. وقبل ان يزول الفساسة نقلوا بعض الافكار المسيحية التي كان لها تأثيرها مع بعض افكار اخرى على الاسلام. وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ببعض العناصر المبدعة كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل. وبلاضافة الى ذلك فان هذه الدول السورية الواقعة على الحدود وذات الاصل العربي وآخرها دولة الفساسة قد مهدت الطريق نوعاً ما لفتح العرب لسورية في المستقبل تحت راية الاسلام. وكانت هذه الدول بمثابة مقدمة للاحداث الضخمة التي حصلت بعد قليل.

(١) راجع ما جاء بشأن الانباط في ص ٤٢٧.

فَاتِّمِمْ سُبُوحَ رَبِّكَ
وَلِبْنَانِ وَفَلَسْطِينِ

نَامِجُ سُورِئِيتِهَا وَلِبْنَانِ وَفَلَسْطِينِ

تَأَلِيفُ
الدُّكْتُورِ فِيلِيبِّ حَتِّي

الْجُزْءُ الثَّانِي

تَرْجَمَةُ
الدُّكْتُورِ كَمَالِ الْيَازْجِي

أَشْرَفَ عَلَى مَرَامِيعِهِ وَتَحْرِيرِهِ
الدُّكْتُورُ جَبْرِائِيلُ جَبُور

وَارِثَةُ سَافَةِ - بِيْرُوتَ



This is an authorized translation of
HISTORY OF SYRIA
BY

PHILIP K. HITT

By permission of the author. Copyright in all countries
which are signatories to the Berne Convention
Published in 1951 by the Macmillan Company, New York.

المسهمون في إخراج هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فيليب حتي

ولد الدكتور فيليب حتي في شملان (لبنان) سنة ١٨٨٦ ، ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت ،
فنال شهادة بكالوريوس في العلوم منها سنة ١٩٠٨ . ثم سافر إلى أميركة والتحق بجامعة كولومبية ونال
الدكتوراه منها في اللغات الشرقية وآدابها سنة ١٩١٥ . وعيّن بعد تخرجه أستاذاً فيها .

وعندما انتهت الحرب العظمى الأول عاد إلى وطنه بطلب من الجامعة الأميركية ، وعين استاذاً
لتاريخ العرب واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٦ ، ثم التحق بجامعة برنستون استاذاً لتاريخ
العرب أولاً ، ثم رئيساً لقسم الدراسات الشرقية فيها . وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٥٤ ، حين
أحيل على التقاعد .

ولم ينقطع عن العمل بعد ذلك ، بل عين استاذاً زائراً في جامعة هارفرد . وهو الآن عضو في
مجلس أمناء جامعة بيروت الأميركية في الولايات المتحدة ، ورئيس لجنة التربية في هذا المجلس .

له عدة مؤلفات منها تاريخ العرب (الطول) وهو مترجم إلى العربية ومثله تاريخ العرب الموجز ،
وتاريخ لبنان (الطول) وتاريخ لبنان (الموجز) وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، وتاريخ
الشرق الأدنى .

المترجم : الدكتور كمال اليانجي

كان استاذاً مشاركاً للأدب العربي في الجامعة الأميركية حين ترجم هذا الجزء وهو الآن استاذ
فخري ، له عدة كتب منها معالم الفكر العربي، ورواقد الادب العربي، والشيخ ابراهيم الحوراني .

المراجع : الدكتور جبرائيل جبور

رئيس دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت سابقاً وهو الآن استاذ فخري . له
عدة مؤلفات في الادب العربي منها عمر ابن ابي ربيعة (في ٣ اجزاء) عصره ، وحياته ، ورحبه
وشعره ، وابن عبد ربه وعقده . وقد شارك في تأليف النسخة العربية من كتاب تاريخ العرب
للمؤلف وترجمتها .

الفهرس

القسم الرابع

العصر العربي

الصفحة

- ٣ الفصل الثلاثون : سورية في العهد الاسلامي .
- عشية ظهور الاسلام - الفارات الاولى - طلائع الفتح -
مناصرة خالد عبر البادية - سقوط دمشق - سقوط القدس
وقياسية - فتح يسير - الرجل الاداري عل القائد الحربي -
خطورة الفتح الاسلامي - تعليل الفتح الاسلامي .
- ١٩ الفصل الحادي والثلاثون : الادارة العربية .
- عهد عمر - المناطق العسكرية - طاعون عمواس - معاوية
في عهد ولايته - بناء اول اسطول - الاسطول البيزنطي
يشرف على التلف .
- ٢٧ الفصل الثاني والثلاثون : خلافة الراشدين .
- الخلفاء الراشدون - عهد الراشدين عهد الشيعة - قضية علي -
خلافة علي - معاوية في الميدان - الحرب الاهلية الثانية -
التحكيم .
- ٣٥ الفصل الثالث والثلاثون : معاوية مؤسس الخلافة الاموية .
- ازاحة المطالبين بالخلافة من الطريق - هدوء موقف في
المراق - موجة الفتوحات الثانية - مآثر اخرى لمعاوية -
تميين ولي العهد - معاوية الملك النموذجي .
- ٤٤ الفصل الرابع والثلاثون : الصلات العدائية بين العرب والروم .
- الحدود السورية - بلوغ القسطنطينية - الحصار الثاني لمدينة
القسطنطينية - الهجوم الاموي الاخير على القسطنطينية -
المردة في لبنان .

الفصل الخامس والثلاثون : الفتن الاهلية : الشيعة ، اهل المدينة ، الفرس ٥٥

مأساة الحسين - طامع آخر بالخلافة - حزم الحجاج في عهد ولايته .

الفصل السادس والثلاثون : دمشق في أوج عزّها ٦٤

دمشق في اوج عزّها - اخضاع ما وراء النهر - استلحاق ما وراء النهر - فتح العرب في الهند - الحملات الحربية على البيزنطيين - حملة شمالي افريقيا - فتح الاندلس - طارق يعبر المضيق - نصر حلسم - موسى في اثر طارق - موكب النصر - تحليل سهولة الفتح - عبور جبال البرنيه - معركة تور - دمشق العاصمة - تعريب الدولة - مصلحة البريد - اصلاحات في المالية وفي سواها .

الفصل السابع والثلاثون : الاحوال السياسية والاجتماعية في عهد الامويين ٨٧

الحكومة الاقليمية - ديوان الخاتم - تنظيم الجيش - الحياة في البلاط - اللهو البريء - نساء الخلفاء - العاصمة - طبقات المجتمع - طبقة الموالي - اهل الذمة - قيود عمر - طبقة الرقيق - الوضع الاقتصادي العام .

الفصل الثامن والثلاثون : مناحي الحياة الفكرية في العهد الاموي . ١٠٤

النحو والمعاجم - الحديث والشرع - تدوين التاريخ - الخطابة - كتابة الرسائل - الشعر - التربية والتعليم - العلوم : علم الطب - علم الكيمياء القديم - المجازي الفكرية - القديس يوحنا النمشقي - المرجئة - الخوارج - التصوير - قصور البادية - قصر الحير - المساجد : المسجد الاقصي - المسجد الاموي .

الفصل التاسع والثلاثون : الكنيسة المسيحية السريانية ١٣٥

الكنيسة السريانية الشرقية - الموارد - الملاكانيون - التفاعل مع الاسلام - الالفاظ المستعارة - ضبط الكتابة .

الفصل الاربعون : سقوط الدولة الاموية ١٤٨

خليفة متعبد - آخر اموي مقتدر - اربعة خلفاء عاجزين - العلويون والعباسيون - اندلاع الثورة - الضربة الحاسمة - فرار مدعش .

١٥٧ . . . الفصل الحادي والاربعون : سورية تغدو اقليماً عباسياً . . .

المهد الجديد - الفلافل في سورية ولبنان وفلسطين - الناثر
المقتنع - دمشق عاصمة مؤقتة - التشريع ضد النصارى -
الدخول في الاسلام - فتح اللغة العربية .

١٧٤ . . . الفصل الثاني والاربعون : فضل السريان في نهضة العرب الفكرية . . .

الترجمة عن اليونانية - حنين بن اسحاق - الصابئة - المآثر
السريانية الاصلية - المآثر الاسلامية : ابو علقم - ابو عبيدة
البحثري - ديك الجن الحمصي - الامام الاوزاعي .

١٨٥ . . . الفصل الثالث والاربعون : سورية اقليم تابع لبعض الدويلات . . .

الطولونيون - غمارويه - القرامطة - الاخشيدون - الحاكم
الزنجي - نهاية الاخشيديين - الحمدانيون : سيف الدولة -
الحلقة الزاهية في بلاط سيف الدولة - ابو الطيب المتني -
ابو فراس الحمداني - من علماء البلاط الاصمعياني - الفيلسوف
الموسمي الفارابي - العالم الجغرافي : المقنسي - طلائع العصور
المظلة .

٢٠٤ . . . الفصل الرابع والاربعون : ما بين السلاجقة والفاطميين . . .

طغرل بك في بغداد - سلاجقة سورية - الاتابكة - قيام
الفاطميين - اتساع ممتلكاتهم - وضع سورية الفلق - الامراء
المرداسيون - المعري : الشاعر الفيلسوف الفرير - الفروز -
النصيرية - اضطهاد النصارى .

٢٢٣ . . . الفصل الخامس والاربعون : تلاقي الشرق والغرب - الصليبيون . . .

تعدد البواغ وتشابكها - الحملة الصليبية الاولى - الولاية
اللاتينية الاولى : الرها - الولاية اللاتينية الثانية : انطاكية -
الزحف على الساحل - احتلال القدس - بلدوين اول ملوك
الصليبيين - التوسع في الشمال - الردة الاسلامية على يد
زنكي - نور الدين زنكي - ظهور صلاح الدين - معركة
حطين الفاصلة - عكا مركز النشاط الحربي - بعد وفاة صلاح
الدين - القديس لويس - بيبرس قائد المغلومة ضد الصليبيين -
الحشاشون - آخر المستعمرات الصليبية .

٢٥٠ الفصل السادس والاربعون : التفاعل الحضاري

تأثير في الغرب : العلم والادب - الفنون الحربية - هندسة
البناء - الزراعة والصناعة - التجارة العالمية - الصلات
الاجتماعية - شهادة اسامة - عواقب الحملات الصليبية على
سورية - النظم الاتصالي - نشاط الارشادات .

٢٦٤ الفصل السابع والاربعون : الايوبيون والمماليك

المماليك يخلفون الايوبيين - المماليك البحرية - الغزو المغولي -
المماليك البرجية - الادارة في سورية - الجوع والطاعون -
التجارة والصناعة - في لبنان - النشاط الثقافي : العناية الطبية -
الطبية - المدارس - الهندسة المعمارية وفن الزخرفة في عهد
المماليك - المجهود الفكري - التصوف الاثري - ابن عربي -
كتابة السير - التاريخ والجغرافيا - تيمورلنك - المغنيون
يناضلون المماليك والصفوية - النصر الحاسم في مرج دابق -
خاتمة حكم المماليك .

القسم الخامس

تحت الحكم العثماني

٣٠٣ الفصل الثامن والاربعون : سورية اقليم تركي

الدولة العثمانية - الفواثر الادارية في سورية - وضع لبنان
الحامس - الفزالي - الجهاز الاداري - سوء الادارة ومخولات
الاصلاح - تدابير دستورية عميقة - الظواهر الاجتماعية
والاقتصادية - الظواهر الثقافية - الآلة الطابعة .

٣٢٥ الفصل التاسع والاربعون : امراء لبنان المعنويون والشهابيون

عهد من الفوضى - الشهابيون يخلفون المتنين - الشيخ ظاهر
المر - احمد باشا الجزار - الامير بشير الثاني - استقلال
لبنان بصفحة دولية .

٣٤٧ الفصل الحسون : المشهد في العصر الحاضر

التفكك السيلبي - العهد الحميدي - جمعية الاتحاد والترقي -
التمثل الثقافي - القومية والتضال من اجل الاستقلال .

فهرس الخرائط

الصفحة

٨	فتح سورية - الاجناد وقصور الامويين
٦٧	الفتوح الاسلامية لبلاد ما وراء النهر والهند
٧٥	شبه جزيرة الاندلس في القرن التاسع - الاحتلال الاسلامي
٨٢	دولة الخلفاء حوالي ٧٥٠
١٦٣	الخلافة العباسية « القرن التاسع »
٢٣٣	الدول الصليبية في سورية حوالي ١١٤٠
٢٧٥	دولة المماليك - منتصف القرن الرابع عشر
٣٠٨	الامبراطورية العثمانية في اوجها حوالي ١٥٥٠
٣٥٦	سورية ولبنان قبيل الحرب العالمية الثانية مع الدول المتاخمة

القسم الرابع
العصر العبري

الفصل الثلاثون

سُورِيَّةٌ فِي الْعَهْدِ الْإِسْلَامِيِّ

عشية ظهور الاسلام

يبرز في الحقبة الاخيرة من الصور القديمة حدثان هامان: الاول هجرة القبائل الجرمانية التي انتهت بسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب ، والثاني انطلاق القبائل العربية الاسلامية الذي ازال الامبراطورية الفارسية ، وسلخ عن الامبراطورية البيزنطية افضل اقاليمها . وكان الحدث الثاني اروع الحدثين مظهراً . فقد كانت ، لدى وقوعه ، فارس وبيزنطة ، الدولتين الوحيدتين اللتين تتمتعان بقوة عالمية ، في حين لم يكن العرب شيئاً مذكوراً . فمن من معاصري تلك الفترة كان باستطاعته ان يتكهن ان مثل هذا الحدث لمن الامور المحتملة الوقوع ؟

وبعد ست سنوات من حرب تخللتها عدة انتكاسات ، ظفر هرقل سنة ٦٣٨ باسترجاع سورية - ومدينة الرها في شمالها موطن اباؤه - بعد ان كانت قد وقعت في ايدي الفرس ، وبعد ان كان خسرو الثاني قد اجتاحتها (٦١١ - ٦١٤) واعمل فيها النهب والدمار اينما توجه . فقد غزا دمشق ، وروّع اهلها بالقتل والاسر ، وترك كنيسة القيامة خراباً يباباً ، وذلك بعد ان انتهب ما فيها من كنوز وتحف ومنها الصليب الحقيقي . وفي ١٤ ايلول سنة ٦٣٩ اعاد امبراطور بيزنطة الظافر هذا الصليب الى القدس^١ . فتادوا به محرراً للمسيحية ومعيداً لوحدة الامبراطورية الشرقية .

(١) لا يزال المواطنون من النصارى حتى اليوم يحيون ذكرى هذا العيد بإيقاد المشاعل . وقد ذهبوا في منشأ هذا التقليد الى ان هيلانة والدته قسطنطين الثاني عندما اكتشفت عود الصليب دفناً في الارض سنة ٣٢٦ ، اعلنت النبا لابنها وهو في القسطنطينية ، عن طريق ايقاد المشاعل من قبة الى اخرى حتى القسطنطينية .

الغارات الاولى

في هذه الاثناء كانت فرقة من ٣٠٠٠ رجل عربي تشن غارة على بلدة تدعى « مؤتة »^١ واقعة الى الشرق من ساحل البحر الميت الجنوبي، يقودها زيد بن حارث ربيب محمد . وكان الغرض من هذه الغارة ، على ما يبدو ، الانتقام لرسول ، قتله احد النساسنة ، وكان النبي قد بعث به الى بصرى من اجل ان يعود منها ، الى الذين اعتنقوا الاسلام مجدداً ، بغنائم ذات بال بينها السيوف المشرفة المفضلة التي كانت تصنع في تلك النواحي^٢ وقد اعتبرت هذه الحطة التي اختطها محمد بهاجمة البلدان المتاخمة بما يزيد في قدر الدين الجديد وشهرته بين المؤمنين . اما زيد فقد سقط في ساحة القتال ، واما بقية جيشه فعاد بهم الى المدينة القائد الغني خالد بن الوليد^٣، الذي لم يلبث ان غدا بطل الاسلام الحربي . ولم تكن هذه الغزوة ، في نظر سكان مؤتة ، سوى واحدة من غزوات البدو المتكررة التي اعتادوها من امد بعيد ، لكنها كانت ، بواقع الامر ، السهم الاول في نزاع لم يهدأ حتى استسلمت بيزنطة ، وحل اسم النبي العربي في معابدها محل اسم المسيح .

وفي السنة التالية (٦٣٠) قاد محمد بنفسه حملة على واحة تبوك في شمالي الحجاز . ومنها شرع في مفاوضات مع المواطن المجاورة انتهت بخضوع سكانها . فقد أمن الاقوام على ارواحهم ، ومنحوا حق الاحتفاظ بممتلكاتهم والبقاء على عقائدهم ،

(١) هي في شرقي الاردن ، على مسيرة ساعتين من الكرك جنوباً ؛ وقد زارها Alois Musil انظر كتابه : *Arabia Petraea*, vol. i (Vienna, 1907), p. 152.

(٢) راجع ياقوت المجلد الرابع ص ٥٣٦ ؛ و M. J. de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie* (Leyden, 1900), p. 5.

(٣) الطبري المجلد الاول ص ١٦١٠ ؛ قابل : J. Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, vol. vi (Berlin, 1899), p. 52.

(٤) على طريق الحج ، وهي الآن على طريق القطار الحديدي بين دمشق والمدينة . الواقدي ؛ الغازي ، نشر ١ . فون كريب ، (كلكتوتا ١٨٥٥ - ٥٦) ص ٤٢٥ - ٢٦ ؛ ياقوت ، المجلد الاول ، ص ٨٢٤ - ٢٥ ؛ البلاذري ، ص ٥٩ ؛ Gaetani ii pp. 238, seq. انظر وصف القرية الحديثة في Jaussen and Savignac pp. 57-64 ; Alois Musil, *The Northern Hegaz* (New York, 1926) pp. 234-5, 318-19.

شريطة ان يدفعوا جزية سنوية. وكان اول هذه المواطن قاعدة أيلة الواقعة في رأس خليج العقبة^١. وسكنها من النصارى. تليها مقنا^٢ الواقعة الى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكنها من اليهود الذين كانوا يمارسون في الغالب صناعة الحياكة وصيد الاسماك. ثم اذرح الواقعة بين البتراء ومعان، وعدد سكنها نحو مئة امرأة. ثم الجرباء على مسيرة ساعة من اذرح شمالاً، على الطريق الروماني القديم بين بصرى والبحر الاحمر، وسكنها نصارى ايضاً. وقد قدر لهذا الموقع ان يلعب فيما بعد دوراً ذا بال في الحملات الصليبية. ان هذه الاماكن كانت المواطن الوحيدة في سورية التي اتصل بها الاسلام في غضون حياة النبي. ولقد كانت الشروط التي استسلمت بموجبها^٣ موعزة بما سيحى. فان حملات محمد على هذه المواطن في سورية الجنوبية لم تكن الا بمثابة محاولات تجريبية لما قدّر ان يتم فيما بعد على يد خلفائه.

وفي السنة التي تلت وفاة محمد، أعدت العدة لفتح البلدان المجاورة. وكانت الجزيرة العربية قد خرجت من حروب الردة^٤. واخذت توثق روابطها وتتحد تحت قيادة رجل واحد وهو الخليفة الاول ابو بكر (٦٣٢ - ٣٤). فالزخم الذي تجمع في تلك الحروب الداخلية كان لا بد من ان يلتبس بخارج جديدة، لا سيما والمفترض ان العقيدة الجديدة قد اقامت بين اتباعها اخوة جامعة. وهذه الروح الحربية في القبائل التي كانت، من اقدم العهود، تعتبر الغزو ضرباً من الرياضة القومية، لم يكن لها بد من ان تحقق ذاتها بصورة من الصور بعد الاسلام. وكان من المتوقع، فوق هذا، حصول مساندة من القبائل العربية المقيمة في جنوبي

(١) انظر الجزء الاول ص ٢٠٦ ؛ 253-5 Caetani, vol. ii,

(٢) يعقوبي المجلد الرابع ص ٦١٠؛ انظر وصف حديث لهذه الواحة في Musil, Northern He-gaz, pp. 114-16, 312.

(٣) البلاذري ص ٥٩ - ٦٠.

(٤) انظر : Hitti, History of the Arabs, pp. 140-42; C. H. Becker in The Cambridge Medieval History (New York, 1913) vol. ii, pp. 334-6.

(٥) ومنها في الانكليزية كلمة « razzia »

سورية. ذلك ان هذه القبائل، نظير جذام وقضاة^١، كانت في هذه الاثناء قد تنصرت، لكنها لم تكن في حالة من الرضى. لان المساعدة المالية السنوية التي كانت تتناولها لسنوات خلت في مقابل حراسة الحدود كان هرقل قد اوقفها كتدبير اقتصادي^٢ وقد اهمل، فوق ذلك، امر الحصون التي قامت على الحدود الجنوبية، وانتزعت منها حامياتها لتعزيز الحشد في الشمال في وجه الخطر الفارسي. وهكذا فقد كانت سورية، اقرب الميادين.

طلائع الفتح

وفي سنة ٦٣٣ وجهت الى سورية ثلاث سرايا، قاد الاولى عمرو بن العاص، وتولى الثانية يزيد بن ابي سفيان، ورأس الثالثة شرحبيل بن حسنة^٣. وذلك على ان يكون عمرو، قائد حملة مصر العتيد، هو القائد الاعلى اذا اقتضت الخطة توحيد العمليات الحربية. وكان حامل اللواء في سرية يزيد اخوه معاوية، المؤسس العتيد للدولة الاموية في دمشق. ولقد سلك كل من يزيد وشرحبيل الطريق الذي طالما سلك بين تبوك ومعان. اما عمرو فقد سلك طريق ايلة الساحلي. ثم انضمت الى هذه السرايا، فيما بعد، امدادات رفعت العدد في كل منها من نحو ٣٠٠٠ الى زهاء ٧٥٠٠ مقاتل. والراجح ان ابا عبيدة بن الجراح، الذي غدا فيما بعد امير الجيش، انما جاء على رأس احد هذه الامدادات.

وقع الصدام الاول في وادي العربية^٤، وهو غور عظيم جنوبي البحر الميت، وكان النصر فيه ليزيد على سرجيوس بطريق فلسطين. وكان مقر قيادة سرجيوس في قيسارية، فلاحق العرب بجيشه المرتد، وادركوه عند دائن قرب غزة وكادوا

(١) بنو سليج (الجزء الاول ص ٤٤٦) قوم من قضاة. وكان بنو عاملة في هذه الاثناء يقيمون الى الشمال القريب، ومن هنا تسربوا فيما بعد الى جنوبي لبنان، حيث لا يزال المكان يعرف بجبل عامل. انظر عاملة في ابي الفداء؛ التلويح ص ٢٢٨.

(٢) انظر: Theophanes, p. 335.

(٣) البلاذري ص ١٠٧ - ٨؛ De Goeje, pp. 21-4.

(٤) راجع الخريطة الجزء الاول ص ٣٤.

يمهزون عليه (٤ شباط ٦٣٤)^١. ولقد قُتل سرجيوس في هذه المعركة وُحلت السيل ، ولو الى حين ، امام الفاتحين . فاجتاح يزيد وعمرو القسم الجنوبي من فلسطين بزمته ، واصبحت قيسارية نفسها مهددة ، وعزلت القدس تماماً عن البحر^٢.

مغامرة خالد عبر البادية

وعندما انتهى هذا الخبر الى هوقل ، وكان لا يزال في حمص ، حيث قيل انه كان تلقى كتاباً من النبي يدعو فيه الى الاسلام ، سارع الى تنظيم حملة جديدة بقيادة اخيه ثيودوروس . وتلقى خالد بن الوليد ، في الوقت نفسه من ابي بكر ، امراً بالسير فوراً من العراق لتعزيز الجيش المرابط على الجبهة الشامية . وكانت الهجوم على العراق قد بدأ قبل الحملة على الشام بقليل ، لكن لما كانت سورية اقرب الى الحجاز كان جل اهتمام العرب موجهاً اليها .

ويغلب على الظن ان خالد بدأ سيره المحفوف بالمخاطر عبر البادية من الحيرة ، التي كانت هي وبعض المواقع الاخرى قد أُلقت السلاح واستسلمت له . اما الطريق الذي سلكه فالمظنون انه الطريق الجنوبي الغربي المؤدي الى دومة^٣ الجندل (الجوف حديثاً) في منتصف الطريق بين البلدين . واذ بلغ دومة كان باستطاعته ان يواصل منها السير تخترقاً بطن السر (وادي سرحان حديثاً) الى بصرى ، وهي مدخل سورية الجنوبي ، لكن كانت هنالك حصون تعترض سبيله . لذلك سلك الطريق الشمالي الغربي الى قراقر (قلبان قراقر حديثاً) على تخوم البطن الشرقية . ومن هنا

(١) ياقوت : المعجم الثاني ص ٥١٤ - ١٥ ؛ البلاذري ص ١٠٩ ؛ Cae- De Goeje, pp. 31-4; tani, vol. ii, pp. 1141-54.

(٢) ان الحوادث المثبتة في المونيات العربية التي جمعت في غضون قرنين او ثلاثة قرون بعد وقوعها مضطربة في سياقها التاريخي ومعمّمة من حيث الضبط والتقدير . والتحري المتمد هنا مبني على تحييص كائتاني ودي غويه وولوزن وبكتر، وسوام من اعلام النقد الحديث.

(٣) ورد ذكرها في سفر التكوين ٢٥: ١٤ وفي سفر اشعيا ٢١: ١١ .



توجه شمالاً الى سوى^١، مسيرة خمسة ايام في قفر يكاد لا يكون للماء أثر فيه. ولقد نقلت حاجة الجنود من الماء - وعدد من يتراوح بين الخمس مئة والثمان مئة - في القرب، اما الحمول فقد اتخذها من اكراش الرواحل احواضاً. على ان مياه اكراش الجبال هذه كانت بما يجوز الانتفاع به في الطوارئ. وكانت الحيل تقاد جنسية وقد استجلبت لتستطى لدى الاشتباك فقط. وكان دليلهم من طي^٢ اسمه رافع ابن عمير، ولقد بهره شعاع الشمس في بعض مراحل السفر، فأخطأ المعالم التي يعرف بها وجود الماء في باطن الارض، فالتمس من الجيش ان يرقبوا. عوسجة ماء، واذا وجدوها حفروا قربها فاصابوا تراباً رطباً وماء. وهكذا نجا الجيش من الهلاك، وتحقق حدث فريد من البطولة في اختراق القفار^٣.

وكان ظهور خالد، بعد مئير ثمانية عشر يوماً فقط شمالي شرقي دمشق، في مؤخرة الجيش البيزنطي «المرتجل»، مباغته مسرحية (٢٤ نيسان ٦٣٤). وكانت جولته الاولى - وقد تم له فيها النصر - مع الجيش القسافي المسيحي يوم عيد الفصح في مكان قرب عذراء في مرج راهط^٤. واقتضى دهاؤه الحربي ان يوجه هجومه جنوباً مجتازاً شرقي الاردن، وذلك من اجل ان يقيم اتصالاً فعالاً بجيوش زملائه القواد، اذ كانت تقاسي ضنكاً شديداً. ولم تكن الرغبة في احراز المجد لنفسه. او الحرص على الظفر بالغنائم، لئلا يثنيه عن هذا الهدف.

سقوط دمشق

هذه الجيوش التي اجتمعت تحت قيادة موحدة، لعلها قيادة خالد كسبت

(١) هي بالقرب من سبع ييار المدينة، الى الشمال الشرقي من دمشق.

(٢) ان روايات المصادر العربية عن الطريق التي سلكها خالد في حملته هذه قد ادت الى مشاكل تاريخية وجغرافية عديدة؛ قابل البلاذري ص ١١٠ - ١١٢؛ الطبري ج ١ ص ٢١١ - ١٣؛ ٢١٢ - ٤؛ ابن الاثير ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٣، المقوي - تاريخ - نشر م. ت. هوتسا (ليون ١٨٨٣) ج ٢، ص ١٥٠ - ٥١؛ ابن عساكر - التاريخ الكبير - (دمشق) ج ١، ص ١٣٠؛ البصري، فتوح الشام، نشر و. ن. ليس (كلكتا، ١٨٥٤) ص ٦٣ - ٦٥. ان الحطة الموضوعه اعلاه قد اعتمدنا فيها على: Musil, Arabia Deserta, pp. 553-73; Caetani, vol. ii, pp. 1220-36.

(٣) هو سهل على ١٥ ميلاً الى الجنوب من دمشق. انظر البلاذري ص ١١٢، وياقوت ج ٤

معركة دامية في اجنادين^١ (٣٠ تموز ٦٣٤) فعدت ابواب فلسطين مفتوحة على مصاريعها في وجه الفاتحين. وشنت من ثم غزوات شتى في كل اتجاه لمدة ستة اشهر. وقد سقطت بصرى بعد مقاومة ضعيفة ، وتلتها فجل^٢ التي كانت تسيطر على معبر الاردن الشرقي ، ثم بيسان على عدوة النهر . ولم يكن القائد البيزنطي الجديد بانس Baanes ، باوفر حظاً من زميله السابق ؛ اذ لم ينقض شهر من الزمان حتى انهزم جيش الروم على اثر معركة مع الفاتحين في مرج الصفر^٣ ، وطلب النجاة بالاعتصام خلف اسوار دمشق . فجد خالد في اثره ، والقى الحصار حول العاصمة العتيدة للامبراطورية الاسلامية . على ان الحصار لم يكن اكثر من محاولة لعزل المدينة لان العرب لم يكونوا قد حذقوا اساليب الحصار ولا عرفوا ادواته. وبعد ستة اشهر سلمت المدينة (ايلول ٦٣٥) على اثر خيانة ، وكان المفاوضون اسقف المدينة ، ومنصور بن سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي ، واحد كبار الموظفين في دائرة المال في الدولة . اما الرواية التقليدية التي تنهب الى ان المدينة سقطت نصفها عنوة ونصفها صلحاً ، فالقرائن متوفرة على انها رواية متأخرة ، قصد منها تبرير اقدام الامويين على قسمة الكاتدرائية ، والاسقيلاء على شطرها^٤ . وقد اشتملت شروط الصلح على المبادئ نفسها التي فرضها النبي^٥ ، فعدت نموذجاً لما عومت بموجبه سائر المدن السورية .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق ، اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم .

(١) لا يزال موقعها مجهولاً ؛ اما القول بانها هي جنابتن الواقعة بين الرمة وبيت جبرين — على الطريق بين غزة والقدس — فامر مشكوك في صحته . Gaetani, vol. iii, pp. 176-87 ; Wellhausen, *Skizzen*, vol. vi, pp. 57-8 Dussaud, *Topographie*, p. 318.

(٢) او هي فجل بالفتح. انظر : Gr. Pella, Bi-hi-lim عن لوحات تل الهارثة (الجزء الاول من ٧٥) وهي المروفة اليوم بخربة فعل . انظر أيضاً : Gaetani, vol iii, pp. 187-211 ; Abel, vol. ii, pp. 34, 405.

(٣) هو سهل على ٢٠ ميلاً الى الجنوب من دمشق .

(٤) Gaetani, vol. iii, pp. 359-92 انظر ايضاً ادناه الفصل ٣٨ الفقرة عن الجامع الاموي.

(٥) انظر اعلاه ص ٥ من هذا الجزء .

ولا يسكن شيئاً من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية^١.

وبسقوط القاعدة السورية غدا النصر التام محققاً. وقبل انصرام العام تمّ لابي عبيدة احتلال مدينة حمص. فقد سارعت جميع المدن المجاورة - بعلبك وحمص وحماه - الى فتح ابوابها، وخرج الرعايا في حالات عدة «لاستقباله»، يصحبهم الناقرون على الدفوف والمنشدون، وانحنوا امامه احتراماً. وذلك على نحو ما جرى في شيزر^٢. ولم تصمد سوى القدس وقيسارية وبعض مدن الساحل، في انتظار وصول نجدة من هرقل.

ولم يرد هرقل ان يخذلهم، ولذلك حشد من منطقة انطاكية وحلب جيشاً من نحو خمسين الفاً، جله من الارمن والعرب المرتقة، ضمهم الى قيادة اخيه ثيودوروس ومساعدته بانس^٣. واذا تيقنت القيادة العربية من تفوق جيش العدو بالعدد، عمدت الى الجلاء سريعاً عن حمص بل وعن دمشق وسواها من المدن ذوات الموقع الحربي الخطير، وحشدت زهاء ٢٥٠٠ مقاتل في وادي اليرموك^٤. اذ يستطاع من هنا الانسحاب الى الصحراء اذا اقتضى الامر. وقد سلك جيش هرقل الطريق من البقاع (سورية المنخفضة) الى شرقي الاردن وبعد فترة من المناوشات، نادى الجيش خلالها ببناس امبراطوراً، نشبت المعركة. وكان ذلك عند ملتقى اليرموك برافده الرقاد، قرب الواقصة (الباقوصة حديثاً). وبلغ القتال اشده في يوم شديد الحر (٢٠ آب ٦٣٦) انعقدت فيه الغبار سحباً، فكانت ولا شك عوناً للعرب على اعدائهم. وانساق الجيش البيزنطي منكفئاً الى موضع ضيق بين الجدولين. فكان

(١) البلاذري ص ١٢١.

(٢) هي لا رستا، سيجر حديثاً، على نهر العاصي، وتبعد ١٥ ميلاً الى الشمال الغربي من مدينة حماه. انظر ادناه الفصل ٤٦ الفقرة عن شهادة أسامة.

(٣) الطبري ج ١، ص ٢١٢٥؛ Theophanes, p. 337.

(٤) هيروماكس، شريعة الناذرة حديثاً (نسبة الى اسم قبيلة بدوية) (Abel, vol. i, p. 171) وهو احد روافد نهر الاردن؛ ويتبعى علم الخلط بينه وبين يرموث المذكور في سفر يوشع ١٠: ٣، وهو خربة يرموك الحديثة، في جوار اجنادين.

جسر الرُقَّاد الى الغرب بيد العرب ، وكان خط المواصلات من الشرق قد قطع ايضاً ، فخاب كل أمل بالانسحاب ، ولم يجد لهم شيئاً تراثيل القس وصلواتهم ، ولا استعانتهم بالصلبان^١. ولم تسكن فوق الارمن ولا المرتزة من العرب السوريين ان يصدوا في وجه الهجوم الكاسح الذي قام به ابناء الصحراء ، فسقط بعضهم قتيلاً هنا وهناك ، ودفع بعضهم الى النهر بعنف ، وانهمزم البعض الآخر ، لكنه لاقى حتفه على الضفة الاخرى . وقد كان ثيودوروس احد الضحايا ، فتقرر بذلك مصير سورية . وقد اقر هرقل نفسه بذلك ، فكانت كلماته الاخيرة : « عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو^٢ ! » .

وفي فصل الحريف من العام نفسه قامت فرقة ، يقودها فيما ترجع ابو عبيدة ، باحتلال دمشق مجدداً . وعمدت على الاثر جميع المدن التي سبق للعرب ان احتلوها الى استقبال الفاتحين بصدور رحبة . وخاطبهم سكان حمص قائلين «لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم^٣» . ثم ان حلب وانطاكية الى الشمال لم تلبثا ان اتتا السلاح ، لكن قنشرين وجدها قاومت بعض المقاومة . واستطاعت اخيراً جبال طوروس ، وهي الحد الطبيعي للبلاد السورية ، ان توقف هذا الزحف المتواصل الذي حققه السلاح العربي .

سقوط القدس وقيسارية

وكانت قوَّاد آخرون يديرون عمليات حربية بنجاح مماثل في الداخل وعلى امتداد الساحل . فقد احتل شريحيل عكا وصور^٤ ، وظفر يزيد واخوه معاوية بصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس^٥ . لكن القدس وقيسارية في الجنوب ، وقد

(١) ابن عساکر ج ١ ، ص ٢٦٣ ؛ البصري ، ص ١٩٧ .

(٢) البلاذري ص ١٣٧ ؛ قابل الطبري ج ١ ، ص ٢٣٩٥ - ٩٦ .

(٣) البلاذري ص ١٣٧ . وقد نسب الى سكان فعل ما هو شبيه جداً بهذه المواطف ؛ البصري ص ٩٧ .

(٤) البلاذري ص ١١٦ ؛ De Goeje, p. 133 .

(٥) البلاذري ص ١٢٦ ؛ Caetani, vol. iii, p. 801 .

اصطبغت بالصبغة الهلينية ، استمرت في المقاومة . فصدت القدس في وجه عمرو حتى سنة ٦٣٨ ، عندما اشترط سكانها ان يكون تسليم المدينة لعمرو بن الخطاب بالذات ، وهو آنئذ يقوم بزيارة الى الجابية^١ . اما قيسارية فقد كان وضعها اشدّ تعقيداً ، اذ كانت على اتصال بالامداد البحرية . لكنها عنت اخيراً سنة ٦٤٠ بعد هجمات متواصلة دامت سبع سنوات ، وبلغت ذروة حدتها بالحصار الذي ضربه معاوية عليها^٢ . وكان مما ساعد على سقوطها نهائياً خيانة يهودي من المقيمين داخل اسوارها . ففي خلال هذه السنوات السبع (٦٣٣ - ٦٤٠) تم اخضاع سورية كلها من الجنوب الى الشمال .

فتح يسير

وليس من العسير ان نعلل « الفتح اليسير » الذي تم للعرب باكتساح هذا الاقليم ، من الامبراطورية البيزنطية ، ذي الموقع الحربي الخطير . فالغارات التي شنّها الفرس ، في اوائل القرن السابع ، كانت قد فعلت في تقويض دعائم الجيش فعل الانشقاق المونوفيزي في منتصف القرن الخامس في تصديع وحدة المجتمع الروحية . اما المساعي التي بذلها هرقل في الآونة الاخيرة (٦٣٨) لارتق الحرق الديني ، باقتراحه بعض التسوية فكانت نظير ما سبقها من المحاولات عقمًا . ولقد عمد سرجيوس بطريرك القسطنطينية ، وهو سوري يتحدر من اسرة يعقوبية المذهب ، الى استنباط تسوية جديدة ، فجهد في تحويل الانظار عن الخلاف الاصلي في طبيعة المسيح الى فكرة « المشيئة الواحدة » . لكن هذه البدعة لم تكن لترضي الارثوذكس البيزنطيين ولا السوريين المنشقين ، بل ادت الى نشوء شعبة جديدة هي المونوثيلية ، يقول اتباعها بانه كان للمسيح مشيئة واحدة هي المشيئة الالهية . اما جمهور السوريين

(١) الطبري ج ١ ص ٢٤٠٢ وما يليها ؛ البلاذري ص ١٣٨-٣٩ ؛ يعقوبي ج ١ ص ١٦٧-١٦٨
De Goeje, pp. 152 seq.

(٢) البلاذري ص ١٤٠-٤٢ ؛ De Goeje, pp. 166-9; Caetani, vol. iv, pp. 156-63

(٣) البلاذري ص ١٦ ؛ L 18, p. 126, II. 13, 19

فقد تشبثوا بكنيستهم ، لان الكنيسة لم تكن في نظرهم مؤسسة دينية فحسب ، بل كانت ، الى ذلك ، تعبيراً مكبروتاً عن عاطفة قومية دفينية .

وكما عرفنا سابقاً^١، لم يعرف من السوريين منذ فتح الاسكندر انهم فقدوا طابعهم القومي او اضاعوا لغتهم الاهلية او اهملوا دينهم السامي ، او سلكوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة . فالخضرة الهلينية لم تكن يوماً اكثر من طلاء خارجي ، ولم تؤثر في غير النخبة من اهل المدن . اما سواد السكان فقد كانوا ولا بد يعتبرون الحكم غريباً عنهم ، وهذه المجافاة ما بين الحاكمين والمحكومين قد استفحلت ولا شك بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب . وغالب الظن ان السوريين من ابناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين اقرب اليهم عنصراً ، ولغة ، وربما ديناً ايضاً ، من اسيادهم البيزنطيين المقيوتين .

الرجل الاداري محل القائد الحربي

اما وقد تم فتح سورية ، فلم يعد بد من ان يحل رجل الادارة محل رجل القيادة . وعلى ذلك عزل خالد ذلك البطل الذي اهله تاريخه الحربي الباهر في جزيرة العرب ، وفي العراق وسورية ، الى ان يلقب بـ « سيف الاسلام » — بامر من الخليفة عمر ، وولي مكانه ابو عبيدة . وابو عبيدة هذا صحابي بارز ، وهو احد اعضاء المثلث الذي استأثر بالسلطة الاسلامية^٢ وكان العضوان الاولان ابا بكر وعمر . ولقد تلا عمر ابا بكر في الخلافة ، بعيد معركة اجنادين سنة ٦٣٤ . وكان على ما يبدو يضمّر خالد سوء ، لكنه لم يعهد الى صديقه ابي عبيدة بالقيادة العليا الا بعد معركة اليرموك . وعندها انكفأ خالد من الحياة العامة وانزوى في حمص ، وفيها مات سهلاً (٦٤٢) ليعيش في الاخبار حياة مجترحي المعجزات . ولقد بني مدفنه ومسجده على الطراز التركي سنة ١٩٠٨ وكانت زوجته فضاء قد دفنت هناك الى جانبه .

(١) انظر الجزء الاول ص ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٨٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٦ — ٣١٨ .

(٢) H. Lammens, « Le Triumvirat Abu Bakr, 'Omar et Aboû 'Obaidah » *Mélanges de la faculté orientale*, vol. iv, (Beirut, 1910), pp. 113 seq.

ولما زار عمر المعسكر الاسلامي في الجابية سنة ٦٣٨ للاحتفال بالفتح وتقرير حالة المغلوبين، لم يكتفِ بان ثبت ابا عبيدة في قيادة الجيش بل عينه حاكماً عسكرياً، ونائباً للخليفة. على ان دخول الخليفة المسن الى القدس راكباً جلاً، لابساً رث الثياب، لم يترك في الناس اثرأ محموداً^١. وكان في استقباله البطريق صفرونيوس «حامي الكنيسة المعسول اللسان». قيل انه التفت الى احد مرافقيه، وكله باليونانية قائلاً^٢ «حقاً هذا رجس الخراب الذي تكلم عنه النبي دانيال، وراه قائماً في المكان المقدس»^٣.

خطوة الفتح الاسلامي

ولقد تخطى فتح سورية الاعتبارات الزمنية والمحلية، وجلّس دولة الاسلام الناشئة بالمهابة والمجد في نظر العالم، واكسبها الثقة بالنفس.

والآن وقد غدت سورية قاعدة عسكرية، فان جيشاً عربياً توجه منها بقيادة عياض بن غنم نحو الشمال الشرقي، وقام باعمال حربية تم له بها، بين ٦٣٩ و٦٤٦، اخضاع بلاد ما بين النهرين جملة^٤. ففتح من ثم الطريق الى شمالي غربي فارس وما وراءها من بلاد، واستغل هذا الكسب استغلالاً تاماً. ثم زحف جيش آخر بقيادة عمرو ابن العاص وسواه ممن اشتركوا في فتح سورية، في اتجاه جنوبي غربي، تم له به، بين ٦٤٠ و٦٤٦، اخضاع مصر^٥. ومن مصر استؤنفت بسهولة الاعمال الحربية في

(١) الطبري ج ١، ص ٢٤٠٧؛ cf. De Goeje, p. 157.

(٢) Theophanes, p. 339; Constantine Porphyrogenitus, « De administrando imperio » in J.-P. Migne, *Patrologia Graeca*, vol. cxiii (Paris, 1864), col. 109. يرجع ان صفرونيوس كان ماروني الاصل.

(٣) سفر دانيال، ٩ : ٢٧ ؛ ١١ : ٣١ ؛ ١٢ : ١ ؛ ومقتبس في انجيل متى ٢٤ : ١٥ ؛ وفي انجيل مرقس ١٣ : ١٤ . والاشارة في سفر دانيال الى اطيروخس ايفانيس، انظر اعلام الجزء الاول ص ٢٦٧ .

(٤) البلاذري ص ١٧٢ وما بعد ؛ الطبري ج ١، ص ٢٥٩٥ - ٨ .

(٥) ان لفظة « غزو » كانت تطلق على الغارات الصغيرة ما بين القبائل، فاصبحت تطلق بعد الفتح على الحروب القومية الاسلامية، انظر : Hitti, *History of the Arabs*, p. 160 seq.

شمالى افريقيا، واخيراً فى الاندلس، وذلك بالتعاون الوثيق مع المحاربين السوريين. اما فى شمالى سورية فقد غدت آسيا الصغرى معرضة للغارات التى استمرت بلا انقطاع ما يقرب من قرن .

تعليل الفتح الاسلامى

هذا، وقد كانت هذه الفتوح اشبه بالحروب المنظمة منها بالغارات الطارئة التى جرت على غطها الفتوحات الاولى^١. فالحملات الاولى على العراق وسورية لم تكن نتيجة لخطّة مرسومة وتدبير سابق، اذ لم يكن ابو بكر ولا عمر، وقد احرزت فى عهد ولايتها جل هذه الانتصارات، ليعقدا المجالس الحربية، ويضعوا خطط القتال. بل لم يحلما اصلاً - فى الادوار البدائية على الاقل - باقامة قاعدة دائمة فى المناطق المحتلة. لكن الذى قادم الى هذه النتيجة انما هو مجرى الحوادث وسير الامور. وبناء على ذلك لم يسمح للجيوش، فى اول الامر، بالاقامة فى المدن، بل اقيم لها معسكر يجوار الجابية ليكون بمثابة قاعدة بدائية. وهناك ما يحمل على الاعتقاد بان بعض الحملات الاولى، نظير حملة خالد على العراق، جرت دون امر من الخليفة، بل لعلها جرت خلافاً لاوامره.

وليس ينبغي ان ينظر الى الفتح الاسلامى من ناحية انه كان، بالدرجة الاولى، جهاداً دينياً. فان التعليل التقليدى الذى اعتمدته المؤرخون المسلمون، يجرى مجرى التعليل اللاهوتى الذى اعتمدته اليهود فى تاريخهم القومى، ونصارى القرون الوسطى فى توسع الكنيسة. فهو يغلب على هذه الحركة الطابع الدينى، ويعتبر انها جاءت تبعاً لارادة الهية مقررّة. والواقع ان التوسع العربى الاسلامى انما دعت اليه عوامل اقتصادية بعيدة الغور^٢، لم يخف امرها على المحققين من مؤرخى العرب نظير البلاذوى^٣. فقد ذكر ان ابا بكر، اذ اخذ فى اعداد الحملة على سورية،

(١). Hitti, *History of the Arabs*, 160, 167-8.

(٢) استخرجها كيتانى : Gaetani, vol. ii, pp. 831-61، وجرى على ذلك بعده بكر ولامنس وغيرهما من النقاد المحققين فى العصر الحديث.

(٣) فتوح البلدان، ص ١٠٧.

«كتب الى اهل مكة والطائف واليمن، وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم» .

فاذا نحن نحربنا التوسع الاسلامي، محيطين بملابسائه الراهنة، بان لنا انه كان حلقة من سلسلة من الهجرات، او من «موجات النزوح»، حملت الفائض من سكان البادية القاحلة الى ما يتاخم الهلال الحبيب، من مناطق هي احفل باسباب الحياة. وقد كان، بواقع الامر، الشوط الاخير من اشواط النزوح المتواصلة ابدأ، والتي بدأت بالهجرة البابلية، قبل ذلك بنحو اربعة الاف سنة^١. على ان هذه الموجة الاسلامية كانت ذات طابع مميز هو الدافع الديني. وقد كان من اجتماع العامل الديني بالدافع الاقتصادي ما جعل الحركة امرأ لا يدفع. تخطى بها حدود الهجرات السابقة الى مدى بعيد. على انه لا بد من الاعتراف بان الاسلام كانت بمثابة «صيحة الحرب»، او نداء هو من قبيل صيحة «الديمقراطية» في الحرب العالمية الاولى والثانية. بل لقد كان فوق ذلك، ان عمل على توثيق الصلة بين القبائل وجمع الاشتات المتنافرة التي لم يسبق لها ان اتحدت من قبل. ولئن كانت الرغبة في نشر العقيدة الجديدة وفي الفوز بجنة النعيم هي العامل المحرك في حياة البعض من المهاجرين البداة، فان الحرص على الظفر باسباب الراحة والرغد، التي كانت تحفل بها الحياة المدنية في الهلال الحبيب، كان المحرك الدافع في ما يتعلق بالكثيرين منهم .

ومن هذا القبيل افتراض آخر مشابه لهذا في الشطط، هو صورة رسمها بعض كتّاب النصارى للمسلمين العرب، يجتاحون البلدان وهم يعرضون القرآن باليد الواحدة والسيف بالآخرى. انما كان هنالك مجال ثالث للاختيار في ما يتعلق باهل الكتاب^٢ هو دفع الجزية. «قاتلوا... من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»^٣. ومن الخير ان نتذكر ان دفع الجزية كان في نظر الفاتحين اولى واشهى. فانه اذا اعتنق الذي الاسلام سقطت عنه الجزية.

(١) راجع الجزء الاول ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) انظر ما سيأتي في اول الفصل ٣١ الهامش .

(٣) سورة البراءة : ٢٩ .

ان الفتوحات الاسلامية التي تمت في القرن الاول تعتبر، من حيث الخطورة التاريخية، في منزلة فتوحات الاسكندر. وهذان هما الحدثان البارزان في تاريخ الشرق الادنى السياسي والحضاري قديماً. ففي غضون الالف سنة التي تلت فتوحات الاسكندر، كانت الحياة الحضريّة في سورية والبلدان المجاورة تتحول نحو الغرب عبر البحر، وتنسجم بطابعه. اما الآن، فقد اتجه هذا التحول شرقاً عبر الصحراء، ولم تلبث آخر الصلات بروما وبيزنطية ان انقضت، وانشئت مكانها صلات جديدة بمكة والمدينة. وكان هذا التحول بالمعنى الضيق ردة الى القديم، ذلك لان الحضارة العربية الاسلامية لم تبدع الكثير من العناصر الاصلية، بل كانت بالاولى انعاماً للحضارة السامية القديمة^١ فالحضارة الهلينية من هذه الناحية، انما هي ظاهرة دخيلة بين حضارتين متجانستين.

وفي مدى عقد من الزمان بدل الفتح الاسلامي وجه الشرق الادنى، وفي مدى قرن بدل وجه العالم المتمدن. وذلك فوق ما يستطيع فتح الاسكندر ان يدعيه. والفتوحات الاسلامية بعيدة عن ان تعتبر من قبيل الاحداث العارضة، فقد قام الدليل على انها كانت عاملاً حاسماً في تطوير مجتمع العصور الوسطى، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية، قاطعة بذلك الصلة البحرية بين الشرق والغرب. هذا فضلاً عن ان احتلال شواطئ المتوسط، الشرقية والغربية والجنوبية، كوّنت عالماً جديداً هو العالم الذي عاش فيه شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ومعاصروه. وبذلك انتهى العصر القديم وبدأت العصور الوسطى^٢.

(١) Hitti, *History of the Arabs*, p. 174-75

(٢) هذا ما ذهب اليه هنري بيريون في بحثه: *Mahomet et Charlemagne*, 7th. ed. (Brussels, 1935); do., *Histoire de l'Europe* (Paris, 1936), pp. 18-24.

الفصل الحادي والثلاثون

الإدارة العيسوية

كانت المعضلة التالية التي واجهها العرب : كيف يتيسر لهم ان يديروا هذه الممتلكات الجديدة ؟ فقد افاق العرب من نشوة النصر العظيم ليجدوا انفسهم تجاه معضلة ، لم يكونوا مهئين لمعالجتها كما ينبغي ، اذ لم يتهيأ لهم في ماضيهم من الخبرة ما يمكن ان يعولوا في ذلك عليه . ويبيّن ان سنن المجتمع البدائي في المدينة لم تكن تفي بالغرض ، وكذلك شرائع المجتمع الاسلامي الجديد ، فانها لم تكن قابلة للتطبيق ، ذلك لان الامم المغلوبة لم تكن بعد قد اعتنقت الاسلام .

عهد عمر

وكان عمر اولد من واجه هذا المشكل . ففي اليوم المعروف بـ «يوم الجابية» عقد مؤتمراً دام ثلاثة اسابيع ، بحث فيه مع قواده المشكل الراهن . الا انه لم يُعرف بالضبط ما الذي اسفر عنه هذا المؤتمر ، ولا وقف احد تماماً على بنود الاتفاق الذي اشتهر بـ «عهد عمر»^١ . ولئن كان هذا العهد قد تحدر البنا بروايات متعددة^٢ ، فان هذه الروايات ، على اختلافها ، قد اشتملت على احكام تابعة لصور متأخرة . وبديهي ان عمر لم يكن ليضع احكاماً لحالات لم تكن بعد قد برزت الى حيز الوجود .

A. S. Tritton, *The Caliphs and their Non-Muslim Subjects* (Oxford, (١ 1930), p. 12.

(٢) راجع ابن عساکر ، ج ١ ، ص ١٧٨ - ٨٠ ، ١٥٠ - ٥١ ؛ الابشهي ، السطرف ، (القاهرة ١٣١٤ هـ) ج ١ ، ص ٩٩ .

لكن من المحتمل ان تكون بعض المبادئ الواردة في العهد المذكور بما تجلت فيه سياسة عمر . وفي طبيعة ذلك ان يكون المسلمون العرب في البلاد المحتلة بمثابة طبقة ارسقراطية دينية عسكرية، فيحافظون على نقاوة دمهم ، ويمتنعون عن مخالطة المواطنين ، فلا يقتنون المزارع ، ولا يعملون في الارض . اما الشعوب المغلوبة فقد جعلوا في وضع خاص عرفوا فيه بـ « اهل الذمة » . وقد ترتب عليهم بحكم هذا الوضع ، ان يؤدوا ائاة تشتمل على ضريبة الارض (الحراج في ما بعد) وعلى ضريبة الدخل (الجزية في ما بعد) ، لكنهم دخلوا في حماية الاسلام واعفوا من التجنيد ، اذ كان من حق المسلم وحده ان يمتشق الحسام مدافعاً عن حياض الاسلام . هكذا نشأ مبدأ المباينة بين الغالب والمغلوب ، وغدا اصلاً ثابتاً من اصول السياسة .

ومبدأ آخر ينسب فضل سنه الى عمر ، هو ان ما سقط في ايدي المحاربين من اموال منقولة واسرى حرب انما هو داخل في الغنيمة ، وهو من نصيب المقاتلين ، كما كان الى حينه . وليست الارض كذلك ، اذ هي من حق جمهور المسلمين ، يتألف منها ومن سائر الاموال التي تجبي من الرعايا ما يعرف بـ « النية » . على ان الذين تعهدوا اراضي النية بقوا يدفعون ضريبة الحراج مع اعتناقهم الاسلام .

ومن الجلي ان نظام الضرائب الذي جعلته الاخبار المنقولة من محدثات عمر انما جاء في اعقاب سنين كثيرة من التجربة والاختبار . فالخلفاء الاولون وولاة الامصار لا يحتمل ان يكونوا قد استنبطوا وفرضوا نظاماً من الضرائب وجهازاً من الادارة المالية . فقد كان ايسر عليهم ان يواصلوا باسم الله ، نظام الحكم البيزنطي القائم في الاقاليم ، والذي كان مرعياً في سورية ومصر . فكان نظام الضرائب في الامبراطورية الاسلامية لذلك يختلف بين مكان وآخر بحسب طبيعة التربة وتبعاً للنظام المحلي السابق (بيزنطياً كان او فارسياً) لا بمقتضى الحالة التي تم فيها فتح

(١) قصد به اصلاً « اهل الكتاب » اي اليهود والنصارى وصائبة المراق . ووسع في ما بعد حق شمل الزردشتيين وسوام .

البلاد : صلحاً او غنوة^١. اما التعليل الذي جرت عليه المصادر العربية^٢ لاختلاف الضرائب باختلاف نوع الفتح فواضح انه رواية شرعية متأخرة . بل حتى التفريق ما بين الجزية كضريبة على الشخص ، والحراج (من خوريجيا اليونانية ، او من الارامية) كضريبة على الارض ، لا يمكن ان يكون قد نشأ في عهد باكر كعهد عمر . ولا شبهة في ان التعبيرين قد تعاقبا على معنى واحد هو الضريبة بالمدلول العام . فقد وردت لفظة «جزية» في القرآن مرة واحدة (التوبة : ٢٩) وفي غير قرينة شرعية . وكذلك لفظة «خراج» فانها وردت مرة واحدة كذلك (المؤمنون ٧٤) وبمعنى يختلف دلالة عن ضريبة الارض . فالتفرقة بين الجزية والحراج ، والحالة هذه ، لم تتضح حتى العهد الاموي المتأخر .

وضريبة الجزية دلالة على انحطاط المنزلة ، وكانت تؤدي دفعة واحدة . اما مقدارها فكان في الغالب اربعة دنانير^٣ لمن عُدَّ من طبقة الاغنياء ، ودينارين لمن اعتبر من متوسطي الحال ، وديناراً واحداً لمن كان من الفقراء . وقد اعني منها النساء والاطفال والمستعطفون والمسنون والمرضى ، الامن كان منهم ذا دخل شخصي مستقل . لكن الحراج كان يدفع مقسطاً وبالنوع . يؤخذ من الماشية ومحصول الارض ، ولا يقبل من الخنازير ولا الميته من الدواب ولا الحجر ، بما نص القرآن على تحريمه . وربما ترتب على الشعوب المغلوبة ان تدفع ، فضلاً عما تقدم ، ضرائب اخرى لاعالة جند المسلمين .

المناطق العسكرية

ولقد تم في مؤتمر الجابية تقسيم سورية الى اربعة اجناد ، تبعاً للاقاليم البيزنطية الاربعة التي كانت زمن الفتح ، هي : جند دمشق ، وجند حمص ، وجند الاردن ،

(١) الماوردي : الاحكام السلطانية ، نشر م . انجر (بون ، ١٨٥٣) ص ٢٥٣ - ٥٦ ؛ ابو يوسف كتاب الحراج (القلعة ، ١٣٤٦ هـ) ص ٤٦ ؛ البلاذري : ص ١٢٠ - ٢١ .

(٢) لفظة دينار العربية من اليونانية : دينار يوس ؛ وقد كان الوحدة لتقود الذهبية في الخلافة وكان وزن نحو اربعة غرامات . وكان الدينار في عهد عمر يساوي عشرة دراهم ، وغداً معادلاً لاثني عشر درهماً بعد ذلك .

وجند فلسطين؛ فاشتمل جند الاردن على الجليل وامتد شرقاً حتى الصحراء، وشمل جند فلسطين المنطقة الواقعة الى الجنوب من سهل مرج ابن عامر. وقد اضاف الخليفة يزيد بن معاوية، في ما بعد، جنداً خامساً هو جند قنسرين، سلخه عن حمص، وضم اليه انطاكية ومنبج والجزيرة^١. ثم ان الخليفة عبد الملك بن مروان فصل منطقة الجزيرة وجعلها جنداً مستقلاً اما معسكر الجابية فقد بقي، الى حين، بمثابة العاصمة. ثم نشأت معسكرات اخرى في جوار حمص وعمواس^٢ وطبرية^٣ (الجند الاردن) واللد (الجند فلسطين). وقد حل، في ما بعد، معسكر الرملة محل معسكر اللد.

وما ان استوطن الجنود العرب هذه المناطق المحتلة، حتى استحضروا اسرهم الى هذه المعسكرات. وكانت الكثرات من زوجاتهم او جوارهم، ولا ريب، من سبايا البلاد المحتلة. ولما كان هؤلاء الجنود من المحاربين والمقاتلين، فقد كانت لهم من الحقوق والافضليات ما لم يكن للوافدين المتأخرين من الجزيرة العربية. وكان على رأس الجند القائد الاعلى والحاكم العام، الذي جمع في شخصه جميع السلطات التنفيذية والقضائية والعسكرية. الا انه ابقى على هيكل الجهاز الحكومي البيزنطي، واحتفظ بالموظفين الاهليين، الذين لم يغادروا البلاد ابان الفتح، في مناصبهم. ذلك لانه لم يكن لدى العرب رجال مدربون يحلون محل هؤلاء الموظفين. فضلاً عن ذلك، فقد كانت عنايتهم موجهة بالدرجة الاولى نحو توثيق سيطرتهم على البلدان المحتلة، وجباية الضرائب المرتبة على اهلها؛ وعليه فقد كانت الحكومة العربية الاقليمية، في دورها البدائي، سواء في سورية او مصر او العراق، حكومة عسكرية محضة، ذات هدف مالي واضح.

(١) ياقوت، ج ١، ص ١٣٦؛ البلاذري ص ١٣١ - ٣٢؛ قابل اليعقوبي ج ٢، ص ١٧٦؛ راجع الخارطة ص ٩ من هذا الجزء.

(٢) او هي عمواس؛ انجيل لوقا ٢٤: ١٣.

(٣) هي طبرية الحديثة.

(٤) J. Wellhausen, *Das arabische Reich und sein Sturz* (Berlin, 1902), pp. 18, 20-21; tr. Margaret G. Weir, *the Arab Kingdom and its Fall*, (Calcutta, 1927), pp. 28, 32.

طاعون عمواس

وقبل انصرام العام الذي عقد فيه مؤتمر الجابية (٦٣٩)، ظهر في عمواس وبأ مخيف، فتك في الجنود فتكاً ذريعاً وقضى، في ما روي، على زهاء ٢٠,٠٠٠ منهم، بينهم القائد الاعلى ابو عبيدة^١ وخلفه يزيد^٢ وعلى الاثر عين عمر معاوية في مكان اخيه الاكبر يزيد، وكان ذلك سنة ٦٤٠. وبقي معاوية لمدة عشرين سنة حاكماً على سورية وسيد الموقف فيها، واستمر لمدة عشرين سنة اخرى خليفة للمسلمين، نافذ السلطان في العالم الاسلامي. وحينما غدت سورية، في ابان حكمه قاعدة للخلافة، استهلت عهداً من القيادة والسيادة استمر ما يقرب من قرن.

معاوية في عهد ولايته

ان السياسة التي استنها معاوية الوالي هي السياسة التي اتبعها معاوية الخليفة، فتحقق له بذلك المقام البارز الثابت في عالم الشهرة بين العرب. فقد جعل نقطة الانطلاق في سياسته تعهد رعيته السورية الجديدة الذين كانوا الى حينه على النصرانية، وكذلك القبائل العربية التي سبق ان استوطنت البلاد منذ العهد الجاهلي واعتنقت النصرانية، نظير الفساسة. ولقد كان الكثير من هذه القبائل ترتقي بنسبها الى عرب الجنوب، خلافاً للنازحين المتأخرين الذين كانوا من عرب الشمال. وقد اختار معاوية، زوجة له، امرأة مسيحية يعقوبية هي ميسون ابنة مجدل، من بني كلب من عرب الجنوب، احتفظت بدينها وغدت ام يزيد. وكان طبيب معاوية الخاص، وشاعر بلاطه مسيحيين ايضاً^٣. واحتفظ معاوية بمنصور بن سرجون^٤ مديراً للمالية

(١) لا تزال ذكراه، نظير ذكرى سواه من عارفي المسلمين الاولين، نجيا كذكرى الاولياء.

(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧٢؛ الطبري، ج ١، ص ٢٥١٦-٢٥٠؛ ابن عساكر، ج ١، ص ١٧٥-١٧٧.

(٣) انظر ماسياتي في الفصل ٣٣ تحت مآثر اخرى والفصل ٣٨ تحت مواضع الشعر والتربية والعلوم.

(٤) ورد ذكره في ص ٨ من هذا الجزء.

الدولة. هذا وان المدونات العربية لتشهد على الاخلاص الذي كان السوريون يكتفونه لحاكمهم الجديد، بداعي سياسته المستنيرة السمحة^١.

وشرع معاوية بعد ذلك في تنظيم الولاية على اسس ثابتة، فعمد الى العناصر الحام التي تألف منها الجيش وصهرها، ثم سبك منها جيشاً مدرباً من الطبقة الاولى، هو الاول من نوعه في الاسلام. وبذلك ابطل النظام القبلي القديم الذي كان من بقايا عهد الزعامات السلالية. ولم يعترضه اي تدخل من قبل المدينة، لان الخليفة الجديد عثمان (٦٤٤ - ٥٦)، الذي تولى بعد عمر، كان نسبياً له، اذ كان كلاهما من امية، وهي فرع ارستقراطي من فروع قريش. اما محمد فكان ينتسب الى عشيرة اخرى من تلك القبيلة. وقد ابقى معاوية الجيش على قدم الاستعداد، بموالاته الغارات الفصليّة على بلاد الروم.

بناء اول اسطول

ولقد ثبت لمعاوية ان جيشاً مخلصاً جيد التدريب لا يفي وحده بمحاربة منطقة ساحلية. وكان قد ظفر في عكا باحواض بيزنطية لبناء السفن وافية التجهيز^٢، فعمد الى تشغيلها بحيث غدت الاولى من نوعها، بعد دار الصناعة في الاسكندرية. وكانت احراج لبنان آتت غضة، فكانت عند هذه الصناعة بالحشب اللازم. وقد نقل الامويون هذه الاحواض، في ما بعد، الى مدينة صور^٣. وكان الاسطول الاسلامي مجهزاً، ولا شك، بملاحين من الروم السوريين ذوي الخبرة الطويلة في ريادة البحار.

قامت الحملة البحرية الاولى من عكا سنة ٦٤٩ مستهدفة جزيرة قبرس وقد

(١) الطبري، ج ١، ص ٣٤٠٩ - ١٠؛ السمودي، ج ٥، ص ٨٠، ١٠٤؛ قابل العقد، ج ١، ص ٢٠٧.

(٢) البلاذري، ص ١١٧.

(٣) البلاذري، ص ١١٧ - ١٨؛ Guy le Strange, *Palestine under the Moslems* (Boston, 1890), p. 342.

اشبهت مدينة مسددة نحو قلب سورية. وكتب معاوية الى الخليفة عثمان يصف قرب الجزيرة من سورية فذكر «ان قرية من قرى حمص لسمع اهلها نباح كلابهم [اي كلاب الروم] وصياح دجاجهم حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر» على ان عثمان لم يوافق على مشروع الحملة موافقة تامة بل اشترط على معاوية ان يصطحب زوجته ، للتدليل على قرب الجزيرة ، وعلى صحة تقديره لسهولة اخضاعها^٢. وقد جعلت هذه الحملة البحرية من معاوية الاميرال الاول في تاريخ العرب^٣. اما عمر ، الخليفة الذي سبق عثمان ، فقد رفض قطعاً ان يسمح بهذه الحملة البحرية ، كما سبق له ان فعل في ما اتصل بافريقيا . والتوصيات التي ارسل بها الى عمرو بن العاص تشهد على الرعب الذي يخالجه ابن الصحراء من البحر : «لا تجعل بيني وبينك ماء واتزلوا موضعاً متى اردت ان اركب واحلتي واصير اليكم فعلت» .

الاسطول البيزنطي يشرف على التلف

وقد اسفرت الحملة البحرية الاولى في تاريخ الاسلام عن كسب جزيرة قبرس ، واصلتهم الثانية (٦٥٤) الى جزيرة رودس . وبعد ذلك بعامين بيعت بقايا نصبها العظيم - وهو تمثال ابولو الذي بلغ ارتفاعه مئة وعشرين قدماً ، واعتبر احدي عجائب الدنيا السبع في العالم القديم - الى تاجر حطام معدنية ، روى انه استخدم لتفلقها تسع مئة جمل . وفي سنة ٦٥٥ وقع اشتباك بحري بين الاسطول السوري يقوده بسر بن ابي ارطاة ، والاسطول المصري من جهة ، وبين الاسطول الرومي وهو بقيادة الامبراطور قسطنطين الثاني حفيد هرقل من جهة ثانية ، وذلك عند فونكس (فينيكي حديثاً) على ساحل ليكيا . واسفر الصدام عن اول انتصار

(١) الطبري ج ١ ، ص ٢٨٢٠ - ٢١ .

(٢) البلاذري ، ص ١٥٢ - ٥٣ .

(٣) « اميرال » لفظة من اصل عربي « امير البحر » لم تتسرب الى اللغات الاوروبية الا بعد العهد العربي الاسباني .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ؛ قابل ابن الطقطعي - الفخري نشر ديرنبرغ (باريس ١٨٩٤ - ٩٥) ص ١١٤ .

بحري عظيم احرزها المسلمون . ولقد دعيت هذه المعركة في الاخبار العربية بذي (او ذات) الصواري^١، وذلك اما لان المكان كان مكتظاً بأشجار السرو . او تبعاً للعدد العظيم من الصواري التي ارتفعت من السفن الكثيرة التي اشتبكت في القتال . ولقد عمد العرب فيها الى ربط كل سفينة عربية بسفينة رومية ، محولين بذلك المعركة البحرية الى قتالٍ بالسلاح الابيض ، وهو القتال الذي الفوه . فأنزلت هذه الواقعة في القوات البحرية البيزنطية ما انزلته في قواتهم البرية واقعة اليرموك^٢، اي انها ابادتهم . وقد ذكر الطبري^٣ ان مياه البحر غدت مشبعة بالدماء .

على ان معاوية لم يستطع ان يستغل هذه الانتصارات التي احرزها القواد وامراء البحر ، استغلالاً تاماً . اذ كان العالم الاسلامي يتمخض باضطرابات داخلية تنذر بنشوب حرب اهلية . لذلك بدا له من المناسب ، في سنة ٦٥٨ او ٦٥٩ ، ان يعقد هدنة مع قسطنطين الثاني في مقابل دية ، يدفعها اليه سنوياً ، اتى على ذكرها ثيوفانس^٤ وأشار اليها البلاذري اشارة عابرة^٥ . لكن دفع الدية لم يلبث ان توقف ، واستؤنفت من ثم الاعمال العدائية ، ضد العدو الرابض ابدأ في الشمال ، براً وبحراً .

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، نشر شارل توري (ليدن ، ١٩٢٠) ص ١٨٩ - ٩٠ ؛ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٨٦٥ ، ٢٩٢٧ .

(٢) Theophanes, pp. 332, 345-6.

(٣) الطبري ، ج ١ ، ص ٨٦٨ .

(٤) Theophanes, p. 347.

(٥) البلاذري ص ١٥٩ .

الفصل الثاني والسبعون

خلافة الراشدين

شهد الاسلام في ١٦ حزيران ٦٥٦ اول حادثة اغتيال فيها خليفة بيد مسلم^١. والخليفة هو عثمان ابن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين. وانما عرف الخلفاء الاربعة الاول بالراشدين لانهم كانوا جميعاً من اقرباء النبي المقربين وصحبه الملازمين، ولانهم حاولوا ان يسيروا في تدبير امور الدولة سيرته ويأتوا بتوجيهاته وارشاداته. ذلك ان ما فرضته عليهم شخصية محمد وسيرته من الهيبة كان لا يزال عاملاً فعلاً في حياتهم. وقد كانوا جميعهم إلا عثمان من المؤمنين الاولين، وكانت المدينة عاصمتهم.

الخلفاء الراشدون

١	ابو بكر	...	٦٣٢ - ٦٣٤
٢	عمر	...	٦٣٤ - ٦٤٤
٣	عثمان	...	٦٤٤ - ٦٥٦
٤	علي	...	٦٥٦ - ٦٦١

ولم يوص احد من هؤلاء الخلفاء بالخلافة لابنه من بعده، ولا اسس سلالة

(١) المراد بالخليفة : خليفة محمد بكل اعتبار ما عدا النبوة ؛ كان محمد خاتم الانبياء فلا يمكن ان يكون له خليفة . وعليه فالخلافة منصب مدني محض ، واذ لم يكن في الاسلام نظم كهنوتي ولا سلطة كهنوتية امتنع ان يكون على رأسه رجل يقابل البابا . اما الرأي المخالف الخاطي* فلم يلق انتشاراً واسعاً حتى اواخر القرن الثامن عشر . انظر : Hitti, *History of the Arabs*, pp.185-6

مالكة. بل قد ولي كل منهم بالبيعة؛ وهي ان يتقدم زعماء الناس وشيوخ القبائل، ويأخذوا بيد المرشح، فعلاً او رمزاً، دلالة على الولاء.

عهد الراشدين عهد المشيخة

عاش الخلفاء الراشدون في نظام مشيخي بسيط، لكنهم انجزوا الكثير من جليل الاعمال. فأبو بكر، وهو حمو النبي واكبر منه بثلاث سنوات، اخضع الجزيرة العربية، ورد اليها الحياة الهادئة؛ وقد اطلق عليه، بفضل سلامة طويته، لقب الصديق. وكان عمر السابق الى جعل سنة الهجرة (٦٢٢) السنة التي بدأ منها العصر الاسلامي؛ وهو الذي رعى سير الفتوحات في اقسام كبرى من العالم المعروف حينذاك؛ وكان البادي في انشاء ديوان الدولة، وتنظيم حكومات الولايات في المناطق المحتلة. وقد سقط عمر بطعنة من خنجر مسوم سدها اليه مولى نصراني فارسي^٢، ولكن عمر ترك في التاريخ ذكراً حياً رفعه الى مرتبة اعظم رجل في العهد الاسلامي الاول بعد النبي.

كان عثمان عنصراً غريباً في سلسلة متناسقة من الشخصيات. فقد كان من بيت امية وهو فرع ارستقراطي من قريش قاوم الدعوة الى ان سقطت مكة في يد محمد ٦٢٩ - ٦٣٠. وذلك قبل وفاة النبي بعامين. وكان بنو امية حماة الكعبة فكانوا يجنون من حج الناس اليها موارد ذات بال. لذلك كان قبول الدعوة يلحق بهم من الاضرار ما لا يصيب سواهم ممن قبلوها وقد تم في خلافة عثمان جمع القرآن وضبط نصه بما اعطى كلام الله شكلاً ثابتاً لا يقبل التفسير، حافظ عليه حتى الوقت الحاضر. وتحقق في عهده فتح فارس واذربيجان وقسم من ارمينيا. على ان سيرته لم تكن خالية من اسباب اللوم، اذ ولي أخاه بالرضاعة على مصر وكان واحداً من عشرة اشخاص اقصاهم محمد يوم دخل مكة؛ وعين أخاه له من أمه والياً

(١) هذا الديوان الذي نظم دخل الدولة وخرجها نقل بعدئذٍ عن النظام الفارسي كما تدل لفظة ديوان الفارسية بالذات؛ الفخري ص ١١٦؛ الماوردي، ص ٣٤٣ - ٣٤٤؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 172.

(٢) الطبري، ج ١، ص ٢٧٢ - ٧٣؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٣.

على الكوفة . وكان قد اساء الى محمد ؛ واقام ابن عم له^١ اميناً على ديوان الدولة . اما الخليفة نفسه فقد قبل الهدايا من عماله ومن اعوانهم ، وكان منها جارية جميلة ارسلت اليه من البصرة . لذلك وجهت اليه تهم التحيز لاقربائه ، والمحابة في الحكم ، وعمد ثلاثة من الطامعين بالخلافة الى اشاعة السخط بين الناس . وكان هؤلاء الثلاثة من قريش ، وكان في طبيعتهم علي^٢ .

قضية علي

وقد كان لعلي ، من اول الامر ، مشايعون مخلصون ، يعتقدون دينياً انه هو صاحب الحق بالخلافة ، وانه كان ينبغي له هو ان يتولأها ، دون سواه ، بعد محمد سنة ٦٣٢ . فقد ذهب هؤلاء الى ان علياً كان اولى الناس بها لانه ابن عم النبي^٣ لحاء ، وكان الثاني او الثالث بين من آمنوا بالرسالة ، وزوجاً لابنة النبي الوحيدة (فاطمة) التي قدر لها ان تبقى بعده في قيد الحياة ، والداً للحسن والحسين وهم كل من ترك النبي من ذرية . بل قد ذهبوا الى ما هو ابعد من ذلك ، فاعتقدوا ان تولي هذا المنصب ، وهو ارفع منصب في الاسلام ، لا يمكن ان يكون قد ترك رهناً بيمول الناخبين ونزواتهم . وانه لا بد من ان يكون الله ومحمد قد اعدا له ما يلزم ، وان علياً هو الشخص الذي اعداه له . وهذا من شأنه ان يجعل علياً الخليفة الشرعي الوحيد للنبي ، وينزل خلفاءه الآخرين بمنزلة المعتصين . وقد تقرر عند هؤلاء المشايعين ان الولاية بعد علي انما هي لذريته وذلك بحكم الحق الموروث .

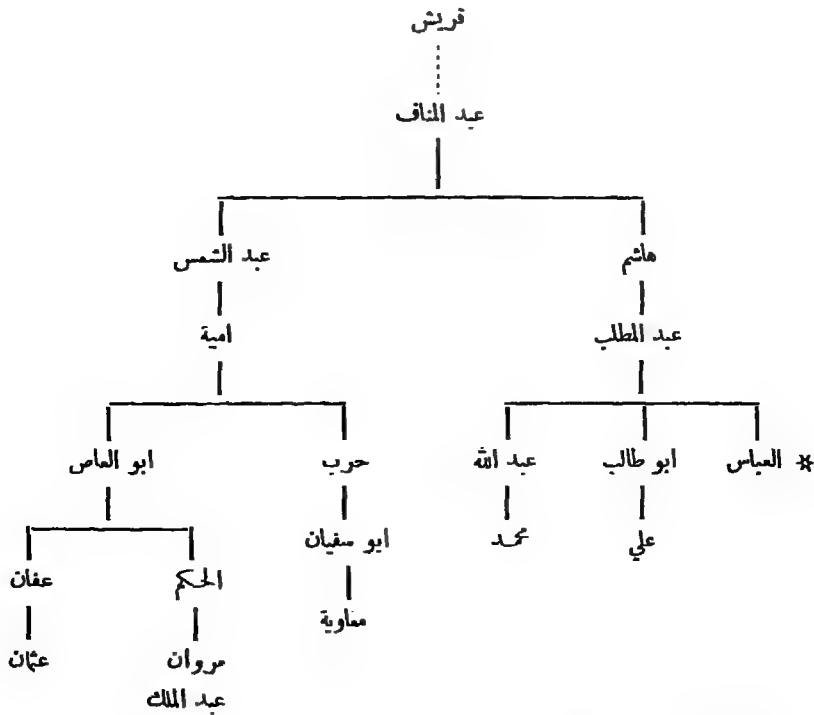
ثم ان العلويين نظموا حزباً قوياً في الكوفة . ومن الكوفة انبعث شرارة

(١) هو مروان بن الحكم ، الذي غدا في ما بعد احد خلفاء الامويين ؛ انظر الجلول الذي سيأتي في الفصل ٣٤ في الهامش .

(٢) اما الآخرون فهما طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وهما من المؤمنين الاولين وقسماء الصحابة ، ومن العشرة المبشرة الذين وعدهم النبي بالجنة .

(٣) الشكل التابع يوضح صلة القرابة التي تجمع بين علي وعثمان ومعاوية ومحمد : (في ذيل الصفحة التالية) .

الفتنة ضد عثمان، ومنها امتدت الى مصر، فسار منها خمس مئة ثائر نحو المدينة في نيسان ٦٥٥. وقد حاصروا الخليفة الشيخ في بيته، وكانت اليد السابقة الى اغتياله يد ابن ابي بكر صديقه وقد هوت عليه فيما كان يقرأ المصحف الذي سبق له ان جعله المصحف الام^١. وبعد مداولة قصيرة ببيع علي بالخلافة.



* الذي ينتسب اليه الخلفاء العباسيون.

(١) هنالك مدن عديدة تدعي شرف الاحتفاظ بهذا المصحف، ودم عثمان يقطع منه الصفحة التي ورد فيها قوله تعالى: ١٣١ - ١٣٣: «اذ قال له ربه اسلم. قال اسلمت لرب العالمين. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب: يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتوا الا وانتم مسلمون. ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون بعدي. قالوا نعبد إلهك وإله اباك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحداً ونحن له مسلمون» وقد قيل لابن يبطوطة اذ زار احد مساجد البصرة سنة ١٣٢٦ ان فيه مصحف عثمان. انظر: تحفة النظائر في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، نشر وترجمة C. Defrémery و B. R. Sanguinett ج ٢ (باريس ١٨٩٤) ص ١٠ - ١١.

خلافة علي

كانت خلافة علي حافلة بالقلقل من اولها الى منتهاها. وكانت مشكلته الاولى: كيف يتخلص من منافسيه الباقين طلحة والزبير، وقد رفضا واتباعهما في الحجاز والعراق ان يعترفوا بولايته. وقد زاد موقف المعارضين قوة انضم عائشة، زوجة النبي الانيرة، الى صفوفهم. وكانت عائشة تضرر لعلي بغضاً دفيناً: ذلك ان علياً اثار حولها ريبة في صباها اذ تخلقت يوماً عن ركاب النبي في بعض اسفاره. فجاء علي الاثر الوحي من الله مؤيداً لها ناطقاً ببراعتها^١. وقد التحمت المعركة في ظاهر البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ ودعيت «يوم الجمل» نسبة للجمل الذي كانت عائشة راكبة عليه. وقد صرع في هذه المعركة منافسا علي كلاهما^٢، واسرت عائشة، وعملت بما يليق بـ «ام المؤمنين». وهكذا انتهت الحرب الاهلية الاولى في الاسلام. واقام علي في الكوفة عاصمته الجديدة وكأنه الخليفة غير المنازع. لكن العهد لم يطل حتى أتت الحرب الاهلية الثانية.

معاوية في الميدان

ولم يحجم عن مبايعة علي الا واحد من الولاة هو معاوية. ومعاوية، وهو والي وربة ونسب عثمان، برز الآن مطالباً بثأر الخليفة القتل. وقد طبع الحادث بالطابع الروائي فاخذ يعرض، في مسجد دمشق، قميص عثمان المبلط بالدم والانامل التي قطعت من يد زوجته نائله فيما كانت تدافع عنه^٣. وهي عربية سورية من بني كلب نظير زوجة معاوية. ولقد كان معاوية حريصاً على اخفاء اغراضه الخاصة، لكنه صرح علياً بامر اوقعه في ورطة وبيلة اذ جعله بين امرين: فإما ان يعاقب القاتلين، او ان يقر ضمناً بالتواطؤ معهم. والاقتصاص من القاتلين كان بما لا

(١) سورة النور، ١١، ١٢.

(٢) الطبري، ج ١، ص ٣٢١٨ وما بعد.

(٣) الفخري، ص ١٢٥، ١٣٧.

يقدم علي عليه، بل ولا يقوى عليه. لكن المسألة في أساسها كانت تتجاوز الاعتبارات الشخصية الى مركز الزعامة في العالم الاسلامي: هل يكون في العراق ام في سورية، وفي مدينة الكوفة ام في مدينة دمشق؟ اما المدينة المنورة فلم تكن في الحسبان. ذلك لان الفتوحات الواسعة كانت قد زحزحت قلب الدولة الى الشمال، واحالت العاصمة السابقة الى مقام فرعي.

الحرب الاهلية الثانية

واخيراً التقى الجيشان في سهل صفين^١: الجيش العراقي بامرة علي، والسوري بامرة معاوية. وبعد مناوشات استمرت بضعة اسابيع نشبت المعركة في ٢٦ تموز سنة ٦٥٧. وبعد ثلاثة ايام من القتال الشديد بات النصر في جانب علي واوشك ان يتم له، واذا بالمصاحف ترفع على أسنة الرماح! وقد اعتبرت هذه البادرة - كائناً ما كان المفهوم منها - بمثابة دعوة للجانبين الى تحكيم القرآن في موضوع النزاع مكان السلاح. وانما كانت حيلة لجأ اليها عمرو بن العاص، قائد رجال معاوية، وهو من عرف بالمكر الشديد والدهاء البالغ. وعلى الاثر توقف القتال، ووافق علي بوحى نقاه وسلامة طويته. على اقتراح معاوية بتحكيم كلام الله حقناً لدماء المسلمين^٢.

التحكيم

عين علي ممثلاً عنه في التحكيم ابا موسى الاشعري، وهو رجل لا يشوب نقاه ريب، الا ان ولاءه لعلي كان موضعاً للشك. وقد تحداه معاوية بعمرو بن العاص، وهو بين دهاء العرب الاربعة في الاسلام^٣، ومنهم معاوية نفسه^٤. فعقد الحكمان،

(١) هو سهل الى الجنوب من الرقة على ضفة الفرات الغربية. الطبري، ج ١ ص ٣٢٥٦ وما بعد؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨ وما بعد؛ الدينوري، الاخبار الطوال، نشر Vladimir Guir-gass (لندن، ١٨٨٨) ص ١٧٨ وما بعد.

(٢) للاطلاع على نص قرار التحكيم راجع الدينوري، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

(٣) المسعودي، ج ٤، ص ٣٩١؛ ابن حجر، الاسابة في تمييز الصحابة، ج ٥ (القاهرة، ١٩٠٧)، ص ٣.

(٤) لمعرفة الاثنين الآخرين انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ الفقرة عن إخضاع العراق.

وفي صحبة كل منهم اربع مئة من الشهود، اجتمعاً عاماً في كانون الثاني سنة ٦٥٩ في اذرح، على طريق القوافل بين دمشق والمدينة.

والخبر الشائع هو ان الحكمين اتفقا ضمناً على خلع الزعيمين، وجعل الامر مجدداً شوري بين المسلمين. ولكن بعد ان وقف ابو موسى، وهو اكبر الاثنين سناً، واعلن انه قد خلع صاحبه، عمد عمرو الى الحدة وايد زميله في خلع علي^١. على ان الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون الى الاعتقاد بان الذي جرى فعلاً هو ان كلا الحكمين خلعا كلا الزعيمين. وهذا مؤداه ان علياً وحده هو الذي خلع اذ لم يكن معاوية خليفة بعد^٢. وواقع الامر ان التحكيم بالذات قد رفع منزلة معاوية الى مقام علي، او حط مقام علي الى مستوى منزلة معاوية، اذ ان قرار الحكمين ازال علياً عن منصب فعلي في حين انه اقصى معاوية عن ادعاء وهي لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به. والحق ان معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة الا بعد مضي سنتين على التحكيم، وكان علي آنذاك قد قضى نحبه.

وفي صباح ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١، بينما كان علي في طريقه الى المسجد في مدينة الكوفة سدد اليه احد الخوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته. والخوارج جماعة من اتباع علي انشقوا عنه واتخذوا شعاراً لهم «لا حكم الا لله^٣»، وانقلبوا عليه وغدوا له اعدائه فعدوا بذلك الفرقة الاولى في الاسلام. على ان حادث الاغتيال هذا قد وقع بدافع شخصي محض^٤. وبقي المكان المنغزل الذي دفن فيه علي بظاهر الكوفة سراً خافياً طيلة العهد الاموي و صدر العصر العباسي،

(١) قابل الفخري، ص ١٢٧ - ١٣٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢٢؛ الطبري، ج ١، ص ٣٣٤٠ - ٣٣٦٠؛ السمودي، ج ٤، ص ٣٩٢ - ٤٠٢.

(٢) H. Lammens, « Etudes sur le règne du Calife Omayyade Mo'awia Ier », (*Mélanges de la faculté orientale*, vol. ii (1907), pp. 17-32; Wellhausen, pp. 57-9; Caetani, vol. x, pp. 6-76.

(٣) الفخري، ص ١٣٠؛ قابل القرآن الكريم: سورة يوسف: ١٧٠.

(٤) المبرد، الكامل، نشر William Wright (لندن، ١٨٦٤) ص ٥٤٨ - ٥٥١.

حتى وقع عليه هارون الرشيد اتفاقاً سنة ١٣٩١. وهذا هو مزار علي او «المشهد» في النجف وهو من اهم مناسك الحج في الاسلام واهمها على الاطلاق لدى الشيعة.

ولقد تبين ان تأثير علي ميتاً كان اشد منه وهو في قيد الحياة . اذ لم يلبث ان غدا في نظر مشايخه امامهم الاكبر وولي الله عليهم . ولئن كان يعوزه الكثير من مقومات الخلق السيامي ، فقد كان غنياً بالمواهب التي تكون ، في نظر العربي ، الانسان الكامل . فقد كان فصيح اللسان ، صائب الرأي ، باسلاً في القتال ، مخلصاً لاصدقائه ، جباراً في نظر خصومه . وقد رفعته الاخبار المروية الى مثال الفتوة الاعلى ، وحف باسمه من الامثال والخطب والحكم والاشعار والنوادر ما جعل منه «سليماً حكيماً» آخر . فسيفه ذو الفقار ، الذي قيل انه كان بيد النبي في معركة بدر المأثورة^٣ قد خلده هذا البيت السائر من الشعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فتى إلا علي

ثم ان معركة «الفتيان» في الاسلام التي نحت فيما بعد نخباً شبيهاً بمنظمات الفروسية في العصور الوسطى اتخذت من علي نموذجاً لها ، وكذلك اعتبرته جماعات عديدة من الدراويش عماداً ومثالاً اعلى . وبقي في نظر الكثير من اتباعه ، على مر العصور ، الامام المعصوم ، وغدا في نظر القلاة منهم تجسيدا للغة الالهية^٤.

(١) للاطلاع على اقدم التفاصيل عن هذا المثلن راجع ابن حوقل ، ص ١٦٣ .

(٢) «المشهد» مكان الشاهد ، والشاهد من شهد ان لا اله الا الله ، لا من سقط شهيداً من اجل حكمة الشهادة . اما اللفظة «مقام» فمنها حرفياً مكان القيام ، لكنها تعني اصطلاحاً ، موضعاً حل فيه احد الاولياء . وكثيراً ما نستعمل احدى اللفظتين مكان الاخرى .

(٣) للاطلاع على اخبار هذه المعركة راجع : Hitti, *History of the Arabs*, pp. 116-17 .

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٢ .

الفصل الثالث والسلاسون

معاوية مؤسس خلافة الأموية

نودي بمعاوية خليفة في ايلياء (القدس) في اوائل سنة ١٦٦٠ ؛ لكنه اختار ان يجعل مدينة دمشق عاصمة لخلافته . فقد كانت القدس اقرب الى البدو والعرب من عاصمة الاراميين القديمة والقاعدة الحديثة للحكومة البيزنطية الاقليمية ، وكانت المدن الساحلية معرضة للهجوم البحري ؛ وكان يحمي المدينة والكوفة الصحراء من الورا .

ازاحة المطالبين بالخلافة من الطريق

وقد كان هم معاوية الاول ان يتخلص من المطالبين بالخلافة ، وان يهدى الاحوال ، ويعمل على تحقيق الاستقرار . فوفق الى ان يعمل مع جماعة من القواد ندر وجود امثالهم بعد ذلك في الاسلام . وكان عمرو بن العاص ، ساعده الايمن قد انتزع مصر (٦٥٨) من سلطة المشايخين لعلي ، فكان كأنما فتح مصر للمرة الثانية . ثم تولاهما لمعاوية^٢ ، واستمر عليها حتى وافاه الاجل سنة ٣٦٣ . اما الحجاز فكان بطبيعة الحال فاتراً في ولائه للخليفة الجديد ؛ ذلك ان مكة والمدينة لم تنسيا ان الامويين تلكأوا في اعتناق الاسلام ، وان اعتناقهم له كان على سبيل المصلحة ، اكثر منه بداعي الاقتناع والايان . لكن مهد الاسلام في هذه الاثناء

(١) في شوال سنة ٤١ هـ على ما ذكره السعدي ، ج ٥ ، ص ١٤ ؛ وسنة ٤٠ هـ على ما في الطبري ، ج ٢ ، ص ٤ ، واليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ وما بعد .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٦٣ ؛ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٤٠١ - ١١ .

لم يكن مبعثاً لقلقل ذات بال . واما العراق فقد عمد فوراً وعلانية الى الوقوف بجانب الحسن الابن الاكبر لعلي من فاطمة . اذ كان الحسن في رأي العراقيين الخلف الشرعي الوحيد لوالده الذي ذهب ضحية للاغتيال . لكن معاوية استطاع ، على اثر حملة صاعقة (٦٦١) ، أن يحصل من منافسه على تخلٍ صريح عن جميع مطالبه (مدعياته) . وكان الحسن على كل حال اميل الى الانقطاع الى الشؤون العائلية منه الى الاضطلاع باعباء الحكم ، فعمد الى التنازل لمعاوية في مقابل عطاء سنوي وافر عين هو مقداره ، ثم تحول الى المدينة ، وعاش فيها حياة رغد ورفاهية . وكان هذا العطاء على مدى الحياة ، وقد اشتمل على خمسة ملايين درهم^١ من بيت مال الكوفة ، وعلى الوارد من احد اقاليم فارس ؛ وتضمن جعلاً سنوياً لاختيه الاصغر الحسين مقداره مليوناً درهم لمدة حياته^٢ . وبعد نحو من ثماني سنوات توفي الحسن في المدينة وله من العمر خمسة واربعون عاماً . وكان الحسن كثير الزواج والطلاق حتى لقب بالطلاق ، فقد تزوج وطلق نحواً من مئة امرأة . وكان في ما يبدو مصدوراً ، لكن من المحتمل ان يكون قد مات مسموماً^٣ ، بفعل مكيدة نسائية . الا ان اتباعه القوا التبعة على معاوية ، واعتبروا الحسن شهيداً ، بل سيد الشهداء .

هدوء موفق في العراق

وجعل معاوية على الكوفة (٦٦١) - وهي يوم ذاك على جانب من المذلة والهياج والضعف - المغيرة ابن شعبة ، من اهل الطائف في الحجاز ؛ وكان والياً على البصرة في خلافة عمر ، فعزله عنها لسوء سيرته^٤ . وقد وصف المغيرة بأنه لو كان

(١) درهم في الفارسية ، دراخه في اليونانية ؛ وهو الوحدة الفضية في تظلم النقد العربي . وكان عادة ١٠/١ او ١٢/١ من الدينار (انظر ص ٢١ من هذا الجزء حاشية ١) لكن قيمته الحقيقية كانت كثيرة الاختلاف .

(٢) الطبري ، ج ١ ، ص ٣ ؛ الدينوري ، ص ٢٣١ ؛ ابن حجر ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(٤) البلاذري ، ص ٢٥٦ ، ٣٤٤ - ٤٥ ؛ ابن الاثير في « اسد الغابة » ، ج ٤ ، (القاهرة ، ١٢٨٦) ، ص ٤٠٧ .

داخل سبعة ابواب ، موحدة دونه ، لاستطاع بدهانه ان يحطم اقفالها . وفي اثناء الفوضى التي عقت اغتيال علي ، زور المغيرة شهادة عن لسان معاوية ، عين فيها نفسه قائداً لموكب الحجاج الى الحجاز . وقد تمكن بوصفه حاكماً ان يضرب الخوارج بالشيعه ، والشيعه بالخوارج ، وان يلاشي مقاومة العلويين ، وبوطد هيبة بني امية في ولايته . فاحرز بذلك مكانة جعلته احد دهاء السياسة الاربعه في الاسلام^١.

وقد تولى العراق بعد المغيرة ربيبه زياد ابن ابيه ، الداهية السياسي الرابع . ومنع ان زياداً كان قد عمل على تأييد العلويين في فارس . فان معاوية استلحقه بصورة سافرة ، زغبة في استغلال مؤهلاته النادرة ، وهو ابن لايه — ابي سفيان من بغي كانت في الطائف^٢ . ولما كان الناس على شيء من الاوتياب في امر ابيه فقد كني بـ « ابن ابيه » . ثم ان ولاية زياد على الكوفة اتسعت حتى ضمت ، فضلاً عن العراق ، بلاد فارس والاقطار العربية التابعة ، فعدا بذلك حاكماً على النصف الشرقي من الامبراطورية الاسلامية . واستطاع زياد — وهو المستلحق بنسب ابي سفيان — بعينه الساهرة على الاحداث في ولايته ، وبسعه المرفه ، وبسيفه الماضي ، ان يحمل القطر التائر على البقاء في الفلك السفياني . اما ما اثاره البدو ، وسائر العرب ، من مشاكل في البصرة والكوفة ، فقد عاجلها بنقل خمسين الفاً منهم الى شرقي فارس^٣ .

موجة الفتوحات الثانية

بعد ان استقرت الاحوال نوعاً في بلاد المسلمين ، سمت بمعاوية همته العجيبة نحو

(١) انظر ما سبق في ص ٤٣٢ .

(٢) ورد ذكر هذا الاستلحاق في المبعودي ، ج ٥ ، ص ٢٠ - ٢٢ ؛ والطبري ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ ؛ وابن عساکر ، ج ٥ ، ص ٤٠٩ - ١٠٠ ع .

(٣) البلاذري ، ص ٤١٠ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ١٥٥ - ٥٦ . وكان قد سبق ذلك عمليات نقل اخرى في الشرق الادنى ، راجع الجزء الاول ص ٢١٣ - ١٤ ، ٢٢٠ .

البلدان المجاورة ، فوجه اليها الحملات برآً وبحراً . وكان هدف الحملة البحرية الامبراطورية البيزنطية^١ . وكان ما تم على يد معاوية من فتوحات يؤلف الموجة الثانية من حركة التوسع الاسلامي ، وقد جاءت بعد فترة حفقت بالفتن الداخلية^٢ . وكان رائد الموجة الاولى ابو بكر الصديق ، وقد بلغت ذروتها في عهد عمر .

وقد جرت حركة التوسع برآً في عهد معاوية في مجريين : احدهما شرقي والآخر غربي . وكانت البصرة ، وهي في عهدة زياد ، القاعدة الاساسية للحملة الشرقية التي استكملت اخضاع خراسان (٦٦٣ - ٧١) ، واجتازت نهر جيحون^٣ ، واجتاحت بخارى في اقاصي تركستان (٦٧٤)^٤ وفتحت من المدن مرو وبلخ وهراة ، وسواها من المدن التي قدر لها ان تصبح في ما بعد من ابرز مراكز العلم في الاسلام . وقد عادت الجيوش الى البصرة بكثير من الاسلاب التي غنمتها من قبائل الترك الجائلة في ما وراء جيحون . هكذا حصل اول اتصال بين العرب والترك - ذلك الاتصال الذي كتب له ان يلعب دوراً هاماً في تاريخ الاسلام بعد حين .

اما حركة التوسع غرباً ، فكان قائدها عقبة بن نافع ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص ، فاتح مصر وحاكمها^٥ . ففي سنة ٦٦٣ عين عمرو ابن خالته على إفريقيا (افريقيا حديثاً)^٦ ، فانشأ نافع هناك مدينة القيروان (٦٧٠)^٧ ، وجعلها قاعدة

(١) سيماليج هذا الموضوع في الفصل التالي .

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٠ - ٣١ من هذا الجزء .

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ في الفقرة عن اخضاع ما وراء النهر .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ البلاذري ، ص ٤٠٩ - ١٠ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٦ وما يتبع .

(٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٣ ، ص ١٠ - ١١ .

(٦) إفريقيا الصغرى هي تونس الحديثة والاسم معروف عن الاصل اللاتيني « إفريقيا » ، اخذه العرب عن الرومان ، واطلقوه على القسم الشرقي من بلاد البربر ، واطلقوا لفظة « المغرب » على القسم الغربي فقط .

(٧) « القيروان » : من لفظة فارسية الاصل هي « كادوان » . راجع بشأن حملة عقبة : ابن عبد الحكم ، ص ١٧١ ، ١٩٤ - ٩٥ .

حربية في وجه البربر . وقد بنى جانباً من هذا المعسكر بحجارة من خرائب قرطاجة في الجوار القريب ، فعدت القيروان الودينة الاسلامية لقرطاجة القديمة . وباعتناق البربر للاسلام دفعوا الى الجيش العربي ، واستخدموا في الحملات التي واصلت الزحف في شمالي افريقيا ، وعملت في ما بعد على فتح اسبانيا ؛ وبمساعدهم استطاع نافع ان يخرج البيزنطيين من مناطق كثيرة من ساحل افريقيا الشمالي ولا يزال المكان الذي استشهد فيه نافع (٦٨٣) معروفاً بـ « سيدي عقبة » ، وهو يبعد بضعة اميال الى الجنوب الشرقي من بسكرة في الجزائر^١ . وقد غدا مدفنه مزاراً قومياً ومع ان زحف عقبة على شمالي افريقيا كان عملاً عسكرياً باهراً ، فانه كان — مثل نظيره في اواسط آسيا — قليل القناء ، اذ لم يعقبه احتلال . لذلك كان لا بد من ان تعاد كرة الفتح ثانية هنا وفي ما وراء النهر^٢ .

مآثر اخرى لمعاوية

ثم ان هذه الحملات التي قام بها القواد ، على ضخامتها ، لم تشغلهم عن الشؤون المدنية . فقد تركت الادارة المالية في الدولة بايدي الخبراء الاكفاء من آل سرجون ، أسلاف القديس يوحنا^٣ . وغدا دخل بيت المال بحيث استطاع معاوية ان يضاعف اعطيات الجنود ، ويعزز الحصون القائمة على الحدود ، في وجه اعدائه الشماليين ، وان يحقق الكثير من مشاريع الزراعة والري في الحجاز ، وهو اجذب الاقاليم تربة ، وان يحمل العلويين والهاشميين على السكون عن طريق التخصصات المالية . وكان من الهاشميين العباسيون ، وهم اقرب الى النبي من بني امية ؛ وكان النبي نفسه اول من شرع مبدأ « تأليف القلوب »^٤ . وكان من مآثر معاوية ايضاً ان انشأ في الدولة الدواوين ، ووضع الاسس لمصلحة البريد^٥ .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل السادس والثلاثين عن اخضاع ما وراء النهر .

(٣) راجع ص ٢٣ و ٢٤ من هذا الجزء .

(٤) راجع القرآن ٩ : ٦٠ .

(٥) الفخري ، ص ١٤٨ ، قابل بما سيحي في الفصل السادس والثلاثين .

ولقد كان معاوية ، في شؤون الحرب والسلم ، من رعاياه السوريين ، مناصرون شديداً لاختلاص ، من المواطنين الاصليين ومن العرب الوافدين على السواء . وكان ستواد العرب السوريين من اصل يمني لا حجازي ، وكانوا — كما مر معنا — قد سبق لهم ان تنصروا . وكانت منهم ميسون زوجة معاوية ؛ قيل انه طلقها اذ رويت لها ابيات عبرت فيها عن شديد خيبتها الى الصحراء ، وأيثارها لزوج من طراز آخر ، منها قولها :

ليت تخفق الارياح فيه احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
واكل كسيرة في كسريتي احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل وادٍ احب الي من نقر الدفوف^١

عين معاوية طيبه المسيحي ، ابن أثال ، عاملاً على ولاية حمص . وهو تعين منقطع النظر لمسيحي في التاريخ الاسلامي^٢ . وكان شاعر البلاط في عهده الاخطل^٣ من بني تغلب ، وتغلب قبيلة مسيحية . وكان الموارنة واليعاقبة يرفعون اليه خصوماتهم الدينية ليقتضي فيها بينهم^٤ وفي الرها عمل مراراً على ترميم كنيسة مسيحية هدمها الزلزال^٥ . يمثل هذه السياسة السمحة والشهامة الفاتحة ، استطاع معاوية ان يمتلك قلوب السوريين ، وان يوطد مركز سورية في الامبراطورية الاسلامية

ولعل ابرز مزايا معاوية ما وصفه به مؤرخوه من الحلم^٦ — تلك اللبقة السياسية

(١) أبو الفداء ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ؛ يعتبر ولموزن هذا الخبر ملفقاً ، انظر : Wellhausen, p. 85 .

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٨ في الفقرة عن الشعر .

(٤) هذا اول ذكر ورد للموارنة في تاريخ العرب ؛ انظر : Wellhausen, p. 84 ; Th. Nöl-deke, Z. D. M. G., vol. xxix (1877), pp. 82-92 .

(٥) Theophanes, p. 356 .

(٦) الفخري ، ص ١٤٥ ؛ العقد ، ج ٢ ص ٣٠٤ ؛ المودي ، ج ٥ ، ص ٤٠ ؛ Lammens in Mélanges, vol. i, pp. 66-108 .

التي مكنته من ان يقوم دائماً بالعمل المناسب في الوقت المناسب . وقد عرقف هو هذه السياسة الفائقة بقوله : « لا اضع سني في حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي في حيث يكفيني لساني ؛ ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ؛ اذا مدوها خليتها ، واذا خلوها مدحتها » . وقد تجلت لبقته كذلك في الكتاب الذي ارسله الى الحسن يسأله فيه ان يتنازل له عن الخلافة ، قال : « اما بعد ، فانت اولى بهذا الامر مني لقربتك ، ولو علمت انك اضبط له واحوط على حريم هذه الامة واكيد لبابعتك ، فسل ما شئت » . وجعل مع الرسالة ورقة بيضاء مبهورة بتوقيعه^١ . وبفضل مزية الحكم كانت صلاته الشخصية بمعاصريه صريحة وودية ، فكان من شأن خصومه ان يدعوه اخا التغيل ، ويعلنوا ولائهم لعلي حتى في حضوره . وربما عمد اصدقاءه الى التعريض بعظم ردفه ، والى مكابדתه باسمه الذي معناه « كلبة عاوية » وبلقب اسرته « امية » وهو تصغير امة ، والامة : الجارية .

تعيين ولي العهد

وفي سنة ٣٦٧٩ عين معاوية ابنه يزيد خلفاً له ، وذلك قبل وفاته بستة اشهر (نيسان ٦٨٠) . وهو عمل لم يسبق له نظير في الاسلام . وكان يزيد قد نشأ في كنف امه في البادية ، لاسيا بادية تدمر ، حيث كانت قبيلتها المسيحية تنتقل^٢ . وكان وهو في العاصمة ، يخالط المسيحيين ايضاً ، وكان بين رفاقه المفضلين القديس يوحنا ، وهو بعد علماني ؛ وكان منهم الاخطل شاعر البلاط . وقد مارس وهو فتى في البادية الصيد وركوب الخيل ، وتمرس بالحياة الحشنة ؛ اما في المدينة فقد انكفأ الى معايرة الخمرة ونظم الشعر . وقد غدت البادية منذ ذلك العهد فماً بعد « مدرسة

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ؛ المقد ، ج ، ص ١٠ .

(٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٣) السمودي ، ج ٥ ، ص ٦٩ - ٧٣ ؛ قابل بالطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٤ - ٧٧ ؛ وابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤١٦ - ١٧ ، حيث قدم هذا التاريخ ثلاث سنوات .

(٤) Lammens in *Mélanges*, vol. iii pp. 189-229 .

في الخلاء» لانجال الامراء المنتهين الى الاسرة الحاكمة ، يلتصقون فيها الاستجمام ، ويستقيم لسانهم باللهجة العربية الخالصة^١، الخالية من رطانة الاراميين، وينجسون الى ذلك ، من الاوبئة التي كانت تحتاج المدن بين الحين والحين . ولعل تعيين معاوية لابنه يزيد ولياً للعهد ، كان قد تردد في خاطره زمنياً ما . يستنتج هذا من ارساله له سنة ٦٦٩ في الحملة البحرية على القسطنطينية^٢، وغرضه من ذلك ان يزِيل من اذهان رجال الدين ما قد يكون خامرهما من عدم جدارته ونقص مؤهلاته . اما الآن ، وقد يقن من تأييد العاصمة له ، فقد استقدم الوفود من الامصار ، واخذ منهم البيعة لابنه الاثير . واما وفود العراق غير المواليين ، فقد اخذهم بالتمليق او الاكراه او الرشوة^٣.

وكان هذا الحدث البارز فاتحة مرحلة جديدة في التاريخ الاسلامي . اذ ادخل على نظام ولاية العهد مبدأ الوراثة^٤، فقد امن بعد النظام الذي جرت عليه اهم السلالات الاسلامية الحاكمة . وصار سابقة مكنت الخليفة الحاكم من ان يعين ، من ابنائه او انسابه ، من يتوسم فيه الجدارة ، فيحقق له البيعة مقدماً . وكان من شأن هذا التعيين ان يعمل على تعزيز الاستمرار والاستقرار في الاحوال ، وان يثبط اطماع المطالبين بالسيادة ، والمنافسين في الحكم .

معاوية الملك النموذجي

ومع ان الذي اداه معاوية لقضية العرب والاسلام كان منقطع النظر ، فانه لم يلق ، ولا قواده « الطغاة » ، عطفاً من مؤرخي العرب المسلمين . وليس تعليل ذلك بالامر العسير ؛ فان معظم هؤلاء المؤرخين كانوا من الشيعة ، او من علماء

(١) المقد، ج ١، ص ٢٩٣، س ٣٠ .

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٤ الفقرة « بلوغ القسطنطينية » .

(٣) المقد، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٩ ؛ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٣٢٧ - ٢٨ .

(٤) بشأن ولاية العهد في خلافة الراشدين راجع ما سبق، ص ٢٧ من هذا الجزء .

العراق وفارس ، او من اعلام المدينة ^١ . وكانوا ، من حيث هم مؤرخون ، يمثلون وجهة نظر الفقهاء المحافظين الذين انكروا على معاوية تحويل الخلافة (الحكم الديني) الى ملك (حكم مدني) ^٢ . واعتبروه اول ملك في الاسلام . وقد كان العرب يكرهون هذا اللقب ، ويكادون لا يطلقونه الا على سلاطين الاعاجم . وقد اخذوا عليه ايضاً انه احدث الكثير من البدع المنكرة ، منها المقصورة ^٣ . وهي خاوة في داخل المسجد للخليفة لا يصلي فيها سواه . ومنها القاء خطبة الجمعة وهو جالس ^٤ ، واتخاذ سرير الملك ^٥ . على ان الحق الذي لا مربة فيه هو ان معاوية كان المثال المحتذى لمن تبعه من الخلفاء في علو الهمة ، ومدى التسامح ، وفرط الكياسة والدهاء . ومع ان الكثيرين منهم حاولوا ان يتأثروا خطأه ^٦ فان القليلين منهم قاربوا النجاح في ذلك .

(١) ان واحداً فقط من ممثلي علماء الشام بقي ذكره حياً هو ابن عساكر الدمشقي (١١٠٥ - ١١٧٦) .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة (القاهرة) ، ص ١٦٩ وما بعد ؛ يعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .

(٣) يعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ، الدينوري ، ص ٢٢٩ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، ص ٢٠ ؛ المبرد ، ص ٥٥٢ ؛ ولقد انشئت المقصورة من اجل المحافظة على حياة الخليفة وذلك بعد المحاولة الفاشلة التي استهدفت الخليفة وهو يؤدي فريضة الصلاة .

(٤) كان عثر معاوية في ذلك انه اصبح في سنه الاخيرة بديناً جداً كبير البطن .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٧ ؛ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٦ .

(٦) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٧٨ ، ولا يزال مدفن معاوية في مقبرة الباب الصغير في دمشق يزار الى الآن .

الفصل الرابع والستون

الصّلاتُ العِصْديّةُ بينَ العربِ والرومِ

الحدود السوربة

ان الحدود الفاصلة بين العرب والروم كانت في غضون العهد الاموي ، وفي العهد العباسي حتى منتصف القرن الثاني عشر ، السلسلتين المتقابلتين لجبال طورس . ولما كانت الدولتان العدوتان وجهاً لوجه ، على جانبي هذا الخط ، فقد سعت كل منهما في اول الامر ان تقصي الاخرى عنها بتحويل البقعة الفاصلة بينهما الى ارض مهجورة ؛ وكان لمعاوية فضل كبير في خلق هذه المنطقة الحرام^١ . الا ان بعض الحلفاء الامويين المتأخرين اتبعوا سياسة مغايرة ، كانت تهدف الى احراز موطئ قدم هنالك ، عن طريق ترميم بعض المدن ، وتحويلها الى حصون ، وبناء حصون جديدة . وهكذا ضرب الامويون نطاقاً من التحصينات امتدت من طرسوس في كيليكيا حتى ملطية ، في اتجاه الفرات الاعلى ، مشتملاً على اذنه والمصيصة ومرعش . وكانت هذه المراكز مواقع استراتيجية اذ قامت عند تقاطع الطرق العسكرية ، او على مداخل الممرات الجبلية . وقد دعيّت بحق « العواصم » ، واطلقت هذه التسمية بنوع اخص على المعاقل الداخلية الجنوبية ، في مقابل الحصون الخارجية الشمالية التي عرفت بـ « الثغور »^٢ . وقد امتدت منطقة الثغور

(١) البلاذري ، ص ١٦٤ - ٦٥ ؛ ورد اسمها « الضواحي » في الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣١٧ ، وفي ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٢) التمر ، وفي الاصل : التلة والشق ، قابل Guy Le Strange, *The Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, 1930), p, 128.

عبر التخوم السورية والعراقية ، فعرف ما يحمي منها الارض السورية بالثغور الشامية ، وما يحمي العراق بالثغور الجزيرية^١.

ولقد تقلصت منطقة الثغور في عهد العباسيين ، ففدا امتدادها من اولاس على البحر المتوسط عبر جبال طورس حتى سيمساط على الفرات^٢. ولما كانت طورس قائمة على المدخل الذي يجتاز جبال طورس ، وهو المعروف بابواب كيليكيا ، فقد غدت قاعدة هامة للحملة الحربية الكبرى على بلاد الروم ، وحشد فيها جيش وافر العدد من الفرسان والمشاة. وكان هنالك يمر آخر عبر جبال طرسوس ، ليس مطروقا كالاول ، يمتد من مرعش الى أبُلُستين^٣ ، ويعرف بدرب الحدث . وجميع هذه الحصون قد انتقلت مراراً وتكراراً من العرب الى الروم ، ومن الروم الى العرب ، اذ كانت الحرب بين الجانبين سجّالاً ، والنصر مبدأً وجزراً . ولقد قاتل العرب في المهديين الاموي والعباسي ، عن كل شبر من هذه الارض ، قتالاً ضارياً ، فكانت هذه الارض بحق « ارضاً حرماً » . ولعلها قد ارتوت من دماء القتلى اكثر من اية بقعة اخرى في آسيا .

جرت عادة العرب في خلافة معاوية وعبد الملك ، وسواهما من الخلفاء ، في كل عام ، على القيام بحملتين على بلاد الروم : حملة كبرى في الصيف (الصائفة) . وحملة ثانية ، على نطاق اصغر ، في غضون الشتاء (الثانية)^٤ . وكان الغرض منها احراز الغنائم ، كما كان غرض البدو من غزواتهم . لكن الاماني ربما امتدت بعيداً بحيث راودها الاستيلاء على بيزنطية جملة . على ان القسطنطينية كانت من طرسوس على نحو ٤٥٠ ميلاً خطأ مستقيماً ، ولم يستطع العرب في وقت من الاوقات ان يحرزوا

(١) البلاذري ، ص ١٨٣ وما يتبع ، وص ١٦٣ وما يتبع .

(٢) الاصطخري ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ قابل : Le Strange, p. 133 وقد كان اسمها البيزنطي Ablastha ، واليوناني Arabissus ، والعربي المتأخر « البستان » .

(٤) البلاذري ، ص ١٦٣ ، ص ١ .

مركزاً ثابتاً لهم في آسية الصغرى . فقد وجهوا جل جهودهم العسكرية نحو الطريق الاسهل ، وسيروا حملاتهم شرقاً وغرباً ، حتى لكأن الطبيعة قد اقامت جبال طورس لتكون على الدوام حداً فاصلاً بين البلدين . ثم ان المناخ في اناطوليا كان بالغ القساوة بالنسبة الى ابناء الصحراء . لقد تجمدت اللغة العربية على منحدرات طورس الجنوبية ، ولم يقدر لها ان تغدو لسان بلد من بلدان آسية الصغرى ؛ ذلك ان سكان آسية الصغرى قد كانوا منذ اقدم العصور - عصور الحثيين - من غير العرق السامي .

بلوغ القسطنطينية

ولقد بلغت هذه الغزوات المتتابة في آسية الصغرى آخر الامر الى العاصمة وكان ذلك في سنة ٦٦٨م ، بعد ست وثلاثين سنة فقط من وفاة الرسول . وكانت تلك المرة الاولى التي وقعت فيها انظار المقاتلين العرب على المدينة العاتية ، القائمة على خليج البوسفور . وكان قائد هذه الحملة فضالة بن عبيد الانصاري^٢ ، وقد مضى فصل الشتاء في خليفيدونه (ضاحية القسطنطينية الآسيوية) . فقاسى جنوده كثيراً من قلة المؤن ، ومن داء الجدري وسواه من الامراض^٣ . وفي ربيع سنة ٦٦٩ ارسل معاوية ابنه المتبذل يزيد الى هذه الحملة بمدد ، على غير رغبة صادقة منه^٤ ، فعمل يزيد وفضالة على محاصرة القسطنطينية . وضربا نطقاً حول سورها المرتفع

(١) ابن الاثير، ج ٣، ٣٨١؛ الطبري، ج ٢، ص ٨٦، قابل ص ٢٧، حيث ورد ذكر هجوم سابق على القسطنطينية قاده يسر بن ابى ارطاة .

(٢) من الانصار وهم في الاصل مؤمنو المدينة الذين استقبلوا النبي واعالوه عقيب هجرته من مكة سنة ٦٢٢ .

(٣) الاغانى، ج ١٦، ص ٣٣؛ النوري، نهاية الارب في فنون العرب (القاهرة ١٩٢٥) ج ٤، ص ٩١ .

(٤) Lammens in *Mélanges*, vol. iii, pp. 306-12; J. Wellhausen, « Die Kämpfe der Araber mit den Römern in der Zeit der Umayyiden » *Nachrichten von der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen, philologisch-historische Klasse* (Göttingen, 1902) pp. 423 seq.

المثلث . ومع ان الاسطول قد ساعد ولا شك في تضييق الحصار ، فانهم اضطروا الى رفع الحصار في ذلك الصيف ، اذ تسنى لبيزنطية ان تظهر بامبراطور جديد ذي حزم وعزم هو قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥).

وفي الروايات الاسطورية لهذا الحصار ان يزيد ابدى من الشجاعة وشدة البأس ما استحق به ان يلقب بـ «فتى العرب» . وقد ورد في الاغاني^١ ان هذه الجولات كان بعضها للروم على العرب وبعضها للعرب على الروم ، وانه كان كلما لاح النصر في جانب علت اصوات التهليل والابتهاج من خيمة فيه ، اذ كانت احدى الحيمتين لابنة ملك الروم ، والاخرى لابنة جيلة بن الاهيم^٢ الملك النسطاسي السابق ، وان الحمية ثارت في صدر يزيد فاندفع آملاً ان يظهر بالاميرة الفسائية . والحق ان بطل هذه الاساطير انما هو ابو ايوب الانصاري ، لا يزيد بن معاوية ، وابو ايوب هذا كان في ما سبق يحمل راية النبي في المعارك . وهو الذي استقبل النبي في بيته على اثر هجرته الى المدينة^٣ . والاعبار المنقولة تؤكد انه اصيب في اثناء الحصار بزحار ذهب بحياته ، وان قبره المزعوم خارج اسوار المدينة لم يلبث ان غداً متراً لنصارى الروم ، يقصدونه متى اصابهم جفاف ، لاعتقادهم بان الابتهاج فيه الى الله يستنزل المطر ويحيي بالري^٤ . وقيل ان الاتراك العثمانيين عندما حاصروا القسطنطينية ، بعد ذلك بزمان ، عثروا على هذا القبر ، اذ هدتهم اليه اشعة عجيبة ، بما يذكرنا بقصة كشف الصليبيين الاول «للحربة المقدسة» في انطاكية^٥ . وقد اقيم عنده مسجد ، فغدا رجل المدينة ولياً لدى ثلاث امم : العرب والروم والترك .

الحصار الثاني لمدينة القسطنطينية

لقد امتدت يد معاوية القوية عبر بلاد الروم مرتين الى داخل العاصمة

(١) الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .

(٢) راجع الجزء الاول ص ٤٥٠ .

(٣) البلاذري ، ص ٥ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٣٨٢ .

(٥) انظن . ما سيأتي في الفصل ٤٥ في الفقرة عن انطاكية - الالة الثانية .

بالذات . وجاءت المرة الثانية بعد الاولى بخمس سنوات . وعرفت بحرب السنوات السبع (٦٧٤ - ٦٨٠) . اما المعارك البحرية بين الاسطولين فقد جرى معظمها في مضيق البوسفور وبحر مرمرة . وكان مما اطل في امد هذه الاعمال الحربية احتلال العرب لشبه جزيرة بارزة من الشاطئ الاسيوي ، داخله في بحر مرمرة ، دعاها الروم سيزيكس^١ ، وسماها العرب « جزيرة ارواد » وقد جعلها العرب مقراً لجيشهم الغازي ، يأوون اليها في الشتاء ، وينطلقون منها على الروم في الربيع والصيف . على ان اخبار هذه المعارك في المدونات العربية والبيزنطية متضاربة . وهي بذاتها شديدة التشويش والاضطراب . ولقد عزي الفضل في نجاة المدينة من يد العرب الى استخدام النار اليونانية . وهي اختراع جديد لمزيج شديد الاشتعال يقتدح فوق الماء وتحت على السواء . قيل اكتشفه لاجي^٢ دمشق اسمه كالينيكوس ؟ وكانت هذه اول معركة استخدم فيها هذا « السلاح السري » . وقد كتم الروم قاعدة تركيب هذه المادة عدة قرون . ثم تسنى للعرب ان يعرفوها لكنها ضاعت من بعدهم الى اليوم . ولقد اسهبت الاخبار اليونانية في وصف الاضرار التي ازلتها هذه النار في سفن العرب ؛ وفيها ان السفن التي سلت من النار تحطمت في عودتها الى الشام^٣ عام ٦٧٩

والى هذه الحقبة ترجع حملات الاسطول العربي على عدد من جزر بحر ايجه ، ومياه المتوسط الشرقي . فعزيرة قبرس كانت قد وقعت في يدهم قبلاً ، وكانوا قد غزوا شواطئ رودس أولاً سنة ٦٥٤^٤ . ثم احتلوها حتى سنة ٦٧٢^٥ . وبعد عامين جرى احتلال اقريطش على ذلك النحو . اما صقلية التي قدر لها ، في ما بعد ، ان تغدو ولاية زاهرة تابعة للدولة الاغلبية التي اجتاحتها من الشاطئ الافريقي ، فقد

(١) Theophanes, pp. 353-4 : الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤١٣ ؛ البلاذري ، ص ٢٣٦ .

(٢) Theophanes, pp. 353 seq.

(٣) انظر ما سبق ، ص ٥٢ من هذا الجزء .

(٤) البلاذري ، ص ٢٣٦ ؛ قابل : الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

بلغها اسطول معاوية سنة ٦٦٤ ، ووالى عليها هجمات كثيرة^١. وفي عهد سليمان بن عبد الملك نزل العرب في رودس ثانية ، واحتلوها حتى (٧١٧ - ١٨).

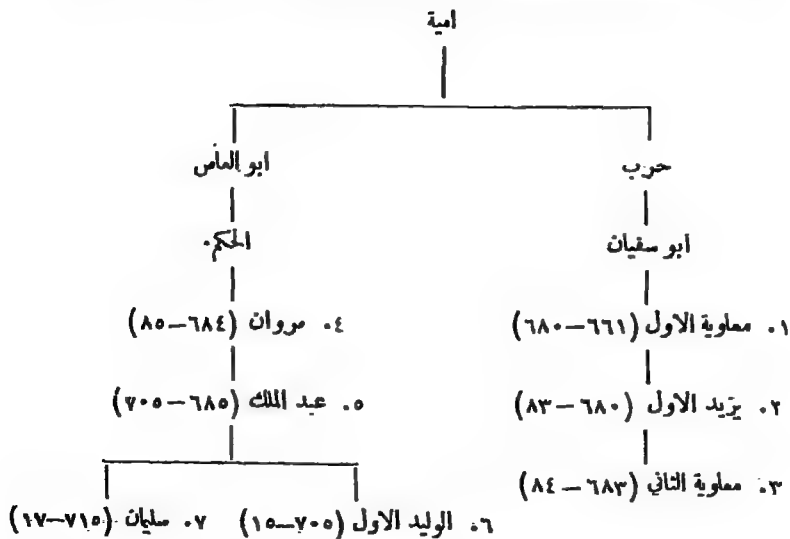
المهجوم الاموي الاخير على القسطنطينية

وفي السنوات الخمس والثلاثين التي عقت وفاة معاوية، ساد العلاقات العدائية بين العرب والروم شيء من السكون. فان العهد القصير الذي تولى فيه ابنه يزيد (٦٨٠-٨٣) حفل بالفتن الاهلية^٢؛ ولم يتجاوز عهد حفيده معاوية الثاني ثلاثة اشهر. وكان معاوية الثاني هذا فتى ضعيفاً سقيم الصحة . وكان والده يزيد غير خليق بتولي اعباء الحكم من بعد والده معاوية . على ان الحملات ضد الروم لم تستأنف حتى كان عهد سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ١٧)، وهو احد افراد السلالة المروانية من بيت امية^٣. وفي حديث شائع ان الخليفة الذي يقدّر له ان يفتح القسطنطينية ينبغي ان يحمل

(١) البلاذري ، ص ٢٣٥ .

(٢) انظر الفصل ٣٥ من اول مأساة الحسين حتى ولاية الحجاج .

(٣) تتجلى في الشكل التالي الصلة بين الفرع السيفاني والفرع المرواني من الاسرة الاموية .



اسم النبي . ولما كان اسم هذا الخليفة سليمان ، وكان العرب يعتبرون سليمان الحكيم نبياً ، فقد اعتقد سليمان بن عبد الملك انه هو المقصود بالحديث . فحالما ولي الخلافة ، واصل ارسال المعدات والامداد التي كان اخوه الأكبر الوليد قد بدأها . وكان اخ آخر له ، هو مسلمة ، قد قاد حملة في اواخر عام ٧١٥ عبر بها آسية الصغرى ، ظاهرتها في الوقت نفسه حملة بحرية ، ولم يتهأ لاحدهما ان تحرز شيئاً من النصر . فبينما كان الاسطول عند كيليكيا ، في طريقه الى القسطنطينية ، نزل ملاحون بيزنطيون على الساحل السوري ، واحرقوا مدينة اللاذقية . وفي فرجيا تحطت الحملة العربية مدينة عمورية (اموريون ، اسار قلعة حالياً) بعد حصار غير مجد ، لكنهم ظفروا في مسيرهم غرباً باحتلال يرغاموم وساردس . وتمكنوا أخيراً من اجتياز الدردنيل عند ابيدوس . وفي ٢٥ آب ٧١٦ حاصروا القسطنطينية من ناحية البر ، وتيسر لهم بعد اسبوعين ان يلقوا عليها الحصار من جهة البحر . فرسا الاسطول العربي بمحاذاة اسوار المدينة على طول شاطئ مرمرة والبوسفور . واقل المدخل المؤدي الى « القرن الذهبي » بسلسلة كانت الحاجز الاول من نوعه في التاريخ .

كان هذا الهجوم على عاصمة الروم اشد هجوم قام به العرب عليها ، واوفر الحملات حظاً من عناية المؤرخين في تدوين اخبارها فقد وصل الى المحاصرين امدادات من الاسطول المصري . واستخدموا ضد الروم النفط وكثيراً من ادوات الحصار الثقيلة^١ . لكن المدينة صمدت بفضل دفاع الامبراطور ليون^٢ الايصوري (٧١٧ - ٧٤١) . وقد كان هذا في اول امره جندياً من اصل سوري وضع ، ولد في مرعش ؛ وكان ، في ما قيل ، مولى للخليفة ، بجيد العربية واليونانية^٣ . وقد اشتد الحصار فغدا اهل المدينة في ضيق شديد ، وطال الامر بالمحاصرين ، واشتد ما قاسوه من النار اليونانية ، وقلة المؤن ، وغارات البلغار^٤ ؛ وزاد في شقاؤهم انتشار وباء الطاعون ،

(١) العيون والحداثق ، نشر دي غويه (لندن ، ١٨٧١) القسم الثالث ص ٢٤ .

(٢) في الاصول العربية : اليون ؛ الطبري ، ج ٢ ص ١٣١٥ .

(٣) العيون ، القسم الثالث ، ص ٢٥ .

(٤) راجع Theophanes, pp. 386-99 ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٧ - ١٩ .

وتفارق قساوة الشتاء. لكن مسلمة صمد بعناد، ولم يفتّ في عزمه شيء من هذه المشقات، حتى ولا موت أخيه الخليفة سليمان. لكنه اضطر الى القفول عملاً بالامر الذي صدر اليه من الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٢٠)، فانسحب الجيش على الاثر في حالة يرثى لها. اما الاسطول - او ما بقي منه - فقد حطمته، في عودته، عاصفة عاتية، ولم يصل منه الى الشاطئ السوري - اذا صحت ارقام ثيوفانس - الا خمس سفن من اصل الف وثلاثمائة؛ وكان هذا آخر العهد بالاسطول العربي. وقد ارتفعت اصوات التهليل في اوربا، واعتبر المؤسس السوري للأسرة الايصرية المحلص الذي انقذ اوربا المسيحية من حكم العرب المسلمين.

ولم يبلغ مدينة القسطنطينية بعد ذلك فاتح عربي الا مرة واحدة. غير ان ذلك لم يكن على يد الامويين. كان قائد هذه الحملة هارون الرشيد العباسي، وذلك سنة ١٧٨٢، عندما كان لا يزال ولياً للعهد. فقد رابطة جيوشه في سكوتاري (كريسبوليس)، وفرضت الجزية على الامبراطورة ارين^٢. ولم تشهد «مدينة قسطنطين» احداً من غزاة المسلمين عند ابوابها الا بعد ذلك بنحو من سبعة قرون عندما ظهر عنصر جديد، من عرق تركي مغولي، خرج من اواسط آسيا، واعتنق دين العرب، وغدا رافع لوائه في العالم.

ومع ان الحملة الكبيرة التي تولاهها مسلمة كانت حملة فاشلة، فقد المهبت خيال الاخباريين المسلمين، وخلقت وراءها الكثير من الحكايات الاسطورية. فمسلمة وبما بنى مسجداً في ابيدوس^٣، حيث رابطة جيشه؛ ولعله احدث عين ماء هناك عرف

(١) البلاذري، ص ١٦٨.

(٢) الطبري، ج ٣، ص ٥٠٣ - ٥؛ ابن الاثير، ج ٦، ص ٤٤ - ٥.

(٣) في النص العربي «ابدوس» ورد محرفاً الى «الدوس» في ياقوت، ج ١، ص ٣٧٤، وفي البلدان لابن الفقيه نشر دي غويه (ليند، ١٨٨٥) ص ١٠٤، س ١؛ والى «اندلس» في السعدي، ج ٢، ص ٣١٧ - قابل المسالك والممالك لابن خرداذبة، نشر دي غويه (ليند، ١٨٨٩)، ص ١٠٤.

في ما بعد باسمه ؛ اما ان يكون قد بنى مسجداً في القسطنطينية^١، وفرض على الروم بناء بيت للاسرى العرب في جوار القصر الملكي، ودخل كنيسة القديسة صوفيا على ظهر فرسه، فمحض اختلاق. فلقد اورد المقدسي، العالم الجغرافي السوري^٢ في مؤلفه الذي وضعه سنة ٩٨٥ معتزاً « ان مسلمة بن عبد الملك، لما غزا بلد الروم، ودخل هذا المصر، شرط على كلب الروم بناء داراً بازاء قصره في الميدان، ينزلها وجوه الاشراف اذا اسروا». وقد ورد ذكر عبد الله البطل، قائد حرس مسلمة، بعد ذكر سيده في المجد الاسطوري. وفاز بلقب بطل الاسلام. فبعد ان سقط في معركة، وقعت سنة ٧٤٠، غدا لدى الاتراك بطلاً قومياً عرف بالسيد الغازي، واقامت تكية على قبره في جوار اسكي شهر. بلى ان ابناء الاقليم من نصارى الروم قد اجلوه كذلك وقدسوه، فاذا هو مثال آخر « لمسلم لامع عمد النصارى الى اقامة تمثال له في احدى كنائسهم ».

المردة في لبنان

ولقد جرى على يد مسلمة، قبل ذلك، معارك صغيرة وجهها ضد قوم ذوي تاريخ غامض، كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية الوعرة في شمالي سورية، ويتمتعون

(١) ابن الاثير، ج ١٠، ص ٦٨؛ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لدمشقي، نشر مهران (سانت بيتزبورغ، ١٨٦٥)، ص ٢٢٧؛ النجوم الزاهرة لابن قنبري، نشر بوير، ج ٢، القسم ٢، (بركلي، ١٩٠٩ - ١٢)، ص ٤٠، ص ١٢ - ١٣، حيث يدعي المؤلف ان احد الفاطميين القى خطبة الجمعة في هذا المسجد. راجع ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي. نشر امدموز (بيروت ١٩٠٨) ص ٦٨، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) احسن التقاسيم، ص ١٤٧.

(٣) عرفت هذه الدار بالبلاط، وذكرت في ياقوت، ج ١، ص ٧٠٩، كأنها كانت تستخدم لهذه الغاية في عهد سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ - ٦٧)، انظر ماسياني في الفصل ٤٣ في الفقرة عن الحمدانيين. و « بلاط » من السريانية مأخوذة من اصل لاتيني او يوناني : Platea, Palatium.

(٤) الطبري، ج ٢، ص ١٧١٦.

(٥) السعدي، ج ٨، ص ٧٤.

بقسط وافر من الحكم الذاتي . وكان هؤلاء المردة^١ - كما كانوا يدعون - يمدون الروم من معاقلمهم في جبال اللكام وطورس بالرجال ، والجنود غير النظاميين ، فكلوا شوكة في جانب العرب . وقد عرفوا ايضاً بالجراجمة ، بالنسبة الى مدينتهم الكبرى « جرجومة » في امانوس (جبال اللكام)^٢ وكانوا يحكم موطنهم على الحدود العربية البيزنطية بمثابة « جدار نحاسي »^٣ يصون آسية الصغرى من الفاتحين . وكانوا مسيحيين ، لكن لم يتضح بعد هل كانوا من القائلين بالطبيعة الواحدة ، ام بالطبيعتين . اما من حيث هم تآثرون ومناشرون ومحاربون ، فقد ادوا خدماتهم لأقوى مساوم . وعندما استولى المسلمون العرب على انطاكية ، تعهد هؤلاء الجراجمة للروم باعمال الاستكشاف ، وحراسة الطرق التي تمر في جوارهم^٤ . وحوالي سنة ٦٦٦ ارسل ملك الروم شراذم منهم مع فرق من فرسانه وجيوشه النظامية ، دخلت صميم لبنان واحتلت فيه المواقع الحساسة ، حتى حدود فلسطين . والغالب ان جبل لبنان في ذلك العهد كان قليل السكان^٥ ، كثيف الاحراج ، ولم يزدحم منه الا المنطقة الساحلية . وقد التف حول هؤلاء المردة جماعات من الفارين والناقمين ، واختلطوا في لبنان الشمالي بالموارنة^٦ . وكان معاوية في ذلك العهد كثير المشاغل بشؤون العلويين وبمشاكل داخلية اخرى ، فوافق على ان يؤدي الى امبراطور الروم فريضة سنوية كبيرة ، في مقابل امتناعه عن امداد هذا العدو الداخلي ، وعلى ان يؤدي هو بدوره اليهم ضريبة سنوية ايضاً . وينبغي ان لا يغيب عن الذاكرة ان العرب لم يستسيغوا يوماً حرب العصابات ، وقول ابن خلدون^٧ ان الفتوحات التي سهلت على العرب انما هي التي جرت في الاراضي المنبسطة لا يعوزه المبرر التاريخي .

(١) اللفظة من اصل سامي م رد بمعنى : الانتفاض ، والمقاومة . قابل الديتوري ؛ من ١٣٠ س ٣ حيث اعيدت اللفظة خطأ الى اصل فارسي بمعنى « انسان » .

(٢) ياقوت ، ج ٢ ، ص ٥٥ ؛ البلاذري ، ص ١٥٩ .

(٣) Theophanes p. 364 .

(٤) البلاذري ، ص ١٥٩ .

(٥) قابل الجزء الاول من ٨٩ - ٩٠ .

(٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٩ حول الموارنة .

(٧) المقدمة ، ص ١٢٥ .

وقد عمد معاوية ، آخر الامر ، الى نقل جماعة من اهل العراق الى الساحل البحري وانطاكية^١ ، وكان ذلك سنة ٦٦٩ . وانما فعل ذلك . حتى يصدع جبهة الجراجمة . وكان سبق له ان نقل اليها جماعات من فارس ، ليحلوا محل الروم الذين تزحوا عنها على اثر الفتح الاسلامي . وانما كان ذلك تدبيراً وقائياً غرضه صدغزوات الروم البحرية . لذلك عمد الى حشد هؤلاء الوافدين في صيدا وبيروت وجيبيل وطرابلس وعرة وبعبك ومدن اخرى^٢ .

ولقد سبب الجراجمة للمروانيين من المتاعب نظير ما سببوه للسفيايين . فقبل عبد الملك بن مروان ، حوالي سنة ٦٨٩ ، بالشروط التي فرضها يوستينيانوس الثاني ، ووافق على ان يدفع للجراجمة اسبوعياً مبلغ الف دينار . وكان امبراطور الروم قد بث عصابات جديدة من هؤلاء الريفين في سورية ، مما حمل عبد الملك على اتباع الطريقة التي جرى عليها معاوية قبله^٣ .

واخيراً تقرر في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ١٥) ان يقضي نهائياً على خطر المردة . فهاجم مسلمة هؤلاء العابشين بالامن في عقر دارهم ودمر عاصمتهم الجرجومة ؛ فهلك بعضهم ، وهاجر البعض الآخر الى اناطوليا ، وانضمت جماعة ممن بقي منهم الى الجيش السوري ، وقتلوا تحت لواء الاسلام . وفي عهد يزيد الثاني ، ساهموا في اخضاع الفتن التي نشبت في العراق^٤ .

(١) البلاذري ، ص ١٦٢ .

(٢) اليعقوبي ، ص ٣٢٧ ؛ قابل البلاذري ، ص ١٤٨ .

(٣) البلاذري ، ص ١٦٠ ، ص ٨ ؛ المؤلف نفسه ، انساب الاشراف ، نشر Goitein ، ج ٥ ، (القدس ، ١٩٣٦) ص ٢٥٥ - ٣٠٠ .

(٤) للاستزادة عن المردة راجع : Lammens in *Mélanges*, vol. i, pp. 14-22 ؛ المؤلف نفسه ، تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار ، ج ٢ (بيروت ، ١٩١٤) ص ٤١ - ٤٨ .

الفصل الخامس من الملوك

الفن الاهلية، الشيعة، أهل المدينة، الفرس

مأساة الحسين

لم يجرؤ العلويون ، طيلة حكم معاوية الحازم ، على ان ينازعوه السلطان بعمل عدائي صريح . لكن ، ما ان تولى يزيد ، الشاب المستهتر من بعده (٦٨٠) ، حتى اتسع المجال امام الاحزاب المعارضة للعصيان والانتفاض . فقد عمد الحسين ، وهو الابن الاضعف لعلي وفاطمة ؛ مدفوعاً بنداوات العراقيين الملحة المتكررة ، الى المجاهرة بانه الخليفة الشرعي بعد اخيه الاكبر الحسن ، ووالده علي^١ . وكان الحسين ، الى ذلك الحين ، قد خالف رغبات مشايخه العراقيين ، وآثر حياة العزلة في المدينة ؛ لكنه خرج ، في هذه الاثناء ، من عزلته ، وفارق مكة متوجهاً الى الكوفة ، وقد رافقته جماعة قليلة من اخلص اتباعه وادنى اقربائه بينهم نساؤه واهل بيته .

وكان عبيد الله بن زياد قد خلف والده في ولاية العراق . وزياد هو الداهية الذي اتخذ معاوية اخاً له^٢ بالحاقه بنسب ابيه ، ابي سفيان . وكان عبيد الله قد عرف بما نواه الحسين فاقام الحفراء في مراكز على جميع الطرق بين الحجاز والعراق . وفي كربلاء ، على ٢٥ ميلاً الى الشمال الغربي من الكوفة ، اطبقت دورية من فرسان عبيد الله على الحسين ؛ واذ أبى ان يستسلم ، هاجمه عمر بن سعد بن ابي وقاص — وسعد هو فاتح العراق الشهير ، ومؤسس مدينة الكوفة — بأربعة آلاف مقاتل .

(١) الفخري ، ص ٥٩ ؛ الدينوري ، ص ٢٤٣ — ٤٤ .

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٧ من هذا الجزء .

فدارت الدائرة على الحسين واتباعه، اذ قتل الحسين وتمزقت جماعته البالغة مئتي رجل شر بمزق^١. وارسل رأس حفيد النبي الى يزيد في دمشق، فاعاده الى اخت الحسين وابنه، وكانا رافقاه الى العاصمة، فاخذاه ودفناه في كربلاء^٢.

وقد غدا اليوم الذي قتل فيه الحسين، وهو العاشر من محرم سنة ٦١ هـ (١٠ تشرين الاول ٦٨٠) منذ ذلك الحين، يوم حداد ونواح عند مسلمي الشيعة. ففي مثل هذا اليوم العاشر (عاشوراء) من كل عام، تمثل مأساة النضال الباسل والحدث المفجع الذي وقع للامام الشهيد. وربما عمد فيه غلاة المتفجعين من الفرس، حتى الوقت الحاضر، الى السير في الطرقات شبه عراة، والدم يتدفق من جراح احدها في اجسادهم تدليلاً على صدق الولاء وشدة الاسف وانكار الذات. وقد غدت اسماء يزيد، وعبيد الله، وعمر، منذ ذلك الحين. عند الشيعة اسماء ملعونة. في حين غدت كربلاء اقدس مكان في العالم، ولا يزال الحج اليها عندهم اولى منه الى مكة. وفي كربلاء ولد المذهب الشيعي؛ وكان دم الحسين، على ما تبين في ما بعد، افعل في اذكاء هذا المذهب حتى من دم علي نفسه. وصار الاعتقاد بامامة علي، وخلافة ذريته من بعده، في المذهب الشيعي، نظير الاعتقاد بنبوة محمد عند اهل السنة^٣. وغدا «يوم كربلاء» و«ثأر الحسين» صيحة الاستنفار عند الشيعة. وهذا الاستنفار لم يفتو حتى ولا بعد المساهمة الفعالة التي حققتها الشيعة في تقويض العرش الاموي.

طامع آخر بالخلافة

على ان القضاء على الحسين لم 'ينه' النزاع على الخلافة، لانه كان نزاعاً مثلث الاركان. ذلك ان عبد الله بن الزبير برز الآن الى الميدان، وجاهر بعدائه ليزيد

(١) قابل اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٨٩؛ السعدي، ج ٥، ص ١٤٣.

(٢) ابن حجر، ج ٢، ص ١٧؛ ابن عساكر، ج ٤، ص ٣٣٢-٣٥؛ ابن الاثير، ج ٤، ص ٦٧-٧٥؛ الدينوري، ص ٢٦٤، ٢٦٧.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٨ في الفقرة عن الشيعة.

وكان ابوه من قبل قد زاحم عليها بلا جدوى^١. وكان عبد الله هذا بمن زينوا للحسين القيام بمغامرته الخطرة^٢. فالتفت الحجاز حول عبد الله ، ونادت به امير المؤمنين . وعندها خف يزيد الى ارسال حملة تأديبية لاختضاع الثائرين في المدينة ، كان فيها عدد كبير من نصارى الشام . وكان قائد هذه الحملة مسلم بن عقبة ، وكان اعور ، وقد حمل على محمل لانه كان شيخاً طاعناً في السن^٣. نشب القتال يوم ٢٦ آب سنة ٦٨٣ ، وكان النصر حليف الحملة السورية . وهناك مجال كبير للشك في ان يكون جنود الشام قد استباحوا مدينة الرسول ، وانتهكوا حرمتها ، اما ابن الزبير فقد لجأ الى مكة على اعتبار أنها ذات حرمة . وان ارضها مقدسة . لكن مسلمة لحق به^٤ ، إلا انه مات في الطريق وتولى القيادة من بعده الحصين بن غدير السكوني ، وهو الذي اصاب باحد نباله الحسين في كربلاء اذ كان يستقي^٥. ولم يتخرج الحصين من توجيه المنجنيق نحو الحرم^٦. وقد اتصلت النار بالكعبة فاحترقت برمتها . وكذلك الحجر الاسود وهو من معبودات الجاهليين ، واقدس الآثار الاسلامية — فقد تصدع ثلاثة^٧. وبدأ بيت الله للانتظار مجرداً من كسوته^٨ كأنه التكلي قد شقت الجيب . وفي هذه الاثناء توفي يزيد ، وتوقف في ٢٧ تشرين الثاني ، القتال الذي كان قد نشب في ٢٤ ايلول ٦٨٣ .

(١) انظر ما سبق في ص ٣١ من هذا الجزء .

(٢) السمودي ، ج ٥ ، ص ١٣١ ؛ الدينوري ، ص ٢٥٦ - ٥٧ .

(٣) هو غير عقبة الذي سبق ذكره في ص ٣٨ من هذا الجزء .

(٤) الدينوري ، ص ٢٧٤ - ٧٥ .

(٥) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٠ .

(٦) الطبري ، ج ١ ، ص ٢٢٢٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ، الدينوري ، ص ٢٦٩ .

(٧) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٤٧ - ٤٩ .

(٨) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ١١ ؛ الانساب ، ج ٤ B ، ص ٥٢ ، ٥٥ ؛ راجع بشأن الحجر الاسود النبطي والكمة الجزء الاول من ٤٢٨ .

(٩) الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

كان موت يزيد، وانسحاب الجيش السوري بصورة مفاجئة من الحجاز، بما عزز وضع ابن الزبير في الحجاز. اذ نودي به، على الاثر، خليفة، ليس في الحجاز وحدها وهي موطنه، بل وفي العراق وجنوبي الجزيرة، وحتى في بعض انحاء الشام. وكان قد عين اخاه مصعباً^١ نائباً عنه ووالياً له على العراق؛ وجعل على سورية الضحاك ابن قيس الفهري، زعيم القيسية (عرب الشمال)، وكانوا طالما قاوموا الامويين^٢. على ان اليمنية (عرب الجنوب) تحركوا على الاثر ومنهم الكلبيون، وتداعوا الى نصرة الخليفة الممنون الشرعي مروان بن الحكم^٣ وانزلوا بالضحاك وجاعته هزيمة منكرة. كان ذلك في شهر تموز سنة ٦٨٤ في مرج راهط، وهو سهل الى الشمال الشرقي من دمشق^٤. وكانت معركة مرج راهط «صَفِيناً» اخرى في مصلحة الامويين، وهي آخر معركة وقعت في الفتنة الاهلية الثالثة في الاسلام. وكانت نظير سابقتها، التي حدثت بين علي ومعاوية، انما وقعت بداعي النزاع على الخلافة بين سلالتين^٥. اما النزاع القبلي بين بني قيس – الذين يمثلون النازحين المتأخرين من شمالي الجزيرة، وبين بني كلب – المؤيدين المساندين للخلافة الاموية، فقد طال امده، – وعجل في النهاية – بانتهيار السلالة الاموية. وهذا النزاع لا يزال يتمثل، في السياسة المعاصرة، بين لبنان وسورية^٦.

ان سحق الحزب المعارض للامويين في الشام قد بتر احد اطرافه، اما الرأس فقد بقي حياً في الحجاز. وقد كانت خلافة ابن الزبير لا تزال ناشطة هنالك، حتى ارسل اليها عبد الملك – اذ تولى الخلافة بعد ابيه مروان بن الحكم – واليه

(١) البعقولي ج ٢، ص ٣١٤.

(٢) انظر ما سبق في ص ٣٢ من هذا الجزء.

(٣) ورد ذكره في ص ٢٨ من هذا الجزء.

(٤) المقد، ج ٢، ص ٣٢٠ – ٣١؛ السعدي، ج ٥، ص ٢٠١؛ الانساب، ج ٥ ص ١٣٦ وما يتبع.

(٥) انظر ما سبق في ص ٣١ و ٣٢ من هذا الجزء.

(٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٩ في الفقرة عن الشهابيين.

ذا اليد الحديدية، الحجاج بن يوسف . وكان الحجاج في أول أمره معلم صبيان في الطائف ، وكان نسبه في بني ثقيف ، وفيهم كان نسب المغيرة بن شعبة^١ . وكان الحجاج آنذاك في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان جيشه مؤلفاً - كما في الاخبار - من ٣٠ ألف مقاتل^٢ . وقد ضرب حصاراً حول مكة استمر ستة أشهر ، ونصف الشهر ، أولها ٢٥ اذار ٦٩٢ . ولم يكن الحجاج أكثر تخرجاً في رمي المدينة المقدسة بالمنجنيق من زميله السابق الحصين . لكن ابن الزبير واصل النضال مدفوعاً بتحريض أمه أسماء ، ابنة أبي بكر واخت عائشة ؛ لكنه كان قتالاً يائساً^٣ انتهى بنجحه ، وارسال رأسه إلى الشام . أما جثمانه فقد صلب مقلوباً ، ثم دفع إلى أمه^٤ . وهذه أولى حوادث الصلب في المدونات الإسلامية .

وبوفاة ابن الزبير زال العلم الأخير من اعلام الاسلام الأولين ، وتم الأخذ بنار عثمان ، وتحطمت قوة الانتصار إلى الأبد . وبه سلم للاسلام وضعه الجديد ، وتهيأ للاعتبار السياسي ان يسود الاعتبار الديني في سلطان الدولة سيادة تامة . ومنذ ذلك الحين غدا مقام مكة والمدينة في التاريخ مقاماً ثانوياً ، واصبح تاريخ الجزيرة احفل بتأثير العالم الخارجي فيها . منه بتأثيرها في العالم الخارجي . ذلك ان « الجزيرة الام » كانت قد استنفدت نفسها .

حزم الحجاج في عهد ولايته

عين عبد الملك الحجاج بن يوسف والياً على الحجاز ، فبقي حكمه فيه نحو سنتين ، تمكن خلالها من تهدئة الحالة ، ليس في الحجاز وحده بل في اليمن ، وفي اليمامة شرقاً .

(١) راجع ما سبق في ص ٣٦ من هذا الجزء .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

(٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ٨٤٥ - ٤٨ .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١٩ - ٢٠ ، الدينوري ، ص ٣٢١ ؛ الاغانى ، ج ٨ ، ص ٤٣ ، الانساب ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ - ٦٩ .

وفي سنة ٦٩٤ انبسطت به مهمة، نظير مهمته هذه خطيرة، ان لم تكن اشد واطغر، هي ولاية العراق.

وكان العراق لا يزال في حالة احتياج وغبان. وكان اهل «على قول الحجاج اهل شقاق ونفاق»^١. وقد كان فيه، فضلاً عن الزبيريين والشيعة، جماعة الخوارج^٢، ثم أولئك العلويون الذين نادوا، بعد مقتل الحسين، باخيه من ابيه - محمد بن الحنفية - اماماً عليهم، ولقبوه بالمهدي^٣. ولقد كان محمد هذا ابناً لعلي من غير فاطمة، وكني بابن الحنفية نسبة الى امه. وكان الخوارج اشد هؤلاء انتفاضاً. فجعلوا الشرق في غلبان دائم. وقد انتشروا من العراق الى فارس، وانقسموا الى عدة فرق دينية متطرفة، واجتاحوا الاهواز وكرمان، واحتلوا الري، وحاصروا اصفهان، واعملوا النهب والسلب اتي توجهوا.

والتقت حركتهم في فارس بحركة الموالي الناشئة، المعارضة للعرب الاسياد. وهم الفرس الذين اعتنقوا الاسلام على اعتبار انه قد ساوى بين جميع الذين انضموا اليه، لكنهم سرعان ما اصبوا محيية، وشعروا انهم كانوا مخدوعين.

وما كاد الحجاج يتلقى تعيينه الجديد، حتى غادر المدينة في كوكبة من الفرسان اجتاز بها البادية في مسالك وعرة، وبلغ الكوفة متخفياً، دون سابق اشعار. وكان ذلك من النهار عند الفجر الباكر، وقد حل وقت الصلاة. فدخل المسجد وفي صحبته اثنا عشر من راكبي الهجن، وقد جعل قوسه في كتفه وسيفه الى

(١) السعدي، ج ٥، ص ٢٩٥؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٢) راجع ما سبق في ص ٣٣ من هذا الجزء. وراجع بشأن مناهجهم وآرائهم البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتي (القاهرة ١٩٢٤)، ص ٦٥ - ٩٤.

(٣) المهدي في اوساط الشيعة زعيم عتيد يرد الاسلام الى حقيقته الاولى. ويكتسح العالم، وينشر السلام والرخاء في العالم قبل زواله؛ Hitti, *History of the Arabs*, p. 441.

(٤) الموالي جمع مولى، وهو من اعتنق الاسلام من غير العرب وألحق نفسه ببعض قبائل العرب. ومنزلته هذه المضطربة قد جعلته دون المسلمين العرب. انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ في الفقرة عن الاصلاحات المالية، والفصل ٣٧ في الفقرة عن الموالي.

جانبه ؛ ووقف بالمصلين ، ثم نزع عمامته التي كانت تستر سجنته العابسة ، والقي خطبة نارية غدت احب الخطب الى القراء ، واشد ما في الادب العربي وقعاً ؛ قال :

« انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني »

يا اهل الكوفة ! اني لارى رؤوساً قد اينعت وحن قطافها ، واني لاصحبها ، وكأني انظر الى الدماء تفرغ بين العائم والحي ... الا ان امير المؤمنين امرني باعطائكم واشخاصكم الى محاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة^١ . وقد امرتكم بذلك ، واجلت لكم ثلاثاً ، واعطيت الله عهداً ان لا اجد احداً من بعث المهلب بعدها الا ضربت عنقه^٢ . ثم امر غلامه ان يقرأ على الجمع كتاب امير المؤمنين فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عبد الملك ، امير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم » . ولكن احداً لم يرد السلام . فصاح الحجاج بالقارئ غاضباً « اسكت يا غلام » ثم قال : « يسلم عليكم امير المؤمنين فلا تردوا السلام ! اما والله لأؤدبنكم ادباً سوى هذا الادب ، اقرأ يا غلام الكتاب » . ولما بلغ الى السلام ، لم يبق احد في المسجد الا قال - « وعلى امير المؤمنين السلام »^٣ .

ان الوالي الجديد ، الذي القى عصا المعلم ليأخذ بسيف المقاتل ، كان عند قوله . لم يكن هنالك من عنق هو في مأمن من ان يطال . ولا رأس في عصبة من ان يسحق . وقد كانت مهمته ان يعيد هيبة الدولة بين الرعية مهما كان الثمن ، وقد حقق ذلك . فبلغ ما زهقه من ارواح الناس - على ما قيل - ١٢٠ ألفاً . وقد وجد منهم في السجون على اثر وفاته حمسون ألفاً من الرجال ، وثلاثون ألفاً من النساء^٤ .

(١) هو القائد الذي قام في اوائل عهد معاوية (٦٦٤ - ٦٥) بمحلة بلغ بها حدود الهند واتهب كابل وملتان ؛ قابل ما سيأتي في الفصل ٣٦ والفصل ٣٧ . وقد كان الحجاج صهره .

(٢) المبرد ، ص ٢١٥ - ١٦ ؛ قابل اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ؛ المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ . اما البيت في مستهل الخطبة فلشاعر قديم .

(٣) المبرد ، ص ٢١٦ .

(٤) ابن العري . ص ١٩٥ ؛ قابل المسعودي ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ ؛ واللؤلؤف تلح التنييه والاشراف ، نشر دي غويه (لندن ، ١٨٩٣) ص ٣١٨ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٢٣ .

وهذه الأرقام المبالغ فيها، إلى جانب الأخبار المجسمة عن استبداده وضرارته، وشرارته وقلة تقواه، تشير إلى أن ما تركه المؤرخون عنه - وجلهم من الشيعة، أو من السنة المواليين للعباسيين - إنما يمثل صورة مشوّهة عنه، لا رسماً صادقا له.

على أن القارئ المتأمل، لا يلبث أن يستشف من خلال السطور، الكثير من المآثر الإدارية البناءة التي يعود الفضل فيها إلى الحجاج. فقد أعاد فتح الأقنية القديمة المردومة، وشق أقنية جديدة، وبني قاعدة جديدة هي مدينة واسط - دعت كذلك لتوسطها بين مدينتي العراق الكبيرتين: البصرة والكوفة^١. وقد وضع تشريعاً لإصلاح النقد والضرائب والمكايل^٢. أما الإصلاح الذي تولاه في ما يتعلق بالقرآن، فلا يبدو - على ما يظهر - ادخال إصلاحات فرعية على الخط، تساعد على تفادي الخطأ في قراءة النص الكريم^٣. وأما التدابير القمعية الشديدة، فسواء أكان على حق في اتخاذها أم لم يكن، فقد أعادت الاستقرار إلى الكوفة وإلى البصرة، وطالما كانتا مهد العصيان والانتفاض. وكذلك هيبة الدولة فقد توثقت على طول الساحل الشرقي لجزيرة العرب ومنه 'عمان' - وكانت حتى آنذاك ذات كيان مستقل. وكانت فارس داخلة في ولايته، فاستطاع قائده المهلب أن يقضي فعلاً على الأزارقة، وكانوا أشد الحوارج خطراً على الوحدة الإسلامية. والأزارقة سموا كذلك تبعاً لأزيعهم الأول نافع بن الأزرق، وكان من التطرف في تعليمه بحيث اعتبر كل من لم يكن خارجياً - حتى ولو كان مسلماً - من الملحدين، فاحل دمه ودم زوجته وأولاده^٤. وكان الأزارقة في هذه الأثناء قد بسطوا

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان (القاهرة، ١٢٩٩)، ج ١، ص ٢٢١؛ النهي، دول الإسلام (حيدر آباد، ١٣٣٧)، ج ١، ص ٤٢؛ الطبري، ج ٢، ص ١١٢٥.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٦ الإصلاحات المالية وغيرها.

(٣) انظر ما سيأتي في آخر الفصل ٣٦.

(٤) الشهرستاني، الملل والنحل، نشر كورتن (لندن، ١٨٤٦)، ص ٨٩ - ٩٠؛ البغدادي، ص ٧٢ - ٧٦؛ الطبري، ج ٢، ص ١٠٠٣ وما يتبع.

سلطانهم ، بقيادة قطري بن الفجاءة . على كerman^١ وفارس ، وسواهما من الأقاليم الشرقية . على أن قواد الحجاج ، في ما وراء فارس ، تمكنوا من الوصول إلى رادي الأندلس ، كما سنرى في الفصل التالي . وقد كان اعتماد الحجاج في عاصمته واسط على حامية من الجيش السوري قد وثق بها ثقة — هي نظير ولأنه للامويين — لا تعرف الحدود .

(١) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٤ — ٨٥ .

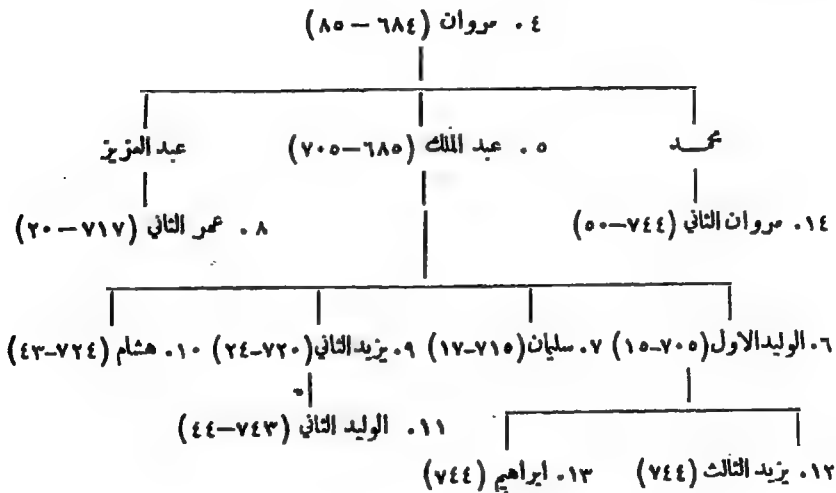
الفصل السادس والثلاثون

دمشق في أوج عزها

دمشق في أوج عزها

ان السلالة الاموية في دمشق بلغت اوج عزها وسلطانها في عهد عبد الملك بن مروان وبنيه الاربعة^١. ففي خلافة الوليد (٧٠٥-١٥) و اخيه هشام (٧٢٤-٤٣) بلغت الامبراطورية الاسلامية اوسع حدودها ، فامتدت من شواطئ المحيط الاطلسي وقم البرنيه ، حتى الاندلس وحدود الصين ، فكانت تفوق باتساعها مساحة الامبراطورية الرومانية في اوسع حدودها. ولم يسبق للامبراطورية العربية قبل ذلك العهد ، ولا تأتي لها بعده ، ان تبلغ الى هذا المدى. ففي هذا العهد الزاهر

(١) يمثل الشكل الشجري التبت ادناه صلة النسب التي تجمع بين افراد الفرع المرواني من السلالة الاموية :



تمّ للعرب نهائياً أخضاع ما وراء النهر ، وإعادة فتح شمالي إفريقيا وتهذبة الاحوال فيها والاستيلاء من ثمّ على شبه جزيرة ايبيريا . وفي هذا العصر تحقق تعريب ادارة الدولة . فنقلت الدواوين الى العربية ، وضربت النقود بالعربية وحدها ، ونظمت مصلحة البريد ، وأنشئت المباني الضخمة نظير مسجد الصخرة في القدس ، وهو اقدس حرم في الاسلام بعد حرمي مكة والمدينة .

ان فتح سورية والعراق وفارس ومصر ، في عهد عمر وعثمان ، ختم الدور الاول من تاريخ الفتوحات الاسلامية ؛ وامتداد حدود السلطة الاسلامية في عهد معاوية الى خراسان وآسيا الوسطى شرقاً ، والى افريقيا غرباً ، توجّ الدور الثاني ؛ واخضاع ما وراء النهر اخضاعاً تاماً ، واجتياح وادي الاندلس في عهد عبد الملك ومن تلاه مباشرة ، كان ختام الدور الثالث .

اخضاع ما وراء النهر

ان اخضاع الاقاليم التي اصبحت الآن تدعى تركستان وافغانستان وبلوخستان وبنجاب اخضاعاً نهائياً انما تمّ على يد قواد الحجاج بن يوسف . وكان احد هؤلاء القواد عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث ، وكان حاكماً على سجستان ، وهو سليل ملوك كنده الذين حكموا في اوسط الجزيرة العربية . وكانت شقيقته قد تزوجت احد ابناء الحجاج . ففي سنة ٦٩٩ - ٧٠٠ زحف عبد الرحمن على الزنيل^١ ، وهو الملك التركي (او الايراني ؟) في كابل (افغانستان) وكان قد امتنع عن اداء الجزية المعتادة . وكانت الاسرة الحاكمة والجيوش في هذه الممالك وسواها من ممالك آسيا الوسطى من عرق تركي ، لكن الرعايا كانوا في الغالب ايرانيين . وكان جيش عبد الرحمن وافر العدد بحيث دعي « جيش الطواويس » . لكن حركة العصيان التي قام بها عبد الرحمن في وجه الحجاج ، وضعت حداً لمعاركه المظفرة ، وعزل من

(١) انظر ص ٣٨ من هذا الجزء .

(٢) Wellhausen, Reich, p. 144, n. 3 ؛ وفي الطبري عرقاً ؛ وتيل ، ج ٢ ، ص ١٠٤٢

وما بعد ؛ التنبيه ، ص ٣١٤ .

القيادة . وفي سنة ٧٠٤ القى بنفسه من أعلى برج هناك ، فسقط جثة هامة^١ . وهي من اندر ما دون من حوادث الانتحار في الاسلام .

على ان حروب عبد الرحمن لاتعد شيئاً بالقياس الى ما تم على يد قتيبة بن مسلم الباهلي . وكان الحجاج قد اشار بتعيينه حاكماً على خراسان سنة ٧٠٤ ، على ان تكون تابعة لولايته^٢ . فاتخذ قتيبة مدينة مرو قاعدة له ، قاد منها ، في مدى نحو عشر سنوات ، عدداً من الحملات الحربية البارعة الموفقة ، اجتاح بها ما وراء النهر . هذا النهر هو نهر جيحون^٣ الذي كان حتى ذلك الزمن الحد التقليدي ، لا التاريخي ، بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية وتلك الناطقة بالتركية . وفي هذا العهد ، وهو عهد الوليد ، وضع المسلمون في هذه الاصقاع قدماً ثابتة . وكان في جيش قتيبة اربعون الف مقاتل عربي من البصرة ، وسبعة آلاف من الكوفة ، وسبعة آلاف من الموالي^٤ . ففي الحملة الاولى استرد قتيبة القسم الادنى من طخارستان وعاصمتها بلخ^٥ . وبين سنة ٧٠٦ و ٧٠٩ اكتسح بخارى من بلاد الصغد والمنطقة المجاورة لها . واستولى بين ٧١٠ و ٧١٢ على سمرقند (من بلاد الصغد كذلك) وخوارزم (خيوا حديثاً) الى الغرب . وفي غضون العامين التاليين قاد حملة الى مناطق نهر سيحون لاسيا فرغانة ، واقام فيها حكماً اسلامياً اسمياً ، في ما هو معروف اليوم بمخانات آسيا الوسطى . ولقد كان الكثيرون من سكان تلك الاصقاع على البداوة ، فكان الوضع العام هنا ، مثله في شمالي افريقيا والمناطق الاخرى : غزوات تتبعها غزوات ، وجزية تفرض ، فامتناع عن اداء الجزية ، فهجوم ، فتسليم ومصالحة .

(١) الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٣٥ .

(٢) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ؛ المصنف في تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

(٣) آمو داريا حديثاً ، وجيحون هو الاكسوس ، اما سيحون فهو جاكارتس ويعرف بسرديا اليوم . وقد ورد اسم كل من النهرين في سفر التكوين ٢ : ١١ و ٢ : ١٣ .

(٤) البلاذري ، ص ٤٢٣ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٩٠ - ٩١ .

(٥) البلاذري ، ص ٤١٩ .

لقد كان عبور نهر سيجون حدثاً تاريخياً حاسماً، لأن هذا النهر، لا نهر جيحون، هو الحد الطبيعي والسياسي والجنسي الفاصل بين الإيرانيين والترك. وكان عبوره أول تحدٍّ مباشر من العرب للشعوب المنغولية، ومن الإسلام للديانة البوذية. وكان للبوذيين صوامع في بخارى وبلخ وسمرقند^١. وقد وقع قتيبة في سمرقند على عدد من الاصلام فعمد الى احراقها بيده. ونتج عن ذلك اقبال الكثيرين من عبدتها على اعتناق الاسلام، ممن كانوا يظنون ان من اغضبها هلك للحال. وكذلك في بخارى، فان معابد النار قد هدمت، وسرعان ما غدت بخارى وسمرقند وخوارزم مراكز لتعليم الاسلام في اسيا الوسطى، ولم تلبث ان تحولت الى مراكز للعلوم العربية، على نحو ما كانت مرو ونيسابور في خراسان، والبصرة والكوفة في العراق.

استلحاق ما وراء النهر

ولقد استأنفت الاعمال الحربية التي بدأها قتيبة قائده نصر بن سيار^٢ ومن خلفه من القواد. وكان هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٤٣) قد عينه حاكماً على بلاد ما وراء النهر؛ فبجعل قاعدته في بلخ ثم في مرو؛ ومن مرو اضطر الى اعادة فتح (٧٣٨ - ٤٠) معظم المنطقة التي اجتاحتها قتيبة قبله، والمظنون ان قتيبة كان قد اكتفى باقامة حامية من العرب تتولى جباية الضرائب، وتعمل، بالتعاون مع الحكام الاهليين. اما كاشغر في تركستان الصينية، التي زعموا ان قتيبة كان قد اكتسحها (٧١٥)^٣، فلم يبلغها العرب الا في هذا العهد. وعندما رقي الوليد الثاني

(١) كان حاكم الصغد يقيم في سمرقند، ويحمل لقباً فارسياً هو «الاشيد». وكان هذا لقباً لملك فرغانة ايضاً. وكان حكام هذين البلدين، وحكام خوارزم والشاش يلقبون كذلك بالقبائل فارسية (نظير: خداه، وشاه، ودهقان). وكانوا في ما يظن يتصلون عن طريق الزواج بالخان والخاقان من امراء الترك الغربيين. على ان العرب اطلقوا لفظة «ترك» على كل من لم يكن فارسياً من رعايا المنطقة الواقعة الى الشمال الشرقي من نهر جيحون. انظر ابن خرداذبه، ص ٣٩ - ٤٠؛ اليعقوبي؛ ج ٢، ص ٤٧٩.

(٢) ابن الاثير، ج ٤، ص ٤١٦؛ W. Barthold, *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 2nd. ed. (Oxford, 1928), p. 192.

(٣) ابن الاثير، ج ٥، ص ٢.

سدة الخلافة (٧٤٣) استدعى نصر بن سيار الى دمشق ، وامره ان يحضر معه جميع انواع طيور الصيد ، وكافة اصناف ادوات العزف . لكن الوليد اغتيل ونصر لا يزال في طريقه اليه . وقد تمكن القواد الذين خلفوا نصراً حتى سنة ٧٥١ من ان يحتلوا الشاش (تاشكند) ، الى الشمال الشرقي من سمرقند ، فتم للمسلمين بذلك توطيد سيادتهم في آسيا الوسطى ، ولم يعد لهم من بين السلطات المحلية اي منازع . وهكذا ضم ما وراء النهر بكامله ونهايتها الى ممتلكات الخلافة المترامية الاطراف . الا ان المحاولات التي قاموا بها على بلاد الخزر ، ما بين بحر قزوين والبحر الاسود ، في سنة ٧٣٧ وما بعده ، ما آلت الى شيء^١ . وقد كان الخزر من اصل جرمانى (هونى) لكنهم هودوا في ما بعد .

فتح العرب في الهند

وفى كان قتيبة ونصر يواصلان حملتهما الناجحة في الميدان الشرقي ، كان قائد آخر يقود حملته في اتجاه جنوبي داخل بلاد الهند . هذا القائد هو محمد بن القاسم الثقفي ، صهر الحجاج . وكان جيشه يشتمل على ستة الاف جندي من السوريين^٢ . وقد تيسر له في سنة ٧١٠ ان يخضع مكران ، ويواصل الزحف على ما يعرف اليوم ببلوخستان . واستطاع ان يحتاج بين سنة ٧١١ و ٧١٢ السند ووادي الاندس الأدنى ودلتاه . واحتل هنالك مرفأ الديبل حيث وجد صنماً (بدناً) لبوذا طوله في السماء اربعون ذراعاً^٣ . وسار من ثم على التيرون (حيدر اباد حديثاً) واحتلها كذلك . وفي السنة التالية امتدت الفتوحات شمالاً حتى ملتان في جنوبي البنجاب وعند سفح جبال حملايا . وكانت ملتان مركزاً لمعبد بوذي قومي وقع بيد الغزاة ، وكان فيه جمع غفير من الحجاج ورجال الدين سيقوا على اعتبار انهم اسرى حرب . وكانت النفائس التي ظفر بها العرب من هذا المعبد كثيرة الى حد

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٦٠ ؛ المسعودي ، ج ٢ ، ص ١٩٨ وما بعد .

(٢) البلاذري ، ص ٤٣٦ .

(٣) يعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

عرف معه هذا المعبد «بيت الذهب»^١. وغدت ملتان لسنين كثيرة قاعدة الهند العربية ، وحصن الاسلام الامامي في تلك الاصقاع .

الحملة الحربية على البيزنطيين

كان عبد الملك في اوائل خلافته قد شغل باخماد ثورة ابن الزبير ، فاضطره ذلك الى ان يوافق على دفع الجزية (٦٨٩/٧٠ - ٩٠) «لطاغية الروم» ، ولأخلافه المسيحيين من الجراجمة الذين كان امرهم آتئذ قد توثق في لبنان^٢. لكنه استطاع ، بعد ذلك بقليل ، ان يثير الحرب على اعداء العرب الدائمين . وتمكنت جيوشه في سنة ٦٩٢ من ان تهزم جيوش يوستنيان الثاني عند سيستبوليس في كيليكية . ثم استأنف الوليد هذه الحملة بعد عبد الملك وظفر جيوشه سنة ٧٠٧ بدخول الطوائف ، وهي اعظم حصون كبدوكية . وبعد ان استولى على ساردس وبرغامس . خلا امامه الطريق الى القسطنطينية ، وتمكن من ثم مسلمة بن عبد الملك ، قائد سليمان ، من ان يلقي حولها حصاره المشهور بين آب ٧١٦ وايلول ٧١٧ - ذلك الحصار الذي لم يجد شيئاً^٣. اما ارمينيا التي كان العرب قد اجتاحتها (٦٤٤-٤٥) في عهد ولاية معاوية على سورية ، فكانت قد انتفضت اثناء فتنة ابن الزبير ، فعبد عبد الملك الى اخضاعها ثانية^٤.

حملة شمالي افريقيا

وكذلك افريقيا ، فقد دعت الحاجة الى اعادة فتحها في هذه الآونة . ان سيطرة عقبة^٥ قائد معاوية على هذه المنطقة كانت من الضعف بحيث اضطر القائد

(١) البلاذري ، ص ٤٤٠ .

(٢) راجع ص ٣٤ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٥٠ من هذا الجزء .

(٤) البلاذري ، ص ١٦٠ .

(٥) راجع ص ٣٨ - ٣٩ من هذا الجزء .

الذي خلفه الى الجلاء عنها . لكن الحسن بن النعمان العسافي (٦٩٣ - ٧٠٠) استطاع ، في غضون خلافة عبد الملك ، ان يصني مقاومة البربر ويطيح بسيادة البيزنطيين . وتمكن بعد الاستعانة باسطول اسلامي من ان يطرد الروم من قرطاجنة وسواها من الثغور . ثم استأنف زحفه على حلفائهم البربر ، وعلى رأسهم أنثد كاهنة^١ ، لها عليهم سلطان عظيم . فهزمها وتركها قتيلة في جبل اوراس (الجزائر) قرب بئر ما زالت تسمى باسمها ، هي بئر الكاهنة .

تولى الحكم بعد حسان ، موسى بن نصير الشهير . وفي عهده انسلخت هذه الاقطار عن ولاية مصر ، وصارت ذات حكومة خاصة قاعدتها القيروان ، وغدت تابعة للخلافة في دمشق رأساً . ولد موسى بن نصير قرب بيروت . وكان ابوه اسيراً من نصارى سورية ، وقع في يد خالد بن الوليد مع جماعة من الصبيان ، كانوا يدرسون الانجيل في بيعة في عين التمر في العراق^٢ . والى موسى هذا يرجع الفضل في توسيع حدود هذا الاقليم غرباً حتى طنجة .

ان الفتوحات التي تمت على يد حسان وموسى بن نصير ادخلت البربر^٣ نهائياً في حوزة الاسلام . ولقد كان معظم هؤلاء البربر ، المقيمين آنذاك في المنطقة الساحلية الحصنة ، على النصرانية . وكان قد ازدهر فيهم ترتليان وقبريانوس واوغسطينوس ، وسوام من القديسين والامراء في عهد الكنيسة الاول . ولما كان السكان البيزنطيون والرومان قبلهم قد تجمعوا في المدن الساحلية ، فقد بقيت حضارتهم غريبة بالنسبة الى هؤلاء البدو ، او شبه البدو ، من اهالي افريقيا الشمالية . وكان البربر اكثر نزوعاً نحو العرب المسلمين . فهم حاميون واذاً فهم الصق نسباً بالعرب

(١) البلاذري ، ص ٢٢٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٧ ، ص ٨ - ٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، نشر دوزي (لیدن ، ١٨٤٨) ، ج ١ ، ص ٢٠ - ٢٤ .

(٢) يستند غير هؤلاء ان موسى كان نجياً ، يروي سوام انه يعني . قابل البلاذري ، ص ٢٣٠ ؛ ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٤ .

(٣) لفظة بربر تتعذر في الراجح من اللفظة اللاتينية : barbari (من اصل جرمانى) ، اطلقها اهل المدن الافريقية التي حكمها الرومان وبثوا فيها الحضارة اللاتينية على جميع الرعايا الاهلين الذين لم يتخذوا اللاتينية لساناً لهم .

الساميين. يضاف الى ذلك انهم كانوا والعرب في مستوى واحد من التقدم الحضاري. هذا فضلاً عن ان اجتياح الفينيقيين القدماء لهذا القطر ، واستعمارهم له ، عمل على تهديد الطريق لتعريبه. وقد جاء في اخبار العرب ان معظم البربر من اصل كنعاني^١. وقد بقيت اللغة القرطاجنية ، وهي كالعربية لغة سامية ، متداولة في المواطن المنعزلة حتى قبيل الفتح الاسلامي. ومن هنا يسهل علينا تعليل السرعة العجيبة التي تم بها نهائياً تعريب البربر وحملهم على الاسلام. فما ان قهروا حتى جندوا، وتألفت منهم حملات جديدة ، انضوت تحت راية الاسلام في سيره المطرد .

فتح الاندلس

ان اجتياح افريقيا الشمالية حتى شاطئ المحيط الاطلسي^٢ مهد السبيل للاستيلاء على اوربا الجنوبية الغربية. وقد تحققت هذه الخطوة الخطيرة الاولى في سنة ٧١٠، عندما اقدم جيش من جيوش العرب ، لأول مرة ، على اجتياز المضيق البالغ ثلاثة عشر ميلاً. ولئن كان الغرض المباشر مجرد الغزو ، فان الغزوة لم تلبث ان تحولت الى فتح اكتسح شبه جزيرة ايبيريا بومتها^٣، وتلاه احتلال كلي او جزئي استمر نحواً من ثمانية قرون. كانت حملة العرب هذه على القسم الجنوبي الشرقي من القارة الاوروبية آخر حملاتهم ، واروع ما قاموا به من الفتوحات ؛ وهي تمثل غاية ما بلغته حركة التوسع في الجبهة الافريقية الاوروبية ، كما يمثل فتح تركستان اوج التوسع في الجبهة الآسيوية.

طارق يعبر المضيق

ان الحملة التي قام بها طارق فريدة في بابها ، باعتبار ما انصفت به من سرعة العمل وكال الظفر ، ليس في تاريخ العرب فحسب ، بل وفي تاريخ اوربا في العصر

(١) الطبري ، ج ١ ، ص ٥١٦ ؛ السعدي ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ - ٤٠ ؛ ابن الفقيه ، ص ٨٣ .
راجع الجزء الاول ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ - ٥ .

(٣) دعاها العرب الاندلس ، والاسم من لفظة فندال وهو اسم القبائل الجرمانية التي سبق ان اجتاحت اسبانيا .

الوسيط . ففي تموز سنة ٧١٠ نزلت فرقة مؤلفة من اربع مئة جندي من المشاة ومئة من الفرسان ، بقيادة مولى لموسى بن نصير اسمه طريف ، في شبه جزيرة صغيرة تكاد تكون اقصى مناطق القارة الاوروبية الى الجنوب . ولم يتضح بعد هل كان طريف هذا من العرب ام من البربر^١ . لكن شبه الجزيرة قد حملت اسمه عهدئذٍ ، ولا تزال الى الآن تعرف بجزيرة طريف (تريفا بالاسبانية)^٢ . ان نجاح طريف من جهة ، واضطراب الوضع في المملكة القوطية الغربية في اسبانيا من جهة اخرى ، كانا مما اغرى موسى بن نصير سنة ٧١١ ، بان يرسل اليها مولى له آخر ، اسمه طارق ابن زياد ، على رأس سبعة آلاف مقاتل ، كان اكثرهم نظيره من البربر ، فنزل بهم قرب الصخر العاتي الذي خلد اسمه منذ ذلك العهد ، فعرف بجبل طارق^٣ . اما السفن التي استخدمها ، فالأخبار التاريخية تؤكد ان الذي قدسها له شخص يكاد يكون أسطورياً هو جوليان^٤ ، امير سبتة^٥ البيزنطي . واما الدافع لهذه المعونة فغير واضح ، والرواية التي ترجع السبب الى اعتداء رودريك ، مقتصب العرش القوطي ، على ابنة جوليان القاتنة ، ليست حرة بالثقة . والحق ان حكاية الفتح برمتها ، قد زينها الاخباريون العرب والاسبان على السواء ، وتزبدوا فيها ما شاء لهم التزبد .

نصر حاسم

وفد طارق بجيشه ، وقد عززه بالامداد حتى بلغ ١٢ الف مقاتل ، وقابل جيش

(١) قابل : المقري ، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، نشر دوزي وريت (لينن ، ١٨٥٥) ج ١ ، ص ١٥٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١١٧ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ اخبار مجموعة في فتح الاندلس ، نشر لافونت الكترة Lafuente y Alcantara (مدريد ، ١٨٦٧) ، ص ٦ .
(٢) اورد ذلك الادريسي في «ذكر الاندلس» (وهي مقتبسات من ترجمة الشناق) نشر دون جوزيف كوندي Don Josef A. Conde (مدريد ، ١٧٩٩) ، ص ١١ ، ٣٥ ، ٤٤ .

(٣) الادريسي ، ص ٣٦ .

(٤) ورد هذا الاسم أليان في البلاذري ، ص ٢٣٠ ، وييلان في أخبار مجموعة ، ج ١ ، ص ٤ ؛ وابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ والمقري ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، وابن عبد الحكم ، ص ٢٠٦ ؛ ويوليان في ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ . ولعل اسمه الحقيقي أريان ، او ألبان .

(٥) الاسم من اللاتينية اصلاً : septem اي سبعة ؛ الادريسي ، ص ١٢ .

رودريك عند مصب نهر وادي بكة^١، على ضفة ضحضاح البحيرة . . على ان خيانة وقعت في معسكر القوط، كان قد دبرها بعض انبياء الملك المخلوع، هو ابن غيطسة او غيطشة، ساعدت على هزيمة الجيش الاسباني الذي بلغ ٢٥ ألفاً. وفي هذه المعركة فقد رودريك^٢ نفسه ولم يسمع شيء عنه بعد ذلك.

ولقد آلت هذه المعركة الى نصر حاسم، اذ استمر بعدها زحف المسلمين في سائر نواحي شبه الجزيرة، بدون توقف. اما طارق فقد سار بالقسم الاكبر من جيشه نحو العاصمة طليطلة، وفي طريقه ارسل بعض الفصائل لاختضاع المدن المجاورة التي مر بها. ولقد مر جيشه بمدينة اشيلية، وكانت منيعة الحصون، وبلغ قرطبة - عاصمة المسلمين الزاهرة في ما بعد - فسقطت على اثر خيانة نسبت الى راع، قيل انه دلّ العرب على صدع في سورها^٣. اما مالقة فلم تقاوم، واما طليطلة فقد سلمها بعض اليهود من سكانها. وكان ذلك في اواخر صيف ٧١١. وفي اقل من نصف سنة غدا القائد البربري سيداً على نصف اسبانيا، وقد استأصل مملكة باسرها.

موسى في اثر طارق

وفي شهر حزيران من العام التالي جهّز موسى ابن نصير جيشاً من العرب والسوريين^٤ بلغ عشرة آلاف جندي، وسار بهم على جناح السرعة الى ساحة الحرب. ذلك لانه لم يرق له ان يكون كل المجد، وجميع الغنائم من نصيب قواده. على انه استهدف في سيره المدن التي حاد عنها طارق، وفي طليطلة او في

(١) حرف بالاسبانية الى Guadilbeca فالتبس بـ Guadelete . Cf. Stanley Lane-Poole and Arthur Gilman, *The Moors in Spain*, (New York, 1911), pp. 14, 23.

(٢) حرفه العرب الى لتريق، لزريق، روفريق. القرني، ج ١، ص ١٦٠، ١٦١؛ ابن عبد الحكم، ص ٢٠٦؛ ابن عذاري، ج ٢، ص ٨؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ١١٧؛ اخبار مجموعة، ص ٨؛ المسعودي، ج ١، ص ٣٥٩.

(٣) ابن عذاري؛ ج ٢، ص ١٠ - ١١؛ اخبار مجموعة، ص ١٠ قابل المقرئ، ج ١، ص ١٦٤ - ٦٥.

(٤) الطبري، ج ٢، ص ١٢٥٣.

جوارها ، لحق بعبده السابق ، وجلده وقيّده بالاعلال ، لانه ابى الامتثال لامر كان اصدده اليه ، في المراحل الاولى من حملته هذه ، بان يتوقف^١ . ثم استأنف زحفه المظفر ، وسرعان ما بلغ سرقسطة في الشمال واحتلها . وكانت مرتفعات ارغونة ، وبلاد ليونة وغاليسيا ، خليقة بالسقوط لولا ان ورد عليه امر سام من الوليد في دمشق . فقد اخذ الخليفة على واليه الاساءة نفسها التي عاقب الوالي عليها قائده التابع ، وهي التصرف على هواه وعدم مراجعة رئيسه .

موكب النصر

خلف موسى بن نصير ابنه عبد العزيز في قيادة الجيش ، وسار متوجهاً نحو سورية . وقد امثل موكبه ، باستثناء حاشيته الخاصة على اربع مئة من افراد السلالة القوطية المالكة ، وافراد الأمر الارستقراطية ، تزين رؤوسهم التيجان ، وتطوق اوساطهم الاحزمة الذهبية ، وفي اثمهم جوع من العيد والاسرى^٢ يحملون نفائس الفنائم . وكان مرور موكب النصر في شمالي افريقيا وجنوبي سورية موضوعاً مستحباً لدى الاخباريين العرب^٣ . وعندما بلغ موسى بموكبه منطقة طبرية انتهى اليه امر من سليمان اخي الوليد وولي عهده - وكان الوليد مريضاً - بان يؤخر وصوله الى العاصمة حتى يتفق مع ارتقائه الى سدة الخلافة^٤ .

والظاهر ان موسى تفاوض عن الامر : وفي شهر شباط سنة ٧١٥ دخل دمشق ، فترك دخوله اليها وقعاً شديداً في النفوس . وقد استقبله الوليد ، وفي رأي البعض

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٧ - ١٨ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ .

(٢) كان عددهم ٣٠ ألفاً (١) برواية المقرئ ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ قابل ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠ - ١١ ؛ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ ؛ ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس (مدريد ، ١٨٦٨) ، ص ١٠ ؛ ومن هذا القليل : ابن قتيبة ، قهقهة فتح الاندلس (مستخرج من «الامامة والسياسة» وملحق بابن قوطية) ، ص ١٣٨ و ١٤٠ وما بعد .

(٤) قابل : المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، نشر دوزي ، الطبعة الثانية (لندن ، ١٨٨١) ، ص ٨ .

ان الذي استقبله هو الخليفة الجديد سليمان . و اقيم لهذه المناسبة مهرجان ملكي كبير ازدان بمظاهر المجد والابهة ، وذلك في باحة المسجد الاموي الذي كان الوليد قد فرغ حديثاً من اتمام بنائه ، بجوار قصر الخليفة . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً من ايام النصر في الاسلام ، اذ لم يسبق ان شوهد مثل هذا العدد من امراء العرب والاسرى الاوروبيين ذوي الشعور الصهبا ، وقد جاءوا يقدمون خضوعهم لامير المؤمنين . ولئن كان هنالك حدث يمثل المجد الاموي في اوجهه ، فلا مراء انه هذا الحدث . وكان من ابرز ما قدمه موسى الى الخليفة من الاسلاب التذكارية الثمينة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير ، كان طارق قد غنمها من كاتدرائية طليطلة . وكانت القوط قد تنافسوا في تزيينها بالاحجار الكريمة ، حتى نسجت الاساطير حولها ، فنسبت اتقان صنعها الى جن سليمان ، وروت ان الرومان حملوها من هيكل سليمان الى عاصمتهم ، ونقلها القوط من هناك الى اسبانية . وكان طارق ، على ما في الرواية ، قد انتزع احدى قوائمها عندما اغتصبها منه موسى في طليطلة ، فايرزها الآن بصورة مثيرة ، مدللأعلى انه هو ، لا موسى ، صاحب المائدة^١ .

على ان الخليفة الذي تلا الوليد عاقب موسى واذله . فبعد ان اوقفه في الشمس حتى التلف ، عزله وحجز بملكاته . وقد لاقى موسى الخاتمة التي لاقاها عدد من القواد المظفرين والاداريين الخازمين في الاسلام . وآخر ما عرف عنه ، وهو قاهر افريقيا واسبانيا ، انه كان يستعطي القوت الضروري في بعض قرى الحجاز النائية^٢ .

ولقد ألحقت اسبانيا في هذه الاثناء بالامبراطورية السورية ، واستأنف القائد الذي تلا موسى العمل على اخضاع المناطق المفتوحة في الشرق والشمال . وبعد

(١) المقري ، ج ١ ، ص ١٦٧ ، ١٧٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢١١ ؛ ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ لبذة من اخبار فتح الاندلس (قطعة مستخرجة من الرسالة الشريفة الى الاقطار الاندلسية ، ملحقة بابن توطية ، مدريد ، ١٨٦٨) ص ١٩٣ ، ٢١٣ ؛ انظر الف ليلة *Arabian Nights*, No. 272 .

(٢) المقري ، ج ١ ، ص ١٨٠ ؛ قابل ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

ان وطئت حملة العرب الاولى ارض اسبانيا للمرة الاولى بست سنوات ، وقف رجال الحملات التي استأنفت الزحف من بعدها امام قمم البرنيه الشاخة .

تعليل سهولة الفتح

ان هذا الفتح الذي يبدو لاول وهلة منقطع النظير . كان من المحتمل ان لا يتم ، لولا ما كانت تعانيه الاوضاع الداخلية من ضعف وتفسخ . فلقد كان سكان البلاد مزيجاً من الاسبان والرومان ، وكان الحكم من القوط الغربيين الذين سبق ان احتلوا البلاد في اوائل القرن الخامس ، فحكموها حكماً مطلقاً ، وحياناً استبدادياً . وقد بقوا سنوات كثيرة على مسيحتهم الآرية ، ولم يعتنقوا الكثرة التي كانت مذهب رعاياهم حتى النصف الثاني من القرن التالي . ولقد كانت الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع تعاني الرق والعبودية ، فكان لهؤلاء ، ولليهود المضطهدين يد في تسهيل عمل الفتح على العرب الفاتحين .

عبور جبال البرنيه

وفي عام ٧١٧ او ٧١٨ تمكن الحر بن عبد الرحمن الثقفي^١ . وهو الخلف الثالث لموسى بن نصير ، من عبور الجبال التي تفصل بين اسبانيا وفرنسا . كانت هذه الحملات سلسلة من الغارات استأنفها ، من بعد الحر ، خلفه السمع بن مالك الحولاني ، وكان الغرض منها الاستيلاء على النفائس التي اشتهرت بها الاديبار والكنائس في تلك المنطقة . وفي خلافة عمر الثاني سنة ٧٢٠ احتل السمع اربونة التي تحولت في ما بعد الى حصن ضخيم اشتمل على دار صناعة . وفي العام التالي جرت محاولة فاشلة لاحتلال تولوز ، قاعدة الدوق بوديس الاكوتيني ، قتل فيها السمع ، وسجل بذلك النصر الاول الذي احرزه امير جرمانى على العرب .

(١) ابن عذاري، ج ٢، ص ٢٤ - ٢٥ ؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٣٧٣ .

معركة تور

وبعد انقضاء اثنتي عشرة سنة ، قاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، امير الاندلس بعد السمع ، اكبر الحملات وآخرها عبر البرنيه . وبعد ان تم له النصر على الدوق يوديس ، وذلك على ضفاف نهر غارون ، اجتاح مدينة بوردو ، وسار شمالاً نحو بواتيه ، فبلغها واحرق بناء كنسياً كان يقوم خارج اسوارها . ثم توجه نحو تور . وكان في تور مزار للقديس مارتن ، وهو ولي كبير من اولياء الغاليين . وكان من اهم ما اجتذب الفزاة الى تور ما في مزارها هذا من نفائس النذور .

وفيما كان عبد الرحمن متوجهاً من بواتيه الى تور ، انبرى له شارل ، قيّم القصر في البلاط الميروفنجي . ومع ان شارل هذا لم يكن ملكاً بالاسم ، فقد كان كذلك بالفعل . وكان قد تمكن بشدة بأسه من ان يخضع الكثيرين من اعدائه ، وان يكره يوديس على الاقرار بسيادة اهل الشمال من الفرنجة .

وبعد مناوشات استمرت سبعة ايام حي وطيّس القتال . وكان ذلك اليوم يوم سبت في سنة ٧٣٢ ، وقد درى محاربو الفرنجة ، وجلهم من المشاة ، كيف يتقوّف البرد بجلود الذئب . وفي غمرة القتال وقفوا صفوفاً متراصة في مربع بجوّف ثابت كالصخر ، وصامد كقطعة من جليد - كما في تغيير المؤرخين الغربيين . واذ ثبتوا في مواقعهم راحوا يحصدون فرسان الاعداء كلما اقبلوا عليهم . ولقد قتل عبد الرحمن في هذه المعركة . وكان الظلام يفصل بين المتقاتلين ، فانسحب الفزاة تحت جنح الظلام ، وتواروا عن الانظار . ولم يدرك شارل اي نصر تم على يده حتى الصباح التالي . فقد اكسبه هذا النصر لقب « المطرقة » فغدا معروفاً به «مارتل» .

كانت ساحة القتال هذه في نظر المسلمين «بلاط الشهداء»^٢ ليس الا؛ والشهيد كل من قتل في حرب على غير المسلمين . اما في نظر النصارى فقد كانت نقطة تحول في المسلك الحربي الذي نهجه عدوهم الدائم . فالذي يتراءى للمؤرخين الاوروبيين، انه كان من المحتمل ان يروا المساجد حيث تقوم الكنائس اليوم في باريس ولندن ، والطرايبش حيث تلبس القبعات ، لو ان نتيجة هذه المعركة جاءت معكوسة^٣ . وواقع الامر انه لم يحدث ما هو حاسم في ساحة الحرب في تور . لكن الغزوة الاسلامية كانت قد استنفدت نفسها ، وبلغت مداها الطبيعي . اذ غدت على نحو من الف ميل من نقطة انطلاقها في جبل طارق ، فضلاً عن قاعدتها في القيروان . وكانت معنويات الجيش قد هبطت بتأثير الخلافات الداخلية . فقد اشتدت الفجوة بين العرب والبربر ، وتظلم البربر من ان العرب قد قسموا لهم المرتفعات الوسطى القاحلة ، في حين احتفظوا لانفسهم باخصب اقاليم الاندلس ؛ هذا مع ان الحروب قامت في اشد احتدامها وانتقل اعبائها على اكتافهم . كذلك العرب فقد كانوا ابعد شيء عن ان توحدهم جامعة العصبية ووحدة الهدف ، وكانت عداوة العصبية التقليدية بين اهل الشمال (المضريين)^٤ واهل الجنوب (اليمنيين) قد اخذت في الانتعاش تبعاً في ما بينهم . ثم ان المضريين كانوا على مذهب اهل السنة في حين تحول بعض اليمنيين الى الشيعة ، او مالوا الى العطف على القضية الشيعية ، فما كان من البربر الا ان اظهروا مفارقتهم لهم باعتناق مبدأ الخوارج^٥ .

دمشق العاصمة

ان الحملة على مدينة تور توقفت ، في حين ان الحملات التي استهدفت نواحي اخرى استأنفت نشاطها . ففي سنة ٧٣٤ احتل العرب افينيون ، وبعد تسع سنوات

(١) انظر ص ٥٢ حاشية ٣ ، من هذا الجزء .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٢٥ ؛ المقرئ ، ج ١ ، ص ١٤٦ . فقد جرت المعركة على طريق روماني مرصوف . قابل انجيل يوحنا ، ١٩ : ١٣ .

(٣) Gibbon, *Decline and Fall*, vol. vi, pp. 15 seq. see also Lane-Poole, pp. 29-30.

(٤) كان بنو مضر وبنو ربيعة وهم من عرب الشمال يشار اليهم في الغالب باسم مشترك هو مَعَدَّة . قابل ص ٥٧ - ٥٨ من هذا الجزء .

(٥) راجع ص ٣٢ - ٣٣ من هذا الجزء .

اغادروا على ليونه ونهبوها. وبالرغم من ذلك لا تزال معركة تور تعتبر المدى الاقصى الذي بلغه المسلمون في زحفهم المظفر. ولما كان تاريخها وهو العام ٧٣٢ هو كذلك العام المثوي الاول لوفاة النبي، كان جديراً بنا ان نتوقف عنده لنستعرض الوضع الاجمالي. فاذا نحن القينا نظرة على ملك العرب، بعد وفاة مؤسس الاسلام بمئة عام، وجدنا اتباعه يحكمون امبراطورية تفوق باتساعها امبراطورية روما في اوج اتساعها؛ فهي تمتد من خليج بسكي الى الاندلس وحدود الصين، ومن بحر آرال الى شلالات النيل. ولقد كانت عاصمة هذه الامصار الزحبة مدينة دمشق - اقدم مدن العالم الباقية وهي التي يقال ان محمداً تردد في دخولها، لانه شاء ان يدخل الفردوس مرة واحدة لا غير^١ لقد قامت هذه المدينة في وسط العوطة وكأنها لؤلؤة في حزام من الزمرد. وكان اعتماد البساتين المحيطة بها، في وجودها عبر العصور، على الارتواء من سواق تستمد مياهها من تلوج لبنان الشرقي. فقد انحدر اليها من الشمال نهر بردى (ابانا)، ثم تفرّع في سواق كثيرة انسابت في انحاء السهل المتسع. وجاءها من الجنوب نهر الاعوج (فاربر) وقد مدته الروافد الكثيرة المتحدرة من جبل الشيخ. ولقد ذكر ياقوت^٢ العالم الجغرافي الشهير في القرن الثالث عشر، انه قصد الى المواضع الاربعة التي تعتبر فراديس العالم، فوجد دمشق في طليعتها؛ قال: «وجلة الأمر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله»^٣.

والمدينة تشرف على سهل يمتد جنوباً في غرب نحو قمة مهيبة من قمم لبنان يسميها العرب جبل الشيخ؛ لانها مجلّة ابداً بالتلوج. وفي قلب العاصمة قام المسجد الاموي، وهو مثال من روائع الفن الهندسي الذي لا يزال يستهوي رواد الآثار الفنية حتى اليوم. والى جانب المسجد ارتفع قصر الخليفة المعروف بالحضراء تبعاً لقبته الحضراء^٤. وقد كان من عادة الخليفة ان يعقد مجالسه الرسمية في قصره،

(١) من المصادر الاخرى التي تمتدح مدينة دمشق ابن عساكر، ج ١، ص ٤٦ وما بعد.

(٢) البلدان، ج ٢، ص ٥٨٩.

(٣) البلدان، ج ٢، ص ٥١٠.

(٤) راجع الجزء الاول، ص ٤٤، ذيل ١.

(٥) ابن جبير، رحلة ابن جبير، نشر وليم ريت (لندن، ١٩٠٧) ص ٢٦٩، س ٣؛ الاغاني، ج ٦،

ص ١٥٩.

فيجلس متربعاً على عرش مربع الجوانب، تستره الوسائد المزركشة، وقد ارتدى الحلل الزاهية الفضفاضة، ووقف عن يمينه أنسابؤه من جهة أبيه حسب سنهم، وعن يساره أنسابؤه من جهة أمه. أما الحاشية والشعراء وأصحاب الشكايا فيقفون خلفه.

تعريب الدولة

كان من الطبيعي، بعد أن بلغت الدولة من الاستقرار هذا المبلغ، أن تلتفت إلى تعريب الإدارة وسائر مصالح الدولة. فقد كانت لغة الدواوين العامة، حتى ذلك الوقت، الرومية في سورية، والبهلوية وبعض اللهجات المحلية، في العراق والمناطق الشرقية؛ ولم يكن هنالك مجال للاختيار. ذلك أن الفاتحين المسلمين، القادمين من البادية، لما كانوا يجهلون التدوين والمعاملات المالية، اضطروا إلى أن يحتفظوا في الدوائر المالية بالموظفين اليونان والفرس وسواهم ممن لا يحسنون استخدام العربية. لكن كان قد تيسر، في غضون هذه الفترة، لبعض الموظفين أن يتعلموا العربية، ولبعض المساعدين العرب أن يلموا بشؤون التدوين المعقدة. فاصبح العرب بذلك على استعداد لإحلال العربية في دواوين الدولة، محل سائر اللغات، بوصفها اللغة الرسمية. وكان هذا الانتقال بحكم الضرورة بطيئاً، إذ بدأ في عهد عبد الملك واستمر في عهد ابنه. يستدل على ذلك من أن بعض المصادر تنسب هذا العمل إلى الوالد، في حين يضيفه بعضها الآخر إلى الابن^١. وهكذا ففي غضون ألف من السنين توالى على سورية ثلاث لغات كتابية: الآرامية، واليونانية الرومية، والعربية. أما في العراق وملحقاته فقد تولى الحجاج، وإلى الأمويين، إحلال العربية، في الدوائر المالية، محل اللهجات الاقليمية. وأما مدى النجاح الذي تحقّق في تعريب الرعايا فسنعالجه في الفصل التالي^٢.

(١) العقد، ج ٢، ص ٣٢٢؛ للورد، ص ٣٤٩-٥٠؛ البلاذري، ص ١٩٣، ٣٠٠-٣٠١ ويمزو البلاذري ذلك بسداجة بالغة إلى أمر تائه هو أن أحد الكتاب الروم بال في الهجرة.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٣٧ في الفقرة عن طبقات المجتمع.

وقد حدث مع تغيير لغة الدواوين، تغيير في السكة. فان النقود البيزنطية كانت، حتى ذلك الحين، قد تركت في التداول في سورية^١. الا انه ربما نقشت بعض الآيات القرآنية فوق النقوش الاصلية، وضربت بعض قطع النقود الذهبية والفضية على القرار البيزنطي والفارسي. فان معاوية قد ضرب بعض النقود النحاسية جاعلاً رسم الخليفة، وقد شهر سيفه، مكان رسم الملك ويده الصليب. ولم يسبق للدينار والدرهم^٢ ان سكتا بالشكل العربي الخالص^٣ الا على يد عبد الملك (٦٩٥). وفي السنة التالية قام الحجاج بضرب نقود فضية في الكوفة^٤.

مصلحة البريد

وقد أنشأ عبد الملك فضلاً عما تقدم، مصلحة بريدية منظمة^٥، خدمةً لموظفي الدولة وتسهيلاً لمراسلاتهم. اقامها على الأساس الذي وضعه له سلفه الاول معاوية^٦. فقد جعل منها عبد الملك شبكة محكمة، تربط اجزاء الامبراطورية المترامية الاطراف، وتجمع شتاتها. فعمد، تحقيقاً لهذه الغاية الى اجراء الحيلولة بصورة منظمة، في مراحل متتابعة بين دمشق من جهة وقواعد الولايات من جهة اخرى؛ واقام على البريد موظفين مسؤولين، كان من جملة ما ترتب على كل منهم ان ينهي الى الخليفة كل ما يحدث في منطقته من الاحداث الهامة. وقد استخدم الوليد هذا الجهاز في تنظيم اعمال البناء، وتحقيق مشاريع العمران.

اصلاحات في المالية وفي سواها

ولقد تمت في هذه الفترة تعديلات تناولت الضرائب والشؤون المالية. فقد

(١) البلاذري، ص ٤٦٥ - ٦٦.

(٢) راجع ص ٣٦ من هذا الجزء، ذيل ١.

(٣) الطبري، ج ٢، ص ٩٣٩؛ البلاذري، ص ٢٤٠، ٤٦٦ - ٧٨.

(٤) قابيل: ياقوت، البلدان، ج ٤، ص ٨٨٦.

(٥) العمري، التعريف في المصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢)، ص ١٨٥. والبريد لفظه سامية قديمة من برد بمعنى ارسل، قابل سفر استبر ٨ : ١٠؛ الاصفهاني التاريخ، ص ٣٩.

(٦) الفخري، ص ١٤٨.

كانت الضريبة الوحيدة التي وضعت مبدئياً على المسلم مهما كانت قوميته، اداء فريضة الزكاة. على ان المسلمين الذين نعموا بهذا الامتياز عملياً كانوا اولئك الذين تحدرّوا من اصل عربي لا غير. لقد حاول بعض المستجدين في الاسلام، وجلهم من العراق، ان يستغلوا هذا المبدأ. فأخذوا يغادرون قراهم ومزارعهم، ويتحولون الى المدن، أملاً بالالتحاق بالجيش العربي، على اعتبار انهم من الموالي. ولئن كان قد أطلق هذا اللفظ في ما بعد على العبيد المحررين. فانه لم يكن، في هذه الفترة، يقتون بشيء من معنى المذلة او انحطاط المنزلة. على ان هذا التدبير اوقع بيت المال في خسارة مزدوجة؛ ذلك لان قبول الاسلام استتبع حكماً، نقصاً في عائدات الضرائب، والالتحاق بالجيش اقتضى اضافة معينة الى مقدار الاعطيات. فعمد الحجاج لذلك الى وضع التدابير لمعالجة هذا النقص، فأمر برجوع هؤلاء الموالي الى مزارعهم^١، ورتب عليهم الضريبة الباهظة التي اعتادوا ان يؤدوها، بما يعادل الحراج والجزية معاً.

لكن تدبير الحجاج هذا اثار النقمة في اوساط المسلمين المستجدين، فاستنصب الخليفة الثاني (٧١٧-٢٠) ان يعيد التدبير القديم الذي رسمه سميّه السابق^٢، وهو ان المسلم، غريباً كان او مولى، لا يترب عليه دفع جزية ما^٣. وعندما ورد عليه تضرع من عامل له في خراسان يشير الى ان شدة الاقبال على اعتناق الاسلام قد استتبعت نقصاً خطيراً في واردات الجباية، واقترح ان تمتحن صحة اسلام هؤلاء المستجدين في الاسلام بان يجري كشف عليهم يعرف منه ما اذا كانوا قد اختنوا ام لا، اجاب عمر: «ان الله قد بعث نبيه رسولاً لا خاتناً». الا انه اصرّ على ان تعتبر الارض التي كان يؤدي عنها الحراج، بعد تحول اصحابها الى الاسلام، ملكاً للامة الاسلامية جمعاء، وأتاح للمالك السابق ان يحتفظ بالارض، على انه مستأجر لها^٤. وبما ان مقدار الجزية كان ضئيلاً، فقد احتفظ بيت المال بموارده الرئيسية من الحراج.

(١) المبرد، ص ٢٨٦.

(٢) راجع ص ١٩ - ٢٠ من هذا الجزء.

(٣) البلاذري، ص ٤٢٦.

(٤) الطبري، ج ٢، ص ١٣٥٤؛ ابن الاثير، ج ٥، ص ٣٧.

(٥) ابن عسّكر، ج ٤، ص ٨٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦٢؛ ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز (القاهرة، ١٣٣١)، ص ٨٨ - ٨٩.

على ان تدبير عمر لم يكن موفقاً ، لانه انقص موارد الدولة بالنسبة التي زاد بها عدد ابناء المدن من الموالي^١ . فقد اقبل البربر والفرس وسواهم ، جماعات غفيرة



وزن بيزنطي عليه تصديق الوليد (ت ٧١٥)

وقد رسم على وجهه الاول صليب ؛ وهذا الشكل B ٢ اشارة الى انه وزنتان ؛ وعلى وجهه الاخر كتابة بالخط الكوفي تشير الى ان الخليفة قد اقره مساوياً اوقيتين . ولعله اقدم وزن عليه نقش عربي معروف الى اليوم

على الاسلام ، رغبة في الاستفادة من الامتيازات المالية الكثيرة التي نجمت عن ذلك التدبير ؛ مما حل بعض الولاة على ان يعودوا مبدئياً ، فيما بعد ، الى سياسة الحجاج بعد ان اجروا فيها تعديلات فرعية طفيفة .

ولقد تمت على يد الحجاج اصلاحات اخرى ، منها اصلاح الكتابة الذي استهدف سهولة التمييز بين الحروف التي ترسم بصورة واحدة ، نظير الباء والتاء والهاء ؛ والذال والذال ؛ وذلك بان ادخل عليها علامات فارقة . ثم عمل على ازالة الابهام في التحريك باقتباس اشارات من السريانية ، ترمز الى الضمة والفتحة والكسرة ، على ان تجعل فرق الحروف او تحتها .

اما المباني الاثرية الرائعة التي هي من ابرز مآثر هذا العصر فسنعالجها في فصل تال (الفصل ٣٨) .

(١) ابن الجوزي ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

الفصل السابع والستون

الأحوال السياسية والاجتماعية في عهد الأمويين

كانت الاقسام الادارية في الخلافة الاموية تعتمد النظام البيزنطي في المناطق الغربية ، والنظام الفارسي في المناطق الشرقية . وكانت اهم هذه المناطق تسع هي :
١ - سورية وفلسطين ؛ ٢ - الكوفة وسائر العراق ؛ ٣ - البصرة ، مضموماً اليها فارس وسجستان وخراسان والبحرين وعمان ، وربما نجد والهامة ايضاً ؛
٤ - ارمينيا ؛ ٥ - الحجاز ؛ ٦ - كرمان ، ملحقة بمنطقة الحدود الهندية ؛ ٧ - مصر ؛
٨ - افريقيا ؛ ٩ - اليمن وسائر القسم الجنوبي من الجزيرة . وقد وزعت هذه المناطق التسع على خمس ولايات هي : ولاية العراق ، وقد اشتملت على الجانب الاعظم من فارس وشرقي الجزيرة العربية ، وقاعدتها مدينة الكوفة ؛ وولاية الحجاز وقد ضمت اليمن والاقليم الاوسط من الجزيرة العربية ؛ وولاية الجزيرة (القسم الشمالي من ارض ما بين النهرين) ، وقد الحقت بها ارمينيا واذربيجان واقسام من شرقي آسيا الصغرى ؛ وولاية مصر ، مع منطقتي الصعيد والدلتا ؛ واخيراً افريقيا ، مشتتة على شمالي افريقيا ، وغربي مصر ، ثم الاندلس وجزر المتوسط ، وقاعدتها مدينة القيروان .

الحكومة الاقليمية

كانت الحكومة الاقليمية تتولى ثلاث مهمات هي : الادارة السياسية ، وجباية الضرائب ، والارشاد الديني . وكان يقوم بهذه المهام الثلاث ثلاثة انواع من الموظفين : فالوالي (الامير ، صاحب) كان يتولى تعيين العمال على المناطق ، ويتحمل مسؤولية اعمالهم . وكان ، بوصفه والياً ، يضطلع باعباء الشؤون السياسية ، والادارة العسكرية في ولايته . على ان المشرف على جباية الموارد كان احياناً موظفاً خاصاً يدعى صاحب الخراج ، وكانت صلته بالخليفة رأساً . اما مورد الدولة الرئيسي فكان

يجمع من الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة . وكانت النفقات الاقليمية تسدد من الموارد المحلية ، ولا يرسل الى خزانة الخليفة الا الوفر الباقي على صورة رصيد .

ان الموظفين القضائيين الاولين الذين لم يتعاطوا الا القضاء كانوا يتلقون تعيينهم في الاقاليم من الولاة . وكان الكثيرون من هؤلاء القضاة في العهد الاموي يُختارون ، مبدئياً ، من بين العلماء الذين سبق ان تفقهوا بالقرآن والحديث . وكانوا يتولون القضاء في امور الرعايا المسلمين ليس الا ، اما غير المسلمين فقد اتيح لهم استقلال داخلي ، كانوا يخضعون بموجبه لرؤسائهم لا سيما الروحيين في ما يتصل بالاحوال الشخصية ، نظير مسائل الزواج والطلاق والارث . وكان هؤلاء الموظفون القضائيون يديرون اوقاف الايتام والمعتمدين ، الى جانب النظر في قضايا الناس .

ديوان الخاتم

وكان في ما انشأ معاوية ديوان الخاتم ؛ مكتب حكومي مهمته ان يستخرج نسخة من كل وثيقة رسمية ، قبل ان تحتم وترسل في سبيلها^١ ، ويجمع هذه النسخ في ملفات خاصة . والذي يبدو من تسمية هذا المكتب « بالديوان » انه من اصل فارسي^٢ . وما جاء عهد عبد الملك حتى اصبح لدى الحكومة في دمشق دار حافلة بانواع الوثائق^٣ .

تنظيم الجيش

كان الجيش الاموي منظماً على غرار الجيش البيزنطي ، فكان يتألف من خمس فرق هي : القلب والمبينة والميسرة والطليعة والساقة . على ان مروان الثاني ، آخر خلفاء بني امية (٧٤٤ - ٥٠) ، ابطال هذا النظام ، وآثر عليه نظام وحدة

(١) الطبري : ج ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ؛ الفخري : ص ١٤٩ .

(٢) قابل البلاذري ، ص ٤٦٤ .

(٣) السمودي ، ج ٥ ، ص ٢٣٩ .

صغيرة متراصة ، عرفت بالكردوس^١. لذلك كان من الصعب ان يميز باعتبار اللباس والسلاح بين الجندي العربي ونظيره اليوناني . اما الفرسان فكانوا يستخدمون السروج المستديرة الملساء ، نظير تلك التي لا تزال الى الآن تستخدم في اشرق الادنى . وكان السلاح الثقيل يتألف من العرّادة والمنجنيق والكبش او الدبابة . وكان السلاح الثقيل ، وسائر الذخائر والامتعة ، تنقل على الجمال وراء الجيش .

وكانت قوى الجيش الرئيسية المقيمة في دمشق تتألف من السوريين ، ومن العرب الذين تزحوا الى سورية واستوطنوها . وقد احتفظ الخلفاء السفيانيون بجيش عدده ستون ألفاً ، بلغت نفقاته السنوية ستين مليون درهم^٢ . لكن يزيد الثالث (٧٤٤) خفض جميع الاعطيات السنوية بنسبة عشرة بالمئة فلحق بالناقص . وفي عهد خلفه ، وهو آخر افراد السلالة الاموية ، كان عدد الجيش قد هبط الى ما لا يزيد عن الاتني عشر ألفاً^٣.

كذلك الاسطول العربي ، فان نظامه نقل عن الاسطول البيزنطي ، وكانت اكثر ملاحيه من السوريين^٤. ان السفينة كانت هي الوحدة الحربية في القتال ، وكان في كل من سطحها الاسفلين ما لا يقل عن خمسة وعشرين مقعداً للتجديف ، يجلس على كل منها رجلان . وهؤلاء المئة من الملاحين في كل سفينة كانوا ايضاً مسلحين . اما الذين كانت مهمتهم القتال فكانوا يرابطون على ظهر السفينة .

الحياة في البلاط

كانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف ، بالقياس الى حياة الخلفاء السابقين في المدينة ؛ فقد كانت هذه ، بوجه الاجمال بسيطة موسومة بالوقار^٥. ذلك

(١) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٤٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ ، ص ٧ - ٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٦٥ ، ص ١٦ (قابل ص ١٩٥ ، ص ٢٥ - ٢٧) .

(٢) المسودي ، ج ٥ ، ص ١٩٥ .

(٣) ورد هذا الرقم ١٢٠ ، ٠٠٠ في الفخري ، ص ١٩٧ ، وهو خطأ ؛ ابو الفداء ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ؛ انظر ما سيبي ، ص ٥٣١ .

(٤) انظر ص ٢٤ - ٢٥ من هذا الجزء .

(٥) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء .

ان صلات الناس بالخلفاء الامويين اخذت في ان تخضع لضرب من العرف السياسي . فارتداء الاثواب الرسمية التي طرأت على حواشيها اسم الخليفة مع بعض العبارات الدينية ، بدأ يشيع ، على ما هو محتمل ، في عهد عبد الملك . وكان الاقباط في مصر يحسبون النسيج ، ويصنعون القراطيس^١ من ورق البردي للكتابة . وقد امر عبد الملك ان توضع بعض العبارات الاسلامية في رأس الادراج مكان الصليب ورموز التثليث . ويستدل من اطلاق لفظة « طراز » الفارسية على الزركشة في الاثواب ، ومن التشجير في النسيج والملابس الرسمية والمقتنيات الاخرى ، التي صنعت خصيصاً للبلاط ، على ان الخلفاء قد تبعوا في هذه المظاهر الزي الفارسي لا البيزنطي^٢ .

اما ليالي الخلفاء فكانت وفقاً على السر ومجالس الانس . فكانت متعة معاوية الاصفاء الى القصص ، ومن اجل ذلك استقدم قصاصاً من اقاصي اليمن ، وهو عبيد (عبيد) بن شريه ، ليحدثه باخبار الغابرين من الابطال^٣ . وكان ماء الورد شراهم المستطاب ، وكذلك هو في دمشق ، وسواها من مدن الشرق ، الى اليوم .

على ان بعضهم رغب في شراب اقوى مفعولاً . وكان يزيد بن معاوية اول من زاول الشرب من الخلفاء ، فلقب لادمانه بيزيد الجور^٤ . وكان في جملة ندمائه قرد أليف يكنى بأبي قيس ، كان قد عوّده الشرب . وقد قيل ان يزيد كان يشرب كل يوم ، في حين كان الوليد الاول يشرب يوماً ويدع يوماً . على ان هشاماً اكتفى بالشرب مرة واحدة كل يوم جمعة ؛ وقع عبد الملك بالشرب مرة واحدة في الشهر ، لكنه كان يكثر حتى ليضطر الى تناول المقيّئات^٥ . على ان الاخبار المتعلقة بالجانب المرح من حياة الخلفاء قد ورد اكثرها في العقد والاغاني^٦ ، وما

(١) مفردھا قرطاس لفظة يونانية الاصل ؛ البلاذري ، ص ٢٤٠ .

(٢) R. B. Sarjeant in *Arts Islamica*, vol. ix (1942), pp. 60-62.

(٣) انظر ٤٩٢ - ٩٣ ؛ والفصل ٣٨ في الفقرة عن التاريخ .

(٤) الانساب ، ج ٤ B ، ص ٣٠ ؛ العقد ج ٣ ، ص ٤٠٣ ؛ التويري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٩١ .

(٥) قابل : العقد ، ج ٣ ، ص ٤٠٤ .

(٦) ذكر صاحب الاغاني في الجزء الاول ص ٣ انه قد توخى في اختياره للاخبار الى ما فيه « رونق يروق الناظر ويلهي السامع » .

جرى مجراها من المجاميع الادبية التي لا يجوز ان تعتمد بدلائنها الحرفية . وكان يزيد الثاني شغوفاً بالقيان فضلاً عن الخمر ، وكان يقضي معظم وقته مع قنيتين اثويتين عنده هما سلامة وحبابة . وكان يوماً يداعب حبابة فالتقى فيها بحبة غيب فشرقت بها وماتت . فجزع عليها جزعاً ذهب بحياته^١ . على ان صاحب السبق في الشرب كان ابنه الوليد الثاني (٧٤٣ - ٤٤) ، الخليفة الذي لا يرعوي ، والذي كان لهو الاثير ، كما في الاخبار ، ان يسبح في بركة من الخمر ، ويشرب منها حتى يهبط مستوى سطحها^٢ . ويقال انه فتح القرآن يوماً ، فوقع عينه على الآية واستفتحوا « وخاب كل جبار عنيد »^٣ . فغضب غضباً شديداً ، ورمى الكتاب الكريم بنباله حتى مزقه^٤ . وقد حفظ لنا صاحب الاغاني^٥ رواية شاهد عيان ، وصف بها بعض مجالس الوليد الخليفة ، وكان يقيم بعضها في قصره بالبادية قرب القريتين ، في منتصف الطريق بين دمشق وتدمر . اما الخلفاء الذين كانوا على جانب من الرصانة ، فكانوا يحتجبون عن مطربهم بستاثر يضربونها دونهم . ولم يكن الوليد من هؤلاء^٦ .

اللهو البريء

وقد اخذ بعض الخلفاء ورجال بطانتهم بضروب من اللهو البريء ، نذكر منها الصيد والسباق ولعب الترد . اما لعبة الكرة والصولجان فالتغلب لها تسربت اليهم من الفرس في اواخر العصر الاموي ، ولم تلبث ان غدت من امتع ضروب الرياضة وارقاها لدى العباسيين . ولم تكن مشاهدة قتال الديكة من الامور النادرة . وكان الصيد من ضروب اللهو القديمة في الجزيرة ، وكان العرب يستخدمون اولاً الكلاب السلوقية (منسوبة الى سلوق في اليمن) وحدها ، لكنهم استعانوا في ما

١) العيون والحدائق (١٨٦٥) ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ قابل الاغاني ، ج ١٣ ، ص ١٦٥ .

٢) النواجي ، حلبة الكمين (القاهرة ، ١٢٩٩) ، ص ٩٨ .

٣) القرآن الكريم ، سورة ابراهيم ، آية ١٨ .

٤) الاغاني ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .

٥) الاغاني ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

٦) الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، نشر احمد زكي (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٣٢ .

بعد بالفهود . وكان الفرس والمنود قد عنوا بترويض الكلاب لهذه الغاية قبل العرب بزمان طويل . وكان يزيد بن معاوية اول ضياد اشتهر في الاسلام ، فعلم الفهود ان تركب على اكفال الجياد لدى الخروج الى الصيد . وكان يلبس كلاب الصيد خلاخل من ذهب ، ويعين لكل منها عبداً يقوم على خدمته^١ . وكان الوليد من اسبق الخلفاء الى تنظيم المهرجانات العامة لسباق الخيل او رعايتها^٢ . وكان اخوه سليمان قد اعدّ العدة لاقامة سباق عام يتبارى فيه الفرسان ، لكنه مات قبل ان يحقق ذلك^٣ . وقد اشترك في سباق اجراه اخوها هشام اربعة الاف فرس من خيول الامراء وسواها ، « ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لاحد من الناس »^٤ . وكان لهشام ابنة تقتني الخيول وتعتنى بامرها^٥ .

نساء الخلفاء

والذي يبدو ان سيدات البلاط كنّ يتمتعن نسبياً بقسط وافر من الحرية . فقد كن ولا شك يظهرن محجّبات في المجتمعات العامة ، اذ الحجاب تقليد سامي قديم اقرّه القرآن^٦ . وهذه عاتكة ابنة معاوية الجميلة يقول فيها الشعر شاعر مكّي يسمح له استراق النظر اليها وهي في طريقها الى الحج ، فيما كانت الحجب والستائر مرفوعة . ولم يتردد الشاعر في ان يلحق بها حتى عاصمة ابوها . وهنا وجد الخليفة انه لا بد له من ان « يقطع لسان الشاعر » بالطريقة التقليدية ، وهي انه وصله بصلة مالية ، ثم اختار له ، الى ذلك ، زوجة موافقة^٧ . ويقال عن حفيدة لمعاوية تدعى عاتكة ايضاً ، انها غضبت على زوجها ، وهو الخليفة العاتي عبد الملك بن مروان

(١) الفخري ، ص ٧٦ .

(٢) المسعودي ، ج ٦ ، ص ١٣ - ١٧ .

(٣) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ٥٦ .

(٤) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .

(٥) العيون والحداثق (١٨٦٥) ص ٦٩ ، ص ١٢ سورة الاحزاب : ٥٣ ، ٥٥ .

(٦) انظر الجزء الاول ص ١٨٨ ، ٤٣٢ .

(٧) الاغانى ، ج ٦ ، ص ١٥٨ - ٦١ .

ودخلت غرفتها واوصدت الباب على نفسها ، وابت ان تفتحه لاحد . حتى جاءها احد افراد الحاشية الاثريين عندها وهو يكي ، ووقف على بابها طالباً شفاعتها لدى عبد الملك ، مدعياً باطلاً ، ان احد ابنه قد قتل الآخر ، وان عبد الملك قد امر بقتل القاتل^١ . وان شاعراً آخر ، هو وضاح البين ، بلغ من جرأته ان نظم شعراً تغزل فيه باحدى زوجات الوليد في دمشق ، ولم يأبه لتهديد الخليفة . لكنه لم يلبث ان قُتل بجرائمه^٢ . ولقد كان من عادة هذا الشاعر ، وسواه من الرجال ذوي الصورة الجميلة ، ان يجلبوا وجوههم في الاحتفالات العامة حتى لا يصابوا بالعين^٣ . لكن نظام الحريم ، وما رافقه من استخدام الحصيان ، لم يندُ عرفاً سالكاً حتى عهد الوليد الثاني^٤ . وقد جرى العرب في اتخاذ الحصيان على السياق البيزنطي ، وكان معظم الحصيان الاولين من الروم^٥ .

العاصمة

لا يمكن ان تكون مدينة دمشق قد تغيرت كثيراً ، في مظاهرها الخارجية ، ومناهج الحياة فيها ، منذ عهد الامويين . فقد كانت آنذاك ، مثلها اليوم ، ذات دروب ضيقة مسقوفة ، فيها الشامي بسرويله الفضفاضة ، وعمامته الكبيرة ، وحذائه الاحمر المستدق الرأس ، يسير جنباً الى جنب بدوي قد لوثته الشمس ، والتفّ بعباءة متهدلة ، وستر رأسه بكوفية وعقال . وقد يمرّ من وقت الى آخر رجل يرتدي ملابس افريقية^٦ . او تعبر الطريق بضع نساء محجبات ، ويسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكة في بيوتهن التي تشرف على الاسواق والساحات

(١) المسعودي ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ٧٥ .

(٢) الاغانى ، ج ٦ ، ص ٣٦ وما يتبع ؛ ج ١١ ، ص ٤٩ .

(٣) الاغانى ، ج ٦ ، ص ٣٣ .

(٤) الاغانى ، ج ٤ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

J. B. Bury, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century* (٥ (London, 1911), pp. 120 seq. ; Charles Diehl, *Byzance: Grandeur et décadence* (Paris, 1919), p. 154.

(٦) تعريب Frank ، اطلقت على جميع الاوروبيين وشاعت على الاخص في عهد الصليبيين .

العامة . ولم تكن هنالك قوانين للسير الى اليمين والى اليسار ؛ ولا كان الدرب مقسوماً بين الراكب والراجل . وقد يرى الناظر في وسط الجموع المزدحمة رجالاً من الاشراف على صهوة جواده ، وقد ارتدى عباءة من حرير ، وتقلد في وسطه سيفاً ؛ ويسمع اصوات باعة الشراب والحلوى ، تعلو وسط هذا الضجيج الناجم عن وقع اقدام المارة ، وحوافر الحمير ، واخفاف الجمال ، التي تحمل المنتجات المختلفة من البادية والمزارع ؛ ويتنسم جو المدينة الذي يعبق باصناف الروائح المختلفة : بما يشغل العين والاذن والانف .

وفي دمشق ، كما في حمص وحلب ، وسواهما من المدن ، اقام العرب في احياء مختلفة تبعاً لرابطتهم القبلية . ولا يزال هذا التقسيم الى حارات واحياء واضعاً حتى اليوم . وكان لكل بيت باب على الشارع يؤدي الى بهو داخلي يتوسطه حوض ماء كبير ، فيه نافورة ينطلق منها الماء في الفضاء ، مكوناً حجائباً ثابتاً من الرشاش . وقد نبئت الى جانبه شجرة يرتقال او اترج . والامويون هم اصحاب الفضل في تجهيز دمشق بنظام لتوزيع المياه منقطع النظير في ذلك العهد ، لا يزال مألوفاً الى اليوم . ولا يزال اسم احدهم — هو يزيد الاول — يطلق على قناة متصلة بنهر بردى ، كان هو الذي شقها او وسع جوانبها^١ . اما الجنائن الغناء التي تحيط بالمدينة — القوطة — فمدينة بوجودها لنهر بردى الذي تجري منه المياه في قنوات اخرى الى انحاء المدينة لتبعث فيها النضارة والخصب . ولا يزال في دمشق الى اليوم نحو من ستين حماماً عاماً ، بعضها مزدان بالفسيفساء والبلاط المزخرف ، وكلها تشهد لغزارة المياه في المدينة ، ولاحكام توزيعها^٢ .

طبقات المجتمع

كان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات ، اعلاها طبقة الحاكمين وجماعة الاشراف من العرب الفاتحين . وكان العرب ، حتى العهد العباسي ، يؤلفون

(١) الاصطخري ، ص ٥٩ ؛ قابل N. Sauvaire, « Description de Damas : 'Oyoun et-Tawârikh, par Mohammed ebn Châker », *Journal asiatique*, ser. 9, vol. vii (1896), p. 400.

(٢) للاستزادة من هذا الموضوع راجع : M. Ecochard, *Les Bains de Damas* (Beirut, 1942).

طبقة اجتماعية وراثية لا يعرف عدد افرادها بالضبط ، انما ينبغي ان لا يغيب عن الذهن ان الذين رغبوا في الزراعة من العرب والبدو كانوا قليلين ، ولذلك غلب عليهم التجمع في المدن . وكان من الطبيعي ان يتحاشى العرب جبال لبنان ، وعلى ذلك لم ينزح اليه العرب الا في القرن التاسع فما بعد . وفي بعض الاخبار المتأخرة ان التنوخيين ، الذين كان لهم في امور لبنان السياسية شأن بارز ، لم يدخلوه حتى اوائل القرن التاسع^١ . ولم يكن هؤلاء التنوخيون كثيري العدد ، ولا تحدثت منهم ذرية ما^٢ ، شأنهم في ذلك شأن سواهم من الاسر الاقطاعية . اما بنو عاملة ، فقد انساحوا الى المنطقة الجنوبية منه ، بعد القرن الحادي عشر^٣ . وكذلك في سورية ، فان بني حمدان الذين أسسوا دولتهم في حلب^٤ لم يبلغوا اليها حتى اواسط القرن العاشر . ثم بلغها بعدهم بنو مرداس^٥ في اوائل الحادي عشر ، وتولوا الحكم فيها من بعدهم . وما هو جدير بالذكر ، ان هذه القبائل لم تأت ، ولا واحدة منها ، نوّاً من البادية ؛ بل كانوا ممن سبق لهم ان اقاموا في الحيرة ، او في سواها من مناطق الهلال الخصيب . اما في ما يتعلق بالقبائل البدوية التي تسيطر اليوم على بادية الشام ، فان هجرتها اليها حديثة نسبياً . فعرب عنزة لم يستقروا فيها حتى مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر ، اذ لحقوا بقبائل شمر الذين سبقوهم اليها من نجد ؛ وما عرب الرولى الا فرع من عنزة ، وهم آخر من هاجر من البدو الى سورية^٦ .

ولا شك ان بعض العرب ، وربما البدو ، قد تسالوا الى الارياف ، وانشأوا فيها القرى . وقد تمّ نشوء هذه القرى على مراحل انتقالية واضحة : من استيطان

(١) الشدياق ، تاريخ الاعيان في جبل لبنان (بيروت ، ١٨٥٩) ، ص ٢٢٤ ، قابل : صالح ابن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو (بيروت ، ١٩٠٢) ، ص ٦٥ ، وفيه نسب تنوخ ، التي تحفر منها بنو بختر ، الى احد ملوك الغنمين المنذر بن ماء السماء ، لا الى قبيلة تنوخ .

(٢) قابل : فؤاد حزة ، قلب جزيرة العرب (القاهرة ، ١٩٣٣) ، ص ٢٣٣ .

(٣) راجع ما سبق ، ص ٦ ح ١

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ حول الحمدانيين .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٤ حول المرداسيين .

(٦) راجع وصفي زكريا ، عشائر الشام ، ج ١ (دمشق ، ١٩٤٥) ، ص ١١٧ - ١١٨ .

مؤقت، الى حياة بدوية زراعية ذات حظ من الاستقرار، فالى حياة ريفية مستقرة. ونشأت معظم هذه القرى حول منابع المياه، واعتبر في اختيار مواقعها سهولة الدفاع وخصب التربة. اما مناقب الحياة البدوية، وخصائص نظامها، نظير التماسك العائلي، والافتخار بالشجاعة والضيافة وطغيان الاحاسيس الشخصية في جميع العلاقات الانسانية، فلا تزال بارزة، وموضوعاً للثناء العظيم، في المجتمع السوري والبناني.

بلغ الجيش العربي الذي فتح سورية نحواً من ٢٥ الف جندي^١. فقد كان عدد الجنود من المسلمين العرب في عهد مروان الاول، عشرين الفاً، كما في سجلات ديوان الجند في حمص وتوابعها. وكان عددهم في عهد الوليد الاول خمسة واربعين الفاً في دمشق وملحقاتها، التي اشتملت على الساحل الفينيقي. وعلى هذا الاساس، فان عدد المسلمين في سورية، في القرن الاول بعد الفتح، لا يحتمل ان يكون قد زاد على مئتي الف نفس، من اصل مجموع السكان الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ونصف^٢. اما لبنان، فقد بقي معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من اصل فينيقي. وكان في جميع الامصار اقلية ضئيلة من البدو، لكن هؤلاء استطاعوا ان يلعبوا دورهم الهام في العمل على توحيد الاكثرية المنتشرة في الاصقاع المتباعدة.

لقد كان من استقرار العرب في المدن ان غدت العربية في غضون ذلك الزمن لغة المدن. ثم ان تردد ابناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم او مزاولة اعمالهم، دعاهم الى تعلم اللغة الجديدة، دون ان يضطروهم الى التخلي عن لسانهم القديم. وكذلك اهل الفكر من السكان الاصليين، فقد استنسبوا ان يتعلموا العربية من اجل ان يؤهلوا انفسهم للعمل في وظائف الدولة.

ان عدد الذين سارعوا الى اعتناق الاسلام من ابناء الارياك كان اقل، بطبيعة الحال، من اولئك الذين اقبلوا على اللغة الجديدة. ذلك، في الدرجة الاولى، لان

(١) راجع ما سبق ص ٤١٥ - ١٦٠.

(٢) قابل الجزء الاول ص ٣٠٦، ٣٢٣؛ Lammen, *La Syrie*, vol. i, pp. 119-20.

الحلفاء الامويين، باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني^١، لم يجذبوا هذا التحول، لا سيما في الاوساط الزراعية. وعلى ذلك، فان تساهل الامويين لم يكن محصوراً في الامور السياسية، بل كان عاماً في المنحى الديني والفكري ايضاً. ولئن كانت العاصمة والمدن الكبرى قد اتسمت، لدى انصرام العهد الاموي، بسمات المدن الاسلامية، فان الاماكن الاخرى، وعلى الاخص المناطق الجبلية، قد حافظت على مظاهرها الاقليمية، وابقت على طابعها الحضاري المحلي. ولقد اخرجت سورية الاموية لاهوتياً من اعظم لاهوتي الكنيسة الشرقية، واشهر واضعي التسابيح في شعائرها، هو يوحنا الدمشقي؛ واعدت للسيحية من ابنائها خمسة من البابوات، ارتفع منهم اثنان الى مصاف القديسين^٢. اما لبنان، فقد بقي مسيحياً في ايمانه، وسريانياً في لسانه، لقرون عديدة بعد الفتح. والواقع ان الذي انتهى امره بالفتح هو النزاع الحربي، اما الحصار الديني والعربي والاجتماعي، وفوق ذلك كله اللغوي، فكان ما يزال في اوله.

طبقة الموالي

ويلي طبقة العرب المسلمين طبقة الموالي، اي المسلمين من الاعاجم، وهم السكان الاصليون، الذين 'حملوا' عن طريق القوة او الضغط او الاضطهاد على اعتناق الاسلام، فتم لهم بذلك التمتع؛ ولو اسمياً، بحقوق الرعية الاسلامية جميعها. وكان دأب هؤلاء ان يلتحقوا ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء، فيعتبروا من افرادها ويحسبوا من مواليها.

لكن التحاقهم بالعرب على هذه الصورة ادى الى اعتبارهم الطبقة الاجتماعية الدنيا في البيئة الاسلامية، فامتنعوا لذلك اشد الامتناع، واطهروا هذه المراتبة التي ملأت نفوسهم بانحيازهم الى الشيعة في العراق، والى الخوارج في فارس. على ان البعض منهم قد اعتنق الدين الجديد عن ايمان وحرارة، غدوا بها اقوى دعاته

(١) راجع ص ٩ - ١١ من هذا الجزء.

(٢) م يوحنا الخامس (٦٨٥ - ٨٦)، القديس سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١)، سيسينيوس (٧٠٨)، قسطنطين (٧٠٨ - ١٥)، القديس غريغوريوس الثالث (٧٣١ - ٤١)؛ انظر ما يلي ص ١١٥، Horace K. Mann, vol. i, pt. 2 (St. Louis, 1914), pp. 64-7, 77-104, 124-6, 127-40, 203-24.

واشدهم اضطهاداً لابناء دينهم السابق . ولقد كان الموالي ، بطبيعة الحال ، السابقين في المجتمع الاسلامي الى تركيز جهودهم على العناية بالابحاث العلمية والفنون الجميلة . فقد نقلوا ادبهم وعلومهم الى ابناء دينهم الجديد؛ وما ان اظهروا تفوقهم على العرب في ميدان العلم والفكر، حتى اخذوا ينافسونهم في تولي الزعامة السياسية . ثم نتج عن اختلاطهم بهم بالزواج تهجين الدم العربي ، حتى آل الامر اخيراً الى اطلاق لفظة « عرب » على جميع المسلمين الذين تكلموا العربية ، دون اعتبار للعرق الذي تحدروا منه .

اهل الذمة

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من اهل الذمة ، وهم الذين قبل منهم دينهم على انه دين منزل ، والمراد بهم النصارى واليهود والصابئة ؛ ذلك ان الاسلام شملهم بالامان ، وصانهم بالعهود والمواثيق . وقد اتاح النبي نفسه^١ للنصارى واليهود هذا الوضع السمع على اعتبار انهم اهل الكتاب، ومرد ذلك انما هو اجلال النبي للكتاب المقدس ، من جهة ، وعلمه من جهة اخرى ، بان عدداً من القبائل العربية النازلة على تخوم سورية والعراق ، كبني غسان ، وبكر وتغلب وتنوخ ، كانت قد تنصرت . اما الصابئة فقد منحوا هذا الامتياز^٢ على اعتبار انهم موحدون . وهؤلاء هم المندبيون المعروفون بنصارى القديس يوحنا ؛ ولا يزال منهم قوم يسكنون الى الآن الاغوار المحاذية لمصب نهر الفرات . اما في الجزيرة العربية بالذات ، فلم يسمح بوجود غير المسلمين ، وذلك عملاً بمحدث منسوب الى النبي . وقد استثنى من ذلك جماعة قليلة من يهود اليمن . على ان هذا الوضع السمع ، الذي تمتع به اهل الذمة ، غدا مبرراً لتجريدتهم من السلاح ، وفرض الجزية عليهم ، في مقابل حماية المسلمين لهم ؛ وكان هذا التدبير هو الحل الذي اعتمده الاسلام لمشكلة الاقليات .

لقد اتاح هذا الوضع لاهل الذمة ان يتمتعوا بقسط وافر من الحرية ، وذلك في مقابل اداء ضريبة الحراج والجزية . على انهم ، اذ لم يكونوا من صميم المجتمع الديني ذي السيادة في البلاد ، كانوا في منزلة اجتماعية وسياسية ثانوية . وظل مرجعهم في

(١) سورة التوبة : ٢٩ ، البقرة : ٩٩ ، ١٠٣ ، آل عمران : ٦٢ - ٦٥ ، الخ .

(٢) سورة البقرة : ٥٩ ، المائدة : ٧٣ ، سورة الحج : ١٧ .

الامور المدنية والقضائية الى رؤسائهم الروحيين الا في القضايا التي مست المسلمين^١، ذلك لان ذوي الامر استنكفوا من تطبيق الشريعة المحمدية عليهم، اذ هي لم توضع لهم. وقد بقيت بعض المبادئ العامة في هذا النظام تسري على اهل الذمة ابان العصر العثماني، وفي عهد الانتداب. اما مبدأ الجمع بين الدين والسياسة، فهو تقليد سامي قديم، وليس هو من محدثات الاسلام.

على ان هذا الوضع السمج الذي نُصِّبَ به اهل الذمة في عهد النبي قد شمل، بعد ذلك، عبدة النار (المجوس) من اتباع زرادشت، وعبدة الكواكب من اهل حرّان (الصابئة)، والوثنيين من البرابرة وسواهم. ومع ان هؤلاء لم يكونوا اصحاب دين سماوي، وكانوا قانونياً خارج نطاق الاسلام، فقد اتاح لهم الفاتحون المسلمون الاختيار بين ثلاثة امور هي: الاسلام والسيف، والجزية؛ بدلاً من امرين لا غير: هما الاسلام والسيف. فقد صرّح ابو يوسف^٢ القاضي المعروف في عهد هارون الرشيد، ان المشركين وعبدة النار وعبدة الاصنام، فضلاً عن اهل الكتاب، يجوز ان يمنحوه الامان، ويعتبروا مواطنين داخلين في ذمة الدولة الاسلامية.

ولقد كان اهل الذمة في سورية، حتى عهد عمر الثاني، يعاملون بالحسنى، لا يستثنى من ذلك الا حادثة واحدة وقعت لامير تغلب المسيحية، اذ قتله الوليد الاول لامتناعه عن اعتناق الاسلام^٣. والظاهر ان المسلمين كانوا اقل تساهلاً بشأن النصارى المتحدرين من اصل عربي، كما يبدو ذلك من هذا الحادث، ومن موقفهم من بني تنوخ بوجه الاجمال. فقد دعي النازلون في جوار قنسرين من التبوخين الى الاسلام، وعلى اثر فتح سورية، فلبى بعضهم الدعوة^٤. واجبر المهدي العباسي (٧٧٥ - ٨٠٥) المقيمين منهم في جوار حلب على اعتناق الاسلام، وعمد الى هدم كنائسهم. أما القبط في مصر، فبعد ان لجأوا في اثبات كياناتهم الى الانتفاض على أسيادهم المسلمين، عادوا فأثروا الخضوع في خلافة المأمون العباسي (٨١٣ - ٨٣٣)^٥.

(١) راجع سورة المائدة: ٤٧ - ٥٢.

(٢) الحراج، ص ٧٩، ص ١٥ - ١٧.

(٣) الاغاني، ج ١٠، ص ٩٩.

(٤) البلاذري، ص ١٤٤ - ٤٥.

(٥) الكندي، تاريخ مصر وولاتها نشر رونون غست Rhuvon Guest (لندن، ١٩١٢)، ص ٧٣، ٨١، ٩٦، ١١٦، ١١٧؛ القريري، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (بولاق، ١٢٧٠)، ج ٢، ص ٤٩٧.

ولقد استأنف النصارى واليهود مزاولة الاعمال التي ظالما كسبوا بها عيشهم، مع ان البعض من هذه الاعمال، نظير صنع الحمرة والمتاجرة بها، وممارسة بعض الالعب التي هي من قبيل الميسر، كانت جميعها محرمة في الاسلام. وقد استمرت حانات الحمرة ودور المقامرة، حيث كان لعب الترد من احب ضروب اللهو، في ازدهارها؛ بل قد تمتعت احياناً برعاية بعض المتنفذين حتى من المسلمين. وكان الرهبان ارباب خبرة واسعة في صناعة الخمر، وجني العسل، وتعهّد الاثمار والازهار. اما في ما يتعلق بالاديار، فغالبا الظن انها كانت تشتمل على دار ضيافة للهو والسمر. وقد اورد العمري (ت ٣٤٩)، وهو من ابناء دمشق، اخباراً كثيرة عمل فيها الخلفاء وسواهم من المسلمين على رعاية الاديار والمناسك، من اجل الشرب واللهو؛ ولم يكن ذلك اللهو دائماً من النوع البريء. وهذا الامر يصدق بصورة خاصة على الوليد بن يزيد^١. ففي رواية ان الوليد استطاب خمره شربها في احد الاديار الى حد انه ملأ الجرن الذي شرب محتواه هو واخوه، بالنقود الفضية. وقد كانت الخمر تصدر من لبنان حتى المدينة جنوباً؛ وروي عن شاعر حجازي كاتب يقضي ليالي كثيرة حتى الصبح في مجلس هو مع اصحابه، انه اثار ريبة زوجته، فقال لها:

لا تعدميني نديماً ماجداً انفاً لا قائداً قاذفاً خلقاً يبهتان
سبيته من قرى بيروت صافية^٢ عذراء اوسبتت من ارض بيسان
انا لنشربها حتى تميل بنسا كما تميل وسان بوسنان^٣.

قيود عمر

ان شهرة عمر بن عبد العزيز لم تقم، في الدرجة الاولى، على تقواه او على الغاء الضرائب عن المستجدين في الاسلام فحسب، بل على انه اسبق الخلفاء في الاسلام الى وضع القيود الشديدة على الرعايا المسيحيين - تلك القيود التي نسبت خطأ الى سميّه السابق عمر ابن الخطاب^٤. فقد سن قوانين حظر بموجبها على النصارى تقلد

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، نشر أحمد زكي، ج ١، (القاهرة، ١٩٢٤)، ص ٣٢١ - ٣٢٢، ٣٤٩، ٣٥١ - ٣٥٢، ٣٥٥ - ٥٦.

(٢) قابل الجزء الاول، ١٠٤، ٣٢٨ - ٣٣٠.

(٣) الاغانى، ج ٢، ص ٨٦، ٨٨.

(٤) راجع ص ٣١ من هذا الجزء. ابن عبد الحكم، ص ١٥١ - ٥٢.

الوظائف في مناصب الدولة، وحرّم عليهم لبس العمام، والزهم، بجزّ نواصيهم، وبأن يرتدوا ملابس خاصة، ويشدوا اوساطهم باحزمة من جلد، ويركبوا مطاياهم دون ان تسرج؛ ثمّ منعهم من بناء الكنائس، ومن رفع اصواتهم في الصلاة. وقصر عقوبة المسلم، ان هو قتل نصرانياً، على الدية، وقضى برفض شهادة النصراني على المسلم. ومن المحتمل ان تكون هذه التدابير قد وضعت استجابة لطلب الجمهور. اما في الوظائف الادارية والمهام التجارية والاعمال الصناعية، فلم يتمكن العرب المسلمون، وجلهم ما زالوا اميين، ان ينافسوا ابناء البلاد من المسيحيين. كذلك اليهود - وهم اقل عدداً من النصارى، وقد مارسوا من الاعمال ما هو احقر - فان بعض هذه القيود، على ما يبدو، قد سرت عليهم، وانهم حرموا كذلك من تقلد المناصب في الدولة. ومن الجدير بالذكر ان التمييز بين جماعات الناس، عن طريق الزامهم بارتداء ملابس خاصة، تديبر عرف قبل الاسلام في الشرق الادنى، وان بعض هذه القيود لم تطبق بعد عهد عمر.

طبقة الرقيق

وكان الرقيق الطبقة الدنيا من طبقات المجتمع. والرقيق نظام سامي قديم، اقرته التوراة فقداً نظاماً شرعياً. ثم قبله الاسلام، بعد ان نص على اصلاح حالة العبيد؛ اذ حرّم الشرع على المسلم ان يستعبد اخاه في الدين، لكنه لم يمنح العبد من الاعاجم الحق بان يعتق لدى اعتناق الاسلام.

وكان اقتناء العبيد في فجر الاسلام عن طريق الشراء او الاختطاف او الغزو او الاسر في الحروب ان لم تؤد عن الاسير الفدية، وفيهم النساء والاولاد. ولم تلبث تجارة الرقيق ان نشطت في العالم الاسلامي، وجنى منها اصحابها ارباحاً وافرة. وكانت اسواق الرقيق تستورد الزنوج من افريقيا الشمالية والوسطى، والرقيق الاصفر من فرغانة وتركستان الصينية، والرقيق الابيض من الشرق الادنى واوروبا الجنوبية الشرقية. وكانت طبقة الرقيق تستمد حيويتها واستمرارها من نظام الرقيق نفسه. فالشرع الاسلامي يعتبر اولاد الامة من العبد، او من اي رجل غير سيدها، او من سيدها ان هو لم يلحقها بنسبه، عبيداً ايضاً. اما اولاد العبد من زوجة حرة فكأنوا يعدون من الاحرار.

ثم ان القرآن قد نصّ على وضع متوسط بين السيد من جهة والامة من جهة اخرى تخلف عن نظام التسري، فاعتبر اولاد السيد من جاريته احراراً، وارتفعت منزلة الجارية الى «ام ولد». وعندها يحظر على الزوج بيعها او اهداؤها لاحد؛ فاذا مات عنها اعتقت. وقد طالما اعتبر اطلاق العبد قرباناً يتقرب به السيد من ربه. وكان العبد المحرر يتمتع بما يحق للمولى من سيده، حتى انه ليورث ممتلكات سيده اذا توفي بلا وارث. لقد كانت دور العبيد، في هذا الاختلاط الذي عمل على مزج العرب بالاعاجم، دوراً هاماً ولا شك. وقد جرى هذا في طبقة الاشراف كما في طبقة العوام. فيزيد الثالث انهار فخر الخلفاء التقليدي بصفاء الدم العربي الذي يجري في عروقهم، اذ كانت امه اميرة فارسية، سباهها الحجاج في خراسان، وارسلها هدية الى الوليد؛ في حين كان ابراهيم، اخو يزيد وولي عهده، ابناً لجارية لعلها يونانية^١. وكانت ام مروان الثاني، الذي ولي الخلافة بعد ابراهيم، امه كردية^٢؛ وفي رواية انها كانت حبلى بمروان عندما اقتناها ابوه^٣، مما يمتنع معه ان يكون آخر خلفاء بني امية امويّاً. واخذ من ثمّ يزداد مقام الامة على مقام الزوجة بصورة مطردة في العصر العباسي^٤.

الوضع الاقتصادي العام

ان انفصال سورية عن الامبراطورية البيزنطية اضعف تجارتها البحرية الى حد بعيد. لكنها استعاضت عن ذلك نوعاً باسواق جديدة اتبحت لها بسيادتها على فارس وآسيا الوسطى. ولقد عمد العرب الى اثبات سطوح السفن التي كانت تخوض المتوسط بمسامير من حديد، وعملوا على طلبها بالقطران، منعاً لتسرب الماء الى داخلها. اما تلك التي نخرت في خليج فارس والمياه الشرقية، فكانت سطوحها

(١) العقد؛ ج ٢، ص ٣٣٣، ٣٥٢؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠١، ٤٠٣؛ الطبري، ج ٢، ص ١٨٧٤، السمودي ج ٤، ص ٣١ - ٣٢.

(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٤؛ الطبري، ج ٣، ص ٥١.

(٣) الانساب، ج ٥، ص ١٨٦.

(٤) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في الفقرة عن عصر جديد.

قد ثبتت ، قبل ولاية الحجاج ، بالجبال ، فامر ان تعالج بالتدبير الذي عولجت به سفن المتوسط^١. وقد بلغت سفن الحجاج حتى جزيرة سيلان البعيدة ، وتعرضت احياناً لغارات القرصان الهندود^٢. وقد انشأ عبد الملك داراً لصناعة السفن في تونس^٣ غير تلك التي انشأها معاوية في عكا^٤، ثم نقل ابنه مصنع عكا الى صور ، حيث بقي حتى زمن المتوكل العباسي^٥. وكان في البصرة وضواحيها ، في عهد بعض المتأخرين من حكامها في العصر الاموي ، نحو من ١٢٠ الف قناة تمخرها القوارب الصغيرة . غير ان الاصطخري^٦ قد شك بصحة هذا الرقم ، وهو جغرافي من ابناء القرن العاشر زار المكان بنفسه .

وهذه القنوات كانت قد شقت اولاً ، كما في دمشق ، خدمة للري . على ان الزراعة في سورية بوجه الاجمال لم تتضرر كثيراً ، رغم ما كان من طمع القيسين على بيت المال . ولم يكن تحريم الخمر في الاسلام ليقضي على زراعة الكرمه ، الا الى مدى محدود . وهي ما زالت في ازدهارها منذ اقدم الازمنة .

(١) ابن رسته ؛ الاعلاق النفيسة ، نشر دي غويه (لندن ، ١٨٩١) ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) البلاذري ، ص ٤٣٥ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١١ .

(٤) راجع ص ٢٤ من هذا الجزء .

(٥) البلاذري ، ص ١١٨ .

(٦) ص ٨٠ .

الفصل الثامن والسبعون

مناحي الحياة الفكرية في العهد الأموي

عندما يادر السوربون والعراقيون والفرس والقبط والبربر الى الدخول في حظيرة الاسلام ، وامتزجوا بالعرب عن طريق الزواج ، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين ، وغدا المسلم ، كائنة ما كانت جنسيته الاصلية ، يقبل على تعلم العربية ، فيعتبر في جملة العرب . على ان العرب انفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم او الفن او التقليد الفكري او التراث الثقافي ، وانما جاءوا بمنصرين جديدين من عناصر الثقافة هما اللغة العربية والدين الاسلامي ؛ اما في ما سوى ذلك ، فقد وجدوا انفسهم مضطرين الى الاعتماد على الشعوب التي غلبوها على امرها ، فكلوا يمثلون بين ايدي مواليمهم مثول التلميذ امام استاذ . وبذلك غدوا مثلاً آخر على المنتصر يغدو اشيراً للمقهور ، وعليه فقد كانت مكانة السوربين من العرب . نظير مكانة اليونان من الرومان . فاذا نحن تحدثنا عن الطب والفلسفة او الرياضيات عند العرب ، فلسنا نعني ضرورة انها من نتاج العقل العربي ، او انها نمت وازدهرت برعاية سكان الجزيرة العربية ؛ بل نقصد انها اودعت كتباً عربية ألفها علماء من السوربين والفرس والعراقيين والمصريين والعرب ، من نصارى ويهود ومسلمين ، بعد ان استملوا اصولها من منابع يونانية وآرامية وهندية وفارسية ، وغير ذلك من المصادر .

على ان الحياة الفكرية زمن الامويين لم تبلغ مستوى رفيعاً ، اذ كان هذا العصر بوجه الاجمال عصر تمخض واختار . ذلك ان قربه من الجاهلية ، وتوالي الفتن وكثرة الحروب ، واضطراب الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، عملت جميعها على عرقلة ما من شأنه ان ينهض بالحركة الفكرية . ومع ذلك فقد كان هذا العهد هو العهد الذي بذرت فيه البذور التي قدر لها ان تنمو وتزكو وتبلغ غاية نضجها في خلافة بني العباس :-

النحو والمعاجم

كان درس قواعد اللغة من المهام الفكرية الاولى التي اضطلع بها العرب في هذا العصر . وكان بما دعا الى ذلك حاجة المستجدين في الاسلام الى تعلمها ، ورغبتهم في قراءة القرآن ، وحرصهم على تقلد الوظائف الحكومية ، واملهم في الالتحاق بطبقة الفاتحين . والجدير بالذكر ان المحاولة الاولى لدرس اللغة العربية . درساً علمياً بدأت في مدينة البصرة ، الواقعة في جوار الحدود الفارسية . ولئن كانت هذه الخطوة قد تحققت في الاصل من اجل المسلمين الاعاجم . فقد كان هؤلاء في جملة القيمين عليها . ففي هذه المدينة اشتهر ابو الاسود الدؤلي (٦٨٨) الذي جعلته اخبار الرواة منشيء النحو العربي . وقد أورد ابن خلكان^١ ، احد مشاهير مؤلّي التراجم ، خبراً ساذجاً عن نشأة هذا العلم ، حيث ذكر ان علياً هو الذي وضع لابي الاسود المبدأ الاساسي ، وهو ان «الكلام كله ثلاثة اضرب اسم وفعل وحرف» ، ثم دفعه اليه وقال له : «تمم على هذا الاساس» . فأتّم موقفاً . وواقع الامر ان النحو العربي انما نشأ وتطور على نحو بطيء وفي امد طويل . وقد اتسم بسمت بارزة من المنطق اليوناني والخصائص اللغوية السنسكريتية .

ثم ان عالماً آخر من علماء البصرة ، هو الخليل بن احمد (ت حوالي ٧٨٦) ، تولى جمع اول معجم في اللغة العربية ، هو المعجم المعروف بكتاب العين . والذي يبدو ان الخليل قد اعتمد في تنسيق معجمه النظام الابجدي السنسكريتي الذي يبدأ بالحرف الحلي «ع» . وينسب اصحاب التراجم الى الخليل ايضاً استنباط بحور الشعر العربي ووضع اصول العروض^٢ ، بما لا يزال متبعاً الى يومنا هذا .

الحديث والشرع

ان توفر المسلمين على درس القرآن ، وحرصهم على التدقيق في شرحه ، افضى بهم الى وضع علمين توأمين هما علم المفردات وفقه اللغة ؛ وكان من ذلك ايضاً ان نشأ علم آخر تتمثل به اخص ظاهرة من ظواهر الفكر الاسلامي ، هو علم الحديث .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٢٩ - ٣٠ .

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

والحديث، بدلولة الاصطلاح، هو الكلام المنسوب الى النبي، او الى احد صحابته. لذلك كان القرآن والحديث بمثابة الاساس الذي قام عليه علم الفقه واصول الدين، واصبحا الوجهين الملازمين للشريعة الطاهرة. على اننا نكاد لا نعرف من اعلام هذه الحقبة، التي لم يبلغنا من آثارها شيء يذكر، الا نفرأ قليلاً من المحدثين والفقهاء، اشتهرهم الحسن البصري (ت ٧٢٨)، وابن شهاب الزهري (ت ٧٤٢). والمعتقد ان الحسن البصري قد عرف شخصياً اكثر من سبعين من الصحابة. وقد كان اهل السنة لا يملكون من تناقل اقواله الرشيدة. وارباب التصوف لا ينكرون تأثير زهده وتقاه^١. وكان الزهري شديد الاستغراق في درس الحديث حتى ان زوجته قالت له يوماً: «والله لهذه الكتب اشد عليّ من ثلاث ضرائر^٢». اما مدينة الكوفة، التي كانت تنافس البصرة في ميدان النشاط الفكري، فقد اخرجت عمرو ابن شراحيل الشعبي (ت حوالي ٧٢٨)، الذي يقال انه اخذ الحديث عن نحو من مئة وخمسين من الصحابة^٣، وانه كان يرويه من الذاكرة دون ان يدون منه شيئاً. ولقد ارسله عبد الملك بن مروان بمهمة ذات بال الى امپراطور الروم في القسطنطينية.

ان القانون الروماني قد اثر ولا شك، اما بصورة مباشرة واما عن طريق التلمود وسواه، في بعض وجوه التشريع الاسلامي، في سورية ومصر، ابان الخلافة الاموية؛ وذلك في المعاملات^٤، ودواوين الدولة: نظير السكة والخاتم والقراطيس المستخدمة لكتابة الوثائق، وغير هذه من المنافع العامة. وقد جرى العرب على غرار الروم في اعتبار هذه الشؤون والمنافع من المهام الخاصة بالدولة، وفي اعتبار الدولة مسؤولة عن حماية الرعية من التزوير والتزييف والتهميش، وكل ما يتصل بها من التحالفات. واعتبروا من واجبها كذلك ازالة العقوبات الشديدة بمرتكبيها^٥. اما التنفيذ فقد جرى عن طريق الوظائف الادارية التي ورثها العرب والمستجدون

(١) الراغب في الزيادة ان يراجع ابن خلكان، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٩.

(٢) ابن خلكان، ج ٢، ص ٢٢٣؛ ابو الفداء، ج ١، ص ٢١٥ - ١٦.

(٣) السمعاني، الانساب، نشر مرغوليوث (لينن، ١٩١٢) ورقة رقم ٣٣٤؛ قابل ابن خلكان،

ج ١، ص ٤٣٦.

(٤) انظر: M. Hamīdullāh, «Influence of Roman on Moslem Law», Hyderabad Academy Studies, No. 6 (1943), pp. 43 seq.

(٥) البلاذري، ص ٢٦٢ - ٧٠.

في الاسلام من الشعوب التي كانت خاضعة ، في ما سبق ، للدولة البيزنطية . ومع ذلك كله فان القارئ لا يصادف في تعابير التشريع العربي الفاظاً مقتبسة من اليونانية ولا اللاتينية ، مع ان بعض التعابير العربية تؤدي المعنى نفسه الذي تؤديه التعابير اللاتينية المقابلة لها ^١ . ولسنا كذلك على علم باي كتاب في القانون الروماني ترجم الى العربية . وينبغي ان لا يغرب عن البال ان جميع المذاهب الفقهية الكبرى انما نشأت وازدهرت في مناطق غير بيزنطية ، منها العراق والحجاز ^٢ . اما المذهب الضعيف الذي انشأه في سورية الامام الازاعي ^٣ (ت ٧٧٤) فلم يعيش طويلاً .

تدوين التاريخ

بدأ تدوين التاريخ على نحو رواية الحديث ، وكان اول المهام الفكرية التي عني بها المسلمون العرب . وقد كان الدافع الى الاهتمام بالتاريخ رغبة المؤمنين في جمع اخبار النبي والصحابة ، والحاجة الى التثبت من نسب كل عربي مسلم ، لتعيين العطاء المفروض له من بيت المال ، ثم حرص الخلفاء الاولين على تقصي اخبار الملوك والحكام الذين سبقوهم . وهذا معاوية يستدعي عبيداً (عبيداً) ^٤ الى دمشق ليحدثه عن ملوك العرب القدماء على اختلاف بمالكهم ^٥ فيؤلف له « كتاب الملوك واخبار الماضين » . وكان هذا الكتاب لا يزال يتمتع بانتشار واسع في عهد المسعودي المؤرخ ^٦ (ت ٩٥٦) . ومن اشتهر في علم الاوائل وهب بن منبه (ت حوالي ٧٢٨) ، وهو يهودي من اهل اليمن يغلب انه اعتنق الاسلام . وقد نشر له منذ عهد قصير كتاب اسمه « التيجان » يبحث في ملوك حمير .

الخطابة

ان الخطابة على انواعها قد ازدهرت في العصر الاموي ازدهاراً لم تبلغ نظيره

(١) انظر ما يلي ، آخر الفصل ٤٢ .

(٢) انظر ما يلي ، آخر الفصل ٤٢ .

(٣) انظر ما يلي ، فصل ٤٢ في الفقرة عن الازاعي .

(٤) راجع الفصل ٤٧ حول حياة الاسرة الحاكمة .

(٥) الفهرست ، ص ٨٩ ، ص ٢٦ ؛ وهب بن منبه ، التيجان في ملوك حمير (حيدرآباد ، ١٣٤٧) ،

ص ٣١٢ - ١٣ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٦) مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ٨٩ .

في ما بعد . فقد كان خطيب المسجد يلجأ إليها في عظة الجمعة ليؤدي عن طريقها رسالته الدينية . وكان القائد يستعين بها على إثارة الحماسة في صدور الجنود، والحاكم يعول عليها في بث الروح القومية في نفوس رعاياه . ولا تزال عظة الحسن البصري التي القاها في حضور عمر بن عبد العزيز ، وحفظ منها شيء في سيرة عمر^١ ، وخطب زياد بن ابية^٢ الحماسية ، وخطب الحجاج^٣ النارية ، تعد الى الآن ، من انفس الذخائر الادبية التي بقيت لنا من ذلك الزمن القديم^٤ .

كتابة الرسائل

وكانت رسائل الخلفاء الاولين بالغة الاليجاز واضحة الغرض . ولم يُعمد الى اطالتها وتنميقها والانهاب فيها الا في اواخر العهد الاموي . وقد ذكر ابن خلكان^٥ ان اول من اطالها عبد الحميد الكاتب (ت ٧٥٠) ، كاتب الخليفة الخاص . اما ما تميزت به هذه الرسائل من رقة واناقة ، فيتم عن مؤثرات فارسية . وهذه المؤثرات الفارسية كثيراً ما تلحظ في الحكم والامثال القديمة .

الشعر

لم يكن عهد الفتوحات العنيف مؤاتياً لظهور الشعراء في امة ذات تقليد راسخ في الشعر . ولا كان الاسلام مؤاتياً لنشاط ربة القريض^٦ . ولكن ما كاد الامويون يتولون الخلافة ، ويدفعون السياسة في اتجاه دنيوي ، حتى عادت الصلات بألهة الجمر والفناء والشعر الى سابق عهدها . وفي هذه الفترة بلغ الانتاج الشعري اوج ازدهاره . وكان من اقدم الشعراء الامويين كعب بن جعيل التغلبي (ت حوالي ٧٠٥) .

(١) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ١٢١ - ٢٦ .

(٢) انظر الفصل ٣٣ حول العراق في استقرار مؤقت .

(٣) انظر الفصل ٣٥ حول الحجاج الوالي النشيط .

(٤) من رغب في شواهد اخرى فليراجع ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٢٨) ص ٢٣٢ - ٥٢ ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٢٦) ص ١٧٧ وما يتبع ، ج ٢ ؛ (١٩٢٧) ، ص ٤٧ وما يتبع ؛ المقد ، ج ٢ ، ١٧٢ وما يتبع .

(٥) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، قابل السعدي ، ج ٦ ، ص ٨١ .

(٦) القرآن ، سورة الشعراء : ٢٤ - ٢٧ ، سورة يس : ٦٩ ؛ سورة المائدة : ٤١ .

وكانت بعض بطون تغلب قد دخلت الاسلام . ومع ان كعباً كان قد اعتنق الاسلام ، فانه كان يقسم بالله النصارى والمسلمين ، ويجلّ قرآء الانجيل والقرآن على السواء^١ . وان الاثر المسيحي ليتجلى في شعره اكثر مما يتجلى في شعر نسيبه المسيحي الاخطل .

وكان الاخطل^٢ (حوالي ٦٣٤ - حوالي ٧٢٨) شاعر البلاط الأموي ، وكان يناصر قضية الأمويين في وجه الحزب الديني . ولم يكن يتودد في هجاء المنافسين اذا كان ذلك يطلب من يزيد . وذلك بخلاف موقف كعب^٣ . وكان الاخطل ، بوصفه شاعر البلاط ، ينخل على معاوية والصليب يتدلى من عنقه . على ان التعليم المسيحي لا يبدو انه كان قد مس قلب هذا الشاعر المدمن الفاجر الا مساً رقيقاً . فقد قال لزوجه الحامل يوماً ، اذ جرت وراء اسقف واكب على حماره ، لتبرك بلس ثوبه فلم تصب الا ذيل الحمار : « هو وذنب حماره سينان »^٤ .

وكان الاخطل واحداً من ثلاثة شعراء ملأ ذكرهم العصر . وكان الآخرون جريراً الهجاء اللاذع (ت حوالي ٧٢٩) وهو شاعر الحجاج^٥ ، والقرزوق الفاسق (٦٤٠ - ٧٣٣) شاعر عبد الملك واولاده : الوليد وسليمان^٦ ويزيد . وكانوا في مديهم - وهو مورد رزقهم - يقومون نحو أسيادهم بما تقوم به الصحافة الحزبية اليوم . وكثيراً ما كان الهجاء ينشب بينهم فيحمل واحدهم على الآخر . أما من حيث جودة الشعر فقد كانوا في طليعة شعراء العرب ، حتى ان نقدة العرب لم يقفوا على من يجوز ان يوازيهم منذ ذلك العهد .

- (١) خليل مردم « كعب بن جميل النقلي » . مجلة المجمع العلمي العربي ، ج ١٩ (١٩٤٤) ، ص ١٥ - ٢٤ ، ١٠٤ - ١٢ .
- (٢) لقد نشرت مجموعتان من شعره تحت عنوان « شعر الاخطل » نشرهما الاب صالحاني (بيروت ، ١٨٩١ ، ١٩٠٥) .
- (٣) ابن قتيبة ، كتاب الشعر والشعراء ، نشر دي غوبه (لندن ، ١٩٠٢ - ٤) ، ص ٣٠١ - ٤ .
- (٤) الاغاني . ج ٧ ، ص ١٨٣ .
- (٥) ابن قتيبة ، الشعر ، ص ٢٨٧ . ومن رغب في شواهد اخرى فليراجع ديوانه (القاهرة ، ١٣١٣) ، ج ١ .
- (٦) ابن قتيبة ، الشعر ، ص ٢٠٧ - ٩٧ . وللإطلاع على مدائحه راجع ديوانه . أعدده ر . بوشير (باريس ، ١٨٧٥) ونشر بعد وفاته . راجع أيضاً الاغاني ، ج ٨ ، ص ١٨٦ - ٩٧ ، ج ١٩ ، ص ٢ - ٥٢ ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ١٣٦ - ٤٦ .

وفي العهد الاموي تجلّى الشعر الغزلي، لأول مرة، بأجلى مظاهره. وكان الزعيم الاكبر لشعراء الجزيرة عمر بن ابي ربيعة (ت حوالي ٧١٩)، أمير شعراء الغزل في الادب العربي. كان عمر قرشياً^١، فوقف شعره الحبي على النساء الجميلات الوافدات الى الاماكن المقدسة لتأدية فريضة الحج، واستطاع ان يخلد شعوره نحو الجنس اللطيف بشعر يبعث عاطفة، والفاظ تذيب رقة.

وكما كان عمر يمثل في شعره الحب الاباحي، كان معاصره جميل العذري (ت ٧٠١) يمثل بشعره الحب العذري البريء ذا الطابع الافلاطوني. وكان جميل من بني عذرة، وهي قبيلة نصرانية كانت تقيم في الحجاز. وكان الشعر الذي قاله في بثينة - وهي فتاة من قومه^٢ - ينم عن روح رقيقة، لا نظير لها في ذلك العهد. ولقد كان لجميل في هذا النوع من الشعر الغنائي الرقيق منافس، هو شاعر نسجت حوله هالة اسطورية، دعي بقيس بن الملوّح، وعرف بمجنون ليلى^٣، (ت حوالي ٤٦٩). فقد افتتن قيس هذا بفتاة من بني قومه بادلته الحب، لكن اباه اكرهاها على الزواج من سواه. وعندها اضاع قيس صوابه ياساً، وهام على وجهه شبه عار، يحول بين هضاب نجد واوديته بقية حياته، يتغنى بفاتن حبيبته، ويحن الى نظرة من محياها؛ ولا يعود الى رشده الا متى ذكر له اسمها. ولقد غدا مجنون ليلى بطلاً لروايات لا تحصى في الادب العربي والتركي والفارسي، كلها تشيد بقوة الحب الخالد.

والى جانب الشعر الحبي بدأ الشعر السياسي بالظهور في هذا العصر. وكانت اولى مناسباته المبايعه ليزيد بالخلافة^٤، اذ طلب الى مسكين الدارمي ان ينظم شعراً يناسب المقام، وينبشه علناً في هذه المناسبة^٥. وقد بلغ هذا الشعر السياسي

(١) الاغاني، ج ١، ص ٣٢. للاطلاع على حياته وشعره راجع: جبرائيل جبور، عمر ابن ابي ربيعة، مجلدان (بيروت، ١٩٣٥/١٩٣٩).

(٢) ابن قتيبة، الشعر، ص ٢٦٠ - ٦٨: الاغاني، ج ٧، ص ٧٧ - ١٠٠.

(٣) الاغاني، ج ١، ص ١٦٩، كما في ابن خلكان، ج ١، ص ١٤٨.

(٤) الكنتي، فوات الوفيات، (بولاق، ١٢٨٣)، ج ٢، ص ١٧٢.

(٥) راجع ما سبق، ص ٤٢ من هذا الجزء.

(٦) الاغاني، ج ١٨، ص ٧١ - ٧٢: قابل ابن قتيبة، الشعر، ص ٣٤٧.

أوجه في القصيدة التي نظمها عبيد الله بن قيس الرقيات^١ (ت ٧٠٤) في عبد الملك ابن مروان. وفي هذا العصر تحققت كذلك أولى المحاولات لجمع الشعر الجاهلي القديم، وذلك على يد حماد الراوية (حوالي ٧١٣ - ٧٧٢). وكان حماد فارسي الأصل، وكان في لسانه عجمة؛ وقد عُدد بين الذين اشتهروا في تاريخ العرب بالذاكرة العجيبة. وفي بعض الروايات انه قدم مرة الى الوليد بن يزيد - وهو شاعر كذلك^٢ - لينشده من الشعر الجاهلي وحده مئة قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء؛ وان الوليد سمع منه بالذات أولاً، ثم اتاب عنه من يواصل الاستماع اليه، فبلغ ما انشده ٢٩٠٠ قصيدة. وعندها سر منه الخليفة، وأمر له بمئة الف درهم^٣.

ثم ان قرب العهد بين الشعر الأموي من جهة، والاسلام وشعر الجاهلية من جهة أخرى، قد اضفى عليه من صفاء الاسلوب وقوة التعبير وجلال الطبع، ما جعله مثلاً تحتذيه الاجيال اللاحقة؛ وغدت اوضاعه وخصائصه الفنية، منذ ذلك العهد، النموذج الذي احتذاه الشعراء العرب في التعبير عن خوالجهم الخاصة، والنظم في اغراضهم العامة. وكان من ذلك عجز الشاعر، منذ ذلك الحين، عن ان يسلم نفسه عن تراثه الادبي، وان يبدع شعراً انسانياً يبقى على مرور الزمن. ولذلك كان جل اعتماد النحاة في مؤلفاتهم على شواهد استمدوها من الشعر الجاهلي والأموي.

التربية والتعليم

لم تكن التربية ذات نظام مقرر في ذلك العهد وانما ارسل الأمويون احداً منهم الى البادية شرقاً لكي يقبسوا اللهجة العربية الصافية، ويمارسوا ركوب الخيل، ويتعلموا الرماية والقنص. وكان معاوية صاحب السابقة في ارسال ابنه وولي عهده

(١) راجع ديوانه نشر رودو كنتاكس (قينا، ١٩٠٢) ص ٦٧ وما يلي.

(٢) راجع ديوانه نشر غبريلي (دمشق، ١٩٣٧) حيث تبرز خمرياته.

(٣) ابن خلكان، ج ١، ص ٢٩٢، الاغاني، ج ٥، ص ١٦٤ - ٦٥. انظر كذلك النقدي، ج ٣، ص ١٣٧ - ٣٨.

(٤) راجع ص ٤١ - ٤٢ من هذا الجزء.

العتيد الى البادية لهذا الغرض . وقد كان الجمهور يعتبر الفتى مؤدّباً ان هو تعلم القراءة والكتابة ، واحسن الرماية والسباحة . اما من برع في هذه الامور ، فقد كان فوق المتأدب ، انه الرجل الكامل^١ . وغالب الظن ان اشتراط السباحة في العلم امر نشأ مع ظروف العيش على ساحل المتوسط . اما المثل الخلقية العليا في التربية ، كما يشف عنها ادب العصر ، فقد حاولت ان تنبئ على القيم الخلقية التي طالما اعتز بها اهل البادية نظير : الشجاعة ، والصبر ، والمروءة ، والجود ، والضيافة ، وحفظ الجوار ، والوفاء بالعهود .

وقد غدا المؤدب في عهد عبد الملك بن مروان في جملة حاشية البلاط . وكان بما اوصى به عبد الملك مؤدب اولاده « علّمهم الصوم ، وخذّم بقلة النوم »^٢ . لكن عمر بن عبد العزيز كان اميل الى العنف بحق اولاده ، فكان يوعز بمعاقبتهم بالضرب ان هم لحنوا^٣ . ويتجلى تقاه في ما اوصى به مؤدب اولاده حيث قال « ... وليكن اول ما يعتقديون من ادبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن »^٤ .

اما من رغب في العلم من الجمهور فلم يكن متاحاً له من المدارس ، منذ بدء الاسلام ، الا الحلقات المسجدية . وكان محور التعليم في هذه الحلقات القرآن والحديث ، وكان القراء هم المعلمين الاولين . فالقراء ، والحالة هذه ، اقدم المعلمين في الاسلام ؛ ولا يزالون القيمين على التعليم في الارياف والقرى النائية . وكانت عمر بن الخطاب ، منذ سنة ٦٣٨ ، قد ارسل نفراً من هؤلاء المعلمين الى جميع الانحاء ، وامر الناس ان يجتمعوا اليهم في المساجد ايام الجمعة . وكانت اول معلم برزت شهرته في مصر قاضياً ارسله اليها عمر بن عبد العزيز سنة ٧٤٦ هـ . وكان للضحاك

(١) ابن سعد ، ج ٣ ، قسم ٢ ، ص ٩١ ، س ١٠ - ١١ ، قابل ج ٥ ، ص ٣٠٩ ، ص ٧ وما بعد ؛ الاغانى ج ٦ ، ص ١٦٥ ، س ٩ .

(٢) المبرّد ، ص ٧٧ ، س ٦ - ٧ .

(٣) ياقوت ، معجم الادباء ، نشر مرغوليوث ، ج ١ ، (لندن ، ١٩٠٧) ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٤) ابن الجوزي ، السيرة ، ص ٢٥٧ - ٥٨ . راجع الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٣ .

(٥) الكندي ، الولاة ، ص ٨٩ ؛ السيوطي ، حسن المناظرة في اخبار مصر والقاهرة ، (القاهرة ، ١٣٢١) ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

ابن مزاحم (ت ٧٢٣) ، وهو احد مؤيدي اولاد عبد الملك^١ ، كتّاب في الكوفة يعلم فيه الصبيان دون ان يستوفي منهم رسوماً^٢ .

العلوم - علم الطب

وكان اعتماد العرب في العلوم الطبيعية على اليونان ، وكان اسبقها الى الظهور عندهم علم الطب . وتتجلى وجهة نظر المسلمين الى العلوم الطبية في الحديث المنسوب الى النبي ، وهو : « العلم علان ، علم الاديان وعلم الابدان » .

وعندما اكتسح العرب آسيا الغربية كانت علوم اليونان قد فقدت حيويتها وفعاليتها ، وغدت تراثاً تقليدياً تداولته ايدي الشارحين والمحترفين من اجدادها اليونانية او السريانية . وقد كان اطباء البلاط الاموي نقرأ من هؤلاء ، اشتهر منهم الطبيب النصراني ابن اثال ، طبيب معاوية^٣ ، والطبيب اليوناني ثياذوق ، طبيب الحجاج^٤ . وكان من هؤلاء طبيب يهودي ، فارسي الاصل ، بصري الموطن ، اسمه ماسرجويه ؛ عمل سنة ٦٨٣ ، في خلافة مروان بن الحكم ، على ترجمة كتاب في الطب عن السريانية ، كان قد ألفه باليونانية واهب نصراني في الاسكندرية اسمه اهرود^٥ ؛ فكان اول كتاب علمي بلغة الاسلام . ويذكر عن الوليد ، حفيد عبد الملك ، انه عزل المصابين بالجذام والعمى ، وسواهما من الامراض المزمنة ، ورتب لهم ما ينبغي للعناية بامرهم^٦ ؛ فتحققت بذلك اول مؤسسة صحية في الاسلام . وقد ذكر عن عمر ابن عبد العزيز انه امر بنقل معاهد الطب من الاسكندرية ، حيث ازدهر الطب اليوناني ، الى انطاكية وحران^٧ .

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .

(٣) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ، ١٨٨٢) ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٢١ .

(٥) ابن العبري ، ص ١٩٢ .

(٦) ابن العبري ، ص ١٩٥ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١١٩٦ ، السعدي ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

(٧) ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١١٦ ، ص ٢٥ - ٢٦ .

علم الكيمياء القديم

وكان من العلوم المتصلة بالطب علم الكيمياء القديم ، وهو من العلوم الاولى التي ظفرت بعناية العرب ، ادى فيه العرب ، كما في علم الطب خدمات بارزة . ولقد ورد في الاخبار عن خالد بن يزيد (ت ٧٠٤ او ٧٠٨) انه كان اول عالم وحكيم في الاسلام ؛ وانه كان ، على ما ذكر صاحب الفهرست^١ ، اول من امر بنقل كتب في الكيمياء والطب والتنجيم عن اليونانية والقبطية الى العربية . والحقيقة التي تستشف من هذه المزاعم ان الحوافز الاولى التي دفعت العرب الى طلب العلم ، والمعارف العلمية الاولى التي كسبوها ، انما صدرت من اصول يونانية . ثم ان الاخبار تقرر اسم هذا الامير الاموي باسم جابر بن حيان ، مع ان جابراً زها بعد هذا العصر بزمان طويل (حوالي ٧٧٦) ؛ وسنأتي على ذكره فيما بعد . وكذلك الرسائل الموضوعة في التنجيم والكيمياء ، والمنسوبة الى جعفر الصادق (٧٠٠ - ٧٦٥)^٢ ، وهو احد الائمة الاثني عشر عند الشيعة ، فقد اظهر البحث العلمي الحديث انها منحولة^٣ .

المجاري الفكرية

وقد ظهر في العصر الاموي كذلك حركات دينية فلسفية عديدة غلب عليها اسم الفرق . ذلك ان احتكاك المسلمين بالنصارى في سورية اثار ضرباً من التأمل الديني والنقاش الفكري ، انتهى بظهور عدد من تلك الفرق ، من اشهرها فرقة المعتزلة . والمعتزلة فرقة دينية فلسفية تعتمد العقل في بناء آرائها ؛ اسسها في البصرة واصل بن عطاء (ت ٧٤٨) ، وكان معتقدها الاول ان المسلم اذا ارتكب كبيرة خرج من جماعة المؤمنين ، لكنه لا يكون في عداد الكفار ، بل يندو في منزلة بين

(١) الفهرست ، ص ٢٤٢ ، ٣٥٤ : Julius Ruska, *Arabische Alchemisten, I. Chälid* : ٣٥٤ ، ٢٤٢ ، ٣٥٤ : *Ibn Jaztd Ibn Mu'awija*, (Heidelberg, 1924), pp. 8 seq.

(٢) الفهرست ، ص ٣١٧ ، ص ٢٥ ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، نشر فلوغل ، ج ٢ ، (ليون ، ١٨٣٧) ، ص ٥٨١ ، ٦٠٤ ؛ ج ٣ ، (لندن ، ١٨٤٢) ، ص ٥٣ ، ١٢٨ .

(٣) انظر : J. Ruska, *Arabische Alchemisten, II. Ga'far Al šādiq, der sechste Imām* (Heidelberg, 1924) pp. 49-59.

المؤلفين^١. وكان واصل احد تلامذة الحسن البصري ، وكان يميل الى الاخذ بهذا الرأي ، فجعله نقطة التحول في تعليم المعتزلة . وكان من آرائها الاساسية ايضاً ان الصفات الالهية ، نظير القدرة والحكمة والحياة ، ليس لها وجود ازلي بازاء ازلية الذات الالهية ، وذلك على اعتبار ان اثبات الصفات يفسد عقيدة التوحيد ، وهي العقيدة الاساسية في التعليم الاسلامي . وعمدت المعتزلة كذلك الى الحد من القدرة الالهية من اجل توثيق فكرة العدالة . ومن هنا كان شيوخ المعتزلة يؤثرون ان يعرفوا « بأهل العدل والتوحيد » . بلغت هذه الحركة الفكرية اوجها ابان خلافة المأمون العباسي^٢ في مدينة بغداد ، وفيها استؤنف النشاط الفكري من حيث انتهى في البصرة والكوفة .

وهناك فرقة اخرى كانت قد اعتنقت فكرة حرية الارادة في هذا العصر عرفت بالقدرية (من معنى القدرة) ، وذلك معارضةً للجبرية (من معنى الالتزام^٣) . ذلك ان ظهور القدرية كان ردّة في وجه التعليم الاسلامي الصارم الذي يقول بالجبر المطلق ، مستخرجاً مما نص عليه القرآن من ان قدرة الله لا تحد ؛ وهذه الردة تم ، في ما يبدو ، عن تأثير نصراني . وعلى ذلك فقد كان القديرون يذهبون الى ان الانسان يملك القدرة على اعماله . ولقد كانت هذه الفرقة اقدم الفرق الفلسفية في الاسلام ، وكان لها في تعليم حرية الارادة اتباع كثيرون كات منهم اثنان من خلفاء بني أمية هما معاوية الثاني ويزيد الثالث^٤ .

القديس يوحنا الدمشقي

وكان من ابرز من تسرب على يدهم الاثر المسيحي والفكر اليوناني الى الجلو

(١) السمودي ، ج ٦ ، ص ٢٢ ؛ ج ٧ ، ص ٢٣٤ ؛ قابل الشهرستاني ، ص ٣٣ ؛ البغدادي ، اصول الدين (استنبول ، ١٩٢٨) ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ؛ المختصر ، ص ٩٨ ؛ التوحيدي ، فرق الشيعة . نشر ريتز (استنبول ، ١٩٣١) ، ص ٥٥ .

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في آخر الفقرة عن القتل في سورية ولبنان وفلسطين .

(٣) قابل الايجي ، كتاب المواقف ، نشر مورنسن (ليبرغ ، ١٨٤٨) ص ٣٣٤ ، ٣٦٢ .

(٤) سورة آل عمران : ٢٥ - ٢٦ ؛ الحجر : ٢١ ؛ الشورى : ٢٦ ؛ الأخرى : ١٠ .

(٥) قابل ابن حزم ، الفصل في الملل والاهواء والتعل ، ج ٣ (القاهرة ، ١٣٤٧) ، ص ٣١ .

الاسلامي القديس يوحنا الدمشقي (٦٧٠ - حوالي ٧٤٩) . ويوحنا الدمشقي هذا - وهو الملقب « بدفاق الذهب » نظراً لفصاحة لسانه - كان يؤلف باللغة اليونانية ، مع انه كان سورياً . وقد تكلم في حياته اليومية اللغة الآرامية ولا شك ، وكان الى ذلك يحسن العربية . وقد كانت المناقشات التي نشبت بينه وبين علماء المسلمين ، حول حرية الارادة وعقيدة القضاء والقدر ، البادرة التي استهلت عهد الحركة العقلانية في الاسلام^٢ ؛ وكان يعلم ان الله خلق العالم وتركه يجري بقوة استمراره^٣ . وكان يوحنا في صباه يحضر مجالس الشراب مع الاخطل ويزيد بن معاوية . وقد شغل ، في ما بعد ، منصباً رفيعاً في الدولة كان لوالده من قبله على انه لم يلبث ان اعتزل هذا العمل في اوائل خلافة هشام (حوالي ٧٢٤) ولجأ الى دير القديس سابا في الجنوب الشرقي من مدينة القدس ، يعيش فيه حياة الزاهدين المنقطعين الى العبادة .

ولقد وضع القديس يوحنا عدداً من روائع المؤلفات^٤ ، من اهمها كتاب « ينبوع الحكمة » الذي لخص فيه آراء المشاهير من المؤلفين الكنسيين الذين تقدموه ، ونسقها تنسيقاً حسناً . وكان هذا الكتاب اول « خلاصة لاهوتية » وصلت الينا . وقد اعتمده بطرس اللومباردي وتوما الاكوييني ، وغدا المرجع والمعتمد لمشاهير علماء الدين من جاء بعدهما . وقد نُقل الكثير من مؤلفات يوحنا الى اللسان اللاتيني . واتفقت الكنيسة اليونانية والكنيسة اللاتينية على اعتباره قديساً . ومن اطرف ما كتب مما نحن بصدده محاورتان ساقها بين مسيحي ومسلم ، شدد فيهما على الهوية المسيح وحرية الارادة الانسانية^٥ . وكان الغرض من هذا الكتاب ان يكون تبريراً للنصرانية ، ومستنداً لهداية النصارى في مناقشة المسلمين ؛ ولعل مادته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري امام الخليفة ، ويشترك هو فيها بالذات بما يشهد على انه كان يعرف القرآن والحديث معرفة المسلمين لهما^٦ . اما

(١) قد احتفل بمرور اثني عشر قرناً على وفاته في دمشق سنة ١٩٥٠ .

(٢) راجع الفصل ٤١ حول الاضطرابات في سورية ولبنان وفلسطين .

(٣) انظر كتابه : « Exposition of the Orthodox Faith », in *Nicene and Post-Nicene Fathers*, ser. 2, vol. ix, p. 39.

(٤) *Migne, Patrologia Graeca*, vols. xciv-xcvi

(٥) *Migne*, vol. xciv, cols. 1585-98 ; vol. xcvi, cols. 1335-48

(٦) راجع ص ٤٠ - ٤١ من هذا الجزء .

في ما يتصل بقصة يولام الزاهد، ويوصافات الامير الهندي^١ - ولعلها اشهر حكاية دينية في العصور الوسطى - فان نسبتها الى القديس يوحنا غير صحيحة. ذلك ان اصلها اللاتيني واليوناني يعود الى ترجمة عربية عن اصل فارسي، متأخر عن عهد القديس يوحنا^٢. والقصة هي الرواية المسيحية لحياة بوذا، ومن الغرابة ان تكون الكنيسة اللاتينية والكنيسة اليونانية قد اجلّته على السواء باسم يوصافات.



القديس يوحنا المعمدان

وكان من وجوه النشاط البارزة في حياته، دفاعه عن استخدام الصور كوسيلة للعبادة، مع التشديد بان المعبود ليس هو مادة الصورة، بل ما تمثله^٣. وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه الامبراطور ليو الايصوري يبذل الجهد البالغ لابطال الايقونات ترفلاً منه، فيما يظن، الى المسلمين. وكانت من ذلك ان تعرض يوحنا لغضب الامبراطور. وقبل وفاته بوقت قصير، قام بجولة واسعة في سورية داعياً الى مقاومة مبطلية الايقونات، وبلغ من جرأته ان قصد الى القسطنطينية معرضاً حياته لخطر الموت. لقد كانت الشعائر الدينية، على اختلاف مظاهرها، ذات

اهمية حيوية في تقديره؛ وقد نظم هو نفسه اناشيد روحية (حفظت بعضها الكنائس الانجيلية في كتب اناشيدها) بلغت من جمال الشعر الكنسي ارفع مقام. وكان القديس يوحنا آخر آباء كنيسة الروم الشرقية. وكان من حيث هو عالم لاهوتي، وخطيب ديني، ومدافع كنسي، ومجادل عقائدي، ومنظم للفن البيزنطي، وللموسيقى البيزنطية، من ابرز مفاخر الكنيسة في ظل الخلافة.

(١) Migne, vol. xvi, cols. 857-1260

(٢) راجع: "Barlaam and Ioasaph" in *Encyclopedia Catholica*

(٣) *Nicene Post-Nicene Fathers*, Ser. 2, vol. ix, p. 88

المرجئة

كانت الحركة الفكرية التي قام بها الخوارج والقدرية والمعتزلة الخطوات الاولى في الاتجاه الذي نال من صلابه موقف أهل السنة، وكانت حركة المرجئة الخطوة التالية في هذا الاتجاه. وكان الركن الاول في تعليم المرجئة ارجاء الحكم على اصحاب الكبائر وعدم التسليم باخراجهم من حظيرة الايمان^١. ذلك لانهم اعتقدوا ان الاعمال ليست شرطاً في صحة الايمان. وانما نشأ هذا التعليم من اجل تبرير موقف الحلفاء الامويين الذين اتهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدسة. فقد ذهب ارباب هذا الرأي الى ان الامويين مسلمون ولو اسماً، ولما كانوا، بحكم الواقع، قادة الاسلام السياسيين، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين. وقالوا ان علياً ومعاوية كليهما من عبيد الله، فالحكم بشأنهما لله وحده. وفي هذا الجو السمج الذي خيم على هذه الحركة الفكرية نشأ الامام الكبير ابو حنيفة (ت ٧٦٧)، مؤسس المذهب الاول من المذاهب الفقهية الاربعة في الاسلام^٢.

الخوارج

وكان الخوارج، نظير المرجئة، من الفرق السياسية الدينية في الفكر الاسلامي. يعود منشأهم الى عهد صفين، اذ سخط على علي^٣ جماعة من اتباعه، لانه جعل حقه في الخلافة موضوعاً للتحكيم^٤. وكان هؤلاء من اخلص اتباعه، فقدوا من اشد خصومه. اما غرضهم فكان المحافظة على المبادئ الديمقراطية الاولى التي اقرها التعليم الاسلامي. ومن اجل ذلك اثاروا حروباً وقتناً متواصلة، بقيت الدماء تجري بسببها مدة ثلاثة قرون. فلقد عارضوا المبدأ القائل بحصر حق الخلافة في قريش، وابوا الاخذ بكمرامة الاولياء، وبما يرافق ذلك من مراسيم بخاسة وزيارات الى

(١) قابل البغدادي، المختصر، ص ١٢٢ - ٢٣؛ ابن حزم، ج ٢، ص ٨٩.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤١ في الفقرة عن الاوزاعي.

(٣) راجع ما سبق، ص ٣٢ - ٣٣ من هذا الجزء.

(٤) ابن الجوزي، نقد العلم والعلماء (القاهرة، ١٣٤٠)، ص ١٠٢.

مدافن الصالحين . وحرّموا الطرق الصوفية على اختلافها . وقد بقي منهم الى الآن الفرقة المعروفة بالاباضية، وهم اتباع ابن اباض^١ احد زعمائهم في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة . وتجدد اليوم متفرقين في الجزائر وليبيا وعمان وزنجبار .

على ان اهم تلك الفرق على الاطلاق كانت فرقة الشيعة ، وهي احد الفريقين المتعادين للذين تحلفوا عن الانشقاق الذي وقع بين المسلمين في عهد الاسلام الاول ، بسبب الاختلاف على صاحب الحق الشرعي في الخلافة ؛ واما الفريق الآخر فهو اهل السنة^٢ . وفي العهد الاموي تهيأ للشيعة توطيد نظامها ؛ وكان الفارق الاساسي بين الشيعة (انصار علي) والسنة (جماعة المحافظين) مسألة الامامة ، وهي خلافة محمد ورئاسة المسلمين . فالشيعة تنسب بأن امامة علي وابنائها هي الامامة الحقة الوحيدة ، وهي في ذلك نظير الكشركة التي تمسك بخلافة البابوات للقديس بطرس . فالنبي قد اعتبر القرآن — وهو كلام الله المنزل — الواسطة بين الله والبشر ، اما الشيعة فقد جعلت ذلك الوسيط انساناً هو الامام^٣ . وعلى ذلك فالسني يعبر عن عقيدته بأنه يؤمن بالله الواحد الصمد يؤمن بتزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الازل ، اما الشيعي فيزيد فقرة اخرى لاستكمال التعبير عن الايمان اذ يقول انه يؤمن بان الامام الذي اختاره الله ، وبث فيه شيئاً من روحه القدسي ، هو الهادي الى الحق والمرشد الى سبيل الخلاص .

فالخليفة في نظر السنة هو الرئيس الزمني لجماعة المسلمين ، وهو امير المؤمنين وحامي الشريعة ؛ فهي لا تخصه بسلطة روحية^٤ . والشيعة بخلاف ذلك — تنحصر الامامة في اسرة علي ، ولا تكفي باعتبار الامام الرئيس الاوحد للمجتمع الاسلامي ،

(١) البغدادي ، المختصر ، ص ٨٧ — ٨٨ ؛ الايجي ، ص ٣٥٦ ؛ الشهرستاني ، ص ١٠٠ .

(٢) السنة بمعنى المادة والتقليد ، وهي اصطلاحاً مبدأ المحافظين من جماعة المسلمين .

(٣) وردت هذه المادة في القرآن بغير المعنى المصطلح وذلك في سورة البقرة : ١١٨ ، والنحل : ٧٩ ، والفرقان : ٧٤ ، ويس : ١١ . والامام بحسب الاصل : من تقدم الناس في الصلاة . وكانت هذه المهمة اولاً للنبي ، وغدت من بعده خلفائه اولاً من اتدبواهم لذلك . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٩ — ٦٠ .

(٤) الايجي ، ص ٢٩٦ وما بعده؛ الماوردي ، ص ٢٣ — ٢٤ ؛ النفي ، عمدة عقيدة اهل السنة ، نشر كورت (لندن ، ١٨٤٣) ، ص ٢٨ — ٢٩ .

بل تجعله الى ذلك الرئيس الروحي والزعيم الديني ، وتذهب الى انه يستمد سلطانه من النص المقدس . وهكذا يصبح لسلي محمد ، من ذرية علي وفاطمة ، قوة خارقة تصل اليه عن طريق الوراثة ^١ ، بها يغدو فوق البشر ، وعن طريقها يتميز بالعصبة . على ان بعض نصوص السنة المتأخرة قد نسبت العصبة من الاثم والخطأ الى الانبياء دون سواهم ، وأخصهم -مد^٢ . وتنادى غلاة الشيعة في تأليه الامام حتى انهم اعتبروه تجسيداً للألوهية . ولا شك في ان فكرة المهدي المنتظر ، التي تجلت في ما بعد وقامت على انتظار مخلص يفتتح بظهوره عهداً جديداً من الحرية والرغد ، إنما هي صدى للأمل بظهور مسيح جديد .

ولقد كان العراق ، من بين سائر الاقطار الاسلامية ، اخصبها تربة لنمو تعاليم الشيعة . ثم غدت فارس ، بعد اوائل القرن السادس عشر ، المعقل الاكبر للتعليم الشيعي . ويبلغ مجموع عدد الشيعة اليوم . ٥ مليوناً ، اي نحواً من اثني عشر بالمئة من مجموع المسلمين ^٣ . فهم في لبنان وسورية ، حيث يعرفون بالمتاولة ، يبلغون على سبيل التقدير ٢٣٢ ألفاً . ولقد تفرع من الشيعة عدد من الفرق الصغيرة يكاد لا يحصى ، بينهم الخارجيون والمتطرفون الذين لم يعودوا يعتبرون من الشيعة . وكان التشيع كالمغناطيس ، يجذب اليه جميع الناقمين والمحالفين لاعتبارات اقتصادية او اجتماعية او سياسية او دينية . من هؤلاء جماعة كانت قد ظهرت في اوائل الاسلام ، وعملت متسرة ضد التعليم العربي الجديد ، ثم اخذت في الانسواء الى صميم الشيعة ، لتحمل من ثم لواء المعارضة في وجه النظام القائم . وما الاسماعيلية والقرامطة والدروز والنصيرية ، ومن جاراتهم ، ممن سنعرض لهم في ما بعد ، الا فروع غدت من الاصل الشيعي .

من المحتمل ان يكون النبي محمد قد تنكر للموسيقى كما تنكر للشعر^٤ ، وذلك لصلتها بالشعائر الدينية الوثنية ليس الا . ففي حديث عنه انه قال ان الآلات

(١) الشهرستاني ، ص ١٠٨ - ٩ ؛ السعدي ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن حزم ، ج ٤ ، ص ٢ - ٢٥ ؛ الايجي ، ص ٢١٨ وما بعد ؛ I. Goldziher, *Der Islam*, vol. iii (1912), pp. 238-45.

(٣) اذا اضفنا الى هذا العدد المنشقين عن الشيعة نظير الزيدية والحشاشين وجماعة « علي الهي » بلغ المجموع نحواً من ٤٥ مليوناً ، وارتفعت النسبة الى ١٥ بالمئة من مجموع المسلمين .

(٤) صورة الشعراء ، ٢٢٤ - ٢٦ .

الموسيقية مؤذن الشيطان يدعو بها الناس الى عبادته^١. وكان السواد الاعظم من علماء الشريعة والفقه يعرضون عن الموسيقى والموسيقين ، في حين كان جمهور الناس يعبرون عن رأيهم فيها بالقول المأثور : « الحمر كالجسد ، والسماع كالروح ، والسرور ولدهما »^٢.

وما كادت الروعة الاولى ، التي رافقت ظهور الاسلام تنكشف ، حتى اخذ المغنون المحترفون ، من نساء ورجال ، يظهرות على مسرح الحياة . ففي العصر الاموي غدت مكة ، وبالأخص المدينة ، مدرسة للغناء ومعهداً للموسيقى^٣. فوفد عليها من بعيد الموهوبون من ارباب الفن ، وصدر منها الى بلاط دمشق سيل متزايد ابدأ من اهل الحذق الفني . ولما كان يزيد الاول ، الخليفة الاموي الثاني ، هو نفسه موسيقياً ، فقد ادخل الغناء والعزف الى البلاط ، وكان اول من اقام ، في دار الخلافة ، المهرجانات الكبرى التي حفلت بالغناء وشرب الخمر . ثم ان عبد الملك شمل برعايته سعيد بن مسجح (او مسجح حوالي ٧١٤) خريج المدرسة الجعازية ، ولعله اعظم موسيقي انجبه العصر الاموي . وكان سعيد هذا مولى زنجياً من اهل مكة ، قيل انه طاف في انحاء سورية وفارس ، ونقل بعض الالحان البيزنطية والفارسية الى العربية^٥. وقد اضيف اليه فضل تنسيق الموسيقى العربية نظرياً وعملياً في عهد العرب الاول . وكذلك الوليد الاول ، الخليفة الذي رعى الفنون والعمارة في الاسلام ، فقد استدعى الى عاصمته ابن سريج (ت حوالي ٧٢٦) ، احد المغنين الاربعة الكبار في الاسلام^٦ ، ومعبد (ت ٧٤٣) ، وهو مولد من اهل المدينة ، واستقبلهما بحفاوة بالغة . وقد بقي معبد اثيراً حبيباً في البلاط اذ ظفر بالخطوة لدى يزيد الثاني

(١) راجع التوري ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ١٣٢ - ٣٥ ؛ الفزالي ، احياء علوم الدين (القاهرة ، ١٣٣٤) ج ٢ ، ص ٢٣٨ وما بعد ؛ A. J. Wensinek, *A Handbook of Early Muhammadan Tradition* (Leyden, 1927), p. 173; Henry G. Farmer, *A History of Arabian Music to the Thirteenth Century* (London, 1929) pp. 24-25.

(٢) النواجي ، ص ١٧٨ ، راجع التوري ، ج ٤ ، ص ١٣٦ وما بعد .

(٣) العقد ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٤) الاغاني ، ج ١٦ ، ص ٧٠ ؛ قابل السمودي ، ج ٥ ، ص ١٥٦ - ٥٧ .

(٥) الاغاني ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

(٦) الاغاني ، ج ١ ، ص ٩٨ .

والوليد الثاني^١. ويزيد هذا هو الذي اعاد الشعر والموسيقى الى سابق عهدهما في حياة الاسرة الحاكمة ، بعد فترة من الرصانة والزهد تميز بها عهد الخليفة الورع عمر ابن عبد العزيز . وحكاية يزيد مع المغنيتين حباة وسلامة من الاخبار المعروفة^٢. وكان الوليد الثاني يحسن العزف على العود، وينظم الاغاني . وكان يجمع في بلاطه حشداً من العازفين والمغنين . اما هشام فقد خص برعايته مغنياً من اهل الحيرة اسمه حنين .

ولقد كانت الانعام خاضعة لنظام معروف من الايقاع (النوتات) ، إلا ان هذا النظام لم يدون ، وانما كان ينقل شفهيّاً من جيل الى جيل . وهذا كتاب الاغاني ، حافل بالابيات التي كانت تغنى في العهد الاموي ، لكنه لم يثبت لنا ايقاعاً واحداً مدوناً . وكان من شيوخ العناية بالغناء والموسيقى في ظل الامويين ما اتاح لمناقسيهم العباسيين استغلال ذلك في الدعاية ضد الحكم الامويين « المغتصبين المارقين » .

التصوير

ان تنكر الاسلام للفن التصويري لا يتجلى بصورة بارزة حتى اوائل العصر العباسي ؛ وهو ، في ما يبدو ، صدى لرأي جماعة من اليهود اعتنقوا الاسلام ، او من رواهب الفكر البدائي الذي يزعم ان من كان فيه شبه من شخص آخر كان باستطاعته ان يؤثر تأثيراً سحرياً مماثلاً .

ولقد ذهب معظم الفقهاء ، منذ العصر العباسي ، الى ان رسم الكائنات الحية من خصائص الله وحده . وروي عن النبي انه قال ان اشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون^٣ . ومنذ ذلك الحين لم يرسم مخلوق بشري في مسجد ما في دنيا الاسلام ؛ الا ما كان من ذلك على جدران القصور ، وفي الكتب المدونة ، وهو قليل . وعليه فقد استمد الفن الزخرفي جل مواضيعه من علم الهندسة ومملكة النبات . واقدم ما يمثل فن الرسم في الاسلام الرسوم الطينية المحفوظة في قصير عمرة . وهو قصر في شرقي الاردن ، بناء الوليد الاول ، وكان يأوي اليه في موسم الصيد . وهذه الرسوم تم عن صناعة مصورين من التصاري . فقد رسمت على جدران القصر

(١) الاغاني ، ج ٢ ، ص ١٩ وما بعد ؛ السموذي ، ج ٦ ، ص ٤ .

(٢) راجع ص ٨٩ - ٩١ من هذا الجزء .

(٣) البخاري ، الجامع الصحيح (بولاق ، ١٢٩٦) ، ج ٧ ، ص ٦١ .

صور لسته من الامراء ، جميعهم من اعداء العرب ، بينهم رودريك ملك القوط الغربيين في اسبانيا^١ . وهناك اشكال اخرى رمزية تمثل النصر ، والفلسفة ، والتاريخ ، والشعر . وبينها مشهد صيد يمثل اسداً ينقض على حماد وحشي . وهناك رسوم سواها تمثل راقصات عاريات ، وموسيقيين ومطربين . وليس بين آثار الفن الاسلامي ما هو اسلم حفظاً من هذه الرسوم .

ولقد كشفت الحفريات الحديثة في خربة المفجر^٢ الواقعة على بعد ثلاثة اميال من اريحا شمالاً ، عن قصر شتوي للامويين متقن الصنع ، زخرفت جدرانها برسوم انسانية وحيوانية . وقد اثبت النحات عليه اسم هشام (٧٢٤ - ٤٣) بما لا يدع شكاً في هوية بانيه . وهناك تمثال قائم لقتاة تحمل ضمة من الزهور ؛ ولوحة تمثل جماعة من الفتيات السمينات يرقصن ، وقد صبغن شفاههن واظافر اناهل اليدين واصابع الرجلين بصباغ قرمزي . هذا ، الى حديقة حيوانات جمعت انواعاً من الطيور والارانب والحيوانات الاخرى . وهذا الفن يتم عن صلة لا تقبل الخطأ بالفن الهيليني النبطي ؛ والظاهر ان زلزالاً وقع سنة ٧٤٦ هدم هذا القصر قبل ان يتم بناؤه .

قصور البادية

كان للخلفاء الامويين ، كما ذكرنا سابقاً^٣ قصور في الارياض يلجأون اليها فراراً من الامراض السارية^٤ ، يعيشون فيها حياة قروية فيشفون ما في نفوسهم من حنين الى حياة البادية . وانا لنجد بقايا القصور ودارات الصيد منتشرة على تخوم البادية ، لاسيما في القطاع الجنوبي ، وهي مباني انشأ بعضها معماريون امويون على الطراز البيزنطي او الفارسي ، وربما البعض الآخر وكان ممأ بناء الرومان قديماً^٥ .

نذكر من هذه القصور ، على سبيل المثال اثنين هما عمرة والمفجر . والجدير بالذكر ان هذين الاسمين ، نظير اسماء قصور عديدة اخرى ، من الاسماء الحديثة ،

(١) راجع ص ٧٤ من هذا الجزء .

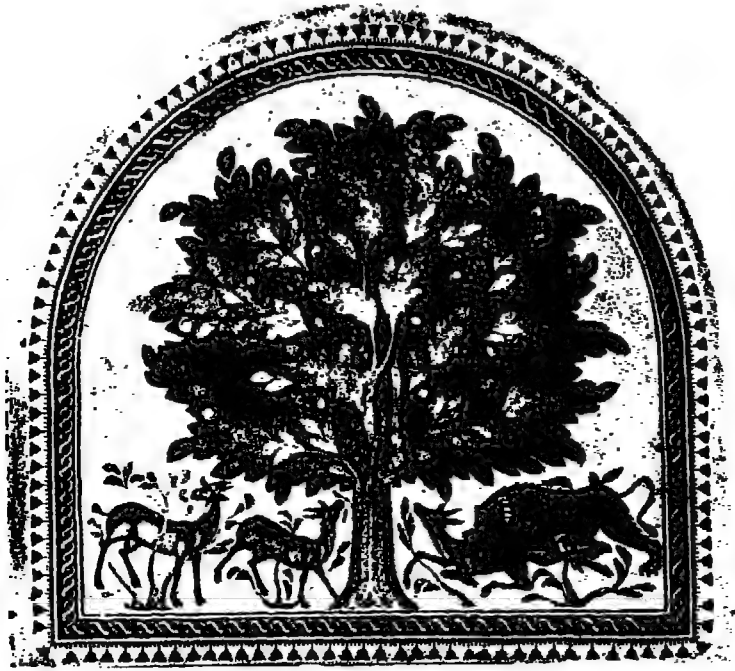
(٢) جرت هذه الحفريات على يد دائرة الآثار الفلسطينية وبدأ العمل سنة ١٩٣٥ . راجع : « Excavations at Khirbet el Mejer », *Quarterly of the department of Antiquities in Palestine*, vol. v (1936) : pp. 132-8 ; vol. vi (1937), pp. 157-68.

(٣) راجع ص ٤١ - ٤٢ من هذا الجزء .

(٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

(٥) راجع الجزء الاول ص ٣١٨ - ١٩ .

ولم ترد في المدونات القديمة . وخير هذه القصور على الاطلاق هو قصر عمرة^١، وذلك لما يمتاز به من تصاوير جدارية ذات روعة بالغة . ويعود بناء هذا القصر الى عهد الوليد الاول بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥، لكن خبره لم يشتهر في اوساط العلماء حتى سنة ١٨٩٨^٢.



بلاط من الفسيفساء في قصر خربة المنجر ، يدوفيه رسم فني لشجرة اترج يرعى الى احد جانبيها ظبيان ، وينقض اسد على ظي ناك في الجانب الآخر . ويحيط بالصورة حاشية من الفسيفساء مشرقة الالوان تبدو بها الصورة كأنها قطعة من السجاد

وقصر آخر مشهور جداً من قصور هذه المنطقة هو المعروف بالمششى^٣ . بناه

(١) تصغير قصر ، من لفظة لاتينية castrum بطريق السريانية .

(٢) انظر: Alois Musil, *Kusejr 'Amra und andere Schlosser ostlich von Moab* (Vienna, 1907). pt. I (Vienna, 1902) pp. 5 seq.; do., *Kusejr 'Amra, I. Textband* (Vienna, 1907). وقد ظن موزل هذا ان الوليد الثاني هو الذي بناه .

(٣) قابل : Musil, *Arabia Deserta*, p. 408; do., *Palmyrena*, p. 279, حيث يعتبر هذا القصر وقصوراً أخرى سواء من قصور الصيف لا الشتاء .

الوليد الثاني الذي كان شديد الولوع بالصيد ، وبغير الصيد من ضروب اللهو غير البري . ولا تزال واجهة هذا القصر الجميل ، ذات التحت الدقيق ، محفوظة الى اليوم في متحف برلين^١ . والوليد هذا هو الذي بنى ايضاً قصر خربة المنية الى الشمال الغربي من بحيرة طبرية . وقد عثر في الحفريات على دينارين يتفق تاريخهما مع تاريخ نقش هناك ينص على ان الوليد الثاني هو الذي امر ببنائه^٢ . وكان الوليد قد اقام ايضاً في قصر آخر ، نحو عشرين ميلاً الى الجنوب من مدينة عمان ، هو قصر القسطل^٣ . وقد ذكر مؤرخ سابق^٤ ان الذي بنى القسطل هو الحارث بن جبلة الغساني^٥ ، فاذا صحت الرواية كان هذا القصر من آثار الجاهليين . وقد شغل الوليد كذلك بناء آخر في ذلك الجوار عرف بالازرق^٦ . وكان ابوه يزيد الثاني قد بنى اورمم قصر الموقر^٧ ، الذي لم يبقَ من آثاره الا القليل . اما قصر الطوبة (التوبة ؟) ، الى الجنوب الشرقي من الموقر فقد عفت آثاره ولم يبقَ ما يدل عليه .

ثم ان هنالك قصوراً خربة اخرى على تخوم البادية الى الشمال من هذا المكان بعضها لم يتناولته الدرس الى الآن ، اهمها قصر أسيس^٨ (سَيس حديثاً) الواقع ٨٣ ميلاً من دمشق شرقاً . وهو موقع محصن يشتمل على جهاز للري يستخدم للارتفاع عياه الامطار . وغالب الظن انه من المباني التي اقامها الوليد ، وهو الوحيد بين الآثار الباقية من نوعه .

(١) Brunnow and Domaszewski, *Provincia Arabia*, vol. ii, pp. 105-70; راجع: B. Schulz and J. Strzygowski, « Mschatta », *Jahrbuch der Koniglich-preussischen Kunstsammlungen*, vol. xxv (1904), pp. 205-373.

(٢) « Khirbat Minya », *Quarterly of the department of Antiquities in Pales-tine*, vol. vi (1937), pp. 215-16; vol. vii (1938), pp. 49-51.

(٣) من اللاتينية castellum بطريق السريانية . ياقوت ج ٤ ، ص ٩٥ ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

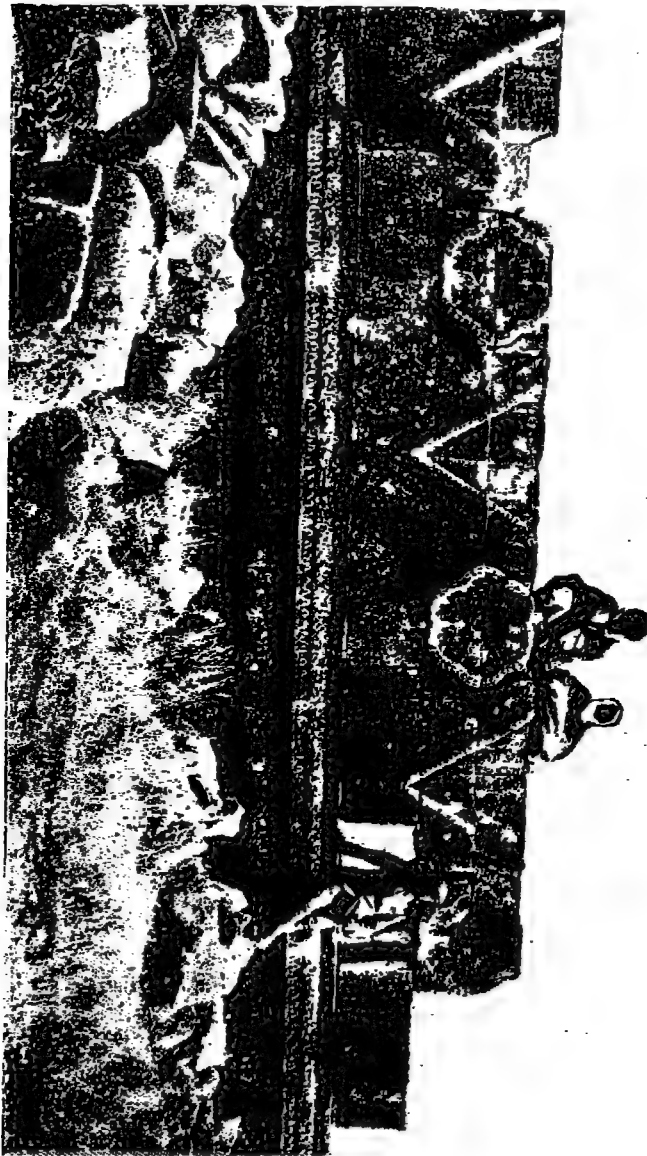
(٤) هو حمزة الاصفهاني ، ص ١١٧ .

(٥) ورد ذكره في الجزء الاول ص ٤٤٧ .

(٦) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٤٣ .

(٧) ياقوت ، ج ٤ ، ص ٦٨٧ . ان المنطقة التي قامت فيها قصور البلقاء والموقر والقسطل وسواها من المباني واقعة الى الشرق من نهر الاردن ويشتمل كذلك على مواب .

(٨) ياقوت ، ج ١ ، ص ٢٧١ ؛ Musil, *Palmyrena*, p. 282; G. Sauvaget, « Les Ruines omeyyades du Djebel Seis », *Syria*, vol. xx (1939), pp. 239-56.



واجهة قصر المنشي

قصر الحير

وهناك قصران آخران في هذه المنطقة يعرفان بالحير^١ ؛ والظاهر انه كانت للخلفاء مساكن ذات حدائق مسورة تحفظ فيها حيوانات بربية للصيد . يقع اول هذه القصور على بعد اربعين ميلاً الى الشمال الشرقي من مدينة تدمر ، وهو المعروف بقصر الحير الشرقي ، تميزاً له عن القصر الغربي الواقع بين تدمر والقريتين . ويبلغ اتساع اراضيه خمسة اميال طويلاً ونحو ميل واحد عرضاً . اما باقي هذا القصر فهو هشام بن عبد الملك ، وكان ذلك سنة ٧٢٩ . وقد زعم احد المؤرخين ان هذا القصر هو قصر الرصافة^٢ المنسوب الى هشام^٣ . وكان هشام شديد التعلق بالرصافة ، وفيه مات ودفن^٤ . ولقد استخدمت في هذا القصر « السقطة » التي سبق استخدامها في سورية قبل الاسلام ، والتي عرفت في اوربا في آخر القرن الثاني عشر .

ويقع على بعد اربعين ميلاً الى الجنوب الغربي من تدمر ، قصر الحير الغربي الذي بناه هشام ايضاً سنة ٧٢٧ ، كما يستدل من بعض نقوشه الباقية . ويبدو ان هشاماً كان يقيم فيه قبل ان تحول الى الرصافة . وقد يكون هذا القصر هو الذي دعاه مؤرخو العرب بالزيتونة^٥ ، وكان اولاً حصناً بيزنطياً اورومانياً . وبين اثاره الرائعة مثالان لامرأتين عند المدخل ، ينم صنعهما عن الفن التدمري . وبين الرسوم صورة لقينتين تعزف احدهما على عود ذي خمسة اوتار^٦ .

(١) في مسكويه ، تجارب الامم ، نشر مرغوليوث ، ج ١ (القاهرة ، ١٩١٤) ص ١٥٩ س ١٥ ورد الاسم « حائر » ولفظة حير من السريانية بمعنى البقعة المحصورة بجائط ، وهي ذات صلة بلفظة حيرة بمعنى الخيم او المسكر ؛ انظر ما سبق الجزء الاول ص ٤٤٩ .

(٢) راجع الجزء الاول ص ٤٣٥ - ٣٦ .

G. Sauvaget in *Bulletin d'études orientales*, vol. v (1935) pp. 136-7; do., (٣) « Remarques sur des monuments omeyyades », *Journal Asiatique*, vol. ccxxxi Henry Seyrig, *Antiquités syriennes*, ser. 1 (1934) pp. 1-3; ser. 2 (1938), pp. 1-9; K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, pt. 1 (Oxford, 1932), p. 330.

(٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٢٩ .

(٥) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٦٧ .

(٦) وهذا يطل نسبة امتباط الوتر الخامس الى الفنان المشهور زرياب الذي توفي حوالي سنة

Hitti, *History of the Arabs*, p. 598. ؛ ٨٥٢

ان زخارف هذا القصر المحفوظة الآن في المتحف الوطني في دمشق تملأ الثغرة الفاصلة بين الفن البيزنطي والفن الاسلامي . فهي تؤلف بين العناصر الساسانية والبيزنطية والسورية وتنسجها في نظام منسجم . ولقد تحولت الاشكال الفنية التي نشأت هنا الى المغرب، وبلغت غايتها من الدقة والاتقان في قرطبة وغرناطة . ولقد جرى العباسيون مجرى الامويين في انشاء الجناح حول القصور على النظام المتبع في قصر الحير . فقد اشتملت عاصمتهم المؤقتة سامراً على قصر من هذا النوع ، وصفه العالم الجغرافي الكبير اليعقوبي^١ بقوله انه قد حوى حيوانات برية من غزلان، وحمر وحشية، وطيء وارانب، ونعام، جعلت في بقعة فسيحة جميلة ، احاط بها سور عال . ولسنا نصادف عند الرومان رغبة في انشاء حدائق الحيوانات حتى العهد الامبراطوري ، بما ينم بوضوح عن تأثير شرقي^٢.

وكان الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ١٧) يقيم في بلدة بناها في فلسطين هي الرملة . وهي البلدة الوحيدة التي انشأها العرب في سورية^٣ وقد بقيت آثار من قصر الخليفة حتى مطلع القرن العشرين ، ولا تزال مأذنة المسجد الابيض قائمة كما رهبها المماليك . وغدا هذا المسجد ، بعد المسجد الاموي في دمشق ، وقبة الصخرة في القدس ، الثالث بين مباني المسلمين الكبرى المقدسة في سورية .

المساجد : المسجد الاقصى

ظل المسلمون ، بعد فتح سورية بنحو من نصف قرن يقيمون الصلاة في كنائس حولوها الى مساجد . ولم يعمدوا ، في هذه الاثناء الى بناء مسجد ما . وخلافاً لما ورد في الاخبار ، لم يقسموا الكنائس بالذبات بينهم وبين النصارى ، بل اكتفوا بقسمة الباحة المقدسة . فكان المصلون من ابناء دمشق يدخلون من باب واحد في السور ، ثم يتحول النصارى الى اليسار ، وينعطف المسلمون الى اليمين^٤ . وعندما

(١) البلدان ، ص ٢٦٣ .

(٢) للاستزادة عن هذا القصر راجع : D. Schlumberger, « Les Fouilles de Qasr el-Heir el Gharbi » Syria, vol. xx (1939) pp. 195-238, 324-73; Ja'far al-Hasani. « Qasr al-Hayr », Majallat al-Majma' al-Ilmi, al-'Arabi, vol. viii (1941), pp. 337-45.

(٣) الميرون والحدائق في اخبار الحقائق ، نشر جوينبول (ليدن ، ١٨٥٣) ، ص ٤٠ .

(٤) Creswell, pt. i, p. 134.

احتل المسلمون مدينة حماه، حولوا الكنيسة التي نعتها احد المؤرخين الاهليين^١ بالكبرى، الى الجامع الاكبر. ولا تزال الواجهة الغربية في حالة سليمة^٢. وكذلك المسجد الاكبر في حمص^٣، ومسجد حلب^٤، فقد كانا من معايد النصارى. ولا تزال الآثار المسيحية، والاعمدة الرومانية ظاهرة للعيان في معبد حمص.

وكان اول مسجد بني في سورية قبة الصخرة^٥ في القدس؛ بناء عبد الملك سنة ٦٩١ في موقع قام عليه قبلاً هيكل سليمان. وهو يمثل اقدم بناء اثري اسلامي لا يزال قائماً. والى بين الصخرة كان موقف محمد في ليلة عروجه، ومن هنا ارتقى حصانه العجيب^٦ نحو السماء. ولما كانت مدينة القدس موقفاً للنبي، واول قبة في الاسلام، فقد اكتسبت في نظر المسلمين صفة التقديس في عصر باكر. وربما كان ذلك ايضاً لاعتبارات سياسية. فقد هدف الخليفة الاموي من ايجاد معبد فخيم الى تحويل قوافل الحجاج السوريين عن مكة، وهي آتخذ في حوزة منافس له في الخلافة^٧، والى ان تتضاءل في جنبه كنيسة القيامة وسائر كاتدرائيات النصارى في سورية^٨. ومن اجل تحقيق هذا الغرض، عمد عبد الملك الى استخدام المهندسين الاهليين، والفنانين المدربين في مدارس بيزنطا. واقام هذا البناء على طراز كاتدرائية بصرى^٩؛ اما ابوابه البرونزية المزينة بصفائح فضية مزخرفة، فهي من اقدم ما بقي لنا من هذا النوع من الزخارف، وهو الفن الذي اتقنه الفنانون

(١) ابو الفداء، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) Creswell, p. 14.

(٣) البلاذري، ص ١٣١؛ القنسي، ص ١٥٦.

(٤) البلاذري، ص ١٤٦ - ٤٧.

(٥) ويسميه الاورويون خطأً مسجد عمر، فن الجائر ان يكون عمر عندما زار القدس سنة ٦٣٨ (انظر ما سبق في ص ١٤ من هذا الجزء) قد بنى مبداً بسيطاً من الخشب او الطوب.

(٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 114.

(٧) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣١١؛ راجع ما سبق في ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٨) القنسي، ص ١٥٩.

(٩) Dussaud, *Syrie antique*, p. 10., cf. M. S. Briggs, *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine* (Oxford, 1924), p. 37.

البيزنطيون وتميزوا به . ولقد اسرف الفنانون في تزيينه بالفسيفساء والرسوم الكاشانية ، عند بنائه في الاصل ، او عند ترميمه او تجديده . ويشتمل الطراز الكاشاني على الرصف بقطع البلاط المربعة او المسدسة الصقيلة ، وربما رسمت فيها صور نباتية او اشكال هندسية . وهي تعود الى اصل فارسي بشهادة اسمها^١ . اما صناعة الفسيفساء فمن المستطاع ارجاعها الى العهد البابلي . وقد ترك لنا عبد الملك على دائر باطن القبة كتابة بالخط الكوفي هي اقدم ما بين ايدينا من الكتابة الاسلامية . وبعد ذلك بنحو قرن وربع القرن ، عهد الخليفة العباسي المأمون الى ترميم هذا البناء ، ولم يتخرج من ان يزيل عنه اسم عبد الملك ليضع اسمه في مكانه ؛ لكنه ، لحسن الحظ ، غفل عن ان يغير التاريخ^٢ .

والى شرقي القبة بناء صغير انيق يعرف بقبة السلسلة ؛ وكان يقوم مقام بيت المال لمسجد القبة ويبدو من طرازه وزخارفه انه يعود الى العهد نفسه . ومن اجل



قبة الصخرة وقبة السلسلة

(١) كاشان مدينة في ميا ؛ ياقوت ؛ البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥ .
 (٢) والبارة هي : بنى هذه القبة عبد الله عبد (الله الامم المأمون) أمير المؤمنين في سنة اثنتين وصبعين . فليقبلها الله منه ورضى عنه ! آمين .

صيانة حرمة المكان روى المسلمون حديثاً زعموا به ان الملك سليمان وضع هنالك سلسلة جعلها حاجزاً ، يستطيع الصادقون المحلصون وحدهم ان يروها ويمسوها ، دون ان تتأثر بلسمهم ، اما الكاذبون المراءون فلا يرونها .

المسجد الاقصى

وبالقرب من قبة الصخرة ، اقام عبد الملك مسجداً آخر هو المسجد الاقصى^١ ، غدت القبة منه بمثابة المزار . واسم المسجد الاقصى بالمعنى المتداول يطلق عملياً على الباحة المقدسة برمتها ، البالغة نحواً من ٣٤ فداناً ، بكل ما يقوم عليها من ابنية مقدسة ، نظير التكايا الصوفية والسبل العامة التي انشأ بعضها المماليك وسلطين بني عثمان في ما بعد ؛ والحرم الشريف معبد آخر من هذه المباني المقدسة ، وهو يقوم في موقع كان سابقاً لهيكل يهودي ، وكنيسة مسيحية ، ومعبد وثني (روماني) ، بما يجعله من اقدس الاماكن على وجه الارض . ثم ان المسجد الاقصى يقوم على موقع كان سابقاً لكنيسة كرسها يوستنيانوس للقديسة مريم . وقد استخدمت انقاضها في بنائه . وبعد ان رسم المنصور العباسي هذا المسجد بما لحقه من فعل الزلزال ، اجري فيه الصليبيون بعض التغييرات ، ثم استرده منهم صلاح الدين سنة ١١٨٧ .

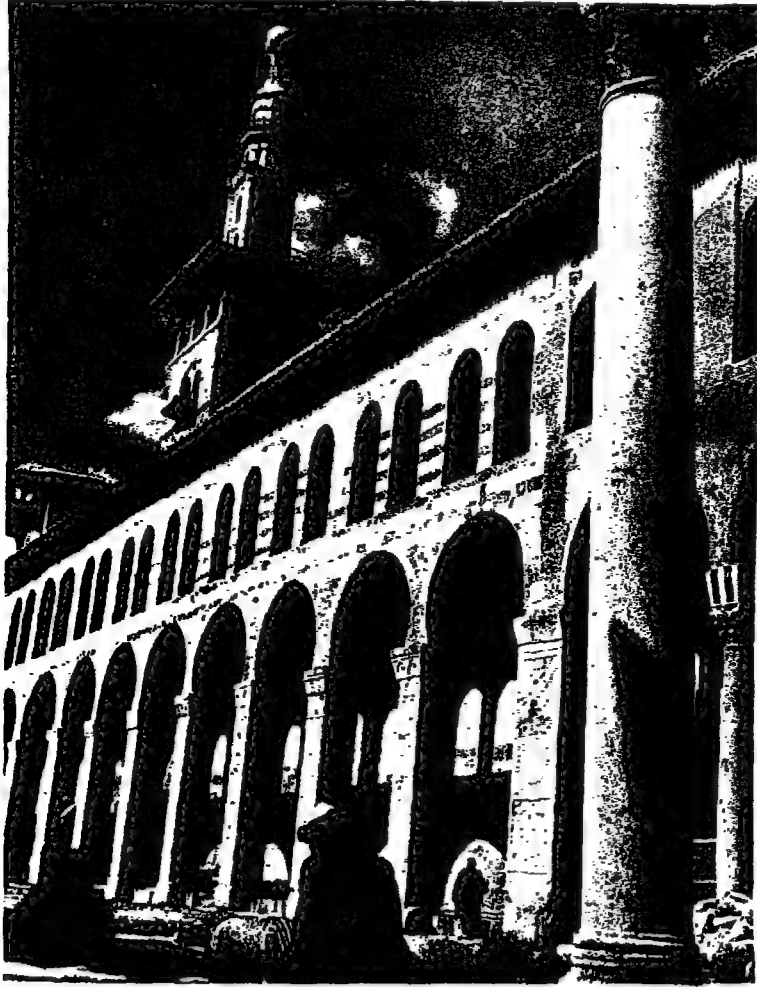
المسجد الاموي

ويجيء بعد المسجد الاقصى ، خطورة وتاريخاً ، المسجد الاموي في دمشق . فقد استولى الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ على كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان . وانتزعها من ايدي الرعية المسيحية ، وحولها الى هذا المسجد^٢ الذي يعد من افخم المعابد في العالم . ولا يزال الجامع الاموي الى الآن يعتبر ، بعد معابد مكة والمدينة والقدس ، الحرم المقدس الرابع في الاسلام . وكانت كاتدرائية القديس يوحنا هذه قد بنيت على انقاض هيكل مكرس لجوبيتر الدمشقي - وهو في الاصل الاله

(١) الاقصى : الابد ، من اشارة مزعومة في القرآن (سورة الاسراء : ١) ، ومن هذه الآية نشأت حكاية المراج . اما الفخري (ص ١٧٣) فقد نص على ان بانيه هو الوليد . ولوقوف على وصف اسبق راجع ابن الفقيه ، ص ١٠٠ - ١٠١ ، دون حوالي سنة ٩٠٣ ، والقليسي ، ص ١٦٩ - ٧١ ، دون حوالي ٩٨٥ .

(٢) ابن عساكر ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ؛ ابو اللداء ، ج ١ ، ص ٢٠٩ - ١٠ .

السوري حَدَدًا - بني على طراز هيكل الشمس في تلسر - ولقد تذرّع المسلمون لتبرير استيلائهم على الكنيسة - وكانوا حتى ذلك الحين قد شاطروا أصحابها النصارى



الجامع الاموي في دمشق

جانباً من باحتها - برواية تاريخية تزعم انه لدى فتح دمشق ، كان دخول خالد بن الوليد وابي عبيدة^٢ اليها في وقت واحد ، دخلها الواحد من الشرق عنوة ، والآخر

(١) راجع الجزء الاول ص ١٨٦ .

(٢) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

من الغرب سلفاً؛ وان الفريقين التقيا في وسط الكنيسة، دون ان يدري احدهما بالآخر. ولا يزال مدفن رأس يوحنا تحت قبة في المسجد متقنة الصنع غنية التذهيب. وهناك اثر نصراني آخر، هو كتابة يونانية منقوشة على عتبة باب السور الجنوبي مؤداها: «ملكك ايها المسيح ملك كل الدهور، وسلطانك في كل دور فدور».

والقول ان الوليد واصل العناية بتحقيق هذا المشروع مدة سبع سنوات، ووقف عليه خراج سورية برمته^٢. ولم يقتصر على استخدام اهل الخبرة من ابناء البلاد، بل حشد له صناعات وفنانين من الفرس والهنود. وارسل الى امبراطور الروم في طلب مئة من الفنانين اليونان^٣. ولقد زين سقف المسجد واعالي جدرانها بالفريساء الملونة والرخام النادر، وبدت فيه رسوم جدارية مذهبة ومرصعة بالحجارة الكريمة، تمثل مشاهد من الاشجار والمدن شاهداها العالم الجغرافي السوري المقدسي^٤. لكن احد الحكماء المتزمطين سترها بطلاء من طين، فبقيت محجوبة، الى ان كشف عنها سنة ١٩٢٨^٥. ولقد تبين، لدى درس هذه الرسوم والزخارف، انها اصدق تمثيلاً للصناعة السورية الالهية منها للفن اليوناني البيزنطي.

وقد بنى الوليد في الجانب الشمالي من المسجد مئذنة استخدمت ايضاً بمثابة منارة^٦، وغدت نموذجاً للمآذن في سورية وشمالي افريقيا، ثم نقل طرازها الى الاندلس على يد عبد الرحمن الاول. وهذه المئذنة هي اقدم مئذنة اسلامية خالصة لا تزال قائمة. اما المئذنتان الاخرتان في الطرف الجنوبي، فقد قامتا على برجين قديمين للكنيسة^٧. ويذكر لنا الغزالي (ت ١١١١) انه اعتكف في المئذنة الشمالية،

(١) قابل: الزمور ١٤٥: ١٣؛ والرسالة الى العبرانيين الاصحاح ١: ٨.

(٢) المقدسي، ص ١٥٨؛ قابل: الميرون والحدائق، ص ٧.

(٣) ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٢؛ وكتاب الميرون يجعل عددهم مئة الف ويذكر ان بعضهم استخدموا في مكة والمدينة: قابل الطبري ج ٢، ص ١١٩٤؛ ابو الفداء، ج ١، ص ٢١٠؛ ابن جبير، ص ٢٦١.

(٤) ص ١٥٧؛ قابل الاصطخري، ص ٥٧، ابن رسته، ص ٣٢٦؛ الميرون، ص ٨ - ٩.

E. de Lorey and M. van Berchem, *Les Mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas* (Paris, 1930); Creswell, pp. 119-20.

(٦) دعت ايضاً «صومعة» (ابن عساكر، ج ١، ص ٢٠٠)، وقد راج اسم المئذنة في ما بعد.

(٧) قابل ياقوت، ج ٢، ص ٥٩٣.

وانقطع فيها الى التأمل والصلاة^١. والطراز المربع المنبسط للمآذن متحدر ولا شك من برج المراقبة او برج الكنيسة . اما الطراز المستدير المستدق ، الذي يذكرنا بالاعمدة الرومانية القديمة ، فقد اعتمده الترك ، في ما بعد ، وحققوه في بناء المساجد في سورية ، كما يتمثل ذلك في مسجد خالد بن الوليد في حمص .

ويتميز جامع دمشق ايضاً بأنه اول مسجد ظهر فيه المحراب ؛ وفيه تظهر كذلك الحنية المشابهة لحذوة الفرس . ومع ان البناء قد احترق سنة ١٠٦٩ ثم سنة ١٤٠٠ (على يد تيمورلنك) ، واخيراً سنة ١٨٩٣ ، فانه لا يزال ، في نظر المسلمين ، من عجائب الدنيا السبع وهو العجيبة الرابعة بينها^٢.

والوليد ، وهو في طليعة المعنيين بالمباني من الامويين ، هو كذلك صاحب الفضل في ترميم مسجد المدينة ، وتوسيع مسجد مكة وتجميله ، وبناء الكثير من المدارس والمستشفيات^٣ والمساجد في سورية . ويضاف اليه كذلك نقل قبة نحاسية مذهب من كنيسة في بعلبك الى مسجد كان والده قد بناه في القدس . ولما كان عهده عهد أمن ويسار ، فقد كان حديث الناس في دمشق متى اجتمعوا ، يدور بالاكثر على الصروح الفخمة والمباني الانيقة^٤.

ولقد تحقق ، في ما خلفه الامويون من قصور ومساجد ، انسجام العناصر الفنية العربية والفارسية والسورية واليونانية ، وتآلف من ذلك جميعه البادرة الاولى في الفن الاسلامي . فالعصر العربي قد تمثل في تكرار وحدات فنية بغير نهاية ، بحيث يستطيع الاضافة اليها ، او الحذف منها دون اخلال بالشكل ككل ؛ وهذه الاعمدة التي يحفل بها مسجد قرطبة تشهد على ذلك ؛ وكذلك الاشكال الهندسية المتلاحقة ، فانها توحي رثابة الصحراء ، حيث تبدو صفوف جذوع النخيل في واحة ماء او قوائم الجمال في القوافل الطاعنة ، كأنها لا تنتهي عند حد . اما الفن الفارسي ، فقد ادى من دقة الزخرفة واناقة الزركشة وروعة الالوان الشيء الكثير . وهكذا فان العناصر والاشكال السامية القديمة واليونانية الدخيلة قد ائتلفت في سورية الاموية واتجهت نهائياً في خدمة الاسلام .

(١) الفزالي ، المتقدم الضلال (القاهرة ، ١٩٣٦) ، ص ٢٧ ؛ قابل ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) ابن الفقيه ، ص ١٠٦ ؛ ابن عساكر ، ج ١ ، ص ١٩٨ ؛ ياقوت ، ج ٢ ، ص ٥٩١ .

(٣) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء .

(٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٢٧٢ - ٧٣ .

الفصل التاسع والثلاثون

الكنيسة المسيحية السريانية

الكنيسة السريانية الشرقية

كانت الكنيسة المسيحية السريانية ، قبل ظهور الاسلام ، قد انقسمت الى طوائف عديدة ، فكان منها اولاً الكنيسة السريانية الشرقية ، او كنيسة الشرق . فهذه الطائفة التي نشأت في اواخر القرن الثاني تدعي انها قد واصلت ، بلا انقطاع ، نشر التعليم الروحي ، وممارسة الطقس الكنسي والنظام الكهنوتي والتقليد الديني ، منذ عهد الملك ابجر (Abgar) الرهاوي ؛ وقد زعموا انه كتب الى السيد المسيح يسأله ان يشفيه من المرض العضال الذي اصابه ، وان المسيح وعده بان يوجه اليه احد تلاميذه بعد صعوده الى السماء^١ . هذه الكنيسة هي التي تسمى خطأ بالكنيسة النسطورية ، منسوبة الى الراهب الصقلي نسطوريوس^٢ . الذي تأخر عنها تاريخياً نحواً من قرنين ونصف القرن . فان الروم الكاثوليك هم الذين سموها ، في عهد متأخر ، بالنسطورية من اجل ان يلصقوا بها وصمة الهرطقة ، ولكي يميزوا بينها وبين من التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية ، بمن قالوا بالطبيعة الواحدة ، واطلق عليهم اسم الكلدانيين . ولقد انتخب اول بطريرك للطقس الكلداني سنة ١٥٥١ في مدينة الموصل ، وذلك على يد جماعة من الساخطين^٣ .

ان هذه الكنيسة يجمعها بين لاهوت المسيح وناسوته ، واستنكارها لتأليه مريم العذراء ، ونشاطها البالغ في نشر تعاليمها ، وتقانيها في نشر رسالتها ، كانت في اوائل الاسلام ، العامل الاقوى في الحضارة السورية التي طبعت الشرق الادنى بطابعها ، من مصر حتى بلاد فارس . فان جماعة من ابناء هذه الطائفة كانوا قد اقبلوا

(١) راجع بشأن نسخ هذه المراسلة سعيد بن الطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (بيروت ، ١٩٠٩) ج ٢ (ملحق لسعيد بن يحيى الانطاكي) ص ٢٦٣ - ٤ .

(٢) للاستزادة من اخباره راجع السمعاني : Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. iii, pt. i (Rome, 1725), pp. 35-7 ; راجع ايضاً ما سبق في ص ٤١١ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

(٣) Donald Attwater, *The Christian Churches of the East* (Milwaukee, 1946), (٣ vol. i, p. 190.

في القرن الرابع فما بعد ، على درس كتب الفلسفة اليونانية ، وعملوا على نقلها الى لسانهم ، وبثها في سورية والعراق . ثم اخذت هذه الكنيسة في الانتشار شرقاً من الرها حتى تسربت الى فارس . وفي اواخر القرن الخامس عمداً اسقطت العاصمة الساسانية - مدائن كسرى - الى تنصيب نفسه بطريركاً على الكنيسة الشرقية . لكن المقام البطريركي لم يلبث ان انتقل الى بغداد عندما انشئت سنة ٧٦٢ . فحظي هنالك برعاية الخلافة . وقد كان لهذه الكنيسة سجلٌ من النشاط التبشيري منقطع النظير حتى في ظل الاسلام ، والمدافن الاثرية وسواها من الآثار تشهد على وجود كنائس سريانية في مرو وهراة وسمرقند ، وفي مواضع اخرى في آسيا الوسطى ، يعود تاريخها الى اواسط القرن السادس .

وحوالي هذا الوقت تسالت جنوباً الى الهند ارساليات تابعة لهذه « الحركة البروتستانتية الشرقية » حيث كانت النصرانية قد توثقت قبل ذلك بقرنين من الزمان . فنشأت على ساحل الهند الغربي كنائس سريانية لاسياً في ملبار وسيلان . ولقد عُرف اتباع الطقوس السرياني في الهند بـ « نصارى القديس توما » ، تبعاً لاختبار لا يعول عليها جعلت من توما هذا المعلم الاول للمسيحية في الهند . وقد تعززت هذه الطائفة ، في القرب الثامن والتاسع ، بوفود هاجروا اليها من بغداد وسواها من مدن الاسلام . واذ بلغت شهرتها الى الغرب ، سارع الفرد ملك انكلترا الى فتح سفارة له في ذلك الصقع النائي .

على ان العمل التبشيري الباهر هو الذي تحقق في الشرق الاقصى . ففي ما بين القرن السابع والتاسع ، ثم في غضون الثاني عشر والرابع عشر ، تسلسل جماعة من الرهبان السريانيين الى داخل الصين ، فوصلت الفئة الاولى منهم الى سيان فو سنة ٦٣٥ ، في الوقت الذي كانت جيوش المسلمين تكتسح بلاد فارس . ولقد نصبت لوحة تذكارية لسنة وسبعين من هؤلاء المرسلين ، نقشت عليها اسمائهم ومآثرهم باللغتين الصينية والسريانية ، وذلك « في السابع من الشهر الاول من عام ٧٨١

(١) ذلك بالمقارنة مع تعليم الارثوذكس الذي يعتبر المسيح ذا طبيعتين صيغ منها شخص واحد ؛ قابل بما سبق ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

للميلاد». وهذه اللوحة لا تزال قائمة في تلك المدينة الى اليوم^١. وهناك دير نشطوري في موضع لا يبعد كثيراً عن هذا المكان هو الآن معبد «تاوي». وبعد ان استمرت هذه الكنيسة السريانية في الصين ما يزيد على السبعة قرون (٦٣٥ - ١٣٦٧)، انفصلت عن الكنيسة الام التي كان الاسلام قد اضعفها، حتى لم تعد تقوى على امداد فروعها؛ وعندئذ تمثلتها الاديان المحلية والفرق «التاوية» والطوائف الاسلامية، لكنها بقيت، مع ذلك، في تاريخ الصين بمثابة «الدين المنير»^٢. اما اثرها الثقافي فظاهر في الحروف السريانية التي كانت اللغة المغولية والمنشوكية تكتب بها^٣؛ وكذلك في صناعة تجليد الكتب وزخرفتها في تركستان اذ هي تمت الى صناعة اقباط مصر بصلة متينة، والمظنوث انها انتقلت اليهم عن طريق هؤلاء المسيحيين السريان^٤.

وكان يقيم في منطقة ارمية والموصل وكردستان الوسطى، عند ابتداء الحرب العالمية الاولى ١٩٠٠، من اتباع الكنيسة السريانية الشرقية^٥؛ اما من بقي منهم فقد تسلل، منذ ذلك الوقت، الى العراق وسورية. على ان الاسم الجديد الذي اطلقه عليهم المرسلون الانكليكان، وتقبله منهم بعض زعمائهم، لا يبدو نائياً متى قورنت سحنة الكثيرين منهم بالشكل الاشوري كما هو منقوش على الانصاب التاريخية.

اما الفرع الغربي للكنيسة السريانية، الذي علم بالطبيعة الالهية الواحدة للمسيح^٦، ورفع العذراء الى مراتب القديسين، فلم يكن ذا نشاط تبشيري يذكر. فقد كانت فلسفته اللاهوتية التي تعلم بالطبيعة الواحدة تغلب وحدة المسيح الالهية على الجانب الانساني فيه. ولقد عرف القائلون بالطبيعة الواحدة في سورية باليعاقبة، دعاهم

(١) P. Y. Saeki, *The Nestorian Documents and Relics in China* (Tokyo, 1937), pp. 35, 68.

(٢) Saeki, pp. 65, l. 15, 457, l. 7; cf. 449, l. 10.

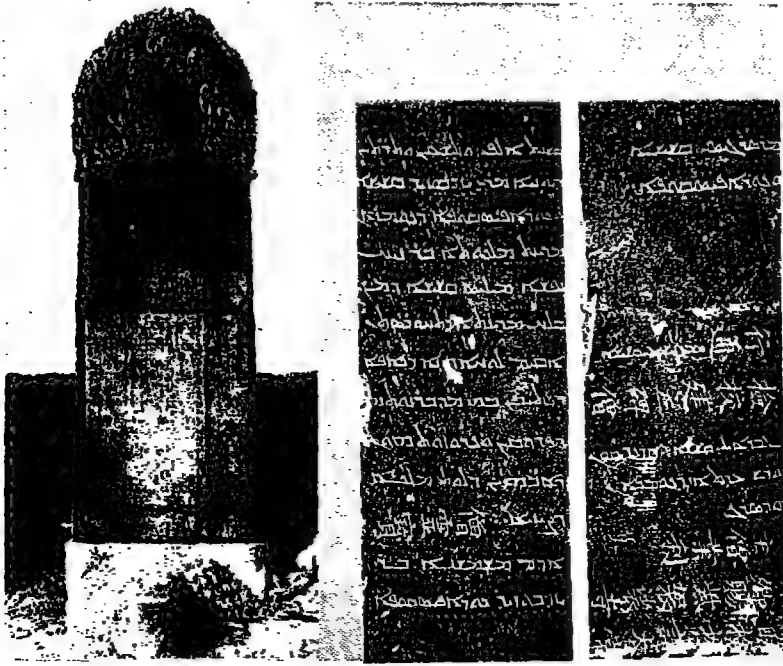
(٣) راجع الجزء الاول، ص ٤١٢.

(٤) Mehmet Aga-Oglu, *Persian Bookbindings of the Fifteenth Century* (Ann Arbor, 1935), p. I. For more on the Nestorians consult Assemani, vol. iii, pt. 2.

(٥) A. Yuhanan, *The Death of a Nation* (New York, 1916) pp. 8-9.

(٦) قائل الجزء الاول، ص ٤١٢.

بذلك خصومهم اليونان اذ كانوا اتباع يعقوب البرادعي اسقف الرها في اواسط القرن السادس^١. وكان الفسائيون وسواهم من العرب السوريين قد اعتنقوا بهذا



النصب التذكاري السرياني في سيان قو
المؤرخ ٧٨١ لليلاد

الكتابة السريانية والصينية المنقوشة
في ادنى النصب

المذهب قبل ظهور الاسلام^٢، فكانت الكنيسة المعروفة باليعقوبية هي الغالبة في سورية، بينما كانت المدعوة خطأً بالنسطورية اوسع انتشاراً في فارس. اما لغة الكنيستين فقد كانت ولا تزال السريانية^٣، على ان اللغة اليونانية كانت تدرس في الاديار ايضاً. وقد ساهم اليعاقبة في المجهود الذي بذله النساطرة في نقل الفكر

(١) راجع ماورد سابقاً في ص ٤١١ - ٤١٢. والسماوي يكرس القسم الاكبر من كتابه *Bibliotheca Orientalis*، المجلد الثاني، لدراسة اليعاقبة والقاتلين بالطبيعة الواحدة.

(٢) راجع الجزء الاول ص ٤٤٩.

(٣) بعد ان تنصر الاراميون غدوا يفضلون تسمية اللغة بالسريانية على تسميتها بالارامية.

اليوناني الى سورية ثم الى دنيا الاسلام . وكانت قنشرين في شمالي سورية مركزاً هاماً لاذاعة تعليم الطبيعة الواحدة وترجمة علوم اليونان . وكان علماء اليعاقبة اقطاب النشاط العلمي واعلام حركة النقل العلمي في ذلك العهد .

ولقد بقي من اتباع هذه الكنيسة الجلية حتى اوائل القرن الثاني عشر نحو من مئتي الف نفس ، وذلك في جوار ماردين وديار بكر وأرمينيا^١ . ومنذ ذلك الحين عصفت بهم الاضطهاد والتشريد فلجأ من بقي منهم الى سورية ولبنان . اما مقامهم البطريكي فهو اليوم في حمص ، وهم يأبون اسم اليعاقبة ، ويؤثرون ان يدعوا باسم السريان الارثوذكس او السريان القدماء . اما من اعتنق منهم مؤخراً طقس الروم الكاثوليك فقد تألفت منهم كنيسة السريان الكاثوليك التي قام مركزها البطريكي في لبنان . وهذا الفرع من الكنيسة الغربية يقابله فرع الكلدانيين من الكنيسة الشرقية .

وقد تحدر من تعليم الطبيعة الواحدة ، فضلاً عن الكنيسة اليعقوبية السورية ، كنيسة مستقلة : هما الكنيسة الارمنية والكنيسة القبطية الحبشية . وكانت تفوق كنيسة السوريين على كنائس ارمينيا ومصر والحبشة مأثرة بارزة اخرى من مآثر المجتمع والفكر السوري . وجدير بالذكر ان الكنيستين السريانيتين الشقيقتين : الشرقية والغربية ، مع كل ما كان لهما من رغبة في علوم اليونان ، انما نشأتا وتوسعتا بعامل الردة التي اثارها المجتمع السوري ضد المحاولات التي قامت بها بيزنطة وروما لصبغها بالصبغة اليونانية . ولما كانت هاتان العاصمتان المسيحيتان قد عمدتا الى اعتبار التعليم اليعقوبي والتعليم النسطوري ضرباً من الهرطقة ، فقد كان قيامهما في الاصل احتجاجاً على التدخل الخارجي في شؤونها الاهلية ، وتنكراً لعملية التوفيق التي استهدفت تحويل المسيحية ، وهي دين سوري ، الى منظمة يونانية رومانية . واذ اجتاحت الاسلام هذه الاصقاع عصفت بها حتى لم يبقَ منها الى اليوم الا صور متحجرة لمجتمع سرياني منقرض^٢ .

(١) Yuhanan, p. 9.

(٢) Toynbee, vol. v, p. 127.

الموارنة

وفرع آخر من فروع الكنيسة السورية القديمة هو فرع الموارنة ، الذي يعود اصله الى عميده القديس مارون (مارو^١) . ومارون هذا ناسك راهب متعبّد متقشف لا يعرف عن حياته شيء كثير ؛ عاش بين انطاكية وقورس (قورش) وفي قورس توفي سنة ٤١٠ ؛ وهو في ما يظن ، « مارون الكاهن الناسك » الذي وجه اليه يوحنا كريسستم وهو في طريقه الى منفاه ، رسالة يرجوه فيها ان يصلي من اجله ويواجهه باخباره^٢ . وفي الاخبار ان القديس مارون هذا ، بعد ان توفي ، عمّد تلاميذه الى جثائه فنقلوه الى مكان قرب اقامية على نهر العاصي ، دفن فيه ثم اقيم فوقه دير على اسمه تخليداً لذكراه . وفي سنة ٥١٧ نشبت بين هؤلاء الموارنة واليعاقبة فتنة ذهبت بحياة ثلاث مئة وخمسين راهباً مارونياً من رهبان هذا الدير ، لا تزال الكنيسة المارونية الى اليوم تحتفل بذكرى جهادهم . واذ بان لساثرهم ان الاقامة في لبنان اوفر امناً ، لجأوا اليه وثبتوا اقدمهم في ربوعه الشمالية . وهناك امتزجوا بالمردة الذين كانوا قد تسللوا الى هذه المنطقة من الشمال^٣ .

ولئن كان مارون هذا هو قديس هذه الطائفة ومعلمها الاول ، فان يوحنا مارون (ت حوالي ٧٠٧) هو بطل الامة الجديدة التي نشأت وترعرعت على ضفاف قاديشا ومؤسس كيائها القومي . وغالب الظن ان يوحنا مارون هو الذي اعطى هذه الطائفة اسمها ؛ فقد ولد في سrooms قرب انطاكية ، ودرس السريانية واليونانية في مدينة انطاكية قبل ان التحق بالدير الذي اقيم على ضفة العاصي . ثم استأنف تحصيله في القسطنطينية ، ورسم من ثم اسقفاً على البترون في لبنان . وكان كرسيه اولاً في سمار جبيل ، ثم تحول الى كفرحي ، وهناك بنى ديراً دفن فيه ، وتقوم اليوم في هذا المكان مدرسة تحمل اسم هذا الزعيم الكبير . ولقد نمت الطائفة المارونية برعايته الى ان غدت امة مستقلة ، استطاعت ان تقصي عنها باليد الواحدة خليفة المسلمين^٤ ،

(١) لفظة من اصل سرياني معناها السيد الصغير .

(٢) راجع الترجمة العربية في كتاب اسطفان الاوسيبي ، تاريخ الطائفة المارونية ، (بيروت ، ١٨٩٠) ص ١٩ - ٢٠ .

(٣) راجع ص ٥٢ و ٥٣ من هذا الجزء .

(٤) راجع ص ٥٣ من هذا الجزء .

وبالآخرى امبراطور البيزنطيين . وقد حاول يستينانوس الثاني سنة ٦٩٤ ان يخضع الموارنة ، فارسل اليهم جيشاً هدم ديرهم القائم على العاصي ، لكن يوحنا مارون تمكن من القضاء عليه في اميون^١ . ومنذ ذلك الوقت تشبث الموارنة بالعزلة ، وانشأوا ضرباً من الفردية التي طالما تميز بها ابناء الجبال . وكانت قنوبين^٢ ، القاعة في الجبال الصخرية الوعرة مركزاً للبطريرك الماروني الى حين ، ثم تحول عنها الى بركري في جوار مدينة بيروت .

وكان زعماء الموارنة في اواسط القرن السابع على حلة طيبة بالامبراطور هرقل ، فكان ذلك داعياً لأن تنسب الطائفة بومتها الى تبني تعليمه في الطبيعة الواحدة^٣ . وكان سعيد بن البطريق اول من قطع بذلك^٤ ، وكان المسعودي^٥ ، معاصره المسلم ، يرى هذا الرأي ايضاً . وجاء بعد سعيد بن البطريق ولیم الصوري^٦ ، مؤرخ الحملات الصليبية ، فأشار الى ان « الهرطقة التي ارتكبتها دارو واتباعه ، لا يزالون عليها ، انما هي : ان السيد المسيح ما زال ، كما كان منذ البدء ، ذا مشيئة واحدة وطبيعة واحدة » . وقد قدر هذا المؤرخ عددهم باربعة الفاً ، ثم استأنف قائلاً انهم في سنة ١١٨٠ نبذوا هرطقتهم ، وعادوا الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ؛ على ان المدافعين عن هذه القضية من الموارنة ، ابتداء من الدويهي^٧ (ت ١٧٠٤) وابن نمرون^٨ (ت ١٧١١) ، قد ادعوا لكنيستهم الاستمرار في الامانة للكنيسة الجامعة

(١) للاستزادة من اخباره راجع : Assemani, vol. i, pp. 496-520.

(٢) لفظة سريانية من اصل يوناني معناها النير ؛ وهو من الاسماء الجغرافية اليونانية القليلة الباقية في لبنان .

(٣) راجع ص ١٢ من هذا الجزء .

(٤) ابن البطريق ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٥) التنبيه ، ص ١٥٣ - ٥٤ .

(٦) History, tr. Emily A. Babcock and A. C. Krey, vol. ii, p. 459.

(٧) ص ٢٩٢ وما يلي .

(٨) Fausto (Murhij) Naironi, *Dissertatio de origine, nomine, ac religione Maronitarum* (Rome, 1679).

عبر العصور^١. اما ما يدعيه بعض المؤلفين من الموارنة في العصر الحاضر^٢ من انه قد كان هنالك كاهن آخر من القائلين بالطبيعة الواحدة في الرها، مات حوالي سنة ٥٨٠، اختلط اتباعه على اولئك المؤرخين بموارنة لبنان، فيبدو انه امر جدير بالاعتبار. وليس من شك في ان الموارنة في العصر الصليبي كانوا موضع اهتمام روما، على ان الاتحاد المذكور لم يتحقق حتى القرن الثامن عشر. فكنيستهم التي يسوغ اعتبارها كنيسة لبنان القومية قد حافظت، حتى يومنا هذا، على طقسها السرياني، وعلى اباحة الزواج للكاهن. وقد امتنعت روما عن ان تطوَّب اياً من مؤسسيها التاريخيين الشهيرين وتجعله في عداد القديسين. اما عدد الموارنة في لبنان، فهو بحسب احصاء سنة ١٩٥٢، ٥٤٤، ٣٧٧ نفساً، فهم اكبر طائفة دينية في هذه الجمهورية. ولقد حمل المهاجرون المتأخرون من الموارنة طقسهم الديني الى ايطاليا وفرنسا واستراليا واميركا الشمالية والجنوبية، والى انحاء اخرى من العالم المتمدن.

الملكانيون

ان الكنيسة السريانية بفرعيها الشرقي والغربي، وما انحدر منها من طوائف، لم تكن جامعة لجميع النصارى السوريين. بل ان جماعة صغيرة منهم انسقت بتأثير اللاهوت اليوناني المنبثق من انطاكية والقسطنطينية، ووافقت على مقررات مجمع خلقدون الكنسي (٤٥١). وبذلك استطاعت هذه الطائفة ان تحرز وضعاً قانونياً، تفادت به الحرم الكنسي، وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة، ورعاية المدينة القيصرية. وكان من خصوصها ان لقبوا اتباعها، بعد ذلك بعدة قرون، بالملكانيين^٣ على سبيل التأنيب. وكان سواد الكهنة الملكانيين يختارون في الغالب من بين سكان المدن، ومن ابناء اليونانيين الذين استوطنوا المستعمرات. ثم اخذت اللغة اليونانية تحل تباعاً محل السريانية في شعائرهم ومراسيم الصلاة، والطقس البيزنطي

(١) نذكر من المدافعين المتأخرين افرام اليراني مؤلف: «الحلمة عن الموارنة وقديسيهم» (بيروت، ١٨٩٩)؛ ويوسف الدبس صاحب: «تاريخ سوريا»، ج ٥ (بيروت، ١٩٠٠)، ص ١٥٦ وما بعد؛ وبير ديب (Paris, 1930). pp. 62-143. *Pierre Dib, L'Eglise maronite, vol. i*

(٢) Bernard G. Al-Ghaziri, *Rome et l'Eglise syrienne-maronite*, (Paris, 1906), pp. 31-3, 44-5.

(٣) من لفظة سريانية «ملكاء» ، معناها الملك .

يقوم مقام الطقس السرياني، وهوذا مئات المخطوطات في المكتبات الأوروبية والشرقية، تشير الى ان انتشار اليونانية لم يتحقق كاملاً حتى مطلع القرن السابع عشر^١. ومع ان الطائفة المملكانية كانت تتمتع بتأييد السلطة الحاكمة، فقد بقيت ضعيفة نسبياً فلم تتعدّ في انتشارها شمالي سورية وفلسطين ومصر. ولقد احتفظت الاجيال التي خلفتهم من السوريين بمقام بطريركيّ في دمشق، وآخر في القدس؛ وهم يعرفون اليوم باسم الروم الارثوذكس^٢.

وبما يدعو الى الغرابة ان اسم «المملكانيين» اخذ يطلق في العهد الحاضر — على سبيل الحصر — على الجماعة التي انشقت عن الكنيسة الارثوذكسية والتحقت برئاسة روما؛ لكن هؤلاء يدعون، مع ذلك، ان صلتهم بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية كانت منذ القديم واستمرت بلا انقطاع. اما عددهم اليوم فيبلغ نحو نصف عدد الطائفة الارثوذكسية الذين يبلغون ٢٣٠،٤٠٠٠. ولهم مقام بطريركي في مصر وآخر في لبنان. اما سواد الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس فيقيمون في سورية لا في لبنان.

التفاعل مع الاسلام

ويغلب على الظن ان الاسلام، في اول امره، لم يبدُ غريباً كل الغرابة لدى النصارى السريان، ولا دخليلاً عليهم؛ بل لعله، بالنسبة اليهم — كان اقرب الى طائفة يهودية — مسيحية جديدة منه الى دين جديد. لذلك كانت خصومة الاسلام للمسيحية بوجه العموم من قبيل المنافسة اكثر منها من قبيل التعارض في المبادئ. ولقد كتب احد بطاركة الكنيسة الشرقية^٣، على اثر الفتح العربي، يصف الحكم الفاتحين بهذه العبارات الفياضة المشرقة يقول: «ان العرب الذين اولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم، كما تعلمون، يقيمون فيما بيننا، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء، بل هم على عكس ذلك: يتمدحون ديننا ويمجّلون الكهنة والقديسين، ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك». ولقد غالى بعض

(١) اسحق ارمله، الملكيون: بطريركيّهم الانطاكية (بيروت، ١٩٣٦)، ص ١٠٢، ١٠٤ — ١١٥ حبيب زيات في مجلة المشرق ج ٣٧ (١٩٣٩)، ص ١٧٤.

(٢) راجع جنول اسماء البطاركة في كتاب ارمله، ص ٢٦ وما بعد.

(٣) Išo'yahb iii, «Liber epistularum», in *Scriptores Syri*, ser. II, vol. lxiv, ed. Rubens Duval (Paris, 1904-5), text p. 251, ll. 13-19, cf. p. 252, ll. 8-12, tr. p. 182.

المستشرقين^١ في هذا الاعتبار، حتى انهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثاً للنصرانية السريانية. فقد اعتبر يوحنا الدمشقي محمداً هرطوقياً، لا مؤسساً لدين جديد، وخلط بين الاسلام والآريوسية التي نبذت الوهية المسيح^٢. وقد كان يقول لخصومه المسلمين: «عندما ندعوننا مشركين ندعوكم مشوّهين»، ثم يتساءل قائلاً: لماذا يلام النصارى على سجودهم امام الصليب، في حين يفعل المسلمون مثل ذلك امام الحجر الاسود؟ وكان بما ساعد على التهاذي في هذا الاعتداد ان الكاتب انما هو كاهن يدون بلغة غريبة. ولقد بدا لعمر بن عبد العزيز، فيما يظهر، انه يستطيع ان يحمل ليو الايصوري على اعتناق الاسلام بسهولة، وذلك بان يرسل اليه رسالة يدعوه فيها الى الاسلام؛ لكن الامبراطور اجاب عنها بكتاب حاول فيه ان ينقض مشتملاتها^٣.

ولقد كانت عقيدة التوحيد ويوم الحساب من اروج المواضيع في الادب القرآني، وفي الاناجيل المرفوضة والرسائل الصوفية على السواء^٤. وهذا القديس افرام (ت حوالي ٣٧٣) الذي يعتبر اعظم معلم انجبه الكنيسة السريانية بفرعها يصف جنة النعيم بما يلي وصفاً محسوساً:

«لقد شاهدت مقامات الابرار، ورأيت الابرار انفسهم، واذا الطيوب تقطر منهم، والروائح العطرية تفوح من اعطافهم، وطاقات الزهور تكمل رؤوسهم، وانواع الفاكهة ترين قاماتهم... وعندما يتكبي الابرار الى المائدة تجود عليهم الاشجار باطلاها في الهواء الطلق؛ وتفتح الزهور من تحتهم وتنضج الفواكه من فوقهم... الريح تقف بين ايديهم مستعدة لاداء ما يطلبون، تهب احداها بالطمأنينة، وترفع الاخرى بالشراب فيجري ررقاقاً؛ يحفل بعضها بالزيت، وبعضها الآخر يحمل الطيوب... كل من امتنع عن الخمر في الدنيا تنوق اليه الخمر في

(١) E. g. Carl. H. Becker, *Islamstudien*, vol. i (Leipzig, 1924), pp. 16-18, 386 seq.

(٢) Migne, *Patrologia Graeca*, vol. xciv, cols. 763-74. وانظر الجزء الاول ص ٤١١.

(٣) Theophanes, *Chronographia*, p. 399; Mahbûb (Agapius of Manbij), «Ki-tâb al-'Unwân», كتاب العنوان, in *Patrologia Orientalis*, vol. viii (Paris, 1912), p. 503.

(٤) William Wright, *Apocryphal Acts of the Apostles*, 2 vols., (London, 1871).

في الفردوس ، وتمتد اليه كل نبتة من الكرمة بعنقود من العنب . وكل من عاش عفيفاً تستقبله الحوريات بصدور نقية طاهرة^١ .

ثم ان التفرقة بين الفروض والنوافل واضحة في الديانتين وتقوم بينهما مشابهات كثيرة في ممارسة الشعائر ومزاولة طقوس العبادة . فقد اقرت الكنيسة السريانية ثلاث صلوات قانونية في النهار ، واثنين في الليل ، قبل ان نظم الاسلام الصلوات الخمس بوقت طويل . والصلوات الليلية التي ورد وصفها في القرآن (المزمل : ١-٨ ، ٢٠) تמיד الى الذاكرة رياضة الرهبان الروحية وتوفرهم على العبادة . ولقد كان النساك يتخذون في اثناء الصلاة اوضاعاً جسدية معينة تشتمل على السجود ولمس الارض بالجبين . وكان المصلي ، اذا ما كرر السجود متضرعاً ، وصدف الارض بجبينه سقط شعر رأسه امامه على الارض^٢ . وفي شعر جاهلي : وصف لناسك ، تحجر جبينه من لمس الارض ، حتى غدا فيه ما يشبه ركبة العنزة^٣ .

ولقد كان من الطبيعي ان ينقل بعض النصارى ، لدى اعتناقهم للاسلام ، شيئاً من افكارهم وشعائرهم ، وان تقتبس بعض الفرق والبدع شيئاً من ذلك وتحفظ به . ثم اخذت شقة الخلاف تضيق عندما اقيس رواة الحديث الاولون احداثاً وقعت لمؤمسي المسيحية نسبوا الى مؤسس الاسلام . فقد ذكر عن محمد انه امتدح « من يعطي الصدقة سرّاً بحيث لا تعلم شماله ما صنعت يمينه » ، وجهر بان الله قد قال « قد اعددت لاهل التقوى من عبادي ما لم تره عين ، ولم تسمع به اذن ، ولا خطر على قلب^٤ » . بل ان ما يقرب من الصلاة الربانية نفسها قد روي ان محمداً تلاه^٥ . فضلاً عن ذلك كله فقد وجد الزهد المسيحي طريقاً آخر الى قلب الاسلام هو النظام الصوفي المتأخر .

(١) Sancti Ephraem Syri, *Opera omnia* (Rome, 1743), p. 563; cf. Tor Andrae, (١ tr. Theophil Menzil, *Mohammad: the Man and his Faith* (New York, 1936); القرآن : الناشية ٤ - ١٦ ؛ الرحمن ٤٦ - ٧٨ .

(٢) John of Ephesus in *Patrologia Orientalis*, vol. xvii, p. 40. (٢

(٣) لويس شيخو ، النصرانية وآدابها (بيروت ، ١٩١٩) ، ص ١٧٨ .

(٤) قابل : انجيل متى ٦ : ٣ - ٤ .

(٥) قابل الرسالة الى اهل كورنثيا ٢ : ٩ .

(٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 396. (٦

الالفاظ المستعارة

ان الناطقين بالسريانية من النصارى يستطيعون فوراً ان يتبينوا الكثير من الالفاظ الاساسية السريانية بين المفردات الاسلامية . فالالفاظ العربية نظير : فرقان ، (الانفال : ٢٩ ، ٤٢) ، آية (البقرة : ٣٧ ؛ آل عمران : ٩) ، كاهن (الطور : ٢٩ ؛ الحاقة : ٤٢) ، سجود (البقرة : ١٩ ؛ القلم : ٤٢ ، ٤٣) ، سفر (الجمعة : ٥) ، قسيس^١ (المائدة : ٨٥) صلاح (البقرة : ٢ ، ٤٠ ؛ النور : ٥٧) ، زكاة (البقرة : ٤٠ ، ٧٧ ، ١٠٤) ، وكثير سواها ، انما هي الفاظ مستعارة من السريانية او الآرامية^٢ ، وهناك تعابير كنسية ومصطلحات اكليريكية عديدة عربت عن السريانية كما يستدل من الالفاظ التالية : اشين ، برشان ، تلميذ ، شمّاس ، عماد ، كنيسة ، كاروز ، ناقوس . اما الالفاظ المستعارة من اليونانية فلم تكن كثيرة ، نذكر منها : طقس ، قندلفت ، انجيل ، اسقف ، شدياق ، ابرشية ، زنار^٣ . وهناك الفاظ يونانية اخرى تسربت الى العربية عن طريق السريانية ، منها : خوري بطريك ، اسكيم ، هرطوقي .

ضبط الكتابة

ولقد ادت السريانية متأثرة هامة اخرى الى العربية هي ضبط الكتابة . على ان الحروف العربية نفسها قد اخذت ، كما اسلفنا ، من النبطية ، وهي شقيقة السريانية .

اما الخط العربي فقد كان في اول امره غفلاً من النقط التي تميّز الآن بين الحروف اذ كانت ترسم بشكل واحد . وقد كان خالياً من الحركات . كذلك ، فكانت جميع

(١) هذه اللفظة واللفظة السابقة وردتا في القرآن بصيغة الجمع فقط .

(٢) للاطلاع على الفاظ اخرى راجع : Arthur Jeffrey, *The Foreign Vocabulary of the Qur'an* (Baroda, 1938).

(٣) للاستزادة من ذلك راجع : Georg Graf in *Zeitschrift für Semitistik und verwandte Gebiete*, vol. vii (1929), pp. 225 seq. ; vol. ix (1939), pp. 234 seq. ; انظر ما سيأتي في آخر الفصل ٤١ .

(٤) راجع الجزء الاول ص ١٨٣ ، ٤٢٧ .

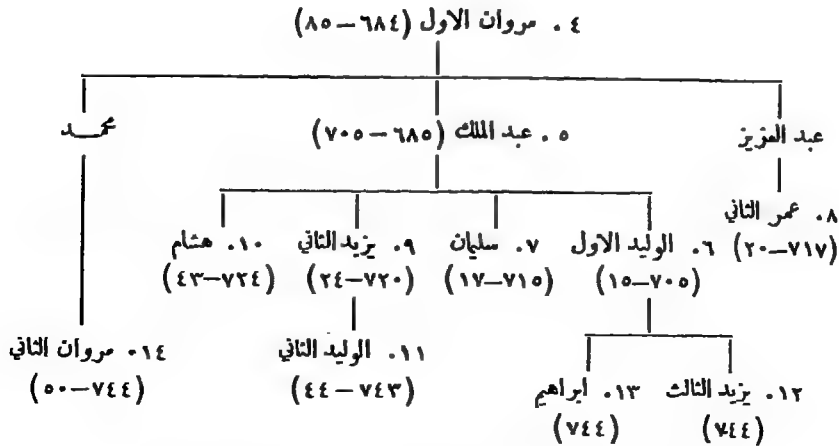
حروفه من الصوامت . على انه في خلال القرن الاول للهجرة ، ادخل على الخط نظام من النقط والحركات لعلها من اصل نبطي ، استخدمت على نحو معين . فالنقطة الواحدة فوق الحرف رمزت الى الفتحة ، والنقطة تحت الحرف اشارت الى الكسرة^١ ، وهذا غامماً ما كان السريان الشرقيون قد اصطالحوا عليه لوقت طويل . وحوالي اواخر هذا القرن ، وتبعاً للنسق السريانية ايضاً ، جعلت بدلاً من النقط خطوط قصيرة فوق الحرف ونحته ، نشأت منها الفتحة والكسرة كما تستخدمان اليوم . هذه هي الاصلاحات التي نسبتها الاخبار الى الحجاج^٢ . وهذا الجهاز السرياني من النقط الصوتية هو ايضاً اساس النظام العبراني الذي اعتمدته علماء اليهود في ضبط نص التوراة بعد سنة ٧٥٠ للميلاد^٣ .

(١) اما الضمة فواضح انها اخذت من الواو .

(٢) راجع ص ٨٦ من هذا الجزء .

(٣) Frank R. Blake in *Journal, American Oriental Society*, vol. lx (1940), pp. 391-413.

الفصل الرابع سقوط الدولة الأموية



شكل شجري يوضح صلة النسب ما بين الخلفاء المروانيين في الدولة الاموية

بلغت السلطة الاموية اوج عزها في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ١٥) ،
وهناك اثنان من الخلفاء لا غير يجدر ذكرهما من بعده : هما عمر بن عبد العزيز
وهشام بن عبد الملك .

خليفة متعبد

كان عمر (٧١٧ - ٢٠) الخليفة المتعبد الوحيد في عهد اشتهر بطابعه الديني ؛
وكان هدفه الاسمي ان يتأثر خطى جده لأمه ، ثاني الخلفاء الراشدين ، الذي قدر له
ان يحمل اسمه . وقد عني مدون ترجمته عناية خاصة بوصف تقواه وزهده وبساطته ،
واكد على انه كان يرتدي الثياب المرقعة ، ويختلط برعاياه اختلاطاً كان يعسر
معه ، على من قصده لرفع ظلامته اليه ، ان يميزه من بينهم^١ . وقد شعر علماء الدين

(١) ابن الجوزي ، ص ١٧٣ - ٧٤ ، ١٤٥ وما بعد .

في عهده ان الدهر قد غدا مؤاتياً لهم، وجاءته من ثم شهرة الورع والتقى اللذين عرف بها في التاريخ . فعمرو هو الذي ابطل ما كان معاوية قد شرعه من شتم علي من المنابر في صلاة الجمعة^١. وقد ادخل ، الى ذلك ، اصلاحات مالية لم تثبت طويلاً لكنها ، مع ذلك ، ساعدت على انتهاز سبيل المساواة في معاملة العرب وغير العرب من المسلمين ، وشجعت اخيراً على الاختلاط بين ابناء الفاتحين الحاكمين وابناء المواطنين المحكومين^٢.

آخر اموي مقتدر

ان المؤرخين العرب يعتبرون هشاماً (٧٢٤ - ٤٣) بحق آخر السياسيين في البيت الاموي^٣. ذلك لان الخلفاء الاربعة الذين تولوا الحكم بعده كانوا عاجزين ، ان لم نقل فاسدين ومنحطين . فقد قال هشام عندما توفي ابنه معاوية - جد الاسرة الاموية في الاندلس - وهو في رحلة صيد « تالله لقد اجمعت ان ارسحه للخلافة ويتبع ثعلباً^٤ » ! وكان واليه على العراق قد احتفظ لنفسه بـ ١٣ مليون درهم ، بعد ان بذّر من دخل الدولة نحواً من ثلاثة اضعاف هذا المبلغ ، فاعتقله واضطره الى ارجاع المال^٥. وهذا الحدث كان واحداً من احداث كثيرة تشهد بمجموعها على انتشار الفساد في الوضع السياسي . وكان نظام الحصيان الذي ورثه العرب من البيزنطيين والفرس قد اخذ في الانتشار سهلاً بذلك نشوء نظام الحریم . وجرى في اثر الثروات الطائلة تضخم في عدد العبيد ، فادى كلا الامرین الى الانغماس في البذخ والايغال في الترف . ولم يكن الانحطاط الخلقي قاصراً على الطبقة العليا ، بل ان آفات المدينة ، وفيها الحر والنساء والغناء ، كانت - فيما يظهر - قد استولت على ابناء البادية ، فاخذت الآن في استنزاف حيويتهم .

(١) الفخري ، ص ١٧٦ .

(٢) راجع ص ٨٤ - ٨٥ من هذا الجزء .

(٣) المسمودي ، ج ٥ ، ص ٤٧٩ ؛ قابل : اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن قتيبة ، المعارف ص ١٨٥ .

(٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٧٣٨ - ٣٩ .

(٥) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦٤٢ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

اربعة خلفاء عاجزين

وكان الوليد الثاني، الذي تولى بعد هشام، رجلاً قوي البنية جميل الطلعة؛ لكنه كان أجدر بالموسيقى والشعر منه بشؤون الحكم^١. ولقد اقتطع فترة من حياته الالهية في البادية لينصب خليفة في العاصمة، ثم عاد الى ما كان عليه من هو ودعابة. ولا تزال خرائب قصوره الى اليوم توثي حواشي البادية السورية^٢. انما كان بين الاخطاء التي ارتكبها ما هو اشد وادهى؛ من ذلك انه اوصى بالخلافة من بعده لولدين له من احدى جواريه، وانه استبعد جماعة اليمنية (عرب الجنوب) وهم سواد العرب المقيمين في سورية. وكان قد نشب، قبل ذلك، نضال شديد بين مبدأ انتقال الخلافة بالوراثة الذي ابتدعه معاوية^٣، وبين العرف القبلي الراسخ الذي يجعل الولاية للاكبر سناً، فغدا الامر اشد تعقيداً عندما اوصى مؤسس الفرع المرواني بالخلافة من بعده الى اثنين من ابناؤه على التوالي: هما عبد الملك وعبد العزيز^٤. ولا شبهة في ان عدم وجود مبدأ مقبول واضح ينظم انتقال الخلافة لم يكن بما يدعو الى الاستقرار والاستمرار. اما اليمنية فهم من قام العرش السوري على عواتقهم، وكان عداؤهم للقيسية (عرب الشمال) مستحكما راسخ الاصول، واستمر كذلك حتى الفهود الاخيرة^٥. فلقد تزعم يزيد، ابن عم الوليد، مؤامرة اوعز فيها لبعض الناقمين من اليمنية فتعقبوا الخليفة حتى ادركوه وقتلوه جنوباً من تلمس^٦.

تميز عهد يزيد الثالث (٧٤٤) - وهو اول خليفة امه أمة^٧ - بكثرة الاضطرابات في الامصار. وقد اضطر اخوه ابراهيم، الذي ولي الخلافة من بعده مدة شهرين فقط، ان يتنازل عنها لنسيب بعيد، هو مثلها ابن لجارية مملوكة^٨، وهو مروان الثاني (٧٤٤ - ٥٠).

(١) الاغاني، ج ٤، ص ١٠١ وما بعد.

(٢) راجع ص ١٢٥ من هذا الجزء.

(٣) راجع ص ٤١ من هذا الجزء.

(٤) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٥) راجع ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٦) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٠؛ الفخري ص ١٨٢.

(٧) الطبري، ج ٢، ص ١٨٧٤، السعدي، ج ٦، ص ٣١ - ٣٢.

(٨) اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٠٣، ٤٠٤؛ السعدي، ج ٦، ص ٤٧.

وعندما تولى مروان الخلافة كانت الفوضى تسري في سائر انحاء الدولة . وقد ظهر مطالب بالخلافة من آل امية في سورية ، وظهر آخر من الخوارج قام بحركة عصيان في العراق ، وعمد جماعة من الزعماء في خراسان الى الانتفاض على الخليفة ، بحيث اضطر مروان الى نقل حكومته الى حران ، حيث يستطيع ان يعتمد على مساندة القيسية ، ويتمكن من ان يسد الضربات لجماعتين من اشد خصومه هما العلويون والعباسيون .

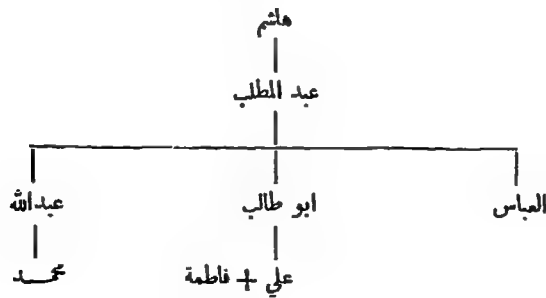
العلويون والعباسيون

لم يكن الامويون في نظر الشيعة الا مقتصبين منافقين ، فقد ارتكبوا بحق علي وذريته جرماً لا يغتفر ولا ينسى . وكان اخلاصهم التام لاهل بيت النبي قد لفت اليهم انظار الجمهور وحوّل نحوهم كل عطف ، حتى غدت جبهتهم مرتع النافقين من حيث السياسة والاجتماع والاقتصاد جميعاً . ومنذ ما اختار علي مدينة الكوفة قاعدة له اصبح العراق حصن الشيعة الحصين ، فكان للعراقيين من ثم على السورين ضغينة اخرى ، هي انهم انتزعوا منهم قاعدة الخلافة . ولقد انضم الى جمهور النافقين جماعة من اتقياء اهل السنة ، كانوا يهتمون البيت الاموي بالعناية بالعالميات والانغماس بشؤون الدنيا ، وبالتقاعس عن اقامة الشرع القرآني .

كذلك العباسيون ، فقد جروا مجرى العلويين في استغلال الاوضاع المضطربة للمطالبة بالخلافة لانفسهم . وكانت دعواهم تقوم على انهم ، اذ كانوا من سلالة عم النبي^١ ، كانوا بفضل ذلك احق بالخلافة من بني امية .

الخراسانيون

وقد زاد في حراجة الوضع عامل آخر هو نقمة المسلمين غير العرب بوجه عام ،



والمسلمين الفرس بوجه خاص؛ وذلك بسبب ما لاقوه من سوء المعاملة على يد المسلمين العرب. فقد كانت تلك المعاملة ابعد شيء من المساواة التي وعد بها الداخلون عندئذ في الاسلام. فكانت حالهم اشبه بحالة الموالي^١، حتى انهم لم يعفوا، في بعض الاحوال، من الجزية التي كانوا يؤدونها اذ كانوا ذميين. وقد بلغت هذه النقمة اشدها في فارس - ذلك البلد الذي كان العرب انفسهم يقرون بأنه اعرق مجداً وارق حضارة. وكانت خراسان في الشمال الشرقي اخصب البلاد تربة لنمو بذور الحركة الشيعية العباسية، اذ لاقى فيها تعليم الشيعة تجاوباً صارخاً في قلوب الخراسانيين، فاخذت من ثم التزعة الايرانية القومية تستعيد حيويتها تحت قناع الحركة الشيعية في الاسلام.

على ان الحاجة بقيت ماسة لشيء واحد لا غير هو القيادة - القيادة التي تجمع تحت لوائها الشيعة والعباسيين والفرس، وغير هؤلاء من خصوم الامويين، وتدفع بهم في وجه العدو المشترك. وقد تحققت هذه القيادة اخيراً في شخص عبدالله ابي العباس، حفيد حفيد العباس. وكان نجاحه في السيطرة على جميع القوى المقاومة للامويين يعود بالاكثر الى براعته في تنظيم الدعاية. وقد اختار العباسيون قاعدة لعلمهم قرية يبدو لاول وهلة انها خاملة ومنعزلة هي الحميمة، الى الجنوب من البحر الميت^٢. على انها كانت، بواقع الامر، ذات موقع خطير، يسهل منه الاتصال بالقوافل والمسافرين ومواكب الحجاج، الوافدة من جميع اقطار العالم الاسلامي. فكانت مركزاً يدرب فيه المرشحون لاعمال الدعاية على مبادئ الجماعة واساليبهم، ثم يوجهون منه في مهام سرية. وفي الحميمة تحقق عمل من اقدم اعمال الدعاية السياسية في الاسلام واشدها دهاءً واوفرها نجاحاً، انه عمل لم يقع له نظير حتى قيام الفاطميين^٣.

اندلاع الثورة

اول ما انفجر بركان الثورة في خراسان، وذلك في شهر حزيران سنة ٧٤٧.

(١) راجع ص ٨٤ و ص ٩٧ - ٩٨ من هذا الجزء.

(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥٦ - ٥٧؛ الفخري، ص ١٩٢ - ٩٣؛ الطبري، ج ٣، ص ٣٤؛ ياقوت، ج ٢، ص ٣٤٢؛ Musil, Northern Hejaz, pp. 56-61، راجع ايضاً الحارطة في حيز ذلك الكتاب.

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٤ حول الفاطميين.

وكان على رأس حركة العصيان عامل العباسيين ابو مسلم الخراساني ، وهو مولى من اصل منهم^١. وكان العلم الذي رفعه اسود اللون ، وكان قد اتخذ السواد لوناً لثيابه حداداً على رجل من ذرية علي قتل في خراسان ، ففدا العلم الاسود شعار السلالة الناهضة . وسار ابو مسلم على رأس جيش مؤلف من عرب اليمن (من الازد) والفلاحين الفرس ، ودخل مرو عاصمة خراسان دخول المنتصرين . وكان والي الامويين ، نصر بن سيار ، قد الع على مروان بطلب النجدة ، مبنياً له الخطر المدام ، ولكن دون جدوى^٢ ، حتى انه لجأ في وصف ذلك الوضع الى الشعر فقال :

ارى خلل الرماد وميض نارٍ ويوشك ان يكون لها ضرامٌ
فان النار بالعودين تذكى وان الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أليقظ امية ام نيام^٣

غير ان الخليفة كان عن ذلك كله في شغل شاغل بما كان يجري عنده . فات حركة العصيان التي اثارها اليمنية كانت قد اندلعت من فلسطين وبلغت الى حمص . وكذلك في العراق فان الحوارج كانوا قد ثاروا من جديد^٤ . وجدير بالذكر ان مرواناً كان جندياً بامتياز اكسبه صبره وصموده في الجروب لقب « الحمار » ، ولم يكن هذا اللقب آتئذ عاراً او معيباً . والى مروان يرجع الفضل في تعديل خطط القتال ، اذ تخلى عن نظام القتال في صفوف — هذا النظام الذي جرى عليه النبي اولاً ، فترك عليه مسحة من التقديس — واتخذ بديلاً عنه نظام الكراديس^٥ ، وهي وحدات صغيرة اشد تماسكاً واسرع انتقالاً . الا انه كان الآن عاجزاً ، وفي وضع لا يوحى غير اليأس . ذلك ان شمس الامويين كانت قد آذنت بالافول .

الضربة الحاسمة

سقطت مرو ، فتبعتهما نهاوند ، ومدن فارسية اخرى ، فانكشفت بذلك الطريق

-
- (١) الفخري ، ص ١٨٦ .
 - (٢) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٥٣ وما بعد ؛ الدينوري ، ص ٣٥٩ وما بعد .
 - (٣) الفخري ، ص ١٩٤ .
 - (٤) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٩٤٣ - ٤٩ .
 - (٥) راجع ٨٨ - ٨٩ من هذا الجزء .

الى العراق . وهنا سقطت الكوفة - وهي اهم مدن العراق ، ومختبأ أبي العباس - من غير كبير مقاومة . وفي ٣٠ تشرين الاول سنة ٧٤٩ بويغ لابي العباس بالخلافة في مسجدها الكبير^١ . وكانت الراية البيضاء في سائر المناطق الشرقية تتقهقر في وجه الراية السوداء . واخيراً عزم مروان على ان يصمد حتى النهاية ويقاقل قتال المستنيت . فسار على رأس اثني عشر الف مقاتل^٢ من حران شرقاً حتى بلغ الزاب الاعلى (كانون الثاني ٧٥٠) - وهو احد فروع دجلة - فالتقى على ضفته اليسرى بقوى المعارضة يقودها عبدالله بن علي ، احد اعمام الخليفة الجديد . واستمر القتال تسعة ايام ، لكن العزم على كسب المعركة لم يعد من شأن الجانب السوري ، ذلك لأن عهد القوة المعنوية العالية والقيادة المهمة كان قد ولى ، وغدت الهزيمة امراً لا مفر منه .

واخذت المدن السورية ، من ثم ، تفتح ابوابها ، واحدة بعد الاخرى ، لعبد الله وجيوشه الخراسانية العراقية . ولم تتفرد بشيء من الدفاع الا مدينة دمشق . على ان اياماً قليلة من الحصار كانت كافية لاختضاع المدينة الشاحنة (٢٦ نيسان ٧٥٠) . ورابط فرسان العباسيين في مسجدها الكبير سبعين يوماً ، استأنف بعدها الجيش المظفر سيره جنوباً نحو فلسطين . ومن هنا أرسلت على جناح السرعة فصيلة في اثر الخليفة الفار ، ادركته في مصر العليا وقتلته خارج كنيسة في بوصير^٣ (٥ آب ٧٥٠) . ثم ارسل رأسه مع شارات الخلافة الى ابي العباس^٤ .

كانت المهمة الرئيسية التالية التي واجهها ساسة العباسيين : ماذا عساه يصنعون بن بقي من الامويين ؟ وقد اجمع الرأي على وجوب استئصالهم ، وعهد بذلك الى عبد الله . ولم يتورع القائد الصارم عن استخدام اعنف الوسائل ليمحو من الوجود

(١) البقولي ، ج ٢ ، ص ٤١٧ - ١٨ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٣٣ ؛ السعدي ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، ٩٨ .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٧ ، قابل ص ٤٥ ؛ راجع ص ٨٩ ح ٣ . الحاشية الاخيرة .

(٣) وردت أيضاً ابوصير ، ولعلها بوصير الملق في اليوم . راجع ساويروس ابن المقفع ، سير البطارقة الاسكندرانيين ، نشر سيولد (مبرغ ، ١٩١٢) ، ص ١٨١ وما بعد ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) السعدي ، ج ٦ ، ص ٧٧ .

اولئك الاعداء الذين يمتون اليه بصلة النسب . بل لقد انتهكوا حتى حرمة المدافن في دمشق وقنسرين ومواضع اخرى ، فنبشوا القبور وصلبوا الجثث ، وطرحوا الاسلاء خارجاً . وقد اخرج جثمان هشام من قبره في الرصافة ، وجلد ثمانين سوطاً ثم احرق حتى استحال رماداً^١؛ ولم يعفوا الا عن قبر معاوية ، وقبر عمر التي . وفي ٢٥ حزيران سنة ٧٥٠ ادب عبد الله مآذبة لثمانين من امراء الامويين في ابي فطرس (انتباترس القديمة) على نهر العوجا بالقرب من يافا ؛ وما ات بدأ الاحتفال حتى انقضّ الجلادون على المدعويين ، واخذوا يحصدون رؤوسهم واحداً تلو الآخر . حتى اذا بسطت نطع الجلد على الجثث وهي ما زالت دافئة ، وعلى القتلى وهم بعد يعالجون سكرات الموت ، تحول القائد واعوانه الى الموائد ليستأنفوا الاستمتاع بالطعام الشهي ، على ايقاع انين المحتضرين وحسرة المنازعين^٢ . ثم ارسل العملاء والجواسيس ييوسون بلاد الاسلام لاصطياد الفارين من ابناء الاسرة الاموية المنهارة وقد تتبعهم بالقتل « فطلبوا من بعدها بطن الارض^٣ » وذلك بعد ان امتنع الأمان لهم على وجهها .

فرار مداهش

على ان شخصاً واحداً نجى من هذه المجزرة البشرية العامة هو عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام . فان هذا الفتى ، الذي كان له من العمر تسعة عشر عاماً ، كان قد اختبأ في مضرب لجماعة من البدو على ضفة الفرات اليسرى في شمالي سورية . وذات يوم فوجئ القوم بمشهد اعلام سوداء تقترب منهم . فألقى عبد الرحمن نفسه في النهر ، وتبعه اخوه وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره . لكن المطاردين العباسيين جدوا في اثرهما . واذا وثق اصغر الاخوين بالأمان الذي قطعه له المطاردون

(١) السمودي ، ج ٥ ، ص ٤٧١ ؛ قابل اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٢٨ . انظر ايضاً الفخري ، ص ٢٠٤ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ - ٢٦ ، السمودي ، ج ٦ ، ص ٧٦ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ - ٣٠ ؛ المبرد ، ص ٧٠٧ ؛ الاغانى ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، قابل ص ٩٢ - ٩٦ ؛ الفخري ، ص ٢٠٣ - ٤ ؛ Theophanes, p. 427 . قابل ذلك بقصة ابادة يهوه ليت آخاب (الملوك الثاني ، ١٤ : ٩ - ٣٤) وابادة محمد بنى لمالك مصر (في ما يلي الفصل ٤٩ حول بشير الثاني ؛ جرجي زيدان ، تاريخ مصر الحديث ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ٦٢ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٢٠ .

ان هو عاد ، رجع ادراجہ من اواسط النهر ، فلاقى حتفه ذبحاً . اما الاكبر فاستأنف السباحة حتى ادرك الضفة المقابلة ^١ .

وسار عبد الرحمن متكرراً في اتجاه جنوبي . وفي فلسطين التحق به مولاہ بدر الذي عرف بدهائه واخلاصه للبيت الاموي . وقد عينت مكافأة مالية كبيرة ثمناً لرأس الامير الهارب ، لكنه نجح بالعجوبة من مؤامرة دبرها حاكم شمالي افريقيا لاغتياله . وراح من ثم يطوي ساحل افريقيا الشمالي بطوله ، وحيداً شريداً طريداً لا رفيق يؤنس ولا مال يسعفه . وبعد خمس سنوات من التجول حط رحاله في الاندلس (٧٥٥) ، وهي البلاد التي كان اسلافه قد فتحوها وحكموها . وفي السنة التالية اقام نفسه سيداً على شبه الجزيرة ، لا ينازعه في ذلك منازع . وقد اختار عاصمة له مدينة قرطبة التي يعود تاريخها ، فيما هو مشهور ، الى العهد القرطاجني ، فقدّر لها ان تدهر وتصبح عاصمة لمملكة جديدة ومهداً لحضارة راقية . وقد حاول عبد الرحمن ان ينشئ دولته على غرار الدولة الشامية . فافتتح عهد علم وسخاء سار بوجه العموم على خير ما رسمه الخلفاء السابقون في دمشق . وكان هشام ، قبل وصول عبد الرحمن الى الاندلس باربعة عشر عاماً ، قد وجه الى الاندلس جيشاً سورياً مؤلفاً من ٢٧ الف مقاتل ، بقيادة بلج بن بشر القشيري لمحاربة البربر . فاستقرّ هذا الجيش في اقطاعات عسكرية منتشرة على الساحل الاسباني المحاذي للمتوسط ^٢ . واقامت فرق من دمشق وحصن وقنسرين والاردن وفلسطين ، في المرية واشبيلية وجيان ومالقه وشذونه على التوالي ، واعطى هؤلاء الوافدون لمواطنهم الجديدة اسماء جغرافية سورية ، وكانت المشابهة في الاحوال الجوية والاضاع الطبيعية الجغرافية بما ساعد الوافدين المستجدين على الاستئناس باوطانهم الجديدة . وباكتساب السوريين لهذه المناطق اخذت الاغاني السورية والشعر والفن السوريون جميعاً تستحوذ على قلوب ابناء البلاد . ولقد قدّر لكثير من هذه العناصر ان تنسرب ، في ما بعد ، من اسبانيا والبرتغال الى العالم الجديد . واجد جغرافيو العرب ، من ثم ، يتحدثون عن الاندلس بوصفها اقليماً سورياً ؛ لكن معركة الزاب لم تلبث ان احوالت سورية نفسها الى اقليم عباسي .

(١) اخبار مجموعة ، ص ٥٢ - ٥٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٧٧ .

(٢) اخبار مجموعة ، ص ٣١ ؛ قابل ابن القوطية ، ص ١٤ - ١٥ ؛ المراكشي ، ص ٩ .

الفصل الحادي والأربعون سُورِيَّةُ تَغْدُو أَيْلِيَّماً عَمَّاسِيَّاً

زالت بسقوط الامويين سيادة سورية على دنيا الاسلام ، وانقضى العز الذي كان لها . ذلك ان العباسيين اختاروا العراق مركزاً لهم ، ومدينة الكوفة ، القريبة من حدود فارس ، عاصمة لخلافتهم . وقد تنبّه السوريون ، بغد الهزيمة المنكرة التي منوها بها على الزاب ، الى الواقع المؤلم ، وهو ان مركز الثقل في الاسلام قد تحول عن بلادهم في اتجاه شرقي . فعقدوا رجاء اخيراً على سليل لمعاوية من البيت السفياي^(١) ، توقعوا ان يعود ، عودة المسيح ، وينجيهم من منافسهم العراقيين الفائزين . ولا يزال هذا الامل محتججاً ضعيفاً في قلوب المسلمين السوريين الى اليوم .

العهد الجديد

وكان ابو العباس في هذه الاثناء يعمل جاهداً على توثيق امره في المناطق التي اكتسحها من جديد . وكان قد وصف نفسه في الخطبة التي افتتح بها عهده في الكوفة بالسفاح^(٢) ، مشيراً الى السياسة الحازمة التي ينوي اتباعها . وهذا معناه ان الاسرة التي تسلمت الحكم كانت تنوي استخدام القوة في تنفيذ تدابيرها اكثر من الاسرة الزائلة . ولأول مرة مدّ بساط النطع لضحايا الجلادين بالقرب من عرش الخلافة . وقد جمع الخليفة الجديد من حوله رجال الدين وعلماء الشريعة ، محيطاً الدولة الفتية بجو حافل بالمؤثرات الدينية ، وذلك في مقابل ما عرفت به الدولة الزاحلة من ابهة

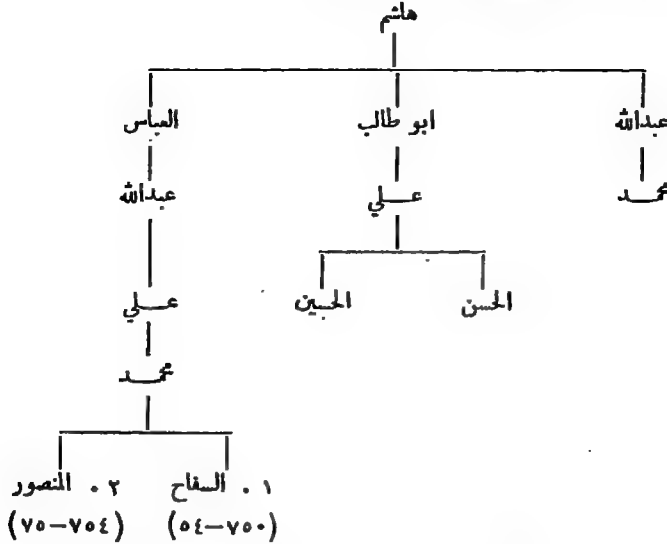
(١) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٣٢٠ ؛ ابن مسكويه ، تجارب الامم وتغالب الهمم ، نشر دي غويي ويونغ ، ج ٢ (لندن ، ١٨٧١) ص ٥٢٦ ؛ ياقوت ، ج ٤ ، ص ١٠٠٠ ؛ الاغانى ، ج ١٦ ، ص ٨٨ ؛ H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades* (Beirut, 1930), pp. 391-408.

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٠ ، ص ٢٠ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣١٦ .

الملك . ثم عمد ، في الاحتفالات الرسمية ، الى الانتشاح ببودة النبي ، نسيبه البعيد^١ ، واخذت اساليب الدعاية المحكمة ، التي ساعدت على تقويض ثقة الشعب في نظام الحكم القديم ، تعمل الآن على توثيق النظام الجديد لدى الجمهور . وقد نادى المغالون من دعاة العباسيين بان السيادة ينبغي ان تبقى في البيت العباسي الى ان يتسلمها منهم آخر الامر عيسى ابن مريم^٢ . ثم اضيف الى ذلك — فيما بعد — انذار شديد هو انه اذا قدر للخلافة العباسية ان تنهار فان نظام الكون لا بد ان يحتل باسره^٣ . وقد وضعت لهذه الغاية احاديث بالجملة تنطوي على تأييد العباسيين ومعارضة القضية الاموية . وبلغوا من التماهي ان يحوا اسماء الامويين المنقوشة على المباني^٤ وعدلوا طراز المنبر في المساجد كما كان عليه في عهد الامويين .

على ان الفارق الحقيقي الذي يميز هذه الخلافة عن سابقتها انما كان في أن العباسية اتسمت بالسمة الفارسية ، بحيث طغت المراسم الفارسية على مظاهر الخلافة ، وسيطرت الافكار الفارسية على شؤون السيادة ، وغلبت نسبة النساء الفارسيات في دور

(١) شكل شجري يوضح صلة النسب بين العباسيين ومحمد :



(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن الطولونيين .

(٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٨٦ ، راجع ص ١٣٠ من هذا الجزء .

الحريم ، حتى تحولت الخلافة الى امبراطورية من المسلمين المستجدين ، ما كان العرب فيها الا عنصراً واحداً من العناصر العديدة التي تألفت منها . ولئن كانت الدولة الاموية ، على اعتبار ما ، وريثة الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فقد كانت خلافة بني العباس ، باعتبار أعمّ واوسع ، وريثة امبراطورية الاكسرة . وقد ست الخلافة العباسية نفسها «دولة» ، اي عهداً جديداً ، وكانت بواقع الامر عهداً جديداً ، شعر العراقيون فيه انهم قد تحرروا من وصاية السوريين عليهم ، واحس الشيعة انهم قد انتقموا لأنفسهم ، ووجد الفرس مناصب الدولة الرفيعة متاحة لهم . فقد انشأوا منصباً جديداً في الدولة ، كانوا اول من شغله ، هو الوزارة ؛ وهو المنصب الاعلى بعد الخلافة . واقبل الحراسانيون من ثم على الانخراط في فرقة الحرس المنوطة بالخلافة . وهكذا تضائل مجد الارستقراطية العربية وانهار صرح العروبة ، لكن الاسلام استمر في سيره المظفر بزي جديد هو النزعة الايرانية .

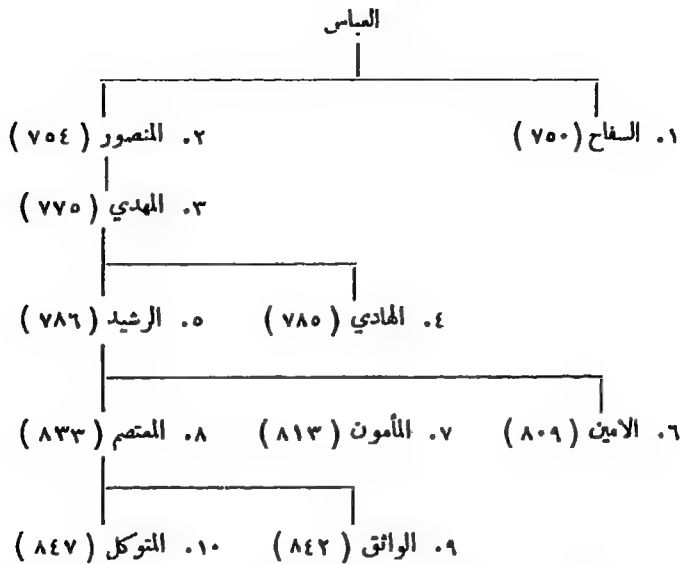
ان الخلافة الثالثة بعد خلافة الراشدين وخلافة الامويين ، وهي الخلافة التي اسسها السفاح (٧٥٠ - ٥٤) واخوه المنصور (٧٥٤ - ٧٥) ، كانت اطول الخلافات الاسلامية عهداً واوسعها شهرة . فقد كان الخلفاء ، الحجة والثلاثون الذين تعاقبوا على الخلافة من بعد الخليفة الثاني جميعاً من سلالة العصبية . ولقد اختار المنصور لمقامته موقع قرية مسيحية ذات اسم فارسي هو بغداد (معناه غطية الله) ، كانت تقوم على الضفة الغربية السفلى من نهر دجلة . بنيت هذه العاصمة التي دعت رسمياً بدار السلام سنة ٧٦٢ ، واقام حولها سور خارجي من طوب مؤلف من جدارين ، وسور داخلي بلغ ارتفاعه تسعين قدماً ، وجعل بين السورين خندق عميق . وقامت مدينة المنصور في الوادي عينه الذي ضم عدداً من امنع مدن العصر القديم ، ولم تلبث ان غدت وريثة ايجاد مدائن كسرى وبابل ونيوى ، وسواهن من العواصم القديمة في الشرق الادنى . واذ كانت بغداد مسرحاً للمعارات الاسطورية الرائعة التي خلقتها شهرزاد في قصة الف ليلة وليلة ، وقاعدة لعهدين من ازهى العهود هما عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) وعهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) ، فقد برزت في الاسطورة وفي التاريخ رمزاً منقطع النظير لمجد الاسلام . ولقد نسج

(١) البقولي ، كتاب البلدان ، نشر دي غويه (لندن ، ١٨٩٢) ، ص ٢٣٥ ؛ البلاذري ،

عهد هذين الخليفين حول السلالة برمتها هالة من المجد لم يقدر لها الى الآن ان تتلاشى، وامتد اوجها ما بين عهد المهدي (٧٧٥ - ٨٥) الخليفة الثالث، وعهد الواثق (٨٤٢ - ٤٧) الخليفة التاسع^١. ثم اخذت، بعد الواثق في طريق الانحدار حتى خلافة المستعصم (١٢٤٢ - ٥٨)، وهو السابع والثلاثون من خلفاء هذه السلالة. وفي عهده اجتاحتها المغول ودكوا معالمها. لقد استمرت ذرية السفاح والمنصور في الحكم اكثر من خمسة قرون، الا انهم لم يكونوا دائماً الحاكمين الفعليين.

كان اول والٍ للعباسيين على سورية عبدالله بطل الزاب نفسه. فما ان توفي السفاح حتى طلب عبدالله هذا الخلافة لنفسه، مزاحماً فيها ابن اخيه الآخر المنصور، معتمداً على جيش كبير جيد التدريب، كان قد حشد في الاصل لمجاهدة الروم. وبعد ان قضى على ١٧ الف جندي من الحراسانيين الذين لم يكونوا موضعاً لثقتهم، سار بمن بقي، وجلهم من السوريين، في اتجاه شرقي^٢. فتصدى له ابو مسلم في نصيبين (تشرين الثاني ٧٥٤) وهزمه. وبعد ان قضى في المعتقل سبع سنوات، نقل في موكب رسمي الى بيت رفعت دعائه - فيما يذكر - على قاعدة من الملح، ثم احيط

(١) شكل شجري لتسب الخلفاء الذين بلغت الخلافة العباسية اوجها في عهدهم :



(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٠١ - ٢.

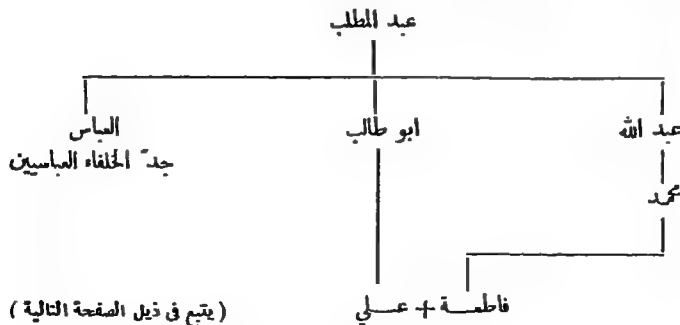
بالماء فلم يلبث ان سقط عليه ودفن تحت انقاضه^١. وكان ابو مسلم آتئذ حاكم خراسان المستقل ومعبود قومه ، وكان شديد البطش بخصومه وخصوم الدولة على السواء . حتى ان ظفـره بدأ يثير الظنون والخواف . وقد استدرج في طريق عودته الى ان يعرج على المدائن وبواجه الخليفة . لكن هذا الفارس الذي كان العباسيون مدينين في بناء عرشهم لسيفه بعد سيف عبد الله ، قد سقط بين يدي المنصور ضحية للغدر^٢.

وجاء بعد ذلك دور الشيعة . فقد كان هؤلاء يظنون اولاً ان العباسيين انما يقاثلون من اجلهم ، لكن العشاة التي كانت على عيونهم زالت الآن ، وبان لهم ان الذي عناه ابو العباس وجماعته « باهل البيت » هم آل العباس بيتهم الخاص ، وليس بيت علي وفاطمة . فاستمروا في اعتبار انتمهم وحدهم اصحاب الحق الشرعي في تسلم مقدرات الاسلام ، مما حط مقام الخلفاء العباسيين الى مقام المتصيين . واذ ذاك لجأ العلويون ثانية الى العمل في الخفاء واستغلوا كل فرصة سانحة لاثارة القلاقل جهاراً . ولقد افقـى مالك بن انس المشهور باسم الشيعة فحلهم من عهد الولاء للعباسيين . والامام مالك هو مؤسس احد المذاهب الفقهية الاربعة الكبرى في الاسلام ، ومذهبه لا يزال حتى الوقت الحاضر شائعاً في اقاليم افريقيا الشمالية . وكان اثنان من احفاد الحسن هما محمد و ابراهيم قد ترعما حركة ثورية ، فبادر العباسيون الى سحقها بلا رحمة^٣. وعمدوا الى محمد الملقب بالنفس الزكية فصلبوه في المدينة

(١) الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٧ ؛ الدينوري ، ص ٣٧٦ - ٧٨ .

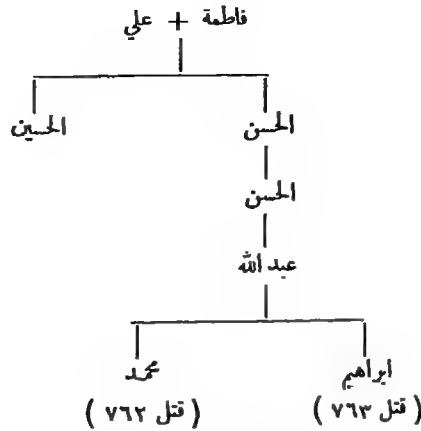
(٣) شكل شجري يوضح سلالة علي :



(كانون الاول ٧٦٢) واحتجزوا رأس أخيه ابراهيم (شباط ٧٦٣) قرب الكوفة، وارسلوا به الى الخليفة^١.

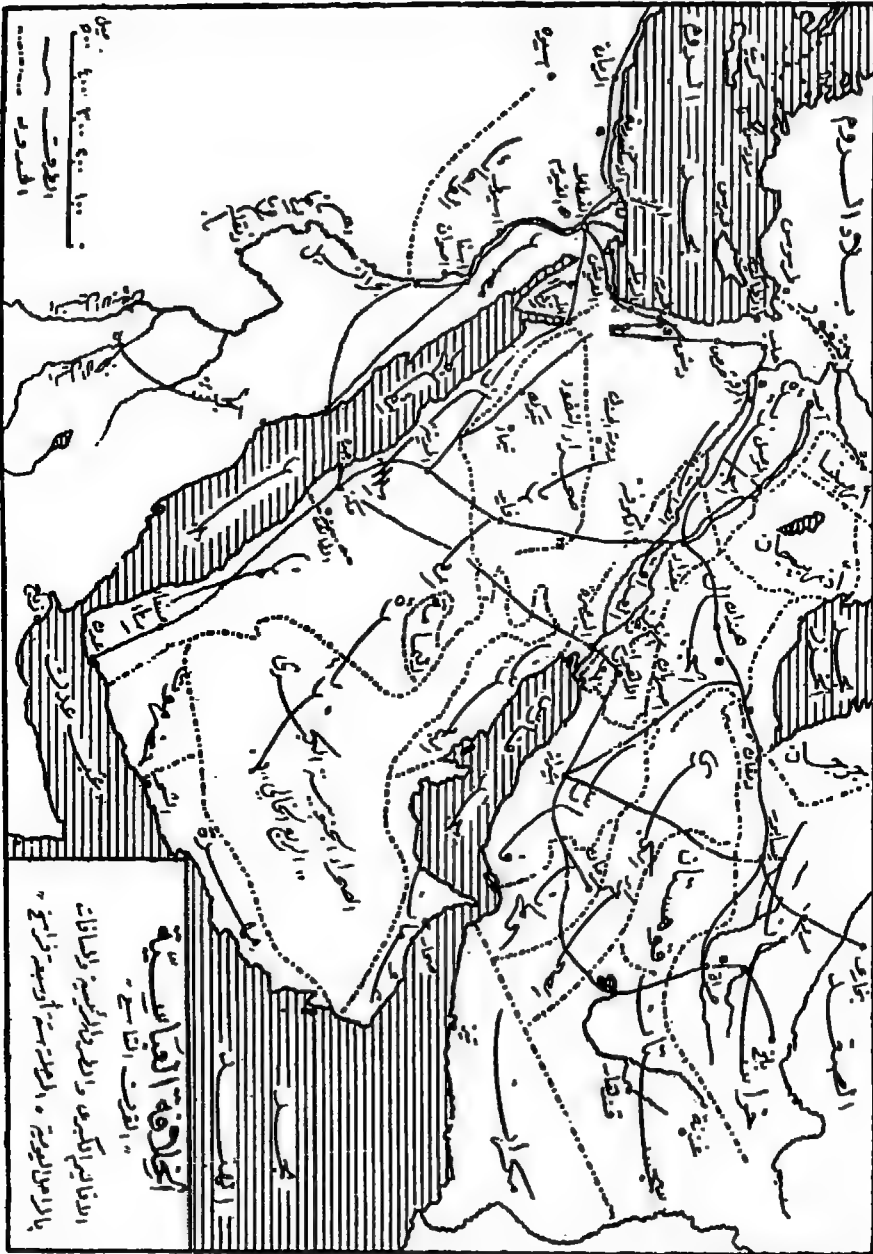
وكان هنالك جماعة اخرى من احلاف الشيعة لم يكن بد من تصفية امرهم، هم البرامكة. والبرامكة اسرة فارسية رفعها المنصور الى مقام الوزارة. وهي اسرة عريقة متحدرة من كاهن بوذي كبير (برمك). وقد قام افرادها بجلاليل الاعمال، وبذلوا بسفهاء نادر حتى غدت لفظة «برمكي» مرادفة للجهود. لكن هارون الرشيد، صاحب الارادة الفولاذية، لم ترق له مهابتهم ووجاهتهم، فعزل من ثم على القضاء عليهم سنة ٨٠٣ فما بعد، وصادر ثروتهم التي بلغت، فيما قيل، ٣٠،٦٧٦،٠٠٠ دينار نقداً، غير المقتنيات والممتلكات^٢.

وبانتقال الخلافة بعيداً الى بغداد لم يعد امر الروم، وهم اعداء العرب التقليديين، من شواغل العباسيين الكبار. اما القلاقل التي رافقت هذا الانتقال، فقد هيات لقياصرة الروم ان يسيطروا نفوذهم في اتجاه شرقي حتى حدود آسية الصغرى وارمينيا، فاضطر المنصور وخلفاؤه الى ان يبذلوا الجهد في تحصين ثغور سورية ومرافئ



(١) الطبري، ج ٣، ص ٢٤٥ - ٦٥، ٣١٥ - ١٦؛ السعدي، ج ٦، ص ١٨٩ - ٢٠٣؛ الدينوري، ص ٣٨١.

(٢) المقد، ج ٣، ص ٢٨؛ الطبري، ج ٣، ص ٦٨٠؛ ٦٧٦ - ٧٧؛ السعدي، ج ٦، ص ٣٨٧ - ٩٤؛ الفخري، ص ٢٨٨. قابل ابن خلدون، ج ٣، ص ٢٢٣ - ٢٤؛ كتاب العيون، القسم ٣، ص ٣٠٦ - ٨.



لبنان^١. ففي سنة ٢٧٨٢ قاد هارون الرشيد - وهو بعد امير - جيوشه حتى بيزنطة ، وفرض على الاميرة ايرين ، الوصية على عرش الروم ، جزية ضخمة . وقام وهو خليفة ، بسلسلة من الغارات اخترق بها « ارض الروم »^٢ . وشن ابنه المعتصم سنة ٨٣٨ هجوماً اخيراً على ارض الروم . وعند هذا الحد توقف النزاع الذي استمر بين الخلافة العباسية ودولة الروم ما يربو على القرن ونصف القرن .

القتال في سورية ولبنان وفلسطين

لم يتوان السوريون ، بعد ان فقدت بلادهم مكانتها الممتازة ، عن التعبير عن معارضتهم الشديدة بالسيف وبالبيان . لكن موقفهم اخذ يتطور مع مرور الايام من سيء الى اسوأ ، حتى تركهم محرومين من مناصب الدولة . وان الجواب الذي اجاب به احدهم ابا جعفر المنصور عندما قال انه قد كان من حظ الناس في عهده ان نجوا من الطاعون ، ليمثل شعور الناس الغالب في ذلك العصر ، وهو : « ان الله لارحم من ان يصيبنا بالطاعون وبحكمك في وقت واحد » . اما النصارى فقد ساءت احوالهم بسبب التماذي في ابتزاز اموالهم ، وزيادة الضرائب عليهم . وقد مرّ قرنان قبل ان تيسر لمرعيا الدولة الاموية ان يصلحوا الدولة العباسية ويدخلوا في وضع رعاياها .

ولم يكد عبدالله ، حاكم الشام الاول ، يتسلم مهام وظيفته سنة ٧٥٠ ، حتى قامت في وجهه فتن عديدة في حوران وبثنية وقنسرين ، كان يترعها قادة سابقون في جيش مروان . اما المتمردون في حمص وتبر، فقد كان زعيمهم زياد : سليل معاوية الذي وقع عندهم انه السفياي المنتظر ، وكان في معسكره بالسلمية ٤٠ الف رجل^٥ .

(١) البلاذري ، ص ١٦٣ ؛ راجع الفصل ٣٤ الصفحة الاولى .

(٢) كتاب البيون ، قسم ٣ ، ص ٢٧٨ . يحمل تاريخ الحملة ١٦٣ هـ (٧٨٠ م) ؛ ويجعله اليعقوبي (ج ٢ ، ص ٤٧٨ ، ٤٨٦) ١٦٤ ، والطبري (ج ٣ ص ٥٠٣ - ٤) ١٦٥ هـ .

(٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٩٦ ، ٧٠٩ - ١٠ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥١٩ ، ١٤ ، ص ٥٢٣ ص ٢ ؛ الدينوري ، ص ٣٨٦ - ٨٧ ؛ السعدي ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٥٢ . ويتجلى في خرائب الرقة ، وهي المدينة التي اسماها سلوقس الاول ، ذلك التخطيط الواسع الذي رُمها الرشيد وحصنها المأمون على اساسه .

(٤) ابن عساكر ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ .

(٥) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٣٣١ وما بعد .

واشتد في هذه الآونة النزاع في سورية المسلمة ، وبرز بين القيسية واليمينية الحزبين اللذين ظهرا بمختلف الاسماء . وكان ضلع العباسيين مع القيسية بوجه عام ، فاعتمدوهم في شؤونهم . وبلغ النضال اشده في خلافة هارون الرشيد ، حينما كان واليه على دمشق ابراهيم ، احد احفاد عبدالله^١ . وقد سفكت دماء كثيرة في دمشق وجوران والبقاع والاردن وحمص ، ونشب القتال واستمر سنتين بلا هوادة وذلك - فيما روي - لان قيسياً سرق بطيخة من بستان يمني^٢ . حتى ان الخليفة فكر بتجريد حملة تأديبية عليهم يقودها بنفسه ، ثم عاد فكلف بها قائداً من البرامكة ، فجرد هذا المتقاتلين من كل سلاح حتى « لم يدع لهم رمحاً ولا فرساً^٣ » . وكانت للاضطرابات التي رافقت النزاع على الخلافة بين الامين والمأمون ابني الرشيد رد فعل قوي في سورية . ذلك ان الجنود السوريين ، عندما وجدوا انفسهم (٨١١-١٢) مع الحراسانيين في معسكر واحد في الرقة ، وصاح بهم احد قادتهم المتمردين : « يا معشر كلب انما الراية السوداء... اعتزلوا الشر قبل ان يعظم... داركم داركم ، الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري^٤ » . اعتزلوا الحرب وساروا مع قائدهم . وفي عهد الامين المضطرب عميد سفياني آخر ، اسمه علي ، الى رفع العلم الابيض . وكان هذا المنافس الجديد من العلماء . وكان له من العمر تسعون عاماً . فاستطاع ان يجمع حوله جماعة من المؤيدين بينهم حاكم صيدا ، وسار على حمص فاحتلها ، ثم حاصر دمشق ، ودخلها بعد ان طرد عامل العباسيين منها^٥ .

وفي سنة ٨٢٩ قدم المأمون الى سورية ، ووضع كشتافاً جديداً لاراضيتها على امل زيادة الدخل الوارد منها^٦ . وبعد ذلك بربع سنوات زار دمشق ، لينظر في

(١) ان الوضع القلق في سورية اقتضى ان يكون حاكمها من الاسرة العباسية . وكان صالح والد ابراهيم ، واخا عبدالله . وقد جرى تعيين حكم مختلفين على المناطق السورية المختلفة في بعض الاحوال : يعقوبي ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .

(٢) ابو الفداء ، ج ٢ ، ص ١٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٨٧ .

(٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٣٩ .

(٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٨٤٤ - ٤٥ .

(٥) يعقوبي ، ج ٢ ، ص ٥٣٢ ، ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ١٧٢ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٨٣٠ .

(٦) ابن عساکر ، ج ٤ ، ص ١٠٧ - ٨ . راجع بشأن زيارته الى القدس ما سبق ، ص ١٣٠ من هذا الجزء .

امر القضاة، ويطبق بحجهم القانون الذي سبق ان وضعه في بغداد، وهو ان كل من لا يوافق المعتزلة من القضاة في عقيدة خلق القرآن لا يسوغ له ان يحتفظ بمنصبه^١. وكان عدد من الخلفاء الذين سبقوه قد قاموا كذلك بزيارة سورية في طريقهم الى الحج، اوف في حملاتهم على الروم. ولقد كانوا جميعاً على علم بكل ما يجري هناك عن طريق ولايتهم، وعن يد عامل خاص يمدهم بالاخبار هو صاحب البريد، وكان هذا - بواقع الامر - رئيس فرقة التحري^٢. اما تعليم المعتزلة الذي كان الخليفة قد اعتنقه فقد كان معارضاً تماماً لتعليم اهل السنة. وهذه الحركة الفكرية العقلانية كانت قد نشأت وترعرعت في ظل الحكم الاموي^٣.

النائر المقتنع

وكانت فلسطين مسرحاً للفتنة الكبرى التالية، فقد عمد رجل من عرب اليمن، مجهول النسب، الى اعلات العصيان برفع العلم الابيض (٨٤٠ - ٤١). ومن غريب امره انه كان لا يظهر في الجمهور الا مقنعاً، فعرف «بالمبرقع». وكان اتباعه، البالغون - فيما روي - مئة الف رجل، من انشاء المناطق الريفية ومن طبقة المزارعين، مما يشير الى وجود حافز اقتصادي الى جانب العامل السياسي. وكان المعتقد السائد انه سفياني النسب. على ان القائد العباسي تربص بهم حتى فصل الحرائة، وهاجم مركز قيادتهم بالف رجل امده بهم الخليفة المعتصم، واعتقل النائر المبرقع، وحمله الى سامرا عاصمة العباسيين المؤقتة^٤.

دمشق عاصمة مؤقتة

وفي عهد المتوكل بن المعتصم عادت نار الثورة فشبت ثانية في دمشق (٨٥٤ - ٥٥). ذلك ان الرعايا ثاروا بالحاكم العباسي وقتلوه، فارسل الخليفة اليهم قائداً تركياً على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة، اعلموا فيهم السيف

(١) اليعقوبي، ج ٣، ص ٥٧١.

(٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 325

(٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 429

(٤) الطبري، ج ٣، ص ١٣١٩ - ٢٢؛ ابن عساكر، ج ٥، ص ٣١١ - ١٢.

لمدة ثلاثة ايام ، وانهبوا المدينة بكاملها^١. وكان ابعد احتمالات عن التصديق ان يقع اختيار الخليفة على دمشق فيجعلها ، بعد فترة وجيزة ، مقراً له . ففي سنة ٨٥٨ نقل المتوكل قاعدته اليها ، وكان الحافز لذلك ، فيما يظن ، تفادي سيطرة حرس الخلافة المتفطرسين عليه ، اولئك الحرس الذين كان اكثرهم من الترك غير النظاميين وكانوا من المرتقة والعبيد في خدمة سلفه السابق . لكن مناخ المدينة الرطب ، ورياحها العاصفة ، وبرايغيتها وهوائها الكثيرة المزعجة رحلت عنها الخليفة المتقلب بعد ثمانية وثلاثين يوماً من نزوحه اليها^٢.

التشريع ضد النصارى

هذا النهج الذي سلكه الثوار السوريون في العصر العباسي الاول غدا نموذجاً يحتذى لسنين كثيرة . وطراً في هذا الوقت طارئ جديد هو اشتداد نفمة النصارى ، بسبب التدابير الصارمة التي فرضت عليهم . ولم نسمع ، قبل عهد المتوكل الا بحركة عصيان واحدة قام بها نصارى لبنان . وقع ذلك سنة ٧٥٩ - ٦٠ ، عندما كان صالح بن علي ، اخو عبدالله ، والياً عليها . فقد لجأت جماعة منهم الى السلاح تفادياً لمصادرات جديدة تنزل بهم ، وانهزوا وجود اسطول بيزنطي في مياه طرابلس ، وانقضوا من قاعبتهم في المنيطرة^٣ - في اعالي لبنان - وانهبوا عدداً من قرى البقاع . وكان يتوغمهم فتى قروي عظيم البنية ، بلغ من جرأته وتهوره ان اقام نفسه ملكاً . لكن العصابة اللبنانية قيدت بعد حين الى كمين قرب بعلبك ، نصبته لها فرقة فرسان عباسية ، وفتكت بهم . ثم عمد صالح الى الانتقام ، فشرّد أهل القرى الجبلية ، مع ان الكثيرين منهم لم يساهموا في الفتنة ، ونثرهم في المناطق السورية على اختلافها^٤. وعلى اثر ذلك رفع الامام الاوزاعي ، الفقيه المشهور في بعلبك وبغروت^٥ ، احتجاجاً الى الحاكم يجدر بنا اثباته في ما يلي :

(١) ابن عساكر ، ج ٦ ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٣٥ - ٣٦ ؛ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٦٠١ ؛ ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ - ٨٩ .

(٣) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٦ في الفقرة عن شهادة أسامة .

(٤) ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٢ في الفقرة عن الاوزاعي .

وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان . ممن لم يكن بمالئاً لمن خرج على خروجه ، ممن قتلت بعضهم ، ورددت باقيهم الى قراهم ، ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة ، حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم ، وحكم الله تعالى ان لا ترز وازرة وزر اخرى^١ . وهو احق ما وقف عنده واقتدي به . واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله صلعم ، فانه قال : « من ظلم معاهداً ، وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه »^٢

ولقد كان هارون الرشيد ، جد المتوكل ، قد اعاد مفعول بعض الاجراءات التي وضعها عمر بن عبد العزيز^٣ ضد النصارى واليهود . ففي سنة ٨٠٧ امر بهدم جميع الكنائس التي كانت قد بنيت منذ الفتح الاسلامي ؛ وسن كذلك قانوناً اوجب به على جميع الذميين ان يلبسوا اللباس المعين^٤ . على ان الكثير من هذه التدابير ، ولا شك ، لم يوضع موضع التنفيذ^٥ . وفي سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ اعاد المتوكل ثانية شرعة التمييز العنصري ، واتبعها بتدابير جديدة كانت أشد ما فرض بحق الاقليات على الاطلاق . فقد اجبر النصارى واليهود على ان يجعلوا على بيوتهم تماثيل خشبية للشياطين . وان لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سطح الارض ، وان يرتدوا معطفاً عسلي اللون ، ويجعلوا على كل من الكنائس وقعتين عسليتين ، تحاط احدهما من امام والثانية من وراء ؛ وان لا يركبوا الا البغال والحمير ، وذلك على سرج من خشب له على قروبسيه كرتان خشبيتان كأنهما رمأتان^٦ . فصار الذمي يسمى بسبب هذه الملابس الخاصة « بالارقط »^٧ . ثم ان القضاة المعاصرين عمدوا الى اعتبار شهادة اليهودي والنصراني على المسلم غير مقبولة ، بناء على الآية القرآنية

(١) سورة الانعام : ١٦٤ .

(٢) البلاذري ، ص ١٦٢ .

(٣) راجع ص ١٠٠ من هذا الجزء .

(٤) الطبري ، ج ٣ ، ص ٧١٢ - ١٣ ؛ ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ١٤١ .

(٥) انظر : Laurence E. Browne, *The Eclipse of Christianity in Asia* (Cambridge, 1933), pp. 46 seq.

(٦) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٣٨٩ - ٩٣ ، ١٤١٩ .

(٧) الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ٧٩ ، ص ٢٨ .

التي تتهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدس^١. ولم يقع بعد ذلك اضطهاد خطير حتى زمن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره (٩٩٦ - ١٠٢١).

واذا قدم المتوكل على سن هذه الشرائع انطلقت فتنة عنيفة في حمص اشترك فيها النصارى والمسلمون، لكنها اخضعت بعد مقاومة شديدة (٨٥٥)، وبعد ان ضربت اعناق زعمائها، او جلدوا حتى الموت، وصلبوا على ابواب المدينة. ثم هدمت جميع الكنائس الا تلك التي ضمت الى المسجد الكبير، وابتعد جميع النصارى من المدينة الهائجة، وقد كان سواد سكانها، على ما يبدو، من النصارى^٢.

كان الحيف الاكبر الذي لحق بالذميين عادة هو ضريبة الجزية. فقد كانت هذه الضريبة، مبدئياً، الثمن الذي يؤدي عن حق الاقامة وحرية العبادة، وفي مقابل الامان على الحياة وعلى المقتنيات. لذلك كان هذا انعقد عرضة للالغاء في حال الامتناع عن دفع الجزية، او القيام بفتنة، او اللجوء الى التجسس لحساب دولة غريبة، او ايواء عدو من اعداء الدولة. وقد اضيفت الى ذلك اسباب اخرى مع مرور الزمن، منها القصور بمسلة حرية، وصرف المسلم عن دينه، والتجديف على الله او على رسوله او كتابه. اما المسلم فلم يكن له ان يعتنق النصرانية او اليهودية، دون ان يعرض نفسه للموت. وقد اجازوا اقضاء الذمي غير المرغوب فيه الى خارج البلاد الاسلامية. وكانت اكثر المذاهب الفقهية تمتنع عن ازالة العقوبة القصوى بالمسلم ان هو قتل ذمياً. ولم يمنع غير المسلم من ان يرفع امره الى محكمة اسلامية، ان هو اراد ذلك؛ اما اذا كان احد المتقاضين مسلماً فلا بد من رفع الشكاية الى قاض مسلم. ثم ان القضية اذا كانت بين ذميين من مذهبين مختلفين: احدهما نصراني والاخر يهودي، فان الشرع الاسلامي لا يتعرض لها، الا في حال تعذر الاتفاق بين الفريقين على اختيار المحكمة. ومن ذلك ان الزوج اذا اعتنق الاسلام، وكانت زوجته كاتبة، فان عقد الزواج يبقى قانونياً؛ اما اذا اعتنقت هي الاسلام، فينبغي عندها على الزوج ان يتبعها في ذلك، في غضون ثلاثة

(١) سورة البقرة: ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦ - ١٨.

(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٢٢ - ٢٤؛ ابن الاثير، ج ٧، ص ٥٩ - ٦٠؛ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٩٩. راجع ص ١٢٨ - ١٢٩ من هذا الجزء.

اشهر، تنقطع بينهما في إثنائها كل صلة زوجية، والا طلقت منه. اما في ما يتعلق بالارث فقد منعوا على الذي ان يرث من المسلم شيئاً.

الدخول في الاسلام

حافظت سورية حتى هذا الوقت - فيما يظهر - على طابعها المسيحي العام، لكن الوضع اخذ بعد هذا، يتبدل تبديلاً محسوساً. ذلك ان خمسة آلاف من نصارى بني تنوخ في جوار حلب كانوا قد عملوا بإشارة المهدي العباسي واعتنقوا الاسلام^١. وكان التنوخيون الذين دخلوا لبنان في مطلع القرن التاسع من الاسر العربية الاسلامية الاولى التي استوطنت الجبل. وقد اقتطعوا لانفسهم، في تلك المنطقة القليلة السكان، التي لا تزال تعرف بالغرب، مقاطعة حكموا فيها قروناً عديدة. وقد اقامهم العباسيون حاجزاً دون الموارنة في شمالي لبنان، وسدّاً في وجه الروم المقبلين من البحر. وعندما اقبل الصليبيون اصابهم في بيروت وجوارها. وكان قد سبق التنوخيين الى هذا المكان شيخ الاسرة الارسلانية التي تعيد نسبها الى اللخمين، فاستوطنوا الغرب^٢. وكان الشيخ الارسلاني من اتباع الامام الاوزاعي، اما ذريته اليوم فمن اشراف الطبقة الارستقراطية في المجتمع الدرزي. وغالب الظن ان عدداً كبيراً من الاسر المسيحية في سورية - باستثناء لبنان - قد اوى الى حظيرة الاسلام بعد عهد المتوكل. وربما كان الدافع الى ذلك رغبتهم في تفادي التدابير المذلة والضرائب الفادحة، وحرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والنفوذ السياسي. وكان الكثيرون من وجهاء النصارى قد هاجروا الى آسية الصغرى وجزيرة قبرس وهكذا تحقق الوجه الثاني من الفتح الاسلامي، وهو فتح الاسلام من حيث هو دين وعقيدة، وكان الفتح الاول فتح القوة المسلحة الذي تم في سورية قبل ذلك باقل من عشر سنوات.

(١) ابن العربي: *Chronicon Syriacum*، نشر برتر وكيرتش (ليبتيغ ١٧٨٩)، ج ٢، ص ١٣٣؛ راجع ص ٩٨ - ٩٩ من هذا الجزء.

(٢) حاسن المساعي في مناقب الامام ابى عمرو الاوزاعي، نشر شكيب ارسلان، (القاهرة)، ص ١٩ - ٢٠، الشذيق، ص ٦٤٦ - ٤٧.

فتح اللغة العربية

اما الوجه الثالث من هذا الفتح فهو الفتح اللغوي^١. كان الانتصار اللغوي ابطاً الانتصارات وآخرها. ففي هذا الميدان اتخذت الشعوب المغلوبة في سورية وسواها اشد تدابير المقاومة. والظاهر انهم كانوا اكثر استعداداً للتخلي عن عهودهم السياسية بل والدينية، منهم للتنازل عن استقلالهم اللغوي. لذلك استطاعت العربية الفصحى ان تجرّز كسبها قبل العامة، فشرع الادباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة، قبل ان ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد^٢. واقدم ما وصل الينا من المخطوطات العربية النصرانية المؤرخة، مخطوطة الفها أبو قرة (ت ٨٢٠)، ونسخت سنة ٨٧٧ في دير القديس سابا قرب القدس^٣. وهي محفوظة اليوم في مكتبة المتحف البريطاني. اما المؤلف، وهو من تلامذة القديس يوحنا الدمشقي، فقد كان اسقف المذهب الملكاني في حرّان. ولا شك في ان اعتناق الاسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطاه، وان التحول من لغة سامية الى اخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية.

وما ان استهل القرن الثالث عشر، وأذن العصر العباسي بالزوال، حتى كان النصر قد تم للعربية على اللغة المحلية، وغدت هي اداة التفاهم في الحياة اليومية. انما بقيت هنالك «جزر لغوية» لاقوام غير مسلمين، نظير اليعاقبة والنساطرة والموازية؛ وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه «الجزر». وعندما زار بنيامين التودلي^٤ جبل سينا حوالي سنة ١١٧٠، وجد على قمته معبداً سريانياً، وعند سفحه قرية كان اهلها يتكلمون «اللغة الكلدانية». وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعاً مريراً وطويلاً، وصمدت في دفاعها حتى القرن السابع عشر^٥. ولا تزال السريانية اللغة المحكية في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي: معلولا

(١) راجع ص ٩٥ - ٩٨ من هذا الجزء.

(٢) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٢ في الفقرة عن حنين بن اسحاق.

(٣) انظر: Theodorus abu Kurra, *De cultu imaginum*, ed. and tr, I. Arendzen (Bonn, 1897) : قسطنطين الباشا، ميامر ثودورس، (بيروت، ١٩٢٤ ؟).

(٤) انظر: Itinerary, vol. i, (London, 1840), p. 159.

(٥) راجع حتي، اللغات السامية المحكية في سوريا ولبنان (بيروت، ١٩٢٢) ص ٣٠ - ٣٤.

ونجعة وجبعادين^١. وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السريانية الأخرى . على أن الموارنة يجرون بعض شعائرهم الكنسية بالكرشوني أيضاً^٢، وهذا الاسم يطلق على العربية المكتوبة بالحرف السرياني . أما السريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم ، وليس لدينا إلا نص عربي واحد كتب بالحرف اليوناني . وهو نص من الكتاب المقدس (المزمور ٧٨ : ٢٠ - ٣١ ، ٥٦ - ٦١) يعود ، على ما يبدو ، إلى القرن الثامن ، وقد عثر عليه في الجامع الأموي^٣.

وإذا أخذ غير العرب في الاستعراب واعتناق الإسلام عمدوا إلى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موال^٤ وذابوا فيها تبعاً . ثم أخذ الخط الفاصل بين العرب وغير العرب ، وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين ، في الاضمحلال ؛ وسرعان ما غدا الجميع عرباً بلا تمييز . حتى كان عهد المالك فعرف فيه سكان الحواضر « بأولاد العرب » وهم يعرفون به إلى اليوم تمييزاً لهم من الأعراب سكان البوادي^٥. وقد انقرض السواد الأعظم من أولئك الذين تكلموا السريانية في سورية والعراق ، وكانوا يسمون بالانباط^٦ أو العلوج تحقيراً لهم . ثم زال اسم « آرام » الذي كان يطلق على سورية باللغة المحلية ، ليحل محله اسم جديد هو الشام ، ومعناه الشمال أو اليسار ، لأنها تقع إلى يسار الكعبة ، وذلك في مقابل اليمن التي تقع إلى اليمين^٧. وهكذا تمّ تعريب العالم الإسلامي برمته في غضون العصر العباسي . ولأول مرة أخذ الشعور الواعي بالوحدة ، مقرونًا بوحدة اللغة ووحدة الاعتقاد يستحوذ على النفوس .

(١) راجع : G. Bergstrasser, *Neuaramäische Märchen und andere Texte von Ma'lula*, (Leipzig, 1915); Anton Spitaler, *Grammatik des neuaramäischen Dialekts von Ma'lula*, (Hamburg, 1938).

(٢) من « غوشون » السريانية بمعنى الغريب ، وترد محرفة بالكاف « كرشوني » .

(٣) انظر : Paul Kahle, *Die arabischen Bibelübersetzungen*. (Leipzig, 1904) pp. xiv, 32-33.

(٤) راجع ص ٩٥ - ٩٨ من هذا الجزء .

(٥) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٧ في آخر البحث عن لبنان .

(٦) السمودي ، التنبيه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٧) السمودي ، ج ٣ ، ص ١٣٩ - ٤٠ .

على ان اللغة السريانية ما كانت لتزول دون ان تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانية . وهذا الطابع هو الفارق الاساسي الذي يميّز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة . وهو واضح في التراكيب والمفردات والاصوات اللغوية . على ان المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالالفاظ المستعارة من السريانية^١ . وهذه اسماء الاشهر قد تحدّرت من السريانية مباشرة . وكانت السريانية قد نقلت اكثرها من اصل اكادي^٢ .



(١) مثلاً على ذلك راجع : Michel T. Feghali, *Etudes sur ces emprunts syriaques dans les parlers du Liban*, (Paris, 1919) ؛ أيضاً : *Le Parler de Kfar'abida* (Paris, 1919) ؛ وبوسف حبيقة في مجلة المشرق ، ج ٣٧ (١٩٣٩) ص ٢٩٠ - ٤١٢ ؛ واغناطيوس افرام في مجلة المجمع العلمي العربي ، ج ١٣ (١٩٤٨) ، ص ١٦١ - ٨٢ ، ٣٢١ - ٤٦ ؛ ٤٨١ - ٥٠٦ ؛ وج ٢٤ (١٩٤٩) ، ص ٣ - ٢١ ، ١٦١ - ٨١ ، ٣٢١ - ٤٢ ، ٤٨١ - ٩٩ ؛ وج ٢٥ (١٩٥٠) ص ٣ - ٢٢ الخ . وايضاً : أنيس فريجه ، معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانية (جويلية ، ١٩٤٧) . اما بشأن الالفاظ الكنسية المستعارة فراجع ما سبق ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) هي ابتداءً من كانون الاول والثاني : كانون مناه الموقد ؛ شباط : الضارب او المهلك ؛ اذار : تقيم ؛ نيسان : العلم ، الحرب ؛ ايار : انتاج الحبوب ؛ حزيران : الحصاد ؛ تموز : وليد الماء العذب (راجع الجزء الاول ، ص ١٣٦ ، ذ ١) ؛ آب : العصب ؛ ايلول : التهليل ؛ تشرين : تكريس (الى اله الشمس) .

الفصل الثاني والاربعون فضل السريان في نهضة العرب الفكرية

الترجمة عن اليونانية

كان للشعوب المسيحية الناطقة بالسريانية من الفضل في يقظة العرب انعاماً ونهضة الفكرية، في بغداد زمن العباسيين، ما لم يكن مثله لامة واحدة سواهم — تلك النهضة التي غدت ولا تزال مفخرة العصر الاسلامي القديم. فقد كان العالم العربي، ما بين سنة ٧٥٠ و ٨٥٠، مسرحاً لحركة من ابرز الحركات وانفطرها في تاريخ الفكر. ولقد تميّزت هذه الحركة بالنقل الى العربية عن الفارسية واليونانية والسريانية، اذ ان العربي لم يحمل معه من الصحراء فناً ولا علماً ولا فلسفة، ولا شيئاً يذكر من الادب، انا رافقته رغبة ملحّة في الاطلاع، ونهم شديد للعلم، وشيء كثير من المواهب الفطرية الكامنة. وقد سنع للعربي في الهلال الحبيب ان يصبح الوريث الفكري لعلوم اليونان ومعالم حضارتهم، بما كان من غير شك انفس ما هو ميسور آنذاك من الذخائر الفكرية. فما ان مضى على تأسيس مدينة بغداد (٧٦٢) عقود قليلة، حتى وجد الجمهور الناطق بالعربية في متناوله اهم مؤلفات ارسطو وشروح افلاطون، واعظم مؤلفات ابقراط وجالينوس الطبية، وبرز كتب اقليدس الرياضية، واروع آثار بطليموس الجغرافية. ولقد لعب السريان في نقل هذا التراث بجلته دور الوسيط. ذلك لان العرب لم يكونوا يحسبون اليونانية، في حين كان السريان على اتصال باليونان لاكثر من عشرة قرون. وكان علماءهم، في القرنين السابقين لظهور الاسلام، يعملون جاهدين في نقل المؤلفات اليونانية الى السريانية. وقبل ان عمد عمر بن عبد العزيز الى نقل مدرسة الاسكندرية الفلسفية الى انطاكية بوقت طويل، كانت موجة عارمة من الترجمة قد اجتاحت اديار الكنيسة. وهكذا فان الذين اتاحوا كنوز اليونان العلمية والفلسفية للفرس في ما سبق، اصبحوا الآن يؤدون هذه الخدمة عينها الى العرب، واذا بأولئك الذين دُثبوا قبل الاسلام على ترقية العناصر الرئيسية في الثقافة اليونانية، وعلى نشرها في اتجاه شرقي وبشها في مدارس الرها ونصيبين وحران وجنديشاپور،

يعملون الآن جاهدين على نقل هذه العناصر الى قراء العربية . وكما كانوا في عهد الروم عملاء للحضارة المادية ، ينقلون غلال الشرق الى الغرب^١ ، هكذا اصبحوا الآن عملاء الثقافة الغربية في المجتمع الشرقي .

وكان الكهنة من بينهم ادرام باهمية منطق ارسطو ونظام الافلاطونية الجديدة ، في ما يتصل بالمشادات اللاهوتية ، وهي آنذاك من الحياة الفكرية بمنزلة القلب النابض ، حتى ان الاناجيل التي فقد اصلها الآرامي^٢ أُعيد تدوينها من الترجمة اليونانية ، ونقل الى السريانية الترجمة السبعينية للتوراة بذاتها . وكانت الرها — تلك المدرسة التي انشئت سنة ٣٧٣ — المركز الرئيسي لنشاط الفكر السرياني ، وكان احد اساتذتها صاحب الترجمة الاولى لكتاب الايساغوجا الذي وضعه فرفوريوس ، وهو كتاب ممتاز في المنطق يقترن عادة بكتاب ارسطو في المقولات ويمهد السبيل اليه . اما كتاب ارسطو هذا فقد نقله ، بعد ذلك ، سرياني آخر اسمه جورجيس ، وهو الذي سم سنة ٦٨٦ اسقفاً على القبائل العربية^٣ ، وكانت ابرشنته تضم قبيلتي تنوخ وتغلب ، وسواهما من قبائل العرب المقيمة في بادية الشام والعراق وقام سرياني آخر ، اشتهر امره قبيل الفتح الاسلامي ، بشرح كتاب لارسطو هو كتاب «العبارة» . وغدت الشروح السريانية من ثم غودجاً للشروح العربية . وعندما اقبل الامبراطور زينو مدرسة الرها سنة ٤٣٩ ، هاجر اساتذتها المشردون عبر الحدود الشرقية الى حران ، وهي آنذاك تحت سيطرة الفرس ، وافتتحوا فيها معهداً علمياً جديداً ، او اعادوا فتح معهدها القديم . وقد وجد غير هؤلاء من ضحايا السياسة البيزنطية ملجأً في المناطق الفارسية — تلك السياسة التي كانت ترمي الى تذيق العقائد الدينية تنسيقاً صارماً في طول البلاد وعرضها .

ومن المواضيع التي كانت موضعاً لعناية السريان الخاصة ، فضلاً عن الفلسفة واللاهوت ، الطب والفلك ؛ وكان الفلك من حيث علاقته بالتنجيم من العلوم المتصلة

(١) راجع الجزء الاول ص ٣٢٩ — ٣٣٠ ، ٣٨٩ — ٣٩٣ .

(٢) راجع الجزء الاول ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) انظر : Assemani, vol. i, pp. 494 ; Rubens Duval, *La Littérature syriacque*, 3rd, ed. (Paris, 1907), pp. 353, 377 ; Barhebraeus, *Chronicon ecclesiasticum*, ed. and tr. J. B. Abbeloos and T. J. Lamy (Louvain, 1872), vol. i, cols. 303-6.

بالطب . ففي سنة ٥٥٥ انشأ كسرى انوشروان في جنديشاپور معهداً للطب والفلسفة ، كان عدد وافر من كبار اساتذته من علماء النصارى ، وكانوا يلقون دروسهم باللغة السريانية . من هؤلاء جورجيس بن بختيشوع عميد المعهد ، وهو الذي استدعاه المنصور سنة ٧٦٥ في استشارة طبية ، وعرض عليه الدخول في الاسلام وقال له أنا اضمن لك الجنة ، فكان جوابه : « قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار » . وجورجيس هذا مؤسس اسرة من الاطباء استأثرت بممارسة الطبابة في دار الخلافة استثنائاً كاد يكون تاماً ، استمر ستة او سبعة من الاجيال . وكان ابنه بختيشوع (ت ٨٠١) رئيس الاطباء في مستشفى بغداد في خلافة الرشيد .

حنين بن اسحاق

ويعزى الى يوحنا (يحيى) بن ماسويه وهو تلميذ نصراني لعالم آخر من آل بختيشوع انه ترجم للرشيد عدداً من الكتب اكتبها في الطب ، كان الخليفة قد غنمها في بعض غاراته على آسية الصغرى^٢ . وكان حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٩٧٣) ، وهو تلميذ يوحنا ، من اعظم مترجمي العصر ، ومن ابرز شخصياته وانبلها ، ومن ابناء الكنيسة السريانية الشرقية ؛ ولد في الحيرة ، واقامه المأمون قيماً على بيت الحكمة - تلك المؤسسة التي أنشأها المأمون واقام فيها مكتبة ومتحفاً ومعهداً للترجمة . وكان يساعد حنيناً في عمله ابنه اسحاق^٣ ، وابن اخته حيش بن الحسن^٤ . على ان الوالد كان اجدود معرفة باليونانية ، فكان لذلك يحقق المرحلة الاولى ، فينقل الكتاب من اليونانية الى السريانية ، ثم يدفعه الى معاونيه فينقلونه من الترجمة السريانية الى اللغة العربية . وعلى ذلك فقد غدت اكثر مؤلفات ارسطو وجالينوس^٥

(١) القفطي ، تاريخ الحكماء ، نشر ج لبرت (ليمتريغ ، ١٩٠٣) ص ١٥٨ - ٦٠ ؛ الفهرست ، ص ٢٩٦ ؛ ابن العربي ، ص ٢١٣ - ١٥ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن العربي ، ص ٢٢٧ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٧٥ ؛ القفطي ، ص ٣٨٠ .

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٤) الفهرست ، ص ٢٩٧ ؛ ابن العربي ، ص ٢٥٢ ؛ ابن ابي اصيبعة ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، ٢٠٣ .

(٥) لقد اعتمد حنين في بعض مؤلفات جالينوس على ترجمات سريانية كان ايوب الرهاوي (حوالي ٧٦٠ - ٨٣٥) قد نقلها عن اليونانية . انظر : Job of Edessa, Book of Treasures, ed A. : Mingana (Cambridge, 1935), pp. xix-xx ; Barhebraeus, vol. iii, Cols. 181-2.

في متناول الطالب العربي . ويعزى كذلك الى حنين انه ترجم رسائل ابقراط الطبية ، وسياسة افلاطون . ويتضح لدى مقابلة هذه الترجمات باصولها ان الترجمة السريانية كانت في جميع الحالات اقرب الى الاصل اليوناني ، وان الترجمة العربية كانت شرحاً للترجمة السريانية . ولقد كان حنين يعالج اموراً اخرى غير الترجمة ؛ فقد جعله المتوكل طبيباً الخاص ، وأمر مرة بسجنه لانه أبى ان يركب سماً لقتل احد اعدائه .

وكان يحيى بن عدي (٩٧٤) مترجماً آخر من مشاهير المترجمين . وقد عمل على تهذيب عدد من الكتب المترجمة السابقة ، واخرج ترجمات عديدة لكتاب ارسطو « الشعر » وكتابي افلاطون « النواميس » و « طماوس » . وكان يحيى هذا تابعاً للملة السريانية الغربية التي انجبت علماء آخرين احتنوا مثال زملائهم ابناء الملة الشرقية . وادخلوا على مترجماتهم تحسينات شتى . ومن عملوا في هذا الحقل من النصارى قسطاً ابن لوقا البعلبكي (ت حوالي ٩١٢) الذي اشتهر على الاخص بترجمة المؤلفات الرياضية والفلسفية . وكان قسطاً هذا يحسن اليونانية والسريانية والعربية . وكتب يرحل الى بلاد الروم في طلب الكتب ، ويعكف على الاشتغال بها في بغداد . وقد ادرسته الوفاة في ارمينيا بعد ان خلف ٦٩ مؤلفاً موضوعاً و ١٧ كتاباً مترجماً ، و اقيم له في مكان وفاته مدفن تذكاري^١ .

على ان السريان لم يلقوا بالاً الى الشعر اليوناني ، وكذلك كان موقف العرب منه . ومع ان مارونيّاً من منجمي المهدي اسمه تاوفيل الرهاوي عمد الى نقل الياذة هوميروس وادسته . فإن البقاء لم يكتب لها^٢ .

الصابئة

ولم يقتصر الفضل على النصارى من السريان وحدهم ، بل قد كان للوثنيين منهم كذلك فضل كبير على حياة العرب الفكرية . وهؤلاء السريان الوثنيون هم

(١) الفهرست ، ص ٢٩٥ ، القنطري ، ص ٢٦٢ - ٦٣ ؛ G. Gabrieli in *Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei*, ser. 5, vol. xxi (Rome, 1912) pp. 361-82.

(٢) ٢٢٠-٢٢١ ؛ Assemani, vol. i pp. 521-22 ؛ يذكر انه كان من اتباع الكنيسة البشائية ؛ قابل الغزيري ، ص ٤٤ ؛ راجع ص ١٤٢ من هذا الجزء ؛ اللبس ، تاريخ سورية ، ج ٣ ، ص ٢٩٧ .



ترجمة عربية لكتاب من كتب جالينوس

مثل هذه الصفحة المصورة السطور الأولى من أحد أصول كتاب الصناعة الصغير لجالينوس الذي ترجمه حنين بن اسحق . ويعود تاريخ هذه النسخة الى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦/٧٧ م) . وهذا المخطوط أقدم من أي مخطوط موجود لهذا الكتاب في اليونانية واللاتينية ، وفيه أقسام لم تنشر بعد ولم تترجم الى أية لغة أوروبية حديثة .

الصابئة أو على الأصح هم منتحلو الصابئية^١ . وقد كانوا يقيمون في مدينة حران . ولما كان هؤلاء من عبدة النجوم وكانوا ورثة العلوم البابلية ، فقد توفروا على الاهتمام بالفلك والعلوم المتصلة به من عهد عريق في القدم . أما في ما يتصل بالاقبال على علوم اليونان فقد كان لهم من الرغبة فيها ما كان لمواطنيهم النصارى . وكان من أبرز علماء الفلك ثابت بن قرة (حوالي ٨٣٦ - ٩٠١) وإليه وإلى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات ، لاسيما مؤلفات بطليموس وارشيدس^٢ . هذا عدا تهذيب الترجمات السابقة ، نظير ما قام به ثابت بن قرة من

(١) Hitti, History of the Arabs, p. 358.

(٢) الفهرست ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ؛ ابن أبي أصيبعة ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢٠ .

تهذيب. ترجمة حنين بن اسحق لآثار اقليدس^١. وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لاحد احفاده، وبني كل منهم شهرة لنفسه في ذلك. وقد حمل احد الحلفاء سنان بن ثابت على اعتناق الاسلام^٢، وكذلك اسحق بن حنين فقد حمل على قبول الاسلام ديناً له^٣.

وكان محمد بن جابر بن سنان البتاني (حوالي ٨٥٨ - ٩٢٩) مسلماً آخر من اصل صابئي، وعالماً من مشاهير علماء الرقة. قام بابحاث مبتكرة ادت الى اصلاحات كثيرة في نظام افلاطين، لاسيما في حساب فلك القمر وافلاك بعض الكواكب السيارة الاخرى. وقد جاءت ارساده للخسوف والكسوف رائعة من حيث سعة مداها ومقدار دقتها. ثم اثبت امكان وقوع الكسوف سنوياً وقرر بارقام، ادق بما في الارصاد السابقة، مقدار الانحراف في دائرة الفلك، ومدى طول السنة الاستوائية. وقد عين في احدى نظرياته المبتكرة الاحوال التي يستطاع فيها رؤية الهلال الجديد. واثره النفيس الباقي، وهو «الزيج الصابئي» ترجم لأول مرة الى اللاتينية في اسبانيا وذلك في القرن الثاني عشر^٤.

على انه من المحتمل ان يكون الاراميون والسريان المقيسون في بلاد بابل قد عملوا على نقل آثار رياضية وفلكية اخرى. ذلك ان الجبر مثلاً يظهر لتوه علماء مستكملات في كتاب للرياضي الشهير الخوارزمي (ت ٨٥٠). وقد كان لهذا العلم عند البابليين اسم خاص هو هذا الاسم عينه أي «غبرو». لكن حلقات الاتصال المفترضة بين السريانية والبابلية في هذا الموضوع مفقودة تماماً^٥.

(١) ابن خلكان، ج ١، ص ١٧٧، ٢٩٨.

(٢) الفهرست، ص ٣٠٢؛ ابن ابى اصيعة، ج ١، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، نشر محمد كرد علي، (دمشق، ١٩٤٦) ص ١٩.

(٤) نشره نلليو في ثلاثة مجلدات (روما، ١٨٩٩ - ١٩٠٧). للاستزادة من اخبار البتاني راجع الفهرست، ص ٢٧٩.

(٥) من التماييز العملية المستعارة من اليونانية واللاتينية مباشرة او بطريق السريانية، والتي لا تزال متداولة في اللغة لفظة: فلسفة، وجغرافية، وموسيقى. وهناك الفاظ يونانية ولاتينية اخرى تمزجت في ازمة مختلفة منها: كورة (منطقة) واسكلة (مرناً) ونوتي (ملاح - قابل باللفظ الانكليزي Nautical) وسيف (سيفوس باليونانية). اما الالفاظ الواردة من اصل فارسي فيها: بيتان (حقل) وديدب (حارس) وسراويل (بنطلون) وصولجان (قضيب السلطة).

المآثر السريانية الاصلية

من الواضح ان معظم النتاج السرياني يتألف من الشروح والتجمات . ولذلك كان يعوزه الكثير من صفة الابتكار والخلق . وعلى ذلك لم يتحدر اليه بما يمثل نتاجهم الاصيل الا الشيء القليل . ذلك ان الكهنة السريان المشرقين في النساك والتقشف لم يكونوا في حقل واحد على الاقل مجرد نقلة ومقلدين . ففي هذا الحقل بالذات جرى تفكيرهم في اتجاه مواز للاتجاه الصوفي ، على نحو يثير الاستغراب . وهذا اسحق النينوي الذي زها في اواخر القرن السادس يحض في رسائله واحاديثه على التأمل ، ويذهب الى انه بمثابة نفس ثانية ، وروح ملهم . ثم يقرر ان هذا الروح لا يمكن ان يتولد في العقل . لذلك يوصي اتباعه بان ينشدوا العزلة ، وينصح لكل منهم ان يتصور في ابان تأمله ان ليس في الدنيا من شيء الا هو نفسه والله الذي هو موضوع تأمله^١ . وكان هنالك ناسك سرياني آخر اسمه سمعان الطيبوثة (ت حوالى ٦٨٠) يعلم بان ضرباً واحداً من المعارف على الاقل لا يدرك عن طريق الالفاظ بل بالحدس الباطني ، وان هذا النوع من العلم هو اسمى ضروب المعرفة لانه يوصل الى كنه الاله^٢ وقد اشتهر ابن العبري (١٢٢٦ - ٨٦) - وكان كاهناً يعقوبياً في حلب - بالتأليف في اللاهوت والتاريخ باللغتين السريانية والعربية ، وقد استعنا ببعض مؤلفاته في اعداد هذا الكتاب .

المآثر الاسلامية - ابو تمام

وفي هذا العصر تجلت ارفع مواهب سوربة الاسلامية في ما ظهر فيها من الشعر . فقد برز اثنان من ابناءها هما ابو تمام والبحتري وبلغا من التفوق درجة اهلهما للالتحاق بالبلاط العباسي فصارا من شعراء الخلفاء . ولد حبيب بن اوس^٣ المعروف بابي تمام (حوالى ٨٠٤ - ٨٥٠) في قرية جاسم في حوران . وكان ابوه نصرانياً يتعاطى صناعة العقاقير . اعتنق الاسلام وهو بعد قتي ، والحق نفسه ببني طيء .

(١) للاستزادة من اخبار اسحاق هذا راجع : Assemani, vol. i, p. 444-63

(٢) Margaret Smith, *an Early Mystic of Baghdad*, (London, 1935), P. 101, n.2.

(٣) اوس معروف عن تدوس (ثيودوسيوس ؟) ؛ ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢١٤ ؛ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

ثم انه قام بجولة في العالم الاسلامي، على جاري عادة الادباء في بلاده، فزار مصر حيث اشغل بسقاية الماء، وقصد الى الحجاز، ثم تحول الى ارمينيا ففارس فالعراق، واستقر اخيراً في بغداد. وقد تيسر له الاتصال بالخليفة المعتصم في عاصمته الجديدة سامرا^١، ورافقه في حملته المظفرة على عمورية، ووصف هذه الحملة بقصيدة^٢، هي الى الآن بما يحفظه احداث الطلاب غيباً. وقد عاش كما عاش شعراء عصره، فشرب الحمرة وسمع الغناء وعاشر الغواني، وكان قليل الاحتفال باوامر الدين ونواهي^٣. على ان مكانته الرفيعة لا تقوم على الشعر الذي نظمه فحسب، بل وعلى كتابه المعروف بديوان الحماسة^٤، والمشتمل على روائع الشعر من زمن الجاهلية حتى العصر الذي عاش فيه. ونحن مدينون في وجود هذا المجموع من الشعر العربي الى حادث بسيط في حد ذاته هو ان الشاعر احتبس في بعض اسفاره في همدان، بسبب تراكم الثلوج وانقطاع الطرق، فنزل على وجيه من ادبائها عثر في مكتبته على عدد وافر من مجموعات الشعر الجاهلي وعلى شيء من شعر بعض الاقطار العربية، فكانت يقضي بعض اوقاته في تصفحها^٥. وقد امضى ابو تمام ايامه الاخيرة في الموصل، وفيها دفن.

ابو عبيدة البحتري

اما زميله الاصغر ابو عبيدة الوليد، المشهور بالبحتري (حوالي ٨٣٠ - ٩٧)، فقد ولد في منبج، وينتهي به النسب الى عشيرة مجتر من بني طي^٦. وفي الاخبار ان ابا تمام صادفه في حمص، وسمعه ينشد قصيدة عصماء، فشهد به لاهل المعرة خير شهادة، فتعافدوا معه على مرتب قدره اربعة الاف درهم. وقد اعجب البحتري من جانبه بابي تمام واحتذى مثاله في نظم الشعر. وقاده طموحه الى بغداد ففدا فيها

(١) ديوان ابي تمام، نشر شاهين عطية (بيروت، ١٨٨٩) ص ١٥ - ١٨؛ قابل الصولي، اخبار ابي تمام، نشر خليل عساكر (القاهرة، ١٩٣٧)، ص ١٠٩ - ١١٣.

(٢) السعدي، ج ٢، ص ١٥١.

(٣) التبريزي، شرح ديوان الحماسة، ٣ مجلدات (بولاق، ١٢٩٦)؛ G. G. Freytag, *Hamasa carmina*, 2 vols. (Bonn, 1847-51); Friedrich Rückert, *Hamasa*, 2 vols (Stuttgart, 1846).

(٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٦٨.

(٥) ياقوت، معجم الادباء، ج ٧، ص ٢٢٦.

شاعر المتوكل ومن تولى بعده من الخلفاء، وحظي بصورة خاصة عند المعتز. وكانت البحتري من البخل بحيث يرتدي الملابس القذرة، ويقتر على غلامه وإخيه حتى ليكاد الجوع يقضي عليهما^١. وكان نظير زملائه، يستخدم شاعريته لاستدراة الاموال من ذوي السلطة واصحاب الثروات، مهدداً— في حال الحرمان— بالتحويل الى المهجاء. وفي ديوانه قصائد قالها في بعض الناس مادحاً وهاجياً^٢. وفي ديوانه يتجلى ايضاً حبه للخمرة^٣. وبراعته في وصف القصور والبرك وحيوان الفلاة^٤. وهو مما يندر وجوده في الشعر العربي. وللبحتري غير ديوانه كتاب شعر مجموع هو كتاب الحماسة^٥ لكنه لم يحظَ لدى علماء اللغة بالمنزلة التي كانت لكتاب زميله السابق ابي تمام. ولقد اعتبر نقاد العرب البحتري في ما تلا من العصور، اجد ثلاثة شعراء هم في طليعة الشعراء العباسيين، اما الاثنان الباقيان فهما ابو تمام والمتنبي^٦. «وربما اعتبر اكثر النقاد الاوروبيين البحتري دون المتنبي مكانة»^٧، لكنهم يجعلونه من حيث مواهبه الشعرية فوق ابي تمام بمراحل^٨.

ديك الجن المحصي

ولقد كان دون هذين بمراحل بعيدة شاعر آخر هو عبد السلام بن رغبان (٧٧٧ - ٨٤٩) الملقب بديك الجن لبشاعة سخته وخضرة عينيه. وهو من ابناء حمص، لزم موطنه طول حياته فلم يبرحه. وكان في الراجح من ذرية نصراني اعتنق الاسلام في موقعة مؤته^٩. على ان شاعرنا هذا يتمتع باهمية خاصة لانه عمد في شعره— الذي لم يبقَ منه الا القليل— الى تأييد قضية الشعوب المغلوبة في وجه مفاخر العرب، ودافع عن تفوق السريان— اي السريان المستعربين— ضد العرب.

(١) الاغاني، ج ١٨، ص ١٧٠.

(٢) المجلد الاول؛ (القسطنطينية، ١٣٠٠)، ص ٧٥، ٨٧، ١١٧ - ١١٩.

(٣) المجلد الثاني، ص ١٧٦، ١٨٦.

(٤) المجلد الاول، ص ١٠٨، ١٦، ٥١، ١١١.

(٥) نشره: R. Geyer and D. S. Margoliouth (Leiden, 1909).

(٦) انظر ما سيأتي في الفصل ٤٣ في الفقرة عن المتنبي.

(٧) انظر: D. S. Margoliouth, art. «at-Buhturi» *Encyclopedia of Islam*.

(٨) الاغاني، ج ١٢، ص ١٤٢؛ ابن خلكان، ج ٦، ص ٥٢٥؛ راجع ص ٤ من هذا الجزء.

لذلك كان خليقاً بان يعتبر رائداً لتلك الحركة الفكرية الهامة التي عرفت بالشعبوية^١، لاسيما وقد ارتدت طابعاً سياسياً في فارس وفي سواها من البلدان. ولقد كان ذلك الجن شيعياً معتدلاً، ومع اعتداله اقرب الى التهادود، اذ بذر امواله في الناس الطرب والسعي وراء اللذات. وفي ساعة احتياج من ساعات الفيرة الشديدة عمد الى امراته — وكانت قبلاً امة نصرانية عنده — فسد اليها طعنة قاتلة. لكنه تثبت بعدئذ من براءتها، فكان طيفها لا ينفك يعتاده، فيبرح به الالم، على ما وصف في شعره الذي يتدفق عاطفة^٢.

الامام الاوزاعي

اما في غير الشعر، فقد برز الفقيه والمتشرع عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي^٣. ولد في بعلبك سنة ٧٠٧، وزها في بيروت، وفيها ادركته الوفاة سنة ٧٧٤ وهو في الحمام. ولا يزال مقامه يعلو الرمال المنتشرة الى الجنوب من المدينة. اشتهر الامام الاوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجرأة الادبية^٤! وقد قال عنه احد مؤلني التراجم انه «امام اهل الشام، ولم يكن بالشام اعلم منه^٥». ولقد عارض الاوزاعي الامام مالك وابا حنيفة، واستنكر ما اقراء من تدابير صارمة بحق المشركين، نظير قطع اشجارهم وهدم كنائسهم وتخريب بيوتهم^٦. وعندما قدم المنصور الى سورية سمع الاوزاعي يعظ فاعجب به اعجاباً شديداً. وقد بقي المذهب الفقهي

(١) هي النسبة الى الشعوب والمقصود بها الشعوب غير العربية كما في القرآن سورة الحجرات آية ١٣.

(٢) ابن خلكان، ج ١، ص ٥٢٦ — ٢٧؛ الاغانى، ج ١٢، ص ١٤٣ — ٤٦.

(٣) سمي بذلك اما نسبة الى قبيلة يمنية او الى ضاحية من ضواحي دمشق؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٠٣ — ٤، ابن الاثير، الباب في تهذيب الانساب (القاهرة، ١٣٥٧)، ص ٧٤ — ٧٥؛ الطبري، ج ٣، ص ٢٥١٤؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ٧.

(٤) راجع ما سبق، ص ٣٤ من هذا الجزء، ح ٢.

(٥) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

(٦) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٩٣. وللإستزادة من اخباره راجع: زين الدين الخطيب، محاسن الساعي في مناقب الامام ابى عمرو الاوزاعي، نشر شكيب ارسلان (القاهرة)، ص ٩٤ — ٩٥.

(٧) الطبري، اختلاف الفقهاء، نشر Joseph Schacht (Leyden, 1933) ص ١٢١، ١٤١.

الذي وضعه هذا المشرع شائعاً في سورية نحواً من قرنين ، قبل ان زحزحه عنها المذهب الحنفي والفقهاء الشافعي ؛ وتوثق كذلك في الاندلس والمغرب نحواً من اربعين سنة ، ثم حل محله المذهب المالكي^١.

ومع اننا لا نعلم اليوم الكثير عن مذهب الاوزاعي ، فان الراجح انه لم يتأثر بالقانون الروماني الذي كان قد شاع آنذاك في سورية حيث كان الاوزاعي يعلم ، والذي كان يدرس على نطاق واسع في بيروت^٢ حيث كان الاوزاعي يقيم . فالقانون الجزائي في الاسلام ، والقانون المدني الذي ينص على قضايا الزواج والارث والربا ونحوها ، وارد في الكتاب المنزل . وليس هنالك من مشابهات بين النظامين الا في العقود والمعاملات . ولئن كانت بعض التعابير القانونية في العربية واللاتينية ذات مدلول واحد ، نظير : فقه و « قضاء » ، وقتوى و « راعي » ، واجتماع و « اتفاق » وعادة و « عرف » ، ومصلحة العامة و « صالح الجمهور » . فان ذلك لا ينم بالضرورة عن التوكؤ والاستعانة . وليس هنالك الفاظ مستعارة ، ولا كلمات يونانية ولا تينية معربة ؛ ولسنا نعلم — الى ذلك كله — بان كتاباً من كتب القانون الروماني او البيزنطي سبق ان نقل الى العربية .



(١) صالح ، ص ٢٣ .

(٢) راجع الجزء الاول ص ٣٦٠ وما يتبع .

الفصل الثالث والأربعون

سورية اقليم تابع لبعض الدويلات

الطولونيون

كان قيام الحرس التركي، في عهد خلفاء المأمون (ت ٨٣٣)، اول بادرة من بوادر الانحلال في الحكم العباسي . فقد غدت هذه الجماعة — نظير الانكشارية في التاريخ العثماني — اشد نفوذاً من الخليفة نفسه ؛ واستطاعت ، بين الحين والحين ، ان تحمل الخليفة صاعراً على ما تشاء وتهوى^١ . واخذ نفوذ العباسيين، بعد هذا الزمن ، ينحل شيئاً فشيئاً ، واستمر هذا الانحلال اللهم الا في فترات قليلة قصيرة . وكان ذلك بمثابة انتحار بطيء ، دفعت اليه الخلافة تمهيداً لتقبل « الضربة القاضية » من يد هولاء وجماعته من عشائر المغول (١٢٥٨) . وفيما كانت الخلافة العباسية تزداد تفسخاً ، كانت بعض السلالات المتنفذة الصغرى ، وجلها من اصل عربي ، تقطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة العربية ، وبعضها الآخر — وجلها من الترك والفرس — تفعل مثل ذلك في المناطق الشرقية .

وكانت اولى الدويلات الناشئة المتصلة بسورية، دولة قصيرة العمر هي الدولة الطولونية (٨٦٨ — ٩٠٥) ، اسسها احمد بن طولون (٨٦٨ — ٨٨٤) ، وكان ابوه مولى تركياً أرسل من بخارى هدية الى الخليفة المأمون^٢ . بدأ احمد حياته السياسية ، عندما وجهه زوج امه الى مصر ، على اثر تعيينه اميراً اقطاعياً وحاكماً عليها ؛ وذلك لينوب عنه ريثما يتوجه هو اليها . لكن الشاب الطموح ، ما كاد يبلغها حتى بدأ يضع الخطط ، مستغلاً تراخي المسافة الفاصلة بينه وبين الحكومة المركزية ، ليتصرف بصرفاً مستقلاً^٣ . وقد زاد عدد جنوده بناء على ترخيص من الخليفة حتى

(١) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٦٧٠ ؛ ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ ؛ ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٦١٥ وما يبد ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٦٩٧ .

بلغ ، في ما روي ، مئة ألف مقاتل ؛ وسار برجاله الى سورية ليخضع ثائراً كان قد ظهر فيها - وكثيراً ما كانت سورية بلد الثائرين على الحكم العباسي .

واناحت هذه السانحة لابن طولون فرصة الدخول الى هذا البلد المجاور . وما ان توفي حاكم سورية سنة ٨٧٧ ، حتى بدا ان الوقت مؤاتٍ لاحتلالها احتلالاً تاماً . فعبر الجيش المصري الرملة في الجنوب الى دمشق ، وتوجه من ثم الى حمص فحماة ، حتى بلغ حلب بدون مقاومة . لكن انطاكية وحدها اقلت ابوابها في وجهه ، ففتحها عنوة بعد حصار قصير^١ . وفي سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩/٨٨٠م) اقام ابن طولون نفسه حاكماً على البلدين ؛ وفي سنة ٨٧٥ وقع حادث كان بمثابة امتحان لقيمة الاستقلال العملية ؛ ذلك ان الخليفة المعتمد وجد نفسه في حاجة ماسة الى النقود ، فارسل الى ابن طولون في طلب المال ، لكن واليه على مصر امتنع عن تلبية هذا الطلب .

وكان هذا الحادث نقطة تحول في تاريخ مصر ؛ اذ دخلت من ثم ، ومنذ ذلك الحين ، في طور جديد من حياتها السياسية غدت بحكمه دولة مستقلة . وقد حافظت على هذا الوضع في غضون القرون التالية الا لفترة واحدة ؛ وكانت سورية في اثناء هذا العهد الطويل تابعة لمصر ، كما كان شأنها في زمن الفراعنة . وهكذا عادت الصلات التي كانت قد انقطعت ، قبل ذلك بنحو من ألف عام ، الى سابق عهدها الوثيق . على ان هذا التحول كان في مصلحة بلاد النيل ، فكان اقل ما انتفعت أن موارد البلاد كانت تنفق برمتها في مصر ، في حين لم يحظ الاقليم السوري التابع بشيء من الاصلاح .

كان احمد بن طولون مثال الحاكم العسكري المستبد ؛ قبض على ازمة الامور بيد من حديد ، وبني جهازاً عسكرياً قوياً كان عليه اعتماده في صيانة سلطانه . وكانت نواة هذا الجهاز فرقة من الحرس تشتمل على ٢٤ ألف تركي ، و ٤٠ ألف زنجي ، اخذ على كل منهم بمفرده عهد الولاء . ثم انه عمد الى وضع منهج من المشاريع العمرانية العامة لم يسبق له مثيل منذ عهد الفراعنة . وكأنا اراد بذلك ان يبرر اغتصابه للحكم في عيون رعاياه ؛ فانشأ في عاصمته القسطة ، لاسيا في حيفا

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ ؛ الكندي ، نشر غوست Guest ، ص ٢١٩ وما بعد .

الجديد المعروف بالقطائع^١، مباني فخمة، بينها مستشني ومسجد. اما المستشني^٢ فقد انفق على بنائه ٦٠ ألف دينار، وكان الوحيد من نوعه في مصر، وعين موارد الممتلكات الخاصة في سورية لتغطية نفقاته الجارية. واما المسجد، الذي لا يزال يعرف باسمه، فيعد من افخم المباني التذكارية في مصر الاسلامية. وقد انفق على بنائه ضمني ما انفق على المستشني^٣، وراعى في بعض تفاصيله الهندسية الطراز السامرائي حيث قضى ابن طولون فترة صباه. وجدير بالذكر ان مثذنة هذا المسجد هي اقدم المآذن التي لا تزال قائمة في مصر. على ان ادخال الطراز العراقي في البناء لم يُنح عن مصر الطراز السوري اليوناني السابق، ولا قدر له ان ينتشر فيها انتشاراً واسعاً. وعلى ذلك فمسجد ابن طولون هو المثال الوحيد الباقي مما يمثل ذلك الطراز.

اما على الشاطئ السوري، فقد حصّن ابن طولون مدينة عكا، وانشأ فيها قاعدة بحرية. وكان البرج الذي يعاها سورها المزدوج من القوة بحيث صمد، بعد ذلك بثلاثة قرون، في وجه ملكين من ملوك الصليبيين، مدة سنتين؛ وشهد بمناعتها صمودها سنة ١٧٩٩ لمذقية نابوليون البرية^٤. وقد روى العالم الجغرافي السوري (المقدسي^٥) ان جده استدعي شخصياً من القدس، ليقوم بالعمل الذي طالما قام به وهو بناء مرفأ في الماء. فحقق ذلك بان ضمّ جذوعاً من الحشب الضخم بعضها الى بعض، وحملها بالصخور الثقيلة؛ ثم جعل في الوسط باباً دلىّ منه سلاسل طويلة، فكان بإمكان السفن الداخلة ليلاً ان تجذبها فتشير بذلك الى وصولها.

خارويه

وتولى الحكم، بعد ابن طولون، ابنه المسرف الفاسد خارويه (٨٨٤ - ٩٥)، وهو بعد في العشرين من عمره؛ وكان واحداً من ثلاثة وثلاثين ولداً لآبيه، بينهم

-
- (١) المقرئ، ج ١، ص ٣١٣ وما يتبع.
 - (٢) الاسم العربي له: بيارستان؛ انظر في الفصل السابع والاربعين الفقرة الخاصة بالاستشفيات والهامش الاول؛ ابن تقي بري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول، ج ٢، (لیدن، ١٨٥٥)، ص ١١؛ الكندي، ص ٢١٦.
 - (٣) ابن تقي بري، ج ٢، ص ٨؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٩٧.
 - (٤) انظر في الفصل التاسع والاربعين في فقرة عن احمد باشا الجزائر.
 - (٥) ص ١٦٢ - ٦٣؛ كما في ياقوت، ج ٣، ص ٧٠٧ - ٨.

سبعة وعشرون من الذكور^١. وقد بنى قصرأ جعل فيه قاعدة مذهبة الجدران ، زينها بصور ناتئة تمثله وتمثل نساءه وقيانه^٢. اما حديقة القصر ، فكانت حافلة بالاشجار المستوردة المغروسة حول احواض الماء المذهبة ، محفوفة بالرياحين النابتة في خطوط تشكل الفاظاً عربية . وقد اشتمل القصر — الى ذلك — على مأوى للطيور ، وحديقة للحيوانات ، وحوض من زئبق . وكان يطفو على سطح هذا الحوض وسائد من الجلد ، تدلت منها حبال من الحرير ، ربطت الى اعمدة من الفضة : فكان الامير اذ يستلقي عليها ، تهتز به ، حتى يغلبه النعاس فينام^٣.

وقد امتد سلطان الطولونيين في عهد خمارويه من برقة الى الفرات ، بل الى ابعد من ذلك — الى دجلة . وافر المعتمد ، لدى اعتلائه سدة الخلافة سنة ٨٩٢ — وهو اقوى خلفاء فترة الانحلال وامضاهم عزية — الوضع القائم . وثبت سلطة الحاكم وورثائه على هذه الممتلكات الواسعة لمدة ثلاثين سنة ؛ وذلك في مقابل جعالة سنوية مقدارها ثلاث مئة الف دينار . بل ان الخليفة خطب الى خمارويه ابنته الجميلة قطر الندى ؛ وعندما زفت اليه ، اغدق عليها والدها مهرأ بلغ ، في ما روي ، مليون درهم ؛ واهداها الف هاون من الذهب ، وتحفاً اخرى « وجهزها بجهاز لم يعمل مثله » .

على ان تبذير خمارويه ترك الحزينة فارغة . وقد بلغ من الاسراف في معاشره الغلمان — على ما في بعض الاخبار^٤ — مبلغاً اثار عليه عبيده ، فانقضوا عليه ذات ليلة وهو في دارة له خارج دمشق وقتلوه . ونقل جثثانه الى مصر ليدفن فيها ، وفيما كان يوارى في التراب ، كان سبعة من القراء يقرأون على قبر والده المجاور . فاذا بهم يرتلون اتفاقاً : « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم »^٥ . اما ابنه وخلقه « جيش » ،

(١) ابن تقي بريدي ، ج ٢ ، ص ٢١ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٢) ابن تقي بريدي ، ج ٢ ، ص ٥٧ — ٥٨ ؛ المقرئ ، ج ١ ، ص ٣١٦ — ١٧ .

(٣) ابن تقي بريدي ، ج ٢ ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛ المقرئ ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

(٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٣١٠ ؛ قابل ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ — ٨ ؛ الطبري ، ج ٣ ، ص ٢١٤٥ — ٤٦ ؛ ابن تقي بريدي ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٥) ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

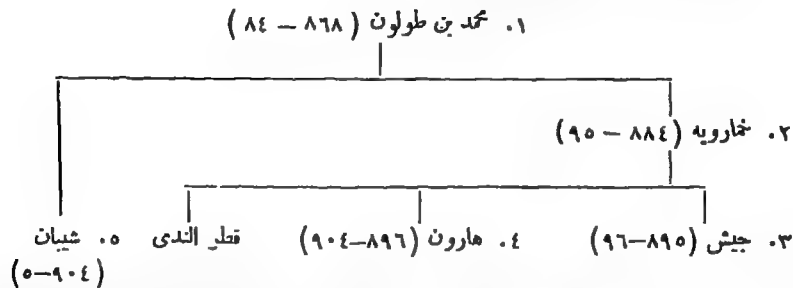
(٦) سورة الدخان . الآية ٤٧ .

فما مضى على ولايته سبعة اشهر ، حتى قتله جماعة من جنده ، كاث سرحم بداعي الضائقة المالية^١ .

القرامطة

كان عهد هارون (٨٩٦ - ٩٠٤) اخي جيش عمداً مضطرباً ، وبغهور القرامطة غدا اشد اضطراباً . والقرامطة من الشيعة المتطرفة ، تصلهم صلة النسب بالاسماعيلية والفاطميين . وهذا الاسم تحدر اليهم من فلاح عراقي اسمه حمدان قرمط^٢ . اما نظامهم فهو في اساسه نظام جمعية سرية ذات مبادى اشتراكي . ولم يكن الانضمام الى جماعتهم جائزاً الا بشروط معينة ، وبعد اجراء مراسيم خاصة . فحوالي سنة ٨٩٠ احتل زعيمهم حمدان قاعدته الجديدة قرب الكوفة . وبعد مضي تسع سنوات صار اقباعه اسياد دولة مستقلة ، قائمة على الضفة الغربية من الخليج الفارسي . ومن هذين المركزين نشر القرامطة الحراب في كل صوب . ولقد كانت سورية الاسلامية ، طيلة العهد الاموي ، على مذهب اهل السنة ؛ لكن الضغط الذي تميزت به سياسة العباسيين افسح المجال امام تعاليم العلويين ، وهذه بدورها اعدت الشعب ، في هذه الآونة ، لتقبل آراء القرامطة . وكما حاول الناس ، في سورية البيزنطية ، ان يثبتوا قوميتهم باعتناق التعاليم المسيحية التي اعتبرتها السلطة البيزنطية من قبيل الهرطقة ، هكذا اظهر هؤلاء الآن كل استعداد لقبول المبادئ الشيعية المتطرفة المعادية للعباسيين . وكان قائد القرامطة في زحفهم على سورية ابن زكرويه^٣ . وقد هزم الحامية الطولونية ، وحاصر دمشق (٩٠١) ؛ ثم احتل حمص ،

(١) شكل شجري للسلالة الطولونية :



(٢) راجع : Bernard Lewis, *The Origins of Ismā'ilism* (Cambridge, 1940), pp. 19-22 والراجع ان لفظة «قرمط» سريانية معناها : المعلم السري .

(٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٢٢١ - ٢٢٢ .

وقضى على عدد كبير من اهالي حماة ، ومعرة النعمان ، وكاد يبيد سكان بعلبك . لكن سلمية القت السلاح ، وهي التي غدت ، في ما بعد ، مركزاً للحشاشين من الاسماعيلية . وقد دعي له في صلاة الجمعة من على عدد من منابر المساجد السودية ، كما لو كان المهدي المنتظر .

وفي سنة ٩٠٢ ارسل الخليفة لقتال القرامطة قائداً باسلاً تمكن من قهرهم . وبعد ان اخذ عهد الولاة على حكامها الاقطاعيين سار نحو مصر فاتحاً . وفي هذه الاثناء قتل هارون اغتيالاً ، فولي الحكم بعده عمه شيبان (٩٠٤ - ٩٠٥)^١ . وفي سنة ٩٠٤ بلغ القائد العباسي عاصمة الطولونيين (القطائع) وهدمها الى الارض ، وضرب اعناق عشرين من الطولونيين ، وحمل سائر رجالهم ، مكبلين بالقيود ، الى عاصمة الخلافة . وفي العام الثاني ، عمد آخر سفياني معروف الى رفع العلم الابيض في سورية ، ولكنه امر بدوره وسبق الى بغداد^٢ . وهكذا ، فان القوم الذين نوهوا سابقاً بانهم لا يقرون بالسلطة الا لبني امية^٣ ، قد تخاذلوا الآن وغنوا للسلطة غريبة .

الاخشيدون

كان القائد الذي دفع القرامطة عن دمشق باسم الطولونيين رجلاً تركياً من فرغانة اسمه طنج^٤ . وقد حاول ابنه محمد ان يجعل من نفسه وريثاً للطولونيين . فاقام نفسه ، بعد عهد قصير من الحكم العباسي الحافل بالمحاذير في مصر وسورية . حاكماً على مصر^٥ ، وذلك سنة ٩٣٥ . وكانت قاعدته مدينة الفسطاط ، وبعد اربع سنوات ، استجاب الخليفة الراضي الى رغبته ومنحه اللقب التقليدي لامراء ايران ، وهو « الاخشيد » . فارتفع به فوق اقاربه . وفي القرن التاسع عشر . منح احد سلاطين بني عثمان ، واليه على مصر ، لقباً فازسباً بمائلاً هو « الخديوي » . وجرى الاخشيد على الخطط التي رسمها الطولونيون من قبل . فرمق جارة مصر الشمالية بعين

(١) الكندي ، ص ٢٤٧ - ٤٨ .

(٢) الطبري ، ج ٣ ، ص ٢٢٧٧ .

(٣) المقدسي ، ص ٢٩٣ - ٩٤ .

(٤) ابن سبيد ، المغرب في حلل المغرب ، نشر Tallqvist (ليند ، ١٨٩٩) ، ص ٥ .

(٥) مسكويه ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، ٣٦٦ هـ ؛ ابن تقي بردي ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

طامعة ، وكان معظمها قد وقع في يد مغتصب مغامر هو ابن رائق^١ ؛ لكن الوفاة ادركت ابن رائق سنة ٩٤١ ، فاقر الخليفة للامراء البويهيين بالسلطة على بغداد . وللأشيد على سورية ومصر ومكة والمدينة^٢ . ومضت بعد ذلك قرون عديدة ، ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر . وفي سنة ٩٤٤ استحصل الأشيد من الخلافة لاسرته على حقوق وراثية في البلاد التي استولى عليها .

الحاكم الزنجي

ولم يكد الأشيد يستقر في كرسي الحكم ، حتى اخذت ذم الحمدانيين في شمالي سورية يتحدى سلطانه ، على يد ناشئهم النابه سيف الدولة ، في مدينة حلب . اما المعارك الكبرى فقد جرت في عهد ابني الأشيد : انوجور^٣ الذي ولد في دمشق حيث توفي والده ، وسيف الذي تولى بعد اخيه سنة ٩٤٦ ، تحت وصاية عبد خصي^٤ اسمه ابو المسك كافور . وكان سيف الدولة قد قام بمحاولات عديدة للاستيلاء على سائر سورية ، لكن حاكم مصر الداهية افسد خطته ، وهزم جيوشه في اشتباكين كبيرين ، واجبره على الخضوع لسيادة مصر العليا . وظل كافور قابضاً على زمام الحكم في غضون ولاية ابي الحسن علي (٩٦٠ - ٩٦٦)^٥ اخي انوجور . وقد دفن علي

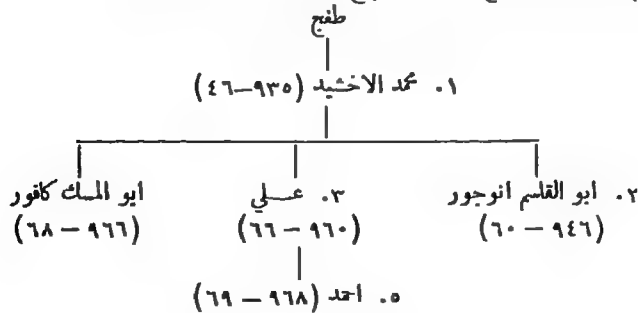
(١) راجع بشأن وفاته الأشيد مع ابن رائق المؤرخ المعاصر الكندي ، ص ٢٨٨ - ٢٩١ ؛ وكذلك مسكويه ، ج ١ ، ص ٤١٤ ؛ ابن سعيد ، ص ٣٧ وما بعد ؛ وابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٢٧٢ .

(٢) قابل : سيدة كاشف ، في عمر الأشيديين ، (القاهرة ، ١٩٥٠) ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) أيضاً أنجور ، وأنجور ؛ قابل : ابن سعيد ، ص ٤٥ ؛ ابن تقري بردي ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ؛ الكندي ، ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣١٤ ؛ ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٣٤٣ ؛ مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ؛ انظر أيضاً F. Wüstenfeld, *Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen*, pt. iv (Göttingen, 1876), p. 37.

(٤) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٥) رسم شجري لبني طنج ، والخط المتقطع يشير الى صلة العبد بالسيد :



هذا في القدس ، حيث دفن ابوه واخوه من قبله . واستمر العبد في الحكم سنتين بعد ذلك ، وهو منفرد بالسلطة على ولاية ضمت - فضلاً عن مصر وسورية - جانباً من كيليكيّا ، وفيها كبرى مدينتها طرسوس^١ . وكافور هذا ، عبد نجشّي في الاصل ، اعلم مشقوق الشفة ؛ اشتراه الاخشيّد من بائع زيت بثمانية عشر ديناراً . فكان المثل الاول في تاريخ الاسلام لسلاطين ارتفعوا الى اوج الشهرة من اوضاع الاصول . وقد أعتق ، على ما في الرواية ، لان انتباهه كان دائماً موجهاً نحو سيده ، في حين كان اهتمامه من العبيد والخدم منصرفاً الى القليل او الزرافة ، مما اهدي الى اسيادهم . اما العبد هذا ، فلم يدع لحظة تمر دون ان ينتهزها فرصة لخدمة سيده ، وقد كوفي على رعايته هذه مكافأة جزيلة^٢ .

ولقد خلد اسم كافور ، واسم خصمه سيف الدولة ، اعظم شعراء ذلك العصر - المتنيء - بشعر لا يزال طلاب المدارس في العالم العربي ، الى اليوم ، يحفظونه غيباً . وكان الشاعر قد بدأ بنظم المدايح في عاهل مصر^٣ . لانه كان يطمح ان ينال ولاية منه ولكن العبد خيب امل الشاعر فانقلب هذا عليه وصارت اشعاره فيه هجاء .

نهاية الاخشيديين

تولى الحكم بعد كافور احمد ابو الفوارس (٩٦٨ - ٩٦٩) ، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره ، عاجز عن مواجهة مشاكل العصر . ذلك ان الحمدانيين كانوا يهددونه من الشمال ، والقرامطة المتحفزون من الشرق ، والفاطيون^٤ - وهم اشد خطراً - من الغرب . وكان الخليفة الفاطمي ، الذي ظهر في تونس سنة ٩٠٩ لسنوات عديدة ، على صلة سرية بالعلويين وسواهم من المواليين في مصر ؛ وكان زمن العمل قد ازف . ففي سنة ٩٦٩ قام القائد جوهر بمحملة كاسحة ، مكنته من اباد

(١) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١٨٥ - ٨٩ ؛ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٣١٤ - ١٥ ؛ ابن تغري بردي ، ج ٢ ، ص ٣٧٣ .

(٢) ابن سعيد ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٣) انظر ما يتبع في هذا الفصل في فقرة عن المتنيء .

(٤) انظر ما يتبع في الفصل التالي في فقرة عن قيام الخلافة الفاطمية .

الجيش الاخشيدي. واحتلال مدينة القسطنطين (٦ تموز)، دون كبير عناء. وعلى الاثر، دعي للخليفة المعز في الصلاة العامة، وضربت النقود الجديدة باسمه. وقد حاول والي الاخشيد في دمشق، وهو ابن عم لابي الفوارس، القيام بمحاولة ضئيلة لانقاذ سورية، لكن جوهرأ بعث اليه بقائد هزم جيوشه في الرملة واقناده اسيراً. وعلى هذا النحو التحقت فلسطين وسورية الوسطى بالامبراطورية الفاطمية الناشئة^١.

كانت السلالة الاخشيدية (٩٣٥-٦٩٠)، نظير سابقتها الطولونية (٨٦٨-٩٠٥)، ذات حياة قصيرة. وقد كانت متهج حياتها واحداً - ذلك المنهج الذي وسم بسمته عدداً من الولايات الاخرى التي انسلخت في العهد المتفسخ عن السلطة المركزية. فقد عمدت كلتاها الى تبذير المال الوارد من الولايات لاسترضاء الرعايا، فكان بذلك خراب الحزينة؛ وكل منهما لم تقم الحكم في الامصار التي استتبعتهما على اساس قومي؛ ولا استطاعت ان تعتمد، في ما بين رعاياها، على جماعة متجانسة متمسكة من ابنائها المواليين. ولما كان هؤلاء الحكم دخلاء، فقد كان عليهم ان يتغذوا حرسهم الخاص - وهم في الوقت نفسه جنودهم - من مصادر غريبة. ومثل هذا الحكم لا يمكن صيانتة الا بان تستمر اليد التي امتشقت السيف قوية ماضية.

الحمدانيون - سيف الدولة

ان الحمدانيين، الذين حكموا شمالي سورية بعد الاخشيديين، يعودون بصله النسب الى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب، التي كانت قبلاً على النصرانية؛ ومنها ظهر الشاعر الاموي الشهير: الاخطل^٢. كان اول ظهور حمدان على مسرح الحرب والسياسة في اواخر القرن التاسع، عندما استولى على قلعة ماردين^٣. واستطاع اعقابها بعد كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء، ان يبسطوا سلطانهم على الموصل، وجانب كبير من العراق وشمالي سورية. وكان ابرزهم ابو العلي حسن، الذي استطاع في سنة ٩٤٤، ان ينتزع من عامل الاخشيد مدينة حلب وانطاكية وحمص^٤، وان يحصل

(١) الكندي، ص ٢٩٧ - ٩٨.

(٢) راجع ص ٤٠ و ١٠٨-١٠٩ من هذا الجزء.

(٣) الطبري، ج ٣، ص ٢١٤١.

(٤) ابن سعيد، ص ٤١.

من الخليفة على القبط المشرف : سيف الدولة (يعني الدولة العباسية ٩٤٤ - ٦٧) . وكان غرض الخليفة من الانعام بمثل هذه الالقاب الطنانة ، ان يوهم الناس بان المنعم عليه - وهو بالفعل مستقل - انما هو مؤتمر بامرهم . وقد كانت سيف الدولة ، ومن تولى الامارة من بعده ، من الشيعة المتساهلين ، فاستمروا - من ثم - في الدعاء باسم الخليفة العباسي في صلاة الجمعة . وقد اختار سيف الدولة مدينة حلب^١ عاصمة له ؛ اما سبب اختياره لها فربما كان وجود القلعة القديمة فيها ، وقربها من الحصون القائمة على الحدود ؛ اذ كان ينوي ان يدفع عنها تلك الغارات التي اخذ الروم يشنونها عليها . ولاول مرة ، بعد عهد الاموريين^٢ ، غدت المدينة الشمالية قاعدة لحكومة ذات خطر . وقد انشأ الحاكم الجديد في هذه المدينة قصراً فخماً ، جعل فيه ثلاث حمامات فيها مياه جارية ، واطلق حوله جدولاً من الماء ، واقام الى جانبه حديقة غناء ، ومضماراً لسباق الخيول^٣ .

شملت سلطة سيف الدولة شمالي سورية ، وجانباً من كيليكيا ، وجزءاً كبيراً من شمالي العراق . وانتزع مركزاً امامياً في ارمينيا بمساعدة اخواله الاكراد^٤ . وقد اتخذ احدى بنات الاخشيد زوجة له ، على امل ان لا يُنازع في ملكه . وحاول فتح دمشق ففشل^٥ ؛ ولما كانت دولته قائمة على الحدود فقد استنفدت حمايتها من حملات البيزنطيين جل وقته ومعظم جهده . وكان سيف الدولة اول قائد جدد الكفاح ، بعد فترة طويلة من السكون ، في وجه خصوم المسلمين من نصارى الاعاجم . وهذا النزاع الحمدا في البيزنطي جدير بان يعتبر فصلاً سابقاً لتاريخ الصليبيين .

وكان للامير الحمدا في من حيث هو بطل محارب نذراً مقابل في شخص الامبراطور نقفور^٦ . سجل لها المؤرخون عشرة اشتباكات لم يكن النصر فيها جميعها حليفاً

(١) حلب معروفة ايضاً بالشهباء وديماً لبياني حجرها .

(٢) راجع ص ٧٤ من الجزء الاول .

(٣) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ حلب (بيروت ، ١٩٠٩) ، ص ٦٠ - ٦١ ، ١٣٣ .

(٤) مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

(٥) ابن سعيد ، ص ٤٢ .

(٦) هو : Nicephorus II Phocas (963-9)

لسيف الدولة . ففي سنة ٩٦٢ دارت الدائرة عليه ، وخرجت حتى عاصمته من يده ، ولو الى حين ، وذلك بعد حصار قصير المدى ، هُدم في اثنائه قصره الفخم الذي كان رمزاً لمجده^١ . وكان لهذا الحادث اسوأ الوقع في بغداد ، حيث قام الشعب بمظاهرة طلب فيها من الخليفة ان يقود بنفسه حملة انقاذ سريعة . لكن المظاهرة لم تسفر عن اكثر من دموع ذرفتها عينا الخليفة^٢ . ثم كانت وفاة سيف الدولة سنة ٩٦٧^٣ ، وما تلاها من فتن داخلية ، فمكن ذلك نقفور وخلفاءه من ان يتقدموا بجيوشهم ، ويحتلوا جانباً كبيراً من شمالي سورية . وان يفرضوا سلطة بيزنطية موقته على ملك الحمدانيين . وفي سنة ٩٦٨ استولى نقفور ثانية على حلب ، وضم اليها انطاكية وحمص ، والمدن الواقعة بينهما ؛ واستطاع خلفه ابن الشُّشْتِيق (يوحنا زميسيس^٤) ، بعد ذلك بست سنوات ، ان يخضع المدن الساحلية : بيروت وجبيل وعرقه وطرطوس وجبلة واللاذقية ، وبعض المدن الداخلية نظير : صهيون وبعبك . وبقيت انطاكية في يد البيزنطيين ما يزيد على مئة عام (٩٦٨ - ١٠٨٤) .

ولم يسترجع الحمدانيون مدينة حلب حتى سنة ٩٧٥ ، وامتنعت عليهم قلعتهما عامين آخرين . فقد شغل سعد الدولة بن سيف الدولة بمحاربة منافس له في حمص ، هو احد انسابه ، قبل ان تسلم له الولاية . وفي الوقت نفسه عمد عامله على حلب الى خيانتة ، فوقع اتفاقاً مع البيزنطيين تعهد بموجبه ان يدفع لهم جعالة ، الا ان سعد الدولة ابى ذلك . وفي سنة ٩٨٥ حاصر سعد الدولة قلعة سمعان^٥ ، وهي آنذاك في ايدي البيزنطيين ، وانتهبها وقتل بزهبتها او باعهم في اسواق العبيد . وفي عهد سعيد

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ، ص ٤٠١ - ٢ ؛ مسكويه ، ج ٢ ، ص ١٩٢ - ٩٤ .

(٢) مسكويه ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، هـ .

(٣) لقارى ان يراجع مجموعة النصوص العربية المتعلقة بسيف الدولة في - Marius Canard, *Histoire de la dynastie des Hamdanides*, vol. i. (Paris, 1950), pp. 595 seq; والنص العربي في «سيف الدولة» الجزائر، ١٩٣٤ .

(٤) ابن القلانسي ، ص ١٢ - ١٤ .

(٥) راجع ص ٤٠٤ من الجزء الاول من هذا الكتاب .

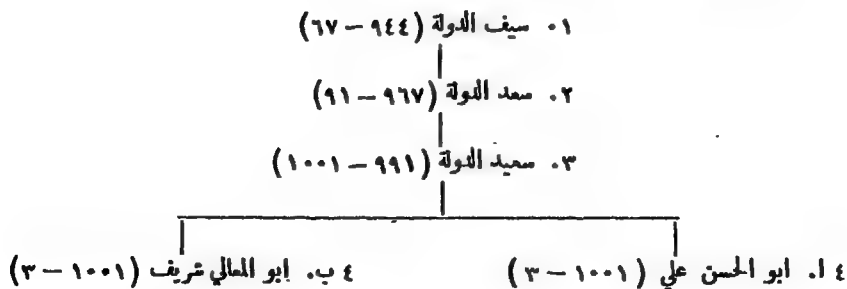
الدولة (٩٩١ - ١٠٠١) ^١ . الذي تولى بعد ابيه سعد ، بدا في الاتق الجنوبي عدو جديد هو الجيش الفاطمي . واذ شعر الامير الممداني بجراجة الموقف ، ارسل الى الامبراطور باسيل يلتمس نجدة ، فبعث اليه على جناح السرعة بـ ١٧ الف مقاتل . فارتد العدو المدام ، وتربص زمناً ؛ لكن سعيداً اضطر بعد حين الى التسليم بسيادة الفاطميين . وكان سعيد هذا صغير السن ، فعهد وصيه الى تربيته من ابنته ، واستأثر بالامر دونه . ثم دس له ولزوجته السم وتخلص منهما . واستمر سنتين بعد ذلك وهو يحكم البلاد باسم الخليفة الفاطمي وصياً على ابني سعيد : علي وشريف (١٠٠١ - ٣) . وفي سنة ١٠٠٣ ارسل بالاميرين الصغيرين ، مع سائر نساء الممدانيين ، الى القاهرة ؛ وعين ابنه الخاص مساعداً له في الحكم . وكان هذا المشهد هو الاخير في حياة السلالة الممدانية ، وهي السلالة العربية الثانية والاخيرة ، التي قامت في البلاد السورية .

الحلقة الزاهية في بلاط سيف الدولة

ان دورة الحياة التي عاشتها السلالة الممدانية لم تختلف ، في جوهرها ، عن دورة حياة السلالتين السابقتين : الاخشيديّة والطولونيّة — قائد طموح يستأثر بمقاطعة يحكمها حكماً مباشراً ؛ يخلفه حاكم ضعيف يبذر اموال الدولة ؛ ثم خلاف في الداخل ، وعدوات من الخارج ، يكون بها ختام الحكاية . اما في ما يتعلق بالممدانيين ، فان رعاية سيف الدولة للعلوم والفنون كانت من اهم الدواعي لاستنزاف مال الخزينة .

احاط سيف الدولة نفسه ، في قصره الفخم ، بحلقة من ارباب الادب والفن ، تكاد لا تباريها الا حلقات خلفاء بغداد في ايام عزهم : فقد ضمت الفيلسوف الشهير

(١) رسم شجري لسلالة الممدانيين :



والموسيقى البارع ابا نصر الفارابي ، ومؤرخ الادب العربي اللامع ابا الفرج الاصبهاني . والواعظ البليغ ابن نباته (ت ٩٨٤) ، والعالم اللغوي ابن خالويه ، والنهوي الشهير ابن جني (ت ١٠٠٢) ، والشاعر الفارس ابا فراس ؛ وفوق هؤلاء جميعاً الشاعر المداح الاشهر ابا الطيب المتنبّي ؛ قال صاحب بيتية الدهر :

وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وبواسطة قلاذتهم ، وكان - رضي الله عنه وارضاه ، وجعل الجنة مأواه - غرة الزمان ودعامة الاسلام ، وبه سدّد الثغور وسدّد الامور... ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك ، بعد الحلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لديها . وكان اديباً شاعراً محباً لجيد الشعر^٣ ... !

ابو الطيب المتنبّي

وابو الطيب هذا هو احمد بن الحسين ؛ لقب بالمتنبّي (٩١٥ - ٦٥) ؛ لانه ادعى النبوة في مطلع شبابه ، وحاول تقليد القرآن ؛ فاتبعه جماعة ممن سحرهم ببيانه في اللاذقية وفي بادية الشام . لكن عامل الاخشيذ في حمص اعتقله واودعه السجن ، حيث بقي نحواً من عامين . ثم خرج وقد شفي من وهم النبوة . ولكنه لم يبرأ من داء الكبرياء والفطوسة والاعجاب بالنفس ، ذلك الداء الذي رافقه مدى حياته . قال يصف اديه :

انا الذي نظر الاعمى الى اديني واسمعت كلماتي من به صمم
انام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصموا
الحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم!^٤

(طبعت خطبه عدة مرات في القاهرة وفي بيروت .

(٢) هو ابن عبد تركي اشتهر بشرحه لشعر المتنبّي .

(٣) التالي ، بيتية الدهر في شعراء اهل العصر ، (دمشق ، ١٣٠٣) ج ١ ، ص ٨ - ٩ .

(٤) اقيم له المهرجان الالفى في سورية ١٩٣٩ (١٣٥٤ هـ) ؛ انظر ؛ *Recueil* ; Al Mutanabbi ; *Publié à l'occasion de son millénaire* (Beirut, 1936): Cf. Blachère, *Un poète arabe: Abou-t-Taggib al-Motanabbi* (Paris, 1935), pp. 69 seq.

(٥) الواحدى ، شرح ديوان المتنبّي ، نشر ديتريشي (برلين ، ١٨٦٦) ، ص ٨٣ - ٨٤ .

ان الرجل الذي امتدح نفسه ، واشاد بفضائله في هذه الابيات المشرفة ، قد نشأ من اصل وضع . ولد في الكوفة ؛ وكان ابوه سقاءً ، انتقل بأسرته الى سورية وشاعرا بعد قتي . وبعد ان امضى زمناً ، وهو يلتمس اميراً يخلص نفسه به ويعمل في رعايته ، استقر في حلب ووقف شعره على سيف الدولة ؛ فاقترن اسمها منذ ذلك الحين اقتراناً وثيقاً . وقد اشترط الشاعر المتطرس على الامير ان ينشده الشعر وهو جالس ، وان لا ينحني ويقبل الارض بين يديه . وكان في اثناء التحاقه بكافور يأتي ان يلجع خذاه لدى المثول في حضرته ، او ان يتزع سيفه من وسطه . وكان يواكب في تنقلاته اثنان من عبيده بالسلاح الكامل . اما السبب الذي حمله على مغادرة بلاط سيف الدولة ، واينار بلاط كافور ، فهو — على ما ورد — ان جدلاً نشب بين المتنبى وابن خالويه استاذ سيف الدولة ، عمد ابن خالويه على اثره الى مفتاح رسي به المتنبى فاصابه في وجهه . وعندما يتيسر المتنبى من سيده كافور ، خرج من مصر خفية ، وتوجه الى بغداد ففارس . وفي ما كان عائداً الى الشام ، تصدى له جماعة من الغزاة البدو ، وقتلوه هو وغلामه ، وفروا بنسخته الخاصة من ديوان شعره^٢.

ومن اروع القصائد في هذا الديوان تلك التي سجل فيها ايجاد سيف الدولة في حروبه مع الروم . وربما كانت هذه القصائد — لا واقع المآتي — هي التي جعلت من سيف الدولة ذلك البطل الاسطوري الذي تحدثت عنه اخبار العرب ، وهي تشهد بان صاحبها ابلغ شاعر انجبته العربية ؛ وزاد في قيمة هذه القصائد ما زدانت به من روائع الحكم . اما حياة الشاعر الخاصة فقد كانت رزينة ، بخلاف المعروف عن افراد هذه الطبقة في عهده . وقد اتسم اسلوبه احياناً بالغلو ، وحفل بالمحسنات البديعية ، وزخر بالزخارف اللفظية وفنون المجاز . عسى ان ذلك لم يكن غير مستساغ بالنسبة الى القارئ الشرقي . هذا ما كان لشاعرنا من سلطان على خيال ابناء الضاد ، فكان ذلك داعياً لبقائه ، حتى الآن ، اعظم شعراء الاسلام في نظرهم . وبه وبزميليه السابقين : ابي تمام والبحتري ، باغ الشعر العربي اتم نصبه ، ان لم نقل اسمى اوجه ؛ واخذ من بعد ذلك في طريق الانحدار ، الا في انتفاضات قليلة .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٢) لديوان المتنبى طبعة اخرى غير التي اعدتها ديتريشي اخرجها ناصيف اليازجي بعنوان : « العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب » (بيروت ، ١٨٨٢) .

ابو فراس الحمداني

كان للمتنبّي في ابي فراس ، الحارث بن ابي العلاء الحمداني (٩٣٢ - ٦٨) منافس يباريه ، وهو ابن عم سيف الدولة ورفيقه في الحرب . ويقال ان سيف الدولة اجازته على بيت واحد من الشعر ، اقطاعاً قرب منبج ، بلغ دخله السنوي الف دينار . وفي سنة ٩٦٢ وقع الشاعر الباسل اسيراً بيد الروم ، ونقل على الاثر الى القسطنطينية . وبعد ان مكث في الاسر اربع سنوات دفعت عنه الفدية فعاد الى قومه^١ . وقد نظم ، وهو في الاسر ، جملة من اروع القصائد وارقتها^٢ . وله قصيدة عامرة اطرى بها العلويين ونغمز من العباسيين ، لا تزال من القصائد الاثيرة في اوساط الشيعة^٣ . وهو الذي استأثر بالسلطة على حمص بعد وفاة سيف الدولة . وسقط قتيلًا في معركة نشبت بينه وبين الجيش الذي وجهه ابن سيف الدولة لقتاله^٤ .

وكان دون هذه الطبقة من شعراء العصر شعراء آخرون منهم كشاجم الاديب الفنان ، والوأواء الشاعر البارع بتزويق الكلام . اما الاول فمن اصل هندي^٥ (ت حوالي ٩٧١) ، يتألف اسمه الغريب من الحروف الاولى للالفاظ التالية : كاتب ، شاعر ، اديب ، جدي ، منجم ؛ على اعتبار انه كان جامعاً لهذه المناقب . وكشاجم هذا من ابناء الرملة ؛ بدأ حياته طاهياً عند سيف الدولة ، ونظم ابياتاً وصف فيها بعض الوان الطعام والشراب^٦ . وقد اضاف الى مناقبه الكثيرة علم الطب ، والى كتاباً في علم الحيوان . واما الوأواء (ت ٩٩٩) فدمشقي المنشأ من بني غسان ؛ اشتهر بقصيدة وصف فيها فتاة تبكي ، وقد عضت على شفتها ، بهذا البيت :

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٢٥ - ٢٦ .

(٢) راجع ديوانه نشر نخلة قللاط (بيروت ، ١٩٠٠) ؛ وانظر ايضاً النعماني ، ج ١ ، ص ٢٢ - ٦٢ .

(٣) راجع نص هذه القصيدة في ديوانه ، نشر سامي الدهان (بيروت ١٩٤٤) ج ٣ ، ص ٣٤٨ - ٥٦ ؛ وايضاً Canard, pp. 325-33 .

(٤) راجع ما سبق ص ١٩٣ من هذا الجزء .

(٥) السعودي ، ج ٨ ، ص ٣١٨ .

(٦) السعودي ، ج ٨ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ، ٣٩٩ - ٤٠٠ ؛ وانظر ايضاً ديوانه (بيروت ،

١٣١٣) ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٥١ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧٩ - ٨٠ .

واستطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً ، وعضت على العناب بالبرد^١

من علماء البلاط الاصبهاني

وقد حظي بلاط سيف الدولة ، الى جانب هؤلاء الشعراء بجملة من العلماء نؤثر بالذكر منهم : مؤرخاً للادب والموسيقى هو الاصبهاني ، وفيلسوفاً موسيقياً هو الفارابي . اما ابو الفرج الاصبهاني (او الاصفهاني ٨٩٧ - ٩٦٧) فسليل البيت الاموي ، لكنه كان شيعي النزعة . ولد في اصبهان ، وتواردت عليه الهدايا من انسابه الحاكمين في الاندلس ، تقديرآ له على ما وضعه من الكتب على شرفهم . وقد اجازته سيف الدولة ، بألف قطعة من الذهب ، على النسخة التي قدمها اليه بخط يده من مؤلفه الضخم « كتاب الاغاني »^٢ . والحق ان هذا الكتاب اجلّ جداً مما يتبادر الى الذهن من اسمه المتواضع . وقد نقل عن وزير معاصر من اهل العلم ، كان يستصحب في اسفاره حمل ثلاثين مجلداً من كتب الادب ليطلعها فلما وصل اليه كتاب « الاغاني » استغنى به عنها^٣ .

الفيلسوف الموسيقي الفارابي

واما محمد ابو نصر الفارابي فتراكبي من فاراب ، وهي بلدة في تركستان^٤ . عاش في سورية في زي المتصوفين ، قانعاً بمرتب اكرامي ، اجراه عليه سيف الدولة ، مقداره اربعة دراهم في اليوم . وقد صحب سيده سيف الدولة الى دمشق ، وفيها توفي سنة ٩٥٠ عن ثمانين سنة . كان الفارابي من اسبق مفكري الاسلام الى محاولة التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعليم الاسلام . وكان نظامه الفكري نظاماً توفيقياً جامعاً ما بين الفلسفة المشائية ومبادئ الافلاطونية الجديدة وتعاليم الصوفية . وقد اطلق عليه ابناء قومه لقباً تفرد به هو « المعلم الثاني » ، على اعتبار انه ثاني معلم

(١) اللؤلؤ ، ديوانه ، نشر سامي الدهان (دمشق ، ١٩٥٠) ، ص ٨٤ - ٢٦٧ ؛ الكتبي ، ج ٢ ، ص ١٨٢ .

(٢) نشر عشرون مجلداً منه في بولاق ١٢٨٥ ، ونشر برونو المجلد الحادي والعشرين في ليدن ١٨٨٨ ، ثم وضع له غويدي فهرساً علماً نشر في ليدن ١٩٠٠ .

(٣) ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ١١ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ؛ القفطي ، ص ٢٧٧ ؛ ابن حوقل ، ص ٣٩٠ .

للمنطق بعد ارسطو . والفارابي رائد الفكر الفلسفي في الاسلام ؛ عنه اخذ ابن سينا وجميع من تلاه من فلاسفة الاسلام . اما مؤلفاته الرئيسية فرسالة فصوص الحكم^١، ورسالة في اراء اهل المدينة الفاضلة^٢، والسياسة (السياسات) المدنية^٣. ويبسط الفارابي في الكتابين الاخيرين رأيه في المدينة المثالية . فاذا هي — كما تخيلها — ذات رئاسة دينية ، ونظام عضوي ، شبيه بنظام الجسم الانساني ؛ ومن الواضح انها قد نسجت على منوال جمهورية افلاطون .

وكان الفارابي — الى ذلك -- طيباً مرموقاً ، ورياضياً فلكياً ، وموسيقياً من الطبقة الاولى . فقد اهلته كنبه الثلاثة في الموسيقى ، التي توجهها به كتاب الموسيقى الكبير^٤، لان يكون بين اعظم العلماء النظريين في الموسيقى العربية ، ان لم يكن اعظمهم . وكان ، فضلاً عن ذلك ، يجيد العزف : فقد استطاع — على ما روي — ان يعزف في البلاط الحمداني على عود اخترعه ، فيحمل السامعين على الضحك ، فالبكاء ، ثم النوم ، طبقاً لرغبته^٥.

العالم الجغرافي — المقدسي

وفي العهد الذي تسلط فيه الحمدانيون على شمالي سورية ، والفاطميون على جنوبها ، زها في فلسطين عالم مبدع ، من خيرة علماء الجغرافية ، هو المقدسي (المقدسي ٩٤٦ - حوالي ١٠٠٠) ؛ ولد في بيت المقدس في العهد الاخشيدي ، وعندما بلغ العشرين من العمر بدأ يقوم باسفار حملته الى جميع اقطار العالم الاسلامي ، باستثناء اسبانيا والهند وسجستان . وفي سنة ٩٨٥ اخذ يدون ما تجمع لديه في هذه الاسفار في كتاب سماه : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم^٦ . وقد

(١) نشره فردريك ديتريشي في: *Die Philosophie der Araber im IX. und X Jahr-hundert n. Chr.*, vol. XIV (Leyden, 1890), pp. 66-83.

(٢) نشر في القاهرة ١٣٢٣ ؛ ونشره ديتريشي في *Philosophie der Araber*, vol. XVI (Leyden, 1900)؛ وترجمه بعنوان *Der Muster staat von Al-Fārābī* (Leyden, 1895).

(٣) (حيدر اباد ، ١٣٤٦).

(٤) نشر لاند (J. P. N. Land) مختارات منه في *Actes du Sixième Congrès international des orientalistes*, pt. 2, sec. I (Leyden, 1885), pp. 100-168.

(٥) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٠١ .

(٦) نشره دي غويه (لندن، ١٨٧٧).

ذكر في المقدمة ، انه اعتمد في تأليفه على ملاحظاته الخاصة ، واختباره الشخصي ، اكثر منه على الكتب المدونة . ويتجلى في الكتاب ميل المؤلف نحو الشيعة ، واشاره للفاطميين . وكان الشيعة في عصره يمثلون الجانب الفكري التقدمي في الاسلام .

وبفضل مؤلفات المقدسي وزملائه من علماء الجغرافية ، بمن سلكوا سبيل الشهرة في هذا العصر ، بلغت معارفنا عن الاحوال الاقتصادية والاجتماعية في سورية ، في القرن العاشر ، مستوى لم يسبق له نظير ؛ اذ لم يخلف لنا اي عالم جغرافي - لاتينياً كان او يونانياً او سامياً - من المادة الجغرافية ، ما يعادل المادة العربية ، ان من حيث الكمية ، او من حيث النوع . فالمقدسي يستعرض احوال التجارة والزراعة والصناعة والتربية العامة ؛ ويتحدث عن امور اخرى كثيرة ، منها وجود الحديد الخام في «جبال بيروت»^١ ، وكثرة الاحراج وانتشار النساك في لبنان^٢ ، ومنتجات السكر والزجاج في صور ، ومصنوعات الجبن والقطن في القدس ، ومحاصيل الحبوب والعسل في عمان^٣ . ويصف سورية بانها اقليم مبارك ، بلد الرخص والفواكه والصالحين^٤ . ويشير ابن الفقيه^٥ ، المعاصر الفارسي للمقدسي ، بصورة خاصة الى النساك والاحراج في لبنان ، ويوجه التفاتة خاصة الى تفاحه . ويعني جغرافي فارسي آخر ، هو ابن خرداذبه (ت حوالي ٩١٢) ، باحصاء اقاليم سورية ، ووصف الطرق ، وتعيين المسافات بين المدن^٦ ؛ ويذكر ان عرقة وطرابلس وبيروت ، وسواها من المدن الساحلية والداخلية ، كانت لا تزال منيعة الحصون . وعلى الجملة ، فان الفكرة العامة التي تعلق في الذهن من مطالعة هذه المؤلفات ، وسواها من المصادر المعاصرة ، عن مستوى المعيشة ، تدعو الى عظيم الارتياح . فقد كان الناس ، في ما بدا لهؤلاء المؤلفين ، يعيشون حياة سعيدة ونافعة . ولا

(١) ص ١٨٤ ؛ الادريسي ، تزهة المشتاق ؛ ذكر الشام ، نشر غلامبايستر (يون ، ١٨٨٥) ، ص ١٦ . راجع الجزء الاول ص ٣٦ ، ٣٠٣ - ٣٠٥ ، والفصل السابع والاربعين ، عن «تيمور» .

(٢) ص ١٨٨ .

(٣) ص ١٨٠ .

(٤) ص ١٧٩ .

(٥) ص ١١٢ ، ١١٧ .

(٦) ص ٧٤ وما بعد ، و ٩٥ وما بعد .

يبدو ان النصارى واليهود كانوا اسوأ حالاً في عهد الدولتين السورية والمصرية، مما كانوا عليه في زمن خضوعهم للعباسيين. فان معظم الكتب في سورية - ان لم نقل جميعهم - والعدد الاكبر من الاطباء، كانوا بعد من النصارى^١. وفي سنة ٩٩٢ تعرضت سورية لزلزال. لم ينزل فيها من الحراب ما اتزل الزلزال الذي اجتاحتها سنة ٦٠/٨٥٩؛ فان هذا الزلزال كاد يحو اللاذقية وجبله من الوجود؛ وقد هدم في انطاكية وحدها ١٥ الف بيت^٢. وكانت سورية في القرن السابق قد تعرضت لزلزالين، على الاقل، وقع احدهما سنة ٧٣٨، والآخر ٧٤٦.

طلائع العصور المظلمة

وكانت في هذه الاثناء غيوم دكناء تتلبد على الافق، وتندثر بمستقبل قريب حافل بالمكاره. ذلك ان جيوشاً فاطمية مؤلفة من مقاتلين مصريين وبرابرة، اخذت، بعد منتصف القرن العاشر، في شن الغارات من الجنوب؛ وكذلك فان متعصي القرامطة من عشائر العراق وفارس، عاودوا اجتياح البلاد من الشمال الشرقي. ثم لم يلبث السلاجقة، وسوام من قبائل الاتراك المتمردين، ان انحدروا من الشمال. فبدأت بذلك عصور الظلمة في تاريخ سورية، وغدت البلاد على شفير الفوضى، وجرى النهب والحريق والفتك في اثر الغزاة الغائرين. واذا بكبريات المدن، نظير حلب ودمشق والقدس، كالكرة تتقاذفها الايادي الغريبة. وفي اواخر القرن الحادي عشر، كان اقوام من الفرنج، وفئات اخرى من الصليبيين، ينحدرون من الشمال الغربي الى الجنوب. وعقب امارات المماليك بحكمهم - بل بسوء حكمهم - الذي يتحدى الوصف، سلطة الاتراك العثمانيين. وعندها ختم على البلاد ظلام لم ينقشع عنها حتى اواسط القرن التاسع عشر.

(١) القليسي، ص ١٨٣، ص ٤٤، ٧-٨.

(٢) الطبري، ج ٣، ص ١٤٣٩ - ٤٠.

الفصل الرابع والتسعون مبايعة السلاجقة والفاطميين

لم تكن كبريات الدول، التي نشأت على اثر تجزؤ الخلافة العباسية، هي التي بسطنا شأنها في الفصول السابقة، بل هي التي نحن في صدد معالجتها الآن. أي: دولة السلاجقة، وخلافة الفاطميين. فقد اقتسمت هاتان الدولتان البلاد السورية فيما بينهما، فاستولى السلاجقة على شماليتها، وسيطر الفاطميون على جنوبيتها؛ وكان الأولون من الترك، وانتسب الآخرون الى العرب.

طغرل بك في بغداد

كان مؤسس السلالة السلجوقية زعيماً من زعماء التركمان، هو امير قبيلة الغز في تركستان. وكان قد تمكن، بمساعدة عشيرته البدوية الجافية، من اجتياح منطقة بخارى^١، حيث تم، في ما يظهر، اعتناقهم للاسلام. ثم استأنف حفيده طغرل هذه الفتوحات غرباً، عبر فارس، حتى وقف سنة ١٠٥٥. في جمع من رجاله، على ابواب بغداد نفسها. ولم يكن امام الخليفة القائم، لفرط عجزه، الا طريق واحد يسلكه هو ان يستبدل سيداً بآخر - فقارق الفرس الشيعة، ليستقبل سلاجقة الاتراك السنيين^٢. وقد ميز الحاكم السلجوقي الجديد نفسه بلقب «سلطان»، وهو اول حاكم مسلم نقش على نقوده هذا اللقب؛ ثم جرى من تلاه في الحكم على مثل ذلك، حتى غدا عرفاً جارياً فيهم. وفي غمرة الانتصارات التي احرزها طغرل، عمد الى ترحيل جموع من الاتراك والسلاجقة وسواهم الى غربي آسيا، فانتشروا في انحاء هذا الاقليم واخذوا في الاستعرا ب واعتناق الاسلام تباعاً.

وفي عهد ابن اخيه وخلفه الب ارسلان (١٠٦٣ - ٧٢). وعهد ملكشاه ابن الب ارسلان (١٠٧٢ - ٧٩)، بلغ سلطان السلاجقة اوسع مداه، تمتداً من

(١) ابن الاثير، ج ٩، ص ٣٢١ - ٢٢.

(٢) ابن خلكان، ج ١، ص ١٠٧ - ١٠٨؛ ابن قري بردي، نشر بوير، ج ٢، قسم ٢ ص ٢٢٥.

حدود افغانستان الى تخوم امبراطورية الروم في آسية الصغرى . وفي سنة ١٠٧٠ اغار الب ارسلان بجيوشه على الدولة المرداسية في شمالي سورية، واحتل مدينة حلب، واستتبّع حاكمها المرداسي^١. واقتحم اتسيز، قائد جيوش الب - وهو تركماني من خوارزم - فلسطين، وانتزع من يد الفاطميين رام الله والقدس وسباهما من المدن، حتى عسقلان جنوباً، وصمدت في وجهه حامية عسقلان الفاطمية^٢. وفي سنة ١٠٧٦ دخل دمشق، وضيق على اهلها، وانتهب اموالهم. ثم غاد تنش ابن الب ارسلان فاحتلها ثانية بعد سنتين، وقتل اتسيز^٣. وفي سنة ١٠٧١ احرز الب ارسلان انتصاراً حاسماً على البيزنطيين في ملازكرت، شمالي بحيرة فان، ووقع الامبراطور نفسه اسيراً في يده، واذا ذاك غدت آسية الصغرى برمتها مكشوفة امام الاتراك، فتدفقت قبائل السلاجقة الرّحل على اناطوليا وشمالي سورية، واندفع قادة الترك حتى هلسبونت. وهكذا وبضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية، التي طالما فصلت بين الاسلام والمسيحية، اربع مئة ميل الى الغرب. ولاول مرة استطاع الاتراك ان يحرزوا موطئ قدم في تلك الاصقاع وما زال في يدهم حتى اليوم.

على ان سلطنة السلاجقة الواسعة لم تلبث ان تجزأت، وحكم اجزاءها من السلالة السلجوقية. فاستولى على آسية الصغرى (بلاد الروم) سليمان ابن عم الب ارسلان؛ وكان سنة ١٠٧٧. قد ثبت قدميه في نيقيا (ازنيق)، غير بعيد عن القسطنطينية. وفي سنة ١٠٨٤ نقلت العاصمة الى قونيا في الجهة الجنوبية الشرقية؛ وفي العام نفسه استرجع السلاجقة مدينة انطاكية من الروم، وردّوها الى الاسلام؛ اذ لم يكن في احتلال آسية الصغرى امن ولا استقرار مادام الروم مرابطين من وراء ظهورهم. وكان قلعج ارسلان، احد ابناء سليمان، اول من اصطدم بطلائع الحملات الصليبية (١٠٩٦)، وذلك لدى مرورهم في آسية الصغرى، في طريقهم الى

(١) ابن الاثير؛ ج ١٠، ص ٤٣-٤٤؛ انظر الفقرة عن المرداسيين في ما يلي من هذا الفصل؛ وكذلك، Claude Cahen in *Byzansion*, vol. XVIII (1948), pp. 25-90.

(٢) ابن عساكر؛ ج ٢، ص ٣٣٩؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٤٥ - ٤٦.

(٣) ابن خلكان، ج ١، ص ١٦٨.

(٤) راجع الفصل السابق ص ١٩٣ - ١٩٥.

سورية^١. وكان من بين الدول التركية العديدة التي عقت سلاجقة الروم حوالي سنة ١٣٠٠ ، دولة العثمانيين ، وهم تاريخياً فرع آخر من الفرز^٢.

سلاجقة سورية

اسس دولة سلاجقة سورية تنش بن الب ارسلان . ففي سنة ١٠٩٤ استولى على مدينة حلب^٣ ، وكانت لا تزال أهم مدن سورية الشمالية ، فكانت جديرة بان تغدو قاعدة لهذه الولاية . لكن تنش سقط في احدى المعارك في السنة التالية ، فحكم مكانه في حلب ابنه رضوان (١٠٩٥ - ١١١٣) ، وتولى الحكم في دمشق ابنه الآخر دقاق^٤ . على ان الخلاف لم يلبث ان نشب في الاسرة بين الاميرين الاخوين^٥ ، بحيث اضطر دقاق ، بعد سنتين من الزمان ، الى الاقرار لآخيه بالسيادة العليا . وكان صهر لتنش يتولى اقطاع القدس ، فأجبر سنة ١٠٩٨ ، على التخلي عنه للفاطمين . وعندما بلغ الصليبيون الاراضي المقدسة ، كانت خاضعة لسلطة الفاطمين . وكان رضوان موالياً للحشاشين من الاسماعيلية ، وكان أكثر الحليين ، على ما يبدو ، شيعيين واسماعيلية^٦ ، فكان اهل السنة والحالة هذه يمتقونهم . وقد بقي رضوان نحرأ من شهر يدعو للخليفة الفاطمي وللملة الاسماعيلية في صلاة الجمعة ، لكنه عاد بعده الى الدعاء للخليفة العباسي ؛ وكان من جملة القواد الذين اشتبكوا بالصليبيين في معارك عديدة في شمالي سورية . وقد تمكن من صد حملات الفرنجة عن حلب ، ومن الاحتفاظ بها في قبضة يده . لكن محاولاته لفك الحصار الذي ضربه على انطاكية سنة ١٠٩٨ باءت بالفشل^٧.

(١) انظر الفصل التالي - الحملة الصليبية الاولى .

(٢) انظر الفصل الثامن والاربعين - الدولة المملوكية .

(٣) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٥٧ - ٥٨ .

(٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٣٠ - ٣٢ ؛ ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٦٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

(٦) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٣٤٩ ؛ ابن القلانسي ، ص ١٤٢ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٥٣ - ٥٤ .

(٧) انظر الفصل التالي الفقرة عن انطاكية .

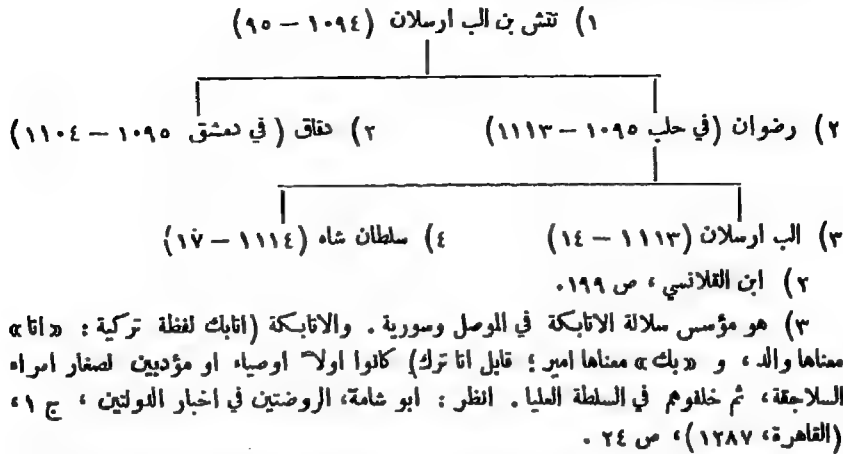
وخلف رضوان على حلب سنة ١١١٣ ابنه الب ارسلان، وكان قتي في السادسة عشرة من عمره، فاجراً ضعيف المدارك؛ فاغتاله الرصي عليه في حلب بعد فترة قصيرة من بدء ولايته^١. وحكم اخ له اسمه سلطان شاه، وهو تحت الوصاية، ثلاث سنوات. وفي سنة ١١١٧ استولى على حلب قائد تركاني من قادة الجيش الملبوقى، هو ايل غازي بن ارطقى^٢، واتخذ مدينة ماردين قاعدة لهذا الفرع الناشئ من السلالة الارطقية. وكان ايل غازي هذا من اشد خصوم الصليبيين.

الاتابكة

وفي سنة ١١٢٨ استولى على حلب محارب تركي آخر هو عماد الدين زنكي من الموصل. وكان ابوه في اول امره عبداً في خدمة ملكشاه، ثم صار ضابطاً صغيراً في جيش تتش^٣. وفي السنة التالية ألحقت حماء وحمص وبعلي بك بسلطة زنكي وكان زنكي البطل المقاوم للصليبيين؛ تمكن سنة ١١٤٤ من انتزاع الرها من يدهم^٤: واستهل سلسلة

(١) ابن الفلانسى، ص ١٨٩، ١٩٨؛ كمال الدين، منتخبات من تاريخ حلب في *Recueil des historiens des Croisades: historiens orientaux*, vol. iii (Paris, 1884), pp. 602-3, 605-6.

وهذا شكل شجري لسلاجقة سورية (١٠٩٤-١١١٧):



(٤) كمال الدين في: *Recueil*, vol. iii, pp. 703 seq. وابن الاثير، «تاريخ الدولة الاتابكية» في: *Recueil*, vol. ii pt. 2 pp. 10 seq. كمال الدين في: *Recueil*, vol. iii, pp. 685-6؛ ابن الاثير في *Recueil*, vol. ii, Pt. 2, pp. 118-9؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٣٤٤؛ التهي، ج ٢، ص ٣٨، ٤٠؛ ابو شامة، ج ١، ص ٣٣-٣٤، ٣٦-٣٧.

من الانتصارات عليهم، استأنفها من بعده ابنه نور الدين، وبعده خلفه صلاح الدين^١. وهو الذي بنى مدينة الموصل المعروفة في العصر الوسيط. وكان من أتباعه الأتراك طغتكين^٢، وكانت مولى لتتش مكلفا بتأديب ابنه دقاق. وقد جرى على سيرة سواه من الأوصياء، فعمد إلى اغتصاب السلطة، ثم أقرت سلطته على دمشق بعيد وفاة سيده القاصر، وكان قد تزوج من أمه^٣. وفي سنة ١١١٦ عين كبير سلاطين السلاجقة في بغداد طغتكين حاكماً على سورية، وأولاه حق فرض الضرائب وتجنيد الرجال. وقد حالف طغتكين إيل غازي فاشتركا في القتال ضد الفرنجة^٤. وكان كلاهما من المسرفين في شرب الخمر! وربما بقي إيل غازي أحياناً «عشرين يوماً» تحت تأثير الكحول في سكرة واحدة. وذات يوم أرسل إيل غازي إلى زميله باسير من الفرنجة، هو سيد صهيون، على أمل أن يفزعه فيجمله على تأدية فدية أكبر. لكن، لم يكن من طغتكين، الذي كان قد أكثر من الشرب في خيمته، إلا أن استل سيفه وأطاح به رأس السيد المشؤوم. وقد علل تصرفه هذا، في ما بعد، بأنه اعتقد أنه أشد ما يمكن للأسير^٥. وفي سنة ١١١٢ استنجحت صور، وهي بيد الفاطميين، من الصليبيين بطغتكين، لكن النجدة التي أرسل إليهم بها كانت مدداً مؤقتاً. فاستطاع الصليبيون احتلال هذا الثغر سنة ١١٢٤^٦.

(١) انظر الفصل التالي: بحث «صلاح الدين».

(٢) لفظ تركي معناه «الصقر المفير». وكان لقبه التكريمي ظهير الدين. وقد اتخذ معظم هؤلاء القادة القاباً عربية فخمة: فاختار إيل غازي (أي بطل قومه) لقب نجم الدين، وتتنس، تاج الدولة؛ ورضوان، فخر الملوك.

(٣) ابن الفلاني، ص ١٩٠؛ ابن خلكان، ج ١، ص ١٦٩؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ١٥٥؛ ابن تقي بري، ج ٢، قسم ٢، ص ٣٨٨.

(٤) كال الدين في *Recueil*, vol. iii, pp. 620 seq.

(٥) أسامة، ص ١١٩ - ٢٠.

(٦) ابن تقي بري، ج ٢، قسم ٢، ص ٣٣٦ - ٣٧.

ان السلالة التي بدأها طفتكين عرفت بعدئذ باسم ابنه وخلفه بوري^١. ثم قام بعدها اتابكة زنكي سنة ١١٥٤، وسيأتي الكلام عن مآثرهم في ما بعد^٢.

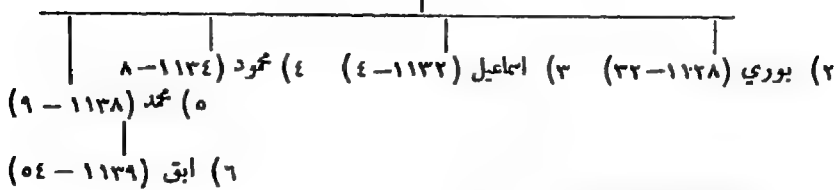
قيام الفاطميين

كان قيام الخلافة الفاطمية، نظير العباسية^٣، وثيق الصلة بسورية. ذلك لان بلدة سَلَمِيَّة، الحاملة المنزلة، الواقعة الى الجنوب الشرقي من حماة، كانت قد غدت في أواخر القرن التاسع، مقراً لزعم الحشاشين من الاسماعيليه، ومركزاً لنشاطهم. وكان هذا الزعيم يدعى محمداً الحبيب. وكان في ظن اتباعه انه ابن حفيد الامام اسماعيل بن جعفر الصادق، وهذا بدوره سليل علي وفاطمة عن طريق الحسين^٤. وكان الحبيب اميناً لاساليب الاسماعيليه، فعمد من ثم الى بث العملاء سرّاً في انحاء العالم الاسلامي، ليعملوا على تقويض سلطة اهل السنة، واعادة اسلام الشيعة الصحيح الى نصابه. وكانت هذه الدعاية، بعد الدعاية العباسية^٥، اعظم وافعل جهازاً للدعاية في تاريخ الاسلام السياسي.

ذلك ان داعياً مقتدراً من دعائه اسمه ابو عبد الله الحسين الشيعي، من اهل اليمن، التقى في مكة بعدد من الحجاج البرابرة المنتسبين الى قبيلة قطامة في شمالي افريقية، وحملهم على اعتناق ملته. وفي سنة ٨٩٣ رافقهم الى تونس، حيث بذل

(١) شكل شجري لatabكة دمشق (١١٠٤ - ٥٤)

(١) طفتكين (١١٠٤ - ٢٨)



(٢) الفصل التالي، الفقرة عن نور الدين.

(٣) راجع ص ١٥١ - ١٥٢ من هذا الجزء.

(٤) سَلَمِيَّة بالتخفيف اصح من التشديد سَلَمِيَّة؛ تحريف عن الاصل اليوناني (سلياس)؛ قاتل: Canard, p. 235; Dussaud, *Topographie*, pp. 201, 244, 252.

(٥) راجع شجرة النسب الفاطمي في هامش ص ١٥١ من هذا الجزء.

(٦) راجع ص ١٥١ - ١٥٢ من هذا الجزء.

كل ما أوتي من دهاء، حتى جعل من نفسه زعيماً مرموقاً. ثم اخذ في كفاح شديد متواصل من اجل ان يزيل حكم الاغالبية الذي كان قد توثق في مدى قرن من الزمان. وعندما وثق من الظفر، دعا اليه زعيم ملته من سلمية، وهو آنذاك عبيد الله بن محمد الحبيب. لكن امر عبيد الله هذا افتضح في سجنه فاعتقله حاكم الاغالبية (٩٠٥) واودعه السجن. على ان داعيه الحسين الشيعي تمكن سنة ٩٠٩ من خلع حاكم الاغالبية؛ وعندما اطلق سراح عبيد الله، واقامه في الرقة سيداً على المنطقة^١. ثم اعلن عبيد الله عن نفسه انه المهدي المنتظر، وبذلك نشأت سلالة خلافة جديدة هي السلالة الفاطمية، وتعرف ايضاً بالعلوية والعبيدية. ولم تكن هذه السلالة بالسلالة الحاملة؛ فقد كان ظهورها بمثابة تحدٍّ لمدير الزعامة العباسية الراهنة في الاسلام. واتسعت سلطتها في اوج عزها حتى ضمت شمالي افريقية وغربي الجزيرة العربية، والبلاد السورية. وقد كانت الخلافة الشيعية الكبرى الوحيدة، وآخر ما ظهر من خلافات الاسلام في العصر الوسيط.

ولقد حجب التاريخ نسب عبيد الله بحجاب من الابهام الشديد. والمظنون انه ولد في سلمية، غير بعيد عن حمص - وهي التي انجبت للعرش الروماني بعض من تولاه^٢ - وكذلك ابنه وخلفه^٣. ويشير المحققون الى ان سلسلة نسبه الشريف جاءت في المدونات على صور عديدة، فهي والحالة هذه غير حرة بالثقة؛ بل ان البعض يغالي في التخمين حتى ليقول بان المهدي الحقيقي قتل في سجن سجنه، وان «عبيد الله» الذي خرج من السجن لم يكن الا يهودياً تقمص شخصية الزعيم المنشود، ولعب دور المهدي المنتظر. ويؤكد آخرون ان عبيد الله هذا لم يكن علوياً، حتى ولا عربياً؛ بل كان بواقع الامر سليل الزعيم الفارسي عبد الله ابن ميمون القداح، المؤسس الثاني بعد اسماعيل للفرقة الاسماعيلية؛ وكانت مبادئ هذه الفرقة قد غدت في هذا الزمن مزيجاً غريباً من الافكار الشيعية المتطرفة، والتأملات

(١) القريري، ج ٢، ص ١٠-١١؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٣١ وما بعد.

(٢) راجع الجزء الاول ص ٣٧٧.

(٣) ابن حماد، اخبار ملوك بني عبيد، نشر فخر هيدن، الجزائر (١٩٢٧)، ص ٦، ١٨؛ ابن خلكان، ج ١، ص ٤٨٨.

(٤) ابن خلكان، ج ١، ص ٤٨٧؛ ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١١٢.

الصوفية الفارسية ، والاصول السريانية الغنوسطية والمبادئ العقلية البرهانية . وفيما يبطل المؤرخون المشايخون للعباسيين شرعية الدعوة الفاطمية ، يؤيدها جماعة من العلماء الحديثين في أوروبا ، ويوافقون على صحة النسب السلتي^١ .

اتساع ممتلكاتهم

لقد أسس عبيد الله (٩٠٩ - ٣٤) عاصمة جديدة الى الجنوب الشرقي من مدينة القيروان دعاها باسم منسوب الى لقبه هو : « المهديّة » . وانتقل خلفه الثالث المعز (٩٥٢ - ٧٥) الى مصر سنة ٩٧٣ ، حيث كان قائده المظفر جوهر قد أسس عاصمة جديدة هي مدينة القاهرة - تلك المدينة التي قدّر لها ان تصير اشهر مدن القارة الافريقية على الاطلاق . ثم بنى فيها المسجد الجامعي المعروف بالازهر ، وهو اقدم المؤسسات الباقية للتعليم العالي ، ومن اوسع المؤسسات التعليمية في العالم حتى الوقت الحاضر . كان جوهر هذا في الاصل عبداً نصرانياً ، والراجح انه من اهل صقلية اشتراه سيد مسلم في مدينة القيروان . فارتفع من هذا الاصل الوضع الى اوج شأقه غدا فيه منشيء امبراطورية عظيمة^٢ . وجوهر هو الذي طرد الاخشيديين سنة ٩٦٩ من مصر وسورية^٣ .

وكان لجوهر في سورية خصوم كثيرون لم يربداً من قتالهم . منهم القرامطة يتزعمهم الحسن ابن احمد الاعصم . وكان يعتمد على مساعدة العباسيين وتأييدهم . وقد لاح الفوز اولاً في جانب الاعصم . فاحتل دمشق ، وحمل الفاطميين على الانسحاب من البلاد برمتها ، واقدم على اللحاق بهم حتى عاصمتهم القاهرة^٤ . ومنهم الروم ، وهم آنئذ يتحينون الفرص لتجديد حملاتهم على الاراضي التي كانت في حوزتهم . ومنهم كذلك الاتراك ، اذ لم يكونوا غافلين عما يجري حولهم . فان احد قوادهم المدعو افتكين استولى على دمشق ، وبدأ يشن الغارات منها على جميع

(١) انظر : P. H. Mamour, *Polemics on the Origin of the Fatimi Caliphs* (London, 1934), pp. 16 seq., 43 seq., 124 seq.; W. Ivanow, *Ismaili Tradition concerning the rise of Fatimids* (Oxford, 1942), pp. XVII-XIX, p. 127 seq. (Eng.) cf. Lewis, p. 22.

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٠٩ - ١٣ ؛ القرطبي ، ج ١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٧٧ وما بعد .

(٣) راجع ص ١٩٢ من هذا الجزء .

(٤) ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٥٠ - ٥١ .

انحاء البلاد. وكان من الطبيعي ان يتعاون الاتراك والقرامطة ضد العدو المشترك ففي سنة ٩٧٧ تولى الخليفة الفاطمي الثاني العزيز قيادة الجيش بنفسه، وانزل بجيوش المتحالفين هزيمة نكراء خارج الرملة^١. وقد وسع العزيز ملكه في سورية، لاسيما في المنطقة الساحلية، لكنه اخفق في احتلال حلب لاسباب اهمها تدخل الروم^٢. وقد بلغت الخلافة الفاطمية في عهده اوسع مداها، وخضعت لسلطته البلاد من المحيط الاطلسي الى البحر الاحمر، وعنت له كذلك الحجاز واليمن وسورية، بل والموصل^٣. وقد استخدم حمام الزجل لاقامة مواصلات سريعة مع الاقليم السوري، وعمد مرة الى استخدام ١٢٠ حمامة لنقل الخوخ من دمشق الى قصره في القاهرة، فتم ذلك في غضون ثلاثة ايام او اربعة. وقد كانت جاريته الاثيرة امرأة نصرانية عين احد اخويها رئيس اساقفة في القاهرة، والآخر في القدس. وكان وزيره نصرانياً ايضاً هو عيسى بن نسطوروس، وقد اتاب عنه في سورية رجلاً يهودياً اسمه منشأ (منسّه) ابن ابراهيم. فاتهم كل منهم انه كان يراعي مصالح ابناء ملته. وفيما كان الخليفة يوماً يجري على بغل سريع، ألقت امرأة في طريقه لوحة كتب عليها: «بالذي اعزّ اليهود منشأ، والنصارى بابن نسطور، واذل المسلمين بك، الا نظرت في امري»^٤.

وضع سورية القلق

كان حكم الفاطميين في سورية قلقاً مضطرباً. وذلك لانه لم يكن القرامطة والسلاجقة والترك والروم وحدهم قد تنازعوا عليها، بل لان المواطنين احياناً

(١) ابن القلانسي، ص ١٨-١٩؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٢.

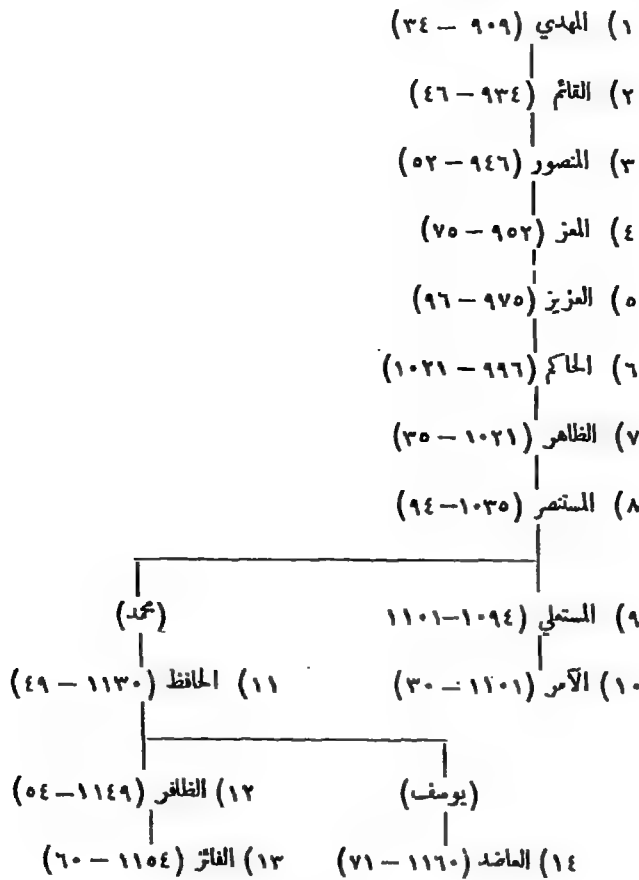
(٢) ابن القلانسي، ص ٢٩.

(٣) ابن تغري بردي، ج ٢، قسم ٢، ص ١٠؛ ابن خلكان، ج ٣، ص ٥٤.

(٤) قابل: ابن القلانسي، ص ٣٣؛ ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٤؛ السيوطي، ج ٢، ص ١٤؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ١٣٨.

واهل البادية قد اشتركوا في ذلك. ففي العام الثاني لخلافة الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١)^١ بلغت الجراءة من ملاح من اهل صور، اسمه علاقة، ان يضرب النقود باسمه، ويعلن استقلال مدينته. وقد صمد في وجه الجيش الفاطمي الى حين، واستعان بمهارة من اسطول الروم للوقوف في وجه الاسطول الفاطمي؛ لكنه اضطر اخيراً الى تسليم المدينة المحاصرة، وتحمل بلاء التنكيل والصلب^٢. ثم حشي جلده بالقش وعرض في القاهرة.

(١) شكل شجري للخلفاء الفاطميين.



(٢) ابن الفلاني، ص ٥٠ - ٥١؛ ابن خلدون ج ٤، ص ٥٦ - ٥٧.

الامراء المرداسيون

ان القوضى التي شاعت في خلافة الحاكم بامرءه قد اغرت اعراب بادية الشام بشن الغارات على سورية ففي سنة ١٠٢٣ تمكن صالح بن مرداس، زعيم بني كلاب من انتزاع عاصمة سورية الشمالية من يد الفاطميين . واستطاعت السلالة المرداسية ان تحتفظ بمدينة حلب، بين شدة ورخاء، اكثر من خمسين سنة (١٠٢٣ - ٧٩) ، عمدوا في غضون ذلك الى محالفة بني كلب وبني طيء؛ فحاصر الكليبيون دمشق (١٠٢٥) واضرم الطائيون النار في الرملة (١٠٢٤). اما اللصوصية وقطع الطرق وحركات التمرد، التي بدأت بقيام القرامطة ، فقد استمرت واسعة الاثر في طول البلاد وعرضها . لكن مدينة حلب نفسها ، على ما يبدو، حافظت على ظاهرة الازدهار. فناصري خسرو^١ الرحالة الاسماعيلي الفارسي الذي قصد حلب سنة ١٠٤٧ ، يذكر ان تجاراً من العراق ومصر وآسيا الصغرى كانوا فيها ، ويتحدث عن المكوس التي كان المرداسيون يتقاضونها عن البضائع . وهناك رسالة ارسل بها طبيب نصراني من اهل بغداد - اسمه ابن بطلان - الى صديق له على امر زيارته للمدينة المذكورة في تلك الاثناء ، تعطي فكرة عامة عن المدينة في عهد السلطة المرداسية : فالمدينة كانت محاطة بسور مبني بالحجر الابيض ، فيه ستة ابواب . وقد قامت قلعتها القديمة الى جانب السور ، وازدانت قمة الراية بكنيستين ومسجد . وكان في المدينة ست كنائس اخرى ومسجد جامع (بما يشير الى ان جانباً كبيراً من سكانها كانوا من النصارى). وكان هناك ايضاً مستشفى صغير . وكان اهل المدينة يستقون من احواس تجمع فيها مياه المطر . وكان في بناء واحد من مباني السوق عشرون تاجراً من تجار الالبسة ، كانوا لعشرين سنة يجرون اعمالاً تجارية تقدر بعشرين الف دينار في اليوم الواحد^٢.

المعري - الشاء الفيلسوف الضريع

ان روح العصر ، بكل ما عراه من فوضى سياسية وتفسخ اجتماعي وتشاؤم

(١) سفرنامه، نشر شارل شفر (پاریس، ١٨٨١)، ص ١٠ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢، ص ٣٠٦ - ٨ .

فكري وتشكك ديني ، قد انعكس بجلاء في شعر شاعر من ابناء سورية الشمالية هو ابو العلاء المعري (٩٧٣ - ١٠٥٧). اما مسقط رأسه فظاهر من اسمه ، وهو معرة النعمان ؛ واما نسب قومه فيعود الى قبيلة تنوخ من عرب اليمن . وعندما بلغ الرابعة من عمره اصابه جدري ذهب باحدى عينيه ، ثم ذهب بعد حين بالعين الاخرى . فزادت هذه النكبة المشؤومة في نغمته على الحياة . ولقد حصل الناشئ الكفيف ما استطاع تحصيله من العلوم في حلب ؛ ثم قصد الى بغداد مرتين^١ . واذ كان فيها في رحلته الثانية ، جرت له احاديث . مع جماعة من المفكرين ، ومنع شيوخ المعتزلة وبعض الفلاسفة المتأثرين بالمذاهب اليونانية . والتحق بحلقة ادبية انشأها احد المفكرين الاحرار . لكنه اضطر الى ان يعجل بالعودة الى موطنه سنة ١٠١٠ ، بعد ان امضى في بغداد تسعة عشر شهراً ، وذلك بداعي مرض الم بامه ؛ لكنها ماتت قبل وصوله اليها . والراجح انه اتصل وهو في بغداد بمفكرين من الهنود تمكنوا من حمله على مذهبهم في الاقتصار على الاطعمة النباتية .

وقد امضى الباقي من عمره عازباً في مسقط رأسه ، ويقال انه اوصى ان يكتب^٢ على قبره البيت الذي يقول فيه :

هذا جناه ابي علي م وما جنيت على احد^٣

وكان المعري يعيش على دخل ضئيل يكسبه من تعليمه . وعندما احتل المعرة الخليفة الفاطمي المستنصر ، حفيد الحاكم بامرّه ، قدم لشاعرها كل ما كان في الخزانة من مال ، فرفضه^٤ . وكان شاعرنا يقضي اكثر اوقاته منفرداً ، فلقلب نفسه برهين المحبسين (البيت والعمى) . وقد خرج مرة الى احدى ضواحي المعرة ليتوسط لدى صالح بن مرداس بشأن ستين من وجهاء بلده كان صالح قد اعتقلهم ، فنزل صالح على طلبه واطلق سراحهم في الحال .

والمعري ، بخلاف شعراء عصره ، لم يقف شاعريته على مدح الامراء وارباب النفوذ رغبة في الكسب ؛ وعليه فالقصيدة التي مدح بها سيف الدولة في عهده الباكر

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) ياقوت ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٤) ياقوت ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

لم ينشدها على مسنعه^١. اما شعره المتأخر فيمن عن فلسفة التشاؤم والشك في الحياة، وعن موقفه العقلافي من مشاكلها. وكان من الذين بادلهم الرسائل داعي دعاة الاسماعيلية. وقد حشد في رسالة الغفران^٢ مشاهير المراهقة واحرار المفكرين بجوار الجنة. يرفهون عن انفسهم، ويخوضون في مناقشات نقدية تتناول الشعر. وهذه الرسالة، في ظن البعض، هي التي حفزت دائتي على وضع رائعته المعروفة بالكوميديا الالهية^٣. وتشتمل لزوميات المعري على قصائد هي من اشهر شعره. وقد اشتملت بعضها على معاني^٤ احرز بها شاعر المعرة السابق على زميله عمر الحيام. وحاول ابو العلاء في كتاب الفصول والغايات^٥ ان يقلد القرآن، بما عده المسلمون خرقاً فاضحاً لحرمه الدين. اما الطابع الفلسفي الغالب على هذا الديوان فطابع ابيقوري في الاساس. وفي الابيات التالية ما يشهد على انحرافه هذا؛ قال :

ضحكتنا، وكان الضحك منا سفاهة وحق لابناء البسيطة ان يبكوا
يحطمننا ريب الزمان كأننا زجاج، ولكن لا يعادله سبك^٦
جاءت احاديث، ان صحت فان لها شأنًا، ولكن فيها ضعف اسناد
فشاور العقل واترك غيره هدرًا، فالعقل خير مشير ضمّه النادي^٧
هفت الحنيفة والنصارى ما اهدت ويهود حارت والمجوس مضله
اثنتان اهل الارض: ذو عقل بلا دين، وآخر دين لا عقل له^٨
وكان المعري واحداً من شعراء العرب القليلين الذين تحطوا حدود الزمان

(١) المعري، الديوان: سقط الزند نشر شوكت شقير (بيروت، ١٨٨٤)، ص ٤ وما بعد.

(٢) نشرها كامل كيلاني في مجلدين (القاهرة، ١٩٢٣).

(٣) انظر Miguel Asin, *Islam and the Divine Comedy*; tr. H. Sunderland (London, 1926).

(٤) او لزوم ما لا يلزم، نشرها عزيز زند في مجلدين (القاهرة، ١٨٩١-٩٥)؛ ونقل اقساماً منها ومن سقط الزند امين ف. ريجاني الى اللغة الانكليزية بعنوان: 'The Quatrains of abu'l-Ala' (London, 1904).

(٥) نشرها محمود ه. زناتي، ج ١ (القاهرة، ١٩٣٨).

(٦) ابو العلاء المعري، رسائل ابي العلاء، نشر مرغوليوث (اكسفورد، ١٨٩٨) ص ١٣١.

(٧) اللزوميات، ج ١، ص ٣٩٤.

(٨) اللزوميات، ج ٢، ص ١٩١.

والمكان، ليرتفعوا الى رحاب الانسانية العالمية . وقد احتفل بمرور الف عام على مولده سنة ١٩٤٤ في بيروت تحت رعاية رئيس الجمهورية اللبنانية وفي دمشق واللاذقية ومعرة النعمان ، تحت رعاية المجمع العلمي العربي في الشام . وساهمت في هذه المهرجانات وفود من سورية ولبنان وشرقي الاردن والعراق ومصر ، واسهم بعض المستشرقين من اوروبا واميركا في كتابة الابحاث المناسبة . وقد وصف المهرجان في دمشق بأنه اعظم احتفال شهدته المدينة في تاريخها الادبي^١ . وبهذه المناسبة عمد اولو الامر الى ترميم مدفنه وحولوه الى مزار عام .

الدروز

نشأت على يد الحاكم بامرہ (٩٩٦-١٠٢١) ملة جديدة في الاسلام هي الطائفة الدرزية . جاءها هذا الاسم من اسم داعٍ تركي من دعاة الباطنية^٢ هو محمد بن اسماعيل الدرزي (الحياط بالفارسية)، وكان اول من جهر بتقديس الخليفة المذكور^٣ . والجدير بالذكر ان المبدأ القاتل بتجسد «مولانا» بصورة انسان، وان الحاكم بامرہ هو اهم مراحل هذا التجسد ومنتهى غايته ، انما هو من التعليم الدرزي في الاساس اما الانبياء فهم - نسبياً - اقل خطراً .

واذ لم يلقَ الدرزي في تعليمه اذنأ صاغية بين المصريين ، رحل الى وادي التيم^٤ عند سفح جبل الشيخ في لبنان . فاستجاب له ابناء ذلك الريف الذين عرفوا بالشجاعة وحب الحرية، اذ كانت بعض الاراء الشيعية المتطرفة قد غشت اوساطهم^٥ . لكنه قتل ههنا سنة ١٠١٩ في بعض المعارك، فخلفه منافسه حمزة بن علي الملقب

(١) المهرجان الالفي لابي الملاء المعري (دمشق، ١٩٤٥ ص ٩) .

(٢) اطلق اهل السنة هذا الاسم على من ذهبوا الى ان القرآن ينبغي ان يفسر تفسيراً مجازياً ، وان الحق انما يوقف عليه باكتشاف المعنى الباطن للنص ، وان الظاهر انما هو حجاب للباطن يراد به اخفاء الحق عن اعين من ليسوا له باهل ؛ وقد كان الاسماعيليه والقرامطة من الدرق الباطنية .

(٣) ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٦٩ .

(٤) الاسم مأخوذ من تيم الله (تيم اللات اصلاً) وهو اسم لقبيلة عربية كانت في منطقة الفرات حيث تنصرت ، ثم تحولت الى جنوبي لبنان ؛ الطبري، ج ١، ص ٢٤٨٩ - ٢٩٠ ، ٢٠٣١ .

(٥) ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٧٠ .

بالمهدي، وهو الآخر أحد الدعاة الفرس^١. وعندما اغتيل الحاكم بأمره، انكر المهادي وفاته، وأشاع أنه تحول إلى «غيبه» مؤقتة، وأنه من الواجب، بالتالي، تقرب «رجعته» المظفرة. وقد كتب بهاء الدين المقتنى (ت يعد ١٠٤٢)، المساعد الأول لحزبه في نشر الملة الجديدة، رسائل دعاوة بلغت حتى الهند والقسطنطينية، لكنه عمد بعدئذ إلى تدبير جديد هو عدم السماح بأفشاء أي جانب من جوانب هذا المذهب في غضون «غيبه» الحاكم بأمره، وهو تدبير ربما املته رغبة الفئة القليلة في سلامة البقاء. ومنذ ذلك الحين «اقفل الباب». وحظر على أي كان الدخول إلى الملة أو الخروج منها. أما فكرة الامام الغائب، فكان قد قال بها قبل الدروز، جماعات من غلاة الشيعة في مقدمتهم الاسماعيلية.

وقد جمع بهاء الدين في «الرسالة المسيحية» بين شخصيتي حمزة والمسيح، وخطب المسيحيين في رسائل أخرى وجهها إليهم «بالقديسين»، و«بجامع القديسين» راجياً أن يحلمهم بذلك على اعتناق تعليمه. وكان يضرب من الأمثال ما هو من قبيل الوارد في العهد الجديد من الكتاب المقدس. وفي ذلك ما قد يشير إلى سابق صلة له بالتعليم المسيحي^٢.

وقد أقدم حمزة، بالنيابة عن الحاكم بأمره، على حل اتباعه من فرائض الاسلام الكبرى، ومنها الصوم والحج؛ وسن مكلتها شرائع اوجب بها الصدق في القول، والعون المتبادل بين ابناء الملة، ونبد العقائد الباطلة في جميع أشكالها، والخضوع التام للإرادة الالهية. وقد أصبحت هذه القاعدة الاخيرة، المشتملة على عقيدة القضاء والقدر، عاملاً فعّالاً في التعليم الدرزي، كما كانت في مذهب اهل السنة في الاسلام. ومبدأ آخر بما تميزت به هذه الملة هو تناسخ الارواح. وكان هذا المبدأ قد ورد على الاسلام من مصدر هندي، فاضيف إليه عناصر أخرى من الفلسفة الافلاطونية. ثم ان المعتزلة وكذلك الباطنية كانت قبل الحاكم بأمره بزمان طويل، قد أقرت بضرب من تناسخ الارواح لا يزال عليه بعض متصوفة الفرس المعاصرين

(١) ان كتاب ابن حجر العسقلاني «رفع الامر عن قضاة مصر» في «الكندي» نشر غوست، ص ٦١٢ يسميه الروزني (من زوزن في شرقي فارس).

(٢) انظر، Silvestre de Sacy, *Exposé de la religion des Druzes*, (Paris, 1838), vol. i, p. 83, n. 1.

واعلام البهائية في الوقت الحاضر. اما العمل بالمبدأ الثاني الذي وضعه حمزة، والذي يوجب العون المتبادل، فقد جعل من الدروز جماعة شديدة التماسك مفرطة الانكماش، حتى لتكاد تبدو اقرب الى المنظمة الاخوية الدينية منها الى الملة المذهبية الدينية. والجماعة، مع ذلك، مقسومة الى طبقتين متبايزتين: العقال والجهال، وكتبهم المقدسة متاحة لفئة العقال القليلة العدد لا غير، وجميعها مخطوطة غير مطبوعة. وهم يعقدون اجتماعاتهم مساء كل خميس في خلوات قائمة على التلال خارج القرى.

وعندما حاول الدروز ان يوثقوا امرهم، ويثبتوا اقدامهم في جنوبي لبنان، نشب نزاع بينهم وبين جماعة اخرى هناك، كانت قد انحرفت عن الاسلام، هم النصيرية. وكان من نتيجة هذا النزاع، ان دفع هؤلاء الى شمالي سورية، حيث لا يزال موطنهم حتى اليوم. ولقد كان على الدروز ان يناضلوا غير هؤلاء من المجاورين. بعضهم من الشيعة والبعض من اهل السنة. ثم اخذوا في الانتشار، من موطنهم في جنوبي لبنان، الى منطقة الشوف، الى الشرق من مدينة بيروت، حيث اصابهم الصليبيون، وحيث ما زالوا مزدهرين الى اليوم. على انهم لم يتسن لهم الفلاح في مدينة ما. واول ذكر للدروز في المدونات الاوروبية ورد في رحلات بنيامين التودلي^١ (حوالي ١١٦٩)، وهم بعد في وادي التيم. على ان جماعات منهم هاجرت، على اثر المنازعات القبلية الدامية ما بين القيسية واليمينية، في مطلع القرن الثامن عشر، من الشوف الى حوران في سورية^٢. وقد ارتفع معدل هذه الهجرة في القرن التاسع عشر، في اعقاب المضايقات الكثيرة في لبنان. ويبلغ عددهم الآن في حوران نحواً من تسعة وثمانين ألفاً، في مقابل تسعة وسبعين ألفاً في لبنان. ولقد اظهروا في جميع مراحل تاريخهم عزيمه حرة بالاعجاب، وكان لهم في الشؤون القومية العامة في لبنان وسورية من النفوذ ما يفوق نسبتهم العددية.

النصيرية

والنصيرية فرع آخر من الفروع الاسماعيلية الباقية. والراجع ان اسمهم متحدر

(١) Vol. i, p. 61

(٢) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

من محمد بن نصير الكوفي (زها في اواخر القرن التاسع) وهو احد مشايخي الحسن العسكري (ت ٨٧٤)^١ ، الامام الحادي عشر من ائمة العلويين . وقد وردت اقدم اشارة هامة الى ابن نصير واتباعه في بعض اثار حمزة ، وغير حمزة من فقهاء الدروز السابقين . على ان آخر مؤسسي هذه الشيعة ، على ما في مدوناتهم ، هو حسين ابن حمدان الحصيبي (ت حوالي ٩٥٧) ، وقد كان قبلاً مولى اسماعيلياً من موالي الحمدانيين في حلب^٢ .

اما المعروف عن مذهبهم فليس بالشيء الكثير : انه مذهب سري الطابع كهنوتي النظام باطني التعليم . ومدوناتهم المقدسة لم يعرف عنها بمقدار ما عرف عن مدونات الدروز . فان الكثير من هذه قد كشف في اعقاب الفتن الاهلية التي نشبت في غضون القرن التاسع عشر . واذا وجدت هذه الملة نفسها جماعة صغيرة خارجة ، بين اكثرية معادية ، آثرت اللجوء الى العمل في الخفاء ؛ وهي الى الآن اللغز الذي لم يحل حللاً كاملاً في الشرق الادنى .

وبعد ، فالمعروف من امرهم هو هذا : ان النصيرية ، شأن غلاة الشيعة ، يؤلهون علياً ؛ وهو ، في ما يرون ، آخر مراحل التجسد الالهي واهمها^٣ . اما المتأخرون من اتباع هذه الملة فمنهم « التختجية » (الخطابون) في غربي الاناضول ، و « القزلباشية » (ذوو الرؤوس الحمراء) في شرقي الاناضول ، و « العلي الهية » في فارس وتركستان ؛ ولذلك يسنى النصيرية احياناً بالعلويين . وقد اشتهروا بهذا الاسم عندما حول الفرنسيون المنطقة التي تكتنف اللاذقية الى دويلة منفصلة سموها « العلويين » . لكنهم سموها في تاريخ الصليبيين « النزري » (Nazarei) . ويتمثل مذهب هذه الملة في اراء شيعية متطرفة نابتة في اصل وثني ؛ او هو ، بتعبير آخر رواسب من ملل سورية وثنية مغلفة بغشاء من التعليم الشيعي المنحرف . وينبغي ان يكون اعلامها قد تحولوا من الوثنية الى المذهب الاسماعيلي بصورة

(١) راجع ص ٥٥ و ص ١١٩ من هذا الجزء . قابل ابو الفداء ، التقوم ، ص ٢٣٢ ، هامش ٣ حيث يذكر ان المؤسس هو نصير احد موالي علي .

٢ انظر L. Massignon in *Actes du XVIII. Congrès international des Orientalistes Leyden, 1931*, p. 212.

(٣) الشهرستاني ، ص ١٤٣ - ٤٥ .

مباشرة^١، ثم تبنوا بعض الظواهر المسيحية السطحية . فهم مثلاً يحتفلون جماعياً لاداء بعض شعائرهم بما يشبه « القداس »، ويشاركون النصارى في عيد الميلاد^٢ وعيد القيامة، ويستخدمون اسماء انفرد بها النصارى نظير : متى ، وجبرائيل ، ويوحنا ، وهيلانة . اما طبقة الشيوخ التي تقابل « العقال » في نظام الدروز فمنظمة في ثلاث مراتب كهنوتية ، وأما سائر الملة فتؤلف طبقة العامين . والتصيرية يخالفون الدروز في انهم لا يتيحون للنساء الدخول في طبقة المكرسين . وهم يقيمون اجتماعاتهم ليلاً في اماكن خفية . ولقد اتهموا باتيان بعض المنكرات في مجتمعاتهم الليلية هذه ، ونسبوا الى عبادة اشياء غريبة ؛ وقد طالما اتهم بمثل ذلك سائر اصحاب المذاهب السرية^٣.

ويبلغ عدد النصيرية اليوم نحواً من اربع مئة الف ، اكثرهم من المزارعين . وهم يستوطنون المناطق الريفية في سورية الوسطى والشمالية ، وينتشرون متفرقين حتى كيليكيا التركية .

اضطهاد النصارى

كان النصارى واليهود على خير حال في ظل الحكم الفاطمي ، الا في عهد الحاكم بامرہ . ذلك لانه عاد فاجرى عليهم التدابير المذلة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكل قد فرضاها عليهم^٤، ثم اضاف اليها فتناً اخرى من الاذلال ، مع ان والدته ووزيره كانا من النصارى . فقد زاد سنة ١٠٠٩ على القيود السابقة المتعلقة بالملايس تمييزاً للذمي من المسلم ، فوجب على النصارى ، متى دخلوا الحمامات العامة ، ان يجعلوا في اعناقهم صلباناً زنة الواحد منها خمسة ارطال نحو كيلو غرامين على ان يرساوها متدلية على صدورهم . ورتب على اليهود ، في مثل هذا الحال ، ان يجعلوا في اعناقهم اطاراً من الحشب بالوزن نفسه ، شدت اليه الاجراس المجلجلة^٥.

(١) كتاب الاعتبار ، نشر حتى ، ص ١٥٩ - ٦٠ ؛ سيد عربي سوري ، ص ١٩٠ .

(٢) انظر R. Strothman in *Der Islam*, vol. xxvii, No. 3 (1946), p. 175-8.

(٣) انظر : Conder, *Syrian Stone-Lore*, p. 423. n.

(٤) راجع ص ١٠٠ - ١٠١ ، وص ١٦٧ من هذا الجزء .

(٥) ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٥ ؛ ١٩٥ ؛ سعيد بن البطريق ، ص ١٩٥ ؛ المقرئ ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن حماد ، ص ٥٤ .

وفي العام نفسه امر بهدم كنائس كثيرة كان من اهمها كنيسة السيدة في دمشق، وكنيسة القيامة في القدس. وعمد، تطبيقاً للنصوص القرآنية التي حرمت الخمر، الى الامر باقتلاع الكرمة، وهي في مصر من مزروعات النصارى. اما من ابي الخضوع لهذا التدبير من اهل الذمة فقد خيره بين اعتناق الاسلام والرحيل الى بلاد الروم. والظاهر ان عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم — بعد النبي محمد بنحو اربع مئة سنة — كان مساوياً لعدد المواطنين من المسلمين ان لم يفقه. وبعد مضي عشرين سنة، عمد ابن الحاكم وخلفه الملقب بالظاهر، بموجب معاهدة عقدها مع امبراطور الروم، الى اعادة بناء الكنائس التي هدمت، ومنها كنيسة القيامة. ومع ذلك فان تهديم هذا الاثر من اثار المسيحية قد اسهم في اقدام الفرنجة، على تجريد الحملات الصليبية على الارض المقدسة.

ان الحاكم بامر، الازرق العينين، تولى الخلافة وهو في الحادية عشرة، وتوفي في السادسة والثلاثين، ولم تخل سيرته من الغرائب. فقد انشأ معهداً للعلوم العالية في القاهرة، ولم يرض عليه ثلاث سنوات حتى هدمه وبطش باساتذته. ووضع تشريعاً ضد الدعارة، وحظر حتى ظهور النساء في شوارع القاهرة. ثم انه سن قوانين منع بموجبها المآدب وحفلات الطرب، وحرم بعض الوان الطعام، ولعب الشطرنج. وكان تصرفه الشخصي بحيث اتهمه مدونو الاخبار من خصوم الفاطميين بغرابة الاطوار^١. على ان تفرد قديسي النصارى او دراويش المسلمين، وفقراء الهنود في تصرفاتهم امر معروف في اخبار الشرق الادنى.

ولما كان خلفاء الحاكم بامرهم اشد رغبة في خفض العيش منهم في ادارة شؤون الدولة. فقد عجزوا عن توثيق الامن في مصر، وصون سياحتهم على الامصار. ففي سنة ١٠٢٣ تمكن اعراب بني مرداس من احتلال حلب، عاصمة سورية الشمالية. وسنة ١٠٧١ سقطت مدينة القدس، وهي كبرى مدن سورية الجنوبية، في ايدي السلاجقة، وتبعتهما بعد اربع سنوات مدينة دمشق^٢. وما ان استرجعوا القدس سنة ١٠٩٨ من الارتقيين، عمال السلاجقة، حتى خرجت في السنة التالية من يدهم، لتقع في يد اعداء غرباء، لم يكونوا في الحسبان، هم الصليبيون.

(١) ابن خلكان؛ ج ٣، ص ٤-٧؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٩-٦١؛ ابن تقي بريدي، ج ٢، ق ٢، ص ٦٢ وما بعد؛ السيوطي حسن المحاضرة؛ ج ٢، ص ١٤-١٥؛ ابن الغلاني، ص ٦٦-٦٧، ٧٩-٨٠؛ المقرئ، ج ٢، ص ٢٨٥-٨٩؛ ابن حنبل، ص ٥٤-٥٥.

(٢) راجع ص ٢٠٤ وص ٢١٤ من هذا الجزء.

(٣) بعض المصادر تجعل ذلك سنة ١٠٩٦، راجع هذا الشأن : W. D. Stevenson, *The Crusaders in the East*. (Cambridge, 1905), p. 20.

الفصل الخامس والأربعون ثلاثي الشرق والغرب - الصليبيون

في السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ القى البابا اوربانوس الثاني ،
لفرنسي مولداً ، خطبة نارية في مدينة كلرمونت في جنوبي فرنسا ، حث فيها
المؤمنين على سلوك الطريق الى كنيسة القيامة ، لانتزاعها من ايدي الغاصبين ،
والاحتفاظ بها لانفسهم . ولعل هذه الخطبة ، باعتبار النتائج التي تخلقت عنها ،
اشد الخطب في التاريخ وقعاً وابعدها اثرأ . اذ تنادى الناس ، على الاثر ، بصيحة
هي : « هكذا يريد الله » ، غدت بمثابة نفير تردد صده في اوروبا من ادناها الى
اقصاها ، وسرى في الناس على اختلاف طبقاتهم كلنا بعدوى نفسانية عجيبة .

تعدد البواعث وتشابكها

على ان هذه الاستجابة لم تكن يحملتها وليدة الدافع الديني الذي غذته
الكنيسة ، بل كان هنالك ، فضلاً عن المتعبدين ، القواد العسكريون الطامعون
بالاستيلاء على مناطق جديدة ، والتجار — لاسيما تجار جنوى والبندقية وبيزا —
الذين كانوا اشد اهتماماً بالشؤون التجارية منهم بالامور الروحية ؛ ثم ارباب الحيال
البعيد ، والنفوس المضطربة ، وعشاق المغامرات ، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد
ابداً للانضمام الى كل حركة بارزة ؛ وكذلك المجرمون والخطاة الذين نشدوا
الغفران بالحج الى الارض المقدسة التي وطئتها قدما المسيح ؛ ومثلهم من منوا
بالشقاء الاقتصادي والاجتماعي ، فكان « حمل الصليب » راحة وتفرجاً لهمومهم اكثر
منه تضحية^١.

وكانت هنالك عوامل اخرى ذات طابع عام ؛ فاختيار البابا لجنوبي فرنسا
مكاناً لبده دعوته لم يكن من قبيل المصادفة المحض . اذ كانت تلك البقعة من

(١) للاستزادة من العلم عن احوال اوروبا راجع August C. Krey, *The First crusade* (Princeton, 1921), pp. 24-43.

القارة الأوروبية قد اكتسحتها قبائل المسلمين قادمة من اسبانية^١، وكان المسلمون خلال اربعة قرون ونصف القرن يوالون المهجوم على مواطن المسيحية : أولاً عن طريق الامبراطورية البيزنطية ، وثانياً عن طريق اسبانيا وصقلية وايطاليا^٢؛ وكان قد آن للمسيحية ان تبدي ردة ما . وفوق ذلك كله ، فان امبراطور الروم ، الكيسوس كومنينوس ، كان قبل انلقى البابا اوربان خطبته المثيرة ، قد التمس العون منه على السلاجقة الذين اجتاحوا ممتلكاته الآسيوية حتى جوار القسطنطينية^٣. دفعاً للغزو الاسلامي . ورأى البابا في هذا الالتباس فرصة سانحة لتوحيد الكنيسة اليونانية وكنيسة روما ، بعد الانشقاق الذي وقع بين ١٠٠٩ و ١٠٥٤ ، ولإقامة نفسه رئيساً أوحد للمسيحية .

الحملة الصليبية الاولى

وحتى ربيع عام ١٠٩٧ ، كان قد استجاب لنداء البابا نحو من ١٥٠ ألف من الافرنج والنورمانيين ؛ وكان ملتقاهم المتفق عليه مدينة القسطنطينية ، فتقاطروا اليها وقد حملوا الصليب شارةً ، فعرفوا من ثم بالصليبيين . على هذا النحو دفعت الى الميدان الحملة الصليبية الاولى ؛ وكان طريقها الى الارض المقدسة يخترق آسية الصغرى ، وينتهي منها الى بلاد قلع ارسلان . وفي شهر حزيران من تلك السنة احتلوا نيقيا قاعدة السلاجقة ، وفي التالي سقطت في يدهم مدينة دوريلايوم (اسكي شهر حديثاً)^٤. فاعاد هذا الفتح المظفر على امبراطور الروم القسم الأكبر من آسية الصغرى ، اذ كان قد حصل من جميع قواد الصليبيين تقريباً ، على تعهد بالولاء لرابطة العرق التي تجمع بينهم .

(١) راجع ص ٧٢ من هذا الجزء .

(٢) راجع بشأن فتح الاغلبة لصقلية ، Hitti, *History of the Arabs*, pp. 602, 605, 617, 622.

(٣) راجع ص ٢١٤ من هذا الجزء .

(٤) انظر Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, ed. Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg, 1890), pp. 197, 208 seq; Fulcher *Historia Hierosolymitana*, ed. Hagenmeyer (Heidelberg, 1913), p. 192 sep. ١٣٤ ص ابن القلانسي ، للاستزادة من المراجع عن الصليبيين راجع Claude Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades* (Paris, 1940), pp. 3-104.

الولاية اللاتينية الاولى : الرها

لكن، ما انت عبر قواد الحملات الصليبية جبال طورس ، حتى وقع الخلاف بينهم، واخذ كل منهم يضع خطته الخاصة للتوسع المحلي . فتحول بلدوين شرقاً — وهو احد قادة اللوثرنجيين القادمين من بلاد الرين — ودخل منطقة اهلها من النصارى ثم احتل الرها، وهي آنذاك تحت حكم الارمن، في اوائل سنة ١٠٩٨. وهكذا نشأت الولاية اللاتينية الاولى — ولاية الرها — وجلس بلدوين اميراً على عرشها . وقد عمّد هذا الامير — الذي غدا في ما بعد ملكاً على القدس — الى الزواج من اميرة ارمنية، واستقر في الشمال الى حين . اما تانكرد، وهو احد قواد النورمنديين القادمين من جنوبي ايطاليا وصقلية، فتحول غرباً، ودخل كيليكية، وسكانها كذلك من الارمن، بينهم جماعة من اليونان؛ واحتل مدينة طرسوس وسائر نواحيها

على ان معظم الجيش الصليبي كالت، في هذه الاثناء، يتدفق على سورية، إذ كانت هدفه الاول . وكان يحكم سورية الشمالية، كما ألمعنا سابقاً، امرأ من السلاجقة مستقلون عملياً؛ فيما كان جنوبيها تابعاً للخلافة الفاطمية^٢. وقد كانت البلاد بمجملتها لسنوات كثيرة، موضوع نزاع بين الاتراك السنيين والمصريين المتشيعين . وكانت اقسام اخرى منها في عهدة زعماء محليين من العرب . فطرابلس وجوارها مثلاً، كانت منذ سنة ١٠٦٩ تحت سلطة بني عمار، وهم من الشيعة^٣؛ وشيزر في منطقة العاصي كانت منذ ١٠٨١ تحت حكم بني منقذ^٤. ثم ان المنازعات المحلية، والتحاسد الاخوي، ومشكلات الولاية السلاجقية، كانت قد ولدت حالة مزمنة من الوضع القلق. اما اهل البلاد فقد كانوا بعيدين من تكوين جبهة موحدة؛ وذلك لأن الفرق العديدة التي تفرقت من الاسلام اخذت في اقتسام البلاد؛ فاعتصم الدروز في جنوبي لبنان، واستوطن النصيرية في جبال سورية الشمالية، واستقر الاسماعيليه ثم الحشاشون الى

(١) انظر Matthew of Edessa, *Chronique*, ed. E. Dulaurier (Paris, 1858) p. 218

(٢) راجع ص ٢١١ و ٢١٢ من هذا الجزء .

(٣) راجع : G. Wiet in *Mémorial Henri Basset* (Paris, 1928) vol. ii, pp. 279-84

ابن تقي بريدي، ج ٢، ق ٢، ص ٢٦٧ .

(٤) انظر الفصل التالي تحت شهادة اسامة .

الشرق من مواطن النصيرية^١. وكان موارد لبنان الشمالي، من بين نصارى لبنان، لا يزالون يتكلمون السريانية^٢.

الولاية اللاتينية الثانية : انطاكية

كانت انطاكية المدينة السورية الاولى في طريق الجيش الصليبي. وكان حاكمها اميراً سلجوقياً اسمه ياغي سيان^٣؛ عينه عليها ملكشاه في بغداد، وهو الثالث من كبار ملوك السلاجقة (بعد طغرل وألب ارسلان) واذ كانت هذه المدينة مهداً للكنيسة المسيحية المنظمة الاولى^٤، فقد كانت بالنسبة الى الصليبيين ذات خطر خاص. وكان حصارها طويل الأمد، شديد الرطوبة، (من ٢ تشرين الاول ١٠٩٧ الى ٣ حزيران ١٠٩٨). وقام رضوان صاحب حلب، ودقاق صاحب دمشق، بمحاولات يائسة لفك الحصار عنها، لكن الامداد التي ارسلت ردت على اعقابها^٥. وكان القائد الصليبي الذي تولى هذه العمليات الحربية بوهمند نسيب تانكرد، وقائد الحملة النورمندية. وكان الاسطول الايطالي يسانده من البحر، في هذه المعركة، وفي ما تلاها من المعارك، وذلك بتوفير المؤن وآلات الحصار، لاستخدامها ضد المدن المحصنة القائمة على الساحل او قريباً منه. لكن خيانة صدرت من قائد ارميني ناغم، كان يتولى الدفاع عن احد ابراجها، أدت الى سقوط المدينة^٦.

وما كاد المحاصرون يدخلون المدينة، حتى وجدوا انفسهم محاصرين بدورهم. ذلك ان كربوقا، المغامر السلجوقي، كان قد انتزع الموصل من اعراب بني عقيل^٧، فسار من عاصمته الى المكان بامداد وافرة. فكان ما قاساه الفرنج^٨ على اثر ذلك من

(١) راجع ص ٢١٧ وص ٢٢٠ من هذا الجزء.

(٢) راجع ص ١٤٠ من هذا الجزء.

(٣) ورد هذا الاسم معرقاً في ابن الاثير، ج ١٠، ص ١٨٧؛ ابو الفداء، ج ٢، ص ٢٢٠ ابن خلدون، ج ٥، ص ٢٠.

(٤) اعمال الرسل، ١١ : ٢٦.

(٥) راجع ص ٢٠٦ - ٢٠٨ من هذا الجزء.

(٦) كال الدين، *Recueil*, vol. iii, pp. 580 seq. ابن القلانسي، ص ١٣٥.

(٧) كان بنو عقيل تابعين للحمدايين (راجع ص ١٩٣ وما بعدها من هذا الجزء) ثم حكموا بعدم في الموصل.

(٨) او الانرنج، وقد اطلقت منذ عهد الصليبيين على الاوربيين بلاميز.

الوباء والجماعة مدة خمسة وعشرين يوماً من أشد ما سبق لهم ان عانوه^١. ولم يعد بالامكان رفع حالتهم المعنوية وكسب الوقت الا بالعجوبة. وقد تحققت هذه الاعجوبة باكتشاف «الحربة المقدسة» التي طعن بها جنب السيد المخلص وهو معلق على الصليب، اذ عثر عليها دفينة في احدى كنائس انطاكية. فاندفع الصليبيون على الاثر بجراحة بالغة، استطاعوا بها ان يردوا المحاصرين عن المدينة. وظل بوهمند، وهو أدهى قواد النصارى وامضام عزيمة، حاكماً على هذه الولاية الجديدة مضمواً اليها انطاكية وجوارها. وقد كان امبراطور الروم يأمل إعادة انطاكية اليه، لكنه مني بخيبة الامل. وكانت اشد منه خيبة ريموند صاحب تولوز، زعيم اغنياء جنوبي فرنسا، وهو الذي تحقق الاكتشاف المدهش على يد رجاله، اذ كان يطمع بان تكون اماره انطاكية له. ويتصل هذا النضال من اجل انطاكية باسطورة اخرى تدور حول القديس جاورجيوس؛ وهو على ما في الاخبار المحلية، من اللد^٢، قتل في عهد ديوكليتيان (٣٠٣)، فخفف الآن لمساعدة الصليبيين المضطحين^٣.

الزحف على الساحل

دفع الكونت ريموند جيوشه في اتجاه جنوبي، مضرماً النار في معرة النعمان، بلدة ابي العلاء، ومنزلاً الدمار بسكانها^٤. ثم استأنف سيره في وادي العاصي، محتلاً في طريقه حصن الاكراد^٥، ذي الموقع الحصين، المسيطر على الممر الخطير الذي يصل بين السهول الساحلية وسهول العاصي. لكن مدينة عرقه،

١) حتى انهم لبشوا جثث الحيوانات الميتة واكلوها؛ William of Tyre, vol. i p. 271. ابن القلانسي، ص ١٣٦.

٢) صالح ص ١٦؛ William of Tyre, vol. i, p. 332.

٣) لقد نقل النورمنديون هذه الاسطورة الى أوربا وغدا القديس جاورجيوس من ثم قديس انكلترا الحافظ. اما في الكنائس السورية، حيث اتصل اسمه بقتل تين وانقاذ اميرة من الاسرة المالكة، فانه ينافس القديس سرجيوس في الشهرة (راجع الجزء الاول ص ٤٣٦) ولا يزال خليج بيروت، حيث قيل انه فُك بالوحش، يحمل اسمه فيعرف بخليج مار جرجس.

٤) ابن الاثير، ج ١٠، ص ١٩٠، واليه استند ابو الفداء، ج ٢، ص ٢٢١. قابل: Gesta Francorum, p. 387; Kamāl-al-Din in Recueil, vol. iii, pp. 586-7.

٥) يعرف اليوم بقلة الحصن؛ وقد قامت على انقاض قلعة قديمة بناها احد امراء حمص سنة ١٠٣١ وجعل فيها جماعة من الاكراد.

مسطق رأس احد امبراطرة الرومان المتحدر من سلالة سورية^١ وهي آنثذ^٢ تابعة لامارة طرابلس - صمدت للحصار بفضل حصونها المنيعة ، وذلك من شهر شباط الى اواسط ايار . وكان غودفري دي بويون (عاصمة اللورين الادنى) ، اخو بولوين ، قد انجدر بقواته جنوباً بمحاذاة الساحل وحاصر جبلة ، فالتقى الآن بريمند . لكنه نزولاً عند إلحاح رجاله بالاسراع نحو القدس - اذ كان صبرهم عنها قد نفذ - ومراعاة لابن عمار امير طرابلس ، في مقابل ما كان ارسل اليه من الهدايا ، عمد الى رفع الحصار عنها . ولم تبد انطرطوس^٣ ، حيث بلغ الشاطئ^٤ ، اية مقاومة ، وغدا الاتصال بالاسطول الايطالي بعد الآن مستطاعاً؛ فسارت الحملة من هنا على الطريق الساحلي ، وهو الطريق الذي سلكها قبله الاسكندر^٥ وسواه من الفاتحين . وقد عرج من اللاذقية لانها كانت بيد القوى البحرية البيزنطية التي كانت تعمل مستقلة عن الحملات اللاتينية^٦ . وعندما بلغ الصليبيون البترون اتصلوا بالموارنة ، وهم قوم اشداء ومقاتلون بواسل فأسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة ، لمعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الادلاء لهم^٧ . وجرى امير بيروت على الحطة التي انتهجها امير طرابلس ، فقدم لهم مالاً ومقداراً سخياً من المؤن^٨ . وبعد ان ضربوا خيامهم بضعة ايام في بساتين صيدا ، قرب المياه الجارية ، استأنفوا السير ، فبلغوا عكا في فترة لم تتجاوز ٢٤ ايار . والظاهر ان بعض المدن الكبرى فقط كانت مجهزة بالحاميات المدافعة ، ولذلك لم يتعرض الفرنجة للمواطنين ولا تعرض لهم المواطنون . فكان الزحف في ما يبدو اشبه شيء بنزهة . وبعد ان مروا بقيسارية وارسوف ، تحولوا نحو الداخل واجتازوا الرملة ، وفي السابع من حزيران وقفوا امام المهدف الذي كانت الحملة يرمتها ترمي الى بلوغه ، وهو مدينة القدس .

احتلال القدس

كانت حملة الصليبيين آنثذ^٩ تبلغ نحواً من اربعين الف مقاتل نصفهم تقريباً من

(١) راجع الجزء الاول ص ٣٨١ .

(٢) هي طرطوسا في التاريخ اللاتيني ؛ انظر الفقرة عن يبرس والصليبيين في هذا الفصل .

(٣) راجع ص ٢٥٤ من الجزء الاول .

(٤) Cahen, p. 222.

(٥) انظر William of Tyre, vol. ii, p. 459; vol. i, p. 330; Ludolph von Suchem, p. 135.

(٦) William of Tyre, vol. i, p. 331 .

الجنود النظاميين^١. اما الحامية المصرية فتقدر بنحو الف رجل . وبعد حصار القاه على المدينة غودفري وريمند وتنكرد استمر شهراً من الزمان ، اطبقوا عليها (١٥ تموز) وفتكوا بأهلها على اختلاف السن والجنس ، بلا تمييز ولا مراعاة . وفي احد المصادر العربية^٢ ان عدد الضحايا بلغ نحواً من ٧٠ ألفاً ، وقدره مصدر ارمني^٣ بـ ٦٥ ألفاً ؛ ويذكر مصدر لاتيني ان النظر كان يقع على اكوام من الرؤوس والأيدي والاقدام في الطرق وفي الساحات العامة^٤ . وهكذا برزت الى الوجود دولة لاتينية ثالثة في سورية هي اهمها على الاطلاق ؛ تولى الحكم فيها غودفري الزعيم المدفع والمقاتل الباسل . وقد قيل انه امتنع عن ان يضع على رأسه تاجاً من ذهب ، حيث حمل السيد المخلص تاجاً من شوك ، واختار ان يلقب بـ «حامي القبر المقدس»^٥ .

على ان حكم غودفري كان قصير الامل ، فهو لم يتجاوز العام الواحد ؛ لكنه احرز في خلاله انتصاراً على الجيش المصري قرب عسقلان ، جعل مركز اللاتين في مدينة القدس اكثر حصانة واوفر أمناً . لكن هذا المرفأ ظل مركزاً للحامية الفاطمية ، وقاعدة لاسطولها^٦ اما مدينة يافا ، التي جاوزها الصليبيون بعد ان تركوها خراباً ، فقد احتلوها الآن ، واعطي فيها لابناء بيضا امتيازات خاصة . وتم احتلال مدينة جيفا بعدها بمساعدة اسطول البندقية^٧ . وكان تنكرد ، في الوقت نفسه ، يرغل في داخل البلاد نحو منطقة الاردن . ذلك لأن مركز القدس اللاتينية يظل معرضاً للخطر ما لم يستول على الاراضي الداخلية المجاورة ، وعلى المناطق الساحلية . وكانت بيسان الواقعة على الطريق بين المتوسط ومدينة دمشق ، من المدن الاولى التي كسبها . واما نابلس فقد خضعت بلا مقاومة . ولقد استقر تنكرد في طبرية

(١) « Annales de Terre Sainte », *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii (Paris 1884), pt. 2, p. 429; Raimundus de Agiles, « Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem », in Migne, *Patrologia Latina*, vol. clv, p. 657; William of Tyre, vol. i, p. 349.

(٢) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ١٩٤ .

(٣) *Matthew of Edessa*, p. 226 .

(٤) Agiles, p. 659; cf. William of Tyre, vol. i pp. 370-72 .

(٥) Agiles, p. 654 .

(٦) ابن ميسر ، اخبار مصر ، نشر هنري ملي (القاهرة ، ١٩١٩) ، ص ٣٩ وما بعد .

(٧) ابن القلانسي ، ص ١٣٩ : ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٠١ .

يعمل بامرة غودفري ، لكنه تخلى عن هذا الإقليم في آذار سنة ١١٠١ ليخلف عمه بوهند حاكم انطاكية ، اذ كان هذا قد وقع اسيراً بيد قائد تركي في بعض المعارك التي جرت في شمالي البلاد .

بلدوين اول ملوك الصليبيين

ثم استدعي بلدوين اخو غودفري وأمير الرها ، وتوج ملكاً على هذه المنطقة يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ . اذ كان المؤسس الحقيقي للملكة اللاتينية . وكان همه الاول ان يخضع مدن الساحل ، فيؤمن المواصلات البحرية بالوطن الاول ، ويقطع الطريق على الاسطول الفاطمي واعماله العدائية . وقد وجد في ملاحي الجمهوريات الايطالية حلفاء مندفعين ، لكنه القاهم شديدي الطمع ، اذ اشترطوا الحصول على نصيب من الغنائم ، والاستيلاء على مناطق خاصة من المدن المحتلة ، تجعلها تابعة لتشريع جمهورياتهم ثم إعفاء البضائع التي يسوردونها ويبيعونها من كافة الرسوم^١ ، فيتمتعون بالامتيازات التي تمنح على اثر الخضوع والتسليم . وعلى ذلك فقد سقطت ارسوف وقيسارية سنة ١١٠١ بمساعدة اسطول جنوى ، ووافقنا على دفع الجزية بعد فترة الهدنة^٢ . وسقطت عكا ذات الاسوار الحصينة بعد ثلاث سنوات ، وذلك على اثر هجوم كاسح من بوارج بيزا وجنوى . وفي سنة ١١١٠ ضرب على بيروت حصار من البر والبحر استمر احد عشر اسبوعاً ، انتهى في ١٣ ايار بهجوم عليها قتل فيه كثيرون من سكانها . وقد أمدتهم غابات الصنوبر التي لا تزال في جوار المدينة بالحشب اللازم لبناء الابراج وقذف القذائف وتقويض الاسوار^٣ . وفي السنة نفسها سقطت صيدا بمساعدة اسطول نرويجي مؤلف من ستين بارجة^٤ .

وقد عمل بلدوين على توسيع ممتلكاته جنوباً ايضاً ، على امل الاستيلاء — ولو جزئياً — على تجارة البحر الاحمر والمحيط الهندي . وبني (١١١٥) جنوباً من البحر

(١) انظر *William of Tyre*, vol. i pp. 434, 455 .

(٢) انظر *Albert of Aix, « Historia Hierosolymitanae expeditionis » Migne*, vol. cixvi, p. 575.

(٣) انظر *W. B. Stevenson, Crusaders*, pp. 58-9; *William of Tyre*, vol. i, pp. 484-5 . ابن القلانسي ، ص ١٦٧-٦٨ ؛ صالح ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٤) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٣٣٦-٣٧ ؛ ابن القلانسي ، ص ١٧١ .

الميت، قلعة الشوبك^١، وذلك لحراسة طريق القوافل من دمشق الى مصر والحجاز. وسار خلفاؤه على خطته، فشددوا قبضتهم على مقاليد الامور بانشاء الحصون في كل بلد استولوا عليه. وكانت قلعة الشوبك وحصن الكرك، بحكم موقعهما، امنع الحصون السبعة التي اقاموها في تلك المنطقة^٢. وعندما مات بلدوين سنة ١١١٨، كانت مملكته قد بلغت اوج مجدها، فكانت تمتد من العقبة الى بيروت. الا ان صور بقيت بيد المسلمين حتى سنة ١١٢٤^٣، وذلك بفضل قيامها على شبه جزيرة حصينة؛ وكذلك عسقلان فقد بقيت بيدهم حتى سنة ١١٥٣. اما من حيث الاتساع شرقاً فان المملكة لم تتجاوز وادي الاردن بعيداً.

التوسع في الشمال

وكذلك الاقاليم اللاتينية في الشمال، فانها اخذت في التوسع. ذلك ان عين ريمند^٤ كانت على مدينة طرابلس منذ ان تخطاها في حملته الساحلية، فعاد اليها بعد فتح القدس، ووالقى عليها الحصار. وقد عمد سنة ١١٠٣، رغبة منه في ان يعزلها تماماً عما حولها، الى بناء قلعة^٥ — هي قلعة طرابلس — على بـل مجاور يُعرف بـ «تل الحجاج»، ثم غدا هذا الموقع نواة لحي لاتيني. وطال امر الحصار على الرغم من الامدادات التي كانت تصل من الجبال المجاورة^٦. وكان عدد سكان المدينة ٢٠ الفاً، وكانت أهم صناعاتها صناعة الزجاج وصناعة الورق. وقد عمد ريمند بين الفينة والفينة الى مهاجمة بعض المدن المجاورة، وقد تم له إخضاعها، وكان ذلك في الغالب بمساعدة اسطول جنوى. وكانت «المرقب» الحد الشمالي لمنطقة طرابلس،

١) سماها اللاتين Mons Regalis (الجلل الملكي) لكن نقوصاً قديمة تشير الى ان هذا الاسم اطلق على قلعة شبيهة الى الشمال الشرقي هي قلعة الكرك بنيت حوالي ١١٤٠. ولفظة كرك العربية معرفة عن الارامية كرخا ومنها «بلدة».

٢) للاستزادة عن هذه الحصون راجع Camille Enlart, *Les Monuments Croisés* 2 vols. (Paris, 1925-8).

٣) راجع ص ٢٠٧ و ٢٠٨ من هذا الجزء.

٤) لما كان يلقب بـ Saint-Gilles فقد دعاه العرب صنجيل او ابن صنجيل.

٥) ولقد رمى الاتراك واغتنوها سجناً، ثم استخدموها الانكليز في الحرب العالمية الثانية مركزاً لغذف الطائرات المهاجمة.

٦) ابن خلدون، ج ٥، ص ١٨٦.

و « جبيل » حدها الجنوبي، اما طرابلس نفسها فلم تسقط حتى سنة ١١٠٤، اي بعد مضي اربع سنوات على وفاة ريمند. والظاهر ان المدينة كانت قد غدت، تحت حكم بني عمار، مركزاً للتعليم الشيعي، فكثرت فيها المدارس والمكاتب. لكن هذه المعالم زالت في اعقاب تلك الكوارث^١. وكان المعري بين كبار الادباء الذين افادوا من مكتبة طرابلس.

ثم ان اللاذقية الى الشمال، سقطت بيد تانكرد سنة ١١٠٣ وكذلك سقطت افامية، بعد ذلك بثلاث سنوات. ثم الحقت كلتا المدينتين بولاية انطاكية، وقد كانت تضم بعض الاحيان اقساماً من كيليكيا.

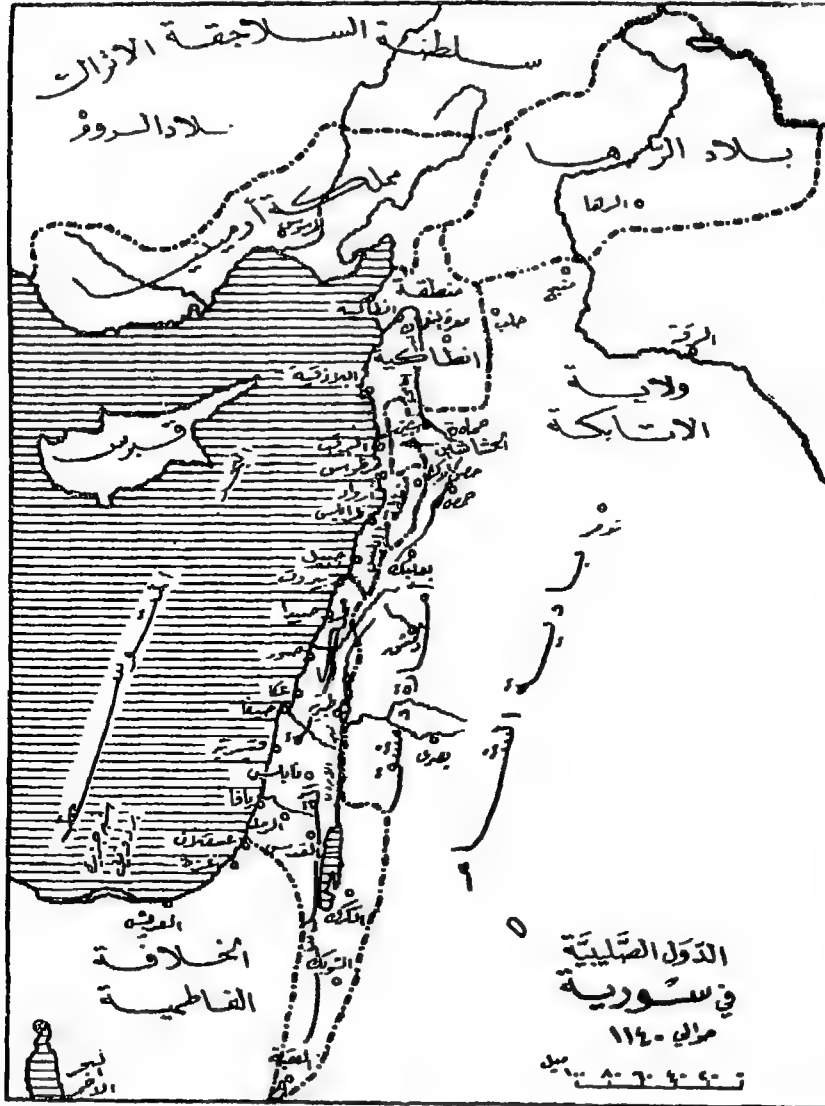
ولدى وفاة بلدوين الثاني (١١٨٠ - ٣١)، كانت المملكة اللاتينية مع اقطاعاتها قد اكتملت. فإن الدول اللاتينية الثلاث في الشمال - طرابلس، وانطاكية، والرها - كانت تدين بالولاء الاسمي للملك القدس. لقد كان الانتصار باهراً، ولا ريب في انه ألهم الفرنج بالثقة في النفس، وعمر صدورهم بالأمل في المستقبل. على ان الشيء الذي ارتقبوه لم يكن، بواقع الامر، براقاً الى هذا الحد. فباستثناء الشمال الاقصى والجنوب الاقصى، فان باقي المنطقة الوسطى لم يكن سوى ساحل ضيق، وهو منطقة مسيحية صغيرة في متسع من البلاد الاسلامية مترامي الاطراف. ولم يكن بين منها ما يبعد عن العدو اكثر من مسيرة يوم واحد. اما المدن الداخلية نظير حلب^٢ وحماة وحمص وبعبك^٣ ودمشق، فلم تقع بيد الفرنج، مع انها كانت هدفاً لغارات شنت عليها بين الجين والحين. وقد اجبرت احياناً على دفع الجزية، شأن دمشق، إذ أدتها الى بلدوين الثاني سنة ١١٣٦^٤. وكان سهل البقاع الحبيب تابعاً لهذه المدينة، وكان الافرنج قليلي العدد في ولايتهم الخاصة. ولم يكونوا يوماً حتى في القدس وسواها من المدن المحتلة، اكثر من اقلية ضئيلة. ذلك ان كثيرين

(١) ابن القلانسي، ص ١٦٣: ابن الاثير، ج ١٠، ص ٣٣٣ - ٣٤؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، نشر جيمس جويت (شيكاغو، ١٩٠٧)، ص ١٧؛ William of Tyre, vol. i, pp. 477-8.

(٢) انظر William of Tyre, vol. ii, p. 22.

(٣) انظر William of Tyre, vol. ii, p. 413.

(٤) في السنة التي بدأت في ايلول ١١٥٦ دفع حاكمها نور الدين ٨٠٠٠ دينار؛ ابن القلانسي، ص ٣٣٦.



منهم، بعد ان تحقق الاستيلاء على القدس، اعتبروا ان تعهدهم قد انجز، وعادوا ادراجهم إلى أوطانهم. ولا ينبغي ان بقاء مثل هذه الدول الغربية كان رهناً بوصول امدادات جديدة من المجندين بصورة متواصلة من الوطن الاول، وببقاء الاعداء مفكرين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة.

الردة الاسلامية على يد زنكي

بقيام اتابك زنكي (١١٢٧ - ١١٤٦) - التركي الازرق العينين - امير حلب والموصل^١، أخذت بوادر التوحيد والزعامة في الظهور. وكان زنكي هو الاول بين عدد من الابطال، تعاقبوا على مناجزة الصليبيين. وكانت ضرباته المسددة هي اولى الضربات التي زعزت الدول اللاتينية، فزححت تحتها في ما بعد. كانت حملته الاولى على الرها، وهي الحصن الشمالي لهذه الدول. فقد ألقى حولها حصاراً سنة ١١٤٤ استمر اربعة أسابيع، وانتهى بانتزاعها من يد جوسلين الثاني^٢. فكانت اسبق الولايات الصليبية إلى الظهور اسبقها إلى السقوط؛ وكان سقوطها نذيراً بتحول مجرى الحوادث في مصلحة المسلمين. أما وقع الخبر في اوروبا فكان باعثاً على تجهيز ما يعرف بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ٤٩).

على ان التقسيم التقليدي للحركة الصليبية الى عدد معين من الحملات، لا يخلو من تكلف وافتعال، لأن سيل الامدادات كاد يكون متواصلاً، فالخط الفاصل بينها لا يبدو بجلاء. ولعل الاولى بنا ان نجعل هذه الحركة في ثلاث فترات، الاولى تشمل عصر الفتح اللاتيني، وتمتد الى سنة ١١٤٤؛ والثانية تضم عهد الردة الاسلامية، التي استهلها زنكي واختتمها صلاح الدين بانتصاراته الباهرة؛ والثالثة تجمع عهد الحروب الصغيرة، التي رافقت بوجه عام، القرن الثالث عشر، وبرزت فيها بطولة الايوبيين والمماليك، وانتهت باخراج باقي الصليبيين من البلاد.

نور الدين زنكي

لقد انتقلت بطولة القضية الاسلامية من زنكي الى ابنه نور الدين محمود. وقد كان نور الدين يفوق اياه مقدرة، فتمكن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من احد خلفاء طغتكين^٣، مزيلاً بذلك العقبة الاخيرة القائمة بين المنطقة الخاضعة لزنكي

(١) راجع ص ٢٠٧ - ٢٠٨ من هذا الجزء.

(٢) ابو شملة، ج ١، ص ٣٦ - ٣٧؛ ابن الاثير في *Recueil* ج ٢، ق ٢، ص ١١٨ وما بعد.

(٣) راجع ص ٢٠٧ - ٢٠٨ من هذا الجزء؛ ابن الاثير، ج ١١، ص ١٣٠ - ٣١.

ومدينة القدس . وقد كانت دمشق ، لسنين كثيرة ، حليفة فعلية للقدس^١ ؛ أما صرخد (صلخد) ، وبصرى ، وبانياس — التي كانت خاضعة للاسماعيلية — وغيرها من المدن في منطقة دمشق . فربما عمدت أحياناً الى التماس العون من اللاتين لمواصلة كفاحها ضد المسلمين الآخرين^٢ . وكذلك بنو فضل المتحدرين من طي — ولعلمهم اوسع القبائل سلطاناً في بادية الشام — فانهم ربما حالفوا الافرنج آنأً ، والفاطميين آنأً آخر^٣ . وقد كان لدى اللاتين في القدس فرقة خفيفة من الفرسان عرفت بأبناء الاتراك^٤ ، كان جلها من المسلمين المدربين ؛ ثم فرقة من الارمن المشاة ، واخرى من النبالة الموارنة^٥ . وباستيلاء نور الدين على دمشق ، امتد سلطانه من الموصل الى حوران ، واخذ قرن « الهلال » يمتد جنوباً .

وكان نور الدين عالماً باحوال الفاطميين الواهنة ، فرغبةً منه في تحقيق الفائدة المرجوة من وضع القدس بين حجري رحي — من الشمال ومن الجنوب — بعث بقائد باسل من قواده ، هو اسد الدين شيركوه الى مصر . ففاز هذا سنة ١١٦٩ ، بعد انتصارات حققها في ميدان السياسة والقتال ، بتولي الوزارة للخليفة العاضد (١١٦٠ — ٧٠) ؛ لكنه قضى نجه بعد شهرين من تقلد الوزارة ، فانتقلت شارتها من بعده الى ابن اخيه صلاح الدين بن ايوب^٦ .

ظهور صلاح الدين

ولد الملك الناصر صلاح الدين يوسف في تكريت على نهر دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين . وبعد سنة من مولده انتقل به ابواه الى بعلبك ؛ وكان زنكي قد

(١) ابن القلانسي (الذي كان يشغل في هذا الوقت مركزاً هاماً في حكومة دمشق) ، من ٣٠٨ — ٩ ؛ ابو شامة ، ج ١ ، ص ٧٧ ؛ William of Tyre, vol. ii, pp. 76-7, 105-6, 147-8, 224 .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٨٩ — ٩٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢ — ٣ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٦ وما بعد ؛ A. S. Tritton in *Bulletin, School of Oriental and African Studies*, vol. xii (1948), p. 567.

(٤) عماد الدين الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القلبي ، نشر دي لاند برغ (ليندن ، ١٨٨٢) ، ص ٤٢٥ ؛ اسامة ، ص ٥١ .

(٥) قابل Jacques de Vitry, *The History of Jerusalem*, tr. Aubrey Stewart (London, 1896), p. 79 ; Dib, p. 94.

(٦) ابو شامة ، ج ١ ، ص ١٦٠ — ٦١ ؛ سبط بن الجوزي ، ص ١٧٥ .

عين اياه ايوب قائداً لحاميتها . وكان صلاح الدين ، فيما يبدو ، اكثر نزوعاً الى العلوم الدينية منه الى الشؤون العسكرية . ولذلك لم يرافق عمه في حملته على مصر سنة ١١٦٤ ، إلا بعد تردد وتمنع^١ . على ان هذه الرحلة كانت طليعة اتجاه جديد في حياته - اتجاه يرمي الى السعي وراء ثلاثة اهداف هي : احلال التعليم السني مكان التعليم الشيعي في مصر ، وتوحيد مصر وسورية تحت سلطة واحدة ، ثم مواصلة الجهاد ضد الافرنج . وقد كان الهدف الاول اسهلها تحقيقاً ؛ ذلك ان صلاح الدين عمد ، والخليفة العاضد مسجى على فراش الموت سنة ١١٧١ - وهو آنئذٍ وزيره - الى جعل اسم الخليفة العباسي المعاصر « المستضي » في صلاة الجمعة مكان « العاضد » ، وعلى هذه الصورة كان ختام الخلافة الفاطمية . ومهما كان من غرابة هذا الامر وصعوبة تصديقه ، فواقع الامر ان التغيير القوري هذا قد تم « ولم ينتطح فيه عنزان »^٢ ، وبه غدا صلاح الدين الحاكم الفردي في مصر . واما هدفه الثاني ، فقد حققه سنة ١١٧٤ ، عندما توفي سيده نور الدين حاكم سورية ؛ إذ تمكن ، بعد بضعة اشتباكات طفيفة ، من انتزاع سورية من ابن نور الدين ، اسماعيل وهو بعد في الجادية عشرة من عمره . وكان تحقيق الهدفين الاولين مما جعل الثالث في حكم المتوقع .

واذ كانت القيروان والحجاز متاحيتين لمصر ، فقد انضمتا فيورا اليها . واصبحتا جزءاً من الدولة السورية المصرية الناشئة . ثم الحق ظوران شاه أخو صلاح الدين الاكبر بهذه الدولة النوبة واليمن . وفي سنة ١١٧٥ اسند الخليفة العباسي الى صلاح الدين ، بناء على طلبه الخاص ، السلطة على جميع هذه المناطق ، مانحاً بذلك ما لم يكن يملك فعلاً ، ولكن ما اتاح له ان يعتزّ بعدم رفضه . وكان الحاق العراق الاعلى ، باستثناء الموصل نفسه ، بما استكمل الوضع الجغرافي لهذه السلطنة^٣ . وهكذا فإن ما حلم به نور الدين من محاصرة الافرنج وسحقهم وقطع دابرهم ، بدأ يتحقق بما تم من جليل الاعمال على يد خلفه الذي فاقه سهارة .

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ : ابو شامة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ؛ ابو الفداء ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٤٢ ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٥٣ ؛ قابل : ابو شامة ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ - ٧٥ .

(٤) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٣١٩ - ٢١ .

معركة حطين الفاصلة

واخيراً تفرغ صلاح الدين لتركيز قواه ضد الافرنج ؛ ودقت ساعة الخطر المؤذنة بزوال المملكة اللاتينية ، عندما سقطت طبرية ، بعد حصار دام ستة ايام . وتحول من ثم جيش المسلمين نحو حطين^١ في جوار طبرية ، وهناك نشبت المعركة في الثالث والرابع من تموز سنة ١١٨٧ . وكان الحر شديداً للغاية ؛ وكان السير الطويل قد انهدك جيوش الافرنج المدججين بالسلاح الثقيل ، والعطش قد خلبهم . فأحاط بهم المسلمون بسلاحهم الخفيف ، وامطروهم بوابل من النبال لم يسبق لهم ان تعرضوا لنظيره . ولم يسلم من العشرين الغاً ، بين فارس^٢ وراجل ، إلا من ارتد أو لاذ بالفرار ؛ اما الباقون فقد سقطوا في المعركة ، او وقعوا في الاسر . وكان على رأس موكب الاسرى ملك القدس بذاته ، غي ده لوسينيان . وقد استقبله السلطان الكبير الباسل بما يليق برتبته الرفيعة . لكن رفيقه رجينالد الشاتيونى، حاكم الكرك^٣، عومل معاملة اخرى استحقها ، ذلك لأنه عمداً مراراً عديدة الى خرق الاتفاقات المعقودة ، وهاجم الحجاج وقوافل التجار لدى مروره بمحصنه ، على الطريق الرئيسي ، الى الجنوب من مدينة القدس ؛ وقد كانت اخت السلطان مرة في احدى هذه القوافل . وكان رجلاً هذا مغامراً بمقدار ما كان اهوَج ، فكان يوالي التعديت على الساحلين التوبي والعربي ، حتى انه انزل قواه على ارض الحجاز المقدسة ، واتجه صوب المدينة . واذ غدا على مسيرة يوم او بعض يوم من المدينة المقدسة نفسها ، صدته فرقة مصرية كانت قد نقلت الى هناك على جناح السرعة ، في اسطول جهز بعجلة . وقد شاع انه كان ينوي نقل جثمان محمد الى الكرك ، وفرض رسوم فادحة على حجاج المسلمين في مقابل مشاهدته^٤ . وكان صلاح الدين قد اقسم على ان ينحره

(١) ترتفع قرون حطين ١٧٠٠ قدم فوق سطح بحر الجليل وهي فوهة بركان خامد . وفي الاخبار ان عظة السيد المسيح على الجبل انما كالت في هذا المكان .

(٢) من الهيكليين والاسيتاريين ؛ فالهيكليون دعوا كذلك لان مقامهم الاول كان قرب موقع هيكل سليمان ، وقد نظموه حوالي ١١١٩ لتأمين الحجاج في طريقهم الى الارض المقدسة . اما الاسيتاريون او فرسان القديس يوحنا القلبي فقد تمردوا من مؤسسة سابقة كان هدفها اعداد المادوي الحجاج لكنهم تحولوا في ما بعد الى اغراض عسكرية . وقد تقيد الفريقان باليهود الرهبانية .

(٣) راجع ص ٢٣٠ . في ما سبق من هذا الفصل .

(٤) شاهد ابن جبير (ص ٥٨ - ٦٠) في الاسكندرية بقايا جيشه مشهودين الى الجمال يواجهون انفلها وهم يقادون الى الاعدام على صوت الطبول . ابو الداء ؛ ج ٣ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

بيده ، وقد حان الوقت للبر بالقسم . ولم ينجِه ، وهو اسير مكبَّل بالاصفاد ، ان شرب الماء في خيمة آسره ، بحكم التقليد العربي في امان الضيف ، لأن الماء طلب ولم يقدم . وارتعد غي اذ هوى صلاح الدين بالسيف على عنق اسيره ، لكن صلاح الدين ردَّ الايمان الى نفسه بقوله « ان الملك لا يقتل الملك »^١ .

كان القضاء ، في يوم حطين ، على جيش الافرنج ، وفيه مفارز من الولايات الاخرى ، منذراً بمصير المملكة اللاتينية المحتوم . فبعد حصار دام اسبوعاً واحداً استسلمت القدس في الثاني من تشرين الاول . وكان الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للمدنيين من الافرنج ، ومعاملة الافرنج للمسلمين قبل ذلك بثمانين سنة . فمن استطاع ان يؤدي الفدية عن نفسه فقد فعل ؛ وسمح للفقراء منهم بفرصة عشرين يوماً يجمعون خلالها مبلغاً يقتدون به نفوسهم ؛ وبيع الباقون عبيداً . أما الاراضي التي اخلاها الافرنج ، فقد ابتاعها الجنود والنصارى من المواطنين^٢ . واتجهت موجة الفتح بعد القدس نحو الحصون الباقية ، فجرفت في طريقها الشوبك والكرك الى الجنوب ، وقلعة كوكب^٣ والشقيف^٤ وصهيون الى الشمال . ثم سقطت عسقلان وعكا وصفد وطرطوس وجبله واللاذقية جميعها قبل نهاية سنة ١١٨٩^٥ ؛ ولم يبقَ في يد الافرنج إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض المدن والحصون الصغيرة^٦ .

عكا مركز النشاط الحربي

إن خروج المدينة المقدسة من يد الصليبيين أثار أوروبا ، ودفعها إلى إعداد حملة

(١) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ٧٥ وما بعد ، وهو ينقل عن شاهد عيان ؛ ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٣٥٢ - ٥٥ ؛ نهى الدين ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (القاهرة ، ١٣١٧) ، ص ٢٧ - ٦٠ - ٦٥ ، عماد الدين الاصفهاني ، ص ٢٢ - ٢٨ ؛ Ernoul and Bernard le Tresorier, *Chronique*, ed. M. L. de Mas Latrie (Paris, 1871), pp. 172-4.

(٢) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣١١ .

(٣) حصن جديد بناه الصليبيون على الاردن الى الشمال من ييسان وكان اسمه التلم «كوكب الهوا» .

(٤) قائمة على صخر شاهق يعلو ١٥٠٠ قدم عن نهر القيطاني وكانت عرش لمر . وهي تسيطر على المر الجبلي من دمشق الى صيدا واسمها التلم شقيف ارنون (شقيف من لفظة سريانية معناها الصخر العظيم ؛ ارنون كذلك بمعنى السيل المنبع) .

(٥) المقرئزي ، كتاب السلوك لمعرفة الملوك ، نشر مصطفى زيادة ، ج ١ ، ق ١ (القاهرة ١٩٣٤) ، ص ٩٩ - ١٠١ .

(٦) ابن شداد ، ص ٦٥ وما بعد ؛ عماد الدين ، ص ١٣٦ وما بعد ؛ Ernoul and Bernard, pp. 179 seq. 251.

صليبية ثالثة ، ، ساهم فيها اقوى الملوك في اوربا الغربية آنذاك وهم ثلاثة : فردريك بارباروسا ملك المانيا ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا ، وريكاردرس الاول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد . وقد التقت الاسطورة بالتاريخ لتجعل من هذه المعركة التي تقابل فيها البطلان : ريكاردرس وصلاح الدين ، حقبة من أروع الحقب وأشدها اثارة في تاريخ الغرب والشرق .

سلك ملك المانيا طريق البر ، لكنه غرق وهو يعبر نهراً في كيليكيا ، فادرك الحور والتخاذل الكثيرين من اتباعه وعادوا أدراجهم . اما اللاتين المقيمون في سورية ، فقد ايقنوا ان مدينة عكا هي المفتاح لاستعادة الملك المفقود . وعليه فقد وجهوا نحوها جميع القوى المقاتلة ، سواء منها ما كان في حوزتهم ، وما تقاطر من اوربا على صورة إمدادات . وقد تولى قيادة هذه الحملة الملك غي ، مع انه كان قد اقسام بشرفه لصلاح الدين ، بعد معركة حطين ، انه لا يعود الى شهر السلاح في وجهه . لكنه سار نحو القدس والتقى عليها الحصار . وعندها خف صلاح الدين لانقاذها وضرب نيامه في مقابل مخيم العدو .

وكان للافرنج على العرب افضلية اكيدة هي مؤازرة الاسطول ومعدات الحصار الحديثة . وقد استمرت العمليات الخربية سنتين (من ٢٧ آب ١١٨٩ الى ١٢ تموز ١١٩١) ، وتعتبر من اعظم المواقع التي دارت في تاريخ القرون الوسطى . عمد فيها صلاح الدين الى جماعة من الملاحين المسلمين في بيروت ، فألبسهم ملابس الافرنج ، وارسل معهم الخنازير ، وكلفهم بنقل المؤن بجرأ الى المدينة المحاصرة^١ . وسجل فيها التاريخ اعمالاً من البطولة النادرة جرت في كلا المعسكرين ، منها ان نحاساً دمشقياً أثر نيل الاجر من الله على كسب مكافأة من السلطان لاحراقه ثلاثة من ابراج المحاصرين بمتفجرات زكبتها هولته الغاية^٢ . وكان ريكاردرس قد استقدم من صقلية حجراً كبيراً من الصوان ليرمي به بالمنجنيق ففعل وقتل به ، في ما يروي ، ثلاثة عشر من اهل عكا ؛ فحمل الى صلاح الدين كتخفة نادرة . وقد استعين بالسباحين والحمام الزاجل لتأمين الصلات بين صلاح الدين والمدينة المحاصرة . وحدث مرة ان احد السباحين غرق ، وكان يحمل مالا ورسائل الى المحاصرين ، فحذفت الامواج

(١) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٢١ .

بجثمانه الى الشاطئ، حيث تلقاه ابناء عكا، واخذوا ما كان يحمله من مال ورسائل . وقد أوحى هذه الحادثة لمدون سيرة صلاح الدين ^١ ان يسجل : « فما رأي من اخذ الامانة في حال حياته وقد ردها في مماته إلا هذا الرجل » . واذا أخفق صلاح الدين في الحصول على نجدة من الخليفة ، اضطرت حامية المدينة الى الاستسلام .

وكان من شروط الاستسلام اعادة « الصليب الحقيقي » الذي انتهب في حطين ، واخلاء سبيل الحامية ، في مقابل اداء ٢٠٠ ألف قطعة من الذهب ^٢ . واذا لم يدفع المال بعد مضي شهر أمر قلب الاسد بالآلئين والسبع مئة اسير فقتلوا عن آخرهم ^٣ . وكان ريكاردوس وجداني الحيال ، فاقترح على صلاح الدين ، حسماً للنزاع ، ان تزف أخت ريكاردوس الى اخ صلاح الدين الاصغر ، الملك العادل ، وان تقدم عكا والقدس للعروسة هدية زفاف ؛ فيكون بذلك ختام النضال المسيحي الاسلامي ^٤ . وفي ايار سنة ١١٩٢ قام ريكاردوس بمنح الملك الكامل ابن الملك العادل رتبة القروسية في احتفال رسمي مهيب ، وكان عمه صلاح الدين قد منح ، قبل ذلك بسنين عديدة ، هذه الرتبة السامية من رتب القروسية المسيحية . وقد تبادل ريكاردوس وصلاح الدين الهدايا لكن لم يقدر لهما ان يلتقيا . وفي ٢ أيلول من سنة ١١٩٢ تم الصلح بينهما على ان يكون الساحل من مدينة صور الى الجنوب تابعاً للآتين ، وان يبقى الداخل بيد المسلمين ، وان لا يعترض احد سبيل الحجاج الوافدين على القدس . وهكذا قسمت فلسطين ، وودع ريكاردوس سورية ، وعاد ادراجه الى وطنه . وفي مستهل شهر آذار من العام التالي توفي صلاح الدين على اثر حمى اصابته ، وله من العمر خمس وخمسون سنة . ولا يزال قبره القائم الى جانب المسجد الاموي من اجل المزارات في العاصمة السورية .

لم يكن صلاح الدين بطلاً من ابطال الحروب ، وعلمنا من اعلام اهل السنة فحسب ، بل كان - الى ذلك - من بناء النهضة العلمية وحماة اربابها . فقد أنشأ

(١) ابن شداد ، ص ١٢٠ .

(٢) ابو شامة ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ؛ عماد الدين ، ص ٣٥٧ ؛ ابن العبري ، ص ٣٨٦ - ٨٧ ؛ ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٣) ابن شداد ، ص ١٦٤ - ٦٥ ؛ Benedict of Peterboroug, ed. W. Stubbs (London, 1867), vol. ii. p. 189.

(٤) قابل : ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

المدارس ومعاهد البحث، وبنى المساجد في مصر وفي سورية. وكانت بطانته الخاصة تشتمل على الوزير الاديب، القاضي الفاضل^١، والمؤرخ الانتيق الاسلوب عماد الدين الاصفهانى^٢، ثم كاتبه الخاص ومدون اخباره، بهاء الدين بن شداد^٣. وقد وزع على اتباعه الكنوز التي وقعت في يده عند اكتساح الخلافة الفاطمية^٤، ولم يترك لنفسه شيئاً منها. وكان من هذه النفائس حجر من الياقوت وزنه ابن الاثير بنفسه^٥ فاذا زنته ١٧ درهماً. وقد عرف هذا الحجر الثمين بالجبل وكان يشرق في الليل كأنه المصباح. وقد كان في ما روي للسلاجقة، وقبلهم في حوزة العباسيين، فسقط يوماً من الرشيد في نهر دجلة؛ وقد سبق ان كان قبل ذلك عند الكاسرة^٦.

اما املاك نور الدين فقد عفت عنها صلاح الدين وتركها لابن الفقيد. واما الارث الذي خلفه هو فقد بلغ سبعة واربعين درهماً. وقطعة واحدة من الذهب^٧. لكن الذكرى التي خلفها لا تزال كترأ يفوق كل تقدير في تراث الشرق العربي. ويتمتع صلاح الدين في اوربا بما يقرب مما يتمتع به في الشرق من ذكرى المروءة والبنالة. وقد الممت ذكراء خيال الشعراء الانكليز، وغدت خواطر الروائيين الحديثين^٨.

-
- (١) ابن خلكان، ج ١، ص ٥٠٩ وما بعد؛ السيكي، طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة، ١٣٢٤) ج ٤، ص ٢٥٣ - ٥٤.
- (٢) ابن خلكان، ج ٢، ص ٤٩٥ وما بعد؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ١، ص ٢٧٠. وقد اعتمد في مادة هذا الفصل على كتابه: «الفتح».
- (٣) ابن خلكان، ج ٣، ص ٤٢٨ وما بعد. وقد اعتمد في هذا الفصل على كتابه: «السيرة» الى مدى بعيد.
- (٤) المقرئ، ج ١، ص ٤١٤ - ١٦؛ ابن تقيي بردي، نشر پوپر، ج ٣، ق ١، ص ٨٥ - ٨٦.
- (٥) المجلد ١١، ص ٢٤٢.
- (٦) ابن الاثير، ج ٦، ص ٧٤؛ ج ١٠، ص ٢٦٦؛ السمودي، ج ٧، ص ٣٧٦؛ الطبري، ج ٣، ص ١٦٤٧، ١٦٠٢.
- (٧) ابو الفداء، ج ٨، ص ٩.

(٨) هنالك شاعر دمشقي عرف صلاح الدين معرفة شخصية بهاء بمرجه. وذكره كذلك ابن عنين في ديوانه، نشر خليل مردم (دمشق، ١٩٤٦)، ص ٦، ٢١٠ - ٢١١؛ اما ابن الساعاتي وهو شاعر معاصر آخر فقد امتدحه بقصائد عديدة وحيا بطولته، نشر الديوان انيس المقدسي، (بيروت، ١٩٣٨) ج ١، ص ١٩ - ٢١.

بعد وفاة صلاح الدين

تبدأ بموت صلاح الدين، بطل الاسلام العظيم، الحقبة الثالثة في تاريخ الصليبيين، وهي فترة من التفسخ والفتن استمرت قرناً من الزمان. ولم يكن الجمهور في اوربا، طيلة القرن الثالث عشر، ليلقي بالاً الى هذه الحروب، ولم يجهز منها ما هو شبيه بالحملة الصليبية الاولى، من حيث انها تخلفت عن دوافع دينية، الاحتمالات القديس لويس ملك فرنسا، وذلك في اواسط ذلك القرن. على ان عدداً من الحملات الصليبية التي جهزت في هذا العصر قد وجهت الى مصر على امل ان تبلغ البحر الاحمر، وتساهم في النشاط التجاري العابر في المحيط الهندي، على افتراض ان احتلال دمياط او الاسكندرية - مثلاً - قد يمكن من استبدال القدس باحدهما. وكان المسلمون، الى ذلك، قد فقدوا روح الجهاد، ولم تكن اضافة الزعامة الموحدة والممتلكات الموحدة باقل خطورة. فقد انقسمت سورية بين ابني صلاح الدين، على ان الملك العادل اخو صلاح الدين احرز بعد ذلك بامد قصير، السيادة على مصر وعلى جزء كبير من سورية^١. وقد حاول الملك العادل، طيلة عهد ولايته (١١٩٩ - ١٢١٨)، ان يحافظ على الصلات الودية مع الافرنج. وكان هدف هذه السياسة تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الايطاليين.

وقد نشأت بعد العادل اسر ايوبية عديدة تولت الحكم في مصر ودمشق والعراق، وظهرت منها فروع اخرى في حمص وحماة واليمن^٢. وفي خلال الاضطرابات التي نشبت ما بين فروع هذه السلالة، اخذت المدن التي احتلها صلاح الدين، نظير بيروت وصفد وطبرية، بل والقدس (١٢٢٩)، تعود تبعاً الى ايدي الافرنج. فقد تخلى الملك الكامل ابن العادل عن القدس لفرديريك الثاني ملك صقلية، بموجب معاهدة عقدت لعشر سنوات، تعهد بها فرديريك ان يقدم العون للكامل على اعدائه، وجلهم من الايوبيين^٣. لكن الملك الصالح، نجم الدين ابن اخي الكامل، عمد سنة ١٢٤٤ الى استخدام مفرزة من اترك خوارزم، الذين اخرجهم

(١) انظر الفصل السابع والاربعين الصفحة الاولى.

(٢) انظر جداول انساب الايوبيين في الفصل السابع والاربعين.

(٣) ابو الفداء، ج ٣، ص ١٤٨؛ ابن الاثير، ج ١٢، ص ٣١٥.

جنكيز خان من موطنهم في آسيا الوسطى، ليعيد المدينة الى حوزة الاسلام .
على ان الافرنج لم يكن بوسعهم ان يستغلوا هذا التفسخ، لان الشقاق كان قد دب
ايضاً في صفوفهم، فاشتدت المنافسة بين اهل جنوى منهم واهل البندقية، واستحكم
التعاسد بين الفرسان الميكلين والفرسان الاسبتاريين، فنشب النزاع بين زعمائهم؛
ولم يكن حصول احد الجانبين، في هذه الحصومات، على تأييد من المسلمين ضد
الجانب الآخر، باغرب من فوز بعض المسلمين بالتأييد من بعض النصارى، ضد
مسلمين آخرين^١.

القديس لويس

كان الحدث البارز في اواسط القرن الثالث عشر قدوم لويس ملك فرنسا،
قائداً «الحملة الصليبية السادسة» (وهي الاولى الموجهة ضد مصر). وقد قضى
اربع سنوات في سورية (١٢٥٠ - ١٢٥٤) حصّناً في أنطاخيا وقيسارية وعكا
وصيدا^٢. وخرائب الحصن الذي اتخذ مركزاً في صيدا، وقام الفرسان الميكلون
على حمايته، لا تزال قائمة الى اليوم. وكان لويس، بالنسبة الى سائر قواد الصليبيين،
اطهرهم قلباً واسماهم خلقاً - بل لقد كان له شخصية القديس الحقيقي^٣.

بيبرس قائد المقاومة ضد الصليبيين

على ان خطراً جديداً مداماً اخذ يندب سوء العاقبة من الشرق: هو غزو
التتر. فقد كانت قبائل المغول تجتاح شمالي سورية وتتقدم جنوباً. وكان الايوبيون
في الوقت نفسه، يتراجعون امام المماليك^٤. وكان رابع هؤلاء الملك الظاهر بيبرس
(١٢٦٠ - ٧٧)، وقد جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سددوا الى
سورية اللاتينية الضربات القاضية الاخيرة، وقضوا تماماً على مملكة كيليكية
الارمنية. ولقد فاز بيبرس بايقاف زحف المغول الاول في فلسطين^٥، واسترجع

(١) راجع القطعة عن ردة المسلمين على يد زنكي في هذا الفصل .

(٢) Joinville, §§ 406-595.

(٣) انظر الفصل السابع والاربعين حول المماليك بعد الايوبيين .

(٤) انظر الفصل السابع والاربعين حول الفتح المغولي .

ما اخضعوه من سورية، وأعاد توحيد مصر وسورية؛ وغدا من ثم قادراً على مواصلة الحرب المقدسة. وعليه فقد شنّ بين سنتي ١٢٦٣ و ١٢٧١ غارات سنوية على معاقل الافرنج حتى عنت له تبعاً. ومع ان الفرسان الميكلين والاسبتياريين كانوا معتمدين في حصون منيعة، كانت للدول اللاتينية بمثابة المتراس، فقد عجزوا عن الصمود لضربات المتتالية. ففي سنة ١٢٦٣ احتل بيبوس الكرك، وهدم كنيسة الناصرة الجليلية، وبعد ذلك بستين ظفر بقيسارية على أثر هجوم مفاجئ. وبعد حصار دام اربعين يوماً تسلم ارضوف من يد الفرسان الاسبتياريين^١. وفي سنة ١٢٦٦ القت صفد السلاح وأبيدت غدراً حاميتها التي بلغت الالفين عدداً بعد ان منحوا الأمان^٢. ولا تزال أسوار المدينة تحمل العبارة المنقوشة: «اسكندر زمانه وعماد دينه». وعلى الجسر الذي بناه عبر الاردن كتابة نقش على كل من جانبيها رسم أسد. وفي سنة ١٢٦٨ سقطت يافا واستسلمت شقيف ارنون. وأهم من ذلك كله ان انطاكية نفسها القت سلاحها. وقد سقط من حامية انطاكية وسكاتها ١٦ الف تحت حد السيف، ووقع ١٠٠ الف منهم - على ما في الرواية - في الاسر؛ فبيع الصبي منهم باثني عشر درهماً، والبتت بجمسة دراهم. اما المدينة نفسها بقلعتها القديمة وكنائسها الشهيرة، فقد جعلت طعاماً للنار. وهي ضربة لم تصح منها انطاكية حتى الآن^٣.

سقطت انطاكية، وهي الدولة اللاتينية الثانية التي برزت الى الوجود، فكان سقوطها هادماً لمعنويات اللاتين. وعليه فقد سارعوا الى إخلاء عتد من الحصون الصغرى. وفي سنة ١٢٧١ استسلم حصن الاكراد المنيع، بعد حصار قصير (من ٢٤ اذار الى ٨ نيسان)، وهو الحصن الحثني الرئيسي للفرسان الاسبتياريين، وأروع ما خلفته لنا العصور الوسطى من الحصون. وقد كان هذا الحصن تابعاً لحاكم طرابلس. وكان يتسع لألفين من الجنود في آن واحد. وقد حى لسنين عديدة الممر الذي يصل ساحل لبنان الشمالي بسورية، كما حرس قلعة الشقيف الممر الجنوبي. وكلف

(١) ابن الغرات، التاريخ، نشر قسطنطين زريق، ج ٧، (بيروت، ١٩٤٢)، ص ٨٢.

(٢) المقريزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك ترجمة كاترمير (باريس، ١٨٥٤) ج ١، ق ٢ ص ٢٩ - ٣٠؛ ابو الفداء، ج ٤، ص ٣.

(٣) ابن العبري، ص ٥٠٠، المقريزي، ترجمة كاترمير، ج ١ (ق ٢)، ص ٥٢ - ٥٤؛ ابو الفداء، ج ٤، ص ٤ - ٥.

حصن الاكراد في طليعة الحصون الجبلية التي بنيت لتسيطر على الممرات التي امتدت بين الاقاليم الاسلامية الداخلية والمناطق الافرنجية الساحلية . وكان من هذا النوع من الحصون : مصياف^١ والقدموس، والكهف، والحوايي؛ وكانت جميعها بيد الحشاشين احلاف الاستباريين . وهذه الحصون — وأمنعها قلعة مصياف — تقع في منطقة النصيرية وقد قهرت في هذه الآونة، فسارعت طرطوس^٢ وهي حصن الهيكليين الرئيسي^٣، وقلعة المرقب، وهي بيد الاستباريين، الى عقد الصلح . وهذان الحصنان الاخيران يمثلان طراز الحصون الساحلية التي اقيمت لتسيطر على الطريق البحري، ولتحمي المراتي من الاسطول المرباط في مصر . أما قلعة طرطوس فلم يبقَ منها شيء كثير، لكن المرقب لا تزال جاثمة وكأنها مدرعة على رابية . وقد احصى الادريسي^٤ العالم الجغرافي الشهير، الذي زار سورية قبل هذا الوقت بقليل، ما لا يقل عن ستين حصناً ما بين بيروت واللاذقية . وتشير الابحاث الحديثة الى ان المباني الحربية الصليبية، في ظواهرها المسيحية والاسلامية، انما تقوم على اساس من فن التحصين البيزنطي^٥.

الحشاشون

هم فرقة اسماعيلية متجددة، أسسها الحسن بن الصباح، وجعل مقره الرئيسي، سنة ١٠٩٠، قلعة ألموت^٦ في جبل ألبرز . اما اسمهم فمشتق من لفظة «حشيش»^٧

(١) ورد الاسم كذلك : مصياف، ومصبيد، ومصيات، ومصياك، راجع الموسوعة الاسلامية مادة مصياد؛ اسامة، ص ١٤٨، Dussaud, et al., *Syrie antique* ; pl. 128, حيث لا يزال الاسماعيلية يقيمون .

(٢) هي طرطوس الحديثة (واقعة في مقابل جزيرة ارادوس)، وهي في ياقوت طرطوس، ج ٣ ص ٥٢٩ .

(٣) اما حصنهم الداخلي الرئيسي فهو المعروف اليوم ببرج صافيتا وكان كنيسة للروم الارثوذكس .

(٤) نشر كتابه غولدميستر، انظر ص ١٨، ٣٠، ٢٢ .

(٥) Paul Deschamps, *le Crac des Chevaliers* (Paris, 1934), vol. I, pp. 43 seq. (cf. T. E. Lawrence, *Crusader Castles* (London, 1936), vol. i, pp. 13-15.

(٦) ترتفع القلعة كلها على النسر ولعل هذا معنى الاسم، وذلك على الطريق الوعرة بين شواطئ قزوين ومرتفعات ايران .

(٧) عشبة تعرف بالهندية بـ «هناغ» معربها بنج، وقد ورد في المدونات البابلية ذكر عقار من قبيل الترياق «سالب العقل» يزيل الهموم .

العربية ، وهو عشب خدّر كانوا - في ما يظن - يعمدون الى تخدير انفسهم به ، عند الاقدام على أعمالهم . وهذه الجماعة عبارة عن منظمة سرية يرئسها سيد كبير هو « داعي الدعاة » يليه جماعة من الزعماء هم « كبار الدعاة » ، ويلى هؤلاء « الدعاة العاملون » واخيراً جماعة « الفدائيين »^١ ، المستعدين ابدأ لتنفيذ اوامر داعي الدعاة ، فهم لا يتخرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر ، نصارى كانوا او مسلمين ، حتى انهم اتخذوا الاغتيال فناً .

وحوالي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدخلون سورية من الشمال الغربي ، كان الحشاشون يدخلونها من الشمال الشرقي . وكان اول رجل بارز انتقاد اليهم واعتنق مذهبهم الامير السلجوقي رضوان^٢ (ت ١١١٣) ؛ وأول معقل اتخذوه مدينة بانباس^٣ . وفي غضون سنة ١١٤٠ استولوا على عدد من المعقل في المنطقة الجبلية في شمالي سورية . وهو بدير ساروا فيه على خطى انسابهم الفرس . وكان اول ما وقع منها في ايديهم قدموس . وقد قدر وليم الصوري^٤ عددهم بـ ٦٠ ألفاً . اما الأوربيون فقد عرفوا داعي الدعاة بـ « شيخ الجبل » ، وكان مقره في مصياف^٥ . شغل هذا المنصب الرفيع راشد الدين^٦ سنان ، مدة ثلاثين سنة ، ابتداء من سنة ١١٦٢ ، ورجاله هم الذين قاموا بمحاولتين فاشلتين لاغتيال صلاح الدين^٧ . فابت وزيراً دمشقاً كان قد اغرى راشد الدين بالمال من اجل القيام بذلك ، وفاء منه لذكرى نور الدين الزنكي . وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف ، لكنه لم يتمكن من قهرها . واتجه اليه الظن بانه استخدم الحشاشين ضد كوتراود مونتفرات ملك

(١) قابل ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦٦ - ٦٧ .

(٢) راجع ص ٢٠٦ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٣٤ من هذا الجزء .

(٤) العهد الثاني ، ص ٦٩١ ؛ قابل Burchard of Mount Zion, fr. Aubrey Stewart, (London, 1896), p. 105 حيث ورد ان عددهم كان ٤٠ ألفاً .

(٥) يذكر ، Benjamin of Tudela (ca. 1169), vol. I, p. 59 ، ان قاعدته كانت القمموس .

(٦) راشد وليس رشيد ، ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٨٩ ؛ ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

(٧) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

القدس الاسمي . فقد اغتالته سنة ١١٩٢ عصابة تخفّت بزيّ النصارى^١ . وهناك علم آخر من اعلام الافرنج يعزى قتله الى الحشاشين هو الكونت ريمند الثاني حاكم طرابلس (حوالي ١١٥٢) . وقد قام احد اشرف الافرنج بزيارة لحلف سنان في حصنه الجبلي ذي الابراج الشاحنة ، وكان يتولى حراستها جماعة من الحشاشين بالثياب البيضاء . ولدى اشارة من « الشيخ » عمد اثنان من الحرس الى الالتقاء بنفسيهما من اعلى البرج الى الصخور فتمزقا شراً ممزقاً^٢ . ومن هذا يتبين ان الباعث للحشاشين على الطاعة العمياء ، وتقانيهم في الاخلاص لسيدهم ، إنما كان الحمية الدينية ، لا العقائير المحدرة .

وفي سنة ١١٧٢ ارسل « شينخ الجبل » وفداً الى ملك القدس للمفاوضة بشأن احتمال اعتناق اتباعه للنصرانية . وهو تدبير منسجهم مع مبدأ التقية الذي يأخذ به غلاة الشيعة . على ان الفرسان الهيكلين ، حرصاً منهم على الجزية التي كان الحشاشون يؤدونها ، عمدوا الى قتل اعضاء الوفد^٣ . هذا في حين كان القديس لويس في عكا يستقبل وفداً من الحشاشين جاء بهدايا منها أدوات للزينة ومنها حيوانات مصنوعة من الزجاج وشيء من العنبر ، وخاتم قميص . وكان القميص يرمز الى ان لويس كان من راشد بمنزلة قميص راشد من جسده قريباً . فقابله لويس على هذه الهدايا بالمثل^٤ ، وتولى الترجمة بينهما اثنان من الفرسان كانوا يحسنان العربية . والقول ان الحشاشين حاولوا اغتيال لويس قبل قيامه بفرنسا لم يثبت . غير انه ليس من شك في ان نطاق نشاطهم كان قد بلغ شرقاً حتى منغوليا ، حيث حاولوا اغتيال احد كبار الخانات . وبقضاء بيبرس على المركز السوري الذي ظل زمناً يدسّ الدسائس ويوالي الاغتيالات ، تمّ له سحق الحشاشين في سورية الى الابد .

آخر المستعمرات الصليبية

إن النضال الذي بدأه بيبرس ضد الافرنج ، استأنفه من بعده بطل لا يقلّ عنه اندفاعاً وحمية هو قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) ، الملقب عن جدارة بالملك المنصور . ففي

(١) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٥١ ؛ Jacques de Vitry, pp. 116-17; Ambroise, pp. 334-5 ;
(٢) Marinus Sanuto, « Liber Secretorum », -in Bongars, *Gesta Dei per Francos* (Hanau, 1611), vol. ii, p. 201.

(٣) William of Tyre, vol. ii, pp. 392-4; Burchard, pp. 105-6.

(٤) Joinville, pp. 250 seq

١٥ نيسان سنة ١٢٨٢ جدد الهدنة التي كان يبرس قد عقدها مع الفرسان الهيكليين في طرطوس، لعشر سنوات اخرى وعشرة اشهر. وبعد ثلاث سنوات عقد معاهدة بمائة مع أميرة صور، وكانت بيروت في حوزتها^١. وقد حاصر قلعة المرقب ثمانية وثلاثين يوماً استسلمت بعدها، وكان استسلامها في ٢٥ ايار سنة ١٢٨٥. ولا يزال عدد كبير من رؤوس النبال مغروساً ما بين الاحجار في اسوارها الخارجية. وكان المؤرخ الابوي الامير ابو الفداء^٢ آتخذ ناشئاً في الثانية عشرة من عمره، وكانت هذه المناسبة هي المرة الاولى التي عرف بها الحرب. وقد سبقت حاميتها من فرسان الاسبتاريين مخفورة الى طرابلس^٣. وكانت طرابلس اكبر مدينة لا تزال في يد الافرنج، فسقطت بعد ذلك باربعة سنوات، ودكت معالمها الى الارض. وقد كانت الروائح النتنة المنبعثة من الجثث المتراكمة على الجزيرة القائمة خارج المرفأ، من القوة بحيث لم يستطع ابو الفداء احتلالها. وأعيد بناء طرابلس بعد ذلك بعدة سنوات ولكن ليس على موقعها الاول، بل على مسافة عدة اميال من البحر، حيث تقوم الآن. ثم ان عقلية «الأمان وراء الحصون المنيع» التي اعتمدها الهيكليون، قد خابثهم، وكانت عكا الموقع الحربي الخطير الباقي بيد الافرنج. وفيما كان قلاوون يعدّ هجومًا عليها أدركته الوفاة، فتسلم الامر من بعده ابنه الاشرف (١٢٩٠-٩٣)، فسار نحوها؛ وبعد قتال دام اكثر من شهر، استخدم فيه ٩٢ منجنيقاً، انقض عليها في ١٨ ايار ١٢٩١ واحتلها. ولم يراع عهد الأمان الذي قطعه على نفسه للهيكليين، بل فتك بهم اشد الفتك. وقد كان ابو الفداء في عداد المحاصرين، أما المدينة فعدت بحكم الزائلة من الوجود^٤.

(١) لقد حفظ القريري نص المعاهدين ونشرهما كترميم ج ٢ (ق ٣) ص ١٧٢ - ٧٦، ١٧٧ - ٧٨؛ قابل النص كما في ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٠٤ - ٢٦٢، ٢٦٢ - ٧٢.

(٢) المجلد الرابع، ص ٢٢.

(٣) ابن الفرات، ج ٨، ص ١٧ - ١٨.

(٤) المجلد الرابع، ص ٢٤؛ قابل ابن الفرات، ج ٨، ص ٨٠ - ٨١. ويشير الادريسي ص ١٨ الى وجود اربع جزر في مرفأ طرابلس، وما يرى منها اليوم لا يكاد يسمى بالجزر.

(٥) المجلد الرابع، ص ٢٥ - ٢٦؛ القريري ترجمة كترميم، ج ٢ (ق ٣) ص ١٢٥ - ٢٩.

(٦) اعيد بناؤها في القرن الثامن عشر اما القلعة فقد جعلها الانكليز سجنًا لكن الارهابيين الصهيونيين نفوه في ايار ١٩٤٧.

ثم ان سقط عكا قرر مصير المدن الساحلية القليلة الباقية . فاخليت صور في اليوم نفسه ، وحيدا في ١٤ تموز، واستسلمت بيروت في ٢١ تموز، وانطرطوس في ٣ آب . وكان الهيكليون قد هجروا عثليث ، فهدمت في اواسط آب^١ . لكنهم صمدوا في جزيرة ارواد احدى عشرة سنة . ولا يزال ظاهراً فوق باب القلعة الحربة في هذه الجزيرة ، الشعار اللوسيني الحربي وهو اسد ونخلة . ويسقط ارواد أسدل الستار على المشهد الاخير من فصل هو من اروع الفصول في تاريخ النضال بين الشرق والغرب .

(١) صالح ، ص ٤٢ ؛ ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ٢٦ ؛ Sanuto in Bongars, vol. ii, pp. 231 seq.

الفصل السادس والاربعون

التفاعل الحضاري

لقد ابدع الصليبيون حقاً في روائع الاحداث وغرائب الوقائع ، الا انهم كانوا مدعاة لحيبة الامس في مآتي الفكر ومآثر الحضارة ؛ فكانوا ، من حيث فاعليتهم الحضارية ، ابعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق . ذلك لأنهم فتحوا امام بصائر الاوربيين آفاقاً جديدة — صناعية وتجارية واستعمارية ؛ فكانت الدول التي اقاموها في سورية من قبيل الممالك الاستعمارية الحديثة ، وكان التاجر او الحاج آنئذٍ ، في مقام الجندي المسرح اليوم — اداة فعالة في نقل الحضارة . على انهم تركوا في الشرق من النفور بين المسلمين والنصارى ، ما هو باقي الاثر حتى اليوم .

تأثيرهم في الغرب : العلم والادب

كانت الحضارة الاسلامية في العصر الصليبي آخذة في الانحلال في الشرق ، فقوة الابتكار كانت قد غدت اثرأ بعد عين^١ ، قبل ذلك بزمن يسير ، وانوار العلم والادب والفلسفة قد خبت ؛ هذا مع العلم بان الافرنج كانوا اصلاً دون الشرقيين حضارةً . فلقد حال العداء القومي والتعصب الديني ، دون التفاعل الحضاري الطليق ، بينهم وبين المسلمين ؛ وخلقاً جواً تعذرت فيه الاستجابة للمؤثرات . فلا غرابة إذئذ في اننا لا نعلم إلا بكتاب علمي واحد ذي خطر ، نقل من العربية الى اللاتينية ، في هذا العصر بطوله ، هو كتاب المجوسي^٢ « كامل الصناعة الطبية » المعروف بـ « الكتاب الملكي » ؛ ترجمه سنة ١١٢٧ في انطاكية عالم من علماء بيزا اسمه اسطفان . ونقل بعده في انطاكية ايضاً (١٢٤٧) كتاب آخر اقل منه خطراً هو كتاب « سر الاسرار » ، وهو رسالة منسوبة الى ارسطو في علم السحر احرزت شهرة واسعة

(١) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٢) اسمه الاول علي بن العباس توفي سنة ٩٩٤ .

في اواخر العصر الوسيط . وغالب الظن ان تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بجوافز تسربت من الشرق الادنى ، فإذا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لاسيما محاجر الامراض السارية^١، يظهر في اوربا في القرن الثاني عشر، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الاوربية وليدة محاجر الجذام السورية .

وكان التأثير الادبي اضعف وأخفى ؛ فقد نقلت قصص يعود بعضها الى اصل فارسي او هندي ؛ فاذا هي ، كما وردت في « جستاروماتوروم » ومجموعات اخرى ، قد اجري فيها تبديل غريب . فقصة تشوسر : « سكويرز » (Squieres) لها سابقة في الف ليلة وليلة ، وكذلك قصة بوكاتشيو : « ديكاميون » (Decameron) ، فإنها تشمل على عدد من الحكايات ، نقلت شفاهاً من اصول تعود الى الشرق الادنى . اما اسطورة « الكأس المقدس » (Holy Grail) فقد احتفظت بعناصر لا شك في انها ذات اصل سوري .

الفنون الحربية

لقد تعلم الافرنج في سورية استخدام القوس المصلبة^٢، وارتداء الدروع الثقيلة ، يلبسها فرسانهم ويلبسونها خيولهم ؛ ومارسوا النقر على الطنبور والنقارة في جوقة الجيش ، واستعانوا بالحمام الزاجل لنقل المعلومات العسكرية ، وعمدوا الى إرسال الاشارات ليلاً بايقاد النار^٣؛ واقتبسوا كذلك عادة ايقاد المشاعل ابتهاجاً بالانتصارات . وقد عرفوا في الشرق مباريات البطولة بين الفرسان ؛ إذ ان نظام الفروسية بجملته نشأ على الارض السورية . وكان احتكاكهم بفرسان المسلمين مما اغراهم باتخاذ الاوسمة وشارات البطولة ؛ مثال ذلك ان النسرة ذا الرأسين ، الذي تحدر من اصل سومري قديم ، فنقشه زكي على النقود التي ضربها ، ثم اتخذها الارتقيون شارة مميزة لهم قد انتقل الى فرسان المائدة المستديرة وإلى المملكة البيزنطية ،

(١) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء .

(٢) انظر Ludolph von Suchem, p. 135.

(٣) راجع : صالح ، ص ٦٠ - ٦١ ؛ الظاهري ، زينة كشف المالك ، نشر رافيس (باريس ، ١٨٩٤) ، ص ١١٦ - ١٧ ؛ القلقشندي ، ج ٨ ، ص ٣٩٢ - ٩٤ ؛ العمري ، ص ١٩٦ - ٩٧ ؛ قابل : السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

واتخذته اباطرة المانيا سنة ١٣٤٥ شارة لهم . وأخيراً وصل هذا الرمز من رموز البطولة الى الولايات المتحدة فاتخذت النسر شعاراً لها . اما زهرة الزنبق ، التي اشتهر امرها عند العيلاميين والاشوريين ، فأول من أثبتتها من المسلمين شعاراً على الدروع نور الدين ابن زنكي ؛ وكثيراً ما تجدها على النقود التي ضربها الايوبيون والمماليك . ثم اقتبسها الافرنج ؛ ومنهم تسربت الى الفرنسيين ، وانتهت بعد ذلك الى كندا . وكان للوردة مكانتها لدى الايوبيين والمماليك ايضاً . وكان كثيرون من المماليك يتسمون باسم بعض الحيوانات ، ويجعلون صورها على دروعهم شعاراً . فاتخذ بيبرس رسم الاسد شارة^١ ، وهذه لفظة ازور azure (من لازورد العربية) وسواها من اسماء الشارات ، تشهد للتأثير الراسخ الذي تركته الفروسية الاسلامية في النظام الافرنجي .

ان منظمة الفرسان الهيكليين ، نظير زميلتها الاستبارية ، كانت اقرب المنظمات الى مبدأ الجمع بين دوافع الحرب واهداف الدين — وهو المبدأ الذي سبق ان تحقق في الاسلام قديماً — وقد سارت في تصرفها على منهج شبيه بمنهج الجشاشين ، دون ان يقتضي ذلك افتراض صلة بين الفريقين . ففي ادنى مراتب المنظمة المسيحية كان : الاخوة العلمانيون ، والاسياد ، والفرسان ؛ في مقابل : اللصقاء ، والغدائين ، والرفقاء في نظام الجشاشين . وكان الفارس يلبس معطفاً ابيض موسوماً بصليب احمر ، ويرتدي الرفيق معطفاً ابيض وقبعة حمراء ؛ وكانت الرتب العليا ثلاثاً ايضاً ، هي : المدبر ، والمدبر الاعظم ، والسيد الاعظم ، في مقابل : الداعي ، والداعي الكبير ، وشيخ الجبل^٢ . وكان هنالك منظمة سرية اخرى تعرف بالفتوة ، وهي المنظمة التي تجلت فيها روح الفروسية العربية . وقد عمل الناصر العباسي (١١٨٠ — ١٢٢٥) على اصلاح هذه المنظمة ورعايتها ، متأثراً — في الراجح — بالمنظمات الصليبية . وكان المبتدئ فيها يدعى ايضاً بالرفيق ، ويرتدي طرازاً خاصاً من السراويل ، وقد لبسه العادل اخو صلاح الدين ، وابن العادل ايضاً . وكان لهذه المنظمة في سورية فرع عامل عرف بالنوبوية^٣ .

(١) انظر : L. A. Mayer, *Saracenic Heraldry* (Oxford, 1933), pp. 7, 26, 107 .

(٢) راجع ص ٢٤٥ — ٢٤٦ من هذا الجزء .

(٣) ابن الاثير ، ج ١٢ ، ص ٢٦٨ ؛ الفخري ، ص ٤٣٤ ؛ ابن جبير ، ص ٢٨٠ .

هندسة البناء

ان ابرز ما خلفه الصليبيون من الآثار في سورية تلك الحصون العديدة التي لا تزال تتوّج رواابيها؛ وتجيء من بعد الحصون الكنائس . ولقد اعتمد الافرنج في بناء الكنائس الطراز الروماني والطراز القوطي، لكنهم اتخذوا لتزيينها الزخارف البيزنطية والسورية . وقد قلّدوا كنيسة القيامة وقبة الصخرة في كثير من مبانيهم الكنسية لا سيما في ما اقيم منها على طراز « الهيكل المستدير » في انكلترا وفرنسا واسبانيا والمانيا . ثم تحول كثير من كنائس الصليبيين ، بعد ذلك العهد ، الى مساجد ، منها الكاتدرائية العظمى المبنية باسم السيدة في صور^١ حيث كان المؤرخ وليم الصوري^٢ رئيساً للاساقفة (١١٧٥ - ١٢٠٥) ؛ وكنيسة صيدا التي بناها الاسبتاريون ، فتحوّلت الى ما هو معروف بالجامع الكبير ، وكاتدرائية القديس يوحنا التي بناها الملك بلدوين^٣ سنة ١١١٠ في بيروت ، فعدت بعدئذ الجامع العمري ؛ وكاتدرائية السيدة في انطربطوس وهي اجمهون واسلمهون من عادات الزمن - وكانت منسكاً من منسك الحج . شرع في بنائها سنة ١١٣٠ . وكانت تشتمل على صورة رسمها - في ما يظن - القديس لوقا ، وعلى مذبح اجري عليه بطرس ، فيما قيل ، القديس الاحتفالي الاول^٤ . ثم اضيفت الى هذا البناء مئذنة حديثة تقوم ولا شك على انقاض كنيسة سابقة . واخيراً كنيسة البلمند على مقربة من طرابلس ، بناها رهبان الافرنج سنة ١١٥٧^٥ وهي الآن دير للروم الارثوذكس .

الزراعة والصناعة

كان الحجاج يترددون على الاراضي المقدسة ، والتجار يرتادون شواطئ المتوسط الشرقية . قبل مجيء الصليبيين باجيال متطاولة . لكن الحركة الصليبية زادت في نشاط القوى العاملة ، وعممت في اوروبا منتجات الشرق الادنى ، التي كان

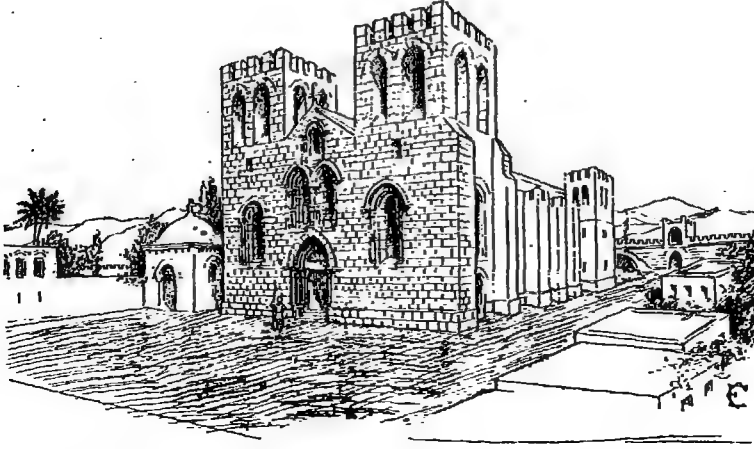
(١) المجلد الثاني ، ص ٤١١ ؛ Enlart, vol. ii, pp. 353 seq.

(٢) صالح ، ص ٥٨ ؛ Enlart, vol. ii, pp. 69 seq.

(٣) Joinville, § 597 ; Jacques de Vitry, pp. 20-21 ; Dussaud et al., *Syrie Antique* (٣ pls. 117, 118 ; Enlart, vol. ii, pp. 403 seq.

(٤) Enlart, vol. ii, pp. 45 seq.

بعضها ولا بد معروفاً قبل ذلك . على ان الذي يزيد في صعوبة تعيين اصول الاشياء ومصادرها ، ان سورية لم تكن الجسر الوحيد الجامع بين الشرق والغرب ، بل



رسم ترميمي لكنيسة السيدة التي بناها الصليبيون في انطربطوس (المعروفة اليوم بطربطوس)

كان هنالك جسران آخران يؤمنان هذه الصلة ، هما صقلية واسبانيا . لذلك كان من الصعب ان نعين بالضبط الطريق الذي سلكته السلع التجارية .

ففي اثناء اقامة الافرنج في سورية ألقت اذواقهم بعض المنتجات المحلية ، وبعض حاصلات الاقليم الحار ، التي كانت تملأ اسواق سورية في ذلك العهد ؛ نذكر منها : السمسم والخروب^١ والذرة والارز والليمون والبطيخ والشمس^٢ وبصل عسقلان^٣ ؛ وكان الشمس يدعى احياناً بنجوخ دمشق . وقد اختلفت عاصمة سورية بالروائح العطرية وماء الورد ؛ وغدت العطور ، والزيت الزكية الخفيفة الواردة من فارس ، وبخور الجزيرة العربية ، وصمونها الطيبة الشذا ، وسوى ذلك

(١) من اصل اشوري : راجع الجزء الاول ص ١٤٩ ج ٢ .

(٢) الاسم القديم برقوق ، وهو من اصل لاتيني منناه التضيغ الباكر .

(٣) اسمه بالافرنجية مشتق من عسقلان فهو معروف بـ shallots, scallions

من التوابل والعطور والحلويات ، اثيرة عندهم ؛ وكذلك كبش القرنفل وما شابه من العطور ، والفلفل ونظيره من التوابل ، والشبة وعود الند ، وكثير من العقاقير ؛ فانها تسربت الى مطابخ الاوربيين ومستودعاتهم في الشرق أولاً ثم في الغرب . وقد تقبلوا بلا تردد غرائب المزاعم عن التوابل الغوالي ، التي تنشأ في الفردوس ، وتندحر طافية على صفحة النيل ، فتنتشل عند مصبه^١ . وفي مصر اضاف الصليبيون الى الوان طعامهم الزنجبيل . واهم من هذه الاصناف جميعها السكر ؛ وكانوا قد عرفوا قصب السكر في سهل لبنان الساحلية . اذ كان تجار العرب قد استحضروه من الهند ، او من جنوبي شرقي آسيا ، حيث يظن انه كان ينمو برياً . وكان الاوربيون ، الى ذلك الحين ، يستخدمون العسل لتحلية الطعام وتركيب الادوية . وكانت صور وجوارها - وهي موطن ولیم^٢ (ت حوالي ١١٩٠) اعظم مؤرخي الصليبيين - حافلة بزارع قصب السكر . وقد اقترنت بالسكر انواع عديدة من الشراب والحلويات والساكر . واول ما ظهرت نوايع الهواء في اوربا سنة ١١٨٠ ، وذلك في نورمنديا ، حيث دعت «بالتركية» . ونوايع الماء في اوربا اقدم من نوايع الهواء ، لكن الذي ينتشر منها في جوار باريوت ، في المانيا ، قد بني على الطراز السوري . وكان هذا الاستبطان قد استخدم في سورية منذ العهد الروماني .

اما في ما يتصل بالازياء والملابس والرياش المنزلية ، فقد ادهفت كذلك رغائب جديدة ، ان لم نقل تولدت اذواق جديدة . فقد اقتنع الافرنج اخيراً بان الملابس الاهلية ، فضلاً عن الوان الطعام المحلي ، هي خير من ملابسهم ، فاخذ الرجال منهم في ارخاء لحاهم ، وارتداء الجلب الفضفاضة ، وستر رؤوسهم بالكوفية ؛ وعمدت النساء الى لبس الشغوف المطرزة بالسكة (سقم) ، والجلوس على الدواوين مصفيات الى الحان العود وانغام الرباب ؛ بل لقد عمدن الى اتخاذ الحجاب في المجتمعات العامة^٣ . وكان المحاربون والحجاج والملاحون والتجار ، يعودون الى اوطانهم حاملين السجاد والبسط والمزركشات ، وهي من ضروب الزخارف البيتية

(١) انظر. Joinville, § 104.

(٢) المجلد الثاني ، ص ٦ ؛ Joinville, § 310.

(٣) ابن جبير ، ص ٣٣٣ .

التي كانت المنازل في الشرق الادنى تحف بها منذ عهد عريق في القدم . وقد غدا اقبالهم على المنسوجات ، نظير الاقمشة الدمشقية والموصلية والبغدادية^١ والشرقية ، وعلى الاطلس والتفتا^٢ والمحمل والحرير والساتان^٣ ، اشد منه في اي وقت مضى . وشاع استعمال الخلة وانواع الفراء ؛ وازداد الطلب على المجوهرات التي اشتهر امرها في دمشق والقاهرة ، حتى ليقال عن العادل اخي صلاح الدين انه كان يرشوها زوجات الافرنج من اجل ان يحملن ازواجهن على الامتناع عن الحرب . وهكذا غدت الكماليات الشرقية ضروريات غربية . ثم ان المرايا الزجاجية حلت محل المعدنية ؛ وكان النصارى السوريون وبعدهم المتصوفة المسلمون ، قد اقتبسوا استخدام المسبحة في الصلاة وهي من اصل هندي ، قبل ان تقع في يد الرومان الكاثوليك . وكان الحجاج يرسلون الى اوطانهم بالصناديق المزخرفة المصنوعة محلياً ، كمنادج لارباب الصناعات من الاوربيين ، يصنعون على غرارها . ثم اخذت اراس ، وسواها من مراكز الصناعة الاوربية ، تقلد ما في الشرق الادنى من صناعات الخزف والسجاد والانسجة . وقد رافق الاقمشة والمصنوعات المعدنية ما اتصل بها من الاصباغ لاسيما الالوان الجديدة نظير الليمكي والاحمر القرمزي . وقلدوا كذلك صناعات الخزف والذهب والفضة والمينا والزجاج الملون^٤ .

التجارة العالمية

بلغت حركة الملاحة والتجارة العالمية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من النشاط درجة لم تعرف منذ العهد الروماني . وكانت البوصلة ، التي يظن ان المسلمين اول من انتفع عملياً باستخدامها ، مما ساعد كثيراً في تسهيل شؤون الملاحة . وكان الصينيون قد اهتموا قبل المسلمين الى سر الابرة المغناطيسية في اتخاذ اتجاه معين ؛ اما في اوربا فان الملاحين الايطاليين كانوا اسبق الامم الى استخدام البوصلة^٥ . وكان

(١) هذه الاسماء الثلاثة قد خللت اسماء المدن التي نسبت اليها : دمشق والموصل وبغداد .

(٢) اللفظة العربية من اصل فارسي هو « تافته » .

(٣) عرف بالزيتوني ، وهو تحريف لاسم المدينة الصينية التي اتى منها هذا الحرير في الاصل .

(٤) انظر الفصل التالي : التجارة والصناعة .

(٥) راجع جورج سارطن ، *George Sarton, Introduction to the History of Science*, vol. iii (Baltimore, 1947), pp. 714-15.

من تضخم سيل التجارة نشوء ضرورات جديدة ، منها حاجة الحجاج والصليبيين الى التقد . وهذه الحاجة ساعدت على إنشاء ادارة مالية ، وأدت الى زيادة كمية النقد ، وارتفاع نسبة تداوله . وقد أنشئت مؤسسات في جمهوريات المدن الايطالية فتحت مكاتب فرعية لها في الشرق الادنى . ومست الحاجة كذلك الى تدبير مالي آخر هو فتح الاعتمادات المالية ^١ . ولعل « الدينار البيزنطي العربي » (Byzantinius Sara cenatus) الموسوم بكتابة عربية ، اقدم ما سكّه اللاتين من النقود الذهبية . أما اقدم من أتى التاريخ على ذكرهم من القناصل ، فأولئك الذين عينتهم جمهورية جنوى لها في مدينة عكا ، وذلك سنة ١١٨٠ . وقد كان هؤلاء القناصل يرؤسون الحاكم الجنوبية المحلية ، ويصادقون على توقعات العقود والوصايا والوثائق والصكوك ، ويتثبتون من هوية الوافدين الجدد من مواطنيهم ، ويحسمون الخلافات التي تنشأ بينهم ، ويعالجون — على العموم — شؤوناً هي من قبيل ما يعالجه قناصل الدول الغربية اليوم في الشرق الادنى .

الصلات الاجتماعية

ينبغي ان لا يغرب عن البال ان فترات السلم ، في غضون العهد الصليبي ، كانت اطول مدى من فترات الحرب ؛ فكان هنالك مجال واسع لنشوء روابط المودة وصلات المجاورة بين الشرقيين والغربيين . فالأفريقي ، لدى زوال الحاجز الغوي بينه وبين المواطن ، قد بان له ولا شك ان المسلم ، بعد كل حساب ، ليس ذلك الملحد الذي كان يتصوره ، بل انه ذو صلة بالارث اليهودي المسيحي واليوناني الروماني الذي عرف به الاوروبيون . ان التاريخ ليحدثنا عن كثيرين من الصليبيين ، نظير رجينالد الشاتوني ووليم الصوري ، ممن كانوا يتقنون العربية ^٢ ، لكنه لا يشير الى عربي واحد تكلم الفرنسية او اللاتينية . فالتسامح وسعة الصدر وتقدير العامل المدني على كل اعتبار — مما ينجم عادة عن اختلاط ارباب العقائد المختلفة والحضارات المتباينة — قد كان في هذه الحالة وليد المجتمع العربي لا الشرقي ، وفضلاً عن ذلك

(١) عبر عنها « بالصك » ومنها لفظة تشك cheque الانكليزية ، وقد استعيرت اللفظة العربية في القرن الثامن عشر في الهند .

(٢) راجع ص ٢٤٧ من هذا الجزء .

فقد كان في البلاد المقدسة مزارات يكرمها النصارى والمسلمون واليهود على السواء. اما على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، فقد كان النصارى والمسلمون يختلطون بلا حرج^١، فكانوا يتاجرون بالحيل وكلاب الصيد وطيور القنص، ويتبادلون تأمين المصالح، بل ربما عمدوا الى التزاوج. وقد نجد من بعض الامهات المواطنات ذرية جديدة عرفت بـ «البولاني»^٢. ويكثر بين اللبنانيين والفلسطينيين اليوم، لاسيما في اهدن (لبنان) وبيت لحم، اصحاب العيون الزرقاء والشعر الاسقر. وقد بقي من تقاليد بعض الاسر ومن اسمائها ما يدل على اصلها الاوربي، نذكر منها: فرنجية (Frankish) وصلبي (Crusading) ودويهي (d: Douai) وبردويل (Baldwin)^٣ وصوايا (Savoie). ويصدق ذلك ايضاً على قريتي سنجيل (Saint Gilles) والرينه (Reynaud) في فلسطين.

شهادة اسامة

أثبت اسامة بن منقذ (١٠٩٥-١١١٨) في مذكراته اوضح صورة لشاهد عيان عن اختلاط الشعوب المختلفة. وكان اسامة صديقاً لصلاح الدين، وقد دافع عن قصر شيزر - وهو قصر لأسرته قائم على ضفة العاصي - ضد الحشاشين والافرنج، فلم يقع يوماً في يد الصليبيين. ولقد كانت اسامة وثيق الصلة بالافرنج في فترات السلم، لكن حرية الاختلاط الجنسي التي عاينها في اوساطهم قد بدت له في غاية القضاة، وغدوا في حكمه «خالين من الحمة والغيرة»^٤، وقد وجد اساليبهم في معاقبة المجرمين بالماء او المبارزة^٥ في غاية الانحطاط، بالنسبة الى ما جرى عليه المسلمون آنذاك من اللجوء الى احكام القضاء المدني. وكذلك اساليبهم في معالجة المرض فقد كانت، إذا قورنت بتطبيب العرب، سقيمة للغاية. مثال ذلك ان احد الاطباء من النصارى المواطنين كان يتعهد مريضين، في عائلة افرنجية بالنيطرة؛ الى

(١) ابن جبير: ص ٢٨٧ - ٢٨٨، ٢٩٨، ٣٠٢: اسامة، الاعتبار، ص ١٣١، ١٣٤.

(٢) من لفظة: Poulains ومعناها الاحداث الصغار.

(٣) انظر Marino Sanuto, *Secrets, for True Crusaders to Help Them to Recover the Holy Land*, tr, Aubrey Stewaut (London, 1896).

(٤) الاعتبار، ص ١٣٥.

(٥) الاعتبار، ص ١٣٨ - ٣٩.

ان استدعي طبيب اوربي ، فأمر بأن توضع الساق العلية لاحد المريضين على خشبة ضخمة ، ثم اشار الى فارس ان يهوي عليها بفأسه . ففعل وقطعها بضربة واحدة . ثم تحول الى المريض الآخر - وهو امرأة - فأمر بأن يخلق رأسها ، ثم عمد اليه فجرحه جرحاً صليبيّاً عميقاً ، وذلك الجرح بالملح رجاء ان يطرد من رأسها الشيطان ، ففارق كلاهما الحياة في الحال . وقد ختم الطبيب المواطن الذي روى عنه اسامة هذه الحادثة بقوله : « فقلت لهم : أيتي لكم إلى حاجة ؟ فقالوا : لا ! . فبحثت وقد تعلمت من طبّهم ما لم اكن أعرفه »^١ .

عواقب الحملات الصليبية على سورية

وعلى العموم ، فان عواقب الحملات الصليبية على سورية كانت مفاجئة . فقد خشي المماليك من رجوع الافرنج ، اذ كان بعضهم قد تحول الى جزيرة قبرص . فعمدوا الى تخريب المرافق^٢ ، بعد ان كان الايوبيون قد هدموا عسقلان^٣ . وكانت عكا ، بعد صور ، أشد المدن ازدهاراً في سورية الافرنجية ، وقد ألغاه ابن جبير^٤ مدينة منقطعة النظير بمحونها ، فإذا ابو الفداء^٥ يجدها ، بعد ذلك بقرن ، خراباً يباباً . ثم ان العناصر الاسلامية المنشقة ، من شيعة واسماعيلية ونصيرية - وكانوا على ما ذكر ابن جبير^٦ اوفر عدداً من السنة - عمدوا في مناسبات عديدة الى نقض ولائهم بتقديم العون الى الافرنج فتعرضوا الآن لفتك ذريع ولجأ من بقي منهم الى لبنان الاوسط والبقاع . وكان المملوك الاشرف قبل ذلك قد فرض على الدروز التقيّد بفرائض الاسلام اهل السنة ، لكن هذه المراجعة لم تدم طويلاً . وكان بيبرس قد اجبر النصيرية على بناء المساجد في قراهم ، لكنه لم يتمكن من حملهم على تأدية الصلاة

(١) الاعتبار ، ص ١٣٢ - ٣٣ .

(٢) راجع : ابو الفداء ، التقويم ، ص ٢٣٩ ؛ ابن بطوطة ، نغمة النظار في غرائب الامصار ، ج ١ ، ص ١٢٩ - ٣٠ : قابل : الادريسي ، ص ١١ .

(٣) راجع ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) راجع رحلته ص ٣٠٤ .

(٥) التقويم ، ص ٢٤٣ .

(٦) راجع رحلته ص ٢٨٠ .

فيها؛ فبدلاً من ان تكون معابد للصلاة جعلوها زرائب للمواشي والدواب^١. وقد عمد سلاطين المماليك، استثناءً لسياسة التخريب، الى تدمير لبنان تدميراً منظماً. وكانت حملة الناصر سنة ١٣٠٦ أشد الحملات فجيعة، اذ اسفرت عن إبادة اهل كسروان إبادة تامة^٢. فأحلّ الاكراد والتركمان في محل الشيعة من سكانها ثم انحدروا من الشمال ليملاؤا باقي الفراغ. اما الدفاع عن بيروت ضد الغارات البحرية المتتالية فقد اقاموا عليه امرة من آل بختر كانت قد وليت امارة الغرب؛ والى هذه الاسرة ينتسب المؤرخ صالح بن يحيى^٣. وأخذ لبنانيات، من ثم، يتحوّل عن الغرب الاوربي. وبقي على ذلك حتى مستهلّ العصر الحاضر. والواقع ان سورية يجملتها قد وعت، منذ ذلك الوقت، جميع العناصر الحضارية التي احرزتها حتى مستهل القرن التاسع عشر. وعندها اخذت موجة جديدة من الافكار الاوربية والعناصر الحضارية تتكسر على شطآنها.

ولم يكن ما قاساه النصارى المواطنون، اقلّ مما تحمّله المسلمون المنشقون. فقد أحدثت تدابير اذكت العداوة بين النصارى السوريين وجيرانهم المسلمين، حتى بلغ من الشدة حدّاً لم يبلغه من قبل، بل هو الى الآن لم يخمد تماماً. فقد تخوّف حكام القدس المسلمون من التأييد الذي أبداه نصارى الرها وانطاكية للصليبيين، فعمدوا الى ابتزاز «جميع الاموال والسلع التي كانت في حوزة النصارى»^٤ من اهل هذه المدينة، وعملوا على تشريدكم باستثناء العاجزين والمرضى والنساء والاطفال. وعندما دخل الصليبيون المدينة لم يجدوا الا القليلين منهم في قيد الحياة. وقد منح اللاتين موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لابناء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية^٥، لكن الوفاً منهم هاجروا، بعد استيلاء صلاح الدين على بيروت سنة ١١٩١، الى قبرص حيث لا يزال من ذريتهم نحو الفين من المواطنين.

(١) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٧٧.

(٢) صالح، ص ١٣٦. الروايات المحلية تميم هذا الاسم الى اسم قائد من المردة؛ شدياق، ص ٢١٠.

(٣) ص ٦٣ من مؤلفه.

(٤) ولم الصوري. William of Tyre, vol. i, p. 334.

(٥) راجع ص ١٤٠ من هذا الجزء: وانظر ديب: ج ١، ص ١٨٦ - ٩٠.

ثم ان روح الجهاد الذي اثاره المماليك على الصليبيين اخذوا الآن يسددونه ضد القبط ونصارى سورية. فقد أصدر قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) في اواخر عهده مراسيم تحرّم على النصارى من رعاياه تولي الوظائف الحكومية . وأعاد السلطان الناصر في سنة ١٣٠١ تطبيق التدابير القديمة بحق اهل الذمة - تلك التدابير التي اوجبت على النصارى واليهود ان يرتدوا ملابس خاصة يُعرفون بها، وان يتمتعوا من ركوب الخيل والبغال.^٢ وجرى السلطان الصالح على مثل ذلك سنة ١٣٥٤.^٣ بل ان الناصر قد فعل اكثر من ذلك، فأمر بإلغاء عيد قومي من اعياد القبط، وأقفل الكثير من كنائس النصارى في مصر. وهذه الموجة العاطفية العارمة، الموجهة ضد النصارى، تنعكس بجلاء في ادب العصر، فإذا الاحاديث والقناوي والخطب المثيرة تلهب الجماهير، ومؤلفات الفقيه السوري ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨) ترخر بروح العصر الرجعية.^٤ وابن تيمية هذا وُلد في حرّان، وكان من اخلص اتباع ابن حنبل وأشدّهم اندفاعاً وراءه. زها في دمشق، وفيها رفع صوته مسقهاً عبادة القديسين، وتقديم الذنور، والتردد على المزارات. وقد انتصر لمبادئه هذه، في ما بعد، الزهاويون الذين يسيطرون اليوم سلطانهم على الحياة السياسية والدينية في نجد والحجاز. ويستطيع الزاؤون اليوم ان يروا مدفنه، وكذلك مدفن ابن عساكر، في باحة الجامعة السورية.

وازدهر نوع آخر من الادب يسوغ اعتباره «دعاية مضادة» ادب يطري فضائل القدس، ويوصي الحجاج بزيارتها، ويؤكد ان النبي قد ذكر ان تأدية الصلاة في مسجد خيبر ألف مرة من تأديتها في اي مسجد آخر، إلا مسجدي مكة والمدينة. بل ان خطيباً من خطباء المسجد الاموي في دمشق، هو ابن الفرّكاح (ت ١٣٢٩)،^٥

(١) انظر بشأته الفصل التالي: الفتح النوبلي.

(٢) راجع ص ١٦٧ من هذا الجزء.

(٣) الفلقشندي، ج ١٣، ص ٣٧٧ - ٨١؛ ابن تقيي بردي، نشر پوپر، ج ٥، ص ١٣٣.

(٤) المقرئزي، ج ١، ص ٦٩.

(٥) راجع الكتي، ج ١، ص ٤٨ - ٤٩: Henri Laoust, *Essai sur les doctrines sociales et politiques de Taki-d-Din Ahmad b. Taimiya* (Cairo, 1939) pp. 634-9.

(٦) «باعث النفوس لزيارة القدس المحروس». وقد كتب ابن الجوزي (ت ١٢٠٠) البغدادي رسالة «فضائل القدس وصفها فيليب حتي ونييه فارس وبطرس عبد الملك في فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة برنستون (برنستون، ١٩٣٨) تحت رقم ٥٨٦.

أيد هذا الاتجاه كل التأييد. وظهر الى جانب هذا الادب نوع آخر هو ادب السيرة؛ وهو ضرب من الحكاية التاريخية يمتدح مآتي أبطال العرب، حقيقة كانت ام خيالية. وكان من أبطال هذه السير صلاح الدين والمملك الظاهر وعنترة بن شداد. وعنترة هذا شاعر جاهلي من الشعراء الفرسان، لكن روايته (سيرة عنترة)، كما يبدو لنا اليوم من قرائنها التاريخية، كان اول ظهورها في سورية، وذلك في اوائل القرن الثاني عشر. والناس اليوم اشد إقبالاً في مقاهي القاهرة وبيروت وبغداد، على قراء القصص، وهم يتلون حكاية عنترة وسيرة الظاهر (بيبرس)، منهم على القصصين وهم يرون حكايات من الف ليلة وليلة.

النظام الاقطاعي

إن الدول الافرنجية في سورية قامت على المبادئ الاقطاعية التي كانت شائعة في اوربا، مع ان بعض متعهدي الاقطاعات كانوا من المواطنين. ولما كانت سورية بلداً إسلامياً فقد نشأ فيها، منذ الفتح العربي، نظام اقطاعي من نوع خاص. فقد كان الفاتحون، من خلفاء وسلاطين وأمراء، يهبون قوادهم وكبار موظفيهم الاقطاعات، فيعبد هؤلاء بدورهم الى تقسيمها الى مناطق يوزعونها على الاتباع والمتعهدين. وكان الارقاء والعبيد - وهم الطبقة الاجتماعية السفلى - يتولون حرايتها. اما جباية الخراج^١ من غير المسلمين، فكان يعهد بها الى بعض التنفيذيين على سبيل «الضمان». لكن الخلفاء العباسيين ابطلوا ضمان المزارع بالزيادة، واستبدلوا به نظاماً من الزراعة الوراثية، يؤدي المزارعون بموجبه ايجاراً معيناً ثابتاً؛ في حين استمر القاطميون والمماليك على الغرف الاسلامي^٢. اما في اوربا، فان طبقة من الارستقراطيين، اصحاب الاراضي، ظهرت في العصر الوسيط، اقام افرادها لانفسهم المساكن الحصينة في الارياف، وانشأوا صلات متبادلة مع افراد الاسرة المالكة او سيطروا عملياً وبصور مباشرة على من هم دونهم. ولم يظهر مثل هذا النظام الارستقراطي في المجتمع العربي الاسلامي. اذ كانت متعهدي الاقطاعات يقيمون على العموم في المدن، ويكتفون باستدراار الدخل الضروري من اقطاعاتهم

(١) راجع ص ١٩ - ٢٠ من هذا الجزء.

(٢) الفلقشندي، ج ١٣، ص ١٢٣، وما بعد. و ١٣٩ وما بعد؛ راجع A. N. Poliak, *Fet-dalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon* (London, 1939), pp. 18 seq.

الريفة . ولم يترك النظام الاقطاعي الذي ادخله الافرنج الى سورية اي تأثير في النظام المحلي لضمان الاراضي ، الا ما كان من جعل الاقطاع العسكري ، الى حين وفي ظل الابوبيين ، النظام الرئيسي المتبع في تحديد العلاقات الزراعية . وكذلك النظام الملكي الافرنجي ، فانه لم يخلف اثرأ راسخاً في منظمات سورية السياسية ، يستثنى من ذلك ان الكنيسة التي ظهرت الملكية لا تزال ممثلة بشخص البطرك اللاتيني في مدينة القدس .

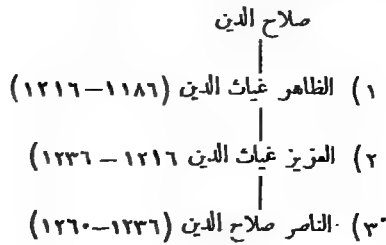
نشاط الارساليات

ومن النتائج الفرعية الهامة التي تخلفت عن الحملات الصليبية انشاء الارساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين . فقد اقتنع رجال الفكر بفشل هذه الحروب ، واخفاق الوسائل العسكرية في معاملة المسلمين ؛ فاحذوا يدعون الى تركيز الاهتمام على الوسائل السلمية . وكان الكاهن القطلاني ريمند لال (ت ١٣١٥) اول اوروبي شدد على اهمية الدراسات الشرقية كأداة فعالة لتضال سلمي يعتمد الاقتناع وسيلة بدلاً من الاكراه . وكان قد تعلم العربية على يد عبد ، ثم اشتغل في تعليمها . وبتأثير ريمند هذا جرى الروح الصليبي في مجرى جديد هو اقتناع المسلمين باعتراف المسيحية بدلاً من محاولة ابادتهم .

اما الاخوية الكرملية التي لا تزال عاملة في سورية ، فقد اسسها في هذا البلد احد الصليبيين سنة ١١٥٧ ، وسماها باسم احد جباله . وفي اوائل القرن الثالث عشر نشأت اثنتان من الاخويات الرهبانية هما الفرنسيسكان والدومينيكان ؛ وانشأت كل منهما لنفسها فروعاً في كثير من المدن السورية . وفي السنوات الاخيرة من ذلك القرن كان للفرنسيسكان في بيروت كنيسة كبيرة^١ . وفي سنة ١٢١٩ زار مؤسس الاخوية الفرنسيسكانية ، القديس فرنسيس الاسيسي ، بلاط الابوبيين في مصر ، واجرى مناقشة دينية عقيدة مع الكامل . وكتب اسقف دومينيكاني - هو وليم الطرابلسي - رسالة من اوفى رسائل العصور الوسطى بشؤون المسلمين ، موضحاً المواطن التي يتفق فيها الاسلام مع المسيحية ، وموصياً باستخدام المرسلين بدلاً من الجنود ، لاستعادة البلاد المقدسة . وكان نظير زميله وليم الصوري مولوداً في هذه البلاد لكن من ابوين اوروبيين .

وفي سنة ١٢٠٠ عين العادل احد ابنائه حاكماً على بلاد ما بين النهرين؛ وكان الظاهر، وهو الابن الثالث لصلاح الدين، قد خلف ابيه على حلب^١، وكان الفرع الايوبي الصغير الذي أسسه في حماة واحداً من ابناء اخي صلاح الدين قد نجح سنة ١٢٦٠ من الفتح المغولي الذي اكتسح الخلافة العباسية في بغداد قبل ذلك بعامين، واستمر في ظل المماليك حتى سنة ١٣٤١؛ فهو اطول فروع هذه الاسرة حياة^٢، وكان من افراده الملك المؤرخ ابو الفداء (ت ١٣٣٢)^٣. وكانت هنالك فروع اخرى من السلالة الايوبية أقلّ شأنًا من هذا الفرع، بينها فرع حمص المتحد من احد اعمام

(١) شكل شجري للسلالة الايوبية في حلب :



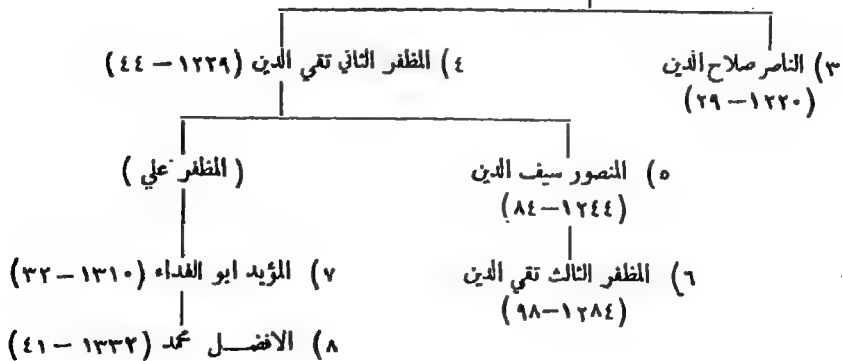
(٢) كانت هنالك فترة قصيرة (١٢٩٨-١٣١٠) تولى الحكم للمماليك فيها حكام آخرون .

(٣) شكل شجري للسلالة الايوبية في حماة .

نور الدين شاهنشاه (اخو صلاح الدين)

(١) المظفر الاول تقي الدين (١١٧٨-١١٩١)

(٢) المنصور ناصر الدين (١١٩١-١٢٢٠)



صلاح الدين ، وقد اباده المملوك بيبرس سنة ١٢٦٢ ، وفرع بعلبك المتحدر من طوران شاه اخي صلاح الدين ٢ .

المالِك يَخْلُقون الايوبيين

كان الفرع المصري من السلالة الايوبية هو الرئيسي بين فروعها الكثيرة . وقد تسلط عدد من افراده على القاهرة ودمشق . وكانت من هؤلاء الصالح نجم الدين ايوب ٣ ، الذي توفي في تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ ، تاركاً وراءه ارملة هي (شجر الدر) . وكانت شجر الدر ، في اول امرها ، جارية تركية او ارمنية في حريم الخليفة العباسي المستعصم في بغداد . ثم اعتقها الصالح بعد ان رزق منها صيماً . على انها كتبت موت زوجها مدة ثلاثة اشهر ، ريثما عاد ابنه طوران شاه من رحلة قام بها الى مدين بين النهرين . وإذ لم يحسن طوران شاه الى مالك ابيه ، تأمروا عليه بالاشتراك مع زوجة ابيه واغتالوه . وعندها عمدت هذه المرأة الجريئة النشيطة الى تنصيب نفسها ملكة على المسلمين ٤ . وقد منح شرف مشاركتها في الملك طفل له من العمر ست سنوات ، هو الأشرف موسى سليل الفرع الايوبي في دمشق . وكانت شجر الدر هذه ، المرأة المسلمة الوحيدة التي سادت بلداً في شمالي افريقيا وغربي آسيا . وقد استمرت في الحكم ثمانين يوماً تتولى منفردة السلطة المطلقة في البلاد التي انجبت

(١) شكل شجري للسلالة الايوبية في حمص :

شركوه (عم صلاح الدين)

(١) القاهرة ناصر الدين (١١٧٨-٨٥)

(٢) المجاهد صلاح الدين (١١٨٥-١٢٣٩)

(٣) النصور ناصر الدين (١٢٣٩-٤٥)

(٤) الأشرف مظفر الدين (١٢٤٥-٦٢)

(٢) راجع بشأن اسماء افراد هذا الفرع وفرع الكرك : Zambaur, Manuel de généalogie et de chronologie (Paris, 1927), p. 98.

(٣) راجع شجرة الانساب في ص ٢٦٤ من هذا الجزء .

(٤) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ؛ القرطبي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

قبلها زنوبيا وكليوباترا وقد ضربت النقود باسمها^١، وأمرت ان ينوه باسمها في صلاة الجمعة . وعندما وليت الحكم وجه الخليفة العباسي ، سيدها السابق ، رسالة جارحة الى امراء مصر يقول فيها : « ان كان ما بقي عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل اليكم رجلاً »^٢ . فوقع اختيارهم على قائد جيوشها عز الدين ، بيك^٣ فنصبوه سلطاناً ؛ اما هي ففقتت بافضل شيء بعد الملك ، ورضيت به زوجاً . وقد قضى ابيك السنين الاولى من حكمه في سحق الحزب الايوبي المطالب بالسيادة في سورية ، وكان افراده يعتبرون انفسهم ورثة انسابهم المصريين . ثم انه خلع الاشرف الطفل المشارك في الملك ، وتخلص من قائده الخاص الذي كان قد برز في حروبه ضد لويس التاسع ، واذ بلغ الملكة انه ينوي الزواج من امرأة اخرى ارسلت اليه من قتله ، وهو يستحم ، بعد الفراغ من لعب الكرة . ثم جاء دورها هي فعمدت جارية لقرينة زوجها الاولى الى قبقاب انهالت به عليها ضرباً حتى اوردتها حتفها . وطرح جسدها من احد ابراج قلعة القاهرة^٤ .

المماليك البحرية

كان ابيك (١٢٥٠ - ٥٧) اول سلاطين المماليك ؛ وسلسلة المماليك ؛ هذه ذات وضع غريب في تاريخ السلالات ، لأنها - إذا صح اعتبارها سلالة - كانت كما يستدل من اسمها^٥ سلالة عبيد - عبيد من اجناس مختلفة وقوميات متباينة ، اقامت دولة عسكرية في بلاد غريبة . فاذا مات احدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده ، في الغالب ، ليس ابنه بل احد عبيده او بعض المرتزة من اتباعه ، ممن تميزوا بعمل عظيم ، او احرزوا شهرة بعيدة . وهكذا فان العبد بالأمس ، كثيراً ما كان يصبح قائد جيش في الحال ، ليفقد في المستقبل السلطان الحاكم . وبقي السلاطين العبيد نحواً من قرنين وثلاثة ارباع القرن ، يحكمون بالسيف بقعة من اشد بقاع الارض اضطراباً . ومع انهم كانوا ، بوجه العموم ، سفاكين وغير مثقفين ، فإنهم اتفقوا

(١) هذا هو النقد الوحيد الذي يحمل اسم امرأة مسلمة باستثناء بعض النقود التي ضربت في الهند وفارس .

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٣) يستفاد من اسمه انه كان تركياً : « اي » معناها قر ، و « بك » معناها : امير .

(٤) قلعة الجبل . ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٦٤ ؛ ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٦٠ ، ١٦٠ .

٥ المملوك عبد ، ويطلق بصورة خاصة على من لم يكن اسود البشرة .

القاهرة ببيان هندسية لا تزال تفخر بها بحق . وقد أدتوا الى الاسلام خدمتين
اخرين : الاولى انهم حرروا سورية ومصر من بقايا الصليبيين ؛ والثانية انهم اوقفوا
الزحف الخيف الذي قامت به قبائل المغول والتتر، بقيادة هولاكو وتيمورلنك^١ .
ولولا ذلك لجاز ان يكون سبيل الحضارة والتاريخ ، في غربي آسيا ومصر ، برمته ،
غيره اليوم .

كان اول المماليك عبداً اشترى من سوق العبيد في روسيا الاسلامية وبلاد
القوقاس ، ليكون المرافق الخاص للصالح الايوبي^٢ . فخلف سلسلة من الحكم جرى
العرف الى تقسيمهم الى سلالتين هما : المماليك البحرية (١٢٥٠ - ١٣٩٠) ، والمماليك
البرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) . فالبحرية سموها بذلك نسبة الى النيل^٣ ، إذ كانت
ثكناتهم تقوم على جزيرة صغيرة في نهر النيل ؛ وكانوا في اكثرهم ، من الترك والمغول .
أما البرجية فكانوا في الغالب من الجراكسة^٤ . وقد جاءت حملة المغول بعد ظهورهم
بقرن من الزمان . وهكذا عادت سورية ، مرة اخرى ، ميداناً تطاحنت فيه
جبهتان متنافستان .

~

الغزو المغولي

ماكادت قبائل المغول تقضي على الخلافة العباسية في بغداد ، وتخرب وكر
الحشاشين في قلعة ألموت بقيادة هولاكو حفيد جنكيزخان ، حتى كان ظهورهم
المشؤوم في شمالي سورية . وكانت مدينة حلب ضحيتهم الاولى ، حيث سقط خمسون
الفاً من اهلها بحد السيف ، وكان ذلك ثورة مصفرة لما سيجي . . وسقطت بعد
حلب ، حارم وحماة ؛ ووجهه هولاكو احد قواده لحصار دمشق بينما عاد هو الى
فارس بداعي وفاة اخيه الخازن الكبير . ولم تليث انطاكية اللاتينية ان التحقت
بالمغول . وقد خطر للويس التاسع وللبابا ان عقد ميثاق مع الغزاة قد يساعد في

(١) انظر ما يلي من هذا الفصل في موضوع « التاريخ والجغرافية »

(٢) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ١٨٨ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٧٣ .

(٣) يدعى نهر النيل عندهم بالبحر .

(٤) ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٦٩ ، والسيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ يعتبر انهم
سلالة تركية .

النضال ضد المسلمين، إذ كانت ديانة الفاتحين الرسمية هي الشامية، وهي ديانة انسابهم الأتراك كذلك . وكان بينهم بعض النصارى الذين تحذروا من أسلاف لهم اعتنقوا المسيحية على يد جماعة من قدماء المرسلين السوريين^١ . وكان القائد الذي اجتاح معظم سورية ودكّ معالمها قائداً مسيحياً هو كتبغا ؛ وكان المملوك الحاكم آنذاك قطز (١٢٥٩ - ٦١) ، وهو الذي اهلك رسل هولاء^٢ . وكانت نهاية هذا النزاع في وقعة عين جالوت قرب الناصرة . ففي هذه المعركة تولى بيبرس قيادة الطليعة تحت امره قطز ، وألحق بالغازين هزيمة منكرة . وسقط كتبغا في هذه المعركة قتيلاً^٣ ، وهزم جيشه ، وفرّ من بقي منه الى خارج سورية . وقد توقع بيبرس ، مكافأة له على خدماته الحربية ، ان يقطعه قطز مدينة حلب ، لكن السلطان خيَّب أمله . وفيما كان عائداً من سورية إلى مقره في مصر تأمر بيبرس وزميل له على حياة السلطان ، وإذ اخذ هذا في مخاطبته ، وأكسب على يده يقبلها ، اهوى بيبرس على عنقه بالسيف فأورده حنقه ، واستولى على الحكم في مكانه .

وكان بيبرس^٤ الرابع من سلسلة المماليك ، والاول من عظماء السلاطين ، المؤسس الحقيقي لسلطة المماليك . ولئن كان قد كسب مفاخره الاولى في رد المغول ، فانه قد نال تاج المجد بفضل انتصاره على الصليبيين^٥ . ولم يكن بيبرس رجل حرب فحسب ، بل كان إلى ذلك من كبار رجال الادارة . فقد شقّ الاقنية وأصلح المرافئ ، ووصل ما بين عاصمته في مصر وبين سورية ببريد سريع ، نظّمه على الطراز الفارسي العباسي . فكان باستطاعته ان يلعب بالكرة والصولجان في كلتا المدينتين في غضون اسبوع واحد^٦ . وقد انشأ مشاريع عامة ، وجدد المساجد - ومنها قبة

(١) راجع ص ١٣٧ - ١٣٨ من هذا الجزء .

(٢) ان نص الرسالة التي كانوا يحملونها عفوفة في القريري نشر كلتميرج (١ق) ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣) ابو الفداء ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ - ١٩ ؛ القريري نشر كلتميرج ، ج ١ ، (١ق) ، ص ٩٨ ، ١٠٤ وما بعد ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٤ .

(٤) راجع بشأن المماليك البحرية شجرة الانساب في ما يجي من هذا البحث .

(٥) راجع ص ٢٤٣ من هذا الجزء .

(٦) ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨٢ .

الصخرة ، ورمم الحصون - ومنها قلعة حلب ؛ وأنشأ الاوقاف الدينية والوقفيات الخيرية^١ . ومدفنه في دمشق اليوم بمثابة مكتبة تحمل لقبه وتعرف بالظاهرية وفيها مخطوطة من اقدم المخطوطات المكتوبة على الورق ، هي كتاب « مسائل الامام احمد بن حنبل » يعود تاريخها الى سنة ٢٦٦ هجرية (٨٧٩/٨٠ م)^٢ .

على ان تفادي الخطر المغولي آنذاك كان امراً مؤقتاً . فقد اندفعوا من موطنهم في آسيا الوسطى في اتجاه غير معين تماماً ؛ وبعد ان جالوا جولات اوصلتهم الى حدود الامبراطورية الصينية ، اخذوا يتدفعون في موجات تشبه ، من بعض الوجوه ، الموجات السامية ، وموجات الغزو الجرمانى في العهود السابقة . فان اباقا ابن هولاكو خليفته ، اتخذ مدينة تبريز قاعدة له ، وجدد منها الهجوم على سورية . وكان المغول آنئذ يتوددون الى النصارى . فدخل اباقا في مفاوضات مع البابا وادورد الاول ملك انكلترا ، وسواهما من اصحاب السلطة في اوربا ، وحثهم على إرسال حملة صليبية جديدة لطرد الممالك من سورية . ومع ان جيش المغول كان اوفر عدداً ، وقد عزز بفرق من الارمن والجورجيين والفرس ، فانه هزم في حمص سنة ١٢٨٠ شر هزيمة^٣ . على ان المغول لم يلبثوا ان ذلوا الحواجز ، وتحولوا نهائياً الى الجانب الاسلامي . وقع هذا الفتح في عهد قلاوون (١٢٧٩ - ٩٠) ، وهو اعظم الممالك بعد بيبرس . وكان في الاصل ، نظير سلفه ، عبداً تركياً يلقب بـ « الالني » كناية عن الثمن الباهظ الذي شري به ، وهو الف دينار^٤ .

ولقد عمد الاليخان السابع ، غازان محمود ، الذي نشأ على دين بوذا ، الى اتخاذ الاسلام ديناً للدولة ؛ لكن ذلك لم يرد عن سورية غارات اخرى ، بل قد تعرضت على الأثر لغارتين كانتا الاخيرتين في هذا الزحف ؛ حدثت الاولى في اواخر سنة ١٢٩٩ ، وكان عدد الجيش الفاتح ، على ما قيل ، مئة الف مقاتل فيهم الارمن والجورجيون والافرنج والقبصيون ، فتمكنوا من إبادة الجيش المصري الذي

(١) في الكتي ، ج ١ ، ص ١١٣ - ١٥ جدول يبيح جلائل اعماله ذات المنفعة العامة .

(٢) قابل : Hitti, *History of the Arabs*, p. 347.

(٣) ابو الفداء ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٦ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ - ٤٦ .

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٠ .

قدر بنحو ثلث الجيش المهاجم ، وذلك شرقاً من حصص^١ . وكان الملوك الحاكم ابن قلاوون ، وخليفته الثاني الناصر وهو الذي تميز بأنه تولى السلطة ثلاث مرات (١٢٩٣ - ٩٤ ، ١٢٩٨ - ١٣٠٨ ، ١٣١٦ - ٤٠) ، فكان عهد ولايته أطول العهود في تاريخ المماليك . واستمر المغول في زحفهم المظفر ، واجتاحوا شمالي سورية ناشرين الوبل والحراب اتى توجهوا . وفي اوائل سنة ١٣٠٠ احتلوا دمشق . وقد صمدت قلعتها لكن اقساماً كبيرة من المدينة ، بينها حي الصالحية ، أُحيل الى خراب تام . وهنا اضطر غازان للعودة الى فارس بداعي ثورة نشبت فيها ، لكن جيشه استمر في زحفه جنوباً حتى بلغ غزة . وهنا انتزع الجيش المصري المبادرة ، ورد الغازين على أعقابهم ، وانزل بهم سنة ١٣٠٣ شراً هزيمة وذلك في ميدان الحرب التاريخي : مرج الصفر^٢ ، جنوباً من دمشق . وكان ابو الفداء^٣ في مدينة حماة عين الجيش المصري على المغول ، يقرب حركاتهم ويرسل التقارير عن تحركاتهم . فأعاد اليه صديقه الناصر ، في ما بعد ، امانة اسرته التقليدية على حماة . وهكذا فشلت ثالث محاولات المغول لاختضاع سورية ، وتمكن المماليك من قهر اخطر وأشد عدو واجهته مصر منذ ظهور الاسلام .

ولقد اورث الفتح المغولي الاقليات من الكوارث نظير ما اورثتها حملات الصليبيين^٤ . فدروز لبنان الذين ارسلوا ١٢ الف مقاتل لمطاردة الجيش المصري ، بينما كان يتراجع امام المغول سنة ١٣٠٠ ، قد حوسبوا على ذلك حساباً صارماً . والارمن عاينوا الناصر يعمل في بلادهم الحراب ، مراراً وتكراراً ، في سنة ١٣٠٢ وما بعد . وكذلك النصارى واليهود من رعاياه ، فقد قاسوا الامرين .

المماليك البرجية

تولى الحكم بعد الناصر في مدة اثنتين واربعين سنة (١٣٤٠ - ١٣٨٢) اثنا عشر سلطاناً من سلالة ، لم يتميز احد منهم بأي لون من ألوان النشاط . وكان

(١) صالح ، ص ١٧٤ .

(٢) راجع ص ٩ من هذا الجزء .

(٣) المجلد الرابع ، ص ٥٠ ؛ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٥٤٨ - ٤٩ .

(٤) راجع ص ٢٥٩ من هذا الجزء .

آخرهم الصالح حاجي (١٣٨١ - ١٣٨٩، ٨٢ - ٩٠) ، وكان طفلاً ضعيفاً ، فقد تولى السلطة زمناً ، ثم انتزعها منه كردي هو برقوق . وبرقوق هذا انشأ سلسلة جديدة من المالك عرفت بالبرجية (١٣٨٢ - ١٥١٧) ، نسبة الى برج القلعة في القاهرة ، حيث اقاموا اولاً بوصفهم عبيداً^١ . وقد كان جميع المالك البرجية اكراداً الا اثنين منهم كانا يونانيين . وقد رفضوا باشد مما رفض اسلافهم المالك البحرية مبدأ الوراثة في الولاية . فقد كانوا بمجموعهم ثلاثة وعشرين مملوكاً ، لكن اربعة عشر منهم لم يكونوا ذوي خطر . وقد توالى ثلاثة منهم على الحكم في سنة واحدة هي السنة الـ ١٤٢١ ، وقل منهم من مات ميتة ربه . وكان اطولهم عهداً قانتباي (١٤٦٨ - ٩٥) ، وكان عهده ، من بعض الوجوه ، ازهى عهودهم^٢ .

(١) المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤١ .

(٢) جدول المالك البرجية :

١٣٨٢	١	الظاهر سيف الدين برقوق .
	(استأثر بالحكم دونه حاجي البحري ١٣٨٩-٩٠)
١٣٩٨	٢	الناصر ناصر الدين فرج .
١٤٠٥	٣	النصور عز الدين عبد العزيز .
١٤٠٦		ثم الناصر فرج ثانية .
١٤١٢	٤	الحليفة المادل المستعين .
١٤١٢	٥	المؤيد شيخ .
١٤٢١	٦	المظفر احمد .
١٤٢١	٧	الظاهر سيف الدين ططر .
١٤٢١	٨	الصالح ناصر الدين محمد .
١٤٢٢	٩	الاشرف سيف الدين برسباي .
١٤٣٨	١٠	العزيز جمال الدين يوسف .
١٤٣٨	١١	الظاهر سيف الدين جعق .
١٤٥٣	١٢	النصور فخر الدين عثمان .
١٤٥٣	١٣	الاشرف سيف الدين اينال .
١٤٦٠	١٤	المؤيد شهاب الدين احمد .
١٤٦١	١٥	الظاهر سيف الدين خشقدم .
١٤٦٧	١٦	الظاهر سيف الدين يلبي .
١٤٦٧	١٧	الظاهر قمرينا .
١٤٦٨	١٨	الاشرف سيف الدين قانتباي .
١٤٩٥	١٩	الناصر محمد .
١٤٩٨	٢٠	الظاهر قانصوه .
١٤٩٩	٢١	الاشرف جان بلاط .
١٥٠٠	٢٢	الاشرف قانصوه النوري .
١٥١٦-١٧	٢٣	الاشرف طومان باي .

على ان الوضع الجديد لم يكن خيراً من القديم . فقد استمر الفساد والفساد والاعتقال والشغب في نشاط ؛ فكان عدد من السلاطين عاجزين وخونة ؛ وكانت بعضهم فاسدين بل ساقطين ؛ وكان اكثرهم غير مثقفين . وقد ادعى واحد منهم فقط ، هو برقوق ، بانه تحدر من والد مسلم^١ . اما برسباي (١٤٢٢ - ٣٨) ، وكان اولاً عبداً من عبيد برقوق ، فلم يكن يحسن العربية^٢ ؛ ولم يتخرج من ان يصدر امراً بان يقطع رأس كل من طبيبه لانها اخفقا في شفائه من علة قاتلة . وكان عبد آخر لبرقوق اسمه اينال (١٤٥٣ - ٦٠) لا يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسمية ، الا اذا رسمه فوق كتابة امين سره ، على ما ذكر معاصره ابن تغري بردي^٣ . وقد عاد نظام تسري الغلمان الى مثل ما كان عليه من الشيوع في ايام العباسيين ، واتهم عدد من المالك ، اولهم بيبرس ، باللواط . ولم يكن السلاطين وحدهم فاسدين ، بل ان الامراء ايضاً ، وسائر من في الحكم ، كانوا على جانب من الفساد . ولم يستطع اقدر الموظفين ان يستمروا في وظائفهم اكثر من ثلاث سنوات ، الا في ما قل ونذر . وقد عين احد القضاة وعزل عشر مرات .

الادارة في سورية

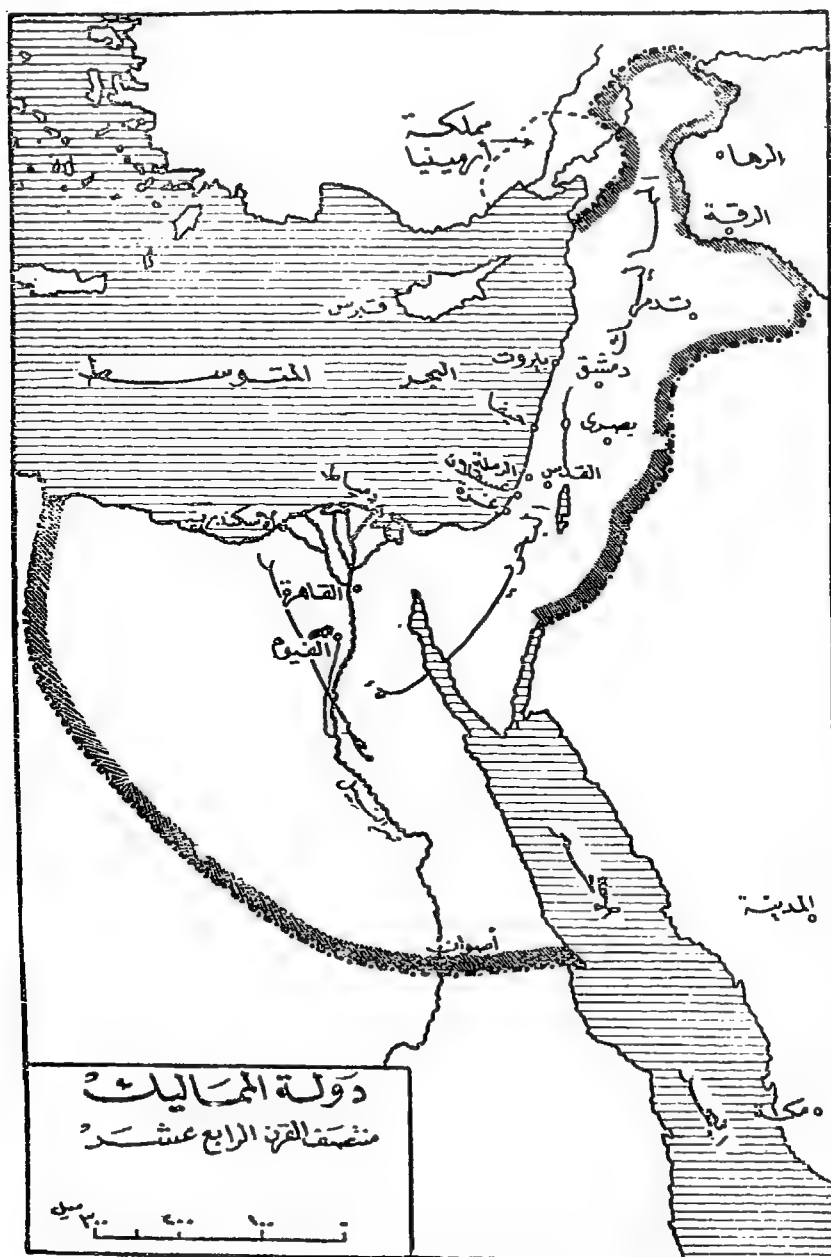
ومع ان حكومة الممالك كانت غريبة الوضع ، فان ادارتهم لم تكن الا امتداداً للنظام الفاطمي العباسي . فقد كانت سورية مقسمة الى بضعة اقاليم عرفت « بالنيابات » ، وذلك تبعاً للتقسيم العام الذي اعتمد في عهد الايوبيين ، وهي نيابة حلب ، وحمّة ، ودمشق ، وطرابلس ، وصفد ، والكرك . وحكام هذه النيابات — وهم من ماليك السلاطين — كانوا يختارون عادة من ارباب السيف^٤ ، تمييزاً لهم عن اهل القلم المتصفين بالعلم . وكانوا بوجه العموم مستقلين الواحد عن الآخر ، وكان لكل حاكم قصر هو صورة مصغرة عن بلاط القاهرة . وكانت الحصومات والفتن في العاصمة الاقطاعية كثيراً ما تتمثل في قواعد النيابات . وكان انتقال الحكم من

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٨٨ .

(٢) لم يكن هذا الوضع فريداً في تاريخ الممالك ؛ راجع الاسحاق ، اخبار الاول في من تصرف في مصر من الدول (القاهرة ، ١٢٩٦) ، ص ٢١٠ .

(٣) المجلد السابع ، ص ٥٥٩ .

(٤) الفلغشتدي ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .



أحد سلاطين المماليك إلى آخره، في دمشق وسواها من الأقاليم^١، يدعو إلى إثارة الفتن. أما غربي لبنان، فكان قد أقطع إلى زعماء من أهله البحتريين من بني تنوخ^٢. ولما كانت دمشق ذات إجماع قديمة، وقد اختارها بيبرس - منظم سلطة المماليك - مقراً له، فقد صار لها بذلك الفضل على سائر الأقاليم الأخرى. وقد عيّن تنغيز (١٣١٢ - ٣٩)، أحد حكامها، نائباً للسلطان على سورية، وذلك في غضون العهد الثالث من ولاية الناصر. وكان أقليمه هذا، أي «مملكة دمشق»^٣، يشمل على فلسطين - باستثناء منطقتين صغيرتين هما صفد والكرك - ويمتد شمالاً إلى بيروت وحمص وتدمر. وتنغيز هذا جرت المياه إلى مدينة القدس، ورمم برج بيروت، وبني فيها الخانات والحمامات العامة^٤. وبعد ولاية تميزت بطول الامد، وكثرة أعمال الاحسان، ارتكب امرأ شائناً قتل في سجن من سجون الاسكندرية^٥.

الجوع والطاعون

تخل عهد المماليك بجملة فترات من الجذب والمجاعة والوباء؛ ووقعت فيه زلازل زادت في أسباب الخراب؛ وقد حفلت صفحات تاريخه بأخبار الولايات والكوارث^٦. فالمقرزي^٧، وهو زعيم مؤرخي هذا العصر، يخصص كتاباً بكامله لوصف المجاعات التي وقعت في مصر سنة ١٤٠٥، وهي السنة التي وضع مؤلفه فيها. ويتحدث ابن تغري بردي^٨ عن أربعة أوبئة، شديدة الرطوبة، اجتاحت مصر في

(١) للاستزادة عن حكومة سورية راجع: Gaudefroy-Dememhynes, pp. xix seq., 29, seq.; Walther Bjorkman, *Beitrage zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Agypten* (Hamburg, 1928), pp. 101 seq., 157 seq.; دراسات: علي إبراهيم حسن، في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة، ١٩٤٤) ص ٢٤٨ - ٥٣.

(٢) صالح، ٨١ وما بعد.

(٣) العمري، ص ١٧٦؛ قابل: الظاهري، ص ١٣١.

(٤) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٢١؛ صالح، ص ١٥٥ - ٥٦.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور في تاريخ الدهور، ج ١، (القاهرة ١٨٩٣)، ص ١٧٢؛ المقرزي، الحخطط، ج ٢، ص ٥٤ - ٥٥.

(٦) صالح، ص ١٤٤؛ ابن الفرات، ج ٨، ص ٢٠٩، ٢١٢؛ ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٥٢٨ - ٤٢؛ حوائث الدهور في مدى الايام والشهور، نشر ولیم پوپر (بركلي، ١٩٤٢)، ص ١١، ٧٣، ٣١٢، ٣١٩. أما في ما يتصل بالابوين فيبني مراجعة المقرزي: السلوك، نشر زيادة، ج ١، ق ١، ص ١٣٠ - ٣٣، ١٥٦ - ٥٨، ٢٤٨.

(٧) اغاثة الامة بكشف النمة نشر محمد زياده وجمال الدين شيال (القاهرة، ١٩٤٠).

(٨) المجلد الخامس، ص ٧٠ - ٧٦، ١٥٤، ١٨٥، ٤٠٨، ٥٠٧.

غضون القرن الرابع عشر (١٣٤٨ - ١٣٥٩، ٤٩ - ١٣٦٢، ٦١ - ٦٣) . وفي مختلف المدونات التاريخية ذكر لما لا يقل عن اربع عشرة فتنة خطيرة وقعت في خلال القرن الخامس عشر، اي بمعدل واحدة كل سبع سنوات . اما « الموت الاسود » او « الفناء الكبير » الذي اجتاح اوربا بين سنة ١٣٤٨ و ١٣٤٩ ، وقتك باهلها فتكاً ذريعاً ، فقد استطال في مصر سبع سنوات ، وبلغ عدد ضحاياه في العاصمة ، على ما قدر ابن اياس^١ ، رقماً يصعب تصديقه هو ٩٠٠ الف . وفي الاخبار ان غزوة فقدت ٢٢ الفاً في شهر واحد ، وكان معدل خسارة حلب خمس مئة ضحية في اليوم الواحد . وكان عدد كبير من هؤلاء الضحايا من الاغراب ، ومن الاولاد الذين لم يكن عندهم مقدار كافٍ من المناعة . وكان من هذه الكوارث ومن سوء ادارة المماليك ، ان هبط عدد السكان في مصر وسورية الى نحو الثلث مما كان عليه سابقاً .

التجارة والصناعة

وبما زاد الوضع الاقتصادي سوءاً الضرائب الفادحة والسياسات التي قامت على اسس فاسدة ، ان لم نقل استغلالية نفعية . فالجروب ضد الاقربنج والمغول دعت الى فرض الضرائب الفادحة في مصر وسورية ، منها فرض ١/٣ ٣٣ بالمئة على قيمة الايجار ، فكان ذلك باعثاً على سيل من الاحتجاجات لانهاية له . ولم تكن هذه الرسوم الثقيلة على الحيل والقوارب فحسب ، بل على ضروريات الحياة ايضاً نظير الملح والسكر . وقد احتكر بعض السلاطين سلعاً معينة ، وتلاعبوا باسعارها تبعاً لمصلحتهم الخاصة . وعمد سوامم الى تحفيض قيمة النقد بحيث ادى الى احداث تضخم لولي^٢ . وكانت كلما ازدادت حالة الشعب فاقة ، تمت ثروات الحكام وانتفعت جيوبهم . ولولا تجمع الاموال الكثيرة لما تمكن السلاطين من اقامة تلك المباني الهندسية الفخمة التي لا تزال مصر تفخر بها بحق^٣ .

على ان ازدياد النشاط التجاري ، الذي عقب المشاريع الصليبية عوَّض ، لحسن الطالع ، عن بعض التأخر الاقتصادي . فان الامتيازات التي اولاهها العادل^٤

(١) المجلد الاول، ص ١٩١ ؛ قابل : ابن تقي بريدي ، ج ٥ ، ص ٧١ .

(٢) القريري ، الاغاثة ، ص ٧٠ - ٧٢ ؛ ابن تقي بريدي ، الحوادث ، ص ٣١٠ - ١٢ .

(٣) انظر ص ٢٨٦ من هذا الجزء .

(٤) راجع ص ٢٤٢ من هذا الجزء .

وبيبرس ، لتجار البندقية وسواهم من تجار اوربا، نشطت تبادل السلع ، وجعلت من القاهرة مستودعاً تجارياً هاماً ما بين الشرق والغرب . فالحرير السوري شارك العطور والتوابل في احتلال المركز الاول في حركة التصدير . وجاء بعده في جدول الصادرات الزجاج ، والادوات المصنوعة^١ . وكانت دمشق وطرابلس وانطاكية وصور في طليعة المراكز الصناعية الكبرى . وكان بعض الحرير في اسواق سورية مستورداً من الصين . وكانت التوابل ترد من الجزيرة العربية وسواها من البلاد الاستوائية . وكانت اللآلىء تجلب من خليج العجم الى مرقاي يافا وطرابلس^٢ . وعندما ارسل احد حكام دمشق عملاءه الى ناحية الشوف في لبنان ليدرس امكانية صنع التبال من اغصان شجر التوت ، اضطرب اللبنانيون اضطراباً شديداً^٣ . وكان باستطاعة الشاري ان يبتاع من اسواق حلب ودمشق وبيروت مصنوعات العاج والحديد ، والنسيج المصبوغ ، والسجاد والحزف المطلي بالميثاء . وكانت ضواحي بيروت تنتج الزيت والزيتون والصابون ، شأنها اليوم . ولا تزال احواض صناعة الملح ترى في عثليث ، وفي مواضع اخرى على طول الشاطئ^٤ .

على ان السوريين لم يعتمدوا على الاغراب اعتماداً كلياً في حركة التصدير فان تجارهم كانوا من عهد صلاح الدين قد انشأوا لانفسهم قواعد في القسطنطينية ، حيث كان الامبراطور - نزولاً على رغبة صلاح الدين - قد بنى مسجداً لهم ولزملاتهم المصريين ؛ وذلك في مقابل الامتيازات التي نعم بها تجار الروم في سورية ومصر . ولم يكن يسمح لسواهم من التجار الاغراب بالاقامة الدائمة في عاصمة الروم . وقد قام قسيس الماني اسمه لودوف فون سوخم بزيارة الى الاراضي المقدسة ، ما بين سنة ١٣٣٦ و ١٣٤١ ، فراقه ما شاهد من دلائل الرخاء في دمشق^٥ ، وفي «مدينة عكا المجيدة» ، وسواها من مدن سورية فقال واصفاً عكا :

(١) E. Rey, *Les Colonies franques de Syrie* (Paris, 1883), pp. 204, 214-34. راجع

(٢) Hilmar C. Krueger, «The Wares of Exchange in the Genoese-African Traffic of the Twelfth Century», *Speculum*, vol. xii (1937), pp. 64, 71.

(٣) صالح ، ص ٢٢٥ .

(٤) صالح ، ص ٢٢٩ .

(٥) Conder, p. 451 .

(٦) ص ١٢٩-٣٢٠ .

كانت الشوارع داخل المدينة [عكا] نظيفة للغاية ، فبجدران البيوت جميعها ذات ارتفاع واحد ، وهي مبنية بالحجر المنحوت . وقد ازدادت بالتوافد الزجاجية والرسوم الملونة . وكذلك سائر قصور المدينة وبيوتها ، فانها لم تبني لتكون مجرد مأوى لاصحابها ، بل لتوفر لهم اسباب الراحة والندخ . وكانت طرق المدينة مظلة بالحريز المنسوج ، ويسواه من ضروب السقائف المظلة الجميلة ، دفعا لاشعة الشمس . وكان يقوم عند كل منعطف برج حصين للغاية ، مسيج بباب حديدي وسلاسل من حديد . وكان جميع الاشراف يقيمون في قلاع حصينة وقصور منيعة تمتد على طول حدود المدينة الخارجية . أما المال والتجار فقد اقلع كل منهم في السوق الخاص بنوع عمله ١ .

وزار ابن جبير ٢ دمشق في عهد صلاح الدين ، ومكث فيها فترة من الزمان ، ولقبها «بعروس المدن» . ووصف مطولا ساعة كانت تقوم في باحة مسجد هاشم بن عبد المطلب فيها الى مرور الوقت نهائيا نسران من النحاس ، وليلا جهاز خاص من الانوار . وقد ذكر هذه الساعة بالذات بنيامين التودلي ٣ .

في لبنان

ولقد عمد زعماء لبنان الاقطاعيون الى مزاوله الفن السياسي المكيفلي ببراعة فائقة ، قبل ظهور ساسة البندقية بزمان طويل . فلعبوا لعبتهم هذه في غضون القلاقل التي ادت الى قيام الفاطميين والاوييين والافرنج والماليك والتتر اساءدا عليهم . وعندما احتل الصليبيون بيروت وصيدا ، استولى امراء الغرب من بني بختر على بعض الاراضي المجاورة واتبعوها في قطاعاتهم ، وقدموا خدمات عسكرية للافرنج ٤ . ولم يترددوا مع ذلك في انشاء علاقات بمائلة مع الماليك ٥ . وكان بين اقطاعات البحتريين قرى صغيرة نظير شملان وعيناب وبيصور ، لم يسبق لها ذكر في التاريخ ، وهي معروفة الى اليوم ٦ . وفي غضون النزاع الذي نشب بين التتر والماليك ، كان

(١) Ludolph von Suchem, p. 51 .

(٢) ص ٢٦٠ ، ٢٧٠ - ٧١ .

(٣) المجلد الاول ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٤) صالح ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ٨٣ - ٨٤ ، ١١١ - ١٢ ؛ راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

(٥) صالح ، ص ٨١ .

(٦) صالح ، ص ٨١ ، ١٢٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨ - ٩٩ ، ٢٣٤ - ٣٥ ؛ راجع ٢٧٥ - ٢٧٦ من هذا الجزء .

لهؤلاء الامراء احياناً يمثلون في الجبهتين - وهو موقف يضمن لهم ان يكونوا في الجانب الفائز، اياً كان هذا الجانب^١. وهكذا فان سياسة الانتظار والحذر والمداهنة، التي زاولها ابناء هذه السواحل في القرن الرابع عشر قبل الميلاد^٢، استمروا عليها حتى عهد فخر الدين والامير بشير^٣.

وكان عدد من القبائل العربية قد اوغل في هذا الجبل لا سيما من الجنوب^٤. ومع ذلك فقد بقيت منه غابات كثيرة. وكان المسافر، حتى اواخر القرن الرابع عشر، يصادف فيها الدببة والاسود والخنائير البرية والحمر الوحشية^٥. وكان في سورية ايضاً مثل هذه الوحوش كما يشهد بذلك اسامة^٦. وقد ذكر منها الحمر والغزلان والاسود والخنائير والضباع والتمور. ونظراً لكثرة الفواكه البرية والبقول الصالحة للطعام وغزارة المياه العذبة، غدا ملجأً مستحباً لرهبان النصارى ومتصوفة المسلمين. وقد خصص احد المؤرخين في اواخر القرن الثاني عشر^٧ فصلاً طويلاً للكلام عن مثل هؤلاء الرجال والنساء في جبال لبنان وسورية. وهذا ابن جبير^٨، يشير اشارة مفعمة بالسرور والاستغراب، الى العطف الذي يبديه السكان

(١) صالح، ص ٩٣ - ٩٤؛ قابل ٢٤٧ - ٤٨.

(٢) راجع ص ٧٦ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

(٣) انظر الفصل التالي «وضع لبنان الخاص».

(٤) راجع ص ٩٤ - ٩٥ من هذا الجزء؛ Lammeus, *Syrie*, vol. ii, pp. 8-14. دعي العرب الذين حلوا في سورية ومصر في ادب مصر بولاد العرب (ابن تغري بردي، ج ٥، ص ٣٦٧، س ١٠؛ راجع ص ١٧٢ من هذا الجزء) : اما لفظة «العرب» فقد استعملت بصورة خاصة للاشارة الى البدو (ابن تغري بردي، الحوادث ص ١٣، س ٣، ص ٤٧، س ١٥، ص ١٩٣، س ٢١)، هذا مع ان اللفظة القرآنية «عربان» لم تكن قد هجرت تماماً (ابن تغري بردي، الحوادث، ص ١٢، س ٢٠، ص ١٩٠، س ٣، ص ٦٩٢، س ١٥، ١٧؛ وكذلك، ج ٦، ص ٧٤٩، س ١، ج ٣؛ الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والاخبار (القاهرة، ١٢٩٧)، ج ١، ص ٣٧٩، س ٩، ص ٤١٧، س ٣٠؛ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٧٨، س ١١؛ القلقشندي ج ١٣، ص ٥، ج ٩، ص ٢٥٤؛ الظاهري، ص ١٣٦.

(٥) صالح، ص ١١٣، ١٩٣؛ ابن بطوطة، ج ١، ص ١٧٥.

(٦) الاعتبار، ص ٢٢٠، ٢١٨، ١٩٣، ٢٢٣ - ٢٤، ٢٤٤ - ٤٥، ١٢٦، ١٠٣ - ١٢.

(٧) ابن الجوزي. صفوة الصفوة، ج ٦ (حيدر اباد، ١٣٥٦) ص ٣١٤ - ٢١، ٣٢٣ - ٢٧، راجع ص ٢٠١ - ٢٠٢ من هذا الجزء.

(٨) ص ٢٨٧.

النصارى الى هؤلاء النساك . وقد حفظ لنا الادب الصوفي عدداً من القصص الاسطورية عن امثال هؤلاء الرجال ؛ منها ان متصوفاً مسلماً لبنانياً اضاع زاد يومه ، وهو رغيث حصل عليه من مصدر مجهول . فقصده الى اقرب بيت في المزرعة المجاورة والتمس صدقة . فاعطاه الفلاح النصراني رغيثين من الشعير . لكن الكلب جرى في اثره ، وما زال ينبج حتى انتزع منه الرغيثين وسلبه ثوبه . وعندما عجب الصوفي من فرط طمع الكلب ، انطق الله الكلب بما مؤداه : انا احمي بيت سيدي وماشيته وكثيراً ما ابنت على الطوى إذا لم يكن هناك من طعام له او لي ولكنك انت وقد أضعت زاد يومك اتيتنا تطلب غوثنا . أيتنا أشدّ طمعاً انا ام انت ؟

النشاط الثقافي : العناية الطبية

ان سورية مع كل ما قاسته من الاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية ، لاقت في عهد الزنكيين والصلاحيين - لاسيما في زمن نور الدين وصلاح الدين - ازهى العصور من حيث النشاط الفنى والتربوي . ولا تزال المباني الهندسية في عاصمتها دمشق تشهد للنهضة العمرانية التي تحققت على يد هذين الحاكمين . فقد رمم صلاح الدين اسوار المدينة ، بما فيها من ابراج وابواب . ثم اقام مباني عامة بقي بعضها الى عهد قريب ، من اهمها المستشفى الذي يسمى باسمه^٢ . وقد تحول الآن دار مدرسة تجارية . اما نفقات بنائه فقد اخذت من فدية اداها احد اسرى الافرنج^٣ . وقد زار ابن جبير^٤ هذا المستشفى سنة ١١٨٤ ، فوجده ذا دخلٍ يدرّ عليه يومياً خمسة عشر ديناراً ، وأثنى القيميين عليه يعنون بتسجيل الاصابات المرضية المنقولة اليه والاموال التي تنفق فيه ؛ ولاحظ ان الاطباء يهتمون جدياً بالمرضى ، فيعينون لهم الطعام المناسب ؛ ويعطونهم الدواء من غير مقابل . وقد عولج في هذا المستشفى المؤرخ المعروف ابن الاثير ، وعندما احتج على تجانية المعالجة بانه ميسور ، وقادر على دفع ثمن الدواء ، قيل له ان احداً لم يرفض بعدُ نعمة نور الدين . وقد ذكر هذا

(١) المكى ، تذهة الجليس ومنية الاديب الاليس (القاهرة ، ١٢٩٣) ، ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المارستان النوري ؛ ابن جبير ، ص ٢٨٣ . والمارستان « العربية معرفة عن الاصل الفارسي بيارستان معناه دار المرضى . فابن جبير يشير على ما يبدو الى مستشفى اقيم ربما بناء دقاق ابن ططش السلجوقي (راجع ص ٢٠٦ من هذا الجزء) لا الوليد (راجع ص ١١٣ من هذا الجزء) .

(٣) القبريزي ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٤) ص ٢٨٣ .

المؤرخ^١ ان نور الدين بنى مستشفيات اخرى وخانات عديدة في انحاء البلاد. وقد جرى اختيار الموقع لمستشفى حلب^٢ بان ذبح ضأن، وقسم اربعة اقسام علق كل منها في ناحية من نواحي المدينة الاربع. واختبر الموقع الذي وجدت فيه قطعة اللحم، في الصباح التالي، «اجود رائحة». وقد نسب مثل هذا التدبير الى الرازي، عند اختيار الموقع الملائم لمستشفى بغداد، قبل ذلك بنحو قرنين ونصف القرن^٣. وفي الاخبار ان الموظف المصري والمؤلف المعروف الظاهري^٤ زار مستشفى دمشق حوالي سنة ١٤٢٨، وكان برفقته حاج فارسي ظريف، ادهشه ما اتبع للمرضى من اسباب الراحة، فتظاهر بالمرض، وقبل حالاً في عداد المرضى. لكن رئيس الاطباء، لدى جس نبضه، وبعد فحصه فحصاً مدققاً، وجد انه سليم معافى! ومع ذلك فقد وصف له الدجاج المسمن، والاشربة الزكية، والفواكه النضية، واقراص الحلوى، وغير ذلك من الاطياب. وعندما حل الوقت كتب له وصفة اخرى هي: «ان حد الضافة ثلاثة ايام».

الطباية

كان هذا المستشفى مجهزاً فوق ذلك بمكتبة، فكان في الوقت نفسه معهداً لدرس الطب. وقد حفظ لنا ابن ابي اصيبعة^٥ اسم استاذ الطب الاول في هذه المؤسسة، وهو ابو المجد بن ابي الحكم، وترجمة طويلة لحياة عميدها الممتاز، في عهد العادل الايوبي، وهو مهذب الدين بن الدخوار (١١٦٩/١١٧٠ - ١٢٣٠). وهنالك بيانات تشهد على ان الطبيب والصيدلي والكحالي، كانوا يخضعون لنظام امتحان، لينالوا اجازة عمل قبل ان يسمح لهم بممارسة حرفتهم. وفي الدليل الذي يسترشد به المحتسب - وهو الموظف الموكل بتطبيق القوانين - نص واضح يعين واجبات المحتسب نحو الفصادين والحجامين والاطباء والجراحين والمجبرين والصيدالة. وهو يشير الى مدى صلاحية السلطة في مراقبة هذه الاعمال^٦. وكان بين تلامذة ابن

(١) المجلد الحادي عشر، ص ٢٦٧.

(٢) ابن الشحنة، ص ٢٣٠ - ٣١؛ للاستزادة عن هذا المستشفى راجع: احمد عيسى *Histoire des bimaristans à l'époque islamique* (Cairo, 1928), pp. 203-5.

(٣) ابن ابي اصيبعة، ج ١، ص ٣٠٩ - ١٠.

(٤) ص ٤٤ - ٤٥.

(٥) المجلد الثاني، ص ٢٣٩، ١٥٥ - ٤٣.

(٦) ابن الاخوة، معالم القرن في احكام الحسبة، نشر روبرت لثي (كامبردج، ١٩٣٨)، ص ١٥٩ - ١٧٠.

الدخوار التجباء ابن النفيس^١ الطبيب الذي تولى ادارة مستشفى قلاوون^٢ في القاهرة، ثم تحول الى دمشق وفيها توفي سنة ٨٩/١٢٨٨ وقد عرف عنه انه كان لا يصف دواء متى كان الغذاء وافياً بالغرض. وقد اورد ابن النفيس، في كتابه «شرح تشريح القانون» الذي شرح فيه قانون ابن سينا، رأياً له في دوران الدم في الرئة، وذلك قبل سرفقتوس الاسباني الذي يقرن هذا الاكتشاف باسمه، بثلاثة قرون. وكان اهم ما ظهر من المؤلفات في طب العيون في القرن الثالث عشر كتابان لكحاليين سوريين اولهما «الكافي في الكحل» لخليفة بن ابي المحاسن، الذي زها في حلب حوالي سنة ١٢٥٦، والثاني «نور العيون وجامع الفنون» لصلاح الدين بن يوسف، الذي مارس التطبيب في حماة حوالي سنة ١٢٩٦. وقد كان خليفة بن ابي المحاسن هذا من الثقة بمحذقه الجراحي بحيث لم يتردد في ازالة الماء الازرق لمريض كان ذا عين واحدة^٣. على ان هؤلاء جميعاً قد عاشوا في الفسق المتأخر من عهد العلوم الاسلامية.

وفي هذا العصر ظهر ابرز من انجبتهم دنيا العرب من مؤرخي الطب، وهو موفق الدين احمد بن ابي اصيبعة (١٢٠٣ - ٧٠). وقد كان هو نفسه طبيباً، وابن كحل شامي. حصل الطب على ابن ابي دخوار في القاهرة. ولازم ابن البيطار، العالم الاسباني المسلم الشهير، في ابحاثه النباتية. وهذا كتابه الرائع «عيون الانباء في طبقات الاطباء»^٤ منقطع النظير في اثار العرب، وهو موسوعة متقنة تضم نحواً من اربع مئة من سير الاطباء العرب واليونان، قل منهم من لم يكن، الى طبه، فيلسوفاً او فلكياً او طبيعياً او رياضياً. وكان اقرب المؤلفات اليه كتاب لمعاصر له مصري هو القفطي (١١٧٢ - ١٢٤٨)^٥. والقفطي هذا قضى الشطر الثاني من حياته في حلب، حيث تقلد الوزارة لحكائها الايبيين. وكان ممن اعتمد

(١) السبكي، ج ٥ ص ١٢٩.

(٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

(٣) راجع سارطن Sarton, vol. ii, pp. 1101-2.

(٤) نشره اولاً «امرؤ القيس ابن الطحان» [اوغست مولر August Müller] في مجلدين (القاهرة، ١٨٨٢)، ثم طبع ثانية مع صفحات اضافية وتصحيحات وغروس بناية اوغست مولر في مجلدين (كونسبرغ، ١٨٨٤).

(٥) اخبار العلماء باخبار الحكاه (تاريخ الحكاه) نشر جوليوس ليرت (ليبتزغ، ١٩٠٣).

ابن ابي اصيبعة^١ في تحصيل فلسفة اليونان عالم مصري من اصل شامي هو ابو الرفاء مبشر بن فاثك^٢. وكان في سنة ١٠٣٥ قد الف كتاباً سماه «مختار الحكم ومحاسن الكلم»، ترجم الى الاسبانية في النصف الاول من القرن الثالث عشر ثم الى اللاتينية فالفرنسية فالانكليزية. وقد كانت طبعته الانكليزية، التي اخرجها وليم كاكستون سنة ١٤٧٧، اول كتاب طبع بتلك اللغة، مهوراً بتاريخ الطبع وموضعه. وقد ظلت المؤلفات التي غذاها هذا الكتاب العربي ذات اثر في عالم الفكر والتأليف في اوربا الغربية، اكثر من اربعة قرون.

المدارس

وجرت المدارس والمساجد بحرى المستشفيات. فقد عمل النوريون في سورية على انهاض نوع من المعاهد عرف بال مدرسة «هو مسجد جامعي» والمدرسة هذه لم تكن وليدة بيت الحكمة الذي انشأه المأمون في بغداد سنة ٨٣٠ ليكون ندوة عامة للعلوم والفنون، بل لعلها اقرب لان تكون وليدة النظامية التي تأسست في بغداد سنة ١٠٦٧ واتخذت اسمها من الوزير الفارسي. نظام الملك الذي استوزره سلاطين السلاجقة الاولون. كانت هذه المدارس معاهد مسجدية، وحلقات فقهية، ومجامع شرعية. انشأتها الدولة من اجل ان تثبت مذهب اصل السنة وتعمل على نشره. وكانت تعنى بالتعاليم التي اقربتها السنة وايدها الفقه الاسلامي درساً وتدريباً. وكان الاساتذة والطلاب يتناولون مرتباتهم من وقفيات^٣ لهذه المؤسسات، ويقيمون في اماكن مهيئة لهم فيها. وكان المدرسون من جماعة الفقهاء والعلماء والمحدثين. ولم تكن الوظائف المدنية متاحة بحسب العرف الجاري، لغير من طلبوا العلم في احدى هذه المدارس. واذا لمس النوريون وبعدهم الايوبيون الفائدة التي تعود على الدولة من مثل هذه المدارس، عمدوا الى الانتفاع بها قدر المستطاع؛ فبنى نور الدين مثل هذه المدارس، ليس في دمشق وحدها، بل وفي حلب وحمص وحماة وسواها من المدن السورية. وفي دمشق اليوم ثلاث من مدارسه هي اقدم ما بقي

(١) المجلد الاول، ص ٩، ١٦، ٢١، ٢٨، ٣٠، ٣٨، ٤١، ٤٣، ٤٧، ٥٠.

(٢) ياقوت، ارشاد الاريب، ج ٦، ص ٢٤١؛ القفطي، ص ٢٦٩.

(٣) راجع ص ٨٨ من هذا الجزء.

(٤) ابن خلكان، ج ٢، ص ٥٢١؛ ابن الاثير، ج ١١، ص ٢٦٧. للاستزادة عن المدارس

في حلب راجع: J. Sauvaget, *Alep* (Paris, 1911), pp. 122-4, 148.

من هذا النوع من المباني ؛ وهي ذات شكل هندسي مصلب منقول عن اصل فارسي . وقد دفن نور الدين في احداها . وهي المدرسة النورية التي قال ابن جبير^١ في وصفها انها من اجمل المباني المدرسية في العالم . وقد نقشت على الحجر كتابة بسيطة لا تزال تقرأ بسهولة هي « هذا قبر الشهيد نور الدين بن زنكي رحمه الله » وما زال الدمشقيون يكرمون هذا الضريح الى اليوم . اما قبته فمن الطراز المعروف بالمقرنص^٢ . وقد اعتبره الكثيرون من الرواشح ، بينما هو على الاصح من الرفارف . وعن طريق هذا البناء توثقت الصلة بين المدرسة والتربة والمسجد في سورية .

وكان نور الدين سخيّاً في بناء المساجد ، شأنه في بناء المدارس . وهوذا مسجد حماة لا يزال يحمل اسمه فيعرف بالنوري . مجهز بالماء الجاري ، كما كانت سائر المساجد الكبرى والمستشفيات والمدارس التي انشأها . وقد عمل كذلك على ترميم المساجد القديمة في عدد من المدن اخصها حلب حيث جدد بناء القلعة الشهيرة . ولا تزال نقوشه ظاهرة على الجانب الغربي من برج القلعة . وهذه النقوش النورية تمثل نقطة تحول في علم الخطوط العربية ، اذ بها يتعين العهد الذي حل فيه الخط النسخي العادي المستدير محل الخط الكوفي الحاد الزوايا .

وقد سلك الايوبيون في التهج الذي اختطه النوريون قبلهم ، فاستأنف العادل اخو صلاح الدين بناء مدرسة كان نور الدين قد شرع ببنائها قبله ، فدفن فيها ؛ وهي المعروفة اليوم بالعدلية . والتي يشغلها في الوقت الحاضر المجمع العلمي العربي في دمشق^٣ .

وكان صلاح الدين منافساً لنور الدين في رعاية المشاريع الانشائية والتعليمية . فقد عرف معاصره ابن جبير^٤ في دمشق عشرين مدرسة ، ومئة حمام عمومي ، واربعين داراً للوضوء ، وعدداً كبيراً من تكايا الدراويش^٥ ، جلها مجهز بالماء الجاري . وصلاح

(١) ص ٢٨٤ . راجع التميمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسني (دمشق ، ١٩٤٨) ، ص ٦٠٦ - ٧ .

(٢) اللفظة تحريف للفظ يونانية الاصل ؛ انظر Herzfeld in *Ars Islamica*, vol. ix (1942), p. 11.

(٣) التميمي ، ص ٣٥٩ .

(٤) ص ٢٨٣ ، ٢٨٨ .

(٥) يعرف واحداها بالخانقاه ، واللفظة فارسية .

الدين هو الذي ادخل تكية الدراويش ونظام المدرسة الى مصر؛ وكان غرضه من انشاء نظام المدرسة فيها محاربة التعليم الشيعي^١. ثم بنى في مدينة القدس مستشفى ومدرسة وتكية نسب كل منها اليه وعرف باسمه^٢.

الهندسة المعمارية وفن الزخرفة في عهد المماليك

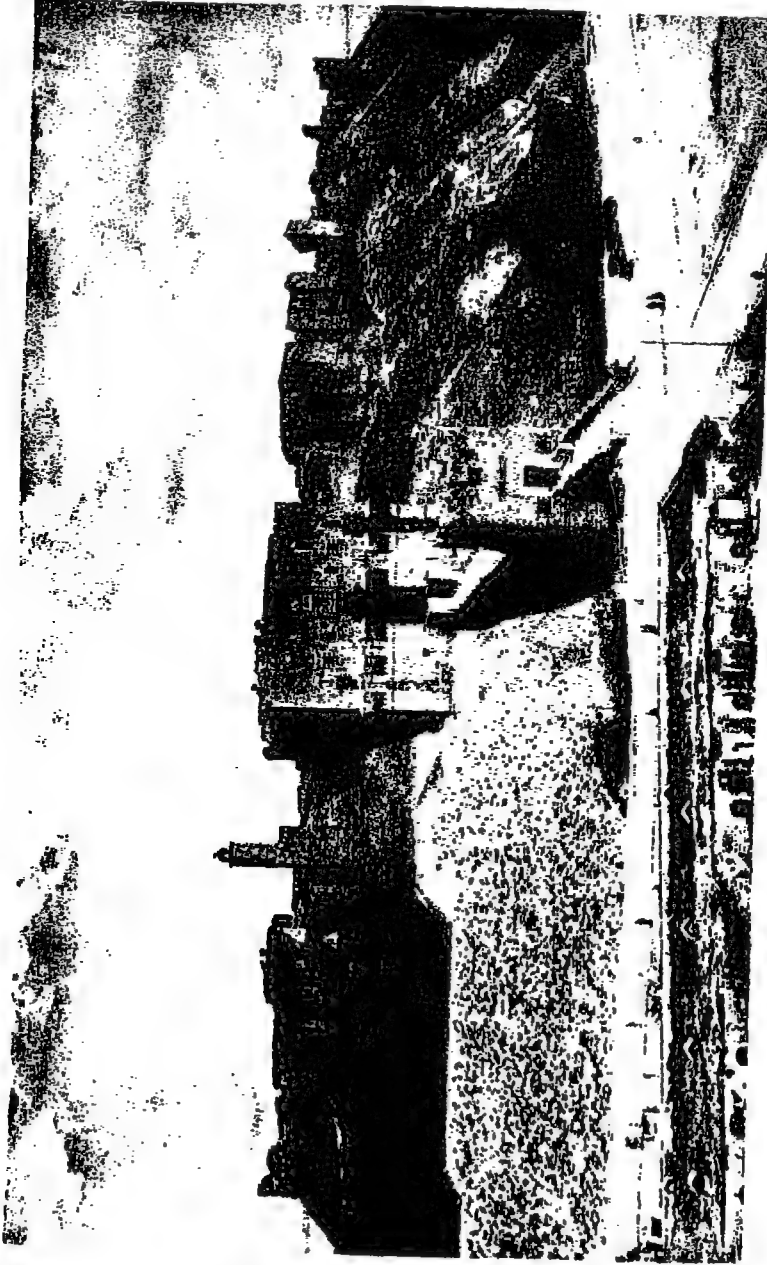
ولقد اتبع المماليك في مصر الطراز الايوبي السوري في الهندسة المعمارية. ويتمثل هذا الطراز في مصر اليوم في عدد من اروع المباني التي اخرجها الفن العربي على الاطلاق. وتتميز هذه المدرسة المعمارية بقوة البناء ومناعته، وفرة الزخارف فيه. وتبدو الرسوم الزخرفية التي يزدان بها بالغة الاناقة، راسخة في الحجر الصلد الناعم الذي نقش فيه. وفي القرن الثالث عشر استقبلت مصر مؤثرات جديدة سورية عراقية، وذلك على يد الفنانين من ارباب الصناعة الذين جاؤا اليها من دمشق وبعداد الموصل، فارين من وجه الغارات المغولية. وهي ظاهرة في مباني المدارس والمساجد والمستشفيات والقصور وتكايا الدراويش. فقصر «الابلق» المشهور الذي بناه الملوك الناصر سنة ١٣١٤ اختار له طراز احد قصور دمشق، والزخارف التي ازدانت بها مباني الايوبيين والمماليك قد زادت في روعتها الهندسية زيادة عظيمة. وكان مما ابتدعه الايوبيون الحرص على إتقان التفاصيل، والمزيد من الدقة في مراعاة النسبة القياسية، والاكتثار من الرواشح السقفية. وحصل، إلى ذلك، تحول عن الشكل المربع المستوي الجوانب، الذي كان متبعاً في بناء البروج. وكذلك المآذن المتقنة، فقد نشأت في عهد المماليك البحرية من اصول ايوبية. على ان اروع المآذن إنما تعود إلى العهد البرجي، الذي بلغ فيه فن الهندسة المعمارية العربية، كما يتجلى في المباني المسجدية، اقصى روعته ومنتهى رقيه^٣.

وقد تحدر البناء من العهد الايوبي المملوكي نماذج رائعة من المصنوعات الفنية

(١) ابن خلكان، ج ٣، ص ٥٢١؛ السيوطي، ج ٢، ص ١٥٦، ١٥٨؛ قابل: القريري، ج ٢، ص ٣٦٣.

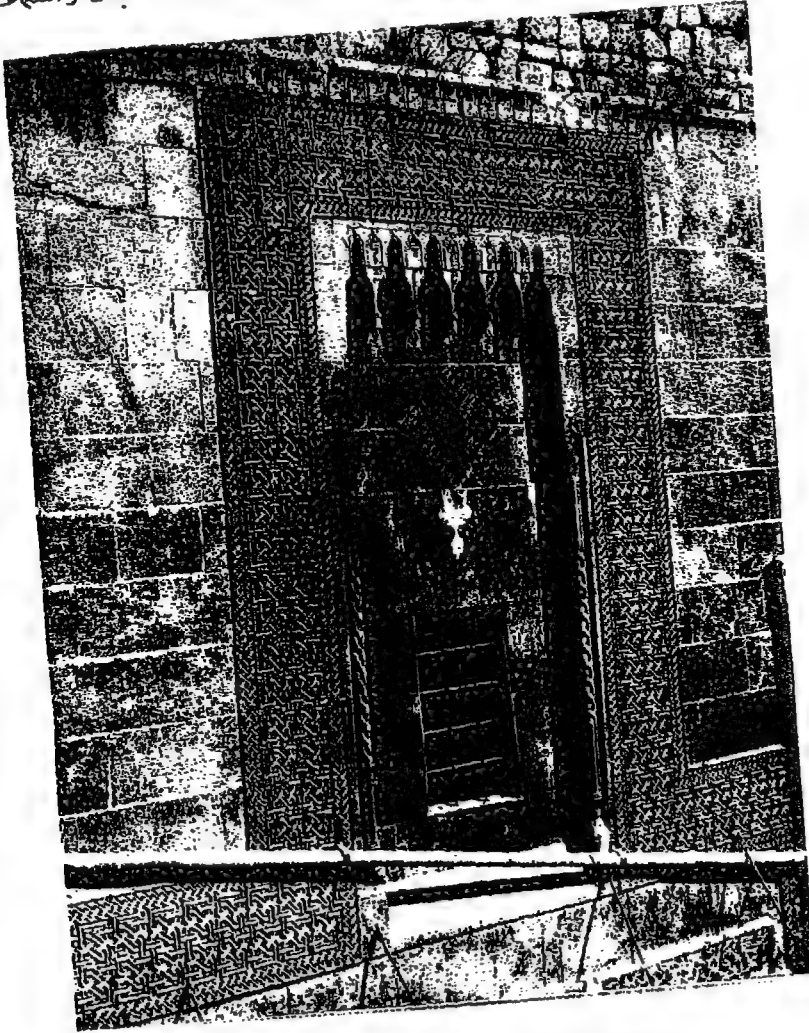
(٢) ابن خلكان، ج ٣، ص ٥١٦؛ القريري، ج ٢، ص ٤١٥.

(٣) انظر: René Grousset, *the Civilizations of the East*, vol. i, *The Near and Middle East*, tr. Catherine A. Phillips (New York, 1931), p. 235; M. van Berchem, *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, pt. 2, vol. i (Cairo, 1922) p. 87 seq.



قلعة حلب القديمة وقد رمتها نور الدين والى يسار الدخول برج بيزنطي اصله السلجوقي وجعلوه مثانة

الحديدية والادوات النحاسية والاواني الزجاجية والمحفورات الحشوية . وبما يستحق
إشارة خاصة من الادوات النحاسية ، المزهريات والاباريق والاطباق والشماعد



خان الصابون في حلب — بناء أثنيق من عهد المماليك

والمباخر وغلافات القرآن ؛ وجميعها زاهرة بضروب الزركشة والتزويق . قال احد
المعاصرين في وصفها :

ومع هذا الاسراف الباهر في الرسوم ، فان الزخرفة ، مع ما يتخللها من كتابة كوفية بارزة ، واوراق
نباتية متلاحقة ، واشكال فنية متشابكة ، وغاذج زهرية الصورة ، وزخارف عربية الطراز ، وشمائر

ترمز الى البطولة ؛ فقد احتفظت بما يوحى العزم والثقة بالنفس ، فإذا هي تدعو الى اغتباط الدهن فضلاً عن ارتياح البصر . وذلك في رأينا هو السر الكامن في فن الزخرفة العربية^١ .

أما دمشق فقد احرزت شهرة خاصة بصناعة المراكن والاطباق الذهبية ، المنزلة بالزخارف الفضية ذات الاشكال الهندسية والرسوم النباتية ، وغير ذلك من الزخارف الدقيقة . وقد ذكر رحالة ايطالي^٢ زار دمشق سنة ٨٥٠/١٣٨٤ « ان الرالد إذا كان جوهرياً تعذر على الابن ان يمارس حرفة اخرى » . وهكذا قضت الظروف على ابناء الحرفة ان يتقنوها إتقاناً تاماً . ثم ان الزخارف التي تزدان بها ابواب المساجد البرنزية تشهد لذوق العصر الرفيع ، وكذلك المحفورات الحشوية الحافلة بالرسوم النباتية والاشكال الهندسية ، فانها تنبئ بالتححرر من قواعد الفن الفاطمي . وفي المتحف العربي في القاهرة زجاجة عليها اسم الناصر صلاح الدين سلطان دمشق وحلب (١٢٥٠-٦٠) هي من اقدم عينات الزجاج المطلي بالمينا . وتشهد مصابيح المساجد المحفوظة في هذا المتحف وفي سواه من المتاحف بات سورية ظلت الى ذلك الحين متفوقة على جميع البلدان الاوربية في فن صناعة الزجاج^٣ .

المجهود الفكري

أما على الصعيد الفكري فإن العصر الايوبي المملوكي كان عصر تجميع وتقليد اكثر منه عصر توليد وإبداع . ومع هذا فقد بقيت دمشق والقاهرة ، لاسيما بعد خراب بغداد وانهار الحكم الاسلامي في اسبانيا ، المركزين المقدمين في شؤون التعليم والفكر في العالم العربي . فقد كان من شأن المدارس التي أسست في هاتين المدينتين ، ورصدت لها الاموال الطائلة ، ان تعمل على حفظ العلوم العربية ، والاجتهاد في بثها ونشرها .

التصوف الاشراقي

وقد ظهرت في التصوف اتجاهات جديدة هامة ؛ وكانت حلب قد غدت في عهد

(١) Grousset, p. 234

(٢) Simone Sigoli in Cesare Angelini, *Viaggi in Terrasanta* (Florence, 1944), p. 227.

(٣) Sartou, vol. iii, p. 173 انظر

الملك الظاهر ابن صلاح الدين مسرحاً لنشاط أحد المتصوفين البارزين ، هو شهاب الدين السهروردي (١١٥٥ - ٩١) ، مؤسس مذهب التصوف الاشراقي^١ ، ومنشئ إحدى



طبق من نحاس منزل بنوع آخر من المادن وهو يمثل الفن في عهد المماليك في دمشق في القرن الرابع عشر

طرق الدراويش ، ويقوم هذا المذهب على ان التور جوهر الله وحقيقة الاشياء الاساسية ، وانه يمثل المعرفة الصحيحة والطهارة التامة والمحبة الخالصة والخير المحض. وبين ان هذه النظرية تضم آراء من الزرادشتية - لاسيما المانوية - والافلاطونية الجديدة والتعليم الاسلامي . ومعلوم كذلك ان الاشراق إنما هو وليد التعليمين الافلوطيني والمالي^٢ ، وان السهروردي نفسه ولد في فارس . وجدير بالذكر ان

(١) راجع. الحلاجي خليفة ، ج ٣ ، ص ٨٧ وما بعد .

(٢) راجع Arthur. J. Arberry, *An Introduction to the History of Sufism*, (London, 1942), p. 32.

مبادئ الافلاطونية الجديدة قد تسربت ، ولو جزئياً ، من مصادر مسيحية غلب فيها الاصل السرياني ، وان القرآن نفسه يشتمل على آيات نصف الله بانه نور (سورة النور ، الآية ٣٥) . وقد خصص الغزالي ، قبل السهروردي بزمان طويل ، رسالة كاملة هي «مشكاة الانوار» لمعالجة هذه الفكرة^١ . وهو ايضاً يرى ان الله إنما هو النور الحقيقي الاوحد ، وان سائر الانوار لا تعدو كونها اشعاعات منه او انعكاسات عنه . وكان نساك النصارى قد سبقوه الى الامناع بأن هنالك نوراً روحانياً يتخلل الكون ، وان هذا النور إنما هو إشعاع من الذات الالهية ، وجوهر الكائنات بجملتها فالغزالي ، في ما يظهر ، قد اتصل اثناء مروره في سورية بتعاليم بعض نساك النصارى التابعين للكنيسة اليونانية ؛ بحيث غدا غرضه الاول ، التوفيق بين السنة الاسلامية والتعليم الصوفي . وقد خلف السهروردي عدة مؤلفات^٢ اهمها كتاب «حكمة الاشراق»^٣ وكان لهذا الناشئ الصوفي من الحمية الصوفية المتقدمة ما هاج الفقهاء المحافظين عليه ، ودعاهم الى الاحاح على الظاهر ابن صلاح الدين ، بان يأمر باعدامه جوعاً او خنقاً^٤ . وجاء من ثم لقبه «بالشيخ المقتول» . ومدفنه قائم الى اليوم قرب دار البريد في حلب .

ابن عربي

وهناك علم آخر من اعلام التصوف الاشراقي هو محيي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠)^٥ . ولد في الإندلس ، وقضى ايامه الاخيرة في سورية . وابن عربي هذا لم يكن فيلسوفاً شمولياً فحسب ، بل يعتبر صاحب اعظم عبقرية تأملية في التصوف الاسلامي . ولعله غادر موطنه في الاندلس فراراً من القيود التي كانت آنذاك مفروضة على التفكير الحر ، في ذلك الصقع الذي احرقت فيه مؤلفات

(١) (القاهرة ، ١٣٢٢) .

(٢) راجع جدول مؤلفاته في ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ - ٥٨ ؛ ابن ابى اصيعة ، ج ٢ ، ص ١٧٠ - ٧١ . واحدى القصائد التي اثبتها له ابن خلكان لا تزال تنشد لاسياً في الحلقات الصوفية .

(٣) (طهران ، ١٣١٦) .

(٤) ابن شداد ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ؛ السهروردي ، ثلاث رسائل ، نشر وترجمة Otto Spies and S. K. Khatak (Stuttgart, 1935), p. 98 ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٥) A. E. Affifi, *The Mystical Philosophy of Muhyid Din-Ibnul 'Arabi* (Cambridge, 1930), pp. 3, 5, 47, 108, 183-4.

الغزالي؛ وتوجه سنة ١٢٠٢ إلى مكة حاجاً، ثم اختار دمشق موطناً. وفيها مدفنه الذي بنى حوله السلطان العثماني سليم الاول مسجداً، والذي لا يزال مقصد الزائرين الى اليوم. ويذهب ابن عربي الى ان الصوفي الحقيقي يسترشد بأمر واحد هو النور الباطني، ويجد الله في جميع الاديان^١. وفي تعاليم ريمند لال^٢، وسواه من متصوفة النصارى، بقايا من تأثير ابن عربي. ويتبسط ابن عربي في كتابه «الفتوحات المكية»^٣ وفي كتاب «الاسراء الى مقام الاسرى»^٤ في موضوعه الاثير الذي يعالج فيه صعود محمد الى السماء السابعة^٥. وجدير بالذكر ان الكثير من الدقائق المتصلة بالمشاهد والاحداث والمواقع والمباني، المعروفة في كوميدية دانتي الالهية، لها سابقات في كتابي ابن عربي هذين، وفي سواهما من المدونات الاسلامية^٦.

كتابة السير

كان من اوائل الاساتذة في دار الحديث النورية في دمشق ابن عساكر^٧ (١١٠٥ - ١١٧٦)، مؤلف «التاريخ الكبير»، الذي اوجز فيه سير جميع الوجهاء الذين سبقت لهم صلة ما بهذه المدينة؛ لكن لم يبقَ لنا من أجزائه الثنتين إلا عدد قليل^٨. على ان شهرة ابن عساكر في كتابة السيرة لم تلبث ان كسفتها شهرة علم آخر من اعلام مدارس دمشق^٩ هو شمس الدين احمد ابن خلكان، ابرز مؤلفي السير على الاطلاق في الاسلام. وُلِدَ في اربل، وعين قاضي قضاة في سورية^{١٠} سنة ١٢٦١، وشغل هذا المنصب في دمشق حتى قبيل وفاته سنة ١٣٨٢، لم ينقطع عنه إلا فترة

(١) ابن عربي ترجمان الاشواق، نشر وترجمة نيكلسون (لندن، ١٩١١)، ص ١٩، ٦٧.

(٢) راجع ص ٢٦٣ من هذا الجزء.

(٣) الطبعة الثانية اربعة اجزاء (القاهرة، ١٢٩٣).

(٤) (القاهرة، ١٢٥٢).

(٥) القرآن ١٧ : ١.

(٦) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء.

(٧) الكتبي، ج ١، ص ٣٣٣؛ ياقوت، ارشاد الارب، ج ٥، ص ١٣٩ - ٤٦؛ السبكي،

ج ٤، ص ٢٧٣ - ٧٧، التميمي، ص ١٠٠ - ١٠٤، ١٠٥.

(٨) نشر منه عبد القادر ابن بدران سبعة اجزاء (دمشق، ١٣٢٩/٥١).

(٩) راجع ص ٢٨٤ من هذا الجزء.

(١٠) السبكي، ج ٥، ص ١٤ - ١٥، السيوطي، ج ١، ص ٢٦٥ - ٦٦.

دامت سبع سنوات . وضع ابن خلكان أول معجم لاعلام المواطنين باللغة العربية ، وهو مجموعة كبيرة من السير سماها «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان»^١ ، وكلف نفسه غناء ايراد الاسماء بالشكل الصحيح ، وتعيين التواريخ وسرد الانساب والتحقق من الحوادث الهامة ؛ كل ذلك رغبة منه في ان يجيء تراجمه من الدقة واناقة الاخراج على خير ما يستطيع . واستأنف من بعده هذا العمل الجبار الكتبي الحلبي (ت ١٣٦٣) في مؤلف سماه «وفات الوفيات»^٢ .

وهناك اديب آخر من مؤلفي السير كان اضخم إنتاجاً من ابن خلكان ، لكن اقل منه تدقيقاً ، هو صلاح الدين خليل بن ايبك المعروف بالصفدي ، نسبة الى صفد مسقط رأسه (١٢٩٦ - ١٣٦٣)^٣ . وكان الصفدي ابن عبد تركي ، درس في دمشق على النحوي المشهور ابي حيان التوحيدي ، ثم رافق المؤرخ المحدث الحافظ الذهبي (١٢٧٤ - ١٣٤٨)^٤ ، والفقير المتشرع تاج الدين السبكي (حوالي ١٣٢٧ - ٧٠)^٥ . وضع الذهبي مؤلفاً في تاريخ الاسلام كان من الضخامة بحيث تهيب منه النساخ ، فظهر في اعداد دورية يفصل بين الواحد منها وما يليه عشر سنوات ؛ الامر الذي اعيا جامعي الكتب . وكان الصفدي يشغل منصب خازن في مدينة دمشق ؛ واكثر ما اشتهر بمؤلفه الضخم «الوافي بالوفيات»^٦ ، الذي ارتقى عدد اجزائه الى الثلاثين ، وفي الاجزاء التي وصلت اليها منه نحو من اربعة عشر الف سيرة من سير الحكام والقضاة والادباء . وهو اضخم موسوعة للاعلام في الاسلام . ففي «وفيات» ابن خلكان ٨٦٥ ترجمة ، وفي «وفات» السبكي ٥٠٦ ترجمات ، وفي «عيون» ابن ابي اصيبعة حوالي ٤٠٠ . وقد قدم الصفدي لمعجمه ببحث في النهج التاريخي هو الاول

(١) نشر مرات عديدة ، والتمتد هنا تقع في ثلاثة اجزاء (القاهرة ، ١٢٩٩) .

(٢) في مجلدين (القاهرة ، ١٢٨٣) . ولتوستاف فون غرولباوم فقد لطريقة ابن خلكان لدى مقارنتها بأسلوب بلوتارش وذلك في كتابه *Medieval Islam* (Chicago, 1946), pp. 279-80 .

(٣) السبكي ، ج ٦ ، ص ٩٤ - ١٠٣ .

(٤) لقد رجعنا من مؤلفاته العديدة الى كتابه «دول الاسلام» فقط وهو يقع في مجلدين طبع في حيدر اباد سنة ١٣٣٧ هـ .

(٥) اعتمدنا كتابه «طبقات الصوفية الكبرى» في كتابة هذه النبهة وهو يقع في ستة اجزاء وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

(٦) نشره رتر Ritter II. المجلد الاول في اسطنبول ، ١٩٣١ .

من نوعه في العالم بأسره^١. وقد جاء كتابه تكملة لمؤلفات زملائه السابقين، لا سيما «وفيات» ابن خلكان و«معجم» ياقوت. وكانت ياقوت هذا في اول امره عبداً رومياً، وضع مؤلفاً هاماً في سير الادباء هو «معجم الادباء» (او إرشاد الاريب)، لكنه نال شهرة اوسع بمعجمه الجغرافي «معجم البلدان»^٢ الذي فرغ من وضعه سنة ١٢٢٨ في مدينة حلب وقدمه لوزيرها القفطي^٣، وفي حلب قضى ياقوت نفيه.

التاريخ والجغرافيا

وبما يتصل بالسيرة والجغرافية اتصالاً وثيقاً موضوع التاريخ؛ وبين المؤرخين السوريين الذين عرضوا لنا في الصفحات السابقة ابو شامة (١٢٠٣ - ٦٨)^٤ صاحب كتاب «الروضتين في اخبار الدولتين»^٥، وجله في تاريخ نور الدين وصلاح الدين، ثم ابو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣٢)، احد المتأخرين من حكام حماة^٦ الايوبيين؛ ويعتبر تاريخه^٧ خلاصة وتكملة لتاريخ ابن الاثير (ت ١٢٣٤)، الا ان هذا الاخير يفوقه ضخامة. ولد ابو الفداء في دمشق حيث استقر اهله بعد فرارهم من وجه المغول. وقد حظي تاريخه من الاعجاب بما حمل الكثيرين من المؤلفين المتأخرين على اكماله وتلخيصه واختصاره. ولم يكن مؤلفه الجغرافي «تقويم البلدان»^٨ اقل خطراً، فقد صدره بمقدمة دافع فيها عن فكرة كروية الارض، واستشهد على صحتها بزيادة نهار او نقص آخر لدى السفر حولها في اتجاه معين. وربما صح اعتبار هذا المؤلف السوري «اعظم مؤرخ جغرافي في ذلك العصر على اختلاف الاوطان والاديان»^٩. وكان لابي الفداء مواطن معاصر هو شمس الدين الدمشقي (ت ١٣٢٦)،

(١) راجع: Sarton, vol. iii, p. 309.

(٢) نشره وستيفيلد في ستة اجزاء (ليترغ، ٧٣/١٨٦٦)؛ وقد ظهر في بيروت سنة ١٩٥٧ بطبعة جديدة في خمسة اجزاء.

(٣) راجع ص ٢٨٢ من هذا الجزء.

(٤) الكتي، ج ١، ص ٣٢٢ - ٢٥.

(٥) في مجلدين (القاهرة ١٢٨٧ - ٨٨).

(٦) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء.

(٧) في اربعة مجلدات (القسطنطينية، ١٢٨٦).

(٨) نشره M. Reinaud and MacGuckin de Slane (Paris, 1840).

(٩) راجع: Sarton, vol. iii, p. 308.

وضع رسالة في الجغرافيا الفلكية هي «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر»^١. ومع ان هذه الرسالة اقل شأنًا من «التقويم» من الناحية الرياضية، فانها اجل منه شأنًا من حيث المعلومات المتعلقة بالظواهر الطبيعية والثروة المعدنية والشؤون السلاية. وقد اشتهر في هذا الموضوع عالم آخر هو ابن فضل الله العمري. شغل منصب صاحب الخاتم في بلاط الماليك في القاهرة، ثم عاد الى مسقط رأسه دمشق، وفيها مات بالطاعون سنة ١٣٤٩. وضع العمري مؤلفين هامين: الاول «مسالك الابصار في تمالك الامصار»^٢، والثاني «التعريف بالمصطلح الشريف»^٣ والثاني دليل ينتفع به رجال الادارة والسياسة.

ولقد برز بين المؤرخين في عصر الماليك اثنان: مصري هو المقرئزي، وتونسي هو ابن خلدون. وكان لكل منهما صلة وثيقة تربطه بسورية. اما المقرئزي (١٣٦٤ - ١٤٤٢)، صاحب الكتاب القيم المعروف بالخطط^٤ - وقد ذكرناه تكررًا في ما سبق - فمتحدر من اصل بعلبكي، وشغل كرسي استاذ في دمشق بعد ان تلمذ على ابن خلدون. وكان ابن خلدون قاضي قضاة في مصر؛ وقد رافق المملوك السلطان الناصر فرج الى دمشق في حملته لوقف زحف تيمور، وحل ضيفًا مكرمًا على قائد المفلول الخيف^٥. «ومقدمة ابن خلدون»^٦ هي الجزء الاول من تاريخه الشامل^٧، وقد اهلته لان يعتبر اعظم من انجبههم الاسلام من فلاسفة التاريخ. فشرحه للاحداث التاريخية والخصائص القومية، على اسس اقتصادية وجغرافية وعضوية، واعتبارات مدنية اخرى، محاولة لم يسبقه الى مثلها احد من علماء الاسلام، ولم يخلفه فيها زميل جدير باستئناف جهده.

(١) نشره. A. F. Mehren (St. Petersburg, 1865).

(٢) نشر احمد زكي المجلد الاول (القاهرة، ١٩٢٤) وقرظه عبد الطيف حمزة في كتابه: الحركة الفكرية في مصر في العرين الابوي والملوكي الاول (القاهرة ١٩٤٧)، ص ٣٢٤ - ٢٧.

(٣) (القاهرة، ١٣١٤).

(٤) في مجلدين (القاهرة، ١٢٧٠).

(٥) ابن خلدون، التعريف، نشر محمد الطنجي (القاهرة، ١٩٥١) ص ٣٦٦ - ٨٣.

(٦) نشرها كاترمير في ثلاثة مجلدات (باريس، ١٨٥٨) قبل الطبعة المصرية (القاهرة، ١٢٨٤).

(٧) في المجلد السادس (القاهرة، ١٢٨٤)، ص ٣٧٩ وما بعد ترجمة وافية كتبها هو عن نفسه هي خير مصدر لحياته.

هذه السلسلة من اصحاب التراجم والجغرافيين والمؤرخين ، والعلماء الافذاذ الموسوعيين ، التي بدأت بآبن عساكر وختمت بآبن خلدون ، جعلت لسورية ومصر ، في عصر الايوبيين والمماليك ، مكانة منقطعة النظير بين البلدان الاسلامية .

تيمورلنك

كانت حملة تيمورلنك على سورية آخر الحملات المغولية . وتيمور هذا يدعي انه سليل جنكيزخان^١ ؛ انطلق بجموع قبائله كالعاصفة الهوجاء من اواسط آسيا ، واكتسح غربي آسيا تاركاً في اثره الدمار والحراب . وللمرة الرابعة او الخامسة وجدت سورية نفسها طريحة عند اقدام المغول^٢ . ففي تشرين الاول سنة ١٤٠٠ ابيحت مدينة حلب مدة ثلاثة ايام للنهب والسلب ؛ ولعلها المرة الاولى التي اخذت فيها قلعتها عنوة ، ولكن بعد ان ضحى الغزاة من رجالهم بما كان كافياً لان يملأ الحندق المحيط بها ببحث القتلى ، وبلغ عدد القتلى من الاهلين نحواً من عشرين الفا . وقبـد نضدت رؤوس القتلى في كومة بلغ ارتفاعها عشر اذرع ومدارها عشرين ذراعاً^٣ . اما المدارس والمساجد التي انشأها النوريون والايوبيون ، والتي فاقت كل تقدير ، فقد عفا اثرها الى الابد . وبعد ان اباد الغزاة طلائع جيش السلطان فرج ، خلت امامهم السبيل المؤدية الى دمشق ، لكن قلعتها صمدت في وجههم مدة شهر استسلمت المدينة بعد انقضائه ؛ غير ان الفاتحين اخلوا بشروط التسليم ، فتعرضت المدينة للنهب واضرمت فيها النيران . فقد حصر ثلاثون الفا من سكانها ، رجالاً ونساء واطفالاً ، في جامعها الكبير ؛ ثم اضرمت فيه النار ، فلم يبق قائماً من بنائه الا الجدران . وعلى الاثر نقل خيرة من كان فيها من علماء ومحترفين وفنانين وحدادين^٤ وصانعي الاسلحة والادوات الزجاجية الى سمرقند ، عاصمة تيمور ، من اجل ان ينشئوا فيها هذه الصناعات ، وسواها من الفنون الفرية . وبذلك فقدت

(١) قابل : ابن عربشاه عجائب المقرور في اخبار تيمور (القاهرة ، ١٢٨٥) ص ٦ .

(٢) راجع ص ٢٦٨ من هذا الجزء .

(٣) ابن تقي بريدي ، ج ٦ ، ق ٢ ، ٥٢ ؛ قابل ابن اياس ، ج ١ ، ص ٣٢٧ .

(٤) لعل الحديد الخام كان يستورد من جبال لبنان . راجع ص ٣٦ و ص ٣٠٥ من الجزء الاول ، و ص ٢٠٢ من هذا الجزء من الكتاب .

دمشق القيادة في فنون الزخرفة الدمشقية. وقد خلف لنا ابن تغري بردي^١ - وكان ابوه المرافق الاول للسلطان فرج - وصفاً مفصلاً للحملة السورية بكاملها. وربما كانت هذه الحملة اشد صدمة عانتها المدينة ان لم نقل البلاد بأسرها.

وكان الفاتح الجامع قد سحق الجيش العثماني عند انقرة، واجتاح بروسيا وازمير، واسر بايزيد الاول^٢. على انه كان من حسن حظ المماليك ان لاقى تيمور حقه سنة ١٤٠٤؛ ونشب على اثر ذلك نزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية، استنفدت قواهم جميعاً. فأتاح ذلك للسلطة العثمانية ان تستعيد سيادتها على آسيا الصغرى، وسهّل السلالة الصفوية بعد ذلك، ان تفرض سلطتها على فارس

العثمانيون يناضلون المماليك والصفوية

هذه المنافسة بين المماليك والسلطنة العثمانية على السيادة في آسيا الغربية بلغت حدتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ثم لم تلبث الدولة الصفوية ان تورطت في هذه المشادة في اوائل القرن السادس عشر. واشد ما تأزمت العلاقات بين العثمانيين والمماليك في عهد ختقدم (١٤٦١ - ٦٧) الذي كان، خلافاً لسابقيه الاتراك والجراسكة، مملوكاً رومياً^٣، وفي عهد محمد الثاني فاتح القسطنطينية. لكن القتال لم ينشب، حتى سنة ١٤٨٦، عندما عمد قائمباي الى منازعة بايزيد الثاني السلطة على ادنا وطروطوس وسواهما من الثغور. فقد ارسل هذا المملوك، في اواخر عهد سلطته، رسالة الى البابا انذره فيها باتخاذ تدابير انتقامية بحق نصارى سورية، اذا استمر فرديناند في اباداة ما بقي للمسلمين من سلطة في اسبانيا. وبعد ذلك بقليل نشب ما بين العثمانيين والفرس، نزاع انتهى بالقضاء السريع على الجيش الصفوي، وبإكساح سليم الاول (١٥١٢ - ٢٠) للعراق. والصفويون من غلاة الشيعة، وكانوا قد جعلوا مذهبهم الدين الرسمي للدولة. وقد اتهم سليم الاول المملوك قانصوه الغوري (١٥٠٠ - ١٦) بعقد معاهدة مع شاه الصفوية ضده، وبانه آوى بعض اللاجئين السياسيين.

(١) المجلد السادس، القسم الثاني من ٥، ص ١٤، ص ٥٠ وما بعد. قابل: ميرخوند، تاريخ روضة الصفاء (طهران، ١٢٧٠) الكتاب السادس؛ المقرئ: ج ٢، ص ٢٤١.

(٢) ابن عربشاه، ص ٦، ابن ايس، ج ١، ص ٣٣٤؛ ج ٣، ص ٤٨.

(٣) ابن تغري بردي، ج ٧، ص ٦٨٥.

النصر الحاسم في مرج دابق

وكان قانصوه في هذه الاثناء قد اتجه شمالاً بحجة عزمه على التوسط بين المتخاصمين^١. وكان في موكبه قاضي قضاة مملكته والخليفة بالذات، وهو آنذاك المتوكل سليل المستنصر (عم آخر الخلفاء في بغداد)، وخليفته. وكان ييبرس قد اقام المستنصر في مصر سنة ١٢٦١ من اجل ان يجعل لسلطته طابعاً شرعياً، ويضفي على بلاطه سمة السيادة العليا في نظر المسلمين^٢. فارسل قانصوه الى سليم الاول رسولاً خاصاً، لكن سليماً لم يجد وسيلة لاذلاله خيراً من ان يأمر بخلق لحينه، وباعادته على حمار اعرج، يحمل الى سيده علماً باعلان الحرب. والتحم الجيشان يوم ٢٤ آب سنة ١٥١٦ في مرج دابق الملطخ بالدم، شمالاً من مدينة حلب. وكان قانصوه في اول امره عبداً لقائتباي؛ وقاتل الآن، وهو في اواسط العقد الثامن، قتال الابطال لكن بغير جدوى. ولم يكن باستطاعته ان يعتمد على اخلاص ولواته السوريين، ولا ان يقف بجيوشه في وجه جيش الانكشارية^٣ الخفيف، المتفوق بعدده الحربية. فان خائر بك حاكم حلب الخائن، الذي عهد اليه بقيادة الجناح الایسر، انهزم هو ورجاله عند الهجوم الاول^٤. وقد استخدم الجيش التركي المدافع والبنادق وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد. وكانت الجيش المصري يضم جماعات من البدو والسوريين لا عهد لهم بمثل هذا السلاح، متشبثين بالنظرية القديمة التي تعتبر البطولة الشخصية العامل الفاصل في القتال. واستخدم الاتراك كذلك البارود^٥، والمدافع الكبار على عجل تجرها خيول^٦. وفي غمرة القتال اصيب

(١) القرمانلي، اخبار النول وآثار الاول (بغداد، ١٢٨٢) ص ٢١٩ - ٢٠.

(٢) القريري، ترجمة Quatremère, vol. i (p. t. 1) pp. 146-68؛ ابن خلدون، ج ٥، ص ٣٨٢ - ٨٣، ابو الفداء، ج ٣، ص ٢٢٢؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٤٩ - ٥٢؛ ابن اياس، ج ١، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) من التركية بمعنى الجيوش الجديدة، ويطلق على فرق المشاة النظامية المؤلفة بالاكتر من قتيان التصاري المأسورين وعلى يدم تمت اكثر الفتوحات.

(٤) ابن اياس، ج ٣، ص ٤٦، ٥١.

(٥) يبدو ان البارود اختراع صيني. ادخله المغول الى اوربا سنة ١٢٤٠ وتم به بعدئذ اختراع الاسلحة النارية. قابل: Sarton, vol. iii, pp. 722-23. ولعل اول من عرض لتذكر المدفعية يمي، ص ٢٢٩، حيث ذكر ان ملاحي جنوى قذفوا بيروت بالمدافع سنة ١٣٨٢.

(٦) القرمانلي، ص ٢٢٠.

قانسوه بسكتة قلبية، سقط على أثرها عن صهوة حصانه ، فتم بذلك النصر للسلطان سليم ، واعتقل الخليفة ، ثم اخذه الى القسطنطينية . اما الادعاء بان الخليفة اوصى بمنصبه الرفيع الى السلطان العثماني ، فحكاية من مولدات القرن التاسع عشر . وقد عثر السلطان سليم في قلعة حلب على كنوز للمماليك قدرت بملايين الدنانير . وفي اواسط تشرين الاول اتجه نحو دمشق ، فانتقلت سورية ببسر الى ايدي الاتراك ، وقدر لها ان تبقى بيدهم اربعة قرون كاملة . وقد رحب اهلها بسيادهم الجدد على اعتبار انهم منقذون من الاسياد السابقين ، شأنهم في كثير من المناسبات السابقة المماثلة .

خاتمة حكم المماليك

زحف الجيش العثماني من سورية جنوباً نحو مصر ، وكان قد نودي بطومان باي سلطاناً عليها ، وكان في اول امره عبداً لقانسوه . والتقى الجيشان في ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧ خارج القاهرة . فانهزم الجيش المصري ، بعد ان « اثخنه القذائف »^١ . وهرب طومان باي الى مضرب من مضارب البدو . لكنه سلم غدرآ ثم شق في ١٧ نيسان على باب من ابواب القاهرة الرئيسية^٢ ، ولم تعد مصر بعد ذلك دولة ذات سيادة .

اما الحجاز بعدينتيه المقدستين ، فقد غدا بحكم الواقع جزءاً من الامبراطورية العثمانية الناشئة . وفي صلاة الجمعة الاولى بعد الحدث ابتهل الواعظون الى الله ان يضي بروكته على السلطان الفاتح بهذه الالفاظ :

انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، مالك البرين والبحرين ، وكسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه ؛ اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحة مينا ، يا ملك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين (٣) .

وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ العرب ، هو عهد سلطة الاتراك العثمانيين .

(١) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ١١٥ ؛ السيوطي ، ج ٢ ، ص ٩٠ ؛ القرماني ، ص ٢٢٠ ؛ قابل سعد الدين ، تاج التواريخ ، ج ٢ ، (القسطنطينية ، ١٢٨٠) ص ٣٦١ .

(٣) ابن اياس ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

القسمُ الخامسُ
تحت الحكم العثماني

الفصل الثامن والأربعون

سُورِيَّة اَقْسِيم تَرْكِي

الدولة العثمانية

إن الدولة التركية في غربي آسية الصغرى قد نهضت ، من نشأة وضیعة في اوائل القرن الرابع عشر ، الى مركز شامخ في آسيا الغربية وجنوبي شرقي اوربا وشمالی شرقي افريقيا ، وذلك في خلال القرنين التاليين ؛ وكان قيامها على هذا النحو من ابز الاحداث في التاريخ الحديث . عُرفت لفظة «ترك» لأول مرة اسماً لاقوام من بداءة آسيا الوسطى^١ سنة ٥٠٠ م . وفي خلال القرن السادس تمكنت الشعوب التركية من انشاء دويلات بدوية انتشرت في منغوليا وحدود الصين الشمالية حتى البحر الاسود . وكما عاش الاعراب على الجمال كذلك عاش الاتراك على الخيل ، فشبوا البانها واكلوا لحومها وامشطوها في طلب النصر . وقد استخدموا الركاب والقوس والنبال ، وكانت الميزة التي تفوقوا بها على خصومهم سرعة الانتقال . كان اول اتصالهم بالشعوب الهندية الاوربية في تركستان ، وفي هذا البلد واجههم العرب الفاتحون للمرة الاولى ، وذلك في اواخر القرن السابع واوائل الثامن^٢ . فعندما بلغ آسية الصغرى بعد ذلك ، من عرف منهم بالعثمانيين وجدوا البلاد قد تتركت جزئياً على يد انسابهم السلاجقة^٣ . ويعود السلاجقة والعثمانيون بالنسب الى قبيلة الغز ، او الاتحاد القبلي المعروف بهذا الاسم .

اما المؤسس الذي تسمت باسمه الدولة والسلالة التي عرفت بالعثمانية فزعيم شبه تاريخي اسمه عثمان^٤ (١٢٩٩ - ١٣٢٦) ويستدل من اسمه هذا - اذا صح - ان

(١) راجع ص ٣٨ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٦٥ - ٦٦ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٢٠٤ - ٢٠٥ من هذا الجزء .

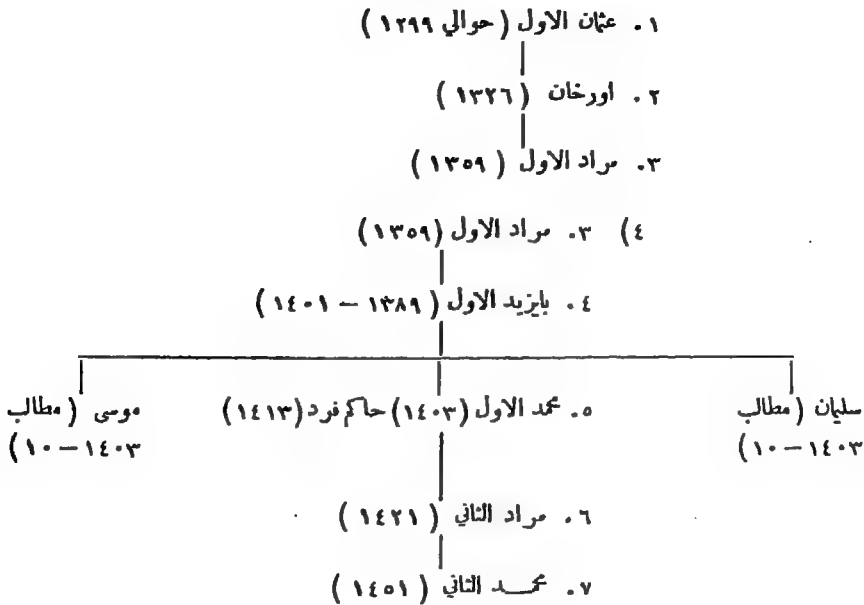
(٤) راجع بشأنه : Mehmed Fuad Koprulü, *Les Origines de l'empire ottoman*, (Paris, 1935) pp. 87 seq.; Paul Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire* (London, 1938) pp. 7 seq.; Joseph von Hammer, *Geschichte des osmanischen Reiches*, vol. i (Pest, 1827), pp. 40 seq.

عشيرة كانت آخذة في اعتناق الاسلام او قد اعتنقته نهائياً^١ . وعلى اثر اتباعهم للدين الجديد تسربت الى لغتهم التركية الوف التعابير الدينية والعلمية والادبية العربية ، وبعض الالفاظ الفارسية . ولما لم يكن للغة التركية الا القليل من الادب المدون^٢ ، عمدوا الى اقتباس الحرف العربي ، واستمروا عليه في مدوناتهم حتى كان الاصلاح الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨ . وقد بقيت الدولة العثمانية ، بعد ان تأسست حوالي سنة ١٣٠٠ ، نحواً من ست وستين سنة مجرد امانة قائمة على الحدود ، واتخذت بعد سنة ١٣٢٦ مدينة بروسا قاعدة لها . ثم غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ بملكة عاصمتها مدينة ادرنة . وكان استيلاء محمد الثاني الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فاتحة عهدها الامبراطوري . وبذلك غدت هذه الدولة الاسلامية التركية وريثة للامبراطورية البيزنطية ، وظفرت في ما بعد بضم عدد من الدول العربية ، تمكنت من سلخها عن الخلافة العباسية . وقد

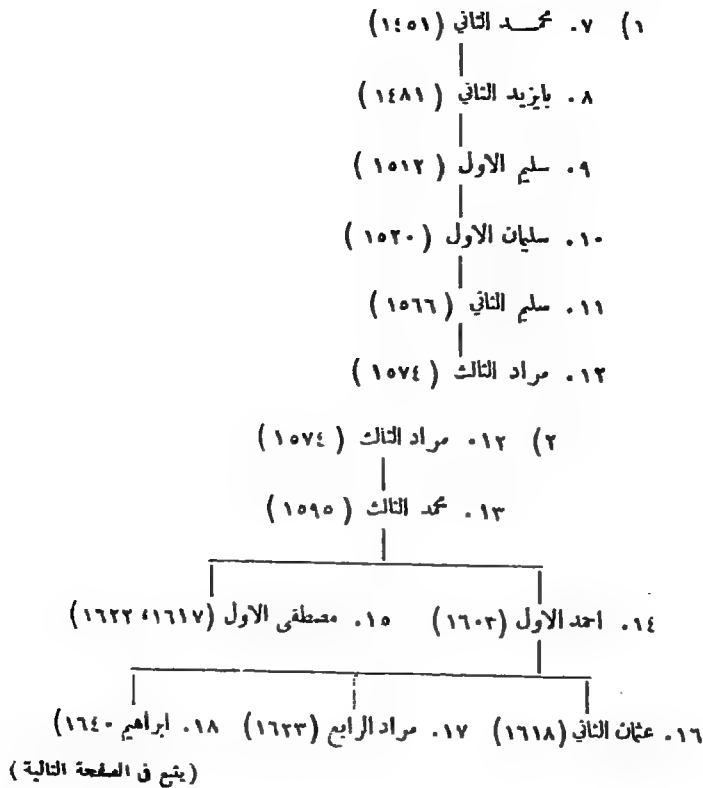
(١) راجع ص ٢٦٨ - ٢٧٠ من هذا الجزء .

(٢) استخدم الاتراك في آسيا الوسطى الحرف السرياني ، راجع ص ١٣٨ وقابل ص ١٨٣ من هذا الجزء .

(٣) شكل شجري لسلاطة الحكم الاتراك الاولين .

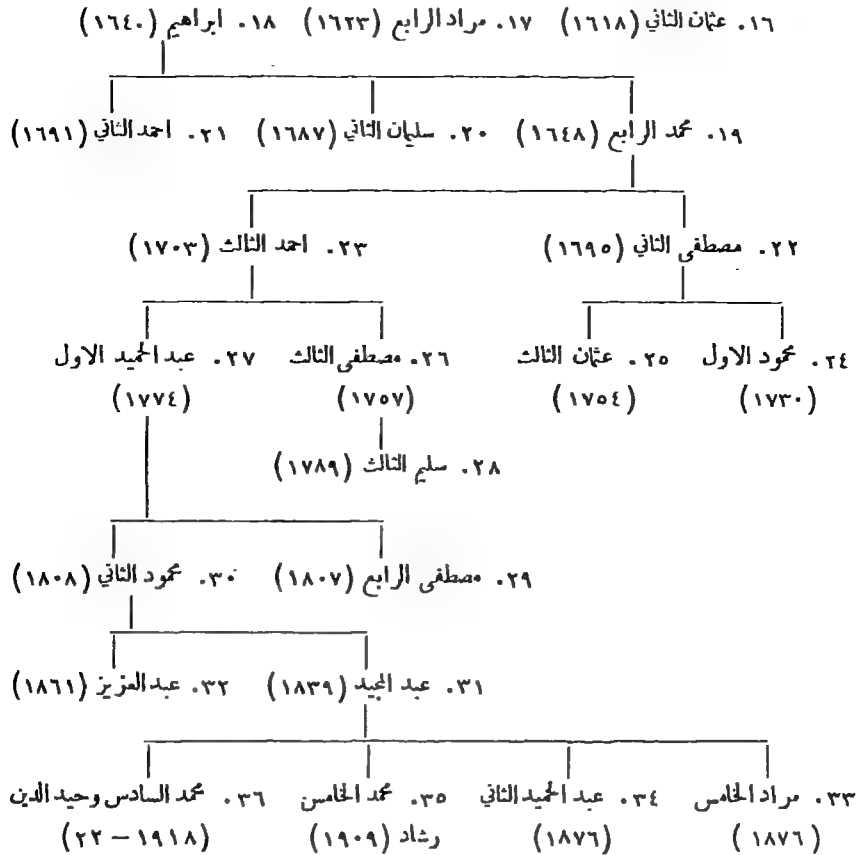


بلغت الامبراطورية التركية اوج عزّها في عهد سليمان الاول الملقب بالقانوني (١٥٢٠ - ١٦٦٠)، وهو ابن سليم الاول فاتح سورية ومصر. وتمّ في عهده الاستيلاء على الجانب الاكبر من هنغاريا، والقاء الحصار على مدينة فينا، واحتلال جزيرة رودس؛ واقرت شمالي افريقيا - باستثناء مراکش - بالسيادة السياسية عليها للباب العالي في القسطنطينية^١. على ان إخفاقهم في محاولتهم الثانية لفتح فينا سنة ١٦٨٣ كان مؤذناً ببداية النهاية. وقد امتدت الامبراطورية في عهد سليمان الاول من بودابست على نهر الدانيوب الى بغداد على نهر الدجلة، ومن بلاد القرم الى شلال النيل الاول. ولم ينشئ المسلمون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت الى ذلك من اطول الدول الاسلامية عمراً؛ فقد توالى على عرشها، من سنة ١٣٠٠ حتى ١٩٢٢، عندما اغلقت الامبراطورية، ستة وثلاثون سلطاناً كلهم متحدرون عصباً من عثمان، المؤسس الاول^٢.



الدوائر الادارية في سورية

ان السلطان سليم الاول (١٥١٢ - ٢٠) هو الذي ضمّ العالم العربي الى الامبراطورية العثمانية^١. فعلى اثر انتصاره في مرج دابق، استسلمت حماة وحمص، فدخلها دخول الفاتحين. ولم تلبث طرابلس وصفد وناپلس والقدس وغزة ان ألقت سلاحها، ولم تعد الى اية مقاومة^٢. ولدى عودته من مصر، توقف طويلاً في سورية من اجل ان يثبت فيها مركزه، ويعمل على تنظيم شؤونها. ورغبة منه في تنظيم الضرائب، عين مجلساً واناط به مهمة مسح جميع الاراضي، على ان يحتفظ



(١) راجع ص ٢٩٨ من هذا الجزء.

(٢) ابن اياس. نشر بول كهلي ومحمد مصطفى، ج ٥، ص ١٤٩.

للتاج بقسم كبير من سهل البقاع الخصب ، ووادي العاصي المشرب^١. لكنه استمر على التدبير الذي اعتمده المالك في تلزيم الضرائب على سبيل الزايدة. ثم انه جعل المذهب الحنفي - وهو الذي اختاره العثمانيون - المذهب الفقهي الرسمي في سورية^٢. وقد وضع احد فقهاء حلب المعروف بابراهيم الحلبي (ت ١٥٩٤)، كتاباً في الفقه الحنفي هو «ملتقى البحار»، غدا مرجعاً للتشريع الحنفي في الامبراطورية جملة. وقد طبع للمرة الاولى في القسطنطينية سنة ١٨٩٢/١٣٠٩.

أبقى الترك الدوائر الادارية^٣ في سورية على نحو ما كانت عليه في عهد المالك؛ لكنهم بدلوا بعض الشيء في نظام التسمية: فدعيت «النيابة» «ولاية»، وعرف «النائب» بـ «الوالي»^٤. وصار لقب التعظيم الذي يلي اسم الوالي «باشا»، فصار «الباشوية» و «الولاية» مدلول واحد. وكانت ولاية حلب في وقت ما تشمل على سبعة سناجق^٥. اما ولاية دمشق، التي اتسعت باضافة القدس وصفد وغزة اليها، فقد انبسطت بجان بردي الغزالي. وهو نائب دمشق الحائن الذي تواطأ مع زميله نائب حلب على الغدر بالغوري^٦. بحيث غدا الغزالي هذا النائب الفعلي للسلطان في سورية. اما سائر الدوائر الادارية فقد اسندت الى حكام من الترك. وعلى اثر حركة التمرد التي قام بها الغزالي قسمت سورية الى ثلاث ولايات هي: دمشق، مشتملة على عشرة سناجق اهمها: القدس ونابلس وغزة وتدمر وصيدا وبيروت؛ ثم حلب وفيها تسعة سناجق بينها شمالي سورية؛ ثم طرابلس، وفيها خمسة سناجق منها:

(١) للزبد عن الضرائب راجع، (Omer Lütfi Barakan, *Kanunlar* (Istanbul, 1945), pp. 206 seq.

(٢) ابن اياس، ج ٥، ص ٢٣٨، الغزي: الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة، نشر جبرائيل جبور (بيروت، ١٩٤٥) ج ١، ص ٢١٠.

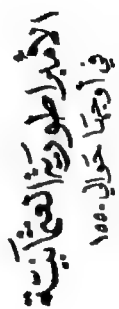
(٣) راجع ص ٢٧٤ من هذا الجزء.

(٤) لم يصطلح على «التصرفية» و «التصرف» الا في ما بعد.

(٥) انظر: Von Hammer, vol. ii, p. 477, n. d. ان لفظة التركية «سناجق» المعربة «سناجق» هي ترجمة لفظة العربية «لواء» بمعنى العَلَم. وهذه التباير جميعها كانت في ما يبدو مما استخدمه السلاجقة قبلاً.

(٦) فريدون بك، مجموعة منشآت السلاطين، الطبعة الثانية (اسطنبول ١٢٧٤)، ص ٤٥٥؛

ابن اياس، ج ٥، ص ١٥٦، ١٥٧؛ سعد الدين، ج ٢، ص ٣٦٤ - ٦٥.



حمص وحماة وجبلة وسلمية . وقد جعلت صيدا سنة ١٦٦٠ ولاية من اجل ان تكون مركزاً للرقابة على لبنان^١.

وفي سنة ١٧٢٤ استندت ولاية دمشق الى اسماعيل باشا العظم ، كبير هذه الاسرة البارزة في دمشق ؛ وكان ابنه اسعد ، الذي بدأ حياته السياسية حاكماً على صيدا ثم على حماة ، خير وال عرقته دمشق ابان الحكم العثماني . وقد تولى كذلك شؤون الحج المقدس ، ولا ريب في انه جنى منه ثروة طائلة . ولا يزال قصره في مدينة حماة ، الذي تشغله الآن مدرسة اهلية ، من روائع الآثار المقصودة على نهر العاصي . وافخم منه القصر الذي بناه في دمشق سنة ١٧٤٩ ، والذي يعتبر أروع أثر عربي ظهر في هذا القرن . فطرازه الهندسي ، وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر في الحشب ، تمثل اروع ما بلغه الفن الاسلامي في عهد انحلاله . وقد جلب من ايطاليا كل ما فيه من رخام . وكانت التيران قد ألحقت به بعض الاضرار في ايام الثورة على الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٥ ، لكنه رمم بعد ذلك ، واتخذ مقراً للمعهد الفرنسي في دمشق . وقد عين افراد آخرون من هذه الاسرة حكاماً على دمشق وصيدا وطرابلس فكثروا اطلاقاً — بخلاف حكام لبنان — أوفياء لسلطين بني عثمان ، مع ان منهم من عزلوا وصودرت املاكهم . فان اسماعيل نفسه قضى بعض ايامه الاخيرة في السجن ، وابنه اسعد اغتيل بأمر من القسطنطينية وهو في الحمام^٢.

وضع لبنان الخاص

على ان لبنان ، بمن فيه من الدروز الاشداء والموارنة المعتصمين بالجبال ، كان حرياً بمعاملة خاصة . فقد قضت الضرورة على السلطة بوجوب اعترافها بمكانة الامراء الاقطاعيين من اهله^٣ ، لاسيما والخطر الحقيقي إنما كان مبعثه مصر وفارس . وكانت السلطان سليم قد استقبل ، وهو في دمشق ، وقدأ من امراء لبنان على رأسه فخر الدين

(١) راجع Lammens, *Syrie*, vol. ii, p. 60. G. Berchet *Relazioni dei consoli venete nella Siria* (Turin, 1866), pp. 89, 126.

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٢ ، (دمشق ، ١٩٢٥) ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ - ٩١ ؛ حيدر الشهابي ، تاريخ ، نشر نوم منبب (القاهرة ، ١٩٠٠) ، ص ٧٦٩ ؛ *Les Guides bleus : Syrie — Palestine — Iraq — Transjordanie* (Paris, 1932), pp. 124, 303-4.

(٣) راجع ص ٢٧٤ و ٢٧٩ من هذا الجزء .

الاول المعني^١ من اهل الشوف ، وجمال الدين التنوخي^٢ من الغرب ، وعساف التركماني من كسروان^٣ . وكلف فخر الدين ، على ما ذكر مؤرخ لبناني^٤ ، قد نصح لأصحابه في معركة مرج دابق ان يترشوا ، ريثما يتبين الجانب المنتصر فينضموا اليه . وعندما مثل الآن في حضرة السلطان العثماني قِبَل الارض بين يديه وألقى خطبة بليغة قال فيها :

اللهم ادم دوام من اخترته للملك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وارضك ، وقلدته سنتك وفرضك . ناصر الشريعة النيرة الفراء ، وقائد الامة الطاهرة الظاهرية ، سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين ، الامام العادل ، والدكي الفاضل ، الذي بيده ازمة الامر بادشاه ، ادام الله بقاءه ، وفي العز الدائم ابقاه ، وخلص في الدنيا مجده ونعماءه . ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده . من ملك الملك بالمقل والتدقيق ، ومدته الله بالانبال والتوفيق . أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد ، بأنعم العز والتمهيد ، آمين .

فتأثر السلطان سليم بلسانه البليغ وصدقه الظاهر ، وثبته وباقي الامراء اللبنانيين في اقطاعاتهم ، وترك لهم الامتيازات الاستغلاية التي طالما نعموا بها في عهد المماليك ، ورتب عليهم جزية خفيفة نسبياً^٥ . واعتبر فخر الدين ، من ثم ، الزعيم الاكبر في الجبل ، حتى عرف بـ «سلطان البر» . ودرج سلاطين بني عثمان بعد ذلك على حكم الجبل ، اما مباشرة بالاعتماد على اتباعهم فن حكامه الاهليين ، او بواسطة احد الولاة السوريين المجاورين . وكان هؤلاء الحكام ، بوجه العموم ، مستقلين استقلالاً داخلياً ، يخلفون اقطاعاتهم اراثاً لبنيهم ، ويمارسون السلطة المطلقة على رعاياهم . ويجبون الرسوم والضرائب على هوامهم ، ولا يلزمون مع ذلك بتأدية أية خدمة عسكرية الى السلطان ؛ بل قد عمدوا احياناً إلى عقد المعاهدات مع الدول الاجنبية .

(١) بشأن منشأ هذه الاسرة راجع شدياق ، ص ٢٤٧ - ٤٨ .

(٢) حيدر ، ص ٥٦١ ؛ راجع بشأن اسرة ارسلان ص ١٧٠ من هذا الجزء وجمال من اليمنية التنوخي الذين كانوا بالاكتر من القيسية .

(٣) راجع الفصل ٤٦ ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

(٤) هو حيدر ، ص ٥٦٠ .

(٥) حيدر ، ص ٥٦١ ؛ قابل : الدويهي ، ١٥٢ ؛ شدياق ٢٥١ .

(٦) كان نصيب كسروان منه ٤٢٠٠ غرش ذهباً لا غير ؛ الدويهي ، ص ١٥٢ ؛ عيسى اسكندر الملوغ ، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني (جويليه ، ١٩٣٤) ، ص ٩ ، ج ١ .

الغزالي

وقد دلت الغزالي على وفائه للعهد الجديد بالتنكر لزعماء العرب التتويجين من بني مجتر، الذين بقوا على ولائهم للمالك، وسجنهم في قلعة دمشق. وإذا امتنع ابن الحنش، وهو الزعيم العربي في صيدا والبقاع، عن تقديم خضوعه^٢، احتز رأسه ورأس ابن الحرفوش، وهو زعيم اسرة شيعية في البقاع، وأرسل الرأسين مع رؤوس زعماء آخرين من البدو المعتصين في جبال نابلس، إلى القسطنطينية. على ان الذي خان أسياده الاولين، لم يستطع ان يمتنع طويلاً على الولاء لأسياده الجدد. وعليه فقد انتهز الغزالي فرصة وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠، وأعلن نفسه في المسجد الاموي حاكماً مستقلاً بلقب الملك الاشرف^٣، وضرب النقود باسمه. ثم انه زين لزميله السابق، خاثر بيك، الذي كان السلطان سليم قد كافأه بأن اقامه نائباً عنه على مصر، ان يقتدي به. لكن مدينة حلب لم تجاهر بتأييد الغزالي. فأرسل السلطان سليمان لمحاربه جيشاً أباد العصاة السوريين في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٥٢١، وقتل الغزالي في قابون قرب دمشق. وكان العقاب الذي نزل بالعاصمة السورية وضواحيها اشد وأدهى مما قاسته سابقاً من تيمور. فقد أريد ثلث المدينة وقراها اباداً تامة^٤، ومنذ ذلك الحين غدا اسم الانكشارية مقروناً في ذاكرة السوريين بالدمار والارهاب.

الجهاز الاداري

ان فلسفة العثمانيين السياسية، كما فهمها الوالي العادي على الاقل، كانت تقوم على ان الشعوب المغلوبة، من غير المسلمين، كانوا «رعية»^٥ «يتعهدهم الراعي»

(١) راجع ص ١٧٠ و ص ٢٧٤ و ص ٢٧٩ من هذا الجزء. وقد زار احد هؤلاء الامراء السلطان سليم في دمشق واهدى اليه جياداً عربية؛ ابن سباط، الملحق بتاريخ حيدر، ص ٥٩٧، وبتاريخ صالح، ص ٢٦٩؛ قابل: شدياق ص ٢٤٦.

(٢) حيدر ص ٥٩٦.

(٣) صلاح الدين المتجد، ولاة دمشق (دمشق، ١٩٤٩) ص ٣.

(٤) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء.

(٥) ابن ايس، ج ٥، ص ٣٦٣، ٣٧١، ٣٧٦ - ٣٧٨، ٤١٨ - ٤١٩؛ القرمانلي، ص ٣١٦ - ١٧.

(٦) استبدل بهذه اللفظة سنة ١٨٥٦ لفظة الطغ هي التبعة.

لمنفعة الفاتح . وهذا التعبير المستعار من حياة البدو في الجزيرة العربية ، كان يعبر كذلك عن المدارك التقليدية التي جالت في اذهان الاجيال التي تحدت من القبائل البدوية في آسيا الوسطى . فالشعوب المغلوبة في رأيهم بمثابة المواشي الانسانية ، ولذلك اقتضى ان «يُحلبوا» و «يُجزّوا» ، وانما تيسر لهم ان يعيشوا كما يبتغون ، ما داموا لا يسبون المتاعب . ولما كان اكثرهم من الفلاحين والصناعيين والتجار ، لم يطمحوا الى الانخراط في سلك الجندية ، ولا نزعوا الى تولي المناصب المدنية . لكن «القطيع» كان بحاجة الى «كلاب حراسة» . وكان هؤلاء يجندون بالاكثر من اسرى الحرب ، والرقيق الذي في حوزتهم ، واولاد النصارى الذين يؤخذون في مقابل الضرائب ثم يدربون ويربون كسليين . وكان هؤلاء المجندون يخضعون لمنهج عنيف من التدريب في العاصمة يستغرق سنين كثيرة ، ويعرون في مباريات شاقة وغريبة دقيقة . فمن اُبان عن فطنة وتوقد ذهن ، أُعد من جديد لتولي المناصب الحكومية ، ومن تميز بالقوة الجسدية وجه الى الخدمة العسكرية . وكان اصلهم يحولون الى فرقة المشاة المعروفة بالانكشارية . وكانت طبقة الحكام وطبقة الجند في الامبراطورية ، في اول الامر ، تنتقيان منهم على سبيل الحصر^١ . فرؤساء الوزارة ، والوزراء ، وأسرء البحر ، والقواد ، وحكام الاقاليم ، جميعهم كانوا في ما سبق عبيداً ، وكذلك بقوا . فكانت ارواحهم وأملأهم في كل آن تحت رحمة سيدهم السلطان الذي ما تردد يوماً في ممارسة حقه في هذه الملكية . وليس في التاريخ المدون جهاز اداري آخر مواز لهذا الجهاز القريب ، فقد جعل بيت عثمان الاسرة الارستقراطية الوحيدة في الامبراطورية ، ووضع في يدهم سلطة مطلقة لادارة الدولة والدود عن حياضها .

وقد اعتمد العثمانيون اساساً آخر للتقسيم الاداري هو التابعة الدينية . ذلك ان المجتمع في الشرق الادنى كان ، منذ عصور عريقة في القدم ، يقسم على اساس الملة بدلاً من العرق او العنصر . وكانت نواة الملة في التنظيم الاداري الاسرة ، لا الاعتبار الجغرافي . ومن هنا كانت العقيدة والقومية في اذهان الناس اعتبارين متشابهين

(١) انظر : Albert H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent*. (Cambridge, Mass., 1913) pp. 45 seq.; Barnette Miller, *The Palace School of Muhammad the Conqueror*, (Cambridge, Mass., 1941), pp. 6 seq., 81-82, 94-96.

يتعذر الفصل بينهما . وكانت كل من الفئات الدينية في الامبراطورية العثمانية تسمى ملة . وكانت اكبر الملل اثنتان هما ملة الاسلام وملة الروم (الارثوذكس)^١ وكان الارمن واليهود يعدون في جملة الملل . وكانت جميع الملل غير المسلمة ، تبعاً لهذا النظام ، مقسمة الى طوائف دينية يرأس كلأ منها رئيس من ابناء الطائفة ، يمارس بعض المهام المدنية الخطيرة ، بحيث أدى هذا الوضع إلى إنشاء نظام خاص بحكومات الاقليات الخاضعة . وكان الاوربيون المقيمون في البلاد : من بندقين وألمان وفرنسيين وانكليز ، يعاملون كسائر الملل . ففي سنة ١٥٢١ عقد السلطان سليمان معاهدة مع البندقين في ثلاثين فصلاً ، ثبت فيها الامتيازات التي كانت لهم في ابان الحكم البيزنطي . وحصل الفرنسيون على امتيازاتهم الاولى بعد ذلك بأربع عشرة سنة^٢ ؛ والانكليز سنة ١٥٨٠ . ومع ان المقصود اصلاً من هذه المعاهدات انها امتيازات منحها حاكم ذو سلطان ، لا انها حقوق انتزعت من سيد ضعيف ، فقد 'منح' الاجانب بموجبها امتيازات إقليمية كانت شيئاً مذكراً للترك حتى انحلال الامبراطورية .

سوء الادارة ومحاولات الاصلاح

ولم يكن الوالي في النظام العثماني اصلاح من النائب في حكم المالك ، اذ كان — نظير سلفه — مجتهداً من طبقة العبيد ؛ يضاف الى ذلك انه كان ابعد عن السلطة المركزية ، وبالتالي ، اكثر تحملاً من سلطانها . على ان هذا الامر لم يدخل تبديلاً هاماً على الاوضاع ، اذ كان الفساد متفشياً في العاصمة كما كان في الامصار . فكثيراً ما كان الولاة يشتركون تعيينهم في الامصار بالمال ، ويتولون مهام وظائفهم ، وهدفهم الاول تحقيق أطماعهم الخاصة . وربما عاد بعضهم الى القسطنطينية للاقوا حتفهم ، او يعاقبوا بمصادرة املاكهم . وكان الاستغلال يسير في ركاب القوضى ؛ فقد تقلب

(١) اطلق الترك لفظه «روم» التي انتطعها العرب من «رومان» على جميع رعاياهم من ابناء الملة الارثوذكسية ، من غير اعتبار العرق او اللغة . وقد حفظت هذه التسمية الى اليوم ، مع ان الروم الارثوذكس لا يخضعون لسلطة روما الدينية . وقد سمي السلاجقة سلطنتهم في اناضوليا «سلاجقة الروم» (راجع ص ٢٠٤ من هذا الجزء) لانهم انتزعوها من الامبراطورية الرومانية الشرقية .

(٢) راجع بشأن مواد المعاهدة ، l. de Testa, *Recueil des traités de la porte ottomane*, vol. i (Paris, 1861), pp. 15, seq.

على دمشق في السنين المئة والاربع والثمانين ، من بدء خضوعها للعثمانيين ، ما لا يقل عن مئة وثلاثة وثلاثين والياً ، لم يثبت في وظيفته منهم مدة سنتين^١ الا ثلاثة وثلاثون لا غير . وفي أحد سجلات الدولة جدول بأسماء ٦١ والياً عُيِّنوا في غضون ثمانين عاماً اولها عام ١٨١٥^٢ . ولم تكن حلب ، في ما يظهر ، ارقى حالاً ، فان قنصلًا من قناصل البندقية ، ذكر في تقرير له ، ان تسعة من الباشوات توالوا على المدينة في ثلاث سنوات^٣ . وربما نشب بينهم خصومات دامية تورطوا فيها متجاهلين تماماً وجود الحكومة المركزية . وزاد في شقاء الناس تردد الجنود الانكشارية على المدينة من وقت الى آخر ليقودوا الكثيرين جهاراً الى حتوفهم . وكان الشعب ازاء ذلك يعتصم بالاستكانة والحبيبة والتنكر للسلطة والتشاؤم من نتائج الجهود . والظاهر ان روح الانتفاض القديمة ، التي طالما ثارت على مساوى الحكم العباسي والفاطمي ، كانت قد تلاشت . ومن هنا يتضح ان العصور التي بدأت « مظلمة » في عهد الاتراك السلاجقة^٤ ، زادت ظلمتها « حاوكة » في ظل الاتراك العثمانيين ؛ وفي ما كانت اوربا تلج عصر الاستنارة ، كانت سورية تتلمس طريقها في الظلام العثماني الدامس .

كانت من اول من تحسّسوا الحاجة الى إدخال اصلاحات جارية ، والحد من استغلال الموظفين ، مصطفى كبرولو ، الوزير الاعظم بين سنتي ١٦٨٩ و ١٦٩١ . فقد وضع من التدابير الجديدة ، لتحسين معاملة غير المسلمين من الرعايا ، ما تخطى المحاولات الاصلاحية السابقة ، التي قام بها ثلاثة من بواصل السلاطين هم : سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ - ٣٩) وعبد المجيد الاول (١٨٣٩ - ٦١) . ذلك ان جميع هذه التدابير الاصلاحية بقيت حبراً على ورق ؛ فما اصدره منها السلطان سليم تحت عنوان « نظامي جديد » (النظام الجديد) قاومه الانكشاريون والموظفون الفاسدون ؛ وتلك التي وضعها السلطان عبد المجيد تحت عنوان « خطي شريف » (١٨٣٩) و « خطي هابون » (١٨٥٦) كان الترض منها ازالة الظروف المعجزة التي عملت الرعية تحت وطأتها ، وتأمين جميع الرعايا على حياتهم واموالهم

(١) Lammens, Syrie, vol. ii, p. 62 .

(٢) المنجد ، ص ٩١ - ٩٤ .

(٣) Relazione, p. 121 .

(٤) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

وكرامتهم ، على اختلاف ملهم وعناصرهم ؛ وإلغاء تازيم الضرائب ، واعتبار جميع الناس — على اختلاف لغاتهم وأديانهم — متساوين أمام القانون. إننا لم نتخذ التدابير المناسبة لوضع هذه « التنظيمات » موضع التنفيذ ؛ وقد كانت على كل حال سابقة لأوانها ^١ ، وعارضها فوق ذلك كله جماعة من الفقهاء والمحافظين المتنفذين ، ولم يرض عنها الا الجانب الذين كانوا يتمتعون بامتيازات اقليمية اضافية ؛ حتى ان صيرافة اليهود والنصارى عارضوا إبطال تازيم الضرائب . ولئن كان السلطان سليم لم يدفن حياً ، شأن سلفه عبد المجيد الاول ^٢ ، فقد كان عرشه الخاص ثمناً لمحاولته الاصلاحية هذه . وقد أدمى السلطان محمود خلفه الثاني ، وأعظم سلاطين بني عثمان في العصر الحديث ، خدمة قومية بُجلى عندما أمر ، في يوم مشهود من أيام حزيران سنة ١٨٢٦ ، بأن تُطلق المدافع المصوّبة نحو التكنات التي احتشد فيها الانكشارية ، فكانت بذلك نهايتهم . ومحمود هذا هو الذي اتخذ الطربوش لباساً للرأس ، فدعاه رعاياه — وبالفراية — بالسلطان الكافر ^٣ .

تدابير دستورية عقيمة

كان البطل التالي الذي ناضل من اجل قضية التحرير والاصلاح مدحت باشا كبير وزراء الدولة . بدأ مدحت حياته العسكرية موظفاً حكومياً في دمشق ^٤ ، وله من العمر ٢٢ سنة ، وقضى من ثم سنوات كثيرة يعمل جاهداً ، ولكن طي الحقائق ، بالاشتراك مع بعض الذين تجاوزت روحه معهم ، ليهيئ لبلاده وضعاً دستورياً .

(١) راجع بشأن النص التركي : لطفي ، تاريخ (القسطنطينية ؛ ١٣٠٣) ، ج ٦ ، ص ٦١ — ٦٤ ؛ Enver Z. Karal, *Osmanlı Tarihi, V, Nizam-i Cedid ve Tanzimat Devirleri* (Ankara: de Testa, vol v, pp. 140-43, 132-37, 1947) ; وراجع النص الفرنسي في : Edward Hertslet, *The Map of Europe*, (London, 1875) pp. 1002-5, وراجع ايضاً : 1245-49.

(٢) ان سلفه عبد المجيد الاول (١٧٧٤ — ٨٩) ابى ان يراعي العرف الذي كان يوجبه بحجّز المرحّل لولاية العهد في مقصورة (كئك) في السراي السلطانية . ولفظه « سراي » فارسية الاصل معناها الدار او الخان .

(٣) اطلق الاتراك لفظه « غيور » (كافر) على غير المسلمين ، لا سيما النصارى احتقاراً ، وهي من اصل فارسي « غاور » بمعنى جاحد او كافر .

(٤) ان الزقاق الذي كان يعرف بـ « المستقيم » (اعمال : ٩ : ١١) يحمل اسمه الآن « شارع مدحت باشا » .

وتجلت النتائج الاولى لجواده في بلاغ اذاعه السلطان مراد الخامس في ١٥ تموز سنة ١٨٧٦، وردت فيه لفظة قانون اساسي^١ لأول مرة في الوثائق السياسية . وبعد حكم دام ثلاثة اشهر أصيب السلطان مراد بخلل عقلي ، فتولى السلطة مكانه اخوه عبد الحميد الثاني ، وهو الذي اعلن رسمياً ، في ٢٣ كانون الاول ، صدور دستور وإنشاء مجلس نيابي . وكان مدحت ، بوصفه كبير الوزراء ، هو الذي اقترح نص الدستور ، وجرى في وضعه على سياق الدستور الفرنسي والدستور البلجيكي . وقد نصّ على ان جميع الرعايا ينبغي ان يدعوا عثمانين ، وان يتستعوا بالحرية الشخصية ، واعتبر الاسلام دين الدولة الرسمي . وقد اشتمل كذلك على التدابير اللازمة للمحافظة على جميع الاديان المعترف بها، وضمن حرية الصحافة في نطاق القانون، وأقرّ مبدأ التمثيل الشعبي عن طريق هيئة ذات مجلسين : الاول مجلس نيابي ، والثاني مجلس شيوخ . على ان تكون ولاية الاول اربع سنوات ، وان يكون الممثل الواحد عن كل ٥٠ الف ناخب . لكن عبد الحميد، كادلت الحوادث في ما بعد ، كان يرمي من ادخال هذا التدبير السماح الى تغادي النيل من سلطته ، والى كسب عطف الساسة في دول اوربا الغربية ، اكثر مما كان يرمي الى تحسين اوضاع رعاياه . ففي شباط التالي نني مدحت باشا ، وفي السنة التي تلت حل الهيئة التمثيلية . على ان ضغط الانكليز حمل السلطان على استدعاء مدحت ثانية ، وتعيينه حاكماً على سورية . لكنه عاد فنفاه الى الطائف في الحجاز ، حيث يظن ان عملاء الباب العالي اغتالوه سنة ١٨٨٣^٢ .

الظواهر الاجتماعية والاقتصادية

لم يتأثر وضع سورية السياسي ، ولا تركيبها العنصري ، تأثراً بالغاً بالفتح العثماني . فالتغيير العنصري الوحيد الذي حدث في العهد العثماني كان طارئاً عابراً ، وقد تناول سكان البادية لا غير^٣ . فقد كان الترك يجيئون ويذهبون بحكم وظائفهم ، دون ان يستعمروا الارض ؛ فكأنوا من ثم ، ورعاياهم السوريين ، غرباء روحياً بعضهم عن بعض . ثم تسرب الى شمالي سورية وشرقي الاردن بضعة آلاف من الجراكسة

(١) وقد استخدمها من بعده خلفه عبد الحميد ؛ انظر : *'Ilmiya Sâlnâme'si, (Constantinople, 1334), pp. 20-50.*

(٢) نشر ترجمة حياته ابنه علي حيدر مدحت بك في لندن ١٩٠٣ .

(٣) راجع ص ٩٤ وما بعدها من هذا الجزء .

المسلمين ، وذلك على اثر الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ، وقصد لبنان بضعة الوف اخرى من اللاجئين الارمن بعد الحرب العالمية الاولى ؛ فالتوه جنة من جنات الله . وقد بقيت العربية لغة الشعب ، ولم تستمد من التركية الا الفاظاً قليلة جلها يتصل بالسياسة او الجيش او الطعام^١

وكانت حياة سورية الاقتصادية عرضة لتدهور متواصل لم تكن الادارة العثمانية الفاسدة سببها الوحيد ، اذ عاصر اكتساح العثمانيين للشرق العربي تحول في خطوط التجارة العالمية ذهب باهمية البلد الاقتصادية . لقد كان ازدهار هذه المنطقة قائماً ، كما اشرنا تكررأ في ما سبق^٢ ، على التجارة لا سباً الحط الواصل بين الهند واوربا . على ان اكتشاف الملاح البرتغالي فاسكو داغاما للطريق البحري بين اوربا والهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، ثم سفر فرديناند مغلان البرتغالي الى الشرق بمروره حول رأس اميركا الجنوبية سنة ١٥٢٠ ، مكتشفاً في طريقه جزر الفلبين ، بعد المغامرة البحرية الشهيرة التي قام بها خريستفوروس كولمبوس الجنوبي ، في رحلته^٣ ربية التي انتهت به سنة ١٤٩٢ الى اكتشاف اميركا ، جميع هذه ، وما شابهها من الاحداث ، ادخلت تعديلاً عظيماً على المسالك التي سلكتها طرق التجارة الكبرى . بحيث انزاح مركز النشاط العالمي والحضارة الانسانية نحو الغرب . فعصر الريادة والاستكشاف الذي بزغ في هذه الاثناء لم يسهم العرب في قيامه . وعلى ذلك فقد عمد القائد البرتغالي اقونسو البوكركي الى سحب السفن من البحار الشرقية ، وتيسر له بين سنتي ١٥٠٣ و ١٥١٥ ان يسيطر سيادة بلاده على تجارة خليج الفارسي وجزر اندونيسيا . واستطاع البرتغاليون بذلك ان يتفادوا قرصان المتوسط ، ويتجاوزوا عن البلدان العربية التي دان اهلها بغير دينهم ، وتقاضي تجارها رسوماً باهظة على السلع العابرة . وهكذا ، فالمتوسط الذي كان بالمعنى الصحيح ، حتى آنشد بحراً متوسطاً ، لم يعد الآن بلاء هذا الموقع الهام ، وكان لا بد من ان يمر عليه ثلاثة قرون ونصف القرن حتى تشق قناة السويس ، ويعود كما كان طريقاً للتجارة وميداناً للحرب .

(١) منها : باشا ، وبيروق ، وبلطة ، وجلوش ، وبرغل ، وقلورمه . وبعض الالفاظ التركية المتبسة ترجع الى اصل يوناني او فارسي .

(٢) راجع الصفحات ٣٨٩ وما بعدها من الجزء الاول ومن ٢٥٦ و ٢٧٧-٢٧٨ من هذا الجزء .

وعلى ذلك فقد اضطر التجار السوريون بعد الآن ان يجعلوا جلّ اعتمادهم على التجارة البرية. وأخذت من ثم مدينة حلب في طريق الازدهار، اذ كانت رأس الحط التجاري الذي ينتهي الى بغداد فالبصرة. وصارت مركز التجارة المحلية في الامبراطورية، ومنتهى خط التجارة العالمية الممتد بين اوربا وآسيا. وهكذا تمكنت حلب من التفوق على دمشق الى حين، بينما استطاعت الاسكندرون وطرابلس ان تنزعا من بيروت مكانة مرفأها التجاري^١؛ بل ان حلب بقيت حتى منتصف القرن السابع عشر السوق الرئيسية للشرق الادنى جملة^٢. وقد نشأ في مدينة حلب مستعمرة من اهل البندقية ذات شأن، تحدثت تقاريرهم القنصلية عن وصول قوافل محملة بالتوابل الى حلب ودمشق من الهند لحسابهم الخاص. وكانت الحاجة ماسة الى التوابل في تلك العهود التي سبقت عصر التبريد الصناعي.

وسرعان ما ظهر للتجار البندقيين، في المدن والمرافئ السورية، مزاحمون من الفرنسيين الذين كانوا قد سبقوا الى انشاء قنصلية لهم في حلب. وقد زعم احد قناصلهم سنة ١٦٨٣ ان هذه المدينة «اكبر المدن في الامبراطورية التركية جملة، وأجلها وأغناها بعد القسطنطينية والقاهرة»^٣. وعلى اساس معاهدة الصلح، التي عقدها السلطان سليمان مع فرنسيس الاول سنة ١٥٣٥^٤، نشطت التجارة الفرنسية وأدت الى اتساع النفوذ الفرنسي في الشرق الادنى. وفي سنة ١٧٤٠ وقع محمود الاول معاهدة مع لويس الخامس عشر فتحت بموجبها البلدان المقدسة، ليس للحجاج الفرنسيين وحدهم، بل لجميع المسيحيين الذين وفدوا على الامبراطورية العثمانية تحت حماية العلم الفرنسي. ثم اتخذ الفرنسيون هذه الامتيازات اساساً لحق حماية جميع المسيحيين الكاثوليك في سورية^٥. وكان للفرنسيين في غير حلب جاليات، في الاسكندرون واللاذقية وطرابلس وصيدا وعكا والرملة. ولم يعم التجار الانكليز ان جروا في اثر

(١) راجع بشأن هذه المرافئ F. Charles-Roux, *Les Échelles de Syrie et de Palestine au XVII^e siècle* (Paris, 1928), pp. 5 seq.

(٢) انظر: Sauvaget, *Alep*, p. 201.

(٣) انظر: D'Arvieux, *Memoires* (Paris, 1735), vol. vi, p. 411.

(٤) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء.

(٥) انظر: F. Charles-Roux, *France et chrétiens d'orient*, vol. i, pp. 186 seq.; (Paris, 1939), pp. 68-77.

الفرنسيين، واخذوا يحلون تباعاً محل تجار البندقية وجنوى، في المدن والمرافىء السورية. وما ان تأسست شركة الشرق الادنى سنة ١٥٨١، في عهد الملكة اليبابا، حتى اخذ رجال الاعمال الانكليز يتدفقون على سورية، في حين ظلت حلب مركز الحركة الرئيسي^١. ويستدل من التقارير القنصلية انه كان في حلب سنة ١٦٦٢ نحو من ستين تاجراً انكليزياً. ويذكر شكسبير^٢، عن قرينة احد الملاحين، «ان زوجها ارتحل الى حلب». وكانت الجوالي الاوربية يجملتها تعد نحواً من ٢٠٠ نفس^٣. وكان هؤلاء التجار يحاولون ان يشبعوا الذوق الغربي للكماليات الشرقية الذي توثق ابان العصر الصليبي. وتختلف عن نشاطهم هذا عودة الحيوية الى الطريق البرية القديمة، اما جدول المنتجات المحلية فقد كان في رأسه الحرير من لبنان؛ والقطن من فلسطين، ثم الصوف والزيت. وكانت المنافسة بينهم وبين تجار البحار شديدة، لكن حرص التجار البرتغاليين على ابقاء الاسعار عالية بحيث كاد الامر يكون احتكاراً ترك للتجار السوريين مجالاً رحيماً للاستفادة.

وكان لكل من الجوالي التجارية خان خاص تعينه لهم الحكومة. وكان الخان النموذجي بناءً مربعاً ذا دورين، في وسطه ساحة واسعة مكشوفة. يستخدم الدور الاسفل منه مستودعات للبضائع، ويشتمل الاعلى على غرف يأوي اليها التجار. وكان هؤلاء التجار، بوجه العموم، عازبين؛ وكانوا يرتدون الملابس الاقليمية. ولم يكن يسمح لهم — حفاظاً عليهم — بالبقاء خارج المدينة بعد غياب الشمس، الا ان احكام القضاء المحلي، عملاً ببنود الاتفاق، لم تكن تطبق بحقهم ولا يزال بعض هذه الخانات قائماً الى الآن؛ فالخان الذي بني في عهد فخر الدين الثاني (ت ١٦٣٥) في صيدا للفرنسيين — مثلاً — تشغله اليوم راهبات القديس يوسف.

والذي يبدو، ان سورية لم تكن، من هذا التوسع التجاري الجديد منافع دائمة، اذ كان معظمه في يد التجار الاوربيين. واما ابناء البلاد فقد استمروا في طريق الانحدار ثروة وعدداً. وهذا قولني^٤، الذي زار حلب سنة ١٧٨٤ او ١٧٨٥، يقدر

(١) انظر: Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company* (Oxford, 1935) pp. 11, 75 seq.

(٢) في مسرحية مكبث، الفصل الاول، المشهد الثالث.

(٣) انظر: Grant, *Syrian Desert*, p. 93.

(٤) كتابه. *Voyage en Syrie et en Egypte* 2nd ed. (Paris, 1787), vol. ii, p. 135.

انه لم يبقَ هناك من القرى الثلاثة الاف والمئتين ، التي كانت تدفع الضرائب في ولاية حلب ، في مستهل العهد العثماني سوى نحو اربع مئة وهو امر يكاد لا يصدق . ويحسب ان عدد سكان المدينة لم يزد عن مئة الف^١ . في حين ان التقارير القنصلية العائدة الى اواخر القرن السادس عشر تجعله بين ضعفي هذا العدد واربعة اضعافه^٢ . بل ان مؤرخاً تركياً مشهوراً^٣ قد ذكر ان مصلحة الجباية في حلب كانت ، حتى سنة ١٧٤٠ ، من المناصب المرغوب فيها جداً ، اذ كان بإمكان صاحبها ان يجمع من المال ما يكفيه لشراء وزارة ، لدى عودته الى العاصمة .

وفي اثر التجار الاوربيين ، جاء المرسلون والمعلمون والسائحون والمستكشفون ، وهكذا فتحت الابواب في وجه المؤثرات الحديثة ، وهي ظاهرة من اخصب الظواهر في تاريخ سورية العثمانية . وكان هؤلاء المرسلون جماعات من الجزويت والكبوشيين والعاذاريين ، وافراداً من بعض الرهبنات الكاثوليكية الاخرى . وكان مركز نشاطهم في الاوساط المسيحية الاهلية ، وانتهى بهم الى تأسيس الكنائس المعروفة « بالانجادية » التابعة للكرسي الرسولي من سريان كاثوليك وروم كاثوليك وذلك في غضون القرن السابع عشر والثامن عشر^٤ . وقد تقبل لبنان ، في عهد فخر الدين الثاني وخلفائه المؤثرات الثقافية الغربية ، بصورة خاصة^٥ . فاقدم الجزويت ، الذين يعود نشاطهم في المنطقة الى سنة ١٦٢٥ ، بالاشتراك مع الموارنة ، على انشاء اول مدرسة يجوز اعتبارها حديثة ، وذلك سنة ١٧٣٤ في قرية عين طورا من قرى لبنان . وعندما تحولوا على ايقاف عملهم ، الى حين ، بعد ذلك بربعين سنة ، حلّ العازاريون في مراكزهم .

الظواهر الثقافية

كان هذا العصر ، من الوجهة الثقافية ، عصر جمود وعقم . ولا بدع فالحكم

(١) Volney, vol. ii, p. 139.

(٢) Berchet, pp. 59, 102.

(٣) جوت ، تاريخ ، ج ٣ ، (القسطنطينية ، ١٣٠٩) ، ص ٢٦٩ .

(٤) راجع ص ١٣٩ و ١٤٢ من هذا الجزء ؛ راجع ايضاً « لبنان » . (بيروت ، ١٣٣٤) ، ص ٤٦٥ وما بعد .

(٥) انظر الفصل التالي : « فخر الدين الثاني » .

(٦) راجع بعض تقاريرم الاولى في مؤلف انطوان رباط Rubbath, Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en orient, vol. i (Paris, 1905), pp. 38 seq.

الاعتباطي، والضرائب الفادحة، والتدهور الاقتصادي، والانهيار الاجتماعي، لا تغري بالابتكار الشخصي او الانتاج الخلاق في الفن والعلم والادب. فعصر الجمع والتعليق والاختصار والتقليد، الذي بدأ قبل ذلك بقرون عديدة، استمر في هذه الاثناء؛ لكن النتائج التي اعطاها كانت اقل واضعف. فالعصر العثماني يجملته لم ينبج شاعراً شورياً واحداً ولا فيلسوفاً، ولا فنانياً، ولا عالماً، ولا منشئاً، من الطبقة الاولى. وكانت الامية واسعة الانتشار، بل كادت تكون جارفة. وقد عيّن من القضاة من لم يكن يجيد الكتابة الصحيحة.

ولم تستطع عاصمة الامبراطورية الا جذب قليل من المفكرين، كاللورخ نعيم الحلبي (حوالي ١٦٦٥ - ١٧١٦) ليصبحوا عثمانيي الصبغة.

فمن المؤرخين واصحاب السير، الذين اعتمدناهم في اعداد هذا الفصل، احمد بن سنان القرماني (١٥٣٢ - ١٦١٠)^١، وكان موظفاً في حكومة دمشق؛ ونجم الدين الغزي (١٥٧٠ - ١٦٥١)^٢ المحدث والاستاذ في دمشق؛ ومحمد المحيي (١٦٥١ - ١٦٩٩) الذي كان كذلك استاذاً مرموقاً في دمشق. والظاهر ان دمشق كانت، حتى اوائل القرن الثامن عشر، مركزاً فكرياً، في حين كانت حلب مركزاً مالياً. حصل المحيي علومه في الاساتنة، وعمل الى حين مساعداً قضائياً في مكة. وكان مؤلفه الرئيسي كتاب سير جمع فيه ألفاً ومئتين وتسعين سيرة من سير اعلام الرجال الذين توفوا في القرن الحادي عشر الهجري (١٥٩١ - ١٦٨٨). وفي دمشق وضع المقري التلمساني (ت ١٦٣٢)، ما بين ١٦٢٨ - ١٦٣٠، مؤلفه الضخم الذي يعتبر المصدر الرئيسي لتاريخ الاندلس الادبي^٣، من مواد كان قد احضرها معه من مراکش. ومن اعلام دمشق الجديدين بالذكر عبد الغني النابلسي (١٦٤١ - ١٧٣١)، العالم الصوفي والسائح الجوال، الذي لا تزال معظم مؤلفاته غير منشورة^٤.

-
- (١) راجع ترجمته في كتاب محمد المحيي؛ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة، ١٢٨٤) ج ١، ص ٢٠٩ - ١٠.
- (٢) المحيي، ج ٤؛ ص ١٨٩ - ٢٠٠.
- (٣) هو كتاب نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، نشره دوزي في ٣ اجزاء (لندن، ١٨٥٥ - ٦٠).
- (٤) ذخائر الوارث في الدلالة على مواضع الحديث ٤ اجزاء (القاهرة، ١٩٣٤).

ومن الاخباريين الذين استندنا اليهم في هذا الفصل ثلاثة من موارنة لبنان :
البطريرك اسطفان الدويهي (١٦٣٠ - ١٧٠٤) وقد التحق ، وهو في السادسة
عشرة من عمره ، بدائرة اللاهوت المارونية في روما التي كان البابا غريغوريوس
الثالث عشر قد انشأها سنة ١٥٨٤ لاعداد الطلاب الموارنة للحياة الكليريكية ؛
والامير حيدر الشهابي (حوالي ١٧٦١ - ١٨٣٥)^١ ، وقد كان يقيم في دارته في
قرية شملان الصغيرة التي تشرف على مدينة بيروت ؛ ثم طنوس الشدياق (ت ١٨٦١)
من ابناء الحدث المجاورة بيروت . وكان قاضيا تابعا للامراء الشهابيين ، فدوّن
اخبار الاسر الاقطاعية في لبنان .

وكانت دائرة اللاهوت المارونية في روما تتيح لنصارى لبنان هؤلاء فرصة
نادرة لتحصيل العلم . فقد كان المتفوقون منهم على اقراهم يختارون ليدربوا في
تلك الدائرة ؛ وبعد ان ينهوا دروسهم يعود بعضهم الى وطنهم ليشغلوا مراكز
كليريكية رفيعة ، ويبقى آخرون في روما يكتبون على الدرس والتأليف . وكان
من اوائل المتخرجين الممتازين جيروانييل الصهيوني (عرفه اللاتين بـ سيونيتا ،
١٥٧٧ - ١٦٤٨) . علّم السريانية والعربية في روما ، ثم عيّن استاذاً للغات
السامية في مدرسة السربون في باريس . وهناك ساهم في اعداد نسخة التوراة ذات
اللغات العديدة . ثم خلفه في عمله هذا مواطنه اللبناني ابراهيم الحاقلافي (او الحاقلي
١٦٠٠ - ٦٤) الذي كان قد تعلم في روما كذلك ، وكان استاذاً للغة العربية
والسريانية في كلية الارسالية التبشيرية هنالك . وفي سنة ١٦٤٦ عيّن الحاقلافي في
منصب وضيع في « لية فرنسا » . وكانت توراة باريس ذات اللغات العديدة اول
توراة من نوعها اشتملت على النص السرياني والنص العربي . وهناك عالم آخر من
خريجي الدائرة المارونية ، لعله اشتهر وانبلهم على الاطلاق ، هو يوسف سمعان
السعائي (١٦٨٧ - ١٧٦٨) ، الذي اتحف مكتبة الفاتيكان بعدد من خيرة
المخطوطات الموجودة في مجموعتها الشرقية . فالمباحث التي انشأها السعائي على هذه
المخطوطات السريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية والحبشية والارمنية ،

(١) راجع حيدر ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، نشر اسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ،
١٩٣٣) قسم ١ ، ص ٥ - ٨ من المقدمة ؛ راجع ص ٩٥ من هذا الجزء الحاشية رقم ١ .

والتي اقتضته القيام برحلتين الى الشرق، قد جمعت في موسوعته الكبيرة «الموسوعة الشرقية» Bibliotheca Orientalis (اربعة مجلدات، روما ١٧١٩ - ٢٨) التي لا تزال مصدراً رئيسياً لمعارفنا عن كنائس الشرق. وفي سنة ١٧٣٦ اوفد البابا السمعاني الى السينودس الماروني الذي عقد في اللوزة في لبنان، ليعمل على توثيق الصلة بينهم وبين الكرسي البابوي^١. وكان من اللبنانيين الذين تعلموا ايضاً في روما، ودرسوا العربية فيها، ميخائيل الغزيري (١٧١٠ - ٩١). فقد ترأس ادارة مكتبة الاسكوريال في اسبانيا، وفهرس فيها المخطوطات العربية البالغة ألفاً وثمان مئة عدداً. وقد كانت مآثر هؤلاء العلماء الموارنة من خريجي روما، هي التي اوقفت اوربا الحديثة للمرة الاولى، على اهمية اللغات والآداب الشرقية، ولا سيما من وجهاتها المسيحية.

الآلة الطابعة

تميز دير قزحيا في لبنان بأنه اقتنى اول مطبعة في الشرق العربي. واصل هذه المطبعة غير معروف على وجه التحقيق، لكن الراجح ان احد اعلام اللبنانيين الذين درسوا في روما احضرها معه الى هذا الدير. وقد اخرجت هذه المطبعة سنة ١٦١٠ سفر المزامير مطبوعاً باللغة السريانية، وباللغة العربية مكتوبة بالحرف السرياني^٢. وكانت اللغة السريانية لا تزال رائجة في اوساط الموارنة، كما شهد بذلك السائحون من الاوربيين، والمقيمون منهم. فقد ورد في ما كتبه دارثيو^٣ على اثر زيارته الى لبنان سنة ١٦٦٠، ان اسقف اهدن كان يتكلم السريانية والعربية بطلاقة تامة. على انه، ما كاد القرن ينصرم، حتى كانت اللغة السريانية قد ماتت كلفة محكية. وقد تبين لقولني^٤، من الاستقصاء الذي قام به، ان

(١) راجع بشأن تأثير السمعاني في التقريب بين الموارنة وروما تاريخ الدبس ج ٨ ص ٥٦٤ - ٦٨؛ Rabbath, vol. i, pp. 181-82.

(٢) تعرف هذه الكتابة بـ الكرشوني، راجع ص ١٧٢ من هذا الجزء. راجع ايضاً Joseph Nasrallah, *L'Imprimerie au Liban*, (Harissa, 1949), pp. 2-6؛ وراجع ايضاً، لويس شيخو، تاريخ فن الطباعة في الشرق، مجلة الشرق ج ٣ (١٩٠٠) ص ٢٥١ - ٣٥٥، ٦٢.

(٣) المجلد، ص ٤٠٧.

(٤) المجلد الاول، ص ٣٢١ - ٣٢.

السريانية كانت لا تزال الى عهده لغة محكية في قريتين من قرى لبنان الشرقي، وهي في الواقع لا تزال حتى الآن تحكى في ثلاثٍ منها^١.

واول آلة طباعة استخدمت الحروف العربية ظهرت في حلب سنة ١٧٠٢، وذلك بفضل البطريك اثناسيوس دباس الذي تنقل ما بين المذهبين الارثوذكسي والكاثوليكي. اما الآلة الطباعة نفسها فالراجح انها استقدمت من ولاخيا، لكن الفضل في اعداد امارات الحروف، انما يعود الى عبدالله زاخر، الذي ارتحل الى الشوير من قرى لبنان. وانشأ سنة ١٧٣٣ مطبعة جديدة. وكانت الانجيل من الكتب الاولى التي طبعت بالعربية، وذلك سنة ١٧٠٨ في مطبعة جلب^٢. واصل مطبعة ولاخيا كذلك شديد الغموض. فقد جاءت بعد المطبعة العربية الاولى في العالم، التي كانت قد ظهرت في فانو بايطاليا، قبل ذلك بنحو من مئة وثمانين سنة^٣. والراجح ان الفضل في اختراع هذه المطبعة عائد الى الرغبة البابوية. وربما كانت ام المطبعة الحلبية. ثم تبع هذه المطبعة مؤسسات طباعية اخرى في لبنان، كان جل انتاجها كتباً دينية ومدرسية، استخدمت لاستكمال المهام المدرسية. وعلى هذا النحو جرى ببطء، ولكن بعزم اكيد، اعداد الوسائل اللازمة، واستخدامها في انشاء حياة ثقافية جديدة.

(١) راجع ص ١٧١ - ١٧٢ من هذا الجزء.

(٢) نصر الله، ص ١٧-٣٢.

(٣) راجع حتي *The Princeton University Library Chronicle*, vol. iv (1942), pp. 5-9.

الفصل التاسع والربعون

أمرؤ لبسنان المغنيون والشهابيون

ان ما عالجناه في الفصل السابق من انكشاف البلد السوري باجمعه لمؤثرات الحضارة الغربية ، وما نحن في صده هنا من تحول لبنان الى وحدة سياسية قائمة بنفسها، هما حدثان من ابرز الاحداث التي استجذت في العصر العثماني . وحول هذين الحدثين ، وما رافقهما من مساوئ الحكم العثماني ، يسوغ تركيز اكثر الحوادث التي وقعت في هذا العصر .

فقد بدأ المغنيون ، على اثر الفتح العثماني ، يحلون محل التنوخيين^١ في السيطرة على لبنان الاوسط والجنوبي . والى الشمال بسط بنو عساف نفوذهم ، وكان السلطان سليم قد ثبت زعيمهم على كسروان بعد ان ألحق بها جيل^٢ . وبلغ بنو عساف اوج عزمهم في ابان اماره منصور (١٥٢٢ - ٨٠) الطويلة ؛ وكانت مقاطعته تمتد من جوار بيروت جنوباً حتى عرقة ، الى الشمال من مدينة طرابلس . واتخذ بنو عساف بلدة غزير قاعدة لامراتهم ، ولا تزال بقايا مبانيهم بارزة للعيان حتى اليوم . وفي سنة ١٥٩٠ انتقل تراث هذه الاسرة السياسي الى اسرة منافسة لها هم بنو سيف في طرابلس ، وكانوا من اصل كردي . وهم الذين عدوا على آخر حاكم من بني عساف^٣ فقتلوه . وكان العرف الذي جرت عليه جميع هذه الاسر الاقطاعية يقضي ، في الغالب ، بان يقسم اميرها الاكبر ممتلكات الامارة الى اقطاعات يوزعها على من دونه من « المقدمين » او « المشايخ » . وعلى هذا النحو كان الشهابيون - وهم

(١) لا تزال بعض مبانيهم قائمة في عبيه بينما ملغى السيد عبد الله التنوخي (ت ١٤٨٠) الذي لا يزال حجاج الدروز يترددون اليه حتى الآن .

(٢) راجع ص ٣٠٨ من هذا الجزء .

(٣) اللويهي ص ١٨١ ، حيدر ، تاريخ ص ٦٠٢ ؛ شدياق ص ٣٥٠ .

خلفاء المعنيين - قد اقاموا في اوائل القرن الثامن عشر، آل جنبلاط على الشوف^١ وآل ابي اللع على المتن، وآل تلحوق على الغرب الاعلى، وآل ارسلان على الغرب الادنى، وآل الخازن على كسروان^٢. وكان للموارنة مقدمهم، وكان على هؤلاء المقدمين ان يجيبوا الجزية المستحقة عليهم ويؤدوها الى الحكومة العثمانية. وكان من ابرزهم مقدمو بشري والبترون وجبيل^٣. ولما كان اكثر اللبنانيين من الموارنة والدروز، فقد كانوا يخضعون، بوجه العموم، لشرائع طوائفهم، فيتولى الرؤساء الدينيون تطبيق هذه الشرائع، كل في ملته الخاصة تبعاً للنظام الملى.

والذي يشهد على ان لبنان كان في حكم الامراء الاقطاعيين الاهليين اشد ازدهاراً من سورية وهي تحت الحكم التركي؛ ازدياد عدد سكانه ازدياداً طبيعياً، عن طريق تدفق الهجرة اليه. فأت استقرار الوضع، وانتشار الامن - ولو نسبياً - في ربوعه، اجتذب السنين من البقاع الى ساحل علما والقرى المجاورة، والشيعيين من بعلبك الى جبيل ومواطن اخرى في كسروان. وانتشر الموارنة من منطقة طرابلس في اتجاه جنوبي حتى سفوح التلال القائمة الى الشمال من جونية، وانساح الدروز في اتجاه شمالي نحو برمانا وسوها من قرى المتن^٤.

وقد شغل النزاع على السلطة في النطاق المحلي، وعلى الصعيد الوطني بالوسائل السلمية او الاساليب العنيفة مقداراً غير قليل من الوقت والجهد الذي بذله الامراء والمقدمون والمشايخ. وكان هؤلاء الزعماء الاقطاعيون احياناً يشتبكون في نزاع مسلح مع اسياهم في القسطنطينية. ففي سنة ١٥٨٤، هوجمت قافلة من الانكشاريين

(١) هي اسرة كردية جاءت من منطقة حلب واسمها في الاصل جانبولاد؛ شدياق ص ١٣٠. وآل جنبلاط اليوم على المنصب الدرزي وهم من الاشراف الملقبون سلاياً بالمشايخ. اما الشهابيون فيلقبون بالامراء ولا يزال بعضهم على الاسلامية لكن اكثرهم على المنصب الماروني.

(٢) رفع اللعيون من «مشايخ» الى «امراء» على يد احدى الحكام الشهابيين سنة ١٧١١ (شدياق، ص ٦٧)؛ وقد كانوا على الدرزية لكنهم اليوم مارونيون جيماً. اما آل تلحوق فقد جاؤا الى لبنان من شمالي افريقيا في موكب الفاطميين (قابل؛ شدياق ص ١٥٥). وهذا الرقم قد وضع على صفتين من النص الاصيل الذي اعتمدناه؛ وقد ورد هذا الترميم المكرر في مواضع اخرى ايضاً. وم الآن من مشايخ الدروز. اما آل الخازن فن مشايخ الموارنة، شدياق، ص ٧١ وما بعد.

(٣) للاستزادة عن القدمين راجع شدياق، ص ٢١٧ - ٢٣.

(٤) اللويهي، ص ١٥٣، شدياق، ص ٢١٥.

كانت مارة في لبنان ، وسلبت مبالغ كبيرة من المال هي الضرائب التي جبيت من فلسطين ومصر . وكانت القافلة المذكورة عائدة بها الى خزينة الدولة في العاصمة . فغضب السلطان ، ووجه الى يوسف سيفاً - اذ وقع الاعتداء في منطقته - حملة تأديبية أضرمت النار في كثير من قراه . ثم وجه حملة ثانية الى الدروز في الجنوب ، على اعتبار أنهم مدبرو العدوان ؛ واقتص منهم قائد الحملة التركي - وهو آنذاك ابراهيم باشا والي مصر - بقتل خمس مئة الى ست مئة من وفود الدروز الذين جاءوا لمقابلته في عين صوفر^١ ، و ٦٠ ألفاً من الاهالي ، وذلك بعد ان جردهم من السلاح . وكان امير جبل الدروز (وهو الاسم التي عرفت به هذه المنطقة من لبنان) حينذاك قرمقاز (او قرقماس) ، وكان قد خلف ابيه فخر الدين الاول سنة ١٥٤٤ . فلجأ الى قلعة نيجا (شقيف تيرون) قرب جزين . وهناك ادر كته الوفاة . ويظن ان بعض عملاء الباب العالي قتله بالسـم . وكان ابوه قبله قد قتل غدرأ كذلك ، بايعاز من والي دمشق . وخلف قرمقاز ورائه ابناً كان له من العمر اثنتا عشرة سنة سمي باسم جده : فخر الدين ، وارملته اخفت ابنها هذا عند آل الحازن في كسروان^٢ .

تولى الفتى فخر الدين الحكم مكان ابيه سنة ١٥٩٠ . وفي عهده بلغت سلطة المعنيين اوجها . وكانت بلا ريب اقدر الشخصيات واحبها الى الناس ، في تاريخ لبنان العثماني ان لم يكن في تاريخ سورية مجملتها . فقد تولى الحكم وقلبه يتقد بثلاثة مطامح : اقامة لبنان على نطاق اوسع ، وقطع آخر صلة له بالباب العالي ، ثم السير بـلبنان في طريق التقدم والازدهار . ولا شك ان هذه الاهداف الثلاثة كانت تمثل ميولاً واهنة عند اتباعه ورعاياه وقد عمد الى تحقيق هذه الاغراض بوسائل شتى منها : التزواج ، والرشوة ، والدس ، والاحلاف ، والقتال ؛ وجميعها من الوسائل المسلم بها في ذلك العصر .

تسلم فخر الدين من السلطان سنجق بيروت وسنجق صيدا . فحمل على جاره ، ووالد زوجته ، يوسف سيفاً . وبعد معارك عديدة انتزع من يده السيطرة على لبنان الشمالي . ولم يلبث بنو حروفش من شيعة بعلبك ، وزعماء البدو في البقاع

(١) الدويهي ، ص ١٧٨ ؛ حيدر ، تاريخ ص ٦١٨ - ١٩ .

(٢) شدياق ، ص ٨١ ؛ الملو ف ، تاريخ الامير فخر الدين الثاني ، ص ٤٨ .

وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، ان خضعوا لأمير لبنان الناهض . وقد كان السلطان أحمد انداك متورطاً في قتال الهنغارين والفرس ، فلم يلتفت الى هذا التابع اللبناني . وكان الى ذلك كله نأثر من زعماء الأكراد اسمه علي جانبولادا قد استأثر بالحكم في ولاية حلب سنة ١٦٠٦ . فانتهر فخر الدين هذه الفرصة وعقد محالفة مع حاكم حلب المطلق . وقد ذكر جورج ساند يز^٢ ، الرحالة الانكليزي الذي زار لبنان سنة ١٦١٠ ، ان ساحل البحر من نهر الكلب الى جبل الكرمل ، ومدن صفد وبانياس وطبرية والناصره ، كانت داخلة في سلطنة فخر الدين . وهذا التوسع الى الجنوب وضع في يده حصوناً كانت منذ عهد الصليبيين تسيطر على الطرق والمواقع ذات الخطورة الحربية ؛ كما ان الحاق مهل البقاع الحبيب بمنطقة نفوذ زاده دخله ، بحيث مكنته هذه الزيادة من ان يعد جيشاً مدرباً منظماً ، انشاءً حول نواة من الجنود المحترفين ، يدعم به الجنود القدامى غير النظاميين الذين كانوا عاجزين تماماً عن الوقوف في وجه الانكشارية^٣ . وكانت ما بقي من الواردات يكفي لتغطية نفقات الجواسيس الذين استخدمهم في قصور منافسيه وخصومه . وبقي برشوة الموظفين الاتراك^٤ . وكانت التجارة التي نشطها مورداً آخر من موارد الثروة ، لاسيما التعامل مع تجار فلورنسا ؛ اذ كانت سفن هؤلاء التجار تؤمن الاسواق الخارجية والصفقات الراجعة لمنتجات لبنان ، من الحرير والصابون وزيت الزيتون والقمح وسواه من الحبوب . وفي سنة ١٦٠٨ عقد امير لبنان معاهدة مع فردناند الاول ، دوق نساكيا الأكبر من موتشي — وهو صاحب فلورنسا — اشتملت على بنود عسكرية سرية موجهة ضد الباب العالي^٥ . وعلى الاثر قرر السلطان ، بإيعاز من حافظ باشا والي دمشق ، ان يتخذ تدابير فعلية بحق مولاه الوقح ، ويضع حداً لحركته الانفصالية

(١) هو احد اسلاف آل جنبلاط اللبنانيين ، راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء ، ح ١ .

(٢) انظر A Relation of a Journey, 2nd ed. (London, 1621), pp. 211-12 .

(٣) المحي ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ؛ قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 438 .

(٤) قابل : d'Arvieux, vol. i, p. 457 .

(٥) راجع بشأن هذه المعاهدة وسواها مما عقد مع حكام المقاطعات الإيطالية : Paolo Carali : [Qara 'li] Fakhṛ ad-Din II e la corte di Toscana (Rome, 1936-8), vol. i, pp. 146 seq., vol. ii, p. 59 ; G. Mariti, Istoria di Faccardino grand-emir dei Drusi (Livorno, 1787), pp. 74 seq.

وسياسته التوسعية . فوجه اليه ، سنة ١٦١٣ من دمشق ، جيشاً لم يتمكن من ان يقوم بعظيم امر في ثنايا الجبال . لكن عندما اقبلت عمارة من الاسطول مؤلفة من ستين بارجة لحصار الشاطئ ، اضطر فخر الدين الى ان يأتمر بوحى العقل ، وعمد الى التراجع . ووافق آنذاك وجود ثلاث سفن في مرفأ صيدا حملته مع احدى زوجاته وموكب من اصدقائه ويريدونه الى ايطاليا ، وترك الامارة امانة في يد ابنه علي يساعده اخوه يونس .

مكث فخر الدين في اوربا خمس سنوات (١٦١٣ - ١٨) زار في خلالها ليفهورن ، وفلورنسا ونابلي وبالرمو ومسينا ومالطا ، وسواها من الاماكن الهامة ، وتشرب فيها من الافكار ما قوى اعتقاده بصحة المبادئ التي عمل سابقاً بوحياها ، بدلاً من ان يضعفه بشأنها ويحوله عنها . الا انه اصيب بخيبة واحدة هي ان مساعيه ليعود مصحوباً بمجملته من الدول الاوربية والبابا ذهبت سدى . وفي اثناء وجوده هنالك اخترعت الاسطورة التي تروي ان الدروز نشأوا اصلاً من مستعمرة الكونت دي دريه الصليبية^٢ .

واتخذ فخر الدين ، فور رجوعه ، جميع التدابير لاسترداد المناطق التي سلخت من امارته في اثناء غيابه ، لاسيما تلك التي استولى عليها بنو سيفا . على ان وفاة زعيمهم الاكبر يوسف ازاحت من طريق فخر الدين جميعه والد اعدائه ، وصار الطريق شمالاً وجنوباً مفتوحاً امامه . وبذلك نهضت الدولة اللبنانية القديمة ثانية ودرجت في سبيل التوسع . وفي سنة ١٦٢٢ اكرمه الباب العالي بالحاق سنجق عجلتون وسنجق نابلس بولايته . وبعد ذلك بستين وجد الباب العالي نفسه مضطراً لان يعترف بالامر الواقع ويثبت فخر الدين سيداً على « عربستان » من حلب الى حدود مصر . وهذا القزم الذي قال خصومه في وصفه انه كان من قصر القامة بحيث لو سقطت بيضة من جيبه الى الارض ما انكسرت^٣ ، كان الرجل الوحيد الذي

(١) احمد خلدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، نشر اسد رستم وفؤاد البستاني (بيروت ، ١٩٣٦) ، ص ١٧ - ١٩ .

(٢) انظر Volney, vol. ii, pp. 40-41.

(٣) المؤلف ، ص ٢١١ . قال Sandys ص ٢١٠ في وصفه « اسمه فخر الدين ؛ قصير القامة لكنه عظيم الشجاعة كثير المآثر يناهز الاربعين عمراً وشبه الثعلب قفانة . ولا يتحرج كثيراً عن الاستبداد والتحكم . لم يباشر في قتال ولا اقدم على تدبير دون ان يستشير والدته »

استطاع ان يحافظ على الامن . ويحكم بالعدل ، ويؤمن تحصيل الضرائب القانونية^١ له وللسلطان .

وفي السنة التي تلت تنصيبه حاكماً على سورية ، نشبت بين رجاله وجيش مصطفى باشا والي دمشق ، معركة عند عنجر في البقاع وقع فيها الوالي اسيراً ، لكن فخر الدين اطلق سراحه فوراً^٢ . وتفرغ الامير ، في غضون السنين الاحدى عشرة التالية ، للعمل على تحقيق مطمحه الثالث ، وهو رفع المستوى الحضاري في لبنان . فاستقدم من ايطاليا مهندسين مدنيين ومهندسين للرعي وخبراء زراعيين ، استخدمهم في مشاريعه العامة والخاصة . واستدعى ، على ما في الوثائق ، ارساليات من توسكانيا لتوجيه الفلاح اللبناني في تحسين وسائل الحراثة . وارسل في طلب الماشية لتحسين الاصناف المحلية^٣ . وقد جعل بيروت وحصنها ، وبني لنفسه فيها مسكناً فخماً احاطه بمديقة غناء . وقد زار موندول^٤ هذه الحديقة سنة ١٦٩٦ ، فوجد فيها قواعد للتأثيل « بما قد يدل على ان هذا الامير لم يكن محمدياً غيوراً » . وله في صيدا قصر غير مكتمل البناء ، يقوم تجاه خان بني ليكون نزلاً للفرنسيين^٥ . وفي هذا العهد وفدت على صيدا ارسالية كبوشية انشأت لها مراكز في بيروت وطرابلس وحلب ودمشق ، وفي بعض قرى لبنان^٦ . ووفد ايضاً حوالي هذا الوقت على هذه البلاد ، المرسلون اليسوعيون والكرومليون^٧ . وقد شجع هجرة النصارى من شمالي لبنان الى جنوبيه ، رغبة منه في تنشيط الزراعة ؛ ورحب بتقديم اصدقائه الجنبلاطين من

(١) عرفت باللغة الدارجة بالميري اي : المال الاميري وهو ما وجب للحكومة .

(٢) الملفوف ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ؛ قابل : التوبسي ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) انظر Carali, vol. ii, p. 52 .

(٤) انظر Henri Maundrell, *A Journey from Aleppo to Jerusalem*, 8th ed., p. 54. (London, 1810) وقد نسب فولني في سياق حديثه رحلته ج ٢ ، ص ١٧٢ غرس حرج الصنوبر خارج مدينة بيروت خطأً الى فخر الدين والواقع انه كان قبل الحملات الصليبية . ولعله أعاد غرس المنطقة بالصنوبر .

(٥) راجع ص ٣١٩ من هذا الجزء . كان مقام اسلاف المنين في بعلقين ، والآثار التي خلفوها لا تزال هناك وفي دير القمر .

(٦) راجع Rabbath, vol. ii, pp. 464-72 ; vol. iii, pp. 464, 468, 473, seq.

(٧) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء .

حلب الى لبنان . وقرب منه الارساليات الاوربية ، والتجار والقناصل ، وكانوا يتمتعون بالامتيازات التي سمح بها سابقاً السلطان سليمان . ويبدو من تقارير القناصل انه كان يحمي التجار الاوربيين في صيدامن القرصان^١ . وكان له طيلة عهده مستشارون من الموارنة ، كان في مقدمتهم ابونادر الحازن ، وكان في الوقت نفسه قائداً لجيوشه . وقد رفع فخر الدين منزلة هذه الاسرة التي سبق لها ان حمته وربته بيتياً ، من مستوى العاديين من الناس الى مستوى المشايخ ، وذلك بأن وجه الى كبيروها رسالة خاطبه فيها بـ « الاخ العزيز » وهو مقتضى العرف السياسي (البروتوكول) لمنح المشيخة في ذلك العهد^٢ . وبفضل الحكم الوراثي الذي تولته هذه الاسرة في كسروان ، غدت هذه المنطقة المسيحية ذات حظ وافر من الازدهار^٣ . وقد كان العالم الكبير الحاقلائي مدة من الزمان عميلاً له في ايطاليا ، وقد اودع عن يده في مصرف فلورنسا اموالاً ؛ حاول بعض افراد ذريته ، بعد مضي قرن من الزمان ، ان يستردوها على يد عالم آخر هو السمعاني ، ولكن بلا جدوى^٤ .

ثم ان العطف الذي ابداه فخر الدين نحو النصارى جعل البعض ينسبونه الى النصرانية . فقد ذكر عنه ساندز^٥ انه « لم يعرف عنه قط انه كان يصلي . ولا رآه احد في مسجد » . اما دارقيو^٦ فقد اعتقد ان الامير كان على دين قومه « الذين لا دين لهم » ؛ ومن المحتمل انه كان هو وسائر المعنيين قد اعتنقوا الاسلام في الظاهر ، امام اصحاب السلطة من العثمانيين وامام جمهور الناس ، ولكنهم احتفظوا ضمناً بالدرزية ومارسوها مع ابناء قومهم . وفي وثيقة اخرى انه تنصر سنة ١٦٣٣ على يد كاهن كبوشي كان طبيبه الخاص^٧ .

(١) انظر Berchet, p. 163

(٢) الملووف ، ص ٧١ .

(٣) شنياق ، ص ٨٥ .

(٤) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء . وكذلك Carali, vol. i, pp. 402-3.

(٥) Carali, vol. ii, pp. 315-18, 378-88.

(٦) Sandys, p. 210.

(٧) d'Arvieux, vol. i, p. 367.

(٨) انظر Carali, vol. ii, pp. 340 seq. وقد وجد ، في ما ذكره ، صليب في اثوابه عند موته ؛ الملووف ، ص ٢٧٥ ؛ قابل : F. Wüstenfeld, *Fachr ed-Din der Drusenfürst und seine Zeitgenossen* (Gottingen, 1836), pp. 167-3.

واشتغال الامير بالتدابير الاجتماعية والاقتصادية لم تصرفه عن الاهتمام بمجاهات امارته العسكرية . فقد كان الدخل الحاصل من زيادة الحركة التجارية ، لاسيما في مرافئ طرابلس وصيدا ، يني بالغرضين معاً . وكانت غراسة شجر التوت آنذاك في عهد ازدهارها . وقد قدر الدخل السنوي في امارته بتسع مئة الف ذهبية ، كانت حصة الخزينة الامبراطورية منها ثلاثاً واربعين الفاً . فاستقدم من تسكانيا لوازم حديثة جهازها جيشاً تراوح عدده بين الاربعين الفاً والمئة الف رجل ، جلهم من المواردنة والدروز . وعمل على تجديد بعض الحصون القديمة ؛ ولا يزال احد قصوره يعلو رابية في تدمر ويحمل اسمه الى اليوم . على ان هذه الزيادة النسبية في التسليح ، واتصال مفاوضاته مع الاوربيين ، وعطفه على التصاري ، اثارت مرة اخرى ظنون السلطان نحوه ، فأمر السلطان مراد الرابع واليه في دمشق كوتشك احمد باشا سنة ١٦٣٣ ، بالتوجه لقتال فخر الدين على رأس جيش كبير من جنود اناضوليا ومصر . وقام في الوقت نفسه اسطول ، بامرة جعفر باشا ، بهجمة المرافئ والحصون الساحلية . وعندها اخذ اتباع فخر الدين من آل سيفا وحرفوش ومن اليمانيين يتفرقون عنه . وسقط ابنه الباسل علي صاحب صفد شهيداً في معركة جرت قرب وادي التيم ، عند سفح جبل الشيخ^١ . وارسل الامير في طلب العون من احلافه الايطاليين لكنه لم يظفر منهم بطائل . فاختبأ في قلعة نيجا بضعة اشهر ، ثم تحول الى كهف حصين في جبل قرب جزين . لكن مخبأه هذا لم يلبث ان اكتشف واقتيد الامير مكبلاً بالسلاسل مع ثلاثة من بنيهِ الى القسطنطينية (حوالي ١٠ شباط ١٦٣٥)^٢ . على انه استطاع بدلاقة لسانه ان ينجو من الموت — كما نجت من قبل اماره جده^٣ — ولكن الى حين قصير ، فقد دافع امام السلطان عن نفسه قائلاً .

انني مظلوم فاجت الرجال الا بامر الوزراء والنواب ، ولم ابنر القلاع الا للدفاع عن حوزة البلاد ، وما قتلت الا الذين مرقوا من طاعة الدولة . فاستوليت على حصونهم لاسلها الى الحكومة العثمانية ، وامننت طريق الحجاج بمنع العرب من التمدي عليهم ، واديت الاموال الاميرية بلوقاتها ، وايدت الشريعة الشريفة عافظاً على قوانينها وسنها (٤) . . .

(١) المحي ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) الويسي ، ص ٢٠٤ - ٥ ؛ شدياق ، ص ٣٣٠ - ٣٥ ؛ الملوفا ، ص ٢٧٢ - ٨٢ ؛ Carali, vol. ii, pp. 340-56.

(٣) راجع ص ٣٠٨ و ٣٠٩ من هذا الجزء .

(٤) الملوفا ، ص ٢٧٣ ؛ قابل : شدياق ، ص ٣٣٦ .

وبقي مصير الامير المنفي معلقاً حتى بلغ الباب العالي ان اقرباءه واتباعه قد
تردوا على السلطة الجديدة التي اقامها . وفي ١٣ نيسان سنة ١٦٣٥ احتز رأسه
ورؤوس بنيه الثلاثة الذين كانوا قد اعتقلوا معه ، وعرض جسده في احد المساجد
ثلاثة ايام^١ . وهذا الحكم الذي راوده بانشاء « لبنان اكبر مستقل » ونجح في وضع
اسسه ، حاول تحقيقه ثانية احد افراد ذريته . الامير بشير الشهابي^٢ . الا ان هذا
الحلم لم يتحقق كاملاً حتى سنة ١٩٤٣ .

عهد من القوضى

وعلى اثر ازالة فخر الدين من المسرح السياسي . طرأ على لبنان عهد مشؤوم
من القلق والقوضى ؛ اذ عمد علي علم الدين^٣ وهو الحاكم الذي عينه كوتشك احمد
باسم السلطان على لبنان الجنوبي - الى اتباع سياسة موالية للسلطة ، فاحتجز
بمتلكات المعنيين وعمل على اضطهادهم . وفي مأدبة اقيمت في عييه على شرفه ، انقض
رجال على مضيفيهم من آل تنوخ وامعنوا فيهم تذييحاً . ثم لاحقوا الغائبين منهم
وحملوا عليهم حتى ابادوا الاسرة بجمليتها^٤ . وترغم المعارضة على الاثر ابن اخ لفخر
الدين^٥ هو ملحم بن يونس ، وكان قبل ذلك يحاول الاستيلاء على الحكم في المنطقة .

(١) Carali, vol. ii, pp. 355-6

(٢) انظر ما يلي في هذا الفصل « أحد بناة الجزار » .

(٣) يتعدر آل علم الدين اصلاً من التتوحيين وعليه ترعوا حزب البنية وكانوا على ذلك خصوصاً
لانسائهم القيسية ؛ شدياق ، ص ١١٤ .

(٤) حيدر ، تاريخ ص ٧١٩ ؛ شدياق ، ص ١١٤ - ١٥ (وهذا الرقم مكرر في النص
الذي اعتمدنا عليه) .

(٥) شكل شجري للاسرة المعنية .

١ . فخر الدين الاول (ت ١٥٤٤)

٢ . قرقاز (قرقاس ، ١٥٤٤ - ٨٥)

٣ . فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥)

يونس

٤ . ملحم (١٦٣٥ - ٥٧)

٥ . احمد (ت ١٦٩٧)

وقد ظفر في استعادة سلطة مزرعة الاركان تحت رقابة عثمانية شديدة اليقظة والحذر. وانتقل الحكم من بعده الى ابنه احمد الذي توفي بلا عقب يخلفه، فكان بذلك انقراض الاسرة المعنية .

الشهابيون يخلفون المعنيين

وفي سنة ١٦٩٧ عقد اعيان لبنان مؤتمراً قومياً في السمقانية قرب بعقلين ، وانتخبوا الامير بشير الشهابي من ابناء راشيا حاكماً عليهم ؛ وارسلوا بقرارهم هذا الى والي صيدا ، مؤكدين انهم يؤدون عن يده الرسوم القانونية ، وكان بعضها ، في ما يبدو ، لا يزال ديناً له عليهم^١ . فتزعة اللبنانيين الى الحكم الذاتي ، والحالة هذه ، لم تكن قد ماتت فيهم تماماً . ولما كانت تركيا بالذات مهددة بالزوال من جانب الدول الاوربية ، فقد قنعت بهذا التديبر ، ما دام وصول الرسوم اليها مؤمناً .

تسلم الشهابيون تراث المعنيين السياسي ، وقبضوا على زمام الحكم حتى سنة ١٨٤١ ، جارين على الاساليب التقليدية المعروفة : من رشوة الموظفين العثمانيين ، والانتفاض على ضعفاء السلاطين ، واثارة الزعماء والاحزاب كل واحد على الآخر ، مؤمنين بذلك استمرار سيطرتهم على الجبل . على انهم لم يعتنقوا المذهب الدرزي الذي كان عليه اتباعهم ، وان كان جمهور الدروز قد ظن ذلك في بعضهم . وهذه القرون التي قضاها الساسة اللبنانيون في اصطناع سياسة الحذر والتحفظ اكسبتهم براعة فائقة في ممارسة المداينة ، وضروب المجاملة والتملق .

وبناء على توصيات حسين - وهوا بن لفخر الدين ارسل صغيراً الى القسطنطينية « وتعثن » ، ثم عين سفيراً لبلاده في الهند - وقع الاختيار على بشير^٢ ليكون وصياً على الامير حيدر الشهابي الحاصباني ابن بنت احمد معن ، ريثما يبلغ اشده . وقد تميزت اماره حيدر (١٧٠٧ - ١٧٣٣) بقضائها على حزب اليمنية قضاء مبرماً في معركة عين دارة سنة ١٧١١^٣ . على ان بعض فلول العصاة هاجروا الى

(١) حيدر ، لبناني ، ص ٣ - ٤ ؛ شدياق ، ص ٣٥٨ - ٥٩ ؛ الملووف ، ص ٤٠١ .

(٢) يسمى عادة بشير الاول تمييزاً له عن خلفه الشهير بشير الثاني ؛ انظر الشكل الشجري التالي في هذا الفصل .

(٣) شدياق ، ص ٣٦٤ - ٦٥ .

حوران، وانشأوا هنالك جالية درزية جديدة^١. ثم تعقب الحيدريون مناوئهم من آل علم الدين وابادوم. ونظراً لما ابداه آل ابي الملع من البسالة في القتال رفعوا الى مصاف الامراء^٢. وتسمى حيدر، بعد ان تم له سحق اليمينية، ان يعيد تنسيق الصلات الاقطاعية مع احلافه - آل جنبلاط وابي الملع والحازن - في ما يتعلق بالادارة العليا. فرتب على آل ارسلان اليمينيين ان يجعلوا لآل تلحوق^٣ سهماً في اقليمهم. وعمد ابنه وخليفته ملحم (١٧٣٢ - ٥٤) الى اضافة البقاع وبيروت الى ممتلكاته، لكنه ابقى قاعدته في دير القمر. وتأقن عن هذا التوسع اصطدامه بوالي صيدا ووالي دمشق، وكلاهما من آل العظم^٤. وادى سحق اليمينيين الى قيام وضع جديد في سياسة الاحزاب اللبنانية، هو انقسامها الى جبهتين: آل جنبلاط، وآل يزبك؛ وكان بنو جنبلاط قد اصبحوا من اقوى الاسر الدرزية واوفرها ثروة. اما آل يزبك فقد تحدر اليهم هذا الاسم من زعيم لهم من آل عماد، وهم كذلك اسرة درزية جاءت اصلاً من منطقة الموصل^٥. وقد اتسع هذا الانقسام حتى تخطى الطبقة الارستقراطية وتسرب الى الموارنة. وهذا النزاع الذي نشب بين الاسر في العقود الاخيرة من القرن الثامن عشر، استمر ناشطاً حتى العقود الاولى من القرن العشرين. وقد تنازل ملحم عن الحكم سنة ١٧٥٤، وتنازع اخواه على الامارة من بعده، فمال احدهما - وهو منصور - نحو آل جنبلاط، وآثر الآخر - وهو احمد - الانحياز الى آل يزبك. واحدهما هو والد المؤرخ حيدر، الذي اعتمدناه غير مرة في هذا الفصل. واستمرت فترة الاضطرابات الداخلية حتى بلغ يوسف بن ملحم اشده، وتولى الامارة بنفسه^٦. ففي سنة ١٧٧٠ اعلن منصور، في

(١) راجع ص ٤٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب.

(٢) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء، ج ٢.

(٣) راجع ص ٣٢٦ من هذا الجزء، ج ٢.

(٤) حيدر، لبنان، ص ٣٧، ٤٠.

(٥) راجع ص ٣٠٨ من هذا الجزء.

(٦) شدياق، ص ١٦٢ وما بعد (وقد تكرر هذا الرقم في صفحات اخرى من النص).

(٧) كان الوصي عليه سعد الحوري، وهو ماروني من رثيا تحدر من اسرة تولى منها اثنان رئاسة الجمهورية اللبنانية؛ حيدر، تاريخ ص ٧٨٣؛ شدياق، ص ٣٧٧. وقد رفع يوسف هذه الاسرة الى مرتبة الشيخة؛ حيدر، تاريخ ص ٨٤٩.

اجتماع قومي عقد في الباروك ، ان العناء قد اقعده عن القيام باعباء الحكم . وانه يود ان يتنازل عنه لابن اخيه يوسف . وعلى الاثر نودي بيوسف حاكماً على الجبل^١ ، وارسل بذلك علم الى والي دمشق . وكانت المنطقة الداخلة في حكمه تمتد من طرابلس الى صيدا .

الشيخ ظاهر العمر

كان قد برز على المسرح السياسي في هذه الاثناء رجلاً آخران شاركهما الامير الشهابي في شيء من مجده ، هما : ظاهر العمر ، واحمد الجزار . وبظهورهما اخذت فلسطين في منافسة لبنان على المقام الامامي في سياق الاحداث التاريخية ، في حين بقيت حلب ودمشق متخلفتين . ويغلب على الظن ان السكان ، الحضريين والريفيين ، في هاتين المدينتين وضواحيهما ، كانوا قليلي العدد ضعاف النفوس .

وحوالي سنة ١٧٣٧ ظهر على المسرح السياسي شاب بدوي اسمه ظاهر العمر (آل عمر) ، كان الامير بشير الاول قد عين اباه شيخاً ، والحقه بحاكم صفد . ذلك ان ظاهراً هذا ظفر بضم طيرة الى منطقة صفد^٢ ، وعقد العزم على الاستعانة بالشيعة في الجليل الاعلى وهم الذين تحملوا طويلاً ظلم الموظفين الاتراك ، لتحرير المنطقة من حكمها . فكانوا على اتم الاستعداد لتأييد اي زعيم يعمل على تحريرهم . ولم تلبث نابلس والناصرة ان خضعتا له : وكانت الغنيمة الكبيرة التالية ، التي وقعت في يده ، مدينة عكا (١٧٥٠)^٣ ؛ وكانت في حالة من الدمار الجزئي منذ عهد الصليبيين ، فحصنها المغتصب الجديد وجعلها مقره ، واستخدمها لتصدير الحرير والقطن والقمح ، وسواها من منتجات فلسطين ، الى الاسواق الخارجية .

كان ظاهر العمر حاكماً مطلقاً ، لكنه كان محباً للخير . قطع دابر التمرد ، ونشط الزراعة ، ووقف من رعاياه التصاري موقفاً سمحاً . وقد ذكر مدون سيرته^٤ ، نقلاً

(١) حيدر ، تاريخ ص ٨٠٧ ، شدياق ، ص ٣٨٦ - ٨٧ .

(٢) انظر Volney, vol. ii, p. 85 ؛ شدياق ، ص ٣٦٠ ؛ حيدر ، تاريخ ص ٨٠١ ؛ ميخائيل الصباغ (المكاوي) تاريخ الشيخ ظاهر العمري الزيداني نشر قسطنطين الباشا (حريصا) ص ٣٣١ - ٣٣ ؛ لكن التواريخ غير مضبوطة

(٣) انظر Volney, vol. ii, p. 87 ؛ الصباغ ، ص ٤١ - ٤٤ .

(٤) الصباغ ، ص ٤٨ .

عن شاهد عيان ، انه كان يوماً ماراً على حصانه بالقرب من كنيسة مريم العذراء في الناصرة ، فترجل عن جواده وركع ونذر ان ينير مصباح زيت في الكنيسة ، ويبقيه متقدماً ، ان هو حالقه النصر ؛ « وكانت البلاد براحة واطمئنان والطريق بامان بحيث اذا سافرت المرأة وعلى كفها الذهب لا يعترضها احد في الطريق ، ولا تخاف على نفسها امرأاً^١ وكان يقوم بتأدية ما عليه من المال الى الحكومة العثمانية بكل دقة وانتظام ، اذ كان واثقاً من ان الحكومة قلما اهتست في من يكون عميلها - تركياً ام عربياً - ما دام المال المستحق يؤدي في حينه .

وكانت تركيا في هذه الآونة قد اشتبكت بنزاع مرير مع روسيا ابان ولاية كاترين . وكانت هيتها في الشرق اطلاقاً آخذة في الزوال . فبلغت الجراءة من علي بك في مصر ان تحدى السلطان بارسال عامله الي الذهب^٢ لبستولي على دمشق ، وعلى سواها من مدن سورية ، فتم له ذلك سنة ١٧٧١ . وعقد ظاهر محالفة مع علي بك الذي كان عازماً على احياء عهد المماليك البائد . وتمكن ظاهر بمساعدة الروس من احتلال مدينة صيدا^٣ ١٧٧٢ ، بعد ان خربها اسطولهم . ثم تحول الروس الى بيروت وخربوها وانتهبوها . اما يوسف شهاب فانه حالف والي دمشق لاختاد الفتنة الجديدة ، وجاءهما من القسطنطينية عمارة من الاسطول التركي على سبيل النجدة ، تمكنت بمساندة القوى البرية من احتلال صيدا سنة ١٧٧٥ ، ومحاصرة ظاهر في قاعدته الحصينة . ولئن كانت قذائف الاتراك لم تفعل فعلها في اسوار عكا ، فان ذهبهم فعل فعله في حاميتها ، التي اوردت ظاهراً حتفه . وقد كان في الجيش السوري الذي دافع عن صيدا في وجه ظاهر واحلافه الروس رجل قام بمغامرات تضاءلت عندها مغامرات ظاهر ، هو احمد الجزائر .

احمد باشا الجزائر

كان احمد هذا نصرانياً بالولادة من ابناء بوسنيا . اُقترب وهو صبي جرمياً اخلاقياً ، فر على اثره الى القسطنطينية ، وباع نفسه الى نخاس يهودي . وانتهى امره

(١) الصباغ ، ص ٥٥ .

(٢) كان مملوكاً لعلي وكان من السخاء في توزيع الهدايا بحيث كسب هذا لقب ؛ الجبرتي ، ج ١ ، ص ٤١٧ .

(٣) الصباغ ، ص ١١٥ ؛ شتيق ، ص ٣٨٩ ؛ حيدر ، لبنان ص ٩٣ .

بعدئذٍ الى علي بك في القاهرة فعينه جلاداً . وقد اظهر احمد من التفنن في انفاذ مهمته ، والرغبة في القيام بها ، ما اكسبه لقب «الجزار» . وكان شديد الافتخار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على ان يكون جديراً به ، وقد كان به جديراً . ثم توجه الى سورية ، حيث ادى خدمات عسكرية جلي للدولة ضد الظاهر ، كوفي عليها بتعيينه حاكماً على صيدا^١ . وقد استولى على بيروت حيناً من الزمان ، لكنه رفض الاقرار بسلطة يوسف . وكان سكان بيروت آنذاك ، على ما ذكر ثولني^٢ ، اذمر فيها ، نحواً من ستة آلاف .

وامتد سلطان الجزار جنوباً ، وحل محل الامير ظاهر في عكا . وقد عمد الى تدعيم حصون المدينة ، وسخر من اجل ذلك رجال القرى المجاورة ، وبنى اسطولاً صغيراً ، وانشأ من ابناء بوسنيا والبنانيا فرقة من الحيلة عددها ٨٠٠ فارس ، ومن المغاربة جيشاً من المشاة عدده الف جندي . واستطاع ، باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته ، ان يغطي جميع النفقات الضرورية ، وان يعيش برغد ورفاهية . ولا يزال المسجد الكبير الذي بناه في عكا ماثلاً للعيان . ثم ان طموحه حمله الى ما وراء فلسطين والساحل اللبناني ؛ ففي سنة ١٧٨٠ تسلم براءة بتعيينه والياً على دمشق . وظل بعد ذلك نحواً من ربع قرن يمارس النيابة الفعلية عن السلطان ، ويتصرف بشؤون لبنان كما يهوى . وقد انتهى عهده الذي لم تكدره نكسة ذات بال ، بالموت الطبيعي سنة ١٨٠٤ ، وترك لهذه الحقبة سجلاً منقطع النظير في التاريخ . ذلك ان الاتراك كانوا منهمكين في مناضلة عدو جديد قوي ، برز لهم في جزيرة العرب ، هو قائد الحركة الوهابية .

بلغ الجزار اوج مجده سنة ١٧٩٩ ، على اثر فوزه بايقاف زحف نابوليون . وكان الفاتح الفرنسي قد استولى على مصر ، وسار منها ظافراً على ساحل فلسطين ، حتى بلغ ابواب عاصمة الجزار ، على أن الجزار استطاع ، بمساعدة الاسطول الانكليزي ، المعقود اللواء للسردني سميت ، ان يصمد في الدفاع عن المدينة من ٢١ آذار حتى ٢٠ ايار ؛ وعندها اضطر نابوليون الى ان ينسحب ، إذ كان الطاعون

(١) حيدر، تاريخ ص ٨١١ ، ٨٢٧ .

(٢) Volney, vol. ii, p. 170

قد أخذ يفتك بجيشه . ولا تزال لوحات المدافن على جبل الكرمل تحمل اسماء الضحايا الفرنسيين الى الآن .

وقد عمد امير عكا وحاكمها المقتصب الى القضاء على خصومه ومنافسيه بلا رحمة ولا شفقة . ثم تحول إلى انصار سلفه ، من الشيعة وقبائل البدو ، وعمل على سحقهم



احد باشا الجزائر حاكم عكا يقضي على احد المجرمين

ونشر الرعب في سورية ولبنان بوجه الاجال . ولا يزال اسمه في هذه الاوساط مرادفاً للقسوة البالغة . وقد ذكر مواطن من مؤرخي هذه الحقبة ، هو ميخائيل مشاققة^١ ، ان جده الذي كان موظفاً في الحكومة ، شاهد يوماً اكثر من اربعين رجلاً يصفون خارج اسوار المدينة ، لينفذ فيهم حكم الاعدام باخازوق . وان آخر اربعة منهم نجوا لدى توسط الموظف المذكور . وقد اورد المؤرخ نفسه ان الجزائر ، إذ ارتاب يوماً بتصرف حريمه ، وعددهن ٣٧ امرأة ، أمر خصيانه فجزّوهن واحدة

(١) ميخائيل مشاققة ، مشهد العيان بمجاذب سورية ولبنان ، نشر ملحق عبده وانواروس شخاشيري (القاهرة : ١٩٠٨) . وهو مرجع هام لكنه منشور نثراً سلباً .

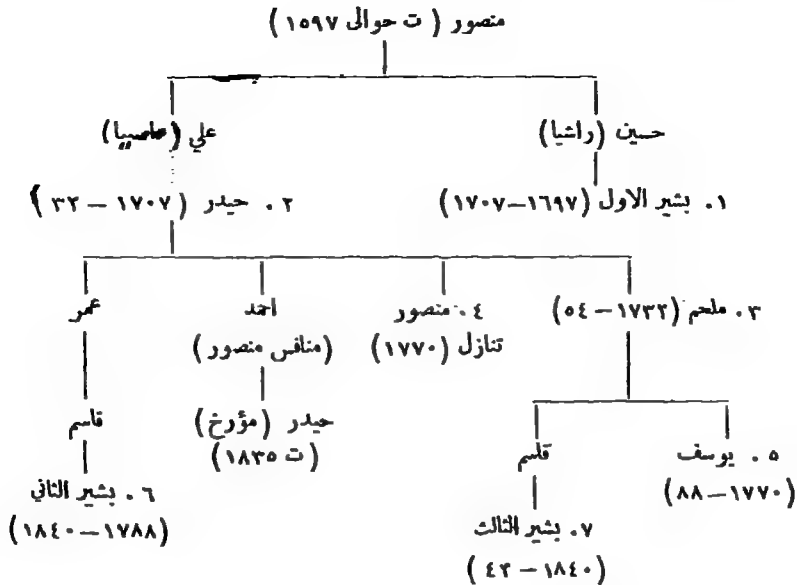
واحدة وألقوا بهن فوق كومة من الحطب، أضرمت فيها النار فاحترقن جميعهن^١. وقد كان شأنه في لبنان ان يثير فئة على اخرى. فوالى آل جنبلاط على أثر معركة قب الياس التي قهر بها يوسف سنة ١٧٨٨، ودعا الناس إلى انتخاب بشير الشهابي^٢، وأمر بيوسف فشتق في سجن عكا^٣. وقد ذكر قولني^٤ ان الكثير من الامر المسيحية اخذت في هذه الاثناء بالزواج «يومياً» من سورية الى لبنان، فراراً من حكم الاتراك.

الامير بشير الثاني

كان حكم الامير بشير على جبل لبنان في اول الامر حكماً مزعزغاً. فقد كان ابنا سلفه يوسف ناشطين في نصب المكابذ له، وحوك المؤامرات ضده. وكان سيده الجزار قد اخذ في الانقلاب عليه، لأنه تخلف عن مساعدته في نزاعه مع نابوليون.

(١) مشافة، ص ٥٤

(٢) شكل شجري للشهابيين :



(٣) راجع حيدر، تاريخ ص ٨٥٦؛ مشافة، ص ٤٦؛ شلياق، ص ٤١٩ - ٢٠، ٢٧.

(٤) Volney, vol. ii, p. 68.

واذا اضطرّ الى التخلي من منصبه ، فرّ إلى قبرس سنة ١٧٩٩ ، على إحدى بوارج سدي سميث^١ ، وأصبح الانكليز من ثم أصدقاء له .

وبعد غياب بضعة اشهر عاد ليقهر خصومه المحليين ويثبت حكمه في المنطقة . وعهد الى ابني يوسف فسمّل منها العيوت قبل ان عاقبها بالموت . ثم ضم البقاع ثانية الى لبنان ، غير عاينى بمعارضة والي دمشق . وغدت سياسته نحو الاتراك ، بعد الآن سياسة حزم وصداقة . ففي اوائل سنة ١٨١٠ ، عندما انطلق الوهابيون من نجد ، واجتاحوا الحدود السورية ، وهددوا عجلون وجنوبي حوران ، كان الامير بشير مع ١٥ الف من رجال لبنان على استعداد لردم على اعقابهم^٢ . وبعد ان ظفر بمهمته هذه توجه على رأس جنده في زيارة الى دمشق . ولم يعد بعد ذلك زعيماً اقليمياً ، بل ساهم في معالجة الشؤون السورية ، وفي النزاع الذي نشب بين والي دمشق وبين منافسه والي طرابلس . لكن هذه المساعي أدت إلى إبعاده (١٨٢١ - ٢٢) هذه المرة إلى مصر^٣ . وهناك أنشأ صداقة متينة مع محمد علي نائب السلطان في مصر ، ومؤسس السلالة المالكة فيها .

وبعد ذلك ببضع سنوات جرد محمد علي حملة على تركية عبر الاراضي السورية ، فوقف الامير بشير الى جانبه . وكان حاكم مصر قد توقع الحاق سورية على الأقل بامارته - وذلك في مقابل الخدمات التي أداها للسلطة التركية في ميدان القتال اليوناني ، حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله ، وفي ميدان الجزيرة العربية حيث قهر الوهابيين - لكن آماله ذهبت هباء منثوراً . وقد انتظم الجنود اللبنانيون الى جانب زملائهم المصريين في حصار عكا سنة ١٨٣١^٤ . وغدت مهمة ابراهيم باشا ابن محمد علي ، قائد الحملة المصرية ، بفضل تعاون الامير بشير معه ، مهمة سهلة نسبياً . فتمكن ابراهيم باشا من الاستيلاء على دمشق ، وهزم الجيش التركي في حصص ، وعبر جبال طوروس ، واولغل في قلب بلاد الترك ، وكاد ينزل الضربة القاضية «برجل

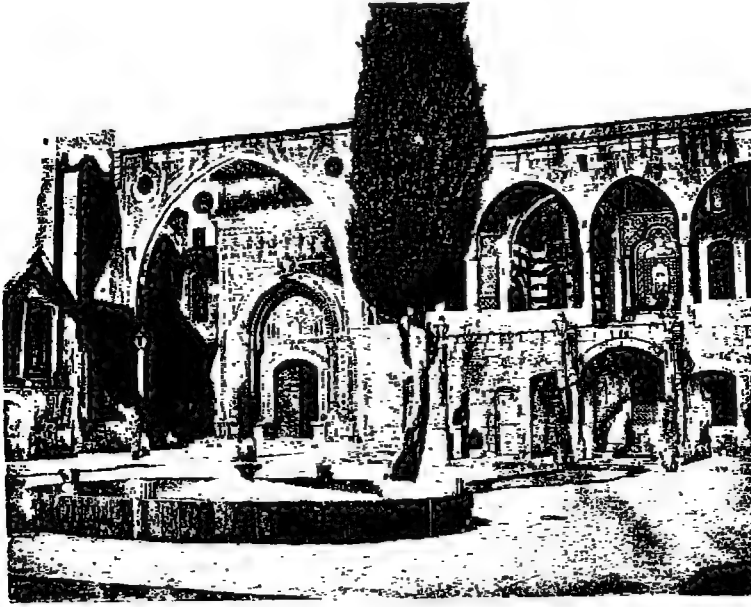
(١) حيدر ، لبنان ، ص ٢٠١ وما بعد .

(٢) حيدر ، لبنان ، ص ٥٥٦ - ٥٧ .

(٣) حيدر ، لبنان ، ص ٧٢٤ - ٢٨ .

(٤) مشاقة ، ص ١٠١ ؛ شلياق ، ص ٥٦٧ - ٦٨ ؛ حيدر ، لبنان ، ص ٨٣٢ وما بعد .

اوربا المريض^١ . لكن بريطانيا والنمسا وروسيا اضطرتة الى الانسحاب . وقد انقضى حكمه في سورية سنة ١٨٤٠ ، وغدا مطمح محمد علي في إنشاء امبراطورية تجمع البلدان العربية تحت حكمه حلمًا من الاحلام ؛ إذ لم يكن لمثل هذا الوضع السياسي صورة في خواطر الناس^٢ . وبعد ذلك بنحو من خمس وعشرين سنة ، راود هذا الامل عاهلاً آخر هو الشريف حسين صاحب مكة ، لكن حلمه كان ايضاً سابقاً لأوانه . وبعد ما نجح الاتراك باقصاء ابراهيم باشا ارسلوا في طلب الامير بشير



قصر الامير بشير الثاني في بيت الدين

ليناقشوه الحساب . لكن سفينة انكليزية حملته في اوائل خريف سنة ١٨٤٠ الى مالطة^٣ . ثم سمح له بالتوجه الى القسطنطينية ، وهناك توفي سنة ١٨٥٠ . وفي تشرين الاول سنة ١٩٤٧ تم نقل رفاتة الى القصر الفخم الذي اقامه في أيام عزه في

١ لقب اطلقه على قصر روسيا نقولا الاول سنة ١٨٥٣ .

٢ قابل : أسد رستم Asad J. Rustum, *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expédition to Syria* (Beirut, 1936), pp. 47, seq., 83 seq.

٣ مشافة ، ص ١٣٢ - ٣٤ ؛ شلياق ، ص ٦٢٠ - ٢١ .

قرية بيت الدين . وليس في لبنان دارة اخرى تضاهيه روعة وفخامة . فقد جرّ الامير اليه المياه بقناة طولها تسعة أميال ، من منابع عين زحلنا التي تغذيها الثلوج والأمطار من التلال الحافلة بأشجار الارز . ولم يكن لبنان في عهد الامير بشير أقل ازدهاراً منه في عهد فخر الدين ؛ فقد اهتم الامير بشير ببناء الطرق وترميم الجسور ، ووجه بيروت في الطريق التي اوصلتها الى ماهي عليه اليوم ، إذ غدت الباب المؤدي الى لبنان وسورية . فقد كان المعنويون والشهابيون يتعاشون هذه المدينة لأسباب منها انها كانت معرّضة لغارات القرصان ولحملات سواهم من المناوئين ولم يكن كفاح فخر الدين والامير بشير من اجل لبنان مستقلٍ فحسب ، بل من أجل لبنان كبير ايضاً ، يضم فضلاً عن الجبل نفسه المدن الساحلية والسهل الشرقي وقد عمل كلاهما على تنشيط العلاقات التجارية الخارجية ، ورحبا باللاجئين السياسيين واهتماً بالأقليات الدينية . فقد آوى الامير بشير عدداً من الاسر الدرزية المهاجرة من حلب ، واكرم وفادة جماعة من الروم الكاثوليك . وكان الامير الشهابي ، بخلاف سلفه المعني السمع الصورة ، ذا ملامح مؤثرة واضحة : فعيناه النسريتان ، وبحياه التمري ، ولحيته المموجة ، كانت جميعها توحى الحشية وتقترض الهيبة . وكان بلارب مسيحياً ، لكنه رأى من حسن الدراية كتمان ايمانه . وكان ابوه اول شهابي تحول عن الاسلام الى المذهب الماروني . ولئن كان فخر الدين اول لبناني حديث ، فان الامير بشير كان الثاني . وقد جرى الامير الشهابي في تراث زميله المعني ، لكنه جرى فيه الى غاية ابعده ، وفتح فيه مجالاً ارحب للحضارة الاوروبية ، لاسيما المؤثرات التربوية . ويعرف الامير بشير بين قومه ببشير الكبير ! وقد غدا اسمه ذا طابع اسطوري في الحكايات المحلية الريفية . ولا تزال النوادر التي تمتدح عدله وحزمه وحكمته وقدرته تحكى وتعاد في حلقات السر حول مواعد النار الى اليوم .

وفي سنة ١٨٤٠ عين امير آخر اسمه بشير^١ حاكماً على لبنان . وكان بشير هذا قد ساهم في ثورة اللبنانيين على ابراهيم باشا ، عندما حاول ان يجردهم من السلاح ويفرض عليهم الضرائب الثقيلة^٢ . ثم تعاون مع العثمانيين والانكليز على اخراج

(١) راجع الشكل الشجري لنسب الاسرة الشهابية في ص ٣٤٠ من هذا الجزء .

(٢) راجع بشأن منشور العصاة ، فيليب وفريد الحازن ، مجموعة المحررات السياسية ، ج ١ ، (جولية ، ١٩١٠) ص ٣ - ٥٥ .

الباشا من البلاد. وكان العثمانيون يجرّون في إدارتهم على النظام المركزي الذي وضعه السلطان محمود «المصلح»، وقد اقتنعوا الآن، أكثر منهم في أي وقت مضى، بأن الطريقة الوحيدة لتوثيق سيطرتهم على الجبل، إن يبدروا بذور الخلاف بين سكانه النصارى والدروز، ويشيروا النزاع في ما بينهم. وقد كان الانقسام في الجبل حتى هذا الوقت - كما سبق وقلنا^١ - يشطر الملل إلى جبهتين متقابلتين هما: القيسية واليمنية، أو اليزبكية والجنبلاطية. واذ نشأ الخلاف المدني ما بين النصارى والدروز على هذه الصورة، بدأ النزاع سنة ١٨٤١، وبلغ أقصى العنف في مذبحه سنة ١٨٦٠، لينتهي بالتدخل الأوربي^٢. ذلك أن جيشاً فرنسياً احتل لبنان ومكث فيه مدة سنة. وقد قدر عدد النصارى الذين أيدوا سنة ١٨٦٠ بأحد عشر ألفاً، والذين قضا جوعاً بنحو أربعة آلاف^٣.

استقلال لبنان بضمانة دولية

وبمقتضى النظام الاساسي الذي وضع سنة ١٨٦١، وعدل سنة ١٨٦٤، منح الجبل حكماً ذاتياً على أن يتولاه حاكم عام مسيحي يعرف بالتصرف، يعينه الباب العالي ويحظى بموافقة الدول الداخلة في الميثاق^٤. وكان هذا الحاكم المنفذ يعين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، يساعده مجلس اداري منتخب، مؤلف من اثني عشر عضواً، يمثلون الملل الدينية المختلفة. وبلي الحاكم سبعة مدبرين (قائم مقامين) يتولون ادارة الاقاليم السبعة التي كانت تؤلف متصرفية جبل لبنان، بعد أن سلخت عنه بيروت وصيدا ووادي التيم وشرقي البقاع. وقد مارست الحكومة نظامها القضائي الخاص، وجندت قوى الامن من ابنائها: ولم تنشأ فيه مراكز للجيش

(١) راجع ص ٣٣٤ من هذا الجزء.

(٢) انظر William Miller, *The Ottoman Empire and its Successors, 1801-1927* (Cambridge, 1936), pp. 306-300; J. F. Scheltema, *The Lebanon in Turmoil* (New Haven, 1920) هو ترجمة غير مضبوطة لأصل عربي وثيق.

(٣) انظر Colonel Churchill, *The Druzes and the Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860* (London, 1862), p. 219. قابل: خازن ج ٢، ص ٩٩.

(٤) اضيف إلى موقعي ميثاق ١٨٦١ الذين مثلوا انكارتا وروسيا وبروسيا وأستراليا، ممثل عن إيطاليا سنة ١٨٦٧. انظر Thomas E. Holland, *The European Concert in the Eastern Question* (Oxford, 1885), pp. 210-18.

التركي، ولا ارسلت شيئاً من الضرائب الى القسطنطينية ، ولا كلفت رعاياها بالخدمة العسكرية .

ومع ان جبل لبنان المستقل هذا قد سلب بعض المناطق الحساسة التي تقع داخل حدوده الطبيعية ، فانه افتتح عهداً من الاستقرار والازدهار النسبي قل ان يراه فيه قطر آخر من اقطار الامبراطورية ؛ فشقت فيه الطرق . ونجولت قراه المرتفعة الى مصايف مقصودة ، وبني فيه خط ضيق ربط بيروت بدمشق . وهكذا فان العقبان التي عاناها اهل عبر العصور ، وهي صعوبة المواصلات الداخلية ، التي تعذر معها تكوين دولة متحدة ، بدأت الآن في ان تقهر . وكانت هذه المصايف تعتمد في ازدهارها على ما جلبتها به الطبيعة من ضروب الجمال الساحر والمشاهد الخلابة . واستعاض لبنان ، ولو جزئياً ، عن قلة موارده الطبيعية بالتسهيلات التي سنحت له عن طريق نشاط التجارة البحرية . وكانت قلة هذه الموارد حافزاً جعل من ابناؤه ، كما جعل من اسلافهم من قبل ، اشهر التجار والمستعمرين في الشرق الادنى . وشاع على الاثر قول مأثور مؤداه : هنبئاً لمن كان له مرقد عزرة في جبل لبنان . وتجلى هذا الازدهار في ازدياد عدد السكان . لا سيما النصارى منهم ، حتى انهم التمسوا مخرجاً من ازدهارهم بالمجرة ، اذ كانت خصوبة نسايتهم على العكس من عقم اراضيهم^١ . وما استهل العقد الثامن من القرن الماضي حتى كان المهاجرون اللبنانيون قد انشأوا مواطن جديدة لهم ولعالمهم في مصر واميركا واستراليا ، وانحاء اخرى من العالم المتمدن . وقد قدر المتحدرون من اصل لبناني في الولايات المتحدة وحدها اليوم بما لا يقل عن ربع مليون^٢ .

وقد دشّن عهد المتصرفية بمتصرف قادر من الطبقة الاولى هو داود باشا ، فقد حاول ان يعيد الى لبنان جانباً من الاراضي التي سلخت عنه ، وساعد على فتح مدرسة للدروز في عبيه ، لا تزال الى اليوم تحمل اسمه « الداودية » ، وقاوم الاسراء الاقطاعيين في الجنوب ، والكتلة الاكليريكية في الشمال . وكان يتزعم هذه الكتلة

(١) Miller, p. 300

(٢) قابل : Cf. Arabic-Speaking Americans (Institute of Arab American Affairs) : ٤ : Philip K. Hitti, The Syrians in America (New York (New York, 1946), p. 4 : 62-5. ولا يزال اللبنانيون يعرفون في اميركا بالسوريين .

يوسف كرم الذي خاض عدة معارك ، نفى على اثرها الى ايطاليا، وهناك قضى نحبه . وتولى ، بعد داود باشا ، رسم باشا ، وكان قبل ذلك سفيراً في لبنان ؛ فكان نظير سلفه حاكماً حازماً وادارياً مقتصداً^١ . لكن الاتراك عمدوا ، في غضون الحرب العالمية الاولى ، الى الغاء هذا الوضع الممتاز الذي كان لبنان يتمتع به ، غير ان ميثاقه اتخذ نموذجاً للنظام الذي وضع لجزيرة كريت ، وكان بوجه العموم « خير نموذج لنظام استقلالي ، وضع لاقليم تركي »^٢ .

(١) هذا جدول المتصرفين : داود (١٨٦١-٦٨) ، نصري فرنكو (١٨٦٨-٧٣) ، رسم (١٨٧٣-٨٣) ، واصا (١٨٨٣-٩٢) ، نعم (١٨٩٢-١٩٠٢) ، مظفر (١٩٠٢-٧) ، جوزيف فرنكو (١٩٠٧-١٢) ، اوهانس كيويجيان (١٩١٢-١٥) . وكان من هؤلاء : داود وكيويجيان من أصل ارمني وفرنكو ورسم من اصل ايطالي ، وواصا من اصل الباني ، ومظفر من اصل بونندي .

(٢) Miller, p. 306 .

الفصل الخامس المشهد في العصر الحاضر

يتميز العصر الحاضر في حياة الشرق العربي ، كما يتجلى في سورية ولبنان ، بظواهر منها : نشأة عوامل فعالة ذات صلة بالتغلغل والتوسع الاستعماري الغربي ، وانبعاث الوعي القومي المحلي ، ونضال الشعوب من اجل تحقيق استقلالها ، وقيام حركة الجامعة العربية وانتشار امرها . وقد كانت هذه الظواهر عوامل نامية ومتفاعلة ، تخلفت عنها معظم الاحداث الهامة التي جرت منذ اوائل القرن الماضي .

التغلغل السياسي

استهل القرن التاسع عشر ، وفي الشرق ثلاث دول اوربية كبرى تتبارى في بسط نفوذها على الامبراطورية العثمانية المتقلصة ، والتي كانت طيلة القرن السابق تقف موقف الدفاع عن كيانها . هذه الدول هي فرنسا وروسيا وبريطانيا العظمى . اما النمسا فكانت قد تراجعت نوعاً ، وكانت بروسيا لا تزال من دول المرتبة الثانية ، ولم تكن ايطاليا آنذاك في حكم الموجودة . وكانت سياسة فرنسا تقوم على مصالح اقتصادية واعتبارات معنوية ، وعلى الامتيازات التي رسخت بتقادم الزمن ، والصدقة التقليدية التي كانت تصلها بالاقليات الكاثوليكية والمارونية . وكانت الامتيازات التي ابرمت سنة ١٧٤٠ ذات اهمية خاصة لانها وضعت جميع الحجاج الى الارض المقدسة تحت الحماية الفرنسية^١ .

على ان الهزيمة المنكرة التي منيت بها تركيا في حربها مع روسيا ، كما تشهد معاهدة كوتشك كاينارجي (١٧٧٤) ، احلت عملياً التفوذ الروسي محل الفرنسي في القسطنطينية . فالمطامع الروسية انما تعود الى عهد بطرس الاكبر وكاترين^٢ ، وقد

(١) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٣٣٧ من هذا الجزء .

نشأت من وضع البلاد الجغرافي المقفل دون البحر ، وبالتالي من الرغبة الملحة في التماس مرفأ على المياه الدافئة ، ثم بما اظهرته من عطف على ملة الروم الارثوذكس . فقد اقرت معاهدة كوتشك كاينارجي المذكورة حماية القيصر لهذه الملة ، وكان ادعاء روسيا بحق حماية الاماكن المقدسة احد الاسباب التي ادت الى حرب القرم (١٨٥٤ - ٥٦) ومع ان انكلترا لم تكن جارة اقليمية لتركيا ، فقد نشأ عندها اهتمام خاص بهذه المنطقة يعود تاريخه الى القرن السادس عشر ، وذلك بحكم علاقاتها التجارية البرية بالهند والشرق الاقصى ، فضلاً عن الشرق الادنى^٢ . فما انت اخذت الامبراطورية العثمانية في الانحلال ، حتى بدأت مصالح انكلترا التجارية تتحول الى مآرب توسعية . اذ كرهت ان ترى تركيا تتلاشى ، وروسيا تثبت اقدامها على البوسفور . وهذه المنافسة بين الدول الكبرى هي التي اطالت بحياة تركيا ومدت باجلها . وما القضية المعروفة بالمسألة الشرقية ، عند التحقيق ، الا قضية التوسع على حساب الامبراطورية التركية ، وملء الفراغ الطارىء بزوال هذه الدولة تدريجياً ، بعد ان كانت يوماً في عداد الدول العظمى^٣ .

وقبل ختام القرن التاسع عشر ، كانت قد اخذت شمس دولة اوربية جديدة تبزغ على الافق العثماني ، هي المانيا . وكان القيصر وايم قد رسم لها سياسة « التوسع نحو الشرق » فأتاحت لها هذه السياسة نفوذاً سريعاً في الشؤون التركية . وكانت ذلك في عهد عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) ، وهو من اعنف الحكام الذين اعتلوا العرش العثماني في نزعة الرجعية . وقد آنس السلطان من القيصر صديقاً جديداً يستحق الترحيب ، فقام الامبراطور وزوجته الامبراطورة سنة ١٨٩٨ بزيارة الى القسطنطينية ، واستأنفا السير منها الى القدس فدمشق ، حيث وضعا اكليلاً من الزهر على قبر صلاح الدين . وفي خطبة مشيرة اكد الامبراطور للسلطان ، ومعه « ثلاث مئة مليون مسلم يجالونه بوصفه خليفة عليهم » ان امبراطور المانيا ، كان وسيظل ابدآ صديقهم الحميم^٤ . وعلى الاثر منحت شركة المانية امتياز خط بغداد الحديدي عبر شمالي

(١) انظر J. A. R. Marriott, *The Eastern Question*, 2nd ed. (Oxford, 1918), pp. 260-61.

(٢) راجع ص ٣١٩ من هذا الجزء ؛ وايضاً : M. V. Seton-Williams, *Britain and the Arab States*, (London, 1948), pp. 1-5, 101 seq.

(٣) انظر : Miller, p. 1

(٤) انظر : George Antonius, *The Arab Awakening* (Philadelphia, 1939), p. 77

سورية^١. وكان هذا الخط الحديدي احد الاسباب التي ادت الى نشوب الحرب العالمية الاولى. وقد اخذ في الوقت نفسه ضباط المانيون يفدون الى تركيا ليعيدوا تنظيم الجيش التركي.

العهد الحميدي

كانت نقطة الانطلاق في سياسة عبد الحميد رآيه في ان الطابع الاسيوي ينبغي ان يكون اغلب على الدولة من الطابع الاوربي. وتحقيقاً لهذا المبدأ لجأ الى نظام قديم هو نظام الخلافة، وحاول ان يبعث فيه الحيوية من جديد. فعمد الى توثيق سلطة الخلافة الأولى - السياسية ومثلها الأعلى - الجامعة الاسلامية، راجياً ان يحتفظ، عن هذه الطريق، بولاء العناصر الاسلامية غير التركية في داخل الامبراطورية، وان يكسب الى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها. وقد ظفر تدريجياً بمسح وزرائه الى كتاب مساعدين، وبتركيز ادارة البلاد في قبضة يديه. فوضع الصحافة تحت رقابة شديدة، واتقى جميع التدابير التي تؤمن حرية الفكر مها كان نوعها، ونشر شبكة محكمة من الدس والتجسس في جميع انحاء البلاد. ولما كان شديد الخوف على عرشه وحياته، عمد الى الاعتصام بالمزيد من العزلة وراء اسوار قصر يلدز. ثم انه اجري الاعتقالات بالجملة، ونفذ احكام الاعدام على نحو جماعي، وامعن في الارمن فتكاً وتذبيحاً، فاكسبه ذلك لقب «السلطان الاحمر».

واستثناءً لسياسته بايجاد جامعة اسلامية، اكمل الخليفة السلطان سنة ١٩٠٨ خط الحديد الحجازي الذي وصل القسطنطينية بالمدينة المنورة، مخترقاً سورية من الشمال الى الجنوب؛ فكان ما انفق على هذا المشروع ثلاثة ملايين ليرة، جمع ثلثه من تبرعات المسلمين في العالم بأسره. ان هذا الخط هو الذي عمل لورنس على نسف جسوره ابان الحرب العالمية الاولى^٢. بنى هذا الخط الحديدي مهندسون المانيون، وتولى امره موظف سوري هو احمد عزت باشا، كان كاتب السلطان الخاص. وكان لسوري آخر تأثير غريب على الخليفة هو امامه الخاص ابو الهدى الصيادي.

(١) انظر : Edward Mead Earle, Turkey, The Great Powers and the Bagdad Railway, (New York, 1923), pp. 67-71.

(٢) انظر : T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom (New York, 1938), pp. 198-203, 207-11.

وبعد حكم استبدادي استمر ثلاثين سنة ، نهض عبد الحميد يوماً من ايام تموز سنة ١٩٠٨ ، ليجد نفسه قليل الحيلة ، امام ثورة اضربها بعض القواد في جيشه . وكانت هذه الثورة من صنع «جمعية الاتحاد والترقي» ، وهي اللجنة العاملة لمنظمة سرية عرفت «بتركيا الفتاة» ، تخلفت بدورها عن منظمة اسبق هي منظمة «الأتراك العثمانيين» كان مدحت باشا احد اعضائها . كان منشأ «تركيا الفتاة» في جنيف سنة ١٨٩١ ، وكانت ثمة حركة نشيطة قامت بها جماعة من الطلاب والشبان رغبة في تحقيق الإصلاح ؛ ثم نقلت هذه الجماعة مركزها الى باريس . وكان هدفها ان تضع للبلاد دستوراً ذا طابع غربي ينص على انشاء مجلس تمثيلي ، وان تهدم حواجز النظام المالي وتبني دولة ديمقراطية متجانسة . وفي اليوم الرابع والعشرين من تموز سنة ١٩٠٨ اعلن عبد الحميد ، مرغماً ، العودة الى دستور ١٨٧٦^٢ ، وامر في اليوم التالي بابطال شبكة التجسس والغاء نظام الرقابة ، واخلاء سبيل المعتقلين السياسيين جميعهم . وفي اليوم العاشر من كانون الاول ، افتتح جلسة المجلس النيابي بخطاب من على العرش ، اعلن فيه مباهياً ان المجلس السابق كان قد علق مؤقتاً ، ريثما حقق المواطنون الاستعداد المناسب عن طريق التربية والتهذيب . وكانت موجة من التفاؤل والحماسة قد غمرت الامة بكاملها في الوقت نفسه . فاستقبل اعلان الدستور في بيروت ودمشق وحلب والقدس ، وسواهن من مدن الامبراطورية ، بايقاد المشاعل والقاء الحطب واطلاق الالاعاب النارية فرحاً وابتهاجاً ، وذلك اعتقاداً منهم بان الكلبوس قد زال ، وان يوماً جديداً في حياتهم قد بزغ «حتى لكان تركية قد انقلبت ، بين ليلة وضحاها»^٣ . لكن عبد الحميد لم يكن احرص على دستور سنة ١٩٠٨ منه على دستور سنة ١٨٧٦ . فقد قبض عليه بالجرم المشهود ، وهو يتآمر مع العناصر الرجعية ، ويعد العدة للقيام بثورة معاكسة في نيسان سنة ١٩٠٩ . فخلع للحال ، واقام مكانه اخوه الأبله محمد رشاد ، لكن السلطة الفعلية بقيت في يد الجمعية .

(١) راجع ص ٣١٥ وما بعدها من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٣١٦ من هذا الجزء .

(٣) انظر : Harry Luke, *The Making of Modern Turkey* (London, 1936), p. 144.

جمعية الاتحاد والترقي

على ان رجال العهد الجديد كانوا اوفر حظاً في نطاق الحماية الوطنية منهم في مجال الاختبار والدهاء السياسي . فسياستهم العثمانية التي استهدفت تحويل النزعات العنصرية والنعرات الدينية في الدولة الى صعيد عثماني مشترك آلت الى الفشل التام . اذ فسر العرب هذه « الحرية » الجديدة على انها حرية تحقيق امانهم القومية الخاصة ، وتعزيز ذاتيتهم الثقافية ولغتهم الفصحى . فنشأت على الاثر حركات انفصالية نشبت كل منها بمطالبها الخاصة . واذ اخفقت سياسة الرابطة العثمانية على هذا النحو ، ارتد رجال تركيا الفتاة الى السياسة الحميدية الفاشلة الداعية الى الجامعة الاسلامية ، وازداد الوضع الداخلي سوءاً بالارتباك الدولي التي ادت الى نشوب حرب بين تركيا وايطاليا (١٩١١ - ١٢) ، فقدت فيها تركيا طرابلس الغرب والقيروان - وهما آخر ما كانت تملكه في شمالي افريقيا - والى حروب بينها وبين دول البلقان (١٩١٢ - ١٣) ، جردتها من جميع ما كانت تملك ، تقريباً ، في تلك الناحية ووزع المثلث المؤلف من انور وطلعت وجمال تحت هذه الاعباء جميعها . ثم انضمت تركيا في الحرب العالمية التي نشبت على الاثر الى جانب المانيا والدول الوسطى ، وكان دورها في العراق شاهداً على اخفاق الرابطة العثمانية ، وافلاس الجامعة الاسلامية . وتخلف عن ذلك نشوء دولة تركية جديدة تقوم على وطنية تركية ، لا يعوقها الكثير من العراقيل المذهبية والسلالية . اما منظم هذه الدولة فعوض من اعضاء تركيا الفتاة ، وقائد من القواد الذين ساهموا في ثورتها ، هو مصطفى كمال . باصلاحاته كانت الاصلاحات الشاملة الوحيدة التي نفذت الى حياة الجمهور .

لتسلسل الثقافي

كان لبنان اقل المناطق الشرقية في الامبراطورية العثمانية تأثراً من العراقيل التي رزها العهد الحميدي . فقد ضمن له الحكم الذاتي الذي ظفرو به بعد سنة ١٨٦١ ، استمرار تدفق الافكار وسائر المؤثرات الثقافية من المصادر الغربية - ذلك التدفق الذي كان قد بدأ منذ اقدم الازمنة ، وعززته في ما بعد فخر الدين المعني والامير بشير الشهابي^١ . ثم احتل ابراهيم باشا (١٨٣١ - ٤٠)^٢ سورية ، وكانت ابوه

(١) راجع ص ٣٣٠ - ٣٣٣ وص ٣٤٠ - ٣٤٣ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٣٤١ من هذا الجزء .

اسبق الحكام الى انشاء صلات حيوية بين مصر والعرب ، فانسع بهذا الاحتلال المجال المفتوح في سورية للمؤثرات الغربية . وقد عمد ابراهيم باشا الى ازالة بعض القيود المتعلقة بالملابس والمطايا ، التي كان النصارى في سورية يعانون منها لاجيال كثيرة خلت^١ . وفي هذه الاثناء بالذات (١٨٣٢) تسنى لارسالية الجزويت ، بعد فترة من خطر^٢ ، ان تعود الى ربوع لبنان ؛ وسنح لمشاريع الارسالية الاميوكية ان تجد مستقراً ثابتاً . وقد احتفلت الكنيسة الانجيلية في سورية بعيدها التذكاري المئوي سنة ١٩٤٨ ؛ وتأسست المطبعة الاميوكانية في مدينة بيروت سنة ١٨٣٤ ، فجرت في اثرها مطبعة الجزويت الكاثوليك بعد ذلك بنسع عشرة سنة . ولا تزال كلتا المطبعتين تقومان بالمهام المنوطة بهما خير قيام ؛ وقد اخرجت كل منهما ترجمة بالعربية الحديثة للكتاب المقدس . وانتهى بالجزويت جهدهم التعليمي ، الذي كانوا قد بدأوه في اوائل القرن السابع عشر^٣ ، الى تأسيس جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٤ في بيروت ، حيث كانت الارسالية الاميوكية قد سبقتهم سنة ١٨٦٦ الى تأسيس كلية تعرف الآن بالجامعة الاميوكية في بيروت ؛ ولا تزال هاتان الجامعتان في طليعة معاهد التعليم في هذا الجانب من العالم . واخذت ، من ثم ، المدارس الاهلية والمطابع والصحف والمجلات والمجعبات الادبية تنشأ وتزدهر ، وراحت الكتب المترجمة عن الفرنسية والانكليزية بتكاثر وتشيع بين ايدي القراء^٤ . وكان اقوى ما تسرب من الافكار الجديدة واعظمها حيوية دون نزاع اليقظة القومية والديمقراطية السياسية .

القومية والنضال من اجل الاستقلال

بدأت هذه اليقظة القومية العربية حركة فكرية خالصة ، مركزة على درس لغة العرب وتاريخهم وادبهم . وكان روادها في الغالب من المفكرين السوريين ،

(١) راجع ص ١٦٧ و ص ٢٢١ - ٢٢٢ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء .

(٣) راجع ص ٣٢٠ من هذا الجزء .

(٤) انظر : A. H. Hourani, *Syria and Lebanon* (Oxford, 1946), pp. 35-7.

وبنوع آخر ، من نصارى لبنان الذين تشفقوا في الجامعة الاميركية في بيروت^١. هؤلاء هم الذين شرعوا في تطويع العربية الفصحى لتغدو اداة جديدة صالحة للتعبير عن الفكر الحديث . على ان الفكرة القومية ، وما استتبعته من تشديد على الشؤون المدنية والقيم المادية ، جرت في اتجاه معاكس لارفع المثل ، واعزّ التقاليد الاسلامية ، التي لا تقر ولو مبدئياً بآية رابطة غير رابطة الدين . ثم ان اختيار الشعوب الناطقة بالعربية لهذا الطراز الجديد من القومية ، وثورة الحسين شريف مكة سنة ١٩١٦ على الاتراك العثمانيين ، صدعا البقية الباقية من الامل بقيام وحدة اسلامية شاملة ، واقاما في مكلتها وحدة عربية جامعة . اساسها اللغة والثقافة العلمانية ، لا العقيدة الدينية الخاصة . وقد غدا لبنان اسرع استجابة الى المؤثرات المسيحية الغربية ، بعد نزوح الالوف من ابنائه الى العالم الجديد^٢ ؛ ذلك لانهم استطاعوا ، عن طريق المراسلة وتكرار الزيارات ، ان يحتفظوا بحشعل الحرية والاستقلال والديمقراطية موقداً مشعاً . وهذا المؤتمر العربي في باريس ، انما النام سنة ١٩١٣ بدعوة من شكري غانم ، وهو شقيق نائب سوري كان عضواً في مجلس ١٨٧٦ النيابي في القسطنطينية ، وكانت الكثرة الساحقة من اعضاء المؤتمر المذكور من السوريين ؛ وكانت مطالبه معتدلة نذكر منها تطبيق اللامركزية ، وتحقيق الاستقلال الاداري والثقافي .

ولقد وجد المفكرون السوريون ، واركان القومية العربية ، في مصر المجاورة جواً انسب لنشاطهم السياسي . واذ كانت هذه الحركة تستمد حوافزها الاساسية من منهج التفكير الاميركي ، فقد استلهمت وحيها من الاجداد الماضية التي خلفتها الشعوب الناطقة بالعربية ومن مآثرها الثقافية ، واتجهت بانظارها نحو عالم عربي وثيق الاركان . ثم شرعت في عملها على نطاق واسع هو العروبة المطلقة ، دون الالتفات الى اي اعتبار اقليمي . لكن الحركة لم تلبث ان تصدعت . لان الناحية السياسية اخذت ، مع نموها واتساعها ، تتشعب وتتأثر بالسياسة الاقليمية . وعلى ذلك اخذت اغراض القوميين المصريين في الانحراف عن الجامعة العربية ، في اوائل

(١) انظر : Antonius, pp. 43, 51-5; Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East* (London, 1929), pp. 268 seq.; Martin Hartmann, *The Arabic Press of Egypt*, (London, 1899), pp. 3-13.

(٢) راجع ص ٣٤٥ من هذا الجزء .

العقد التاسع ؛ وذلك عندما غدت مقاومتهم للاحتلال البريطاني اهم اغراضهم المباشرة . وهكذا اتسمت القومية العربية في مصر بسمة اقليمية ، رجاء ان تكون اشد اثاره للرأي العام المحلي في اندفاعه ضد الانكليز ؛ في حين حشدت القومية العربية قواها في سورية ضد السيطرة العثمانية وسياسة التتريك ، وكذلك - بعد اقامة الانتداب الفرنسي سنة ١٩١٩ - ضد الحكم الفرنسي . وقد تجددت عزيمتها باستشهاد الزعماء الوطنيين الذين اعدمهم جمال باشا في غضون الحرب العالمية الاولى^١. اما فلسطين - وهي القسم الجنوبي من سورية ، الذي اقتطع ووضع تحت الانتداب البريطاني - فقد غذت القومية العربية فيها العداوة للانكليز ، والحركة الصهيونية التي برزت الى الوجود الواقعي بولد اسرائيل ، باعتبار انها حركة قومية دخيلة بعثها رجال من يهود اوربة الوسطى والغربية .

وفي سنة ١٩٢١ اقتطعت من فلسطين الانتدابية المنطقة التي عرفت في التوراة بشرقي الاردن ، والتي لم تكن حتى آنذاك واقعاً تاريخياً ، وولي عبدالله بن الحسين اميراً عليها ، ثم نصب ملكاً سنة ١٩٢٦ ؛ وكان في ذلك الحين يهدد بالانتقام لاختيه فيصل ، اذ ازيل عن عرش سورية بعد ولاية قصيرة قبل ان يتسلم عرش العراق^٢. وقد كانت هذه الامارة بمثابة دولة حاضرة ، ما بين منطقة الانتداب البريطاني وربوع القبائل البدوية النائرة . وفي سنة ١٩٤٩ تحولت هذه الامارة الى المملكة الاردنية الهاشمية .

وهكذا فقد تجزأت القومية العربية الناشئة تبعاً للتجزئة الاقليمية ، وكانت البلاد العربية ، حتى الحرب العالمية الاولى ، تؤلف وحدة جغرافية تخضع للحكم العثماني . وفي غضون الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين تناثرت البلدان العديدة الناطقة بالعربية من كيان الامبراطورية العثمانية ، وتحولت الى دول متعددة ، وكأنها شعوب مختلفة . لكن الاشتراك في اعتبارات اللغة والدين والمصلحة الاقتصادية بقيت تعمل على الجمع بين اشتاتهم . ثم عاد الاتجاه نحو الجامعة العربية فنشط ثانية سنة ١٩٤٠ ؛ وما زال يقوى حتى انتهى الى قيام جامعة الدول العربية

(١) راجع بشأن عدمه واسباب إعدامه : Com- La Vérité sur la question syrienne (mandement de la IV^{ème} armée) (Constantinople, 1916), pp. 158-68.

(٢) Hans Kohn, Nationalism and Imperialism in the Hither East (London, 1932), pp. 162-4, 177-8; Antonius, pp. 304-5.

وكان بما حفز الى تحقيق فكرة الجامعة الردة في وجه الصهيونية السياسية باعتبار انها قوه توسعية مفرقة . وقد انتظم كل من لبنان وسورية في عضوية الجامعة العربية منذ نشأتها في سنة ١٩٤٥ .

الديمقراطية

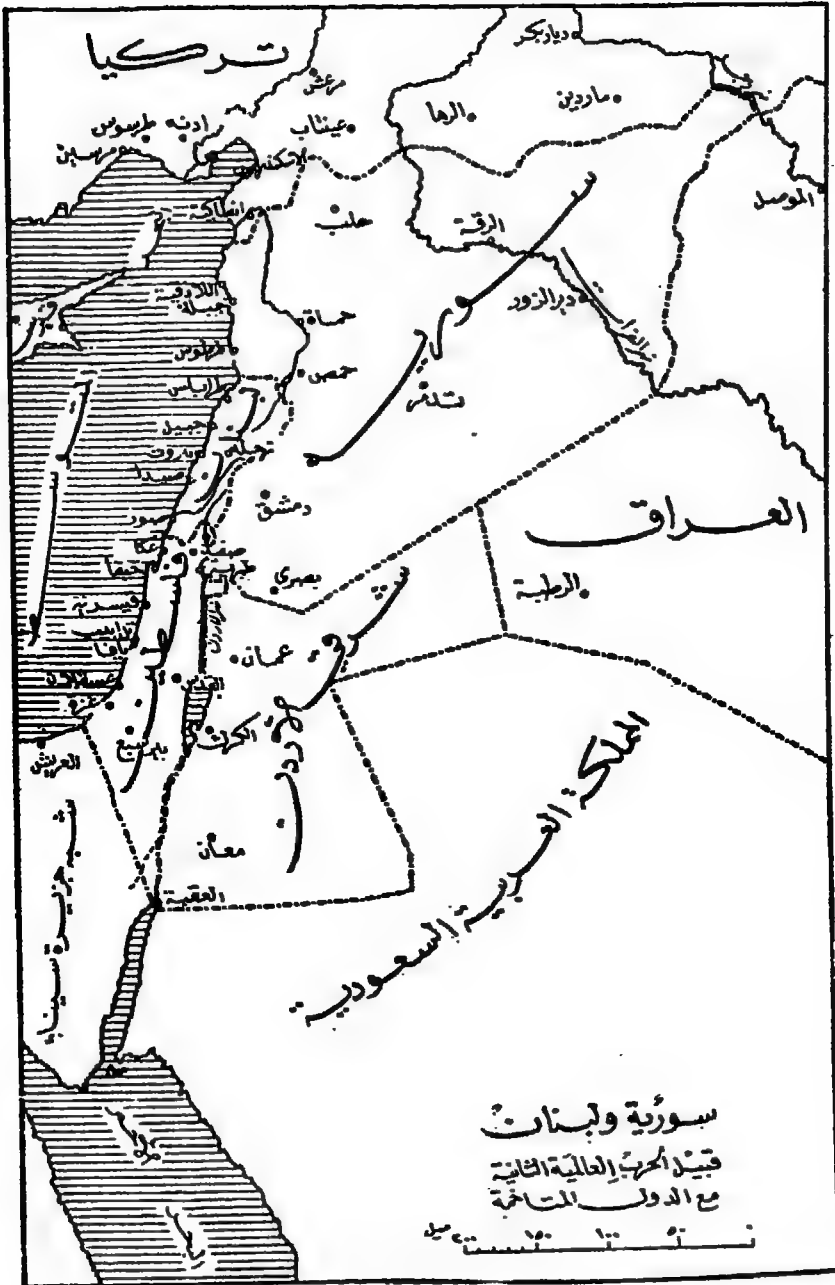
رافق توثيق العاطفة القومية ، وانتشار اسباب التعليم ، رغبة متزايدة في مزاولة المزيد من المناهج الديمقراطية في الحياة الاجتماعية والسياسية . وكانت التمرد في طبقة المزارعين قديماً جواً صالحاً لاستقبال الافكار الديمقراطية ولتنميتها . حتى اذا توسط القرن التاسع عشر ، اخذت طلائع التفسخ تتجلى في حياة الفئتين الاقطاعيتين الرئيسيتين في المجتمع اللبناني ؛ لكن الاقطاع الدرزي بدا أشد تماسكاً من الماروني ؛ وقد استمر على نحو يتخلله الوهن حتى الوقت الحاضر . وكذلك في سورية ، فان المنظمات الاقطاعية لم تضحل تماماً . وقد ظهرت بين المزارعين في لبنان الشمالي ايضاً حركة عصيان موجهة ضد آل الحازن^١ ، وسواهم من الامراء الاقطاعيين ، بلغت اوج عنفها في ابان الفتنة التي نشبت بين الموارنة والدروز^٢ . وكان قائدها بيطاراً من ريفون اسمه طانيوس شاهين ، استطاع في سنة ١٨٥٩ ان ينشيء مجتمعاً زراعياً اشتراكياً تولى هو رئاسته^٣ . ولما كان جل الرهبان الموارنة مستغفرين من جمهور الناس ، فقد ساندوا هذه القضية الشعبية مساندة تامة . وعندما تولى داود باشا الحكم في الجبل ، عمد الجانب الديمقراطي من المجتمع الماروني الى الامتناع عن اداء الضرائب الى حاكم اجني يؤيده الجانب الارستقراطي من المواطنين . وكان الموارنة قد طالبوا بحاكم من المواطنين ، وكان بطل فتنهم هذه يوسف كرم^٤ . واذ ربح السوريون واللبنانيون معركة الاستقلال من الفرنسيين اقبلوا ، اكثر منهم في اي وقت مضى ، على الافكار والنظم الديمقراطية الغربية ، وكيفوها بحسب حاجاتهم الخاصة . وكان لبنان^٥ ، بين

(١) راجع ص ٣٣٠ - ٣٣٣ من هذا الجزء .

(٢) راجع ص ٣٤٤ - ٣٤٥ من هذا الجزء .

(٣) انطون المقيي ، ثورة وقتة في لبنان (بيروت ، ١٩٣٨) ص ٣٨ - ٩٠ .

(٤) راجع ص ٣٤٦ من هذا الجزء .



الشعوب الناطقة بالعربية السابق الى اقامة نظام حكومي جمهوري؛ ثم تلتها سورية. وما ان تصرمت سنة ١٩٤٣ حتى حققت كلتا الجمهوريتين الاستقلال التام الناجز ،

وتحملتا جميع مسؤولياتهما في اول كانون الثاني سنة ١٩٤٤ ؛ وسجبت البقية الباقية من الجيش الفرنسي بعد ذلك .

ان انفتاح سورية ولبنان وفلسطين ، في خلال القرن التاسع عشر ، للعديد من الافكار الاقتصادية والعلمية والسياسية ، كان ارسخ اثرأ واكثر استمراراً منه في القرن السابع عشر^١ ؛ فكان اشبه بانفتاح العالم العربي برمته ، قبل ذلك بقرون عديدة على المؤثرات الثقافية الاوربية اليونانية^٢ . وكذلك الامتزاج العنصري في الزمن المعاصر فقد كان ظاهرة عامة شملت الشرق الادنى بكامله ، بل آسيا وافريقيا بوجه الاجمال . وهكذا توجهت شعوب المتوسط الشرقي مرة اخرى نحو الغرب شأنها في عهد الفينيقيين والرومان والبيزنطيين . على ان هذا النضال الناجم عن الفارق بين النظرة التقليدية الجامدة الدينية والنظرة الحديثة العلمية المدنية ، كان اظهر اثرأ في الاوساط الاسلامية ، ولم يكن هذا النزاع محصوراً في الطبقات العليا ، بل ان المنطقة برمتها — نظير الكثير من مناطق العالم الاخرى في القرون التاسع عشر — كانت اندرجت في الشبكة الاقتصادية التي انتشرت بتأثير حركة التصنيع في اوربا الغربية وعبئاً حاولت المصنوعات اليدوية المحلية أن تنافس السلع المستوردة المصنوعة آلياً بالجملة ، وقد ادى هذا الى انهيار الاقتصاد المحلي .

ان هذا الاثر الذي كان لاوربا الغربية على الشرق العربي في القرن التاسع عشر ، هو الذي هزّ الشرق تلك المزة التي ايقظته من رقدة العصور الوسطى . وبهذه الانتفاضة دنت اوضاع العصور الوسطى في سورية ولبنان من نهايتها ، واخذ فجر العصر الجديد في الانبلاج . وقد كانت هذه الفترة برمتها فترة تطور وانتقال ؛ فنشوء الحركة القومية واستيلائها على حياة الشعب ، واقتباس مبادئ الديمقراطية السياسية ، والسير في الاتجاه العلماني التجديدي جميع هذه ، تؤلف فصلاً جديداً في تاريخ لبنان وسورية ، لكنه فصل لم يدون بعد .



(١) راجع ص ٣٣٠ - ٣٣٣ من هذا الجزء .

(٢) تقدم شرح ذلك في ص ١٧٤ وما بعدها من هذا الجزء .

فهرست عام

صفحة

٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ،	١٨٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ،
٢٨٠ - ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٣١٧ ،	٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ،
٣٧٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ ،	٤٤٣ ،
الكتابة ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٨٢ ؛	الآداب ٢٨٢ ؛ الحضارة ١٧٧ ؛
الآلهة ١٨٨ ؛ العصر ٢٧٥	الآرامية - اللغة (٢) ٨٢ ، ١١٦ ، ١٤٦ ،
الآرامية الشرقية - اللغة (١) ٤٤٤	الآرامية الغربية - اللغة (١) ٤٤٤
الآراميون (١) ٤ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ١٠١ ،	١٠٤ ، ١١٨ ، ١٤٥ ، الغزاة ١٥١ ؛
١٥٦ ، ١٦٥ ؛ انتشارهم ودولهم	١٧٧ ؛ التجار ١٨١ ، ١٨٢ ؛
١٨٣ - ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ،	٢١١ ، ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٣١٧ ،
٤٤٣ ،	(٢) ٤٢ ، ٩٦ ، ١٧٩
٢٨٤ (١) آرل	آرنون - نهر (١) ١٨٠ وانظر الموجب
آريوس (١) ٣٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤١١	الآريوسية (١) ٢٨٧ ، ٤١١
١٤٤ (٢)	آسيا (١) ٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٢ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ١٣٦ ، ١٤٩ ،	١٦٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ،	٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٧٠ ،
٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٤٣٨	٢٩ ، ٤٥ ، ٥١ ،
(٢) ٢٠٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،	٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٦ ،
٣٥٢ آسية الرومانية (١)	آسية الصغرى (١) ٢٩ ، ٦٥ ، ٨٨ ،

ملاحظات

- ١ - لقد اهتمنا عند وضع هذا الفهرس كلمة « ابن » و « ابو » و « بنو » و « اخو » فمثلا ابن خلكان يقع تحت خلكان
- ٢ - وضعنا حرف « ح » رمزا للحاشية .
- ٣ - ذكرنا اسماء الكتب في الحواشي كاملة مع تاريخ طبعها ومحلها وذلك عند ورودها اول مرة ثم اكتفينا فيما بعد بمختصر لاسم الكتاب .

- الالف -

صفحة

٣٧١	الآباء الرسوليون (١)
٣٧١	آباء الكنيسة (١)
٢٦١	آباما (١)
١٦١ ، ١٦٠	آبوفيس (١)
٢٤٦	آتوس - جبل (١)
١٨٧ ، ١٧٢	آتيس - آلهة (١)
٣٥٣ ، ٣٥٢	آثار اليهود - كتاب (١)
١١٤ ، ١١٠	اجينور - ملك فينيقية (١)
١٨١ ، ١٨١	أحاز - ملك يهوذا (١) ، ملك
٢١٣	اورشليم
١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٥١ ، ٤٠ ،	أخاب (١) ٢٠٩ ، ٢٢٢ (٢) ١٥٥ ح
١٧٥	أدد نيراري (١)
٤١٦	آدوم (١)
٢٠١	آراء اهل المدينة الفاضلة - كتاب (٢)
٨١	آرال يجر (٢)
١٨٥ ، ١٨١ - ١٧٩ ، ٦٣	آرام (١)
١٧٢	(٢)
١٧٧	آرام دمشق (١)
١٧٦	آرام النهرين (١)
٦٦	الآرامية - اللغة (١)

صفحة	صفحة
٢٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٧٧	١٩٦ ، ١٧٢ ، ١٦٦ ، ١١٦ ، ١٠٢
ابراهيم بن احمد الاول (٢) ٣٠٥ ح	٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩
٢٠٦ ح	٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣
ابراهيم باشا (٢) ٣٢٧ ، ٣٤١	٢٧٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠١ ، ٤٣٨
٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢	٤٤٠
ابراهيم الحاقلائي (٢) ٣٢٢	(٢) ١٦ ، ٤٦ ، ٥٠
ابراهيم الحلبي (٢) ٣٠٧	٥٣ ، ٨٧ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٧٦
ابراهيم بن صالح العباسي (٢) ١٦٥	٢٠٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣
ابراهيم العلوي (اخو النفس الزكية)	٢٢ ، ٥٣ ، ٥٥
(٢) ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٢ ح	٩٥ ، ١٥١ ، ٢٩١ ، ٢٩٥
ابراهيم بن الوليد (٢) ٦٤ ح	٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٥
١٥٠ ، ١٤٨ ، ١٠٢	(٢) ١١٣ ، ٣٠٣
ابشالوم (١) ١٧٣ هـ	آسيا الوسطى (١) ٤٩ ، ٦٥
أبشة (١) ٨٢	٢٩٨ ، ٦٩
أبق بن محمد بن طفتكين (٢) ٢٠٩ ح	(٢) ٦٨ - ٦٩ ، ١٠٢
أبقراط (٢) ١٧٧ ، ١٧٤	١٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٧٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٢
أبله (١) ٢٠٦	أكاد (١) ٦٦ ح
أبلستين (٢) ٤٥	الأمر بن المستعلي (الفاطمي) (٢)
الأبلق - قصر (٢) ٢٨٦	٢١٣ ح
أبلو أيلي (١) ١٥٣	أمور - بلاد (١) ٧٠
أبو صير (١) ١٣٧	أمور داريا (٢) ٦٦ ح
أبو الفداء - المؤرخ (١) ٦٣ ، ٤٢	آمون - الآله (١) ٧٨ ، ١٤٣
أبو كريفا (١) ٢٨٢	١٤٥ ، ٢٥٥
أبو كمال (١) ٧٢ هـ	آمون - راع (١) ١٤٢
أبوله - تمثاله (٢) ٢٥	أهورا مزدا (١) ٢٤٦
أبولو دؤرس (١) ٣٩٢	آيا صوفيا (١) ٣٤٨
أبولون (١) ١١٥ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩	٤٤
٣٠١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦	١١٩
أبو لينارس (١) ٤١٢ ، ٤١١	١١٩
أبو الهول (١) ٢٢٣ ، ١٣٨	٢٧٠
أبهل (١) ٥٤	الأبجدية (١) ٢٣ اختراعها ٢٥ ؛ ١١٧
أبيان (١) ٢٩٤	١١٨ ، خطية ١٢٠
أبيدوس (١) ١٤٧ ، ٢٩	الأبجدية العربية (١) ٤٢٧
٥١ ، ٥	الأبجدية الكتغانية (١) ١٢٠
أبيروس (١) ١٩٦ هـ	أبجدية مسمارية (١) ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣
أبيفانس (١) ٢٧٠	أبجر (١) ٢٧٠ ، ٣١٠ ، ٣٤١
أبيغانية (١) ٢٨٩ ، ٢٧٧	أبجر الرهاوي (٢) ١٣٥
الابيقورية - الفلسفة (١) ٢٨٠	أبراهيم (١) ٦٥ ، ١٣٤ ، ١٦٩
أبي ملكي (١) ٨٠	

صفحة	صفحة
٢٠٥ ح	اتابك زنكي (٢) ٢٣٤
٢٠٦ ح	اتابكة (٢) ٢٠٩-٢٠٧
٢٠٦ ح	اتار غاتس (الهة سورية) (١)
٢٣٩ - ٢٣٦	١٣١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ج
٢٤٠ ، ٢٣٥ ح	معبدها ٢٨١ ، ٢٧٠ ، ٤٢٨
٢٢٨	الأتراك (١) ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٤
٢٢١	(٢) ٢٠٣-٢٠٥ ، ٢١١ ، ٢١٢
١٨٧-١٨٥	٢١٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
٢٤٩	٢٦٩ ، ٢٩٧ - ٣٠١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨
١٩٢	٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٢
٢٣٤	الأتراك العثمانيون (٢) ٣٥٢ ، ٣٥٠
٢٣٤ ح ، ٢٢٣	اتسيو (٢) ٢٠٥
٢٧١	اتروسكيون (١) ١٣٠
١٦١ ، ١٣٩	أتون - آله (١) ٧٨ ، ٢٢٢
٢٢٤ ، ١٢١	ايتكا (١) ٣٠٤
٢٤٨ ، ١٨٢	الآيتكي - النحت ، الدراخما (١) ٢٤٩
الاخطل (٢) ٤٠ ، ٤١ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٩٣	اثر (١) ٢٤٧
الاخشيد (٢) ١٩٠-١٩٤ ، ١٩٧	اغال - ابن (٢) ٤٠ ، ١١٣
الاخشيدي - العهد (٢) ٢٠١	ايعل (١) ٢٠٩
الاخشيدي - السلالة (٢) ١٩٣ ، ١٩٦	ايعل الثاني (١) ٢٢٠
الاخشيديون (٢) ١٩٠ ، ١٩٢ ، ٢١١	ايتاسيوس دباس (٢) ٣٢٤
الاخلامو (١) ١٧٤ ، ١٧٥	الاثير - ابن (٢) ٢٤١ - ٢٨١ ، ٢٩٤
الاخمينيون (١) ٢٥٦	ايتنا (١) معابدها ٢٥٦ ، زينون
اخناتون (١) ٧٨ ، ٨٠ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٧٢ ، ١٦٧	يعلم في روايتها ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ادريانس يدرس
اخنوخ (١) ٢٤٩ ، ٢٨٢	فيها ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٠
اخييت اتون اتل العمارنة (١) ٧٨ ح	٣٦٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ، ٤٤٤
٢٠١	ايتناوس (١) ٣٢٤ ، ٣٢٤
اخييش (١) ١٨٦ وانظر حدد الراعد	ايتنودوروس (١) ٤٢٨
٣٠٤	الايتنية - الدراهم (١) ٢٢٨
٣٥٥ ، ٣٥٤	اجنادين (٢) ١٠ ، ١١ ح ، معركة ١٤
٢٤٥	الاجوبة - كتاب (١) ٣٦١
١٧٧	احدث التقاسيم في معرفة الاقاليم
١٢٠	- كتاب للمقدسي (١) ٤٤ ح
٢٩٧	احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
٢٤٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٤٠	- كتاب للمقدسي (٢) ٢٠١
مصدر الحديد الخام ٢٠٠ ، ٢٥٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦	احش-مويرش (١) ٢٥٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦

صفحة	صفحة
١٥٦ ح ١٢٥ (٢)	٢١٦ ، ٢١٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣
٢٤٤ ، ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ١٦٥	ادميون (١) ٢٠٧ ، ٢٠٢ ، ١٩٢
الاردنية الهاشمية - الملكة (٢) ٣٥٤	٤١٧ ، ٢٦٩
الارض (١) ٥٢ ، ٣٩ ، ٣٥ ، ٢٤	ادونيس (١) ٢٨١ ، ١٧٢ ، ١٢٦ ، ٢٠
ارز الرب ٥٤ ؛ افخم اشجار	اديسا (١) ١٨٥ ، ١٨٤ ، ١٠٧
لبنان ٥٤ ؛ ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٧	تسميتها ٢٧٧ ؛ ٢٩٨ ، ٣١٠
١٤٢ ، ١٤٩ جباله ١٥٠ ؛ ١٥٣	٣٢٨ تحكمها طبقة استقرائية
١٨٦ ، ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢٠٩ ؛	٣٤٠ ، ٣٨٠ ، ٣٧١ ، ٣٤١
٣٢٤ ، ٣٠٣ ، ٢١٩	٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٣٧
٣٤٣ (٢)	٤٤٤ ، ٤٤٦
الارسالية الامريكية (٢) ٣٥٢	اديسون (١) ١٤
الارسالية المسيحية (٢) ٢٦٣	اذرح (٢) ٣٣ ، ٥
ارسطو (١) ٢٥٩	اذريجان (٢) ٨٧ ، ٢٨
(٢) ١٧٤-١٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٥٠	اذينة (اوديناثوس) (١) ٣١٤
ارسلان آل (٢) ١٧٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٥	٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩
ارسوف (٢) ٢٣٠	ارادس (١) ٩١ ، ٨٩
ارشاق (١) ٢٦٢	اراس (٢) ٢٥٦
ارصو (١) ٤٤٥	ارباد (١) ١٥١
ارض الميعاد (١) ٢٢٦	اربخا (١) ١٦٢
ارغوس (١) ٢٨٦	اربل (٢) ٢٩٢
ارثونة (٢) ٧٦	اربلا (١) ٢٥٦
ازقة (١) ٧٦	اربونة (٢) ٧٨
ارك (١) ٧٠	ارتحستا (١) ٣٨٢
اركاديوس (١) ٣٨٨ ، ٣٩٦	ارتحستا الاول (١) ٢٤٤
اركة (١) ٨٨	ارتحستا الثالث (١) ٢٤٧ ، ٢٤٨
ارم (١) ١٧٤ ، ٤٢٦	الارتقيون (٢) ٢٢٢ ، ٢٥١
ارمجدون (١) ١٤ هـ	٢٩٤ الارثوذكسية (١)
الارمن (١) ٢٨ ؛ ياوون الى	الارثوذكسية - الكنيسة (٢) ١٤٣
لبنان ٣٨ ؛ ٩٤ - ١٠٣ ، ١١٨	الارجوان - السوري (١) ١٠١-١٠٣
ملاهم ١٦٦ ؛ ١٨٣ ، ٣٠٨	ارخميدس (٢) ١٧٨
٤١٣	الارخميدي - اللولب (١) ٣٢٣
(٢) ١١ ، ١٢ ؛ في كيليكيا	ارخيغنس - الافامي (١) ٣٥٤
٢٢٥ ؛ ٢٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ؛	ارخيلالوس (١) ٣١٢ ، ٣١٣
٣١٣ ، ٣١٧	اردانا (١) ٧٩
الارمنية (١) الملكة ٢٧١	الاردن - وادي (١) ٤١ ، ٤٢
(٢) الكنيسة ١٣٩	الامطار فيه ٤٩ ؛ ٥٠ ، ٣٥٠
الارمنوي - العنصر او النوع (١)	نهر ٩ ؛ ٣٢٧ ، ٣٥١ ، ٤١٦
٨٢ ، ٢٨	٦٤ ، ٢١٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٧
ارميا (١) ٢٣٤ ، ٢١٩ سفره ٢٣٥	٤١٨ ، ٤٢٣

صفحة	صفحة
٢١٤	٢٤٣ - ٢٢٦
٧٨	ارمية (٢)
الاسبان (٢)	ارمينيا (١)
اسبانيا (١)	ارمينيا (٢)
٤ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٠٨ ، ١٠٥	١٢٩ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ٨٧ ، ٧٠ ، ٢٨ ، ٤١٣ ، ٣١٠
١١٦ : ٢٨٣ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، مورد	١٩٤
السك الجفف ٣٣٠ ، ٣٨٤ ، ٤١٤	ارنست هرتزفلك (١)
(٢) ٢٩ ، ٧٣ ، يغزوها	ارواد (١)
العرب ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ : ١٢٣ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٤	٨٩ ، ٩٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، تسك تقودا ٢٧٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ : ٣٨٩
٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٣٢٣	ارواد - جزيرة (٢)
الاسبانية - اللغة (٢)	ارواد على الخليج الفارسي (١)
الاسبانية - المدن (١)	الارواديون (١)
الاستارية - الاستاريون (٢)	اريتوزة (الرستن) (١)
٢٢٧ ح ٢٤٣ - ٢٤٥ - ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣	اريتوسا (١) ٢٧٦ وانظر الرستن وارييتوزة
٢٢١	اريجا (١) اقدم مساكن الانسان
الاستانة (٢)	١٨ - ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ١١٥ ، ٩٥ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٥٩ ، سقوطها ١٩٤ ، ٢٢٠ ، كنانها ٢٢٦ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، النحاس يستخرج من جوارها ٣٢٧ (٢) ١٢٣
٢٤٥	اريسطرخس (١)
استراليا (٢)	اريسطو يولس (١)
اسحق (١) ١٣٤ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ١٩٢	ارين (الامبراطورة) (٢)
اسحق بن حنين (٢) ١٧٦ ، ١٧٩	الاربوسية (١)
اسحق التينوي (٢) ١٨٠	الازارقة (٢)
اسد الدين شيركوه (٢) ٢٣٥	الازد (٢)
اسد يهودا (١) ٢٠٧	الازرق (٢)
اسدود (١) ١٤٦ هـ	ازيد (٢)
الاسراء الى مقام الاسرى - كتاب ٢٩٢ (٢)	الازهر (٢)
اسرائيل (١) ٥٤ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، بنو ١٦٩ ، ١٧٩ - ١٨١ ، ١٩١ - ١٩٣ ، بدء تاريخ بنينا ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، مملكة ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ - ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، انياؤها ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤ (٢) ٣٥٤	ازيرو (١)
الاسرائيلي - الغزو (١) ٤٣	اسامة بن منقذ (١)
الاجتمع ٢٣٣	٢٨٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ (٢)
الاسرائيليون (١) ٤٧ ، ٦٢ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٤ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ٢١٣	الاسباط العشرة المفقودة (١)

صفحة	صفحة
١٧ ، ٤٤٣ (٢) ظهوره	٢١٤ ، ٢٠٠
١٦٩ ، ٩٦ ، ٨٦ ، ٨٥ ، ١٩	اسرحدون (١) ١٤٤ ، ١٥٤ ، ٢٤٨
١٧٢ ، ١٨٠ ، تعاليمه ٢٠٠	اسفينية - حروف (١) ١٢١
٢٤٣ ، ٢٢٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤	اسطفان (٢) ٢٥٠
٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٦	اسطفان الدويهي (٢) ٢٢٢
اسماء ابنة ابي بكر (٢) ٥٩	اسعد العظم (٢) ٣٠٩
اسماعيل بن ابراهيم (١) ١٩٢	الاسكندر (١) ٦٥ ، ٦١ ، ٥
اسماعيل باشا العظم (٢) ٣٠٩	٩١ ، ١١٥ ، ١٣٥ ، ١٥٦
اسماعيل (مؤسس الاسماعيلية) (٢) ٢١٠	١٨٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩
اسماعيل بن جعفر الصادق (٢) ٢٠٩	فستوحاته ٢٥٣ - ٢٦٠
اسماعيل بن طفتكين (٢) ٢٠٩ ح	٢٦٤ ، المدن التي اسسها ٢٧٥
اسماعيل الناصر (٢) ٢٧١	- ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠
اسماعيل بن نور الدين (٢) ٢٣٦	٢٩٣ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
الاسماعيلية (٢) ١٩٠ ، ١٨٩ ، ١٢٠	٣٧٤ ، ٤٠٨ ، ٤١٧
٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ -	(٢) ٢٢٨ ، ١٨ ، ١٤
٢١٩ ، المذهب ٢٢٠ ، ٢٢٥	اسكندر الاول بالاس (١) ٢٨١ ، ٢٦٤
٢٣٥ ، ٢٥٩	اسكندر الثاني زابيناس (١) ٢٧٤ ، ٢٨١
اسوان (١) ٤٤٢ ، ١٨٤	اسكندر جانيوس (١) ٤١٩
ابو الاسود الدولي (٢) ١٠٥	اسكندر جناديوس (١) ٢٦٩
اسيس (٢) ١٢٥	اسكندر سفروس (١) ٣٤١
اسيوي ، اسيويون (١) ٥٧	٣٦١ ، ٣٨٠ - ٣٨٢ ، ٤٣٦
٨٢ ، ١٣٧ ، الملوك ٢٥٨	اسكندرون (١) ٣٣ ، ٣١
اشبيلية (٢) ١٥٦ ، ٧٤	(٢) ٣١٨
اشدود (١) ١٩٨ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٦	الاسكندرونة (١) ٢٥٤
الاشدوديون (١) ٢٠١	الاسكندرية (١) تأسيسها ٢٥٥
الاشرف (٢) ٢٦٧ ، ٢٤٨	حصارها ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠
الاشرف جان بلاط (٢) ٢٧٣ ح	مكتبتها ومتحفها ٢٨٣ ، ٣٠٥
الاشرف خليل (٢) ٢٧١	٣٠٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢
الاشرف سيف الدين انبال (٢) ٢٧٣ ح	٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٩٨
الاشرف سيف الدين برسباي (٢) ٢٧٣ ح	٤١٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤
الاشرف سيف الدين قاتباي (٢) ٢٧٣ ح	(٢) ١٧٤ ، ١١٣ ، ٢٤
الاشرف شعبان (٢) ٢٧١	٢٤٢ ، ٢٧٦
الاشرف طومان باي (٢) ٢٧٣ ح	الاسكوريال (٢) ٢٢٣
الاشرف قانصوه الغوري (٢) ٢٧٣ ح	اسكي شهر (٢) ٥٢
الاشرف مظفر الدين (٢) ٢٦٦ ح	الاسلام - الاسلامية (١) مصلتها
	بسورية ٣ ، ٤ ، ٢٢ ، ٢٣٦
	٢٣٨ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٥٠
	٤٥٢

صفحة	صفحة
٢٠٣	الاشرف موسى (٢) ٢٦٤ ح ٢٦٦
٨١	اشعيا (١) ١٢٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧
٢١٠	٢٢٤ - ٢٣٦
٤٥١	اشعيا الثاني (١) ٢٣٤ ، ٢٣٥
١٢٢ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٤٧ (٢)	اشمون عزز (١) ١٢٣ ، ١٣٥
٢٠٠	اشور (١) ٦٢ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ١١٢
٤٨	١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٨٦
٢٤٢	٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ -
٢٤٣	٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٣٠٣ ، ٤٤٢
٢٧١	اشور نيبال (١) ١٥٥
٤٠١	اشور ناصر بال (١) ١٥١
٢٩٤ ، ٢٩٠ ، ٢٧٦ ، ٢٦٢ (١)	الاشوري - الاشورية (١) امباطورية
٢٢٣ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢	١٥٥ ، ١٦٣ ، السدولة
٢٢٧ ، وصفها ٢٣٩	١٥٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨
٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠	٢١٩ ، الانار ١٠٦ ، الكتابات
٢٧٤ ، ٢٨١ - مركز سورية	١٤٤ ، الحكم ١٨٢ ، التشريع
٢٨٩ ، ٤١٤	١٨٨ ، المقاطعات ٢١٣ ، الثور
(٢) ١٤٠ ، ٢٣٢	٢٢٣ ، الجيش ٢١٧ ، ٢٢٨
افاريس - عاصمة الهكسوس (١)	الاشوريون (١) ٢٨ ، ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٤
١٦٠ ، معركة ١٦١ ، ١٩٣	٧٥ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٢٨
٢١١	١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٦٥ ، ١٦٨
٤٠٤	١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٦
٤٠٩	١٨٩ ، ٢٣٢ - ٢٣٤ ، ٢٤٢
٢٠٨	٣٠٤
الافرنج (٢) ٢٢٤ ، ٢٣٥ - ٢٣٨	(٢) ٢٥٢
٢٤٢ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠	الاشورية البابلية (١) اللغة ٦٦ ، ٦٧
٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠	الحضارة ١٥٦
٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، وانتظر	الاشوريون البابليون (١) ١٤٩ ، ٢٢٨
الفرنجة .	اشمراه (١) ١٢٠ ح
افروديت (١) ١٢٨ ، ١٤٦ ، ١٨٨	اصبهان (اصفهان) (٢) ٦٠ ، ٢٠٠
٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٤٤٨	الاصبهاني - ابو الفرج (٢) ١٩٧ ، ٢٠٠
افريقيا (١) ٤ ، ٥ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١٠٥	الاصطخري (١) ٢٣ ، ٦٣
١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣	(٢) ١٠٣
١١٥ ، ١٨٢ ، ٢٩١ ، ٣١٧	ابن ابي اصيبعة (٢) ٢٨٢ - ٢٨٤
٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٨	الاطلسي - المحيط (٢) ٦٤ ، ٧٢
(٢) ١٦ ، ٣٨٠ ، ٣٩ ، ٦٥ ، ٦٦	الاعاجم (٢) ١٠٢
٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٧	الاعتبار - كتاب لاسامة بن منقذ (١)
١٠١ ، ١٣٣ ، ١٥٦ ، ١٦١	٥٧
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠٣	الاطلسي (١) ٣٢٠ ، ٣٢٢ وانتظر المحيط

صفحة	صفحة
٢٨٦	الاكثيل - ديوان شعر (١)
٢٨٤	اكتانيا (١)
٣٧٧	الاكبال (١)
٣٤٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٦١ ، ٣٨١ ، ٤٤٠	الاكبالس (١)
١١٦	الالب - جبال (١)
٢٠٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤	الب ارسلان (٢)
٢٢٦	
٩٥	الباستر (١)
٢٢٤	البالونغا (١)
١١٤	البانيا (١)
٢٣٨	(٢)
٢٨	الالبى - العنصر (١)
٢٤٥	البرز - جبل (٢)
١٦٣	الالغ (١)
٣٣٤	الالعاب الاولمبية (١)
١٣٦	الفرد (ملك انجلترا) (٢)
٢٦٢ ، ٢٥١ ، ١٥٩	الف ليلة وليلة (٢)
٤٣٥	الكسندروس (١)
٢٢٤	الكسيوس كومنينوس (٢)
٤٤٠	الالمان (١)
٣٤٩ ، ٣١٣	(٢)
٣٢٢ ، ٤	المانيا (١)
٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٢ ، ٢٣٩	(٢)
٣٥١ ، ٣٤٨	
٢٤٦ ، ١٤٤ ، ٦٥	اللتبى (١)
٢٦٨ ، ٢٤٥	الموت - قلعة (٢)
ح٤	الوس موزل (٢)
١١٤ ، ١٠٢ ، ٩٦	الياذة هوميروس (١)
٢٥٩	
١٧٧	(٢)
٢١٨	الياهيم بن يوشيا (١)
٢٧٠	الايخان السابع غازان محمود (٢)
٢١١	اليشع (١)
٣١٩	اليصابات - الملكة (٢)
	٣٥٦ ، ٣٥١ ، ٣٠٥
٢٠٦	افريقيا الشرقية (١)
٢٩١	الافريقية - الفيلة (١)
٤١١	افسس - مجمع (١)
ح ٢٦٤	الافضل بن صلاح الدين (٢)
ح ٢٦٥	الافضل محمد (٢)
٢٠٥ ، ٦٥	افغانستان (٢)
ح ١٢٦	افقا (١)
٣٥٨	اغلاطون (١)
١٧٧	(٢)
٣٧٢	الانلاطونية (١)
	الانلاطونية الحديثة (الجديدة) (١)
٤١٠ ، ٣٩٣ ، ٣٥٩	
٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٠٠ ، ١٧٥	(٢)
٢٨٠	الانلاطونيون (١)
٣٩٨	الانلاطونيون الحديثون (١)
١٧٩ ، ١٧٤	افلوطين (٢)
٣١٧	افونسو البوكركي (٢)
٣٢٢	ايدبوس كاشيوس (١)
٨٠	افينيون (٢)
٤١٣	الاقباط (١)
١٣٧ ، ٩٠	(٢)
ح ٢٤٥	اقبطانا (١)
٤٨	انريطش (٢)
١٧٩ ، ١٧٤	انليدس (٢)
٦٦ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ١٢٢ ، ١٦٢ ، ١٨٤	الاكادى - الاكادية اللغة (١)
١٧٣ ، ١٥٨ ، ١٧٢	السلالة (١)
١٦٤	نصر (٢)
١٧٣	(٢)
١٨٦ ، ٦٧	الاكاديون (١)
٢٨٠	الاكاديمية الاثينية (١)
٢٤١	اكاسرة (٢)
٢٥٧	اكتيانا (١)
٣١١	اكتيوم - معركة (١)
٢٩١	الاكراد (١)
٣٢٨ ، ٢٧٣ ، ٢٦٠ ، ١٩٤	(٢)
١٤٧	اكرستيم (١)

صفحة	صفحة
١٨٣ : ٥٥ : ٣٥	اليوثير بوليس (١) ٢٧٨
٢٤٥ : ٢١٧	امارة امورية (١) ٧٤
٣١٧ : ١٤٢	اماصيا (ملك يهوذا) (١) ٤٣٠
١٤٢	الامساكن المرتفعة (١) ١٣١ : ١٣٤
٢٥٨	٢٠٧ : ٢٢١ : ٤٢٢ : ٤٢٨
٤٤٤	امانوس - جبل اللكام (١) ٣٢ : ٣٣
١٤١	٦٥ : ٧٦ : ٨٨ : ١٤٩ : ١٥٠
١٦٥	٥٣ (٢)
٢٩ : ٢٧ : ٢٠ : ٢٨ : ٢٤	امبي (١) ٧٧
١٩٠ : ١٥١	امتان (١) ٣٩١
٢٦٤ : ٢٦٣	الامثال - سفر (١) ١٢٣ : ٢٣٠
٢٢٠	امكي (١) ٧٦
٢٣٢	ام البيرة (١) ٤١٧
٢٦١	ام قطقة (١) ٩
٢٠٥ : ٥٤ : ٤٦	ام قيس (١) ٢٨٦ : ٢٨٥
٢٠٨ : ٢٧٠ : ١٨٣ : ٦٩	امحوتب (١) ٧٦ - ٧٨ : ٨٣
٣٠٩ : ٢١٧ : ٢١٨	امحوتب الثالث (١) ١٦٢
٤٤٤ : ٤٣٢	امحوتب الثاني (١) ١٦٢ : ١٤٦
٤٤٦ : ٤٤٧ : ٤٥٢	امحوتب الرابع (١) ١٦٢ : ١٤٤
١٧٢ (٢)	اممحب (١) ١٤١ : ١٤٢
٣٥٤	اممحت الثالث (١) ١٢٨
٣٥٤ : ٣٠٩	امورو (١) ٧٠ : ٧٢ : ٨٣ : ١٢٨ : ١٥٠
٢٨٠	١٦٨
٣٥٧	الاموري : الامورية (١) اللغة ٦٧ : ٧٢
٢٨٥ : ٢٨١	٨٢ : الحضارة ٧٣ : الديانة ٨٣
٢١١	١٦٤ : الهجرة ١٧٤ : الخزف
٢٥٩	١٢٥
٢٥٥	الاموريون (١) ٦١ : ٦٨ : ٧٠ : ٧٥
٢٤٩	٨٠ : ٨٥ : ١٣٢ : ١٦١
٢٧٩ : ٢٦٠ : ٢٥٩	١٧٥ : ١٧٦ : ١٩٠ : ٢٣٣
٤٢٧ : ٤١٧	١٩٤ (٢)
١٠٩ : ٧١	الاموية - الخلافة (١) ٦١
٢٥٢ : ١١٧ (٢)	الامويون (١) ٤ : ٤٤ : ٣٢٤
١٦٢	٢٤ : ٥١ : ٥٨ : ٦٣ (٢)
٨١ : ٦٩	الخلفاء وحياتهم ٩٠ - ٩٧ : ٩٤
١٦٢	١١٨ : ١٢٨ : ١٣٤ : ١٤٨
١٣٣ : ٨٧ : ٨٠ : ٧٩	١٥١ : ١٥٤ : ١٥٥ : ١٥٧ -
١٤٩ : جيش سوري فيها ١٥٦	١٥٩
٢٢١ : ٢٩١ : ٢٠٠ : ١٨٤	اميانس مرسلينوس (١) ٣٩٥

صفحة	صفحة
انطيوخس التاسع سيزيكينوس (١)	انديسيا (٢) ٢١٧
٢٧٤ ح.	الانسان البدائي (١) ١٣
انطيوخس الثالث (الكبير) (١) ٢٦٤ -	الانصار (٢) ٥٩
٢٦٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ،	انطاكية (١) ٢٢ ، ٢٣ ، الزلازل فيها
٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ١١٦	٤٢ ، ٦١ ، ٧٦ ، ١١٥ ، ١٦٣ ،
انطيوخس الثالث عشر (١) ٢٧٤ ، ٢٧٣	١٨٥ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،
انطيوخس الثامن غريبوس (١) ٢٧٤ ،	٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، انشاؤها
٢٨٩	واسمها ٢٧٧ ؛ ٢٧٩ ، ٢٨٣ ،
انطيوخس الثاني - تيوس (١) ٢٦٤	٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٨٣ ،
انطيوخس الثاني عشر (١) ٢٧٤ ح.	٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،
انطيوخس الحادي عشر ايفانوس (١)	٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
٢٧٤ ح.	٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
انطيوخس الخامس يوسيبوس (١)	ذات مقال حجرية ٢٢٧ ؛ ٢٢٨ ،
٢٧٣	٢٢٣ - ٢٢٩ ؛ ٢٤١ ، ٢٤٣ ،
انطيوخس الخامس - يوباتر (١) ٢٦٤	٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ،
انطيوخس السابع سيديتس (١)	٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٨١ ، مركز
٢٨٩ ، ٢٧٣	سورية الاولى ٢٨٩ ؛ ٢٩٣ -
انطيوخس السادس تيوس (١) ٢٧٣ ح	٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٤٠٤ ،
انطيوخس الرابع - ايفانوس (١) ٢٦٤	٤٠٩ - ٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ،
٢٩٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٠ ، ٢٦٦	(٢) ١١ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٤٧ ،
انطيوخس العاشر يوسيبوس (١)	٥٣ ، ٥٤ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٧٤ هـ.	١٧٤ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ،
انطيوخس المسقلاني (١) ٢٨٠	٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، في طريق
انطيوخس كاليروهي (١) ٢٧٧	الصليبيين ٢٢٦ ؛ اكتشاف
انطون - القديس (١) ٤٠٤	الحربة المقدسة فيها ٢٢٧ ؛
انطونيوس يوس (١) ٣٢٠ ، ٣٣٤ ،	٢٢٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ،
٣٤٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ،	٢٥٠ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ،
الانطوني - العصر (١) ٣٥٧ ، ٣٥٥	الانطاكيون (١) ٢٦٧ ، ٢٧٩
الانطونية - الاسرة (١) ٣٧٨	انطوطوس (٢) ٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ،
الانطونيون (١) ٣٢٠	٢٥٤
٧٧ ح.	انطلياس (١) ٩ ، ١٢ ، ١٣ ،
٤٤٠ ، ١٦٦	انطونيو (١) ٤٣٤
٢٩٧ (٢)	انطيوخس (١) ١١٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ،
الانكشارية (٢) ١٨٥ ، ٢٩٨ ، ٣١١ ،	٢٦٨ ، ٢٨٠ ،
٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ،	انطيوخس ايفانوس (١) ٢١٥ ، ٣٠٥ ،
٣٢٨	٣٠٦ ، ٣١٢ ،
انكترا (١) ٤ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ٢١٤ ،	انطيوخس الاول - سوتر (١) ٢٦٤ ،
٣٢٢	٢٩٠
٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٣٩ (٢)	

صفحة

صفحة

٣٢٢ ، ٣٢٣	انكليز (٢) ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ،
اورخان (٢) ٣٠٤ ح .	٣١٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤
اورشليم (١) ١٧٣ ، ١٦٩ ، ٨٩ ، ٤٠	الانكليزية - اللغة (٢) ٢٨٤ ، ٢٥٢
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،	الانكليكان (٢) ١٣٧
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ - ٢٠٩ ،	انوجور بن اخشيد (٢) ١٩١
٢١٥ - ٢٢٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٨ ، ٢٤٣	انور بك (٢) ٢٥١
- ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،	انيون (١) ٢٢٩
٢٧٨ ، ٢٩٦ ، ٣١٢ ، ٣٢٦ ،	اهدن (٢) ٢٥٨ - ٢٢٣
٣٢٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧١ ،	اهرون (٢) ١١٣
٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ،	اهريمان (١) ٢٤٦
٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ،	اهل البيت (٢) ١٦١
٤٣٠	اهل الكتاب (٢) ١٧
اورغناسية (١) ١٢	الاهواز (٢) ٦٠
اورفا (١) ٢٧٧	اوبي (في منطقة دمشق) (١) ٧٦
اورليان (١) ٣٩٢ ، ٣٩٩ - ٤٤١	اوتيكا (١) ١٠٢ ، ١١٠
اورمية - بحيرة (١) ١٦١	اوديناتوس (١) ٤٣٧
اورنتس (١) ٣٢ ، وانظر نهر العاصي	اور (١) ١٤٩ ، ١٩١
اورهاي (١) ٢٧٧ ح .	اوراس جبل (٢) ٧١
اورباتوس (١) ٢٧٢	اوربا (اوروبا) (١) ٣ ، ٥ ، ٨ ، ١٢ ،
اوريجين (١) ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣	٢٩ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٤٨ ،
الاوزاعي (٢) ١٠٧ - ١١٨ ح . ١٦٧ ،	١١٤ ، ١٥٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ،
١٧٠ - ١٨٣ ، ١٨٤	٣١٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،
اوزيرس (١) ٢٠	٤٣٨
اوزيريس (١) ١٢٦ - ١٤٦	اوربا (٢) ١٠١ ، ٧٣ ، ١٢٧ ،
اوستراليا (٢) ١٤٢	٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
الاوستريون (١) ١٤٤ هـ .	٢٢٧ ح ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
اوستيا (١) ٢٨٤	٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٢ ،
اوغاريت (١) ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٠٣ ،
٦٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٢٠ ،	٣١٦ - ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤ ،
١٢٢ - ١٢٥ ، ادبيا ١٢٤ ، ١٢٧ ،	٣٥٦
١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٦٧ ،	اوربا (ابنة الملك الفينيقي) (١) ١١٤
١٧٣ ، ١٩٦ ، كتابات ٢٢٢ ،	اوربان (البابا) (٢) ٢٢٤
٢٢٥	اوربانوس الثاني (٢) ٢٢٣
اوغسطا (١) ٣٧٨ ، ٤٣٩	الاوربية - الامم (١) ٢٣٥
اوغسطس قيصر (١) ٢٠٧ ، ٢٠٩ ،	اوربية (٢) لغة ١٧٨ ، البلاد ٢٨٩ ،
٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،	الدول ٣٣٤ ، الثقافة ٣٥٦
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ،	الاوريون (١) ١٩٧
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ،	(٢) ٢٥٠ ، ٢٥٥ - ٢٥٧ ،
٤٢٠ ، ٤٢٩	٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،

صفحة	صفحة
١٧٥	الايساغوجا (٢)
١٨٢ ح	ايسوب - قصصه
٢٥٥ - ٢٥٣ (١)	ايسوس - معركة (١)
٢٣٤	
١١٦ ، ١٠٣ ، ٥٣ ، ٤ (١)	ايطاليا (١)
١٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٨٣ ، ٣٠٣ ،	
٢٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ،	مورد
٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ ،	الخزف
٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨	
٢٢٤ ، ١٤٢ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٣٠٩ ،	(٢)
٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٦ ،	
٣٥١	
الايطالية (١) اللغة. ٥٠ ؛ الجيوش ٣١٦ ؛	
البلاد ٣٩٣	
الايطالي - الاسطول (٢) ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،	
الايطاليون (١) ٣٠١ ، ٣١٨ ، ٣٥٠ ،	
٣٧٣	
الايطاليون (٢) ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٣٣٢ ،	
١٧٨ ح	ايطوريا (١)
ايل (اله) (١) ١٢٧ ، ١٤٦ ، ١٨٨ ،	
٢٠٨	
ايلات (١) ٢٠٦ وانظر ايلة	
ايل غازي بن ارطق (٢) ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،	
١٨٩	ايل وير (١)
٤٢٦	ايلة (١)
٦ ، ٥ (٢)	
٣٥	ايلياء (٢)
٤٢٠	ايليوس غالوس (١)
٣٧٧	ايليوس (هادريان) (١)
٢٢٢ ، ٢١١ ، ٤٠ ،	ايليا (النبى) (١)
٣٧٧	ايليا كاييتولينا (١)
٢٧٤	اينال (٢)
١٠٨	ايونيا (١)
٢٤٠	الايونية (المدن) (١)
٢٦٤ ح	ايوب (اصل الاسرة الايوبية) (٢)
٤٧	ايوب الانتصاري - ابو (٢)
٢٣٠ ، ١٢٤	ايوب - سفر (١)
٢٣٦	ايوب (والد صلاح الدين) (٢)
٢٨٣	الاوغسطي - العصر (١)
١١٠	اوغسطين (القديس) (١)
٧١	اوغسطينوس (٢)
٢١١	اوكتافيان (اغسطس) (١)
٧٩	اولازا (١)
٤٥	اولاس (٢)
(١)	اوليان (دوميتيوس اوليانس) (١)
٢٨٢ ، ٢٧٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٠	
٣٤٦ ح	اوهانس كيومجيان (٢)
٢٥٦	الاولب - جبل (١)
٣٠٩	اولوس غابينيوس (١)
١٣٧	اوني (قائد يبي الاول) (١)
١٣٧	اونيس (١)
٢٧٧	اياس - ابن (٢)
١١١	ايبيريا (١)
١١٣	ايبيرية (١)
٢٧١	ايبك (٢)
١١٣	ايبيري (١)
٧٢ ، ٦٥	ايبيريا (٢)
٢٩١ ، معركة ٢٦٠ ،	ايسوس (١)
٢٩٢	
١٥٣	ايتبعل - ملك صيدا (١)
١٢١	ايتوبعل (١)
٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٣١٧ ،	الايتوريون (١)
٤٨	ايجه - بحر (٢)
١٩٦ ؛	الايجي (١) العالم ٩٧ ؛ البلاد ١٩٦ ؛
٣٠١	البحر ٢٧٠ ؛ الجزيرة ٣٠١
٣٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤ (١)	ايدومية (١)
٣٠٢	الايدومية - المدن (١)
٤٣٠ ، ٣١٧	الايدوميون (١)
٤٣٧ ، ٢١٤ ، ٦٣	ايران (١)
١٩٠ ، ٦٦ (٢)	
٢٩٨	الامراتية - الهضبة (١)
٦٨	الايروانيون (٢)
١١٢	ايرلاندي (١)
١٦٤	ايرين (٢)
٢٢٢ ، ٢٠٩ (١)	ايزابل ابنة ايتبعل (١)
٢٢٢	ايزابيل (١)
٢٦٩ ، ١٦٠ ، ٢٠ (١)	ايزيش (١)

صفحة	صفحة
٦٢ : ٦٦ : ٦٨ : ٦٩ : ١٠٤	الابوبية - السلالة (٢) ٢٦٤ ح ، ٢٦٥ - ٢٦٦
١٨١	الابوبيون (٢) ٢٣٤ : ٢٤٢ : ٢٤٣ - ٢٥٢ : ٢٥٩ : ٢٦٢ - ٢٦٦ ، ٢٧٤ : ٢٧٩ - مباتهم ٢٨٣ - ٢٨٦ : ٢٩٤ ، ٢٩٦
١١٢ : ١١١ : ٩٥ : ١٧ (٢)	- الباب -
٢١٦ ، ٢١٣	الباب الصغير (٢) ٤٣ ح
٤٦	الباب العالي (٢) ٣١٦ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٤٢ - ٣٤٣
بادية الجزيرة (١)	بائسل (١) ١٧ ، ٢٠ : ٦٥ ، ٧١ ، الاموريون فيها ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٤ ، السبي اليها ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ - ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، رجوع الاسكندر اليها ٢٥٨ : ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ : ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩
٤٦ ، نباتاتها ٥٢ ، ٦٥ : ٨٣	البابلي (١) المجتمع ٩٣ ، النظام ٢٢٨ بابلية (١) امراطورية ٦١ ، ٧٢ تأثيرات ٨٥ ، دولة ١٣٦ : ٢١٨ : ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، لغة ١٤٩ : ١٦٨ - حكم ١٨٢ ، ٢٥٣ (٢) الهجرة ١٧
(٢) الوليد الثاني يسكنها	البابليون (١) ٦٢ : ٦٤ : ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٢٨ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٨٤ ، ٢٣٢ (٢) ١٧٩
١٥٠ : ١٧٥ ، ١٩٧ : ٢١٤ ، ٢٢٨	بابيروس (١) ٢٢٥
٢٢٨	بابينيان (١) اميلوس بابينيانس (١) ٣٦٠ - ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
بادية شرقي الاردن (١) ١٩٤	باخوس (١) ٢٨٥
بادية العراق (١) ٤٦	البادية (١) ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٧٩
باراق (١) ١٩٥	
بار حدد (١) ١٨٧	
البارد - نهر (١) ٧٩	
بارديسانس (ابن ديسان) (١)	
٤٠٩ ، ٤١٠	
بار ركاب (١) ١٨٦	
بارمينيو (١) ٢٥٤ ، ٢٥٥	
الباروك (١) ٥٤	
(٢) ٢٢٦	
باريس (١) ٥	
(٢) ٨٠ ، ٢٢٢ ، ٢٥٠	
باسياتس (١) ٢٧٩	
باسيل (الامبراطور) (٢) ١٩٦	
باسيليوس (١) ٢٩٤ ، ٤٠٠	
باسيليوس الاصغر (١) ٢٥١	
باسيليوس الكبير (١) ٢٩٤	
باشان (١) ٤٥ - ٨١ - ١٧٧ - ٣٠٣	
الباطنية (٢) ٢١٧ : ٢١٨	
بالاس (١) ٢٨١	
الباليار (١) ١١٦	
باليرمو (١) ١١٢	
(٢) ٢٢٩	
بامبيس - هيرابوليس (١) ٢٨١	
بان - اله اليونان (١) ٢٦٥	
بانس (٢) ١١ : ١٠	
بانوس (١) ٢٨٦	
بانونيا (١) ٢٨٤	

صفحة	صفحة
ح ٣٤٠ - ٣٣٦	بردي (وادي) (١)
ح ٣٤٠	٨١ ، ٩٤
٣٤٣	(٢) نهر
ح ٣٤١ ، ٣٤٠	بردة أنبي (٢)
٣٥١ ، ٣٤٢	بردويل (٢)
٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠	البردي - شجر (١)
٣٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٦	برسباي (٢)
كائدرائيتها ٤٤٨	برسبوليس (١) ٢٤٠ ، ٢٤٩
(٢) ٤ : ٥ : ٧	٢٥٦ ، وادي ٢٥٧ ، ٤٣٧
العرب ١٠ ، ٢٣٥	برسلونة (١)
البصرة (٢) ٢٩ ، احتدام «يوم النجمل»	برصوما (١)
بظاها ٣١ ، ٣٦ - ٢٨ ، ٦٢	برغامس (٢)
٦٦ ، ٦٨ ، ٨٧ : قناتها ١٠٢	برغام (برغاموم) (١)
١٠٥ : ١٠٦ ، ١١٤ : ١١٥	(٢)
٣١٨	برقة (١)
بصل عقلاق (١) ٢٢٥	(٢)
البطالة - اسرة دولة ، ٢٧٣ - ٢٧٦	برقوق (٢)
٢٨٢ : ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧	بركه بن بيبرس (٢)
٢٩٨ - ٣٠٠ - ٣٠٥ : ٤١٣	برلام الزاهد (٢)
٤١٩ ، ٤٢٠	برمك (٢)
٢٦٧ : ٢٧١	برمانا (٢)
٢٥٣ (٢)	البرنيه - جبال (٢) ٦٤ ، ٧٨ ، ٧٩
٢٤٧	بروبوس (١)
١١٦	بروسا (٢)
٢١٤	بروسيا (٢)
٢٦٥ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩	بروكوبيوس (١) ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤١٣
٣١١ : ٣٥٠ ، ٣٥٤	بريتان (١)
(٢) ١٧٨ ، ١٧٤	بريدود - اوبرت (١)
٢٦٢	بريسا (وادي) (١)
٢٨٣	بريطانيا (١)
بظلموس الثاني فيلادلفوس (١)	(٢)
٢٧٧ - ٢٧٧	بسر بن اوطاة (٢)
٢٢٤	بسكره (٢)
٧	بسكي - خليج (٢)
٢٤	بسيانوس (١)
٣٣٤	بشري (١)
١٣٠ ، ١٢٥ ، ١٢٤	(٢)
١٢٨ - ١٨٨ - ٢١١ ، ٢١٨	بشيتا (١)
٢٢٢ - ٢٣١ ، ٢٦٧ ، ٢٤١	بشير - الامير (٢) ٢٨٠ ، ٣٣٢
	٣٣٤ ، ٣٤٣

صفحة	صفحة
٣٢٠ : ٣٣٥ : ٢٤١ - ٢٤٤	٣٤٣ ، ٤٢٤ ، ٤٤١ ، ٤٤٥
٣ البقاع المقدسة (١)	١٦٠ بعل انه الهكسوس (١)
٢٧٠ ، ٢٥٨ بكتريا (بلخ)	٣٤٠ بعل الافاعي (١)
٢٩١ بكترية (١)	٢٢٢ بعل ايش (١)
٩٨ بكر (٢)	بعلبك (١) ٤١ ، ٤٣ ، ١٧٩ ،
١٦ ، ١٤ ، ٧٠ ، ٥ بكر - ابو (٢)	١٨٧ ، ٢٧٢ ، جاليات الرومان فيها
٢٧ ، ٢٨ ، ٢٨	٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٧٠ ، تقودها
٢٧١ بكر - ابو الناصر (٢)	القديمة ٣٨٢ ؛
٣٠ ابي بكر - ابن (٢)	(٢) ١١ ، ٥٤ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ،
١٦ ح بكر (٢)	١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، استيلاء
١٤١ بكركي (٢)	زنكي عليها ٢٠٧ ؛ ٢٣٢ ،
١٦ ، ٢٦ انلاذري (٢)	٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٢٢٦ ، الشيعة
٨٠ بلاط الشهداء (٢)	فيها ٢٢٧
١٥٩ البلاطة (١)	٣٨٤ بعل بيروت (١)
١٥٦ بلج بن بشر القشيري (٢)	٣٨١ بعل الحمصي (١)
٣١٦ بلجيكي - الدستور (٢)	بعل شمين (١) ١٨٩ ، ٤٥٥ وانظر حدد
٢٢٤ الباج النيقولاوي (١)	٤٤٥ بعلشميه (١)
٢٥٨ بلخ (١)	١٥٥ ، ٢١١ بعل صور (١)
٦٨ ، ٦٦ ، ٣٨ (٢)	٢٨٤ بعل غزوة (١)
٤٢٤ بلدوين الاول (١)	١١٠ بعل لبنان (١)
٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ - بلدوين (٢)	٣٨٤ بعل مرقود (١)
٢٥٣ ، ٢٣٢	٢٢٢ بعل يداع (١)
٢٣٩ بلشاحر (١)	١٥١ بعلي راسي (١)
٥٠ البلقاريون (٢)	٢٨١ البعليم - الديانة (١)
٤١ ح بلفورت - قلعة (١)	١٢٩ البعنة (١)
٤٤٨ البلقاء (١)	٢٩٨ ، ٦٥ ، ٤ بغداد (١)
١٢٥ ح (٢)	(٢) ١١٥ ، ١٣٦ ، ١٥٩ ،
٣٥١ انبلقان (٢)	١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ،
٢٠٧ بلقيس (١)	١٧٧ ، استقرار ابي تمام فيها
٦٩ ، ٦٥ بلوختان (٢)	١٨١ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
٣٥٩ ، ٣٥٨ بلوتينوس (١)	١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
٣١٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٠ بلوطرخس (١)	٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
٤٤٧ ، ٤١٣ ، ٣٩٨ بليستاريوس (١)	٢٦٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ،
٢٤٥ ، ١٠٣ ، ٩٩ بليتي (١)	٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، مرور الخط
٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٤ -	التجاري بها ٣١٨ ، ٣٤٨
٣٥٧ ، ٣٥٠ ، ٢٢٦	البقاع (١) ٤١ ، ٤٢ ، ١٣٨ ، ١٧٨
٣٩٩ بمفيلوس (١)	(٢) ١٦٥ ، ١٦٧ ، لجوء عناصر
٢٥٧ ، ٢٤٠ البنجاب (١)	اسلامية اليه ٢٥٩ ؛ ٣٠٧ ،
٦٩ ، ٦٥ (٢)	٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،

صفحة	صفحة
١٥٤	بحدد الاول (١) ١٧٩ ، ١٨٣
١٧٠ ، ١٦٦ ، ٧ (١) ، ١٧٠	البندقية (١) ١٠٣ ، ٣٩٣
٢٥١	(٢) ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣
بولدين — انظر بلدوين	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨
بولس (الرسول) (١) ١١٢ ، ٢٣٦	٣١٩
٢٣٧ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠	البندقيون (٢) ٢١٢ ، ٣١٨
٣٧٤ ، ٤٢٢ ، ٤٣٠	بنامو الاول (١) ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨
بومبي (١) ٦٥ ، ١٨٢ ، ٢٤٦	بنامو الثاني (١) ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦
٢٧٤ ، ٢٨٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨	بنامو — ابو (١) ١٨٦
٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٧٥	بنيامين (١) ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨
٤٢٠	بنيامين التوديلي (١) ٢١٤
البونت (يونيس) (١) ٢٧٤ ، ٣١٠	(٢) ١٧١ ، ٢١٩ ، ٢٧٩
٣١١	البهائية (١) ٦٤
بونية (١) حروف ١١٣ ، اللغة ٢٧٧	(٢) ٢١٩
بوهمند (٢) ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠	بهاء الدين (٢) ٢١٨
البويهيون (٢) ١٩١	بهاء الدين بن شداد (٢) ٢٤١
بيبرس (١) ٥ (٢) ٢٤٣ ، ٢٤٤	بهاء الدين المقتنى (٢) ٢١٨
قضاؤه على الحشاشين ٢٤٧	بهاء (جبال التصرية) (١) ٢٣ ح
٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦	البهلوية — اللغة (١) ١٨٢
٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٤	(٢) ٨٢
٢٧٦ ، ٢٧٨ ، تنصيه المستنصر	بواتيه (٢) ٧٩
٢٩٨	بوتريس (١) ٣٨٩
بيبرس الثاني (٢) ٢٧١	بودايست (٢) ٣٠٥
بيلوس (١) ١٨ ، ٢٧ ، ١٠٤	بوذا (٢) ١١٧ ، ٢٧٠
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧	البوذية (١) ٤١٠ ، ٤١١
١٢٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ وانظر جيل	(٢) ٦٨
١٢٧	البوذون (١) ١٨٣
بيت ايل (١) ٢١٣	بورديو (١) ٢٨٩
بيت بلت (١) ١٩٧	(٢) ٧٩
بيت جبرين (١) ٢٩ ، ١٩٧ ، ٢٧٨	بور فيريوس (١) ٣٥٨ — ٣٦٠
٣٠٢	٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٤٤
١٠ (٢) ح	بوركهارت (١) ٤٢٥
بيت الحكمة (٢) ١٧٦ ، ٢٨٤	بوري بن طفتكين (٢) ٢٠٩
٢٠٩	البوسفور (٢) ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٢٤٨
٢٤٣	بوسنيا (٢) ٢٣٧ ، ٢٣٨
١١٢	بوسيدون — الاله (نبتون) (١) ١١٠
٢٧ ، ٨٧	٣٠١ ، ٢٤٣
١٢٨ ، ١٢١ ، ١٩٤ ، ١٩٨	بوسيدونيوس (١) ٢٧٦ ، ٢٨٣
	٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٢

صفحة	صفحة
٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢	٢٠٣ ، ٢٧٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ وانظر
٣٥	بيسان
البيروني (١)	بيت شمش (١) ١٢٠ : ١٢١
بيرويا (١) ٢٧٨ ، ٢٨٩ وانظر حلب	١٥٩ : ٢٢٦
بيرية (١) ٢٦١ ح	بيت العاج (١) ٢٠٩
بيريتوس (١) ٢٧٧	بيت عنات (١) ١٢٨
بيزا (٢) ٢٢٣ ، ٢٢٣ ، ٢٥٠	بيت عنوت (١) ١٢٩
بيزنطة (١) ٣١٣ ، ٣٨٦ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠	بيت عينون (١) ١٢٩ ح
(٢) ٣ ، ٤ ، ١٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٦٤ ، ١٩٥	بيت غابة لبنان (١) ٢٠٥
البيزنطي (١) الجيش ٥٠	بيت لحم (١) ٢٩٨
(٢) الاسطول ٢٥ ، ٨٩ ؛ الجيش ٨٨ ؛ الحكم ٣١٣	(٢) ٢٥٨
البيزنطية - الامبراطورية (١) ٣٢ ، ١٠٣ ، الحصون ٤٥ ، الحضارة ٣٨٦ ، الدولة ٣٩١ ، العصر البيزنطي ٤٠٣	بيت الماء (١) ٢٧٩ ح
(٢) الاحسان ١٢١ ؛ الامبراطورية ٣ ، ١٣ ، ٣٨ ، ١٠٢ ، ٣٠٤ ؛ الحملة ٢٢٨ ؛ الملكة ٢٥١ ؛ النقود ٨٤	بيت المقدس (٢) ٢٠١
البيزنطيون (١) ٢٤٠ ، ٤١٠ ، ٤٤٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٤٩ (٢)	بيتين (١) ٢١٣ ح
١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٣٥٦	بيثنيا (١) ٢٨٧ ، ٣٥٥
بيسان (١) ٨٧ ، ٢٧٧ ، ٣٠٩	بير السبع (١) ٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٣ ، ١٩٧
٣١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٧ وانظر بيت شان	البيرة (١) ٢٢٧ ح
(٢) ١٠٠ ، ٢٢٩	بير الكاهنة (٢) ٧١
بيصور (٢) ٢٧٩	بيروت (١) مدرستها للحقوق الرومانية
البيطار - ابن (٢) ٢٨٣	٢ ، ٣ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ؛ معدل
بيلاطس البنطي (١) ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٦٣	الامطار فيها ٤٩ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٣١٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٣ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٢٧
بيلا (١) ٢٧٦	(٢) ١٢ ، ٥٤ ، ٧١ ، ١٠٠
بيلا ديون (١) ٣٥٠	١٤١ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨٣
بيلان - مضيق (١) ٢٣	اقامة الاوزاعي بها ١٨٤ ، ١٩٥
بيلوزيون - قلعة (١) ٢٦٦	٢٠٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ح ؛ ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، دفاع
	ال بحتر عنها ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠
	تجميل فخر الدين لها ٣٣٠ ؛

صفحة	صفحة
٢٨٩ - ٤١٦ - ٤٢٤ - ٤٢٩ -	- التاء -
٤٣٧ - استسلامها لاورليان	١٩٨ : ٢٢٢ تابوت العهد (١)
وبقايا اثارها وحضارتها ٤٤٠ -	٢٩٣ تاج الدين السبكي (٢)
٤٤٤ ؛ ٤٤٦ - ٤٤٨	٢٩٤ تاريخ ابن الاثير (٢)
تدمر (٢) ٤١ - ٩١ - ١٢٧ - ١٣٢ -	٣٥٣ تاريخ بابل - كتاب (١)
١٥٠ - ١٦٤ - ٢٧٦ - ٣٠٧ -	٢٨٣ تاريخ بوليبوس (١)
٢٣٣	٢٩٢ التاريخ الكبير - كتاب (٢)
التدمرية (١) الدولة ٢٨ - اللغة ١٨٤	٣٩٧ التاريخ الكنسي (١)
٤٣٩	٣٥٩ التاسوعات - كتاب (١)
التدمريون (١) ٢٨٥ - ٤٣٢ - ٤٣٦ -	٣٩٥ تاسيتوس (١)
٤٤٠ - ٤٤٢ - ٤٤٤	٦٩ تاشكند (٢)
تراجان (١) ٢١٨ - ٢٢٠ - ٢٢٢ -	٤٣٣ ، ٤٣٢ تمار (١)
توسيع بصرى في زمنه ٢٢٣ ؛	٢٢٢ - ٢٢٩ ، ٢٢٦ - ٢٢٥ - ٢٢٣ -
٢٢٩ - ٢٣٤ - ٢٣٩ - موته ٢٤٤ ؛	١٦٠ - ح تانيس (تيس) (١)
٢٥٤ - ٢٦٥ - ٢٦٧ - زيارته	١٧٧ تاوفيل الرهاوي (٢)
لاتطايه ٢٧٢ ؛ ٢٧٣ - ٢٩٢ -	١٣٧ تاوي - سعيد (٢)
٤٢٤ ؛ ٤٣٥	٢٧٠ تبريز (٢)
١١٤ تراقية (١)	١٣٥ ح تبني (١)
٧١ ترتليان (٢)	٦ ، ٤ تبوك (٢)
الترجمة السبعينية (٢) ١٧٥	٢٧٩ ؛ ٢٦٨ ، ٢٤٣ التتر (٢)
الترجوم - اللهجة (١) ١٨٤	٢٠٨ - ٢٠٥ - ٢٠٨ تش بن الب ارسلان (٢)
١٥٥ ترخاقا - ملك مصر (١)	١٩٦ تجكر (١)
٢٠٩ - ٢٠٨ ترزة (١)	٧٧ ، ٧٥ ، ٥ تحوتمس (١)
١١٢ ترشيش (١)	١٤٢ ؛ ١٣٩ (١) تحوتمس الاول
الترك (٢) ٢٨ - ٤٧ - ٦٨ - ١٢٤ -	١٦٣ ، ١٤٧
١٦٧ - ١٨٥ - ٢٠٤ - ٢١٢ -	٩٤ ، ٩٢ ، ٨٩ (١) تحوتمس الثالث
٢٦٨ - اصلهم ٣٠٣ ؛ ٣٠٧ -	١٣١ ، استيلائه على قسم من
٢١٢ ؛ ٢١٦ ؛ ٢٤١	لبنان ١٤٠ ؛ ١٤٣ ؛ ١٤٨ ؛
التركستان (١) ٢٧٠	١٥١ ، تغلبه على الهكوس في
١٣٧ ؛ ٧٢ - ٦٥ - ٢٨ (٢)	سورية ١٦١ ؛
٢٠٠ - ٢٠٤ ؛ ٢٢٠ - ٢٠٣ -	١٤٧ ؛ ١٠٠ تحوتمس الرابع (١)
تركستان الصينية (٢) ٦٨ ؛ ١٠١ -	٢٢٠ التختجيح - الطريقة (٢)
التركمان (٢) ٢٠٤ ؛ ٢٦٠ -	تدمر (١) ٢٨ ؛ ٤٢ - ٤٦ ، ٦٥ ؛
التركي ، التركية (١) الحكم ١٤٨ -	التقوش في معابدها ١٨٨ ؛ ٢٨١
الجبالي ٣٣	٣١٤ ؛ ٣١٨ ، ٣١٩ ؛ ٣٢٨ ؛
(٢) اللغة ٣٠٤ ؛ ٣١٧ ؛	٣٢٩ ؛ تطورها الى دولة كبرى
الامبراطورية ٣٠٥	٣٤٠ ؛ ٣٤١ ، ٣٥١ ، ٣٨٥ ؛
تركيا (٢) ٢٣٤ ؛ ٢٣٧ - ٢٤٧ - ٢٥١ -	
تركيا الفتاة - جمعية وحزب (٢)	

صفحة	صفحة
٢٥١ : ٢٥٠	٢٥١ : ٢٥٠
٢٦٦	٢٦٦
٢١٧	٢١٧
٢٧٣ ، ٢٠١	٢٧٣ ، ٢٠١
٢٧٧ ، ٢٧٩	٢٧٧ ، ٢٧٩
٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨	٣٢٢ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨
٢٥١	٢٥١
٢٩٠ — ٢٨٩	٢٩٠ — ٢٨٩
٢٩٥	٢٩٥
٢٧٦ ، ٢٧٤	٢٧٦ ، ٢٧٤
٢٩٧	٢٩٧
١٧٥ ، ١٥١ ، ١٥٠	١٧٥ ، ١٥١ ، ١٥٠
٤٣٢ ، ١٧٤	٤٣٢ ، ١٧٤
١٨٢ ، ١٥١	١٨٢ ، ١٥١
٢١٢	٢١٢
١٠٩ ، ٩٩ ، ٩٨	١٠٩ ، ٩٩ ، ٩٨
١٩٣ : ١٧٥	١٩٣ : ١٧٥
٢٣٣	٢٣٣
٤٢ ح	٤٢ ح
٢٩٥ ، ٢٩٤	٢٩٥ ، ٢٩٤
٢١٧	٢١٧
٢٣٥	٢٣٥
٢٢٣	٢٢٣
٢٣١	٢٣١
٣٣٥ ، ٣٢٦	٣٣٥ ، ٣٢٦
٢٣٦	٢٣٦
١٠٦	١٠٦
٢٣٧	٢٣٧
٩٦	٩٦
١٧١	١٧١
١٥١ ح	١٥١ ح
١٨٨ ح	١٨٨ ح
١١٤	١١٤
٩٢	٩٢
٢٢٥ ح	٢٢٥ ح
٢٩ ، ٢٢ ، ١٨	٢٩ ، ٢٢ ، ١٨
٢٦	٢٦
٧٢	٧٢
٢٢٥ : ٢٧٠	٢٢٥ : ٢٧٠
١٨٣ ، ١٦٢	١٨٣ ، ١٦٢
٢٠٦ ح	٢٠٦ ح
١٩٧ ح	١٩٧ ح
١٩٤ ، ١٣٠ ، ٨٧	١٩٤ ، ١٣٠ ، ٨٧
١٢٠ ح	١٢٠ ح
١٥٩	١٥٩
١٩٧	١٩٧
١٥٨	١٥٨
١٩٧ ح	١٩٧ ح
١٨٨ ح	١٨٨ ح
١٦٣ ، ١٢٢	١٦٣ ، ١٢٢
٧٨ ، ٧٥ ، ٧٨	٧٨ ، ٧٥ ، ٧٨
١٦٢ ح	١٦٢ ح
١٦١ ح	١٦١ ح
٩٣	٩٣
٢٠٣ ح	٢٠٣ ح
١٥٩ ، ١٦٤	١٥٩ ، ١٦٤
١٤١ ح	١٤١ ح
٢٢٧	٢٢٧
١٩٤ ح	١٩٤ ح
٢٩ ، ٢٥ ، ٢٤	٢٩ ، ٢٥ ، ٢٤
١٩٨ ، ١٨٢ ، ١٨٠	١٩٨ ، ١٨٢ ، ١٨٠
١٧٢ ، ١٢٨ ، ١٢٦	١٧٢ ، ١٢٨ ، ١٢٦
٢٧٦	٢٧٦
١٧٠ ، ٩٩ ، ٩٨	١٧٠ ، ٩٩ ، ٩٨
٢٣٣ ، ٢٧٦ ، ٢١٥ ، ١٧٥	٢٣٣ ، ٢٧٦ ، ٢١٥ ، ١٧٥
٣١١ ، ٩٥ ، ١٧٠	٣١١ ، ٩٥ ، ١٧٠
٢٢٥	٢٢٥
٧٩ — ٨١	٧٩ — ٨١
١١٢ ، ٦٦ ، ٥٧ ، ٤٣	١١٢ ، ٦٦ ، ٥٧ ، ٤٣
١٣٨ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٣٨	١٣٨ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٣٨
٢١١ ، ١٨٥ ، ١٨٣ ، ١٦٠	٢١١ ، ١٨٥ ، ١٨٣ ، ١٦٠
٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩	٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٣١٩	٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٣١٩

صفحة	صفحة
٤٣٠ ، ٤٢٢ ، ٤١٧	زمن ومكان ترجماتها انشريانية
٢٢٥	٢٧١ ؛ ٢٧٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩
١١٣	(٢) ١٠١ ، ١٧٥ ، ٢٢٢ وانظر
٢٨٤	الكتاب المقدس
١١ ، ٧	توراة شاه (٢) ٢٣٦
١٢	توسكانيا - انظر تسكانيا
٥١ ، ٢٦	توشراتا (١) ١٦٣ ، ١٦٢
	توطن الدروز في حوران - مقال (١) ٤٥ ح.
- الجيم -	تولوز (٢) ٢٢٧ ، ٧٨
١١٤	توما الاكويني (٢) ١١٦
٤٤٩	تومات نيحا (١) ٢٦
١٩ ، ١٦ ، ١٥ ، ١٣ (٢)	تونس (١) ١١٠
٢١ ، ٢٢ ، مؤتمر ٢٢ ؛	(٢) ٢٨ ح ١٠٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٩
١٥	التبير - نهر (١) ٢٨٦ ، ٢٣٣
١٨٠	تيبور (١) ٤٤١
٢٧٩ ، ٣٥٤	تيتس (١) ٢٥
١٧٨ ، ١٧٦ ، ١٧٤ (٢)	التيجان - كتاب (٢) ١٠٧
١٢٩	تيشوب - (عشتاروت) الهة (١) ١٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٣٧٠
١٧٢	تيطس (١) ٢٧٨ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٧٥
١٢٤	٣٧٦ ، ٤٢٣
٢٥٣	تيفرانس الارمني (١) ٢٧١ ، ٢٧٢
٢٥٣	تيفرانوسرتا (١) ٢٧٢
٢٥١ ، ٢٤٩ (٢)	تيماء (١) حبرها ١٨٩ ؛ ٢٣٩ ، ٣٠٠
الجامعة الاميركية في بيروت (١) ١٣٠	تيمور (تيمورلنك) (٢) ١٣٤ ، ٢٦٨ ؛
٤٩	٢٩٥ - ٢٩٧ ؛ ٣١١
٢٥٣ ، ٣٥٢ (٢)	تيمية - ابن (٢) ٢٦١
٢٣٠	التين - شجر (١) ٣٢٤
٢٦١	تينس (الملك) (١) ٢٤٧ ، ٢٤٨
الجامعة العربية - حركة (٢) ٣٤٧	تيوبرو سوبون (١) ٢٧١
٣٥٥ - ٣٥٢	تيودوسيوس (١) ٣٣٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥٩
جامعة الدول العربية (٢) ٣٥٤ ، ٣٥٥	٣٨٨ ، ٣٩٨ ، ٤١١
جامعة القديس يوسف (٢) ٢٥٢	- الثاء -
٢٠٧	ثابت بن قرة (٢) ١٧٨ ، ١٧٩
٤٥٠	الثغور (٢) ٤٤ ، ٤٥
٢٥ ح	ثقيف (٢) ٥٩
٢٣	
١١٠ ح	
٢٢٢	

صفحة	صفحة
حكم بني عساف لها ٢٢٥ ؛	١١٥ الجبيرة (٢)
٢٢٦	١٧٢ جبعادين (٢)
١٩٧ جت (١)	٢٠٣ ، ٩٣ جبعة (١)
٤٠ جنة - جبل (١)	٢٠٣ ح جبل افرايم (١)
جلدرد (١) ٢٨٥ - ٢٨٧ - ٢٥٠ - ٣٥١ ؛	٢٣ جبل الاقرع (١)
٢٨٩ - ٣٥٩	٤٦ جبل جلعاد (١)
٢٠١ جلدروزيا (١)	٤١٩ ، ٤٥٠ جبل الدروز (١)
١٩٥ جلعون (١)	٤٤ ح جبل سريون (١)
٦ جدام (٢)	٤٤ ح جبل الشيخ (١)
٧٠ ، ٥٤ - ٥٣ الجراجمة (٢)	٢٣٢ ، ٢١٧ ، ٨١ (٢)
٢١٦ ، ٢٩٧ ، ٢٦٨ الجراكسة (٢)	٣٤ جبل صنين (١)
٥ الجرباء (٢)	٣٩ جبل طابور (١)
٥٤ ، ٥٣ جرجومة (٢)	١١١ ، ١٠٨ جبل طارق (١)
٢٠٢ جرزيم - جبل (١)	٨٠ - ٧٣ (٢)
جرش اجرازة (١) ٢٧٦ ، ٣٢٨ ؛	٦ ح جبل عامل (٢)
مركز تجاري مزدهر ٢٢٩ ؛ ٣٣٢ ؛	٤٦ جبل عجلون (١)
٣٥٠ ، ٣٩٥ ، ٣٥١ ؛ كنائسها	٢٠٣ ح جبل القفوعة (١)
٤٠٥	١٠ ح جبل القفزة (١)
الجرماني- الجرمانية (١) القبائل ٢٨٢	٣٣ جبل كاشيوس (١)
(٢) الفوز ٢٧٠ ؛	٢٤٥ ، ١٠ ، ٩ جبل الكرمل (١)
القبائل ٣	٣٣٩ (٢)
جرمانيكوس (١) ٣١٦ ح	جبله (١) ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢٨٩ ؛
جرمانيكس مكسيموس (١) ٢٨٣	(٢) ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ؛
جرها (العقر) (١) ٢٩٩ ، ٤٢٥ ؛	٢٢٨ ، ٣٠٩ ؛
٢٩ جرمق - جبل (١)	٤٥٠ ، ٤٥١ جبله بن الايهم (١)
جرزيم - جبل (١) ٢١٤ - ٢١٥ ؛	٤٧ (٢)
١٠٩ جرير (٢)	جبر - ابن (٢) ٢٥٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ؛
الجزائر (٢) ٣٩ ، ٧١ ، ١١٩ ؛	٢٨٥
جزر (١) ٢٦ - ٢٨ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ؛	جبيل (١) ١٥ - ٣٥ ؛ تمثال مصري
١٢٩ ، ١٢٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ؛	قديم بها ٥٦ ؛ ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٧ ؛
٢٢٦ ، ٢١٧	هروب رب عدي منها ٨٠ ؛ ٨٨ ؛
جزرك (١) ١٨٤ ح	٨٩ ، ٩٢ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ؛
الجزويت (٢) ٣٢٠ ، ٣٥٢ ؛	١٤٢ ، ١٤٥ - ١٤٧ ؛ ١٦٧ ؛
جزيرة طريف (٢) ٧٣	١٨١ ، ممارستها الحكم الذاتي
جزيرة العرب (الجزيرة العربية) (١) ٥٦	زمن الفتيقين ٢٤٦ ؛ ٢٥٤ ؛
٦٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤٨ ، ١٦٥ ؛	٢٧١ ، ٢٨١ ، انتاجها للخمور
خروج الاراميين منها ١٧٤ ؛	٢٨٩ ، ٣٢٧
١٨٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ؛ غارات	(٢) ١٢ ، ٥٤ ، ١٩٥ ، ٢٣٢ ؛
اسطول سليمان عليها ٢٠٦ ؛	

صفحة	صفحة
٢٢٦ - الجليل الاعلى (٢)	عربها ٢٤٠ : ٢٥٥
٢٢٦ الجمارة (١)	٢٦٤ ، ٢٨٤ : ٢٩٧ - ٢٩٩
٢٥٤ : ٢٥١ جمال باشا (٢)	٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ : مورد
٢١٠ جمال الدين التنوخي (٢)	المر والبخور ٣٣٠ ، ٣٩١ ، ٤٢٢
٢٥١ : ٢٥٠ جمعية الاتحاد والترقي (٢)	٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨
٢٠١ جمهورية افلاطون (٢)	٤٤٦ ، الوطن الاصلي للخميين
٢٥٧ جمهورية جنوى (٢)	٤٤٧ ، ٤٥٢
٢٥٨ جمهورية زينون (١)	(٢)
٥٤ : ٤٤ الجمهورية اللبنانية (١)	٥ : ١٤ ، ٢٨ : ٥٨ . نقطة تحول
٢١٧ (٢)	في تاريخها ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥
٢٣٠ : ٢٥٧ جمهوريات المدن الايطالية (٢)	٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٢١٠ ، ٢٥٤
٢٦٩ : ٢٦٨ جمهورية يهودية (١)	تصديرها للتوابل ٢٧٨ ، ٣١٢
١١٠ جميل بن معمر العذري (٢)	٣٣٨ ، ٣٤١
١٠ ح جنا بتين (٢)	جزيرة ابن عمرو (١) ٢٩٨
٢٢٦ ، ٢٢٨ ح - جنبلاط - آل (٢)	الجزيرة القراتية (٢) ٢٢
٢٤٠ : ٢٣٥	الجزيرة الذاتية (٢) ٢٢
٢٤٤ جنبلاطية (٢)	جزين (١) ٣٦
٢٣٠ جنبلاطيون (٢)	(٢) ٣٢٧ : ٣٣٢
٢٢ : ٢١ جند الاردن (٢)	جستارومانورم (٢) ٢٥١
٢١ جند حمص (٢)	جسر بنات يعقوب (١) ١٩٤ ، ٩ ح
٢١ جند دمشق (٢)	جسيوس مركيانس (١) ٢٨٠
٢٢ جند فلسطين (٢)	جشمو (١) ٢٤٤ ، ٤٣٠
١٧٦ : ١٧٤ جند يشابور (٢)	جعفر باشا (٢) ٣٣٢
٢٩٦ : ٢٦٨ ، ٢٤٣ جنكيز خان (٢)	جعفر الصادق (٢) ١١٤
١٩٧ جني - ابن (٢)	جفنة (١) ٤٤٩ ، آل - ٤٥٠
٢٤٣ : ٢٣١ ، ١٣٠ - ٢٢٣ جنوى (٢)	جفنة ابن عمرو مزيقياء (١) ٤٤٦
٢١٩	جلبوع - معركة (١) ٢٠٣
٢٥٠ حنيف (٢)	جلبون (١) ٢٠٣ ح انظر جلبوع
١٤٢ جهوتي (١)	جلعاد (١) ١٣٨ ، ١٨٨ ، ٢١٣ ، ٣١٩
٣٠٢ - ٢٥٥ ، ١٠٢ جويتر (١)	٤١٦
٣٧٠	جلق (١) ٤٤٩
١٢١ (٢)	جليات (١) ٢٩ ، ١٩٨
جويتر (اله هليو بولس) (١) ١٨٧ -	الجليل (١) ٣٩ ، ٢١٣ ، عمل
٢٨٥	ارسطوبولس لها ٢٦٩ ، ٢٧٠
جويتر الدمشقي (١) ١٨٧ : ٢٤١	٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣١٣
٢٤٢	ذكر خمرها في العهد الجديد
جويتر دوليكنوس (١) ٢٧٠	٣٦٣ ، ٣٢٧
جويتر كاييتولينس (١) ٢٧٧	(٢) ٢٢ ، ٣٢٨

صفحة	صفحة
٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٤١٣ (١) الحارث الرابع	٣٤٥ جويترهيلو بوليتانس (١)
٤٢٥	٨٥ جودي (١)
٤١٩ الحارث الثالث (١)	٤٥ ح جورانو (١)
٤١٩ الحارث الثاني (ايروميموس) (١)	٣٣١ ، ٣٢٨ جورج ساند يز (٢)
٢٦٨ حارم (٢)	١٧٥ ، ١٧٦ جورجيس بن بختيشوع (٢)
٢٦٨ حاسيديم (١)	١٧٦
٤٢ حاصبيا (١)	٢٧٠ انجورجيون (٢)
١٩٤ حاصور (١)	٣٤٦ ح جوزيف فرنكو (٢)
٢٢٨ حافظ باشا (٢)	٢٢٤ جونسلين الثاني (٢)
٢٩٣ الحافظ الذهبي (٢)	٧ انجوف (٢)
٢١٣ ح حافظ بن محمد (انفاطمي) (٢)	٣٥٤ ، ٣٣٣ جوفنال (١)
٣٥ حافل (١)	٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٤٤ جوليان (١)
٣٣١ الحافلاني (٢)	٣٦٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
٢١٥ ، ٢١٣ ، ١٦٩ (٢) انحاكم بامرء	٢٨١
نشوء ملة جديدة على يده	٣٨٠ جوليا سوميس (١)
٢١٧ ، ٢١٨ ، اضطهاده للنصارى	٣٨٠ جوليا ماميا (١)
٢٢٢ ، ٢٢١	٤٣٥ ، ٣٨٠ جوليا ميزا (١)
٣١٣ ، ٢٨ ، ١٥ حاميون (١)	٧٣ جوليان (٢)
١٢٢ ، ٩١ حابة (٢)	٣٥ ، ٣١ جونييه (١)
١٩١ ، ١٦٩ ، ٣٩ حبرون (١)	٣٢٦ (٢)
١٨٣ الحبشة (١)	١٩٢ جوهر (٢)
١٣٩ (٢)	٢١١ جوهر قائد المعز (٢)
٢٨٢ ، ٦٧ ، ٦٦ (١) الحبشية - اللغة	٢٧١ ، ٢٦٠ جيحون - نهر (١)
١٧٦ جيش بن الحسن (٢)	٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٠ (٢)
٢٠٠ ، ١٧٥ ، ١٦٨ حنو شلش (١)	٢٧٦ جيرازا (١)
١٢٥ ، الحني - الحثية (١) زخارف	٣٩٨ ، ٣٨٩ جيروم (١)
الدولة (الملكة) ١٥٠ ، ١٦٣ ،	١٨٩ ، ١٨٨ جيش بن خمارويه (٢)
١٦٧ ، ١٦٨ ، اللغة ١٦٩ ،	٦٥ جيش الطواويس (٢)
الانار : القوانين ، الديانة ، الاداب	١٥٦ جيان (٢)
الوثائق ١٧٠ ، اميرات ١٤٧ ،	
سلاح ٩٦	
الحثيون (١) ٢٨ : ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٥ -	
٧٧ : ٧٩ - ٨١ ، ٨٣ ، بلادهم	
٩٢ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ،	
اصلهم وشكلهم ١٦٦ ، ١٦٨ ،	
١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،	
٢٠٠ ، ٣٧٠ ،	
٤٦ (٢)	
	١٢٥ (٢)

- الحاء -

٢٧٣ ح	حاجي البحري (٢)
٤٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٤ (١) الحارث	
٤٤٨	
٤٤٩ ، ٤٤٧ (١) حيلة	
٤٥١ امه	

صفحة	صفحة
الحجاز (١) ٤٦ : ٦٣ : ٢٣٩ : ٤١٧ :	٤١٨ : ٤٢٢ : ٤٥٢
حرات (الحجاز) (١) ٤٦	(٢) ٤ : ١٧ : ٣١ : ٣٥ -
حران (١) ٧٤ ، ٧٥ : ١٦٢ : احتلال	٣٧ - تحسين زراعتها زمن معاوية
الاراميين لها ١٧٦ : ١٧٧ :	٣٩ : ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ - ٧٧ :
١٨٩ : ١٩١ ، ٢٢٨ ، ٣١٠ -	٨٧ : نشوء المذاهب الفقهية بها
٤٤٨	١٠٧ : ١١٠ ، ١٨١ ، ١٩١ ،
(٢) ٩٩ ، ١١٣ : نقل مروان	خضوعها للعزير الفاطمي ٢١٢ :
حكومته اليها ١٥١ : ١٥٤ :	٢٣١ ، ٢٣٧ - ٢٦١ : ٢٩٩ :
١٧١ : ١٧٤ ، هجرة اساتذة	٣١٦
مدرسة الرها اليها ١٧٥ : ١٧٨ :	الحجاج بن يوسف (٢) ٥٩ ، ٦٠ :
٢٦١	مآثره الادارية ٦٢ : ٦٣ ، ٦٥ :
خرفوش - ابن ، بنو (٢) ٣١١ : ٣٢٧ ،	تعيينه قتيبة على خراسان ٦٦ :
٢٣٢	٨٢ - ٨٦ : ١٠٢ : ١٠٣ : ١٠٨ :
حرمون - جبل (١) ٢٦ : اعلى قم	١١٣ : ١٠٦
سورية ٤٤ : ١٠٦	الحجر (١) ٤٢٢ ، ٤٢٨
الحرم الشريف (٢) ١٢١	الحجر الاسود (١) ٣٨١
الحروب اليهودية - كتاب (١) ٣٥٢ :	(٢) ١٤٤ : ٥٧
٣٥٣	حجر مؤاب (١) ٢١٢
حزائيل - ملك آرام (١) ١٥١ : ١٨٠ :	الحدث (٢) ٣٢٢
حزقيا - سفر (١) ٩٩ - ٢١٦ : ٢١٧ :	الحدث - درب (٢) ٤٥
حزقيال (١) ١٠٧ : ١٦٩ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ :	حدد (الاله) (١) ٨٣ ، ١٢٧ ، اله حلب
حسان بن ثابت (١) ٤٥١	١٦٦ : اله السوري ١٧٠ :
الحسن بن احمد الاعصم (٢) ٢١١	٢٤٤ : الراعد ١٨٥ - ١٨٨
الحسن البصري (٢) ١٦٠ : ١٠٨ : ١١٥ :	(٢) ١٢٢
الحسن بن الحسن (٢) ١٦٢ ح	حدد رومان (١) ٣٤١
الحسن بن الصباح (٢) ٢٤٥	حدد - رمانو (اله) (١) ٣٧٠
الحسن العسكري (٢) ٢٢٠	حدد عزز (١) ١٧٨ - ١٧٩
الحسن بن علي (٢) ٢٩ ، ٣٦ ، ٤١ ،	حدد الملك - الادومي (١) ٢٠٧
١٥٨ : ١٦١ ح ١٦٢ ح	الحديث (٢) ١٠٥ : ١٠٦ : ١٠٧ :
الحسن علي - ابو (٢) ١٩١	١١٦ : ١١٢
الحسن الناصر (٢) ٢٧١	حرب بن امية (٢) ٤٩ ، ٢٠ ح
الحسن بن النعمان الفساني (٢) ٧١	الحرب الروسية التركية (٢) ٣١٧
حين بن حمدان الخصيبي (٢) ٢٢٠	حرب السنوات السبع (٢) ٤٨
الحسين - شريف مكة (٢) ٣٤٢ ، ٣٥٣ :	الحرب العالمية الاولى (١) ٦١ ، ٦٢ -
حسين الشهابي (٢) ٣٤٠ ح	١٥٨
الحسين الشيعي (٢) ٢١٠	(٢) ٣١٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤
الحسين بن علي (٢) ٢٩ ، ٣٦ - ٤٩ ح	الحرب العالمية الثانية (١) ٢٣٥
مقتله ٥٥ - ٥٧ : ١٥٨ ح	الحربة المقدسة (٢) ٤٧
١٦٢ ح ٢٠٩	

صفحة

٢٧٧ - ٢٨٩
 (٢) ١١ ، ١٢٩ ، ١٨٦ ،
 ١٩٠ - ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٣٢ ،
 ٢٤٢ - ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ - ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٩
 الحمداد (١) ٤٦
 الحماسة - ديوان (٢) ١٨٢ : ١٨١
 حمدان - بنو (٢) ٩٥
 حمدان بن حمدون (٢) ١٩٣
 حمدان قرمط (٢) ١٨٩
 الحمدانية - السلالة (٢) ١٩٦
 الحمدانيون (٢) ١٩١ - ١٩٣ : ١٩٥
 ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٢٠
 حمزة بن علي (٢) ٢١٧ - ٢٢٠
 حمص (١) ٤٣ : ٧٤ ، ١٥٥ ، ٢٦٠ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٩٨ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٢ ، موقعها وحكامها زمن
 الرومان ٣٤٠ : ٣٤١ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ،
 ٤١٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨ ، سقوطها
 بيد اورليان ٤٤٠ : ٤٤١ ، ٤٤٤
 (٢) ٧ ، ١١ ، ١٢ : ١٤ ، ٢٢ ،
 ٢٥ ، ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٢٩ ،
 ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥٣ : ١٥٦ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٩ : ١٨٢ ،
 ١٨٦ - ١٨٩ ، استيلاء الحمدانيين
 عليها ١٩٣ : ١٩٥ ، ١٩٧ ،
 ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٣٢ ،
 ٢٤٢ : ٢٦٥ ، ٢٦٦ ح - هزيمة
 الفول فيها ٢٧٠ ، ٢٧٢ : ٢٧٦ ،
 ٢٨٤ - ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٤١ ،
 الحملات الصليبية (٢) ٢٥٩ - نتائجها
 ٢٦٣
 الحملات المغولية (٢) ٢٩٦
 حملايا (٢) ٦٩
 حماد الراوية (٢) ١١١
 حمورابي (١) ٧٢ ، قوانينه ٩٣ : ٢٢٩ ،
 ١٦٦ ، ٢٣٠ ، ٤٠٨

صفحة

٢٣٤ حسين بن فخر الدين (٢)
 ٢٧١ الحسين الناصر (٢)
 ٦٤ الحشاشون (١)
 الحشاشون (٢) ١٩٠ ، موالاة رضوان
 نهم ٢٠٦ : ٢٢٥ ،
 حصونهم وتعاليمهم ٢٤٥ -
 ٢٤٧ ، ٢٥٢ - ٢٥٨
 حصن الاكراد (٢) ٢٢٧ - ٢٤٤ ، ٢٤٥
 حصن شكيم (١) ١٥٩
 حصن الكرك (٢) ٢٣١
 الحسين بن نعيم (٢) ٥٧ - ٥٩
 حطين (٢) ٢٢٧ - ٢٤٠
 الحكم بن ابي العاص (٢) ٣٠ : ٤٩ ح
 حكمة الاشراف (٢) ٢٩١
 الحكومة الثلاثية (١) ٢١١
 حلب (١) ٣٣ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ : ٧٤ -
 ٧٥ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، مركز عبادة
 حدد ومملكة بمخاض ١٦٦ :
 ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ، ٢٧٦ ،
 ٢٧٨ - ٢٨٩ ، ٤١٣ : ٤١٥
 (٢) ١١ : استسلامها للمسلمين
 ١٢ : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٢٩ ،
 ١٧٠ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٩٣ -
 ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ -
 ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ،
 ٢٢٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، هجوم
 المغول عليها ٢٦٨ : ٢٦٩ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٢٨٢ - ٢٨٤ ،
 ٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩١ : ٢٩٤ ،
 اباحتها ثلاثة ايام لجنود المغول
 ٢٩٦ : ٢٩٨ ، ٢٩٩ : ٣١١ ،
 ٣١٤ - ٣١٨ - ٣٢١ - ٣٢٤ ،
 ٢٢٨ - ٣٣١ - تخلفها في القرن
 الثامن عشر ٣٣٦ : ٣٤٣ ، ٣٥٠ -
 حلبا - انظر حلب
 حماة (١) ٤٠ ، ٧٦ - مركز مملكة
 صفيرة ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٠ :
 ١٨٤ - مملكة ٢٠٣ : ٢٧٦ ،

صفحة		صفحة	
١٦٢ : ٩٦ ، ٣٢	حيفا (١)	١٠٧	حمير (٢)
٢٢٩	(٢)	١٥٢	الحميمة (٢)
٢٩٣	حيان التوحيدي - ابو (٢)	٢٦١	حنبل - ابن (٢)
٢٢١	الحية - عبادة (١)	٢١١	الحنش - ابن (٢)
	- الخاء -	١٨٣ : ١١٨	حنيفة - ابو (٢)
٢٩٨	خاثر بك (٢)	١٧٩ - ١٧٦	حنين بن اسحاق (٢)
٩٣	خابشي - طبقة (١)	١٢٢	حنين الملقني (٢)
١٦٢ : ٧٠ : ٢٢	الخابور - نهر (١)	٥٢ ، ٤٦ - ٤٤ ، ٤١	حوران (١)
٢٤٣ : ١٧٦		٥٢ ، ٢١٩ ، ٣١٨ ، ٢٢٣	
١٥٧ : ١٢٦ : ٨١ : ٨٠	انخابيرو (١)	٣٥٠ ، ٢٢٧	انتاجها للخمور
١٧٢ - ١٧٤ : ٢٠٣		٢٨٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٤	
١٢٠	الخارجيون (٢)		اكتشاف نص النمارة بها
٢٣٥ : ٣٢٧ : ٣٢٦	خازن - آل (٢)	٤٤٩ ، ٤٤٦	بقايا الاثار فيها
٣٥٥		٤٥١	
١٧٢ : ٢٣١	خاطي (١) - بلاد الحثيين	١٨٠ ، ١٦٥ ، ١٦٤	(٢)
١٦٦		٢١٩ ، استيلاء نور الدين عليها	
١٧٤	الخاطبة (١)	٢٣٥ ، ٢٣٥	
١٦٨	الخاطبون الاناضوليون (١)		الحوري ، الحورية (١) اللغة
١٦٨	الخاطبيون الهنود الآوريون (١)	١٦٣ ، العناصر ٨٥ ، السيوف	
٥	خالد بن الوليد (١)	١٢٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٤	
١٠ ، ٧ ، ٤	(٢) عزله	١٥٧ ، ١٢٨ ، ٧٠ ، ٢٨	الحوريون (١)
٧١ : ١٦	عن القيادة ١٤ ، ٧١	١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥	ملاحهم
١١٤	دخله دمشق عنوة ١٢٢	١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ١١٧	
٤١٥ : ٢٧٨	خالكيس (١)	١٤٦	حور محب (١)
٢٨٩	خالكيس اد بيلوم (١)	١٤٦	حورون (١)
١٩٨ : ١٩٧	خالويه - ابن (٢)	١٥٣	الحوليات السورية (١)
٢٨٨	خان الصايون (٢)	٤٤٩	حوارين (١)
٦٦	خانات آسيا الوسطى (٢)		الحويون - انظر الحوريين
١٤٧	الختمي (١)	٦٢	حوقل - ابن (١)
١٩٠	الخديوي (٢)	٤٢٢	الحويطات (١)
٦٨ : ٦٦ : ٦٥ : ٢٨	خراسان (٢)	٦٩	حيدر آباد (٢)
٨٥ : ٨٧ : ١٠٢	العسوة		حيدر الشهابي (٢) ٣٢٢ ، ٣٣٤
١٥١	العباسية وثورتها بها	٣٣٥ ، ٣٤٠	
١٥٣ : ١٦١		٢٣٥	الجيدريون (٢)
١٥٩ : ١٥٢ : ١٥١	الخراسانيون (٢)		حبرام (١) ٩١ ، ١٠٧ ، ١٣٤
١٦٥ : ١٦٠		٢٠٤ ، ٢٠٦	
١٩٧	خربة الشاش (١)	٤٣٧ ، ٤٣٦	حبران (١)
		٤٥١	الحيرة (١)
		١٧٦ ، ١٢٢ ، ٩٥ ، ٧	(٢)

صفحة	صفحة
البربر اليهم ٨٠ : ٩٧ ، ١١٨ ، قيامهم بعصيان في العراق ١٥١ : ١٥٣	١٢٤ ، ١٢٣ خربة المفجر (٢) ١٢٥ خربة النية (٢) ٢٠٢ خرداذبه - ابن (٢) ٢٧٦ الخريزورواس (١) ٣١٧ خريسفوروس كولبوس (٢) ٢٦٢ ، ٥٥ الخزر - بحر (١) ٦٩ (٢)
٢٤٢ ، ٢٠٥ ، ٦٨ : ٦٦ خوارزم (٢) ١٧٩ الخوارزمي (٢) ٣٢٤ الخوخ الدمشقي - شجر (١) ١٦٤ خورو - كتمان (١) ١٣٧ خوفو (١) ١٦٧ خيطا (١) ٦٦ خيوا (٢) ١٦٠ خيان (١)	٤٢١ ، ٤٢٠ الخزنة (١) ٣ خسرو (٢) ٢٩٧ خشقدم (٢) ٢٩٦ ، ٢٩٥ ، ٥٣ خلدون - ابن (٢) ٤٨ خط الاستواء (١) ٢٩٥ الخطط - كتاب (٢) خطوشش (١) ١٦٦ وانظر خطاطي وبوغاز كوي
- الدال -	٢٨ ، ٢٧ الخلفاء الراشدون (٢) ٤٤٠ ، ٤١٢ خنقدونية - مجمع (١) ٤٦ (٢) ٢٩٢ ، ١٠٨ : ١٠٥ خلكان - ابن (٢) ٢٩٣
٦ دائن (٢) ٢٠١ داجون - اله الحبوب (١) ٢٩١ دار البريد (٢) ٢٩٢ دار الحديث النورية (٢) ١٥٩ دار السلام (٢) ٣٣١ ، ٣٢٣ دارفيو (٢) ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٢ داريوس (١) ٢٥٣ - ٢٥٧ ، ٤٠١	٧٤ ، ٣٢ ، ٢٥ خليج اسكندرون (١) ٢٧٨ خليج العجم (٢) ١٠٧ ، ٤١ خليج العقبة (١) ٧٥ ، ٦٥ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، قسم من الاسطول السلوقي يربط فيه ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٣ ، ٤٢٥
٢٤٠ داريوس الاول (١) ٢٥٦ ، ٢٥٣ داريوس الثالث (١) ١٨٣ داريوس الكبير (١) ٣٩٢ الداسية الثانية - الحملة (١) ٢٥٢ ، ٢٤٦ داعي الدعاة (٢) ٢١٦ داعي الدعاة الاسماعيلي (٢) ٢١٦ داتني (٢) ٣٨٤ ، ٣٢٠ الدانوب (الدانيوب) (١) ٣٩٢	٣١٧ ، ١٨٩ (٢) ٣٤ خليج مار جرجس (١) ٢٢٧ ح (٢) ٢٨٣ خليفة بن ابي المحاسن (٢) ١٥٩ ، ١٢٩ ، ١٦٩ ، مدينة (١) ٢٢٥ ، وانظر حبرون
٢٦٧ دانيال (١) ١٢٤ ، ٢٤٩ ، سفره ٢٥٨ ؛ ٢٦٧ (٢) ١٥ داود (١) ٤٠ ، ١٧٨ ، احتلاله دمشق ١٧٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، قصوره ٢٠٩ ؛	١٠٥ الخليل بن احمد (٢) ١٨٩ - ١٨٧ خمارويه (٢) ٥٠ الخمسين - ربح (١) ٢٤٥ الخواي ٣٣ ، ٣٧ ، ٦٠ ، انضمام

صفحة

- ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧١ ، ٢٩٤ ،
٢٩٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ،
حالتها زمن الرومان ٣٤١ ؛
٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ،
٢٩١ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، انتاجها للمنوجات
الحريرية ٤٢٥ ؛ ٤٢٥
(٢) ٤٠٣ ، ح ٩٠٦ — ١٢ ،
٣١ — ٣٣ ، ٣٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ،
في اوج عزها ٦٤ ؛ ٦٩ ؛ ٧١ ،
٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٨ —
٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ،
١١٦ ، ح ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ،
١٦٥ — ١٦٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ —
١٩٠ ، ١٩٢ ، فشل سيف
الدولة في فتحها ١٩٤ ؛ ٢٠٠ ،
٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، احتلال
جوهري لها ٢١١ ؛ ٢١٢ ، ٢١٤ ،
٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،
٢٣١ — ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، انتاجها
الروائع العظيمة ٢٥٤ ؛ ٢٥٦ ،
٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ،
٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ —
٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ،
٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ،
٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ —
٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ — ٣٣٨ ،
٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠
دمشونس — انظر دمشق
٢٤٢ دمياط (٢)
١٩٦ دور (١)
٤٤٥ ، ٣١٠ دورا (١)
دورا اورييس (١) ٢٨١ ، ٢٩٥ ،
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٢٩ ، اقدم
كنيس فيها ٤٠٥ ؛ ٤٠٧ ، ٤٢٩ ،
٤٣١ ، تبعيتها لدمش ٤٣٦ ؛

صفحة

- ٢٢٢ ، ابتداءه بالموسيقى العبرانية
المقدسة ٢٢٣ ؛ ٢٣٢ ، ٤١٦
داود باشا (٢) ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٥
الداوودية — مدرسة (٢) ٣٤٥
دبورة (١) ١٩٥
الدجلة (١) ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٥ ،
١٤٨ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٥٦ ،
٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ،
٤٣٥
(٢) ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٨٨ ، ٢٢٥ ،
٢٤١ ، ٢٦٤ ، ٣٠٥
دجن — الاله (١) ٨٣
الدرنيل (٢) ٥٠
الدرزية (٢) ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
درعا (١) ١٨٨ ح
دمشق ، (دمشقا) (١) ١٧٦
الدروز (١) ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٤ ، ١٣٠ ،
١٦٤
(٢) ١٢٠ ، مشاهم وحركتهم
٢١٧ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٩ ،
٢٧٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،
٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
٣٥٥
دفنة (١) ١١٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٣٠٦ ،
٣٣٦ ، ٣٣٤ — ٣٣٧
دقاق بن تنش (٢) ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،
٢٢٦
دلتا النيل (١) ٦٤ ، ١١٠ ، ١٦٠ ،
٢٥٦ ، ٤٢٥
(٢) ٨٧
دمشق (١) ٤ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٤ ،
٤٥ ، معدل مطرها ٤٩ ؛ ٥٠ ،
٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
١٣٨ ، ١٥٨ ، اول ذكر لها
١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ،
٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٤٥ ،

صفحة	صفحة
٣٧٩ ديوجينس لاثريوس (١)	٤٤٢ وانظر الصالحية
٤٢٩ ، ٤٢٦ ديودورس (١)	١٠ ، ٩ دوروتي جارود (١)
٢٨٠ ديودورس — المشاء السوري (١)	٢٢٤ دوريلايوم (اسكي شهر) (١)
١١٤ ، ١١٢ ديودورس الصقلي (١)	٣٨٥ دوسارس (ذوالشرى) (١)
٣٨٢ ، ٣٧٩ ديو كاشيوس (١)	٣١٦ دول المدن الفينيقيه (١)
٣٣٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٣ ديوكليتيان (١)	٣١٦ دولة المدينة اليونانية (١)
٤٤١ ، ٤٣٦ ، ٣٦٨ ، ٣٤١ دولن — أضرحة (١)	٢٩ ، ٢٨ دوليكه (١)
٢٢٧ (٢)	٣٧٠ دومة الجندل (٢)
٣٦٩ ، ٣٠٦ ، ١١٨ ديونيسيوس (١)	٧ دوميتيان (١) ٣٢٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧
٤٢٩	٢٦٣ الدومينيكان (٢)
— النال —	دونان (١) ١٢١ ، ١٢٠ ، ١٨
٢٦ ذات الصواري — معركة (٢)	دويهي (٢) ٢٥٨ ، ١٤١
٢٠ الذمة — أهل (٢)	دياتسرون (١) ٤٠٩
٣٣٧ الذهب — ابو (٢)	ديار بكر (٢) ١٣٩
ذو الشرى (دوشارا) (دوسارس) (١)	الدياسبورا (اليهود المقيعون) (١) ٢٤٤
٣٨٥ ، ٤٢٨	الديبل (٢) ٦٩
ذو الفقار (٢) ٣٤	ديون (١) ٢١١
— الراء —	دي دريه الصيلبي (٢) ٣٢٩
رائق — ابن (٢) ١٩١	دير ديوان (١) ١٩٤ ح
٤٢٤ رابيل الثاني (١)	دير قزحيا (٢) ٣٢٣
راجيل (امرأة يعقوب) (١) ٤٠١٧٧	دير القلعة (١) ٣٨٤
١٩٣ ، ١٩٢	دير القمر (٢) ٣٣٥
الرازي (٢) ٢٨٢	ديسان — ابن (١) ٤١٠
راس الرجاء الصالح (١) ١٠٨	دي فونتونيل (١) ٣٥٦
٣١٧ (٢)	ديفيوس (١) ٣٦٨
راس الشقعة (١) ٢٧١	الديكابولس (المدن العشر) (١) ٢٧٦ ، ٣٠٩ ، ٣٥١ ، ٤٢٢
راس الشمرة (١) ٩٥ ، ٩٢ ، ١٨ ، ٩	ديكا ميرون (٢) ٢٥١
٩٧ ، اقدم ذكر للارجوان في	ديك الجن (٢) ١٨٣ ، ١٨٢
نص فيه ١٠١ ؛ ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٣	ديلوس (١) ٣٨٤ ، ٣٠١
١٢٣ ، ١٣٢ ، اكتشاف اختام	ديمو (١) ٢٨٦ .
حثة فيه ١٧٠ ؛	ديمثريوس الاول — سوتر (١) ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦
راس الكرمل (١) ١٥١ ح	ديمثريوس الثالث (١) ٢٧٤ ح
راشد الدين سنان (٢) ٢٤٧ ، ٢٤٦	ديمثريوس الثاني (نيكاتور) (١) ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
الراشدون — الخلفاء (٢) ١٥٩ ، ١٤٨	ديو — المورخ (١) ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
٣٣٤ راشيا (٢)	
٤٠٨ ، ٤٠٧ الراعي الصالح (١)	

صفحة	صفحة
٢٤١ ، ١٧٦ ح ١٦٠ الرشيد (٢)	٣٥٠ رافانا (١)
٤٣٦ رصابة (رزق) (رصافة) (١)	الرافدين (١) ٢٧ ، ٧ ، بلاد ٢٢ ، ٣٠ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، بلاد ٧٤ ؛
٤٤٨ ، ٤٣٦ (١) رصافة	حضارة ١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ،
(٢) ١٢٧ ، ١٥٥ : وانظر رصابة	١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ -
رصين ملك دمشق (١) ١٧٩ ، ١٨١ ،	١٥٨ ، ١٦١ ، بلاد ١٦٢ ؛ ١٧٣ -
٢٠٧ ، ٢١٣	١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
رضوان بن تتش (٢) ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،	٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٥٦ ،
٢٤٦ ، ٢٢٦	٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٤١٣ ،
رعميس (١) ١٥٥	وادي ٥٤
رعميس الثالث (١) ١٧٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧	رافع بن عمير الطائي (٢) ٩
رعميس الثاني (١) ١٤٤ ، ١٤٦ ،	رافنا (١) ٣٩٢
١٥٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،	رافيا (رفح) (١) ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٢ ،
١٩٣	رافيا - معركة (١) ٢٩٠ ، ٢٩١ ،
رفائيل (١) ٢٢٤	رام - جبل (١) ٤٢٦
رفح (١) ٢٦٥ ، ٢٩٠ ، وانظر رافيا	رام ، الله (٢) ٢٠٥
رفقة (أمرأة اسحق) (١) ١٧٧	رب عدي (١) ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
الرقاد - نهر (٢) ١١ ، ١٢ ،	ربة عمون (١) ٢٧٧
الرقعة (١) ٢٥٦ ح	ربلة (١) ١٥٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
(٢) ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ٢١٠ ،	رجل اووبا المريض (٢) ٣٤١ - ٣٤٢
ركاب ايل (١) ١٨٨ ، ١٨٩ ،	الرجل الكامل (٢) ١١٢
الرملة (١) ٢٦	
(٢) ١٠ ح ٢٢ : سليمان بن	رجينالد الشاتوني (٢) ٢٣٧ ، ٢٥٧
عبد الملك يقيم بها ١٢٨ ؛ ١٨٦ ،	رجيعام (١) ٢٠٨ ، ٢١٥ ،
١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ، الطائيون	رحلات كوليفر - كتاب (١) ٣٥٦
يضمرون النار بها ٢١٤ ؛ ٢٢٨ ،	الردة - حروب (٢) ٥
٢١٨	رسائل تل العمارة (١) ٨٣ ، ٨٥ ،
رمانو - الاله (١) ٨٣	٨٩ ، ٩٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،
الرهبا (١) ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٩٩ ،	رسالة الغفران - كتاب (٢) ٢١٦
(٢) ٣ - معاوية يرمم إحدى	الرسالة المسيحية - كتاب (٢) ٢١٨
كنائسها ٤٠ ؛ ١٣٨ ، ١٤٢ ،	رستم باشا (٢) ٢٤٦
١٧٤ ، زينو يقفل مدرستها	الرستن (١) ٢٧٦ ، ٣٨٩ ، وانظر
١٧٥ ، ٢٠٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،	اريتوسا
٢٢٢ ، ٢٦٠	الرسول (٢) ١٦٩
الرواقية (١) المدرسة ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،	رشف - الاله (١) ٨٣ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
الفلسفة ٢٨٠ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢	وانظر رشوف
الرواقيون (١) ٢٨٠	رشوف - اله (١) ١٨٨ ، ١٨٩ ، وانظر
روان (١) ٣٩٢	رشف
رودريك (٢) ٧٣ ، ٧٤ ، ١٢٣ ،	
رودس (١) ١٠٤ ، ٢٨٤ ، ٣٠١ ،	

صفحة	صفحة
الروماني ، الرومانية (١) العصر ٤٢ ، ١٨٧ ، الحصون ٤٥ - الحضارة ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، العهد ، القنصل ، ٢٧٤ - البعثة ٢٩٣ ، الامبراطورية ٣١٩ - العالم ٣٢٩ ، القانون ٣٢٣ ، المستعمرات ٣٣٩	٤٢٥ ، ٣٠٤ (٢) ٢٠٥ ، ٤٩ ، ٢٥ الروس (٢) ٣٣٧ روسيا (١) ٣٢٩ (٢) ٢٦٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ الروستين في اخبار الدولتين - كتاب (٢) ٢٩٤ روكسانا (١) ٢٥٨ الزولي (٢) ٩٥ الروم (٢) ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ - ٥٤ ، العرب يطردونهم من قرطاجنة ٧١ ؛ ١٠٦ - ١٦٠ : ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ - ١٧٠ : ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٤ : ١٩٨ - ١٩٩ ، السلاجقة يستولون على بلادهم ٢٠٥ ؛ ٢١١ - ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، تجارهم ينعمون بامتيازات في سورية ومصر ٢٧٨ ؛ كنيسة ١١٧ الروم الارثوذكس (٢) ١٤٣ ، ٢٥٣ ، ٣٤٨ ، ٣١٣ الروم الكاثوليك (٢) ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، روما (٢) ١٨ ، ٨١ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٣٢٣ ، الرومان (١) ٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٤٠ ، ١٨٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، انطيوخس يهزم امامهم ٢٦٦ ؛ ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ، ٣١٣ - ٣١٥ ، ٣١٧ ، فضلهم ٣١٨ ؛ ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٤ ، ٣٦٤ - ٣٧٠ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٤٢٠ ، استيلائهم على دمشق ٤٢٣ ؛ ٤٤٠ ، ٤٤٤ (٢) ٧٨ ، ١٠٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٦
رومة (١) ٦٤ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٨٨ ، ٢٥٦ - ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ - ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٣٠٩ - ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ - ٣٤٩ ، النشاط الفكري السوري فيها ٣٥٢ - ٣٥٤ ؛ ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، حرقها في عهد نيرون ٣٦٦ ؛ ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ - ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، احتكاك الحارث معه ٤٢٠ ؛ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ، - ٤٣٥ ، ٤٣٨ - ٤٣٩ ، ٤٤١ ، رومية (١) ٢٣٧ ح الرومية - اللغة (٢) ٨٣ ريكاردوس قلب الاسد (٢) ٢٣٩ ، ٢٤٠ ريمند (٢) ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ريمند الثاني (٢) ٢٤٧ ريمند لال - الكاهن (٢) ٢٦٣ ، ٢٩٢ ، الرين (١) ١٠ ، ٣٢٠ ، (٢) ٢٢٥ الرينه (٢) ٢٥٨ الري (٢) ٦٠	

صفحة

- ١١٩ زنجيبار (٢)
زنكي (عماد الدين) (٢) ٢٠٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥١
٢٨١ الزنكيون (٢)
زنوبيا (ملكة تدمر) (١) ٢٥٨ ، ٤٢٨ - ٤٤٤ ، ٤٤١
٢٦٧ (٢)
١٧٢ الزهرة (١)
زياد بن ابيسه (٢) ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١٦٤
١٢٧ الزيتون (٢)
١٧٩ الزيج الصابئي (٢)
٤ زيد بن حارثة (٢)
١٧٥ زينو (٢)
٤٠٩ ، ٢٥٩ زينون (١)
٢٨٠ ، ٢٧٩ زينون الصيداوي (١)
٢٧٩ زينون القبرصي (١)

السين -

- ١٣٨ ، ٨٢ (١) ساحوراع - الفرعون (١)
٢٩٧ ساردس (١)
٧٠ ، ٥٠ (٢)
٤١٣ ، ٢٨٢ (١) السالاة - السلالة (١)
٤٣٧
٢٩٩ الساسانيون (١)
٨٠ الساغاز (١)
٢٨ ، ٢٢ ساكجي غوزي (١)
٦٦ سام بن نوح (١)
٤٣٥ ، ٣٤٠ سامسيجرامس (١)
السامرة (١) ٣٩ ، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٣٤ ، ٢٤٤ ، غابنيوس يعيد بناءها ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٤٣٠
١٨١ ، ١٦٦ ، ١٢٨ سامرا (٢)
السامري ، السامرية (١) العيد ٣٠٢ ، ٢٩٤ ، ٦٤

صفحة

- الزاي -

- ١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٥٦ الزاب (٢)
١٥٤ الزاب الاعلى (٢)
٢٨١ زابيناس (١)
١٦١ زاغروس - جبال (١)
١٨٩ ، ١٨٤ زانر - ملك حماة (١)
١١٦ زاما - معركة (١)
١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٨ زاهي - بلاد (١)
٤٣٨ الزباء (١)
٤٣٩ زباي (١)
٦٥ ، ٤٤ الزبداني (١)
٤٤٠ ، ٤٣٩ ، ٤٣٨ زبدة (١)
٤٤٣ زبديبول بن مقيم (١)
٢١ ، ٢٩ ح زبير بن العوام (٢)
٦٠ الزبيرون (٢)
١٨٧ ، ١٦٥ زحلة (١)
٢٨٢ ، ٢٤٦ (١) زردشت (زرداشت)
٤٠١ (٢)
٩٩ الزردشيتة (١) ٢٣٦ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٢٩٠ (٢)
٢٤٥ ، ٢٤٤ زرو بابل (١)
١٢٧ ح زرياب (٢)
٩ الزطية (١)
٧٩ ، ٧٧ زغرنا (١)
زفس (١) ١١٤ ، ٢١٥ ، انطيوخس
يشجع اعتبار يهوه مساويا افرس
٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ ، بعل يعتبر معادلا له ٤٤٥ ،
زفس اوليمبيوس (١) ٢٦٧
زكر بعل (١) ١٥٠ ، ١٤٥
زكرويه - ابن (٢) ١٨٩
زكريا الغزي (١) ٤٠٠
زمرى ليم (١) ٧٢ - ٧٤
الزنبيل (٢) ٦٥
زنجولي (١) ١٥٥ ، ١٨١ ، ١٨٤ - ١٨٦ وانظر شمال

صفحة	صفحة
٣١٢	السامريون (١) ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦
١٤٤	٢١٦ ، ٢٦٩ ، ٢٥٦
٢٠١ ، ٨٧ ، ٦٥	ساموس (جزيرة) (١) ١١٣ - ٢٨٣ ، ٢٨٦
٢١٠	السامية (١) اللغة ١٧ ، ١٩ ، القزوة ٢٥
٤٤٦	٦٦ ، ٦٩ ، اللغات ١١٥ ، ١٨٢ ، ٢٢١ ، الديانات ١٢٥ ، الشعوب ١٢٨ ، الجماعة ٨٥ ، ١٧٥ ، المناطق ١٨٣ ، القرية ٧٢ ، الحضارة ٢٨٣ ، العبادات ٣٠٠
٥	(٢) الحضارة ١٨ ، اللغات ٣٢٢
٢٤١ ، ٣٣٨	الساميون (١) ١٥ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، اشكالهم ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٥٧ ، الامراء ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٣
٤٣	٥
١١٨	سان ياولو (١)
٢٥٠	سانخونياتن (البيروتني) (١) ١٢٢ ، ١٢٣
٣٢٢	ساييس (١) ١٤٨
٢١٤ ، ٧٠ ، ٦٦ ، ٦٥ ، ٢١٤ ، ٢٥٤ ، ٢٣٤ ، ٢١٦	سبارطة (١) ١٠٢
٣٩ آل	سباستبوليس (٢) ٧٠
(٢)	السيانيون (١) ١١٥
١٥٠	سبته (٢) ٧٣
٢١٣ ، ١٦٨ ، ١٥٣	سبتموس سفروس (١) ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، مولده واعتلاءه العرش ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦
٤٣٦	سبسطية (١) ٢٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٤٩
٤٣٦	سبع ييار (٢) ٩ ح
١٣ ، ٧ ، ٦	السبعينية - الترجمة (١) ٦٣
٢٥٧	سترايو (١) ١١١ - ١١٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٠٧ ، سنة وفاته ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩
٦٦ ح	
١١٦ ، ١١٣ ، ١١٠	
٢٨٣	
٧٦	
١٤٠	
الريان (٢) ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٧٩	
١٣٩	
الريان الكاثوليك (٢) ١٣٩ ، ٣٢٠ ، ١٨٤ ، ٦٣ ، ٤ ، اللغة ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٤٤ ، الكنيسة ٦٣ ، الادب ٣٧١	
١٣٦ ، ١١٣ ، ٨٦ (٢)	
١٤٠ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٠٤ ح	

صفحة	صفحة
١٥٩ ، ١٤٨	١٢١ ابن سريج (٢)
٢١٥ السلالة الثانية والعشرون (١)	١٩٥ ، ١٩٦ سعد الدولة (٢)
١٢٧ السلالة الخامسة (١)	٥٥ سعد بن أبي وقاص (٢)
١٦٠ السلالة الخامسة عشرة (١)	١٤١ ، ١٤٥ ح سعيد بن البطريق (٢)
١٢٧ السلالة السادسة (١)	١٩٦ سعيد الدولة (٢)
١٦٠ السلالة السادسة عشرة (١)	١٢١ سعيد بن مسجع (٢)
١٠٨ السلالة السادسة والعشرون (١)	٤١٧ ، ١٩٢ ، ٤٤٤ سمير (جبل) (١)
٢٩٧ السلالة الصفوية (٢)	٧٥ السفح (١)
١٤٥ ، ١٠٧ السلالة العشرون (١)	٢٢٥ ، ٩٢ سفر (قرية) (١)
٧٠ السلالات السومرية (١)	٢٨٢ سفر الجامعة (١)
٢٧١ سلامش بن بيرس (٢)	٢٨٢ سفر دانيال (١)
٢٤٦ سلاميس - معركة (١)	٨٩ سفر يشوع (١)
٢٩٦ سلبوس - جبل (١)	١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ح : انفاج (٢)
٤٦ ، ٤٣ السلسلة الشرقية (١)	وانظر العباس السفاح - ابو
٢٠٧ سلطان شاه (٢)	سفيان بن حرب - ابو (٢)
٢٢٩ السلفيوم - شجرة (١)	٣٠ ، ٣٧ ، ٤٩ ح ٥٥
١٢٢ ، ٩١ سلامة (٢)	٨٩ ، ٥٤ السنيانيون (٢)
١٨٩ سلم (اله) (١)	٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٥٥ سفروس (١)
١٩٠ ، ١٦٤ سلمية (٢)	٤١٢ سفروس بطريرك انطاكية (١)
٣٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٠٩	٤٤٤ سقراط (١)
٢١٦ سلوام (١)	٢٢٤ السكستين (١)
٩١ سلوق (٢)	٥١ سكوتاري (٢)
٢٦٠ ، ٢٥٩ سلوقس (١)	٢٥١ سكويرز (٢)
٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٣	٢٦٢ ح سكتي - اصل (١)
٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨١ - ٢٩٠	٢٧٧ ح السكيتيون (١)
٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣	٢٧٧ ، ٣٠٩ ، سكيثوبوليس (١)
٢٦٤ سلوقس الثالث - كرونوس (١)	٢٤٩ ، ٢٨٩ ، ٤٠٧ وانظر بيسان
٢٦٤ سلوقس الثاني - كالينيكوس (١)	٢٠٣ - ٢٠٦ ، السلاجقة (٢)
٢٦٤ ، ٢٦٢	٢١٢ ، الاضطراباب تبدأ بقيامهم
١٦٤ ح (٢)	٢١٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ،
٢٦٤ سلوقس الرابع - فيلو باثر (١)	٢٤١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٣
٢٧٤ ح سلوقس الخامس (١)	١٤٧ السلالة الاولى (١)
٢٧٤ ح سلوقس السادس - ايفانوس (١)	١٦٦ سلالة بابل الاولى (١)
٢٧٤ ح	١٤٤ السلالة التاسعة عشرة (١)
٢٨٥ ح سلوقس الكلداني (١)	١٤٦ ، ١٦٧
٢٧٦ ، ٢٦٤ ، ٢٦١ سلوقية (١)	١٠١ السلالة الثامنة عشرة (١)
٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧	١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٦٧
٤٤٠ ، ٣٨٩ ، ٣١٧ ، ٣١٠ ، ٣٠٩	١٢٨ السلالة الثانية عشرة (١)

صفحة

صفحة

- ٦٦ ح ٧٠ : حادثته مع موسى
بن نصير ٧٦؛ ٧٧، ٩٢، ٩١، ٩٠
اقامته في الرملة ١٢٨؛ ١٤٨
- سليمان (العثماني) (٢) ٣٠٤ ح
سليمان ابو عز الدين (١) ٤٥ ح
سليمان الاول القانوني (٢) ٣٠٥
السمح بن مالك الخولاني (٢) ٧٨ ،
٧٩
- سمرقند (٢) ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
١٣٦ ، ٢٩٦
- سمعان الطيوتة (٢) ١٨٠
سمعان العمودي (١) ٤٠٤ ، ٤١٢
سمعان ماتانياس (١) ٢٦٨ ، ٢٦٩
السمعاني-يوسف سماعيل (٢) ٣٢٢ ،
٢٢١
- السمقانية (٢) ٣٣٤
سمار جيل (٢) ١٤٠
السماق (١) ٣٢٤
السموم (ريح) (١) ٥٠
سميرا (١) ٨٨ ، ٨٩ ، ١٤١ ، ١٥٠
سميراميس (١) ٣٨٠
سميساط (١) ١٨٧ ، ٣٥٥ ،
٤٠١
- (٢) ٤٥
سنان بن ثابت (٢) ١٧٩
سنتيوس ساتورنينوس (١) ٣١٦
سنجيل (٢) ٢٥٨
سنحاريب (١) ٦٥ ، اشارته الى
الاوزان التي صنعها ٩٥ ؛
٩٩ ، ١٠٦ ، ١٥٣ ، ٢١٦ ،
تقلبه على حزقيا ٢١٧ ؛ ٢٣٤ ،
٤٣٦
- السند (١) ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٣٢٢
سنداي (جورج) (٢) ٣٣١
سند حنه (١) ٣٠٢ ح
السنسكريتية - اللغة ، الابجدية
(١) ١٨٣
- السلوقي - السلوقية (١) الاسرة
٢٦٧ : السلطة ، الملكة ٦١ ،
٢٧٠ ؛ ٢٧٥ ، النظم ، الدولة
٢٨٨ ، الملك ٢٨٩ ، الجيش ٢٩٠ ،
٢٩١ ، الاسطول ٢٩٣ ،
الامبراطورية ٢٨٣ ؛ ٢٩٣ ،
٢٩٧ ، ٣٠٠ ، السياسة ٢٩٧ ،
المدنية ٢٩٧ ، ٢٩٨ ؛ العرش
٣٠١ ، المستعمرات ٣١٧
- السلوقيون (١) ٢٥٣ ، ٢٦٠ ،
٢٧١ ، اخر ملوكهم ٢٧٣ ؛ ٢٧٦ ؛
٢٨٠ ؛ ٢٨١ ، ٢٩٠ ، استعمالهم
اثقلية في الحرب ٢٩٥ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ - ٣٠٢ ،
٣٠٤ ، ٣٢٤ - ٣٢٩ ، ٣٤٣ ،
تحالف المكابيين والفساسنة
ضدهم ٤١٩ ؛ ٤٢٥
- سليح - بنو (٢) ٦ ح
سليم (١) ٤٤٦
سليم الاول (٢) ٢٩٢ ،
٢٩٧ - ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
سليم الثالث (٢) ٣٠٦ ح ، ٣١٤
سليم الثاني (٢) ٣٠٥ ح
سليم (السلطان) (٢) ٣٠٩ - ٣١١ ،
٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٥
- سليم شاه (الاول) (٢) ٢٩٩
سليمان (ابن عم الب ارسلان) (٢) ٢٠٥
سليمان الاول (٢) ٣٠٥ ح
سليمان الثاني (٢) ٣٠٦ ح
سليمان بن داود (١) ٩١ ، ١٠٧ ،
١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ -
٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٤٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
- (٢) ١٣١ ، ٥٠
سليمان السلطان (٢) ٣١١ ، ٣١٣ ،
٣١٨ ، ٣٣١
سليمان بن عبد الملك (٢) ٤٩ - ٥١

صفحة

٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، احسن
اراضيها ٤٢ ، الزلازل فيها ٤٢ ،
٤٣ ، اكبر سهل فيها ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، اقليمها ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٧ ، ٦١ ، اصل اسمها ٦٢ ، ٦٣ ،
سورية (ولاية) ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، اصل تسميتها
٧٩ ح ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٩٣ ، صناعتها ٩٤ ، ٩٥ ،
١١٤ ، تنتج البلسم والمر ١١٥ ،
١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ،
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
مصدر الرصاص ١٤٨ ، الادب
اليهودي المسيحي فيها ١٤٩ ،
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
الحصان يدخل اليها ١٥٨ ،
١٥٩ ، توحيدها مع مصر ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ،
١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، الاموريون
فيها - ٧٠ ، ١٠٧ ،
١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ،
١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،
٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ،
٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ،
٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ -
٣١١ ، ولاية ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،
هدف الرومان فيها ٣١٨ ، ٣٢٢ ،
(٢) هرقل يسترجعها ٦٢ ،
٧ ، ١٢ ، ١٦ - ٢٠ ، ٢٢ ،
يحكمها معاوية ٢٣ ، ٢٥ ، ٢١ ،
٣٢ ، ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٧٠ ،

صفحة

سنفرو (فرعون) (١) ١٣٧
السنة (٢) ١٦٦ ، ١١٩ ، ٦٩ ،
٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٤٠ ،
٢٥٩ ، ٢٨٤ ،
سنهدين (١) ٣١٠
سنوحي (١) ١٣٨ ، ١٣٩
سنوسرت (١) ١٣٨ ، ١٣٩
سنير (جبل) (١) ٤٣ ح
سهر (١) ١٨٩
سوى (٢) ٩
سوبارتر - سوباريون (١) ١٦٢
سوري - بلاد (١) ٧٩
السوري - السورية (١) الساحل
٩٥ ؛ البحر ١٤٥ ؛ التأثير ١٤٦ ؛
التجارة ٣٠١ ؛ الحضارة ٦٥ ،
٣٧٣ ؛ الخمور ٣٢٧ ؛ الدول
١٣٦ ؛ الساحل ١١٤ ؛ الممر
٧٥ ؛
(٢) الاسطول ٢٥
سورية (١) ٣٢٢ ، الكبرى ٣٢٣ ؛
٣٢٤ ، ٣٢٥ ، مصدر البضائع
الكتانية ٣٢٦ ؛ ٣٢٧ - ٣٣١ ،
٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ،
٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ،
٣٨٦ ، تصبح مسيحية ٣٨٨ ؛
الثانية ٣٨٩ ؛ ٣٩١ ، ٤٠٣ ،
٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ،
٤٢٠ ، ٤٢٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ،
٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ -
٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ،
مكانتها في التاريخ ٣ ،
٤ ، موقعها الاستراتيجي ٥ ،
مكان تدجين القمح ٦ ، ٧ ، ١٢ ،
موطن الحيوانات النيلية ١٧ ،
١٩ ، ٢١ ، اقدم الخزف فيها
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ،
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،

صفحة	صفحة
سورية الرومانية (١) ٣٣٢ - ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٢	٧١ ، ٧٦ ، امبراطورية ٧٧ ؛ ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٥ - ٩٨ ؛ ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٤ - ١١٧ ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٧ ؛ ١٢٨ ، اول مسجد بني فيها ١٢٩ ؛ ١٢٣ - ١٣٩ ؛ ١٤٣ ؛ ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ؛ نفورها ١٦٢ ؛ ١٦٤ - ١٦٦ ؛ ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨٣ - ١٨٧ ؛ ١٨٩ ، ١٩١ - ١٩٥ ، ١٩٨ ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ؛ ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٢ ؛ ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، دولة لاتينية ثالثة ٢٢٩ ؛ توحيدها مع مصر ٢٣٦ ؛ ٢٣٩ ، ٢٤١ ، بين ابني صلاح الدين ٢٤٢ ؛ ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ؛ ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، الحملات الصليبية عليها ٢٥٩ ؛ ٢٦٠ - ٢٦٣ - ٢٦٧ ؛ ٢٧٠ - ٢٧٢ ، الادارة فيها ٢٧٤ ؛ ٢٧٦ - ٢٧٨ ؛ الوحوش فيها ٢٨٠ ؛ في ازهى عصورها ٢٨١ ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ؛ ٣٠٥ ، دوائرها الادارية ٣٠٦ ؛ ٣٠٧ ، ٣١٦ ، حياتها الاقتصادية ٣١٧ ؛ ٣١٨ - ٣٢٠ ، ٣٢٦ ؛ ٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٣٧ ؛ ٣٤١ ، ٣٤٢ ، الحاقها بمصر ٣٤١ ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ - ٣٥٦
سورية الوسطى (١) ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٦٨ ، ١٧٥	سورية الاولى (١) ٣٨٩
٢٧١ ، ٢٩٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٢	سورية البيزنطية (١) ٣٩٩
سورية الجوفة (١) ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ١٥٦ ، ٢٠٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٤٣ ، ٤١٩ ، ٤٠٣	سورية الجنوبية (١) ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١٤٥ ، ١٦٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٩ ، ٣٩٨ ، ٤٢٢
سورية الوسطى (١) ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٦٨ ، ١٧٥	(٢) ٥
٢٢١ ، ١٩٣ (٢)	سورية الداخلية (١) ١٧٧
السوريون (١) اخلاقهم ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٦٣ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، يسبقون اليونان في التمثيل المسرحي ١٢٤ ، ١٢٥ ، الفلاحون ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، الملوك ١٦٠ ؛ ١٧٢ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ؛ الهتهم ٢٦٧ ؛ ٢٧٣ - ٢٨٢ ، اليونان ٢٨٤ ؛ ٣٠٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، التجار ٣٨٤ ؛ ٣٨٩ ، ٣٩١ - ٣٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥١	
(٢) ١٤ ، ٢٤ ، ٤٠ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ؛ ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ؛ ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣١١ ؛ ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣	
سوزا (١) ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٤٠	
سوزانا (١) ١٢٤	
سوزو مينوس (١) ٣٩٨	
السوسن (١) ١٤٧	
سومر (١) ١٤٨ ، ٣٠	

صفحة	صفحة
- الشين -	السومري - السومرية (١) الحضارة ٦٤ ، ٧١ العناصر ٨٥ ، ٩٧ ٠ اللغة ١٢٩ ، كلمات ١٤٩
٤٣٧ ، ٣٣٩	شابور الاول (١)
٧٩	شارل مارتل (٢)
١٨	شارلمان (٢)
١٦١ ، ١٥٩	شاروحن - معقل (١)
٤٠٨	شاروكين (١)
٦٩	الشاش (٢)
٦٣	الشام (١)
١٧٢ ، ٥٩ - ٥٧ ، ٤٨ ، ٧ (٢)	سيجر (٢)
١٩٨ ، ١٨٣	سيحون (١)
٢٦٩	الشامانية (٢)
٢٩٤	شامة - ابو (٢)
٢٩٧	شاه الصفوية (٢)
١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢	شاول (١) ٩٣ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ، وفاته
شبه جزيرة العرب - انظر جزيرة العرب	شاه (١) ٩٣ ، ١٤٦ ، ١٧٨ ، وفاته
٢٧١ ، ٢٦٦	شجر اللر (٢)
١٥٦	شدونة (٢)
٢٨٣	شرح تشريح القانون - كتاب (٢)
١٢ ، ٦	شرحيل بن حسنة (٢)
١٣١	الشرق - بلاد (١)
١٧ ، ١٦ ، ١٠ ، ٥ (١)	الشرق الادنى (١)
٢٤ ، قمحه ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٥	سيلان (٢)
٣٠٤ ، ١٦١ ، ١٥٦ ، ٦٥ ، ٥٢	سيليس (١)
٣١٩ ، مناجمه ٣٢٧ ، ٣٢٨	سيلي (جزر) (١)
٤٣٣ ، ٤١٩ ، ٤١٧ ، ٣٦٥	سيمون باركوخبا (١)
١٥٩ ، ١٠١ ، ١٨ (٢)	سيمون الساحر (١)
٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٥١ ، ٢٥٧	سيميرا (١)
٣١٢ ، اتساع النفوذ الفرنسي	سين (اله) (١)
فيه في القرن السادس عشر	سيناء (١) ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٦٢ ، ٦٤
٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦	٦٩ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٩٣
٢٩٩	(٢)
٣٤٨ ، ١٣٦	سينا - ابن (٢)
٤٥٠ ، ٣٦ ، ٢٩ ، ٧ (١)	السينائية - الحروف (١)
٤٤ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٦	السينائية - الكتابة (١)
١٨٠ ، ٨١ ، ١٨٠	السينودس الماروني (٢)
	سيدة جيبيل (١)

صفحة

٣٢٢ ، ٢٧٩	شملان (٢)	٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ،
٩٥	شمر (٢)	اقامة مستعمرات رومانية فيه
١٨٩	شنغالا (١)	٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ،
١٠٦	شهاب الزهري - ابن (٢)	٤٣٥
٢٩١	شهاب الدين السهروردي (٢)	١٢٢ ، ١١٠ ، ٩٠ ، ح (٢)
٣٣٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢	الشهابيون (٢)	٢١٧ : سرب الجراكسة اليه
٣٤٠ ح		٣٥٤ ، ٣١٦
١٥٩	شهرزاد (٢)	الشرقية - الكنيسة (٢)
٢٣٨	الشوبك (٢)	الشرقية - نهر (١)
١٦٣ ، ٧٩ ، ١٦٣	شوبيلولوما الحثي (١)	شريف بن سعيد الدولة (٢)
١٧٢ ، ١٦٧		«الشعر» كتاب لارسطو (٢)
٣١٠ ، ٢٧٨ ، ٢١٩	الشوف (٢)	الشعبية (٢)
٣٢٦		شقائقي النعمان (١)
١٤٧	شوكة اليهود (١)	الشقيف - قلعة (١)
٤٩	الشوير (١)	شقيف ارنون (٢)
٣٢٤	(٢)	شقيف تيرون (٢)
١٩٠	شيبان بن احمد بن طولون (٢)	شكري غانم (٢)
١٨٩ ح	شيبان بن محمد بن طولون (٢)	شكبير (٢)
٢٥٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦	شيخ الجبل (٢)	شكا (١)
٢٤٠ ح	شيراز (١)	شكيم (١)
٢٦٦ ح	شيركوه (٢)	٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ١٧٣ ، ٨٩ ،
٢٨٩ ، ٢٧٧	شيرز (١)	٣٠٢ ، ٢٧٨ ، ٢١٥
٢٥٨ ، ٢٢٥ ، ١١	(٢)	شلال النيل الاول (٢)
١٢٦ ، ٣٨	الشيعة (١)	شلانصر (١)
٥٥ ، ٤٢ ، ٣٧ ، ٣٤	(٢)	شلانصر الاول (١)
٥٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٩٧ ، ١١٤		شلانصر الثالث (١)
١٢٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٩	الفرق بينهم وبين السنة ١١٩	٢١١
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٨٩ ، ١٩٤		شلانصر الخامس (١)
١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٨		٢١٣
٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩		شمال (زنجري) (١)
٢٦٠ ، ٢٩٧ ، ٣٢٦	تأييدهم	١٨٤ ، ١٨٥ ، ٤٠٨ ، وانظر
٣٣٦ ، ٣٣٩	ظاهر العمر	زنجري
٤٤٦	شيع القوم (١)	(٢)
٧٦	شيفاتا (١)	شمال افريقية (١)
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠	شيرشون (١)	شمس الدين الدمشقي (٢)
٢١٥	شيشنق (١)	شمس (اله) (١)
٣٠	شيكافو - جامعة (١)	٢٢٩ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ،
		٤٤٥
		الشمشقيق - ابن (٢)
		شمشون (١)

صفحة	صفحة
٢٩٣ - لصعدي - حليل بن ابيك (٢)	٢٣١ الشبول (١)
١٥ - صفرونيوس - البطريك (٢)	
٢٩٧ - الصفويون (٢)	- الصاد -
١١٨ : ٣٢ - صفين (٢)	
١١٢ : ١١٠ ، ١٠٥ ، (١) صقلية	١٧٧ ، ٩٩ ، ٩٨ (٢) الصابئة
٤٤٩ ، ٣٨٤ ، ٢٨٤ ، ١٢٧	صارونة (١) سهل ؛ ٣٩ ، ٢١٣
(٢) ٤٨ ، ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥	الصالح اسماعيل (٢) ٢٦٤ ح
٢٥٤ : ٢٣٩	الصالح حاجي (٢) ٢٧٣ ، ٢٧١
١٩٧ - صقلغ (١)	صالح - السلطان (٢) ٢٦١
١٨٢ - الصلاة الربانية (١)	صالح بن علي (٢) ١٦٧
١٤٥ (٢)	صالح بن مرداس (٢) ٢١٥ ، ٢١٤
صلاح الدين الايوبي (١) ٥ ، ٢٤٦ ، ٤٢٥	الصالح ناصر الدين محمد (٢) ٢٧١ ، ٢٧٣ ح
٢٤٢ - ٢٣٤ (٢)	الصالح نجم الدين (٢) ٢٦٤ ح ، ٢٦٦
الخنشاشون يحاولون اغتياله	٢٦٨
٢٤٦ ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ - ٢٦٦	صالح ابن يحيى (٢) ٢٦٠
٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ؛ ٢٩٤ ، ٢٩١ ، ٢٨٥	الصالحية (١) ٢٩٩ ، ٢٩٨
٣٤٨ (٢)	(٢) ٢٧٢
٢٠٨ - صلاح الدين زنكي (٢)	سان الحجر (١) ١٦٠ ح
٢٨١ - الصلاحيون (٢)	صحراء الحماد (١) ٤٦
٤٢٦ - صلخد (صرخد) (١)	الصحراء السورية (١) ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٣٩٨
٢٣٥ (٢)	الصحراء الشرقية (١) ٨٢
١٤٤ ، ٣ - الصليب (٢)	الصحراء العربية (١) ٣٥ ، ٣٢
الصليبي - الجيش (٢) ٢٢٦ ، العصر	الصحراء الكبرى (١) ٣٢٠ ، ٤٨
١٤٢	الصحراء النبطية (١) ٤٣٠
الصليبية - الحروب (١) ٦٢ ، ٥	صدقا (١) ٢٢٠ ، ٢١٩
٩١ ؛ القلاع ٣٣ ، ٤٣	الصدوقيون (١) ٣٧٥
الصليبية - الحروب ، الحملات (٢)	الصعيد (٢) ٨٧
٢٤٢ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٠٥ ، ٥	الصفد (٢) ٦٦
الاولى ٢٢٤ ، ٢٤٢ ؛ الثانية	الصفاء (١) ٤٤٨ ، ٣٣١ ، ٤٥٠
٢٣٤ ؛ السادسة ٢٤٣	صفة العمور - كتاب (١) ٣٥ ح
الصليبيون (١) ٤ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٤٢٥	صفة الغرب للادريسي (١) ١١١ ح
(٢) ٤٧ ، ١٣١ ، ١٧٠ ، ١٧١ ؛ ١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٣	صفد (١) ٣٩ ، ٤٣
٢٠٦ - ٢١٩ ، ٢٠٨ - ٢٢٤	(٢) ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، بيبرس
٢٢٦ - ٢٣٠ ؛ زنكي يزعرع	يدخلها ويبيد حاميتها ٢٤٤ ؛ ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ، ٣٣٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٠٧

صفحة

١٦٠ ح	صوعن (١)
٢٠٠	الصوفية (٢)
٦٤ ، ٤٣ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٩	صيدا (١)
١٠٤ ، ١٠١ ، ٩٢ ، ٨٨ ، ٨٠	
١٣٥ ، ١٣٣ ، ١١٦ ، ١٠٦	
٢٠٢ ، ١٥٥ ، ١٥٣ ، ١٥١	
٢٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٦	
٢٧١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٤ ، ٢٤٩	
٣٠٤ ، ٣٠٢ ، ٢٩٤ ، ٢٧٩	
٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٦	
اثنان من ابنائها يذكرهم	
سترايو ٣٥٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٢	
٤٢٥	
٢٢٥ ، ١٦٥ ، ٥٤ ، ١٢ (٢)	
٢٣٠ ، ٢٤٣ ، سقوطها بيد	
٢٧٩ ، ٢٥٣ ، ٢٤٩	الاشرف
٣١٨ ، ٣١١ ، ٣٠٩ ، ٣٠٧	
٣٣٢ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧ ، ٣١٩	
٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤	
١٠٧	صيدا (١) على الخليج الفارسي
٣٠١	الصيداويون (١)
٧٠	صيدون (١)
٩٦	الصيدونيون (١)
٦٥ ، ٦٠ ، ٦٠ ، ٦٠ ، ٦٠	الصين (١) ، قمحها ٢٧ ؛ ٦٥
١٨٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٠	مورد الحرير
٣٧٠ ، ٣٩١ ، ٤١٢ ، ٤٢٥	
٤٣٤	
١٣٧ ، ١٣٦ ، ٨١ ، ٦٤ (٢)	
٣٠٣ ، ٢٧٨	
الصينية (٢) اللغة ١٣٦ ؛ الامبراطورية	
٢٧٠	
٢٥٦	الصينيون (٢)

- الضاد -

٤٤٦	الضجاعم (١)
٥٨	الضحاك بن قيس (٢)
١١٢	الضحاك بن مزاحم (٢)

صفحة

٢٤٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٤	ملكهم
٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥	تأثيرهم في الغرب
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١	
٢٦٢ ، ٢٦٨	انتصار بيرس
٢٧٩ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩	عليهم
٢٢٨	
٢٠٢ ، ٥٤	صموئيل (١)
٢٤٤	صنلاط (١)
٢٤٣ ، ٢١٤	صهيون (١)
٢٣٨ ، ٢٠٨ ، ١٩٥	(٢)
٣٥٥ ، ٣٥٤	الصهيونية - الحركة (٢)
٢٥٨	صوايا (٢)
١٧٨ ، ١٧٧	صوبة (١)
٦٤ ، ٥٣ ، ٤٣ ، ٣٣ ، ٩	صور (١)
١٠٢ ، ٩٩ ، ٩٢ ، ٨٨ ، ٨٠	
١١٠ ، ١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٤	
١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٥١	
١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٨١	
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩	
٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٨	
٢٥٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦	فينيقية الحكم الذاتي في
٢٥٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦	
٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣١١	
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢	
٣٥٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧	محافظة على شهرتها
٣٥٧ ، ٣٧٣ ، ٣٦١ ، ٣٥٨	في الفلسفة زمن الرومان
٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٤٢٥	مركز فينيقية الاولى
٢٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٤ ، ١٢ (٢)	
٢٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٣١ ، ٢١٣	احد ابنائها يثور زمن
٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣	الفاطميين
٢٥٩ ، ٢٧٨	مزارع قصب السكر فيها
١٠٧	صور (١) على الخليج الفارسي

صفحة	صفحة
١٠٢	طروادة (٢)
٧٣	طريف (٢)
٣١٩	طريق ماريش (١)
٤٢٣ ، ٣١٩	طريق الملك (١)
٤١٤ ، ٣١٠	طسيفون (المدائن) (١)
٢٣٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٨	طفتكين (٢)
١٩٠	طفج (٢)
٢٢٦ ، ٢٠٤	طفرل بك (٢)
٣١ ، ٢٩ ، ح	طلحة بن عبيد الله (٢)
٣٥١	طلعت باشا (٢)
٧٧ ، ٧٤	طليطلة (٢)
٧١	طنجة (٢)
٢٢٢	طنوس الشدياق (٢)
٦٦	طوران (٢)
٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٣٦	طوران شاه (٢)
٧٥ ، ٦٢ ، ٢٢ ، ح	طورس - جبال (١)
١٠٤ ، ١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧	
٢٢٥	٢٦٦ ، ٣٠٥ ، ٣٢٢ (٢)
١٢٥	الطوبة (٢)
٤٤ ، ١٢	طورس (طوروس) (٢)
٢٤١ ، ٢٢٥ ، ٥٣ ، ٤٦	
١٨٥	الطولونية - الدولة (٢)
١٩٦ ، ١٩٣	الطولونية - السلالة (٢)
١٩٠	الطولونيون (٢)
٢٩٩	طومان باي (٢)
٧٠	الطوارة (٢)
١٤٢ ، ١٠١ ، ١٠٠	طيبة (١)
٤٠١ ، ١٩٣	
٢٣٥ ، ٢١٤ ، ١٨١ ، ١٨٠ ، ٩	طي (٢)
٣٢٤ ، ٣١٦ ، ٢٦٥	طيبيروس (١)
٤٣٥ ، ٣٦٣ ، ٣٤١	
٤٤٩	طيبيروس الثاني (١)
٣١٣	طيبيروس قيصر (١)
١٧٧	طيعاوس «كتاب» (٢)
- الظاء -	
الظافر بن الحافظ (الفاطمي) (٢)	٢١٣ ح
٥٩ ، ٣٧ ، ٢٦ ، ١٧	الظائف (٢)
٣١٦	
٧٧ ، ٧٤ - ٧٢	طارق بن زياد (٢)
١٥٨ ، ١٥١ ، ح	طالب - ابو (٢)
١٦١ ، ح	
١٢٣	طاليس (١)
٣٥٥	طانيوس شاهين (٢)
٢٦	الطبري - محمد بن جرير (٢)
٤٢ ، ٤١ ، ١٢ ، ١٠ ، ٩	طبرية (١)
٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٣١٣ ، ٣٤٩	
٣٥١	مدننة رئيسية فسي
٢٨٩	فلسطين الثانية
١٢٥ ، ٧٦ ، ٢٢	(٢) تنكرد
٢٣٧ ، ٢٢٩	يستقر فيها
٣٣٦ ، ٣٢٨ ، ٢٤٢	
٣٧١	طبيعة السيج (١)
٤١٣ ، ٤١٢	الطبيعة الواحدة (١)
١٣٩ ، ١٣٧ ، ٥٣	(٢)
١٤٢ ، ١٤١	
٥٧	الطبق - جبل (١)
٦٦	طخارستان (٢)
٧٧ ، ٧٦ ، ٣٩ ، ٣٢	طرابلس (١)
٢٤٦ ، ١٦٢ ، ٩٢ ، ٨٦ ، ٧٩	
٢٤٧ ، ٢٧٨	انتاجها للخمور
٣٢٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٤ ، ٣٨٩	
٢٢٥ ، ٢٠٢ ، ٥٤ ، ١٢	(٢)
٢٢٨ ، ٢٣١	بناء قلعتها
٢٤٧ ، ٢٤٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٢	
٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٥٣ ، ٢٤٨	
٣٢٥ ، ٣١٨ ، ٣٠٩ ، ٣٠٦	
٣٣٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٠ ، ٣٤١	
٣٥١	طرابلس الغرب (٢)
٢٩٠ ، ١١٢	طرسوس (١)
٢٢٥ ، ١٩٢ ، ٤٥	(٢)
٩٠ ، ٧٧	طرطوس (٢)
٢٤٥ ، ٢٣٨ ، ١٩٥	(٢)
٢٩٧ ، ٢٤٨	

صفحة

٢١٣ ح ٢٣٦	عاملة - بنو (٢)
٩٥ ح ٦	عاموس (١) ٢١٣ ، ٢٣٣ - ٢٣٥
١٦٤	عائ (١)
١٧٥	العبارة (كتاب) (٢)
١٥٢ (٢)	العباس السفاح - ابو (٢)
١٥٥ ، ١٥٧	مبايعته بالخلافة ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤
١٥٨	العباس بن عبد المطلب - بنو (٢)
١٥٨ - ١٦١	١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨
٢٠٤ (٢)	العباسية - الخلافة (١) ٤ (٢) ٢٠٤
٣٠٤ ، ٢٦٨ ، ٢٠٩	العباسيون (٢) ٣٩ ، اتشائهم الجنائن
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٥٤	حول القصور ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٥٤
١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٤	الترجمة عن اليونانية فني عهدهم ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢٤١ ، ٢٧٤
٢٦٢ ، ٣٠ (٢)	العباسيون - الخلفاء (٢) ٢٦٢ ، ٣٠
٥٢	عبدالله البطل (٢)
١٦٢ ح	عبدالله بن الحسن (٢)
٣٥٤	عبدالله بن الحسين (٢)
٣٢٤	عبدالله زاهر (٢)
٧٠ ، ٥٩ - ٥٦ (٢)	عبدالله بن الزبير (٢) ٥٦ - ٥٩ ، ٧٠
١٥٨ ح	عبدالله السفاح - انظر العباس السفاح - ابو
١٥٨ ح	عبدالله بن العباس (٢)
١٥١ ، ٣٠ (٢)	عبدالله بن عبد المطلب (٢) ٣٠ ، ١٥١
١٥٤	عبدالله بن علي (٢)
٢١٠ (٢)	عبدالله بن ميمون القداح (٢) ٢١٠
٣٠٦ ح	عبد الحميد الاول (٢)
٣١٦ ح ، ٣٠٦	عبد الحميد الثاني (٢) ٣٠٦ ح ، ٣١٦
٣٥٠ - ٣٤٨	٣٥٠ - ٣٤٨
١٠٨	عبد الحميد الكاتب (٢)
١٧٣	عبد خبا (١)

صفحة

٢٦٢	الظاهر (ببرس) (٢)
٣٣٨ - ٣٣٦	ظاهر العمر (٢)
٢٧٣ ح	الظاهر ترميزا (٢)
٢١٣ ح	الظاهر (الفاطمي) (٢)
٢٢٢	الظاهر بن الحاكم (٢)
٢٩٠ ، ٢٦٥ (٢)	الظاهر غياث الدين (ابن صلاح الدين)
٢٧٣ ح	الظاهر سيف الدين خشمقدم (٢)
٢٧٣ ح	الظاهر سيف الدين جقمق (٢) ٢٧٣ ح
٢٧٣ ح	الظاهر سيف الدين ططر (٢) ٢٧٣ ح
٢٧٣ ح	الظاهر سيف الدين يلباي (٢) ٢٧٣ ح
٢٨٢	الظاهر قانصوه (٢) ٢٧٣ ح
٢٧٠	انظاري (٢)
٢٧٠	الظاهرية (٢)

- العين -

٥٩ ، ٣١	عائشة (٢)
٦٥	العائلة المقدسة (١)
٩٢	عائكة ابنة معاوية (٢)
٩٢	عائكة بنت يزيد (٢)
٢٦٥ ح ، ٢٦٤ ح	العادل سيف الدين (٢)
٢٥٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٥٦	العادل - اخو صلاح الدين (٢) ٢٥٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٥٦
٢٧٣ ح	العادل المستعين (٢)
٢٦٥ ح ، ٢٦٤ ح	العادل سيف الدين (٢) ٢٦٥ ح ، ٢٦٤ ح
٢٧٧	٢٧٧
٣٢٠	الغازيون (٢)
٥٦	عاشوراء (٢)
٤٩ ، ٣٠ (٢)	ابو العاص بن امية (٢) ٤٩ ، ٣٠ ح
٣٣ ، ٣٢ (١)	العاصي - نهر (١) ٣٢ ، مصبه ٣٣ ؛ ٤٠ - ٤٢ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
٢٧٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤	العاضد بن يوسف (الفاطمي) (٢)

صفحة	صفحة
مؤلفات ٢٤٨ ، ٢٨٢ ؛ الحضارة	عبد الرحمن (الداخل) (٢) ١٢٣ ،
٢٢١ ؛ الديانة ٢٢٢ ، ٢٣١ ؛	١٥٦ ، ١٥٥
التعاليم النبوية ٢٢٢ ؛ الكنائس	عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٢)
٢٢٤	٦٦ ، ٦٥
العبران (العبرانيون) (١) انبيأؤهم	عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي (٢)
٤٣ ؛ ٤٥ ، ٦٩ - ١٢٢ ؛ المؤلفون	٧٩
١٢٥ ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٤ ،	عبد السلام بن رغبان (ديك الجن) (٢)
١٤٥ ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ،	١٨٢ وانظر ديك الجن
١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٩٠ - ١٩٤ ،	عبد شمس (٢) ٣٠
سيطرتهم على فلسطين ١٩٥ ؛	عبد العزيز - السلطان (٢) ٣٠٦ ح
القصاصون ١٩٥ ، ١٩٦ ؛ ١٩٨ ،	عبد العزيز بن مروان (٢) ٦٤ ح ،
الملوك ٢٠٥ ؛ ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،	١٤٨ ، ١٥٠
٢١١ - ٢٢٣ ، غذاؤهم وطقوسهم	عبد العزيز بن موسى بن نصير (٢) ٧٦
٢٢٧ ؛ ٢٢٩ - ٢٣٠ ، مقرر	عبد عشترا (١) ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ،
الاموات عندهم وانبيأؤهم ٢٣١	١٦٧
- ٢٢٢ ؛ الرسالة اليهم ٢٣٥ ؛	عبد الغني النابلسي (٢) ٢٢١
٤١٦ ، ٤٣٠	عبد اللطيف حمزة (٢) ٢٩٥ ح
عبيد الله بن زياد (٢) ٥٥ ، ٥٦	عبد المجيد (٢) ٣٠٦ ح ، ٣١٤ ، ٣١٥
عبيد الله بن محمد الحبيب (٢) ٢١٠	عبد المطلب (٢) ٣٠ ، ١٥١ ح ١٦١ ح
٢١١	عبد ملقارت (١) ١٥٣
عبيدالله بن قيس الرقيات (٢) ١١١	عبد الملك بن مروان (٢) ٢٢ ، ٣٠ ،
عبيد بن شريه (٢) ٩٠ ، ١٠٧	٤٥ ، ٤٩ ح ، ٥٤ ، ٥٨ ؛ تعيينه
عبيدة (او بوداس) ٤١٩	الحجاج على الحجاز ٥٩ ؛ ٦١ ،
عبيدة الثالث (١) ٤٢٠ ، ٤٢٣	٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، اصلاحاته
عبيدة الجراح - ابو (٢) ١١ ، ١٢ ؛	الادارية ٨٣ ؛ ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
١٤ ، ١٥ ، ٢٣ ، ١٣٢	٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،
العبيدية - السلالة (٢) ٢١٠	١١١ - ١١٣ ، ١٢١ ، ١٢٩ -
عبيه (٢) ٣٢٣ ، ٣٤٥	١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥٠
عتار (١) ١٨٧ ح	عبد المناف (٢) ٣٠
عتاد (الاحدة) (١) ١٨٧ ح	العبري - ابن (٢) ١٨٠
عثر عثه (١) ٤٤٦	العبري (العبرية) (١) ادب ٢٠٤ ؛ نقد
عتليث (٢) ٢٤٩ ، ٢٧٨	٢٢٨ ؛ شعير ١٢٤ ، ٢٢٤ ،
عثمان الاول (٢) ٣٠٣ ، ٣٠٤ ح ٣٠٥	٢٣٠ ؛ نشر ٢٠٥ ؛ حروف ٢١٤ ؛
عثمان - بنو (٢) ١٣١ ، ١٩٠ ، ٣٠٩	قبائل ١٩٣ ؛ ملك ٢٠٣ ؛ مملكة
٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥	١٧٧ - ١٧٩ ، ٢٠٢ ، الامة ٢٠٢ ؛
عثمان الثالث (٢) ٣٠٦ ح	وتالق ٦٢ ؛ لغة ٨٥ ، ٨٩ ، ١٨٢ ،
عثمان الثاني (٢) ٣٠٥ ح ٣٠٦	١٩١ ، ٢١١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ،
عثمان بن عفان (٢) ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧	٢٤٩ ، ٢٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٦٦ ،
٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٩ ، ٦٥	

صفحة	صفحة
بلاد ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٣٠٥ ، ٣٢٤ ، ٣٩٥ ؛ الأراميون ٣١٨ ؛ الملوك ٣٠٩ ؛ الجغرافيون ٦٣ ؛ الجنوب ٨٢ ، ١١٨ ؛ الشمال ١٨٣ ؛ (٢) ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ؛ ٥٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ - ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ؛ ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٥١ العربان (١) ٢١٦ العربية (١) ٢٠٦ عربستان (٢) ٣٢٩ العربي - العربية (١) ٢٠٩ ، الدور ٦١ ؛ العصر ٢٧٥ ؛ الحروف ١١٩ ؛ اللغة ٤ ، ١٩ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٥ ، ١٤٨ ، ٤٢٧ العربي - الاسطول (٢) ٨٩ ، ٥١ ، ٥٠ العربية (١) بلاد ٣٤١ ؛ بلدان ٣٤٢ ؛ ٤٢٠ ، ٤٣٠ (٢) الامبراطورية ٦٤ ؛ القبائل ٣ ؛ اللغة ٨٣ ، ٩٦ ، ١٠٥ ؛ ١١٦ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ٢٥٠ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ عرقه (١) ٣٨٩ ، ٨٩ ، ٧٦ (٢) ٥٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ العرعر - شجر (١) ٣٢٠ عزرا (١) ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢١٤ العزى (١) ٤٤٨ ، ٤٢٩ عز الدين ايبك (٢) ٢٦٧ العزير (الفاطمي) (٢) ٢١٢ ، ٢١٣ ح العزير جمال الدين يوسف (٢) ٢٧٣ ح العزير غيات الدين (٢) ٢٦٤ ، ٢٦٥ ح	العثماني - الدور (١) ٦١ ، ٦٢ ؛ الاسطول ٩١ (٢) الجيش ٢٩٧ العثمانية - الامبراطورية ، الدولة (٢) ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ العثمانيون (١) ٣٨٨ العثمانيون - الاتراك (٢) ٤٧ ، ٢٠٦ ، مناضلتهم الممالك والصفوية ٢٩٧ ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ انعجل الذهبي (١) ٢٢١ عجلتون (٢) ٣٢٩ عجلون (١) ٤٥ ح عجلي بول (١) ٤٤٥ عدلون (١) ٩ عدن (١) ٣٢٦ العذراء (١) ٣٧٠ ، ٣٩ عنراء (٢) ٩ انعراق (١) ٤٦ ، ٦٣ ، ١٤٨ ، (٢) ٧ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ - مصعب يتولاه لابن الزبير ٥٨ ؛ ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٩ ، عصيان الخوارج فيه ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، خضوعه لصلاح الدين ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٩٧ ، ٣٥٤ المراقبون (٢) ٢٨٦ ، ١٠٤ العرب (١) ٥٢ ، ٥٠ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ١١٨ ، ٢٥٥ ، ٢٩٠ ، ٣١٧ ، ٤١٣ ، ٤٣٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

صفحة	صفحة
٩٩	عزیزو (١) ٤٤٥ ، ٤٤٦
١١٤	عزیا (عزیرا) - الملك (١) ٢١٥
٦١	عساكر - ابن (٢) ٤٣ ح ، ٢٦١ ، ٢٩٢
١٠٢	٢٩٦
١٠٢	عساف - بنو (٢) ٢٢٥
٦٤	عساف التركماني (٢) ٢١٠
٦٢	عسقلان (١) ٣١ ، ٧٠ ، ٨٩ ، ١٥٥ ،
٢٠٦ ، ١٠٧	مركز لعبادة اتارغانس ١٨٨ ؛
١٩٨ ح	١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٦ ، ٢٧١ ؛
٢٣٥	٢٨٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٤٩ ؛
٢٠	٢٨٩ ، تصديرها الخمر زمن
٢٧	الرومان ٢٩١ ؛ ٤٢٥
٤٣١ ، ٢٠٦ ، ٤٦ (١)	عقبة - خليج (١) ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٠٥ (٢)
٢٣١ ، ٥	سقوطها بيد صلاح الدين ٢٣٨ ؛
٧٠ ، ٢٨	٢٥٤ ، ٢٥٩
٩٠	عشتار (١) ٢٠ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ١٢٥ -
٢١٧ ، ١٩٧	١٢٧
٢٣٠ - ٢٩٨ ، ٢١٧ (١)	عشتارت (١) ١٢٨
٤٢٥	عشتاروت (١) ١٤٦ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ،
٢٢٦	١٨٨ ، ٢٠١ ، معبد ٢٠٣
عكا (١) ٣٢ ، ٨٨ ، اكتشاف الزجاج	العصر الاشولي (١) ٨ ح
عند شاطئها ٩٩ ؛ ١٢٩ ، ١٥٣ ،	العصر البابليوتي (١) ١٣
٢١٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ - مركز	العصر البرونزي (١) ١٥ ، ٢٤ ، ٢٦ ،
تجارة السمك ٢٣٠ ؛ ٢٤٩	٩٥
(٢) ١٢ ، ٢٤ ، ١٠٣ ، ١٨٧ ،	العصر الجليدي (١) ٣٥
٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ،	العصر الجوراسي (١) ٢٥
القديس لويس يحصنها ٢٤٣ ؛	العصر الحجري (١) ٩ ، ٧ - ١٦ ،
٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٨ ،	١٨ - ٢١ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٥٦ ،
٢٧٩ ، الجاليات الفرنسية فيها	١٥٨
٢٤١ ، ٢٣٩ - ٢٣٦ ، ٣١٨	العصر السلوقي (١) ١٨٨
٨٨	العصر الكريتاسي (الطبشوري) (١)
٢٧١	٣٦ ، ٣٥
٢١٢	العصر الميزوليوتي (١) ٢٠
٢٣٥	العصر الميكاني (١) ٩٧
٢٥	العصر المينوسي (١) ٢٩
٢٢٦	العصر النحاسي (١) ٢٤ - ٢٠
العلويون (٢) ٢٩ ، ٢٧ ، ٣٩ ، قيامهم	العصر النطوني (١) ٢٠
ضد يزيد ٥٥ ؛ ٦٠ ، ١٥١ ،	العصر النيوليتي (١) ٢١ ، ٢٦
٢٢٠ ، ١٩٩ ، ١٩٢ ، ١٦١	عصر الهكنوس (١) ١٤٥

صفحة	صفحة
٧٠٦ (٢)	٣٢٨ ، ٣٣٧ علي بك (٢)
١٣ ، ١٥ ، ٢٥ ، حيلته في	٣٢٨ علي جاتبولاد (٢)
٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨	١٩٣ العلي حسن - أبو (٢)
١٠٠ العمري - ابن فضل الله (٢)	١٩٦ علي بن سعيد الدولة (٢)
٢٠٩ ، ١٧٩ (١) عمري (ملك آرام)	٢٤٠ علي الشهابي (٢)
٢١١	علي بن ابي طالب (٢) ٢٧ ، خلافته
٤٣٠ عمري (ملك اسرائيل) (١)	وصراعه مع معاوية ٢٩ - ٣٧ ؛
٩٠ ، ٧٠ عمريت (١)	٤١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ١٠٥ ؛
٧٦ ، ٤٠ انعمق - سهل (١)	١١٨ - ١٢٠ ، ١٥١ ، ١٥٨ ح ؛
٢٢٨ عمار - ابن (٢)	١٦١ ، ١٦٢ ح ٢٠٩٠ ، ٢٢٠ ؛
٢٣٢ ، ٢٢٥ (٢) بنو	علي بن عبدالله بن العباس (٢) ١٥٨ ح
٢٩٥ ، ٢٧٧ ، ٢٥ عمان (١)	٢٣٣ علي علم الدين (٢)
٢٠٢ ، ١٢٥ (٢)	٢٣٢ ، ٣٢٩ علي بن فخر الدين (٢)
٣٥٠ ، ٣٤٩ عمواس (١)	١٦٥ علي (السفياي) (٢)
٢٢ ، طاعون (٢)	٢٢٠ العلي الهية (٢)
٨٤ العمود المقدس (١)	عليان بعل (اله النبات) (١) ١٢٤ ، ١٢٧
٤٣ عمورة (١)	١٣٢
١٨١ ، ٥٠ عمورية (٢)	٣٣٥ عماد - آل (٢)
٢٠٧ ، ٢٠٣ ، ١٩٤ ، ١٥٦ (١) عمون	٢٤١ عماد الدين الاصفهاني (٢)
٢١٣ ، ٢١٦ ، ٤١٦	٢٠٧ عماد الدين زنكي (٢)
٢١٦ ، ٢٠٢ عمونيون (١)	٣١٧ ، ١٩٠ ، ١٧٢ العمارة (١)
٢٨ عناق - بنو (١)	٢٨ انعمالقة (١)
١٦٠ عنات (١)	١١٩ ، ٨٧ ، ٦٢ عمان (٢)
١٢٨ عنات - شقيقة عليان بعل (١)	عمر بن حيدر انشاهي (٢) ٣٤٠ ح
١٢٩ عنات - عشتار (الالهة) (١)	عمر بن الخطاب (٢) ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ،
١٦٠ عنات هار (١)	١٩ - ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ،
١٢٩ عناتا (١)	والهجرة ٢٨ : ٣٨ ، ٦٥ ، ١٠٠ ،
١٢٩ عناتوت (١)	١١٢
٢٦٢ عنتره بن شداد (٢)	٢١٦ عمر الخيام (٢)
٢٧٠ ، ١٧٨ (١) عنجر (خالكيس)	١١٠ عمر بن ابي ربيعة (٢)
٢٧٨ ، ٣١٧ ، ٤١٩ (٢)	عمر بن عبد العزيز (٢) ٥١ ، ٦٤ ح ؛
٣٣٠ (٢)	٧٨ - ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ٩٩ وضعه
٩٥ عنزة - عرب (٢)	القيود على المسيحيين ١٠٠ ؛
٣٢٤ العناب - شجر (١)	١٠١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ؛
٢٤٨ ، ٢٣٥ ، ٤٣ (١) العهد الجديد	١٢٢ ، ١٤٤ ، تعبد ١٤٨ ؛
٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٧٢	١٥٥ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ٢٢١
٢١٨ (٢)	عمر بن سعد بن ابي وقاص (٢) ٥٥
١٤٧ عهد السلالات (١)	عمر بن شراحيل الشعبي (٢) ١٠٦
٢١ ، ٢٠ ، ١٩ عهد عمر (٢)	٦٥ عمرو بن العاص (١)

صفحة	صفحة
الغال - بلاد (١) ١١٢ ، ١١٦ ، ٢٨٣ ، ٢١٥ ، ٣١٨ ، ٣٥٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥	العهد القديم (١) ٨٧ ، ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، المابد المذكورة فيه ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، اعتماد كتاب «آثار اليهود» عليه ٣٥٣ ، ٣٥٨
٣٩٩ غاليوس (١)	عوج ملك باشان (١) ٨١ ، ١٩٤
٧٦ غاليسيا (٢)	العوجا (٢) ١٥٥
٤٣٧ غاليوس (١)	عياض بن غنم (٢) ١٥
٧٩ الغاليون (٢)	عيبال (جبال) (١) ٣٩
٢١٦ غايوس (١)	عيد القيامة (٢) ٢٢١
٣٢٦ الغرب الأدنى (٢)	عيد الميلاد (٢) ٢٢١
٢٢٦ الغرب الأعلى (٢)	عيسى بن مريم (٢) ١٥٨
٢٢٦ غرناطة (١)	عيسى بن نسطوريوس (٢) ٢١٢
١٢٨ (٢)	عيسو (١) ١٦٩ ، ١٩١ ، ١٩٢
٢٧٤ ح. غريبوس (١)	عيلام (١) ٢١٤
٢٩٩ غريغوريوس توماترجس (١)	العيلاميون (٢) ٢٥٢
٢٢٢ غريغوريوس الثالث عشر (٢)	العين - كتاب (٢) ١٠٥
٢٩٩ غريغوريوس النازينزي (١)	عين التمر (٢) ٧١
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣ الفز (٢)	عين جالوت (٢) ٢٦٩
غزة (١) ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ممثل	عين ذارة - معركة (٢) ٣٣٤
فرعون في جنوبي سورية يقيم	عين زحلتا (٢) ٣٤٣
بها ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٩٦ ،	عين شمس (١) ١٥٩ ح.
١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٥ ، ٢٥٥ ،	عين صوفر (٢) ٣٢٧
٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ،	عين طور (٢) ٢٢٠
٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٨٩ ،	عين قديس (١) ١٩٣ ح.
تصديرها الخمر ٣٩١ ، ٣٩٨ ،	عيناب (٢) ٢٧٩
٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ ،	عينتاب (١) ١٥٥
(٢) ٦ ، ١٠ ح. ٢٧٢ ، الوباء	عيون الابناء في طبقات الاطباء -
يجتاحها في العصور الوسطى	كتاب (٢) ٢٨٣ ، ٢٩٣
٢٧٧ ، ٢٠٦ ، ٣٠٧	
الفزالي (٢) ١٣٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٢	
الفزالي (جان بردي) (٢) ٣١١	
غزير (٢) ٣٢٥	
القساسة (١) ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ،	
٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢	
٢٣ ، ٤ (٢)	
١٩٩ ، ٩٨ غسان (٢)	
٤٤٦ غسان - بنو (١)	
١٢٨ القسائيون (٢)	
٢٢٧ ح. غلاطية (١)	
	٣٣٥ الغابة المقدسة (١)
	٣١٠ غابينيوس (١)
	٢١ غارستانغ (١)
	٧٩ غارون - نهر (٢)
	٢٧٢ غازان محمود (٢)
	٥٢ الغازي (٢)

- العين -

صفحة	صفحة
الفاطمي، الفاطمية - الامبراطورية (٢)	غنوسطية - طائفة (١) ٣٧٠ ، ١٨٤
١٩٣ ، الاسطول ٢١٣ ، ٢٣٠ ،	الغنوسطيون (١) ٣٧٢
الخلافة ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ،	غودفري دي بويون (٢) ٢٢٨ - ٢٣٠
٢٣٦ ، السلالة ٢١٠	غوديا (١) ١٤٩
الفاطميون (٢) ١٥٢ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ،	غورالاردن (١) ٤٢ ح
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،	غورو (١) ١٤٤
٢٠٨ ، قيام خلافتهم ٢٠٩ ،	الغوري (٢) ٣٠٧
٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ،	غوزان (١) انظر تل حلف
٢٣٥ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٣٢٦ ح	غوزانه (١) ١٨٣ وانظر تل حلف
٤٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٤٠ (١) فالريان	غوشن (١) ١٩٣
٢٠٥ فان - بحيرة (٢)	الغوطة (١) ٤٤
٣٢٤ فانو (٢)	(٢) ٨١ ، ٩٤
الفتوحات الملكية - كتاب (٢) ٢٩٢	غونتراند (١) ٣٩٢
الفتوة - حركة (٢) ٢٥٢	غيتا (١) ٣٥٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
فحل (٢) ١٠ ، ١٢ ح	غي ده لوسينيان (٢) ٢٣٧ - ٢٣٩
الفخارية (بلدة) (١) ١٦٢	غيطشة (٢) ٧٤
فخر الدين (١) ٩١	
(٢) ٢٨٠ ، ٣٢٨ - ٣٣١ ،	
٣٣٣ ، ٣٤٣	
فخر الدين الاول (٢) ٣٢٧ ، ٣٣٣ ح	
فخر الدين الثاني (٢) ٣١٩ ، ٣٢٠ ،	
٣٣٣ ح	
فخر الدين المعني (٢) ٣٠٩ ، ٣١٠ ،	
٣٥١	
	- الفاء -
	الفائز بن الظافر (الفاطمي) (٢) ٢١٣ ح
	الغاتيكان (١) ٢٢٤
	(٢) ٢٢٢
	فاراب (٢) ٢٠٠
	الفارابي (٢) ١٩٧ ، ٢٠٠
	فارس (١) ٦٩ ، ٩٢ ، ١٦١ ، ٢٤٠ ،
	٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٣٢٦ ، ٣٨٣ ،
	٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ،
	٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ،
	٤٤٩
	(٢) ٣ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
	٤٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، الازارقة
	بيسطن نفوذهم عليها ٦٣ ،
	٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
	١٣٥ ، ١٣٨ ، النعمة تشتد فيها
	على الامويين ١٥٢ ، ١٥٧ ،
	١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ،
	٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ،
	٢٧٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩ ،

صفحة	صفحة
٢٨٢ : ٢١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠	الفداء — ابو (المؤرخ) (٢) ٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ : ٢٧٢ ، ٢٩٤
(٢) ٣ ، ١٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٨٣ ، ٨٦ ، اعتناهم	فدان آرام (١) دولة ١٧٦ ، ١٩١
بكلاب الصيد ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٣٣ : ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ح	الفرات (١) ٢٥ ، ٤١ ، ٦١ — ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ — ١٧٧ ، ١٨٤ ، ٢١٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧١ ، ٢٩٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٤١٥ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ، ٤٤٠ ، ٤٣٧ ، ٤٣٥ ، ٤٣٣
١٥٣ : ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ : ٢١٨ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠ ، ٢٢٨ ، ٢٩٧	(٢) ١٨٨ ، ١٥٥ ، ٩٨ ، ٤٥
فرعون (١) ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ : ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٩٣ ، ٢١٧ ، ٢٠٥	فراس الحمداني — ابو (٢) ١٩٧ ، ١٩٩
الفرعونية (١) السيطرة ١٣٦	الفراعنة (١) ٢٩ ، ٩٦ ، ١٧٣ ، ٢٩٠ ، ٣٢٩ ، ٣٠٣
فرغانة (٢) ٦٦ ، ٦٨ ح ، ١٠١ ، ١٩٠ ، ١٧٥	(٢) ١٨٦
فرغوريوس (٢)	فرتيا (١) ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢١٠ ، ٤٣٣
الفرحاح — ابن (٢) ٢٦١	الفرتية (١) السلالة ٢٦٢ ، ٢٨٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٧ ، الفوزة ٢١١ ، الدولة ٣١٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٤ ، ٣٣٩
الفرنج ، الفرنجة (٢) ٧٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ : ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨	الفرتيون (١) ٢٦٢ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٤٢٤ ، ٤٣٣ ، ٤٤٢
فرنجية (٢) ٢٥٨	فرجيل (١) ٣٥٢
فرنسا (١) ٤ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٥ ، ٣٤٠ ، ٣٩٣	فردناند الاول (٢) ٢٢٨
(٢) ٧٨ ، ١٤٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٣٤٧	فرديناند (٢) ٢٩٧
فرنسيس الاول (٢) ٣١٨	فرديناند مغلان (٢) ٣١٧
فرنسيس الاليسي (٢) ٢٦٣	فردريك بارباروسا (٢) ٢٣٩
الفرنسيكان (٢) ٢٦٣	فردريك ملك صقلية (٢) ٢٤٢
الفرنسي — الدستور (٢) ٣١٦	الفرزدق (٢) ١٠٩
الفرنسية — اللغة (٢) ٢٥٧ ، ٢٨٤ ، ٣٥٢	الفرزل (١) ١٦٥
الفرنسيون (١) ١٤٤ ، ٤٤١	الفرزيون (١) ١٥٧
(٢) ٢٢٠ ، ٢٥٢ ، ٣١٣ ، ٣١٨ — ٣٢٠ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦	الفرس (١) ٤ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٨٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩
فريجيا (١) ٢٦٠	
(٢) ٥٠	
الفريجية (١) الالهة ١٨٧ ح	

صفحة

٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ،	٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ،
٢٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ،	٢٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ،
٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،	٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،	٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،
٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،	٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
(٢) ٧٠٧ ، ٨٧٠ ، ١١٥ ح ، ١١٦ ح ،	(٢) ٧٠٧ ، ٨٧٠ ، ١١٥ ح ، ١١٦ ح ،
١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،	١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ،	١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ،
٢٠٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ،	٢٠٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ،
٢٧٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ،	٢٧٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ،
٣٥٤ ، ٣٣٨ ،	٣٥٤ ، ٣٣٨ ،
فلسطين الاولى (١) ٢٨٩	فلسطين الاولى (١) ٢٨٩
فلسطين الثالثة (١) ٢٨٩	فلسطين الثالثة (١) ٢٨٩
فلسطين الثانية (١) ٢٨٩	فلسطين الثانية (١) ٢٨٩
فلسطين الوسطى (١) ٩٣	فلسطين الوسطى (١) ٩٣
الفلسطينية - المدن (١) ٢١٦ - ٢٥٥	الفلسطينية - المدن (١) ٢١٦ - ٢٥٥
الفلسطينيون (١) دجنوا الخنزير ٢٦	الفلسطينيون (١) دجنوا الخنزير ٢٦
٣٩ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ١٠٤ ،	٣٩ ، ٦٢ ، ٨٣ ، ١٠٤ ،
١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ١٩٦ -	١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٧٦ ، ١٩٦ -
٢٠٣ ، ٢١٦ ،	٢٠٣ ، ٢١٦ ،
(٢) ٢٥٨	(٢) ٢٥٨
الفلسفة المشائية (٢) ٢٠٠	الفلسفة المشائية (٢) ٢٠٠
الفلكاته (١) ٣٩٨	الفلكاته (١) ٣٩٨
فلورنسا (٢) ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١	فلورنسا (٢) ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١
القليبين (٢) ٣١٧	القليبين (٢) ٣١٧
الفناء الكبير (٢) ٢٧٧	الفناء الكبير (٢) ٢٧٧
الثقنيين (١) ١٨٤	الثقنيين (١) ١٨٤
الثورس - كتاب (٢) ١١٤	الثورس - كتاب (٢) ١١٤
فوت ألوفيات - كتاب (٢) ٢٩٣	فوت ألوفيات - كتاب (٢) ٢٩٣
اثوارس - ابو (٢) ١٩٣	اثوارس - ابو (٢) ١٩٣
فورتونا (١) ٣٤٨	فورتونا (١) ٣٤٨
فولتي (٢) ٣٣٨ ، ٣٣٣	فولتي (٢) ٣٣٨ ، ٣٣٣
فوتكس (٢) ٢٥	فوتكس (٢) ٢٥
فيتيلوس (١) ٣٢٤ ، ٣١٦	فيتيلوس (١) ٣٢٤ ، ٣١٦
الفيثاغوريون (١) ٣٥٩	الفيثاغوريون (١) ٣٥٩
فيروس (١) ٣٣٤	فيروس (١) ٣٣٤
فيزون (١) ٣٤٠	فيزون (١) ٣٤٠
فيصل بن الحسين (٢) ٣٥٤	فيصل بن الحسين (٢) ٣٥٤
فيلاذلفيا (١) ٢٧٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٥	فيلاذلفيا (١) ٢٧٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٥

صفحة

١٧٢ ، ١٦٨	الفريجيون (١)
٣٧٥	الفريسيون (١)
٣٤٩ ، ٣٤٣ ، ٣٢٢ ،	فسياسيان (١)
٣٧٥ - ٣٧٤ ، ٣٥٣	
٣٢٤	الفتق - شجر (١)
٢٤٠ ح	فجر جادي (١)
١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٨٦	القساط (٢)
٢١٦ (٢) كتاب	الفصول والغايات - كتاب (٢)
٢٠١	فصوص الحكم - كتاب (٢)
٢٩٥	فضل الله العمري - ابن (٢)
٢٣٥	فضل - بنو (٢)
٤٦	فضالة بن عبيد الانصاري (٢)
٣٢٥	فطر اورشليم (١)
١٥٥	فطرس - ابو (٢)
٢١٥	القطير - عيد (١)
٢١٣ ، ١٨١	فجح (ملك اسرائيل) (١)
فلافيوس انسياسيان - انظر	فلافيوس انسياسيان - انظر
فلافيانيس بولس (نابلس) (١) ٣٤٩	فلافيانيس بولس (نابلس) (١) ٣٤٩
٣٢٤	فلانيسا (٢)
٦٢ ، ٣٩ ، ٣٢	فلسطين (١) سهل
٢١٣ ، ٢٠٧ ، ١٩٦	
٤ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٥ ،	فلسطين (١) جزء من سوربة ٣
١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ،	
٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ،	
٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ،	حوران تمونها
٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ،	بالقمح ٤٥ ، ساحلها ٤٩
٥٦ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٠ ،	٥٠ ، ٥٣ ، نباتاتها ٥٤ ، ٥٥ ،
٨٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ،	
٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٢٠ ،	
١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،	
١٥١ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،	تحت
١٦٩ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،	الحكم المصري
١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ،	
١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ،	
٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ،	
٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،	

صفحة	صفحة
٣٠٨ : ٣١٨ ، ٢٢٩ ، الكتابة	٣٥٠ فيلبو پولس (١)
١١٢ ، ١١٧ ، ٢٧٩ ، الحروف	٢٧٦ فيلوتيرا - اخت بطليموس (١)
١١٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢١١ ،	٢٧٦ فيلوتيريا (١)
مستعمرات ١٤٧ ، ١٥٦ ،	٢٨٥ فيلوديمس (١)
٣٠١ ، اله ١٤٧ ، الفن ٩٦ ،	٢٨٦ فيلوديمي (١)
١٤٨ ، العصور ١٤٨ ، السفن	٢٧٩ فيلوسترانس (١)
١٠٦ ، الجاليات ٢٤٢ ، الموارد	٢٦٦ فيلو متر (١)
٢٤٥ ، الاسطول ٢٤٦ ، الدول ٢٤٧ ؛	٢٧٧ فيلون الاسكندري (١)
القومية ٢٥٤ ، الديانة ٢٥٣ ،	١٢٢ ، ١٢٣ ، فيلون الجبيلي (١)
١٤٧ ، ٢٢٤ ، ٢٥٤	١٢٥ ، ٢٥٣
(٢) الساحل ٩٦ ،	٢٦٥ فيليب (١)
الفينيقيون (١) اول التجار التولين	٢٢٩ فيليب اوغسطس (٢)
٥ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٨٥ ، الملوكة	٢٧١ ، فيليب (الاول) فيلادلفوس (١)
٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ -	٢٧٤
١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٨ ،	٢٧٣ ، ٢٧٤ فيليب الثاني (١)
١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،	٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٨٢ فيليب العربي (١)
١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،	٢٥٣ فيليب المكذوني (١)
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ،	٣٠٥ فينا (٢)
٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ،	١٧٢ ، ٢٤٨ ، فينوس (١) وانظر
٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٧	الزهرة
(٢) ٧٢ ، ٣٥٦	فينيقية (١) ٦٩ ، ٨٠ ، اشتقاق
- القاف -	أسمها ٨٧ ، ١١٧ ، ١٢٣ ،
قائباي (٢) ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨	١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ،
القائم - الفاطمي (٢) ٢١٣	١٦٧ ، ١٨٠ ، ٢١٦ ، بعض مدنها
قابون (٢) ٣١١	تمارس الحكم الذاتي ٢٤٦ ؛
قادس (١) ١١٢ - ١١٠	٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ،
قادش (١) ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٩	٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،
قادش برنيا (١) ١٩٢	٣١١ ، ٣٣٤ ، ٣٥٤ ، ٣٨٩ ،
قادشا (٢) ١٤٠	٣٩٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٤٢
قادشا - نهر (١) ٢٩	٣٨٩ فينيقية الاولى (١)
قارون (١) ٢٢٩	٣٨٩ فينيقية الثانية (١)
قاسم بن عمر الشهابي (٢) ٢٤٠ ح	٢٣٧ فينيقية السورية (١)
قاسم بن ملح الشهابي (٢) ٢٤٠ ح	٤١٤ ، ٣٤١ ، فينيقية اللبنانية (١)
القاسمية - نهر (١) ٢٢٣ ، ٢٩٠ ، ٤١	الفينيقي ، الفينيقية (١) الساحل ٤٣ ؛
قاصود القوري (٢) ٢٩٧ ، ٢٩٨ ،	الاثار ١٢١ ، اللغة ٦٦ ، ٨٢ ،
٢٩٩ - وانظر القوري	١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٩١ ، ٢٨٦ ،
قانون ابن سينا - كتاب (٢) ١٢١ ، ٢٨٢	٣٦٦ ، المدن ١١٥ ، ١٣٧ ،
	١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٤ ،
	٢٤٠ ، ٢٤٨ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤ ،

صفحة

- ٢٢٥ ، الصليبيون يحتلونها
 ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ - ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ،
 ٢٨٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٤٨ ،
 ٣٥٠ .
- قدس الاقداس (١) ١٣٠ .
 قدموس (١) ١١٤ ، ١١٧ ، ٢٨٠ .
 (٢) ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
- القديس افرام (٢) ١٤٤
 القديس بطرس (٢) ١١٩
 القديس توما (٢) ١٣٦
 القديس جاورجيوس (٢) ٢٢٧
 القديس سابا (٢) ١١٦ ، ١٧١
 القديس سرجيوس (٢) ٦٧ ح ، ٢٢٧ ح
 القديس سيسيتوس (٢) ٩٧ ح
 القديس قسطنطين (٢) ٩٧ ح .
 القديس لوقا (٢) ٢٥٣
 القديس لويس (٢) ٢٤٣
 القديس لويس ملك فرنسا (٢) ٢٤٢
 القديس لويس (في عكا) (٢) ٢٤٧
 القديس مارتن (٢) ٧٩
 القديس مارون (٢) ١٤٠
 القديس يوحنا الخامس (٢) ٩٧ ح ،
 ٩٨
- القديس يوحنا اندمشقي (٢) ٣٩
 ٤١ ، ١١٥ - ١١٧ ، ١٧١
- القديس يوسف (٢) ٢١٩
 القديسة صوفيا (٢) ٥٢
 القديسة مريم (٢) ١٣١
 القرآن (١) ١٨٣ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٥٢
 (٢) ١٧ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٦٢ ،
 ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ١٠٢ ،
 ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٩ ، ١٤٥ ، ١٦٦ ،
 ١٩٧ ، ٢١٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١
- قراقر (٢) ٧
 القرامطة (٢) ١٢٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

صفحة

- القاهر ناصر الدين (٢) ٢٦٦ ح
 القاهرة (١) ٤٢٧ ، ٢١٥ ، ٥
 (٢) ١٩٦ ، ٢١١ - ٢١٣ ،
 معهد للعلوم العاليه ينشأه
 الحاكم فيها ٢٢٢ ، ٢٥٦ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣١٨
- قب الياس (٢) ٣٤٠
 قبة السلسلة (٢) ١٣٠
 قبة الصخرة (١) ٢٠٥
 (٢) ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠
- قبر شمون (١) ١٣٥ ح
 قبرس (قبرص) (١) ١٠٤ ، ١١٠ ،
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٥٣ ،
 ١٩٦ ، ٢٤٢ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩
 (٢) ٢٤ ، ٤٨ ، ١٧٠ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٤١
- قبرصي (١) خرف ١٢٥ ، سلاح ٩٦
 القبرصية - الاواني (١) ٩٥
 القبرصيون (٢) ٢٧٠
 قبريانوس (٢) ٧١
 القبط (٢) ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٦١
 القبطية - اللغة (١) ١٤٨
 (٢) ١١٤
- القبطية الحبشية - الكنيسة (٢) ١٣٩
 قتيبة بن مسلم (٢) ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩
 القدرية (٢) ١١٥ ، ١١٨
 القدس (١) ١٥ ، ٤٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ،
 ١٥٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٤٠٦ ،
 ٤٣١
- (٢) ٣ ، ٧ ، ١٠ ح ، ١١ - ١٣ ،
 ١٥ ، ٣٥ ، ٦٥ ، ١٢٦ ،
 ١٢٨ ، بناء قبة الصخرة فيها
 ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٧١ ،
 ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ،

صفحة	صفحة
٤٥٠ ، ٤٢٠ ، ١٣٠ ، ٣ (٢)	٢١٤ ، ٢١٢ ، ٢١١ ، ٢٠٣ ، ١٩٢
٤٦ ، الهجوم الاموي الاخير	٢١٧ ح
عليها ٤٩ - ٥٢ ، ٧٠ ، ١٠٦ ، ١١٧	قوة - ابو (٢) ١٧١
٢٠٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٧٨ ، ٢٩٧	قرطاجة (١) ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٥
٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧	٢٨٩
٣١٨ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٣٠٧	(٢) ٣٩
٣٢٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧	قرطاجنة (٢) ٧١
٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٩	القرطاجنية - اللغة (٢) ٧٢
٣٥٣	القرطاجي - الاسطول (١) ١١٦
قصر الحر (٢) ١٢٧ ، ١٢٨	القرطاجيون (١) تجارتهم ١١٥
قصر الحر الغربي (٢) ١٢٧	قرطاجية (١) ١١٢
قصر - الخضراء (٢) ٨١	قرطبة (١) ١١٣
قصر الرصافة (٢) ١٢٧	(٢) ٧٤ ، ١٢٨ ، مسجدها
قصر القسطل (٢) ١٢٥	١٣٤ ، ١٥٦
قصر المشتى (٢) ١٢٥ ، ١٢٦	قرقر (معركة) (١) ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢٠٩
قصة صحيحة (كتاب) (١) ٣٥٦	قرقماز (قرقماس) (٢) ٣٢٧ ، ٣٣٣ ح
قصص السندباد البحري (١) ٣٥٦	القرم (٢) ٣٠٥
قصير عمرة (٢) ١٢٢ - ١٢٤	القرم - حرب (٢) ٣٤٨
اقضاة - سفر (١) ٨٩ ، ١٩٤ ، ٢٠٢	القرمز (١) ١٠٣
قضاة (٢) ٦	القرن الذهبي (٢) ٥٠
القطائع (٢) ١٨٧ ، ١٩٠	القرنة السوداء (قمة) (١) ٢٤
قطامة - قبيلة (٢) ٢٠٩	قره تبه (١) ١٢٠
قطر الندى (٢) ١٨٨	القرتين (٢) ١٢٧ ، ٩١
قطري بن الفجاءة (٢) ٦٣	قريش (٢) ٢٤ ، ٢٨ - ٣٠ ، ١١٨
قطر (٢) ٢٧١ ، ٢٦٩	القرلباشية (٢) ٢٢٠
القطن (١) ٩٩	قزوين (٢) ٦٩
قطنة (١) ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ١٣٨ ، ١٨٤ ، ١٥٩	قسطن بن لوقا (٢) ١٧٧
القنطري (٢) ٢٨٣ ، ٢٩٤	القسطل (٢) ١٢٥
القنقاس (١) ٣٩٦	قسطنطين (١) ٣٨٣ ، ٣٦٨ ، ٢٤٨ ، ٣٨٦
قلاوون (٢) ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٠	٣٨٦ - ٣٨٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥
قلج ارسلان (٢) ٢٢٤ ، ٢٠٥	قسطنطين الثاني (٢) ٣ ح ٢٥ ، ٢٦
قلعة بعلبك (١) ٣٤٦	قسطنطين الرابع (٢) ٤٧
قلعة حلب (٢) ٢٧٠ ، ٢٩٩	قسطنطين الكبير (١) ٣١٣
قلعة دمشق (٢) ٣١١	القسطنطينية (١) ٢٧٦ ، ٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩١ ، ٣٨٨ ، ٣٨٦
قلعة سمعان (١) ٤٠٤	٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤١١ ، ٤١٤
١٩٥ (٢)	

صفحة	صفحة
- الكاف -	
٢٦٤ ، ٢٥٧	قلعة الشوبك (٢) ٢٣١
٦٥	قلعة طرابلس (٢) ٢٣١
٣٤٧ ، ٣٣٧ (٢)	قلعة القاهرة (٢) ٢٦٧
١٢٩	قلعة كوكب (٢) ٢٢٨
٢٥٣	قلعة المرقب (٢) ٢٤٨ ، ٢٤٥
كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان (٢)	قلعة المضيق (١) ٢٦٢
٢٥٣ ، ١٣١	قلعة نبحا (٢) ٣٢٢ ، ٣٢٧
١١٦	قمباز (١) ٢٤٥
٣٩٨	قناة السويس (٢) ٣١٧
١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٥ (٢)	قنشرين (١) ٤٤٨
١٥٥	قنشرين (٢) ١٥٥ ، ١٣٩ ، ٩٩ ، ١٢
٣٥٥	١٦٤ ، ١٥٦
١٨٥ ح	القنوات (١) ٣٨٤
٢٥١	قنوبين (٢) ١٤١
كاستريدس (جزر القصدير) (١)	قوانين تيودوسيوس - كتاب (١) ٣٦٢
١١١	قوانين يستينيان (١) ٣٦٠
١٣٠ ح	قوجوق (٢) ٢٧١
٦٨	قورس (قورشي) (٢) ١٤٠
٢٨١ ، ٨٨ (١)	القوط (١) ٤٤٠
٣٣٩ ، ٣١٠	(٢) ١٢٣ ، ٧٨
١٥٨ ، ١٥٧ ، ٥٥ (١)	القوفاش (٢) ٢٦٨
١٦١	القومية العربية (٢) ٣٥٤
٢٨٣ (٢) كتاب - الكافي في الكحل	قونيا (٢) ٢٠٥
١٩٢ ، ١٩١ (٢) (أبو المسك)	القيروان (٢) ٣٨ ، ٣٩ ، ٧١ ، ٨٠
١٩٨	٨٧ ، ٢١١ ، ٢٣٦ ، ٣٥١
١٧٨	قيس - أبو (قرد) (٢) ٩٠
٣٦٩ ، ٣٣٤ ، ٣٢٨ (١)	قيس بن الملوح (٢) ١١٠
٤٩	قيصرية (٢) ١١ ، ٦ ، ١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠
٤٨	القيسية (٢) ١٦٥ ، ١٥٠ ، ٥٨ ، ٣٤٤ ، ٢١٩
٢٤٠	قيشون - حوض (١) ٢٠٣ ح .
٢٧١	قيصر (١) ٣٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٠
٢٦٣ ، ٢٤٢ (٢) الكامل بن أعدل	قيصرية (١) ٣١٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧
٢٦٤ ح	٣٩٧ - ٣٩٩ ، ٤١٣
٢٥٠ (٢) كتاب - كامل الصناعة الطبية	قيصرية فيلبي (١) ٣٤٩ ، ٢٦٥
١٤٧	القينيون (١) ٢٠٧ ، ١٩٣
١٤٧	
كاورد داغ (جبل) - انظر اللكام	

صفحة	صفحة
٣٩ ، ٤٠ ، ٦٤ ، ٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧	٣٩٩ ، ٣٩٤ (١) ٧٠ (٢)
٣٢٨ جبل (٢)	٣٣٠ كبوشية (٢)
٢٦٣ الكرملية — الاخوية (٢)	٣٢٠ الكبوشيون (٢)
٢٣٠ الكرمليون (٢)	٢٣١ كتاب الاموات (١)
١٨٨ كرنيون (١)	١٧٨ كتاب الصناعة الصغير (٢)
كرت (١) ٢٩ ، ٦٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٩٧ ، ٢٨٥	كتاب العبر وديوان البتدا والخبر لابن خلدون (١) ١١١ الكتاب المقدس (١) ١٣٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، (٢) ١٦٩ ، ١٧٢ ، ٢١٨ ، ٢٥٢
٣٤٦ (٢)	٢٥٠ الكتاب الملكي (٢)
٩٤ الكرمتي — الخزف (١)	كتاب الملوك واخبار الماضين (٢) ١٠٧
٢٨ ، ٢٦ كسروان (١)	كتاب الموسيقى الكبير (٢) ٢٠١
٢٢٧ — ٢٢٥ ، ٢٦٠ ، ٣١٠ ، ٣٢١ (٢)	كتبغا (٢) ٢٧١ ، ٢٦٩
٢٣١ كسرى انو شروان (الاول) (١) ٤١٣ ، ٤١٥	الكتبي (٢) ٢٩٣
١٧٦ (٢)	الكتان (١) ١٠٨ ، ٩٩
٤٩ كسارة (١)	الكتلثة (٢) ١١٩
١٢ كسار عقيل (١)	كراسوس (١) ٣١٠
١٩٩ كشاجم (٢)	كر كالا (١) ٣٤٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ — ٣٨٠ ، ٤٣٥
٥٥ كنمير (١)	كربلاء (٢) ٥٥ — ٥٧
كعب بن جعيل التغلبي (٢) ١٠٨ ، ١٠٩	كربوقا السلجوقي (٢) ٢٢٦
١٧٢ ، ٥٧ ، ٢٨ الكعبة (٢)	کردستان الوسطى (٢) ١٣٧
١٩٧ كفتور (١)	الكردوس ، الكراديس (٢) ٨٩ ، ١٥٣
١٣٥ كفر تبنيث (١)	الكرشوني (٢) ١٧٢
١٤٠ كفر جي (٢)	الكرك (١) ٢٧٦ ، ٤٦
٢١٤ كلاب — بنو (٢)	(٢) ٢٣٧ ، ٢٣١ ح ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ح ، ٢٧٤ ، ٢٧٦
٢١٤ ، ١٦٥ ، ٣١ ، ٢٣ (٢) كلب — بنو	٢٧٦ كركلا (١) ١٤٤
٢٨٦ ح — الكلية — المدرسة (١)	كر كيميش (١) ٢٦ ، ٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، مركز مملكة صغيرة ١٦٨ ؛ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨
٥٨ انكليبيون (٢)	٢٣٨ كركوك (١) ١٦٢
٢١٨ ، ١٨٤ ، ٦١ الكلدانية (١)	كرمان (٢) ٨٧ ، ٦٣ ، ٦٠
١٧١ اللغة (٢)	الكرمة — شجر (١) ٣٢٤
الكلدانيون (١) ٧٥ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٢ ، ٢٣٨	الكرمل (١) ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٢٣٨
١٣٩ ، ١٣٥ (٢)	
٥٦ كلوة (١)	
٣١٦ ح كلوديوس (١)	
٢٥٨ كليمنت (الاسكندري) (١)	

صفحة	صفحة
٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٢٧ ، ١٩٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٥	كليوبطرة - كليوباتره (١) ١٠٢ ، ١١٥ ، ٣١١ ، ٤٣٨ (٢)
الكنعاني ، الكنعانية (١) اللغة ١٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، الصف ٩٩ ، المنزل ٩٠ ، المجتمع ٩٤ ، المدن ٨١ ، ١٣٦ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ، الادب ١٢٤ ، الديانة ١٢٥ ، الهياكل ١٢٩ ، الحصن ١٥٨ ، الهجرة ١٧٤ ، الرقصة ٢٢٢ ، المصباح ٢٢٦ ، ٢٢٣	٢٦٧
الكنعانيون (١) ٨٤ ، ٨١ ، ٦٩ ، اصلهم ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، الاراميون يقتبسون حضارتهم ١٧٦ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣	٢٢٢
٦٥ الكهرمان (١)	٢٢٠
٢٤٥ الكهف (٢)	٦٥
١٥ كهف الشقية (١)	٤٠٥
٣٣٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ كوتشك احمد باشا (٢) ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ كوتشك كانيارجي - معاهدة (٢)	١٤٣
٣٢٢ ، ٢٧٦ ، ١٠٥ كورس (١) ، كورسيرا (١) ، كورسيكا (١) ، كورنثوس (١) ، كورش (١) ، ٢٤٢ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ ، ٢٤٥	١٣٩
١١١ كورنوال (١) ، كورنيلوس (١) ، كورنيا (١) ، كوس (١) ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ كوسيرا (قوصره) بنتلاريا الحديثة (١) ، ١٠٥ كوشار (١) ، ١٦٦ الكوشيون (١) الاسرى ٢٣٤	١١٧ ، ١١٦
	٢٥٠
	كنعان (ارض) (١) ٢٩ ، ٧٩ ، ٨٥ ،
	٢٦٧
	٢٢٢
	٢٢٠
	٢٥٢
	٦٥
	٤٠٥
	١٤٣
	١٣٩
	٣٥٢ ، ١١٧
	٢٥٣
	١١٧
	٢٦٠
	١٣٥
	١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥
	٣٠٤ ح
	٢٢٢
	١٣٦
	كنيسة اقبير المقدس (القيامة) (١)
	٤٠٦
	١٣٩
	كنيسة اقيامة (١) ٣٨٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥
	٢٢٣ ، ٢٢٢ ، ١٢٩ ، ٣
	٣٩٨
	١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٥
	١١٧ ، ١١٦
	٣٣٧
	٤٠٨
	٤٠٥
	٢٤٤
	١٣٨ ، ١٣٥
	٤١٢
	١٣٨
	١١٧ ، ١١٦
	٢٥٠
	كنعان (ارض) (١) ٢٩ ، ٧٩ ، ٨٥ ،

صفحة	صفحة
	الكوفة (١) ٤٢٧
	(٢) ٢٩ ، ٣١ - ٣٣ ، ٣٥ - ٣٧ ، خروج الحسين
	اليها ٥٥ ؛ ٦٠ - ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٥٤ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٩
	يجعلونها عاصمتهم ١٥٧ ؛ ١٦٢ ، ١٨٩
	كولونيا (١) ٣٢٩
	كولونيا جوليا اوغستا فيلكس (١) ٣٤٢
	كولونيا جوليا اغسطا هليوبوليس (١) ٣٤٣
	كوماجين (١) ٣٥٥
	كومودس (١) ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٥
	كوميدية دانتى الالهية - كتاب (٢) ٢٩٢ ، ٢١٦
	كوثراد مونفترات (٢) ٢٤٦
	الكويت - خليج (١) ٤٦
	كويتيلوس فاروس (١) ٣١٦ ح
	كي اخسار (الميدي) (١) ٢٣٨
	كيتاني (٢) ١٦ ح
	كيتيوم (١) ٢٧٩
	كيرينيوس (١) ٣٢٣ ، ٣١٦
	كيزينيوس (١) ١٢٢
	كيليكيا (كيليكية) (١) ٢٢ ، ٢٢ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٤٩ ، ٢٠٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٧١ ، ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٤٤ ، ٤١١
	(٢) ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٣٩
	كيليكى - الكيليكية (١) الابواب ٦٥ ؛ ٣٠٦
	كيوبيد (١) ٣٤٨
- اللام -	
٤٤٦	اللات (١)
٣٩٣	اللاتين (١)
٢٣٥ ، ٢٢٩	(٢)
٢٦٠ ، ٢٥٧ ، ٢٤٤ ، ٢٣٩	
٣٦٥ ، ٣٢٤	اللاتين (١) الكتاب
٢٥٢ ، ٣١٨	اللاتيني (١) الادب
١١٩ ؛ اللغة	اللاتينية (١) الحروف
٣١٣ ، ٣١٨ ، ٢٤٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧٧ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ ؛ الثقافة ٣٧٣	
٢٣٠ ، ٢٢٩	(٢) الدولة
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٢	الدول ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ ؛ الحملات ٢٢٨ ؛ اللغة ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٠ ، ٢٨٤ ؛ الولايات ٢٢٥ ، الكنيسة ١١٦ ، ١١٧
٢٧١	لاجين (٢)
٢٤٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢١٧	لاخيئ (١)
٣٣ ، ٢٦٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٦٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧	اللاذقية (١) ٣٣ ، ٢٦٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٢ ، ٢٦٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧
١٩٧ ، ١٩٥ ، ٥٠	(٢)
٢٠٣ ؛ ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢	الزلازل ينزل بها اضرارا ٢٠٣ ؛ ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢
٣١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٣٨	
٧٢	لارسا (١)
٢٧٧	لاريسا (١)
٣٨٩	لاريسة (شيزر) (١)
١٤٩	لاغاش (١)
٩	لاكش (١)
١٥٩ ، ١٢٠ ، ٢٧	لاكيش (١)
١٦ ح	لامنس (٢)
٢٧٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦١	لاوديسا (١)
٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٣١٧ ، ٢٧٧	

صفحة	صفحة
٣٥٥ ، ٣٤٠ ، ٣٣٤ ، ٣٢٦ ، ٣١٠	٤١١ ، ٣٨٩ ، ٣٣٩
٣٤١ ، ٤٥ (١) اللجا - منطقة (١)	٢٧٩ لاوديسة بيريتوس (١)
١٤٠ ح اللجون (١)	١٩٥ لاوي (١)
٤١٧ لحيان (١)	٣٧٧ لبدّة (لبتيس) (١)
٤٥٠ ، ٤٤٩ ، ٤٤٧ (١) اللخميون	لبنان (١) جزء من سورية ٣ ، ٧ ، ٩ ، ٣٠ - ٣٣ ، اعلى قمة فيه
١٩٤ لخنش (١)	٣٤ ، ٣٦ ، ٣٨ - ٤١ ، حوران
١٩٧ اللد (١)	تمونه بالقمح ٤٥ ؛ جباله ٤٨ ؛
٢٢٧ ، ٢٢ (٢)	٤٩ ، ٥٣ - ٥٥ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٥
٢١٦ لزوميات المعري (٢)	١٠٤ ، ٩٤ ، ٨٩ ، ٨٥ ، ٧٥
١٨٩ ، ١٨٤ لعش (١)	١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، جباله
٣٣ ، ٣٢ اللكام (جبل) (١)	١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ،
٥٣ (٢)	١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ،
٣٣٥ ، ٣٢٦ ابو اللع - آل (٢)	١٨٤ ، ١٨٦ ، الحديد فيه ٢٠٠ ؛
٨٠ لندن (٢)	٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢٢٦ ، ٢٩٤ ؛
١٤٧ اللوتس (عراس النيل) (١)	٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،
٢٢٥ اللوثر نجيون (٢)	٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ،
٢٧٨ لودوف فون سوخم (٢)	٣٤٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٤٤٥ ،
٣٤٩ لورنس (٢)	(٢) احراجه ٢٤ ؛ ٥٣ ، ٥٨ ،
٢٢٨ اللورين (٢)	٨١ ، ٩٥ - ٩٧ ، ١٠٠ ، ١١٥ ح،
٢٤٩ اللوسيني - الشعار (٢)	١١٦ ح ، ١٢٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
٣٢٠ لوشيس فيروس (١)	١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ،
٢١٢ ، ٢١١ (١) اللوفر - متحف (١)	١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٧ ،
٢٦٥	٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٤ ،
٧٠ لوكال (فاتح سومري) (١)	٢٥٥ ، ٢٥٨ - ٢٦٠ ، ٢٧٦ ،
٣٥٥ ، ١٨٧ لوكياتس (١)	٢٧٨ - ٢٧٩ ، جباله ٢٨٠ ؛
٣٥٧ ، ٣٥٦	٣٠٩ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
١٢٥ لوكياتوس السمساطي (١)	٣٢٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ - ٣٥٣ ،
لونجينوس - ديونيسيس كاشيوس	٣٥٦ ، ٣٥٥
٤٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٣٨ ، ٣٥٨ (١)	لبنان الشرقي (١) ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ،
١٢٤ لوياتان (١)	اقسامه ٤٤ ؛ ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٢ ،
٣٢٣ النوية (٢)	٦٥ ، ٧٥ ، ١٣٨ ، ٣١٨ ،
٢٦٨ ، ٢٦٧ لويس التاسع (٢)	(٢) ٨١ ، ٣٢٤ ،
٣١٨ لويس الخامس عشر (٢)	لبنان الغربي (١) ٤٣ ، ٥٢ ،
١٢٦ ح لويكاتوس (١)	٩٣ اللبناني - الريف (١)
٤٢٦ لويكي كومة (١)	اللبنانيون (١) اختراعهم للابجدية ٣ ؛
١٧٧ ليثة - امرأة يعقوب (١)	٥ ، القدمات ١٠٣ ، احقاد الفينيقيين
٣٩٤ ليبانوس (١)	١٠٨ ؛ ١٨١
٣٩٥ - ٣٩٣ ، ٣٣٥ ليبانوس (١)	(٢) ٢٥٨ ، ٢٧٨ ، الامراء

صفحة	صفحة
٣٥٢ وانظر برويوس	١١٦ ، ١١٠ ، ١٠٨ (١) ليبيا
٣٧٢ (١) ماركيون	١١٩ (٢)
٧٠ - ماري (عاصمة آمور) (١)	٣٥٦ ليتلون (١)
١٦٣ ، ٧٥ ، الواحها ٨٣ ، ١٦٣	٢٢٩ ليديا - مملكة قارون (١)
١٧٣	٥٥ الليديون (١)
٣٥٤ ، ٣٥٣ (١) ماريئوس	١١٤ الليريا (البانيا) (١)
١١٣ ماسرجويه (٢)	١١٤ الليريوس (١)
٢٢ ح ماكس فون اوبنهايم (١)	١٩٦ ح الليرية (١)
٢٨٧ ماكستتيوس (١)	٢٦٠ ليسسيماخوس (١)
١٢٢ ، ١١٦ ، ١١٤ (١) مالطة	٤١ الليطاني - نهر (١)
٣٤٢ ، ٣٢٩ (٢)	٣٢٩ ليفيرون (٢)
١٨٢ ، ١٦١ (٢) مالك بن انس	٢٨٣ ليفي الورخ (١)
٤٢٤ مالكو (١)	١٠٤ ليكيا (١) -
٤٢٠ مالكو (مالكوس) الاول (١)	٢٥ (٢)
٤٢٣ ، ٤١٣ (١) مالكو الثاني	١٤٤ ، ١١٧ ، ٥٠ ليو الايصوري (٢)
١٥٦ - ٧٤ (٢) مالقة	٢٧٨ ليون (١)
١١٥ ، ٩٩ ، ١١٥ ، ترميمه	٨١ ، ٧٦ ليونة (٢)
١٦٠ ح ، ١٦٤ ح ، ١٦٥ -	٤٠١ ، ٤٠٠ ليونيتوس (١)
٢٨٤ ، ١٨٥ ، ١٧٦	
٢٠٥ مانزكرت (٢)	- اليم -
٤١٠ المالوية (١)	١٧٢ ما - الهة (١)
٢٩٠ (٢)	ما بين النهرين (١) ٢٢ ، ٧١ ، ١٤٨ ،
٦٦٠ - ٦٥ ما وراء النهر (٢)	٣٩٥ ، ٣٨٢ ، ١٧٦ ، ١٤٩
٦٩ ، ٦٨	٤٤٧ ، ٤٣١ ، ٤٢٧ ، ٤١٣
٤١٠ ماني (١)	٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٨٧ ، ١٥ (٢)
١٥٧ مانيتو (١)	١٧٥ مات آريمي (١)
١١٣ ماهون (١)	١٥٩ ما تيتو (١)
١٦٦ المرقع (٢)	١٧٢ ، ١٦٣ ماتيوزا (١)
٣٨ المتأولة (١)	١١٣ ماجو (١)
١٢٠ (٢)	٢٩٨ ، ٢٥٤ مارانوس (١)
١٧٠ متحف استانبول (١)	٨٣ ، ٧١ ، ٧٠ (١) مارتو (بلاد الغرب)
١٤٤ ح متحف برلين (١)	٢٠٧ ، ١٩٣ ، ١٣٩ (٢) ماردين
١٢٥ (٢)	٣١١ مارك انطونيو (١)
١٧٠ المتحف البريطاني (١)	١٤٤ ماركوس اوريليوس (١)
١٧١ (٢)	٣٥١ ، ٣٣٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠
١٧١ متحف حلب (١)	٣٧٨ ، ٣٧٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٥
١٣٣ متحف اللوفر (١)	ماركوس فاليريوس برويوس (١)
١٤٤ ح المتحف الوطني (١)	

صفحة	صفحة
٣٠٤ ح محمد الأول (العثماني) (٢)	٢٧١ (١) مترادس (ملك البونت)
٣٠٥ ح محمد الثالث (٢)	٢٧٤ ، ٢٧٣
٢٩٧ ، محمد الثاني (٢)	٣٤٤ متصرفية جبل لبنان (٢)
٣٠٤ ح ، ٣٠٥ ح محمد بن جابر بن سنان البتاني (٢)	٣٨ المتن (١)
١٧٩	٣٢٦ (٢)
٢٠٩ محمد الحبيب (٢)	١٩٢ ، ١٨٢ التنبي (٢)
٦٠ محمد بن الحنفية (٢)	١٩٩ ، ١٩٧
٣٠٦ ح محمد الرابع (٢)	٤٥ ، ١٨ المتوسط - البحر (٢)
٣٥٠ ، ٣٠٦ ح محمد رشاد الخامس	١٥٦ ، ١٠٣ ، ٨٧ ، ٤٨
٢٠٩ ح محمد بن طغتكين (٢)	٢٥٣ ، ٣١٧ ، ٣٥٦ وانظر البحر
١٩٠ محمد بن طفيج (٢)	التوسط
١٨٩ ح محمد بن طولون (٢)	١٦٠ ، ١٠٣ ، ١٦٠ ح التوكل (٢)
١٥٥ ح محمد علي (٢)	١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٧
٣٤٢ ، ٣٤١	١٨٢
١٥٨ ح محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (٢)	٢٩٨ التوكل سليل المستنصر (٢)
١٦٢ ، ١٦١ ح محمد العلوي (النفيس الزكية) (٢)	٣١١ مترادس (١)
٦٩ محمد بن القاسم الثقفي (٢)	٢٨٢ المجد بن اي الحكم - ابو (٢)
١٤٨ ح ، ٦٤ ح محمد بن مروان (٢)	٨٧ ، ٦٤ ، ٢٩ ، ٢٧ مجدو (١)
٢١٣ ح محمد بن المستنصر (الفاطمي) (٢)	٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٢٩ ، ١٤٠
٢٧١ محمد بن المظفر الحاجي (٢)	١٤٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٣ ، ٢٩٨
٢٢٠ محمد بن نصر الكوفي (٢)	١٤٢ مجمع خلدون (٢)
٣٠٦ ح محمد وحيد الدين (٢)	٢٨٥ ، ٢١٧ المجمع العلمي العربي في الشام (٢)
٣١٨ ، ٣٠٦ ح محمود الأول (٢)	٢٨٥ ، ٢١٧
٣١٤ ، ٣٠٦ محمود الثاني	٣٧٢ مجمع نيقية (١)
٣٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٠٦ ح محمود بن طغتكين (٢)	١١٠ مجنون ليلي (٢)
١١١ ، ٤٨ ، ٢٠٠ ح المحيط الاطلسي (١)	٩٩ الجوس (٢)
٢١٢ (٢)	٢٥٠ الجوسي (٢)
وانظر الاطلسي	٣٢٩ الجيداريس - شجرة (١)
١٠٨ المحيط الجنوبي (١)	٣٥٦ الماورات - كتاب (١)
٢٧١ المحيط الهندي (١)	٣٢١ المحبي - محمد (٢)
٢٤٢ ، ٢٣٠ (٢)	١٩٨ الحمل (١)
٢٩١ محبي الدين بن عربي (٢)	٢٣٢ ، ٢٣٣ محمد النبي (١)
مختار الحكم ومحاسن الكلم - كتاب	٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٣٠

صفحة	صفحة
٣٥٠ : ٣٩٠ ، ٣٢ (١) مرج ابن عامر	٢٨٤ (٢)
٢٢ (٢)	٤١٤ ، ٣١٠ ، ٦٥ (١) المدائن
١١٨ (٢) الرجثة	٤٢٨ ، ٤٢٢ (١) مدائن صالح
٩٥ مرداس - بنو - مرداسيون (٢) ٢٢٢ ، ٢١٤	وانظر الحجر
الرداسية (٢) الدولة ٢٠٥ ؛ السلالة ٢١٤	مدائن كسرى (٢) ١٥٩ ، ١٣٦ ، ١٦١
١٤٠ ، ٥٤ - ٥٢ (٢) الردة	مدحت باشا (٢) ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥٠
٤٤٥ ، ٢٢٢ (١) مردوخ	المدرسة العادلية (٢) ٢٨٥
٢٨٩ ، ١١٢ (١) مرسيليا	مدرسة الحقوق الرومانية (١) ٣٦٠ ، ٣٩٩
٢٢ (١) مرسين	المدرسة النورية (٢) ٢٨٥
١٧٣ ، ١٦٦ (١) مرثلس الاول	مديا (٢) ١٣٠ ح
١٨٥ ح - (١) مرعش	مدين (١) ١٩٣
٥٠ ، ٤٥ (٢)	المدانيون (١) ١٩٥ ، ٥٦ ، ٢٠٧
٩١ (١) الرقا المصري	المدينة (١) ٤٥١
٢٣١ (٢) الرقب	المدينة (٢) ٤ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٣ ، اعتزال
٥٠ ، ٤٨ (٢) مرمرة - بحر	الحسين فيها ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ١٢١ ، ١٣١ ، النفس
١٩٦ ، ١٩٣ (١) مرفتاج بن رعمسيس	الزكية يصلب فيها ، ١٦١ ؛ ١٩١ ، ٢٢٧ ، ٢٦١ ، ٢٤٩
١٥٣ ، ١٣٦ ، ٦٨ ، ٦٦ ، ٣٨ (٢) مرو	المدينيون (١) ١٩٣
٣٠ ، ٢٩ ح - (٢) مروان بن الحكم	مراثوس (١) ٢٧٩
٤٩ ح ، ٥٨ ، ٦٤ ح ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١٤٨	مراثون - معركة (١) ٢٤٦
٨٨ ح - (٢) مروان بن محمد	مراد الاول (٢) ٣٠٤ ح -
١٠٢ ، ١٤٨ ، حالة الدولة عند	مراد الثالث (٢) ٣٠٥ ح
توليده الخلافة ١٥١ ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٤	مراد الثاني (٢) ٣٠٤ ح
١٤٨ ، ٥٤ (٢) المروانيون	مراد الخامس (٢) ٣٠٦ ح ، ٣١٦
٢٢٢ (١) مربب بعل	مراد الرابع (٢) ٣٠٥ ح ، ٣٠٦ ح ، ٣٣٢
١٥٦ (٢) المرية	مراسلات تل العمارة (١) ١٤٤
٣٠٢ (١) مريسة	مراكش (١) ٤٤٤
١٢٦ ح مريم العذراء (١)	(٢) ٣٢١ ، ٣٠٥
١٣٧ ، ١٣٥ (٢) وانظر العذراء	المرتفعات (١) ٢١٨ ، وانظر الاماكن
١٢٣ (١) الزامير - سفر	المرتفعات العالية
١٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٣٩٣	مرج دابق (٢) ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٠
٣٩٣ مسائل الامام احمد بن حنبل - كتاب	مرج راهط (٢) ٥٨ ، ٩
٢٧ (٢)	مرج الصفر (٢) ٢٧٢ ، ١٠

صفحة	صفحة
٢٣٢ ، ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ٢٥٩ ،	مسالك الابصار في ممالك الامصار
٢٧٠ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ،	كتاب (٢) ٢٩٥
مولده ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ،	المسالك والممالك - كتاب (١) ٦٣ ح
٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ،	المستضيء (العباسي) (٢) ٢٣٦
٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١٢ -	المستعصم (٢) ٢٦٦ ، ١٦٠
٤٤٤	المستعلي (الفاطمي) (٢) ٢١٣ ح
(٢) ٤ ، ١٣ ، ١١٦ ، ١٣٣ ،	المستنصر (الفاطمي) ٢١٣ ح ، ٢١٥
١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٥٧ ،	المسجد الابيض (٢) ١٢٨
٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧	المسجد الاقصى (٢) ١٢٨ ، ١٣١
السيحية (١) سورية مهدها ٣ ، الامم	المسجد الاكبر (٢) ١٢٩
٢٣٦ ، ٢٨٣ ، ٣٠٠ ، ٣٦٣ ،	المسجد الاموي (٢) ١٢٨ ، ١٣١ ،
٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ،	٢٦١ ، ٢٤٠
٣٧٣ ، ٣٨٣ - ٣٨٨ ، ٣٩٣ ،	مسجد خالد بن الوليد (٢) ١٣٤ ، ١٦٩
٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،	مسجد حلب (٢) ١٢٩
الكنيسة ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤٤٤ ،	مسجد الصخرة (٢) ٦٥
٤٤٨	مسجد بن طولون (٢) ١٨٧
(٢) ٣ ، ٢٢٤ - ٢٦٣ ، ٢٦٩	المسجد الكبير بعكا (٢) ٣٣٨
السيحيون (١) ٣ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،	مسجد المدينة (٢) ١٣٤
١٨٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،	مسجد مكة (٢) ١٣٤
٣٦٦ - ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٧ ،	المسجد النوري (٢) ٢٨٥
٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ،	المسعودي (٢) ١٠٧ ، ١٤١
(٢) ٥٣ ، ١٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ،	مسكين الدارمي (٢) ١١٠
٣١٨	مسلم الخراساني - ابو (٢) ١٥٣ ،
مسينا (٢) ٣٢٩	١٦١ ، ١٦٠
الشتي - قصر (٢) ١٢٤	مسلم بن عقبة (٢) ٥٧
المشرفة (١) ٧٤	مسلمة بن عبد الملك (٢) ٥٠ - ٥٢ ،
المشرفية - السيوف (٢) ٤	٧٠
مشكاة الانوار - كتاب (٢) ٢٩١	المسلمون (١) ٣ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ،
المشكينو - طبقة (١) ٩٣	٤٢٤ ، ٤٣٣
المشنة (١) ٢٣٦	(٢) ٨٠ ، عدم بنائهم المساجد
مشهد علي (٢) ٣٤	في اول عهدهم ١٢٨ ، ١٢٩ ،
المشيئة الواحدة (٢) ١٣	١٥٢ ح ، ١٦٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،
مصر (١) ٧ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٩ - ٣٢ ،	٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ،
٣٦ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٣ ،	٢٥٨ - ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٧ ،
٦٩ ، حضارتها ٧٤ ، ٧٥ ،	٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٤٩
٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٩٢ ،	المسمارية - الكتابة (١) ١٢١ ، ١٤٩ ،
٩٥ ، قبورها ١٠٠ ، ١٠٢ ،	١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٩٢
١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،	المسيح (١) ٤ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ١٨٢ ،
١١١ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،	١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،

صفحة

- ١٤٦ ، ١٦٣ ؛ الجيوش ١٤٣ ،
٢١٨ ؛ مغية ١٤٥ ؛ الحضارة
١٤٦ ؛ اللغة ١٤٨ ، ١٦١ ؛
الوثائق ١٦٣ ؛ المدونات ١٧٢ ؛
الدولة ١٩٢ ؛ الادب ٢٣١ ؛
الجيش ٢٧٠ ، ٢٧٢
المصريون (١) ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٢ ،
٩٩ ، ١٠١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ،
١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٩ -
١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ؛
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
(٢) ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٦٧ ،
٢٧٨ ، ٢٤١
مصطفى الاول (٢) ٢٠٥ ح
مصطفى باشا (٢) ٢٢٠
مصطفى الثالث (٢) ٢٠٦ ح
مصطفى الثاني (٢) ٢٠٦ ح
مصطفى الرابع (٢) ٢٠٦ ح
مصطفى كمال (٢) ٢٠٤ ، ٢٥١
مصطفى كيرولو (٢) ٢١٤
مصعب بن الزبير (٢) ٥٨
الصفاء (١) ٢٢٧ ح
مصياف (٢) ٢٤٥ ، ٢٤٦
المصريون (٢) ٨٠
الطبعة الاميركانية (٢) ٢٥٢
مطبعة الجزويت (٢) ٢٥٢
الظفر احمد (٢) ٢٧٣ ح
الظفر الاول تقي الدين (٢) ٢٦٥ ح
الظفر الثاني تقي الدين (٢) ٢٦٥ ح
الظفر الثالث تقي الدين (٢) ٢٦٥ ح
الظفر حاجي (٢) ٢٧١
مظفر - حاكم لبنان (٢) ٢٤٦ ح
الظفر علي (٢) ٢٦٥ ح
معان (٢) ٦ ، ٥
معاوية (١) ٢٤٦
معاوية بن ابي سفيان (٢) ٦ ، ١٢ ،
١٣ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٠ ، مطالبته
بثا عثمان ٢١ ؛ ٢٣ ، ٣٥ -
٤٠ ، حزمه وعلاقته مع الروم
٤٢ - ٤٦ ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ -

صفحة

- ١٢٥ ، ١٣٦ - ١٣٩ ، ١٤٣ -
١٤٩ ، تفوقها الحضاري ١٤٥ ؛
١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، الحصان
يدخل اليها ١٥٨ ؛ ١٥٩ ،
الهكسوس يدخلون اليها ١٦٠ ؛
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ،
١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، الخروج
منها ١٩٣ ؛ ١٩٥ ، ٢٠٥ ،
٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ -
٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،
٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ - ٢٥٩ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،
٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ،
٣٠٣ ، موطن البايروس ٢٠٥ ؛
٣٠٧ ، ٣١١ ، مصلر الكتن
٣٢٦ ، ٣٢٩ ، مورد البردي
٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ،
٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩
(٢) ٦ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ،
٣٠ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٦٥ ، ٧١ ،
٨٧ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ،
١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ح
١٨١ ، ١٨٥ - ١٨٧ ، ١٩٠ ،
١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢١١ ، ٢١٤ ،
٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ،
٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
٢٨٦ ، ٢٩٥ - ٢٩٩ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ،
٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ -
٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ - ٣٥٤
مصر (العليا) (١) ١٨٤ ، ٤٢٥
(٢) ١٥٤
مصر القديمة (١) ١٣١ ، ١٤٠
مصر الوسيطى (١) ١٦٠
المصري - المصرية (١) الخزف ٩٤ ؛
الاميراطورية ١٣٨ - ١٤٠ ؛

صفحة	صفحة
١٢	مفارة الاميرة (١) ، ٨٤ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٥٨ ، ٥٥
١٠	مفارة انزطية (١) ، ١٠٩ ، ١٠٧ ، ١٠٣ ، ٩٠ ، ٨٨
١٠	مفارة السخول (١) ، ١٥٥ ، ١٥٠ ، ١١٨ ، ١١١
١٣ ، ١٠	مفارة الطابون (١) ، ١٦٤ ، ١٥٧
١٦ ، ح ١٣	مفارة الوادي (١) ، ٤٩
١٨٤ ، ١٢٨ ، ح ٣٨	مفارة الغرب (٢) ، ١٤٩
٢٦٦ ، ١٠٢	مقنيزيا (١) ، ١٢٣
٣٦٤ ، ٦٤	المغول (١) ، ١٢١
٢٦٨ ، ٢٤٣ ، ١٨٥ ، ١٦٠ (٢)	معبد ابولون وديانا (١) ، ٣٣٦
٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٩٥	معبد اثار غالش (١) ، ٣٤٨ ، ٣٤٦
١٣٧	معبد جوبيتر - حلد (١) ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
٥٩ ، ٣٧ ، ٣٦ (٢)	العتز (٢) ، ١٨٢
٢٨٦ ح	العتزلة (٢) ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٦٦
٦٢	القدس - الجغرافي (١) ، ٢١٨ ، ٢١٥ ، ١٦٦
١٨٧ ، ١٣٣ ، ٥٢ (٢)	العتصم (٢) ، ١٦٠ ح ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٨١
٢٠٢ ، ٢٠١	العتمد (٢) ، ١٨٨ ، ١٨٦
٢٩٥ (٢) كتاب - مقدمة بن خلدون	معجم الادباء - كتاب (٢) ، ٢٩٤
٢٩٥ ، ٢٧٦	معجم البلدان - كتاب (١) ، ٤٤
٣٢١	مقنا (٢) ، ٢٩٤
٥	معرة النعمان (٢) ، ٢١٥ ، ٢١٧ - ٢٢٧
٢١٧	المعري - ابو العلاء (٢) ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧
١٧٥	معركة حليلة (١) ، ٤٤٨
ح ٢٦	معركة قادش (١) ، ١٦٧
الكايي - الكايسية (١) ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٣٧٥ ؛ الثورة ، ٢٦٧ ، ٣٠٢	معركة قرقر (١) ، ١٥١
الكايون (١) ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣٥٣ ، ٤١٩	معركة مجلدو (١) ، ١٤٣ ، ١٤٠
مكدونيا (١) ، ٩٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ - ٢٦١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ ، ٣٥٥	معركة مقنيزيا (١) ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٨
المكدوني - المكدونية (١) الامبراطورية	معركة اليرموك (١) ، ٤٥٠
٢٥٩ ؛ الجيش ٢٦٤ ؛ الجاليات	المعز - الفاطمي (٢) ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ح
٢٧٨ ؛ المستعمرات ٢٩٤ ، ٣١٦ ؛ المنصر ٣١٧ ؛ ٣٠٦	المعظم شرف الدين (٢) ، ٢٦٤ ح
المكدونيون (١) ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ - ٣١٨ ، ٢٩١	المعظم طوران شاه (٢) ، ٣٦٤ ح
مكران (٢) ، ٦٩	معلولا (٢) ، ١٧١
مكريثوس (١) ، ٢٨٠ ، ٢٨١	المنيون (٢) ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣
٢٥٧	المغاربة (٢) ، ٣٣٨

صفحة	صفحة
٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١	٤٥١ مكة (١)
٣١٢ ، ٣٢٧	٤٥٧ ، ٣٥٤ ، ٢٨ ، ١٨ ، ١٧ (٢)
٢٦٨ ، ٢٦٧ (٢) الممالك البحرية	١٣١ ، ١٢٩ ، ١٢١ ، ٦٥ ، ٥٩
٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦	١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٦١ ، ٢٩٢
٢٦٨ (٧) الممالك البرجية	٣٢١ ، ٣٤٢
٢٧٢ ، ٢٧٣	١٨٦ ملاطية (١)
٣٢٠ معر كيليكية (١)	٤٤٥ ملاك بعل (١)
١٥٥ ، ١٣٧ ، ١٠٧ ممفيس (١)	٤١٤ ملالاس (١)
٥٦ الملكة القديمة (١)	١٣٦ ملبار (٢)
٢٥٩ الملوك الاشرف (٢)	٧٠ ، ٦٩ ملتان (٢)
٤٢٩ مناة (١)	٣٠٧ ملقى الابحر - كتاب (٢)
٢٧٠ ، ٢٨١ ، ١٨٦ ، ١٠٢ منبج (١)	ملحم بن حيدر الشهابي (٢) ٣٣٥
١٩٩ ، ١٨١ ، ٢٢ (٢)	٣٤٠ ح
١٨٤ المنذية - اللغة (١)	٣٣٣ ملحم بن يونس (٢)
٤٤٩ النذر (١)	١٢١ ، ١٢٧ ملح (١)
٤٤٧ النذر الثالث (١)	٢٢٣ ملرمونت (٢)
٢١٨ منسى بن حزقيال (١)	ملقاروت (اله) (١) ١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٨٣
٢١٢ منشأ (منسة) بن ابراهيم (٢)	٢٥٤ ، وانظر ميكترس
١٣٧ النشوكية - اللغة (٢)	١١٣ ملقة (١)
النصور - الخليفة العباسي (٢) ١٣١	٢٦٤ الملك الافضل (٢)
١٥٨ ح ، ١٥٩ - ١٦٢	١٤٢ ، ١٤٣ الملكانيون (٢)
١٨٣ ، ١٧٦ ، ١٦٤	١٧١ الملكانية (٢)
النصور (الفاطمي) (٢) ٢١٣ ح	ملكشاه بن ابي ارسلان (٢) ٢٠٤
منصور - الامير اللبناني (٢) ٢٢٥	٢٢٦ ، ٢٠٧
منصور بن حيدر الشهابي (٢) ٢٣٥	الملوك الرعاة (١) ١٥٧ وانظر الهكوس
٣٤٠ ح	٣٤٠ الملوك الكهنة (١)
منصور بن سرجون (٢) ٢٣ ، ١٠	٤٢٥ مليتوس (١)
النصور سيف الدين (٢) ٢٦٥ ح	مليقر بن يوكرايتس (١) ٢٨٧ ، ٢٨٦
النصور عز الدين عبد العزيز (٢)	١١٣ ميكترس (ملقارات) (١)
٢٧٣ ح	٢٠٢ ، ٨٨ ممالك المدن (١)
النصور فخر الدين عثمان (٢)	٦١ ، ٥ الممالك (١)
٢٧٣ ح	١٥٥ ، ١٢٨ (٢) ح
النصور ناصر الدين (٢) ٢٢٦ ، ٣٦٥ ح	١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣
٢٠٤ ، ٢٩٨ متغوليا (١)	٢٥٢ ، ٢٥٩ - ٢٦٤ ، ٢٦٢
٢٠٣ ، ٢٤٧ (٢)	٢٦٦ ، فضلهم وآثارهم ٢٦٨
٩٠ منهائن (١)	٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦
٢٢٥ منقذ - بنو (٢)	٢٧٧ ، ٢٧٩ ، الهندسة المعمارية
٢٥٦ منيبوس ايكارو (١)	وفن الزخرفة عندهم ٢٨٦
٢٥٨ ، ١٦٧ النيطرة (٢)	٢٨٨ - ٢٩٠ ، ٢٩٥ - ٢٩٧

صفحة	صفحة
١٣	مؤاب (١) ١٥٦ ، ١٣٤ ، ٤٤
٤١٣ ، ٤١٢	١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢١٦
الكنيسة ٤٤٨ ؛ ٤٤٩	٢٠٢
المؤيد شهاب الدين أحمد (٢) ٢٧٣ ح	مؤابيون (١)
٢٧٣ ح	المواد المدنية (١) ٢٢٧
المؤيد شيخ (٢)	الموارنة (١) ١٦٥ ، ٦٤ ، ٣٨
المؤيد أبو الفداء (٢) ٢٦٥ خ	(٢) ١٤٢-١٤٠ ، ٥٣ ، ٤٠
المهدي (٢) ١٦٠ ، ١٢٠ ، ٩٩	١٧٠ - ١٧٢ ، تكلمهم
١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢١٠	السرانية ٢٢٦ ؛ ٢٢٨ ، ٢٣٥
المهدي (الفاطمي) (٢) ٢١٣ ح	٢٦٠ ، ٣٢٢ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢
المهدية (٢) ٢١١	٣٢٢ ، ٣٢٦ ، فخر الدين يتخذ
مذهب الدين ابن الدخوار (٢) ٢٨٢	منهم مستشارين ٣٣١ ؛ ٣٣٢
٢٨٣	٣٣٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥
المهلب بن ابي صفرة (٢) ٦٢ ، ٦١	الموالي (٢) ١٥٢ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٨٦ ، ٨٥
ميفارقين (١) ٢٧٣ ح	الموت الاسود (٢) ٢٧٧
المياه القلوية (١) ١٣٩	مؤنة (٢) ١٨٢ ، ٤
ميتاني (١) بلاد ١٤٢ ؛ مملكة ١٦٢ ؛	موتشي (٢) ٣٢٨
ملك ١٦٣ ؛ ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩	موتش (١) ١٦٧
عرش ١٧٢ ؛ ١٧٤	الموجب - نهر (١) ١٨٠ وانظر آرنون
١٤٧	موجز يوستنيان - كتاب (١) ٣٦١
١٦٧ ، ١٧٠	موسى (١) ٨٩ ، ٦٥ ، قيادته
١٥٧ ، ١٧٠	الهجرة الثالثة للبرانيين ١٩٠ ؛
١٦٢ ، ٣٦٩	١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٩ ،
٢٣٥	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٣٥٨ ، ٤٠٧ ،
٣٢٣	٤١٨
٣٣٩	موسى الاشعري - ابو (٢) ٣٢ ، ٣٣
٢٥٧ ، ٢١٣ ، ١٦٢	موسى العثماني (٢) ٣٠٤ ح
٢٣٩ ، ٢١٩	موسى بن نصر (٢) ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٢٩١	٧٦ - ٧٨
١٤٦	موسيرية - حضارة (١) ١٩
٢٨٧	الموسوعة الشرقية (٢) ٣٢٣
٧٩	موسوية - شريعة (١) ٢٢٩
٣٩٢	الموسيقى العربية (٢) ١٢١
١٤٨ ح	الموصل (٢) ١٣٧ ، ١٣٥ ، قبر ابي
٢١	تمام فيها ١٨١ ؛ ١٩٣ ، ٢٠٧ ،
٤٠ ، ٢٣	٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ -
٢١١ ، ١٣٤ (١)	٢٣٦ ، ٢٨٦ ، ٣٣٥
٢١٢	الموقر (٢) ١٢٥
٣٢٩	موندرل (٢) ٣٣٠
١٣١	

صفحة	صفحة
٣٩ ، ١٠	ميكاني - خرف (١) ١٢٥ ، ٩٤
٣٢٨ ، ٢٦٩	سلاح ٩٦
٣٣٧ ، ٣٣٦	ميلتوس (١) ١٢٣
٢١٤	ميموريا (١) ١٦٢
٣٩	المينا البيضاء (١) ١٢٣
٦٢	مينا ندر (اللاذقي) (١) ٣٥٣
٢٨٦	مينبوس (١) ٢٨٦
١٩٧	مينة البيضاء (١) ٩٧
النبطي - النبطية (١) ٢٠٩ ، اللغة	مينورقة (١) ١١٣
١٨٤ ، الكتابة ٤١٧	مينوس (١) ٢٨٥ ، ١١٤
١٤٦	المينوسيون (١) ١٠٢
١٤٤ ، ٦٥ ، ٥	
فتوحاته في سوريا ١٥٥ ، ٢١٩	
تدميره مملكة يهوذا ٢٢٠	
٢٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤	
٢٥٨ ، ٢٥٤	
النبي (محمد) (١) ٤٥١	
١١ ، ٧ ، ١٠	
٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٩	
٤٦ ، ٤٧ ، ٨١ ، ٩٨ ، ٩٩	
١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٥١	
١٥٣ ، ١٦٨ ، ٢٢٢ ، ٢٦١	
وانظر محمد	
نجد (٢) ١٧ ، ٨٧ ، ٩٥	
١١ ، ٢٦١	
النجد (٢) ٣٤	
نجم الدين الغزي (٢) ٣٢١	
نجم الدين (الملك الصالح) (٢) ٢٤٢	
النجمة القطبية (١) ١٠٥	
نحميا (١) ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٨	
٢٤٣ - ٢٤٥	
نخاو - الفرعون (١) ١٠٨	
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - كتاب (٢) ٢٩٥	
النخيل - شجر (١) ٣٢٤	
نرفا - الامبراطور (١) ٣٢٠	
نرويحي - اسطول (٢) ٢٣٠	
النساطرة (١) ٣٩١	
(٢) ١٧١	
	ميكاني - خرف (١) ١٢٥ ، ٩٤
	سلاح ٩٦
	ميلتوس (١) ١٢٣
	ميموريا (١) ١٦٢
	المينا البيضاء (١) ١٢٣
	مينا ندر (اللاذقي) (١) ٣٥٣
	مينبوس (١) ٢٨٦
	مينة البيضاء (١) ٩٧
	مينورقة (١) ١١٣
	مينوس (١) ٢٨٥ ، ١١٤
	المينوسيون (١) ١٠٢
	- النون -
	ناثلة بنت الغرافصة (٢) ٣١
	الناطقة الذبياني (١) ٤٥٠
	نابلس (١) ٢٧٨ ، ٢١٥ ، ١٥٩
	٣٨٩ ، ٣٧٢
	(٢) ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٢٢٩
	٣٣٦ ، ٣٢٩ ، ٣١١
	نابلي (٢) ٣٢٩
	نابوبولاصر (١) ٢٣٨ ، ٢١٩
	نابولي (١) ٤٢٥ ، ٣٨٩ ، ٣٨٤
	نابوليون (١) ٢٤٦ ، ٢١٧ ، ٦٥ ، ٥
	(٢) ٢٤٠ ، ٣٣٨ ، ١٨٧
	نابونيدس (١) ٢٣٩
	نادر الخازن - ابو (٢) ٢٣١
	نارام (١) ١٧٣
	نارام سين (١) ١٥٠
	الناردين - شجرة (١) ٣٢٩
	الناصر (٢) ٢٧١ ، ٢٦١ ، ٢٦٠
	٢٨٦ ، ٢٧٦
	الناصر صلاح الدين (٢) ٢٦٤ ح ، ٢٦٥ ح ، ٢٨٩
	الناصر (العباسي) (٢) ٢٥٢
	الناصر بن قلاوون (٢) ٢٧٢
	الناصر - محمد (٢) ٢٧٣ ح ، ٢٧٣
	الناصر - ناصر الدين فرج (٢) ٢٧٣
	ح ، ٢٩٥ - ٢٩٧

صفحة	صفحة
٣٢١	نسيم الحلبي (٢)
١٤٤	نقريتي (١)
٢٨٣	النقيس - ابن (٢)
١٠٧ ، ٤٠	الثقب (١)
١٩٥ ، ١٩٤	نقفور (٢)
١٢٣	نقباد (١)
٤٢٧	النماره (١)
١٤١	نمرون - ابن (٢)
٣٤٧ ، ٣٤٢	النمسا (٢)
١٤٣ ، ١٤١ ، ١٣٩	نهارين (١)
١٧٦ ، ١٦٣ ، ١٦٢	
١٥٣	نهادند (٢)
١٣٠ ، ١٢٦ ، ١٢٠ ، ٩	نهر ابراهيم (١)
١٢	نهر الجوز (١)
	نهر العاصي - انظر العاصي
٦٥ ، ٣٣ ، ٣٢	النهر الكبير (١)
١٤٤ ، ٣١ ، ١٢ ، ٩	نهر الكلب (١)
٢١٩ ، ١٥٦ - ١٥٣ ، ١٥١	
٣٢٨	(٢)
	نهر النيل - انظر النيل
١٦٦	نهر الهاليس (١)
١٤٩ ، ٢٣	التهرين - بلاد (١)
١٧٧	التواميس (كتاب) (٢)
٢٤٥	التوبة (١)
٢٣٦	(٢)
٢٥٢	التوبوية (٢)
٦٦ ، ٥٤	نوح (١)
٢٨١ ، ٢٤١	نور الدين (٢)
٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤	
٢٧١	نور الدين ابيك (٢)
٢٠٨ ، ٢٣٤ - ٢٤٦ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢	نور الدين زكي (٢)
٢٦٥ ح	نور الدين شاهنشاه (٢)
٢٥٥	نورمنديا (٢)
٢٢٦	النورمندية - الحملة (٢)
٢٢٥ ، ٢٢٤	النورمنديون (٢)
٢٢٧ ح	
٢٩٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤	النوريون (٢)
٤١٢ ، ٣٩٥	نسطوريوس (١)
١٣٥	(٢)
٤١٢ ، ٤١١	النسطورية (١)
١٣٨ ، ١٣٥	(٢) الكنيسة
١٢٣	نسيب الانشاد - سفر (١)
٩٨ ، ٨٠ ، ٥٠ ، ٣ ح	النصاري (٢)
	ممارستهم اعمالهم العادية في
	ظل الاسلام ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٢٢ ،
	١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
	١٦٤ ، ١٦٧ - ١٧٠ ، ١٧٦ ،
	١٧٨ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ،
	اضطهادهم زمن الحاكم ٢٢٢ ،
	٢٢٥ - ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ،
	٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
	٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ،
	٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٣١٢ ،
	٣١٥ ، ٣٣٠ - ٣٣٢ ، ٣٣٦ ،
	٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
٢١٦	نصب مؤاب (١)
١٥٣ ، ٦٩ ، ٦٨	نصر بن سيار (٢)
٤٥٢	النصرانية (١)
١٩٣ ، ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١١٦	(٢)
٣٤٦ ح	نصري فرنكو (٢)
٢٧٧	نصيبين (١)
٢٩٨ ، ٢٧٧ ، ١٠٧	نصيبين (١)
٤١٢ ، ٤٠٩ ، ٢٩٩	
١٧٤ ، ١٦٠	(٢)
٣٢٢ ، ٣٢١	النصرية (١) يلجأون الى جبال
٦٤ ، ٣٥	النصرية (٢) جبالها
٢٢١ ، ٢١٩ ، ١٢٠	(٢)
٢٥٩ ، ٢٤٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥	
١٥	النطوفي ، النطوفية (١) الدور
١٦ ، ١٥	٥٥ الحضارة
١٧	النطوفيون (١)
٢٨٤	نظام الملك (٢)
٢٨٤	النظامية (٢)
١٨٦	نعمان السوري (١)
٤٤٩	النعمان بن المنذر (١)
٤٣٦ ح	نعم - حاكم لبنان (٢)

صفحة	صفحة
١٩٢ هاجر — الجارية (١)	١٧٣ نوزي (١) ١٦٢ ، وثائق ١٧٢ ؛ ١٧٣
٣٣٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠ (١) هادريان	٣٢٣ نوبا تراجانا بصرى (١)
٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢	١٤٦ نوكراتس (١)
٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٤٣٥	٣٧٤ نوميديا (١)
٤٣٥ هادريانا بالميرا (١)	٣٥٨ ، ٣٥٧ نوميديوس (١)
١٦٠ ح. الهادي (٢)	٣٧٨ نيابولس (نايلس) (شكيم) (١) ٣٧٨
٢٣٠ اسرته هارون (١)	٣٤٩ نياندرتالي — الانسان (١) ١٠
١٩٠ ، ١٨٩ هارون بن خمارويه (٢)	٣٨٠ نيتوكريس (١)
٩٩ ، ٥١ ، ٣٤ (٢) هارون الرشيد	٣٤٢ نيجر (١)
١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥	٣١٩ ، ٢١٨ نيجو (فرعون مصر) (١) ٢١٩
١٦٨ هازور (١)	٢٣٨ نيرون (١) ٣١٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧
١٥٩ ، ٨٩ الهاسمونية (١)	٤٢٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٦
٢٦٨ الاسرة الهاسيديم (١)	٦٩ النرون (٢)
٣٧٥ هاشم (٢) ٣٠ ، ١٥١ ح. ١٥٨ ح.	٦٨ نيسابور (٢)
٣٩ الهاشميون (٢)	٢١٤ نيسابور — جبال (١)
٢٦٦ ، ١١٦ ، ١١٣ هاتيبال (١)	٢٥٦ نيقفوريوم (١)
٣٧٩ هبل (١)	٣١٢ نيقولاوس الدمشقي (١) ٣٢٤
٤٢٩ الهدي الصيادي — ابو (٢) ٢٤٩	٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ نيقية (١) ٣٨٧ ؛ ٤١١
١٣٦ ، ٢٨ هراة (٢)	٢٢٤ ، ٢٠٥ نيقيا (ازنيق) (٢)
٤٥٠ هرقل (١)	٢٧٨ ، ٢٥٩ نيكاتور (١)
٢٥ ، ١٣ ، ١١ ، ٧ ، ٦ ، ٣ (٢)	٣٩٣ نيكوميديا (١)
١٤١ هرمس (١)	١٠٨ ، ١٠٧ ، ٦١ ، ٣٢ ، ١٠٨ النيل (١) ٣٢٩
٤٤٥ الهرمل (١)	٢٦٤ ، ٢٥٥ ، ١٨٦ ، ٨١ (٢) ٢٦٨
٢٧٢ هرمياس (١)	١٥٥ ، ٧٥ ، ٧٢ ، ٢٥ نينوى (١) ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٨
٣٠٦ الهسموني (١)	٤٠٨ ، ٢٥٦
٢٧٠ البيت هسيود (١)	١٥٩ (٢)
٣٥٦ هشام بن عبد الملك (٢) ٦٤ ، ٦٨	٩٠ ، ٣٥ ، ٥ نيويرك (١)
١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠	
١٥٦ ، ١٥٥	
١٠١ ، ٩٠ ، ٥٥ (١) الهكسوس	
١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠	
١٥٧ ، ١٦١ ، فن العمارة	
١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٥٩ عندهم	
٢٠٣ ، ١٩٣ ، ١٩٠ ، ١٦٩	
	— الهاء —
	١٣٧ هاتور (الاهة مصرية) (١)

صفحة	صفحة
الجواهر ٣٣٠ ، ٤١٢ ، ٤٣٤	الهلل الخصب (١) ٦ ، ٤٦ ، ٦٣ ،
(٢) ٦٩ ، ٧٠ ، ١٣٦ ، ٢٠١ ،	١٨١ ، ١٦١ ، ٦٩ ، ٦٧
٢١٨ ، ٢٥٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،	(٢) ١٧ ، ٩٥ ، ١٧٤
٣٣٤ ، ٣٤٨	الهلبيوت (١) ٢٤٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ،
هندكوش - جبال (١) ٢٦٤	٤٤١
الهندي الايراني - الفرع (١) ٢٤٠	(٢) ٢٠٥
الهندية الاوربية - الشعوب (٢) ٣٠٣	هلل (١) ٢٣٧
الهندية - الفيلة (١) ٢٩١ ، سائق	الهلستي - العصر (١) ٩٠ ، ٢٧٥ ،
٢٩٢	٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥
هنغاريا (١) ٤٤٤	الهلستي ، الهلستية (١) الثقافة
(٢) ٣٠٥	٢٥٦ ، الحضارة ٢٧٥ ، المدن
الهنغاريون (٢) ٣٢٨	٢٧٧ ، المملكة والثقافة والبقايا
الهنود (١) ٤ ، ١١٨ ، ١٨٣	٢٧٨ ، المجتمع ٢٩٠ ، العالم
(٢) ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٣٣ ، ٢١٥	٣٠٠ ، الدول ٣٠١ ، الشرق
الهنود الاوربيون (١) ٢٨ ، ٥٥ ، ٦٢ ،	والممالك ٣٠٦ ، مملكة ٣١٢ ،
١٥٧ ، ١٦٢ ، العزاة ١٦٦ ،	الهلستيون (١) ٢٩١ ، ٢٩٧ ، الملوك
٣١٣ ، ٣٣٣	٣١٥
الهنود - الايرانيون (١) ١٥٧ ، ١٦١	الهلينية (١) الحضارة ٢٧١ ، ٢٨٤ ،
هنوك (١) عيد ٢٦٨	٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
هوداس (١) ٣٥٢	٢٧٦ ، انتشارها ٢٧٨ ، ٢٧٩ ،
هوراس (١) ٣٥٢	٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ، ٣٩٤ ،
هوشنك ملك اسرائيل (١) ٢١٣ ، ٢٣٥	٤٢٠
هوفرع (١) ٢٢٠	(٢) الحضارة ١٤ ، ١٨
هولاكو (٢) ١٨٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩	الهلينية الرومانية (١) ٣١٣
هوميروس (١) ٩٦ ، ١١١ ، ٣٥٦ ،	الهليني التبطي - الفن (٢) ١٢٣
٣٥٨	الهلينية الوثنية (١) ٣٨٦
هونوريوس (١) ٣٨٨ ، ٣٩٢	الهلينيون (١) ٢٩١
هيبو (١) ١١٠	هليوبولس (١) ٣٢٧ ، اشتهارها
هيبوس (١) ٣٥٠	بعازفي الناي ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
هيرابولس (١) ١٨٦ - ١٨٨ ، ٣٥٥ ،	٣٤٣ - ٣٥١ ، ٣٧٠ ،
٣٧٠ ، ٤١٣ ، ٤٢٩ ، ٤٤٦ ،	٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠١ ،
وانظر منبج	٤٢٩
هيراكلس (١) ١٤٧	همدان (١) ٢٥٧
هيركانوس (١) ٢٧٠ ، ٣٠٩ ، ٣١١	(٢) ١٨١
هيركانوس الثاني (١) ٣١١	هميلقار (١) ١١٣
هيركوليس اي مضيق جبل طارق (١)	ايند (١) ٤ ، ٣٥ ، ٥٥ ، ٩٩ ، ١٦١ ،
١٠٨ ، اعمدة ١١١ ، ١١٦ ،	١٨٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ،
١١٣ ، ١٢٤ ، ٢٥٤	٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٩٧ ،
هيرودتس (هيرودوتس) (١) ٦٢ ،	٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، منها

صفحة	صفحة
٧	٣٥٦ ، ٢٤٥ ، ١١٥ ، ١٠٨
٠ ٢٥٤ ، ١٥٥ (١) وادي العاصي	٣١٣ ، ٣١٢ (١) هيرودس انطياس
٢٥٦ ، وانظر نهر العاصي	٣٢٤ ، ٢٠٩ (١) هيرودس الكبير
٠ ٤٢٢ ، ١٩٣ ، ٤١ (١) وادي العربية	٣٤٢ ، ٣٣٩
٤٢٢	هيرودس الملك (١) ٣١١ ، ٣١٢ ،
٦ وانظر العربية	٤٢٢ ، ٣٧٦ ، ٣١٨ ، ٣١٤
(٢) وادي غزة (١)	٣٩٦
١٦١ وادي الفرات (١) حضارته	هيرودية (١)
١٤٩ وانظر الفرات	الهيرودية - الاسرة (١) ٢٧٨ ، ٣٤٩
وادي موسى (١) ٤١٨	هيروغليفية (١) رموز ومصادر ١١٨ ،
وادي النطوف (١) ١٥	الكتابة ١٢١ ، ١٧٠ ؛ اللغة
وادي نهر الكبير (١) ١٣٨ وانظر النهر	١٦٨
الكبير	الهيروماكس مضيق (١) ٢٨٥
وادي النيل (١) ٥٤ ، ٨٨ ، ١٣٧	هيسود (١) ١١١
١٤٨ وانظر النيل	هيكل اورشليم (١) ٢١٤
واسط (٢) ٦٣ ، ٦٢	هيكل سليمان (١) ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
١٦٢ واشوكاني (١)	٢٢٢
٠ ٢٤٦ حاكم لبنان (٢) ٢٤٦ ح	١٢٩ (٢)
١١٥ ، ١١٤ واصل بن عطاء (٢)	١٣٢ هيكل الشمس (٢)
٢٩٣ الوافي بالوفيات - كتاب (٢)	الهيكلين (٢) ٢٣٧ ح ، ٢٤٣ -
١١ الواقصة (٢)	٢٥٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦
١٩٩ الواواء (٢)	٤٠٤ هيلاريون (١)
٩٩ وثائق نوزي (١)	٣ ح هيلانة (٢)
٤٢٦ الوجه (١)	٢٨٨ هيلانة (ام قسطنطين) (١)
٩٣ وضاح اليمن (٢)	١٠٢ هيلين (الملكة) (١)
٢٨٤ الوفاء - ابو - مبشر بن فاتك (٢)	
٢٩٤ ، ٢٩٣ (٢) وفيات الاعيان - كتاب	
٢٢٤ ولاخيا (٢)	
٢١٤ الولايات المتحدة (١)	
٣٤٥ ، ٢٥٢ (٢)	
٤٠٣ ، ٣١٩ الولاية العربية (١)	
١٣٣ ، ٦٤ الوليد (٢)	
٥٠ ، ٤٩ ح ، ٥٠ الوليد بن عبد الملك (٢)	
٥٤ ، ٦٦ ، حملاته على	
البيزنطيين ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ،	
٨٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،	
عدد الجيش في زمنه ٩٦ ؛	
٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٢١ ،	

صفحة	صفحة
٢١٥ ، ٢٠٨	١٢٢ ، بناؤه قصر عمرة ١٢٤ ؛
٢٣٣ ، ٢١١ ، ١٨٠ (١)	١٢١ ، ١٣٤ ، ١٤٨
٤٤٥	الوليد بن يزيد (٢) ٦٤ ح. ٦٨ ،
ح ١١	اغتياله ٦٩ ؛ ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،
٢٨٥ ، ١٧٧ ، ٥٠	١١١ ، انشاؤه اول مؤسسة
٢٦ ، ١٤ ، ١١	صحبة في الاسلام ١١٣ ؛
١٦٦ ، ٧٤	١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠
٢٤٤ ، ٣٣٥ (٢)	وليم الصوري (١) ٦٢
يزيد بن أبي سفيان (٢) ٦ ، ٧ ، ١٢ ،	(٢) ١٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٣	٢٥٧ ، ٢٦٣
يزيد بن عبد الملك (٢) ٥٤ ، ٦٤ ح.	وليم الطرابلسي (٢) ٢٦٣
٩١ ، ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	وليم القيصر (٢) ٢٤٨
١٤٨ ، ١٢٥	وليم كاكستون (٢) ٢٨٤
يزيد بن معاوية (٢) ٢٣ ، ٤١ ، تعيينه	ونآمون (١) ١٩٦ ، ١٤٥
وليا للعهد ٥٤٢ ؛ ٤٦ ، ٤٧ ،	وهب اللات (١) ٤٣٨ ، ٤٣٩
عهده يحفل بالفتن الاهلية ٤٩ ؛	وهب بن منبه (٢) ١٠٧
٥٥ - ٥٨ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ،	الوهابية (٢) ٣٣٨
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١	الوهايون (٢) ٢٦١ ، ٢٤١
يزيد بن الوليد (٢) ٦٤ ح. ٨٩ ، ١٤٨ -	دولي (١) ١٢٢
١٥٠	
١٤١	
يستنيانوس الثاني (٢)	
يسوع - انظر المسيح	
٣٣٠	
١٩٤ ، ١٩٠ ، ٨٩	ياغي سيان (٢) ٢٢٦
٤١٣	يافا (١) ٢٩ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، ٢٠٦ ،
١٧١ ، ١٤٠ - ١٢٧ ، ٤٠ (٢)	٢١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٤٩ ، ٣٧٥ ،
١٩٢ ، ١٩١ ، ١٧٧ ، ٨١ (١)	٢٨٩
يعقوب البرادعي (١) ٤١٣ ، ٤٤٨ ،	(٢) ١٥٥ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
١٢٨	٢٧٨
١٦٠	ياقوت (١) ٤٣ ، ٦٣
١٢٨	الياقوصة (٢) ١١
٤١٢	ياكين ايل (١) ١٥٥
١٣٨	ياهو بن عمري (١) ١٥١ ، ١٨٠ ،
٣٤٩	٢١١
٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٣ (١)	بينة (١) ١٤٦٠
٣٩٣	البيوسيون (١) ١٥٧ ، ٢٠٤ ،
١٦٦ مملكة (١) ٧٤ ،	بتيمة الدهر - كتاب (٢) ١٩٧
٣٤١ ، ٣٠٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٧ (١)	يحيى بن غدي (٢) ١٧٧
٤٤٦	يحيى بن مامويه (٢) ١٧٦

- الياء -

صفحة	صفحة
٢١٣ ، مملكة ٢١٥ - ٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥	(٢) ١٧ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢
٢٦٨ يهوذا بن ماثتياس (١) ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ٤٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، ٢٣٠	اليمنية (٢) ١٥٨ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤
٢١٩ ، ٢١٨ (١) يهويا قيم ، ٢٤٤ ، ٢١٩ (١) يهوياقيم ، ١٣٣ (٢) يوحنا ، ١٤٤ ، ١٧ ، ١٠ (٢) يوحنا اللمشقي ، ١٤٤ ، ١٧ ، ١٠ (٢) يوحنا زمبيس (ابن الشمشقيق) ، ١٩٥	اليمنيون (٢) ٨ ، ٣٢٢ ، ١١٦ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ١٨٠
٣٩٤ ، ٣٧١ (١) يوحنا فم الذهب ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٩ - ٤١١ ، ٤١٤	اليهود (١) ٣ ، ٢٨ ، ١٣٠ ، ١٦٥ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ - ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥
١٤٠ يوحنا كريستم (٢) ، ١٤١ ، ١٤٠ يوحنا مارون (٢) ، ٤٢٢ يوحنا المعمدان (١) ، ٢٠٢ ، ٢٦٩ يوحنا هيركانوس (١) ، ٢٩٦ يودوكسيا (١) ، ٧٨ يوديس الاكوتيبي (٢) ، ٧٩ يوديس - اللوق (٢) ، ١٦٢ ح. يورغان تبه (١) ، ٢٢٢ يورك (١) ، ١٢٣ يوسبيوس (١) ، ٢٩١ ، ٢٤٨ ، ٤ يوستنيان (١) ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ - ٤١٥ ، ٤٤٧ ، ٤٤١ ، ٤١٥	(٢) ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٢٢ ، ١٤٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٥٣ اليهودي (١) ، ٢٩٢ ، الجيش ٢٥٣ ، الكاهن ١٠٢
١٣١ ، ٧. (٢) يوستنيانوس الثاني (٢) ، ٥٤ يوستين الشهيد (١) ، ٣٧٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٣٠	اليهودية (١) سورية مهدها ٣ ؛ ٢٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٩٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣١٤ ، ٤٠٥ ، ٤٤٤ ، ٤٥٢ ، ٤٤٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ١٥٦ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٢٩٥ ، ٢٧٣ ، ٢٤٢ ، ١٨٤ ، ٢١٤
٩٩ يوسف - ابو (٢) ، ٢١٣ ح. يوسف بن الحافظ (الفاطمي) (٢) ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ يوسف سيف (٢) ، ٢٥٥ ، ٢٤٦ يوسف كرم (٢) ، ٣٦٧ يهوذا (١) ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، مملكة قبيلة ٢٠٨ ، ٢١١ ؛	يهوذا - اخو المسيح (١) ، ٣٦٧ ، ١٩٧ ، ١٨١ ، ١٩٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ؛

صفحة	صفحة
١٣٣ ، ١١٣ ، ١٠٤ ، ٨٣ (٢)	يوسف بن ملح (٢) ٢٣٥ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٠
٢٢٥ ، ١٧٤ ، ١٣٩ ، ١٣٨	يوسف بن يعقوب (١) ١٦٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣
٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٧٣	يوسيبوس (١) ٣٥٣ ، ٣٦٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ٣٩٧
اليوناني ، اليونانية (١) اللغة والفلسفة	يوسيفوس (١) ١٥٣ ، ٢٤٥ ، ٢٦٩ ، ٢٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٥٣ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦
والافكار ، الفن ٩٦ ، اللغة	يوشيا (١) ٢١٨ ، ٢١٩
٨٩ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٨٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٥٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ، الحروف ١١٩ ، المستعمرات ١٥٦ ، ٢٨١ ، الخزف ٢٤٩ ، المدن ٢٥٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٣١٨ ، الجاليات ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٣١٨ ، اللباس ، الجنسازيوم ٢٦٧ ، الموترات الالهة ٢٧٨ ، الكتابات ٢٧٩ ، الحضارة ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٣ ، الثقافة ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، الدول ٢٥٣ ، المعابد ٢٥٦ ، العبادة ٣٠٠	يوصافات الهندي (٢) ١١٧
اليونانية - اللغة (٢) ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، الفلسفة ٢٠٠ ، الكنيسة ١١٦ ، ١١٧	يوكرائس (١) ٢٨٦ ح
اليونانية الرومانية (١) المستعمرات ٣٣٢	يوليان (١) ٣٨٨ ، ٣٩٤
اليونانية اللاتينية (الحضارة) ٢٨٦	يوليانس (١) ٣٣٧
يونس بن فخر الدين (٢) ٣٢٩	يوليوس افيتوس (١) ٣٨٠
يونس بن قرمماز (٢) ٣٣٣ ح	يوليوس باسيانس (١) ٣٨٠
	يوليوس قيصر (١) ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٣٤ ، ٤٢٠
	يوم الجمل (٢) ٣١
	يونان (١) ٢٢٢
	يونان - الكاهن الاعظم (١) ٢٩٦
	اليونان (١) ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٦ ، ٣٦٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٢٥

